الطبعة الشرعية
بإذن من الورثة

لفضيلة الشيخ
عطية صقر

موسوعة
أحسن الكلام
في الفتاوى والأحكام

حظيت هذه الطبعة بتصحيحات
وتنقيحات بالغة الأهمية

الجزء الأول
العقائد

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية بعابدين القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

موسوعة أحسن الكلام
في الفتاوي والأحكام
٧ أجزاء
فضيلة الشيخ / عطية صقر
الطبعة الأولى لمكتبة وهبة
١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م
((طبعة مزيدة ومنقحة عن الطبعات السابقة))
مراجعة وتصحيح وفهرسة
الشيخ / سعد حسن محمد
المدرس بالأزهر الشريف
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -
عابدين - القاهرة
الجزء الأول : العقائد
٤٠٨ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠١١/١٥٦٣
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
977-225-283-X



دار الكتب والوثائق القومية
دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

صقر، عطية.
موسوعة أحسن الكلام في الفتاوي والأحكام/ لعطية صقر.
- القاهرة : مكتبة وهبة، ٢٠١١
مج ١، ٢ ؛ ٢٤ سم
المحتويات : العقائد
تدمك ٩٧٧ ٢٢٥ ٢٨٣ X
١- الفتاوى الشرعية
٢- علم الكلام
أ- العنوان

ديوي ٢٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين ، أوضح للناس معالم الدين ، وشرع من الأحكام ما بها مخرجهم من الظلمات إلى النور ، وجعل في الدين حَكماً فصلاً وُضحت به مصالح الخلق ، سبحانه خلق فسوى وقدر فهدى ، والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين ، وحجة على الناس أجمعين . ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] ... وبعد

كان الناس يستفتون رسول الله ﷺ ثم من بعده الصحابة ، ومن بعده التابعين ، ثم نشأت المذاهب الفقهية المشهورة ، ومن بعدهم العلماء المجتهدون يفتون الناس وفق واقعهم المعاصر مستلهمين كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ ، وعمل الصحابة .

قامت دار الغد العربي عام ١٩٩٤ بطبع كتاب « أحسن الكلام في الفتاوى والأحكام » في شكل كتب دورية لا تضم الفتاوى المتجانسة تحت المجموعة التي تناسبها كالعقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والأسرة .. وذلك لطول الزمن وشوق القارئ إلى معرفة الحكم.. وقد كان كل جزء شاملاً لعدة فتاوى من المجموعات المختلفة .

ثم قامت إحدى دور النشر بطبع هذه الفتاوى أربعة أجزاء في مجلدين بصورة لم تنل رضى الشيخ ـ رحمه الله ـ ولأنه كان سمحاً لم يتخذ أي إجراء .. واكتفى أنه بعد انتهاء مدة التعاقد ألا يسمح لهذه الدار بطبع الكتاب مرة أخرى .. وانتهى التعاقد لسببين أولهما وفاة الشيخ في ٩ ديسمبر ٢٠٠٦م ، ثانيهما أن العقد ينتهي في فبراير ٢٠٠٧م.

ثم عهد الشيخ ـ رحمه الله ـ إلى مكتبة وهبة بطبع الفتاوى الجديدة التي لم تنشر من قبل .. والتي أفتى بها بعد صدور الطبعتين السابقتين في جزء مستقل ، قامت المكتبة بإعداده طبقاً لأبواب الفقه ، وصدر عام ٢٠٠٦م .

وعكف الشيخ ـ رحمه الله ـ ورتب الكتاب كاملاً طبقاً لأبواب الفقه بعد أن أضاف إليها الفتاوى الجديدة التي لم ترد في أي طبعة سابقة ، وأضاف إلى بعضها ما لابد من إيضاح

فضلاً عن الفتاوى التي لم تُطبع في أي دار نشر وتلافى السلبيات والأخطاء التي كانت في جميع الطبعات السابقة مما أثر على الفهم المقصود من الفتاوى للقارئ .

أما لماذا هذه الطبعة «الأولى لمكتبة وهبة» والتي نقدم لها الآن ؟

أولاً : لنفاد الطبعات السابقة كما ذكرت .

ثانياً : قيام ورثة الشيخ – رحمه الله – بتنفيذ وصيته بطبع هذه الطبعة المزيدة والمنقحة والمصححة بالمكتبة .

ثالثاً : لقد قامت المكتبة بتخريج الإحالات بالهامش بدلاً من كونها في متن الكتاب تسهيلاً على القارئ للوصول إلى الحكم الشرعي الذي أراد الشيخ إيضاحه . وقد راعينا جميع الملاحظات التي أبداها فضيلته قبل وفاته على جميع الطبعات السابقة .

وشاءت إرادة الله أن يظهر هذا العمل المتكامل بعد وفاة فضيلة الشيخ .. وقياماً بواجب مكتبة وهبة في نشر الثقافة الإسلامية لإنقاذ المسلمين مما يعانونه من أزمات ، التزمت بالمنهج الذي وضعه الشيخ في طبع «موسوعة أحسن الكلام في الفتاوى والأحكام» .

وإننا إذ نقدم للعالم الإسلامي هذه الموسوعة الدينية ، التي تضم كثيراً من الفتاوى العصرية الهامة التي يحتاجها المسلمون في هذه الأيام التي كثرت فيها الآراء وتضاربت الأقوال ، بسبب غياب المنهج الإسلامي الحكيم ، الذي لايوافق أبداً على التعصب لرأي اجتهادي ، وهو المنهج الذي سار عليه عمالقة الفكر الإسلامي منذ مئات السنين ، حيث أثر عنهم هذا القول الحكيم : رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب .

وقد رأت «مكتبة وهبة» في الفتاوى التي حمل أمانتها فضيلة الشيخ عطية صقر - رحمه الله - ونشرتها أهم المجلات الدينية في مصر وغيرها ، وأذاعتها أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية سنوات طويلة - رأت أن لها صدى عظيماً في جميع الأوساط الدينية قاصيها ودانيها ، لما تميزت به من الدقة والأمانة وعرض الوجه المشرق للشريعة والتعايش مع الناس فيما يفكرون من مسائل الدين وربطها بأحداث العصر .

هذا هو الكتاب ، أما الكاتب – رحمه الله - فعلى الرغم من معرفة الكثيرين لشخصيته وجهوده ، وعلى الرغم من زهده في الأضواء التي كانت تلاحقه فلابد أن نسجل في هذا العمل لمحات من سيرته ، وذلك للتاريخ ، ولتوضيح الصورة أمام القارئ ليطمئن أكثر وأكثر على ما يُقدم إليه من معلومات في أخطر مجال للبحث وهو االفتاوى .

السيرة الذاتية :

لقد ولد فضيلته في قرية «بهنا باي» مركز الزقازيق شرقية في يوم الأحد ٤ من شهر الله المحرم سنة ١٣٣٣ هجرية «٢٢ من نوفمبر سنة ١٩١٤ ميلادية ٢٣ من هاتور سنة ١٦٣١ قبطية».

وحفظ القرآن الكريم وسنه تسع سنوات وجوَّده بالأحكام وسنه عشر سنوات في كتَّاب القرية ، وبعد التحاقه بالمدرسة الأولية التحق بمعهد الزقازيق الديني سنة ١٩٢٨م وتخرج في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر وحصل منها على الشهادة العليا سنة ١٩٤١م واختار تخصص الوعظ فحصل منه على شهادة العالمية مع إجازة الدعوة والإرشاد سنة ١٩٤٣م وكان ترتيبه فيهما الأول .

ثم عين فور تخرجه إماماً وخطيباً ومدرساً بوزارة الأوقاف ، وتسلم عمله بمسجد عبدالكريم الأحمدي بباب الشعرية بالقاهرة في ١٦ من أغسطس سنة ١٩٤٣م ، ثم نقل إلى مسجد الأربعين البحري بالجيزة « عمار بن ياسر حالياً » في فبراير ١٩٤٤م ، ثم عين واعظاً بالأزهر سنة ١٩٤٥م ، في طهطا محافظة سوهاج ، ثم انتقل إلى السويس سنة ١٩٤٨م ، ثم إلى رأس غارب بالبحر الأحمر سنة ١٩٥١م ، ثم إلى القاهرة سنة ١٩٥٥م ، ورقي مفتشاً للوعظ ثم مراقباً عامًّا حتى أحيل إلى التقاعد في نوفمبر سنة ١٩٧٩م .

وعمل أثناء ذلك مترجماً للغة الفرنسية بمراقبة البحوث والثقافة سنة ١٩٥٥م ، ووكيلاً لإدارة البعوث ١٩٦٩م ، ومدرساً بالقسم العالي للدراسات الإسلامية والعربية بالأزهر ، ومديراً لمكتب شيخ الأزهر سنة ١٩٧٠م ، وأميناً مساعداً لمجمع البحوث الإسلامية .

بعد التقاعد : عمل مستشاراً لوزير الأوقاف ، وعضواً بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، وعضواً بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، وعضواً بلجنة الفتوى ثم رئيساً لها ، وانتخب عضواً بمجلس الشعب سنة ١٩٨٤م ، وعين عضواً بمجلس الشورى سنة١٩٨٩م ، ثم مديراً للمركز الدولي للسُّنة والسيرة بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالأوقاف سنة ١٩٩١م ، مع رئاسته للجنة الموسوعة الفقهية بالمجلس .

وفي مجال النشاط الخارجي : تعاقد مع وزارة الأوقاف بالكويت سنة ١٩٧٢م لمدة سبع سنوات ، وسافر في رحلات إلى إيران ثم إندونيسيا سنة ١٩٧١م ، وليبيا سنة ١٩٧٢م ،

والبحرين ١٩٧٦م ، والجزائر سنة ١٩٧٧م ، كما سافر في مهمة رسمية بعد التقاعد إلى السنغال ونيجيريا وبنين والولايات المتحدة الأمريكية وباكستان وبنجلاديش وماليزيا وبورني وسنغافورة ، وزار باريس ولندن .

وفي مجال النشاط العلمي : شارك في البرامج الدينية بالإذاعة والتليفزيون ، ونشرت له الصحف والمجلات مقالات وفتاوى ، وقام بالخطابة والوعظ ، وعقد الندوات في دور التعليم والمؤسسات المختلفة ، مع نشاطه في لجنة الفتوى ومجمع البحوث الإسلامية والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، والرد على الاستفسارات الدينية تحريريًّا وشفويًّا .

حصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى سنة ١٩٨٣م ، وعلى نوط الامتياز من الطبقة الأولى سنة ١٩٨٩م .

مؤلفاته : إلى جانب البحوث والمقالات والفتاوى له مؤلفات كثيرة ، منها :

١- الدعوة الإسلامية دعوى عالمية ، فاز بجائزة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

٢- الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه .	مجمع البحوث الإسلامية .
٣- بيان للناس عن التيارات الحديثة والمسائل الخلافية «جزآن» .	مجمع البحوث الإسلامية .
٤- البابية والبهائية «تاريخاً ومذهباً» .	مجمع البحوث الإسلامية .
٥- المنهج السليم إلى طريق الله المستقيم .	مجمع البحوث الإسلامية .
٦- فن إلقاء الموعظة .	مجمع البحوث الإسلامية .
٧- من أدب الدعوة .	مجمع البحوث الإسلامية .
٨- التفرقة العنصرية .	مجمع البحوث الإسلامية .
٩- دولة العلم والإيمان .	مجمع البحوث الإسلامية .
١٠- المحافظة على الأسرار .	مجمع البحوث الإسلامية .
١١- التدخين في نظر الإسلام .	مجمع البحوث الإسلامية .
١٢- خير رفيق إلى بيت الله العتيق .	مجمع البحوث الإسلامية .
١٣- مناقشة الفريضة الغائبة .	مجمع البحوث الإسلامية .
١٤- الإسلام دين العمل .	المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية .
١٥- منهج الإصلاح في دعوة محمد ﷺ .	المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
١٦- الزكاة وآثارها الاجتماعية .	المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

١٧- الرق في نظر الإسلام . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
١٨- الحجاب وعمل المرأة . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
١٩- التعريف بالإسلام «الإسلام عقيدة وسلوك» . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
٢٠- الإسلام والتحرر من الجوع . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
٢١- مغزى العبادات في الإسلام . القوات المسلحة .
٢٢- الإسلام ومكافحة المخدرات . القوات المسلحة .
٢٣- موسوعة أحسن الكلام في الفتاوى والأحكام . (سبعة مجلدات) مكتبة وهبة .
٢٤- موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام (٦ مجلدات) . مكتبة وهبة .
٢٥- فتاوى وأحكام للمرأة المسلمة . مكتبة وهبة .
٢٦- س ، ج للمرأة المسلمة (١٠٠ سؤال وجواب) . مكتبة السنة .
٢٧- دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة . مؤسسة الصباح بالكويت .
٢٨- توجهيات دينية واجتماعية . مؤسسة الصباح بالكويت
٢٩- المصطفون الأخيار في الرد على شبهات حول الأنبياء . مؤسسة الصباح بالكويت .
٣٠- الإسلام في مواجهة التحديات . مؤسسة الصباح بالكويت .
٣١- الإسلام ومشكلات الحياة «مجموعة فتاوى» . مؤسسة الصباح بالكويت .
٣٢- من نور القرآن الكريم «نماذج حية للربط بين الدين والحياة» .
مؤسسة الصباح بالكويت .
٣٣- نظرات في التربية الإسلامية . مؤسسة الصباح بالكويت .
٣٤- مختصر السيرة النبوية . وزارة الأوقاف - الكويت .
٣٥- منارات على الطريق «في الدين والأدب والاجتماع» تحت الطبع .
٣٦- من علوم القرآن الكريم تحت الطبع .
٣٧- في رحاب الحج تحت الطبع .
٣٨- الإباحة ومنزلتها في التشريع تحت الطبع .

إن صاحب هذه الترجمة أثرت عليه مهنته الأولى وهي الدعوة التي يجب أن يكون الداعي فيها واسع الاطلاع ، مستعداً للإجابة على كل سؤال يوجه إليه ، في أي قطاع من قطاعات الثقافة الدينية ، بل وغير الدينية أحياناً ، ومع سعة الاطلاع يحرص على التنظيم

الذي يساعد المتحدث أو الكاتب على الاستيعاب والمراجعة بسهولة ، كما يساعد السامع والقارئ على الإلمام والحصر لما يسمع ويقرأ ، وعلى سرعة التذكر عند الحاجة .

ويلاحظ في عرضه للأحكام الشرعية عدم التعصب لمذهب فقهي ، فهو يعرض أكثر من رأي للفقهاء بأمانة ما أمكن ، وإذا كان له رأي خاص يتناسب مع ظروف العصر ويحقق المصلحة ، أشار إلى المذهب أو العالم الذي سبقه بذلك ليطمئن القارئ إلى أنه ليس رأياً نابعاً من هوى شخصي ، أو تحت تأثير آخر ، ثم يترك الفرصة لاختيار القارئ ما يشاء ، فهو يعرض ولا يفرض ، مؤكداً أن اختلاف الآراء -فيما ليس فيه نص قاطع- رحمة للناس ودليل على حيوية التشريع الإسلامي وهذه الروح السمحة المتجردة عن الأنانية الفكرية والسلوكية تجعل لهذا المؤلف الضخم موقعاً طيباً في نفوس المستفيدين منه ، لأنها تنبع من قوله الله سبحانه ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٨٥] وقوله تعالى ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف : ٧٦] وقول النبي ﷺ «يسروا ولاتعسروا ، وبشروا ولا تنفروا» .

وتوفى فضيلته فجر يوم ٨ من ذي القعدة سنة ١٤٢٦هـ . الموافق ٩ ديسمبر ٢٠٠٦م . بعد حياة من العطاء للإسلام والمسلمين .. أسأل الله أن ينفع بها المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

أيها القارئ الكريم .. إن الكمال لله وحده فإن كان الكتاب ليس به خطأ .. فهذا من فضل الله .. وإن كان غير ذلك لا قدر الله .. فهذا جُهد المُقل .. حيث رُتب الكتاب وطُبع بعد وفاة الشيخ -رحمه الله- .

وأخيراً نرجو أن نكون قد قدمنا خدمة جديدة لأمتنا الإسلامية ولديننا الحنيف ، وخدمة لمصرنا العزيزة وأزهرها الشريف .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، ومن الله نستمد العون والتوفيق .

الناشر
مكتبة وهبة

القاهرة في غرة ذي الحجة ١٤٣١ هـ
الموافق ٧ نوفمبر ٢٠١٠م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد ، فقد رغب إليَّ الكثيرون ممن التقيت بهم على موجات الأثير وعلى الشاشة الصغيرة ، وعلى صفحات الجرائد والمجلات ، وفي اللقاءات والندوات المختلفة - أن أجمع لهم إجابات الأسئلة التي نشرت بوسائل النشر المختلفة ، ليسهل الرجوع إليها ، والإفادة منها ، حيث إنها غطت كثيراً مما يهم المسلم معرفته من المسائل الدقيقة ، وبخاصة ما تنفس عنه التطور من قضايا ومشكلات ، وحيث إنها أشبه بالبحوث التي تعتمد قضاياها على الأدلة الواضحة .

ولكثرة ما يشغلني من أعمال في الحقل العلمي الذي هيأني الله له ، كنت أرجئ تحقيق هذه الرغبة ، لعلني أجد من الوقت ما يسمح لي بتنظيم هذه الإجابات ، ثم أحسست أن الوقت يجري بسرعة ، وأن الأعباء تزداد يوماً بعد يوم ، فاستخرت الله تعالى في نشر المهم منها وتقدمت إلى القراء بالجزء الأول من هذه الإجابات ، وستتلوه أجزاء أخرى إن شاء الله ، حاولت أن أضع في كل جزء منها نوعيات من العقائد والعبادات والمعاملات والأسرة والمرأة بوجه عام ، ومن المسائل المتفرقة التي لا تدخل تحت باب من هذه الأبواب بصفة مباشرة .

وقد حاولت أن يكون الأسلوب مبسطاً ، مع عدم إهمال الناحية الفنية ، حتى يستفيد منها أكبر عدد ممكن من القراء ذوي المستويات المختلفة ، منبهاً إلى أنني قد أتعرض للمذاهب الفقهية المختلفة في المسألة الواحدة ، ليأخذ القارئ ما يناسب مذهبه الفقهي إن كان ملتزماً له ، أو ما يجد فيه حلًّا لمشكلته التي يعانيها ، وقد أتعجل فأختار ما هو أوفق دينا وأيسر تطبيقاً ، غير مُدَّعٍ لنفسي درجة الاجتهاد ولو في أدنى صوره ، فمازلنا ندين بالفضل - بعد الله - لتراث علمائنا وآراء فقهائنا ، وإن كان العصر يفرض

علينا أحياناً أن نستأذنهم في التعايش مع الظروف الجديدة والعرف الجاري الذي قرروا اعتباره في تفسير النصوص إن أعوزها التفسير من الكتاب والسنة وآثار من يعتد بآثارهم ، ما دام لا يصادم نصًّا قاطعاً ولا أصلاً مقرراً .

وأنبه السادة القراء إلى أمور ثلاثة :

أولها : أنني قد راعيت في هذه الطبعة أن تكون مبوبة حسب أبواب الفقه المعروفة . ثم أضفت بعض الفتاوى تحت عنوان (متفرقات) لتكمل فائدة الكتاب.

ثانيها: أن بعض الإجابات التي أوردتها في هذا الكتاب قد نشرت بصورة أو بأخرى في بعض كتبي التي أخرجتها باسمي أو باسم آخر ، فأكتفي أحياناً بالإحالة عليها أو بالإجابة المختصرة لتستكمل من المظان الأخرى .

ثالثها: أن هذه الإجابات هي جهد شخصي يعبر عن اختياري فقط ، ولا يعبر عن رأي لجنة الفتوى التي تشرفت بعضويتها عدة سنوات ثم تشرفت برئاستها ، ولا مجمع البحوث الإسلامية الذي أتشرف بعضويته ، وإن كان أكثرها -بحمد الله- لايتناقض ولا يمس هاتين الجهتين بسوء ، مع ملاحظة أن بعض الإجابات قد توليت أنا وضعها وصياغتها في لجنة الفتوى ومجمع البحوث ، ولا أريد من نشرها هنا إلا الانتفاع بها ، والله هو العليم بذات الصدور .

رابعها : إنني وضعت في اعتباري أن بعض الأقوال والأحكام المنقولة أو المختارة لا تعجب نفراً من الناس ، فَرِضَا الناس غاية لا تدرك ، وإذا كان الله سبحانه وهو الخالق والمنعم لم يؤمن به كل من يتقلبون في نعمته ، بل إن بعض المؤمنين يسخطون أحياناً على قضائه وقدره ، وإذا كان أشرف الخلق وخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام قد سخط عليه بعض قومه وهم أعرف به ، فكيف لإنسان آخر أن يطمع في كسب رضاء كل الناس عليه؟

أسأل الله أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم ، إنه سميع مجيب .

عطية صقر



١ - التعريف بأصحاب المذاهب الأربعة

من الخير أن أعطيك أيها القارئ فكرة عن أصحاب المذاهب الأربعة ، وعن مصطلحات علماء الفقه وعلماء الحديث ، التي تصادفك كثيراً في هذا الكتاب ، حتى تتضح لك الصورة المرادة منها ، وتكمل الاستفادة بها .

١ - أصحاب المذاهب الأربعة :

١ - أبو حنيفة :

هوالنعمان بن ثابت ، ولد بالكوفة سنة ٨٠هـ أخذ الفقه عن حماد بن أبي سليمان ، وسمع من علماء التابعين أمثال عطاء بن أبي رباح ونافع مولى عبدالله بن عمر ، وكانت طريقته في الاستنباط كما حدث عن نفسه : إني آخذ بكتاب الله إذا وجدته ، فما لم أجده فيه أخذت بسنة رسول الله ﷺ والآثار الصحاح عنه التي فشت في أيدي الثقات ، فإذا لم أجد في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ أخذت بقول أصحابه من شئت وأدع قول من شئت ، ثم لا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم ، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم -أي النخعي- والشعبي والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب وأمثالهم فلي أن أجتهد ما اجتهدوا ، وكان يعتمد كثيراً على القياس والاستحسان وسميت مدرسته بأهل الرأي ، توفى ببغداد سنة ١٥٠هـ ومن أصحابه : أبـويوسف ، وزفر ، ومحمد بن الحسن ، والحسن بن زياد .

٢ - مالك :

هو مالك بن أنس بن مالك صاحب «الموطأ» ولد بالمدينة سنة ٩٣هـ ، أخذ العلم عن عبدالرحمن بن هرمز وربيعة الرأي كما أخذ عن نافع مولـى عبدالله ابن عمر ، وابن شهاب الزهري . وكان يعتمد في فتياه على كتاب الله أولاً ثم على سنة رسول الله ﷺ ، ويعطي لما جرى عليه العمل في المدينة أهمية كبيرة ، ثم القياس ، ونسب إليه العمل بالمصالح المرسلة ، أي التي لم يشهد لها من الشرع بالبطلان ولا بالاعتبار نص معين ، توفى سنة ١٧٩هـ .

٣- الشافعي :

هو محمد بن إدريس بي شافع صاحب «الأم» ولد بغزة سنة ١٥٠هـ ورحل إلى مكة وأخذ عن شيخها مسلم بن خالد الزنجي ، ثم تلقى عن الإمام مالك بالمدينة ، واطلع في بغداد على كتب فقهائها ، وانتهى به المطاف إلى مصر وتوفى بها سنة ٢٠٤هـ ، وهو الذي كتب كتبه بنفسه وأملاها على تلاميذه ، وأساس مذهبه مدون في رسالته الأصولية ، فهو يحتج بظاهر القرآن حتى يقوم دليل على إرادة غير الظاهر ، ثم السنة التي دافع فيها عن العمل بخبر الواحد الثقة الضابط ما دام متصلاً بالرسول ﷺ ثم الإجماع ، ومعناه عنده عدم العلم بالخلاف ، لأن العلم بالإجماع في نظره غير ممكن ، ثم القياس الذي له أصل معين ، ولم يكن متحمساً للاستحسان والمصالح المرسلة .

٤- ابن حنبل :

هو أحمد بن حنبل بن هلال صاحب المسند ولد ببغداد سنة ١٦٤هـ ، سمع أكابر المحدثين مثل سفيان بن عيينة وروى عنه البخاري ومسلم ، وتلقى فقه الشافعي ثم اجتهد لنفسه ؛ وهو من أهل الحديث المجتهدين الذين يعملون بخبر الواحد من غير شرط متى صح سنده ، ويقدم أقوال الصحابة على القياس ، وهو في رجال الحديث أثبت منه في رجال الفقه ، وله وقفته المشهورة في فتنة القول بخلق القرآن ، توفى ببغداد سنة ٢٤١ هـ .

وهناك مذاهب درست ، من أشهرها مذهب عبدالرحمن الأوزاعي المتوفى سنة ١٥٧هـ ومذهب محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ . ومذهب داود الظاهري المتوفى سنة ٣٢٤هـ .

وقبل ظهور المذاهب الأربعة كان هناك من الصحابة من اشتهروا بالفتيا وترد أسماؤهم كثيراً في كتب الفقه منهم : السيدة عائشة أم المؤمنين ، والخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وعبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل

وأبي بن كعب ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن عباس ، وأنس بن مالك ، وعبدالله ابن عمرو بن العاص .

ومن التابعين غير من ذكرت أسماؤهم في تراجم الأئمة : مجاهد بن جَبْر ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعلقمة النخعي ، ومسروق بن الأجدع ، والأسود ابن يزيد النخعي ، وشريع القاضي ، وسعيد بن جبير ، وطاووس بن كيسان ، والحسن البصري .

ومن الأسماء التي اشتهرت في فقه الإمام أبي حنيفة :

ابن أبي ليلى ، وبشر بن غياث ، والطحاوي ، والقدوري ، والكاساني ، والسرخسي .

ومن الأسماء التي اشتهرت في فقه الإمام مالك :

عبدالله بن وهب ، وأشهب ، ويحيى بن كثير ، وأسد بن الفرات وسُحْنُون ، وأصبغ بن الفرج ، وابن عبد البر ، والقاضي عبد الوهاب ، والباجي ، وابن رشد ، وابن العربي ، والقاضي عياض .

ومن الأسماء التي اشتهرت في فقه الإمام الشافعي :

البويطي ، والمزني ، والربيع المرادي ، وابن سريج ، والكرابيسي ، والزعفراني ، والإسفراييني ، والماوردي ، والشيرازي ، والجويني ، والغزالي ، والنووي .

ومن الأسماء التي اشتهرت في فقه الإمام أحمد :

الأثرم ، والمروزي ، وإسحاق بن راهويه .

ويمكن التعرف على نبذ من تواريخ هؤلاء الأعلام من كتاب «تاريخ التشريع» للشيخ محمد الخضري .



٢ - الاصطلاحات الفقهية

ترد في كتب الفقه ألفاظ يجب فهم المراد منها حتى يكون تعبد المؤمن تعبداً صحيحاً ، من هذه الألفاظ : الفرض ، الواجب ، السنة ، المندوب ، المستحب ، الحرام ، المكروه ، المباح .

فالفرض والواجب اسمان لما طلب حتماً ، ويعبر عن ذلك بما يثاب المرء على فعله ويعاقب على تركه ، إلا أن الفرض عند الحنفية ما ثبت طلبه بدليل قطعي الثبوت والدلالة ، كآيات القرآن والمتواتر والمشهور من السنة إذا كان نَصًّا لا يحتمل معنى آخر ، أما الواجب فهو ما ثبت بدليل ظني الثبوت أو الدلالة أو هما معاً ، مثال الفرض عندهم قراءة ما تيسر من القرآن في ركعتين من أي صلاة ، ومثال الواجب أن يكون المقروء فيهما هو الفاتحة ، ويترتب على ترك الفرض بطلان الصلاة ، وعلى ترك الواجب سهواً سجود السهو ، وعلى تركه عمداً وجوب إعادة الصلاة مادام الوقت موجوداً ، فإن خرج الوقت فقد أساء . وعلى هذا يكون ترك الفرض موجباً للعقاب ، وترك الواجب موجباً لعقاب أخف منه .

أما عند غير الحنفية فلا فرق بين الفرض والواجب ، سواء طلب بدليل قاطع أو مظنون لكنهم يفرقون بينهما في الحج ، فيقولون : الفرض ما لا يجبر بدم كالوقوف بعرفة وطواف الإفاضة ، والواجب ما يجبر بدم كرمي الجمار والمبيت بمنى ، وترك الفرض يبطل الحج ، وترك الواجب لا يبطله .

وهناك فرض يعرف بفرض الكفاية ، وهو الذي إذا فعله البعض سقط الطلب عن الباقين ، ولو تركوه جميعاً أثموا ، كصلاة الجنازة ، بخلاف فرض العين الذي يجب على كل مكلف أن يقوم به ، ولو تركه لأثم .

ومثل الفرض والواجب : الركن والشرط ، لا يصح العمل إلا بهما ، غير أن الأول جزء من ماهية العمل ، كركوع الصلاة ، والثاني ليس جزءاً منها ، كالوضوء واستقبال القبلة وستر العورة في الصلاة .

والسنة ما كان طلبه غير جازم ، أو ما يثاب المرء على فعله ولا يعاقب على تركه ومنه ما واظب عليه النبي ﷺ ويسمى سنة مؤكدة كركعتي الفجر ، وما لم يواظب عليه كركعتين قبل المغرب ، والمندوب والمستحب كالسنة ، وبعضهم جعل المندوب والمستحب لما لم يواظب عليه النبي ﷺ والسنة لما واظب عليه .

والحرام ما طلب الشارع الكف عنه طلباً جازماً أو ما يعاقب المرء على فعله ويثاب على تركه ، كالسرقة والقتل .

والمكروه ما طلب الشارع الكف عنه طلباً غير جازم ، كأكل البصل عند الذهاب إلى المسجد ، وهذا يسمى مكروهاً تنزيهاً ، وهناك مكروه يسمى مكروهاً تحريماً وهو في مقابل الواجب عند الحنفية ، فيه عقوبة لكنه أخف من عقوبة الحرام ، كالصلاة في الأوقات المنهي عنها .

أما ما لم يطلب الشرع فعله ولا الكف عنه فهو المباح ، الذي لا يثاب المرء على فعله ولا يعاقب على تركه .

هذا ، وهناك اصطلاح : باطل وفاسد ، وهما اسمان لمسمى واحد عند بعض الفقهاء ، وهو ما يجزئ عن فاعله ولا تترتب عليه آثار ، كالصلاة إذا نقص ركن منها أو تخلف أحد شروطها ، وفرق بعضهم بين الباطل والفاسد ، ويمكن التوسع في معرفة ذلك من كتب الفقه .



٣- التقليد والتلفيق

في كتاب « بيان للناس من الأزهر الشريف » جاء أن هناك خلافات للعلماء في بعض الأحكام الفقهية وأنه لا يجوز التعصب لأي رأي اجتهادي غير مجمع عليه، ومن ليس عنده استعداد للاجتهاد في مسألة عليه أن يسأل من له علم بها، ويجوز له أن يقلد أي مذهب من المذاهب المعروفة، ولايلتزم بمذهب معين، لأنه يعتبر عامياً والعامي لا مذهب له، وإذا قلد مجتهداً في مسألة فليس له تقليد غيره فيها اتفاقاً، ومن التزم مذهباً معيناً ففي الرجوع إلى غيره من المذاهب ثلاثة أقوال: المنع والجواز، والجواز فيما لم يعمل به وعدم الجواز فيما عمل به، على ألا يكون التقليد للغير موقعاً في أمر يجتمع على إبطاله الإمام الذي كان على مذهبه والإمام الذي انتقل إليه [١].

قد قال المرحوم الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية الأسبق والمتوفى ١٩٣٥م: يجوز التقليد والتلفيق من مذاهب الأئمة الأربعة وغيرهم ممن علمت مذاهبهم، لضرورة وغير ضرورة، قبل العمل وبعده، في العبادات والمعاملات، تخفيفاً ورحمة بالأمة، وفضل الله واسع.

هذا، وكما يجوز التقليد في العمل يجوز في الإفتاء، فلا يجب التزام المفتي لمذهب واحد، وله أن يختار من المذاهب، أو من أقوال أصحاب المذهب ما يراه مناسباً للحال ومحققاً للمصلحة العامة ومن هنا نرى اختلاف بعض الفتاوى بين القديم والحديث، وبين بلد وآخر.

ومن الصواب عند إصدار فتوى أن يشار إلى المذهب أو إلى المقتضى للاختيار.

١- تفصيل هذا الخلاف يرجع فيه إلى الجزء الثاني من ((البيان)) ص ١٧٣.

٤- بعض رجال الحديث ومصطلحاتهم

أولاً : من أشهر رجال الحديث الذين لهم كتب مطبوعة :

١- محمد بن إسماعيل البخاري ، المتوفى سنة ٢٥٦هـ .

٢- مسلم بن الحجاج النيسابوري ، المتوفى سنة ٢٦١هـ .

وكتابهما أصح الكتب بعد القرآن الكريم .

٣- أحمد بن حنبل صاحب المسند ، والمتوفى سنة ٢٤١هـ .

٤- أبو داود سليمان السجستاني ، والمتوفى سنة٢٧٥هـ .

٥- محمد بن عيسى الترمذي ، المتوفى سنة ٢٧٩ هـ .

٦- محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه ، والمتوفى سنة ٢٧٣هـ .

٧- أحمد بن شعيب النسائي ، المتوفى سنة ٣٠٣ هـ .

٨- الدارقطني ، المتوفى سنة ٢٨٥ هـ .

٩- الحاكم النيسابوري ، المتوفى سنة ٤٠٥ هـ .

١٠- البيهقي ، المتوفى سنة ٤٥٨ هـ .

١١- الطبراني ، المتوفى سنة ٣٦٠ هـ .

١٢- ابن خزيمة ، المتوفى سنة ٣١١ هـ .

١٣- ابن حِبَّان ، المتوفى سنة ٣٥٤ هـ .

وهناك موطأ الإمام مالك وفيه غير الأحاديث النبوية .

ثانياً : هناك في عرف المحدثين ما يسمى بالحديث الصحيح ، والحديث الحسن ، والحديث الضعيف .

فالصحيح ما رواه العدل الضابط عن مثله ، واتصل سنده ولم يكن به شذوذ ولاعلة قادحة [ومن أقسامه المشهور والمتواتر] والحديث الحسن كالصحيح إلا أن الرواة المعروفين بالصدق فيهم قصور في الضبط عن ضبط رواة الصحيح .

والحديث الضعيف ما فقد شرطاً من شروط الصحة والحسن ، وأنواعه كثيرة يرجع إليها في الكتب المختصة ، والأولان يقبلان في إثبات الأحكام العملية ، ولايقبل الثالث إلا في فضائل الأعمال ، وفي ذلك كلام كثير لا مجال لذكره الآن .

ثالثاً : تصادفك في هذا الكتاب وفي غيره ألفاظ عند رواية الحديث لابد من معرفة معناها مثل :

١- « متفق عليه » والمراد أن البخاري ومسلماً أخرجاه في صحيحيهما ، وعند ابن تيمية في كتابه « منتقى الأخبار » وشرحه « نيل الأوطار » للشوكاني ، يستعمل هذا الاصطلاح فيما رواه البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل .

٢- « رواه الشيخان » المراد بهما البخاري ومسلم .

٣- « رواه الخمسة » المراد بهم عند ابن تيمية والشوكاني : أحمد وأصحاب السنن الأربعة وهم : أبو داود والترمذي وابن ماجه والنسائي .

٤- « رواه الجماعة » أي رواه السبعة كلهم : البخاري ومسلم وأحمد وأصحاب السنن الأربعة المذكورون .



العقائد

- الإيمان بالله
- الملائكة
- الكتب
- القرآن الكريم

الإيمان بالله

س : ما هو الدليل المقنع على وجود الله وعلى أن محمداً رسول حق من عند الله؟

ج : ١- الدليل المقنع على وجود الله هو آثاره المشاهدة التي لا يمكن أن تكون موجودة بنفسها من غير قوة كبرى على قدرة وعلم وصفات يصدر عنها هذا الإبداع وهي قوة الله تعالى ، ومن البديهات أن كل صنعة لابد لها من صانع ، وكلما كانت الصنعة أحكم كان صانعها على أعلى مستوى من الحكمة ، وكما قال الحكماء : ليس هذا العالم مخلوقاً بالطبع أو بالعلة ، لأن مطبوع الطبيعة لا يختلف ، بل يلتزم شكلاً واحداً ، ومعلول العلة لايتخلف ، بل لابد أن يكون ملازماً لعلته وجوداً وعدماً ، حدوثاً وقدماً .

إن الإيمان بوجود الله حقيقة مقررة في فطرة الإنسان منذ خلق ، كما نص الحديث الصحيح .

«ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء »يقول أبو هريرة راوي الحديث : اقرءوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم : ٣٠][١] .

إن الرجل البدوي حين سئل عن وجود الله نطق بفطرته فقال : البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج أفلا يدل ذلك على اللطيف الخبير ؟ وأنت تعلم أن آدم عليه السلام خلق وهبط على الأرض وفي قلبه هذه الحقيقة ، ونشأت ذريته الأولى على هذا الإيمان . ولما تفرقوا في طول الأرض وعرضها شغلهم طلب العيش والمأوى عن التفكير في

١- رواه البخاري ومسلم .

خالق هذا الكون ، وساقتهم فطرتهم إلى أن هناك من هو أقوى منهم ، يُسيِّرهم ، ويسيطر عليهم ، بما يرونه من كواكب ونجوم ومخلوقات شتى ، وحاولوا التقرب إليها أو التحصن ضد خطرها ، وكما يحدثنا علماء الفلسفة والأجناس البشرية ، رمزوا إلى هذه القوة الخفية بما يعبر عن عقيدتهم في شكل تمثال أو غيره ، ومن هنا جاء الرسل لتلفت أنظار الضالين إلى حقيقة الألوهية .

ومهما يكن من شيء فإن علماء العصر الحديث - على الرغم من تنكر بعضهم للدين الذي عاشوا في ظله قروناً ، وحرمهم كثيراً مما يحتمه انطلاق الفكر ونشاط الإرادة - لم يستطيعوا أن ينكروا وجود الله وراء هذه المادة التي هي وعاء علمهم وتجاربهم ، وكان أسلوبهم في البحث بعيداً عن الأسلوب الديني التقليدي الذي ثاروا عليه ، ولو شئت لأوردت لك كثيراً من أقوال كبارهم في إثبات وجود الله ، ولكني أحيلك على كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » الذي جمع فيه « جون كلوفر مونسما » الباحث الديني الاجتماعي كثيراً من شهادات علماء أمريكا المتخصصين في كل العلوم ، بما يؤكد اعتراف العلم بوجود الله .

وإن شئت دليلاً على طريقة المتكلمين وعلماء التوحيد على وجود الله أحيلك على « رسالة التوحيد » للشيخ محمد عبده ، ولعلك توفق إلى فهم الأسلوب الموضوع للاستدلال على وجوده سبحانه .

وأعتقد أيها السائل أنك ما دمت مسلماً ومؤمناً بالتالي بوجود الله فلا تشغل نفسك بأمر لا يعني به إلا الفلاسفة والعلماء المتخصصون الذين ينفقون وقتاً كبيراً في الجدل والمناقشة . ونحن أحوج ما نكون إلى أي وقت وأي جهد يبذل في سبيل المعركة المصيرية التي يخوضها المسلمون عامة في هذه الأيام .

٢- إن قيام سيدنا محمد ﷺ بالدعوة إلى دين جديد حقيقة تاريخية مقررة لاشك فيها ، وتلك آثارها شاهد صدق عليها . ولما جاء بالدعوة وكذبه قومه طلبوا منه ما يدل على صدقه ، بالإضافة إلى ما عرفوه عنه من صدق وأمانة ، وقد انتزع منهم هذا التصديق المبدئي بقوله « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الوادي تريد أن تغير

عليكم أكنتم مصدقي»؟ قالوا : ماجربنا عليك كذباً فقال لهم : «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» ولذلك جاء على لسان من عرضت عليه الدعوة وعرف أنه مشهور بالصدق : ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله .

فلما أصروا على كذبهم ظلماً وعلواً وقد استيقنت أنفسهم صدقه طلبوا منه آية أي علامة تدل على صدقه في أنه رسول الله من عند الله ، وليس مدعيًّا ذلك من نفسه فجاءهم بالقرآن متحدياً إياهم به ، فعجزوا عن الإتيان بمثله ، بل بعشر سورٍ ، بل بسورة واحدة ، على الرغم من أنهم فرسان البلاغة والفصاحة . وقد نص على ذلك قول الله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء : ٨٨] .

وحيث إنهم عجزوا عن محاكاته : عُلم أنه ليس من صنعه فيكون من صنع الله وحده ، الذي جعل هذه المعجزة دليلاً على أن الرسول مبعوث من عند الله . وقد صح في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم «ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

وإذا صدقنا بالقرآن معجزة صدقنا برسالة سيدنا محمد ﷺ بكل ما جاء به ، فالآيات في القرآن كثيرة تثبت رسالة جميع الرسل السابقين وإن شئت توضيحاً لهذه الحقيقة فارجع إلى «رسالة التوحيد» للشيخ محمد عبده .



س : ما الفرق بين الرب والإله ؟

ج : الرب في اللغة هو المالك للشيء ، ويطلق على السيد المالك للعبد ، وعلى المربي ، ولا يقال «الرب» مطلقاً بغير إضافة لشيء إلا لله تعالى ، المتكفل بمصالح الخلق ، أما بالإضافة فيطلق على غير الله ، كرب الدار ورب الفرس ، ذكره الأصفهاني في «المفردات».

والإله بالتعريف اسم للمعبود بحق ، وهو الله سبحانه ، وإذا ذكر بدون التعريف «إله» كان اسماً لكل معبود ولو باطلاً .

ويقول الراغب الأصفهاني في «المفردات» الإله حقه ألا يجمع ، إذ لا معبود سواه ، لكن العرب - لاعتقادهم أن ههنا معبودات - جمعوه فقالوا : الآلهة .

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾ [الأنبياء : ٤٣] ، وقال ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [ص : ٥] .



س : قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف : ٨٤] فهل يفيد ظاهر الآية تعدد الآلهة؟

ج : ليس المعنى أن هناك إلهين ، واحداً في السماء وواحداً في الأرض ، لأن تعدد الآلهة ممنوع ، والإسلام دين التوحيد الخالص ، والنصوص في ذلك كثيرة ، وهو سبحانه القائل ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] والقائل ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١] .

وإنما المعنى في الآية الواردة في السؤال أن الألوهية ثابتة لله في السموات وفي الأرض ، أي في الكون كله .

ونفي التعدد مصحوب بالدليل وهو فساد الكون ، بسبب تنازع الآلهة ، كلٌّ يزعم أنه الأحق بالألوهية ، وحتى لو اتفقا فما هو الداعي إلى الإله الثاني المعطل عن مجال تصرف الإله الأول ، والاستدلال المنطقي موجود في كتب التوحيد .



س : يقول بعض المؤرخين إن إطلاق لفظ ابن الله على بعض الناس موجود قبل ميلاد المسيح عليه السلام فهل هذا صحيح؟

ج : جاء في كتاب «التثليث في المرآة» تأليف : كوثر نيازي وزير الإعلام والحج في باكستان سنة ١٩٧٤م أن قسطنطين هو الذي روَّج أن عيسى عليه السلام «ابن

الله » عندما اعتنق المسيحية وهو حاكم لليونان واليونان يعتقدون أن أفلاطون هو ابن الإله « أبولو » لأن خطيب أمه « باركشين » وجدها حبلى فناداه « أبولو » لاتقربها فهي حبلى بولد مني ، فصاروا يطلقون على أفلاطون « ابن الله » وقد ولد سنة ٢٩ قبل الميلاد [١] .

وكثير من اليونان من أشيع أنهم ولدوا من غير أب ، ومنهم فيثاغورس المولود سنة ٥٧٥ قبل الميلاد ، وسموه ابن الله ، ويقول : أبوة الله أطلقت بالمعنى المجازي على كثيرين منهم ، أي العباد المخلصين .



س : لماذا يتحدث الله عن نفسه بقوله « نحن » مع أنها للجمع ، فهل هناك معه إله آخر ؟

ج : إن القرآن الكريم نزل من عند الله بلغة العرب التي هي لغة رسوله ﷺ ، وقد نزل في أرقى درجات البلاغة والفصاحة ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٥] .

ومما جرت به عادة العرب أن يعبر المتكلم عن نفسه بلفظ « أنا » فإذا كان معه غيره قال « نحن » كما أن لفظ « نحن » يستعمل عند تعظيم المتكلم لنفسه ، وتعظيم الإنسان لنفسه له دواع تدعو إليه ، فقد يكون ذا منصب أو جاه أو حسب أو نسب فيتحدث عن نفسه تفاخراً وتكبراً من أجل التفاخر والتكبر ، وقد يكون لإدخال الرهبة في قلوب الآخرين ، كأنه عدة أشخاص لا شخص واحد ، وقد يعبر عن نفسه بلفظ « نحن » لتعدد مآثره أو مواهبه ، كأنه عدة أشخاص في شخص واحد ، فالكثرة والتعدد بالنظر إلى الأثر لا إلى المؤثر .

وأسلوب التعظيم للمتكلم أو المخاطب موجود في اللغات الأخرى وليس قاصراً على اللغة العربية ، ويستعمل في مثل الأغراض المذكورة .

فإذا كان رب العزة يقول ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ [الإنسان : ٢٨] فالمقام مقام امتنان بالخلق والإنعام ومقام تخويف وإرهاب

---

١ - من كتاب التناقض بين الدين والعلم . تأليف : درابر.

للكافرين ، يتناسب معه ضمير التعظيم الذي يعطي معنى القوة والهيبة ، وإذا كان يقول ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] فالمقام مقام الاقتدار الذي يدخل الطمأنينة على حفظ الله للقرآن الذي أنزله بقدرته وحكمته . وإذا كان يقول ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[غافر: ٥١] ففيه اطمئنان لحماية الله لرسله ونصرهم على أعدائهم ، كأنها حمايات بوسائل متعددة .

وأعتقد أن المؤمن حين يقرأ القرآن وفيه أسلوب التعظيم لله لا يتسرب إلى نفسه أي شك في وحدانيته سبحانه ، وهو جدير بكل عظمة وإجلال لا يمكن أن يكون لغيره من القدرة والإنعام ما يصرف الناس عن عبادته وحده .



س : وردت بعض النصوص التي تثبت أن لله يداً ورجلاً ، نريد بياناً للمراد منها؟

ج : وردت نصوص في الكتاب والسنة تثبت أن لله عيناً ويداً ورجلاً ، مثل قوله تعالى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾[طه : ٣٩] وقوله ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[الفتح : ١٠] وقوله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم « لاتزال جنهم يلقى فيها وتقول : هل من مزيد . حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول : قط قط » . وقوله «الحجر الأسود يمين الله تعالى في الأرض يصافح بها من شاء من خلقه »[١] ، وقوله « رأيت ربي في أحسن صورة ووضع يده بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثندوتي »[٢] أي ثديي.

وقوله في الحديث القدسي عن الله سبحانه «ومن أتاني يمشي أتيته هرولة »[٣].

والعلماء إزاء هذه النصوص فريقان مع اتفاقهم على أن الله سبحانه ليس كمثله شيء ، فريق يطلق عليه اسم السلف وفريق يطلق عليه اسم الخلف ، والسلف يؤمنون بدلالة هذه الألفاظ على معانيها الحقيقية الموضوعة لها في اللغة العربية ،

١- رواه الطبراني وابن خزيمة في صحيحه .
٢- رواه الطبراني والترمذي وقال: حسن غريب .
٣- رواه البخاري .

فيثبتون لله عيناً ويداً ورجلاً ولكنها ليست كأعيننا وأيدينا وأرجلنا لاستحالة التشابه بينه وبين المخلوقات ، والخلف يؤولون هذه الألفاظ التي جاءت على أصول اللغة العربية بما فيها من حقيقة ومجاز ، فيريدون بالعيون لازمها وهو العناية والعلم ، وباليد لازمها وهو القدرة والإنعام ، وبالرجل والقدم القدرة والسرعة وزيادة الفضل والكرم .

وهذه الألفاظ من المتشابه الذي نزل به القرآن وقال عنه ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : ٧] فالسلف يقفون على ﴿ ٱللَّهُ ﴾ والخلف يصلون ولا يقفون : أي يعطفون ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ ﴾ على لفظ ﴿ ٱللَّهُ ﴾ أما السلف فيجعلون الواو للاستئناف لا للعطف . وفي هذين الموقفين جاءت العبارة : مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أحكم .



س : ما معنى قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] ؟

ج : ذكر استواء الله على العرش في عدة مواضع من القرآن الكريم ويحتاج الأمر إلى بيان المراد من العرش ، والمراد من الاستواء ، ونسبة ذلك إلى الله سبحانه ، فالعرش لفظ مشترك يطلق على أكثر من معنى فهو بمعنى سرير الملك ، قال تعالى ﴿ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا ﴾ [النمل : ٤١] وقال تعالى ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [يوسف : ١٠٠] وهو بمعنى سقف البيت ، وبمعنى الـمُلك والسلطان .

والاستواء هو الاستقرار ، واستوى إلى السماء أي قصد ، واستوى أي استولى ، واستوى أي اعتدل ، واستوى أي علا وارتفع .

واستواء الله على العرش فيه أربعة عشر قولاً كما قال القرطبي في كتابه « الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلا » والأكثر من المتقدمين والمتأخرين ينزهون الله عن الجهة والتحيز ، لأن ذلك من صفات الحوادث ، فيؤولون استواء الله على العرش بالملك والسلطان ، يقول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف أو دم مهراق

وإذا كان في الاستواء على العرش علو فهو علو مكانة ومنزلة ومجد وليس علو مكان ، إن التأويل في مثل هذه الآيات المشتبهات هو مذهب الخلف ، أما السلف وهم أهل القرون الثلاثة الأولى من الهجرة فلا يؤولون ، ويثبتون الجهة لله كما نطق كتابه وأخبرت رسله ، ولم ينكر أحد منهم أنه استوى على عرشه حقيقة ، وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته ، وإنما جهلوا كيفية الاستواء ، فلا يعلم حقيقته إلا الله ، يقول الإمام مالك رضي الله عنه : الاستواء معلوم -يعني في اللغة- والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة . وكذلك قالت أم سلمة رضي الله عنها ، ويقول أبو الحسن الأشعري وغيره : هو مستو على عرشه بغير حد ولا كيف .

والخلاصة : أن السلف يتركون النصوص على ظاهرها ولا يؤولونها ، والخلف يؤولونها بما يثبت أن الله سبحانه ليس كمثله شيء ، والكل متفق على تنزيه الله سبحانه عن المشابهة للحوادث[1].



س : وردت أحاديث تقول إن الله ينزل إلى السماء الدنيا ليسمع دعاء التائبين والمسترزقين ، فكيف يكون هذا النزول ، وهل الله في مكان ينزل منه؟

ج : روى البخاري ومسلم وغيرهما أن النبي ﷺ قال « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له » .

هذا الحديث من المتشابه الذي يوجد في القرآن الكريم وفي السنة النبوية ، والمسلمون حياله فريقان ، فريق يطلق عليهم اسم السلف ، وفريق يطلق عليهم اسم الخلف ، فالأولون يؤمنون بأن الله سبحانه ينزل من عرشه إلى سماء الدنيا نزولاً يليق بجلاله وكماله ، بعيداً عن المشابهة للحوادث كما قال سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] والآخرون يصرفونها عن ظاهرها ويريدون بها

١- انظر تفسير القرطبي ج ٧ ص ٢١٩ ، وكتابه المذكور .

لازمها ، بمعنى القرب والرحمة وسرعة الاستجابة كما يجيء في كلام العرب تعبيراً عن الرجل الكريم بأنه لا تطفأ له نار .

وعلى شاكلة ذلك كان تفسيرهم لليد والعين في قوله تعالى ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح : ١٠] وقوله ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه : ٣٩] .

ومن موقف السلف والخلف من الإيمان بالظاهر ومن التأويل كان الوقف في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران: ٧] فالأولون يقفون عند قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ويكون قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ . . .﴾ كلاماً مستأنفاً ، أو مبتدأ خبره ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ والآخرون لايقفون عند قوله ﴿ٱللَّهُ﴾ وإنما يصلون به على العطف ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ فالذي يعلم التأويل عند الأولين هو الله قط ، والذي يعلمه عند الآخرين الله والراسخون في العلم [1].



س : هل صحيح أن الله سبحانه يضع قدمه في جهنم ، وكيف يفهم هذا ؟

ج : يقول الله سبحانه ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق : ٣٠] المفسرون فريقان في قول جهنم ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ ففريق يقول : المعنى ليس هناك مكان لزيادة أحد على من هم فيها ، فقد امتلأت ، كقول النبي ﷺ فيما روي عنه «هل ترك لنا عقيل من ربع أو منزل» يعني ما ترك . فمعنى الكلام النفي . وفريق يقول : المعنى هل هناك أحد يزاد على من فيها ، ففيها متسع لمن يلقى فيها ؟

وعلى كلا المعنيين يصح أن يُنطق الله النار فتقول هذا الكلام ، ويصح أن يراد بذلك التشبيه فقط ، يعني كأنها تقول ذلك . والمعنى الأول أصح .

ثم جاء في صحيحي البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال « لاتزال جهنم يُلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فينزوي بعضها إلى

١- راجع موضوع: الرحمن على العرش استوى ص٢٧ .

بعض وتقول قَطْ قَطْ ، بعزتك وكرمك ، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة » وفي رواية «وأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله عليها رجله يقول لها ، قَطْ قَطْ ، فهناك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض ، فلا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً» فقول « قط قط » في الرواية الأولى من جنهم ، وفي الرواية الثانية من الله .

يقول القرطبي : القدم هنا قوم يقدمهم الله إلى النار ، وقد سبق في علمه أنهم من أهل النار ، وكذلك الرِّجل وهو العدد الكبير من الناس وغيرهم ، ويبين هذا المعنى ما روي عن ابن مسعود أنه قال : ما في النار بيت ولا سلسلة ولا مِقْمَعٌ ولاتابوت -وهي أدوات التعذيب - إلا وعليه اسم صاحبه ، فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذي قد عرف اسمه وصفته ، فإذا استوفى كل واحد منهم ما أمر به وما ينتظره ولم يبق منهم أحد قال الخزنة : قط قط ، حسبنا حسبنا . أي اكتفينا اكتفينا . وحينئذ تنزوي جنهم على من فيها وتنطبق ، إذ لم يبق أحد ينتظر ، فعبَّر عن ذلك الجمع المنتظر بالرِّجل والقدم .

لكن قال بعض العلماء : إن معنى وضع الله رجله أو قدمه في النار إخضاعها وإسكاتها ، حتى لاتطلب زيادة على من فيها ، كمن يريد أن يعبر عن قهره وانتصاره على عدوه فيقول : وضعته تحت قدمي ، وليس لله سبحانه قدم ولا رجل كما هو معهود للمخلوقات ، فليس كمثله شيء ، وإذا سكتت النار عن طلب المزيد بعث الله بخلقه ليسكنهم المنازل في الجنة ، وهذا دليل على سعة رحمة الله تعالى .

وخلاصة الكلام في القدم أنه من المتشابه الذي يؤمن به السلف ، فالله له قدم ورجل ويد وعين وإصبع كما ورد في القرآن والسنة ، لكن هذه الأشياء ليست كالمعهودة في المخلوقات ، أما الخلف فينفون أن لله أعضاء بالمعنى الحقيقي ، والمراد منها لازمها ، فالتعبير مجازي والمراد القوة والعناية والرعاية والعلم .



س : هل صحيح أن من حفظ أسماء الله الحسنى دخل الجنة حتى لو كان عاصياً وكم عددها ، وما الفرق بينها وبين الصفات ؟

ج : جاء في كتاب «الأذكار»[1] ، أن الله سبحانه قال ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف : ١٨٠] وأن النبي ﷺ قال «إن لله تسعة وتسعين اسماً «مائة إلا واحداً» من أحصاها دخل الجنة ، إنه وتر يحب الوتر» ثم ذكر الأسماء .

وقال إن الحديث رواه البخاري ومسلم ، أما الأسماء فرواها الترمذي وغيره بسند حسن . ومعنى أحصاها حفظها كما فسره البخاري والأكثرون ، ويؤيده أن رواية في الصحيح «من حفظها دخل الجنة» وقيل : معناه من عرف معانيها وآمن بها ، وقيل معناه :من أطاقها بحسن الرعاية لها ، وتخلق بما يمكنه من العمل بمعانيها .

وجاء في شرحه لصحيح مسلم[2] أن العلماء اتفقوا على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى فليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين ، وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة ، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها ، لا الإخبار بحصر الأسماء ، ولهذا جاء في الحديث الآخر : «أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك» وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن العربي المالكي عن بعضهم أنه قال : لله تعالى ألف اسم . قال ابن العربي ، وهذا قليل فيها .

وجاء في تفسير القرطبي للآية المذكورة الإشارة إلى العلاقة بين الاسم والمسمى والفرق بين الاسم والصفة ، وأحال توضيح ذلك إلى تأليفه الخاص عن شرح أسماء الله الحسنى ثم قال : الذي يذهب إليه أهل الحق أن الاسم هو المسمى أو صفة له تتعلق به ، وذكر أن الأسماء في الآية تعني التسميات ، لأن الله واحد والأسماء جمع ، وقال القاضي أبو بكر [3] عن أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين : إنها عبارات عن كون الله تعالى على أوصاف شتى ، منها ما يستحقه

١- للإمام النووي ص١٠٤ .   ٢- ج١٧ ص ٥ .
٣- في كتاب التمهيد .

لنفسه ، ومنها ما يستحقه لصفة تتعلق به ، وأسماؤه العائدة إلى نفسه هي هو ، وماتعلق بصفة له فهي أسماء له ، ومنها صفات لذاته ، ومنها صفات أفعال ، وهذا تأويل قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ أي التسميات الحسنى . هذا ، وعلماء الكلام قالوا: تسمية الله بالأسماء توقيفية ، أي يتوقف إطلاقها على الإذن فيه ، وذلك للاحتياط ، احترازاً عما يوهم باطلاً ، لعظم الخطر في ذلك[1].

لعل في هذه الكلمة الموجزة ما يكفي للإجابة على السؤال ، وكتب التوحيد والتفسير فيها متسع لمن أراد الاستزادة والمهم هو العمل بمقتضى الإيمان بهذه الأسماء وليس الاكتفاء بحفظها أو حصر عددها ، فالعلم للعمل وليس لمجرد الحفظ .



س : هل يجوز إطلاق أسماء الله الحسنى على المحلات التجارية وغيرها مثل «تسالي الرحمن ، ألبان الرزاق »؟

ج : أمثال هذه الأمور يرجع فيها إلى المعنى الذي يعنيه من كتب هذه العناوين ، وإلى النية الباعثة على ذلك ، فإذا قصد مثلاً من « ألبان الرزّاق » أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يرزق اللبن ويخلصه من بين مواد كثيرة على ما يؤخذ من قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل : ٦٦] فلا مانع من ذلك ، وإذا نوى بذلك جلب الزبائن من الصالحين الذي يحسّون بنعمة الله فلا مانع أيضاً . فالأعمال بالنيات كما هو معروف.



س : ما هو اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ؟

ج : يقول الله سبحانه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء : ١١٠] .

---

١ - جاء ذلك في كتاب ((المواقف)) للإيجي وشرح معاني هذه الأسماء ، فيرجع إليه .

الإنسان مخير في أن يدعو ربه بأي اسم من أسمائه التي ذكرت في القرآن الكريم ، ويزيد عددها على التسعة والتسعين التي ذكرت في الحديث الذي رواه الترمذي ، وجاء في فضلها حديث البخاري ومسلم « من أحصاها دخل الجنة » أي من حفظها وعمل بما فيها .

وهناك من الأسماء ما هو أقرب للاستجابة عند الدعاء به ، وهو اسم الله الأعظم ، الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى ، والراجح من أقوال العلماء أنه مؤلف من عدة أسماء ، بناء على الأحاديث الواردة فيه ، فقد روى أصحاب السنن أن النبي ﷺ سمع رجلاً يدعو ويقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . فقال والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذي إذا دُعِيَ به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى ، كما رووا أيضاً أنه سمع رجلاً يدعو بقوله : اللهم لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام . فقال النبي ﷺ « لقد دعا الله باسمه الأعظم » وفي بعض الروايات أن اسم الله الأعظم موجود في آية ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٦٣] وفي فاتحة سورة آل عمران ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران : ٢] [١] .

والظاهر من تعدد الروايات أن القاسم المشترك بينها هو توحيد الله سبحانه ، والدعاء بالتوحيد فيه إخلاص وثقة بالله ، ونفي للشريك عنه ، وتقرير أنه لايستحق أحد سواه أن يُلجأ إليه فلا بد لكل دعاء أن يصحبه هذا الشعور حتى يكون في موضع الرجاء للقبول .

من هذا نرى أن اسم الله الأعظم موجود في القرآن الكريم . على أن هناك أسماء لله لم ينزل بها قرآن ولم يثبت بها حديث ، فقد جاء في بعض أدعية النبي ﷺ « أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب غمي » [٢] .



١- رواه أبو داود والترمذي وقال :حسن صحيح .
٢- رواه ابن السني عن أبي موسى الأشعري ، وذكره النووي في كتابه ((الأذكار المتخبة من كلام سيد الأبرار)).

س : هل هناك فرق بين الرحمن والرحيم ؟

ج : الصفتان مشتقتان من الرحمة ، والرحمن هو البالغ الذروة في الرحمة ، والرحيم هو صاحب الرحمة الكثيرة ، فالرحمن أبلغ منه ، والرحمن خاص بالله تعالى ، لأنه لايمكن لأحد سواه أن يبلغ الذروة فيها ، أما الرحيم فيمكن أن يوصف به غير الله سبحانه ، ومن هنا قال الأكثرون : إن الرحمن علم على الله وليس صفة ، لا يطلق على أحد سوى الله ، وما جاء عن البعض من وصف مسيلمة بأنه رحمن اليمامة ، وقول بعض الشعراء :

وأنت غيث الورى لا زلت رحماناً

فمن المبالغة في الكفر والضلال ، وقيل : إن ما كان فيه أل « الرحمن والرحيم » فهو خاص بالله تعالى ، وما ليس فيه « أل » بأن كان نكرة مثل « رحمن ورحيم » أو مضافاً مثل « رحمن اليمامة ورحيم بني فلان » فليس خاصاً بالله .

ورحمة الله صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تقتضي التفضل والإنعام ، وأما الرحمة بالنسبة لما سوى الله فمعناها رقة في القلب تقتضي الإنعام .



س : هل من أسماء الله تعالى الجميل ؟

ج : روى مسلم في صحيحه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال « لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة فقال « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس » [1].

معنى قوله « إن الله جميل » أن كل أمره سبحانه حسن وجميل ، فله الأسماء الحسنى وصفات الجمال والكمال ، قال أبو القاسم القشيري : معناه جليل ، وقيل معناه : جميل الأفعال بكم والنظر إليكم ، يكلفكم اليسير ويعين عليه ويثيب عليه الجزيل . يقول

١- رواه الترمذي وقال : حسن غريب .

النووي : هذا الاسم ورد في الحديث الصحيح ، وورد في الأسماء الحسنى وفي إسناده مقال ، والمختار جواز إطلاقه على الله تعالى : ومن العلماء من منعه ، وقال إمام الحرمين أبو المعالي : ما ورد به الشرع جوزنا إطلاقه ، وما لم يرد فيه إذن ولا منع لم نقض فيه بتجويز ولا منع ، فإن الأحكام الشرعية تتلقى من موارد الشرع ، ولو قضينا بتحريم أو تحليل لكنا مثبتين حكماً بغير الشرع ، ثم لايشترط في جواز الإطلاق ورود ما نقطع به في الشرع ، ولكن ما يقتضي العمل وإن لم يوجب العمل فإنه كاف ، إلا أن الأقيسة الشرعية من مقتضيات العمل ، ولايجوز التمسك بها في تسمية الله تعالى وصفته ، قال النووي : وقد اختلف أهل السنة في تسميته تعالى ووصفه من أوصاف الكمال والجلال والمدح بما لم يرد به الشرع ولامنعه ، فأجازه طائفة ومنعه آخرون إلا أن يرد به شرع مقطوع به من نص كتاب أو سنة متواترة أو إجماع على إطلاقه ، فإن ورد به خبر واحد فقد اختلفوا فيه ، فأجازه طائفة ، وقالوا: الدعاء به والثناء من باب العمل ، وذلك جائز بخبر الواحد ، ومنعه آخرون لكونه راجعاً إلى اعتقاد ما يجوز أن يستحيل على الله تعالى ، وطريق هـذا القطع ، قال القاضي: والصواب جوازه ، لاشتماله على العمل ولقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ وهو كما قال .

هذا ما ورد عن كمال الدين الدميري المتوفى سنة ٨٠٨هـ في كتابه «حياة الحيوان الكبرى»[١].

وخلاصته أن إطلاق اسم «الجميل» على الله فيه خلاف ، وفي اختلاف الآراء سعة.



س : قال تعالى عن أهل الكتاب ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] فهل كانوا يعبدونهم ويتقربون إليهم ؟

ج : قال تعالى ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ

١ - ج١ ص ٤٥٧ عند كلامه عن الذر.

أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة : ٣٠ ، ٣١] .

في هاتين الآيتين نعى على اليهود والنصارى الذين نسبوا إلى الله ولداً كما قال الكفار : الملائكة بنات الله ، ونعى عليهم أنهم اتخذوا رؤساءهم الروحيين أرباباً من دون الله ، فما معنى اتخاذهم أرباباً ؟

جاء في تفسير القرطبي [1] قال أهل المعاني : جعلوا أحبارهم ورهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم في كل شيء ، ومنه قوله تعالى ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ [الكهف : ٩٦] أي كالنار . وقد سئل حذيفة عن معنى هذه الآية هل عبدوهم؟ فقال: لا ، ولكن أحلوا لهم الحرام فاستحلوه ، وحرموا عليهم الحلال فحرموه ، وروى الترمذي عن عدي بن حاتم قال : أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال «ما هذا يا عدي اطرح عنك هذا الوثن» وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ ثم قال «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه» قال : هذا حديث غريب لا يعرف إلا من حديث عبدالسلام بن حرب ، وغطيف بن أعْيَن ليس بمعروف في الحديث.

يؤخذ من هذا أن تفسير اتخاذهم أرباباً بطاعتهم في التحليل والتحريم ليس فيه نص صحيح يعتمد عليه ، وإنما هو اجتهاد غير ملزم ، فغاية ما يمكن أخذه من الآية أن طاعة الأحبار والرهبان طاعة مطلقة كطاعة الله خطأ ، لأن هؤلاء الرؤساء غير معصومين ، فقد تجر طاعتهم إلى العصيان أو الكفر .

والإسلام إذا كان يأمر طاعة أولى الأمر فذلك محله في غير المعصية ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وقد صح في حديث المبايعة الذي رواه البخاري ومسلم أن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا

---

١ - ج٨ ص ١٢٠.

ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً [1] عندكم فيه من الله برهان .

ومع عدم الطاعة في المعصية هل يجوز الخروج على ولي الأمر وعزله ؟ إن حديث عبادة يدل على أنه لاتجوز المنابذة إلا عند ظهور الكفر الواضح الذي ليس فيه شبهة ، ومنه الطعن في صلاحية حكم الله ، واعتقاد ما أجمع على حرمته كالزنا والربا أنه حلال ، أما ارتكاب المحرمات بغير اعتقاد حلها فهو عصيان لا يخرج به إلى الكفر ولا يجيز الخروج عليه ، لكن النووي حمل الكفر في الحديث على المعصية ، وابن حجر فصل في الموضوع فقال : والذي ظهر حمل رواية الكفر على ما إذا كانت المنازعة في الولاية فلا ينازعه بما يقدح في الولاية إلا إذا ارتكب الكفر ، وحمل رواية المعصية على ما إذا كانت المنازعة فيما عدا الولاية ، فإذا لم يقدح في الولاية نازعه في المعصية ، بأن ينكر عليه برفق ، ويتوصل إلى تثبيت الحق له بغير عنف ، ومحل ذلك إذا كان قادراً .

وعلى ضوء ما قاله ابن حجر : إن فسق الإمام ولم يكفر وجب نصحه بالأسلوب الذي يرجى منه الخير ولا يؤدي إلى فتنة .

ووضع قوانين تحليل الحرام كالربا والخمرحرام دون شك ، لكن لا يحكم بالكفر على واضعها والحاكم بها بناء على قوله تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] إلا إذا كان هناك اعتقاد بأن حكم الله غير صحيح ، وأن القانون الوضعي هو الصحيح ، والطاعة لهذه القوانين غير جائزة ، سواء كانت من منطلق كفر من وضعوها أو عصيانهم وفسقهم ، لأن طاعتها تدخل تحت الآية ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ﴾ [التوبة : ٣١] ولابد من تغيير هذا المنكر ، لكن بالطرق المشروعة التي لا تؤدي إلى فتنة [2] .



١ - البواح - بضم الباء هو الصراح - بضم الصاد - الذي جاء في رواية الطبراني ، وهو أيضاً البراح - بضم الباء وبالراء بدل الواو - الذي جاء في بعض الروايات ، والمراد به الظاهر البيِّن الذي تشهد له النصوص ولا يقبل التأويل .

٢ - يمكن الرجوع إلى كتابنا ((نعم ، الإسلام هو الحل ولكن أين الطريق)) الذي أعيد نشره بعنوان ((المنهج السليم إلى صراط الله المستقيم)) أو إلى كتابنا : ((الإسلام ومشاكل الحياة)) أو إلى الجزء الأول من كتاب ((بيان للناس من الأزهر الشريف)).

س : هل رؤية الله تعالى ممكنة ؟

ج : اتفق علماء الكلام على أن الله سبحانه يجوز أن ينكشف لعباده انكشافاً علميًّا تامًّا بأن يخلق الله فيهم علماً تاماً ضرورياً بذاته ، كما اتفقوا على أن الرؤية الحاصلة بين الحوادث لبعضهم في الدنيا تكون في مكان وجهة وبارتسام صورة المرئي في العين ، لكنهم اختلفوا في رؤية ذات الباري بدون مقابلة وجهة ولوازم الرؤية للشاهد ، فقال أهل السنة ممكنة وقال غيرهم غير ممكنة .

واستدل أهل السنة بقول الله تعالى في شأن طلب موسى لرؤيته ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾[الأعراف : ١٤٣] حيث قالوا : لو لم تكن ممكنة لما طلبها موسى ، وأن الله علَّقها على ممكن وهو استقرار الجبل.

وقال غيرهم إن الله نص على ذلك بقوله ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ وهو نفي يفيد التأبيد كما يقولون . وكذلك بقوله ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾[الأنعام : ١٠٣].

ومناقشة الأدلة محلها كتب الكلام والتفسير . وهذا الخلاف هو في الدنيا – أما رؤيته في الآخرة ، فقد جاء فيها قوله تعالى ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ (٢٣)﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣] وعليها حمل قوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾[يونس : ٢٦] فالزيادة هي رؤيته سبحانه في الجنة ، وفي حديث البخاري ومسلم أن الناس يرون ربهم يوم القيامة كالشمس لاشك فيها وكالقمر ليلة البدر لا شك فيه وروى الحديث عن أكثر من عشرين صحابياً من كبار الصحابة .

وهي كلها رؤية بدون كيف ولا انحصار ، وقد رأى الرسول ربه ليلة المعراج ، لأنه كان في حالة غير عادية حيث كيَّفه الله تكييفاً خاصاً اخترق به السموات ولم تؤثر فيه قوانين الأرض والسماء ، ولم يكن عند سيدنا موسى هذا الاستعداد فلم يستطع رؤيته . والرؤية في الآخرة ممكنة وواقعة لأن قوانينها غير قوانين الدنيا وقد أفاض القسطلاني في «المواهب اللدنية» والزرقاني شارحها – في الكلام على الرؤية وبخاصة رؤية النبي لربه ليلة المعراج [1].

---

١ – يمكن الرجوع إلى هذا المصدر لمن أراد الاستزادة (المقصد الخامس في الإسراء والمعراج).

وأعجبني ما ختم به البحث من نقل قول القرطبي في « المفهم » شرح صحيح مسلم ، وهو التوقف في هذه المسألة ، وعزاه لجماعة من المحققين ، وقواه بأنه ليس في الباب دليل قاطع ، وغاية ما استدل به الطائفتان - المجيزة والمانعة - ظواهر متعارضة قابلة للتأويل . قال : وليست المسألة من العمليات - غير العقائد - فيكتفى بالأدلة الظنية ، وإنما هي من المعتقدات فلا يكتفى فيها إلا بالدليل القطعي . اهـ .

وأنصح بعد إطالة النقاش في هذه المسألة ، وبالاستعداد بالعمل الصالح للقاء الله يوم القيامة ، وسنعرف بحق ويقين ما نتنازع فيه .



س : سمعنا حديثاً يقول « إنكم ترون ربكم يوم القيامة » فهل هذا حديث صحيح ؟

ج : ذكرنا في إجابة سابقة خلاف الناس في رؤية الله في الدنيا ، وأشرنا إلى أن هناك أخباراً تؤكد جواز رؤيته في الآخرة ، وزيادة في التأكيد نقول : جاءت في ذلك أحاديث متفق عليها ، منها حديث رواه البخاري ومسلم عن أكثر من عشرين من أكابر الصحابة منهم أبو سعيد الخدري الذي سأل النبي ﷺ هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال « هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً » قلنا لا ، قال « فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون في رؤيتهما ، ثم ينادي مناد : ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ، فيذهب أهل الصليب مع صليبهم ، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم ، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم ، حتى يبقى من كان يعبد الله من بر وفاجر وغبرات - بقايا - من أهل الكتاب ، وبعد إلقاء اليهود والنصارى في جنهم يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر ينتظرون رؤية الله ، فيأتيهم على غير الصورة التي رأوه أول مرة . . . وعند رؤيته يسجد له كل مؤمن ، ولايستطيع من كان يسجد له رياء وسمعة . . إلى آخر الحديث . وفي حديث آخر للبخاري ومسلم « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان » .

يؤخذ من هذا أن أهل الموقف جميعاً يرون الله ، وتكون الرؤية للمؤمنين نعيماً ولغيرهم شقاء ، يوضحه قوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) ﴾ [القيامة : ٢٢ - ٢٥] فإذا فرغ من الكافرين وألقى بهم في جنهم يرى المؤمنون ربهم مرة ثانية ، فقد ورد في صحيح مسلم « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله عز وجل : تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم » ثم تلا هذه الآيـة ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] فرؤية الله في الآخرة واقعة ولا ينبغي الجدال فيها ، وعلينا أن نستعد للقائه في جنة النعيم فذلك أولى .



س : تأتي في بعض الآيات صفات الله تعالى فيها عبارة « كان » مثل « كان الله غفوراً » فهل هذه الصفات ، كانت في الماضي وزالت عنه وتغيرت أم باقية؟

ج : إذا وصف الله نفسه في القرآن الكريم لم يأت هذا الوصف دائماً مقروناً بلفظ « كان » فكثيراً ما يأتي الوصف بدون ذلك . قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٩] ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المزمل : ٢٠] .

وفي بعض الآيات يأتي الوصف مع لفظ « كان » كقوله تعالى ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٩] وقوله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٦] وقوله تعالـى ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٣٤] .

وليس المراد بذلك أن الله سبحانه كان متصفاً بالمغفرة والرحمة والعلم والسمع والبصر في زمن مضى ، ثم زالت عنه هذه الصفات في الزمن الحاضر ولا يتصف بها في المستقبل ، ذلك لأن تقسيم الزمن إلى ماض وحاضر ومستقبل هو بالنسبة لنا نحن ، حيـن نتحدث ونحدد ما يقع من أحداث قبل زمن الحديث عنها أو فـي أثناء الحديث أو بعده ، أما الله سبحانه فهو منزه عن الزمان . وما كان مخلوقاً لا يتحكم فيمن خلقه .

وكأن الله سبحانه حين يقرن صفاته بلفظ «كان» يبين لنا أنه موصوف بذلك قبل أن يخبرنا ، بل قبل أن يخلقنا ، فهي صفات أصيلة فيه وجبت له لذاته لا لعلة أوجدتها فيه . فقد كان الله بصفاته ولا شيء معه . وقد نبه المفسرون على ذلك ، فجاء مثلاً في تفسير الجلالين لقوله تعالى في أول سورة النساء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء : ١] قوله : أي لم يزل متصفاً بذلك . وقال الجمل في الحاشية : نبه به على أن «كان» قد استعملت هنا في الدوام ، لقيام الدليل القاطع على ذلك .



س : هل هناك حديث يقول : تخلقوا بأخلاق الله ، وكيف يقال عن صفات الله إنها أخلاق ؟

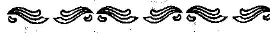
ج : لايوجد حديث عن النبي ﷺ بهذا اللفظ ، ذلك أن الخُلق كما عبر عنه العلماء ملكة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بيسر وسهولة من غير فكر ولاروية ، ولايمكن أن يعبر عن صفات الله مثل الرحمة والعدل بأنها آثار لملكة راسخة في النفس .

والذي ورد أن السيدة عائشة رضي الله عنها سئلت عن أخلاق النبي ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن [1] . وجاء في زيادة : يغضب لغضبه ويرضى لرضاه .

وقد علق العارف بالله عمر شهاب الدين بن محمد بن عمر السهروردي المتوفى ببغداد في المحرم سنة ٦٣٢هـ - في كتابه عوارف المعارف على قول السيدة عائشة بقوله: ولا يبعد أن قول عائشة رضي الله عنها : كان خلقه القرآن فيه رمز غامض وإيماء إلى الأخلاق الربانية ، فاحتشمت الحضرة الإلهية أن تقول : كان متخلقاً بأخلاق الله تعالى ، فعبرت عن المعنى بقولها : كان خلقه القرآن ، استحياء من سُبُحات الجلال ، وستراً للحال بلطيف المقال ، وهذا من وفرة عقلها وكمال أدبها [2].

١- رواه مسلم وغيره .
٢- الزرقاني على المواهب اللدنية ج ٤ ص ٢٤٦.

فإذا جاء التعبير على لسان بعض رجال التصوف بلفظ « أخلاق الله » فلم يجئ هذا التعبير عن النبي ﷺ . وإن كانت صفات الله سبحانه معروفة .



س : ما معنى قوله تعالى ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] مع أننا نعرف أن المكر صفة مذمومة لاتليق بالله سبحانه؟

ج : في مفردات الراغب الأصفهاني أن المكر هو صرف الغير عما يقصده بحيلة ، وذلك ضربان ، مكر محمود ، وذلك أن يتحرى بذلك فعل جميل ، وعلى ذلك قال ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ ومذموم ، وهو أن يتحرى به فعل قبيح ، قال تعالى ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ ﴾ [فاطر : ٤٣] وقال تعالى ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] وقال تعالى ﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [النمل : ٥١] وقال في المحمود والمذموم ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [النمل : ٥٠] وقال تعالى ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] ومن دعاء الرسول ﷺ « اللهم امكر لي ولاتمكر علي » يعني أن كفار بني إسرائيل دبروا حيلة لقتل سيدنا عيسى عليه السلام ، ودبر الله أمراً آخر لحمايته فألقى شبه عيسى على غيره ، ورفع عيسى إليه ، والله خير من يدبر الأمور ولا يغلبه أحد .

هذا ما نقلته عن مفردات الأصفهاني بتصرف بسيط في تكميل بعض الآيات ، وما يوضح معنى الآية الواردة في السؤال ، أما التفسير الوافي فيرجع فيه إلى كتب التفسير ، ومن هنا نعرف أن المكر هو التدبير ، فإن كان في شر فهو مذموم ، وإن كان في خير فهو محمود .



س : هل صحيح أن من صلَّى الصبح ثم جلس حتى تطلع الشمس يكون له ثواب عمرة؟

ج : عن أنس رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ « من صلى الصبح في جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة» قال : قال رسول الله ﷺ «تامة تامة تامة»[1].

من هنا نعلم فضل صلاة الصبح جماعة في المسجد والمكث فيه مع الاشتغال بذكر الله حتى تطلع الشمس ، ثم صلاة الضحى التي أقلها ركعتان . ولايستبعد أحد أن يكون ثواب ذلك كثواب حجة وعمرة ، ففضل الله واسع ، يقبل القليل ويعطي الجزيل ولذلك نظائر كثيرة منها :

١- فضل ليلة القدر ، فإن قيامها خير من ألف شهر كما نص عليه القرآن الكريم .

٢- فضل أداء الفرض في رمضان ، فثوابه كثواب سبعين فرضاً في غيره ، كما جاء في حديث سلمان الذي رواه ابن خزيمة في صحيحه .

٣- قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ . . . .﴾ تعدل قراءة ثلث القرآن كما رواه مسلم وغيره.

٤- النفقة في سبيل الله يضاعفها الله ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

٥- روى البخاري ومسلم وغيرهما أنه ﷺ قال : «من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل» .

٦- روى البخاري ومسلم وغيرهما أنه ﷺ قال « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»

١- رواه الترمذي وقال :حديث حسن غريب أي رواه راوٍ واحد فقط ، وجاءت رواية أخرى عن أبي أمامة بإسناد جيد للطبراني بهذا الثواب ، كما جاءت روايات فيها مقال لكن تقبل في فضائل الأعمال بهذا الثواب وبغيره ، والثابت كما رواه مسلم وغيره أن النبي ﷺ كان إذا صلى الصبح جلس يذكر الله حتى تطلع الشمس

وغير ذلك كثير في الشريعة الإسلامية ، يكون العمل قليلاً ويكون ثوابه كبيراً مادام مستكملاً لأركانه وشروطه مع الإخلاص لله سبحانه . وهذا تشجيع على الإقبال على طاعة الله بالفعل أو العزم عليه كما جاء في الصحيح أن من همَّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر حسنات .

وإذا كان النبي ﷺ قد أخبر أن العمرة في رمضان تعدل حجة معه كما رواه مسلم فليس معنـى ذلك أنها تكفي عن الحج إذا كان قادراً عليه ، بل لا بد من أدائـه ، وكذلك إذا كانت صلاة الفريضة في رمضان تعدل سبعين فريضة فيما سواه فليس معنى ذلك أن من ترك سبعين صلاة تكفي عنها صلاة واحدة في رمضان ، بل لابد من قضاء كل ما فات ، وكذلك إذا صح الحديث كما رواه مسلم أن الصلاة في مسجد المدينة أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، فليس المراد أن الصلاة الواحدة تكفي عن ألف صلاة تركها ، ومثل ذلك ما رواه أحمد وابن ماجه بإسنادين صحيحين أن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه - لا يعني أن يهمل الإنسان في الصلاة سنوات طويلة ثم يعوض كل ما فات بصلاة واحدة أو أكثر قليلاً في المسجد الحرام .



س : نسمع من بعض المتصوفة ومن لهم ميول دينية أن هناك علماً لَدنيًّا ليس موجوداً في كتاب الله وسنة رسوله ، فهل هذا صحيح؟

ج : ذكر القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ في تفسيره لقول الله تعالى في سورة الكهف ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف : ٦٥] ناقلاً عن الإمام أبي العباس أن قوماً من زنادقة الباطنية قالوا : إن الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء والعامـة ، أما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص ، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم ، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم ، وقالـوا : وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار ، وخلوِّها من الأغيار ، فتنجلي لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية فيقفون على أسرار الكائنات ، ويعلمون أحكام

الجزئيات ، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات ، كما اتفق للخضر ، فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم ، وقد جاء فيما يقولون : استفت قلبك وإن أفتاك المفتون . قال شيخنا : وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب ، لأنه إنكار ما علم من الشرائع ، وأحكام الله لا تكون إلا عن طريق رسله المبلّغين المبينين لشرائعه وأحكامه .

وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي واليقيني الضروري وإجماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله إلا من جهة الرسل ، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ الذي جعله الله خاتم الأنبياء والرسل ، فلا نبي بعده ولا رسول .

وبيان ذلك أن من قال : إنه يأخذ عن قلبه وأن ما يقع فيه هو حكم الله ، وأنه يعمل بمتقضاه ولا حاجة إلى كتاب وسنة - فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة ، وهذا نحو ما قاله الرسول ﷺ «إن روح القدس نفث في روعي . . » .

والقسطلاني المتوفى في سنة ٩٢٣ هـ في كتابه « المواهب اللدنية » وشارحه الزرقاني [١] نقلا عن بعض كبار التصوف أن من علامة محبة الله إيثار طاعته ومتابعة نبيه ، وعن غيره لا يظهر على أحد شيء من نور الإيمان إلا باتباع السنة ومجانبة البدعة . فأما من أعرض عن الكتاب والسنة ولم يتلق العلم من مشكاة الرسول ﷺ، بدعواه علماً لَدُنِّيا أوتيه ، فهو من لدن الشيطان والنفس . وإنما يعرف كون العلم لدنيًّا روحانيًّا بموافقته لما جاء به الرسول ﷺ من ربه تعالى.

فالعلم اللدني الآتي لصاحبه من عند غيره نوعان ، أحدهما لدنِّي رحماني وثانيهما لدني شيطاني ، والمميز لذلك هو الوحي ، ولا وحي بعد الرسول ﷺ . قال الجنيد : علْمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة . وأما قصة موسى والخضر وقوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ فالتعليق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني - إلحاد وكفر يخرج عن الإسلام ، موجب لإراقة الدم . وذلك أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى

١- المجلد ٦ ص ٣١٠ ، ٣١١ .

الخضر ، ولم يكن الخضر مأمور بمتابعته ولو كان مأموراً بها لوجب عليه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه ، ولهذا قال له : أنت موسى نبي بني إسرائل؟ قال : نعم . فرسالته خاصة ، ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين ، فرسالته عامة للجن والإنس في كل زمان . ولو كان موسى وعيسى حيَّين لكانا من أتباعه كما في الحديث .

فمن ادعى أنه مع محمد كالخضر مع موسى ، أو جوَّز ذلك لأحد من الأمة فَلْيجدد إسلامه لأنه كفر . وليس من خاصة أولياء الله وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه ، والعلم اللدني الرحماني هو ثمرة العبودية ، والمتابعة لهذا النبي الكريم ، وبه يحصل الفهم في الكتاب والسنة بأمر يختص به صاحبه ، كما قال علي ابن أبي طالب لأبي جحيفة وقيس بن عباد والأشتر النخعي - في سنن النسائي - حين سئل : هل خصَّكم يا أهل البيت رسول الله ﷺ بشيء دون الناس من أسرار علم الوحي كما تزعم الشيعة ؟ فقال : لا إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه ، فهذا هو العلم اللدني الحقيقي .

وقد جعل السيوطي في كتابه «الإتقان» فصلاً عن كلام الصوفية في القرآن ، فيه تحذير شديد لما يخالف ما اتفق عليه .

س : هل من الحديث ما يقال «عبدي أطعني تكن ربانيًّا تقول للشيء كن فيكون» ؟

ج : لم أجد هذا الكلام حديثاً صحيحاً، وإن كان هناك ما يؤيد معناه مثل «وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به .. ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه»[1] .

س : ما هو الشرك الخفي ؟

ج : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال» ؟ فقلنا : بلى يا رسول الله فقال «الشرك الخفي ، أن يقوم الرجل

١- رواه البخاري .

فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل»[1]. وجاءت فيه روايات بألفاظ متقاربة كلها تفيد أن الرياء مذموم، كأن الإنسان يشرك مع الله غيره في أداء العبادة، قال تعالى في ذم المرائين ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] وقال تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: ٤ - ٧].

والأحاديث في ذم الرياء كثيرة، منها حديث مسلم في الثلاثة الذين يكونون أول من تسعَّر بهم النار يوم القيامة، المجاهد والعالم والجواد، كانوا يحرصون على ثناء الناس عليهم، وحديث البخاري ومسلم «من سمَّع سمَّع الله به، ومن يراء يراء الله به» أي من أظهر عمله للناس رياء أظهر الله نيته الفاسدة يوم القيامة وفضحه على رءوس الأشهاد. وحديث ابن خزيمة في صحيحه «يا أيها الناس إياكم وشرك السرائر» قالوا وما هو؟ قال «يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهداً، لما يري من نظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر» وجاء في حديث أحمد والطبراني أن النبي حذَّرهم من هذا الشرك الخفي فسألوه كيف يتقونه؟ فقال «قولوا اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لانعلمه» وفي بعض الروايات: يقال ذلك ثلاث مرات كل يوم.



س: نسمع بعض العلماء يقولون أو يكتبون بعد أن يجيبوا على سؤال ديني، أو يبحثوا قضية دينية «الله ورسوله أعلم» فاعترض بعض الناس على هذه العبارة وقالوا إنها من الشرك، فهل هذا صحيح؟

ج: بعد التحذير من الإسراع في الحكم على أي شيء بدون علم دقيق، وبخاصة في الأمور الدينية - أقول: إن كتب الدين مملوءة من قديم الزمان بهذه

---

١ - رواه ابن ماجه والبيهقي.

العبارة ، وبخاصة في الأحكام الاجتهادية التي ليس فيها نص قاطع . ولم يعترض عليها أحد ممن يوثق في علمهم ، وذلك يوحي بالإجماع على جوازها .

والأصل في ذلك قبل الإجماع أنها قيلت أمام الرسول ﷺ ولم يمنعها ، فقد روى البخاري ومسلم أنه في حجة الوداع سأل في خطبته يوم النحر بمنى قائلاً للصحابة: « أي شهر هذا »؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظنوا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال « أليس ذا الحجة » فقالوا : بلى . وحدث مثل ذلك حين سألهم عن اليوم والبلد ولم ينكر عليهم هذه العبارة . وروى مسلم [1] أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل « هل تدري ما حق الله على العباد »؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال « فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً » ثم قال له بعد مدة (هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك » ؟ فقال : الله ورسوله أعلم ، قال « ألا يعذبهم » فلم ينكر الرسول على معاذ قوله : الله ورسوله أعلم .

وفي الحق إنها عبارة صادقة ، فالله سبحانه هو أعلم مَنْ خَلَقَ على الإطلاق ، كما أن رسول الله ﷺ أعلم من الصحابة ومن أرسل إليهم بالأحكام الدينية التي تلقاها عن الله ، والتي أذن بإصدارها وأمرنا بطاعته فيها . والنصوص كثيرة في ذلك ، منها قوله تعالى ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر : ٧] وقوله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] وقوله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [النجم : ٣ ، ٤] . بهذا وبغيره لا يوجد مبرر لاعتراض بعض الناس على عبارة «الله ورسوله أعلم» .



س : إذا كان السجود لله وحده فلماذا أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ، وكيف سجد أخوة يوسف له؟

ج : **أولاً** : سجود الملائكة لآدم ليس سجود عبادة ، بل سجود تحية .

١- ج١ ص٢٣٠ .

ثانياً : الذي أمر بذلك هو الله ، ولا بد من امتثال أمره ، لكن لو أمر أحد غير الله بالسجود لغير الله حرم الأمر وحرم الامتثال ، جاء في ا لحديث النبوي « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها »[1] .

وقال المفسرون بعد اتفاقهم على أن سجود الملائكة لآدم لم يكن سجود عبادة: إن الله أمرهم أن يضعوا جباههم على الأرض ، وذلك تكريماً لآدم ، أو كان السجود لله ولكن القبلة هـي آدم ، كما يقال : صلى الإنسان للقبلة ، أي إليها ، وقيـل : إن السجود لم يكن سجوداً مادياً بأية هيئة ولكنه سجود معنوي هو الإقرار والاعتراف بفضل آدم . ومهما يكن من شيء فإن السجود للتحية - لا للعبادة - ظل معروفاً من قديم الزمان حتى زمن يعقوب عليه السلام قال تعالى عن يوسف ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ [يوسف : ١٠٠] بل بقى إلى زمن الرسول ﷺ ولما رأى الصحابة سجود الشجر والجمل له قالوا: نحن أولى بالسجود لك فقال : « لاينبغي أن يُسجد إلا لله رب العالمين » وروى ابن ماجه في سننه والبستي في صحيحه أن معاذ بن جبل لما قدم من الشام سجد لرسول الله ﷺ فقال « ماهذا؟ » قال : يا رسول الله قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأباطرتهم وأساقفتهم ، أردت أن أفعل ذلك بك ، فقال « فلا تفعل فإني لو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، لاتؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها ، حتى لو سألها نفسها وهي على قتب [2] لم تمنعه » .

من هذا يعرف أن سجود العبادة ممنوع ، وأن سجود التحية لآدم كان بأمر من الله ، وسجود إخوة يوسف كان للتحية أيضاً ، ونهى عنه الإسلام مطلقاً ، حتى لو كان للتحية.



١- رواه الترمذي وصححه.

٢- القتب رحل صغير على قدر سنام الجمل.

س : ما هو سبُّ الدهر ، وكيف تكون عباراته لتجنبها ، وحكمة النهي عنه في الإسلام ؟

ج : سب الدهر يكون بعبارات مختلفة تدل على الضيق منه ولعنه واحتقاره . ولا يلجأ إليه إلا من وقع في أزمة شديدة لايجد خلاصاً منها ، وبخاصة إذا وجد غيره من الناس يتمتع بكل أنواع النعيم . والرسول ﷺ نهى عن لعن أي شيء كما رواه أبو داود والترمذي «من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه» .

والذي يلعن الزمان أو المكان خالف هدي الرسول ﷺ في النهي عن اللعن ، وبخاصة الدهر ، جاء في حديث البخاري ومسلم « قال الله تعالى : يسب بنو آدم الدهر وأنا الدهر ، بيدي الليل والنهار» وفي رواية « أقلّب ليله ونهاره ، وإذا شئت قبضتهما» وفي رواية لمالك « لا يقل أحدكم : يا خيبة الدهر ، فإن الله هو الدهر» يقول الحافظ المنذري : معنى الحديث أن العرب كانت إذا نزلت بأحدهم نازلة أو أصابته مصيبة أو مكروه يسب الدهر ، اعتقاداً منهم أن الذي أصابه هو فِعْلُ الدهر ، فكان كاللعن للفاعل ، ولا فاعل لكل شيء إلا الله تعالى خالق كل شيء ، فنهاهم النبي ﷺ عن سب الدهر ، لأنه مدرجة لسب فاعل الأمور وخالقها ، وهو الله تعالى .

والدهر ليس اسماً من أسماء الله تعالى ، فالله هو خالقه وخالق كل شيء ، ومهما يكن من شيء فإن أسماء الله تعالى ليست محصورة في التسعة والتسعين ، كما في الحديث الآخر الذي يقول « أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك» وعلماء الكلام قالوا : تسمية الله بالأسماء توقيفية ، أي يتوقف إطلاقها على الإذن فيه ، وذلك للاحتياط ، احترازاً عما يوهم باطلاً لعدم الحظر في ذلك[1] . وعلى هذا فلا يجوز الحلف بالدهر على أنه من أسماء الله .



---

١ - جاء هذا في كتاب ((المواقف)) للإيجي ، وشرح معاني هذه الأسماء ، فيرجع إليه .

س : ما حكم الدين فيمن يسبون الديك أو أي شيء آخر يدل أن يسبوا الدين؟

ج : يجري على ألسنة بعض الفساق عبارة سب الدين ، وذلك ردة وكفر لها حكمها ، وأحياناً يقول الشخص « يلعن ديك أمك » وحكمه أنه إذا كانت نيته سب الدين ولكن يتستر بلفظ الديك حتى لا يؤاخذه أحد عليه فهو مرتد عند الله سبحانه ، لأن الإنسان يحاسب عند ربه بحسب نيته ، أما بالنسبة لنا فلا نحكم عليه بالردة ، لأننا مأمورون بالحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر .

وأحذر هؤلاء من هذه العبارة التي لو تعودوها فقد يصرحون بسب الدين وهنا يكون الكفر ، مع أن النبي ﷺ نهى عن سب الديك فقال : « لاتسبوا الديك فإنه يوقظ للصلاة » وفي لفظ « فإنه يدعو إلى الصلاة » [1] .



س : ما حكم من يحلف ويقول : أكون على غير دين الإسلام إن فعلت كذا؟

ج : قال النووي [2] : يحرم أن يقول الإنسان : إن فعلت كذا فأنا يهودي أو نصراني أو بريء من الإسلام ونحو ذلك .

فإن قاله وأراد حقيقة تعليق خروجه عن الإسلام بذلك صار كافراً في الحال ، وجرت عليه أحكام المرتدين . وإن لم يرد ذلك لم يكفر ، لكن ارتكب محرماً ، فيجب عليه التوبة ، بأن يقلع في الحال عن معصيته ، ويندم على ما فعل ، ويعزم على ألا يعود إليه أبداً ، ويستغفر الله تعالى ويقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله .



١- رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه بإسناد جيد.

٢- الأذكار ، ص ٣٥٦.

س : ما حكم من قال لمسلم يا كافر ؟

ج : روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال : « إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما ، فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه » وفي رواية لهما « من دعا رجلاً بالكفر ، أو قال عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه » ومعنى حار رجع .



س : يتحدث الناس كثيراً عن الوسيلة ما بين مجيز ومحرم ، نريد تحديد المراد منها وبيان حكمها الصحيح؟

ج : موضوع الوسيلة والتوسل اشتد الخلاف فيه أخيراً ، وبخاصة عندما نشر كتاب الوسيلة لابن تيمية ، ففريق قال بمشروعيته ، وفريق آخر قال بعدم مشروعيته ، وقد تغالى كل من الفريقين في التمسك برأيه ، والتغالي في كل شيء مدرجة إلى التعصب إن لم يكن هو التعصب نفسه ، وهو يؤدي إلى نتائج خطيرة ، أدناها تمزق المسلمين وأقصاها رمي بعضهم بعضاً بالكفر ، وترجمة ذلك إلى معاملات عنيفة .

والتعصب من الفريقين أدى إلى إسراف كل منهما في حشد الأدلة التي تؤيد وجهة نظره حتى لو كانت ضعيفة السند ، وإلى الإغراق في تأويل ما صح سنده ليقف إلى جانبه حتى لو كان التأويل بعيداً ، وإلى الاستشهاد بما وقع من كبار الشخصيات حتى لو كانوا ممن لا يؤخذ عنهم التشريع .

وهذا أمر لا يقره الدين الذي يدعو إلى الوحدة ، وإلى الاعتدال وعدم التعصب وعدم الإسراف . فهناك نصوص محكمة قطعية الثبوت واضحة الدلالة ، وهناك أصول راسخة تكون المعالم الأساسية للدين ، يجب أن يحتكم إليها ، ويرد كل اختلاف إلى ما تدل عليه ، وذلك لتقريب وجهات النظر وتخفيف حدة التعصب ، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران : ٧] .

إن المغالين في الإنكار على التوسل عمدوا إلى نصوص واردة في الكفار وطبقوها على المسلم الذي يؤمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً ، كما فعل الخوارج من قبل ، فحكموا على كثير من المسلمين بالكفر بناء على نصوص وردت في الكافرين نقل البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان يقول : شرار خلق الله الخوارج ، عمدوا إلى آيات نزلت في المشركين فجعلوها في المسلمين . ومثل ذلك قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما .

وذلك كاستشهادهم بقول الله تعالى حكاية عن المشركين ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر : ٣] في أن من يتوسل إلى الله بشخص كان مشركاً ، مع أن المتوسل لم يعبد من توسل به .

والمغالون في التوسل أفرطوا في حب الصالحين فوضعوهم فوق ما يستحقون ، حتى قال بعضهم : إن فيهم من يتصرف في الكون وإن كان ذلك كله بإرادة الله تعالى ، لكن الاعتقاد في سمو منزلتهم كان ينسيهم ربهم . والرسول ﷺ حذّر من التغالي في حبه ، مع أن حبه في قمة الحب الواجب على المؤمن كما في الحديث الشريف «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار» فقال عليه الصلاة والسلام «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، ولكن قولوا عبدالله ورسوله» .

والحد الوسط الذي يجب أن نقف عنده جميعاً ، ونلتقي عنده إخواناً متحابين هو:

١- الاعتقاد بوحدانية الله تعالى ، لا شريك له في ملكه ، هو الخالق والرازق والنافع والضار ، وإليه يرجع الأمر كله ، وكل شيء يمس هذه الوحدانية ممنوع .

٢- الاتجاه بالعبادة إليه وحده ، لانشرك به أحداً فيها كما قال سبحانه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٥] وقال ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٨] .

٣- الإيمان بأن الله يكرم من يشاء من عباده بما يشاء من فضله ومن أنواع هذا الإكرام قبول دعائه والاستجابة له ، كما قبل دعاء المرسلين بتحقيق الخير لهم أو دفع الشر عنهم . ومن ذلك ما ورد في سورة الأنبياء عن دعاء نوح بنصره على من كذبه ، ونجاته ومن معه من الغرق ، وأيوب بكشف الضر عنه ، ويونس بنجاته من بطن الحوت ، وزكريا بطلب الذرية . وما ورد في سورة البقرة وإبرهيم عن دعاء إبراهيم وإسماعيل بأمن البلد الحرام والحج إليه وبعث رسول إلى الأمة المسلمة من ذريتهما .

ومن الإكرام قبول الشفاعة للناس بإذنه ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ﴿ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ : ٢٣] .

ومن الإكرام منع العقاب عمن يستحقونــه من أجل وجود من يحبه الله فيهم ، كما قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

٤- الإيمان بأن الله قادر على أن يخرق العادات التي ألفها الناس ونظموا عليه أمور حياتهم ، وخرق العادة إن كان لنبي سمي معجزة ، وإن كان لولي صالح سمي كرامة ، وفي القرآن والسنة عن أخبار المعجزات والكرامات كثير .

٥- كل من ظهرت على أيديهم المعجزات والكرامات يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى هو فاعلها ، ولا قدرة لهم عليها إلا بقدرته تعالى ولم ينسبها أحد لنفسه على الحقيقة ، مع جواز ذلك على سبيل المجاز ، وذلك واضح في قول عيسى عليه السلام ﴿ أَنِّى قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّىٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٩] .

٦- عبادة الله يجب أن تكون على الوجه الذي ارتضاه للتقرب به إليه ، وما سوى ذلك مرفوض ، وهذا الوجه الذي ارتضاه موجود في كتابه وسنة نبيه ، ومنه

ما هو واضح لا غموض فيه ، وما يحتاج إلى بيان قام ببعضه الأئمة المجتهدون . وما كان مجمعاً عليه أو دليله قطعي الثبوت والدلالة لايجوز العدول عنه ، وماكان غير ذلك كان للاجتهاد فيه نصيب ولا يجوز القطع بأن من خالفه فقد عصى الله ورسوله ، وذلك مبسوط في كتب الأصول .

٧- يجب اعتبار النية عند الحكم على أي فعل يصدر من العبد كما قال ﷺ « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » . وإذا لم نعلم نية العبد وجاز لنا أن نحكم على الظاهر فإن هذا الحكم لا يكون قطعيًّا تترتب عليه آثار خطيرة على النفس أو المال أو العرض أو الدين . وقد صح أن النبي ﷺ قال : « إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم » والذي يحكم الحكم الصحيح على العبد هو الله سبحانه وتعالى ، لأنه أعلم بنيته ، فإن أفصح لنا العبد عن نيته وقصده كان الحكم عليه صواباً أو أقرب إلى الصواب .

ومعرفة الحقيقة والمجاز في اللغة العربية تفيد في هذا الموضوع . فلو قال أحد مثلاً : المطر هو الذي أنبت النبات ، وأسند الإنبات إلى المطر حقيقة دون تدخل من قدرة الله وإرادته كان ذلك كفراً ، أما إذا كان يعتقد أن الإنبات هو بقدرة الله وأن المطر لايعدو أن يكون سبباً فذلك أمر لا غبار عليه ، ولايجوز رمي قائله بالكفر . وأسلوب المجاز مستعمل بكثرة عند العرب وموجود في القرآن الكريم والسنة النبوية .

٨- إذا وجدنا خطأ في العبادة قولاً أو عملاً وجب علينا أن ننبه المخطئ إليه ، لأن ذلك من ضمن ما كلفنا الله به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والذي ينبه على الخطأ من يعلم بأنه خطأ ، قال تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤]. ويجب أن يكون التنبيه بالأسلوب الذي رسمه الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] فمن كان جاهلاً بالحكم كانت الوسيلة تعليماً له والتعليم

لابد أن يكون حكيماً يختار له الأسلوب المناسب . ومن كان عالماً بالحكم ولكنه مقصر في التطبيق كانت الوسيلة وعظاً له قائماً على الترغيب في الخير والترهيب من الشر ، ويلزم أن يكون الأسلوب مهذباً متناسباً مع حجم الموضوع وحال من يوجه إليه النصح ومن كان متعصباً لفكره أو أسلوبه لاينقصه العلم ولا تفيده الموعظة فهو يلجأ إلى المناقشة والجدال كان التحاور معه بالطريقة المثلى ، يختار له أحسن الأساليب ، لأن طرفي النقاش يقفان موقف الند للند ، والفائز منهما من يدلي بأحس ما عنده قولاً وفعلاً .

٩- من أهم ما يساعد على تقريب وجهات النظر ، وجمع أصحاب الفكر على كلمة سواء ، تحرير المراد من الألفاظ وتحديد المفاهيم ، ولهذا سنبدأ ببيان معنى الوسيلة والتوسل وما يراد منهما ، ثم نذكر الحكم بما يتفق مع هذا المعنى .

معنى الوسيلة والتوسل :

جاء في مختار الصحاح : الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير ، والجمع الوسيل والوسائل والتوسيل والتوسل واحد ، يقال : وسل فلان « بالتشديد » إلى ربه وسيلة ، وتوسل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل .

وجاء في القاموس المحيط : الوسيلة المنزلة عند الملك ، وتوسل إلى الله تعالى عَمِل عملاً تقرب به إليه .

وفي القرآن الكريم جاء لفظ الوسيلة في موضعين ، أولهما في قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة : ٣٥] ثانيهما في قوله تعالى ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ [الإسراء : ٥٧] كما جاء في السنة في قول النبي ﷺ « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ ، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لاتنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة » .

أما المراد منها في الحديث فواضح ، لأن النبي ﷺ هو الذي بينه ، لكن المراد بها في الآيتين يتردد بين أمرين ، أولهما القربة أو الطاعة التي يتوصل بها الإنسان إلى ما يريد ، وأفضل ما يريده المؤمن هو رضوان الله تعالى ، وثانيهما الغاية أو المنزلة التي يتوصل إليها بالقربة أو الطاعة .

جاء في تفسير القرطبي للآية الأولى : الوسيلة فعيلة من توسلت إليه أي تقربت ، قال عنترة :

إن الرجال لهم إليك وسيلة   أن يأخذوك ، تكحلي وتخضبي

وعليه فالوسيلة هي القربة والعمل كما قال الحسن ومجاهد وقتادة وعطاء والسدي وغيرهم . وجاء في تفسيره للآية الثانية أن معناها : يطلبون من الله الزلفة والقربة ، ويتضرعون إلى الله في طلب الجنة وهي الوسيلة . وعليه فالوسيلة هي الغاية المطلوبة من العمل .

وذكر ابن الأثير في « النهاية » بعد ذكر حديث مسلم المتقدم هذه المعاني الثلاثة فقال : الوسيلة في الأصل ما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به ، والمراد في الحديث القرب من الله تعالى ، وقيل هي الشفاعة يوم القيامة ، وقيل هي منزلة من منازل الجنة كما جاء في الحديث .

ومن هنا نرى أن الوسيلة قد يراد بها الطريقة الموصلة إلى الغاية ، أو الغاية نفسها بصرف النظر عن تحديدها أو الغاية الخاصة المحددة ، وهي منزلة في الجنة ، ولاخلاف بين أحد من المسلمين في هذا الإطلاق ، إنما وقع الخلاف في المعنى الأول عند تحديد الطريقة التي يتوسل بها الإنسان إلى رضوان الله تعالى ، ومع ذلك لايشك أحد في أن هذه الطريقة بشكل إجمالي تقوم على أمرين أساسيين ، أولهما الإيمان وثانيهما التقوى أو العمل الصالح ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف: ١٠٧] وقال ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] لكن الخلاف يدور حول بعض الألفاظ والعبارات المتعلقة بالإيمان والتقوى ، نذكر أهمها فيما يلي :

١- التوسل إلى الله بالنبي والأنبياء :

لاشك أن رسول الله ﷺ وسيلتنا إلى الله ، من حيث إنه معلِّم ومرشد ، فطاعته وحبه أساس حب الله للعبد ، قال تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران:٣١] وقال ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] وكذلك دعاؤه لنا من وسائل القرب من الله ، وأيضاً شفاعته العظمى يوم القيامة ، وشفاعته الخاصة لبعض أمته ، والذين يسألون له الوسيلة بعد إجابة المؤذن كما سبق في الحديث الذي رواه مسلم . ولا يختلف في ذلك أحد من المسلمين ، إنما الخلاف في قول بعض الناس :اللهم إني أتوسل إليك بنبيك أن تغفر لي ، أو استشفع به إليك وهذا القول يحتمل توجيهين :

الأول : التوسل بالنبي ﷺ ليدعو له ، وهذا لا يشك أحد في جوازه وبخاصة في حياته ، فقد طلب الصحابة منه الدعاء فدعا لهم وأجيب دعاؤه . روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وهو يخطب على المنبر يوم الجمعة وقال : يا رسول الله ، هلك المال وجاع العيال ، فادع الله لنا . فدعا النبي فنزل المطر مدة أسبوع فقال الأعرابي : تهدم البناء وغرق المال ، فادع الله لنا . فدعا فقال «اللهم حوالينا ولا علينا» فانزاح السحاب .

وجاء في البخاري عن أنس أيضاً أن عمر رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس فقال : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبيك فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، فيسقون . فكان العباس يدعو وهم يؤمنون لدعائه فسقوا .

الثاني : التوسل بذات النبي ﷺ ، بمعنى أن يدعو الداعي ربه راجياً الإجابة إكراماً للنبي لمنزلته عنده .ومثل النبي في ذلك غيره من الأنبياء ، فيقول الداعي : أسألك اللهم بنبيك أو بجاه نبيك أن تغفر لي .

وهذه العبارة تحتمل أمرين :

أ- أحدهما القسم وأداة القسم هي الباء مثل : بالله أن تجلس أو تفعل كذا ، على معنى أقسم بالله . والجمهور يمنعون القسم بغير الله يقول النبي ﷺ : «من

كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت» . وأجاز أحمد بن حنبل في رواية عنه القسم بالأنبياء .

ب- وثانيهما عدم القسم ، إذا أريد بالباء السببية ، والمعنى أسألك يا الله بسبب نبيك أن تكرمني ، فإن كان المراد : بسبب الإيمان به وحبه وطاعته فلا غبار عليه ، لأنه توسل بعمله هو ، وهو قربة إلى الله تعالى . وإن كان المراد : بسبب ذاته ، أو بسبب منزلته من الله ووجاهته عنده ، فهذا هو الذي احتدم الخلاف حوله بين العلماء .

ففريق ينكره ، لأن مجرد الجاه لا يعطي الشفاعة ، وعلى رأس هذا الفريق ابن تيمية ، وقد ألف في ذلك رسالة خاصة ، حاول فيها أن يرد ما جاء عن الصحابة في جوازه ، إما بالطعن في السند بالضعف أو الوقف على الصحابة أو على من ليس قوله أو فعله حجة ، وإما بالتأويل ، فيؤول ما ثبت منه على أنه توسل بدعاء النبي أو دعاء غيره كما حدث في استسقاء عمر بدعاء العباس ، وكما حدث في حديث الأعمى ، وسيأتي بعد ، ومنه توسل الناس في الموقف يوم القيامة بالأنبياء ليشفعوا لهم عند الله ، أي ليدعوا الله لهم ، وأن النبي ﷺ يدعو ، بعد أن يرفع رأسه من السجود تحت العرش ، فيقول له ربه : ارفع رأسك وسل تعط ، واشفع تشفع . فيقول : يا رب أمتي . وفريق يثبته ، ومنهم العز بن عبدالسلام الذي قال في فتاويه : لايجوز أن يتوسل إلى الله بأحد من خلقه إلا برسول الله ﷺ إن صح حديث الأعمى .

واستدل هذا الفريق بما أثر في ذلك ، ومنه :

١ - كان أهل الكتاب بنو قريظة والنضير يتوسلون بالنبي ﷺ قبل وجوده لينصرهم الله على أعدائهم . قال تعالى في اليهود ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة : ٨٩] فكانوا إذا قاتلوا المشركين قالوا : اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان ، فينصرهم الله .

٢- عن عثمان بن حنيف أن ضريراً طلب من النبي ﷺ أن يدعو الله له بالعافية ، فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويدعو بقوله « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا رسول الله إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي ، اللهم فشفعه فيَّ » وفي رواية « فإن كان لك حاجة فمثل ذلك » قال عثمان : فو الله ما تفرق بنا المجلس حتى دخل علينا بصيراً كأنه لم يكن به ضر .

وجاء أن عثمان بن حنيف أرشد رجلاً إلى ذلك فقضى له عثمان بن عفان حاجته . ويرد الفريق المانع بأن الشفاء ليس بهذا الدعاء ، وإنما بتوسل الأعمى بدعاءالنبي وشفاعته ، ولو توسل غيره من العميان الذين لم يدع لهم النبيﷺ بالسؤال به لم تكن حالهم كحاله . لكن أجاب هؤلاء بأنه لا مانع أبداً أن يكون الشفاء بدعاء الأعمى لربه مستشفعاً بالنبي ، ولذلك قال : اللهم فشفعه فيَّ . وقد كان الأعمى صادقاً في الدعاء خاشعاً فاستجاب الله له ، ولو صدق غيره وخضع في دعائه ما كان هناك مانـع من الاستجابة . وما دام الأمر فيه احتمال فلا يتحتم المنع .

٣- علم النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه أن يقول : « اللهم إني أسألك بمحمد نبيك وبإبراهيم خليلك . . . » ورد عليه بأنه حديث غير صحيح .

٢- التوسل إلى الله بحق النبي والأنبياء :

جعل بعض العلماء هذه العبارة كالتوسل بذات النبي والأنبياء وجاههم ومنزلتهم عند الله ، فيقال فيها ما قيل من قبل .

ففريق ينكره كابن تيمية ومن معه . ومن قبلهم أبو حنيفة وأصحابه حيث قالوا: لا يسأل بمخلوق ولا يقول أحد : أسألك بحق أنبيائك . قال القدوري في شرح الكرخي في باب الكراهة : لاينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به ، وأكره أن يقول : بمعاقد العز من عرشك ، أو بحق خلقك . وهو قول أبي يوسف ، قال أبو يوسف : بمعقد العز من عرشه هو الله ، فلا أكره هذا ، وأكره أن يقول : بحق فلان أو بحق

أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام . قال القدوري المسألة بخلقه لاتجوز ، لأنه لا حق للمخلوق على الخالق ، فلا تجوز وفاقاً .

ويعلق ابن تيمية في رسالته على ذلك بما ملخصه : إن الذي قاله أبو حنيفة وأصحابه من أن الله لا يسأل بمخلوق له معنيان ، أحدهما المنع بالقسم بالمخلوق على المخلوق ، وبالأولى على الخالق ، والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور ، وهو مذهب أبي حنيفة وأحد القولين في مذهب الشافعي وأحمد ، وقد حكى إجماع الصحابة على ذلك ، وقيل مكروه كراهة تنزيه . والأول أصح ، لأن الحلف بغير الله شرك .

أما الحلف بالأنبياء فعن أحمد روايتان ، إحداهما لا ينعقد اليمين به ، كقول الجمهور مالك وأبي حنيفة والشافعي ، والثانية ينعقد اليمين به ، واختار ذلك طائفة من أصحابه كالقاضي وأتباعه .

ويرد ابن تيمية على ادعاء بعضهم أن الإمام مالكاً يجيز التوسل بالأنبياء ، أي السؤال بهم إلى الله ، ويقول : إن قول مالك لأبي جعفر المنصور - الذي سأله ، أأستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله؟ - ولـمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء : ٦٤] سنده منقطع . ووضح ابن تيمية وجوه ضعف هذه الحكاية لأن مالكاً وغيره إذ يقول باستقبال الرسول عليه السلام يقول باستقبال القبلة في الدعاء .

وهذا الخبر جاء في كتاب «شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق» للنبهاني . أن القاضي عياضاً ذكره في الشفاء ، وساقه بإسناد صحيح رجاله ثقات ليس فيه وضّاع ولا كذاب ، كما قال ابن حجر في «الجوهر المنظم» : رواية ذلك عن الإمام مالك جاءت بالسند الصحيح الذي لا مطعن فيه ، وقال الزرقاني في شرح المواهب اللدنية رواها علي بن فهر بإسناد جيد ، كما ذكرها السبكي في « شفاء السقام في

زيارة خير الأنام » والسمهودي في (خلاصة الوفا) ووضح النبهاني [1]. وذكرها المغني [2].

وفريق لاينكر التوسل بحق النبي والأنبياء ، فلهم حق على الله ، كما أن لغيرهم حقًّا عليه سبحانه . قال تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] وقال ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام : ٥٤] وفي حديث الصحيحين يقول النبي ﷺ « يا معاذ ، أتدري ماحق الله على عباده » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال « حقه عليهم أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً ، يا معاذ أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك»؟ قال «حقهم عليه ألا يعذبهم» .

وهذا الحق عام لكل العباد ، وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون ، فهو كجاههم ومنزلتهم يجوز التوسل به . ومما يدل على ذلك ما يأتي :

أ- عن أنس - رضي الله عنه - قال : لما ماتت فاطمة بنت أسد - رضي الله عنهما - وكانت ربت النبي ﷺ ، وهي أم علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - دخل عليها الرسول فجلس عند رأسها وقال : رحمك الله يا أمي بعد أمي . وذكر ثناءه عليها وتكفينها ببرده وأمره بحفر قبرها ، فلما بلغوا اللحد حفره ﷺ فاضطجع فيه ثم قال : « الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت ، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ، ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي ، فإنك أرحم الراحمين» [3] .

ب- روى البيهقي بإسناد صحيح في كتابه « دلائل النبوة » الذي قال فيه الحافظ الذهبي : عليك به فإنه كله هدى ونور : عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا رب أسألك بحق محمد إلا ما غفرت لي فقال الله تعالى : يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه ؟

١- شواهد الحق ، ص ١٨٧ . ٢- ابن قدامة ، ج٣ ص ٥٩٠.

٣- هذا الحديث رواه الطبراني في الكبير والأوسط وابن حبان والحاكم ، وصححوه.

قال : يا رب إنك لما خلقتني رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : لاإله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك . فقال الله تعالى : صدقت يا آدم ، إنه لأحب الخلق إليّ ، وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك»[1] .

ج- روى ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «من خرج من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق ممشاي هذا إليك ، فإني لم أخرج بطراً ولا أشراً ولا رياء ولا سمعة ، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، أقبل الله عليه بوجهه ، واستغفر له سبعون ألف ملك»[2] .

د- هناك أحاديث أخرى مثل «إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي ، فإن جاهي عند الله عظيم» يقول ابن تيمية عنه : إنه كذب وحديث دعاء الحفظ الذي جاء فيه : «وأسألك بحق نبيك . . .» يقول عنه : إنه منكر وحديث الأربعة الذين دعوا عند الكعبة ، ذكره ابن أبي الدنيا في مجاب الدعوة ، ويقول عنه ابن تيمية أيضاً إنه كذب .

يقول المانعون للتوسل بحق النبي والأنبياء : صحيح أن حق الأنبياء على الله لا مرية فيه ، ولكنه بمعنى رفع الدرجات وقبول الشفاعات والدعاء إذا شاء ، كما قال سبحانه : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة : ٢٥٥] أما أن يكون مجرد هذا الحق مما يقتضي إجابة الدعاء إذا سأل أحد الله به ، فذلك غير مسلم . لكن يمكن أن يقال في الرد على هذا : إن تفسير الحق للأنبياء بذلك فقط تحكم لا دليل

١- رواه الحاكم أيضاً وصححه والطبراني ، وزاد فيه ((وهو آخر الأنبياء من ذريتك)) . وهذا الحديث روي مرفوعاً وموقوفاً على عمر . ورد عليه المانعون بأن تصحيح الحاكم مما أخذ عليه في هذا الحديث وغيره.

٢- ذكره السيوطي في الجامع الكبير . ويقول المعلق على كتاب الوسيلة لابن تيمية : إسناده ضعيف .

عليه . فلماذا لاتكون ذواتهم ووجودهم وسيلة للخير ، كما قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٣٣] كما كان لوجود العباس نفسه عند الاستسقاء أثر في رحمة الله لعباده عند الاستسقاء؟ وليس عمر بأقل درجة من العباس في قبول الدعاء لو كان المقصود هو الدعاء فقط .

٣- التوسل بغير الأنبياء :

التوسل إلى الله بالصالحين من عباده إن كان بمعنى طلب الدعاء منهم فلا مانع أبداً وقد طلب النبي ﷺ من عمر رضي الله عنه ألا ينساه من دعائه عندما استأذنه للسفر إلى العمرة وأمر أويسا القرني أن يستغفر له . وأمر أمته بطلب الوسيلة له كما مر في حديث مسلم عند إجابة المؤذن .

وإن كان التوسل بذواتهم وجاههم فإن كان بمعنى القسم فلا يجوز إذ لايجوز القسم من العباد غير الله ، وفي الأنبياء خلاف تقدم ، وإن كان بغير القسم ففيه الرأيان المذكوران في الأنبياء . ففريق يثبته ويستدل باستسقاء عمر بالعباس ، وكذلك بتوسل معاوية ومن معه من الصحابة والتابعين بيزيد بن الأسود الجرشي وكذلك بما سبق في حديث الخروج إلى المسجد « اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك . . . » وذلك إلى جانب أنه لم يرد نص يمنع من هذا التوسل . وفريق ينكره ، ويؤول ما ورد من ذلك إما بضعف السند ، وإما بمعنى الدعاء ، فإن بعض العباد لهم منزلة عند الله يستجيب دعاءهم . وجاء في الصحيحين قول النبي ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » وهو في صحيح مسلم في حق أويس القرني ، ومنهم البراء بن مالك إذا اشتد الحرب بين المسلمين والكفار يقولون : يا براء ، أقسم على ربك ، فقال : يا رب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد ، فأبر الله قسمه وانهزم العدو واستشهد البراء .

٤- التوسل بالأموات :

التوسل المذكور كان بالأحياء ، أما الأموات ففريقان ، فريق حي في قبره ، وفريق غير حي .

ومن الأحياء فـي قبورهم الأنبياء ، كما سيأتي بيانه ، فالتوسل بهم يجري عليه ما جرى على التوسل بهم قبل دفنهم .

فأجازه جماعة ، بدليل ما روى البيهقي في : « دلائل النبوة » أن قحطاً أصاب الناس في زمان عمر ، فجاء رجل قبر النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا ، فأتاه الرسول في المنام فقال : « ائت عمر فاقرئه السلام وأخبره أنهم مسقون ، وقل له :عليك الكيس الكيس » فأتى الرجل عمر فأخبره فبكى وقال : يا رب ما آلو إلا ما عجزت عنه ، يعني لا أقصر إلا فيما عجزت عنه .

ومنع جماعة التوسل بهم ، منهم ابن تيمية الذي يقول : لو كان جائزاً ما احتاج عمر إلى التوسل بالعباس ، وكان يمكنه أن يتوسل بالنبي بعد موته ، لكن قد يرد عليه بأن عمر فعله لبيان جواز الاستسقاء بغير النبي ﷺ ، لأنه ربما يتوهم بعض الناس أنه لايجوز الاستسقاء بغير النبي ﷺ ، ولو استسقى عمر بالنبي لأفهم أنه لايجوز الاستسقاء بغيره ، كما أن من يستسقى به يكون مع الناس ، وهم كانوا مجتمعين بعيداً عن المسجد النبوي .

أما غير الأحياء في قبورهم فلا معنى لطلب الدعاء منهم . والتوسل بذاوتهم وبجاههم حكمه حكم التوسل بذوات الأنبياء وجاههم ، والله أعلم بتكريمه لهم فهو وحده الذي يحكم عليهم ، وليس لنا من حكم عليهم في حياتهم إلا بظاهر أعمالهم .

وإذا كان التوسل بحبهم واتباع سلوكهم الطيب فهو من باب توسل الإنسان لله بعمله ، وهو أمر متفق على مشروعيته ، كأصحاب الغار الذين انطبقت الصخرة عليهم فدعوا ربهم بصالح عملهم ، ففرج عنهم .

هذا وقد سئل الشيخ محمد بن عبدالوهاب عن قولهم في الاستسقاء :لا بأس بالتوسل بالصالحين ، وقول أحمد : يتوسل بالنبي ﷺ خاصة ، مع قولهم : إنه لايستغاث بمخلوق ، فقال : فالفرق ظاهر جداً ، وليس الكلام مما نحن فيه ، فكون بعض يرخص بالتوسل بالصالحين وبعض يخصه بالنبي ﷺ وأكثر العلماء

ينهى عن ذلك ويكرهه – فهذه المسألة من مسائل الفقه وإن كان الصواب عندنا قول الجمهور من أنه مكروه ، فلا ننكر على من فعله ، ولا إنكار في مسائل الاجتهاد ، ولكن إنكارنا على من دعا المخلوق أعظم مما يدعو الله تعالى ويقصد القبر يتضرع عند ضريح الشيخ عبدالقادر أو غيره ويطلب فيه تفريج الكربات وإغاثة اللهفان وإعطاء الرغبات ، فأين هذا ممن يدعو الله مخلصاً له الدين لا يدعو مع الله أحداً ، ولكن يقول في دعائه : أسألك بنبيك أو بالمرسلين أو بعبادك الصالحين ، أو يقصد قبراً معروفاً أو غيره يدعو عنده لكن لا يدعو إلا الله مخلصاً له الدين ، فأين هذا مما نحن فيه[1] .

هذه هي فتوى ابن عبدالوهاب ، وذلك كلام ابن تيمة في حملته على التوسل ، ولو رجعنا إلى المقدمة التي وضعناها لهذا الموضوع لأمكننا أن نلتقي جميعاً عند الحقائق المذكورة فيها إذا توافر حسن النية عند المجيزين للتوسل والمانعين له ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل[2] .



س : هل تجوز التسمية بعبد النبي وعبد الرسول؟

ج : لفظ العبد يطلق على الخادم وعلى المطيع ، كما يطلق لفظ السيد على المالك والآمر ، ويطلق لفظ العبد أيضاً على المخلوق كما يطلق لفظ السيد على الخالق ، ولا شك أننا جميعاً عبيد لله وهو سيدنا وخالقنا ، وواجب علينا أن نطيعه . فإذا سمي إنسان بعبد الله أو عبدالرحمن فالمعنى أنه مخلوق لله وللرحمن ، وفي الوقت نفسه يجب أن يطيع الله ويطيع الرحمن كطاعة العبد لسيده . والعبادة والعبودية فيهما معنى التذلل والخضوع ، غير أن الأولى حقيقة دينية والثانية حقيقة كونية .

---

١ – جاء ذلك في فتاوى الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مجموعة المؤلفات القسم الثالث ص ٦٨ التي نشرتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب .

٢ – ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى الجزء الثاني من كتاب ((بيان للناس من الأزهر الشريف)) .

وإذا سمي إنسان بعبد الرسول أو عبدالنبي ، فإن قصد به أنه مخلوق للرسول أوللنبي فذلك كفر ، لأنه لا خالق إلا الله وحده . ويغلب على الظن أن من سمي بذلك لا يقصد به أنه مخلوق للرسول ، ولكن يقصد أنه خادم مطيع للرسول ، كطاعة العبد لسيده والذي يحب الرسول لدرجة أن يسمي ولده بأنه عبدٌ له لا يمكن أن يعتقد أن الرسول هو الذي خلقه ، والحديث يقول « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

ومهما يكن من شيء فإن الأولى اختيار أسماء لا تثير شبهة ، والأسماء الحسنة كثيرة وفي الحديث الشريف « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فأحسنوا أسماءكم » [1]. وفي صحيح مسلم « إن أحب أسمائكم إلى الله عبدالله وعبدالرحمن » .



س : ما رأي الدين في قول بعض الناس للعالم يا مولانا ، أو لحامل القرآن يا سيدنا ؟

ج : ١- تحدث النووي [2] عن لقب المولى ، فقال : يكره أن يقول المملوك لمالكه: ربي ، بل يقول : سيدي ، وإن شاء قال : مولاي ففي صحيحي البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال « لا يقل أحدكم : أطعم ربك ، وَضِّئ ربك اسق ربك ، وليقل : سيدي ومولاي . . » وفي رواية لمسلم « لايقل أحدكم : ربي ، وليقل : سيدي ومولاي » .

ثم قال [3] : قال الإمام أبو جعفر النحاس في كتابه « صناعة الكتاب »: أما المولى فلا نعلم اختلافاً بين العلماء أنه لا ينبغي لأحد أن يقول لأحد من المخلوقين: مولاي . قلت : وقد تقدم جواز إطلاق مولاي ، ولا مخالفة بينه وبين هذا ، فإن النحاس تكلم في المولى -بالألف واللام- وكذا قال النحاس : يقال سيد لغير

١- رواه أبو داود بإسناد جيد.   ٢- الأذكار ، ص ٣٦٠ .

٣- الأذكار ص ٣٦١ .

الفاسق ، ولا يقال السيد - بالألف واللام- لغير الله تعالى - والأظهر أنه لابأس بقوله : المولى والسيد : لغير الفاسق .

٢- وقال النووي [1] اعلم أن « السيد يطلق على الذي يفوق قومه ويرتفع قدره عليهم ، يطلق على الزعيم والفاضل ويطلق على الحليم الذي لايستفزه غضبه ، ويطلق على الكريم ، وعلى المالك ، وعلى الزوج .

وقد جاءت أحاديث كثيرة بإطلاق « سيد » على أهل الفضل ، فمن ذلك ما رويناه في صحيح البخاري عن أبي بكر رضي الله عنه أن النبي ﷺ صعد بالحسن بن علي رضي الله عنهما المنبر فقال « إن ابني هذا سيد ، ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » وروينا في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال للأنصار لما أقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه «قوموا إلى سيدكم أو خيركم » كذا في بعض الروايات « سيدكم أو خيركم » وفي بعضها « سيدكم » بغير شك وروينا في صحيح مسلم أن سعد بن عبادة رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، أرأيت الرجل يجد مع امرأته رجلاً أيقتله .. الحديث ، فقال رسول الله ﷺ «انظروا إلى ما يقول سيدكم» .

وأما ما ورد في النهي فما رويناه بالإسناد الصحيح في سنن أبي دواد أن رسول الله ﷺ قال « لاتقولوا للمنافق سيد ، فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل» قال النووي : والجمع بين هذه الأحاديث : أنه لا بأس بالإطلاق : فلان سيد ويا سيدي وشبه ذلك إذا كان المسوَّد فاضلاً خيِّراً ، إما بعلم وإما بصلاح وإما بغير ذلك ، وإن كان فاسقاً أو متهماً في دينه أو نحو ذلك كره أن يقال سيد ، وجمع بين الأحاديث أبو سليمان الخطابي «في معالم السنن» بنحو ذلك .

والخلاصة أنه لا مانع أن يطلق الإنسان لقب مولاي أو سيدي ، أو المولى أو السيد على من يستحق ذلك ديناً ، كالعالم والصالح ومعلم القرآن وزعيم الجماعة وغيرهم

١- الأذكار ص ٣٥٩ .

ممن ذكروا في إطلاقات السيد . أما وصف الفاسق بذلك فمكروه ، إلا إن خيف شره ، أو حصول فتنة فيجوز بمعنى من المعاني البعيدة عن الدين قياساً على ما قيل في كراهة السلام -التحية- على المبتدعين والعصاة الفاسقين ، الذين روى البخاري فيهم عن عبدالله بن عمرو قوله : لاتسلموا على شربة الخمر ، وقال النووي [1] : إن اضطر إلى السلام على الظَّلمة بأن دخل عليهم ، وخاف ترتب مفسدة في دينه أو دنياه أو غيرهما إن لم يسلم - سلَّم عليهم ، قال الإمام أبوبكر ابن العربي : قال العلماء : يسلم وينوي أن السلام اسم من أسماء الله تعالى ، المعنى الله عليكم رقيب .



س : من المعلوم أن الدعاء يكون لله وأنه صاحب المدد والمعونة لكل من يطلب منه ذلك ، ولكنا نسمع بعض المحبين للأولياء ينادون قائلين : مدد يا حسين ، مدد يا سيد ، بل يقولون : مدد يا رسول الله . فهل في ذلك شرك لله والتجاء لغيره؟

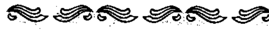
ج : طلب المدد أصلاً يكون ممن يملك المدد ، وهو الله سبحانه كما قال : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر : ٦٠] والحديث الشريف يقول «إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله» وهناك مدد يمكن أن يطلب من غير الله ، كطلب معونة من غني ، أو علم من عالم ، أو شفاعة من ذي جاه ، وهذا جائز لا مانع منه .

أما الطلب من الميت فلا معنى له ، فهو عاجز والأمر كله بيد الله ، ولئن كان الرسول ﷺ حيًّا في قبره كما جاء الحديث «الأنبياء أحياء في قبورهم» فإن الطلب منهم مباشرة لا يكون إلا بطلب وساطتهم له وشفاعتهم عنده ، وهذا ما يمكن أن يقوموا به ، أما شفاء المريض وقضاء حاجة المحتاج فلا يملكه إلا الله سبحانه . ومن العبث أن نطلبه من غيره .

١- الأذكار ص ٣٥٤ .

وإذا كان المدد المطلوب هو ما يكون يوم القيامة من الشفاعة مثلاً فهو لايكون إلا بحب هؤلاء الصالحين، وحبهم يقتضي السير على مناهجهم. وهذا فيه رجاء أن يفيد منه الإنسان فالمرء يحشر مع من أحب.

هذا ما أراه لنفي الشرك بالله، وبيان الوسيلة الصحيحة التي يستجاب بها الطلب ويحقق الرجاء.



س: هل صحيح أنه لايجوز أن يقول الإنسان: ما شاء الله وما شاء فلان؟

ج: روى أبو داود بإسناد صحيح أن النبي ﷺ قال «لاتقولوا: ما شاء الله وما شاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان».

قال الخطابي وغيره: هذا إرشاد إلى الأدب، وذلك أن الواو للجمع والتشريك، وثم للعطف مع الترتيب والتراخي، فأرشدهم ﷺ إلى تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه.

وجاء عن إبراهيم النخعي أنه كان يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك. ويجوز أن يقول: أعوذ بالله ثم بك. قالوا: ويقول: لولا الله ثم فلان لفعلت كذا، ولا نقل: لولا الله وفلان.

هذا وقد جاءت روايات أخرى أخرجها النسائي وابن ماجه وأحمد في هذا الموضوع، تحدث عنها ابن حجر، فيمكن الرجوع إليها [١].



س: من التقاليد الحديثة عند افتتاح جلسة تشريعية أو قضائية أن يقال: بسم الله وباسم الشعب، فهل هذه الصيغة مشروعة؟

ج: معروف أن تسمية الله مستحبة عند الشروع في أي عمل خيري، رجاء أن يبارك الله فيه، وجاء في ذلك قول مأثور «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله

١- فتح الباري ج١١ ص٥٤٨.

الرحمن الرحيم فهو أقطع » أي ناقص غير تام وقليل البركة ، وجاء النص على استحبابها عند دخول البيت وعند الخروج وعند تناول الطعام ولبس الملابس وعند الوضوء ودخول المسجد وغير ذلك .

فالذي يفتتح الجلسة يتبرك بذكر اسم الله تعالى مستعيناً به راجياً التوفيق ، وعند قوله : وباسم الشعب أو باسم المؤسسة يريد أن النشاط الذي يمارس أو الثمرة الناتجة عن ذلك هي بإذن من الشعب أو المؤسسة ولمصلحته ، وليس نشاطاً شخصيًّا ولا تقصد منه مصلحة شخصية . ويغلب ذلك في النظام الديمقراطي ، وليس الديكتاتوري ولا التيوقراطي .

وحتى لا يكون هنا شبه إشراك للشعب مع الله في المعونة على هذا النشاط أو في النتائج المترتبة عليه يستحسن أن يقال : باسم الله نبدأ ، ثم باسم الشعب نباشر النشاط أو نفتتح الجلسة ، على ضوء ما يقال في المشيئة ، فقد روى أبو داود بإسناد صحيح أن النبي ﷺ قال « لاتقولوا : ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم ما شاء فلان» .

فالذي يقصد بقوله التبرك فقوله مشروع ، بل مندوب ، لأنه تقرب إلى الله . والذي يقصد بقوله « وباسم الشعب » التقرب إلى الشعب واستمداد العون منه فقوله مرفوض ، كالذين يتقربون عند الذبح بأسماء الأصنام والآلهة الأخرى . وإذا كان القصد كما قدمنا فلا بأس بذلك ، فالأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى كما ثبت في الحديث ، ولا ينبغي التسرع بالإنكار أو الحكم بالكفر على مجرد قول ذلك .



س : هل زيارة الأضرحة مشروعة أو ممنوعة؟

ج : الأضرحة جمع ضريح ، والضريح هو الشق وسط القبر . وتعارف الناس عليه إذا دفن فيه شخص له قيمة دينية أو غيرها من القيم التي تحتل من نفوس الناس مكانة كبيرة ، واتخذت الأضرحة شكلاً معيناً من البناء تعلوه قبة تفنن الناس في شكلها وفي زخرفتها .

وكثرت هذه الأضرحة في مصر منذ عهد الفاطميين الذين أقاموا كثيراً منها لآل البيت وكبار رجال الدولة ، وعرفت بالمشاهد أسوة بها أطلق على أضرحة الأئمة من العلويين . ثم جاءت الدولة الأيوبية وأقامت مثلها لكبار رجال السنة . ومن أكبرها ضريح الإمام الشافعي .

والأضرحة شأنها شأن سائر القبور في أن زيارتها سنة لما فيها من فوائد للزائر والمزور ، ففيها للزائر عبرة وعظة ، كما في قول النبي ﷺ : «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروا القبور ، فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة» . وقوله : «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه ، فزوروها فإنها تذكر الآخرة» . وقد صح في مسلم أذن الله لنبيه بزيارة قبر أمه ، وعدم إذنه في الاستغفار لها .

وفي الزيارة نفع للمزور بالسلام عليه والدعاء له ، وبما تقدم ذكره من أنس الميت بمن يزوره . وقد علمنا النبي ﷺ آداب الزيارة التي منها أن نقول ما علمه السيدة عائشة رضي الله عنها : «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين ، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون» . وجاء في إحدى الروايات لهذا الحديث «نسأل الله لنا ولكم العافية» .



س : هل هناك فرق بين الكفر والشرك ؟

ج : الكفر فيه معنى الستر ، وقد يكون ستراً ماديًّا وستراً معنويًّا ، ومن الستر المعنوي جحود النعمة وعدم الاعتراف بالجميل ، يقول الراغب الأصفهاني في «المفردات» وأعظم الكفر جحود الواحدانية أو الشريعة أو النبوة ، والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً ، ثم يقول : والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية أو النبوة أو الشريعة أو ثلاثتها . وقد يقال :كفر ، لمن أخل بالشريعة وترك ما لزمه من شكر الله عليه . قال تعالى ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : ٤٤] والشرك يقول عنه الراغب الأصفهاني فيه معنى الاشتراك في شيء مادي أو معنوي ، وهو في الدين ضربان ، أحدهما الشرك العظيم ،

وهو إثبات شريك لله تعالى ، وهو أعظم كفر لأنه جحد الوحدانية ، والثاني الشرك الصغير ، وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور وهو الرياء والنفاق ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] وقوله تعالى ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] محمول على الشركين . وأما قوله تعالى ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : ٥] فأكثر الفقهاء يحملونه على الكفار جميعاً ، وقيل هم غير أهل الكتاب .

والخلاصة : أن الشرك كفر بوحدانية الله وعدم إخلاص العبادة لله ، والكفر يطلق على الشرك لأنه جحود بالوحدانية ، ويطلق على من يكذب بالنبوة وعلى من يكذب الشريعة فالكافر أعم من المشرك والكفار والمشركون مصيرهم النار خالدين فيها أبداً[١].



س : ترد على فكر الإنسان خواطر كثيرة قد يكون بعضها خطيراً فهل يحاسب عليها ، وكيف يتخلص منها ؟

ج : إن للشيطان مداخل كثيرة لإغواء الإنسان ، وأشد ما يهتم به العقيدة ، لأنها إذا انحرفت انحرف السلوك كما صح في الحديث « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »[٢] .

والنفس مرتع خصيب لوسوسة الشيطان ، فقد تمر عليها أفكار وخواطر كثيرة ، بعضها يمر عابراً لا يمكث إلا قليلاً ، وبعضها يأخذ حيزاً من تفكير الإنسان ثم يمضي ، وبعضها الآخر قد يثبت ويرسخ ويدفع للتنفيذ .

وإذا كانت هذه هي طبيعة النفس البشرية التي خلقنا الله عليها فإنه - وهو العليم اللطيف الخبير - تجاوز عن كل هذه الخواطر ولايؤاخذ عليها ؛ إلا في حالتين :

١- ومن أراد الاستزادة من المعرفة فليرجع إلى الجزء الأول من كتاب ((بيان للناس من الأزهر الشريف)) ص ١٣٨ ففيه بيان الفروق بين الكفر والفسوق والعصيان والنفاق .

٢- رواه البخاري ومسلم .

الأولى : إذا عزم الإنسان عليها عزماً أكيداً وصمم على تنفيذها ، بدليل حديث الصحيحين : البخاري ومسلم « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » قيل : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال « كان حريصاً على قتل صاحبه » .

والحالة الثانية : إذا نفذ ما عزم على تنفيذه ، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به » [1] .

ومحل المؤاخذة على العزم على السيئة ، وإن لم يفعلها ، إذا كان المانع من فعلها عجزاً أو خوفاً من رقيب من الناس ، لكن إذا كان المانع من تنفيذ ما عزم عليه خوفاً من الله فلا يؤاخذه ، بل قد يعطيه ثواباً على مجاهدة نفسه ، وبهذا يوفق بين ما قد يكون في بعض النصوص من تضارب في الظاهر .

بعد هذا نقول : إن من خواطر السوء ما جاء في صحيح مسلم عن النبي ﷺ : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول له : من خلق كذا وكذا ؟ حتى يقول له : من خلق ربك فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله وَلينْتهِ » وقد سئل النبي ﷺ عن الوسوسة فقال « تلك محض الإيمان » وفي رواية « صريح الإيمان » بمعنى أن الخوف من هذه الوسوسة يدل على الإيمان الخالص ، لا أن الوسوسة تكون من الإيمان .

وقد بيّن الحديث الدواء الناجع لهذه الوسوسة ، وهو الاستعاذة بالله والانتهاء عن التمادي فيها والركون إليها ، وذلك من وحي قوله تعالى ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] .

وإذا استعاذ الإنسان الضعيف بالله القوي كان ذلك دليلاً على عبوديته الخالصة له ، والله يقول للشيطان الذي أقسم أن يغري الناس أجمعين ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾ [الحجر : ٤٢] ويوضح هذا ما حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد؟ قال : أجاهده . قال :فإن عاد ؟ قال : أجاهده . قال : هذا يطول ، قال : أرأيت لو

---

١ - رواه الجماعة في كتبهم الستة كما قال ابن كثير في تفسيره.

مررت بغنم ينبحك كلبها ومنعك من العبور ما تصنع؟ قال : أكابده وأرده جهدي قال : هذا يطول عليك ، لكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك . فالاستعانة بالله القوي سبيل لطرد وساوس الشيطان .



س : هل كلّم الله تعالى عبدالله بن حرام بدون حجاب ، وهل تناقض ذلك مع قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾[الشورى : ٥١]؟

ج : عبدالله هذا هو عبدالله بن عمرو بن حرام ، استشهد يوم أحد . وروى البخاري أن ابنه جابراً بكاه شديداً ، ونهاه الصحابة ولكن النبي ﷺ لم ينهه عن البكاء ، ولكن قال «ماتبكيه وما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع» .

وروى أبو بكر بن مردويه البيهقي أن النبي ﷺ لما استشهد عبدالله قال لابنه جابر «ما لي أراك مهتمًّا»؟ قال :يا رسول الله استشهد أبي وترك دَيْناً وعيالاً ، فقال «ألاأخبرك؟ ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كِفاحاً - قال عليٌّ : الكفاح المواجهة - فقال : سلني أعطك ، قال : أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية ، فقال الرب عز وجل : إنه سبق القول مني أنهم إليها لايرجعون . قال: أي رب فأبلغ من ورائي ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾))[آل عمران : ١٦٩] .

وفي رواية للبيهقي قال النبي ﷺ لجابر «شعرت أن الله أحيا أباك فقال : تمن عليَّ عبدي أعطك»[1].

وآية ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾[الشورى : ٥١] سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيًّا كما كلمه موسى ونظر إليه؟ فقال النبي ﷺ «إن موسى لم ينظر إليه» .

---

١ - أسد الغابة مجلد ٣ ص ٣٤٧ ، تفسير ابن كثير مجلد ٢ ص ١٤٠ ، ١٤١ .

ومعنى «وحياً» نفثاً في القلب فيكون إلهاماً، ومنه حديث «إن روح القدس نفث في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» جاء بعبارات متقاربة رواها الحاكم وغيره، ومن وراء حجاب كما كلم موسى، وإرسال الرسول هو جبريل يكلم الأنبياء.

وحصر كلام الله لغيره في هذه الأحوال الثلاثة هو في كلامه في الدنيا للبشر، أما في الآخرة فلا مانع أن يكون كلامه لهم مباشرة وكفاحاً أي مواجهة، كما حصل مع عبدالله بن عمرو بن حرام، وكما يحصل من كلام الله سبحانه لأهل الجنة حين يقول لهم: «أرضيتم عني»؟ فليس هناك تناقض بين الآية وكلام ابن حرام.



س: هل هناك تعارض بين الآيتين الكريمتين قال تعالى ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] **وقال تعالى ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾** [المعارج: ٤]؟

ج: أما الآية الأولى ففي تفسير اليوم رأيان:

١- أنه من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض، كما روي عن ابن عباس ومجاهد.

٢- أنه من أيام الآخرة، بمعنى أن يوماً من الخوف والشدة في الآخرة أو في النعيم كألف سنة عن سنى الدنيا.

وأما الآية الثانية ففي تفسير المعارج ثلاثة أقوال:

١- المعارج هي الرتب الخاصة بعظمة الله وعلوه ومراتب نعمه كما قال ابن عباس وقتادة.

٢- معارج السماء هي درجاتها أو مصاعدها، لأن الملائكة تعرج إلى السماء كما قال مجاهد.

٣- المعارج هي الغرف التي جعلها الله لأوليائه في الجنة .

والملائكة تعرج إلى أمكنتها في السماء ، أو إلى عرش الله في وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة . قال وهب : ما بين أسفل الأرض إلى العرش مسيرة خمسين ألف سنة وهو قول مجاهد ، وجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة : ٥] فقال : قوله في سورة المعارج هو من منتهى أمره من أسفل الأرض إلى منتهى أمره من فوق السموات خمسون ألف سنة ، وقوله في سورة السجدة ، يعني ذلك نزول الأمر من السماء الدنيا إلى الأرض ، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد ، فذلك مقدار ألف سنة ، لأن ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام ، فالصعود والهبوط يساوي ألف سنة .

وقيل المراد يوم القيامة ، أي مقدار الحكم فيه لو تولاه مخلوق خمسون ألف سنة ، قال عكرمة : وقيل يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ثم يدخلون النار للاستقرار كما قال ابن عباس .

يقول القرطبي : وهذا القول أحسن ما قيل في الآية ، واستدل بحديث قال فيه النبي ﷺ عنه « والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصليها في الدنيا » [١] كما استدل بحديث « ما من رجل لم يؤد زكاة ماله إلا جعل الله شجاعاً من نار تكوى به جبهته وظهره وجنباه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضي الله بين الناس » [٢] ويؤيده ما قيل - وروى مرفوعاً - أن زمن حساب المؤمن ما بين الظهروالعصر ليكون في الجنة مستقرًّا وأحسن مقيلا .

وعن ابن عباس : هي أيام سماها الله وهو أعلم بها كيف تكون وأكره أن أقول فيها ما لا أعلم .

وقيل : المراد بالخمسين التمثيل لبيان طول المدة في الموقف ، كعادة العرب في وصف أيام الشدة بالطول وأيام الفرح بالقصر .

١- رواه أحمد وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه .

٢- رواه البخاري ومسلم.

هذا ، وقد جاء في تعليق اللجنة العلمية بالمنتخب في تفسير القرآن الكريم [١] ما نصه :

يسبق القرآن بهذه الآية الكريمة - كألف سنة - ركب العلم بتقرير أن الزمن نسبي ، وأن فكرة الزمن العالمي المطلق الذي كان يسلم به الأقدمون قبل ظهور النسبية هي فكرة خاطئة .

وبعد فهذا بعض ما قيل في التوفيق بين المدد المختلفة لليوم الذي عند الله ، والآراء مختلفة ، وما نسب إلى ابن عباس من أنه يكل علمها إلى الله هوْ في رأيي أحسن ، لأنه ترف ذهني وانشغال بما لا طائل تحته في حياتنا الحاضرة وإن كنا نعمل الحساب ليوم القيامة لما فيه من الشدة والهول .



س : ما هو أول ما خلق الله سبحانه وتعالى في الوجود ؟

ج : جاء أن بعض الناس يقولون إنه نور سيدنا محمد ﷺ ، وأن الأحاديث الواردة في ذلك أحاديث آحاد ولم يتفق على صحتها ، فلا تصلح لبناء عقيدة عليها .

وإضافة لما ذكر أقول : روى عبدالرزاق بسنده عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال : قلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء ، قال « يا جابر فإن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره - فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى ، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جن ولا إنس فلما أراد الله أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء ، فخلق من الجزء الأول القلم ، ومن الثاني اللوح ، ومن الثالث العرش . ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء ، فخلق من الجزء الأول حملة العرش ، ومن الثاني الكرسي ،

---

١ - الذي أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ص ٤٩٥.

ومن الثالث الملائكة . ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء ، فخلق من الأول السموات ومن الثاني الأرضين ومن الثالث الجنة والنار . ثم قسم الرابع أربعة أجزاء ، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين ومن الثاني نور قلوبهم ، وهي المعرفة بالله ، ومن الثالث نور أنسهم وهو التوحيد لا إله إله الله محمد رسول الله ...» إلى آخر الحديث.

وقد اختلف : هل القلم أول المخلوقات بعد النور المحمدي ؟ فقال الحافظ أبويعلى الهمداني : الأصح أن العرش قبل القلم لما ثبت في الصحيح عن عبدالله ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » فهذا صريح في أن التقدير وقع بعد خلق العرش ، ووقع عند أول خلق القلم ، لحديث عبادة بن الصامت مرفوعاً « أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، قال : رب وما أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء » رواه أحمد والترمذي وصححه . ورويا أيضاً من حديث أبي رزين العقيلي مرفوعاً « إن الماء خلق قبل العرش » وروى السُّدِّي بأسانيد متعددة أن الله لم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء ، فيجمع بينه وبين ما قبله بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا النور المحمدي والماء والعرش . انتهى .

هذا ما ذكره القسطلاني [1] ولم يعلق هو ولا شارحه الزرقاني على هذه الأحاديث ، إلا حديث عبدالله بن عمرو ، فقد رواه مسلم ، وحديث عبادة الذي رواه أحمد ، بل ذكر الزرقاني بسند واهٍ أن القلم طوله خمسمائة عام ، وعرضه كذلك ، وسنُّه مشقوقة ينبع منه المداد . وفي خبر مرسل أنه من لؤلؤ ، وطوله سبعمائة عام .

إن كل هذه الأخبار لا تثبت بها عقيدة ولا يضرنا الجهل بها ، ولا نسأل عنها أمام الله إلا بمقدار ما أفدنا من هذه المخلوقات لتحقيق الخلافة في الأرض . فلنترك ما وراء ذلك لعلم الله تعالى ، ونضع أمام أعيننا قوله سبحانه ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ

١- المواهب اللدنية ، ج١ ص ٩ ، ١٠.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف : ٥١] وقوله ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف : ١٩].



س : هل صحيح أن الله سبحانه كان وحده ولا شيء معه ، ثم خلق العالم ليقروا له بالألوهية ، وماهو أول شيء خلقه من العالم؟

ج : جاء في شرح المواهب اللدنية [١] حديث رواه البخاري أن وفداً من أهل اليمن أتوا الرسول ﷺ وقالوا له : جئنا للتفقه في الدين ونسألك عن هذا الأمر - أي الحاضر الموجود - فقال «كان الله ولـم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السماوات والأرض» ومعنى هذا الحديث أن الله كان في الأزل منفرداً متوحداً ، وكان الماء والعرش مبدأ خلق هذا العالم ، لأنهما خلقا قبل السموات والأرض ، فلم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء ، والمراد بالذكر اللوح المحفوظ .

ويؤخذ من قصة هذا الحديث أن الكلام في أصول الدين وحدوث العالم مستمر ، كما جاء في فتح الباري لابن حجر ، وقلنا: إن هذه الأخبار لاتثبت بها عقيدة ، ولا نسأل عنها أمام الله إلا بمقدار ما أفدنا من هذه المخلوقات لتحقيق الخلافة في الأرض ، فلنترك ما وراء ذلك لعلم الله تعالى ، ولنضع أمام أعيننا قوله سبحانه : ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾[الكهف:٥١] وقوله ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] هذا ، ولم أعثر على ما يتردد على الألسنة (كنت كنزاً مخفيًّا فخلقت الخلق فبي عرفوني)[٢].

١- الزرقاني ((ج٤ ص ٣١)).

٢- انظر جواب أنيس منصور في أهرام ٢٦/ ٣/ ٢٠٠٥ ، وفيه عجز الإنسان عن معرفة أول خلق الكون الذي نراه ، فالأكوان غيره كثيرة . وما قاله العلماء عن الذرة ، وما قاله العالم الأمريكي ((أدوين هابل سنة ١٩٢٠م)) عن تباعد المجرات وتمدد الكون .

ثم أقول : إن النصوص في ترتيب مخلوقات الله لاتعطي حكماً قاطعاً ، لأن في ظاهرها تضارباً ، فبعضها لا يفيد تقدم خلق إحداها على خلق الأخرى ، حيث جاء العطف فيها بالواو ، وهي - كما يقول العلماء - لا تفيد ترتيباً ولا تعقيباً ، مثل ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام : ١] وبعضها جاء العطف فيه أحياناً بحرف «ثم» الذي يفيد الترتيب والتراخي ، وقدَّم خلق الأرض مثل ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٩] ومثل ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢] وإن كان الظاهر منها أن السماء كانت دخاناً قبل أن يستوي الله إليها ، فهل كان الدخان قبل الأرض؟ وبعض النصوص قدم فيها خلق السماء مثل ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾ [النازعات:٢٧-٣٢] وقوله ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود : ٧] وحديث الرسول ﷺ «كان الله ولاشيء معه وكان عرشه على الماء» .

وأمام هذه النصوص اختلفت أقوال المفسرين الناقلين عن السُّدِّي والكلبي وقتادة ، والراوين عن ابن عباس وغيره . يقول القرطبي [1] والله أعلم بما فعل ، فقد اختلفت فيه الأقاويل ، وليس للاجتهاد فيه مدخل .

فرأى بعضهم خلق السماء أولاً ، ورأى بعضهم خلق الأرض أولاً ، وحاول بعضهم التوفيق بين هذه النصوص فقال : أول شيء خلقه الله هو الماء ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] . وفي سنن ابن ماجه أن أبا هريرة قال للرسول ﷺ : أنبئني عن كل

---

١ - تفسير القرطبي ، ج١ ص ٢٥٧ .

شيء ، فقال «كل شيء خلق من الماء» وفي تفسير القرطبي [1] عن ابن عباس أن الرسول قال «أول شيء خلقه الله القلم وأمره أن يكتب كل شيء يكون» قال البيهقي : المراد أول شيء خلقه بعد خلق الماء . وروى أيضاً موقوفاً عن عبادة بن الصامت .

وكان عرشه على الماء ، فهل كان العرش مخلوقاً قبل الماء ، لأنه مظهر سلطان الله تعالى ، أو الماء كان مخلوقاً قبل حتى يستقر العرش عليه ، ثم بعد ذلك فتق الله الماء فجعل منه جزءاً أرضاً بتجميده ، وجزءاً سماءً ببخار صعد منه؟ ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ويكون قوله عن الماء إنه جعل منه كل شيء جملة حالية وليست دالة على أنه خلق بعد الأرض والسموات . ثم خلق الأرض كتلة جامدة - وتجميدها كان في يومين ، ويومين آخرين جعل فيها رواسي وأنهاراً ، وأمدها بالأقوات في يومين آخرين تتم أربعة أيام ، ثم سوَّى السماء وهي دخان ، فجعلها سبع سموات في يومين آخرين ، فتكون الأيام ستة . ثم بعد ذلك شكّل الأرض تشكيلاً أخيراً بدحوها وتيسير العيش عليها . ويكون قوله ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾ [النازعات : ٣١ ، ٣٢] إخباراً عن الماضي وبياناً عن فضله على الناس بمجموع هذه النعم ، وهي الخلق والدحو والجبال والمياه ومرتبطاً بقوله ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [النازعات : ٣٣] .

في تفسير القرطبي [2] (دحاها) بسطها ، وهذا يشير إلى كون الأرض بعد السماء. ثم ذكر [3] أن كلمة (بَعْد) قال بعضهم : إنها في موضع (مع) مثل ﴿ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ وقولهم : أنت أحمق وأنت بعد ذلك سيئ الخلق . وقيل (بعد) بمعنى (قبل) قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] أي من قبل القرآن .

ولم يأت في القرآن للأرض عدد صحيح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] ورويت في ذلك أحاديث . ففي مسلم « من أخذ شبراً من الأرض ظلماً طُوّقه إلى سبع أرضين» رواه سعيد بن زيد .

١- ج١ ص ٢٥٧ ، ٩٥٨ .
٢- ج١٩ ص ٢٠٤ .
٣- ج١٩ ص ٢٠٥.

وجاء في تفسير القرطبي [1] عن حديث مسلم : قال البيهقي: زعم أهل العلم بالحديث أنه غير محفوظ ، لمخالفة ما عليه أهل التفسير والتاريخ . وطعن في رواية على بن المديني . وذكر حديث عبدالله بن سلام -السابق- خرجه البيهقي . وقيل عدد الأرض : هي سبع لم تفتق ، وقيل : فتقت وبين كل أرض خمسمائة سنة ، كما في حديث الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً .

وتفصيل هذه الأيام بالنسبة للأسبوع قيل :خلق الأرض في يومي الأحد والاثنين ، وقدّر الأقوات في يومي الثلاثاء والأربعاء ، وسوَّى السماء سبعاً في يومي الخميس والجمعة . وذلك قول عبدالله بن سلام .

وأما حديث مسلم « خلق التربة يوم السبت » كما في القرطبي [2] رواه السدى عن أبي مالك ، وعن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب الرسول ، قال : إن الله كان عرشه على الماء ، ولم يخلق قبل الماء شيئاً ، ولما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً ارتفع فوق الماء وسما عليه فسمّاه سماء . ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين «الأحد والاثنين» وخلق الجبال والأقوات وما ينبغي لها في يومين « الثلاثاء والأربعاء » ثم استوى إلى السماء التي كانت واحدة ثم قصفها سبع سموات في يومين «الخميس والجمعة» وأوحى في كل سماء أمْرها .

عن أبي هريرة : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : خلق الله عز وجل التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الخير يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبثَّ فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة وآخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة ما بين العصر إلى الليل .



١- ج٦ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ .
٢- ج٦ ص ٣٨٤ ، ص٣٦٣.

س : هل صحيح أن أعمال الناس ترفع إلى السماء يوم الاثنين والخميس؟

ج : روى الترمذي حديثاً قال : إنه حسن ، أن النبي ﷺ قال : « تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس ، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم » وفي هذا دليل على ندب الصوم في هذين اليومين ، وكان ﷺ يصومهما ، كما جاء التصريح بذلك في رواية ابن ماجه عن أبي هريرة . وعرض الملائكة أعمال العباد على الله في هذين اليومين أمر تنظيمي وضعه الله سبحانه لحكمة يعلمها هو ، وإن كان هو يعلم كل ما في الكون دون حاجة إلى كتابة الملائكة ورفع ذلك إليه سبحانه ، وهناك حديث رواه النسائي يدل على أن الأعمال ترفع في شهر شعبان ، وكان الرسول يحرص على صيامه كله أو صيام أكثره لأنه يحب أن يرفع عمله وهو صائم ، فما هي الصلة بين رفع الأعمال في شعبان ورفعها في كل أسبوع مرتين في يومي الاثنين والخميس؟

إن رفع الأعمال مرتين كل أسبوع لايقصد به إخبار الله بها فهو كما قلت - غني عن هذه الوسائل ولعل القصد منه حث العباد على الطاعة وتحذيرهم من المعصية ، فالمتابعة مستمرة حاضرة غير غائبة ، وقد يوضح ذلك عمل امتحانات للمتعلمين في أثناء السنة الدراسية ، حتى لا يتكاسلوا عن المذاكرة إلى أن يقرب امتحان آخر العام فهناك يكون الجد والتعب ، لأن نتيجته هي المهمة .

وعلى هذا الضوء يمكن فهم المقصود من عرض الأعمال في الأسبوع مرتين ، تمهيداً للعرض العام في كل سنة في شهر شعبان ، ثم العرض الأكبر يوم القيامة ليقرأ كل إنسان ما كتب عليه ، ويعرف النتيجة النهائية للنشاط الذي باشره طول حياته في الدنيا .

والزرقاني في شرحه للمواهب اللدنية عن الصيام في شهر شعبان ورفع الأعمال أشار إلى أن هذا الرفع هو رفع خاص ولم يوضح الخصوصية التي فيه ، فلنترك الأمر لله ولنقبل على الطاعة ولنبادر بالتوبة من المعصية ، حتى تبيض وجوهنا يوم العرض على الله سبحانه .



س : ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : ١٣] ؟ .

ج : أبسط تفسير لهذه الآية أن الله سبحانه وتعالى قادر مريد لو شاء أن يجعل كل الأنفس الحية من إنس وجن وغيرهما مؤمنة مطيعة لفعل .

وذلك بأن يخلقهم من مادة أو عنصر لايكون منه الكفر والعصيان ، كالملائكة الذين لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لأنهم خلقوا من نور ، ولكنه سبحانه وتعالى قدر أن تكون هناك مخلوقات قابلة للإيمان والكفر ، يصدر منها الطاعة والعصيان وذلك بمحض إرادتها واختيارها ، دون تدخل من الله سبحانه ، إلا بمجرد الأمر والنهي وبيان الخير والشر . فمن آمن وأطاع أدخله الجنة ، ومن كفر وعصى أدخله النار ، وذلك بعد الحساب الدقيق على ما قدموا في دنياهم ، وهذه المخلوقات الحرة المختارة لما تفعل هي الإنس والجن .

ولا يجوز أن نفهم من هذه الآية أن الله هو الذي تحكم فينا فجعل منا المؤمن والكافر وقد أراد لنا ذلك فكيف يعذبنا على ما اقترفنا .

نعم إن الله هو الذي خلقنا على هذا الطراز وبالاستعداد للإيمان والكفر ولكن بمحض إرادتنا نحن واختيارنا لما وقع منا :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ [التغابن : ٢] ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٣] ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩] .

ولو فرض أن الله هدى كل نفس للإيمان ما كان هناك معنى لاستحقاق الجنة حيث لا يكون عمل من هذه النفس بل هو عمل الله وما كان هناك معنى لإرسال الرسل لهداية الناس إلى الخير ، فنظام الحياة الدنيا لايصلح له إلا من يأتي منه أن يقول : نعم وأن يقول : لا ، وذلك هو الإنس والجن بما منحوا من عقل وحرية واختيار ، وبما جاءهم من وحي يرشد إلى الصواب .

والموضوع فيه كلام طويل للعلماء عن مذهب الجبرية والقدرية ، فيرجع إليه في كتب التوحيد .



س : علمنا أن الله سبحانه وتعالى يحب المحسنين والمتقين والصابرين ، ولا يحب الكافرين والظالمين ، ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد ، وإذا كان كل ذلك بمشيئته فكيف يرضى الله ويشاء ما لا يرضى به ولا يحبه؟

ج : لا بد من الفرق بين الرضا والمشيئة ، فالرضا يدل على الحب والمثوبة ، أما المشيئة فتدل على الإرادة ، وإرادة الله سبحانه في خلقه لايعلمها إلا هو ، يريد الخير ويريد الشر ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : ١٣] وقال : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد : ٢٧] ولاتعرف الإرادة إلا بوقوع المراد . ولكنه لا يرضى ولايقبل الشر ، قال تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : ٧] فكل شيء بإرادته سبحانه ولكن ليس كل شيء يريده يرضى عنه ويحبه ، وهو لا يأمر إلا بالخير ولاينهى إلا عن الشر ، حتى لو كان الشر في علم الله لكنه لايأمر به ، ليكون ارتكابه بحرية العبد واختياره فيجازي على ذلك.



س : قرأنا في الكتب أن محاجة حدثت بين آدم وموسى وأن آدم غلبه لأنه اعترض على قضاء الله فكيف يصح ذلك؟

ج : روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « احتج آدم وموسى فقال له موسى : يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ، قال له آدم : يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده ، أتلومني على أمر قدر الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى » وجاء هذا الحديث بروايات أخرى .

المراد بقوله : خط لك بيده ، ألواح التوراة ، والأربعون سنة هي ما بين قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] إلى نفخ الروح فيه ، أو هي مدة لبثه طيناً إلى أن نفخت فيه الروح . وقد تحدث شراح الحديث وكثرت أقوالهم لتوضيح الصلة بين قدر الله ومسئولية العبد وخلاصة أقوالهم ما يأتي :

أنكر القدرية هذا الحديث لأنه يثبت القدر وهم لا يقولون به ، إذ لو صح لاحتج كل مخالف بالقدر السابق ، ولو ساغ ذلك لانسدَّ باب القصاص والحدود ولاحتج به كل أحد على ما يرتكب من الفواحش ، والمثبتون للحديث ردوا عليهم ، ووضحوا كيف كانت الغلبة لآدم على موسى بقولهم :

أ- إن موسى كان له مثل حال آدم حيث قتل نفساً لم يؤمر بقتلهاوتاب الله عليه كما تاب على آدم ، قال تعالى ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه : ١٢١ ، ١٢٢] وقال في شأن موسى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ﴾ [القصص : ١٦] وليس من اللائق أن يلوم أحد غيره على حال وقع مثلها له .

ب- إن اللوم على المخالفة يكون مشروعاً إذا كان قبل التوبة ، أما بعدها فلا فائدة تذكر منه .

ج- إن لوم موسى لآدم كان بعد موته وانتقاله من دار التكليف إلى دار الجزاء ، حيث كان لقاؤهما على أرجح الأقوال في البرزخ بعد موت موسى ، فالتقت أرواحهما في السماء كما جزم بذلك ابن عبدالبر والقابسي ، وإذا كان الله قد لام آدم في الدنيا بقوله : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ٢٢] وهو أكرم من أن يثني العقوبة على عبده كما ورد ، فلا يسوغ لموسى أن يؤنب آدم ، والله سبحانه بكرمه لا يؤنبه بعد موته ، وقد ورد أيضاً النهي عن التثريب على الأمة التي زنت وأقيم عليها الحد .

هذا ولايجوز أن يكون هذا الحديث متكأ لمن يقترف معصية ، فإذا وجه إليه اللوم يقول : هذا قدر الله ، كما قال آدم ، وذلك لأن من كان باقياً في الدنيا دار التكليف تجرى عليه الأحكام من لوم وعقوبة ونحوهما .

قال النووي : في ضمن كلامه على هذا الحديث [1] : ولأن اللوم على الذنب شرعي لا عقلي ، وإذا تاب الله تعالى على آدم وغفر له زال عنه اللوم ، فمن لامه كان

١- شرح صحيح مسلم ج١٦ ص٢٠٢.

محجوباً بالشرع ، فإن قيل : فالعاصي منا لو قال : هذه المعصية قدرها الله عليَّ لم يسقط عنه اللوم والعقوبة بذلك وإن كان صادقاً فيما قاله ، فالجواب أن هذا العاصي باقٍ في دار التكليف جار عليه أحكام المكلفين من العقوبة واللوم والتوبيخ وغيرها ، وفي لومه وعقوبته زجر له ولغيره عن مثل هذا الفعل ، وهو محتاج إلى الزجر ما لم يمت ، فأما آدم فميت خارج عن دار التكليف وعن الحاجة إلى الزجر ، فلم يكن في القول المذكور له فائدة ، بل فيه إيذاء وتخجيل . والله أعلم .



س : وردت نصوص يؤخذ منها أن الدعاء يرد القضاء وأن صلة الرحم تزيد في العمر ، فكيف يكون ذلك مع أن قضاء الله واحد وعلمه لا يتغير ؟

ج : روى الحاكم وصححه وابن حبان في صحيحه أن النبي ﷺ قال : «لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ...»[1] . وجاء في حديث البزار والطبراني والحاكم «لايغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وإن البلاء ينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان[2] إلى يوم القيامة» .

قال العلماء في هذا : إن القضاء نوع من علم الله تعالى بما سيكون عليه حال العبد قبل خلقه ، ومنه قضاء مبرم لابد من وقوعه لا يدفعه ولا يرفعه شيء ، ومنه قضاء معلق في وقوعه أو رفعه على شيء ، فالموت مثلاً قضاء مبرم لابد منه ولا يدفعه شيء ، وطول العمر قضاء معلق على فعل ، مثل صلة الرحم وعمل خير آخر ، كما في حديث «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»[3] .

ومن هذا النوع المعلق أن يعلم أن الله سبحانه أن شيئاً سيحصل للعبد عند دعائه ، وأن مرضاً سيصيبه لا يبرأ منه إلا بالدعاء والعلاج ، فكل حركات العبد

١- رواه الترمذي وقال : حسن غريب ، أي رواه راوٍ واحد فقط .
٢- معنى يعتلجان : يتصارعان ويتدافعان .
٣- رواه أحمد وغيره .

والكون معلومة مكشوفة لله تعالى ، ولكنها مغيبة عنا ، ولذلك أمرنا بطاعته ، ومن الطاعة الدعاء الذي يؤكد الإنسان فيه إيمانه بضعفه وحاجته إلى الله ، وقد عبر عن هذا في الحديث بأنه العبادة أو مخ العبادة ، فإذا حصل الدعاء وتم ما أراد الله كانت إرادته مرتبطة بدعاء العبد كما علمها من قبل ، وما دام القضاء مغيباً عنا فعلينا امتثال أمر الله في الدعاء وغيره ، ولو علمنا ما قدر لنا ما كان هناك معنى للتكليف ولركدت حركة الحياة .



س : هل الإنسان مسير أم مخير ؟

ج : الله سبحانه خلق الإنسان وعلم ما سيكون عليه من خير وشر ، وجعله قابلاً للطاعة والمعصية ، وكلفه بأمور ينفذها وترك له الحرية في اختيار التنفيذ وعدم التنفيذ ، ليكون محاسباً أمام الله على ما فعله بحريته واختياره من طاعة أو معصية ، والإنسان لا يعلم ما قدر له في علم الله إلا بعد وقوع المقدر ، ولو أقدم على فعل محرم متعللاً بأنه مقدر عليه فهو مخطئ في هذا التعلل ، لأنه ربما يحول بينه وبين فعل المحرم حائل يمنعه ، وهنا يعلم أنه لم يُقدر عليه .

فالإنسان مخير في الأمور التكليفية التي يستطيع فعلها أو تركها بحريته واختيـاره ، أما الأمور التي لاتقع تحت حريته واختياره ، كالكوارث العامة من الزلازل والبراكين والعواصف والسيول وغيرها فهو فيها ميسر .

ثم أقول : لماذا يكثر السؤال في هذا الموضوع ، وبخاصة من يقول : إن المعاصي مقدرة علينا فلماذا نعاقب عليها ونحن مرغمون لا مفر لنا من القضاء والقدر ؟ إن الله سبحانه علم أن أبا لهب لن يؤمن بسيدنا محمد ، ومع ذلك أمر الله نبيه أن يطلب منه الإيمان ، ليكون إيمانه وعدم إيمانه بحريته واختياره ، فاختار أبو لهب الكفر ، واستمر على ذلك حتى مات كافراً ، وهنا علم تماماً أن الله سبحانه قضى في علمه أن أبا لهب سيختار الكفر ويموت عليه .

ثم أقول : لماذا يسأل الناس عن تقدير المعاصي لتبرير فعلها لأنها قضاء الله حتى لا يعاقب عليها ، ولا يسأل عن تقدير الطاعات ، ويطالب بالثواب عليها ، مع أن المعاصي والطاعات مقدرة في علم الله؟ إن الإنسان هنا في الطاعات حريص على أن ينال الثواب على طاعته لأنها عمله . وفي المعاصي حريص على أن يفر من العقاب على معصيته لأنها ليست عمله -في ادعائه- بل مقدرة عليه .

لاينبغي أن يغالط الإنسان نفسه ، فهو مسئول عن كل شيء فعله بحريته واختياره من خير أو شر ، قال تعالى ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : ٢١] وقال تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : ٣٨] إن الأمر لو كان كما يريد هؤلاء من تقدير كل الأمور علينا وعدم الحساب عليها ما كانت هناك حاجة إلى إرسال الرسل ولا إلى البعث ولا إلى الحساب ولا إلى الجنة والنار .



س : إذا كان الله سبحانه وتعالى قد كتب الضلال على الإنسان فلماذا يعاقبه عليه؟

ج : سبق الكلام على ذلك بعنوان : هل الإنسان مسيَّر أو مخيَّر . وزيادة على ذلك نقول :

من الآيات التي وردت في الهداية والضلال قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [المدثر : ٣١] وقوله : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦] وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد : ٢٧] .

بقراءة هذه الآيات وأمثالها دون تدبُّر قد يفهم الإنسان منها أن الهداية والضلالة موكولتان إلى إرادة الله سبحانه ، وهو لا يسأل عما يفعل وليس للإنسان اختيار فهو مسيَّر لا مخيَّر ، وبالتالي لماذا يعذبه الله على الضلالة التي هي من فعل الله لا من فعل الإنسان؟

لاينبغي أن يغالط الإنسان نفسه ، فهو مسؤول عن كل شيء صدر منه بحريته واختياره من خير أو شر ، وهذه المسئولية مقررة في الدنيا والآخرة كما قال سبحانه :

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور : ٢١] ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر : ٣٨] ولو أن الأمر كان كما يفهم البعض من تقدير كل الأمور علينا وعدم الحساب عليها لَعَمَّت الفوضى وعشنا كالمخلوقات غير المسئولة ، وما كانت هناك حاجة إلى إرسال الرسل ولا إلى البعث بعد الموت والحساب على الأعمال والجزاء بالجنة والنار . لقد علم الله سبحانه - قبل أن يخلق الإنسان - أنه سيختار الهداية أو الضلالة بحريته ، فكتب في اللوح المحفوظ أنه من المهتدين أو الضالين ، فليس هناك تحكّم واستبداد في الجزاء ، فالله سبحانه حكيم خبير متصف بكل صفات الكمال وأمرنا أن نتخلق بها كما جاء في بعض الآثار .

ولو تأملنا في الآيتين الثانية والثالثة اللتين في صدر هذا الكلام لرأينا أن الضلال هو للفاسقين الذين اختاروه بحريتهم ، وأن الهداية هي لمن أناب ورجع إلى الله بحريته ، وهذا الاختيار مطابق لما علم الله سبحانه وكتبه في اللوح المحفوظ ، ونقول: لماذا يتمسك بعض الناس - وهم الكافرون والعاصون - بأن الكفر والعصيان لا يصح أن يعذّب عليهما الإنسان لأن الله كتبهما عليه ، ولا حرية ولااختيار له في ذلك ، وعلى العكس يتمسك المؤمنون والطائعون بحقهم في الثواب بالجنة على إيمانهم وطاعتهم ، لأنهما من عمل الإنسان بحريته واختياره ، فالعاصي يريد أن يتهرب من المسئولية والمطيع يتمسك بها ؟

لقد ضل كثير من الناس في فهم قوله تعالى : ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة : ١٣] فقال الجبريون : الخلق كلهم مجبورون في طاعتهم ، بناء على قوله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان : ٣٠] وقال المعتزلة : الهداية مربوطة بمشيئة العباد فهم خالقون لأفعالهم ، بناء على قوله تعالى ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير : ٢٨] .

والحق أن هناك أموراً نحن مضطرون إليها دون اختيار ، وأمور تقع باختيارنا وإرادتنا ، وعلى الثانية يكون الثواب العقاب . وقد مثَّل القرطبي في تفسيره [1] لذلك

١- ج١٤ ص ٩٧ .

بحركة الارتعاش الواقعة في يد الإنسان بغير محاولته وإرادته ، وبين حركة الاختيار إذا حركها بحريته ، فالأولى مضطر إليها بعيدة عن المؤاخذة ، والثانية هي مناط المؤاخذة .

إن الواجب في قراءة النصوص في القرآن والسنة أن نعرف أن اللغة العربية سخية بالألفاظ والمعاني ، فقد يكون للفظ الواحد عدة معان مختلفة ، لكل مقام ما يناسبه منها ، وهناك الأساليب المتعددة في التعبير لا بد من الإحاطة بها حتى يصح الفهم ويمكن الاستنباط الصحيح ، وقد بيّن ابن القيم في كتابه « بدائع الزهور » أربعة معانٍ لكل منها مكانها المناسب .

إن الهدى والضلال في العقيدة والسلوك مرتبطان بالحرية والاختيار للأسباب المؤدية إليهما ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝ ﴾ [الإسراء : ١٣ - ١٥] وبالله التوفيق .



س : في دعاء القنوت عن النبي ﷺ « وقني شر ما قضيت » فهل يقضي الله بشر؟

ج : قضاء الله كله خير وإن كان في نظر الإنسان شرًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ولذلك يجب الإيمان بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره ، والإنسان إذا طلب من الله أن يقيه القضاء الشر فالشر بالنسبة له وبتقديره هو كالمرض والفقر ، وفي الحق كما يعلم الله إنه خير ، لأنه سبحانه حكيم وخبير ولطيف ورحيم ، وما يصدر عنه كله خير من هذه الزاوية .

وقد جاء أن من الناس من لا يصلحهم إلا الفقر ، والآية تقول : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى:٢٧]

وقوله سبحانه : ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يؤكد أن كل ما يقضي به الله خير وإن كان في نظرنا شرًّا بالنسبة لنا ، على أن العبارة المذكورة في السؤال «وقني شر ما قضيت» بعدها مباشرة «فإنك تقضي ولا يقضى عليك» أي أن الله هو الذي يحكم على كل فعل من أفعال العباد بالحكم الصحيح بخير أو شر ، ولا يجوز أن يقضي أحد على حكمه سبحانه فيصفه بأنه خير أو شر ، فكل فعله سبحانه خير .



س : هل الإيمان كسبي للإنسان دخل فيه أم وهبي لا دخل للإنسان فيه؟

ج : الإيمان هو التصديق بالقلب بما جاء به النبي ﷺ وهذا التصديق أو الاعتقاد إن صدق دفع الإنسان إلى العمل واستقام سلوكه ، وكل عمل بدون إيمان لا قيمة له عند الله ، كعمل المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولايذكرون الله إلا قليلاً .

والإيمان المجرد من العمل إيمان ناقص ، كجذر الشجرة التي ليس لها فروع ولا ثمار ، أما الإيمان الذي يتبعه عمل فهو إيمان كامل مع التفاوت في الكمال ، كالشجرة المورقة المثمرة ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ ﴾ [الأنفال : ٢ - ٤] .

والإسلام يحب من المؤمن أن يكون إيمانه كاملاً بالطاعات ليسعد في دنياه وأخراه ولايحب منه أن يكون ناقص الإيمان لتعرضه لعقاب الله على المعاصي إن لم يتب عليه ويغفر له .

والهداية إلى الإيمان التصديقي والإيمان العملي القائم عليه هي توفيق من الله سبحانه ، لكن لكل شيء سبب ، فعلى الإنسان أن يسعى إليه ويجتهد في تحصيله ، والله يهديه إلى ما يريد ، أما بدون السعي ورغبة فلا يستحق من الله هداية ، فإذا قال الله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص : ٥٦] فالمعنى

أن التوفيق للإيمان والطاعة لايملكه إلا الله ، يعطيه لمن سلك السبيل إليه ، والرسول لايعطي هذا التوفيق ، فما عليه إلا الدلالة عليه ، وهي المرادة بالهدى إذا نسب إليه في مثل قوله تعالى ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٧] والله يهدي الناس السبيل ببيان طريق الخير وطريق الشر ، ومن أخذ الأسباب لسلوك طريق الخير هداه الله أي وفقه ، ومن أخذ الأسباب لسلوك طريق الشر أضله الله ، كما قال سبحانه ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦] .

فالإيمان كسبي ووهبي ، كسبي بسلوك السبيل إليه ، ووهبي بتوفيق الله له ، إن صدقت نيته ، وقانون الحياة قائم على الأسباب والمسببات ، تحت مشيئة الله سبحانه ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [التكوير : ٢٩] ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس : ١٠٨] .



س : هل صحيح أن النبي ﷺ قال «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» وهل المراد تشجيع العمل الدنيوي لكسب الرزق ، وعدم الارتكان على تقدير الأرزاق وعدم التواكل والكسل . وما صلة ذلك بالقضاء والقدر؟

ج : مبدئيًّا نقول : إن الإسلام يشجع العمل والكفاح من أجل الحصول على الرزق الذي تكفل الله به بقوله سبحانه : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] وضمنه قبل خلق الأحياء عليها كما قال في خلق السموات والأرض ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت : ٩ ، ١٠] قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [الملك : ١٥] كما يشجع كل عمل مشروع يحقق السعادة للإنسان في دنياه وأخراه ، ويرشد إلى التنسيق بين الأنشطة الدنيوية والأخروية ، كما قال سبحانه ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة : ١٠] وكما صح في الحديث « إن لربك عليك حقًّا ولبدنك عليك حقًّا ولأهلك عليك حقًّا فأعط كل ذي حق حقه» إلى غير ذلك من النصوص التي جمعت أكثرها في رسالة لي عن العمل والعمال في نظر الإسلام .

والحديث المسئول عنه رواه مسلم في صحيحه ، فقد سئل النبي ﷺ : فيم العمل اليوم ، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل ؟ فقال : « بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير » قالوا : ففيم العمل ؟ فقال : « من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له » ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الليل : ٥ - ٧] .

والمراد أن الإنسان لا يعلم ما قُدِّرَ له ، أي كشفه الله بعلمه قبل أن يخلقه ، وهذا العلم ليس ملزماً له ، وعليه أن ينفذ ما أمره الله به ، وذلك بحريته واختياره ليكون الجزاء مرتبطاً بما اختاره بحريته وإن كانت آليات الفعل من خلق الله سبحانه . هذه الإجابة مختصرة لإجابات عن أسئلة سبقت بعناوين مختلفة ، مثل : هل الإنسان مسير أو مخير ، هل الإيمان كسبي أو وهبي ، القضاء والدعاء وعمل البر ، القضاء والقدر ، ومحاجة آدم موسى .



س : هل أطلع الله أحداً على علم الغيب ؟

ج : مما يتصل بالعقيدة الإيمان بالغيب ، كما قال تعالى في وصف المتقين ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [البقرة : ٣] . وقد وردت نصوص تتحدث عن الغيب منها : قوله تعالى ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ٥٩] وصح في الحديث الذي رواه البخاري أنها خمس ، وهي التي جاءت في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾ [لقمان : ٣٤] وقوله تعالى ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ

رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن : ٢٦ ، ٢٧] وقوله تعالى ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٨] .

والغيب ما قابل الشهادة ، أي ما يغيب على الإنسان العلم به ومنه ما يمكن التوصل إليه بالوسائل المختلفة ، كالمسروق يعرف بالبحث عنه ، والمجهول يعرف بالتعلم ، كالكهرباء والفيروسات وما إليها ، ومنه ما لايمكن التوصل إلى معرفته بالوسائل العادية بل لا بد فيه من خبر صادق ، كأحوال الآخرة ، التي يجب أن نؤمن بها لورودها في القرآن والسنة .

ومن الغيب قيام الساعة وما ذكر في مفاتح الغيب ، وقد يعرف شيء منها بإطلاع الله سبحانه عليها من يرتضيه من الرسل ، كما نصت على ذلك الآية .

والإيمان باختصاص الله بعلم مفاتح الغيب واجب بدليل الحصر في قوله : ﴿ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ [الأنعام : ٥٩] . ومن ادعى عدم اختصاصه بذلك كفر ، لأنه كذب القرآن الكريم الصريح في الدلالة عليه ، ومن حاول معرفة هذه المفاتح ليشارك الله فيها كفر أيضاً ، أما من يحوم حولها مؤمناً بأنه لن يصل إلى العلم اليقيني بها فلا يكفر ، ومعلوماته التي يصل إليها من وراء هذه المحاولة معلومات ظنية لايقينية ، والفرق بين علم الله تعالى ومعارف البشر يتركز في نقطتين أساسيتين ، أولاهما أن علم الله عن أي شيء شامل لجميع ما يتصل بهذا الشيء ، والثانية أن علمه سبحانه يقيني لا ظني . أما علم غيره من البشر فلن يجمع الأمرين معاً ، لا في الكم ولا في الكيف ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] ، وقال: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم : ٢٨] . ولئن حصل علم بشيء عن شيء فهو علم قاصر .

وقد حاول الإنسان أن يبحث عن المجهول المستقبل منذ خلق وفيه غريزة حب الاستطلاع ، وبذل في ذلك جهوداً كبيرة ، واتخذ وسائل متعددة ، وكان من هذه الوسائل ما عرف باسم الكهانة والتنجيم والعرافة والطيرة والطرق وضرب الرمل وقراءة الفنجان وقياس الأثر وما يبتكر غير ذلك .

وفيما يلي تعريف بكل منها :

١ - **الكهانة** : هي ادعاء علم الغيب ، بالإخبار عن المضمرات ، أو عن المغيبات في مستقبل الزمان بأية وسيلة من الوسائل ، وقد تختص بما كان فيه اتصال بالجن(١) .

٢ - **التنجيم** : وهو الاستدلال بالنجوم في مواقعها وتحركاتها على ما سيكون في المستقبل من مطر أو حر أو برد أو مرض أو موت وغير ذلك ، وقيل هو الكهانة(٢) .

٣ - **العرافة** : هي ادعاء معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها كالمسروق من الذي سرقه ، والضالة أين مكانها ، وقيل هي السحر(٣) .

٤ - **الطيرة** : - بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن - وهي مصدر تطير ، مثل تخير خيرة ، ولم يجيء من المصادر هكذا غيرهما - ومعناها التشاؤم بالشيء ، أو الاستدلال من طيران الطائر ، أو من رؤية شيء أو سماع صوت على ما سيحصل للإنسان ، وقد كان العرب يزجرون الطير من أماكنها . فإن طارت يميناً استبشرت ، وإن طارت شمالاً تشاءمت ، ويقال لها أيضاً «العيافة» من عاف عيفا ، وسيجيء حديث عن الفرق بين الطيرة والفأل .

٥ - **الطرق** : وهو الضرب بالحصا أوالودع ، وقيل : هو الطيرة وقيل : ضرب الرمل .

٦ - **ضرب الرمل** : وهو وضع خطوط وعلامات على الرمل ، لمعرفة ما يخبأ للإنسان ويعرف أيضاً بالخط ، روى مسلم أن النبي ﷺ سئل عنه فقال : «كان نبي من الأنبياء يخط ، فمن وافق خطه فذاك» وكذب ابن القيم نسبة الخط إلى إدريس عليه السلام ، وجاء في تفسيره : أن «الحازي» أي المحترف لذلك يأتيه الرجل ليعرف حظه ، فيخط على أرض رخوة خطوطاً كثيرة بالعجلة ، ومعه غلام ، ثم يمحو منها على مهل خطين خطين والغلام

(١ ، ٢ ، ٣) يراجع شرح النووي على صحيح مسلم ج٥ ص٢٢ .

يقـول : ابني عيان ، أسرعا البيان ، فإن بقى خطان فهما علامة النجح ، وإن بقى خط واحد فهو علامة الخيبة ، ويقول ابن الأثير في « النهاية » : إنه علم معروف فيه تصانيف ، ويعمل به الآن ، ولهم في اصطلاحات ، يستخرجون به الضمير وغيره ، وكثيراً ما يصيبون فيه (هكذا يقول) [1].

٧- **قراءة الفنجان** : وهي الاستدلال بآثار القهوة على الفنجان على ما يفكر فيه شاربه ، ويزعم بعض المعاصرين أن أثر الزفير على القهوة يعطي مؤشرات صادقة ، لكن إذا كان ذلك من الناحية الطبية أو العضوية فهل تمكن معرفة المستقبل ؟ فيه كلام .

٨- **قياس الأثر** : وهو أخذ قطعة من ثياب الإنسان أو متعلقاته وقياسها بالشبر والأصابع ، والاستدلال بذلك على ما يكون لصاحبه .

وهذه الأشياء وأمثالها نهى الإسلام عنها ، لأنها تتنافى مع اختصاص علم الله بالغيب يقول النبي ﷺ « ليس منـا من تطير أو تطير له ، أو تكهن أو تكهن لـه ، أو سحر أو سحر له ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد »[2] ويقول « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد برئ مما أنزله الله على محمد ، ومن أتاه غير مصدق له لم تقبل له صلاة أربعين ليلة[3] ، ويقول « من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً »[4] ويقول « من أتى عرافاً أو كاهناً فصدق بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد »[5] ويقول « من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد » [6] ويقول : « العيافة والطير والطرق من الجبـت »[7] والجبت ما عبد من دون الله .

١- يرجع فيه إلى شرح النووي على صحيح مسلم ، ج٥ ص ٢٣.

٢- رواه البزار بإسناد جيد والطبراني بإسناد حسن دون قوله ((ومن أتى كاهناً)) .

٣- رواه الطبراني .

٤- رواه مسلم .

٥- رواه أصحاب السنن الأربعة والحاكم وصححه .

٦- رواه أبو داود وابن ماجه .

٧- رواه أبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه .

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أن الجن لايعلمون الغيب ، فيكف يصدقها من يعتمد على أخبارها؟ قال تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤]. والاتصال بالجن ممكن ، وكذلك استخدامهم في بعض الأغراض ، فقد سخرهم الله لسليمان كمعجزة ، فلا مانع من تسخيرهم لغيره ، ولم يرد نص يمنع ذلك ، وقد حدث لبعض الناس بطرق يعرفونها ، ووضح ذلك المحدث الشبلي في كتابه «آكام المرجان» .

يتبين من هذه النصوص أن الاعتقاد بأن غيرالله يعلم الغيب علماً يقينيًّا شاملاً كفر بما جاء في القرآن الكريم خاصًّا بذلك ، ومن مارس هذه الأعمال ينسحب حكمه على من يلجأون إليه لمعرفة الغيب ، فمن صدقه فقد كفر ، ومن لم يصدقه فقد ارتكب إثماً عظيماً ينقص من إيمانه ، ولا يقبل الله صلاته أربعين يوماً .

روى الشيخان أن ناساً سألوا النبي ﷺ عن الكاهن أو الكهان فقال «ليسوا بشيء» فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثونا أحياناً بشيء أو بالشيء فيكون حقًّا ، فقال رسول الله ﷺ « تلك الكلمة من الوحي يخطفها الجني فيقرها - أي يلقيها- في أذن وليه ، فيخلط معها مائة كذبة» وجاء في البخاري « إن الملائكة تنزل في العنان ، وهو السحاب ، فتذكر الأمر قضي في السماء ، فيسترق الشيطان السمع فيسمعه ، فيوجه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم».

هذا وقد أبدلنا بهذه الأمور وسيلة يمكن بها أن نطمئن لما نقدم عليه من عمل ، وهي صلاة الاستخارة مع دعائها المعروف الذي جاء به الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ولنسمع قول الله تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

تنبيهات

التنبيه الأول : عن علم الساعة :

سبق بيان أن علم الساعة من مفاتح الغيب التي استأثر الله بعلمها ، والآيات القرآنية كثيرة في ذلك ، وكذلك الأحاديث النبوية الصحيحة ، التي من أقواها حديث جبريل حين سأل النبي ﷺ عنها ، فقال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » ثم ذكر له بعض علاماتها .

ومع ذلك حاول بعض الناس قديماً وحديثاً معرفة موعدها ، وأثبت الواقع خطأهم ، ثم جاءت نحلة البهائية أخيراً وزعمت أنها تعرف موعد قيام الساعة بناء على أمرين ، أولهما سر العدد ١٩ والثاني بعض آيات من القرآن الكريم ، وفيما يلي تفصيل ذلك والرد عليه .

أولاً : العدد ١٩ المذكور في قوله تعالى في وصف جهنم : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر : ٣٠] . زعموا أن له سرًّا حاولوا أن يثبتوه بحصر الحروف الموجودة في بعض السور ، أو في فواتحها من الحروف المقطعة أو في بعض الكلمات ، وبطريق التعويض عن الحروف بأرقام على النظام اليهودي في الأبجدية حددوا وقت قيام الساعة .

ويرد على هذا بأن القرآن فيه أعداد أخرى كالعشرة والمائة والألف وغيرها ، فلماذا اختاروا هذا العدد بالذات؟ وبأنهم لم يتبعوا المنهج العلمي عند حصر الحروف ، فأسقطوا بعضها ليتم لهم ما يريدون ، كما كشف عن ذلك المتبعون للحصر الذي أعلنوه ، وبأن أية مجموعة كبيرة من الأعداد يمكن التوصل منها إلى مجموعات تقبل القسمة على أي عدد من الأعداد ، وليس شرطاً أن يكون العدد ١٩ ، وذلك من البديهات عند علماء الرياضة[1] ، كما زعموا أن اليهود أخبروا النبي ﷺ بأن حروف « الم » تدل على عدد السنوات التي تعيشها دعوته ولم ينكر عليهم ذلك . وهذا خبر مدسوس ليس له سند يعتمد عليه .

---

١ - بحث الدكتور علي حلمي موسى أستاذ الفيزياء الرياضية بكلية العلوم جامعة عين شمس ، المنشور بجريدة اللواء الإسلامي : عدد ١١٦ في ٧ من رجب ١٤٠٥هـ (٢٨/ ٣/ ١٩٨٥م) .

ثانياً : استدلوا من القرآن الكريم بآيتين ، أولهما قول الله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٧] قالوا: إن قوله ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يفيد أن بعضاً قليلاً من الناس يعلمون موعد الساعة ، وهم من هذا القليل . ويرد عليهم بأن نفي العلم عن أكثر الناس منصب على الإيمان بما سبق في الآية ، من اختصاص علم الله بها ، وبأنها ثقيلة ولاتأتي إلا بغتة ، فأكثر الناس وهم الكافرون يجهلون هذه الحقيقة المقررة في الآية ، ولا معنى لما فهموه من أن أكثر الناس جاهلون بموعد الساعة والقليل يعلمه ، ففي فهمهم لأول الآية وآخرها تضارب ، والقرآن الكريم منزه عن ذلك .

ومع احتمال فهمهم هذا فالاستدلال به ساقط ، لأنه ليس هو الفهم الوحيد المتعين لها ، ومعلوم أن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال .

والآية تدل بصراحة على نفي علم أحد بالساعة ، أي بوقت حدوثها ، فذلك من اختصاص الله وحده ، وذلك واضح في قصر علمها عليه سبحانه بأكثر من أسلوب ، وفي أنها تأتي بغتة ، وفي عدم علم النبي ﷺ بذلك . فلا بد من توافق آخر الآية مع هذه المقررات الصريحة فيها . ونفي علم أحد بموعدها يستوي فيه القليل والكثير من الناس .

والآية الثانية التي استدلوا بها هي قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ١٥] . قالوا إن فعل «كاد» إذا كان مثبتاً يدل على نفي ما بعده ، فمن يقول : كدت أقع يدل على أنه لم يقع ، وعلى هذا فمعنى «أكاد أخفيها» أنه لم يخفها ، فتمكن معرفتها بطريق أو بآخر ، وليس حتماً أن يكون ذلك عن طريق الوحي فقط كما قال تعالى ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن : ٢٦ ، ٢٧] بل يمكن أن يكون بطريق الحساب أو بغيره .

ويرد على ذلك بأن الفعل « خفى » يستعمل في اللغة للستر وللإظهار ، فهو من الأضداد ، يقال :خفاه يخفيه خفياً ، من باب رمى . وخُفِيا أيضاً –بضم الخاء وكسر الفاء– وفي بعض القراءات « أخفيها » بفتح الهمزة ، وكما أن الخفي الثلاثي يفيد الستر

والإظهار كذلك يفيدهما الإخفاء وهو مصدر الفعل الرباعي أخفاه . وعلى هذا فالآية ليست دليلاً قاطعاً على مدعاهم ، فقد يكون معناها : أكاد أظهرها ، بل يجب المصير إلى هذا المعنى لتتوافق الآيات بعضها مع بعض ، والمتشابه يرد إلى المحكم كما قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[آل عمران : ٧].

وهؤلاء في قلوبهم زيغ يبتغون الفتنة ، حيث تمسكوا بالمتشابه ولم يأبهوا بالمحكم الذي يجب رده إليه ، وليسوا من الراسخين في العلم على أي وجه يكون الوقف في الآية « مذهب السلف ومذهب الخلف » لأنهم في محاولتهم لتقديس العدد ١٩ خالفوا المنهج العلمي وزيفوا ، وفي عدم رد المتشابه إلى المحكم ظهر جهلهم بأصول البحث ، ولم يؤمنوا بما جاء في القرآن الكريم نصًّا في عدم علم أحد بالساعة إلا الله سبحانه .

وبهذا يظهر أن استدلال هؤلاء استدلال واه ضعيف أو فاسد لايثبت مدعاهم ، ولم يعتبروا بمن سبقهم ممن زعموا علم الساعة وحددوا موعدها فافتضح أمرهم ، وليس المهم هو معرفة وقت قيامها بل المهم هو الاستعداد لها ، وقيامة كل إنسان موته أو عقب موته ، فمن مات فقد قامت قيامته ، لأنه لا عمل بعد الموت ، بل جزاء وحساب ، كما في القيامة الكبرى . وقد نبه النبي ﷺ من سأله عنها إلى الاستعداد لها ، فكل من الموت والقيامة يأتي بغتة ، روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن أعرابيًّا قال لرسول الله ﷺ متى الساعة؟ فقال« ما أعددت لها »؟ قال : حب الله ورسوله ، قال «أنت مع من أحببت» .

التنبيه الثاني : عن العلم بما في الأرحام :

مما اختص الله بعلمه : ما في الأرحام ، كما سبق في الآية ، وكما قال تعالى أيضاً : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد : ٨] .

ولاينافي ذلك ما يقال : إن بعض الناس توصلوا إلى معرفة نوع الجنين قبل أن يولد من بطن أمه ، وهو ما يزال في الرحم حتى أيامه الأولى ، ذلك أن علم الله بما في الأرحام علم شامل ، وفي الوقت نفسه علم يقيني لا ظني ، فالله يعلم المولود قبل أن يولد ، بل قبل أن يتكون أصلاً ، يعلمه علماً شاملاً ، ويخبر الملائكة ببعض ما يعلمه عنه ، وهم لايعلمون عنه شيئاً قبل أن يخبرهم الله به ، كما قال سبحانه عنهم : ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾[البقرة : ٣٢] .

جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ، فو الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »[١]. وفي بعض الروايات « ذكر أم أنثى » بدل « عمله » .

فلو فرضنا أن الإنسان عرف نوع الجنين فهل يعرف ما بقى من رزقه وأجله وما تنتهي إليه حياته من سعادة أو شقاء ، على أن معرفة نوع الجنين لاتتيسر في كل الحالات ، بل في فترة معينة ، أما الله سبحانه وتعالى فيعلم ذلك كل وقت ، بل قبل أن يتكون الجنين كما قلنا ، وعلم الله بذلك علم يقيني لايتطرق إليه الشك ، وعلم الإنسان ظني وأحياناً يتخلف ، ولبعض الناس شواهد لمعرفة نوع الجنين لاتعدو أن تكون ظنوناً[٢].

التنبيه الثالث : عن التنجيم :

ينبغي الفرق بين التنجيم وعلم النجوم أو الفلك ، فالتنجيم حدس واستنباط لايقوم على أسس علمية صحيحة لاتخطئ ، أما علم النجوم فهو علم يدعو إليه

١- رواه البخاري ومسلم .
٢- انظر كتاب منهج الإسلام في تربية الأولاد .

الدين لمعرفة أسرار الكون والإيمان بالله أو تعميق الإيمان به ، وقد جاءت الآيات الكثيرة تدعو إلى التفكر في خلق السموات والأرض ، والإفادة من مسخرات الكون ماديًّا وأدبيًّا .

يقول ابن حجر الهيتمي[1] : والمنهي عنه من علم النجوم ما يدعيه أهلها من معرفة الحوادث الآتية في مستقبل الزمان ، لمجيء المطر ووقوع الثلج وهبوب الريح وتغير الأسعار ونحو ذلك ، يزعمون أنهم يدركون ذلك بسير الكواكب لاقترانها وافتراقها وظهورها فـي بعض الأزمان ، وهذا علم استأثر الله به لا يعلمه أحد غيره ، فمن ادعى علمه بذلك فهو فاسق ، بل ربما يؤدي به إلى الكفر .

أما من يقول : إن الاقتران والافتراق الذي هو كذا جعله الله علامة ، بمقتضى ما اطردت به عادته الإلهية ، على وقوع كذا وقد يتخلف فإنه لا إثم عليه بذلك ، وكذا الإخبار عما يدرك بطريق المشاهدة من علم النجوم الذي يعرف بها الزوال وجهة القبلة ، وكم مضى وكم بقي من الوقت ، فإنه لا إثم فيه ، بل هو فرض كفاية.

وفي حديث الصحيحين عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح في أثر سماء -أي مطر- كانت في الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : «أتدرون ماذا قال ربكم»؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال: «قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي ، كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا -أي وقت النجم الفلاني- فذلك كافر بي ، مؤمن بالكوكب».

قال العلماء : من قال ذلك مريداً أن النوء هو المحدث والموجد فهو كافر ، أو أنه علامة على نزول المطر ، والذي ينزله هو الله وحده ، لم يكفر ، ويكره قول ذلك ، لأنه من ألفاظ الكفرة ، والمهم أن يكون الاعتقاد صحيحاً في أن الله هو فاعل كل شيء ، وأنه وراء الأسباب جميعاً ، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد ، وما يصل إليه الباحثون ويستنتجونه هو ظن قد يصدق بعضه ويتخلف البعض الآخر .

١- الزواجر : ج٢ ص١١٠ .

التنبية الرابع : عن الطيرة والفأل :

سبق القول بأن الطيرة أو التطير يقوم على الربط بين ما يحصل للإنسان في المستقبل وبين رؤية شيء أو سماع صوت ، والتشاؤم نوع من التطير إذا كان رد الفعل مكروهاً ، ويقابله التفاؤل والفأل إذا كان رد الفعل مقبولاً ، وقد تستعمل هذه الألفاظ بعضها مكان البعض الآخر .

والباعث عليه هو رغبة الإنسان في معرفة ما يغيب له ، وهو قديم تحدث عنه القرآن الكريم ، فقال عن ثمود قوم صالح عليه السلام ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ [النمل : ٤٧] وعن قوم موسى عليه السلام ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف : ١٣١] وعن أصحاب القرية التي بعث إليها أصحاب عيسى عليه السلام ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ [يس : ١٨ - ١٩] .

وكان معروفاً عند العرب في الجاهلية ، وبخاصة في طيران الطير أو زجره أو زجر الوحوش وإثارتها ، فما تيامن منها سموه « السانح » وما تياسر سموه « البارح » وما استقبلهم سموه « الناطح » وما جاءهم من الخلف سموه « القعيدة أو القاعد » . ومن اشتهر عندهم بمعرفة ذلك يسمونه « العائف أو العراف » ومنهم عراف اليمامة والأبلق الأسيدي وعروة بن زيد .

ومنهم من كان يقدح فيه ولا يعترف به ، كالمرقش السدوسي وجهم الهذلي ، وجاء في ذلك قول المرقش :

ولقد غدوت وكنت لا أغدو على واق وحائم
فإذا الأشائم كالأيامن والأيامن كالأشائم
وكذاك لا خير ولا شر على أحد بدائم
لا يمنعنك من بغاء الخير تعاقد التمائم
قد خط ذلك في السطور الأوليات القدائم

والواقي هو الصرد - نوع من الطيور - والحائم هو الغراب .

يقول ابن القيم : من اهتم بذلك أسرع إليه التأثر ، وكثر وسواسه فيما يسمعه ويراه ويعطاه ، فإذا أهدى إليه سفرجل أو سمع اسمه تشاءم وقال : سفر وجلاء ، وهكذا ، وذكر عدة حوادث في ذلك .

وقد ذم الله التطير وحكاه عن قوم هم أعداء الرسل ، ومعنى طائركم وطائرهم ما قضى وقدره عليهم بسبب كفرهم وتكذيبهم ، وهو راجع عليهم ، وذمه النبي ﷺ في حديث الصحيحين عن الذين يدخلون الجنة بغير الأحاديث بقوله «ولايتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» وفي غير ذلك من الأحاديث التي سبق ذكرها . وجاء في مسلم أن معاوية بن الحكم السلمي قال : يا رسول الله ، ومنا أناس يتطيرون ، فقال « ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه ، فلا يصدنه » . فبين أن تأثيرها ليس من ذاتها ، بل من الإنسان نفسه الذي يعتقد فيها .

ومع نهي النبي ﷺ عن الطيرة كان يحب الفأل الحسن ، ففي الصحيحين « لاعدوى ولا طيرة ، وأحب الفأل الصالح » وفي لفظ « وخيرها الفأل » وفي لفظ « وأصدقها الفأل » ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « إذا أبردتم إليّ بريداً فاجعلوه حسن الاسم حسن الوجه » وله في الفأل حوادث ، منها اختيار من اسمه «يعيش» ليحلب الناقة ورفض من اسمه « حرب » ، وأخبر عمر عن سبب ذلك ونفى أنه تطير فقال « ظننت يا عمر أنها طيرة ، ولا طير إلا طيره ، ولا خير إلا خيره ، ولكن أحب الفأل » وكره المرور يوم بدر بطريق فيه جبلان لم يعجبه اسمهما ولا اسم الساكنين فيه . وفي الصحيحين أنه قال « الشؤم في ثلاث ، في المرأة والدار والدابة » وفي الموطأ أنه أمر امرأة بالتحول من دارها لما أصابهم فيها من مكروه .

وقد علق ابن القيم على ذلك بأن الفأل ليس فيه شرك بل فيه تقرير لطبيعة الإنسان في حب الخير وكراهية الشر ، كما يحب الصوت الحسن والرائحة الطيبة والأخبار السارة عن الخصب والصحة والانتصار ، مع اعتقاد أن هذه الأمور لاتؤثر أبداً إلا بإذن الله كما في التشاؤم بالدار ، والتشاؤم قد يؤدي إلى الشرك وترك التوكل على الله . أما الفأل فيفضي إلى الأمل والطاعة وتوحيد الله . وقال بعضهم في

الفرق بين التطير والفأل : إن الفأل فيه إبانة عن شيء حاصل في النفس وهو الارتياح الذي ظهر بسماع الاسم الحسن مثلاً ، أما التطير ففيه استدلال على شيء غير حاصل .

وحديث الشؤم روى بوجهين ، أحدهما بالجزم والثاني بالشرط . فالأول « الشؤم في الدار والمرأة والفرس » والثاني « إن يكن من الشؤم شيء حقًّا ففي الفرس والمسكن والمرأة » فقالت طائفة : لم يجزم النبي ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ، بل علقه على الشرط ولا يلزم من صدق الشرطية صدق كل واحد من طرفيها . وقالت طائفة أخرى : إضافة الشؤم إليها مجاز واتساع ، أي قد يحصل مقارناً لها لأنها هي نفسها مما يوجب الشؤم ، فقد تكون الدار قد قضى الله أن يميت فيها بعضاً من خلقه ، فمن كتب الله عليه الموت في تلك الدار حسن إليه سكناها حتى يقبض فيها . سئل مالك رضي الله عنه عن الشؤم في الدار فقال : إن ذلك كذب فيما نرى ، كم من دار سكنها ناس فهلكوا ، ثم سكنها آخرون فملكوا .

وقال آخرون : إنما يلحق الشؤم من تشاءم منها ، أما من توكل على الله فلا يلحقه ضرر منها ، ولذلك نصح النبي ﷺ المرأة أن تتحول عن هذه الدار ما دامت تتشاءم منها ، وهو من باب الرحمة والتيسير ، بدل أن يرغمها على سكناها ونفسها لم تتهيأ لترك الشؤم وللاتكال على الله بعد ، فقد يزيدها ذلك اعتقاداً في التطير وهو شرك ، أو يسلمها إلى الحزن بكراهة الدار ، ولو أرغم من ضاق رزقه في بلد على عدم مفارقتها لكان ذلك هو الحرج الذي لا يرضاه الله لعباده .

ثم يجيب ابن القيم إجابة جامعة عن كل ما نسب إلى الرسول وغيره من الفأل بقوله : إن بين الأسماء والمسميات ارتباطاً بقدرة الله . وألهمه الله للعباد ، وليس ارتباط العلة بمعلولها ، بل ارتباط تناسب وتشاكل ولكل شيء من اسمه نصيب بقدر ما ، ووقوع حوادث مرتبطة بأشياء أخرى هو مصادفة واتفاق وليس على سبيل التسبب والتأثير .

ثم يقول : تعطيل الأسباب تعطيل للشرع ومصالح الدنيا ، والاعتماد عليها كلية شرك بالله تعالى ، فالمقامات ثلاثة : أحدها : تجريد التوحيد وإثبات الأسباب ، وهو

ما جاء به الشرع ، والثاني : الشرك في الأسباب بالمعبود ، والثالث : إنكار الأسباب بالكلية محافظة من منكرها على التوحيد . فالمنحرفون طرفان مذمومان ، إما قادح في التوحيد بالأسباب ، وإما منكر للأسباب بالتوحيد ، والحق غير ذلك ، وهو إثبات التوحيد والأسباب وربط أحدهما بالآخر ، فالأسباب محل حكمه الديني والكوني ، والحكمان عليها يجريان بل عليها يترتب الأمر والنهي والثواب والعقاب ، والتوحيد تجريد الربوبية والإلهية عن كل شرك .

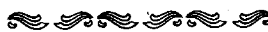
وذكر في التوفيق بين النهي عن الاقتراب من المجذوم وبين أكل النبي معه ، أن النبي ﷺ أثبت السبب وأمر بالفرار ، وأثبت المانع وهو التوكل فأجاز المؤاكلة ، لكن لا يقدر كل أحد على المانع وهو التوكل ، فأرشد إلى مجانبة المجذوم تشريعاً للفرار من أسباب الأذى ، ووضع يده معه تعليم للأمة بدفع الأسباب بما هو أقوى منها ، وإعلام بأن الضرر والنفع بيدالله عز وجل . فالمؤمن إذا وثق بالله لا يضره السبب ، كما قيل عند الطيرة «اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك ، اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك» ثم يمضي لحاجته .

هذا الأثر ذكره ابن القيم في بحثه عن الطيرة والتشاؤم ، روى أبو عمرو في «التمهيد» بسند فيه ابن لهيعة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال «من أرجعته الطيرة من حاجته فقد أشرك» قال : وما كفارة ذلك ؟ قال «أن يقول أحدهم ..» وذكر الحديث ، وأورد عن كعب الأحبار مثل ذلك وأنه في التوراة .



س : إذا قتل الإنسان فهل يعتبر موته قبل استيفاء العمر الذي قدره الله له ؟

ج : في كتب التوحيد هذه العبارة «والمقتول ميت بأجله» فالله سبحانه قدَّر له هذا الأجل وعلم أن سبب موته هو القتل ، فالعمر محدود غير متغير في علم الله تعالى ، وما يظهر للملائكة هو أن الإنسان لو وصل رحمه مثلاً طال عمره كما جاء في الحديث ، ولا يعلمون إن كان سيصل رحمه أو لا ، والذي يعلم ذلك يقيناً هو الله وحده .



س : استطاع العلم الحديث أن يعرف نوع الجنين إن كان ذكراً أو أنثى ، فهل يتعارض ذلك مع قول الله تعالى : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ .

ج : يقول الله تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد :٨] ويقول ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان :٣٤] .

لا يتنافى علم البشر بنوع الجنين في بطن أمه مع علم الله بما في الأرحام ، وذلك لأربعة أمور ، **أولها** : أن الله يعلم ذلك قبل أن يتخلق الجنين ، أي قبل أن تتلقح بويضة الأنثى بماء الذكر ، إلى أن يولد ، بل قبل أن يكون هناك الزواج بين الرجل والمرأة ، والطب لا يعرف ذلك إلا بعد إخصاب البويضة بزمن يمكنهم فيه الفحص والاستدلال ، وما يقال : إنهم يعرفون ذلك قبل الإخصاب بفحص ماء الرجل ومعرفة الكروموسومات الغالبة فيه ، فإن هناك عوامل أخرى لا يستطيع العلم التحكم فيها ، وكلها تحت إرادة الله سبحانه ، وما يستنبطونه مقدماً فهو لايعدو مرحلة الظن والتخمين .

ثانيها : أن علم الله بنوع الجنين علم حقيقي لا يتخلف ، وعلم العلماء بذلك علم ظني قد يتخلف ، وبخاصة في الأيام الأولى للحمل .

ثالثها : أن علم الله بالجنين علم شامل لنوعه ورزقه وأجله وسعادته وشقائه ، وذلك غير مستطاع إلا لله سبحانه وتعالى ، الذي قدر كل شيء قبل أن يخلقه .

رابعها : أن علم الله لا يسبقه جهل ، وعلم غيره مسبوق بالجهل .

وبهذه الأمور وغيرها يظل علم الله سبحانه في قدسيته وشموله وصدقه لايدانيه فيه مخلوق من مخلوقاته .

قال تعالى ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام :٥٩] وقد بين الحديث هذه المفاتح بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ . . . ﴾ كما رواه البخاري فعلمها قاصر عليه وحده «لا يعلمها إلا هو» وذلك على الوجه المبين فيما تقدم .



س : ما حكم الدين في قراءة الكف ؟

ج : الإسلام أمرنا بالعلم والبحث والنظر ، ووجهنا إلى عدم الظن في كل الأحوال ، وإلى أن تكون معلوماتنا مبنية على الحقائق ما أمكننا ذلك ، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة .

والناس من قديم الزمان لهم طرق في الاستنتاج قد تصح نتائجها وقد تبطل ، ولكنهم مع ذلك مغرمون بحب الاستطلاع ، والوصول إلى معلومات تهمهم عن طريق شواهد ومقدمات ، وسمعنا في ذلك عما يسمى بالكهانة والعرافة والتنجيم وضرب الحصا . . . وشاع في أيامنا ما يعرف بقراءة الفنجان وقراءة الكف .

وقد عكف جماعة على دراسة خطوط الكف عند ما رأوا صدق دلالته في بعض الأحوال فنرى مثلاً الدكتورة إكرام عبدالسلام أحمد أستاذ طب الأطفال بقصر العيني تقول : هناك نوعان من خطوط اليد ، خطوط ثنايا الكف ، وهي واضحة عند النظر إليها وأساسها ثلاثة خطوط ، اثنان عرضيان تحت الأصابع الأربع ، والثالث بحد منطقة الإبهام وهو منحن وهي متشابهة في جميع الناس ، وإذا تغيرت يكون هناك شذوذ ، أما خطوط الأصابع فهي عكس ذلك لا تكاد تتشابه أو لاتتشابه مطلقاً من شخص لآخر ، وعليها الاعتماد في البصمات ، وهي ترى إما بالعدسة المكبرة وإما بالطبع بالحبر .

واكتشفت أن تغير الخطوط الثلاثة في الكف يدل على تأخر عقلي أو اختلاف في الكروموسومات التي تنشأ عنها تشوهات خلقية . وسبب ارتباط ذلك باليد يبدأ تكوينها في الأشهر الثلاثة الأولى مع تكوين أعضاء الجسم ، فأي اختلال في التكوين يظهر فيها .

وقد بحثت ارتباط الخطوط ببعض الأمراض كالتأخر العقلي وروماتيزم القلب وأمراض الجهاز العصبي ، كما يمكن دراسة بعض الأمراض أو التكهن بها من خلال بصمات الأصابع [1] .

---

١ - الأهرام ٢٦/٨/١٩٧٧م .

وواضح من هذا الكلام أن هذه الخطوط لها ارتباط بالتكوين العضوي لجسم الإنسان وما ينشأ عنه من تأثير في القوى العقلية ، لكن التنبؤ بالمستقبل من النظر في هذه الخطوط هو الذي ما يزال رجماً بالغيب لم تقم له قواعد ثابتة يقينية .

هذا ، وقارئ الكف العالمي (دافيد براندون جونز) حاول أن يربط بين خطوط الكف وبين المستقبل بوجه عام ، وله في ذلك بحوث واطلاعات واستنتاجات كثيرة [1] ولكن كل ذلك لا يتعدى مرحلة الظن ، ولاينبغي الاعتماد على أقوال هؤلاء في رسم الخطوط لحياتنا المستقبلة ، فإن المقدمات غير اليقينية لاتلزم عنها نتائج يقينية .

وقد علمنا النبي ﷺ دعاء الاستخارة في كل ما يهمنا من الأمور ، والأولى الالتجاء إلى الله بها ، فهو وحده مالك الأمر كله ، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو .

ويثار هنا سؤال : هل أطلع الله رسوله على ما يكون في غد ؟ والجواب ما جاء في قوله تعالى ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف :١٨٨] وصح في مسلم أن عائشة رضي الله عنها قالت : من زعم أن رسول الله يخبر بما يكون في غد فقد أعظم الفرية على الله . وتلت قوله تعالى ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل :٦٥] .



س : ما حكم الدين في الرقى ؟

ج : الرقى جمع رقية ، وهي كلمات يقولها الناس لدفع شر أو رفعه ، أي يحصنون بها أنفسهم حتى لا يصيبهم مكروه ، أو يعالجون بها مريضاً حتى يبرأ من مرضه ، وكان العرب قبل الإسلام يعتقدون أنها مؤثرة بنفسها دون تدخل لقدرة أخرى غيرها ، واختيار كلماتها مبني على اعتقادات قد يرفضها الدين ، ولذلك كان موقف

---

١ - القبس ٤/ ٦/ ١٩٧٩م .

الإسلام منها هو تصحيح الخطأ في الاعتقاد ، وتقرير أنه لا تأثير لها إلا بإرادة الله تعالى ، وكذلك رفض الكلمات التي تتنافى مع العقيدة الإسلامية الصحيحة . فإن كانت كلماتها مقبولة مع اعتقاد أن أثرها هو بإرادة الله سبحانه كان مسموحاً بها ، مثلها مثل الدعاء أو الدواء ، وبهذا يمكن أن نفهم ما جاء من نصوص رافضة أو مجيزة لها .

فمما ورد في رفضها حديث البخاري ومسلم عن الذين يدخلون الجنة بغير حساب الذي جاء فيه « هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » وفي رواية لمسلم زيادة « ولا يرقون » . فالراقي وطالب الرقية مذمومان ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه دخل على امرأته وفي عنقها شيء معقود ، فجذبه فقطعه ثم قال : لقد أصبح آل عبدالله أغنياء أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » قالوا : يا أبا عبدالرحمن هذه الرقى والتمائم قد عرفناها . فما التولة؟ قال :شيء تصنعه النساء يتحببن إلى أزواجهن[1]. والتولة بكسر التاء وفتح الواو .

ومما ورد في إجازتها :

أ- حديث الصحيحين من رقية بعض الصحابة بفاتحة الكتاب لسيد الحي الذي لدغ فشفاه الله ، ثم أقرهم النبي ﷺ على فعلهم وما أعطاه إياهم هذا السيد ، وبين أن العلاج بكتاب الله أحق أن يؤخذ عليه الأجر .

ب- حديث الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها : أمر النبي ﷺ أن نسترقي من العين .

ج- حديث الصحيحين : كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه بقل هو الله أحد والمعوذتين ، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يده من جسده .

د- حديث الصحيحين : أنه ﷺ كان يعوذ بعض أهله ، يمسح عليه بيده اليمنى ويقول « اللهم رب الناس أذهب الباس ، واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقما » .

١- رواه ابن حبان في صحيحه ، والحاكم وصححه .

هـ- ما رواه مسلم أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال : يا محمد اشتكيت؟ قال « نعم » فقال جبريل : باسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك ، من شر كل نفس أو عين حاسد ، الله يشفيك ، باسم الله أرقيك .

و- ما رواه مسلم أنه ﷺ قال : « من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك » .

ز- ما رواه مسلم عن أنس أن النبي ﷺ رخص في الرقية من الحمة والعين والنملة.

ح- ما رواه مسلم أن النبي ﷺ قال لعثمان بن أبي العاص لما اشتكى إليه وجعاً يجده في جسده منذ أسلم « ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل : بسم الله « ثلاثاً » وقل سبع مرات : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » .

ط- ما رواه أبو داود أنه ﷺ أذن للشفاء بنت عبدالله أن ترقي من النملة بعد أن عرضت عليه ، وقال « لا بأس بها » النملة بكسر الميم بثور في الجنبين ، والحمة ضرر ذوات السموم .

ي- ما رواه ابن ماجه أنه ﷺ أذن لعمارة بن حزم في الرقية من الحية بعد أن عرضت عليه ، وقال « لا بأس بها » .

قال النووي في الجمع بين الأحاديث الناهية عن الرقى والمجيزة لها : أن المنهي عنه هو الرقية بكلام الكفار ، والرقى المجهولة والتي بغير العربية وما لا يعرف معناها ، فهي مذمومة لاحتمال أن معناها كفر أو قريب منه أومكروه ، وأما الرقى بآيات القرآن والأذكار المعروفة فلا نهي عنها بل هي سنة[1] وقد روى مسلم عن النبي ﷺ «اعرضوا عليَّ رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك».

وقال ابن حجر في فتح الباري : أجمع العلماء على جواز الرقية عند اجتماع ثلاثة شروط : أن تكون بكلام الله أو بأسمائه أو صفاته ، وباللسان العربي أو بما معناه من غيره ، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها ، بل بتقدير الله[2] .



١- شرح صحيح مسلم ، ج١٤ ص ١٩٦ .
٢- نفثات صدر المكمد للسفاريني : ج٢ ص٦٤٢ .

س : ما حكم الدين في التمائم ؟

ج : التمائم جمع تميمة ، قال الحافظ المنذري : يقال إنها خرزة كانوا يعلقونها ، يرون أنها تدفع عنهم الآفات . واعتقاد هذا الرأي جهل وضلالة ، إذ لا مانع إلا الله ، ولا دافع غيره . ذكره الخطابي(١) .

فالنهي عنها عند اعتقاد أنها تؤثر بنفسها ، فذلك شرك وبدون هذا الاعتقاد جهالة ، جاء في الحديث « من علق تميمة فلا أتم الله له ، ومن علق ودعة فلا أودع الله له »(٢) . وفي حديث آخر « من علق فقد أشرك »(٣) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ليست التميمة ما يعلق به بعد البلاء ، إنما التميمة ما يعلق به قبل البلاء(٤).

ويؤخذ من كلام المنذري أن التميمة خرزة ، وفي الحديث ذكر التميمة والودعة ، فهل هما شيء واحد؟ وإذا كان ذلك فلماذا التكرار والعطف يقتضي المغايرة ؟ وقد يجاب على ذلك بأن الودعة هي الخرزة الصدفية المعروفة التي تتكون في البحار ، والتميمة كل شيء يعلق من أية مادة تكون ، كقطعة خشب أو خرقة أو غيرهما مما يعتقد الجهلة منفعته . وتفسير عائشة يدل على أنها كانت للحفظ من الإصابة ودفع الشر ، وليست للاستشفاء من مرض واقع .

ومهما يكن من شيء فإن اعتقاد أن هذه الأشياء تؤثر بنفسها دون توقف على إرادة الله تعالى يتنافى مع الإيمان .

ومثل التمائم ما يعرف بالأحجبة ، وهي كتابات تعلق بقصد دفع الشر أو رفعه ، فإن كانت كلمات من القرآن الكريم أو ذكر الله تعالى ، مع اعتقاد أنها لا تؤثر إلابإرادته سبحانه فلا يؤثر ذلك على الإيمان ، مع التنبيه على صيانة كلام الله تعالى من كل ما يخل بتوقيره ، ومع التوصية بطلب العلاج عند المختصين .

١- الترغيب والترهيب : ج٤ ص ٩٦ .
٢- رواه أحمد وأبو يعلي بإسناد جيد والحاكم وصححه .
٣- رواه أحمد برواة ثقات .
٤- رواه الحاكم وصححه .

وجاء في زاد المعاد لابن القيم [1] أن جماعة من السلف أجازوا كتابة شيء من القرآن ثم إذابته بالماء و التداوي به سقياً أو غسلاً ، روي ذلك عن مجاهد ومثله عن أبي قلابة ، ويذكر عن ابن عباس أنه أمر أن يكتب لامرأة يعسر عليها ولادها أثر من القرآن ثم يغسل ويسقى .

وجاء في « الفتاوى الإسلامية » [2] : اختلف العلماء في جواز كتابة بعض آيات من القرآن أو أسماء لتكون تمائم ، فقالت طائفة بجوازه ، ونسبوا هذا إلى عمرو ابن العاص وأبي جعفر الباقر ، رواية عن الإمام أحمد ، وقالت طائفة بمنعه لحديث أحمد « من علق تميمة . . . » وجزم كثير من العلماء بقول الطائفة الأخيرة ، لعموم هذا النص ، وَسدًّا للذريعة حتى لا يكبر الصغار وهم يعتقدون أن التمائم هي التي تشفي وتحفظ دون إرادة الله . ولا يحل لمسلم أن يأخذ أجراً على كتابة هذه الآيات ، وليس هناك حديث يقول « خذ من القرآن ما شئت لما شئت » .

ويراجع في ذلك تفسير القرطبي [3] .



س : ما حكم الدين في العدوى ؟

ج : العدوى انتقال المرض من المصاب به إلى آخر ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، وكان العرب يعتقدون أن الجسم المريض يؤثر حتماً في الجسم السليم عند وجود الفرصة ، وذلك دون حساب أو تقرير لإرادة الله تعالى .

ولما كانت العدوى حقيقة واقعة لم ينكرها الإسلام ، وإنما أنكر الاعتقاد الشائع حولها ، ولهذا جاءت نصوص تثبتها كحقيقة طبية ، ونصوص تنفيها كمؤثر حتمي بعيد عن إرادة الله .

فمما جاء في إثباتها حديث « إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » ولما سمعه عمر بن الخطاب رضي الله

١- ج ٤ ص ١١٩ . ٢- ج ١٠ ص ٣٥٦٧ .
٣- ج ١٠ ص ٣١٨ .

عنه رجع من الشام . ولما قيل له : أفراراً من قدر الله قال ؟ : أفر من قدر الله إلى قدر الله[1]. وحديث «لايورد ممرض على مصح»[2]. وحديث «فرَّ من المجذوم فرارك من الأسد»[3]. وعدم مبايعة النبي ﷺ لرجل مجذوم كان في وفد ثقيف[4].

ومما جاء في نفي العدوى حديث «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر»[5].

وحديث «فمن أعدى الأول»[6] ؟ وذلك في معرض الحديث عن الإبل يدخل في وسطها بعير أجرب . وحديث : وضع النبي ﷺ يد مجذوم معه في الطعام وقوله : «كل باسم الله توكلاً على الله وثقة بالله»[7].

وقد وضح ابن القيم هذا الموضوع في كتابه «زاد المعاد» وذكر أنه لاتعارض بين الأحاديث القوية ، فالإثبات على أنها سبب عادي ، والنفي يحمل على أنها لا تؤثر بنفسها .

والهامة : طائر يزعم العرب أن عظام الميت تصير طائراً يطير من قبره ينادي بأخذ الثأر له وتقول : اسقوني اسقوني ، فإذا أخذ بثأره سكتت .

والصفر : حية في البطن تصيب الإنسان إذا جاع وتؤذيه كما كان يزعم العرب . وقيل : أراد **بالصفر** الشهر الذي كانوا يؤخرون به حرمة المحرم إلى صفر .



س : ما حكم الدين في الحسد بالعين ؟

ج : الحسد بالعين حقيقة ملموسة لا ينكرها أحد . وهي ظاهرة موجودة من قديم الزمان . وإن عجز بعض الناس عن تفسيرها تفسيراً علميًّا ، وقد صح عن

١- رواه البخاري .
٢- رواه مسلم .
٣- رواه البخاري تعليقاً.
٤- رواه مسلم .
٥- رواه البخاري .
٦- رواه أحمد والبيهقي والطبراني.
٧- رواه الترمذي وابن ماجه.

النبي ﷺ أنه قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين»[1].
وقد اتخذ النبي ﷺ لها إجراء وقائيًا وإجراء علاجيًا، فقد ورد عن أبي سعيد أن النبي ﷺ كان يتعوذ من الجان وعين الإنسان. كما روى الترمذي وصححه أن أسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله، إن بني جعفر تصيبهم العين، فأسترقي لهم؟ فقال: «نعم، ولو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين».

وجاء في مسند أبي داود عن عائشة قالت: كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين، وروى مالك أن عامر بن ربيعة رأى سهل بن حنيف يغتسل، فقال: والله ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة. قال: فلَبِط سهل، فأتى رسول الله ﷺ عامراً فتغيظ عليه وقال «علام يقتل أحدكم أخاه، ألا بركت، اغتسل له» فغسل له عامر وجهه ويده ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه داخلة إزاره في قدح، ثم صب عليه، فراح مع الناس...

وقد ذكر ابن القيم[2]، عدة أحاديث في هذا الموضوع، وعلق عليها بقوله: أبطلت طائفة ممن قل نصيبهم من السمع والعقل أمر العين، وقالوا: إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها. وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل، ومن أغلظهم حجاباً، وأكثفهم طباعاً، وأبعدهم معرفة عن الأرواح والنفوس وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها.

وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا تدفع أمر العين ولا تنكره وإن اختلفوا في سببه ووجهة تأثير العين. ثم ذكر ابن القيم وجهات نظر مختلفة وتفسيرات لكيفية الإصابة بالعين، منها قوله: إن العائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الرديئة انبعث من عينه قوة سمية تتصل بالمعين، فيتضرر. قالوا: ولا يستنكر هذا، كما لا يستنكر انبعاث قوة سمية من الأفعى تتصل بالإنسان فيهلك. وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعي أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك، فكذلك العائن. ثم قال: وهو يلتقي مع قول النبي ﷺ في الأبتر وذي الطفيتين من الحيات

١- رواه مسلم.
٢- زاد المعاد ج ٣ ص ١١٦.

أنهما يلتمسان البصر ويسقطان الحبل ويؤمن ابن القيم بذلك حتى قال : إن نفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية ، بل قد يكون أعمى فيوصف له شيء فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره .

وذكر ابن القيم علاج الإصابة بالعين مستوحى من الأحاديث النبوية ، مع أدعية واردة تفيد في هذا الموضوع ، وأفاض في بيان تأثير العلاج النبوي بالاغتسال بالماء الذي اغتسل به العائن بما لا يدع مجالاً للشك في أهميته ، فارجع إليه إن شئت.

هذا ، والأبحاث النفسية الحديثة لا تنكر أثر العين ، بل أثر القوى الأخرى ، وهي تثبت صدق الرسول ﷺ في قوله ، وأثر الاستعاذة والتحصن في تقوية الروح لتدفع خطر العين .



س : ما موقف الإسلام من أقوال الفلكيين في أول كل سنة عن الأحداث التي ستحصل في الكون ؟

ج : من المعروف في العقائد أن المستقبل غيب لا يعلمه إلا الله تعالى ، كما قال سبحانه ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام :٥٩] وقال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان :٣٤] وقال ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن :٢٦ ، ٢٧].

وعلم الله يتميز بأمرين ، أولهما: الصدق واليقين بحيث لا يعتريه شك ، والثاني: الإحاطة والشمول فلا يغيب عن علمه شيء ، وكل ما ينشر عن الفلكيين أو غيرهم أكثره استنتاج وفراسة وظن وتخمين وبراعة في الربط بين حركات النجوم وتأثيرها على الجو حرارة وبرودة ورطوبة وجفافاً وعواصف وأمطاراً ، وما ينتج عن ذلك من رخاء أو قحط أو قلاقل وفتن نتيجة للحالة الاقتصادية وما تؤثر فيه من الناحية السياسية والحربية والاجتماعية وما إلى ذلك .

ولا شك أن الآثار والنتائج هي محصلة عدة عوامل يتفاعل بعضها مع بعض، وتنتج بشكل طبيعي نتائج مختلفة يمكن إدراكها قبل وقوعها لمن عندهم فراسة وحسن تقدير وربط بين الأسباب والمسببات.

ومع ذلك فكله من باب الظنون التي لايقطع بها، فقدرة الله وإرادته في تصريف هذه الأسباب وفي إنتاجها للمسببات فوق كل تدبير وتقدير وحساب من البشر، قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [النور: ٤٣].

وقال تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الروم: ٤٨، ٤٩].

فالخلاصة أن هذه التنبؤات ظنية وليست قطعية، ومن ادعى أنها قطعية فقد خالف قول الله في علمه للغيب، وتعيين أشخاص يموتون أو يتولون مناصب أو يعزلون، كل ذلك إفراط في التخمين يكذبه الواقع كثيراً، ويبقى الأمر كله لله وحده، والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ [١] يقول الدميري (٧٤٢ - ٨٠٨هـ) في كتابه حياة الحيوان الكبرى: روي عن رسول الله ﷺ أنه قال «إذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا» [٢]، وقال «أخاف على أمتي بعدي ثلاثاً، حيف الأئمة والإيمان بالنجوم والتكذيب بالقدر» [٣] وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تعلموا من النجوم ما تهتدوا به في البحر والبر ثم أمسكوا.

ويبين الدميري سر النهي عن ذلك بعدم فتنة الناس بالنجوم، حتى لايربطوا بينها وبين الأحداث فينسوا ربهم الذي خلق كل شيء، وبأن نتائجها ظنية لايجوز

١- انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٨٢ - ٣٠٠.
٢- رواه الطبراني وأبو نعيم في الحلية، وحسنه بعض أصحاب الأمالي عن ابن مسعود.
٣- رواه ابن عبدالبر وابن عساكر وهو ضعيف.

الحكم بالظن ، وبأن الاشتغال بالنجوم من هذه الناحية فضول ليست فيه فائدة تذكر ، وهناك ما هو أهم منه . هكذا يقول الدميري ، وقال كثيراً غير ذلك [1]، وجاء في ذلك قول محمد بن عبدالله بن محمود الحسيني :

لاشيء أجهل ممن يدعي ثقة ... بحدسه ويرى فيما يرى ريبا

قد يجهل المرء ما في بيته نظرا ... فكيف عنه بما في عينه احتجبا

وقول سيدنا علي ، أو يوسف بن عبد البر :

أمنتحلى النجوم أحلتمونا ... على علم أرق من الهباء

علوم الأرض ما أحكمتموها ... فكيف بكم إلى علم السماء

وأنا أقول : إذا كان الاشتغال بعلم النجوم من أجل معرفة أسرار الكون وحسن استخدامها كما يحصل الآن من الجهود في غزو الفضاء - كما يعبرون - فلا بأس به ، بل الدين يشجعه مادام ذلك من أجل الخير ، أما سوء هذا العلم أو ادعاء معرفة الغيب على وجه اليقين فذلك ضلال لا يوافق عليه الدين .



س : ما حكم الدين فيما ينشر في الصحف عن أبراج المواليد وتوقعات الأحداث لهم ؟

ج : هذه التوقعات ظنون تتخلف كثيراً ، والله وحده له العلم الشامل الكامل والصادق الدقيق ، كما قال سبحانه ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان :٣٤] .

وقد حذر النبي ﷺ من التصديق والتشجيع لهذه الوسائل الكاذبة لمعرفة المستقبل ، وتقدم الكلام كثيراً عن ذلك في عنوان «علم الغيب» .

وفي الحديث الذي رواه مسلم «من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً» والعراف كما قال البغوي : هو الذي يدَّعي معرفة الأمور

---

١ - حياة الحيوان الكبرى ، ج١ ص١٥ ، ١٦ مادة الأسد.

بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها ، وقيل : هو الكاهن الذي يخبر عن بعض المضمرات فيصيب بعضها ويخطئ أكثرها ويزعم أن الجن تخبره بذلك ، وقد جاء في الكاهن حديث «من أتى كاهناً فصدقه بما قال فقد كفر بما أُنزل على محمد»[1] ، والذي أنزل على محمد ﷺ هو حصر علم الغيب في الله تعالى .

وما ينشر في الصحف من الطوالع وحظوظ أصحابها يطلق عليه اسم التنجيم ، وجاء فيه حديث أبي داود وابن ماجه وغيرها «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد) قال الحافظ : والمنهي عنه من علم النجوم ما يدعيه أهلها من معرفة الحوادث الآتية في مستقبل الزمن كمجيء المطر وهبوب الريح وتغير الأسعار ونحو ذلك ، ويزعمون أنهم يدركون ذلك بسير الكواكب واقترانها وافتراقها وظهورها في بعض الأزمان ، وهذا علم استأثر الله به ، لا يعلمه أحد غيره ، فأما ما يدرك من طريق المشاهدة من علم النجوم والذي يعرف به الزوال وجهة القبلة وكم مضى من الليل والنهار وكم بقى فإنه غير داخل في النهي .

قال العلماء : من صدَّق هذه الطوالع واعتقد أنها تضر وتنفع بدون إذن الله ، أو أن غير الله يعلم الغيب فهو كافر . ومن آمن بأنها ظنية ولم يعتقد أنها تضر وتنفع فهو مؤمن عاص ينقص ذلك من حسناته .

وفي ذلك يقول الحديث الذي رواه الطبراني «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد برئ مما أُنزل على محمد ، ومن أتاه غير مصدق له لم تُقبل منه صلاة أربعين ليلة » والمداومة على قراءة هذه الطوالع قد تجر إلى أنها اطلاع حقيقي على الغيب الخاص بالله تعالى ، وهو حرام .



س : ما حكم الدين في السحر ؟

ج : يقول الله تعالى ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ

١- رواه البزار بإسناد جيد قوي .

بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:١٠٢] .

مادة السحر التي وردت في القرآن الكريم ستين مرة تعطي فيما تعطي من المعاني: الغرابة والخروج على المألوف بما يجذب الانتباه ويثير العجب ، ومنه القول المأثور : إن من البيان لسحراً ، وله أنواع وأساليب ذكرها الفخر الرازي في تفسيره.

وقد أشار القرآن الكريم إلى اشتهار المصريين القدماء به ، وذكر موقفهم من دعوة موسى عليه السلام ، ومعجزة العصا التي انقلبت حية وابتلعت حبال السحرة وعصيهم التي يخيل لمن يراها أنها تسعى ، كما مارسته بابل القديمة حتى ضرب به المثل في كل جميل غريب فيقال : « سحر بابلي » . وعرفه العرب قبل الإسلام ، وما يزال معروفاً إلى الآن .

وتفيد الآية الكريمة المذكورة عدة أمور :

أ - أن السحر حقيقة تاريخية موجودة ، بصرف النظر عن كونه تخييلاً يجعل الإنسان ينظر إلى الشيء على غير حقيقته ، أو كونه يقلب الشيء عن حقيقته ويحوِّله إلى حقيقة أخرى ، والذي يجب الإيمان به أن ما كان من انقلاب عصا موسى إلى حية ليس سحراً ، وإنما هو معجزة من صنع الله تعالى ، خرق بها العادة ، وحول حقيقة العصا الجامدة إلى حية متحركة بقدرته سبحانه ، ثم أعادها بقدرته أيضاً إلى حقيقتها الأولى .

وجاء تعبير القرآن الكريم عما فعله السحرة بقوله ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾[الأعراف :١١٦] وقوله تعالى ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾[طه :٦٦] .

ب - أن للسحر تأثيراً بالنفع والضر ﴿ يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ .

ج - أن تأثيره لا يكون إلا بإذن الله ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾.

د - أن السحر كفر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ﴾ فما هو متعلق الكفر فيه ، هل هو تعليمه وتعلمه ، أو هو العمل به ، أو هو اعتقاد أنه يؤثر بنفسه دون تدخل إرادة الله ؟

حول هذه الأسئلة الثلاثة ثار الجدل واحتدم النقاش وتعددت الآراء وذلك مبسوط في كتب التفسير ، وعلى الأخص تفسير الفخر الرازي ، وفي كتاب الزواجر لابن حجر الهيتمي من علماء القرن العاشر ومن بين هذه الآراء يمكن اختيار ما يأتي:

١ - أن اعتقاد تأثيره بعيداً عن إرادة الله تعالى كفر ، وذلك محل اتفاق .

٢- أن ممارسته من أجل الإضرار بالناس حرام ، حتى مع اعتقاد أنه يؤثر بإذن الله ، فالإسلام لا ضرر فيه ولا ضرار .

٣ - أن ممارسته لتحقيق مصلحة مع اعتقاد أنه يؤثر بإذن الله لا حرمة فيها . قال القرطبي : هل يسأل الساحر حل السحر عن المسحور ؟ قال البخاري : عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه يجوز وإليه مال المارزي ، وكرهه الحسن البصري . وقال الشعبي : لا بأس بالنشرة ، وفسرت بالرقية لعلاج المسحور(١) .

٤- أن تعلمه أو تعليمه يرجع فيه إلى المقصود منه ، فإن كان خيراً كمعرفة الفرق بينه وبين المعجزة -كما جاء في أمثلة العلماء- أو استعماله للمصلحة فلاحرمة فيه ، كنوع من الثقافة التي عبر عنها بعض الحكماء بقوله :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

وإن كان المقصود من ذلك شرًّا فهو حرام ، فالأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى .

١- الزواجر لابن حجر ج٢ ص١٠٤ .

وبهذا يفهم حديث البخاري ومسلم الذي جعل السحر من السبع الموبقات ، أي كبائر الذنوب ، والوسائل التي تستخدم في السحر يعرفها الممارسون له والخبراء به ، فقد تكون بالاستعانة بالجن ، وقد تكون بمعرفة خواص بعض الكائنات ، وقد تكون بالإيحاء والاستهواء ، وبغير ذلك ، فالوسائل إما من ذات الساحر ، وإما من غيره ، وهذا الغير إما كائن حي أو غير حي ، وقد ذكر الفخر الرازي منها ثمانية أنواع جاء فيها أنه قد يكون من أصحاب النفوس القوية بالتسلط على أصحاب النفوس الضعيفة ، وقد يكون بالاستعانة بالجن والعزائم والبخور ، وقد يكون بما يقال عنه الآن خفة اليد ، يلهي العين بعمل شيء ليعمل غيره ، وقد يكون بالفن والصنعة التي تخلب الألباب ، - ومنه حيل التصوير السينمائي - ، وقد يكون باستعمال أدوية لها خواص معينة كالتي يدهنون بها أجسادهم فلا تحرقهم النار . .

هذا ، وقد تحدث العلماء عن الحديث الذي ورد في البخاري ومسلم أن رجلاً من بني زريق حليف لليهود اسمه لبيد بن الأعصم سحر النبي ﷺ ، فأثبته جماعة ، وقالوا : ذلك جائز ، فهو مرض من الأمراض التي تصيب الإنسان ، وهو لم يؤثر عليه من ناحية تبليغ الرسالة والتزام أحكامها ، وأولوا قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة :٦٧] بعصمة القلب والإيمان دون الجسد ، فقد شج وجهه وكسرت رباعيته وآذاه جماعة من قريش . والجصاص من أئمة الحنفية قد نفى أن يكون النبي ﷺ قد سحر ، على الرغم من صحة الحديث ، وذلك استناداً إلى الآية ، ولعدم فتح الباب للطعن فيما بلغه من الرسالة .

وقد وضح ابن القيم ذلك في كتابه : « زاد المعاد » كما وضحه النووي في شرح صحيح مسلم بما يثبت العصمة للنبي ﷺ في أمور التبليغ ، ويجيز تأثره بما يتأثر به الناس من الأمراض التي لا تخل بهذه العصمة .

وخلاصة ما في زاد المعاد [1] : قد أنكر هذا طائفة من الناس وقالوا لايجوز هذا عليه وظنوه نقصاً وعيباً ، وليس الأمر كما زعموا ، بل هو من جنس ما كان يعتريه ﷺ

١- ج٣ ص ١٠٤.

من الأسقام والأوجاع ، وهو مرض من الأمراض ، وإصابته به كإصابته بالسم لا فرق بينهما ، وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : سحر رسول الله ﷺ حتى إن كان ليخيل إليه أنه يأتي نساءه ولم يأتهن ، وذلك أشد ما يكون من السحر ، قال القاضي عياض : والسحر مرض من الأمراض ، وعارض من العلل يجوز عليه ﷺ كأنواع الأمراض مما لا ينكر ولايقدح في نبوته ، وأما كونه يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله فليس في هذا ما يدخل عليه داخلة في شيء من صدقه ، لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا ، وإنما هذا فيما يجوز طروؤه عليه في أمر دنياه التي لم يبعث لسببها ولا فضل من أجلها ، وهو فيها عرض للآفات كسائر البشر ، فغير بعيد أنه يخيل إليه من أمورها ما لاحقيقة له ، ثم ينجلي عنه كما كان . اهـ . هذا ، وقد تأثر موسى عليه السلام بما فعله السحرة ، فقال تعالى ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه :٦٦ ، ٦٧] وليس ذلك قادحاً في رسالته عليه السلام [١] .



س : توصل بعض العلماء إلى إنزال مطر صناعي ، فهل يتنافى ذلك مع قول الله تعالى «وينزل الغيث» ؟

ج : كلنا يعلم أن تكاثف بخار الماء الموجود في السحاب أو في الجو عامة يحدث لعوامل ، فينزل المطر أو الندى ، وليس في ذلك مشاركة لقوله تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ [لقمان :٣٤] لأن تكوُّن السحاب وامتلاء الجو ببخار الماء على هذا النطاق الواسع هو صنع الله بالوسائط الذي خلقها ، فهو الخالق للبخار ولحرارة الشمس والمتحكم في برودة الجو ، وكذلك في الرياح وسوقها للسحاب

١- من أراد الاستزادة فليرجع إلى :
١- تفسير الفخر الرازي وابن كثير والقرطبي في سورة البقرة والمعوذتين .
٢- زاد المعاد لابن القيم .
٣ - مفتاح دار السعادة لابن القيم .
٤ - حياة الحيوان الكبرى للدميري ((مادة كلب)) ..

وبقدرته أن يتحكم فيها فلا تنتج أثراً ، كما قال سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ [لقمان :٤٣] .

إن العمليات التي يحاول بها بعض الناس إسقاط المطر من السحاب لها نظائر في نطاق ضيق ، في عمليات فصل الملح عن الماء ليصير عذباً ، فهي تدور على التبخير والتكثيف ، كما يحدث في الأنبيق الذي تستخرج به العطور ، وليس عملهم هذا تدخلاً في صنع الله ، بل هو تصرف واستخدام للمادة التي خلقها الله ، ولا يمكن لأحد أن يخلق الحرارة أو البرودة أو الماء بوسائط أو مواد غير ما أوجده الله في الكون .

ومع ذلك فالمحاولات لا تغني ، لأن كثيراً من بلاد هؤلاء العلماء تشكو الجفاف وقلة الماء وهلاك الزرع والحيوان ، فلو أمكنهم التحكم في المطر والماء والريح كما يتحكم الله ليغاثوا من القحط ما سكتوا ، فقدرة الله فوق قدرتهم ، وإرادة الله فوق إرادتهم ، كما أن مداواة المريض بمواد خلقها الله لا تبرر إسناد الشفاء الحقيقي إلى غير الله .

وإلى جانب عجزهم عن الإغاثة من القحط ، عجزوا عن دفع ما يقع من العواصف والصواعق والسيول والزلازل والبراكين على بلاد المتحضرين المزهوين بعلومهم واختراعاتهم ، كل ذلك يزيدنا إيماناً بقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر :١٥-١٧] .



س : ما الفرق بين التوكل والتواكل ؟

ج : حقيقة التوكل من الصعب تعريفها كما تُعَرف الأمور الأخرى بماهياتها ، وإنما يعرف التوكل بآثاره . كما قال العلماء في التيار الكهربائي ، وقد قال الإمام

الغزالي ـ وهو الفيلسوف الصوفي الفقيه الأصولي في حديث التوكل : إنه غامض من حيث العلم . ثم هو شاهد من حيث العمل ، ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد ، والتثاقل عنها بالكلية طعن في السنة وقدح في الشرع ، والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباب تغيير في وجه العقل وانغماس في غمرة الجهل ، وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق مع مقتضى التوحيد والنقل والشرع في غاية الغموض والعسر ، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء إلا سماسرة العلماء .

وقد أطال الغزالي في توضيح ذلك ، ولكن بعبارة بسيطة يمكن أن أقول : إن التوكل هو الإيمان بأن الله سبحانه هو الواحد المتفرد بالخلق ، ومنه كل النعم ، وإليه المرجع والمصير ، مع إظهار مسحة هذا الإيمان على السلوك في القول والعمل ، وامتثال أمر الله والسير على منهجه الذي أوحى به إلى الرسل .

ولو طبقنا هذا المعنى في طلب الرزق مثلاً فلابد في التوكل من الإيمان بأن السعي والجد في العمل وحده لايمكن أن يوصل إلى النتيجة إلا بإرادة الله سبحانه ، فقد يكون هناك سعي وجد وعمل ولايكون من وراء ذلك تحقيق ما يريده الإنسان ، فلابد من الأمرين : الأخذ في الأسباب ثم تفويض الأمر إلى الله سبحانه وإنفراد واحد منهما عن الآخر خطأ . فالأخذ بالأسباب دون التفويض لله يناقض الإيمان ، وربما لا يوصل إلى المطلوب ، والتفويض لله فقط دون الأخذ بالأسباب تعطيل لقانون الله وعدم امتثال لأمره بالسعي والعمل ، وهذا ما يعرف بالتواكل .

وعلى ضوء ذلك من يقتصر على الإيمان بقوله تعالى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود : ٦] . دون تنفيذ لقوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك : ١٥] يكون مخطئاً ويطلق عليه اسم المتواكل ، يوضح ذلك ما حدث أن رجلاً ترك ناقته على باب المسجد النبوي وقال للرسول ﷺ هل أتركها بدون عقل – قيد – وأتوكل على الله ليحفظها أو أعقلها – أقيدها بالعقال ؟ فقال له «قيدها وتوكل»[١].

١- رواه ابن خزيمة والطبراني بإسناد جيد .

وقد يوضح هذا أيضاً قول النبي ﷺ « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » [1] فالطير تبارح الأعشاش لتطلب رزقها ولا تنتظر وتفتح أفواهها لينزل لها الرزق من السماء وهي راقدة في الأعشاش.

يقول أبو الفتوح الرازي [2] :

توكل على الرحمن في كل حاجة ... ولا تتركن الجد في شدة الطلب
ألم تر أن الله قال لمريم ... وهزي إليك الجذع يسَّاقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزه ... جنته ولكن كل شيء له سبب [3]

والموضوع طويل يراجع في «إحياء علوم الدين» [4].



س : إنسان تواكل على الله في أمر ما ولم يأخذ بها يكفي من الأسباب لكنه دعا الله بكل ما يعرف من أدعية مستجابة ليقضي الله له أمره ، لكن الله لم يوفقه في ذلك على الرغم من دعائه فلماذا ؟

ج : التوكل على الله لا يفيد إلا بعد اتخاذ الأسباب ، وبدون ذلك يكون تواكلاً وهو مذموم ، ويشير إليه قول عمر : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقني ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .

والذي لا يتخذ الأسباب لا يقبل دعاؤه ، والرسول نفسه نبه بعض الصحابة إلى ذلك حيث طلب واحد منهم مرافقته في الجنة ، فقال له : « فأعنِّي على ذلك بكثرة السجود» أي الصلاة .

١- رواه الترمذي وقال : حسن صحيح .
٢- الواعظ المفسر الفارسي المولود بالري في أواخر القرن الخامس الهجري .
٣- مجلة الإخاء العدد ١٩٣ في إبريل ١٩٧١م بقلم محمد علي رزم آشين .
٤- للإمام الغزالي ، ج٤ ص ٢١٠ .

مع العلم بأن الدعاء لا يقبل إلا بشروط ، منها طاعة الداعي لله وعدم عصيانه ، والتعفف عن أكل الحرام ، وكون الدعاء بخشوع وحضور الذهن والقلب ، على نسق ما جاء في قبول الله دعاء أيوب وذي النون وزكريا ، حيث قال الله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء :٩٠] وعدم الاستعجال حيث يقول : دعوت فلم يستجب لي.

وعلى فرض أن الداعي فيه هذه المواصفات ، فإن الاستجابة تكون بصور مختلفة ، إعطاء الداعي ما سأله أو صرف سوء عنه يكون أحسن من نيل المطلوب أو ادخار الإجابة إلى الآخرة فهي أفضل من الدنيا .

والله يختار ما هو خير للداعي المؤمن المطيع الخاشع ، فقد يكون منع الإجابة أفضل ، قال تعالى ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ [الشورى :٢٧] وفي المأثور : «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر» .

وقد يكون عدم الاستجابة امتحاناً لإيمان الإنسان ، هل يرضى بقضاء الله ويصبر على البلاء الذي يشكو منه ، أو يجزع ويعترض ، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة :١٥٥-١٥٧].



س : يقول بعض الناس : إن أحسن صيغة لحمد الله هي : الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده ، فهل هذا صحيح ؟

ج : الحمد في اللغة هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري على جهة التعظيم والتسجيل ، وهو في العرف يدل على تعظيم المنعم من حيث إنه منعم على الحامد وغيره ، والشكر في اللغة هو الحمد العرفي ، وفي العرف هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله ، فبين الحمد اللغوي والعرفي عموم

وخصوص من وجه ، فيجتمعان فيما إذا كان باللسان في مقابل نعمة ، وينفرد اللغوي فيما إذا كان باللسان لا في مقابل نعمة ، وينفرد العرفي بصدقه بغير اللسان في مقابلة نعمة ، فمورد الحمد العرفي أعم وهو اللسان والأركان أي الجوارح ، ومتعلقه أخص وهو كونه في مقابلة نعمة - والحمد اللغوي عكسه ، والحمد اللغوي مع الشكر اللغوي كذلك ، إذ الشكر اللغوي هو الحمد العرفي كما علم .

إن حمد الله وشكره باللسان يحصل بأية صيغة ، وهو مندوب إليه ، وجاءت في فضله أحاديث منها : ما رواه أصحاب السنن عن رفاعة بن رافع رضي الله عنه قال: صليت خلف رسول الله ﷺ فعطست فقلت : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى فلما صلى رسول الله ﷺ قال : « من المتكلم في الصلاة ؟ فلم يجبه أحد ، ثم قالها الثانية « من المتكلم في الصلاة » ؟ فقال رفاعة ابن رافع : أنا يا رسول الله ، قال « كيف قلت؟ » قال : قلت : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، فقال « والذي نفسي بيده لقد ابتدرها بضعة وثلاثون ملكاً أيهم يصعدها »[1] . وفي رواية أبي داود أن الرسول قال له « ما تناهت دون عرش الرحمن جل ذكره » وفي مسند أحمد أن الرسول قال له « لقد فتحت لها أبواب السماء فلم ينهها شيء دون العرش » .

يقول السفاريني [2] ، إن بعض الناس ذكر أن أفضل صيغ الحمد : الحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ، ويكافئ مزيده . وأن ابن القيم أنكر على قائله غاية الإنكار لأنه لم يرد في الصحاح ولا السنن ولا يعرف في شيء من كتب الحديث المعتمدة ولا له إسناد معروف ، وإنما يروى عن أبي نصر التمار عن سيدنا آدم أبي البشر عليه الصلاة والسلام ، قال : ولا يدري كم بين آدم وأبي نصر إلا الله تعالى . قال أبو نصر : قال آدم : يا رب شغلتني بكسب يدي ، فعلمني شيئاً من مجامع الحمد والتسبيح ، فأوحى الله إليه : يا آدم ، إذا أصبحت فقل ثلاثاً ، وإذا أمسيت

١- قال الترمذي : حديث حسن .

٢- غذاء الألباب ج١ ص ١١.

فقل ثلاثاً « الحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده » فذلك مجامع الحمد والتسبيح . قال ابن القيم : فهذا لو رواه أبو نصر التمار عن سيدنا آدم ﷺ لما قبلت روايته ، لانقطاع الحديث فيما بينه وبين رسول الله ﷺ ، فكيف بروايته له عن آدم .

قال : وبنى على ذلك بعض الناس مسألة فقهية فقال : لو حلف إنسان ليحمد الله تعالى بمجامع الحمد وأجل المحامد فطريقه في بِرِّ يمينه أن يقول الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده .

وردَّ هذا بما يطول ، والحاصل أن العبد لا يحصى ثناء على ربه ولو اجتهد في الثناء طول عمره .

ثم ذكر أن الإمام أحمد بن حنبل روى في الزهد عن الحسن قال : قال داود : إلهي لو أن لكل شعرة مني لسانين يسبحانك الليل والنهار والدهر كله ما قضيت حق نعمة واحدة . وروى فيه أيضاً عن المغيرة بن عتبة قال : لما أنزل الله على داود ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ :١٣] قال : يا رب كيف أطيق شكرك وأنت الذي تنعم عليَّ ترزقني على النعمة الشكر ثم تزيدني نعمة بعد نعمة ، فالنعمة منك يا رب فكيف أطيق شكرك ؟ قال : الآن عرفتني يا داود .



س : لماذا خلق الله الدنيا ؟

ج : الدنيا جزء من العالم الذي خلقه الله ، والعالم كل ما سوى الله من حيوان ونبات وجماد ، وملائكة وأرواح وجنة ونار ، وغير ذلك وهذا الخلق أثر من آثار صفاته التي تحقق له الألوهية ، خلقه بقدرته وبإرادته وأبدعه بعلمه وبحكمته ، وبسط سلطانه عليه بالأمر والنهي والثواب والعقاب . ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء :٢٣] .

والدنيا هي الحياة الأولى قبل الحياة الآخرة ، وهي حياة فانية كما قال سبحانه عندما أهبط آدم إلى الأرض ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ

﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف :٢٤] وهي دنيا في المكانة والمنزلة بالنسبة للأخرى التي فيها النعيم الدائم الخالد للمؤمنين ، والعذاب الدائم الخالد للكافرين . ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء :٧٧] والدنيا مزرعة للآخرة ، وهي دار تكليف يجازى على العمل فيها بالثواب والعقاب ، وهي ليست مذمومة على كل حال إلا فيما نهى الله عنه كما في الحديث « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم »[١].

وفي كلام الإمام علي : « الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها ، مسجد أنبياء الله ومهبط وحيه ومصلَّى ملائكته ومتجر أوليائه ، اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنة »[٢].

هذا بعض تفسير للسر في خلق الله للدنيا ، وهو سبحانه أعلم بالحقيقة ولامعنى للانشغال بذلك فالمهم هو العمل الصالح فيها لنسعد به في حياتنا الآخرة التي هي المصير الحتمي لكل من يعيش في هذا العالم .



س : ما رأي الدين في النظرية التي تقول : إن الإنسان أصله قرد ترقَّى وتطور حتى صار على الشكل الذي نعرفه الآن؟

ج : في القرن التاسع عشر الميلادي ، الذي ظهرت فيه نزعة الثورة على الكنيسة والأفكار والآراء الدينية السائدة ، برز جماعة منهم « لا مارك » الفرنسي المتوفى سنة ١٨٢٩ م « واغوست ايرينوس » المتوفى سنة ١٩٢٧م و « تشارلس دارون » الإنجليزي المتوفى سنة ١٨٨٢ م والذي أثار ضجة في العالم عندما ظهر كتابه « أصل الأنواع » سنة ١٨٥٩م وكتابه « تسلسل الأنواع » سنة ١٨٧١م ، وهو يشتمل على ثلاث مسائل :

١- رواه الترمذي وغيره وقال حسن صحيح.
٢- انظر المحاسن والمساوئ للبيهقي ج ٢ ص ٤٤ .

أ- أن طريق حدوث تنوعات العالم هو النشوء ، أي أن أجزاء الأثير تكون منها السديم ثم الشمس ، ثم انفصلت عنها الكواكب ، ومنه أرضنا ، ثم تكونت العناصر ثم المعادن ثم المكون الأول الحي « البروتوبلازم » الذي أخذ في التوالد والترقي حتى بلغ أدنى نبات أو حيوان ، ولم يزل هذان يترقيان بالنواميس الأربعة « التباينات ، الوراثة ، تنازع البقاء ، الانتخاب الطبيعي » ويشتق من الأنواع أنواع حتى تكونت جميع الأنواع التي نراها اليوم .

ب- أن الإنسان ما هو إلا حيوان من جملة الحيوانات ، حادث بطريق النشوء والارتقاء ، وأنه لمشابهته القرد لا يمنع أن يكون قد اشتق هو وإياه من أصل واحد .

ج- أن الحياة وعقل الإنسان ما هما إلا ظاهرتان من ظواهر تفاعل أجزاء المادة ، وإن يكن أصل المادة خالياً من الحياة والإدراك ، وأن عقل الإنسان لا يختلف عن عقول الحيوانات إلا بالكم ، ولا يخالفها في الذات والحقيقة .

إن هذه الدعاوي لم يستطع « دارون » ومن ساروا في ركابه أن يبرهنوا عليها بالأدلة الكافية ، فهي ما تزال افتراضات قابلة للصدق والكذب ، وأكثر اعتمادهم في ذلك على تطوير نوع من الزهور والنباتات ، غيَّروا شكلها ولم يغيروا جوهرها ، ولم ينجحوا في شيء من عالم الحيوان ، ولكنهم قالوا : يجوز أن يكون الإنسان متطوراً عن حيوان قبله وهو القرد .

ويشرح (لا مارك) ذلك بقوله :إن الكائن الحي يشعر من تغير الأحوال عليه بضرورة حدوث عضو جديد له ، فيفعل للحصول على ذلك ، فيحدث في آحاده يسيراً يسيراً ، كالزرافة ، فقد كان في زعمه - كسائر الحيوانات - ذات عنق قصير ، ولكنها لما احتاجت إلى أكل الأشجار العالية صارت تتفعل لذلك وتشرئب لتنال الورق العالي ، فطالت عنقها يسيراً يسيراً ، حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن ، فالحاجة هي التي تنشئ الأعضاء الجديدة عند لا مارك ولكن دارون يقول : إن الصدفة أو الاتفاق هو الذي ينشئها .

لقد قام جماعة من المفكرين بالرد على نظرية دارون فقال « س . فان هو فنسفيلت » إن النتائج التي وصل إليها الباحثون في الأحياء المتحجرة لم تساعد على إقامة أي دليل على التسلسل أو التطور التدريجي بل ثبت على عكس ذلك أن الفروق الدقيقة بين صفوف الأجناس التي نعرفها بقيت على الدوام فاغرة ولم تتلاش أو تقرب من ذلك .

وقال « جوستاف جوليه » الأستاذ في السوربون : إن العقبات التي يرتطم بها مذهب النشوء والارتقاء تنحصر في خمسة أمور :

أ - أن العوامل التي يقوم عليها هذا المذهب قد ظهر عجزها في تعليل أصل الأنواع.

ب - تبين عدم كفايتها لتعليل وجود الحشرات .

ج - تبين عدم غنائها في تفسير التحولات الفجائية المولدة لأنواع جديدة .

د - اتضح قصورها عن تعليل تولد طبائع الأنواع الجديدة وثبوتها نهائيًا ، وقد ثبت أنها متى تولدت فيها بسرعة تبقى لا تتغير .

هـ - ثبت عجزها عن تفسير عوامل التطور الذي تدخل فيه الكائنات فتحولها من حالة ساذجة إلى حالة مركبة ، وتدفعها من النقص إلى الكمال .

هذه هي نظرية دارون الافتراضية : وذلك بعض ما ردَّها به علماؤهم ، أما رأي الدين فيها فيتضح مما يلي :

١- قولهم إن المخلوقات خلقت عشوائيًا بغير تدبير سابق وعلم محكم يرده قول الله سبحانه ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر :٤٩] وقوله ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر :١٩] .

٢- قولهم إن الإنسان ليس له خالق ، يرده قول الله تعالى : ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل :٤] وقوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ

﴿ نَفۡسُهُۥۖ ﴾ [ق :١٦] وقوله ﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ ﴾ [لقمان :١١] وغير ذلك من الآيات الكثيرة .

٣- قولهم إن البقاء للأقوى والكوارث هي سبب هلاك المخلوقات الضعيفة ، مردود بأن الله يهلك الأقوياء كما يهلك الضعفاء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ [آل عمران :١٠] ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ [آل عمران :١٢] .

٤- ادّعاؤهم معرفة كيف نشأت الأحياء على الأرض ، يرده قول الله تعالى : ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [الكهف :٥١] .

٥- ادعاؤهم أن الطيور والحشرات لا تفهم يرده قول الله سبحانه ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ ﴾ [النمل :١٦] .

٦ - ادعاؤهم أن الطير أقل تطوراً من الثدييات والإنسان يرده قول الله تعالى ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ ﴾ [المائدة :٣١] .

٧- زعمهم أن الإنسان متطور عن كائنات حية سابقة يرده قول الله تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ﴾ [الرحمن :١-٤] وقوله ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴾ [الرحمن :١٤] وحديث « إن الله خلق آدم على صورته » رواه البخاري ومسلم .

٨- ادعاؤهم أن القرآن يقر نظرية التطور ، كقوله تعالى ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴾ [نوح :١٤] مردود بأن الأطوار في الآية ليست التطور الذي يزعمون فالمعنى أن الإنسان خلق على النحو الذي قال فيه رب العزة ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ۝١٤ ﴾ [المؤمنون :١٢-١٤] .

٩ - قولهم إن الموت يأتي صدفة للضعيف ويترك القوي ليتطور ، يرده قول الله تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك :٢] وقوله ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة :٢٨] .

هذا بعض ما تفند به نظرية دارون [١] .



س : ما حساب الذين ماتوا قبل الإسلام ، هي يدخلون الجنة أم يدخلون النار؟

ج : أهل الفترة هم الذين لم يروا نبيًّا سابقاً ولانبيًّا لاحقاً ، عاشوا وماتوا في فترة ليس فيها نبي ، ومنهم العرب الذين ماتوا قبل بعثة النبي ﷺ حيث لم يأتهم نبي بعد إسماعيل فمن آمن من هؤلاء بالرسل الذين أرسلوا إليهم فهم في الجنة ، ومن لم يؤمن فهو في النار ، وهناك جماعة لم تبلغهم دعوة أي نبي من الأنبياء ، وقد اختلف فيهم العلماء ، فقال بعضهم ، كان الواجب عليهم أن يعرفوا ربهم بعقولهم عن طريق النظر في مخلوقاته ليؤمنوا به ، فمن توصل منه إلى معرفته وآمن به نجا ، ومن لم يفعل ذلك فهو في النار .

وقال آخرون : لا يكلف هؤلاء بالإيمان إلا بحسب شرع يأتي إليهم ، فإذا لم يجئ فلا مسئولية عليهم ، قال تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء :١٥] .

وحجة كل فريق مبسوطة في الكتب المتخصصة [٢] .

ومهما يكن من شيء فإن معرفة ذلك ليست فرضاً علينا ، وليست عقيدة نسأل عنها ، والبحث شهوة عقلية لا تغير من واقع هؤلاء الناس شيئاً ، فربهم أعلم بهم وقد أفضوا إليه بما قدموا .



١- يمكن الرجوع إلى مجلة الأزهر ، المجلد الثاني ص ٧٤٩ ، وكتابي دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة ومجلة الهداية التي تصدر في البحرين عدد مارس ١٩٩٣م ، وكتاب الجواب الإلهي أو الإسلام أمام العلم والفلسفة للشيخ نديم الجسر .

٢- راجع كتاب : الملل والنحل للشهرستاني ، المواهب للقسطلاني مع شرح الزرقاني ، وسترى الحديث عن أبوي النبي ﷺ له نصيب كبير من البحث .

س : أ - ما حكم الذي ينشأ في مجتمع كافر ولـم تبلغه الدعـوة الإسلاميـة ، ولم يسمع عن شيء اسمه الإسلام ، أو بلغه الإسلام ولكن بصورة مشوهة ثم مات ولم يسلم؟

ب - ما حكم الذي يعيش في مجتمع مسلم ، ولكنه لا يعمل بالإسلام ، أو يعمل بخلاف ما يريده الإسلام من الاعتقادات ، وذلك عن جهل ولـم يجد من يعرِّفه الإسلام الصحيح ، وما حكم إرثه ؟

ج : لقد تحدث العلماء عمن لم تبلغهم الدعوة وعن الذين لم يدركوا نبيًّا سابقـاً أو لاحقاً وهم أهل الفترة ، وأطنب في بيان حكمهم كثيرون من العلماء كإمام الحرمين في البرهان والغزالي في المستصفى والمنخول والرازي في المحصول والباقلاني في التقريب وغيرهم .

وتناول حكمهم رجال الفقه والأصول والكلام ، بناء على القاعدة الأساسية في الحسن والقبح هل هما عقليان أم شرعيان ، كما تحدثوا عن المؤاخذة وعدمها هل هي في الدنيا فقط أم الدنيا والآخرة إلى آخر ما تحدثوا فيه . ومما استشهدوا به قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء :١٥] أي أن الله لايهلك أمـة بعذاب إلا بعد الرسالة إليهم ، كما قال الجمهور ، وقالت فرقة : هذا عامٌّ في الدنيا والآخرة لقوله تعالى : ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك :٨ ، ٩] .

وورد في أهل الفترة أحاديث في أنهم موقوفون إلى أن يمتحنوا يوم القيامة ، والصحيح من هذه الأحاديث ثلاثة .

إن الذي لم تبلغه الدعوة في عصرنا هذا أمثال سكان الكهوف والأدغال والجزر النائية الذين لا يعرفون وسائل الاتصال بالعالم من حولهم ، وهم قلة في هذا الزمان الذي كثرت فيه وسائل الاتصال السلكية واللاسلكية وغيرها ، وكثرت الرحلات وتنافس الاستعمار في استغلال مناطق الأرض .

ومن سمع بأن هناك رسولاً جاء بدين اسمه الإسلام وجب عليه أن يبحث عنه إن استطاع ، فإن لم يسمع أو سمع ولم يستطع البحث كان معذوراً كما قال العلماء .

وقد اشترط العلماء في لزوم الدعوة لمن بلغتهم أن تبلغهم صحيحة غير مشوهة ، فإذا وصلت مشوهة كانوا معذورين في عدم الإيمان بها ، وقد نص على ذلك الإمام الغزالي في كتابه « فيصل التفرقة » فبعد أن ذكر أن أكثر النصارى من الروم والترك في زمانه ناجون لعدم بلوغ الدعوة إليهم ، قال : بل أقول :حتى الذين بلغتهم دعوة الرسول ﷺ مشوهة فعلمهم أهلوهم منذ الصبا أن كذاباً مدلساً اسمه محمد ادعى النبوة كذباً فهؤلاء عندي كالصنف الأول ، أي ناجون ، وأما سائر الأمم الذين كذبوا الرسول ﷺ بعد علمهم بالتواتر ظهوره وصفاته ومعجزاته الخارقة ، وعلى رأسها القرآن ، وأعرضوا عنه ولم ينظروا فيما جاء فيه فهم كفار . ا.هـ ملخصاً .

وعلى هذا نقول : إن من لم تبلغه الدعوة أصلاً ، أو بلغته مشوهة أو بلغته صحيحة ولم يقصر في البحث والتحري فهو معذور ، أي يرجى له عدم الخلود في النار .

أما المسلم الذي يعيش بين المسلمين ولايعمل بالإسلام لجهله فله حالتان :

الأولى : جهله بالعقيدة كوحدانية الله والبعث ، أو جهله بما يعلم من الدين بالضرورة كوجوب الصلاة والصوم وحرمة القتل والخمر ، وهذا لا يعذر في جهله ، فلو ترك شيئاً مما وجب عليه أو ارتكب محرماً إن كان منكراً جاحداً فهو كافر ، وإن كان غير منكر ولكنه متكاسل مثلاً فهو غير كافر ، بل مؤمن عاص .

ومن حكم بكفره انقطع التوارث بينه وبين غيره من المسلمين إذا مات على ذلك ، أما العاصي فإن تاب ترجى له المغفرة ، وإن مات ولم يتب فأمره مفوض إلى ربه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء :٤٨] .

أما من قصر في غير ما علم من الدين بالضرورة لجهله به ، وذلك كالمسائل الفرعية في الفقه وبخاصة الدقيقة منها فهو معذور ، وعليه أن يسعى ليتعلم .

والحاصل أن الجهل نوعان : جهل لا يعذر به المسلم الذي نشأ في مجتمع مسلم ، وجهل يعذر به ، الأول كالجهل بالأركان الأساسية للدين ، والثاني كالجهل بالفروع التي تكون محلًّا لاختلاف الآراء ، ومنكر الأمور الأساسية كافر ، والمقصر فيها دون إنكار مؤمن عاص ، ومنكر الأمور الثانية أو المقصر فيها معذور . والله أعلم .



الملائكة

س : عرفنا أن الله سبحانه قال: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] فهل هناك تفضيل لبعض الملائكة على بعض؟

ج : ذكر القسطلاني[1]، أن الملائكة بعضهم أفضل من بعض وأن أفضلهم جبريل الروح الأمين المزكى من رب العالمين ، المقول فيه من ذي العـزة ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير : ١٩-٢١] فوصفه بسبع صفات ، فهو أفضل الملائكة الثلاثة الذين هم أفضل الملائكة على الإطلاق ، وهم ميكائيل وإسرافيل وعزرائيل . انتهى .

وجاء في شرح المواهب للزرقاني[2] ، أن أعلى الملائكة درجة : حملة العرش الحافون حوله ، فأكابرهم أربعة ، فملائكة الجنة والنار فالموكلون ببني آدم ، فالموكلون بأطراف هذا العالم ، كذا ذكره الرازي . انتهى .

وإذا كان جبريل أفضل الملائكة الموكلين ببني آدم ، لما سبق من وصف الله له في القرآن ، فإن هناك خلافاً في التفاضل بينه وبين إسرافيل ، ولم يصح في ذلك شيء كما قال السيوطي في «الحبائك» والآثار متعارضة ، وذكر الزرقاني روايات متعددة رأيت الإعراض عنها لعدم جدواها في حياتنا العملية ، ولسنا مكلفين باعتقاد ذلـك ، ومن كان عنده نهم للمعرفة فليرجع إليه .



س : هل الملائكة أفضل من البشر ، أم البشر أفضل منهم لأنهم أمروا بالسجود لأبيهم آدم ؟

ج : يقول الله سبحانه ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج :٧٥]

١- المواهب اللدنية ج٢ ص ٤٦.   ٢- ج٦ ص ١٤٤.

تدل الآية على أن الملائكة والناس يصطفي الله منهم رسلاً ، لكن هل الاصطفاء بصورة واحدة وعلى مستوى واحد ، أم أن هناك امتيازاً لنوع منهما على نوع آخر؟ ليس في ذلك نص من قرآن أو سنة صحيحة ، والخوض في ذلك قد يؤدي إلى تنقيص بعضهم أو الغَضِّ منه ، ولا توجد له أهمية بالنسبة لحياتنا العملية ، لكن العلماء القدامى أثاروا هذه المسألة وهذا طرف من ذلك :

ذكر القسطلاني [1] ، أن هناك اختلافاً في التفاضل بين الملائكة والبشر ، فقال جمهور أهل السنة والجماعة : خواص بني آدم وهم الأنبياء أفضل من خواص الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وحملة العرش والمقربون والكروبيون والروحانيون (الكروبيون ملائكة العذاب والروحانيون ملائكة الرحمة في بعض الأقوال) .

وخواص الملائكة أفضل من عوام بني آدم وهم من عدا الأنبياء من الصالحين .

وذلك بالإجماع كما قال التفتازاني بل بالضرورة ، وعوام بني آدم أفضل من عوام الملائكة ، ولذلك عدة مبررات : منها ، أن مجموع الملائكة أمروا بالسجود لمجموع البشر الممثلين في آدم ، والمسجود له أفضل من الساجد ، فإذا ثبت تفضيل الخواص من البشر وهم الأنبياء على الخواص من الملائكة بالسجود لآدم ثبت تفضيل العوام على العوام .

فعوام الملائكة خدم عمال الخير وهم صلحاء المؤمنين ، والمخدوم له فضل على الخادم ، ومنها أن المؤمنين ركب فيهم الهوى والعقل مع تسليط الشيطان عليهم بوسوسته ، والملائكة ركب فيهم العقل دون الهوى أي الشهوة ولا سبيل للشيطان عليهم ، فالإنسان - كما قاله التفتازاني في شرح العقائد النسفية - يحصِّل الفوائد والكمالات العلمية والعملية مع وجود العوائق والموانع من الشهوة وشواغل الأمور الضرورية عن اكتساب الكمالات . ولا شك أن العبادة واكتساب الكمال مع الشواغل والصوارف أشق وأدخل في الإخلاص فيكون الإنسان أفضل .

---

١ - المواهب اللدنية ج٢ ص ٤٥.

وذهب المعتزلة والفلاسفة وبعض الأشاعرة من أهل السنة إلى تفضيل الملائكة ، وتمسكوا بنحو عشرين وجهاً ، ذكر القسطلاني منها أربعة لا داعي لذكرها ، فهي ترف عقلي لمن أراد ، فليرجع إليه ، وقد وضح هذه النقطة أيضاً القرطبي في تفسيره [1] ، قائلاً : وعلى الجملة فالكلام لا ينتهي في هذه المسألة إلى القطع ، وقد تحاشى قوم من الكلام في هذا ، كما تحاشوا من الكلام في تفضيل بعض الأنبياء على بعض ، إذ في الخبر « لاتخايروا بين الأنبياء ، ولا تفضلوني على يونس بن متى » وهذا ليس بشيء لوجود نص في القرآن في التفضيل بين الأنبياء .

ولعل النهي عن التفضيل يقصد به ما يثير فتنة وتعصباً ، فالمقطوع به تفضيل الرسول محمد ﷺ . حتى على الملائكة كما قاله المحققون .



س : هل صحيح أن هاروت وماروت كانا من الملائكة وعاقبهما الله على معصيته؟

ج : قال تعالى ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ . . . . .﴾ [البقرة :١٠٢] .

جاء في كتب التفسير أنهما ملكان هبطا إلى الأرض وفتنا ، فعاقبهما الله بتعليقهما من أرجلهما ، وكلام المفسرين -على جلالة قدرتهم- ليس حجة في هذا المقام ، فهو منقول عن تراث البابليين وشروح اليهود وكتب النصارى ، وأقرب الأقوال عنهما أن الناس كانوا قد فتنوا بالسحرة حتى رفعوهم إلى مقام الأنبياء ، فأنزل الله ملكين يعلمان الناس السحر ، ليفرقوا بينه وبين النبوة ، ويحذروهم من الفتنة به وبهما .

١- ج١ ص٢٨٩ ، ج١٠ ص ٢٩٤ .

أو أنهما شخصان كانا يتمتعان بمنزلة كبيرة في العلم والسلوك ، فتن الناس بهما ، فأطلقوا عليهما اسم الملكين ، من باب التشبيه والمجاز ، وهو إطلاق معروف قديماً وحديثاً ، حيث يطلق الآن على الشخص الممتاز اسم «ملاك» . وفي الأساطير البابلية شخصان باسمين مقاربين لهاروت وماروت ، أعجب الناس بهما فأطلقوا عليهما اسم ملكين ، بل زاد الإعجاب بهما فاعتقدوا أنهما من الآلهة ، وقد أقبل اليهود على تعلم ما تركاه من حكمة وسحر ، وشغلوا به عن كتاب الله الذي نبذوه وراء ظهورهم .

هذا ، ولا يجوز أن نلتفت إلى ما يقال عن الملائكة مما يتنافى مع عصمتهم ، فهم لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، قال تعالى ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء :٢٦ ، ٢٧] وقال ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء : ١٩ ، ٢٠] .



س : هل إبليس من الملائكة لأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم فلم يسجد ، أو هو من الجن؟

ج : معرفة جنس إبليس متوقفة على الخلاف في كونه من الملائكة أو لا ، وهو قبل معصيته لأمر الله لا يعرف حاله بطريق ثابت ، وكل ما قيل في ذلك منسوب إلى بعض الصحابة . أما بعد الإخبار عن معصيته ففي معرفة جنسه رأيان .

الرأي الأول : أنه من الملائكة ، واستدل أصحاب هذا الرأي بأدلة منها :

أ - ظاهر الاستثناء في قوله تعالى ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وهو استثناء مفصل يدل على أنه من الملائكة .

ب- أنه لو لم يكن من الملائكة ما كان أمر الله لهم بالسجود متناولاً له ، ولو لم يكن متناولاً له استحال أن يكون تركه للسجود إباء معصية ، ولما استحق العذاب ، وحيث حصل ذلك علمنا أن الخطاب بالسجود يتناوله ، فهو من الملائكة .

والرأي الثاني : أنه ليس من الملائكة ، واستدل أصحاب هذا الرأي بأدلة منها :

أ- قوله تعالى ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف :٥٠] .

ب- أن الملائكة معصومون من العصيان لقوله تعالى ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم :٦] وإبليس عصى واستكبر عن السجود فهو ليس من الملائكة .

وأدلة الطرفين محتملة ، ومناقشة وبيان ذلك باختصار :

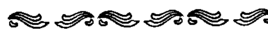
١ - أن الاستثناء قد يكون منقطعاً فالمستثنى إبليس وليس من جنس المستثنى منه وهم الملائكة .

٢ - أن الأمر بالسجود أصلاً هو للملائكة ، وإبليس ملصق بهم لكثرة عبادته ، فلا يوجه إليه أمر خاص ، لأن الأمر العام يكون للكثرة الغالبة .

٣ - كون إبليس من الجن قد يراد به أنه من العالم المستتر ، والملائكة من العالم المستتر أيضاً ، قال تعالى ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات :١٥٨] حيث قال الكفار : الملائكة بنات الله .

والدليل الذي جيء به لإثبات أنه ليس من الملائكة بأنهم معصومون ، وإبليس أخطأ دليل قوي ، فإن الثابت أن الجن منهم مؤمنون ومنهم كافرون ، والآيات في ذلك كثيرة وليس من الملائكة كافرون .

ومن أجل أن أغلب أدلة الطرفين مناقشة فلا يمكن القطع برأي في الموضوع ، ولهذا قيل : إن إبليس ليس من الملائكة ولا من الجن بل هو خلق مفرد من نار ، وإبليس يطلق عليه شيطان ، لأن الشياطين هم شرار الجن . فإن منهم أخياراً ، كما يطلق لفظ الشيطان على من تمرد من الإنس والجن والدواب [1].



١- ومن أراد تفصيلاً أوضح فليرجع إلى كتاب ((آكام المرجان)) للمحدث الشبلي ، وإلى مجلة الأزهر - المجلد الثامن ص ٥٦٦ وما بعدها ، وإلى بحث الجن في هذه الفتاوى .

س : قرأنا في الصحف أن هناك محاولة لقياس سرعة الملائكة بسرعة الضوء والسرعات المعروفة لنا ، فهل يصح هذا أم لا يصح ؟

ج : الإسلام حث على النظر والتفكر في ملكوت السموات والأرض ، وشجع على ذلك تشجيعاً ورد في كثير من آيات القرآن الكريم ، وذكر الحكمة منه بأن فيه آيات وعلامات لذوي العقول النيرة يدركون بها من أسرار الكون ما يحملهم على الإيمان بخالقه ، أو تعميق الإيمان به لمن سبق له الإيمان كما أن من أهداف الحث على النظر الشامل : الانتفاع بما سخر الله في الكون انتفاعاً يساعد على أداء رسالة الإنسان في الحياة وتحقيق الخلافة في الأرض .

غير أن عقل الإنسان له حدود لا يستطيع معها أن يدرك كل الأسرار ، وحواسه التي تقدم له التصورات مجالاتها محدودة كما ثبت علميًّا ، وبالتالي تكون النتائج والمعطيات العقلية محدودة أيضاً ، وهناك من الأمور الغيبية التي يتوقف العلم بها على الخبر الصادق من الرسل المبلغين عن الله ما لا مجال للعقل فيه ، ضرورة أنه لايدرك بالحواس ، والخبر إذا صدق كان مجال العقل فيه بعيداً عن النفي والإثبات ، وإن كانت له صولات وجولات في بيان حكمته مثلاً . وعلى فرض عدم وصوله إلى إدراك الحكمة فإن ذلك لا يؤثر على وجوده ، فلا تلازم بينهما .

والملائكة من عالم الغيب الذي يجب الإيمان به كما ورد وفي هذا النطاق فحسب ، وللملائكة خواص ليست للبشر ولا للعالم المادي المعروف ، ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾ [فاطر:١] ﴿عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم :٦] ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء:١٩،٢٠] ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج :٤] إلى غير ذلك من النصوص الواردة في القرآن والسنة .

وما دامت لهم خواص غير خواص سائر المخلوقات ، فإن محاولة قياس أحوالهم في السرعة وغيرها على السرعة المعروفة لنا محاولة غير كافية للوصول إلى نتيجة صحيحة ، ذلك لأن القياس ، كما هو معروف ، قياس مع الفارق .

وما تصل إليه هذه الأبحاث لا يلزمنا تصديقها فهي لم تصل بعد إلى درجة الحقائق العلمية المسلمة ، والفروض والظنون لا يجوز أبداً أن نحمل عليها آيات القرآن ، أو نفسرها على ضوئها .

ونحث الباحثين -مع تسليمنا بموقف الإسلام من النظر في الكون وهو التشجيع- على أن يكون نشاطهم في النطاق الذي يمس مشاكلنا مسًّا قويًّا في المجال الفكري والاجتماعي والأخلاقي الذي نصل به إلى المستوى اللائق بنا ، وإذا صدقت النية في البحث كانت معونة الله بالتوفيق .



س : هل ترى الملائكة ربنا سبحانه ؟

ج : لم أعثر على نص يفيد أن الملائكة ترى الله سبحانه ، وهي دائماً في طاعة ، ودوام الطاعة لا يستلزم الرؤية .



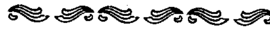
س : هل صحيح أن جبريل عليه السلام استحيا من السيدة خديجة ولم ينزل على الرسول ﷺ بالوحي بسبب ذلك ؟

ج : جاء في شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني [1] ، أن أبا نعيم روى في كتاب «الدلائل» بسند ضعيف عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ جالساً مع خديجة إذ رأى شخصاً بين السماء والأرض فقالت له خديجة : أدْنُ ، فدنا منها ، فقالت : تراه ؟ قال «نعم» قالت :أدخل رأسك تحت درعي ، ففعل ، فقالت : تراه ؟ قال «لا» قالت : أبشر ، هذا ملَكَ ، لو كان شيطاناً لما استحيا . ثم رآه بأجياد فنزل إليه وبسط له بساطاً وبحث في الأرض ، فنبع الماء ، فعلّمه جبريل كيف يتوضأ ، فتوضأ وصلى ركعتين نحو الكعبة ، وبشّره بنبوته ، وعلّمه ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق :١] ثم انصرف . فلم يمرَّ على شجر ولا حجر إلا قال: سلام عليك يا رسول الله .

١- ج٣ ص ٢٢١.

فجاء إلى خديجة فأخبرها ، فقالت : أرني كيف أراك؟ فأراها فتوضأت كما توضأ ثم صلت معه وقالت : أشهد أنك رسول الله . انتهى .

بهذه المناسبة هل نزل جبريل على الخضر ؟ هناك خلاف في كونه نبيًّا أو وليًّا ، وإذا كان نبيًّا فهل نزل عليه كتاب ؟ لا يلزم من النبوة نزول كتاب ، بل بعض الرسل من بني إسرائيل لم يرد نص في نزول كتاب عليهم ، بل كانوا يعملون بما سبق نزوله على غيرهم .



س : ما رأي الدين في بعض الرسوم الكاريكاتيرية التي تظهر في الصحف ويسخر فيها أصحابها من عالم الآخرة ، حيث يصورون ملائكة الرحمة أو زبانية الجحيم في صورة مهرجين أو مستهترين ؟

ج : الملائكة أجسام نورانية قادرون على التشكل بالأشكال الحسنة المختلفة ، وصفهم الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بأنهم مطهرون كرام بررة ، عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، لا يستكبرون عن عبادته ولايستحسرون ، أي لا يتعبون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وناط بهم أعمالاً في مملكته الواسعة ، يؤدونها بأمانة وصدق كما أمرهم الله سبحانه ، وكما تقضي به طبيعتهم الخيرة التي لا تعرف الشر ، ولا العصيان . وقد أمرنا الله سبحانه أن نؤمن بهم على هذه الصورة الكريمة كما أمرنا أن نؤمن برسله وكتبه ، وحرم الاستهزاء والاستخفاف بهم أو تحقيرهم بأية صورة من الصور كما حرم ذلك بالنسبة للرسل ، قال تعالى ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة : ٩٨] وقد كان اليهود يَعُدُّون جبريل عليه السلام عدوًّا لأنه ينزل بالوحي الذي يفضح أحوالهم ، وبما يتعارض مع مصالحهم كما يتصورون .

ومن هنا يحرم أي شيء لايصور الملائكة بصورتهم التي صورها القرآن الكريم ، سواء أكان ذلك قولاً أو فعلاً : برسم أو تمثيل أو كلام أو غيره ، فذلك كذب لأنه

لا يمثل الحقيقة ، والكذب حرام ، كما حرم الكذب على الرسل الذي جاء فيه الحديث المتفق عليه « من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » وهو وإن كان في شأن النبي ﷺ فهو يشمل كل الرسل ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة :٢٨٥] بل الكذب حرام حتى على غيرهم ممن ليست لهم مكانتهم العالية ومنزلتهم الرفيعة.

كما يحرم الاستهزاء والاستخفاف بالملائكة وكل من لهم قداسة وتقدير ، فإن ذلك يؤدي إلى الكفر ، لمنافاته لتشريف الله لهم بأنهم عباد مكرمون ، ويقول سبحانه ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج :٧٥] .

وإذا فقدنا ثقتنا بهذه الصفوة الممتازة من خلق الله فبمن نثق بعد ذلك وهم ليسوا في درجتهم ، إن مثل هذه الاستهانة بالملائكة والرسل وكرام الناس من الأولياء والعلماء الذين جعل الله لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وقال فيهم ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة :١١] .

إن هذه الاستهانة مدرجة إلى التحلل من كل القيم الرفيعة ، والواجب علينا جميعاً أن نقف بحزم وشدة أمام هذا التسيب في العقيدة والأخلاق ، ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال :٢٥] .



س : عندما أخبر الله سبحانه الملائكة بأنه سيخلق بشراً قالوا له : إنه سيكون مفسداً ، فكيف عرفوا ذلك ؟

ج : قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة :٣٠] .

جاء في كتب التفسير : أن الأرض كانت مسكونة بخلق لم يصلحوا لعمارتها كما أراد الله سبحانه فأهلكهم ، ثم قال سبحانه للملائكة : إني سأجعل بعد هؤلاء خليفة لإدارة الأرض إدارة صالحة ، فخافوا أن يكون كمن سبقوه من الذين

ارتكبوا الجرائم وأفسدوا بالقتل وغيره ، وقالوا : نحن خلق جُبلنا على الطاعة لك ، نحمدك بكل كمال هو فيك ، وننزهك عن كل نقص لا يليق بجلالك ، فأخبرهم الله أنه يعلم أن الخليفة الجديد سيصلح ولا يفسد .

فالملائكة ظنت بالقياس على الخلق السابق على آدم أنه سيقتل ويسفك الدماء ، ولم يعلموا أنه سيكون من لحم ودم ، وأن الملائكة لم تكن تعلم الغيب المستقبل لآدم . وليس في هذا الظن علم بالغيب ، ولذلك قال الله ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وقال : ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة :٣٣] فعلمهم ظن أساسه القياس ، وعلم الله حق أساسه الكشف واليقين .

وقيل : إن الملائكة تعرف أن الخليفة لن يكون له من علم الله وإرادته المطلقة ما يستطيع أن يحيط بكل شيء علماً ، أو يعلم علماً يقينيًّا كاملاً مرة واحدة بل على التدريج ، وعلى هذا يكون تصرفه غير حكيم ، وبالتالي يكثر الفساد وقيل غير ذلك .



س : هل صحيح أن بعض الحيوانات ترى ملك الموت عند نزوله إلى الأرض؟

ج : الثابت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال : « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، فإنها رأت ملكاً ، وإذا سمعتم نهاق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنها رأت شيطاناً » . . والثابت أيضاً أن فرس أسيد بن حضير أحست بالملائكة التي نزلت تستمع إلى القرآن ، فاضطربت وكادت تؤذي الولد النائم ، كما رواه البخاري ومسلم . وروى النسائي والحاكم أن النبي ﷺ قال « إذا سمعتم نباح الكلاب ونهيق الحمير في الليل فتعوذوا بالله من الشيطان الرجيم ، فإنها ترى ما لا ترون ، وأقلُّوا الخروج إذا هدأت الرِّجل ، فإن الله يبث في الليل من خلقه ما شاء » [1] .

١- قال الحاكم : صحيح الإسناد على شرط مسلم .

يؤخذ من هذا أن الحيوانات ترى من مخلوقات الله المغيبة عنا ما لا يراه الإنسان ، لكن الربط بين حيوان بعينه وما يراه إن كان ملكاً أو شيطاناً يقتصر فيه على ما أخبرنا به النبي ﷺ بطريق صحيح ، ولم أعثر على حديث يعتمد عليه في الاعتقاد بأن الكلب يرى ملك الموت كما هو شائع بين العامة .



س : هل نزل جبريل إلى الأرض بعد وفاة النبي ﷺ ؟

ج : جاء في « الحاوي للفتاوى » للسيوطي أن إنكار الناس لنزول جبريل بعد موت النبي ﷺ لا أصل له ، ثم استدل على ذلك بما أخرجه الطبراني في معجمه الكبير عن ميمونة بنت سعد قالت : قلت : يا رسول الله هل يرقد الجنب ؟ قال : « ما أحب أن يرقد حتى يتوضأ ، فإني أخاف أن يتوفى فلا يحضره جبريل » .

فدل هذا على أن جبريل يحضر موتة المؤمن المتطهر . وكذا استدل بما أخرجه الطبراني عن ابن مسعود مرفوعاً في وصف الدجال الذي جاء فيه : ويمر بالمدينة فإذا هو بخلق عظيم ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا جبريل ، بعثني الله لأمنعه من حرمه .

كما استدل بقوله تعالى في ليلة القدر ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾[القدر :٤] حيث قال الضحاك : إن الروح هنا جبريل ، وأنه ينزل هو والملائكة في ليلة القدر ويسلمون على المسلمين وذلك في كل سنة . اهـ .

والذي جر إلى الاعتقاد بعدم نزوله حديث « لا وحي بعدي » فالذي ينزل بالوحي جبريل ، والجواب أن الحديث موضوع ، ولو فرضت صحته فالمنفي نزوله للوحي إلى الأنبياء بشرع ، لكن قد ينزل لغير ذلك كتبليغ خبر لا يتعلق بتشريع ، ففي مسلم « أوحى الله تعالى إلى عيسى أني أخرجت عباداً لي لا يد لأحد بقتالهم فحول عبادي إلى الطور – وهم يأجوج ومأجوج [1].

١- مذكرات التوحيد ج٣ ص ١٥٠.

ومهما كانت قيمة الاستدلال بهذه الأدلة على نزول جبريل فإن ذلك أمر ليس من أصول العقيدة الإسلامية ، والبحث فيه ينبغي أن يحملنا على ما احتوته هذه الأدلة من الحرص على الطهارة ، ومن إحياء ليلة القدر .



س : ما هو اسم ملك الموت ، وكيف يقبض أرواح الكثيرين في وقت واحد ، ومن الذي يقبض روحه هو ، وهل صحيح أنه كان يظهر للناس ، وأنه استأذن النبي ليقبض روحه وأن موسى لطمه ؟

ج : نحن مكلفون بالإيمان بالملائكة إجمالاً ، ولا نكلف بمعرفة أسمائهم إلا ما نص عليه القرآن أو الحديث الصحيح لأن عددهم كبير كما قال الله سبحانه ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر :٣١] والنص إما على الاسم الشخصي مثل جبريل وميكائيل وإسرافيل ، ومنكر ونكير ، ورضوان خازن الجنة ومالك خازن النار . وعزرائيل مشهور بأنه هو ملك الموت وإن كان اسمه لم يرد في القرآن الكريم .

وإما أن يكون النص على النوع مثل حملة العرش والكتبة الذين يحصون أعمال العباد . والحفظة وغيرهم .

وعزرائيل هو الملك الموكل بقبض الأرواح ، قال تعالى ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة :١١] ، ويقال : إن الله اختاره لذلك لأنه هو الذي تجرأ وأخذ من تراب الأرض ليخلق الله منه آدم على الرغم من أنها استعاذت من الملائكة الذين حاولوا قبله أن يأخذوا منها التراب ، وهذا كلام وهب بن منبه والزهري وليس له سند صحيح [1] وملك الموت ككل نفس سيموت والذي يقبض روحه هو الله سبحانه .

١- مشارق الأنوار للعدوي ص ١٦.

وجاء في مشارق الأنوار أيضاً [1] أن له أعواناً بعدد من يموتون ، وأخرج ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما عن نفسين اتفق موتهما في طرفة عين ، واحد بالمشرق والآخر بالمغرب كيف قدرة الملك عليهما؟ قال: ما قدرة ملك الموت على أهل المشارق والمغارب والظلمات والهواء والبحور إلا كرجل بين يديه مائدة يتناول من أيها شاء . وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد قال : قيل: يا رسول الله ، ملك الموت واحد والزحفان يجتمعان بين المشرق والمغرب وما بين ذلك من السخط والهلاك ، فقال « إن الله حوى الدنيا لملك الموت حتى جعلها كالطست بين يدي أحدكم ، فهل يفوته منها شيء » .

وأخرج أحمد والبزار وصححه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : كان ملك الموت يأتي الناس عياناً ، فأتى موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه ، فأتى ربه فقال: يا رب عبدك موسى فقأ عيني ولولا كرامته عليك لشققت عينه ، قال له : اذهب إلى عبدي موسى فقل له : فليضع يده على جلد ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة ، فأتاه فقال له : ما بعد هذا ؟ قال : الموت . قال : فالآن . قال : فشمه شمة فقبض روحه ورد الله عليه عينه ، فكان بعد يأتي الناس خفية .

وذكر الشعراني بعد أن حكى رواية للإمام الترمذي بمثل هذا - أن موسى فقأ عين ملك الموت بإذن من ربه عز وجل ، لأنه معصوم . ولذلك لم يعاتبه الله على ذلك [2].

كما أورد حديثاً عن أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وفيه دخول ملك الموت بيت داود عليه السلام -وكانت فيه غيرة- فقبض روحه . كما نقل أن الطبراني أخرج عن الحسين أن جبريل هبط على النبي ﷺ يوم موته وأخبره أن ملك الموت

١- ص ١٣ .

٢- مشارق الأنوار ص ١٥ .

استأذن على الباب ، وما استأن على أحد قبلك ، وأن الملك قال : إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك ، إن أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها وإن كرهت تركتها ، وقد أذن له النبي ﷺ في قبضها [1].

وجاء في المواهب اللدنية للقسطلاني وشرح الزرقاني [2] ، أن جعفر الصادق ابن محمد الباقر أخبر عن أبيه محمد بن علي بن الحسين أنه قال : لما بقى من أجل رسول الله ﷺ ثلاث نزل عليه جبريل وساق الكلام المذكور ، وجاء فيه أن جبريل قال للنبي : يا رسول الله هذا آخر موطئ من الأرض ، إنما كنت حاجتي من الدنيا . وذكر الزرقاني أن عدم نزول جبريل بعد ذلك إنما هو النزول بالوحي المتجدد ، فلا ينافي ما ورد في أحاديث أنه ينزل ليلة القدر ويحضر قتال المسلمين مع الكفار ، ويحضر من مات على طهارة من المسلمين ، ويأتي مكة بعد خروج الدجال ليمنعه من دخولها وفي زمن عيسى عليه السلام ليس بشرع جديد .

وخلاصة الإجابة على السؤال : أن ملك الموت اسمه عزرائيل ولم يرد ذكر اسمه في القرآن ، وأنه رئيس الملائكة المكلفة بقبض الأرواح فله أعوان في هذه المهمة وأن الذي يقبض روحه هو الله بحكم أن كل نفس ذائقة الموت . وأنه كان يظهر للناس . وحادثته مع موسى عليه السلام وردت في حديث غير متواتر . كما أن حديث استئذانه الرسول في قبض روحه فيه كلام .

وليس ذلك عقيدة يجب اعتقادها ، وللاجتهاد فيه نصيب .



١- مشارق الأنوار .
٢- ج٨ ص ٢٨٥.

س : هل صحيح أن موسى عليه السلام لطم ملك الموت عندما أراد أن يقبض روحه؟

ج : إضافة إلى ما تقدم أقـول : روى مسلم عن أبي هريرة قال : أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكه ففقأ عينه ، فرجع إلى ربه فقال : أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت ، قال : فرد الله إليه عينه وقال : ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور ، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة ، قال : أي رب ثم مَه ؟ قال ثم الموت ، قال فالآن . فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر . فقال رسول الله ﷺ «فلو كنت ثمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر» .

قال القرطبي [1] ، واختلف العلماء في تأويل لطم موسى عين الملك وفقئها على أقوال ، منها : أنها كانت عيناً متخيلة لا حقيقية ، وهذا باطل ، لأنه يؤدي إلى أن ما يراه الأنبياء من صور الملائكة لا حقيقة له ، ومنها أنها كانت عيناً معنوية ، وإنما فقأها بالحجة . وهذا مجاز لا حقيقة ، ومنها أنه عليه السلام لم يعرف ملك الموت ، وإنما رأى رجلاً دخل منزله بغير إذنه يريد نفسه ، فدافع عن نفسه فلطم عينه ففقأها . وتجب المدافعة في هذا بكل ممكن ، وهذا وجه حسن ، لأنه حقيقة في العين والصك . قاله الإمام أبو بكر بن خزيمة ، غير أنه اعترض عليه بما في الحديث ، وهو أن ملك الموت لما رجع إلى الله تعالى قال : يا رب أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت ، فلو لم يعرفه موسى لما صدق القول من ملك الموت . وأيضاً قوله في الرواية الأخرى: أجب ربك . يدل على تعريفه بنفسه . والله أعلم .

ومنها أن موسى عليه الصلاة والسلام كان سريع الغضب ، إذا غضب طلع الدخان من قلنسوته ورفع شعر بدنه جبته ، وسرعة غضبه كانت سبباً لصكه ملك الموت . قال ابن العربي : وهذا كما ترى ، فإن الأنبياء معصومون من أن يقع منهم ابتداء مثل هذا في الرضا والغضب .

---

١ - ج٦ ص ١٣٢ .

ومنها - وهو الصحيح من هذه الأقوال - أن موسى عليه الصلاة والسلام عرف ملك الموت ، وأنه جاء ليقبض روحه ، لكنه جاء مجيء الجازم بأنه قد أُمر بقبض روحه من غير تخيير ، وعند موسى ما قد نص عليه نبينا محمد ﷺ من «أن الله لايقبض روح نبي حتى يخيِّره» فلما جاء على غير هذا الوجه الذي أعلم ، بادر بشهامته وقوة نفسه إلى أدبه ، فلطمه ففقأ عينه امتحاناً لملك الموت ، إذ لم يصرح له بالتخيير .

ومما يدل على صحة هذا أنه لما رجع إليه ملك الموت فخيره بين الحياة والموت اختار الموت واستسلم ، والله بنبيه أحكم وأعلم ، هذا أصح ما قيل في وفاة موسى عليه السلام ، وقد ذكر المفسرون في ذلك قصصاً وأخباراً الله أعلم بصحتها ، وفي الصحيح غنية عنها . وكان عمر موسى مائة وعشرين سنة ، فيروى أن يوشع رآه بعد موته في المنام فقال له : كيف وجدت الموت ؟ فقال :كشاة تسلخ وهي حية ، وهذا صحيح معنى . قال ﷺ في الحديث الصحيح «إن للموت سكرات» انتهى ما قاله القرطبي .

وجاء في «مشارق الأنوار» [1] : أخرج أحمد والبزار وصححه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «كان ملك الموت يأتي الناس عياناً ، فأتى موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه . .» فكان بعد يأتي الناس خفية وذكر العارف الشعراني - بعد أن حكى رواية للإمام الترمذي بمثل هذا - إنما فقأ موسى عين ملك الموت بإذن من ربه عز وجل لأنه معصوم ، ولذلك لم يعاقبه الله على ذلك .

وجاء في كتاب «تأويل مختلف الحديث» [2] ، أن الله أعطى الملائكة قوة تتشكل بها كما تشاء ، كما أعطى الجن هذه القوة ، ثم قال : ولما تمثل ملك الموت لموسى عليه السلام ، وهذا ملك الله وهذا نبي الله ، وجاذبه لطمه موسى لطمة أذهبت العين التي هي تخييل وتمثيل ، وليست حقيقة ، وعاد الملك إلى حقيقة خلقته الروحانية كما كان لم ينتقص منه شيء .



---

١ - للعدوي ص ١٤.
٢ - ابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦هـ ، ص ٨٦.

س : هل من الحديث ما يقال : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل وكَّل بعبده المؤمن ملكين يكتبان عمله ، فإذا مات قالا : أتأذن لنا أن نصعد إلى السماء ؟ قال : فيقول الله تعالى : إن سمائي مملوءة بملائكتي يسبحوني .. فيقولان فتأذن لنا فنقيم في الأرض ؟ فيقول الله تعالى : إن أرضي مملوءة من خلقي يسبحوني ، فيقولان : فأين نقيم؟ فيقول : قوما على قبر عبدي ، فسبحاني واحمداني وكبراني وهللاني ، واكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة » ؟

ج : يقول الله سبحانه ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد : ١١] . ويقول ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق : ١٦-١٨] ويقول النبي ﷺ « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » .

إن ملائكة الله من عالم الغيب ، لا يعلم عددهم إلا الله ، ولهم أعمال كلفهم الله بها ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] وتفاصيل أحوالهم وأعمالهم لاتقبل إلا عن طريق صحيح ، والاعتقاد لايقوم إلا على الدليل القاطع في ثبوته ودلالته .

وقد أخبرت الآية أن لله ملائكة مكلفين بحفظ غيرهم من البشر ، مع اختلاف المفسرين فيمن يحفظه المعقبات : هل هو محمد ﷺ لتقدم ذكره في آية سابقة ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٧] أو كل الرسل كما يدل عليه ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أو الناس عامة تحفظهم من الوحوش والهوام لطفاً من الله ، حتى إذا جاء القدر خلوا بينه وبينهم ، كما قاله ابن عباس وعلي رضي الله عنهما ، وقيل الحفظ هو كتابة الأقوال والأفعال ، ونقل القرطبي (١) عن الثعلبي كلاماً أن الملائكة الموكلة بكل عبد يبلغون عشرين ومعهم إبليس وولده ، وليس لهذا الكلام دليل يعتمد عليه في العقائد .

- ج٩ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٤.

وذكر في سورة (ق) رقيبا وعتيدا ، وهما الموكلان بكتابة الأعمال ، اثنان بالنهار واثنان بالليل وأن لكاتب الحسنات سلطاناً على كاتب السيئات ، يأمره بعدم الإسراع في الكتابة لعل الإنسان يستغفر في ظرف سبع ساعات ، كما ذكر الحديث المذكور في السؤال ، ولم يسنده إلى ثقات المحدثين ، بل رواه بصيغة التمريض التي تدل على عدم الصحة في اصطلاح المحدثين ، وهي (رُوى) فالأولى أن نكل العلم إلى الله فيما تقوم به الملائكة ما دام لم ينص عليه في القرآن والسنة الصحيحة .



س : يشكك بعض الناس في قتال الملائكة يوم بدر ، قائلين إن المسلمين انتصروا بجهودهم ، ولو كان الانتصار بسبب قتال الملائكة ما كان لهم فضل ، فما مدى صحة هذا الكلام ؟

ج : تحدَّث القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [آل عمران : ١٢٣- ١٢٥] وقال : إن الله أمَدَّ بملائكته نبيه والمؤمنين في قول جماعة العلماء . وتظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت . ومن ذلك قول أبي أسيد مالك بن ربيعة وكان شهيد بدر : لو كنت معكم الآن ببدر ومعي بصري لأرينكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة ، لا أشك ولا أمتري -وأبو أسيد يقال إنه آخر من مات من أهل بدر .

ثم ذكر القرطبي حديثاً رواه مسلم عن عمر بن الخطاب جاء فيه دعاء النبي ﷺ ربه لما رأى كثرة المشركين قائلاً «اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم آت ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة - الجماعة - من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» وما زال يهتف وأبو بكر يقول له : كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

مُرۡدِفِينَ ﴾ [الأنفال : ٩] فأمده الله تعالى بالملائكة . ثم قال القرطبي : فتظاهرت السنة والقرآن على ما قاله الجمهور والحمد لله .

ولم تكن مهمة الملائكة هي التثبيت فقط لقلوب المؤمنين بل باشروا القتال بالفعل كما قال رب العزة ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴾ [الأنفال :١٢] وكان منهم ملكان عن يمين الرسول ويساره وعليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشد القتال ، يقول سعد بن أبي وقاص : ما رأيتهما قبل ولا بعد [١].

وفي حديث مسلم عن غزوة بدر قول ابن عباس : بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول :أقْدِم حيزوم ، فنظر إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقياً ، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه فاخضرَّ ذلك أجمع .

فجاء الأنصاري فحدَّث بذلك رسول الله ﷺ فقال : « صدقت ، ذلك من مدد السماء الثالثة » فقتلوا يؤمئذ سبعين وأسروا سبعين ، وعن سهل بن حنيف قال[٢] : لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا يشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه ، وعن الربيع بن أنس قال : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به . ذكره البيهقي .

يؤخذ من هذا ومن غيره أن الملائكة باشرت القتال بالفعل ولم يكن دورهم هو التثبيت فقط ، وهذا ما يدل عليه ظاهر النصوص ولا حاجة لتأويلها ، كما زعم بعض الناس أنهم حضروا في بدر للدعاء بالتثبيت لا غير .

١- القرطبي ج٤ ص ١٩٠.
٢- القرطبي ، ج٤ ص ١٩٣، ١٩٤ .

والمهم أن نأخذ العبرة من ذلك بأن الله سبحانه يمد المؤمنين الصادقين بوسائل النصر إن استغاثوه ولم يعتمدوا على أنفسهم وقوتهم ناسين ربهم ، فالله سبحانه بيده كل شيء ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران :١٢٦] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد :٧] ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم :٤٧] .



الكتب

س : ما هي الإسرائيليات التي وضعت في الكتب الدينية ، وهل يجوز الاستشهاد بها ، وهل هناك كتب مليئة بها يجب تجنب الاطلاع عليها ؟

ج : الإسرائيليات منسوبة إلى بني إسرائيل ، وهم اليهود . وكانت لهم مكائدهم وطرقهم في معارضة الإسلام ، ولبس بعضهم مسوح المسلمين ومارسوا نشاطهم الكيدي كعبد الله بن سبأ . وانخدع بهم بعض المسلمين فساروا في هذا الطريق ، ومنهم أبو عصمة نوح ابن مريم الذي وضع أحاديث في فضل سور القرآن لا أصل لها بالمرة ، وبرر عمله هذا بأنه رأى الناس أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي ابن إسحاق ، فوضع الأحاديث حسبة لترغيب الناس في القرآن .

واقترح مجمع البحوث الإسلامية في يناير ١٩٦٨م تقديم بحوث تسهم في إحياء ذكرى مرور أربعة عشر قرناً على القرآن ، فوضع المرحوم الشيخ محمد الذهبي كتاباً عن الإسرائيليات في التفسير والحديث . وذكر حكم روايتها وأشهر رواتها ، وذكر أن لليهود ضلعاً كبيراً فيها ، لأنهم حرفوا التوراة وحاولوا أن يحرفوا القرآن في لفظه أو معناه ، وأن العرب تأثروا بثقافة أهل الكتاب ، ودخلت الإسرائيليات إلى التفسير والحديث عندما بدئ تدوينهما ، فملئت الكتب بالغرائب والأكاذيب .

وقد حذرنا الرسول ﷺ من الاعتماد على أكاذيبهم ، ففي البخاري حديث « لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم . . . . . » وأخرج أحمد وغيره أن عمر رضي الله عنه أتى الرسول ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فغضب الرسول وقال « أمتهوكون -شاكون متحيرون- فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به ، أو بباطل فتصدقوه ، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن

يتبعني» وروى البخاري نهي ابن عباس عن سؤال أهل الكتاب فالقرآن فيه الكفاية ، ولا يجوز أخذ شيء عنهم إلا ما كان موافقاً للدين ، كما تدل عليه النصوص بالأخذ عنهم مثل ، ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس :٩٤] ومثل «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» [١] .

والوصية قوية بالحذر عند الرواية عن كعب الأحبار ووهب بن منبه ومحمد ابن السائب الكلبي ومقاتل بن سليمان وغيرهم ، وكذلك الكتب التي تنقل الإسرائيليات ولا تبين صدقها أو كذبها ، كتفسير الثعلبي وكتابه «العرائس» وتفسير الخازن .



س : ما عدد الكتب السماوية التي نزلت على الأنبياء وما أسماؤها وكيف نزلت؟

ج : الكتب السماوية التي نزلت على الأنبياء كثيرة ، والواجب علينا هو الإيمان بذلك إجمالاً ، أما تفصيلاً فالواجب هو الإيمان بما ورد ذكره في القرآن الكريم ، وهي: صحف إبراهيم ، والتوراة ، التي نزلت على موسى والزبور الذي نزل على داود ، والإنجيل الذي نزل على عيسى ، والقرآن الذي نزل على محمد عليهم جميعاً صلاة الله وسلامه .

يقول الشيخ محمود أبو دقيقة في مذكرات التوحيد : أما الصحف فقد ورد في شأنها آثار كثيرة وأرجحها أنها مائة صحيفة ، خمسون نزلت على شيث عليه السلام ، وثلاثون نزلت على إدريس عليه السلام ، وعشرة نزلت على إبراهيم عليه السلام ، وعشرة على موسى عليه السلام .

والظاهر أن هذه الصحف كانت مشتملة على مواعظ وإرشادات إلى التحلي بمكارم الأخلاق والتخلي عن مساوئها ، ولم يعرف عنها شيء يقيناً ، لعدم وجود ما يفيد يقيناً بشأنها [٢].

١- رواه البخاري.
٢- مذكرات التوحيد ، ج ٣ ص ٥٤.

أما نزولها فالظاهر أن جبريل عليه السلام هو أمين الوحي الذي بلغه إلى الرسل كافة فهو الذي حمل التوراة والإنجيل وأنزلهما مرة واحدة على موسى وعيسى ، وحمل القرآن وأنزله على الرسول محمد ﷺ منجّماً أي مفرقاً كما نص عليه القرآن الكريم ، وكلام الله سبحانه للبشر جاء بعدة طرق ذكرها في قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى :٥١] .

جاء في تفسير القرطبي [١] ، عند قوله تعالى ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف :١٤٥] قال ربيع بن أنس : نزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير ، وأضاف الكتابة إلى نفسه «كتبنا» على وجه التشريف ، إذ هي مكتوبة بأمره كتبها جبريل بالقلم الذي كتب به الذكر .

والأفضل ترك علم ذلك لله سبحانه ، فلا فائدة هامة من البحث فيه .



س : إذا كان الإسلام يعترف بالرسالات السماوية فهل هناك ما يمنع المسلم من أن يأخذ ويتبع ما جاء من تعاليم ونصائح كل هذه الرسالات؟

ج : ليكن معلوماً أن الإسلام جاء ديناً وافياً كاملاً ، فيه كل ما يحتاجه المسلم في دنياه وآخرته كما قال سبحانه ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة :٣] وقال ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل :٨٩] .

ومع ذلك لا مانع من الاستفادة بما يوجد في الكتب السماوية الصحيحة ، لأن ما فيها حق وإن كانت فروع الشريعة تختلف من دين لآخر ، فشرع من قبلنا ليس

١- ج٧ ص ٢٨١.

شرعاً لنا إلا إذا وجد في شرعنا ما يقرره ، أو هو شرع لنا إن لم يوجد في شرعنا ما يخالفه ، على خلاف للعلماء في ذلك .

ولكن أين هي الكتب السماوية الصحيحة التي يستفاد منها وقد أقر القرآن بأنها حُرِّفت ؟ وبتحريفها كفر اليهود والنصارى برسالة سيدنا محمد ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة :١٤٦] فلا حاجة بنا إلى الأخذ من كتبهم ، ولو قرأناها فليكن القارئ على معرفة تامة بدينه هو ، حتى لايزل ويتبع بعض ما فيها ، وحتى لا يقول : إن فيها ما لا يوجد في كتب الإسلام فيميل إليها ويطمئن إلى قراءتها والعمل بما فيها ، وقد حدث أن النبي ﷺ نهى عن قراءة كتب أهل الكتاب - اليهود والنصارى- خشية الفتنة بما فيها وقال لعمر «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية» إلى أن قال «والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا اتباعي»[١] ، ومع ذلك جاء عن الرسول ﷺ ، كما أخرجه البخاري ، قوله «لاتصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا» وقوله «بلغوا عني ولو آية ، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» .

وهو يشير إلى مصادر المعرفة الثلاثة وهي القرآن الذي يجب تبليغه ، والحديث النبوي الذي يجب الدقة عند تلقيه وروايته ، وما جاء عن بني إسرائيل من السماح بروايته ، وذلك في نطاق ما جاء عنه ﷺ ، ما رواه أحمد وأبو داود : إن كان حديثهم حقًّا فلا تكذبهم فيه ، وإن كان باطلاً فلا تصدقهم فيه ، وما لا نجزم بصدقه أو كذبه فنحن في حل من الأخذ به أو رفضه .

وفي ضوء هذا المقياس أصاب عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يوم اليرموك زاملتين - أي حمل بعيرين - من كتب أهل الكتاب فكان يحدث منهما ،

١- رواه أحمد في مسنده .

وابن مسعود رضي الله عنه قال - كما رواه أحمد وغيره - : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد أضلوا أنفسهم ، إما أن يحدثوكم بصدق فتكذبونهم أو بباطل فتصدقونهم .

والخلاصة أن الأخذ من كتب الأديان الأخرى لا حاجة إليه ، أما قراءتها للاطلاع على ما فيها ومقارنته بما جاء في الإسلام فلا مانع منه لمن هو متمكن في العلم الديني .



س : إذا كان الزبور هو كتاب سيدنا داود ، والذكر هو القرآن ، فما المقصود بقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء :١٠٥] ؟

ج : الزبور ليس هو فقط الكتاب الذي نزل على داود عليه السلام ، وإنما يطلق على كل ما أنزله الله تعالى من الكتب حتى القرآن الكريم ، والذكر قيل : هو توراة موسى عليه السلام ، وقيل : هو كتب الأنبياء ، وقيل : هو أم الكتاب الذي عند الله في السماء.

والمعنى أن الله سبحانه قرر في اللوح المحفوظ وفي الكتب المنزلة على الأنبياء أن الجنة لعباده الصالحين ، كميراث أتاهم من غير جهد ، لأن طاعتهم لا تتساوى مع عظمتها وقيمتها ، وقال بعض المفسرين المحدثين : المعنى أن البقاء هو للأصلح في الدنيا ، فمن انحرف من الملوك أو الدول أو الأمم عن الصراط المستقيم سلب الله منهم سلطانهم وأعطاه للصالحين الذين يستحقونه ، وكل ذلك تتحمله الآية .



س : جاء في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم :١٢] فما هو الكتاب الذي نزل عليه ؟

ج : قال القرطبي في تفسيره [1] ، الكتاب هو التوراة بلا خلاف وأخذُ يحيى له بقوة معناه : بِجدٍّ واجتهاد وقيل : المراد العلم به وحفظه والعمل به.

١- ج١١ ص٨٦.

والتوراة كانت كتاب الأحكام الذي أخذ به كل من جاء بعد موسى من الأنبياء حتى جاء عيسى فنزل عليه الإنجيل .



س : قال تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩] **عرفنا صحف موسى وهي التوراة المطبوعة فأين نجد صحف إبراهيم ؟**

ج : من المعلوم أن الكتب التي نزلت على الأنبياء السابقين كانت في تشريعاتها متناسبة مع الأقوام الذين أرسل إليهم الرسل ، ولا يكلف قوم بغير ما جاء به رسولهم ، فهي تشريعات خاصة وتاريخية أي قاصرة على زمانها تنسخها الشريعة التي تأتي بعدها ، وكان خاتمة الكتب القرآن الكريم الذي نزل على خاتم الرسل ، فليس بعدهما كتاب ولا رسول ، والأمة الإسلامية ليست مكلفة بما جاء في الكتب السابقة لأمرين أولهما أنها خاصة بأقوامهم . وثانيهما أنها ليست مقطوعة الصحة ، وقد أخبر القرآن الكريم عن تحريفها في أكثر من آية ، بل عن اختلاق جماعة لكلام وادعاء نسبته إلى رسولهم ليكون وحياً له القداسة عندهم .

مع العلم بأن أصول العقائد والأخلاق التي لاتتغير بتغير الأزمان والأقوام واحدة في كل ما جاء به الرسل السابقون ، والمخالفة هي في التشريعات العملية التي تتناسب مع هؤلاء الأقوام والقرآن جاء مقرراً للصواب ومصححاً لما دخله التحريف منها ، تاركاً التشريعات لمن نزلت عليهم ، قال تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة :٤٨] .

وقد تقدم النهي عن قراءة هذه الكتب خشية الفتنة بما فيها ، إلا لمن كان على بينة من دينه ليميز الخبيث من الطيب ، والخطأ من الصواب .

وبخصوص صحف إبراهيم لا يوجد خبر صحيح عما فيها ، ولا عن وجودها الآن ، وقد أمر الله رسوله محمد ﷺ باتباع ملة إبراهيم كما قال تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل :١٢٣] والظاهر أن الاتباع هو في عقيدة التوحيد والعقائد الأساسية كما فيهم من وصفه بقوله ﴿حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ومع ذلك إذا كان الاتباع في بعض ما جاء من التشريع فهو صحيح ما دام لم يأت في الإسلام ما يخالفه على رأي من قال بذلك من علماء الأصول . ومما أخذناه من شريعة إبراهيم الختان . ولا حاجة إلى معرفة ما نزل على إبراهيم من صحف . ففي قرآننا كل خير ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾ [المائدة :٣] .

ومع ذلك ذكر المفسرون بعض ما في هذه الصحف ، ففي القرطبي [1] : روى الآجُرِّي من حديث أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله فما كانت صحف إبراهيم؟ قال « كانت أمثالاً كلها ، أيها الملك المتسلط المبتلى المغرور ، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم ، فإني لا أردها ولو كانت من فم كافر . وكان فيها أمثال : وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، يفكر فيها في صنع الله عز وجل إليه ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً إلا في ثلاث : تزود لمعاد ، ومرمَّة لمعاش ، ولذة في غير محرم . وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه . مقبلاً على شانه ، حافظاً للسانه . ومن عدَّ كلمه من علمه قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه» .

قال : قلت يا رسول الله فما كانت صحف موسى ؟ قال كانت عِبراً كلها : عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب ، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل» .

١- ج ٢ ص٢٤.

قال : قلت يا رسول الله فهل في أيدينا شيء مما كان في يدي إبراهيم وموسى مما أنزل الله عليك ؟ قال « نعم ، اقرأ يا أبا ذر ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى :١٤ - ١٩] وابن جرير الطبري اختار أن الذي في صحف إبراهيم وموسى هو ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . . . .﴾ ووافقه ابن كثير في هذا الاختيار ، وأورد عن النسائي عن ابن عباس أن سورة ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ كلها في صحف إبراهيم وموسى .

وكلها روايات لا يلزمنا اعتقاد ما فيها ، وقرآننا هو خير كتاب نأخذ منه هدايتنا ، فهو يهدي للتي هي أقوم .



س : هل صحيح أن إنجيل برنابا يتفق مع القرآن الكريم فيما جاء عن سيدنا عيسى؟

ج : جاء في كتاب « التثليث في المرآة » [1] ، أن برنابا كان مصاحباً للمسيح عليه السلام مدة طويلة ، وكتب عن معلومات توافق ما جاء في القرآن كثيراً ، وكان هذا الإنجيل يقرأ ويدرس إلى أواسط القرن الخامس الميلادي . وفي القرن الخامس حرَّم البطريق « جليسيوس » قراءته وأمر بإعدام نسخه ، ثم عثر على نسخة منه في القرن السادس عشر الميلادي القسيس الكبير « فرامرينو » الذي وجده في مكتبة البطريق « سكنس » بطريق روما ، فظهر له بعد مطالعته أن فيه أخباراً واضحة عن خاتم الأنبياء وذكر اسمه « أحمد » فأخرج « فرامرنيو » هذا الإنجيل من مكتبة البابا وأعلن إسلامه ، ونقله إلى العربية « رشيد رضا » في مصر .



---

١ - كوثر نيازي ص ١٠٨.

س : نسمع أن لليهود كتاباً يسمى التلمود ، فهل هو من الكتب المنزلة من عند الله كالتوراة؟

ج : كلمة التلمود عبرية معناها العلم أو الثقافة ، وعرف بهذا الاسم كتابان : التلمود الفلسطيني والتلمود البابلي . وموضوعهما واحد ، الأول جمعه اليهود الذين بقوا في فلسطين بعد أن دمر الملك البابلي أورشليم سنة ٥٨٦ قبل الميلاد ، والثاني جمعه اليهود الذين أسرهم هذا الملك في بابل .

ولما وجد اليهود أنفسهم منعزلين عن المجتمع لتعصبهم : حاولوا التوفيق بين يهودية التوراة والمجتمع ، فوضعوا شروحاً للتوراة مزجت بالثقافات المختلفة وجمعت في كتاب اسمه (المشنا) ثم قام زعيم لهم بنشره في المدارس والمجامع التي عرفت باسم (الكنيست) واعتبروا هذا الزعيم نبيًّا كموسى .

وطغت الشروح على أصل التوراة ، منذ القرن الخامس قبل الميلاد حتى جاء سيدنا عيسى عليه السلام ، وبعده انقسم الكتبة إلى فئات تحاول كسب ود الحاكم الروماني على حساب الدين . وحوالي سنة ٧٠ ميلادية غزا (تيطوس) الروماني فلسطين وخرَّب أورشليم ، وجاء كاتب يهودي اسمه (يهوذا بن سمعان) في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث ، فجمع كل هذه الأعمال وقسمها ستة أجزاء ، تشمل قواعد العبادة والأعياد والنساء والمعاملات والقرابين والطهارة ثم أضيفت شروح مكملة ، ولما كبرت الشروح جمعها اثنان من الكتبة هما (آشى ورابين) في القرن الخامس الميلادي ، وسمياها (التلمود) وطبع بأصليه : الفلسطيني والبابلي في البندقية .

هذا ، وقد جاء الإسلام وقرر أن اليهود حرفوا التوراة وكتبوا كتباً من عندهم يشترون بها ثمناً قليلاً ، وبسبب تقديسهم لما كتبوه وتركهم ما أنزل الله وقفوا من الدعوة الإسلامية مواقفهم المعروفة ، بل وقفوا من العالم مواقف لتحقيق ما سطره

قدماؤهم في التلمود وما وضعوه من بروتوكولات ، وننصح بعدم قراءة هذه الكتب إلا للمتمكن من دينه القادر على تمييز الحق من الباطل .



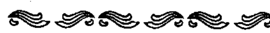
س : جاء في القرآن الكريم قول الجن للرسول ﷺ ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف :٣٠] فلمَ لم يذكروا الكتاب الذي أنزل على عيسى ، وهل آمن هؤلاء الجن بسيدنا موسى وكانوا من اليهود؟

ج : من المعلوم أن الرسالات السابقة كانت خاصة لأقوام دون آخرين ولعصر دون آخر ، وهنا يقال : لماذا لم يذكر الجن الكتاب الذي نزل على عيسى وهو الإنجيل ، واقتصروا على ذكر كتاب موسى وهو التوراة مع أن الإنجيل نزل بعدها وهو أقرب عهداً بالقرآن ؟

قال المفسرون : هؤلاء الجن من منطقة لم يرسل إليها عيسى ، وكانت داخلة ضمن حدود الرسالة الموسوية فهم آمنوا بموسى ولم يبلغهم دعوة عيسى : وقيل إن التوراة كانت مشهورة لأن كثيراً من أنبياء بني إسرائيل تتابعوا على الحكم بها ، فعرفها الجن أكثر من معرفتهم للإنجيل وقيل : إن كلام الجن ليس فيه حصر لما أنزل من الكتب ، وبالتالي ليس فيه نفي لنزول الإنجيل بعدما ذكروا التوراة .

وقيل : إن التوراة كتاب شريعة مفصَّلة فالجن الذين آمنوا بها كانوا أشد اتصالاً بمعرفة ما فيها أكثر من الإنجيل الذي كان أكثره مواعظ وأخلاقاً .

هذا بعض ما ظهر لي من الإجابة على هذا السؤال .



س : سمعنا أن من الكتب المقدسة عند الشيعة ما يسمى بالجفر ومصحف فاطمة ، فهل يمكن أن نعرف شيئاً عنهما ؟

ج : إن الشيعة لهم موقف من القرآن ويدعون أنه ناقص . وإن كان بعضهم - من باب التقية - يقسم أنهم لايعرفون إلا القرآن الذي بين دفتي المصحف المتداول بين المسلمين . لكن عند الكثيرين أن هناك مصحف فاطمة كما نصت عليه كتبهم مثل كتاب (الكافي) الذي هو أوثق كتاب عندهم بعد القرآن الكريم ، جمعه أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكُلَيْني الرازي (٣٢٨ - ٣٢٩هـ) وفيه من عدة أحاديث بأرقام٦٣٥ / ١ - ٦٤٢ / ٨ ما خلاصته أن فاطمة عليها السلام حزنت بعد وفاة الرسول ﷺ خمسة وسبعين يوماً ، وكان الملك يأتيها ويسليها ويخبرها بحال النبي ﷺ ، وأخبرها بما سيكون لذريتها ، ولما عرف علي ذلك قال لها . إذا حضر فأعلميني فكان إذا حضر كتب عنه عليٌّ كل ما قال . وتلك هي مصحف فاطمة ، وليس فيه من الحلال والحرام شيء ، ولكن فيه علم ما يكون ، وجاء في الحديث رقم ٦٥٣ ما نصه : وإن عندنا لمصحف فاطمة عليها السلام ، وما يدريهم ما مصحف فاطمة عليها السلام ، قال : قلت : وما مصحف فاطمة عليها السلام ؟ قال: مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات ، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد ، قال : قلت : هذا والله أعلم ، قال : إنه لعلم وما هو بذاك .

أما الجفر ، فقد جاء في الأحاديث المذكورة أنه وعاء من أدَم -جلد ثور- فيه علم النبيين والوصيين ، وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل ، وفيها -أي هذه الأحاديث- أن عندهم : الجفر الأبيض الذي فيه زبور داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى وصحف إبراهيم عليهم السلام ، والحلال والحرام ومصحف فاطمة ، ما أزعم أن فيه قرآناً ، وفيه ما يحتاج الناس إلينا ولا نحتاج إلى أحد ، حتى فهي الجلدة ونصف الجلدة وربع الجلدة وأرْش الخدش .

والجفر الأحمر وفيه السلاح ، وذلك إنما يفتح للدم ، يفتحه صاحب السيف للقتل ، وفيه : أن بني الحسن يعرفون هذا الجفر كما يعرفون الليل والنهار ، ولكن الحسد وطلب الدنيا حملهم على الجحود والإنكار . وفي الحديث رقم ٦٣٨/ ٤ أن في الجفر الذي يذكرونه ما يسوءهم ، لأنهم لايقولون الحق ، والحق فيه ، فليخرجوا قضايا عليٍّ وفرائضه إن كانوا صادقين ، وسلوهم عن الخالات والعمات ، وليخرجوا مصحف فاطمة عليها السلام ، فإن فيه وصية فاطمة عليها السلام ومعه سلاح رسول الله ﷺ : إن الله عز وجل يقول ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف :٤] (ايتوني) .

وفي الحديث رقم ٦٣٩/ ٥ أن عندهم الجامعة ، وهي صحيفة طولها سبعون ذراعاً في عرض الأديم ، مثل فخذ الفالج ، فيها كل ما يحتاج الناس إليه ، وليس من قضية إلا وهي فيها حتى أرش الخدش . وجاء في الحديث رقم ٦٤٠/ ٦ : إن عندنا كتاباً أملاه رسول الله ﷺ ، وكتبه عليٌّ عليه السلام ، صحيفة فيها كل حلال وحرام (١) .

وربما تعرضنا لذلك في وقت آخر .



س : سمعنا أن هناك كتباً منسوبة إلى الإمام علي رضي الله عنه ، يعرف فيها ما يحدث في العالم إلى يوم القيامة - فهل هذا صحيح؟

ج : من المعلوم أن الله سبحانه لا يُطلع على غيبة أحداً إلا من ارتضاه ، كما قال تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ

١- هذا الكلام منقول من صحف مصورة من كتاب الكافي مع الترجمة الإنجليزية ، طبع المؤسسة العالمية للخدمات الإسلامية -طهران إيران في ١٨/ ٦/ ١٩٨١م ص ٤٠ بعنوان : باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام ، الجزء الأول : الأصول القسم الثاني (٤) كتاب الحجة (٣) المؤسسة العالمية للخدمات الإسلامية .

﴿بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن :٢٦ ، ٢٧] ومن المعلوم أيضاً أن المغالاة في كل شيء مذمومة وأن الشيعة الذين يحبون آل البيت تغالوا في ذلك حتى وضع بعضهم عليًّا رضي الله عنه في منزلة ادعى بعضهم فيها أنه إله ، والبعض الآخر أنه نبي ، وكل ذلك تحدثت عنه كتب التوحيد .

وبخصوص علم سيدنا على كرم الله وجهه بالغيب سبق أن تحدَّثنا في هذه الفتاوى عن مصحف فاطمة رضي الله عنها وعن الجفر والجامعة المنسوبين للإمام علي رضي الله عنه . وإضافة إلى ذلك قرأت في مجلة الإسلام في سنتها الثالثة وفي العدد الثامن ما يأتي : قال السيد الشريف في شرح المواقف : الجفر والجامعة كتابان لعلي رضي الله عنه . وقد ذكر فيهما -على طريقة علم الحروف- الحوادث التي تحدث إلى انقراض العالم ، وكان الأئمة المعروفون من أولاده رضي الله عنه يعرفونها ويحكمون بها .

وفي كتاب قبول العهد الذي كتبه علي بن موسى -رضي الله عنهما- إلى المأمون: إنك قد عرفت من حقوقنا ما لم يعرفه آباؤنا ، فقبلت منك العهد ، لأن الجفر والجامعة يدلان على أنه لا يتم ، ولمشايخ المغاربة نصيب من علم الحروف ينتسبون فيه إلى أهل البيت ، ورأيت أنا بالشام نظماً أشير فيه بالرموز إلى أحوال ملوك مصر ، وسمعت أنه مستخرج من ذينك الكتابين .

هذا كلام السيد . قالوا : فعلم من هذا أن عليًّا كرم الله وجهه كان عالماً بالحوادث المستقبلة التي تحدث إلى انقراض العالم ، إذ كتابة هذه الحوادث في معنى القول بها . ولا شك في أن علمه بذلك لم يكن اطلاعيًّا ولا استدلاليًّا . فتعين أن يكون بطريق التعليم الإلهي اللدني ، أو بتعليم النبي ﷺ إياه بطريق الإفاضة الروحانية . قال حجة الإسلام الغزالي في الرسالة اللدنية : قال علي رضي الله عنه . أدخل رسول الله ﷺ لسانه في فمي فانفتح في قلبي ألف باب من العلم ، مع كل باب ألف باب .

هذا ، وقد أنكر ابن تيمية نسبة ذلك إلى علي فقال : ومن الناس من ينسب إليه الكلام في الحوادث كالجفر وغيره ، وآخرون ينسبون إليه أموراً أخر يعلم الله تعالى أن عليا كرم الله وجهه منها بريء ويؤيد كلام ابن تيمية ما رواه البخاري أن عامة ما يروى عن علي كذب .



القرآن الكريم

س : نريد شرح الحديث الشريف الذي يقول « خيركم من تعلَّم القرآن وعلمه »؟

ج : هذا الحديث رواه البخاري ومسلم ، وتوضيح معناه يقتضينا أن نتحدث عن معنى الخيرية ، وعن السبب الذي من أجله كان تعلم القرآن وتعليمه بهذه المنزلة العالية ، وعن الآثار الواردة في فضل التعلم والتعليم ، وعن واجبنا نحو القرآن الكريم .

فمعنى « خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه » أفضلكم من انتسب إلى القرآن عن هذه الصلة ، وهل هو أفضل الناس على الإطلاق ، أو أفضل جماعة معينة منهم ؟ لقد ورد مثلاً قوله ﷺ « خيركم خيركم لأهله »[1] فهل الرجل الذي هو خير لأهله أفضل الناس جميعاً ؟ توفيقاً بين التعبيرات الواردة في بيان الأفضلية قال العلماء : إن الأفضلية هنا نسبية ، أو بالإضافة إلى جماعة معينة من الناس . فأفضل المشتغلين بالعلم هم المشتغلون بالقرآن ، وأفضل المتعاملين مع الناس بالخير هم المتعاملون بالخير مع أهلهم . فكلٌّ في بابه أفضل وبالنسبة لجماعته ونوعه أشرف .

ولماذا كانت أشرف مهمة علمية هي ما كانت متصلة بالقرآن الكريم ؟ الجواب أن القرآن كلام الله ، وكل ما كان متصلاً بالله كان أشرف شيء في الوجود ، وأن القرآن دستور الحياة المثالية دنيا وأخرى وكل ما كان كذلك كانت الصلة به أشرف ، والانتساب إليه أكرم . وكلام الله عند تلاوتنا له وتفقهنا فيه يزيدنا إيماناً بالله وإدراكاً لعظمته . ودستور الحياة السعيدة كلما تعمقنا في حفظه ودراسته قويت الرغبة في احترامه والعمل على الإفادة من هدايته . والمعرفة عن طريق القرآن

---

١ - رواه الترمذي والنسائي والحاكم .

معرفة صادقة ، والتطبيق على أساسها مضمون النتيجة ، قال تعالى ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه :١٢٣] وقال ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم :١] .

وتعليمنا للقرآن نشر لهدايته ، وتوعية للناس بدستورهم ، وأساس لمعرفة حقوقهم وواجباتهم ، والمعرفة هـي طريق العمل ، والثقافة داعية النهوض بالمجتمع . والقرآن بالذات جماع الثقافات الصحيحة والمعرفة الصادقة ، ودعوته دعوة للحضارة الأصيلة الشاملة ، فهو ليس كتاباً روحانيًّا محضاً يرتل للعبادة فحسب ، بل هو نظام حياة كاملة في جميع قطاعاتها المادية والروحية ، إنه يدعو إلى العلم والعمل والتطور والنهوض ، ويربى جيلاً قوى العقيدة ، مستقيم الفكر ، صافي النفس ، متين الخلق ، جديراً بحياة كلها قوة ورخاء وازدهار .

ولأهمية القرآن وضرورته للحياة السعيدة جاءت النصوص الكثيرة مرغِّبة في الإقبال عليه ، محذرة من التجافي عنه . ففي مجال تعلمه وقراءته وتدبره ودراسته والتفقـه فيـه جـاء قـول النبـي ﷺ «إن هذا القرآن مأدبـة الله فاقبلوا من مأدبتـه ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله المتين ، والنور المبين ، والشفاء الناجع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لايزيغ فيستعتب ، ولايعوج فيقوَّم ، ولاتنقضي عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد . اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته ، كل حرف عشر حسنات . أما إني لا أقول : الـم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف ، وميم حرف» رواه الحاكم بسند صحيح عن عبدالله بن مسعود .

وقال عقبة بن عامر : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في الصفة ، فقال «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق ، فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطع رحم»؟ فقلنا : يا رسول الله كلنا يحب ذلك . قال «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو فيقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل ، خير له من ناقتين ، وثلاث خير من ثلاث ، وأربع خير من أربع وأعدادهن من الإبل» [1] . وفي الحديث

١- رواه مسلم .

الشريف « يا أباذر لأن تغدو فتتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلِّي مائة ركعة » [1] . وفيه أيضاً « ومن سلك طريقاً يبتغي به علماً سهَّل الله به طريقاً إلى الجنة» [2] «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » [3] .

وفي جانب تعليم القرآن ونشر هدايته جاءت نصوص كثيرة مرغِّبة فيه ، منها قوله ﷺ « بلِّغوا عني ولو آية » [4] . وهو نفسه كان معلماً ومرشداً كبقية الأنبياء والمرسلين . وكفى بذلك شرفاً . قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب :٤٥ ، ٤٦] وجاء في حديث أبي ذر « ولأن تغدو فتعلِّم باباً من العلم ، عمل به أو لم يعمل ، خير من أن تصلي ألف ركعة » [5] وجاء في الاجتماع على طلب العلم وتعليمه « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » [6] . وجاء في معلم الناس الخير بوجه عام قوله ﷺ « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص من أجورهم شيئاً » [7] .

وبعد ، فإننا نهيب بالمسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها أن يعنوا بالقرآن الكريم تلاوة وحفظاً وتدبراً ودراسة وتطبيقاً وتنفيذاً ، فبالقرآن تستقيم الألسنة باللغة ، وتقوى العقيدة بالإيمان ، وتتسع المدارك بالثقافة ، وتزكو النفوس بالأخلاق ، ويقوى المجتمع بالعمل ، وتنهض الأمة بالنظام .

عليهم أن يعنوا بالقرآن الكريم ليسدوا منافذ العدو إلى العقائد والأخلاق ، ولتبطل محاولات الاستعمار في الاعتداء على الأوطان ، ولينهض المجتمع بما يدعو إليه من عمل على أساس العلم والإيمان .

١- رواه ابن ماجه بإسناد حسن .
٢- رواه مسلم .
٣- رواه الترمذي وصححه .
٤- رواه البخاري .
٥- رواه ابن ماجه وحسنه .
٦- رواه مسلم.
٧- رواه مسلم.

لقد عنى به السلف الصالح فعزوا ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . اقرءوا القرآن فإنه يأتي شفيعاً لأصحابه يوم القيامة ، ويقال لقارئ القرآن : اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها ، علموه أولادكم حتى يلبسكم الله تاجاً من نور يوم القيامة ، كما وردت بذلك الأحاديث ولا تتخذوه مهجوراً ، بل طبقوا مبادئه تسعدوا في دنياكم وأخراكم ، قال تعالى ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة : ١٥ ، ١٦].



س : ما هو الفرق بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي ؟

ج : الكلام المنسوب إلى الله تعالى والذي بَلَّغه لنا النبي ﷺ نوعان : نوع متلو وهو القرآن الكريم ، ونوع غير متلو وهو الحديث القدسي .

ويمتاز القرآن بأمور منها :

١- أنه نزل على النبي ﷺ بطريق الوحي الذي حمله جبريل عليه السلام كما قال تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء : ١٩٣-١٩٥] ولم ينزل بطريق آخر كالإلهام والمنام .

٢- أن لفظه ومعناه من الله تعالى باتفاق فلا تجوز قراءته بالمعنى .

٣- أنه معجز لا يمكن لأحد أن يأتي بمثله أو بأقصر سورة منه .

٤- أنه معجزة باقية إلى يوم القيامة محفوظ من التغيير والتبديل .

٥- أنه نقل إلينا بالتواتر فهو قطعي الثبوت . يكفر من أنكر شيئاً منه .

٦- تسمى الجملة منه آية وسورة .

٧- تلاوته متعينة في الصلاة لاتصح بدونه ولا يغني عنه غيره عند القدرة عليه .

٨- يتعبد بتلاوته فيعطى على كل حرف عشر حسنات .

٩- تحرم تلاوته حال الجنابة ، كما يحرم مسه وحمله بدون طهارة على رأي الجمهور .

١٠ - يمتنع بيعه عند الإمام أحمد في روايته عنه .

أما الحديث القدسي فقد ينزل بغير الوحي الذي يحمله جبريل ، وفي كون لفظه ومعناه من الله خلاف ، وهو ليس بمعجز ، ولا يحفظ من التغيير والتبديل . وبعضه أو كله - كما قال بعض العلماء - نقل إلينا بطريق الآحاد ، لا يكفر من أنكر شيئاً منه ، ولايسمى بعضه آية أو سورة ، وتلاوته لا تجزئ عن القرآن في الصلاة ، بل تبطل عند بعض الأئمة . ولا يثاب قارئه ثواب قراءة القرآن ، ولا تحرم تلاوته أو مَسُّه أو حمله بدون طهارة ، ويجوز بيعه باتفاق .

ولا يجوز أن يطلق عليه قرآن ولا أن ينسب إلى الله مباشرة فلروايته صيغتان :

إحداهما : قال رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه ، وهي عبارة السلف التي فضلها النووي .

ثانيهما : قال الله تعالى فيما رواه عنه رسول الله ﷺ . والمعنى واحد .

أما الحديث النبوي فإن لفظه من عند النبي ﷺ ، ومعناه من الله سبحانه على الخلاف في تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ﴾ [النجم : ٣-٥] وعلى حديث ((ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه))[١] . وهو كالحديث القدسي فيما له من أحكام[٢] .



س : كيف ينزل القرآن في رمضان وفي ليلة القدر ، مع أنه نزل على فترات طوال حياة النبي ﷺ ؟

ج : للعلماء في كيفية نزول القرآن الكريم من اللوح المحفوظ أقوال :

١- رواه أبو داود .

٢- هذه هي أهم الفروق ، ملخصة من كتاب الإتحافات السنية في الأحاديث القدسية للمناوي و((الأحاديث القدسية ج ١ و ج٢)) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

١- أنه نزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ، ثم نزل بعد ذلك منجماً طوال حياة النبي ﷺ بعد بعثته في مكة والمدينة ، وقال الكثيرون إن هذا القول هو أصح الأقوال ، واستندوا في ذلك إلى ما ورد بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما ، فقد أخرج عنه الحاكم والبيهقي وغيرهما أنه قال : أنزل القرآن في ليلة القدر جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه في إثر بعض . وأخرجا عنه أيضاً وكذلك النسائي أنه قال: أنزل القرآن في ليلة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة ، ثم قرأ : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان : ٣٣] ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء : ١٠٦] .

وأخرج الحاكم وابن أبي شيبة عنه أيضاً : قال فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا ، فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ .

كما جاءت روايات أخرى عن ابن عباس بأسانيد لا بأس بها تؤكد هذا المعنى ومعنى : « مواقع النجوم » أنه نزل على مثل مساقطها ، مفرقاً يتلو بعضه بعضاً على تؤدة ورفق .

٢- أنه نزل إلى السماء الدنيا في عشرين ليلة قدر ، أو ثلاثة وعشرين أو خمس وعشرين - حسب الاختلاف في مدة مكث النبي ﷺ بمكة بعد البعثة - في كل ليلة قدر ينزل ما يقدر الله إنزاله في كل سنة ، ثم نزل بعد ذلك منجماً في جميع السنة ، وقد حكى الفخر الرازي هذا القول ، وتوقف في الأخذ به ، هل هو أولى أو القول الأول .

٣- أنه ابتدئ نزوله في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك منجما في أوقات مختلفة . وهذا القول مروي عن الشعبي .

٤- حكى الماوردي قولاً مؤداه : أنه أنزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة ، وأن الحفظة نجمته على جبريل في عشرين ليلة ، وأن جبريل نجمه على النبي ﷺ في

عشرين سنة . وهذا القول غريب ، والمعتمد أن جبريل كان يعارضه في رمضان بما ينزل به عليه طول السنة ، وهو مروي عن ابن عباس .

هذه جملة من الأقوال صحح ابن حجر في « فتح الباري » أولها وقال : إنه المعتمد ، ثم قال ابن حجر : أخرج أحمد والبيهقي في الشعب عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال : « أنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت منه ، والزبور لثمان عشرة خلت منه ، والقرآن لأربع وعشرين خلت منه » وفي رواية « وصحف إبراهيم لأول ليلة » قال : وهذا الحديث مطابق لقوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ فيحتمل أن تكون ليلة القدر في تلك السنة كانت تلك الليلة ، فأنزل فيها جملة إلى سماء الدنيا : ثم أنزل في اليوم الرابع والعشرين إلى الأرض أول : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ .

بعد سرد هذه الأقوال التي روى أكثرها عن ابن عباس يمكن فهم الآيات التي تتحدث عن نزول القرآن أو عن تنزيله ، ويهمنا من كل ذلك أن نقبل على القرآن حفظاً وتدبراً ، ثم عملاً وتطبيقاً . وأن يظل متوارثاً بيننا يأخذه جيل عن جيل تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .



س : ما هي أول وآخر آية نزلت من القرآن الكريم ؟

ج : لا شك أن معرفة تاريخ نزول السور والآيات لها فائدتها العظيمة في التشريع ، من أهمها معرفة الناسخ والمنسوخ ، حينما يكون هناك نصان مختلفان في الحكم ، ولا يمكن التوفيق بينهما بمثل التقييد والتخصيص ، وكذلك معرفة تدرج التشريع ، وبيان اهتمام المسلمين بالقرآن والبحث عن تواريخ نزول الآيات والسور .

وأصح ما قيل في أول ما نزل من القرآن أنه صدر سورة ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ في غار حراء كما رواه البخاري ومسلم عن عائشة في حديث أول ما بدئ به الرسول من الوحي . وقيل : إن أول ما نزل إطلاقاً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ وذلك لحديث

رواه البخاري ومسلم أيضاً عن جابر بن عبدالله ، ولكن ردَّ عليه بأن ذلك أول ما نزل بعد فترة الوحي . للنص عليه في رواية أخرى التي جاء فيها «فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فرجعت إلى بيتي وقلت زمّلوني ، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ وقيل : إن أول ما نزل هو سورة الفاتحة ، بناء على حديث رواه البيهقي . وردَّ بأنه حديث مرسل سقط منه الصحابي فلا يقوى على معارضة حديث عائشة السابق وقيل : إن أول ما نزل هو البسملة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بناء على حديث أخرجه الواحدي عن عكرمة والحسن ، ورُدَّ بأنه حديث مرسل كسابقه ، فهذه أربعة أقوال أصحها وأقواها الأول أما آخر ما نزل من القرآن ففيه عشرة أقوال :

١- قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٨١] بناء على حديث رواه النسائي عن ابن عباس ، حيث عاش النبي ﷺ بعد نزولها تسع ليال ثم توفى لليلتين خلتا من ربيع الأول .

٢- قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٧٨] بناء على رواية للبخاري عن ابن عباس .

٣- قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

وجمع السيوطي بين هذه الأقوال بأن الظاهر نزولها دفعة واحدة كترتيبها في المصحف ، لأنها في قصة واحدة . لكن الرأي الأول أقوى لما في الآية من إشارة إلى ختام الدين ووجوب الاستعداد ليوم القيامة ، وللنص في الحديث على وفاة النبي ﷺ بعد نزولها بتسع ليال فقط .

٤- قوله تعالى ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عمران : ١٩٥] والدليل حديث أخرجه ابن مردويه عن أم سلمة أنها قالت للرسول ﷺ أرى الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء فنزلت ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ

بَعۡضٖ ﴾ [النساء : ٣٢] ونزلت ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ ﴾ [الأحزاب : ٣٥] ونزلت آية ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ ﴾ فهي آخر ما نزل من الآيات الثلاث ، وليست آخر ما نزل من القرآن .

٥- قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ [النساء : ٩٣] والدليل ما أخرجه البخاري وغيره عن ابن عباس حيث قال : هي آخر ما نزل ولم ينسخها شيء ، ويجاب على ذلك بأنها آخر ما نزل في حكم قتل المؤمن عمداً ، وليست آخر ما نزل من القرآن .

٦- قوله تعالى : ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ ﴾ [النساء : ١٧٦] والدليل ما رواه البخاري ومسلم عن البراء بن عازب ، ورد بأنها آخر ما نزل في المواريث ، كما قال عن سورة براءة بأنها آخر ما نزلت ، فيحمل القول على أن ذلك بالنسبة لتشريع الجهاد والقتال ، فالآخرية نسبية إضافية لا حقيقية مطلقة .

٧- سورة المائدة ، بناء على رواية الترمذي والحاكم عن عائشة ، وردَّ بأنها آخر سورة نزلت في الحلال والحرام فلم تنسخ فيها أحكام ، فالآخرية مقيدة بذلك وليست مطلقة .

٨- قوله تعالى : ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ ﴾ [التوبة : ١٢٨] بناء على ما رواه الحاكم وابن مردويه عن أُبي بن كعب ، ويرد عليه بأن الآخرية معناها أنها آخر آية نزلت من سورة براءة ويؤيده ما قيل : إن هذه الآية وما بعدها نزلت بمكة مع أن السورة مدنية ، فالسورة تحدثت عن الجهاد ، والآيتان ليس فيهما أمر به ، لأن الجهاد لم يفرض بمكة .

٩- آخر سورة الكهف ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾ [الكهف :١١٠] بناء على ما أخرجه ابن جرير عن معاوية بن أبي سفيان ، ويرد عليه بأن الآخرية بحسب عدم نزول ما ينسخها بعدها .

١٠- ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ [النصر :١] لما رواه مسلم عن ابن عباس ، وردَّ بأنها آخر ما نزل مشعراً بوفاة النبي ﷺ ويؤيده ما روى عن أنه قال حين نزلت «نُعيتْ إليَّ نفسي» وفهم ذلك بعض كبار الصحابة ، فقد ورد أن عمر بكى عند سماعها وقال : الكمال دليل الزوال .

ويحتمل أنها آخر ما نزل من السور فقط كما تدل عليه رواية ابن عباس [١] .



س : قد أخبر الله تعالى أن أهل الكتاب حرفوا الكتب المنزلة على الأنبياء ، بل إن بعضهم استبدل بها كتباً وضعوها ، وبحمد الله مرت قرون طويلة على نزول القرآن الكريم ، وحاول الأعداء أن يحرفوه فعجزوا ، فما هو السر في ذلك ؟

ج : جاء في شرح الزرقاني على المواهب اللدنية [٢] ، أن حفظ القرآن من التبديل والتحريف كان بسبب أن الله هو الذي تولى حفظه وصيانته ، أما الكتب الأخرى فحرفت وبدلت لأن مسئولية حفظها كانت على أهلها فقصروا ، قال تعالى عن القرآن الكريم : ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر :٩] وقال : ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت :٤٢] وقال عن الكتب السابقة ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة :٤٤] .

وذكر الزرقاني أيضاً ما رواه البيهقي عن يحيى بن أكثم أن يهوديًا دخل على المأمون فأحْسَنَ الكلام ، فدعاه إلى الإسلام فأبى ، ثم بعد سنة جاء مسلماً فتكلم على الفقه فأحسن الكلام ، فسأله المأمون ما سبب إسلامه فقال : انصرفت من عندك فامتحنت هذه الأديان فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ ، فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها البيعة فاشتريت مني ، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ ، فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها البيعة فاشتريت مني ، وعمدت إلى القرآن فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها فوجدوا

١- هذا ما لخصته من الإتقان في علوم القرآن للسيوطي . ومن مناهل العرفان للزرقاني ، ومن أراد الزيادة فليرجع إليهما .

٢- ج٥ ص ٢٥٢ .

فيها الزيادة والنقصان ، فرموا بها فلم يشتروها ، فعلمت أن هذا الكتاب محفوظ ، فكان هذا سبب إسلامي . قال يحيى : فحججت تلك السنة فلقيت سفيان بن عيينة فذكرت له هذا فقال : مصداقه في الكتاب ، قلت في أي موضع ؟ قال : في قوله تعالى في التوراة والإنجيل : ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة :٤٤] فجعل حفظه إليهم وقال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر :٩] فحفظه الله علينا فلم يضع.



س : ما معنى خَلْق القرآن ؟

ج : ظهرت فتنة خلق القرآن في زمن الدولة العباسية ، فكان هناك معسكران ، أحدهما : لأصحاب الكلام من المعتزلة الذين يقولون بخلق القرآن ويكفِّرون من لايقول به ، لأنهم ينكرون صفة الكلام لله ، ويقولون : إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد الكلام خلقه في شجرة أو نحوها ، بل إنهم ينكرون صفات المعاني لله ، كما تقرر ذلك في علم التوحيد ، لأنه ينبني عليها تعدد القدماء في رأيهم ، والقول بذلك كفر ، ولهم مذهب معروف يرجع في جملته إلى قاعدتين هما : العدل ، التي من فروعها مسألة الحسن والقبح وخلق الأفعال . والتوحيد ، التي من فروعها إنكار صفات الله ، ويتفرع عنها القول بخلق القرآن .

والمعسكر الثاني : لأصحاب الحديث الذين تشددوا فكفَّروا من قال بخلق القرآن ، لأنه كلام الله ، وكلام الله غير مخلوق لأنه صفته ، وصفات الله قديمة ، وكان الإمام أحمد بن حنبل يمثّل هذا الاتجاه ، وأوذي إيذاء شديداً .

يقول الباحثون : جاء بعد ذلك من وفَّق بين المعسكرين ، وفرق بين الكلام النفسي والكلام اللفظي ، وعلى رأسهم أبو الحسن الأشعرب ثم الغزالي وغيرهما[1].



١- ويمكن الرجوع إلى كتب التوحيد ، وإلى مقال الشيخ محمود النواوي في مجلة الأزهر (المجلد ٢٥ ص ٣٢٣) ، وإلى كتاب ((حياة الحيوان الكبرى)) للدميري في كلامه عن الدولة العباسية .

س : لما أنزل القرآن مجزّأ على رسول الله ﷺ ولم ينزل جملة واحدة ؟

ج : نزل القرآن على الرسول ﷺ منجماً أي مجزأ أو مفرقاً على مدى ثلاث وعشرين سنة لحكمة جاءت في قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان :٣٢] وفي قوله ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء :١٠٦] .

فالحكمة في نزوله منجماً هي تثبيت قلب النبي ﷺ على المضي في تبليغ الدعوة وعدم اليأس من تأييد الله له ونصره عندما يواجهه المشركون بأنواع العنف . وفي كل وقت كان يتعرض لمثل هذه الأزمة فيفرج الله عنه بجرعة من القرآن الكريم ، فيها التأسي بأولي العزم من الرسل والوعد بالمثوبة والنصر المؤزر ، وكذلك لقاؤه مع جبريل يعطيه قوة وطمأنينة .

ومن الحكمة تيسير حفظ القرآن على الرسول والمؤمنين ، لأنهم أميون لايقرءون ولا يكتبون ، وكل اعتمادهم أو أكثره على الحفظ والرواية ، فإذا نزل على فترات كان ذلك أيسر عليهم في حفظه واستيعابه ، وفي تدبره أيضاً .

وفي تفريقه إعطاء فرصة للكفار أن يتدبروا كل جملة تنزل من آياته ، لعلهم يؤمنون بأنه معجزة ، ومن عند الله وحده . فكل مجموعة تنزل بمثابة دليل جديد على صدق الرسالة .

ومن الحكم ملاحقة الأحداث الجارية والإجابة على الأسئلة المتنوعة والطارئة .

وكذلك من الحكم التدرج في التشريع والتربية ، صح في البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : إنما أنزل أول ما أنزل من القرآن سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول ما نزل (لا تشربوا الخمر) لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل (لاتزنوا) لقالوا : لا ندع الزنا أبداً .



س : نحن نعلم أن القرآن الكريم أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ بوساطة الأمين جبريل ، وقد قرأنا أن بعض السور أو الآيات لم ينزل عن طريقه ، فهل هذا صحيح؟

ج : صحيح أن القرآن نزل به جبريل على النبي ﷺ كما قال سبحانه ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء :١٩٢-١٩٤] لكن روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم تنزل قط إلا اليوم ، فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته» .

يقول القرطبي في تفسيره [1] : قال ابن عطية :ظن بعض العلماء أن جبريل لم ينزل بسورة الحمد - وساق الحديث المذكور - وليس كما ظن ، فإن هذا الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام تقدم الملك إلى النبي ﷺ مُعْلِماً به وبما ينزل معه ، وعلى هذا يكون جبريل شارك في نزولها .

قال القرطبي : قلت : الظاهر من الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام لم يعلم النبي بشيء من ذلك ، وقد بينا أن نزولها كان بمكة ، نزل بها جبريل عليه السلام لقوله تعالى ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ وهذا يقتضي جميع القرآن ، فيكون جبريل نزل بتلاوتها بمكة ، ونزل الملك بثوابها بالمدينة ، والله أعلم وقد قيل : إنها مكية مدنية ، نزل بها جبريل مرتين ، حكاه الثعلبي ، وما ذكرناه أولى ، فإنه جمع بين القرآن والسنة ، ولله الحمد والمنة .



١- ج١ ص١١٦.

س : ما أوجه الإعجاز في القرآن الكريم ؟

ج : أوجه الإعجاز في القرآن كثيرة ، وقد ألفت فيها كتب قديمة وحديثة ، وأشار إليها السيوطي في (الإتقان) وابن القيم في (الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن) والبيضاوي في (إعجاز القرآن) وأخيراً الرافعي في كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) .

وأحسن الأوجه بأن الإعجاز في بلاغته التي تحدى بها العرب والإنس والجن ، ودائماً تكون المعجزة من جنس ما برع فيه القوم ، كعصا موسى بالنسبة للسحر ، وزعم النَّظَّام من المعتزلة أن الإعجاز هو صرف الناس وعجزهم بقدرة الله عن محاكاته ، ورد عليه كثيرون ومنهم الجاحظ المعتزلي في كتابه (نظم القرآن) وأبوالحسن علي بن عيسى الرماني المعتزلي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ أو ٣٨٦ هـ ، في كتابه (النُّـكت في إعجاز القرآن) ومنهم أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي المتوفى سنة ٣٨٨هـ في كتابه (البيان في إعجاز القرآن) والباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣هـ في كتابه (إعجاز القرآن) كما رد عليه السيوطي في كتابه (الإتقان) .

ومن وجوه الإعجاز - لأنه كتاب ليس للعرب فقط ولا لعصر النبوة بل للعالم ولجميع العصور - إخباره بالغيب عن الأمور المستقبلة بوجه خاص ، وإن كان أخبر عن الماضين دون الرجوع إلى كتب كما قال الله تعالى عن نوح وقومه :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود :٤٩] .

ومن الغيوب المستقبلة ماتدل عليه الآيات :

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة :٢١] .

﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [الفتح :٢٧] .

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [الروم :٢-٤] .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [النور :٥٥] .

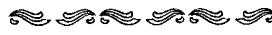
ومن وجوه الإعجاز احتواؤه على علوم لم تكن معروفة للبشر ثم عرفت بعد .

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت :٥٣] .

وألفت في ذلك كتب حديثة مثل (رسالة عن مقارنة بعض العلل بالوارد في النصوص الشرعية) لعبد الله فكري باشا ، و (دروس سنن الكائنات) للدكتور محمد توفيق صدقي و (الجواهر) للشيخ طنطاوي جوهري و (الإعجاز العلمي للقرآن) للدكتور محمد الغمراوي و (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم) للكاتب الفرنسي المسلم (موريس بوكاي) و (الإسلام يتحدى) لوحيد الدين خان .

ومن وجوه الإعجاز : التشريع الحكيم الذي عنى ببيانه الشيخ محمد أبو زهرة والمستشار على منصور وغيرهما .

هذه نبذة بسيطة ، والكتب كثيرة لمن أراد المزيد .



س : هل العلوم التي اكتشفت حديثاً توجد في القرآن ، وهل هناك حاجة إلى تفسير القرآن تفسيراً علميًّا على ضوء الاكتشافات الحديثة؟

ج : إن مهمة القرآن هي الإعجاز والهداية ، وأن ما فيه من حقائق علمية تدعو إلى النظر والتأمل ، وزيادة في الإيضاح وإجابة على السؤال نقول :

هذه القضية ثار حولها الجدل والنقاش ، وانقسم الناس فيها فريقين :

أ - فريق يقول : نعم في القرآن توجد العلوم والمكتشفات الحديثة . ونحن في حاجة إلى تفسير علمي ، بمعنى استخلاص هذه المحدثات من ألفاظ القرآن ، وحمل الألفاظ عليها . واستند هذا الفريق في رأيه إلى ما يأتي :

١ - أن الله تعالى قال : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام :٣٨] .

أي ليس في الحياة شيء إلا وهو موجود في القرآن . فذكرت فيه الميكروبات والكهرباء والذرة والصواريخ والطائرات وغيرها .

ونوقش هذا الدليل بأن المراد بالكتاب هو اللوح المحفوظ الذي أثبت الله فيه مقادير الخلق ، ما كان منها وما يكون ، حسب النظام المعبَّر عنـه بالسنن الإلهيـة . أو هو علم الله المحيط بكل شيء الثابت فيه كل معلوم ، وإذا أريد بالكتاب القرآن فليس لفظ الشيء على عمومه ، بل المراد به الشيء الذي هو موضوع الدين ، وهو الهداية التي من أجلها نزل القرآن ، فالعموم في كل شيء بحسبه .

٢- كما استند إلى أن نشر الإسلام في هذه الأيام يحتاج إلى التحدث عنه بأسلوب العصر وطرائق فهمه ، لبيان تجاوب الدين والقرآن مع الحياة في كل أطوارها.

ونوقش بأن نشر الإسلام لا يتوقف على ذلك ، فأصول الهداية فيه ، والنصوص الدالة على النظر والبحث وتقديس العقل كافية في بيان تجاوبه مع أرقى الحضارات وأزهى العصور .

وبهذا نرى أن حجة هذا الفريق واهية أو فيها مناقشة تضعف الاستدلال بها على المقصود .

ب - والفريق الآخر يقول ليس القرآن كتاب تعليم وتسجيل لمكتشفات العصور بأشخاصها ، ولايحتاج إلى أن نحمل ألفاظه على أسلوب العصر ونضمنها نظرياته وعلومه . وحجتهم في ذلك :

١- عدم حاجة الشريعة في فهم كتابها وتعرف مبادئها ، إلى العلوم الكونية والرياضيات وما إليها . وحمل ألفاظ القرآن عليها فيه تعسف وتحميل لها لما لاتطيق .

٢- أن القرآن موجَّه أولاً إلى من نزل فيهم وهم العرب ، وليس لهم عهد بهذه العلوم التي لم تعرفها الدنيا إلا بعد قرون ، فإذا قصد القرآن إليها وآياته لاتفهم إلا بالوقوف عليها ، كان كلاماً غير مطابق لمتقضى الحال ، وحاشاه أن يكون كذلك ، فوجب أن نقف بعباراته عند فهم العرب الخلص ، ولانتجاوز ما ألفوه من علومهم ، يقول الشاطبي [1] : ما تقرر من أُمية

١- الموافقات ج ١ ص ٥٢ .

الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها وهم العرب ينبني عليه قواعد ، منها: أن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد ، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين ، من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها. وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لـم يصح ، ولهذا فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وعلومه وما أودع فيه ، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى سوى ما تقدم من أحكام . . وما يلي ذلك . ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة ، إلا أن ذلك لم يكن ، فدل على أنه غير موجود عندهم ، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا .

٣- أن النظريات العلمية عرضة للتبديل والتغيير ، فإذا حملنا عليه ألفاظ القرآن كان فهم آياته عرضة للتغيير والتبديل مما يبعث على الشك ويؤدي إلى البلبلة والاضطراب .

وقد يناقش الدليل الأول بأن عدم احتياج فهم الشريعة وتبليغها إلى العلوم لاينافي أنها موجودة في القرآن ، ويكون الغرض منها الشرح والبيان والإيضاح ، ويناقش الدليل الثاني بأن القرآن ليس للعرب فقط ولا لعصرهم السابق ، بل هو لكل الناس ولجميع العصور ، فلا مانع أن يكون فيه من المعلومات ما لا يعرفه العصر الأول ، وسيعرف فيما بعد ، ولعل مما يشير إلى ذلك قوله تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت :٥٣] وعموم رسالة الإسلام لا يجوز معها قصر فهم القرآن على المألوف عند العرب ، فليكن فيه قدر يتضح سره بما ينكشف بعد من علوم كونية ونفسية ، وذلك لزيادة الإيضاح لأصل الدليل على صدقه فهو صادق بإعجازه وكفى بالله شهيداً على ذلك ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت :٥٣] .

ويناقش الدليل الثالث ، بأن حمل الألفاظ القرآنية على النظريات التي لم تثبت بعدُ لا يجوز أبداً ، وإذا حملت فإنما يكون على الحقائق العلمية الثابتة ، ذلك لأن

كلام الله حق لا يفسَّر بغير الحق ، وهو ثابت لا يفسر بغير الثابت ، فاللائق هو توضيح الثابت بما ثبت وليس ذلك إلا في الحقائق العلمية المقررة وهذا كله بشريطة عدم التعسف في التأويل ، بل يترك لفظ القرآن على طبيعته القابلة لكل فهم دفعاً للعقل إلى التفكير والبحث .

٧- والرأي الذي أميل إليه يتخلص فيما يلي :

أ- أن القرآن فيه بعض الحقائق العلمية ، وقد ذكرت للعبرة والموعظة والتأمل ، لا على أنها معلومات للاعتقاد والتكليف والتعليم ، وقد عبر الله عنها بالألفاظ العربية والأسلوب المعجز . وما جاء فيه من المقررات العلمية حق لأنه كلام الله ، سواء عرفها الناس عند نزولها أم لم يعرفوها ، وعدم علمهم بها لا يغض من شأن القرآن ، فهو ميسر للذكر يستطيع كل إنسان أن يأخذ منه القدر الكافي لهدايته ، مهما كان مستواه العلمي .

ب- أن ألفاظ القرآن دقيقة محكمة لأنها صنع الله الذي أتقن كل شيء وأن هناك لوناً من ألوان إعجازه هو الحديث عن بعض المسائل العلمية التي لا عهد لمحمد ﷺ بالذات بعلمها ، ولا عهد للعرب الذين ووجهوا بالقرآن بها ، ثم ثبت بعد ذلك صدق هذه المسائل ، وذلك للدلالة على أن القرآن ليس من عند محمد ، بل هو من عند الله العليم الخبير . وبالتأمل في بعض هذه التعبيرات نجد أنها محايدة في الأمور التي يختلف الناس عليها ولم يصلوا بعد إلى معرفة أسرارها ، وذلك ليدع مجال الفكر مفتوحاً للباحثين ، ليصلوا إلى آخر شوط ممكن ، وكلما جد البحث بشخص نظر إلى الآية فرآها كأنها معه في كل خطواته تشجعه ولا تصرح على الأقل بكذبه أو إخفاقه ، فيغريه ذلك على متابعة البحث إرضاء لشهوة العقل وحب الاستطلاع . حتى إذا وصل إلى الحقيقة العلمية الثابتة وجد الآية معه أيضاً لم يصبها أي تغير في موقفها المحايد الذي لا ينحاز إلى باحث معين في أولى خطوات النظر وفي وسطها حتى

يبلغ النهاية . وهو بوصوله إلى الحقيقة سيزداد إيماناً بصدق القرآن وأنه حق من عند الله ، لا من عند محمد الذي لم يتعلم أساليب البحث ليصل إلى هذه النتيجة ، وإن لم يصل إلى الحقيقة العلمية بعد طول البحث لايجوز له أن يشك في القرآن ، بل الأجدر أن يتهم نفسه ويعيد النظر في أسلوب بحثه عل فيه حلقة مفقودة ، أو مقدمة لم تثبت لتستطيع أن تنتج نتيجة صادقة .

وحياد الألفاظ القرآنية في كثير من مواضعها هو الذي أوجد النشاط الفكري عند علماء الكلام في بعض المسائل الكلامية ، حيث تكون الآية الواحدة وكلٌّ يدعي أنها تشهد لرأيه ، وكذلك كان هذا الحياد سبباً في نشاط علماء الشريعة في استنباط الأحكام الفقهية .

ج - أن أسلوب القرآن مطابق لمقتضى الحال في خطابه للعلماء والعامة على السواء ، على خلاف الكلام العادي للناس ، فهو إما أن يخاطب به المستويات العالية باشتماله على الرمز والإشارة والكناية والاستعارة ، وإما أن يخاطب به العامة الذين لايفهمون إلا الواضح المبسط من الكلام ، ولو خوطبت إحدى الطائفتين بغير ما يليق بها لم يكن الكلام بليغاً ، أما القرآن الكريم فهو وحده الذي يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير ، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم ، فهو متعة الخاصة والعامة على السواء . كما قال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠] .

يقول الراغب الأصفهاني في مقدمة تفسيره : أخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجل صورة تشتمل على أدق دقيق ، لتفهم العامة من جلتها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة ؛ ويفهم الخواص من أثنائها ما يوفى على ما أدركه فهم الحكماء ، ومن هذا الوجه كل من كان حظه في العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر ، ولذلك إذا ذكر تعالى حجة إلى ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة بإضافتها إلى أولي العقل ، ومرة إلى أولي العلم ، ومرة إلى السامعين ، ومرة إلى المتذكرين تنبيهاً على أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها .

د- أننا في حاجة إلى من يفسر لنا القرآن على ضوء المقررات العلمية لتتضح معانيه. ويؤمن بها الذين لا يرضون بغير هذا الأسلوب بديلاً ، فبمقررات علم الحياة والأجنة يمكن توضيح قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون : ١٢-١٤] وبمقررات علم الطب يتضح لنا معنى الأذى في قوله تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ ﴾ [البقرة :٢٢٢] ويتضح سر التحريم لأكل الميتة والدم ولحم الخنزير والموقوذة والمتردية والنطيحة . الوارد في الآية الثالثة من سورة المائدة فكل ما يساعد على كشف أسرار التشريع من العلـوم لا بأس به ، بل كل ما يوصل إلى الإيمان بالله وإدراك شر الوجود لابأس به بل هو مطلوب .

وهذا كله على شريطة أن يكون التفسير بالمقررات الثابتة ، لا بالنظريات التـي ما زالت قيد البحث ومحل اختلاف العلماء . وعلى ألا يكون هناك تعسف في التأويل وتحميل الألفاظ معاني لم توضع لها ، كما سيتضح من عرض الأمثلة الآتية بعد .

٨- إن تفسير القرآن بالنظريات التي لم تثبت يعد تفسيراً بالرأي المحض ، وقصره على رأي بالذات افتراء للكذب على الله . وفي ذلك خطورة كبيرة ،لأنها تخضع آيات القرآن للآراء الخاصة ، الأمر الذي ضل به كثير من الفرق التي ظهرت في الإسلام ، ولأنها تمنع صلاحية الإسلام العامة أن تكون لكل البيئات والأجيال وأن تكون مناراً هادياً لكل المفكرين ، كما أنها تعرض القرآن للطعن فيه بالتكذيب إن جاء ما يثبت خطأ الرأي الأول الذي فسر به .

والإنسان إذا لم يكن متمكناً مما يقول ويرى لا ينبغي أن يحمل القرآن على جهله وسفهه ، فهو حرم مقدّس لا يقربه إلا العالمون الموقنون . قال إبراهيم التيمي :

سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير الفاكهة والأبُّ فقال : أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم . وقال أنس : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال : كل هذا قد عرفناه ، فما الأبُّ ؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال : هذا لعمرو الله التكلف ، وما عليك يا ابن أم عمر ألا تدري ما الأبُّ . ثم قال : اتبعوا ما بيِّن لكم من هذا الكتاب ، وما لافدعوه[1]. وذلك كله من وحي قوله ﷺ «اتقوا الحديث عليَّ إلا ما علمتم ، فمن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» [2]. قال ابن عطية : ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنى في كتاب الله عز وجل فيتسور عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء ، واقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول ، وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه ، والفقهاء معانيه ، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر ، فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلاً بمجرد رأيه [3] وعلى هذا من يفسر القرآن بنظرية غير ثابتة فهو يفسر برأيه على غير قوانين العلم والنظر ، بخلاف من يفسره بهذه القوانين الثابتة ، فهو يعمل عملاً مشروعاً يوضح ما في القرآن فقط لا يقصد به إثبات صدقه ، فكفى بالله شهيداً على صدقه .

٩- إن من قواعد المنهج السليم لتفسير القرآن أن تستقصي آياته في الموضوع الواحد فهي تفسر بعضه بعضاً ، وخير ما فسرته بالوارد ، فقد يكون العام أو المطلق أو المبهم في آية مخصصاً أو مقيداً أو مبيناً في آية أخرى ، وهكذا ، على أن يراعى السباق والسياق في فهم المراد من الآية . والخطأ الذي يقع فيه كثير من الباحثين الآن -وكثير منهم غير أهل للتفسير - أساسه عدم مراعاة هذا المنهج ، فهم يبترون الآية بتراً ويقطعونها عن سابقتها ولاحقتها ويفسرونها كما يريدون ، وهم لا ينظرون إلى مثل هذه الآية في موضع آخر من القرآن حتى

١- القرطبي ج ١٩ ص ٢٢٣ .

٢- رواه الترمذي عن ابن عباس.

٣- القرطبي ج١ ص ٣٢ .

يستعينوا بها على تفسيرها ، فلهذا يخطئون كثيراً فيما يزعمون . روى البخاري ومسلم أنه لـمّـا نزل قوله الله تعالـى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام :٨٢] قال بعض الصحابة : يا رسول الله وأينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ «ليس بذلك ، ألا تسمع إلى قول لقمان ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ . فالظلم الذي نزلت به هذه الآية عرف المراد منه بما نزل في الآية الأخرى ، وهو الشرك .

ومن مظاهر الخطأ في التفسير لعدم اتباع هذ المنهج أن بعض الباحثين -ولا أقول المفسرين- أراد أن يبرهن على أن الأرض تتحرك وتسير وليست ثابتة ، فأورد قوله تعالى : ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل :٨٨] فمرور الجبال كالسحاب دليل على أن الأرض تتحرك ، هكذا يقول . وقد نسي أن الآيات التي اكتنفت هذه الآية تتحدث عن النفخ في الصور وعن محاسبة الناس على حسناتهم وسيئاتهم ، فالجو كله في يوم القيامة سباقاً وسياقاً . وليس ذلك في علم الدنيا . ونسي أيضاً أن الحديث عن ظاهرة مرور الجبال يوم القيامة ورد في آيات أخرى من سور القرآن قال تعالى : ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الطور : ٩-١١] وقال ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ [التكوير : ١-٣] والمقام كله في يوم القيامة .

١٠- وهذه بعض الكشوف العلمية التي حاول الكاتبون أن يستدلوا عليها بالقرآن:

أ - في غزو الفضاء قالوا : يدل عليه قوله تعالى : ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ [الرحمن :٣٣] فالسلطان هو العلم وبواسطته نفذ الإنس من الأقطار . ويرد عليه بأن هذه الآية تتحدث عن يوم القيامة ، وتبين قدرة الله على محاسبة كل من الإنس والجن ومجازاته لا يستطيع أحد أن ينجو منه إلا بسلطان ، أي قدرة عظيمة أو ملك قوي ، وليس ذلك لأحـد إلا لله . أو تتحدث عن القضاء بالموت على كل حي لا يهرب منه أحد فكل من عليها فان ، لاينجو منه إلا بالسلطان المذكور وهو لا يملكه .

وقال ابن عباس في تفسيرها : إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات وما في الأرض فاعلموه ولن تعلموه إلا بسلطان أي ببينة من الله ، ومعنى هذا أن الغيب لا يعلمه إلا الله ، والذي يطلع عليه من يشاء من عباده . فلو فرض أن المراد بالسلطان هو العلم كما يشير إليه قول ابن عباس ، فإن هذه الآية ليست نصًّا في الزعم الذي يقوله المتحدثون . وعلى ذلك لا تصح دليلاً لهم ، على أنه لو كان ذلك صحيحاً فما المانع أن يطلع الله بعض الناس على علوم الكون بسلطان العلم ، ولكن هل نفذ الإنس بعلمهم من أقطار السموات أيضاً ، أو نفذوا فقط - إلى الآن - من أقطار الأرض وجاذبيتها ، وبقيت السموات حجراً محجوراً ؟

إن كل ما أمكن الوصول إليه من معلومات عن طريق الآلات الحديثة لا يعدو أن يكون في سماء الدنيا ، فإن الكشوف الفلكية والكواكب وأبعادها وسرعة ضوئها ودورانها ما زالت في إحدى السموات وهي الدنيا ، الشمس تبعد عن الأرض ٩٣ مليون ميل كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات :٦] فهل يستطيعون أن ينفذوا من أقطار السماء الدنيا كلها ثم يتطلعون إلى بقية السموات ؟

على أن المقام ، كما ذكرت ، هو مقام الحساب والجزاء بدليل السباق والسياق ، فأولى أن يحمل اللفظ على ما يليق به ، ولا داعي للتعسف وطلب دليل من القرآن ، فكم من حقائق علمية ثبتت بغير الاستدلال عليها من الكتاب الكريم ، ولا ضير في ذلك أبداً ، على ما علمت من مهمة القرآن في الهداية والإعجاز .

ب - استدل بعض العامة من الناس على كروية الأرض بالآية السابقة قائلاً إن التعبير بالأقطار يثبت كروية الأرض وكروية السماوات ، لأن القطر هو الخط الموصل بين نقطتين على المحيط مارًّا بمركز الدائرة ، والأقطار لا تكون إلا للدوائر وهذا بالتالي يثبت الكروية . ويرد عليه بأن القطر الذي تحدث عنه هذا الشخص اصطلاح هندسي لم تعرفه العرب فهم يعرفون القطر بأنه الجهة والناحية لا الخط المذكور ، والنفاذ من الأقطار يكون بالخروج من الجهات والمنافذ لا من الخطوط التي يتصورها المهندسون .

إن كروية الأرض حقيقة ثابتة ، وحياة الناس وتطورها مبني عليها ، والدليل على ذلك ليس من القرآن ، ولا داعي لالتماسه منه أبداً ، على ما علمت من مهمته في الإعجاز وهداية الناس .

ج - دور الرياح في تلقيح النبات بحمل مادة الذكورة إلى مكانها الذي تلتقي فيه بمادة الأنوثة فيكون الإخصاب ، على ما هو مقرر في علم النبات . استدل عليه البعض بقوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ ﴾ [الحجر :٢٢] فاللواقح جمع لاقح بمعنى حاملة للقاح ، أو ملقحة لغيرها بما تحمله ، إن دور الرياح في نقل اللقاح معروف ، ولكن في أخذه من هذه الآية تعسف وتكلف ؛ ذلك أنه لو كان المراد تلقيح النبات لجاء عقبها ما يتحدث عن النبات فيقال مثلاً : فزكا الزرع وخرج الثمر ولكن الذي حدث أن الذي جاء بعدها قوله تعالى : ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ ﴾ وهذا يشير إلى أن المعنى أن الرياح المحمَّل ببخار الماء ؛ يرسلها الله فتتجمع السحب ويتكاثف البخار ويبرد في الطبقات الجوية الملائمة فينزل الماء ، وهذا هو التنسيق المعقول بين إرسال الرياح اللواقح وإنزال الماء من السماء لسقي الناس . فأولى أن يحمل الآية عليه ، ولايتعسف بحملها على ما يثبت دورها في تلقيح النبات ، فذلك مشاهد بالملاحظة والنظر لا حاجة إلى الدليل النقلي عليه .

د - قالوا : إن حدود الكون تتسع وتمتد ؛ واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات :٤٧] ؛ لكن العلماء قالوا : إن لفظ ﴿لَمُوسِعُونَ﴾ مأخوذ من أوسع الرجل إذا صار ذات سعة وغنى ؛ ومنه قوله تعالى ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة :٢٣٦] فالآية تدل على قدرة الله ، وقدرته تتجلى في أشياء كثيرة ، ولا مانع أن يكون منها توسيع حدود الكون ، فهو الذي خلقه بقدرته وعلمه . فلا ينبغي قصر معنى السعة على هذا الذي يريده علماء الفلك والطبيعة .

هـ - قالوا : إن كل شيء في السماء يعتريه ازدياد مفاجئ في حرارته وحجمه وإشعاعه بدرجة لا تتصورها العقول ، وعند ذلك يتمدد السطح بما حوى من لهب

ودخان ، وحتى يحصل على توازنه الدائم ، والشمس لم تمر بهذا الدور بعد ، فإذا مرت به وتمدد سطحها الخارجي حتى وصل القمر يختل توازن المجموعة الشمسية كلها ، وذلك يوم القيامة ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الدخان :١٠] قال المفسرون : إن هذا الدخان من علامات الساعة كما في صحيح مسلم ، وقيل إن الدخان هو ما أصاب قريشاً من الجوع بسبب دعاء النبي ﷺ عليهم ؛ كما رواه البخاري في حديث يصور هذا الجوع جاء فيه : فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، فأنزل الله ﴿ فَٱرْتَقِبْ .... ﴾ وجاء فيه : أن النبي استقى لهم فسقوا ولكن استمروا على عنادهم فقال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ يعني يوم بدر ، وقيل إنه غبار الجيش يوم فتح مكة .

و - قالوا أيضاً مما يشير إلى قلة الأوكسجين في الطبقات الجوية العليا قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام :١٢٥] وظاهرة ضيق الصدر تحصل عند الارتفاعات العليا ، ومثل هذا واضح لا شك فيه ، ويفيد في تصور المعنى المراد دون أن يمس قدسية القرآن .

كما قالوا : إن الأبعاد والمسافات الشاسعة بين النجوم والتي لا يمكن حساب بعضها يشير إليه قوله تعالى ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الواقعة :٧٥] فإن مجموعات النجوم التي تكون أقرب مجرات السماء منا تبعد عنا بنحو ٧٠٠ ألف سنة ضوئية ، والسنة الضوئية تعادل عشرة ملايين الملايين من الكيلو مترات[١] (الضوء يقطع في الثانية ١٨٦٠٠٠ميل) ٣٠٠,٠٠٠ك م فهذه الأبعاد الشاسعة جديرة بأن يقسم الله بها لعظمها ، وهذا وجه من وجوه العظمة وقد يكون منها دقة مساراتها وعدم تصادمها وتحديد الجاذبية في كل منها ، فالآية شاملة وعامة .

١- الضوء يقطع في العام نحو ٥,٨٨ مليون ميل أي نحو ٦ مليون ميل (مجلة العربي يوليو ١٩٧٠م).

وقالوا أيضاً : مما يدل على قوة الاستدلال ببصمات الأصابع على شخصية صاحبها قوله تعالى ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة :٤] لأن دقة الخطوط واتجاهاتها وعددها لا يكاد يتفق فيها شخصان ، فتسويتها يوم القيامة على ما كانت عليه بعد أن كانت تراباً منثوراً موزعاً في أماكن قاصية دليل قدرة الله تعالى ، وهذا وجه من وجوه قدرة الله على بعث الناس يوم القيامة بأجسامهم المشخصة لهم بعد فنائها .

مثل هذه الأمثلة الأخيرة لا يضر توضيح آيات القرآن به أبداً ، ولكن الممنوع قصرها على هذه المكتشفات ، أو التعسف في التأويل الذي يخرج به اللفظ عن أصل وضعه اللغوي واستعماله العرفي عند العرب الذين نزل القرآن بلغتهم .

وبعد ، فهذا عرض موجز لموقف القرآن من الكشوف العلمية الحديثة رأينا فيه تشجيعه للبحث والنظر ؛ ورأينا دقته حين يعرض لشيء علمي كشف عنه البحث أخيراً ، وهذا دليل صدقه وأنه من عند الله وحده أيّد به رسوله محمد ﷺ . والمقررات العلمية الثابتة ستزيد معاني القرآن وضوحاً ، وهذه صورة من صور التعانق بين العلم والدين . أي العلم الثابت الأكيد ودين الله الذي أنزله هداية للناس جميعاً ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فليكن فهمنا له على ضوء الحقائق الثابتة لا النظريات الفجة ، ولنحفظ له قدسيته فلا نقول على الله بغير علم ، ولانجعله حمى مستباحاً لكل كاتب يجيل فيه قلمه بما ترمي به الأفكار الشاردة ، فليس كل مجال تباح فيه الحرية للجائلين ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت :٥٤] .

تتمة :

وردت بعض الأحاديث في مسائل علمية لم يوافق عليها العلم إلى الآن كحديث الذباب إذا وقع في الإناء والأمر بغمسه كله لأن في أحد جناحيه داء والآخر دواء ، وأحاديث أخرى واردة في الطب .

ويرى ابن خلدون أن الطب المنقول في الشرعيات ليس من الوحي في شيء فإن النبي ﷺ لم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع فقال أنتم أعلم بأمور دنياكم .

وعلى هذا يجوز أن يكون رأي النبي ﷺ في مثل هذه الأمور محتملاً للخطأ لأنه من أمور الدنيا . لكن لا ينبغي الحكم بذلك إلا بعد البحث الصحيح لمعرفة الرأي الحق العلمي اليقيني في مثل هذه الأمور [1] .



س : هل القرآن كتاب علمي ، أو كتاب يقوم على العلم ولا يتناقض معه عبر العصور ؟

ج : التعبير بكتاب علمي أو كتاب يقوم على العلم من التعبيرات الاصطلاحية التي يفسرها واضعوها حسب ما يتفقون عليه ، وبعيداً عن ذلك أقول :

القرآن كتاب علمي بمعنى أنه يعلم الناس ما يهمهم من أمور دينهم ودنياهم ، وذلك معنى الهداية التي جاءت في قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء :٩] وقوله ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾[المائدة :١٥ ، ١٦].

أما أن يكون القرآن كتاباً علميًّا بمعنى أنه يعلم الناس العلوم كالطب والهندسة والرياضة والجغرافيا والطبيعة والكيمياء ، فليس ذلك من مهمته ، وإنما مهمته في هذه الناحية أن يأمر بالتعلم والتعليم لكل ما يمكن أن يستفيد منه الناس في أمور الدين والدنيا ، وأن يضع الآداب ، التي تجعل العلم يستخدم في المصلحة . والقرآن

---

١ - منبر الإسلام مجلد ٢١ عدد جمادى الآخر ١٣٨٣ ص ١٦ ، ١٧ .

مليء بالآيات التي تدعو إلى العلم وترفع شأن العلماء الذين يبتغون الخير من علمهم ، بصرف النظر عن مادة العلم ما دام الهدف خيراً .

ومن الآيات التي تبين ذلك قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر :٢٧ ، ٢٨] .

فهذا رفع لقدر العلماء في كل المجالات المتقدمة في الآيتين ، علماء الفلك والطبيعة والكيمياء والنبات وطبقات الأرض والحيوان والطب والهندسة والاجتماع والتاريخ . . لأنهم عند إنصافهم وتعمقهم في هذه العلوم سيدركون أن وراء هذا الخلق البديع سرًّا كبيراً ، وأن قوة أخرى فوق المادة هي التي صنعت هذا الكون وسيَّرته حسب النواميس الثابتة . وتلك هي قوة الله تعالى ، وكم من علماء في هذه المجالات آمنوا بوجود الله بعد كفرهم به [1] .

وأما كون القرآن يقوم على العلم ولا يتناقض معه في كل العصور والأزمان فتلك حقيقة لا شك فيها ، بمعنى أن كل ما جاء فيه من أمور يقال عنه أنها علمية فهي صادقة ، لأنها من صنع الله ، والحقائق العلمية من صنع الله ، أما النظريات التي لاترقى إلى درجة الحقيقة فهي من صنع البشر ، قد تصدق فتكون مطابقة لما عند الله ، وقد تكذب فتخالفه ، وهنا لا يجوز مطلقاً أن نفسر القرآن بالنظريات ، وإنما نفسره بالحقائق لتوضيح ما فيه ، والموضوع طويل لا يتسع المجال لشرحه ، يمكن الرجوع إليه في كتابنا « دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة » .

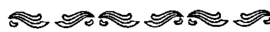


١- اقرأ كتاب : (الله يتجلى في عصر العلم) ، الذي ألفه الباحث الديني الاجتماعي ((جون ملوفر مونسما)).

س : هل المال مفضَّل على البنين حيث جاء الأول في قوله تعالى : ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ؟

ج : هذه الآية من (سورة الكهف : ٤٦) ومبدئيًّا أقول : إن العطف بالواو لايقتضي ترتيباً ولا تعقيباً كما قال علماء اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم المعجز ، فالمال والبنون يشتركان في حكم واحد في الآية هو زينة الحياة الدنيا ، سواء قدِّم المال على البنين في الذكر أو أخر ، فالواو لمطلق الجمع بينهما .

ثم أقول : لعلَّ -والله أعلم- تقديم المال على البنين هو مشاكلة لما حدث في قصة الرجل صاحب الجنتين الذي افتخر بهما على صاحبه . وقدم في فخره المال على الولد ، حيث قال القرآن : ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف :٣٤] وردَّ على صاحبه بعد ذلك بقوله : ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ [الكهف :٣٩،٤٠] واستمر الحديث بعد ذلك عن المال وهو الجنة التي أحرقها الله ، وجاءت الآية التي تضرب المثل بعد ذلك متحدثة عن المال ، فالتركيز أكثر على المال . فناسب أن يخبر الله عن زينة الحياة الدنيا مقدماً المال الذي كان الاهتمام به كبيراً ، ثم أقول إن المال هو الذي يساعد على الزواج الذي يأتي منه البنون المحتاجون في تربيتهم أولاً إلى المال ، هذا ما بدا لي ولعله يكون مقبولاً وأسرار القرآن المعجز يعلمها الله سبحانه وتعالى .



س : لماذا نرى في القرآن الكريم تقديم الجن على الإنس . هل هم أفضل من الإنس ؟

ج : كما قرر العلماء : العطف بالواو لا يقتضي ترتيباً ولا تعقيباً ، فالكل مخلوقون لله ومخاطبون بالشريعة وسيحاسبون أمام الله ، وهم مشتركون في هذه الأمور وفي غيرها ، ولعل تقديم الجن على الإنس راجع إلى أن الجن كانوا موجودين قبل خلق

آدم . فلما خلقه الله أمر الملائكة بالسجود له ، وكان معهم إبليس وقال بعض العلماء: لعل التقديم بسبب أن الجن تشمل الملائكة بجامع الاستتار في كل ، وفي ذلك يقول الله تعالى عن الكفار ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ [الصافات :١٥٨] حيث قالوا :إن الملائكة بنات الله قال الأعشى :

وسخر من جن الملائكة سبعة　　قياماً لديه يعملون بلا أجر

فأما قوله تعالى : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن :٧٤] وقوله : ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن :٣٩] وقوله : ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الجن :٥] فإن لفظ الجن ها هنا لا يتناول الملائكة بحال ، وذلك لنزاهتهم عن العيوب ، وأنه لا يتوهم عليهم الكذب ولا سائر الذنوب ، فلما لم يتناولهم عموم اللفظ لهذه القرينة بدأ لفظ الإنس لفضلهم وكمالهم [1] .



س : في سورة القصص جاء قوله تعالى : و ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ [الآية :٢٠] وفي سورة يٰس جاء قوله ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ [الآية :٢٠] فما هو السر في تقديم (رجل) في الآية الأولى وتأخيره في الآية الثانية ؟

ج : القرآن كله في أعلى درجات البلاغة العربية كما هو معروف ، وقد اجتهد العلماء في بيان أسرار بلاغته ، فأدركوا بعضها وخفي عليهم البعض الآخر ، ووُضعت في ذلك كتب خاصة ، مثل : غرائب آي التنزيل لزين الدين الرازي الخلفي المتوفى سنة ٦٦٦هـ ، البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان ، لمحمود بن حمزة الكرماني المتوفى سنة ٥٠٥هـ ، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ، للشيخ زكريا الأنصاري ، متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ، وغير ذلك .

١- آكام المرجان ، للشبلي ص ٧ .

وبخصوص ما جاء في السؤال قال الكرماني : خصت سورة القصص بالتقديم لقوله قبله ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ [الآية :١٥] ثم قال ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ وخصت سورة يَس بقوله ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ لما جاء في التفسير أنه كان يعبد الله في جبل ، فلما سمع بخبر الرسول سعى مستعجلاً ، أي أن الإخبار هنا هو عن سعيه وليس عنه ، والتقديم هنا للاهتمام والاعتناء بالفعل لا بالفاعل .



س : لماذا قال الله في بعض السور ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف :١٢١،١٢٢] وفي بعضها ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه :٧٠] فما هو السر في تقديم موسى مرة وتأخيره مرة أخرى؟

ج : جاء التعبير عن إيمان سحرة فرعون بالله الذي أرسل إليهم موسى وهارون جاء في ثلاث سور هي الأعراف وطه والشعراء ، وفي بعضها قدم ذكر موسى على هارون وفي بعضها الآخر قدم هارون على موسى .

وليست لذلك حكمة منصوصة ، بل هي استنتاجات قد تصادف الحقيقة وقد تنبو عنها ، وقد قال علماء النحو : إن العطف بالواو يفيد مطلق الجمع دون ترتيب ولاتعقيب ، فالله ربُّ موسى وهارون جميعاً ، وإيمان السحرة بهما واحد لا ميزة فيه لأحد على الآخر .

غير أن من مظاهر البلاغة العربية ، التناسب بين رءوس الفقرات ، والقرآن الكريم في أعلى درجات البلاغة . فناسب بين رءوس الآيات حتى يكون وقف القارئ عليها فيه مسحة من جمال الأداء .

والناظر إلى سورة الأعراف يجد آياتها تنتهي بنون قبلها مَدٌّ بالواو أو الياء ، ونادراً ما يوجد بدل النون ميم أو لام ، فالصوت عند الوقف يَسْكن دون انطلاق نَفَس مع الإحساس بنغمة مؤثرة ، ولذلك كان لفظ «هارون» مؤخراً على لفظ «موسى» لتناسب رءوس الآيات ، ونجد مثل ذلك في سورة الشعراء ﴿رَبِّ مُوسَىٰ

﴿وَهَٰرُونَ﴾ ومن أجل مراعاة التناسب في سورة الشعراء حذفت ياء المتكلم من آخر الكلمة وبقيت النون التي هي للوقاية وليست للرفع لأن الفعل قد يكون منصوباً مثل ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ومثل ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ ليتناسب مع ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أما في سورة طه فنهاية الآيات صوت مطلق بالمد المفتوح في أغلبها ، وقليل منها بالمد المكسور ، وذلك يتناسب مع لفظ ﴿مُوسَىٰ﴾ فقدم عليه لفظ هارون لتنتهي الآية بما يتناسب مع نهايات الآيات الأخرى ، مثل ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ فيتناسب معه ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ .

هذا ما ظهر لي من الحكمة ، ولا أجزم بأنها المراد لله سبحانه .



س : نرى في القرآن الكريم تكراراً لبعض الآيات بمعنى واحد ، فما هي حكمة ذلك ؟

ج : ذكر الله سبحانه قوله تعالى في سورة الرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مرة والآلاء هي النِّعم ، ومفرد الآلاء إلى مثل معى وأمعاء على الأقوال اللغوية ، والخطاب هنا للإنس والجن . وهما المرادان بالأنام في قوله تعالى في السورة نفسها ، ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ كما أنهما المرادان بالثقلين في قوله تعالى ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ وقد صرح بذلك في قوله تعالى ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ وفي قوله تعالى ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ .

والله سبحانه عَدَّد في هذه السورة نعماً كثيرة ، وهذه النعم أثر من آثار قدرة الله ورحمته ، وحق من له هذه القدرة ومنه هذه الرحمة أن يُعبد وحده ولا يُشْرَك به سواه من خلقه .

وبعض هذه النعم لا يظهر لأول وهلة وجه النعمة فيها مثل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ ولكن بالإمعان في النظر نجد أن فناء الخلق عند نهاية الدنيا وبقاء الله وحده من أكبر النعم ، حيث يكون بعد الموت بعث وحساب وجزاء وينال أجره العادل من حرم منه في الدنيا ، ويقع العقاب على من

أفلت منه في الدنيا ، قال تعالى ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ [الأنبياء :٤٧] والمؤمن بهذه الحقيقة لا تضيق نفسه إن ظلم من العباد في الدنيا فإن الله لايضيع أجر من أحسن عملاً ، ولا يتحسر إن وجد العاصين الظالمين ينعمون في الدنيا أكثر مما يتنعم به المؤمنون الصالحون ، لأن الله سيقول لهم يوم القيامة ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحقاف :٢٠] .

وتكرار هذه الجملة بعد كل نعمة ، وعدم الاكتفاء بها مرة واحدة أسلوب من الأساليب البلاغية في لغة العرب ، وهو دليل على أن كل نعمة بذاته كافية للإيمان بالله وتوكيد للحجة ، وذلك كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو ينكره ويكفره ، ألم تكن فقيراً فأغنيتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملاً فعززتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن ماشياً فأركبتك ، أفتنكر هذا ؟ ذكره القرطبي في تفسيره ، وروى الحاكم عن جابر قال : قرأ علينا رسول الله سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال « ما لي أراكم سكوتاً ، للجن كانوا أحسن منكم ردًّا ، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾إلا قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

يقول الحطيئة :

ألا حبذا هند وأرض بها هند   وهند أتى من دونها النأى والبعد [1] .



س : ذكرت قصة سيدنا موسى في القرآن أكثر من مرة وموضوعها واحد ، مع تشابه النصوص في كل موضع ، والتكرار في النص الأدبي يضعفه فكيف يتناسب ذلك مع إعجاز القرآن وبلاغته ؟

ج : قصص القرآن الكريم هو أحسن القصص صدقاً وبلاغة ، قال تعالى ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الكهف :١٣] وقال ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ [هود :٤٩] وتتضح حكمة هذا

١- تفسير القرطبي ج١ ص ٣٩٩ .

القصص من قوله تعالى ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : ١٢٠] .

وإذا كان هناك تكرار في القرآن للقصة الواحدة فلا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أن القرآن لم ينزل مرة واحدة حتى يعاب التكرار ، ولكنه نزل منجماً مفرقاً على مدى ثلاث وعشرين سنة ، تنزل الجملة منه بحسب الظروف الطارئة ، والقصة الواحدة قد تصلح لكل هذه الظروف ، متسقة معها مراعاة لمقتضى الحال ، وذلك هو سر البلاغة التي نزل بها القرآن في أعلى درجاتها .

والنظرة العابرة إلى القصة التي نزلت عدة مرات قد يفهم منها أنها متشابهة متماثلة تماماً ، لكن النظرة الدقيقة ترينا أن القصة في موضع يركز فيها على جانب منها وتكون الجوانب الأخرى تابعة ومكملة ، لأن المقام يقتضي إبراز هذا الجانب ، بينما تراها هي في موضع آخر يركِّز فيها على جانب معين منها كان في غيرها من التوابع المكملة ، وذلك لاقتضاء المقام له أيضاً ، ولذلك قد يهمل في بعضها لفظ أو يترك تعيين اسم يوجد له داع للذكر ، أو التعيين في مقام آخر ، ومن هنا كانت متغايرة وليست متشابهة ، بالنظر إلى الجانب الذي كان عليه التركيز في كل منها .

وليست قصة موسى هي وحدها التي تكررت في القرآن ، فإلى جانبها قصص لرسل آخرين ، تحمل هذه الحكمة التي في قصة موسى ، وقد يرشح للاهتمام بها تشابه ظروف الدعوة أكثر بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وبخاصة أن عدداً كبيراً من اليهود كان موجوداً في المدينة وكان لهم دور كبير في مقاومة الدعوة .

على أن قضية ضعف النص الأدبي بتكراره ليست دائمة مسلَّمة ، فقد يكون لتكراره ما يجعله بليغاً حتى لو كان متشابهاً تمام التشابه في تركيبه ، سواء منه المفردات والجمل ، وكان من البلاغة العربية تكرار اسم الحبيب في البيت الواحد من الشعر تعميقاً لحبه وإيذاناً بشرفه .

ألا حبـذا هنـد وأرض بها هند   وهند أتى من دونها النأى والبعد

وتكرار قوله تعالى في سورة الرحمن ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إحدى وثلاثين مرة تنبه على أن كل نعمة من النعم التي احتوتها تستحق أن يذكر بها حتى لاتنسى وحتى يعرف فضل المنعم بها وتكرار قوله تعالى في سورة المرسلات ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ عشر مرات ، وهي قصيرة أيضاً كسورة الرحمن ، دليل على أن المقام يقتضي التنبيه والتحذير عند كل ما يذكر من موجبات هذا التحذير .

وبهذا لا مجال للطعن في بلاغة القرآن الكريم ، الذي تحدى الله به الجن والإنس وما يزال يتحدى ، ومن تعمق في المعرفة والتدبر أدرك أنه ما يزال على الشاطئ ولم ينزل بَعْدُ إلى البحر بأعماقه المليئة بالأسرار ، فهو صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت :٤٢] .



س : ما المقصود بالأساليب الاستفهامية المتعددة في القرآن الكريم ؟

ج : الاستفهام في اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم يعني طلب الفهم ، وهو بمعنى الاستخبار ، وأدواته كثيرة ، منها : الهمزة ، هل ، مَنْ ، أيّ ، كم ، كيف وغيرها .

وقد تستعمل صيغة الاستفهام في غير معناه – وهو طلب الفهم – وقد ألّف في ذلك شمس الدين بن الصائغ كتاباً سماه (روضة الأفهام في أقسام الاستفهام) ذكر فيه اثنين وثلاثين قسماً تحدث عنها السيوطي في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) منها : الإنكار ، وهو يفيد النهي مثل ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أي لا يهلك إلا الفاسقون . ومنها التوبيخ ، مثل ﴿ أَشْتَرَىٰهُ مَا ﴾ ومنها التعجب ، مثل ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ﴾ وغير ذلك كثير يرجع إليه في الكتاب المذكور.



س : يقول بعض الناس : إن القرآن فيه كلمات غير عربية ، وهذا يتنافى مع كونه قرآناً عربيًّا ، فما رأي الدين في ذلك ؟

ج : قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم :٤]. وقال ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء :١٩٢- ١٩٥] وقال ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢] .

تدل هذه الآيات وغيرها على أن القرآن الكريم نزل باللغة العربية ، لأنها لسان القوم الذين أرسل إليهم النبي ﷺ ، وذلك ليستطيع أن يبلغ وليستطيعوا أن يفهموا ويتدبروا .

ومعروف أن اللغات تتلاقح في بعض الألفاظ ، أي يأخذ بعضها من بعض ، بحكم الاتصالات بين الأفراد والجماعات والشعوب ، التي هي ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية للبشر ، فما يوجد فيها من ألفاظ متحدة قد يكون لانتساب لغتين إلى أصل واحد أو لشيء آخر ، وقد يكون نقلاً من لغة إلى لغة ، وإذا نقل لفظ واستعمله الناقلون مدة طويلة صار من لغتهم .

فإذا كان في القرآن الكريم ولغة العرب ألفاظ أصلها غير عربي مثل أباريق وأرائك وإستبرق فقد استعملها العرب وصارت مألوفة لهم ، وأجروا عليها قواعد لغتهم في الإعراب والاشتقاق والإفراد والتثنية والجمع وغيرها .

جاء في تفسير القرطبي [1] ، أنه لا خلاف بين الأئمة في أنه ليس في القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب ، وأن فيه أسماءً أعلاماً لمن لسانه غير لسان العرب كإسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط .

واختلفوا : هل وقع فيه ألفاظ غير أعلام مفردة من غير كلام العرب ؟ فذهب القاضي أبو بكر بن الطيب والطبري وغيرهما إلى أن ذلك لا يوجد فيه ، وأن القرآن

١- ج١ ص٦٨.

عربي صريح ، وما وجد فيه من الألفاظ التي تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة وغيرهم .

وذهب بعضهم إلى وجودها فيه ، وأن تلك الألفاظ لقلتها لا تُخرج القرآن عن كونه عربيًّا مبيناً ، ولا رسول الله ﷺ عن كونه متكلماً بلسان قومه ، فالمشكاة هي الكوة ، ونشأ معناها قام من الليل ، ومنه ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ﴾ أي ضعفين ، ﴿فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾ أي الأسد ، كله بلسان الحبشة ، والغساق أي البارد المنتن هو بلسان الترك ، والقسطاس أي الميزان هو بلغة الروم ، والسِّجِّيل أي الحجارة والطين هي بلسان الفرس ، والطور أي الجبل ، واليَم أي البحر هما بالسريانية ، والتنور أي وجه الأرض هو بالعجمية .

قال ابن عطية : فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية ، لكن استعملتها العرب وعرَّبتها فهي عربية بهذا الوجه .

وقد كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات وبرحلتي قريش ، وسفر بعض الأشخاص إلى بلاد أخرى ، فعلقت العرب بهذا كله ألفاظاً أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها ، وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها حتى جرت مجرى العربي الصحيح ، ووقع بها البيان . وعلى هذا الحد نزل بها القرآن . فإن جهلها عربي ما فكجهله الصريح بما في لغة غيره ، كما لم يعرف ابن عباس معنى (فاطر) إلى غير ذلك .

قال ابن عطية : وما ذهب إليه الطبري رحمه الله من أن اللغتين اتفقتا في لفظة لفظة فذلك بعيد ، بل إحداهما أصل والأخرى فرع من الأكثر ، لأنَّا لا ندفع أيضاً جواز الاتفاق قليلاً شاذًّا .

قال غيره : والأول أصح - أي أن القرآن فيه كلمات أجنبية صارت بعد ذلك عربية - وقوله : هي أصل في كلام غيرهم دخيلة في كلامهم ليس بأولى من العكس ، فإن العرب لا يخلو أن تكون تخاطب بها أولاً ، فإن كان الأول فهي من

كلامهم ، إذ لا معنى للغتهم وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم ، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم ، وقد قال ذلك الإمام الكبير أو عبيدة، فإن قيل : ليست هذه الكلمات على أوزان كلام العرب فلا تكون منه ، قلنا : ومن سلَّم لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هذه منها ؟ فقد بحث القاضي عن أصول أوزان كلام العرب ، ورد هذه الأسماء إليها على الطريقة النحوية .

وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بما لايعرفون : وحينئذ لا يكون القرآن عربيًّا مبيناً ، ولايكون الرسول مخاطباً لقومه بلسانهم . والله أعلم .



س : لماذا أنزل الله القرآن باللغة العربية ، وكيف يكون الدين للعالم أجمع واللغات متعددة ؟

ج : أنزل الله القرآن باللغة العربية ، لأنها وسيلة التفاهم مع من أرسل إليه الرسول أولاً ، وبدأت الدعوة في محيطهم قبل أن تبلغ لغيرهم ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم :٤] .

والإسلام دين عالمي يجب تبليغه لكل الناس ، وذلك باللسان الذي يعرفه من بُلِّغ إليهم ، فالقرآن نزل باللغة العربية لأمرين أساسيين : أولهما الإعجاز ، لإثبات صدق الرسالة ، وذلك للقوم الذين نزل القرآن في بيئتهم التي نشأ فيها الرسول وبدأ الدعوة ، ولغيرهم من الناس بما يحويه من معلومات وتشريعات هي أصدق المعلومات وأحكم التشريعات ، والأمر الثاني الهداية ، والهداية لكل الناس يحملها من تلقوه باللغة العربية ، ثم يترجمون هذه الهداية إلى غيرهم .

وهذا ما حدث في القرون الأولى ، عرضت الدعوة على الناس كافة فآمن الكثيرون ، ثم تفقهوا في الدين بلغاتهم ، ثم أتقن كثيرون منهم اللغة العربية ، ففهموا ما تعلموا وترجموا ما يريدون أن يعلِّموه الناس ، وهذه الترجمة تعتبر تفسيراً بوجه من الوجوه لهداية القرآن ولايحكم بها على كل ما في القرآن من معانٍ .

والمهم أن نعرف أن نزول القرآن الكريم باللغة العربية لا يتنافى مع عالمية الدعوة الإسلامية ، وقد أشبعت الكلام في هذا الموضوع في كتابي (الدعوة الإسلامية دعوة عالمية) ومختصره (الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه) وبينت أن أصل الدعوة وسجله الأساسي لابد أن يكون بلغة واحدة يرجع إليها عند الاختلاف في الترجمات التي نعرف ما بينها من تفاوت لأسباب عدة ، قد يؤدي إلى التضارب الذي يصرف الناس عن الدين بدل أن يجذبهم إليه ، وهذا أمر له أهميته قديماً وحديثاً حرصت عليه الدول في العهود والمواثيق والاتفاقيات وغيرها من الأمور الهامة .



س : لماذا جاء تعليم القرآن قبل خلق الإنسان في سورة الرحمن ؟

ج : قال بعض المفسرين : لما ذكر الله (الرحمن) ذكر صفة من صفاته لها فضل كبير على المسلمين وهي القرآن ، ثم ذكر بعد ذلك مظاهر قدرته العامة للمسلمين وغيرهم ، فبدأ بخلق الإنسان وتعليمه النطق والإفصاح عما يريد ، ونصب الدلائل التي يستدل بها على وجود الله ووجوب عبادته وحده . وعند معرفة سبب النزول نعرف لماذا قرن الله تعليم القرآن باسمه الرحمن ، فالسورة نزلت جواباً لأهل مكة حين قالوا : وما الرحمن ؟ وحكى القرآن ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ [الفرقان :٦٠] وحين قالوا : إنما يعلمه بشر ، وكانوا يؤمنون برحمن اليمامة وهو مسيلمة الكذاب ، فذكر أن الذي أنزل القرآن على محمد هو الرحمن المعبود بحق [١] .



س : قرأنا أن من فرق الشيعة من تدعي أن القرآن الموجود الآن في المصاحف ناقص ، حذف منه ما يخص عليًّا وذريته ، نريد توضيحاً لذلك ؟

ج : نزل القرآن على النبي ﷺ ، وكان يأمر كتَّابه بتدوين ما ينزل ، على مدى ثلاثة وعشرين عاماً ، وحُفظ هذا المكتوب ونسخت منه عدة نسخ في أيام عثمان

١- راجع تفسير القرطبي .

ابن عفان ، رضي الله عنه ، ثم طبعت المصاحف المنتشرة في العالم كله طبق المصحف الإمام الذي كان عند عثمان والنسخ التي أخذت منه .

والشيعة يزعمون أن أبا بكر وعمر بالذات حذفا من المصحف آيات كثيرة ، منها عدد كبير يتصل بخلافة علي رضي الله عنه ، ويزعمون أن المصحف الكامل كتبه علي بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى .

جاء في كتاب (الأنوار النعمانية) لمحدثهم وفقيههم الكبير (نعمة الله الموسوي الجزائري) ما نصه : إنه قد استفاض في الأخبار أن القرآن كما أنزل لم يؤلفه إلا أمير المؤمنين عليه السلام ، بوصية من النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : فبقي بعد موته ستة أشهر مشتغلاً بجمعه ، فلما جمعه كما أنزل أتى به إلـى المتخلفين بعد رسول الله ﷺ وآله فقال : هذا كتاب الله كما أنزل . فقال له عمر بن الخطاب : لاحاجة بنا إليك ولا إلى قرآنك . فقال لهم علي عليه السلام : لن تروه بعد هذا اليوم ، ولا يراه أحد حتى يظهر ولدي المهدي عليه السلام . . وفي ذلك القرآن زيادات كثيرة ، وهو خال من التحريف .

ولكثير من علمائهم تآليف تثبت أن القرآن الموجود بيننا ناقص ومحرف ، وأن المصحف الصحيح الكامل سيظهر آخر الزمان مع المهدي المنتظر ، ولم يتح لنا الاطلاع على هذا المصحف ، وينقلون هم أشياء يدَّعون أنها فيه . وأكثرها خاص بآل البيت وإمامه علي .

ومن أمثلة التحريف في زعمهم أن آية ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة :٢٣] نزل بها جبريل على محمد هكذا « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا في علي فأتوا بسورة من مثله » .

ونقل في (أصول الكافي) عن إمامهم جعفر الصادق أنه أقسم بالله أن آية ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه :١١٥] نزلت هكذا « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل في محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذريتهم فنسي » .

وجاء في كتاب (أصول الكافي) وهو أصح الكتب عند الشيعة أن القرآن الذي جاء به جبريل سبعة عشر ألف آية . وقال القزويني شارح كتاب (أصول الكافي) الذي نسب هذا الكلام لجعفر الصادق : إن الغرض بيان أنه حذف من أصل القرآن شيء كثير ، الذي لا يوجد في نسخ القرآن المشهورة .

وفي كتاب (الاحتجاج) المعتمد عند الشيعة ، لفقيههم أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي في القرن الخامس : أن آية سورة النساء (رقم ٣) ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ .... ﴾ لا يوجد الربط فيها بين الشرط والجزاء ، فقد أسقط المنافقون (هكذا) أكثر من ثلث القرآن .

هذا ، وقد رأيت في رسالة للسيد / محب الدين الخطيب ، عنوانها (الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الاثنى عشرية) التي طبعت أكثر من مرة منذ سنة ١٣٨٠هـ : أن الأستاذ محمد علي سعودي الذي كان كبير خبراء وزارة العدل بمصر ، ومن خواص الشيخ محمد عبده -اطلع على مصحف إيراني مخطوط عند المستشرق (برامين) فنقل منه سورة بعنوان (سورة الولاية) مذكور فيها ولاية علي ، ونص صفحتها الأولى (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالنبي وبالولي اللذين بعثناهما يهديانكما إلى صراط مستقم . نبي وولي بعضهما من بعض وأنا العليم الخبير . إن الذين يوفون بعهد الله لهم جنات النعيم . . والذين إذا تليت عليهم آياتنا كانوا بآياتنا مكذبين . فإن لهم في جهنم مقاماً عظيماً إذا نودي لهم يوم القيامة : أين الظالمون المكذبون للمرسلين . ما خالفتم المرسلين إلا بالحق وما كان الله ليظهرهم إلى أجل قريب وسبح بحمد ربك ، وعليٌّ من الشاهدين) .

وهذه السورة أثبتها الطبرسي في كتابه (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب) وثابتة أيضاً في كتابهم (دبستان مذاهب) باللغة الإيرانية ، لمؤلفه (محسن فاني الكشميري) ونقل عنه هذه السورة المكذوبة المستشرف (نولدكه) في كتابه (تاريخ المصاحف)[١] ، ونشرتها الجريدة الآسيوية الفرنسية سنة ١٨٤٢م[٢].

١- ج٢ ص ١٠٢. ٢- ص ٤٣١ ـ ٤٣٩.

وبعد ، فالموضوع واسع يحتاج إلى الاطلاع على كتبهم ، وحسبنا أن نقرر أن علماء السنة ردوا على مزاعمهم ، والمقام لايتسع لأكثر من هذا ، ويمكن الرجوع إلى كتاب (الوشيعة في نقد عقائد الشيعة) ورسالة رئيس أهل السنة بباكستان (محمد عبدالستار التونسي) المطبوعة بالقاهرة بمطبعة دار العلوم ، شارع حسين حجازي (قصر العيني) على نفقة مجلس علماء باكستان بلاهور ، ونشرة بعنوان : موقف العلماء المسلمين من الخميني والاثنى عشرية . تأليف الشيخ محمد منظور النعماني ، من (لكهنو) بالهند .



س : ما هو سر الحروف المقطعة في أوائل بعض السور ، وهل هناك علاقة بينها وبين عددها في السور ؟

ج : الحروف المقطعة في أوائل بعض السور للعلماء فيها موقفان ، الموقف الأول أنها من المتشابه الذي يجب أن يوكل علمه إلى الله تعالى ، والثاني أن لها معاني ، واختلفوا في هذه المعاني ، وكلها آراء اجتهادية . ولكنها على كل حال تبين الكفار - وهم أرباب الفصاحة والبلاغة - أن القرآن كلام مركب من الحروف التي يتركب منها كلامهم ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله .

وقد قام بعض الناس بحصر الحروف الموجودة في آيات السورة التي بدئت بالحروف المقطعة فوجدوا أنها أكثر من الحروف الأخرى . وهذا يزيد التأكيد أن حروف القرآن هي حروف كلام العرب ، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله ، وأوجه الإعجاز غير اللغوي كثيرة ، أفردت لها مؤلفات خاصة .



س : نريد توضيح قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر :٢١] ؟ .

ج : تجيء هذه الآية في نهاية سورة الحشر التي تتحدث عن إجلاء بني النضير عن المدينة المنورة ، وهم إحدى أسر من أهل الكتاب الذين كان يؤمل فيهم أن يكونوا

من أول المصدِّقين بالقرآن الذي نزل على الرسول الذي كانوا ينتظرونه ويقرءون أوصافه في كتبهم ، لكنهم حسداً وبغياً كفروا كما قال سبحانه : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [البقرة :٨٩] ومع تكذيبهم للقرآن والرسول تعاونوا مع كفار مكة على مقاومة الدعوة ، وقد أذاق الله كفار مكة وبال أمرهم في بدر كما أذاق بني النضير عاقبة أمرهم ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الحشر :١٥] وهكذا لايدفع شخص عن آخر فكل يتحمل تبعة عمله ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحشر :١٦ ، ١٧] والواجب على كل إنسان أن يسيطر على نزغات الشيطان وهوى النفس ولايعمل للدنيا فقط بل يعمل حساب المسئولية يوم القيامة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الحشر: ١٨-٢٠] .

كان الواجب على الناس جميعاً ، وقد جاءتهم الرسالة العامة ، أن ينظروا في الكتاب المنزَّل على هذا الرسول نظرة منصفة موضوعية بعيدة عن التعصب والهوى ، ومن خلال هذه النظرة سيكون لكل منهم رأي فيه ، وسيقتنع تماماً بصدقه ويسارع إلى العمل بما فيه ، لكن أكثر الناس تتغلب عليهم أهواؤهم ، ويضعف عقلهم أمام شهواتهم ، فيعارضون الحق لذات المعارضة دون سبب معقول ، مع أن هذا القرآن ، وهو من عند الله ، لو نزل على جبل أعطاه الله عقلاً ، لتأثر كل التأثر ولم يملك إلا الإيمان بالله الذي أنزله ، وبالرسول الذي بلغه ، إن هذه القوة الجبارة لا بد أن تخشع وتذل وتضعف ، بل لا بد أن تتمزق وتتصدع ويتلاشى كبرياؤها عند سماع القرآن ، كما يقول سبحانه ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد :٣١] ولكن الإنسان بعناده وتسلط شيطانه لم يتأثر بروعة القرآن وعظمة من أنزله ، ومن قبل

القرآن لم يتأثر أسلاف بني النضير ، والحديث عنهم موضوع السورة ، من الآيات المنزلة على الأنبياء قبل كما قال سبحانه فيهم : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [البقرة :٧٤] .

إن الآية تدعو الجميع إلى أن يستقل كل إنسان بالنظر إلى القرآن بعيداً عن إغواء داخلي أو خارجي ، وبالنظر المنصف سيخشع العقل ويخشع القلب وتخشع الجوارح ، سيخشع العقل عندما يعرف الإعجاز الذي نزل به القرآن فيؤمن عن صدق بأنه ليس من عند محمد بل من عند الله ، وسيؤمن بالله من خلال ما فيه من آيات وأخبار صادقة وهداية حكيمة ، كما يقول سبحانه ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد :٢٤] وكما قال ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء :٨٢] وقد أوشك بعض كبار قريش أن يؤمن عندما أخذ بروعة ما تلي عليه ، فقال : إن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وماهو بقول بشر . ولكن المؤثرات القوية التي تحيط به ضيعت ما تأثر به عند سماع القرآن ، وقد كان بعضهم ، وقد تعاهدوا على معارضة الدعوة ، يتسرب خفية لسماع القرآن فيعود متأثراً ، ولكن التعصب جعلهم كما يقول القرآن الكريم ﴿ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ ﴾ وبالإقبال على القرآن يخضع العقل أيضاً وهو يستخرج كنوزه ويجلّي هدايته ، فيرى فيه دستوراً كاملاً للحياة الطيبة ، ويحس فيه روعة التشريع وإحكامه ، كما يحس تقديره لكرامة الإنسان وإعداده لطور جديد من حياته البشرية يحقق به الخلافة في الأرض ، ومن هنا كان حث الرسول عليه الصلاة والسلام على تعلم القرآن ونشر هدايته فيقول (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) [1] ويقول في حديث رواه الترمذي وغيره وحسّنه (يا أبا ذر لأن تغدو فتتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة ، ولأن تغدو فتعلم باباً من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلي ألف ركعة) .

وكما يخشع العقل يخشع القلب والوجدان ، فيستقر الإيمان بالله ويقوى كلما قرئ القرآن ، ويرق الوجدان والعواطف كلما كثرت قراءته أو سمعت آياته تتلى ،

١- رواه البخاري ومسلم .

كما يقول سبحانه ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر :٢٣] إن أول أثر يروع الإنسان هو الدهشة والقشعريرة ، وعند التأمل والانتقال بين فقراته من وعيد إلى وعد ، ومن آية إلى آية يطمئن القلب ويألف هذا الجو الجديد كما يقول سبحانه ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال :٢] وليس الإنسان وحده هو الذي يتأثر لكلام الله تلاوة واستماعاً فقد تأثرت به الملائكة ونزلت تستمع إليه من أُسيد بن حضير وهو يقرؤه ليلاً ، حتى إن فرسه التي كانت بجواره اضطربت لما أحست بها في الجو من نور ومواكب غريبة عليه ، وقد قال عنها الرسول الكريم كما ثبت في الحديث الشريف : إنها الملائكة نزلت تستمع القرآن ، ولو قرأ حتى يأتي الصباح لأمكن رؤيتها ، وهو ترغيب للمؤمنين في كثرة تلاوته ، وبالإنصات له عند سماعه وعدم الانشغال عنه بلهو الحديث ، فتلاوته تجارة لن تبور ، وبكل حرف منه عشر حسنات ، والمنزلة في الجنة بقدر ما يقرأ منه كما صح في الحديث : (يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارتق كما كنت تقرأ في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها)[١] .

وكما يخشع العقل المفكر والقلب المتأثر تخشع الجوارح بالعمل ، وخشوعها بالعمل يكون من منطلق الإيمان بالله وبالقرآن المعجز وبما فيه من هداية هي المثالية في كل مجال من مجالات النشاط البشري ، كما يقول سبحانه : ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء :٩] وكما كان النبي ﷺ يعمل ، فقد كان خلقه القرآن ، تلقياً وتعليماً وتبليغاً وعملاً وتطبيقاً ، وبهدايته المثالية والحرص على تطبيقها تكونت أمة كانت خير أمة أخرجت للنا س ، قوة وتماسكاً وحضارة ومدنية ، ولم يفارق رسول الله الدنيا إلا بعد أن أوصانا بالتمسك به حتى لا نضل « إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي أبداً ، كتاب الله وسنتي »[٢] ، فهو حبل الله المتين ، ومن يعتصم به فقد هُدي إلى صراط مستقيم .

١- رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه ، وقال الترمذي: حسن صحيح.
٢- رواه الحاكم وصححه .

والغاية من تدبر القرآن والخشوع له تقوية إيماننا بالله ، وإسعاد الإنسان في دنياه وأخراه ، والله الذي أنزل القرآن هو الموصوف بعد هذه الآية بالوحدانية والرحمة والملك والتقديس والسلامة من كل نقص والمصدق لرسله بآياته ، والمسيطر على الكون كله بقدرته وعلمه ، والعزيز الذي لا يذل ، والمتعالي عن كل نقص ، والخالق للعالم والمبدع له على غير مثال سبق والمصور له كيف يشاء ويختار ، والموصوف بكل كمال ، فكيف يشرك المشركون به آلهة ليس لها هذا الكمال ؟ إن الكون يسبح لله بالتوحيد والطاعة ، وما أظلم الإنسان وأجهله إذ وقع تحت تأثير غرائزه وشهواته ، فيا أمة محمد أناديكم بما نادانا به رب العزة ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [الحديد :١٦] .



س : هل يجوز تبديل حرف الضاد بحرف الظاء في القرآن الكريم ، وهل يجوز اقتداء المصلي بمن يقرأ في الفاتحة (ولا الظالين) بدل من (الضالين) ؟

ج : النطق الصحيح للضاد غير النطق الصحيح للظاء ، وإن اشتركا في أكثر الصفات ، إلا أن الضاد تمتاز عن الظاء مخرجاً واستطالة ، فمخرج الضاد إحدى حافتي اللسان مع ما يليها من الأضراس حتى تجد بينها منفذاً لا ينضغط فيها الصوت ضغط الظاء فيظهر معها صوت خروج الريح . وحينئذ تكون مشتبهة في السمع بالظاء كما هو المنصوص عليه في جميع كتب القراءة والتجويد .

وهذا الوصف للنطق بالكتابة لايعرف إلا بالتلفظ وسماع نطقها الصحيح من العالم بها والمتمرن عليها ، وقد يتهاون بعض الناس فينطقها كالدال ، أو ينطقها كالظاء ، فهي وسط بينهما ولها نطقها الخاص بها .

وأما حكم من بدَّل حرفاً بحرف في القرآن وهو يصلي ، فقد قال العلماء : إذا كان متعمداً لهذا الإبدال وهو يعرف الفرق بينهما حرم عليه ذلك ، بل قال بعضهم بكفره ، لأنه تغيير للقرآن الكريم ، وبالتالي تكون صلاته باطلة ولاتصح إمامته . أما إن كان غير متعمد فيجب عليه أن يجتهد لمعرفة النطق الصحيح للحرف ، فإن

قصر مع قدرته على ذلك بطلت صلاته وإمامته . فإن عجز ولم يستطع إصلاح نطقه صحت صلاته وإمامته كما قال جمهور الفقهاء .

والمالكية قالوا : الألثغ - وهو من يبدل السين ثاء ، أو الزاي ذالاً - وكذلك التمتام الذي يكرر التاء في كلامه ، والفأفاء الذي يكرر الفاء ، والأرت الذي يأتي بإدغام في غير موضعه ، كأن يقول (المتقيم) بدل (المستقيم) ونحوهم من كل من لايستطيع النطق ببعض الحروف أو يدغم حرفاً في غيره إمامته وصلاته صحيحتان حتى لو كان المقتدى به سالـمًا من هذا النقص ولو وجد من يعلمه وقبل التعليم ولم يستعص عليه واتسع الوقت له ، ولا يجب عليه الاجتهاد في إصلاح لسانه على الراجح [1] .



س : كم قراءة وردت لقراءة القرآن الكريم بها ؟ وهل هناك قراءات شاذة ؟ وما أهمية تعدد القراءات؟

ج : ثبت في الأحاديث أن القرآن أنزل على سبعة أحرف واختلف العلماء في بيان المراد بالأحرف السبعة على أقوال كثير ة بلغت أربعين قولاً من أحسنها أنها الأوجه السبعة التي تختلف بها القراءة ، باختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وغيرهما وباختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر ، وباختلاف التقديم والتأخير ، وباختلاف الإبدال وباختلاف اللهجات .

والصحابة اختلف أخذهم عن الرسول ﷺ في هذه الوجوه ، واشتهر منها ما يعرف بالقراءات السبع والقراءات العشر والقراءات الأربع عشرة ، وأقواها هي السبع المنسوبة إلى الأئمة السبعة وهم : نافع وعاصم وحمزة وعبدالله بن عامر وعبدالله بن كثير وأبو عمرو بن العلاء ، وعلى الكسائي . والقراءات العشر تزيد على ما سبق قراءة أبي جعفر ويعقوب وخلف والقراءات الأربع عشرة تزيد قراءة الحسن البصري ، وابن مُحَيْصِن ، ويحيى اليزيدي ، والشنبوذي .

١- كتاب الفقه على المذاهب الأربعة نشر أوقاف مصر .

والقراءات السبع متواترة ، والمكملة للعشر قيل بتواترها وقيل بغير التواتر ، وما بعدها فهي شاذة .

وضابط القراءات المقبولة : كل قراءة وافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديراً ووافقت اللغة العربية ولو بوجه وصح إسنادها ولو كان عمن فوق العشرة من القراء - فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها .

وفائدة تعدد القراءات تظهر في التيسير من أجل القراءة والحفظ وذلك لاختلاف لهجات العرب وجاء ذلك مصرحاً به في الأحاديث مثل « أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك » ومثل « إني أرسلت إلى أمة أمية فيهم الرجل والمرأة والغلام والجارية والشيخ الفاني الذي لم يقرأ كتاباً قط....» .

ومن الفوائد جمع الأمة على لسان واحد هو لسان قريش ، وقد يكون فيها بيان حكم من الأحكام مثل ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء :١٢] فجاء في قراءة زيادة (من أم) بعد (أخ أو أخت) ومثل الكفارة بتحرير رقبة جاء في قراءة تقييدها بمؤمنة ومنها بيان لفظ مبهم مثل ﴿كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ قرئت كالصوف المنفوش .

إلى غير ذلك من وجوه التيسير والإفادة ، والموضوع ألفت فيه كتب كثيرة ، وعولج في مؤلفات (علوم القرآن) للسيوطي وغيره فليرجع إليها لمن أراد الاستزادة .



س :هل يجوز قراءة آية أو سورة بقراءات مختلفة في آن واحد ؟

ج : جاء في كتاب (منجد المقرئين) [1] ، قال الإمام محيي الدين النووي : إذا ابتدأ -يعني القارئ- بقراءة أحد القراء فينبغي ألا يزال على القراءة بها ما دام الكلام

١- لابن الجزري ص ١٤ .

مرتبطاً ، فإذا انقضى ارتباطه فله أن يقرأ بقراءة أخرى من السبعة ، والأولى دوامه على الأولى في هذا المجلس . وقال أبو عمرو ابن الصلاح في آخر جوابه عن السؤال الذي ورد من العجم : وإذا شرع القارئ بقراءة ينبغي ألايزال يقرأ بها ما بقي للكلام تعلق بما ابتدأ به ، وما خالف هذا ففيه جائز وممتنع .

يؤخذ من هذا أن جمع القراءات في مجلس واحد مكروه في الكلام المرتبط بعضه ببعض ، فإذا لم يكن ارتباط جازت قراءة آية تامة المعنى بقراءة ، وقراءة غيرها بقراءة أخرى ، ولا يستحسن العلماء جمع أكثر من قراءة في كلمة واحدة يرددها بحسب القراءة الواردة فيها ، وأكثر ما يحمل على ذلك إظهار القارئ براعته طلباً لاستحسان السامعين لما يريد أن يحققه من وراء ذلك ، وبخاصة إذا كان حسن الصوت ، أو يريد أن يغطي على عدم حلاوة صوته بمعرفته لكل القراءات ، والأعمال بالنيات .



س: ما حكم الدين فيمن يقرأ القرآن في الصلاة بالقراءات الشاذة غير المتعارف عليها ؟

ج : ذكر السيوطي [1] ، قول الزركشي أن هناك فرقاً بين القرآن والقراءات ، فالقرآن وحي الله المنزل على الرسول للبيان والإعجاز ، والقراءات اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما . وذكر أن القراءات السبع متواترة عن الأئمة ، أما تواترها عن النبي ﷺ ففيه نظر .

ثم ذكر قول أبي شامة عن ظن البعض أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث (أنزل القرآن على سبع أحرف) وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة ، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل . ثم ذكر ما يفيد أن القراءات المدونة في الكتب يوجد غيرها .

١- الإتقان ج١ ص ٨٠.

فقال القراب في (الشافي) التمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر ولا سنة ، وإنما هو من جمع بعض المتأخرين فانتشر ، وأوهم أنه لايجوز الزيادة على ذلك ، وذلك لم يقل به أحد .

وقال الكواشي : كل ما صح سنده واستقام وجهه في العربية ووافق خط المصحف الإمام فهو من السبعة المنصوصة ، ومتى فُقد شرط من الثلاثة فهو من الشاذ .

وقد اشتد إنكار أئمة هذا الشأن على من ظن انحصار القراءات المشهورة في مثل ما في التيسير والشاطبية .

قال البغوي : اعلم أن الخارج عن السبع المشهورة على قسمين ، منه ما يخالف رسم المصحف فهذا لاشك في أنه لا تجوز قراءته لا في الصلاة ولا في غيرها ، ومنه ما لا يخالف رسم المصحف ولم تشتهر القراءة به وإنما ورد من طريق غريبة لايعول عليها وهذا يظهر المنع من القراءة به أيضاً .

وقال الشوكاني [1] ، إذا تقرر لك إجماع أئمة السلف والخلف على عدم تواتر كل حرف من حروف القراءات السبع ، وعلى أنها لا فرق بينها وبين غيرها إذا وافق وجهاً عربيًّا وصح إسناده ، ووافق الرسم ولو احتمالاً بما نقلناه عن أئمة القراء تبين لك صحة القراءة في الصلاة بكل قراءة متصفة بتلك الصفة سواء كانت من قراءة الصحابة المذكورين في الحديث أو من قراءة غيرهم ، ثم ذكر الشوكاني مخالفة النويري لهذا الرأي ورد عليه .

والحديث المشار إليه هو ما رواه البخاري وغيره (خذوا القرآن من أربعة) من ابن أم عبد - أي عبد الله بن مسعود - وقد بدأ به ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وسالم مولى أبي حذيفة .

هذا ما نقلته عن الإتقان ونيل الأوطار ، ولعلماء القراءات آراؤهم ، والأمر الخلافي لا يجوز التعصب لأي رأي فيه .



١- نيل الأوطار ج٢ ص ٢٤٥.

س : هل يجوز أن يقرأ الإنسان (قل هو الله الواحد) بدل ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾؟

ج : الله هو الواحد وهو الأحد ، ولا يجوز مطلقاً أن نغير لفظاً من القرآن ونضع مكانه لفظاً آخر حتى لو كان بمعناه أو قريباً من معناه ، فالقرآن منقول لنا بلفظه ومعناه لا يجوز تغيير شيء منه ، وقد نزلت سورة الإخلاص بلفظ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فلا يجوز تغيير مطلقاً ، فالتغيير يدخل تحت قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل :١١٦] .



س : قرأ بعض الناس قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ برفع لفظ الجلالة ، وقال إن المعنى صحيح ، فما رأي الدين في ذلك؟

ج : قال تعالى في سورة فاطر : ٢٨ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ والمعنى الصحيح أن العلماء بما خلق الله في الكون من المطر والنبات والجبل والناس والحيوانات وغيرها ، يصلون بعلمهم المتعمق والمنصف إلى الإيمان بالله ويخشون الكفر به وعصيانه فيما أمر به ونهى عنه . فالعلماء يخشون الله . وإعراب الجملة المذكورة في السؤال هو أن لفظ الجلالة (الله) في موقع المفعول به فينصب ، ولفظ (العلماءُ) في موقع الفاعل فيرفع ، والمعتاد أن يتقدم الفاعل على المفعول ، والتأخير في هذا الموضع له ما يبرره ، وتحدث العلماء في بيانه ، وليس محل ذلك هنا .

أما القراءة برفع لفظ الجلالة على أنه الفاعل للخشية ، ونصب لفظ (العلماء) على أن الله يخشاهم فقد وجهه بعض المفسرين بأن الخشية هنا ليست على حقيقتها ، جاء في تفسير القرطبي أن المعنى إنما يجلهم الله ويعظمهم ، كما يجل المهيب المخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده .

ومع إمكان فهم المعنى برفع لفظ الجلالة ، فإن القراءة نفسها غير معترف بها كما يقول علماء القراءات ، على الرغم من أن عمر بن عبدالعزيز كان يقرأ بها وحكيت عن أبي حنيفة ، كما يقول القرطبي ، فلم ترد في القراءات السبع المشهورة عن الإمام الشاطبي في (الشاطبية) ولم ترد في القراءات الثلاث المكملة للسبع المشهورة من طريق (الدرة) لابن الجزري ، كما لم ترد في القراءات الأربع الشواذ المنسوبة لابن مُحَيْصِن والحسن البصري والأعشى والمطوي من طريق كتاب (الفوائد المعتبرة في القراءات الأربع الشواذ) للشيخ المتولي الشهير بالشمس المتولي صاحب كتاب (التحريرات) على (الطيبة) لابن الجزري .



س :ضمير الغائب إذا دخل عليه حرف الجر وهو (عَلَى) كان مكسوراً مثل ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ ﴾ ومثل ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ ولكن جاء في سورة الفتح مضموماً في قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ ﴾ فما السر في هذا؟

ج : ضمير الغائب كسائر الضمائر مبني وقد يكون في محل الرفع أو النصب أو الجر ، وهو إما منفصل مثل ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ﴾ ﴿ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ وإما متصل مثل ﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ﴾ ﴿ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ﴾ .

والمتصل إذا كان في محل نصب كان مضموماً في المفرد المذكر والمثنى والجمع بنوعيها ، ومفتوحاً في المفردة المؤنثة مثل : إنه ، إنها ، إنهما ، إنهن . وإذا كان في موضع جر فإما أن يكون الجر بالإضافة وإما أن يكون بدخول حرف الجر عليه ، فإن كان بالإضافة يكون مضموماً في المفرد المذكر والمثنى والجمع بنوعيها ، ومفتوحاً في المفردة المؤنثة . إذا كان آخر المضاف مرفوعاً ، مثل : هذا كتابهُ ، كتابهُما ، كتابهُم ، كتابهن وكذلك إذا كان آخر المضاف منصوباً مثل إن كتابه ، كتابها ، كتابهما ، كتابَهُم ، كتابَهن . أما إذا كان آخر المضاف مجروراً كان الضمير

مكسوراً في كل أحواله مفتوحاً في المفردة المؤنثة مثل في بيته ، بيتها ، بيتهما ، بيتهم ، بيتهن .

وإن كان الجر بدخول حرف الجر عليه فحركة الضمير تختلف باختلاف آخر الحرف ، فهو مضموم فيما عدا المفردة المؤنثة ، مع من ، عن . ومكسور فيما عدا المفردة المؤنثة ، مع الباء وإلى وعلى .

والأمثلة مع على ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ ﴾ [مريم :١٥] ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ [النساء :٦٩] .

أما قوله تعالى في سورة الفتح ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح :١٠] بضم الهاء ، فقال بعض العلماء إنه استثناء من الأصل ، لأن اسم الجلالة وهو (الله) إذا سبق بمجرور أو مكسور كان النطق به مرققاً وليس مفخماً كما هو الحال فيما إذا كان قبله فتح أو ضم ، وفي مقام العهد مع الله الذي يقتضي إظهار قوة الله وعظمته في النطق بأسمائه كان ضم الضمير في (عليه) ليكون النطق بلفظ الجلالة مفخماً لا مرققاً .

وقال آخرون : هناك لغتان في (عليهم) لغة بكسر الهاء ولغة بضمها ، وضمير المفرد المذكر يجيء على مثال الجمع ، فما كسرت فيه الهاء في المفرد فهو على لغة ، وما ضمت فيه فهو على لغة أخرى ، واللغتان عربيتان ، والقرآن كله عربي .



س : لم أتعلم أحكام قراءة القرآن ، فأنا أقرأ مع مراعاة ضبط الحروف كما هي في المصحف ، ولكني لاأعرف القواعد الأخرى لقراءته فما حكم ذلك ؟

ج : قال علماء التجويد ، تجويد القرآن الكريم واجب وجوباً شرعيًّا يثاب القارئ على فعله ويعاقب على تركه ، وهو فرض عين على من يريد قراءة القرآن ، لأنه نزل على نبينا ﷺ مجوداً ، ووصل إلينا كذلك بالتواتر . وقد أخرج ابن خزيمة في صحيحه عن زيد بن ثابت قال : قال رسول الله ﷺ (إن الله يحب أن يقرأ القرآن كما أنزل) .

قال تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾[المزمل :٤] وقال ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[الفرقان :٣٢]. والترتيل مأخوذ من قولهم : رتل فلان كلامه إذا أتبع بعضه بعضاً على مكث وتفهم من غير عجلة ، وقد سئل الإمام علي رضي الله عنه عن معنى الترتيل فقال : هو تجويد الحروف ومعرفة الوقوف . وقال ابن عباس في تفسير الآية الأولى : معنى (رتل القرآن) بينه . وقال مجاهد : تأن فيه . وقال الضحاك : انبذه حرفاً حرفاً وتلبث في قراءته وتمهل فيها وافصل الحرف من الحرف الذي بعده . وقال الإمام الغزالي في كتابه (الإحياء) : تلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب . فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل ، وحظ العقل تفسير المعاني ، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر . وقال ابن الجزري :

والأخذ بالتجويد حتم لازم ... من لم يجود القرآن آثم

لأنه به الإله أنزلا ... وهكذا منه إلينا وصلا

قال صاحب النشر في تفسير ما قاله الإمام علي في معنى الترتيل : التجويد هو حلية القراءة ، ويكون بإعطاء كل حرف من حروف الهجاء حقه ومستحقه ، أي أنه يجب أن تكون حروفه مرتبة ، ويرد كل حرف إلى مخرجه وأصله ، ويلطف النطق على كمال هيئته من غير إسراف ولاتعسف ، ولا إفراط ولاتكلف . والوقف : هو قطع الصوت على آخر كلمة زمناً يتنفس فيه القارئ . اهـ .

وهذا التجويد يتنافى مع اللحن ، الذي هو الميل عن الصواب ، وهو قسمان : لحن جلي واضح إذا كان فيه إبدال حرف بحرف أو حركة بحركة بحيث يكون هناك إخلال بالمعنى ، كالذي ينطق التاء في (يقنت) طاء (يقنط) وكالذي يضم تاء (أنعمت عليهم). وتعمُّد هذا اللحن حرام ، لأن فيه عبثاً بكلام الله ، واستهزاء بآياته ، وهو كفر بواح [1] .

والقسم الثاني من اللحن لحن خفي لا يدركه إلا المختصون من العارفين بأحكام القراءة ، وهو يخل بالأداء ولا يخل بالمعنى ، كقصر الممدود وإظهار المدغم وتفخيم المرقق وهكذا .

---

١ - الموسوعة الفقهية الكويتية ـ المجلد ٣ ص ٢١٤ .

والتجويد الذي يحفظ من هذا اللحن الخفي مستحب ، ولا يأثم تاركه ، وقيل يأثم عند تعمد هذا اللحن . أما التجويد الذي يحفظ من اللحن الجلي فهو واجب .

والتجويد وبخاصة ما يراعى فيه إعطاء المدود والغنات حقها وما يماثل ذلك يصعب أو يتعذر الاستقلال بمعرفته من الكتب ، بل لا بد له من التلقي والمشافهة عن العارفين به.

ومن أراد الثواب بتلاوة القرآن ليأخذ على كل حرف عشر حسنات فليقتصر على ترديد ما حفظه أو أتقن تلاوته ، أما من يريد التدبر والبحث والاستنباط فلا يتوقف ذلك على التلاوة ، بل يمكن النظر في المصحف دون تلفظ .

وذلك كله احتياط من أجل المحافظة على القرآن عن التحريف .



س : أرجو توضيح الخطاب في قوله تعالى ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [ق :٢٤]؟

ج : في هذه الآية الكريمة خطاب للواحد بلفظ الاثنين ، قال القرطبي في تفسيرها: إن الخليل والأخفش ، وهما من كبار علماء اللغة قالا : هذا كلام العرب الفصيح ، أن تخاطب الواحد بلفظ الاثنين فتقول : ويلك ، ارحلاها وازجراها ، وخذاه وأطلقاه ، للواحد . قال الفراء : تقول للواحد : قوما عنا . وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه ورفقته في سفره اثنان ، فجرى كلام الرجل على صاحبيه ، ومنه قول امرئ القيس : خليلي مُرَّا بي على أم جندب . وقوله : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل . وقال المازني : ألقيا يدل على : ألق ألق . وقال المبرد : هي تثنية على التوكيد ، ويجوز أن يكون الخطاب من الله للملكين ، وهما السائق والحافظ كما قال : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق :٢١] .



س : ما معنى قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ وكيف نوفق بينه وبين الآيات التي فيها مشرقان ومغربان ومشارق ومغارب ؟

ج : قال تعالى ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل :٩] وقال تعالى ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ [الرحمن :١٧] وقال ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾ [المعارج :٤٠].

خلاصة كلام المفسرين أن المقصود بالمشرق والمغرب في الآية الأولى مشرق الشمس ومغربها ، أي الجهة التي تشرق منها والجهة التي تغرب فيها ، والمراد الجهات كلها ، فليس هناك في الوجود كله إله يستحق العبادة إلا الله سبحانه ، ويلتقي هذا مع قوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف :٨٤] أي مالك الكون كله .

والمقصود بالمشرقين والمغربين في الآية الثانية مشرق الشمس ومشرق القمر ، ومغرب الشمس ومغرب القمر ، فلكل منهما مشرق ومغرب ، وقيل : المراد من المشرقين والمغربين مشرقا الشمس ومغرباها ، وذلك صيفاً وشتاء ، حيث يكون شروقها من أقصى منزلة في الشمال ومن أقصى منزلة في الجنوب ، وكذلك غروبها في أقصى منزلة في الشمال وفي الجنوب ، وهذا مشاهد لكل عين ، حيث يختلف مطلع الشمس ومغربها صيفاً وشتاء . والله سبحانه هو الذي يقدر حركات الكــون ، فتأخذ أجزاء الأرض أوضاعاً من الشمس يكون منها الصيف والشتاء وبقية الفصول ، وتتراءى لنا الشمس كأنها هي التي تعلو وتنخفض عند الشروق والغروب ، وتجري في مسارات مختلفة باختلاف الفصول ، ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه .

والمقصود بالمشارق والمغارب في الآية الثالثة ، إما مشارق الشمس ومغاربها ، وإما مشارق جميع النجوم ومغاربها ، فإن كان المقصود الأول فإن الشمس - في المسافة التي بين أقصى ارتفاع وأقصى انخفاض لها بحسب رؤية العين صيفاً وشتاء - تشرق كل يوم من منزلة وتغرب في منزلة ، أي مشرق جديد ومغرب جديد . ولاتتكرر المنزلة في الشروق والغروب إلامرتين في السنة الشمسية حين تمر عليها الشمس شمالاً وجنوباً وإن كان المراد الثاني وهو مشارق جميع النجوم ومغاربها فالأمر واضح في الكثرة ، لأن لكل منها مشرقاً ومغرباً ، بل مشارق ومغارب .

هذا ولا تتنافى كثرة المشارق والمغارب للشمس مثلاً -كما تدل عليه الآية الثالثة- مع الإخبار بمشرقين ومغارب كثيرة بتعدد المنازل كما ذكرنا ، كما لا تتنافى الآيتان الأخيرتان مع الآية الأولى التي ذكر فيها مشرق واحد ومغرب واحد ، لأن

المراد -كما قال المفسرون- جهة الشروق وجهة الغروب وفي كل من الجهتين منزلة لشروق الشمس وغروبها إجمالاً ومنازل تفصيلاً .

وقال بعض المفسرين : المراد بالمشرق والمغرب في هذه الآية الجنس لا الوحدة والجنس يصدق بالواحد والاثنين والثلاثة وما بعدها ، فلا تنافي فيما بين الآية والآيتين الأخريين . والمراد بالمشرقين والمغربين في الآية الثانية جنس المشرقين للشمس والقمر وجنس المغربين لهما ، وهو يصدق بالواحد والمتعدد .

وبهذا يعلم أنه لاتضارب بين آيات القرآن الكريم مطلقاً ، لأن القرآن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

وإذا كان هناك تضارب فهو بحسب الظاهر لابحسب الحقيقة . فلا يجوز أن يوجه الطعن إليه قبل التدبر والفهم

فكم من عائب قولاً صحيحاً وآفتـــــه من الفهم السقيم



س : هل صحيح ما يقال : إن المعوذتين ليستا من القرآن الكريم ؟

ج : هذا الكلام قديم وذكرته بعض كتب التفسير ونسب إلى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، يقول القرطبي في تفسيره [1] ، زعم ابن مسعود أنهما - قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس - دعاء تعوذ به النبي ﷺ حين سحرته اليهود ، وليستا من القرآن . خالف به الإجماع من الصحابة وأهل البيت .

وهذا الكلام يعني أن المعوذتين من القرآن ، والدليل عليه هو الإجماع من الصحابة وأهل البيت ، ثم ذكر القرطبي مبررات لقول ابن مسعود ، فذكر أن ابن قتيبة قال: لم يكتب عبدالله بن مسعود في مصحفه المعوذتين لأنه كان يسمع

١- ج ٢٠ ص ٢٥١.

رسول الله ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين -رضي الله عنهما- بهما ، فقدَّر أنهما بمنزلة : أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة .

ومن المعلوم أن المصحف الرسمي المعوَّل عليه هو ما كان يمليه النبي ﷺ على كتَّاب الوحي ، وكان بعض الصحابة يكتب لنفسه ما نزل من القرآن في مصحف خاص كابن مسعود ، وقد تكتب فيه تعليقات وتوضيحات وهوامش يراها صاحب المصحف هامة عنده ، وعلى فرض أن ابن مسعود لم يكتبهما في مصحفه فليس ذلك دليلاً على أنهما ليستا من القرآن الكريم ، ومن المعلوم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما جمع المصحف تحت إشراف لجنة مختصة ، ونسخ منه عدة نسخ وأرسل بعضها إلى الأمصار لتكون إماماً للناس - أمر بإحراق كل ما عدا المصحف الذي جمعه حتى يكون المصحف الرسمي واحداً لا خلاف فيه .

وأبو بكر الأنباري لا يرضى قول ابن قتيبة فيما نسب إلى ابن مسعود ويؤكد : أن المعوذتين من كلام رب العالمين المعجز لجميع المخلوقين ، وأن (أعيذكما بكلمات الله التامة) واضح أنه من قول البشر ، وكلام الله الخالق الذي هو معجزة لخاتم الأنبياء محمد ﷺ وحُجة باقية على الكافرين - لا يلتبس بكلام الآدميين على مثل عبدالله بن مسعود العالم باللغة وأفانين الكلام .

ثم يذكر القرطبي أن ترك عبدالله بن مسعود لكتابتهما سببه كما قال البعض أنه آمن عليهما من النسيان ، كما أسقط فاتحة الكتاب من مصحفه لذلك . مع أنه حافظ متقن ، ولكن هذا التعليل غير مسلَّم ، لأنه كتب : إذا جاء نصر الله والفتح ، إنا أعطيناك الكوثر ، وقل هو الله أحد ، وهن كالمعوذتين في عدم الطول وفي سرعة الحفظ ، ونسيانهن مأمون .

وذكر ابن كثير في تفسيره عدة روايات تثبت أن المعوذتين من القرآن وأن الرسول ﷺ كان يقرأ بهما في الصلاة ويرغب في قراءتهما لما لهما من الثواب العظيم ، وأكثرهذه الروايات في مسند أحمد وفي سنن النسائي . وروى مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال (ألم تر آيات أُنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط ، قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس) .

كما جاء في تفسير ابن كثير أن البخاري روى عن زرٍّ بن حُبيش أنه سأل أُبي ابن كعب : يا أبا المنذر إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا فقال : إني سألت النبي ﷺ فقال « قيل لي فقلت » فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ والحافظ ابن حجر ذكر كثيراً مما تقدم يؤكد الإجماع على أن المعوذتين من كلام الله تعالى وقرآنه الكريم[1].

يؤخذ من هذا الكلام أن المعوذتين من كلام الله ومن سور المصحف الشريف ، وعدم كتابة ابن مسعود لهما لا يلزم منه أنهما ليستا من القرآن ، بصرف النظر عما جاء من تعليل لذلك ، فالإجماع منعقد من أيام الصحابة على أنهما من القرآن الكريم ، ومصحف عثمان هو الإمام لكل المصاحف لإجماع الصحابة عليه .



س : ما حكم الدين في عدم ذكر البسملة في الصلوات التي تصلى جهراً ؟

ج : البسملة في الفاتحة فيها ثلاثة مذاهب ، مذهب يقول : إنها لمجرد الفصل بين السور ، فلا تجب قراءتها في الفاتحة ، والصلاة بدون قراءتها صحيحة ، بل قال: قراءتها مكروهة في الفرض دون النافلة ، وليس لهذا المذهب دليل قوي .

ومذهب يقول : إنها آية من الفاتحة ، وقراءتها واجبة فيها ، ولا تصح الصلاة بدونها ، وتعطى حكم الفاتحة في الإسرار أو الجهر بها . وأقوى دليل لهذا المذهب حديث يقول راويه : صليت وراء أبي هريرة فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » ثم قرأ بأم القرآن -الفاتحة- وجاء في آخر الحديث قوله : والذي نفسي بيده إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ [2] .

ومذهب يقول : قراءتها في الفاتحة جائزة ، بل مستحبة ، ولكنها غير واجبة ، فتصح الصلاة بدونها ، لكن هذا المذهب يقول : لا يجهر بالبسملة ولكن تقال

١- ج٨ ص ٦١٥.
٢- رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما ، وقال الحافظ ابن حجر : هو أصح حديث ورد في البسملة .

سرًّا ، والدليل عليه قول أنس : صليت خلف الرسول وأبي بكر وعمر وعثمان وكانوا لا يجهرون ببسم الله الرحمن الرحيم [1] .

ويمكن أن يقال : إن النبي ﷺ كان يجهر بها أحياناً ، ويسر بها أحياناً أخرى ، وما دام الأمر خلافيًّا فلا يجوز التعصب لأي رأي .

وأرى أن الإتيان بها ينفع ولا يضر ، وأن عدم الإتيان بها لا يبطل الصلاة .



س : ما سبب عدم بدء سورة التوبة بالبسملة ؟

ج : السبب في ذلك مختلف فيه ، فقيل لأنها سورة نزلت بالحرب والقتال وفضح أحوال المنافقين ، ولا يناسبها البدء بالبسملة التي تشتمل على الرحمة ، كعادة العرب عندما يوجهون كلاماً إلى الغير تكون مقدمته مناسبة لموضوعه وقيل لأن عثمان رضي الله عنه لما أمر الكتَّاب بنسخ صور من القرآن ، وترتيب سوره التي لم يثبت في ترتيبها نص من النبي ﷺ حيث جعل السور الطوال بجوار بعضها - رأى أن سورة الأنفال متناسبة مع سورة التوبة في الموضوع ، فأمر بجعلهما بجوار بعضهما بدون البسملة ، مع أن سورة الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وسورة براءة من أواخر ما نزل ، لكنهما متناسبتان من جهة الموضوع ، وقيل غير ذلك ، وفي كتب التفسير متسع لمن أراد الاستزادة .



س : هل يجب على الإنسان إذا أراد أن يقرأ شيئاً من القرآن الكريم أن يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؟

ج : قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل :٩٨] يقول القرطبي [2] ، هذا الأمر على الندب في قول الجمهور ، وذلك في كل قراءة في غير

١- رواه النسائي وابن حبان بإسناد على شرط الشيخين .

٢- ج١ ص٨٦.

الصلاة ، أما في الصلاة فقد اختلفوا ، وحكي عن عطاء أن الاستعاذة واجبة ، وأبوحنيفة والشافعي يتعوذان في الركعة الأولى من الصلاة ، ويريان قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة ، ومالك لا يرى التعوذ في الصلاة المفروضة ، ويراه في قيام رمضان.

يؤخذ من هذا أن الاستعاذة قبل قراءة القرآن سنة عند الجمهور ، وذلك في غير الصلاة ، أما في الصلاة فهي سنة قبل قراءة الفاتحة عند الحنفية والشافعية ، يستوي في ذلك صلاة الفرض والنفل ، والمالكية لا يستحبونها في الفرض .

وجاء في كفاية الأخبار (١) ، في فقه الشافعية أن الاستعاذة مستحبة لكل ركعة ، لوقوع الفصل بين القراءتين بالركوع وغيره ، وقيل : يختص بالركعة الأولى ، فما ذكره القرطبي هو أحد قولين عند الشافعية .



س : هل من الحديث ما يقال « اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإياكم ولحون أهل الفسق والكبائر ، فإنه سيجيء أقوام من بعدي يرجّعون القرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح ، لا يجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم) ؟

ج : هذا الحديث موجود في مقدمة تفسير القرطبي (٢) ، ذكره الحافظ أبو الحسن رزين وأبو عبدالله الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) ولم يذكر درجته من الصحة وغيرها ، وهو على كل حال ينهى عن التغني بالقرآن بما يخرجه عن أصول التلاوة الصحيحة ، ويجعله كالأغاني التي يرددها المغنون والتي فيها ترجيع وتطريب يهمز فيه ما لا يهمز ، ويمد ما لا يمد ، وتصير الألف الواحدة ألفات ، والواو الواحدة واوات ، كما وضحه القرطبي ، ونعى على كثير من قراء اليوم الذين يخرجون بالقرآن عن أصول القراءة العربية المتلقاة عن النبي ﷺ .



١- ص ١٠٤.   ٢- ج١ ص ١٧.

س : هل ما نسمعه من قراءة القرآن في المآتم والاحتفالات تجويد شرعي أو تطريب مُراعى فيه مقامات الموسيقى لإعجاب المستمعين ؟

ج : التجويد ، هو ضبط القراءة بإخراج الحروف من مخارجها وإعطائها حقها ومستحقها كما حدده المشتغلون بعلم التجويد أما تحسين الصوت بالقرآن فشيء وراء التجويد اللازم لصحة القراءة ، والأمر بتحسين الصوت بالقرآن موجود في نصوص كثيرة منها حديث (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) [1] وحديث (زينوا القرآن بأصواتكم) [2] ، وحديث (ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به) [3] .

وقد توسع القرطبي في شرح الأحاديث في مقدمة تفسيره نقتطف منه ما يلي :

العلماء فريقان في التطريب وقراءة القرآن بالألحان ، فكرهه جماعة منهم الإمام مالك ، وقال : لايعجبني ، إنما هو غناء يتغنون به ليأخذوا عليه الدراهم ، وأجازته جماعة ، لأنه أوقع في القلوب ، واحتجوا بالأحاديث السابقة .

ومما ورد أن الرسول ﷺ استمع إلى قراءة أبي موسى الأشعري وأعجب بها دون أن يعلم ، فلما علم قال : لو أعلم أنك تستمع لقراءتي لحبَّرته لك تحبيراً ، وعلى هذا أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وغيرهم .

واختار القرطبي رأي مالك وأجاب عن الأحاديث بأن القرآن لا يُزيَّن بالصوت ، وإنما الصوت هو الذي يزين بالقرآن فالتعبير في الحديث مقلوب ، وكذلك فسره غير واحد .

وذكر رواية لأبي هريرة «زينوا أصواتكم بالقرآن» كما روى عن عمر : حسنوا أصواتكم بالقرآن .

وحديث التغني بالقرآن معناه تحسين الصوت به ، وهو معنى التحبير الوارد في كلام أبي موسى الأشعري . وقيل : المراد بالتغني الاستغناء بالقرآن عن علم أخبار

١- رواه مسلم .   ٢- رواه أبو داود والنسائي .
٣- رواه مسلم .

الأمم وقيل : معناه يتحزن به وقيل : إن العرب كانت تولع بالغناء والنشيد في أكثر أقوالها فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هِجِّيَراهُمْ ، أي دأبهم وعادتهم .

ونفى الشافعي ومن معه أن يكون المراد بالتغني الاستغناء ، لأن الرسول ﷺ لو أراده لقال « من لم يستغن » بدل « يتغن » قال الطبري : المعروف عندنا في كلام العرب أن التغني إنما هو الغناء الذي هو حسن الصوت بالترجيع : ورد القرطبي كلام الطبري ، وذكر أن الترجيع والتطريب فيه همز ما ليس بمهموز ، ومد ما ليس بممدود ، ويؤدي ذلك إلى زيادة في القرآن وهو ممنوع .

ثم ذكر القرطبي أن الخلاف في التطريب محله إذا لم يترتب عليه عدم فهم القرآن ، وإلا كان حراماً بالاتفاق ، وحمل بشدة على قراء مصر لذلك ، ثم ذكر حديثاً رواه الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) وهو « اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون العشق ولحون أهل الكتاب ، وسيجيء بعدي قوم يرجِّعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح ، لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم » وقال : اللحون جمع لحن وهو التطريب وترجيع الصوت وتحسينه بالقراءة والشعر والغناء ، انتهى .

غير أن ما يرويه الترمذي الحكيم فيه كلام كثير ، وهو غير الترمذي صاحب السنن ، والواجب في قراءة القرآن الخشوع والأدب في الأداء ، والمحافظة على إخراج الحروف من مخارجها ، وإعطاء المد حقه وعدم التمطيط الزائد ، أو الانتقال المفاجئ من رفع الصوت العالي إلى الانخفاض الشديد ، ومايشبه ذلك مما لا يفرق بين قراءة القرآن والغناء ، والعلماء المختصون بالتجويد والقراءات هم أهل الذكر في ذلك .



س : ما حكم الدين في قراءة القرآن في المواصلات العامة ؟

ج : قراءة القرآن في أي مكان طاهر محترم لا حرج فيها مطلقاً ، إذا قصد بها ذكر الله والتعبد ورجاء الثواب من الله سبحانه ، أو التعليم للغير كيفية التلاوة أو أحكام القرآن وهدايته ، ويدل على ذلك إطلاق قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ

جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٩١] . وإطلاق قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب:٤١ ، ٤٢] .

والقرآن أشرف الذكر ، وذلك إلى جانب ما ورد من الحث على قراءة القرآن .

وإنما الممنوع أن يُتخذ القرآن وسيلة للاستجداء واستدرار عطف الناس ، وبخاصة ما يكون عليه المستجدي من هيئة مبتذلة كأنها عنوان للقراء أو المشتغلين بالدين عامة .

وعلى هذا يحمل قول النبي ﷺ فيما رواه أحمد « اقرءوا القرآن واعملوا به ولاتجفوا عنه ولا تغلوا فيه ولا تأكلوا به ولا تستكثروا به »[1] ، وفسر الأكل به بأخذ الأجرة عليه ، كما فُسر بالاستجداء به والتسول .

ويجب العمل على إزالة هذه المظاهر وغيرها من مظاهر التسول ، فهي صورة سيئة للإسلام ، وإغراء بالكسل وعدم البحث عن العمل الجاد الشريف .

أما العاجزون فتجب رعايتهم بما يكفل لهم العيش الكريم ، وتلك مسئولية المجتمع كله والأجهزة المخصصة لذلك .



س: هل تجوز قراءة القرآن بأجر ؟

ج : قارئ القرآن لا يخلو من حالات أربعة :

الأولى : أن يقرأه تقرباً إلى الله كما يتقرب بالذكر والتسبيح وسائر أنواع القرب .

الثانية : أن يقرأه من أجل إفادة غيره بتعليمه إياه حفظاً أو تجويداً ، أو بوعظه وإرشاده به .

الثالثة : أن يقرأه من أجل إفادة غيره بحسن صوته وتطريبه وتلحينه ، أو من أجل العلاج به .

الرابعة : أن يقرأه ليهب ثوابه إلى الميت .

والأجر على هذه القراءة إما أخروي وإما دنيوي ، ولكل حالة حكمها .

١- قال الهيثمي : رجاله ثقات ، وقال ابن حجر في الفتح : سنده قوي . كما رواه الطبراني والبيهقي أيضاً.

١ - أما القراءة تقرباً إلى الله سبحانه فلها ثواب أخروي إذا خلت من الرياء، وقد جاءت نصوص كثيرة ترغب في قراءته ، فالحرف الواحد بعشر حسنات ، ويرقى القارئ في درجات الجنة بمقدار ما يقرأ ، والقرآن شافع مشفع ، ويلبسه الله تاج الكرامة وحلة الكرامة ويرضى الله عنه ، ويأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة ، إلى غير ذلك من أنواع الثواب الذي جعله لقراءته بوجه عام إلى جانب ما جعله لسور وآيات مخصوصة .

ولا يجوز مطلقاً أن يتعاقد على أجر في مقابل هذه القراءة ، كالصلاة ، وإلا حُرِمَ ثواب الله ، حيث قصد بالقراءة غير وجه الله . لكن لو قدمت له هدية من أجل تكريمه وتشجعيه على الطاعة فلا مانع من قبول الهدية ، للترغيب في قبولها ، على شرط ألا يكون متطلِّعاً لها عند قراءته . وفي مثل هؤلاء المتاجرين بالقراءة والمرائين والمتسولين به يقول الحديث الذي رواه أحمد «اقرءوا القرآن ولا تغْلُوا فيه ولا تجفوا عنه ، ولا تأكلوا به ولا تستكثروا به» والغلُوُّ فيه والجفوة عنه هو في التطبيق ، مغالاة في التمسك أو تقصيراً وجفوة له ، والأكل به هو أخذ المقابل له كسلعة تباع ، والاستكثار به يكون بالرياء والتفاخر والتعالي ، وذلك على بعض ما شرح به الحديث ، وكذلك في مثل هؤلاء يقول الحديث الذي رواه أحمد والترمذي «اقرءوا القرآن واسألوا الله به ، فإن من بعدكم قوماً يقرءون القرآن يسألون به الناس» وكذلك أحاديث أخرى تقبل في فضائل الأعمال ، هذا وقد جاء في كتاب «الحاوي للفتاوى» للسيوطي : لو قال شخص لآخر : اقرأ لي كل يوم ما تيسر من القرآن واجعل ثوابه لي أو لفلان الميت، وجعل له على ذلك مالاً معلوماً ففعل ، فهل يكون ثواب القراءة لهذا الشخص أو يكون له مثل الثواب ، وهل يبقى للقارئ ثواب أم لا ، وما الحكم لو كانت القراءة بدون مقابل ، بل كانت تبرعاً ؟

جاء في الجواب : أن هذه القراءة جائزة إذا شرط الدعاء بعدها والمال الذي أخذه القارئ هو من باب الجعالة ، والجعالة هنا على الدعاء لا على القراءة ، فإن ثواب القراءة للقارئ ولا يمكن نقله للمدعو له ، وإنما يقال : له مثل

ثوابه فيدعو بذلك ويحصل له إن استجاب الله الدعاء ، وكذلك حكم القارئ بدون مقابل .

ثم قال السيوطي : من يقرأ ختمات من القرآن بأجرة هل يحل له ذلك ؟ وهل يكون ما يأخذه من الأجرة من باب التكسب أو الصدقة ؟

وأجاب بقوله : نعم يحل له أخذ المال على القراءة والدعاء بعدها ، وليس ذلك من باب الأجرة ولا الصدقة ، بل من باب الجعالة ، فإن القراءة لا يجوز الاستئجار عليها، لأن منفعتها لا تعود إلى المستأجر . لما تقرر في مذهبنا - الشافعية - من أن ثواب القراءة للقارئ لا للمقروء له ، وتجوز الجعالة عليها إن شرط الدعاء بعدها، وإلا فلا، وتكون الجعالة على الدعاء لا على القراءة ، هذا مقتضى قواعد الفقه.اهـ.

٢ - أما الذي يعلِّم القرآن للحفظ والتجويد أو للوعظ والتعليم للدين ، فله أجر من الله إن قصد به وجهه دون رياء أو طلب مقابل دنيوي ، والنصوص كثيرة في الترغيب في التعليم ، منها حديث «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[١] وحديث «يا أبا ذر ، لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة ، ولأن تغدو فتعلِّم باباً من العلم ، عمل به أو لم يعمل خير لك من أن تصلي ألف ركعة»[٢]. وحديث الثلاثة الذين هم أول من تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة ، ومنهم رجل تعلم العلم وقرأ القرآن من أجل أن يقال إنه عالم وقارئ ، وقد استوفى بذلك ما أراد في الدنيا ولم يَعُدْ له ثواب عند الله ، فيؤمر به ويسحب على وجهه ويلقى في النار[٣] ، وينطبق عليهم قول الله تعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [هود:١٥ ، ١٦] .

١- رواه البخاري ومسلم .
٢- رواه ابن ماجه بإسناد حسن .
٣- رواه مسلم وغيره .

أما أجر الدنيا على تعليم القرآن والوعظ به ، فينظر فيه ، فإن كان واجباً على القائم به لحاجة المتعلم إليه لمعرفة ما يجب عليه ولا يوجد غير هذا المعلم فأختار ألا يستحق عليه أجراً وألا يساوم على هذا الأجر ، لأن الواجب الديني ثوابه وأجره عند الله فقط ، والتقصير فيه يستوجب العقوبة ، أما إن كان التعليم غير واجب فلا مانع من أخذ الأجر عليه ، لأنه أمر اختياري لا عقوبة في التقصير فيه .

وفي كلتا الحالتين -وجب التعليم وعدم وجوبه - لو أعطيت للمعلم هدية غير مشروطة وغير مساوم عليها فلا مانع من قبولها ، بل يُسنُّ قبولها كأية هدية أخرى وكذلك لو خصص بيت المال أو جهة ما مبلغاً من المال يدفع للقائمين بذلك تشجيعاً لهم على التفرغ لهذا العمل وعدم انشغالهم عنه بواجب كسب عيشهم بزراعة أو تجارة مثلاً ، وعملهم هذا جهاد في سبيل الله بمعناه الواسع غير القاصر على حمل السلاح لمواجهة العدو .

وقد ورد في ذلك حديث أُبَيِّ بن كعب قال : علَّمت رجلاً القرآن ، فأهدى لي قوساً، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال «إن أخذتها أخذت قوساً من نار» فرددتها[1] .

وفي هذا الحديث كلام يضعف الاحتجاج به ، وبخاصة على الحرمة ، وتوضيح ذلك يرجع إليه في نيل الأوطار للشوكاني[2] .

ويستدل على جواز أخذ مقابل لتعليم القرآن في حالة عدم وجوبه بما أخرجه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ أجاز أن يكون الصداق في الزواج تعليم الزوجة شيئاً من القرآن .

يقول الشوكاني بعد ذكر أحاديث النهي عن الأكل بالقرآن والسؤال به وعن أخذ القوس وتناول الطعام عند صاحبه : إنه قد استدل بها من قال : لاتحل الأجرة على تعليم القرآن وهو أحمد بن حنبل وأصحابه وأبو حنيفة والهادوية ، وظاهره

١- رواه ابن ماجه ، ورواه غيره بألفاظ أخرى جاء فيها أنه كان يأكل أيضاً من طعام من علّمه ، وأن الرسول أجازه إن كان طعاماً عادياً لأهل هذا الرجل وليس خاصًّا به .

٢- ج٥ ص ٣٠٣ .

عدم الفرق بين أخذها على تعليم من كان صغيراً أو كبيراً ، وقالت الهادوية : إنما يحرم أخذها على تعليم الكبير ، لأجل وجوب تعليمه القدر الواجب وهو غير متعين ، ولا يحرم على تعليم الصغير لعدم الوجوب عليه . وقال : وذهب الجمهور إلى أنها تحل الأجرة على تعليم القرآن ، وأجابوا عن أحاديث المنع بأجوبة منها - إلى جانب الضعف - أن الرسول علم من أُبي بن كعب أنه فعل ذلك خالصاً لوجه الله فكره أخذ العوض عليه ، وأما من علَّم القرآن على أنه لله وأن يأخذ من المتعلم ما دفعه إليه بغير سؤال ولا استشراف نفس فلا بأس به ، وأن حديث تحريم السؤال به غير أخذ الأجر على تعليمه ، وحديث منع الأكل بالقرآن لايستلزم المنع من قبول ما يدفعه المتعلم بطيب نفس .

وحاول الشوكاني ردَّ هذه الأجوبة بأسلوب يدل على تحمسه لمذهب من حرم أخذ الأجرة ، كما حاول الرد على حديث البخاري في جواز أن يكون تعليم القرآن صداقاً في الزواج وهو أجر ، بعدة ردود منها أنه خاص بهذين الزوجين وليس عامًّا ، بناء على حديث سعيد بن منصور الذي جاء فيه «لايكون لأحد بعدك مهراً».

هذا ، وما دام الجمهور قد أجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ، وبخاصة إذا كانت بسخاء نفس تشبه الهدية فلا مانع من أخذ هذا المقابل ، مع الوصية بعدم الحرص الشديد عليه وإيثار ثواب الله على أجر الدنيا ، هذا وقد جاء في تفسير القرطبي [1] ، لقوله تعالى ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة:٤١] أن الأحبار كانوا يعلمون دينهم بالأجرة فنهوا عن ذلك . ثم قال : وهذه الآية وإن كانت خاصة ببني إسرائيل فهي تتناول من فعل فعلهم ، فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطالة أو امتنع من تعلمي ما وجب عليه أو أداء ما علمه وقد تعين عليه حتى يأخذ عليه أجراً فقد دخل في مقتضى الآية . وقد روى أبو داود أن النبي ﷺ قال «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة» يعني ريحها .

١- ج١ ص ٣٤ .

ثم قال القرطبي : وقد اختلف العلماء في أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم لهذه الآية وما كان في معناها ، فمنع ذلك الزهري وأصحاب الرأي فقالوا : لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ، لأن تعليمه واجب من الواجبات التي يحتاج فيها إلى نية التقرب والإخلاص ، فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام ، وقد قال تعالى ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وروى ابن عباس أن النبي ﷺ قال «معلمو صبيانكم شراركم ، أقلهم رحمة باليتيم وأغلظهم على المسكين»[1] وعن أبي هريرة في المعلمين «درهمهم حرام وثوبهم سحت وكلامهم رياء» وروى عبادة بن الصامت أنه علَّم ناساً من أهل الصفة القرآن والكتابة ، فأهدى إليه رجل منهم قوساً رأى أنها ليست بمال وأنه يرمي بها في سبيل الله ، فسأل الرسول عن ذلك فقال «إن سرك أن تطوق بها طوقاً من نار فاقبلها» .

وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك والشافعي وأحمد وأبو ثور وأكثر العلماء ، لحديث البخاري «إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله» وهو نص يرفع الخلاف فينبغي أن يعول عليه .

ثم قال القرطبي : وأما ما احتج به المخالف ، من القياس على الصلاة والصيام ففاسد لأنه في مقابل النص ، ثم إن بينهما فرقاناً ، وهو أن الصلاة والصيام عبادات مختصة بالفاعل ، وتعليم القرآن عبادة متعدية لغير المعلم ، فتجوز الأجرة على محاولته النقل ، كتعليم كتابة القرآن . قال ابن المنذر : وأبو حنيفة يكره تعليم القرآن بأجرة، ويجوِّز أن يستأجر الرجل يكتب له لوحاً أو شعراً أو غناء معلوماً بأجر معلوم ، فيجوِّز الإجارة فيما هو معصية ويبطلها فيما هو طاعة .

وأما الجـواب عن الآية فالمراد بها بنو إسرائيل ، وشرع من قبلها هل هـو شرع لنا ؟ فيه خلاف ، وهو لا يقول به .

وجواب ثان وهو أن تكون الآية فيمن تعيَّن عليه التعليم فأبى حتى يأخذ عليه أجراً ، فأما إذا لم يتعين فيجوز له أخذ الأجرة بدليل السنة في ذلك ، وقد يتعين عليه

---

١ – حديث موضوع .

إلا أنه ليس عنده ما ينفقه على نفسه ولا على عياله فلا يجب عليه التعليم وله أن يقبل على صنعته وحرفته ، ويجب على الإمام أن يعين لإقامة الدين إعانته ، وإلا فعلى المسلمين ، لأن الصدِّيق رضي الله عنه لما ولي الخلافة وعُيِّن لها لم يكن عنده ما يقيم به أهله فأخذ ثياباً وخرج إلى السوق ، فقيل له في ذلك ، فقال : ومن أين أنفق على عيالي؟ فردوه وفرضوا له كفايته .

وأما الأحاديث فليس شيء منها يقوم على ساق ، ولا يصح عنها شيء عند أهل العلم بالنقل ، أما حديث ابن عباس فرواه سعد بن طريف عن عكرمة عنه ، وسعيد متروك . وأما حديث أبي هريرة فرواه علي بن عاصم عن حماد بن سلمة عن أبي جرهم عنه ، وأبو جرهم مجهول لا يعرف ، ولم يرو حماد بن سلمة عن أحد يقال له أبو جرهم . وإنما رواه عن أبي المهزِّم وهو متروك الحديث أيضاً ، وهو حديث لا أصل له ، وأما حديث عبادة بن الصامت رواه أبو دواد من حديث المغيرة بن زياد الموصلي عن عبادة بن نُسيٍّ عن الأسود بن ثعلبة عنه ، والمغيرة معروف عند أهل العلم ولكن له مناكير ، هذا منها ، قاله أبو عمر . ثم قال : وأما حديث القوس فمعروف عند أهل العلم ، لأنه روى عن عبادة من وجهين ، وروي عن أُبي بن كعب من حديث موسى بن علي عن أبيه عن أبي ، وهو منقطع . وليس في الباب حديث يجب العمل به من جهة النقل ، وحديث عبادة وأُبي يحتمل التأويل لأنه جائز أن يكون علَّمه لله ثم أخذ عليه أجراً ، وروي عن النبي ﷺ أنه قال «خير الناس وخير من يمشي على جديد الأرض المعلمون ، كلما خلق الدين -صار قديماً- جددوه ، أعطوهم ولاتستأجروهم فتحرجوهم ، فإن المعلم إذا قال للصبي : قل بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال الصبي بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبي وبراءة للمعلم وبراءة لأبويه من النار» .

انتهى ما قاله القرطبي ، لكنه لم يذكر درجة هذا الحديث ، وهو إن كان ضعيفاً يعمل به في فضائل الأعمال .

يتلخص من هذا ، أن الأجر على تعليم القرآن جائز إن لم يتعين عليه ، وكذلك إن تعين عليه لكنه مشغول بتحصيل قوته فيجعل له بيت المال أو المسلمون

ما يجعله متفرغاً للتعليم ، ثم قال القرطبي[1] : واختلف العلماء في حكم المصلي بأجرة ، فروى أشهب عن مالك أنه سئل عن الصلاة خلف من استؤجر في رمضان يقوم للناس -صلاة التراويح وقيام الليل- فقال : أرجو ألا يكون به بأس ، وهو أشد كراهة له في الفريضة . وقال الشافعي وأصحابه وأبو ثور : لا بأس بذلك ولا بالصلاة خلفه . وقال الأوزاعي : لا صلاة له ، وكرهه أبو حنيفة وأصحابه .

٣ - أما أصحاب الأصوات الحسنة الذين يقصدون من قراءتهم إدخال السرور على السامعين ، سواء كانت المناسبة أفراحاً وأعياداً أم عزاء مثلاً ، مع التزام كل الآداب المطلوبة من القراء والسامعين ، إن كانت هناك مساومة على الأجر يمكن أن ينطبق عليه حديث النهي عن الأكل والتسول به ، وعن الاستكثار والتفاخر بالصوت الجميل ، لأن العمل ليس تعليماً للقرآن ولا تعليماً للدين به ، بل مجرد قراءة لا يقصد بها وجه الله عند بعضهم ، فهي قربة كالصلاة لا تطلب بها الدنيا ماديًّا ولا أدبيًّا ، أما إذا لم تكن مساومة وأعطيت كهدية لا مانع من قبولها ، وقد يثاب دافعها إن قصد بها تكريم القرآن وحامله إن كان غنيًّا ، أو مساعدته إن كان محتاجاً للمساعدة .

وإن قصد بقراءة القرآن علاج مريض ، كالرقى التي أجازها النبي ﷺ ، لا مانع من اشتراط الأجر وقبوله .

وقد جاء النص على هذه الحالة في حديث رواه البخاري عن ابن عباس أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ مروا بماء فيه لديغ أو سليم ، فعرض لهم رجل من أهل الماء فقال: هل فيكم من راق فإن في الماء رجلاً لديغاً أو سليماً ؟ فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شياه -أي في مقابل شياه- فجاء بالشاء إلى أصحابه فكرهوا ذلك وقالوا: أخذت على كتاب الله أجراً ؟ حتى قدموا المدينة فقالوا : يا رسول الله أخذ على كتاب الله أجراً ، فقال رسول الله ﷺ «إن أحق ما أ خذتم عليه أجراً كتاب الله» وجاء في رواية أخرى أن الراقي طلب أجراً لأن القوم أبوا أن يضيفوهم

---

١ - ص ٣٣٧ .

وكانوا في حاجة إلى الضيافة ، وأن الرسول ﷺ قال لأصحابه «قد أصبتم ، اقسموا واضربوا لي معكم سهماً ، وضحك » ، وذلك مبالغة في تأنيسهم ، واللديغ يطلق عليه أيضاً السليم من باب التفاؤل ، وحاول المانعون من أخذ الأجرة الرد على هذا الحديث بأنه منسوخ ، لكن النسخ لا يثبت بمجرد الاحتمال ، بل لا بد له من دليل ، كما ردوا بأن الأجر فيه هو على الرقية لا على التلاوة والتعليم ، أما الأجر على التعليم فهو ممنوع . ولا يخفى ما في هذا من تعسف لا داعي له ، فكل منفعة تقدم للغير يجوز أخذ مقابل لها ما دامت مشروعة وغير متعينة ، أما المتعينة كالزكاة فليس لها مقابل مادي ممن أخذها ، لأنها حقه كما قال سبحانه ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات:١٩] .

هذا هو خلاصة ما أخذته من الأحاديث الواردة في أخذ الأجر على القرآن ، تلاوة أو تعليماً أو إفادة بطريق مشروع ، وقد رأينا خلاف الفقهاء في جواز الأخذ ومنعه ، وما دام الأمر خلافيًّا فلا يجوز التعصب لرأي ، مع التوصية بالمحافظة على جلال القرآن والاهتمام بثواب الله سبحانه .

ويعجبني ما ختم به صاحب «منتقى الأخبار» الذي شرحه الشوكاني ، الأحاديث الواردة في الموضوع ، وهو يميل إلى المنع ، فقال بعد ذكر حديث رقية الرجل اللديغ ، وقد صح أن النبي ﷺ زوج امرأة رجلاً على أن يعلمها سوراً من القرآن. ومن ذهب إلى الرخصة لهذه الأحاديث حمل حديث أُبي وعبادة -المانعين- على أن التعليم كان قد تعين عليهما ، وحمل فيما سواهما من الأمر والنهي على الندب والكراهة ، يعني على عدم الوجوب والحرمة .

هذا ، وأما قراءة القرآن من أجل نفع الميت بها ، ففيها خلاف للعلماء بين المنع من استفادته بها بناء على أنها عبادة بدنية لا تقبل النيابة ، وبين الجواز بناء على رجاء رحمة الله وما ورد من بعض النصوص ، ومن تتبع أقوال الكثيرين يمكن استنتاج ما يلي:

١ - إذا قرئ القرآن بحضرة الميت فانتفاعه بالقراءة مرجو ، سواء أكان معها إهداء أم لم يكن ، وذلك بحكم المجاورة ، فإن القرآن إذا تلى ، وبخاصة إذا كان في

اجتماع ، حفت القارئين الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، روى مسلم قول النبي ﷺ : «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يقرءون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة» والقرآن ذكر بل أفضل الذكر ، وقد روى مسلم وغيره حديث «لايقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده» بل لايشترط لنزول الملائكة وغيرهم أن تكون القراءة أو الذكر في جماعة ، فيحصل ذلك للشخص الواحد . روى البخاري ومسلم حديث أسيد بن حضير الذي كان يقرأ القرآن في مربده وبجواره ولده وفرسه ، وجاء فيه : فإذا مثل الظلة فوق رأسي ، فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها ، فقال له رسول الله ﷺ «تلك الملائكة تستمتع لك ، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم» .

على أن النص قد جاء بقراءة «يسٓ » عند الميت ، روى أحمد وأبو داود والنسائي، واللفظ له ، وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححاه أن النبي ﷺ قال : «قلب القرآن يسٓ ، ولا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له ، اقرأوها على موتاكم» . وقد أعل الدارقطني وابن القطان هذا الحديث ، لكن صححه ابن حبان والحاكم ، وحمله المصححون له على القراءة على الميت حال الاحتضار ، بناء على حديث في مسند الفردوس «ما من ميت يموت فتقرأ عنده يسٓ إلا هون الله عليه». لكن بعض العلماء قال : إن لفظ الميت عام لا يختص بالمحتضر ، فلا مانع من استفادته بالقراءة عنده إذا انتهت حياته ، سواء دفن أم لم يدفن ، روى البيهقي بسند حسن أن ابن عمر استحب قراءة أول سورة البقرة وخاتمتها على القبر بعد الدفن . وابن حبان الذي قال في صحيحه معلقاً على حديث «اقرءوا على موتاكم يسٓ » أراد به من حضرته المنية لا أن الميت يقرأ عليه ، رد عليه المحب الطبري بأن ذلك غير مسلم له وإن سلم أن يكون التلقين حال الاحتضار . قال الشوكاني : واللفظ نص في الأموات ، وتناوله للحي المحتضر مجاز فلا يصار إليه إلا لقرينة [1] . والنووي ذكر في رياض الصالحين

١- نيل الأوطار ج ٤ ص ٥٢ .

تحت عنوان : الدعاء للميت بعد دفنه والقعود عند قبره ساعة للدعاء له والاستغفار والقراءة [1] ، ذكر أن الشافعي قال : يستحب أن يقرأ عنده شيء من القرآن ، وإن ختموا القرآن كان حسناً . وجاء في المغني لابن قدامة[2]: تسن قراءة القرآن عند القبر وهبة ثوابها ، وروى أحمد أنه بدعة ، ثم رجع عنه .

وكره مالك وأبو حنيفة القراءة عند القبر حيث لم ترد بها السنة . لكن القرافي المالكي قال : الذي يتجه أن يحصل للموتى بركة القراءة ، كما يحل لهم بركة الرجل الصالح يدفن عندهم أو يدفنون عنده .

٢ - إذا قرئ القرآن بعيداً عن الميت أو عن القبر وامتنع انتفاعه به بحكم المجاورة وحضور الملائكة ، اختلف الفقهاء في جواز انتفاع الميت به ، وهناك ثلاث حالات دار الخلاف حولها بين الجواز وعدمه :

الحالة الأولى : إذا قرأ القارئ ثم دعا الله بما قرأ أن يرحم الميت أو يغفر له ، فقد توسل القارئ إلى الله بعمله الصالح وهو القراءة ، ودعا للميت بالرحمة ، والدعاء له متفق على جوازه وعلى رجاء انتفاعه به إن قبله الله ، كمن توسلوا إلى الله بصالح أعمالهم فانفرجت عنهم الصخرة التي سدت فم الغار . وفي هذه الحالة لا ينبغي أن يكون هناك خلاف يذكر في عدم نفع الميت بالدعاء بعد القراءة .

الحالة الثانية : إذا قرأ القارئ ثم دعا الله أن يهدي مثل ثواب قراءته إلى الميت . قال ابن الصلاح : وينبغي الجزم بنفع : الله أوصل ثواب ما قرأناه ، أي مثله ، فهو المراد ، وأن يصرح به لفلان ، لأنه إذا نفعه الدعاء بما ليس للداعي فما له أولى ، ويجري ذلك في سائر الأعمال . ومعنى كلام ابن الصلاح أن الداعي يدعو الله أن يرحم الميت : والرحمة ليست ملكاً له بل لله ، فإذا جاز الدعاء بالرحمة وهي ليست له فأولى أن يجوز الدعاء بما له هو وهو ثواب القراءة أو مثلها . وكذلك يجوز في كل قربة يفعلها الحي من صلاة وصيام وصدقة ، ثم يدعو بعدها أن يوصل الله مثل

---

١ - الباب الحادي والستون بعد المائة .

٢ - ص ٧٥٨ .

ثوابها إلى الميت . وقد تقدم كلام ابن قدامة في المغني عن ذلك . والدعاء بإهداء مثل ثواب القارئ إلى الميت هو المراد من قول المجيزين : اللهم أوصل ثواب ما قرأته لفلان .

الحالة الثالثة : إذا نوى القارئ أن يكون الثواب ، أي مثله ، للميت ابتداء أي قبل قراءته أو في أثنائها يصل ذلك إن شاء الله ، قال أبو عبدالله الأبي : إن قرأ ابتداء بنية الميت وصل إليه ثوابه كالصدقة والدعاء ، وإن قرأ ثم وهبه لم يصل ، لأن ثواب القراءة للقارئ لاينتقل عنه إلى غيره ..وقال الإمام ابن رشد في نوازله : إن قرأ ووهب ثواب قراءته لميت جاز وحل للميت أجره ، ووصل إليه نفعه ، ولم يفصل بين كون الهبة قبل القراءة أو معها أو بعدها ، ولعله يريد ما قاله الأبي .

هذا ، وانتفاع الميت بالقراءة مع الإهداء أو النية هو ما رآه المحققون من متأخري مذهب الشافعي ، وأولوا المنع على معنى وصول عين الثواب الذي للقارئ أو على قراءته لا بحضرة الميت ولا بنية ثواب قراءته له ، أو نيته ولم يدع له ، وقد رجح الانتفاع به أحمد وابن تيمية وابن القيم . وقد مر كلامهم في ذلك .

قال الشوكاني[1] : المشهور من مذهب الشافعي وجماعة من أصحابه أنه لا يصل إلى الميت ثواب قراءة القرآن وذهب أحمد بن حنبل وجماعة من العلماء وجماعة من أصحاب الشافعي إلى أنه يصل ، كذا ذكره النووي في الأذكار. وفي شرح المنهاج : لا يصل إلى الميت عندنا ثواب القراءة على المشهور، والمختار الوصول إذا سأل الله إيصال ثواب قراءته ، وينبغي الجزم به لأنه دعاء ، فإذا جاز الدعاء للميت بما ليس للداعي فلأن يجوز بما هو له أولى ، ويبقى الأمر فيه موقوفاً على استجابة الدعاء . وهذا المعنى لا يختص بالقراءة ، بل يجري في سائر الأعمال . والظاهر أن الدعاء متفق عليه أن ينفع الميت والحي ، والقريب والبعيد ، بوصية وغيرها ، وعلى ذلك أحاديث كثيرة ، بل كان أفضل الدعاء أن يدعو لأخيه بظهر الغيب . اهـ .

١- نيل الأوطار ج ٤ ص ١٤٢.

هذا ، وقد قال الأبي : والقراءة للميت ، وإن حصل الخلاف فيها فلا ينبغي إهمالها، فلعل الحق الوصول ، فإن هذه الأمور مغيبة عنا ، وليس الخلاف في حكم شرعي إنما هو في أمر هل يقع كذلك أم لا .

وأنا مع الأبي في هذا الكلام ، فإن القراءة للميت إن لم تنفع الميت فهي للقارئ ، فالمستفيد منها واحد منهما ، ولا ضرر منها على أحد . مع تغليب الرجاء في رحمة الله وفضله أن يفيد بها الميت كالشفاعة والدعاء وغيرهما .

وهذا الخلاف محله إذا قرئ القرآن بغير أجر ، أما إن قرئ بأجر فالجمهور على عدم انتفاع الميت به ، لأن القارئ أخذ ثوابه الدنيوي عليها فلم يبق لديه ما يهديه أو يهدي مثل ثوابه إلى الميت ، ولم تكن قراءته لوجه الله حتى يدعوه بصالح عمله أن ينفع بها الميت ، بل كانت القراءة للدنيا . ويتأكد ذلك إذا كانت هناك مساومة أو اتفاق سابق على الأجر أو معلوم متعارف عليه ، أما الهدية بعد القراءة إذا لم تكن نفس القارئ متعلقة بها فقد يرجى من القراءة النفع للميت والأعمال بالنيات ، وأحذر قارئ القرآن من هذا الحديث الذي رواه أحمد والطبراني والبيهقي عن عبدالرحمن بن شبل «اقرأوا القرآن واعملوا به ، ولاتجفوا عليه ، ولا تغلوا فيه ، ولا تأكلوا به ، ولاتستكثروا به» (١)

وقد قال الشيخ حسنين محمد مخلوف في أخذ الأجرة على قراءة القرآن : مذهب الحنفية لايجوز أخذها على فعل القرب والطاعات كالصلاة والصوم وتعليم القرآن وقراءته ، ولكن المتأخرين من فقهاء الحنفية استثنوا من ذلك أموراً ، منها تعليم القرآن ، فقالوا بجواز أخذ الأجرة عليه استحساناً ، خشية ضياعه ، ولكن بقى حكم أخذ الأجرة على قراءة القرآن على ما تقرر في أصل المذهب من عدم الجواز . ومذهب الحنابلة لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ولا على قراءته ، استناداً إلى حديث «اقرءوا القرآن . . . .» الذي تقدم . . ومذهب المالكية لا يجوز أخذ الأجرة

١- قال الهيثمي : رجال أحمد ثقات ، وقال ابن حجر في الفتح : سنده قوي . وفسر الأكل به بأخذ الأجرة عليه ، كما فسره بالاستجداء به والتسول .

على ما لايقبل النيابة من المطلوب شرعاً كالصلاة والصيام ، ولكن يجوز أخذ الأجرة على ما يقبل النيابة ، ومنه تعليم القرآن وقراءته ، ومذهب الشافعية يجوز أخذ الأجرة على قراءة القرآن وتعليمه ، سواء أكانت القراءة عند القبر أو بعيدة عنه مع الدعاء بوصول الثواب إلى الميت . اهـ الزرقاني[1] .



س : هل الاستماع إلى القرآن واجب يأثم من ينشغل عنه ، مع أن الإنسان قد يكون في عمل هام يحتاج إلى التركيز في التفكير كالمذاكرة والامتحان ؟

ج : قال الله تعالى ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٤]

حكى ابن المنذر الإجماع على أن استماع القرآن والإنصات إليه واجب في الصلاة وخطبة الجمعة ، وليس واجباً في غير هاتين الحالتين ، بل هو سنة ، وذلك لأن وجوب الاستماع فيه حرج كبير على القائمين بأعمال ضرورية تحتاج إلى يقظة وعدم انشغال، و بخاصة أن القرآن يتلى ويذاع من جهات متعددة ، إن لم يكن من البيت أو محل العمل فمن البيوت أو المحال الأخرى .

ولكن إذا كان الإنسان في مجلس قرآن ولا يوجد عمل يشغله ينبغي أو يجب أن يتأدب في المجلس ولا ينشغل عن الاستماع إليه بحديث أو غيره ، وبخاصة مع رفع الصوت بالحديث ، وتعظم المسئولية إذا كان قاصداً برفع الصوت التشويش على القرآن وإذا كان الله تعالى قال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات:٢] فإن النهي عن رفع الصوت على صوت القرآن أولى ، والأدب مع الله وكلامه فوق الأدب مع الرسول وكلامه [2].

١- ج ٥ ص ٤٠٦ .
٢- الفتاوى الإسلامية ، ج ٥ ص ١٦٦٦ .

والمراد بسماع القرآن في الصلاة هو سماع المأموم لقراءة الإمام ، فلا يجوز أن يشغل المأموم عن قراءة الإمام بأن يقرأ هو ، وقد مر حكم ذلك ، والإنصات إلى خطبة الجمعة واجب لأن فيها قرآناً ، والنصوص ثابتة في الأمر بالإنصات للخطبة ، وأن من لغا أو انصرف عنها لا جمعة له .

والخلاصة أن الاستماع إلى القرآن واجب في الصلاة عند قراءة الإمام وفي خطبة الجمعة ، ومندوب في غير ذلك ، فقد ورى أحمد أن النبي ﷺ قال «من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلا آية من كتاب الله كانت له نوراً يوم القيامة» (1) .



س : ما حكم الدين في التدخين وتناول الشاي والقهوة أثناء تلاوة القرآن الكريم؟

ج : صح أن القرآن إذا قرئ نزلت الملائكة تستمع إليه ، وجاء النص على ذلك فيمن يجتمعون في بيت من بيوت الله يقرءون القرآن ويتدارسونه فيما بينهم ، كما جاء النص في حديث رواه مسلم على أي اجتماع في أي مكان يذكر فيه الله ، ولاشك أن أفضل الذكر كلام الله تعالى ، وصح أيضاً أن الملائكة تنفر من الروائح الكريهة ، ففي حديث مسلم النهي عن قربان المسجد لمن أكل ثوماً أو بصلاً ، لأن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الناس .

ومن المعلوم أن رائحة الدخان يتأذى منها الناس ، وبالتالي تتأذى الملائكة ، والنتيجة عدم حضور الملائكة لمجالس القرآن التي يشرب فيها الدخان ، فالتدخين في مجالس القرآن فيه عدة أخطاء ، منها طرد الملائكة الذين يحبون الرائحة الطيبة ، وحرمان المجلس من رحمة الله وسكينته التي تنزل مع هؤلاء الملائكة ، والإضرار بالكثيرين الذين يتأذون برائحة الدخان ، وذلك إلى جانب مخالفة قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٤] .

١- ذكره ابن كثير عند تفسير الآية المذكورة ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ ﴾ .

ويستوي التدخين في هذا الحكم مع شرب الشاي والقهوة أثناء تلاوة القرآن ، حيث لا يتحقق الاستماع والإنصات المؤديان إلى التذكر والاعتبار ، والمحققان لمظهر من مظاهر احترام القرآن .

وجمهور الفقهاء على أن الإنصات للقرآن المأمور به في الآية يكون واجباً على المأموم في الصلاة وعلى المستمع لخطبة الجمعة ، ويكون مندوباً في غير ذلك في مثل مجالس التلاوة في المناسبات وغيرها .

أما حكم التدخين فله رسالة خاصة طبعت مع مجلة الأزهر ، فيرجع إليها .



س : أيهما أكثر ثواباً للمرء قراءة القرآن أم الاستماع إليه ؟

ج : أكثر الأحاديث جاءت ترغب في القراءة ، وتجعل ثواب الحرف الواحد عشر حسنات ، والماهر بالقراءة مع السفرة الكرام البررة والذي يتتعتع فيه له أجران ، ويأتي القرآن شفيعاً لأصحابه ، ويلبسه الله تاج الكرامة وحلة الكرامة ، ويرتقي في درجات الجنة بقدر ما يقرأ ، والملائكة تتنزل لسماعه من القارئ ، وكل ذلك وغيره وردت به النصوص الصحيحة والحسنة .

أما استماع القرآن فالنصوص في الترغيب فيه قليلة جدًّا ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف:٢٠٤] .

وفي الحديث «من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة» . [1]

وقد حمل بعض المفسرين الآية على خطبة الجمعة فأوجبوا الإنصات إليها لاشتمالها على القرآن ، ومع ذلك فالحديث المروي في الاستماع ذكر فيه ثواب التلاوة بأكثر من ثواب الاستماع ، والحديث على كل حال ضعيف .

---

١ – رواه أحمد عن عبادة بن ميسرة ، واختلف في توثيقه عن الحسن عن أبي هريرة ، والجمهور على أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة .

ومن هنا يمكن أن نقول : إن قراءة القرآن أكثر ثواباً من الاستماع إليه ، وهي وسيلة لتعليم الكتابة ليستطيع القراءة ، فالذي يسمعه ربما لا يكون قارئاً أو عارفاً بالكتابة ، والقراءة أقرب من الاستماع لحفظ القرآن .

ومهما يكن من شيء فالاشتغال بالقرآن بأية كيفة من الكيفيات فضيلة من كبريات الفضائل . والله أعلم .



س : هل يثاب الإنسان عند الله على قراءة القرآن وحفظه بمثل قراءته للقرآن فقط ؟

ج : مجرد قراءة القرآن له ثواب بكل حرف عشر حسنات كما وردت بذلك الأحاديث ، والحفظ مرتبة زائدة على مجرد القراءة وله ثواب آخر ، وقد جاء في الحديث أن صاحب القرآن يرتقي في درجات الجنة بمقدار ما يقرأ ، وليس هناك مصحف يقرأ فيه ، فالمدار على الحفظ «يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارتق ورتّل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[1] .



س : هل هناك دعاء مخصوص لختم القرآن وهل ورد حديث في فضل الاجتماع على ختم القرآن ؟

ج : لم يرد حديث مقبول عن النبي ﷺ بخصوص ختم القرآن كما لم يرد بخصوص الاجتماع على الختم ، وإنما هو كلام وآثار وردت عن السلف ، وذكر النووي شيئاً من ذلك [2] ، وقال : صح عن بعض التابعين الكوفيين أنهم كانوا يصبحون صياماً اليوم الذي يختمون فيه . وقال : يستحب حضور مجلس الختم لمن يقرأ ولمن لا يحسن القراءة ، كما شهد النساء الحُيَّض الخير ودعوة المسلمين يوم العيد .

١- رواه أبو داود والترمذي وقال : حسن صحيح .
٢- في كتابه ، الأذكار ص ١٠٨.

وذكر أن أنس بن مالك كان إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا ، وأن الدعاء يستجاب عند ختم القرآن وتنزل الرحمة . وروى في مسند الدارمي عن حُميد الأعرج أنه قال : من قرأ القرآن ثم دعا أمَّن على دعائه أربعة آلاف ملك .

إن قراءة القرآن لها فضلها العظيم . ومجالس الذكر والقرآن تشهدها الملائكة كما صحت بذلك الأحاديث ، والصوم مستحب سواء كان من أجل ختم القرآن أو من غيره ، والدعاء لا بأس به بعد قراءة القرآن هو مرجو القبول ، لأن القراءة وسيلة لثواب الله ، والدعاء بصالح الأعمال بوجه عام يرجى قبوله كدعاء الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار ففرَّج الله عنهم وكون أربعة آلاف ملك يؤمِّنون على الدعاء بعد القرآن لا يعلمه إلا الله سبحانه ولم يصح فيه حديث .

فالخلاصة أن كل عمل صالح يدعو تحت العنوان ا لعام للصالحات لا بأس به ، لكن ورود حديث ذلك عن النبي ﷺ يجب التحري فيه .



س : بعض الناس يقولون : إن قول القارئ بعد الانتهاء من القراءة [صدق الله العظيم] بدعة ، لايجوز قولها فهل هذا صحيح ؟

ج : حذرت كثيراً من التعجل في إطلاق وصف البدعة على أي عمل لم يكن في أيام النبي ﷺ ولا في عهد التشريع ، ومن التمادي في وصف كل بدعة بأنها ضلالة وكل ضلالة في النار.

وقول «صدق الله العظيم» من القارئ أو من السامع بعد الانتهاء من القراءة ، أو عند سماع آية من القرآن ليس بدعة مذمومة ، أولاً : لأنه لم يرد نهي عنها بخصوصها، وثانياً : لأنها ذكر لله والذكر مأمور به كثيراً ، وثالثاً : أن العلماء تحدثوا عن ذلك داعين إليه كأدب من آداب قراءة القرآن ، وقرروا أن قول ذلك في الصلاة لا يبطلها ، ورابعاً : أن هذه الصيغة أو قريباً منها ورد الأمر بها في القرآن ، وقرر أنها من قول المؤمنين عند القتال .

قال تعالى : ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [آل عمران:٩٥] وقال ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [الأحزاب:٢٢] وذكر القرطبي في مقدمة

تفسيره أن الحكيم الترمذي تحدث في آداب تلاوة القرآن الكريم وجعل منها أن يقول عند الانتهاء من القراءة : صدق الله العظيم أو أية عبارة تؤدي هذا المعنى . ونص عبارته [1] : ومن حرمته إذا انتهت قراءته أن يصدق ربه ، ويشهد بالبلاغ لرسوله ﷺ مثل أن يقول : صدق الله العظيم وبلَّغ رسوله الكريم ، ويشهد على ذلك أنه حق ، فيقول : صدقت ربنا وبلَّغت رسلك ونحن على ذلك من الشاهدين . اللهم اجعلنا من شهداء الحق القائمين بالقسط ، ثم يدعو بدعوات .

وجاء في فقه المذاهب الأربعة ، نشر أوقاف مصر ، أن الحنفية قالوا : لو تكلَّم المصلي بتسبيح مثل : صدق الله العظيم عند فراغ القارئ من القراءة لا نبطل صلاته إذا قصد مجرد الثناء والذكر أو التلاوة ، وأن الشافعية قالوا : لا تبطل مطلقاً بهذا القول ، فكيف يجرؤ أحد في هذه الأيام على أن يقول : إن قول : صدق الله العظيم، بعد الانتهاء من قراءة القرآن بدعة ؟ أكرر التحذير من التعجل في إصدار أحكام فقهية قبل التأكد من صحتها ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل:١١٦] .



س : نرى بعض الأئمة يصلون التروايح يآيات متناثرة من القرآن ، وقد يقرأ في الركعة الأولى آيات من آخر السور ، وفي الثانية آيات من أولها ، أو من سورة متقدمة على السورة الأولى فهل يسمى هذا تنكيساً وما حكمه ؟

ج : ورد في الصحيح أن حذيفة صلى خلف النبي ﷺ ذات ليلة فسمعه قرأ في الركعة الأولى البقرة ، ثم افتتح آل عمران ، ثم ركع [2]. قال القاضي عياض : إن ترتيب السور ليس بواجب في الكتابة ولا في الصلاة ولا في الدرس ولا في التلقين

١- ج١ ص ٢٧ .
٢- رواه مسلم ج٦ ص ٦١ .

والتعليم ، وإنه لم يكن من النبي ﷺ في ذلك نص ، ولا تحرم مخالفته . ثم قال : ولاخلاف أنه يجوز للمصلي أن يقرأ في الركعة الثانية سورة قبل التي قرأها في الأولى . وإنما يكره ذلك في الركعة ، ولمن يتلو في غير الصلاة .

قال : وقد أباحه بعضهم ، وتأويل نهي السلف عن قراءة القرآن منكوساً على من يقرأ من آخر السورة إلى أولها ، ولا خلاف في أن ترتيب آيات كل سورة بتوقيف من الله تعالى على ما بني عليه الآن في المصحف . وهكذا نقلته الأمة عن نبيها ﷺ [1] .

وبهذا يعلم أن مخالفة ترتيب المصحف في قراءة السور ليست محرمة ، بل هي مكروهة فقط ، والكراهة مرتبة أقل من الحرمة ، بمعنى أنها لا مؤاخذة عليها .

أما مخالفة الترتيب في قراءة الآيات فلم أر حديثاً عن النبي ﷺ فيها ، بل الوارد إنما هو عن السلف . وقد جاء في نهاية ابن الأثير -مادة نكس- وفي حديث ابن مسعود قيل له : إن فلاناً يقرأ القرآن منكوساً . فقال : ذلك منكوس القلب . قيل هو أن يبدأ من آخر السورة حتى يقرأها إلى أولها ، وقيل : هو أن يبدأ من آخر القرآن فيقرأ السور ، ثم يرتفع إلى البقرة . اهـ .

وقد علمت أن الثاني ليس بمحرم ، والأول هو المنهي عنه .



س : قرأت حديثاً يقول : «إذا قرأتم القرآن ، فابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، فإن لم تتباكوا فتغنوا به ، فمن لم يتغن به فليس منا ! » فهل هذا حديث صحيح ؟

ج : هذا الحديث في سنن ابن ماجه ، وهو مروي عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ ، وقد ذكره الحافظ المنذري في كتابه [الترغيب والترهيب] بصيغة

١- نيل الأوطار للشوكاني ، ج ٢ ص ٢٣٧ .

«روي» مما يدل على أنه لم يرق إلى درجة الحديث الصحيح الذي هو أعلى من الحسن .

وقال العراقي في تخريجه لأحاديث [إحياء علوم الدين] للإمام الغزالي : حديث «اتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا» إسناده جيد ، يعني مقبول يعمل به وبخاصة في فضائل الأعمال ، ولكن لا يصل الأمر فيه إلى درجة الوجوب الذي يعاقب تاركه ، فهو أمر مندوب إليه .

والخلاصة أنه إن لم يكن صحيحاً فهو حسن يقبل في فضائل الأعمال .



س : سيدة تدرس الدين في المدارس ، وتضطر إلى قراءة آيات من القرآن الكريم وهي في عادتها الشهرية فهل هذا جائز ؟

ج : قراءة القرآن من غير مس المصحف أو حمله بالنسبة للحائض والنفساء والجنب فيها رأيان : رأي بالمنع وهو لجمهور العلماء ، ورأي بالجواز . واستدل الجمهور على المنع بأدلة منها :

١ - ما رواه أصحاب السنن عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان لايحجبه عن القراءة شيء إلا الجنابة ، وصحح الترمذي هذا الحديث . وقال ابن حجر : إن بعضهم ضعَّف بعض رواته فهو من قبيل الحسن ، ويصلح للاحتجاج به .

٢ - ما رواه أحمد وأبو يعلي عن علي أيضاً قال : رأيت رسول الله ﷺ توضأ ثم قرأ شيئاً من القرآن ثم قال «هكذا لمن ليس بجنب فأما الجنب فلا ولا آية» قال الهيثم: رجاله موثقون ، قال الشوكاني : فإن صح هذا الحديث صلح للاستدلال على التحريم ، أما الحديث الأول عن علي فليس فيه ما يدل على التحريم ، لأن غايته أن النبي ﷺ ترك القراءة حال الجنابة . ومثله لا يصح متمسكاً للكراهة فكيف يستدل به على التحريم ؟

٣ - ما رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر عن النبي ﷺ «لايقرأ الجنب ولا الحائض شيئاً من القرآن» وقد ضُعِّف هذا الحديث .

والذين أجازوا القراءة للجنب ، ومنهم داود ، وابن حزم الظاهريان ، استندوا إلى كتاب هرقل الذي أرسله إليه النبي ﷺ كما رواه البخاري ومسلم - وكانت فيه آية ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ.....﴾ [آل عمران:٦٤] وهو وغيره ممن أرسلت إليهم الكتب لايتطهرون من الجنابة . وذهب البخاري والطبري إلى ذلك . قال البخاري : لا بأس أن تقرأ الحائض الآية ولم ير ابن عباس بالقراءة للجنب أساساً ، وكان النبي ﷺ يذكر الله على كل حال .

قال الحافظ ابن حجر تعليقاً على هذا : لم يصح عند المصنف -البخاري- شيء من الأحاديث الواردة في ذلك . أي في منع الجنب والحائض من القراءة ، وإن كان مجموع ما ورد في ذلك تقوم به الحجة عند غيره ، لكن أكثرها قابل للتأويل . وذهب أبو حنيفة إلى قراءة مادون الآية . وبعد عرض الرأيين أقول : إن أدلة المنع من القراءة للجنب قوية ، ولا أرى جوازها للضرورة القصوى ، كالاستدلال من القرآن على رأي في مجال النقاش مثلاً ، وكقراءته لتأدية امتحان يترتب على عدم القراءة فيه ضرر، وبالنسبة لما جاء في السؤال أرى أن تعتذر المدرسة عن عدم القراءة وتؤجلها حتى تطهر أو تكلف غيرها بالقراءة .

هذا وقد جاء في فقه المذاهب الأربعة -نشر أوقاف مصر- ما يأتي :

١ - **المالكية قالوا** : لا يجوز للجنب قراءة القرآن إلا إذا كان يسيراً وقرأه بقصد التحصن أو الاستدلال . أما الحائض والنفساء فإنه يجوز لها قراءة القرآن حال نزول الدم . سواء كانت عليها جنابة من قبل أم لا ، أما بعد انقطاع الدم فإنه لايجوز القراءة قبل الاغتسال سواء كانت عليها جنابة أو لا على المعتمد ، وذلك لأنها صارت متمكنة من الاغتسال فلا تحل لها القراءة قبله . أما مس المصحف أو كتابته فإنه يجوز لها للتعلم أو التعليم فقط . وكذلك لا يجوز للجنب دخول المسجد لالمكث فيه ولا المرور من باب إلى باب آخر .

٢ - **والحنفية قالوا :** يحرم على الجنب تلاوة القرآن إلا إذا كان معلماً ، فإنه يجوز أن يلقن المتعلِّم كلمة كلمة ، بحيث يفصل بينهما ، وأن يفتتح أمراً ذا بال بالتسمية ، وأن يقرأ الآية القصيرة بقصد الدعاء أو الثناء ، ومثل الجنب في ذلك الحائض والنفساء ، أما دخول المسجد فيحرم إلا للضرورة .

٣ - **والشافعية قالوا :** يحرم على الجنب قراءة القرآن ولو حرفاً واحداً إن كان قاصداً تلاوته ، أما إذ قصد الذكر فلا يحرم مثل «بسم الله الرحمن الرحيم» عند الأكل ، أما المرور بالمسجد فيجوز للجنب والحائض والنفساء من غير مكث فيه ولا تردد بشرط أمن عدم تلوث المسجد . ولا يجوز المكث فيه إلا للضرورة .

٤ - **والحنابلة قالوا :** يباح للجنب أن يقرأ ما دون الآية القصيرة دون ما زاد على ذلك وله الذكر به ، أما المكث في المسجد فيجوز بالوضوء ولو بدون ضرورة . أما الحائض أو النفساء فلا يجوز لها المكث بالوضوء إلا إذا انقطع الدم .



س : أعمل مدرساً للقرآن واللغة العربية ، ويوجد في المنهج نصوص قرآنية يدرسها جميع الطلاب ، ومنهم المسلم وغير المسلم ، فهل يجوز لغير المسلم قراءة آيات أو حفظها ؟

ج : قال العلماء : غير المسلم ليس مكلفاً بفروع الشريعة وأحكامها ، لأن أصل الشريعة غير موجود عنده ، وعليه فلا مانع من قراءته للقرآن وحمل المصحف ومسِّه بدون طهارة ، ورأى بعضهم أن غير المسلم مكلف بالأصول والفروع ، وسيحاسب عند الله على الإيمان وعلى التكاليف الشرعية ، وعليه فلا يجوز له أن يقرأ القرآن أو يمس المصحف أو يحمله إذا كان غير طاهر ، وما دام الأمر خلافيًّا فلا مانع من الأخذ بأحد الرأيين وبخاصة عند ظروف تدعو إلى ذلك .

وجاء في تفسير القرطبي [1]، في كتاب الرسول ﷺ لعمرو بن حزم الذي حمله إلى شرحبيل . . «ألا يمس القرآن إلا طاهر» وحادثة إسلام عمر بن الخطاب وقول أخته : لا يمسه إلا المطهرون ، فاغتسل وأسلم . وقال الكلبي : لا يمسه إلا المطهرون من الشرك . وقيل : يمسه يقرؤه . وكان ابن عباس ينهى أن يمكّن أحد من اليهود والنصارى من قراءة القرآن . وفي ص ٢٢٧ [2] : روي عن الحكم وحماد وداود بن علي أنه لا بأس بحمله ومسه للمسلم والكافر طاهراً أو محدثاً ، إلا أن داود قال : لايجوز للمشرك حمله . واحتجوا في إباحة ذلك بكتاب النبي ﷺ إلى قيصر ، وهو موضع ضرورة فلا حجة فيه . اهـ .

وفي أخبار الجمعة ١١/ ٥/ ١٩٩١م رأي لبعض علماء العصر بالجواز إن حافظ عليه من الإهانة ، مع التغاضي عن شرط الطهارة .



س : هل صحيح ما يقال : إن القرآن ينزع من الصدور آخر الزمان ، وكيف ذلك والله يقول ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩] ؟

ج : أخرج ابن ماجه في سننه عن عبدالله بن عمرو بن العاص وحذيفة أن رسول الله ﷺ قال «يدرس الإسلام كما يدرس وَشْي الثوب حتى لا يُدْرَى : ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة ، فَيسْرَى على كتاب الله تعالى في ليلة فلا يبقى منه في الأرض آية وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير العجوز ، يقولون : أدركنا آباءنا على هذه الكلمة : لا إله إلا الله ، وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة» .

وجاء عن عبدالله بن مسعود أنه قال : إن هذا القرآن الذي بين أظهركم يوشك أن ينزع منكم ، فسئل : كيف ينزع منا وقد أثبته الله في قلوبنا وثبتناه في مصاحفنا ؟ فقال: يسرى عليه في ليلة واحدة فينزع ما في القلوب ويذهب ما في المصاحف ويصبح الناس منه فقراء . ثم قرأ ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٦] . [3]

١- ج ١٧ ص ٢٢٥ . ٢- تفسير القرطبى ج١٧ .
٣- أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة وإسناده صحيح ، تفسير القرطبي ، ج ١٠ ص ٣٢٥ .

هذه بعض المرويات منها ما هو مرفوع إلى النبي ﷺ ، ومنها ما هو موقوف على ابن مسعود رضي الله عنه ، وطريق الرواية ليس قطعي الثبوت ، وهو على كل حال يدل على أهمية القرآن الكريم ، وعلى العناية بحفظه ومدارسته ويلتقي مع الحديث الصحيح «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء» [1] .



س : هل صحيح أن نسيان القرآن حرام ، وما هي الوسيلة التي تساعد على عدم نسيانه ؟

ج : معروف أن فضل قراءة القرآن وحفظه فضل عظيم ، يكفي في بيان ذلك قول النبي ﷺ فيما رواه البخاري «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وقوله فيما رواه مسلم «اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» وقوله فيما رواه الترمذي وأبوداود بسند صحيح «يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها» وقد بين النبي ﷺ في حديث رواه البخاري ومسلم أن ما يحفظ من القرآن معرض للنسيان فقال «تعاهدوا القرآن فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل في عقلها» يعني إذا لم يحكم حفظه تفلت كالبعير الذي لم يحكم ربطه بالعقال ، ولذلك حذَّر من نسيان ما حفظ منه فقال فيما رواه الترمذي وأبو دواد وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه «وعرضت عليَّ ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن - أو آية - أوتيها رجل ثم نسيها» .

لكن حمل بعض العلماء النسيان هنا على ترك العمل لأن الإنسان بطبيعته معرض لنسيان ما يحفظ ، سواء أكان من القرآن أم من غيره ، ولأن التحذير لو كان من مجرد نسيان ما يحفظ لقال الشخص : الأسلم ألا أحفظ شيئاً حتى لا أتعرض للعقاب إن نسيت ، وهذا فيه صرف للناس عن القرآن .

١- رواه مسلم .

ومهما يكن من شيء فإن الواجب هو المجاهدة لإبقاء على ما يحفظ وذلك بمداومة التلاوة ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلاً ففي التلاوة ثواب على الحرف بعشر حسنات، وفيها تقويم للسان بالعربية، وتفقه في الدين، وقد جاء في المأثور أن النبي ﷺ أوصى من شكا إليه نسيان ما يحفظه من القرآن بأن يصلي أربع ركعات ليلة الجمعة ببعض سور من القرآن ثم يدعو بدعاء مخصوص ففعل ذلك، فثبت الله في قلبه ما كان يحفظه، وهو حديث طويل رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد ابن مسلم، ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما. قال الحافظ المنذري: طرق أسانيد هذا الحديث جيدة ومتنه غريب جدًّا[1].



س: هل صحيح أن هناك حديثاً فيه طريقة حفظ بها الإمام عليٌّ القرآن الكريم؟

ج: ذكر الحافظ المنذري في كتابه «الترغيب والترهيب» حديثاً مؤداه أن النبي ﷺ علَّمه صلاة أربع ركعات ليلة الجمعة في كل ركعة سور مخصوصة وبعدها يدعو بدعاء مخصوص. ويفعل ذلك ثلاث جمع أو خمساً أو سبعاً، فنفذ عليٌّ الوصية فوهبه الله الحفظ.

وقال المنذري بعد ذلك: رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم، ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما - أي البخاري ومسلم. ثم قال: طرق أسانيد هذا الحديث جيدة ومتنه غريب جدًّا. والله أعلم.

فالحديث لم يصل إلى درجة الصحة في السند، وما جاء فيه هو صلاة وذكر وقراءة قرآن ودعاء، ولا مانع في ذلك، أما النتيجة فموكولة إلى الله سبحانه، وإن

---

١ - الترغيب ج٢، ص١٣٩.

صحت عند علي رضي الله عنه فربما لا تصح عند غيره ، والطاعة على كل حال طيبة ويرجى قبولها وقبول الدعاء .



س : هل يجوز للسنة الشريفة أن تنسخ الأحكام الثابتة بالقرآن مثل قوله ﷺ «لاوصية لوارث» الذي نسخ الوصية للوارث الموجودة في القرآن ، مع العلم بأن القرآن كلام الله تعالى ، والسنة من عند الرسول والرسول بشر؟

ج : يقول الله سبحانه : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة :١٠٦] ويقول ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ [النحل :١٠١] تفيد هاتان الآيتان وغيرهما أن النسخ وهو انتهاء حكم شرعي بطريق شرعي موجود في القرآن الكريم ، وقد يكون النسخ للتلاوة والحكم أو أحدهما ، وذلك بنزول آية أخرى فيها حكم مغاير . وأمثلته كثيرة في القرآن الكريم أفردت بتآليف خاصة منها كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس المتوفى سنة٣٣٨هـ.

ونسخ القرآن بالقرآن متفق عليه بدليل الآيتين السابقتين ، وأما نسخ القرآن بالسنة فمنعه جماعة ، لأن الله يقول ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [يونس : ١٥] ولأن السنة لا تكون مثل القرآن ولا خيراً منه كما تقول الآية ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ وقال آخرون بجواز نسخ القرآن بالسنة وبوقوعه بناء على أن السنة أيضاً من عند الله كما قال تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم:٣ ، ٤] وقال ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل :٤٤] على أن المراد بالذكر هو السنة ، وقال جماعة : بنسخ القرآن بالسنة إذا كانت بأمر الله عن طريق الوحي ، أما إن كانت باجتهاد فلا .

والرأي القائل بنسخ القرآن بالسنة هو الأقوى ، لقول الله تعالى . إلى جانب النصين السابقين ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر :٧] .

وقوله ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء:٦٥] إلى غير ذلك من النصوص ، وقد أجمع المسلمون على أن القرآن إذا نزل بلفظ مجمل ففسره الرسول وبيَّنه كان بمنزلة القرآن المتلوِّ في الأخذ به ، فكذلك النسخ .

وتطبيقاً لذلك في حكم الوصية للوارث .

قال تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة :١٨٠] .

يقول أبو جعفر النحاس : في هذه الآية خمسة أقوال ، منها أنها منسوخة بقوله ﷺ «لاوصية لوارث» وذلك على رأي من يجيز نسخ القرآن بالسنة ، وقيل: هي منسوخة بآية المواريث ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء :١١] وذلك على رأي من ينسخ القرآن بالقرآن فقط وقيل : نسخت الوصية للوالدين وثبتت للأقربين الذين لا يرثون . وقيل : نسخ وجوب الوصية وبقى ندبها ، وقيل : إن الوصية واجبة للوالدين والأقربين إذا كانوا لا يرثون ، كأن كانوا كفاراً .

هذا ملخص ما قيل في آية الوصية ، وعلى قول من الأقوال في تفسيرها كان تشريع الوصية الواجبة لولد الولد المحروم من الميراث ، كما في القانون المصري للأحوال الشخصية .



س : نسمع عن قصة تسمى «قصة الغرانيق» فما هي هذه القصة؟

ج : الغرانيق جمع غُرْنَيْق -بضم الغين وفتح النون- هو طائر أبيض طويل العنق من طيور الماء ، كما قال الجوهري والزمخشري ، جاء في كتاب «حياة الحيوان الكبرى» للدميري ما نصه :

قال القاضي عياض وغيره : إن النبي ﷺ لما قرأ سورة «النجم» وقال ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ قال «تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى» فلما ختم السورة سجد وسجد من معه من المسلمين والكفار لما سمعوه

أثنى على آلهتهم ، ثم أنزل الله تعالى عليه ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ ﴾ [الحج :٥٢] وأجابوا عنه بضعف الحديث فإنه لم يخرجه أحد من أهل الصحيح ولارواة ثقة بإسناد صحيح سليم متصل ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون لكل صحيح وسقيم ، والذي منه في الصحيح أن النبي ﷺ قرأ -والنجم- وهو بمكة ، فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس» اهـ .

لاشك أن هذا الحديث الضعيف يرفع العصمة عن النبي ﷺ في التبليغ ويفيد تسلط الشيطان عليه حتى انحرف عن أمانة تبليغ القرآن كما أنزل .

والخلاف في قصة الغرانيق مبني على أن المراد بالتمني هو القراءة لكن هناك تفسير مبسط بعيد عن هذا التأويل وعن الرواية المدسوسة على الرسول ، وخلاصته :

أن الله سبحانه يقرر أنه ما أرسل رسولاً وما اختار نبيًّا من السابقين إلا تمنى هداية قومه وتوفيقه في أداء رسالته ، لكن الشيطان يلقي في قلوب القوم وساوس تنفرهم من قبول ما يتمناه وهو الإيمان والهداية ، غير أن الله إذا أراد هداية قوم أزال تلك الوساوس التي ألقاها الشيطان في صدورهم ووفقهم لإدراك الحقيقة وإجابة النبي فيما طلب . أما الذين لم يرد الله هدايتهم فإنهم يتأثرون بهذه الوساوس ويقفون من الدعوة موقف المكذب المعاند أو الشاك المتربص .

فالنسخ في الآية هو محو الوساوس وإزالتها وإبطال كيد الشيطان . وإحكام الآيات هو التوفيق للصواب في فهمها والإيمان بها . ونزول هذه الآيات يراد به تسلية النبي ﷺ ، وبيان أن كل مصلح لابد أن يلاقي في طريقه عقبات تكون حاجزاً بينه وبين المطلوب . لكن عناية الله إذا لاحظته ذللت هذه العقبات ، حيث كان رائده المصلحة .

هذا ، و تبليغ القرآن بالذات لا يمكن للشيطان أن يتلاعب فيه ، فالله يقول ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر :٩] .

يقول الدميري مستمداً من كلام القاضي عياض بعد أن ذكر ضعف الحديث وعدم جواز الاستدلال به : هذا توهينه من جهة النقل ، وأما من جهة العقل فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذا .

ولم يجعل الله تعالى للشيطان عليه ولا على أحد من الأنبياء سبيلاً ثم قال : وعلى تقدير صحة ما رووه - وقد أعاذنا الله من صحته - فالراجح في تأويله عند المحققين أنه عليه الصلاة والسلام كان -كما أمره الله تعالى- يرتل القرآن ترتيلا ، ويفصِّل الآيات تفصيلاً في قراءته . فَمِنْ ثَمَّ ترصد الشيطان لتلك السكتات ، ودسَّ كلاماً في تلك الكلمات محاكياً نغمة رسول الله ﷺ بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار فظنوها من قوله ﷺ ، ولم يقدح ذلك عند المسلمين ، فقد روى محمد ابن عقبة أن المسلمين لم يسمعوها ، وإنما ألقاها الشيطان في أسماع الكفار وعقولهم .

وفسر مجاهد والكلبي الغرانيق العلا بأنها الملائكة ، وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله ، فأنكر الله كل ذلك من قولهم ، ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح فلما تأوله المشركون على أن المراد به ذكر آلهتهم ولَبَّسَ عليهم الشيطان ذلك وزينة في قلوبهم وألقاه إليهم - نسخ الله تعالى ما ألقى الشيطان وأحكم آياته ورفع تلاوة ما حاوله الشيطان كما رفعت تلاوة كثير من القرآن . وكان في إنزال الله لذلك حكمة وفي نسخه حكم ، كما قال تعالى ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحج :٥٣ ، ٥٤] .

هذا ، وقد ناقش هذا الموضوع المرحوم يوسف الدجوي [1] وقرر أن القصة باطلة كما قال البيهقي والقاضي عياض في كتابه «الشفا» وأبو حيان في «البحر» وابن إسحق في السيرة الذي صنف في ذلك كتاباً ، وكذلك أبو منصور الماتريدي .

١- مجلة الأزهر - المجلد الرابع ص ٥٢٦ .

ونَفَى هذه القصة لما يترتب عليها من أمور خطيرة ، كتسلط الشيطان على الرسول وبخاصة في التبليغ والاعتقاد «إن عبادي ليس لك عليهم سلطان» وكزيادة الرسول في القرآن ما ليس منه وهو ينافي أمانة التبليغ ، وكاعتقاد النبي ما ليس بقرآن أنه قرآن مع مناقضته كما في القرآن من ذم الأصنام والشركاء ، وكتصوير الشيطان بصورة الملك الملبِّس على النبي وهو ممنوع كتصوره بصورة النبي . اهـ .

وأنصح بعدم المبادرة بتصديق أمثال هذه الأكاذيب ، والرجوع فيها إلى المراجع الصحيحة والأخذ عن العلماء المتخصصين . مع الإيمان بأن الله سبحانه ما اختار الأنبياء لهذه المهمة إلا لعصمتهم ونزاهتهم فهم المصطفون الأخيار .



س : نعرف أن القرآن لم ينزل مرة واحدة ، فكيف جمع وعلى أي أساس كان ترتيب الآيات والسور؟

ج : نزل القرآن منجَّماً أي مفرقاً على مدى ثلاثة وعشرين عاماً ، وذلك لحكمة ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء :١٠٦] وقوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان :٣٢] وكان جبريل يعرض القرآن على الرسول ﷺ في شهر رمضان كل سنة مرة واحدة ، وفي شهر رمضان الأخير من حياته عرضه عليه مرتين ، وكان ينزل عليه ويقول له : ضع آية كذا في موضع كذا ، كما رواه أحمد. وكان الرسول ﷺ يحفظ القرآن كما يحفظه بعض الصحابة ، ومع الحفظ كان له كتَّاب يأمرهم بكتابه ما ينزل عليه ، وذلك على رقاع ولخاف -صفائح الحجارة- وعسب أي جريد النخل ، وغيرها ، وجمع ذلك كله في عهده ﷺ . وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه جمع كل ما كتب ونظم وحفظ في بيت السيدة حفصة بنت عمر أم المؤمنين .

ومن النسخة التي عند حفصة نسخ عثمان رضي الله عنه عدة نسخ وأرسلها إلى الأمصار ، وترتيب القرآن في آياته وسوره لم يكن حسب الزمن الذي نزلت فيه ، وبيان ذلك فيما يلي :

١- **أما ترتيب آياته فأمر توقيفي** ، بمعنى أنه وصلنا كما رتبه رسول الله ﷺ ، بناء على توجيه جبريل عليه السلام ، وهذا أمر مجمع عليه لم يختلف فيه أحد من الأئمة، وحُكي الإجماع على ذلك عن جماعة منهم الزركشي في كتابه «البرهان» وأبو جعفر في كتابه «المناسبات» وجاءت في ذلك رواية عن الإمام أحمد بسنده عن عثمان بن أبي العاص ، قال : كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ، ثم صوَّبه ثم قال «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ .....﴾ إلى آخرها [النحل :٩٠] وجاء في صحيح مسلم عن عمر رضي الله عنه قال : ما سألت النبيﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بإصبعه في صدري وقال «تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء» وسميت هذه الآية بآية الصيف لأنها نزلت في زمن الصيف ، وهي قوله تعالى ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ .... ﴾[النساء:١٧٦] (١) .

٢- **وأما ترتيب السور ففيه ثلاثة آراء للعلماء :**

أ - رأي يقول إنه توقيفي من عند رسول الله ﷺ .

ب - ورأي يقول إنه باجتهاد الصحابة ، حيث جعلوا السور الطوال في الأول ، ثم المئين بعدها ، وهي التي آياتها مائة أو تزيد ،ثم المثاني بعدها ، وهي التي آياتها أقل قليلاً من مائة آية ، ثم بعدها المفصَّل وهو قصار السور ، والمفصل نفسه منه طوال ومنه أوساط ومنه قصار - وأجمع الصحابة على هذا الترتيب.

ودليل هذا الرأي أن مصاحف الصحابة كانت مختلفة في ترتيب السور قبل أن يجمع القرآن في عهد عثمان . وما رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان أن عثمان هو الذي قرن سورة التوبة بسورة الأنفال دون كتابة البسملة

١- تفسير القرطبي ج٦ ص ٢٩ .

بينهما، وذلك لتشابه قصتهما ، مع أن الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وبراءة من أواخر ما نزل بها ، ولهذا رتبت ترتيباً واحداً .

ج - ورأي ثالث يقول : إن بعض السور كان ترتيبها بتوقيف من النبي ﷺ وبعضها الآخر كان باجتهاد الصحابة ، وهو الذي مال إليه أكثر العلماء .

ومِمَّا رتبه الرسول بنفسه البقرة وآل عمران . فقد صح في مسلم حديث «اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران» وكذلك قل هو الله أحد والمعوذتان ، فقد صح في البخاري أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة . جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين . لكن قد يكون ذلك واقعة حال وليس أمراً بالترتيب . غير أنه مرجَّح .

٣- **لم يرتب القرآن في سوره وآياته حسب النزول** ، لأنه نزل مفرقاً ومنجماً على مدى ثلاثة وعشرين عاماً كما قدمنا ، ينزل حسب الظروف والمقتضيات ، ليبين حكم قضية ، أو يجيب على سؤال ، أو يوجه إلى سلوك رشيد أو غير ذلك . وقد تنزل في ذلك سورة بأكملها ، وقد تنزل آيات فقط من السورة الواحدة لموضوع معين ، ثم تنزل آيات لموضوع آخر ، وقد تكون في السورة نفسها أو في سور أخرى .

ولما كان بين بعض الآيات والبعض الآخر تناسب في حكم من الأحكام أو في الحديث عن ظرف معين كان من تقدير الله سبحانه أن يضم هذه الآيات المتناسبة بعضها إلى بعض ، كما أن توزيع بعض الآيات التي تتحدث عن قصة نبي من الأنبياء كموسى عليه السلام مثلاً وجعلها متباعدة في السور له حكمة أيضاً ، ليعطي فيها جرعة للنبي ﷺ في الاقتداء والتأسي ليثبِّت فؤاده ، أو يعرض عليه هذه القصة من زاوية معينة تتناسب مع ظروف نزولها ، فيوضع هذا البعض من القصة مع حكم شرعي أو آيات يناسبها أن تقرن القصة بها ، فيكون هناك توزيع للقصة الواحدة يجعل بعض الذين لا يفهمون السر في ذلك يقولون : لماذا لم يجمع الله كل القصة في سورة واحدة مثلاً ؟ لكن ترتيب الله أحكم ، فهو ليس ترتيباً عشوائيًّا ، وإنما هو صنع الله الذي أتقن كل شيء .

ومهما يكن من شيء فإن مراعاة الترتيب الموجود الآن يجب احترامه ، لأنه إجماع الصحابة بعد كتابة عثمان لمصحفه وإرسال نسخ منه إلى الأمصار [1] .



س : نجد في القرآن الكريم كلمات مكتوبة على خلاف الرسم الإملائي ويصعب علينا قراءتها بالرسم الحالي ، فهل تجوز كتابته بالرسم الإملائي لتيسير قراءتها وفهمها؟ وهل تجوز كتابة القرآن بغير حروف العربية؟

ج : عقد الإمام السيوطي فصلاً من كتابه «الإتقان» [2] خاصًّا برسم الخط وآداب كتابته ، وذكر بعض من أفردوا ذلك بالتصنيف ، منهم أبو عمرو الدانى وأبو عباس المراكشي واستطرد فذكر أول من وضع الكتاب العربي ثم قال : القاعدة العربية أن اللفظ يكتب بحروف هجائية مع مراعاة الابتداء به والوقف عليه . وقد مهد النحاة له أصولاً وقواعد ، وخالفها في بعض الحروف خط المصحف الإمام ، وقال أشهب : سئل مالك : هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : لا ، إلا على الكتبة الأولى ، رواه الدانى في المقنع ، ثم قال : ولا مخالف له من علماء الأمة وقال أبو عمرو الدانى موضحاً ذلك :يعني الواو والألف المزيدتين ، في الرسم المعدومتين في اللفظ نحو أولوا وقال الإمام أحمد : تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك ، ورأى البيهقي في «شعب الإيمان» هذا الرأي لأن الذين كتبوا المصحف كانوا أكثر علماً وأصدق قلباً ولساناً وأعظم أمانة منا ، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم .

ثم ذكر السيوطي أن أمر الرسم ينحصر في ست قواعد ، الحذف والزيادة والهمز والبدل والوصل والفصل وما فيه قراءات ، ومثل لذلك باستفاضة ، وذكر السر في حذف الحرف الأخير من بعض الكلمات مثل «يوم يدع الداع» «سندع الزبانية» أن

١- يراجع ذلك في كتاب «مناهل العرفان» للزرقاني ، وكتاب «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي.
٢- الجزء الثاني ، ص١٦٦.

المراكشي قال : السر في حذفها : التنبيه على سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل وشدة قبول المتأثر به في الوجود . وهكذا ذكر مبررات لكل قواعد الرسم وقد سئلت لجنة الفتوى بالأزهر سنة ١٣٥٥هـ [١٩٣٦م] فأجابت بما ملخصه ، أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أمر بأن تنسخ عدة نسخ من المصحف الذي كان موجوداً عند السيدة حفصة بنت عمر أم المؤمنين رضي الله عنها وعن أبيها . وكان هذا المصحف عند عمر ومن قبله كان عند أبي بكر الصديق رضي الله عنهما . وكان المصحف مأخوذاً من القطع المتعددة التي كان مكتوباً عليها في زمن النبي ﷺ ووزع عثمان هذه النسخ على الأمصار وأبقى واحدة منها بالمدينة . وكل مصحف من هذه المصاحف يسمى «المصحف الإمام» وقد رسمت بعض الكلمات فيها رسماً يخالف قواعد الإملاء المعروفة الآن . وجرى المسلمون من عهد عثمان إلى الآن على اتباع الرسم العثماني .

ثم قالت اللجنة : إن الجمهور من العلماء على التزام الرسم العثماني وحرمة مخالفته واستدلوا على ذلك بإجماع الصحابة على الصفة التي كتب عليها عثمان ولم يرو عن واحد منهم أنه كتب القرآن على غير هذه الصفة . وذكرت اللجنة ما نقل عن مالك وأحمد والبيهقي مما سبق ذكره هنا نقلاً عن السيوطي في «الإتقان» .

ثم قالت اللجنة : إن بعض العلماء ذهبوا إلى جواز كتابته بأي رسم كان ولو خالف الرسم العثماني ، فكل رسم حصلت به الدلالة فهو جائز ، ولم يتعرض للكيفية التي كتب بها ، وإجماع الصحابة لا يدل على أكثر من جواز رسمه على نحو ما كتب الصحابة ، أما رسمه على غير هذه الطريقة فلم تتعرض له الصحابة لابحظر ولا بإباحة وذكرت ما قاله القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه «الانتصار» موضحاً لهذا الرأي الذي لا يحتم التزام الرسم العثماني . ولكن اللجنة اختارت بقاء المصحف على الرسم الذي كان عليه في عهد عثمان رضي الله عنه .

وعدم كتابته على الرسم الإملائي الحديث ، فإن الرسم الحديث ما يزال موضع الشكوى لعدم تيسير القراءة به ، حيث توجد به أحرف لا تنطق ، وتنقص منه حروف تنطق ، ولا تتيسر القراءة والفهم إلا بعد التمرن الطويل والإتقان لمعرفة

قواعد الإملاء . ثم من قواعد الإملاء عرضة للتعديل ، فهل يكتب القرآن على القواعد الإملائية المعدلة أو القديمة ، وقد توجد عدة نسخ مختلفة الرسم ، وهنا تكون البلبلة والتعرض لتحريف القرآن وضعف الثقة فيه .

ثم قالت اللجنة : إن تلاوة القرآن لا تؤخذ أبداً من الرسم ، بل من التلقي لأن هناك أحكاماً لتجويد القرآن وإخراج الحروف من مخارجها الحقيقية لا يمكن للشكل الإملائي أن يدل عليها ، ولذلك أرسل عثمان مع المصاحف قراء ، فأمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدينة ، والمغيرة بن شهاب أن يقرئ بالشام ، وعامر بن عبد قيس أن يقرئ بالبصرة ، وأبا عبدالرحمن السلمي أن يقرئ بالكوفة ، فاللائق بقدسية القرآن بقاء كتابته على الرسم العثماني . انتهى تلخيص الفتوى .

وعلى ضوء ما جاء عن السيوطي في «الإتقان» وما اختارته لجنة الفتوى عملت بحوث ونشرت مقالات وصدرت فتوى من دار الإفتاء المصرية سنة ١٩٥٦م وقرر مجمع البحوث الإسلامية في دور انعقاده الرابع ١٩٦٨م الالتزام بالرسم العثماني ومنها البحث الذي قدمه الدكتور محمد محمد أبو شهبة ، مشيراً إلى بعض التآليف في ذلك . كالمقنع لأبي عمرو الدانى ، عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لأبي العباس المراكشي المتوفى سنة ٧٢١هـ والمعروف بابن البناء والأرجوزة للشيخ محمد ابن أحمد المتولي ، وشرحها للشيخ محمد على خلف الحسيني شيخ المقارئ المصرية في عهده ، مع تذييل الشرح بكتاب سماه «مرشد الحيران إلى معرفة ما يجب اتباعه في رسم القرآن» وإيقاظ الأعلام إلى اتباع رسم المصحف الإمام للشيخ محمد حبيب الله بن عبدالله بن أحمد بن ما يابي الجكنى الشنقيطي ومناهل العرفان للشيخ الزرقاني ، المدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبة ، وهذا الحكم موجود في كتب الأئمة وعلماء التفسير ، وجاء في الشفا للقاضي عياض : من غيَّر حرفا بزيادة أو نقص أو بدَّله بحرف غيره فهو كافر ، ووافقه على ذلك شارحه الخفاجي وشارحه ملاَّ على القاري [1] .

١- منبر الإسلام – ذو الحجة ١٤٠٢هـ .

٢ - وأما كتابة المصحف بغير الحروف العربية . فقد ذكر السيوطي في «الإتقان»[١] ما نصه : وهل تجوز كتابته بقلم غير العربي ؟ قال الزركشي : لم لأجد فيه كلاماً لأحد من العلماء . قال : ويحتمل الأجواز لأنه قد يحسنه من يقرؤه بالعربية والأقرب المنع كما تحرم قراءته بغير لسان العرب ، ولقولهم : القلم أحد اللسانين ، والعرب لا تعرف قلماً غير العربي ، وقد قال الله تعالى ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء :١٩٥] .

وقال الشيخ محمود أبو دقيقة من كبار علماء الأزهر : أجمع الأئمة الأربعة على أنه لايجوز كتابة القرآن بغير اللغة العربية ، لأن كتابته بغيرها تخرجه عن الرسم الوارد الذي قام الإجماع على أنه يجب التزامه ، بل قد تؤدي كتابته بغير العربية إلى التغيير في اللفظ لأن بعض الحروف العربية لا نظير له في بعض اللغات الأخرى ، والتغيير في اللفظ يؤدي إلى التغيير في المعنى ، وحيث كانت الكتابة بغير العربية تؤدي إلى هذا فلا يجوز . وقال بعض علماء الحنفية : إن من تعمد كتابة القرآن بغير العربية يكون مجنوناً أو زنديقاً ، فالمجنون يداوي والزنديق يقتل[٢] .



س : قراءة القرآن في رمضان مستحبة ، ولكننا نجد صعوبة في القراءة في المصاحف الموجودة الآن ، لأن رسمها مخالف لقواعد الإملاء التي تعلمناها فهل تدلونا على مصحف يسهل علينا القراءة ؟

ج : هذا السؤال يجرنا إلى بيان الحكم في كتابة المصحف بالرسم الإملائي ، وقد عرض هذا السؤال قديماً على لجنة الفتوى بالأزهر الشريف فأجابت بما ملخصه :

إن عثمان رضي الله عنه أمر بأن تنسخ عدة نسخ من المصحف الذي كان موجوداً عند السيدة حفصة بنت عمر أم المؤمنين رضي الله عنها وعن أبيها ، وكان هذا المصحف عند عمر ومن قبله أبو بكر الصديق رضي الله عنهما . وكان المصحف مأخوذاً من القطع المتعددة التي كان مكتوباً عليها في زمن النبي ﷺ .

---

١ - ج٢ ص١٧١.
٢ - مجلة الأزهر - المجلد الثالث ص ٣١ - ٣٤ .

ووزع عثمان هذه النسخ على الأمصار واستبقى واحدة منها بالمدينة وكل مصحف من هذه المصاحف يسمى «المصحف الإمام» وقد رسمت بعض الكلمات في هذه المصاحف رسماً يخالف قواعد الإملاء المعروفة الآن . وجرى المسلمون من عهد عثمان إلى الآن على اتباع الرسم العثماني .

فهل يلتزم هذا الرسم أو يجوز العدول عنه إلى رسم آخر يلائم العصر الحديث؟ ذهب جمهور الأئمة إلى التزام الرسم العثماني وحرمة مخالفته ، واستدلوا على ذلك بإجماع الصحابة على الصفة التي كتب بها عثمان المصاحف ، ولم يُرْوَ عن واحد منهم أنه كتب القرآن على غير هذه الصفة .

وذهب بعض العلماء إلى جواز كتابته بأي رسم كان . فكل رسم حصلت به الدلالة فهو جائز ، ولم يثبت أن النبي ﷺ أمر بهذا الرسم ، بل الثابت أنه كان يأمر بكتابة مانزل ولم يتعرض للكيفية التي كتب بها . وإجماع الصحابة لايدل على أكثر من جواز رسمه على نحو ما كتب الصحابة بحظر ولا إباحة ، وقد وضح ذلك أبوبكر الباقلاني في كتابه «الانتصار» .

ولكن لجنة الفتوى بالأزهر الشريف اختارت بقاء المصحف على الرسم الذي كان عليه في عهد عثمان رضي الله عنه . وعدم كتابته على الرسم الإملائي الحديث ، فإن الرسم الحديث ما يزال موضع الشكوى لعدم تيسر القراءة به ، حيث توجد به أحرف لا تنطق وتنقص منه حروف تنطق ، ولا تتيسر القراءة والفهم إلا بعد التمرن الطويل والإتقان لمعرفة قواعد الإملاء .

ثم إن قواعد الإملاء عرضة للتعديل ، فهل يكتب القرآن على القواعد الإملائية المعدلة أو القديمة ، وقد توجد عدة نسخ مختلفة الرسم ، وهنا تكون البلبلة والتعرض لتحريف القرآن وضعف الثقة فيه .

ثم إن تلاوة القرآن لا تؤخذ أبداً من الرسم ، بل من التلقي لأن هناك أحكاماً لتجويد القرآن وإخراج الحروف من مخارجها الحقيقية لا يمكن للشكل الإملائي أن يدل عليها ، ولذلك أرسل عثمان مع المصاحف قراء ، فأمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدينة ، والمغيرة بن شهاب أن يقرئ بالشام ، وعامر بن عبد قيس أن يقرئ

بالبصرة، وأبا عبدالرحمن السُّلَمي أن يقرئ بالكوفة ، فاللائق بقدسية القرآن بقاء كتابته على الرسم العثماني . اهـ .

بناء على هذه الفتوى لا تطبع المصاحف الآن على القواعد الإملائية المعروفة ، فإذا أردت أن تقرأ القرآن فليكن أولاً على عالم به مجيد له ، والقليل المجوَّد أفضل من الكثير الملحون أو غير السليم .



س : هل يجوز كتابة القرآن بغير الحروف العربية ليستطيع قراءته أهل اللغات الأخرى ؟

ج : أثير هذا الموضوع عندما أثير موضوع ترجمة القرآن الكريم ، وحاول بعض المجددين أن يجيز كتابة القرآن بحروف غيرالحروف العربية ، ولكن عارضه أهل الذكر من علماء الدين ، وصدرت بذلك فتوى رسمية من لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ، ونشرت بمجلة الأزهر [1] بتوقيع الشيخ حسين والي رئيس اللجنة وهذا نصها :

لا شك أن الحروف اللاتينية المعروفة خالية من عدة حروف توافق العربية ، فلا تؤدي جميع ما تؤديه الحروف العربية ، فلو كتب القرآن الكريم بها على طريقة النظم العربي . - كما يفهم من الاستفتاء - لوقع الإخلال والتحريف في لفظه ، وتبعهما تغير المعنى وفساده . وقد قضت نصوص الشريعة بأن يُصان القرآن الكريم من كل ما يعرضه للتبديل أو التحريف ، وأجمع علماء الإسلام سلفاً وخلفاً على أن كل تصرف في القرآن الكريم يؤدي إلى تحريف في لفظه أو تغيير في معناه ممنوع منعاً باتًّا ، ومحرم تحريماً قاطعاً .

وقد التزم الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم إلى يومنا هذا ، كتابة القرآن الكريم بالحروف العربية ومن هذا يتبين أن كتابة القرآن العظيم بالحروف اللاتينية المعروفة لاتجوز . انتهى .

١- المجلد السابع ص ٤٥ .

هذا ويقاس على تحريم كتابة القرآن الكريم بالحروف اللاتينية التي صدرت بها الفتوى تحريم كتابته بآية حروف أخرى غير عربية ، للاتحاد في العلة كما هو الشرط في القياس وقد سبق الكلام على ذلك .



س : هل تجوز كتابة كلام الله بدم الإنسان ؛ أو بدم الغزال ؟

ج : القرآن الكريم طاهر في أعلى درجات الطهارة ، ولا يجوز مطلقاً أن يكتب بحبر نجس أو بدم أو بغير ذلك من النجاسات . نص على ذلك السيوطي في كتابه الإتقان [1] .



س : هل يجوز تناول الطعام الموضوع على صحف فيها قرآن ، أو يفرشها ليجلس عليه ؟

ج : المفروض أننا نحترم الآيات والأحاديث والأسماء المقدسة التي تكون في أي شيء ، ولما كانت الصحف على اتساع حجمها فيها الكثير من الأشياء التي لايحدد لها موضوع خاص كان من الصعب أن تعطي الاحترام الواجب للمقدسات التي فيها، ومن هنا كان علينا أن نقوم بقدر الإمكان بصيانة هذه المقدسات عن كل مظاهر الاحتقار والاستهزاء ، فلا نمسح بها قاذورات أو نلف بها نجاسات أو نجلس عليها للاستراحة ، ويا حبذا لو جمعت هذه الصحف وأعيد تصنيعها ورقاً نظيفاً مرة أخرى للاستفادة منه في الأزمة الشديدة ؟

فالخلاصة أنه بقدر الإمكان نصون ما فيها من آيات عن كل ما يلوثها أو يزري بقدرها ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .



١- ج٢ ص ١٧٠ .

س : هل تجوز كتابة القرآن على الحوائط والملابس وغيرها ؟

ج : وصف الله القرآن بأنه كريم ، ومن كرامته ألايمسه إلا المطهَّرون ، وقد قال العلماء : إن كل مايعرِّض كتاب الله أو أي جزء منه إلى الإهانة حرام . وتفريعاً على ذلك قالوا : إن كتابة آيات القرآن على جدران البيوت لا تجوز ، وجاء في كتاب المصاحف لابن أبي داود أن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه رأى ابناً له يكتب في حائط فضربه ، وكان تعليل ذلك أن الحائط يصيبه الغبار والتلف فتسقط الأجزاء المكتوب عليها أو قد يتعرض للتلويث ونحوه ، وليست هناك علة وراء ذلك .

هذا ما قالوه ، لكن لو كتبت الآيات على جدران متينة أو مواد تحفظ ما يكتب عليها بالحفر ونحوه ، وكانت الكتابة داخل المبنى كالمسجد ونحوه ، بحيث لا تتعرض للتلوث أو التساقط السريع ، أو كانت على لوحات تعلق مع الحفظ والصيانة فلا أرى بأساً بذلك.

وقد جرى العمل منذ مئات السنين على نقش آيات من القرآن على جدران المساجد والقباب وغيرها دون إنكار ممن يُعْتَدُّ بإنكارهم ، فالمدار كله على الصيانة مما يمس كرامة القرآن وعلى نية من يكتب ويعلق هذه الآيات ، وقد يكون من الخير تزيين البيوت والمنشآت بها بدل اللوحات الأخرى التي لا تصل في إيحاءاتها الخلقية والأدبية إلى ما تصل إليه آيات القرآن الكريم .

هذا ، وقد صدرت فتوى من دار الإفتاء بتاريخ ٣ من يوليو ١٩٦٩م [1] : تكره كتابة القرآن وأسماء الله تعالى على الدراهم والمحاريب والجدران وما يفرش [2] ، وكتابة اسم من أسماء الله تعالى على إحدى درجات السلم منكر وتجب إزالته . ومن استحل امتهان اسم من أسماء الله تعالى يعرض نفسه للكفر والعياذ بالله ، ويلحق بذلك الكتابة على الملابس .

---

١ - الفتاوى الإسلامية مجلد ٥ ص ١٦٣٢ .

٢ - فتح القدير ج١ ص ١١٧ .

وجاء في الفتاوى الإسلامية أيضاً [1] ، تكره كتابة شيء من القرآن على الدراهم والدنانير ، لأن في ذلك تعريضاً لمسَّها أثناء تداولها من الجنب والحائض والنفساء والمحدث وغيرهم ، وليست هناك ضرورة تدعو إلى ذلك ، فالأحوط في المحافظة على القرآن وآياته البعد به عن كل ما يخل بتكريمه أو يوقع في ممنوع بسبب مَسِّه ممن هو غير طاهر .



س : هل يجوز أن تكتب بعض آيات القرآن يعلقها المريض أو يمحوها بالماء من أجل الشفاء ؟

ج : أما أن القرآن شفاء فذلك أمر لا شك فيه ، قال تعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء :٨٢] وقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس :٥٧] .

وقد حمل كثير من العلماء الشفاء على ما يعم الشفاء من الأمراض العقلية والنفسية والخلقية والجسمية ، حيث لايوجد ما يمنع ذلك . فهو يصحح الفكر والعقيدة ، ويهذب النفس ويمنحها الأمن والطمأنينة ، ويقوم السلوك بالأخلاق الحميدة ، ويزيل العلل والأمراض التي تعتري الأجساد .

وقد روى البخاري ومسلم حكاية سيد الحي الذي لُدغ ، ورقاه المسلمون بفاتحة الكتاب فشفاه الله ، وأخذوا على ذلك أجراً أقرهم عليه النبي ﷺ وقال «إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله تعالى» والحديث بطوله موجود في زاد المعاد لابن القيم [2] ، وذكر أن ابن ماجه روى في سننه من حديث علي قال : قال رسول الله ﷺ «خير الدواء القرآن» ووضح تأثير العلاج بالقرآن توضيحاً كبيراً يمكن الرجوع إليه .

١- مجلد ٥ ص ١٦٣٤.

٢- ج٣ ص ١٢١ .

وقال بعض العلماء : إن المراد بشفاء القرآن هو ما عدا شفاء الأجسام ، بدليل أن النبي ﷺ أخبر أن لكل داء دواء إلا الموت أو إلا الهرم ، وأمر بالتداوي ، عند المختصين كالحارث بن كلدة ، وعالج بالفصد والحجامة وشرب العسل وبغير ذلك مما وضحه ابن القيم في كتاب الطب النبوي .

والحق أن علاج الأمراض البدنية مطلوب عند المختصين ، والقرآن هو الذي أرشد إلى ذلك بسؤال أهل الذكر ، وبالأمر بالتعلم والإفادة . مع الإيمان بفاعليته في العلاج الفكري والنفسي ، وقد ذكر السيوطي في «الإتقان» [1] ، طرفاً من خواص القرآن في العلاج العام ، وأورد حديث ابن ماجه عن ابن مسعود «عليكم بالشفاءين العسل والقرآن» وحديث اللديغ سيد الحي وعلاجه بفاتحة الكتاب الذي رواه البخاري ومسلم ، وذكر حديث الطبراني عن علي قال : لَدَغَتْ النبيَّ ﷺ عقربٌ ، فدعا بماء وملح وجعل يمسح عليه ويقرأ : قل يا أيها الكافرون والمعوذتين .

ثم ذكر السيوطي أن النووي قال في شرح المهذب : لو كتب القرآن في إناء ثم غسله وسقاه المريض فقال الحسن البصري ومجاهد وأبو قلابة والأوزاعي : لابأس به ، وكرهه النخعي ، قال : ومقتضى مذهبنا -الشافعية- أنه لا بأس به . قال الزركشي: وممن صرح بالجواز في مسألة الإناء العماد النيهى ، مع تصريحه بأنه لايجوز ابتلاع ورقة فيها آية ، لكن أفتى ابن عبدالسلام بالمنع من الشرب أيضاً ، لأنه يلاقي نجاسة الباطن . وفيه نظر .

هذا ما نقل عن العلماء في جواز العلاج بالقرآن قراءة من الجواز ، فهو نافع إن شاء الله وبخاصة إذا كان القارئ صالحاً ترجى بركته ، أو دعا الله بعد قراءة القرآن فقد يستجيب الله الدعاء ، وقد رأينا أن النبي ﷺ في علاج لدغة العقرب أخذ بالوسائل المادية مع قراءة القرآن .

١- ج ٢ ص ١٦٣ .

ورأينا اختلاف العلماء في كتابة القرآن ومحوه بالماء وشربه للاستشفاء ما بين مجيز ومانع ، مع تحرزهم من تعرض القرآن للنجاسة أو الإهانة .

وأما العلاج بالدعاء فيمكن فيه الرجوع إلى علاج الصرع في كتاب زاد المعاد [1].



س : هل تجوز ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية كما ترجمت التوراة والإنجيل ؟

ج : في الثلث الأول من القرن العشرين أثيرت مسألة ترجمة القرآن الكريم ، واحتدم النزاع فيها بين المعارضين والمؤيدين .

والحقيقة التي اتفق عليها المعارضون والمؤيدون لهذه الفكرة أن القرآن الكريم لايسمى بعد الترجمة قرآناً له خصائصه ومزاياه وأحكامه الشرعية المختلفة ، لأن الترجمة ليست كلام الله المنزل على رسوله محمد ﷺ ، بل هي كلام بشر ، ولأنه لغة الترجمة ليست هي العربية التي هي داخلة في كيان القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت :٣] وقال تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥] إلى غير ذلك من الآيات ، والترجمة بالتالي ليست معجزة ، لأن مفهوم المعجزة يحمل على عدم قدرة أحد غير الله على صنعها ، فما صنعه البشر غير الله يفقد معنى الإعجاز .

وإذا كانت الترجمة لا تُسمى قرآناً ولا تستلزم أحكامه من مثل التعبد بتلاوته ، وعدم قراءته مع الجنابة ، وصحة القسم به وغير ذلك ، فهل تجوز هذه الترجمة أو لاتجوز ؟

اصطلح العلماء على أن هناك معنيين للترجمة ، أحدهما ترجمة حرفية ، والآخر ترجمة المعاني .

الترجمة الحرفية :

الترجمة الحرفية تقوم على وضع لفظ مرادف للفظ القرآن يؤدي كل المقصود منه ، وقد اتفق العلماء على أنها غير جائزة ، وذلك لأنها غير ممكنة ، إن لم تكن في كل القرآن ففي أكثره . وبيانه :

---

١ - ابن القيم ج٣ ص ٨٤ .

١- أن اللفظ العربي قد يكون له أكثر من معنى ، كالقُرْء ، ولايمكن للفظ الأجنبي أن يدل عليها كلها . وقد يختار المترجم ما يروق له أو يحقق غرضه منها ، ويترك المعاني الأخرى ، فتكون الترجمة عاجزة عن الوفاء بما في القرآن من هداية شاملة، ولا تعبر عن حقيقة ما فيه . وهذا ما صنعه «ماكس هيننج» في ترجمته الألمانية للفظ «الإبل» الذي في الآية السابعة عشرة من سورة الغاشية ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ حيث فسر الإبل بالسحاب ، وهو أحد المعاني التي حملت عليها الآية ، والجمهور يفسرون الإبل بالحيوان المعروف .

٢ - أن بعض الألفاظ العربية ربما لا يراد بها الحقيقة ، بل يراد بها المجاز ، فلو كانت الترجمة لأحدهما ربما كان هو غير المقصود في القرآن الكريم ، وذلك تغيير لمعناه، وهذا ما وقع فيه «مارما ديوك بكتهول» في ترجمته الإنجليزية لكثير من الآيات، فترجم قوله تعالى ﴿فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ من آية ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء :١٨] بمعناه الأصلي وهو «فيشج رأسه» وترجم قوله تعالى ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء :٢٩] بمدلولها الأصلي ، وهو جمع اليد إلى العنق وإطلاقها .

٣- أن بعض الألفاظ العامة في القرآن قد يراد بها المعنى الخاص فيعبر عنه المترجم باللفظ العام الذي لا يريده القرآن ، كما صنعه المترجم الألماني في قوله تعالى ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ باللفظ العام للوقوع ، مع أن المراد هو قيام الساعة .

٤- أن هناك معاني لا يدل عليها الوضع الظاهر للفظ ، بل تؤخذ من صلته بلفظ آخر، كما في التقديم للمفعول على الفاعل الذي يدل على الأهمية ، وكما في ذكر مسح الرأس في الوضوء حيث جاء في الآية بين مغسولات تقدمت عليه وتأخرت عنه ، فاستنتج بعض الفقهاء من ذلك وجوب الترتيب بين أعضاء الوضوء ، وليس هذا مفيداً في اللغات الأخرى لما أفادته اللغة العربية .

إلى غير ذلك من الوجوه التي تؤكد أن الترجمة الحرفية للقرآن لا تفي بالغرض المقصود منه ، لا في الإعجاز ولا في الهداية الصحيحة الشاملة . ومن أجل هذا قال العلماء بعدم جواز الترجمة للقرآن كله ، وإن جازت في بعض الآيات .

ترجمة المعانى :

تحدث العلماء عن ترجمة معاني القرآن فقالوا : إن للقرآن معاني أصلية يستوي في فهمها كل من يعرف مدلولات الألفاظ المفردة ووجوه إعرابها وما يشاكل ذلك ، وله معان ثانوية يسميها علماء البلاغة مستتبعات التراكيب ، وهي خواص النظم التي يرتفع بشأنها الكلام ، كدلالة التنكير على التعظيم أو التحقير وما إلى ذلك .

والمعاني الأصلية قد يوافق المنثور أو المنظوم من كلام العرب بعض الآيات التي تدل عليها ، وذلك مع عدم مساس هذه الموافقة بإعجاز القرآن ، فإن إعجازه واسع الميدان متعدد الألوان . وهذه لا مانع من ترجمتها فهي كالتفسير الموضح لها بكلام البشر ، أما المعاني الثانوية فمن العسير أن تكون الترجمة دالة عليها ، وذلك لاختلاف الأساليب وما تدل عليه في اللغات ، وإذا كان هذا يحدث في ترجمة كلام البشر من لغة إلى لغة فكيف بترجمة كلام الله بلغة البشر ؟

إن هذه الترجمة بنوعيها تفسير ، والتفسير لا يستلزم أن يكون شاملاً لكل ما تدل عليه الألفاظ والتراكيب ، فهي لا تغني عن القرآن أبداً ، ولا تعبر عن كل ما فيه ، ولا مانع منها ، مع الإشارة في الهوامش إلى أن ما قام به المترجم هو تفسير بلغته هو، وليس تعبيراً عن القرآن كقرآن .

تنبيه :

رب قائل يقول : إذا كانت ترجمة القرآن بهذه الخطورة فكيف نبلغه للناس وقد أمر الله رسوله بتبليغه فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة :٦٧] وقال ﷺ «بلِّغوا عني ولو آية» [١] ، وقال «ليبلغ الشاهد منك الغائب» [٢] ، كيف نبلغه إلى غير العرب الذين لايعرفون اللغة التي نزل بها القرآن وهي اللغة العربية ؟

١- رواه البخاري .   ٢- رواه البخاري .

والجواب : أن الله سبحانه وتعالى قال ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم :٤] فالقرآن نزل بلغة العرب ، وهم بدورهم يبلغونه للناس بألسنتهم المختلفة ولا يتحتم أن يكون تبليغه بترجمته ، بل يمكن تبليغ فحواه ومعناه بهذه الألسنة واللغات ، حتى إذا دخلوا في الدين وأرادوا التفقه فيه تعلموا لغة القرآن وقرؤوه بها ، وهي دعوة إلى تعلم اللغة العربية .

هذا ، ومن الواجب أن يقوم المسلمون بترجمة معاني القرآن الكريم تبليغاً للرسالة ، وتصحيحاً للأخطاء التي وقعت في التراجم التي قام بها أجانب عن الإسلام أو من لا يتقنون اللغة العربية ولا يعرفون أساليبها البلاغية ، والتباطؤ في ذلك له أضراره في هذه الأيام بالذات ، التي تنوعت فيها وسائل الاتصال ، وكثر غزو الغرب للشرق والإسلام بأفكاره وشبهاته الموجه بعضها إلى الأديان عامة وبعضها إلى الإسلام خاصة .

ومع القيام بهذه الترجمة ونشرها باللغات يجب العمل على نشر اللغة العربية في البلاد الإسلامية التي لا تعرفها ، أو بين الجاليات الإسلامية التي تعيش في مجتمعات غير إسلامية ، حتى تظهر لهم صورة الإسلام بشكل واضح ، فيثبتوا على إيمانهم ويردوا الشبهات عن دينهم .

هذا ، وقراءة ترجمة القرآن في الصلاة تجوز أو لا تجوز سيكون الحديث عنها إن شاء الله في موضع آخر [1] .



س : هل من الحديث ما يقال : من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة ، لم تصبه فاقة أبداً؟

ج : ذكر القرطبي هذا الحديث في أول تفسير سورة الواقعة ، نقلاً عن الثعلبي وغيره ، ولم يحكم عليه بصحة ولا حسن ولا ضعف ، ولم أجده في الكتب التي تعني بتخريج الأحاديث .

---

١ - «انظر الجزء الثاني من كتاب : بيان للناس من الأزهر الشريف» فهناك مراجع كثيرة ، راجع الجزء الثاني من كتاب «مناهل العرفان» للشيخ الزرقاني .

ومهما يكن من شيء فقراءة سورة الواقعة أو أية سورة لها ثواب عظيم نترك تقديره لله سبحانه وتعالى ، وقد جاء التصريح ببعض ذلك في فضل آية الكرسي وأواخر البقرة ، وسورة الكهف وقل هو الله أحد وغيرها ، وتقدير الثواب على القراءة من أي موضع من القرآن جاء في حديث رواه الترمذي عن عبدالله ابن مسعود «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : «ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» [1] .

غير أن هناك أخباراً ليست صحيحة النسبة إلى رسول الله ﷺ ، منها ما هو ضعيف ومنها ما هو موضوع مكذوب ، على الرغم من قول الرسول ﷺ «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» [2] .

وقام بوضع هذه الأحاديث جماعة منهم أبو عصمة نوح بن أبي مريم المروزي ومحمد بن عكاشة الكرماني وأحمد بن عبدالله الجويباري . قيل لأبي عصمة : من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضل سور القرآن سورة سورة ؟ فقال : إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي محمد بن إسحاق ، فوضعت الحديث حسبة ، أي أرجو بذلك الثواب من الله على سبيل التطوع .

يقول ابن الصلاح في كتابه «علوم الحديث» : إن من ذلك الحديث الطويل الذي يروى عن كعب عن النبي ﷺ في فضل سور القرآن سورة سورة . وقد أخطأ الواحدي المفسر ومن ذكره من المفسرين في إيداعهم تفاسيرهم .



س : هل هناك فضل لسورة يس ، وما رأي الدين فيها يسمى «عدّية يس» لقراءتها على الظالم ؟

ج : جاء في فضل سورة يس قول النبي ﷺ «قلب القرآن يس ، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له ، اقرؤوها على موتاكم» [3] . وقوله «من قرأ

١- قال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب ، أي رواه راو واحد فقط .
٢- رواه البخاري ومسلم . ٣- رواه أحمد والنسائي وأبو داود والحاكم وصححه .

يس كتب الله بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات دون يس» [١] ، وقوله «من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له» [٢] .

وجاء في تفسير القرطبي نقلاً عن مسند الدارمي عن ابن عباس وليس مرفوعاً إلى النبي ﷺ هذا الحديث «من قرأ يس حين يصبح أعطي يُسْرَ يومه حتى يمسي ، ومن قرأها في صدر ليلة أعطي يسر ليلته حتى يصبح» وقال القرطبي : رفع الماوردي هذا الخبر إلى النبي ﷺ عن ابن عباس بلفظ : «إن لكل شيء قلباً وإن قلب القرآن يس ، ومن قرأها في ليلة أعطي يسر تلك الليلة ، ومن قرأها في يوم أعطي يسر ذلك اليوم» ولم يبين درجة هذا الحديث .

من مجموع ما ورد في شأنها نعلم أن لها فضلاً كما أن لبعض سور القرآن فضلاً يزيد على الفضل العام للقرآن وذلك من أجل الترغيب في قراءتها ، ويمكن الأخذ بهذه الأحاديث في فضائل الأعمال .

هذا ، وما يقال عن «عدية يس» فلا أعرف له أصلاً في الدين فإن لها نظاماً في القراءة -كما يقال- لا يوافق عليه الدين ، مع التسليم بأن قراءة يس أو شيء من القرآن عمل صالح يمكن التقرب به إلى الله عند الدعاء ، فيقال بعد القراءة : «اللهم إني أسألك بحق ما قرأت من القرآن الكريم أن تحفظني من السوء ، وترفع عني ظلم الظالمين» فيرجى أن يستجيب الله الدعاء كما دعا من انطبق عليهم الغار بصالح أعمالهم فنجاهم الله . مع العلم بأن الله سينتصف من الظالم للمظلوم ، فدعوته -كما صح في الحديث- يرفعها الله فوق الغمام ويقول : وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين . ولكننا نوصي بالصبر والعفو ، قال تعالى ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [الشورى : ٤٠] .



١- رواه الترمذي وقال : حديث غريب ، أي رواه راو واحد فقط .
٢- رواه مالك وابن السني وابن حبان في صحيحه .

س : هل هناك فضل لقراءة سورة يس عند الميت قبل دفنه وبعد دفنه؟

ج : روى أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه أن النبي ﷺ قال «قلب القرآن يس ، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له ، اقرءوها على موتاكم» .

هناك خلاف بين العلماء في وقت قراءتها ، فقيل عند الاحتضار عسى أن يخفف الله عن الميت ، وبخاصة أن الملائكة تحضر لسماع القرآن ومعها الرحمة ، وجاء في حديث آخر في مسند الفردوس «ما من ميت يموت فتقرأ عنده يس إلا هون الله عليه» .

وقيل إن قراءتها تكون بعد الموت ، سواء أكان ذلك قبل دفنه أم بعد دفنه ، والقرآن كله إذا قرئ بدون مقابل ووهب ثوابه إلى الميت ينفعه إن شاء الله ، وقد تكون لسورة يس بالذات فضيلة وأثر في ذلك .

وقراءتها على كل حال لا تضر ، وقد تفيد الميت بالإهداء إليه أو بحضور الملائكة لسماع القرآن ، ذلك إلى جانب نفعها لقارئها ولمن يستمعون إليها للعظة والعبرة .



س : ما هو فضل قراءة سورة يس ؟

ج : جاء في فضل قراءتها حديث رواه أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم وصححه، وهو «قلب القرآن يس ، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له ، اقرءوها على موتاكم» وحديث رواه الترمذي وقال :حديث غريب ، أي رواه راو واحد فقط وهو «من قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات دون يس» وحديث رواه مالك وابن السني وابن حبان في صحيحه ، وهو «من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له» .



س : ما حكم قراءة سورة الكهف يوم الجمعة ، وهل ما يفعله القراء يوم الجمعة من القراءة بصوت مرتفع جائز أو ممنوع ؟

ج : الأحاديث المروية عن قراءة سورة الكهف بعضها ورد بفضلها مطلقاً ، بصرف النظر عن كونها يوم الجمعة أو فى غيره ، كحديث أبى سعيد الخدري مرفوعاً «من قرأ الكهف كما أنزلت كانت له نورا يوم القيامة من مقامه إلى مكة»[1]. وبعضها ورد بفضلها يوم الجمعة لحديث أبى سعيد أيضاً أن النبي ﷺ قال «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين» [2] .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ «من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدميه إلى عنان السماء ، يضيء له يوم القيامة ، وغفر له ما بين الجمعتين» [3] .

ومن مجموع هذه الروايات نرى أن الثواب على سورة الكهف سيكون نورا ، وهذا النور يوم القيامة ، وطوله يقدر بالمسافة التي بين قدمي القارئ ومكة لمن قرأها في أي يوم ، أما من قرأها يوم الجمعة فيقدر بالمسافة التي بين قدميه وعنان السماء، أي أن التقدير إما بالامتداد الأفقي ، وإما بالامتداد العمودي ، وقد يكون المراد عدم التحديد ، بل الإشارة إلى طول المسافة التي يغمرها النور ، الذي ربما يكون هو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم﴾ [الحديد : ١٢] .

والثواب الثاني لقارئ الكهف يوم الجمعة هو مغفرة الذنوب التي وقعت بين الجمعتين ، وهى الصغائر ، ولعل هذا هو المراد بإضاءة النور ما بين الجمعتين ، فنور الطاعة يمحو ظلام المعصية ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود : ١١٤] وقراءة

١- رواه الحاكم وصححه .

٢- رواه النسائي والبيهقي مرفوعاً ، ورواه الحاكم مرفوعاً وموقوفاً أيضاً ، وقال : صحيح الإسناد . ورواه الدارمي في مسنده موقوفاً على أبى سعيد . قال الحافظ المنذري : وفى أسانيدهم كلها ، إلا الحاكم ، أبو هاشم يحيى بن دينار الروماني ، والأكثرون على توثيقه ، وبقية الإسناد ثقات وفى إسناد الحاكم الذي صححه نعيم بن حماد ، وقد وثقه جماعة وجرَّحه آخرون . [الترغيب والترهيب] .

٣- رواه أبو بكر بن مردويه فى تفسيره بإسناد لا بأس به [المرجع السابق] .

الكهف مشروعة لكل مسلم يقرؤها في المسجد أو في غيره ، بصوت منخفض أو مرتفع ، ما لم يترتب على رفع الصوت ضرر أو إضرار .

أما قراءتها - هي أو غيرها - من قارئ بصوت مرتفع يوم الجمعة في المسجد فلم تكن أيام النبي ﷺ ، ولا في عهد السلف الصالح ، وإنما ذلك أمر حدث منذ قرون في بعض المساجد ، كمساجد مصر والشام ، ويدل عليه وجود «الدكك» في المساجد الأثرية التي يجلس عليها القارئ وأمامه حامل يوضع عليه مصحف كبير ، وكان يُعَيَّن من قبل المسئولين .

وقد رأى بعض العلماء منع قراءتها على هذا النحو ، لأنها بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، ولم يمنعها آخرون ، فليس كل ما لم يكن في عهد النبي ﷺ ممنوعاً ، بل منه ممنوع وغير ممنوع ، كما صح في البخاري أن عمر رضي الله عنه قال في صلاة التراويح خلف أبى بن كعب : نعمت البدعة هذه . وحيث لم يرد نهى عن قراءتها على هذا النحو فالأصل الجواز .

لكن الجميع متفقون على أنها إذ قرئت بألحان غير مشروعة كانت القراءة محرمة، وإذا حدث بها إيذاء لمصل أو قارئ تمنع أيضاً ، فلا ضرر ولا ضرار في الإسلام كما قال النبي ﷺ [١] . ويؤيده ما رواه أبوداود عن أبى سعيد الخدري أن النبي ﷺ اعتكف في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة ، فكشف الستر وقال «ألا إن كلكم مُنَاجٍ لربه ، فلا يؤذ بعضكم بعضا ، ولا يرفع بعضكم على بعض فى القراءة» .

جاء في ضمن فتوى للشيخ محمد عبده / بتاريخ رجب ١٣١٩ هـ [٢] أن القارئ لسورة الكهف ونحوها من القرآن يأثم إذا آذى غيره ، أو قرأ حال اشتغال المصلى بالصلاة ، بأن ابتدأ في القراءة والمصلى يصلى ، لما فى ذلك من تضييع احترام القرآن الواجب عليه .

١- أخرجه مالك فى الموطأ مرسلا ، ورواه الدارقطني وجماعة من وجوه المحدثين متصلا ، وهو حديث حسن .

٢- منشورة في المجلد الأول من الفتاوى الإسلامية «ص ٥٣» .

وقد صدرت فتوى للشيخ عبد المجيد سليم [1] بهذا الصدد هذا نصها : وقراءة سورة الكهف -كما هو معهود الآن في المسجد يوم الجمعة- بدعة مستحدثة لم تعرف فى عهد الرسول ﷺ ولا في زمن الصحابة والسلف الصالح ويظن العامة أن قراءتها بهذه الكيفية وفي ذلك الوقت من شعائر الإسلام ، فهي مكروهة لا سيما أن قراءتها على هذا الوجه تحدث تشويشاً على المصلين ، وقد خرج النبي ﷺ على أصحابه وهم يصلون يجهرون بالقراءة فقال «أيها الناس ، كلكم يناجى ربه ، فلا يجهر بعضكم على بعض» وكذلك الحكم في قراءة غير سورة الكهف من القرآن ، وفى الجهر بالتسبيح أو التهليل مما يحدث تشويشاً على المصلين ، بل نص بعض علماء المالكية على أن ذلك إذا أحدث تشويشاً كان حراما .

وقد صدرت فتوى بذلك في المجلة أيضاً [2] يفهم منها أنه لا ضرر فى قراءتها لأنها عبادة لكن لا يصح لقارئ أن يقرأ في مكان يشوش عليه الناس فيه ، ولا أن يرفع صوته إذا كان رفع صوته يحدث تشويشاً على المصلين فعلاً .

وجاء في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ما خلاصته : أن الحنفية كرهوا رفع الصوت بالذكر في المسجد إن ترتب عليه تشويش على المصلين أو إيقاظ للنائمين ، وكذلك قال بالكراهة الشافعية والحنابلة ، وجعله المالكية حراماً .

وجاء في كتاب «الحاوي للفتاوى للسيوطي» كراهة رفع الصوت بالقراءة والذكر إذا آذى المصلين والنيام ، وليس ذلك محرما ، لأن الحكم بالتحريم يحتاج إلى دليل واضح صحيح الإسناد غير معارض ، ثم إلى نص من أحد أئمة المذاهب ، وكل من الأمر لا سبيل له .

وجاء في فتاوى النووي في المسائل المنثورة «مسألة» جماعة يقرءون القرآن في الجامع يوم الجمعة جهراً ، وينتفع بسماع قراءتهم ناس ، ويشوشون على بعض الناس، فهل قراءتهم أفضل أم تركها ؟

١- منشورة بمجلة الأزهر «المجلد ١٩ ص ٨٣٩» .
٢- المجلد ٤ ص ١٠٢ .

والجواب : إن كانت المصلحة فيها وانتفاع الناس بها أكثر من المفسدة المذكورة فالقراءة أفضل . وإن كانت المفسدة أكثر كرهت القراءة . وفى المسألة التي تليها وهى: قراءة القرآن فى غير الصلاة ، هل الأفضل فيها الجهر أم الإسرار ؟ إلاَّ أن يترتب على الجهر مفسدة كرياء أو إعجاب أو تشويش على مُصلٍّ أو مريض أو نائم أو معذور أو جماعة مشتغلين بطاعة أو مباح .



س : هل يجوز رفع الصوت بقراءة القرآن إذا كان يؤذى غيره ؟

ج : أفتى الشيخ محمد عبده [1] بأنه إذا كان الرجل يكتب الفقه وبجانبه رجل يقرأ القرآن ولا يمكن للكاتب استماع القرآن فالإثم على القارئ ، وعلى هذا لو قرأ على السطح والناس نيام يأثم لأن ذلك يكون سبباً لإعراضهم عن السماع أو لأنه يؤذيهم بإيقاظهم ، وقالوا : إنه يجب على القارئ احترام القرآن ، بألا يقرأ في الأسواق ومواضع الاشتغال ، فإذا قرأه فيها كان هو المضيع لحرمته فيكون الإثم عليه دون أهل الاشتغال ، دفعا للحرج .



س : هل يجوز للإنسان أن يضع في كلامه شيئاً من القرآن يقتضيه المقام ولاينسبه إلى الله بل ينسبه إلى نفسه ، مثل أن يقول المظلوم فى ظالمه «حسبي الله ونعم الوكيل» ؟

ج : تحدث السيوطي [2] عن الاقتباس الذي هو تضمين الشعر أو النثر بعض القرآن ، لا على أنه منه بألا يقول فيه : قال الله تعالى ونحوه فإن ذلك حينئذ – أي إن قال : قال الله – لا يكون اقتباساً . وقد اشتهر عن المالكية تحريمه وتشديد النكير على فاعله . وأما أهل مذهبنا – أي الشافعية – فلم يتعرض له المتقدمون ولا أكثر المتأخرين مع شيوعه في أعصارهم . وقد تعرض له جماعة من المتأخرين ، فأجازه الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، استدلالا بما ورد عن النبي ﷺ من قوله في

١- المجلد الأول من الفتاوى الرسمية ص ٥٢ .
٢- الإتقان ج ١ ص ١١١ .

الصلاة وغيرها «وجهت وجهي» إلخ وقوله : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ [الأنعام : ٩٦] ، اقض عنى الدين وأغنني من الفقر . وفى سياق كلام لأبى بكر «وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون» وفى حديث آخر لابن عمر «قد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» انتهى.

وهذا دليل على جوازه في الوعظ والثناء والدعاء فى النثر ، ولا دلالة فيه على جوازه فى الشعر ، وبينهما فرق ، فصرح أبو بكر من المالكية بكراهته فى الشعر ، واستعمله أيضاً فى النثر القاضي عياض . قال ابن المقري : الاقتباس ثلاثة أقسام : مقبول ومباح ومردود ، فالأول ما كان فى الخطب والمواعظ ، والثاني ما كان في الغزل والقصص ، والثالث على ضربين ، أحدهما ما نسبه الله إلى نفسه ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه ، كما قيل عن أحد بنى مروان أنه وقَّع على مطالعة فيها شكاية عماله ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية : ٢٥ ، ٢٦] والآخر تضمين آية فى معنى هزل ، ونعوذ بالله من ذلك كقوله :

أرخى إلى عشاقه طرفــه   هيهات هيهات لما توعدون
وردفه ينطق من خلفـــه   لمثل هذا فليعمل العاملـون

وارتضى السيوطي هذا التقسيم . ثم ذكر حوادث من ذلك عن أئمة أجلاء .

ولقد لخص الزرقاني فى شرح المواهب اللدنية[1] هذه الآراء فقال : إن الاقتباس جائز عند المالكية والشافعية باتفاق ، غير أنهم كرهوه في الشعر خاصة، وذكر أسماء الأئمة الذين أجازوه ، وهذه حجة على من يزعم أن مذهب مالك يحرمه، وأن أئمة الشافعية مجمعون على جوازه ، ومن ادعى أنهم حرموه فهو كاذب ، وقد أشير إلى الحكم في كتاب «فتاوى وأحكام للمرأة المسلمة» هذا ، وقد سمعنا أن بعض النساء قديماً كانت تحفظ القرآن كله وتقتبس منه وتتعامل مع الناس به ، وهى مذكورة في كتاب «فتاوى وأحكام للمرأة المسلمة» .



١- ج ١ ص ٢٥.

س: لماذا يذكر قُرَّاء القرآن كلمة «الفاتحة» بعد ختم القراءة ، وهل هى واجبة؟

ج : دعوة قارئ القرآن بعد انتهاء قراءته أن يقرأ السامعون الفاتحة ليست واجبة، وإنما هي دعوة للمشاركة في قراءة أي قرآن وهبة ثوابه إلى الميت الذي قرئ القرآن بمناسبة العزاء فيه ، أو قراءتها والدعاء بعدها بما قرئ القرآن لمناسبته كاجتماع للصلح أو عمل مشروع خيري أو غير ذلك .

واختيار الفاتحة بالذات لأنها السبع المثاني وأعظم سورة في القرآن كما صح في حديث البخاري ، وجاء في رواية لمسلم أنها وخواتيم سورة البقرة نوران لم يؤتهما نبي من قبل سيدنا محمد ، وقال له الملك «لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته» .



س : ما حكم الدين في قراءة الفاتحة للنبي ؟

ج : الفاتحة كما ورد في حديث البخاري هي أعظم سورة في القرآن وهى السبع المثاني والقرآن العظيم . ومن قرأها أعطاه الله ما سأل من الهداية إلى الصراط المستقيم كما رواه مسلم ، وكما جاء في رواية أخرى له «لن يقرأ بحرف منها إلا أعطيه» .

وإذا قرأها الإنسان للنبي ﷺ ، فالظاهر أنه يهب ثوابها إليه ، مع غنى الرسول عن هذا الثواب فقد شرفه الله وكرمه أعظم تشريف وتكريم ، لأن هذه الهبة علامة على حب من قرأها للنبي عليه الصلاة والسلام ، تماما كالصلاة على النبي ، فإن معناها طلب الرحمة من الله له ، وهو عليه الصلاة والسلام مرحوم ، والمحب يحرص ويسرُّ بتقديم هدية إلى المحبوب رمزا وعلامة على حبه .

وكثيراً ما يقول قارئ الفاتحة للنبي «زيادة في شرف النبي» فالنبي مشرف وهو يطلب من الله أن يزيده شرفا ، وكل ذلك دليل على الحب ، وحبه عليه الصلاة والسلام فرض على المؤمن لا يتم إيمانه إلا به ، كما وردت بذلك الأحاديث . وإذا كان حبه يتمثل في اتباع سنته أي طريقته التي تركها لنا ممثلة في القرآن والسنة ،

فليس هناك ما يمنع أن نبرهن على حبنا بإهداء ثواب الفاتحة له والصلاة عليه أي طلب الرحمة من الله له [1].



س : هل يجوز أن يقرأ الإنسان الفاتحة أو غيرها ويقول : زيادة في شرف النبي ﷺ؟

ج : إلى جانب ما ذكرته في فتاواى جاء في شرح الزرقاني للمواهب اللدنية [2] ما خلاصته : إهداء القراءة إلى الرسول لا يعرف فيه خبر ولا أثر ، بل أنكره جماعة منهم الشيخ برهان الدين بن الفِرْكاح ، لأن الصحابة لم يفعله أحد منهم. لكن اختار السبكي وغيره خلاف ذلك . وكذا أنكر البرهان القراري قولهم: اللهم أوصل ثواب ما تلوته إلى فلان خاصة ، وإلى المسلمين عامة . لأن ما اختص بشخص لا يتصور التعميم فيه . وردَّه الزركشي بأن الظاهر خلاف ما قاله ، فإن الثواب يتفاوت، فأعلاه ما خصه ، وأدناه ما عمه وغيره ، والله تعالى يتصرف فيما يعطيه من الثواب . على أن المراد : مثل ثواب ما تلوته لفلان خاصة ومثل ذلك للمسلمين عامة ، وهذا متصور ، وحكى صاحب الروح الشمس ابن القيم : أن من الفقهاء المتأخرين من استحبه ، ومنهم من رآه بدعة مذمومة ، قالوا : والنبي ﷺ غنى عن ذلك ، لكن ليس في كونه غنيا ما يقتضى منع ذلك ، بل يجوز أن يكون إهداؤها سببا في ثواب يصل إليه زائداً على الثواب الواصل له من كل خير عملته أمته ، وأن له أجر كل من عمل خيراً من أمته ، من غير أن ينقص من أجر العامل شيء ، لحديث مسلم وأصحاب السنن «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لاينقص ذلك من أجورهم شيئاً . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئاً» .

---

١ ، ٢ - الزرقاني على المواهب ج ٥ ص ٤٠٨ .

ومن ثمَّ قال الشافعي : ما من خير يعمله أحد من أمة النبي ﷺ إلا والنبي ﷺ أصل فيه ، لأنه إنما عمل بإرشاده . قال الزين المراغي المحدث في كتابه «تحقيق النصرة» : فجميع حسنات المسلمين وأعمالهم الصالحة في صحائف نبينا ﷺ زيادة على ما له من الأجر ، مع مضاعفة لا يحصرها إلا الله تعالى ، لأن كل مهتد وعامل إلى يوم القيامة يحصل له أجر ويتجدد لشيخه مثل ذلك الأجر ، ولشيخ شيخه مثلاه ، وهكذا تضعيف كل مرتبة بعدد الأجور الحاصلة بعده إلى النبي ﷺ . و بهذا تعلم تفضيل السلف على الخلف ... وبهذا يجاب عن استشكال دعاء القارئ له ﷺ بزيادة الشرف ، مع العلم بكماله عليه الصلاة والسلام في سائر أنواع الشرف ، فكأن الداعي لحظ أن قبول قراءته يتضمن لمعلمه نظير جزء وهكذا حتى يكون للمعلم الأول وهو الشارع ﷺ نظير جميع ذلك ، ومن ذلك ما شرع عند رؤية الكعبة من قول الرائي : اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً ، وهذا كما قالوا في الصلاة عليه : زاده الله شرفاً . أشار إلى نحوه الحافظ ابن حجر .



س : ما حكم الدين في قراءة القرآن على الأموات هل تنفعهم أو لا تنفعهم؟

ج : في قراءة القرآن للميت خلاف للعلماء بين المنع من استفادته بها بناء على أنها عبادة بدنية لا تقبل النيابة ، وبين الجواز بناء على رجاء رحمة الله وما ورد من بعض النصوص ، ومن تتبع أقوال الكثيرين يمكن استنتاج ما يلى :

١ - إذا قرئ القرآن بحضرة الميت فانتفاعه بالقراءة مرجو ، سواء أكان معها إهداء أم لم يكن ، وذلك بحكم المجاورة ، فإن القرآن إذا تلى ، وبخاصة إذا كان فى اجتماع حفت القارئين الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، روى مسلم قول النبى ﷺ «ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يقرءون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة» والقرآن ذكر، بل أفضل الذكر ، وقد روى مسلم وغيره حديث

«لايقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده» ، بل لا يشترط لنزول الملائكة وغيرهم أن تكون القراءة أو الذكر فى جماعة ، فيحصل ذلك للشخص الواحد روى البخارى ومسلم حديث أسيد بن حضير الذى كان يقرأ القرآن فى مربده وبجواره ولده وفرسه ، وجاء فيه : فإذا مثل الظلة فوق رأسى ، فيها أمثال السرج عرجت فى الجو حتى ما أراها ، فقال له رسول الله ﷺ « تلك الملائكة تستمع لك ، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم » .

على أن النص قد جاء بقراءة «يس» عند الميت ، روى أحمد وأبو داود والنسائى، واللفظ له ، وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححاه أن النبى ﷺ قال : « قلب القرآن يس ، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له اقرءوها على موتاكم » . وقد أعل الدارقطنى وابن القطان هذا الحديث ، لكن صححه ابن حبان والحاكم ، وحمله المصححون له على القراءة على الميت حال الاحتضار ، بناء على حديث فى مسند الفردوس «ما من ميت يموت فتقرأ عنده يس إلا هون الله عليه» لكن بعض العلماء قال : إن لفظ الميت عام لا يختص بالمحتضر ، فلا مانع من استفادة بالقراءة عنده إذا انتهت حياته ، سواء دفن أم لم يدفن ، روى البيهقى بسند حسن أن ابن عمر استحب قراءة أول سورة البقرة وخاتمتها على القبر بعد الدفن ، وابن حبان الذى قال فى صحيحه معلقا على حديث «اقرءوا على موتاكم يس» أراد به من حضرته المنية لا أن الميت يقرأ عليه رد عليه المحب الطبرى : بأن ذلك غير مسلم له وإن سلم أن يكون التلقين حال الاحتضار ، قال الشوكانى : واللفظ نص فى الأموات وتناوله للحى المحتضر مجاز فلا يصار إليه إلا لقرينة [1] ، والنووى ذكر فى رياض الصالحين تحت عنوان : الدعاء للميت بعد دفنه والقعود عند قبره ساعة للدعاء له والاستغفار والقراءة [2] ، ذكر أن الشافعى قال : يستحب أن يقرأ عنده

١- نيل الأوطار ج ٤ ص ٥٢ .

٢- رياض الصالحين الباب الحادى والستون بعد المائة .

شيء من القرآن وإن ختموا القرآن كان حسنا ، وجاء فى المغنى لابن قدامة [1] ، تسن قراءة القرآن عند القبر وهبة ثوابها ، وروى أحمد أنه بدعة ، ثم رجع عنه .

وكره مالك وأبو حنيفة القراءة عند القبر حيث لم ترد بها السنة . لكن القرافى المالكى قال : الذى يتجه أن يحصل للموتى بركة القراءة ، كما يحصل لهم بركة الرجل الصالح يدفن عندهم أو يدفنون عنده .

٢- إذا قرئ القرآن بعيدا عن الميت أو عن القبر وامتنع انتفاعه به بحكم المجاورة وحضور الملائكة ، اختلف الفقهاء فى جواز انتفاع الميت به ، وهناك ثلاث حالات دار الخلاف حولها بين الجواز وعدمه :

الحالة الأولى :

إذا قرأ القارئ ثم دعا الله بما قرأ أن يرحم الميت أو يغفر له ، فقد توسل القارئ إلى الله بعمله الصالح وهو القراءة ، ودعا للميت بالرحمة ، والدعاء له متفق على جوازه وعلى رجاء انتفاعه به إن قبله الله ، كمن توسلوا إلى الله بصالح أعمالهم فانفرجت عنهم الصخرة التى سدت فم الغار وفى هذه الحالة لا ينبغى أن يكون هناك خلاف يذكر فى عدم نفع الميت بالدعاء بعد القراءة .

الحالة الثانية :

إذا قرأ القارئ ثم دعا الله أن يهدى مثل ثواب قراءته إلى الميت ، قال ابن الصلاح: وينبغى الجزم بنفع : اللهم أوصل ثواب ماقرأناه ، أى مثله ، فهو المراد ، وأن يصرح به لفلان ، لأنه إذا نفعه الدعاء بما ليس للداعى فما له أولى ، ويجرى ذلك فى سائر الأعمال ، ومعنى كلام ابن الصلاح أن الداعى يدعو الله أن يرحم الميت : والرحمة ليست ملكا له بل لله ، فإذا جاز الدعاء بالرحمة وهى ليست له فأولى أن يجوز الدعاء بما له هو وهو ثواب القراءة أو مثلها . وكذلك يجوز فى كل قربة يفعلها الحى من صلاة وصيام وصدقة ، ثم يدعو بعدها أن يوصل الله مثل ثوابها

١- ص ٧٥٨ .

إلى الميت . وقد تقدم كلام ابن قدامة فى المغنى عن ذلك ، والدعاء بإهداء مثل ثواب القارئ إلى الميت هو المراد من قول المجيزين : اللهم أوصل ثواب ماقرأته لفلان .

الحالة الثالثة :

إذا نوى القارئ أن يكون الثواب : أى مثله ، للميت ابتداء أى قبل قراءته أو أثناءها يصل ذلك إن شاء الله ، قال أبو عبدالله الأبى : إن قرأ ابتداء بنية الميت وصل إليه ثوابه كالصدقة والدعاء ، وإن قرأ ثم وهبه لم يصل ، لأن ثواب القراءة للقارئ لا ينتقل عنه إلى غيره ، وقال الإمام ابن رشد فى نوازله : إن قرأ ووهب ثواب قراءته لميت جاز وحصل للميت أجره ، ووصل إليه نفعه ، ولم يفصل بين كون الهبة قبل القراءة أو معها أو بعدها ، ولعله يريد ما قاله الأبى .

هذا ، وانتفاع الميت بالقراءة مع الإهداء أو النية هو ما رآه المحققون من متأخرى مذهب الشافعى ، وأولوا المنع على معنى وصول عين الثواب الذى للقارئ ، أو على قراءته لا بحضرة الميت ولا بنية ثواب قراءته له ، أو نيته ولم يدع له ، وقد رجح الانتفاع به أحمد وابن تيمية وابن القيم ، وقد مر كلامهم فى ذلك .

قال الشوكانى [1] المشهور من مذهب الشافعي وجماعة من أصحابه أنه لا يصل إلى الميت ثواب قراءة القرآن ، وذهب أحمد بن حنبل وجماعة من العلماء وجماعة من أصحاب الشافعي إلى أنه يصل ، كذا ذكره النووي في الأذكار . وفي شرح المنهاج : لايصل إلى الميت عند ثواب القراءة على المشهور ، والمختار الوصول إذا سأل الله إيصال ثواب قراءته ، وينبغى الجزم به لأنه دعاء ، فإذا جاز الدعاء للميت بما ليس للداعى فلأن يجوز بما هو له أولى ، ويبقى الأمر موقوفاً على استجابة الدعاء . وهذا المعنى لا يختص بالقراءة ، بل يجرى فى سائر الأعمال . والظاهر أن الدعاء متفق عليه أنه ينفع الميت والحى ، والقريب والبعيد ، بوصية وغيرها وعلى ذلك أحاديث كثيرة ، بل كان أفضل الدعاء أن يدعو لأخيه بظهر الغيب .

---

١ - نيل الأوطار ج ٤ ص ١٤٢ .

هذا ، وقد قال الأبى : والقراءة للميت ، وإن حصل الخلاف فيها فلا ينبغى إهمالها ، فلعل الحق الوصول ، فإن هذه الأمور مغيبة عنا ، وليس الخلاف فى حكم شرعى إنما هو فى أمر هل يقع كذلك أم لا .

وأنا مع الأبى فى هذا الكلام فإن القراءة للميت إن لم تنفع الميت فهى للقارئ ، فالمستفيد منها واحد منهما ، ولا ضرر منها على أحد . مع تغليب الرجاء فى رحمة الله وفضله أن يفيد بها الميت كالشفاعة والدعاء وغيرهما .

وهذا الخلاف محله إذا قرئ القرآن بغير أجر ، أما إن قرئ بأجر الجمهور على عدم انتفاع الميت به ، لأن القارئ أخذ ثوابه الدنيوى عليها فلم يبق لديه ما يهديه أو يهدي مثل ثوابه إلى الميت ، ولم تكن قراءته لوجه الله حتى يدعوه بصالح عمله أن ينفع بها الميت ، بل كانت القراءة للدنيا ، ويتأكد ذلك إذا كانت هناك مساومة أو اتفاق سابق على الأجر أو معلوم متعارف عليه ، أما الهداية بعد القراءة إذا لم تكن نفس القارئ متعلقة بها فقد يرجى من القراءة النفع للميت . والأعمال بالنيات ، وأخذ قارئ القرآن من هذا الحديث الذى رواه أحمد والطبرانى والبيهقى عن عبدالرحمن بن شبل : «اقرأوا القرآن واعملوا به ، ولا تجفوا عنه ، ولا تغلوا فيه ، ولا تأكلوا به ، ولا تستكثروا به»[1] .

وقد قال الشيخ حسنين محمد مخلوف فى أخذ الأجرة على قراءة القرآن : مذهب الحنفية لا يجوز أخذها على فعل القرب والطاعات كالصلاة والصوم وتعليم القرآن وقراءته ، ولكن المتأخرين من فقهاء الحنفية استثنوا من ذلك أموراً منها تعليم القرآن ، فقالوا : بجواز أخذ الأجرة عليه استحسانا ، خشية ضياعه ، ولكن بقى حكم أخذ الأجرة على قراءة القرآن على ما تقرر فى أصل المذهب من عدم الجواز . ومذهب الحنابلة لا يجوز أخذ الأجرة على تعيلم القرآن ولا على قراءته ، استنادا إلى حديث «اقرءوا القرآن» الذى تقدم . ومذهب المالكية لا يجوز أخذ الأجرة على ما لا يقبل النيابة

---

١ - قال الهيثمى : رجال أحمد ثقات ، وقال ابن حجر فى الفتح : سنده قوى ، وفسر الأكل به بأخذ الأجرة عليه ، كما فسر بالاستجداء به والتسول .

من المطلوب شرعاً كالصلاة والصيام ، ولكن يجوز أخذ الأجرة على ما يقبل النيابة ، ومنها تعليم القرآن وقراءته ، ومذهب الشافعية يجوز أخذ الأجرة على قراءة القرآن وتعليمه ، سواء أكانت القراءة عند القبر أو بعيدة عنه ، مع الدعاء بوصول الثواب إلى الميت اهـ .



س : ما فضل قراءة سورة الواقعة كل ليلة ، وهل ذلك يحفظ الإنسان من الفقر ؟

ج : سورة الواقعة لم يرد فى فضل قراءتها حديث خاص صحيح ، وقد ذكر ابن عبد البر والثعلبى أن عثمان دخل على ابن مسعود يعوده فى مرضه الذى مات فيه . وعرف أنه يشكو ذنوبه ويتمنى رحمة الله ولم يوافق على استدعاء طبيب له ولا تقرير عطاء له ولا لبناته من بعده ، فقد أمرهن أن يقرأن سورة الواقعة كل ليلة لأنه سمع الرسول ﷺ يقول : «من قرأها كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً» [1] .



س : ما هو فضل قراءة سورة الأنعام ، وهل صحيح أنها نزلت كلها مرة واحدة ؟

ج : فى تفسير ابن كثير حديث رواه الحاكم فى مستدركه وقال صحيح على شرط مسلم ، أن جابرا رضى الله عنه قال : لما نزلت سورة الأنعام سبَّح رسول الله ﷺ ثم قال «لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سَدَّ الأفق» وروى مثله ابن مردويه عن أنس ،

---

١ - ذكر ذلك القرطبى فى تفسيره ولم يحكم عليه . وذكره ابن كثير فى تفسيره من رواية ابن عساكر فى تاريخ دمشق ورواه أبو يعلى . وخرجه ابن حجر فى تفسير الكشاف بها لم يرفعه إلى درجة الصحة.

وروى ابن مردويه عن الطبرانى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «نزلت علىَّ سورة الأنعام جملة واحدة ، وتبعها سبعون ألفا من الملائكة ، لهم زجل بالتسبيح والتحميد». وجاءت روايات عن ابن عباس أنها نزلت بمكة ليلا جملة واحدة .

وفى تفسير القرطبى مثل ذلك وأنها ليست كلها مكية ، فقد نزلت آيتان أو ست آيات بالمدينة ، وأن البخارى روى عن ابن عباس قوله : إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾إلى قوله ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ورجح القرطبى أنها نزلت مرة واحدة لأنها كانت فى محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين والمكذبين بالبعث والنشور ، ولم يذكر فى فضل قراءتها أو قراءة شيء منها إلا حديثا ذكره الثعلبى عن جابر مرفوعا «من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام وكَّل الله به أربعين ألف ملك يكتبون له مثل عبادتهم إلى يوم القيامة ، وينزل ملك من السماء السابعة ومعه مِرْزَبَّة من حديد ، فإذا أراد الشيطان أن يوسوس له أو يوحى فى قلبه شيئاً ضربه فيكون بينه وبينه سبعون حجاباً» فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى «امْشِ فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى ، وكُلْ من ثمار جنتى واشرب من ماء الكوثر ، واغتسل من ماء السلسبيل ، فأنت عبدى وأنا ربك» .

ومن أجل فضل قراءتها بهذا الحديث الذى لم تعرف درجته ، ومن أجل نزولها فى كوكبة من الملائكة مرة واحدة حرص بعض الناس على قراءتها على الموتى عدة ليال، بل حرصوا على قراءتها فى الركعة الأخيرة من التراويح فى الليلة السابعة من شهر رمضان أو غير السابعة ، وسئل الإمام النووى عن ذلك ، فقال : لم يثبت نزول الأنعام دفعة واحدة ، ولو ثبت فلا دلالة فيه لهذا الفعل -قراءتها فى التراويح- لأن فيها تطويلاً على المأمومين ، وفيها إيهام بأنها سنة ، وينبغى الإنكار على ذلك ، لصحة الأحاديث فى النهى عن محدثات الأمور وفى أن كل بدعة ضلالة ، ولم ينقل هذا الفعل عن أحد من السلف وحاشاهم ، والله أعلم [1] .

١- المسائل المنثورة للنووى المسألة رقم ٥٠ .

بعد هذه النقول عن سورة الأنعام نرى الأحاديث فى فضلها وفى كونها مرة نزلت مرة واحدة لم ترد بطريق صحيح ، ومع ذلك لا ننكر فضل قراءة القرآن من أية سورة وبأى قدر ، فإن الأحاديث فى ذلك كثيرة ، أما التزامها بالذات على القبر ولأيام معدودة ، فليس عليه دليل معتبر ، إلى جانب خلاف الفقهاء فى انتفاع الميت بهذه القراءة أو عدم انتفاعه وقد بينا ذلك فى موضعه .



س : ما هو السبب في نزول سورة «عبس» ؟

ج : نزلت توجيهاً للنبي ﷺ في الحدّ من إتعاب نفسه بحرصه على إسلام المشركين واهتمامه بدعوتهم ، عندما جاء الضرير عبدالله ابن أم مكتوم يسأله عن شيء في الدين ، فرأى الرسول أن الأولى دعوة المشركين عسى الله أن يهديهم إلى الإيمان فيؤمن معهم غيرهم ممن لهم سلطان عليهم . وليس ذلك احتقاراً لابن أم مكتوم[1] .



س : ما هى السبع المثانى ؟

ج : يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾[الحجر : ٨٧] اختلف العلماء فى المراد بالسبع المثانى ، فقيل هى : الفاتحة ،وهو أصح الآراء ، لورود الحديث بذلك ، فقد روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : مَرَّ بى النبى ﷺ وأنا أصلي ، فدعاني فلم آته حتى صليت ، ثم أتيته فقال : «ما منعك أن تأتيني»؟ فقلت : كنت أصلي ، فقال ألم يقل الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤] ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد ؟ فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرته فقال : «الحمد لله رب

---

١ - «انظر كتابنا : المصطفون الأخيار» .

العالمين ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» وجاء في البخاري أيضاً عن النبيﷺ أنه قال «أم القرآن هى السبع المثاني والقرآن العظيم» وأم القرآن هى الفاتحة كما جاء فى الحديث «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني »[1] ، وهذا نص يغنى عن الأقوال الأخرى فى المراد بالسبع المثانى ، ومن هذه الأقوال أنها السور السبعة الطُّوال أى الطويلة : وهى البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال مع التوبة لعدم وجود التسمية بينهما ، وهذا هو رأى ابن عباس كما وراه النسائى عن سعيد بن جبير عنه ، وقيل : المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن من الأمر والنهى والتبشير والإنذار وضرب الأمثال وتعديد النعم وأنباء القرون ، وهناك أقوال أخرى لاتستند إلى نص ، فالصحيح هو الأول .

ووصف الفاتحة بأنها المثانى لأنها تثنى وتكرر فى ركعات الصلاة والقرآن كذلك يوصف بالمثانى كما قال سبحانه ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[الزمر : ٢٢] لأنها تثنى وتتكرر على مر الزمان ، كذلك تتثنى فوائدها وتتضاعف ، على ما يفيده قول النبى ﷺ «ولاتنقضى عجائبه»[2] ، وهى أيضا مأخوذة من الثناء والمدح والشرف ،لأن القرآن مجلبة لذلك كله ، فى نظمه وهدايته وقراءته وتعلمه ونشره وتعليمه والتخلق بأخلاقه وتطبيق أحكامه ، والقرآن كذلك مثانى لما يلاحظ فيه من الثنائية ، بمعنى الاقتران ، أي اقتران آية الرحمة بآية العذاب ، والوعد بالوعيد والجنة بالنار ، والهدى بالضلال ، وهكذا .



س : ما هى خواتيم الحشر وما ثواب قراءتها ؟

ج : خواتيم الحشر الواردة فى الحديث «من قرأ خواتيم الحشر فى ليل أو نهار فمات فى ذلك اليوم أو الليلة فقد ضمن الله له الجنة» والمراد بها الآيات التى فى آخر سورة الحشر المبدوءة بقوله تعالى ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الآية : ٢٢] .

١- رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

٢- رواه الترمذى .

وقد ذكر القرطبى فى تفسيره هذا الحديث ولم يذكر درجته . وجاء فى حاشية الجمل على الجلالين حديث أخرجه الترمذى وقال : إنه حسن غريب «من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكَّل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يُمسى ، وإن مات من يومه مات شهيداً ، ومن قرأها حتى يمسى فكذلك» .

ومهما يكن من شيء فإن هذه الآيات فيها بعض أسماء الله الحسنى التى أمرنا أن ندعوه بها فى قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف : ١٨٠] وقراءتها لها ثوابها إن شاء الله ، بكل حرف عشر حسنات كما صحت بذلك الأحاديث .



س : يقول الله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص : ٥٦] ذكرت الهداية ثلاث مرات فى هذه الآيات ، فهل معناها واحد أم مختلف ؟

ج : جاء فى القاموس : يقال : هداه هُدًى وهدْيًا وهِدَاية وهَدْية -بكسرهما- أرشده فتهدَّى واهتدى . وهداه الله الطريق دَلَّه ، والهُدَى -بضم الهاء وفتح الدال- الرشاد .

قال ابن القيم فى كتابه «بدائع الفوائد» : الهداية أربعة أنواع :

أحدها : الهداية العامة المشتركة بين الخلق ، المذكورة فى قوله تعالى ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه : ٥٠] أى أعطى كل شيء صورته التى لا يشتبه فيها بغيره ، وأعطى كل عضو شكله وهيئته ، وأعطى كل موجود خلقه المختص به ، ثم هداه ما خلقه له من الأعمال ، قال : وللجماد أيضا هداية تليق به ، كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به وإن اختلفت أنواعها وصورها ، وكذلك لكل عضو هداية تليق به ، فهدى الرجلين للمشى ، واللسان للكلام ، والعين لكشف المرئيات وهلمَّ جرا ، وكذا هدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد ، والولد إلى التقام الثدى عند وضعه ، ومراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو .

الثاني : هداية البيان والدلالة والتعريف لِنجدَى الخير والشر وطريقى النجاة والهلاك ، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام ، فإنها سبب وشرط لا موجب ، ولهذا ينتفى الهدى معها ، كقوله تعالى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[فصلت : ١٧] أى بينها لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا ، ومنها قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى : ٥٢] .

الثالث : هداية التوفيق والإلهام ، وهى الهداية المستلزمة للاهتداء ، فلا تتخلف عنها ، وهى المذكورة فى قوله تعالى ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[المدثر : ٣١] وفى قوله تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾[النحل : ٣٧] وفي قوله ﷺ «من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له» وفى قوله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[القصص : ٥٦] فنفى عنه هذه الهداية وأثبت له هداية الدعوة والبيان فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى : ٥٢] .

الرابع : غاية هذه الهداية ، وهي الهداية إلى الجنة أو النار إذا سيق أهلهما إليهما ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[يونس : ٩] وقال أهل الجنة فيها ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾[الأعراف : ٤٣] وقال في حق أهل النار ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات : ٢٢ ، ٢٣] انتهى ما قاله ابن القيم .

والبيضاوي ذكر أن الهداية دلالة بلطف ولذا استعمل هنا الخير ، وقوله ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ على التهكم ، ثم قال : و هداية الله تتنوع أنواعاً لا يحصيها عدٌّ ، لكنها تنحصر في أجناس مترتبة :

الأول : إفاضة القوى التي بها يتمكن المؤمن من الاهتداء إلى مصالحه ، كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة .

والثاني : نصب الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والصلاح والفساد ، وإليه أشار حيث قال ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[البلد : ١٠] وقال ﴿ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[فصلت : ١٧] .

والثالث : الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، وإياها عني بقوله : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء : ٧٣] وقوله ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : ٩].

والرابع : أن يكشف على قلوبهم السرائر ويريهم الأشياء كما هي بالوحي أو الإلهام والمنامات الصادقة ، وهذا قسم يختص بنيله الأنبياء والأولياء ، وإياه عنى بقوله ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] وقوله ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .



س : نريد تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؟

ج : اتفق الأئمة على حرمة حمل المصحف ومسه للحائض والنفساء والجنب ، ولم يخالف فى ذلك واحد من الصحابة ، لكن جوزه داود وابن حزم الظاهرى .

وما استدل به الأئمة قول الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة ٧٧ - ٧٩] بناء على أن المراد بالكتاب هو المصحف ، وأن المس هو اللمس الحسى المعروف .

وقد نوقش هذا الدليل بأن الكتاب المكنون فسره بعضهم باللوح المحفوظ ، والمطهرون هم الملائكة . أو أن الكتاب لو أريد به المصحف فالمطهرون هم المطهرون من الشرك ، لأن المشركين نجس وصحح ابن القيم [1] أن المراد بالكتاب هو الذى بأيدى الملائكة ، وأورد فى ذلك عشرة وجوه ذكرتها فى الجزء الثانى من موسوعة الأسرة .

كما استدل الأئمة بحديث عمرو بن حزم فى الكتاب الذى أرسله النبى معه إلى اليمن وفيه «لا يمس القرآن إلا طاهر»[2] .

---

١ - التبيان فى أقسام القرآن ، ص ١٤١ .

٢ - رواه النسائى والدارقطنى ، وقال ابن عبد البر : إنه أشبه بالمتواتر ، لتلقى الناس له بالقبول ، وقال بعض العلماء : إن إسناده حسن ، لكن النووى حكم بضعفه ، لأن فى إسناده راوياً ضعيفاً .

واستدلوا أيضاً بحديث ابن عمر مرفوعا «لا تمسَّ القرآن إلا وأنت طاهر»[1] ودليل داود وابن حزم على عدم حرمة حمله ومسه ما ثبت فى الصحيحين أن النبى ﷺ بعث كتابا إلى هرقل فيه آية : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ . . . ﴾ وهو وغيره ممن أرسلت إليهم الكتب لا يتطهرون من الجنابة، وأجاب الأئمة على ذلك بأن الرسالة لا تسمى مصحفا ولا مانع من ذلك مثل حمل كتب الدين التى فيها قرآن . من هنا نرى أن حمل المصحف أو مسه للحائض والجنب أدلة تحريمه لم تسلم من المناقشة ، واحتراما للمصحف يكون حمله أو مسه لغير المتطهر مكروها على الأقل ، هذا فى حال الجنابة ، أما إذا كان هناك حدث أصغر فالحكم كما يلى:

١- جمهور العلماء على حرمة مس المصحف وحمله ، وذهب إليه مالك والشافعى وأبوحنيفة فى إحدى الروايتين عنه ، وأدلتهم هى الأدلة السابقة بالنسبة للجنب.

٢- جوز بعض العلماء ذلك ، وذهب إليه أبو حنيفة فى إحدى الروايتين عنه ، كما جوزه داود بن على .

وقد استثنى بعض المحرمين لحمل المصحف ومسه مع الحدث الأصغر الصبيان الذين لم يبلغوا الحلم ، لحاجتهم إلى حفظ القرآن وتيسيره عليهم ، على أن الصبى لو تطهر فطهارته ناقصة لعدم صحة النية منه ، ويقاس عليهم الكبار المحتاجون لحفظ القرآن ، أما من أجل التعبد فلا بد من الطهارة .

هذا ، وقراءة القرآن بدون مس المصحف أو حمله جائزة لمن عليه حدث أصغر ، وذلك باتفاق الفقهاء ، وإن كان الأفضل الطهارة ، وبخاصة إذا كان يقصد التعبد ، فالعبادة مع الطهارة أكمل وأرجى للقبول[2] .

كما استدل المحرمون لحمل المصحف أو مسه بدون طهارة بحديث «لا يمس القرآن إلا طاهر» [3] وكذلك استدلوا بحديث «لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر» [4]. كما استدلوا بمنع أخت عمر بن الخطاب من مسه للصحيفة التى كانت تقرؤها لأنه رجس [5].

١- ذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» وقال : رجاله موثقون . وقال الحافظ : إسناده لا بأس به لكن فيه راو مختلف فيه .

٢- راجع الجزء الثانى من كتابى : موسوعة تحت رعاية الإسلام ، ففيها توضيح أكبر.

٣- رواه النسائى والدارقطنى والأثرم . وهو حديث قوى قيل إنه أشبه بالمتواتر وقيل إنه حسن .

٤- ذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» برجال موثقين . ٥- رواه الدارقطنى .

ونوقشت أدلة المحرِّمين وأدلة المجيزين .

هذا فى حال الجنابة ، أما فى الحدث الأصغر فجمهور العلماء على حرمة مس المصحف وحمله ، وهو مروى عن كثير من الصحابة والتابعين ، وذهب إليه من أئمة الفقة مالك والشافعى وأبو حنيفة فى إحدى الروايتين عنه . وأجاز بعض العلماء ذلك ونقل عن جماعة من السلف ، وذهب إليه أبو حنيفة فى رواية عنه ، كما جوزه داود ابن على . واستثنى بعض من حرم مس المصحف وحمله من الحدث الأصغر الصبيان الذين لم يبلغوا الحلم لحاجتهم إلى حفظ القرآن ، ويقاس عليهم الكبار المحتاجون لحفظ القرآن فرخص لهم مسه وحمله فى الحدث الأصغر من أجل تيسير الحفظ وليس من أجل التعبد بالتلاوة ، فتشترط للمسه وحمله الطهارة .



س : عندى شرائط مسجلة عليها سور من القرآن الكريم ، هل يجوز لى أن أحملها أو أمسها وأنا غير متطهر ؟

ج : اتفق جمهور الفقهاء على عدم جواز حمل المصحف ومسه بدون طهارة من الحدثين الأكبر والأصغر ، استناداً إلى قوله تعالى ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[الواقعة : ٧٩] وقول النبى ﷺ «لا يمس القرآن إلا طاهر» [1] .

وهذا فى القرآن المكتوب ، أما المسجل على أشرطة أو أسطوانات فإنه مكتوب بطريقة حديثة لم تكن معروفة من قبل ، فهو يسمع ولا يقرأ ، لأنه ليس بحروف يمكن أن ترى ويفطن لها ليعلم ما تدل عليه إلا بإعادة سماعها ، وإذا كان القرآن الذى يسمع من الأشرطة له الحكم فى الإنصات له وتدبره ، غير أن الشريط نفسه لا يطلق عليه عرفا أنه كتاب ولم يكن العرب يعرفونه حتى يدخلوه تحت اسم الكتاب ، ولهذا أرجح أنه لا يحرم مسه ولا حمله بدون طهارة ، وإن كانت الطهارة أكمل ، واحترام الشريط فى حد ذاته راجع إلى نية الإنسان وتحديد موقفه منه ، وعلى كل حال فالاحتياط أفضل .



---

١ - رواه النسائى وغيره ، وقال ابن عبد البر: إنه أشبه بالمتواتر لتلقى الناس له بالقبول .

س : هل يجوز دخول بيت الخلاء بحلية أو كتاب فيه اسم الله أو شيء من القرآن؟

ج : روى أصحاب السنن وصححه الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول ﷺ إذا دخل الخلاء نزع خاتمه [1] ، وقد صح أن نقش خاتمه كان «محمد رسول الله» وذلك أن بيوت الخلاء مستقذرة وتأوى إليها الشياطين والحشرات والهوام ، ولذلك كان النبى ﷺ إذا أراد أن يدخلها يقول «اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث»[2] ، والخبث بضم الخاء والباء جمع خبيث ، والخبائث جمع خبيثة ، والمراد بهم ذكور الشياطين وإناثهم ، وليس من اللائق أن توضع الأشياء الكريمة أو يدخل بها فى مثل هذه الأمكنة .

هذا هو حكم الدخول بأى شيء فيه اسم الله مثل «ما شاء الله» أما الدخول بالقرآن أو بآية منه فقال الأحناف والشافعية بكراهته ، وقال المالكية والحنابلة بحرمته ، وذلك لمجرد الدخول إذا كان حامله طاهرا أما إذا كان غير طاهر من الحدثين فإنه يحرم حمله بصرف النظر عن الدخول وعدم الخلاء به فى بيت الخلاء ، وذلك عند الشافعية .

ثم قالوا : محل حرمة الدخول أو كراهته إذا لم يكن القرآن مستورا بما يمنع وصول الرائحة الكريهة إليه ولم يخف الضياع عليه ، فإن اتخذ كحجاب مجلد ، أو خاف ضياعه أو ضياع الحلية المكتوب عليها القرآن جاز الدخول به . فالمرأة الحاملة لحلية القرآن إن كانت فى بيتها يجب أو يستحب أن تخلعها عند دخول بيت الخلاء ، وذلك للأمن عليها. أما إذا كانت فى سفر أو محل عام أو فى محل عمل فيه غيرها وخافت عليها الضياع لو خلعتها فلا بأس بدخول بيت الخلاء وهى لا بسة لها [3] .



١- قال الترمذي، حديث صحيح. ٢- رواه البخارى ومسلم .

٣- انظر : كتاب الفقه على المذاهب الأربعة نشر وزارة الأوقاف ونيل الأوطار للشوكانى ج ١ ص٨٥ ، ٨٦ ، والفتاوى الإسلامية ، المجلد الخامس ص ١٥٩٩ ، غذاء الألباب للسفارينى ج٢ ص ٢٤٦ .

س : عندما أنام أضع المصحف تحت الوسادة لمنع الشياطين والأحلام المفزعة ، فما رأى الدين فى ذلك ؟

ج : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة ٧٧ - ٧٩] .

تحدث العلماء عن مظاهر تكريم القرآن والمصحف الذى يحويه فأمروا بالطهارة عند مسه وحمله ، وذلك له موضع لتفصيله ، ومن مظاهر التكريم عدم وضعه تحت الوسادة عند النوم ، أو وضع أمتعة أو كتب فوقه ، أو عمل أى شيء يعتبر عرفا إهانة له ، بل جاء فى كتاب «المصاحف» لابن أبى داود أن وضع المصحف على الأرض غير لائق ، وأورد فى ذلك أثراً لم يبين درجته من القبول والرفض ، أن رسول الله ﷺ قال فيمن وضع كتابا من ذكر الله فى الأرض «لعن الله من فعل هذا ، لا تضعوا ذكر الله فى غير موضعه» .

وهذا فى وضع المصحف بغير نية الاحتقار والإهانة ، أما عند هذه النية فهو محرم بالإجماع بل قال أكثر العلماء : إن من احتقر أو استهزأ بكتاب الله فهو كافر .

وقد تكون لغير ذلك ، ولا نستطيع أن نجزم برأى فيه .

جاء فى «الإتقان» للسيوطى [1] ما نصه : يستحب تطييب المصحف وجعله على كرسى ، ويحرم توسده ، لأن فيه إذلالا له وامتهانا ، كذا مد الرجلين إليه.

وقد يصور التوسد بالاتكاء عليه كالوسادة وبجعله وسادة للنوم كالمخدة ، وكلاهما ممنوع .



س : ما حكم الدين فى وضع المصحف فوق التليفزيون ؟

ج : لا حرمة فى وضع المصحف فوق التليفزيون ما دام محفوظا من الإهانة ، وإن كان من الذوق عدم وضعه عليه أثناء إذاعة برنامج يتنافى مع الأدب وحرمة

---

١ - ج ٢ ص ١٧٢ .

المصحف ، فإن لم تكن هناك إذاعة ، أو كان الذى يذاع لا حرمة فيه فلا مانع من وضع المصحف عليه .



س : يرى بعض الناس أن وضع المصحف مع الميت فى القبر يشفع له ، فهل هذا صحيح ؟

ج : ليس صحيحاً أن مجرد وضع المصحف مع الميت يشفع له ، فإن وضعه ليس من عمله وإنما هو من عمل غيره ، والميت ينفعه عمله هو ويشفع له عند الله ، وكذلك ينفعه عمل غيره مما نص عليه الدين ، وهو الدعاء له ، والصدقة عليه ، وهبة القربات من الصلاة النافلة والصيام وقراءة القرآن والحج والعمرة .

وأما وضع المصحف معه فلن يشفع له ، وهو غير جائز ، لأن المصحف متعرض للتلوث ، وذلك لا يجوز .



س : هل صحيح أن النظر فى المصحف عبادة ؟

ج : روى أبو داود فى ضمن حديث عن النبى ﷺ «النظر فى المصحف عبادة ، والنظر إلى الكعبة عبادة ، والنظر إلى وجه الوالدين عبادة» وروى الطبرانى والبيهقى حديثا فيه «قراءة الرجل فى غير المصحف ألف درجة ، وقراءته فى المصحف تضاعف ذلك إلى ألفى درجة» وروى أبو عبيد القاسم بن سلام [1] «فضل القرآن نظرا على من قرأه ظاهرا كفضل الفريضة على النافلة» .

وعن ابن عباس : كان عمر إذا دخل البيت نشر المصحف يقرأ فيه . وعن الشعبى أنه كان يصلى العتمة - العشاء - ويضع المصحف فى يديه فما يطبقه حتى الصبح . وقال أحمد بن حنبل ، كان أبى يقرأ فى كل يوم شيئاً من القرآن فى المصحف لا يتركه نظرا.

١- فى كتابه فضائل القرآن .

هذه أحاديث وآثار لا أعرف لها سنداً صحيحا ، وكيف نفهم أن عمر كان ينشر المصحف يقرأ فيه ، هل له مصحف خاص ، وكيف كتبه ؟ مع أن المصحف المعتمد الوحيد كان عند حفصة بنته ، ومنه عملت نسخ فى عهد عثمان .

المهم أن هذه الآثار ترغب فى تلاوة القرآن ، وتبين فضل النظر فى المصحف ، ولكن الفضل ليس لمجرد النظر ، بل للقراءة . ومن هنا اختلف العلماء : هل القراءة من الحفظ أفضل أم من النظر فى المصحف ؟

قال النووى [1] : قراءة القرآن فى المصحف أفضل من حفظه ، هكذا قال أصحابنا ، وهو مشهور عن السلف رضى الله عنهم . وهذا ليس على إطلاقه ، بل إن كان القارئ من حفظه يحصل له من التدبر والتفكر وجمع القلب والبصر أكثر مما يحصل من المصحف فالقراءة من الحفظ أفضل ، وإن استويا فمن المصحف أفضل ، وهذا مراد السلف ، انتهى .

ولم يستند النووى إلى حديث مروى عن النبي ﷺ فى ذلك ، وهذا يدل على أن الوارد لا يعتمد عليه فى حكم النظر إلى المصحف .



س : بعض أوراق المصحف تآكلت فهل يجوز أن أتخلص منها بإحراقها أو برميها فى مكان غير نظيف ؟

ج : لا مانع من إحراق أوراق المصحف للمحافظة عليها من التعرض للإهانة ، وقد أمر عثمان بن عفان رضى الله عنه بإحراق ما عدا مصحفه ، من المصاحف التى كانت عند بعض الصحابة ، وذلك من أجل المحافظة على القرآن ولم ينكر عليه .

ولا يجوز أن تلقى أية ورقة من المصحف على الأرض أو فى مكان قذر مادام فيها حرف من كلام الله تعالى ، ولو حدث ذلك على سبيل الإهانة والاحتقار كان كفرا .

١- فى كتابه : الأذكار ص ١١١ .

جاء فى «الاتقان» للسيوطى [1] ما نصه : إذا احتيج إلى تعطيل بعض أوراق المصحف لبلاء ونحوه فلا يجوز وضعها فى شق أو غيره ، لأنه قد يسقط ويوطأ ، ولا يجوز تمزيقها ، لما فيه من تقطيع الحروف وتفرقة الكلم ، وفى ذلك إزراء بالمكتوب ، كذا قاله الحليمى . قال : وله غسلها بالماء ، وإن أحرقها بالنار فلا بأس. أحرق عثمان مصاحف كان فيها آيات وقراءات منسوخة ولم ينكر عليه .

وذكر غيره أن الإحراق أولى من الغسل ، لأن الغسالة قد تقع على الأرض . وجزم القاضى حسين فى تعليقه بامتناع الإحراق ، لأنه خلاف الاحترام ، والنووى جزم بالكراهة ، وفى بعض كتب الحنفية أن المصحف إذا بلى لا يحرق ، بل يحفر له فى الأرض ويدفن ، وفيه وقفة ، لتعرضه للوطء بالأقدام .

هذا ما قاله العلماء فى التخلص من أوراق المصحف التى تمزقت أو تآكلت ، وقد يكون الإحراق أخف طريقة لذلك مع توفر النية الصالحة فى أن ذلك لصيانة القرآن وعدم احتقاره وتعريضه للإهانة والأعمال بالنيات .



س : هل يجوز أخذ الفأل من المصحف ؟

ج : الفأل كما يقول الماوردى [2] فيه تقوية للعزم وباعث على الخير ، ومعونة على الظفر . وقد جاء فى السنن والآثار أن النبى ﷺ كان يحب الفأل الحسن ، ويسأل عن اسم الرجل والبلد ، فإن كان حسنا استبشر وفرح ، وإلا رؤيت الكراهة فى وجهه . وحوادثه فى ذلك كثيرة ، فقد تفاءل عندما جاءه سهيل بن عمرو فى الحديبية وقال «سهل لكم من أمركم» وتفاءل يوم خيبر لما رأى مكاتلهم فى مساحيهم ، كما ذكره ابن القيم فى «زاد المعاد» وحسَّنه ، ويمكن الاطلاع على كتاب «مفتاح دار السعادة» لابن القيم ففيه معلومات كثيرة .

١- ج ٢ ص ١٧٢ .
٢- فى كتابه «أدب الدنيا والدين» .

وإذا كان النبى ﷺ يرتاح للاسم الحسن فليس معنى ذلك أنه يربط هذا السبب بنتيجة محققة دون تدخل لإرادة الله سبحانه ، فقد نهى عن ذلك فيما كان عليه العرب من التطير والرقى والتمائم والعدوى وغيرها ولهذا روى عنه أن الذى يتطير أو يتشاءم يُسَنُّ له أن يقول : اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك، اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك . ثم يذهب لحاجته فلن يضره شيء .

وذلك تذكير للإنسان بوحدانية الله سبحانه ، وأنه هو وحده الذى يملك الخير والشر ، ولا تأثير لهذه الأمور بذاتها . ومن هنا حرم الإسلام محاولة معرفة المستقبل عن طريق الكهانة والعرافة والتنجيم وضرب الرمل والورق وغيرها . ووردت فى ذلك أحاديث كثيرة .

وقال العلماء : لا يجوز أخذ الفأل من المصحف مع هذا الاعتقاد ، وجاء فى كتاب «أدب الدنيا والدين» للماوردى أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوما فى المصحف ، فخرج قوله تعالى ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم ١٥] فمزق المصحف وأنشأ يقول :

أتــوعدنى بجبار عنيــد   فهــا أنـذاك جبار عنيــد

إذا ما جئت ربك يوم الحشـر   فقــل : يارب مزقنى الوليد

فلم يلبث أياما حتى قتل شر قتله ، وصلب رأسه على قصره ثم على سور بلده .

هذا ، وقد يحدث أن بعض الناس يعملون استخارة بالمصحف ، بأن يربطوه على مسمار ، ثم يحملوا المسمار على إحدى الأصابع ، ويقولوا كلاما فيتحرك المصحف ويدور يميناً أو يسارا ، ومن هنا يعرفون إن كان الموضوع الذى عملت له الاستخارة خيرا أو شرا .

وهذا كله لم يأت خبر صحيح بجوازه ، والاستخارة الشرعية معروفة وهى صلاة ركعتين ، ثم الدعاء بعدهما بالدعاء المعروف الوارد عن النبى ﷺ وسنفصلها فى موضع آخر إن شاء الله .



س : هل صحيح أن الله عوض والد الغلام الذى قتله الخضر فتاة تزوجت نبيا وولدت نبيا ومن هما هذان النبيان ؟

ج : جاء فى تفسير القرطبى ما نصه : وعن ابن جبير وابن جريح أنهما بدِّلا جارية. قال الكلبى : فتزوجها نبى من الأنبياء ، فولدت له نبيا ، فهدى الله على يديه أمة من الأمم .

وقال قتادة : ولدت اثنى عشر نبيا ، وعن ابن جريح أيضا أن أم الغلام يوم قتل كانت حاملا بغلام مسلم وكان المقتول كافرا .

وعن ابن عباس : فولدت جارية ولدت نبيا ، وفى رواية : أبدلهما الله به جارية ولدت سبعين نبيا ، وقال جعفر بن محمد عن أبيه ، قال علماؤنا : وهذا بعيد جدا ، ولا تعرف كثرة الأنبياء إلا فى بنى إسرائيل ، وهذه المرأة لم تكن منهم . انتهى .

يؤخذ من هذا الكلام أن هناك رأيين فى بدل الغلام المقتول ، رأيا يقول بأنه غلام مسلم كما قال ابن جريج ، ورأيا يقول بأنه جارية أى بنت ، وهذه البنت قيل : إنها ولدت نبيا كما قال الكلبى وابن عباس ، وقيل : ولدت اثنى عشر نبيا كما قال قتادة ، وقيل : سبعين كما فى رواية عن ابن عباس . وذكر الخازن فى تفسيره ذلك أيضا . وتضارب هذه الأقوال فى نوع البدل وفى عدد الأنبياء المولودين منه يدل على أنه ليس هناك دليل صحيح يعتمد عليه القائلون بذلك ، وبصرف النظر عن صحة هذه الأقوال وعدم صحتها فإن الجدل فى ترجيح أحدها جدل عقيم لا يجوز فيه التعصب، مع العلم بأن الجهل بذلك لا يضر ، والعلم به لا يفيد فائدة تذكر ، وينبغى الاهتمام بغير هذه المسائل التى لاتعدو أن تكون ترفا ذهنيا . وأحداث الحياة بإيقاعها الشديد أولى بالاهتمام .



س : نرجو تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وما المراد بالكتاب ومن هم المصطفون من العباد ؟

ج : يقول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ

ٱلۡكَبِيرُ ﴾[فاطر : ٣٢] المراد بالكتاب جنسه وهو الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل، وقيل : إن المراد بالكتاب القرآن فلفظ «ال» إما للجنس وإما للعهد .

والمصطفون من العباد الذين ورثوا الكتب السابقة قيل هم الأنبياء الذين نزلت عليهم هذه الكتب أو أمروا باتباعها ، لكن هذا يتنافى مع تقسيم العباد ، حيث جعل منهم الظالم لنفسه وهو الكافر الذى لم يؤمن ، أو العاصى ، والأنبياء منزَّهون عن الكفر والعصيان .

وقيل هم عامة الناس الذين نزلت الكتب إليهم ، ويمكن أن يقسَّموا إلى ظالمين لأنفسهم ومقتصدين وسابقين بالخيرات .

وإذا كانت «ال» للعهد ويراد بالكتاب القرآن الكريم . الذى هو جامع للأصول الموجودة فى الكتب السابقة فالمصطفون من العباد هم أمة محمد ﷺ الذين آمنوا به ، والظالم لنفسه هو المؤمن العاصى الذى زادت سيئاته على حسناته ، والمقتصد هو المؤمن الذى استوت حسناته وسيئاته ، والسابق بالخيرات هو الذى زادت حسناته على سيئاته.

هذا بعض ما قيل فى تفسير الآية ، وهناك أقوال أخرى يرجع إليها فى كتب التفسير.



س : لليهود دور كبير فى التاريخ من قبل الإسلام ومن بعد الإسلام ، وتحدث القرآن عنهم بأنهم أفسدوا وسيفسدون ، وقال «وإن عدتم عدنا» فما هى الصفات المتأصلة فيهم من وجهة نظر الدين ؟

ج : القرآن الكريم حدَّد الشخصية الأخلاقية لليهود ، وتحدَّث عنهم فى إنصاف، فمدحهم حين يستحقون المدح ، وذمهم حين يمارسون ما يذمون عليه ، وكان ذمهم طاغيا على مدحهم لما جبلوا عليه من أخلاق وما قاموا به من تصرفات منكرة ، فمما ورد فى مدحهم قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الجاثية : ١٦] أى على عالمى زمانهم.

ومن أخلاقهم المذمومة ما يأتى :

١- الكذب على الله ، قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥] ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة : ٦٤] ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران : ١٨١] ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨] .

٢- حبهم لسماع الكذب : قال تعالى : ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ [المائدة : ٤١] ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة ٤٢] .

٣- التمرد على الله : قال تعالى : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة : ١٣] وهو ميثاق مع الله بالصلاة والزكاة والإيمان بالرسل ومساعدتهم والقرض الحسن .

٤- التمرد على الرسل : قال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة : ٥٥] ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة ٧٠] ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة : ٢٤] .

٥- الجدال والمراء : قال تعالى : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ [البقرة : ٢٤٧] ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة : ٧٠] .

٦- كتمان الحق والتضليل : قال تعالى : ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٤٢] ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران : ٧٨] .

٧- النفاق : قال تعالى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة : ١٤] ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة : ٤٤] .

٨- إيثار المنفعة الشخصية والأنانية الطاغية : قال تعالى : ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة ٨٧] ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران : ٧٥] .

٩- حب الشر للناس والسعى فى إفسادهم : قال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

١٠- كراهية الخير لغيرهم : قال تعالى : ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ [آل عمران : ١٢٠] ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء : ٥٤] .

١١- الكبر والتعالى على الناس: قال تعالى :﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾[المائدة:١٨] ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾ [النساء : ٤٩] ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران : ٧٥].

١٢- الاستغلال والانتهازية : قال تعالى : ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾[النساء : ١٦١] ﴿أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾[المائدة ٤٢] .

١٣- عدم الأدب في الخطاب: قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[النساء : ٤٦] .

١٤- سهولة الاغتيال : قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[البقرة:٦١] .

١٥- قسوة القلب وجمود العاطفة : قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾[البقرة :٧٤].

١٦- عدم الوفاء بالعهود : قال تعالى : ﴿ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾[البقرة :١٠٠].

١٧- تبلد حسهم وموت ضميرهم الأدبى : قال تعالى : ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[المائدة :٧٩] ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾[المائدة :٦٢].

١٨- التحايل على المخالفة : قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[البقرة : ٦٥] ويفسر ذلك قوله تعالى : ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾[الأعراف : ١٦٣].

١٩- الجبن : قال تعالى : ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[الحشر : ١٣ ، ١٤] . ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾[البقرة : ٢٤٩] ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾[البقرة :٩٦].

٢٠- البخل : قال تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء:٥٣] ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[التوبة : ٣٤].

٢١- تحريف الكتب المقدسة : قال تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[البقرة :٧٩] . ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[النساء : ٤٦].

٢٢- استباحة الكفر فى سبيل تحقيق أغراضهم : قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾[النساء : ٥١] . ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المائدة : ٨٠].

هذه صورة من أخلاق اليهود كما وصفها القرآن الكريم . تمردوا على تعاليم اليهودية السماوية واستبدلوا بها تعاليم أخرى زعموا أنها أفضل من التوراة

«التلمود» ومن أجل هذا لفظتهم كل الدول التى يحلون بها وتاريخ طردهم من بلاد أوروبا مسطر فى الكتب ، ويؤكد خبث نيتهم ما تركز أخيرا في صورة بشعة هى الصهيونية بأساليبها الوحشية المعروفة ، وإذا كان الله سبحانه قد ضرب عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله فما ظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، وإذا كان الله قد تأذن ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب فذلك يعطينا الأمل فى نصر الله لنا عليهم إن نصرناه بالإيمان القوى والتسلح بكل سلاح مادي ومعنوي ، مع وحدة تجمع الكلمة وتعمل للصالح العام [1] .



س : يقول الله سبحانه : ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث ﴾[الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦] فيمن نزلت ، وما كيفية الانسلاخ ، ولماذا شبه بالكلب دون غيره ، وفى أى عصر كان يعيش هذا الرجل؟

ج : اختلف فى تعيين الرجل المذكور ، فقال ابن مسعود وابن عباس : هو بلعام ابن باعوراء ، وقيل تاعم ، وهو من بني إسرائيل ، عاش في زمن موسى عليه السلام وكان بحيث إذا نظر رأى العرش ، وهو المعنيُّ بقوله تعالى : ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ولم يقل آية ، وكان في مجلسه اثنتا عشرة ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه ثم صار بحيث إنه كان أول من صنف كتابا في أنه ليس للعالم صانع .

معنى هذا أنه كان صالحا ثم ضل ، وهو معنى الانسلاخ ، أي نزع الله منه العلم الذى كان يعلمه والإيمان الذي كان يلبس ثوبه .

وقيل : نزلت فى أمية بن أبي الصلت الثقفى ، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولا في ذلك الوقت ، وتمنى أن يكون هو ذلك الرسول ، فلما أرسل الله

---

١ - انظر كتابنا : دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة .

النبي ﷺ حسده وكفر به ، وهو الذي قال فيه الرسول «آمن شعره وكفر قلبه» وهناك أقوال أخرى ذكرها القرطبى في تفسيره ، وليس لواحد منها سند صحيح يوثق به ، وقال : إن القول الأول أشهر وعليه أكثر المفسرين .

ولو أن هذا الرجل بقى على الهدى لأماته الله مؤمنا ورفع شأنه ، ولكنه اتبع هواه وسار مع الشيطان ورغب في الدنيا فكانت خاتمته سيئة ، وقد شبه الرجل بالكلب يلهث دائما على كل حال ، إن طردته أو لم تطرده ، يقول ابن جرير: الكلب منقطع الفؤاد ، لا فؤاد له [كذا] إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، كذلك الذي يترك الهدى لا فؤاد له ، وإنما فؤاده منقطع ، وقال القتيبي : كل شيء يلهث فإنما يلهث عن إعياء أو عطش ، إلا الكلب فإنه يلهث فى حال الكلال وحال الراحة وحال المرض وحال الصحة ، وحال الرى وحال العطش ، فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته ، فقال: إن وعظته ضل وإن تركته ضل ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾[الأعراف : ١٩٣] .

وهذا المثل فى قول كثير من أهل العلم بالتأويل عام فى كل من أوتى القرآن فلم يعمل به . هذا من أحسن ما قيل فى تفسير هذه الآية ، والأقوال كثيرة فى كتب التفسير وهى اجتهادية ليست قاطعة ، وتكفينا العبرة من المثل .



س : من هم أصحاب السبت وما قصتهم ؟

ج : قال تعالى في حق اليهود ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾[البقرة : ٦٥] . حرَّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت عقابا وامتحانا لهم، فكثر السمك يوم السبت فلم يطيقوا الصبر على الامتحان ، فتحايلوا وحبسوه إلى أن ينتهى اليوم فيصطادوه بعد ذلك . قال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾[الأعراف : ١٦٣]

فمسخ الله المعتدين قردة وخنازير ، أى جعل أخلاقهم كأخلاقها ، وقيل : بل مسخهم الله شكلاً وموضوعاً ، فكانوا قردة وخنازير ، ثم قيل : إن الله أهلكهم بعد ذلك حتى لا يتناسلوا ، وقيل ، بل بقوا وتناسلوا .

والقرية قيل : هى «أيلة» أو هى «مدين» بين أيلة والطور ، وقيل «طبرية» وقيل : هى سواحل الشام . وذلك لا يهم .

وذكر المفسرون أن هذه القصة كانت في زمن داود عليه السلام ، وأن إبليس أوحى إليهم فقال : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت ، فاتخذوا الحياض ، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء ، فيأخذوها يوم الأحد . وبهذه الحيلة كثر صيد الحيتان ، ورأى الناس أن من صنع هذا لا يبتلى ، فغمرت الأسواق بها ، وأعلن الفسقة بصيدها ، فقامت فرقة من بنى إسرائيل ونهت وجاهرت بالنهى واعتزلت ، وقيل : إن بنى إسرائيل افترقت ثلاث فرق ، فرقة عصت وصادت ، وكانوا نحواً من سبعين ألفاً ، وفرقة نهت واعتزلت، وكانوا اثنى عشر ألفا ، وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص ، وأن هذه الفرقة قالت للناهية كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[الأعراف : ١٦٤] .

ويكفى هذا القدر للإجابة على السؤال وفى كتب التفسير متسع لمن أراد أن يستزيد والمهم أن نأخذ العبرة فلا نعصى أوامر الله ، ولا نسكت عن النهى عن المنكر حتى لا نجازى بما يجازى به العاصون . قال تعالى عن هذه القصة : ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة : ٦٦] وقال : ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾

[الأعراف : ١٦٥ ، ١٦٦]



س : هل الأرض سبع كما أن السموات سبع ؟

ج : روى الحاكم فى المستدرك وقال صحيح الإسناد ، وروى البيهقي في شعب الإيمان وقال : إسناد صحيح عن أبي الضحى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾[الطلاق : ١٢] قال : سبع أرضين. في كل أرض نبي كنبيكم وآدم كآدمكم ونوح كنوحكم وإبراهيم كإبراهيمكم وعيسى كعيساكم . قال البيهقي : إسناد هذا الحديث إلى ابن عباس صحيح ، إلا أنى لا أعلم لأبي الضحى متابعا ، فهو شاذ ، لأنه لا يلزم من صحة الإسناد صحة المتن كما تقرر فى علوم الحديث ، لاحتمال أن يكون فى المتن شذوذ أو علة تمنع صحته . وما دام الحديث ضعيفا فلا داعى للقول بأن سكان هذه الأرضين من البشر أم من غيرهم ، وهل الرسل فيها كانوا مقارنين لرسل هذه الأرض التى يسكنها بنو آدم .

هذا ، ومثلية الأرضين للسموات قد تكون مثلية كم أو كيف ، أى مثلية فى العدد، أو مثلية فى إبداع الخلق ودقة الصنع والاحتواء على الآيات والدلائل الشاهدة على عظمة الخلق والخالق .

وندع العقل يجول فى الكشف وفى الاستنتاج ، وإذا وصل إلى حقيقة مقررة ثابتة فإنها لا تتعارض أبدا مع كلام الله سبحانه ، وكلام الله هو الأصل ، وغيره يقاس عليه ويحاكم إليه ، إذا اتضح معنى النص ولم يحتمل عدة معان وتأويلات .

والاحتياط واجب في عدم حمل آيات القرآن على ما يقال من كشوف لم تتعد حدود النظريات والافتراضات .

وقد تكون من الأراضى المريخ وزهرة وعطارد لتشابه العناصر المكونة لها مع عناصر الأرض .



س : هل يوجد سبع أرضين كما توجد سبع سموات ، وما الدليل على ذلك ؟

ج : قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾[الطلاق : ١٢] وجاء فى الأحاديث «اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين

السبع وما أقللن..» كما جاءت أحاديث أخرى تذكر أن الأرض سبع أرضين ، وللمفسرين فى ذلك أقوال ثلاثة :

١- أن الأرض سبع طبقات بعضها فوق بعض ، وبين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والسماء . وفى كل أرض سكان من خلق الله ، وهذا قول الجمهور كما ذكر القرطبى [1] .

٢- أنها سبع طبقات بعضها فوق بعض ، من غير فتوق ومسافات ، بخلاف السموات ، وهذا قول الضحاك .

٣- أنها سبع أرضين منبسطة ، يعنى ليس فوق بعض ، وإنما تفرق بينها البحار وتظلها سماء واحدة ، وقد تكون هى الأرض التى نعيش عليها مقسمة إلى قارات ، أى كتل منفصلة بالبحار والمحيطات ، يعرف منها آسيا وأوروبا «أوراسيا» وأفريقيا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية ، وأستراليا والقارة القطبية الشمالية ، والقارة القطبية الجنوبية .

هذا ، وقد روى الحاكم في المستدرك وقال صحيح الإسناد ، وروى البيهقي فى شعب الإيمان وقال : إسناده صحيح عن أبى الضحى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى معنى الآية : هناك سبع أرضين ، في كل أرض نبى كنبيكم وآدم كآدمكم ونوح كنوحكم ، وإبراهيم كإبراهيمكم وعيسى كعيساكم ، قال البيهقي : إسناد هذا الحديث إلى ابن عباس صحيح ، إلا أنى لا أعلم لأبى الضحى متابعا ، فهو شاذ ، وقد تكون مثلية الأرضين للسموات مثلية كمٍّ أو كيف ، أى مثلية فى العدد ، أو مثلية في إبداع الخلق ودقة الصنع والاحتواء على الآيات والدلائل الشاهدة على عظمة الخلق والخالق .

وكل الأقوال اجتهادات في التفسير ليس على أحدها دليل قاطع ، وذلك إذا أردنا بالرقم «٧» حقيقته العددية ، بخلاف مالو أردنا التعبير عن الكثرة بصرف النظر عن حدودها . ولعلماء اليوم اجتهادات قائمة على ظنون وافتراضات ،

١- ج ١٨ ص ١٧٤ .

والقدر الواجب علينا معرفته هو أن الأرض سبع لا يعلم حقيقتها إلا الله سبحانه ، وقد ذكر القرآن عددها كما ذكر عدد السموات لبيان قدرة الله وسعة كونه ، وإحاطة علمه بكل شيء ، وهذا القدر كاف في صحة الإيمان بها في القرآن مع تشجيع العلم على مواصلة البحث للوصول إلى حقائق تؤكد أن القرآن حق كما قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] .



س : هل توصل العلماء إلى تحقيق أن الأرضين سبع كما قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ ؟

ج : إضافة إلى الإجابة السابقة نقول : كلام الله صادق لا ريب فيه ، ويجب الإيمان به كما يجب الإيمان بالغيب الذى لم نره ، ولكن ذلك لا يمنع البحث فى تركيب الأرض لمعرفة طبقاتها ، وسواء وصل البحث بطريقة علمية ثابتة إلى أن طبقات الأرض سبعة أم لم يصل فالإيمان بكلام الله واجب .

وقد نشر الدكتور محمود سراج الدين محمود عفيفى - بقسم الكيمياء بكلية العلوم بجامعة الأزهر - بحثا قال فيه : أثبتت الدراسات الجيوفيزيائية أن الجسم الصلب فى الأرض مكون من :

١- القشرة الأرضية .

٢- طبقة من السليكات الخفيفة والثقيلة .

٣- طبقة من الأكاسيد والكبريتيدات .

٤- سائل من الحديد والنيكل .

٥- نواة الأرض المكونة أيضا من الحديد والنيكل ، فإذا أضفنا إليها .

٦- الغلاف الجوى .

٧- الغلاف المائى ، أصبح العدد سبعة .

وأيضا : بما أن المادة مكونة من ذرات تحمل كل صفات المادة فإننا نرى وحدانية الخالق فى مكونات الأرض وهى الذرات المختلفة للعناصر المكونة للأرضية ومن المعروف أن جميع الذرات تتكون من مدارات رئيسية هى : k. L. M. N. O. P. Q. هى أيضا سبعة تتنقل بينها الإليكترونات لتعطينا كل الصفات الكيماوية والطبيعية والرقم «٧» لا يتوقف عند هذا ، فإن جائزتى نوبل لعامى ٦٣ ، ١٩٧٥ م أعطيت لعلماء لأنهم اكتشفوا أمورا متعلقة بالتركيب المدارى لنواة الذرة ، ظهر فيها رقم «٧» [1].



س : ما هى المناسبة بين خلق الإنسان من علق والتعليم بالقلم في قوله تعالى : ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ ؟

ج : سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ هى أول ما نزل من القرآن الكريم كما ثبت فى الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها ، ووجه المناسبة بين الخلق من علق والتعليم بالقلم وتعليم العلم أن أدنى مراتب خلق الإنسان كونه علقة ، وأعلاها كونه عالما ، فهو سبحانه امتن على الإنسان بنقله من أدنى المراتب وهى العلقة إلى أعلاها وهى العلم ، قال الزمخشرى : فإن قلت : لم قال «من علق» وإنما خلق من علقة واحدة كقوله تعالى ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ قلت : لأن الإنسان فى معنى الجمع كقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾أى الناس والأكرم هو الذي له الكمال فى زيادة تكرمه على كل كريم ، ينعم على عباده النعم التى لا تحصى ، ويحلم عليهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهى وإطراحهم الأوامر، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقترافهم العظام ، فما لكرمه غاية ولا أمد ، وكأنه ليس وراء التكريم بإفادة الفؤائد العظيمة تكرُّم ، حيث قال ﴿ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فدل على كمال كرمه بأنه علَّم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم . ونبه على فضل الكتابة لما فيها من المنافع العظيمة التى لا يحيط

١- جريدة الأخبار : ١٩ / ٥ / ١٩٧٦ .

بها إلا هو ، وما دونت العلوم الأول ، ولا قيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزَّلة إلا بالكتابة ، ولولا هى ما استقامت أمور الدين والدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا أمر القلم والخط لكفى به .

ويتصل بهذا السؤال عن العلقة السوداء التى أخرجت من قلب النبى ﷺ فى صغره حين شق فؤاده ، وعن قول الملك : هذا حظ الشيطان منك ، وقد أجاب الشيخ تقى الدين السبكى بقوله : تلك العلقة التي خلقها الله تعالى فى قلوب البشر قابلة لما يلقيه الشيطان فيها ، فأزيلت من قلبه عليه الصلاة والسلام ، فلم يبق فيه مكان قابل لأن يلقى الشيطان فيه شيئا . هذا معنى الحديث ، ولم يكن للشيطان فيهﷺ حظ قط ، وإنما الذى نفاه الملك أمر هو فى الجبلات البشرية ، فأزيل القابل الذى لم يكن يلزم من حصوله حصول القذف فى قلبه عليه الصلاة والسلام .

فقيل له : لمَ خلق الله هذا القابل فى هذه الذات الشريفة وكان يمكنه ألا يخلقه فيها؟ فقال : لأنه من جملة الأجزاء الإنسانية ، فخلقه تكملة للخلق الإنسانى فلا بد منه ، ونزعه كرامة ربانية طرأت بعده .

انتهى «الدميرى العَلَق حياة الحيوان الكبرى» .



س : يقول الله تعالى فى سورة الطارق ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ فكيف يتفق هذا مع ما هو معروف أن الماء الدافق هو فى الخصية؟

ج : هذه الآية من الآيات العلمية التى ما كان العرب يعرفون عنها شيئا ، وبالتالى لم يكن النبى ﷺ ليعلم عنها شيئا لولا نزول القرآن عليه من الله «والله يعلم وأنتم لاتعلمون» وذلك من أدلة صدق النبى ﷺ فى دعواه الرسالة .

وقد ظل الناس قرونا طويلة يجهلون كيف يتخلق الجنين فى بطن أمه حتى نزل القرآن فبين ذلك بدقة فى سورة «المؤمنون» ووضحه النبى ﷺ فى حديثه ، وهو

لاينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى . وبين أن الإنسان يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم أربعين يوما علقة ثم أربعين يوما مضغة . .

والمفسرون للقرآن والشارحون للأحاديث كانوا يوضحون ذلك حسب المعلومات التى كانت عندهم مع استعانتهم بمعانى الألفاظ العربية التى نزل بها القرآن ، والترائب هى عظام الصدر ، وهل المراد صدر الرجل ، أو صدر المرأة الذى يقابله الصلب فى الرجل ؟ رأيان

وإليك نموذجاً من التفاسير :

أ - جاء فى تفسير القرطبى أن الإنسان يخلق من ماء الرجل الذى يخلق من صلبه العظم والعصب ، ومن ماء المرأة الذى يخرج من ترائبها اللحم والدم ، وقيل من صلب الرجل وترائبه ، ومن صلب المرأة وترائبها . ولم يوضح كيف تم الخلق بهذه الصورة .

ب- جاء فى تفسير الجواهر للشيخ طنطاوى جوهرى معتمدا فيه على ما فى تفسير الفخر الرازى : أن الدماغ مركز الإدراك وخليفته فى الجسم النخاع الشوكى المخزون فى الصلب ، والنخاع له شعب كثيرة تصل إلى جميع أجزاء الجسم.... ولن يتم اجتماع الرجل بالمرأة إلا بقوة الحس عن طريق الدماغ والنخاع الذى فى الصلب ، وكذلك بوجود زينة المرأة التى يغلب أن تكون على ترائبها ، أى على صدرها ، ولذا عبر عن الرجل بالصلب وعن المرأة بالترائب وهذا فحوى كلام الرازى وجوهرى ، وهو تفسير سطحى لعملية تكوين الجنين .

ج - وجاء فى تفسير القاسمى : أن المنى باعتبار أصله وهو الدم يخرج من شيء ممتد بين الصلب - فقرات الظهر فى الرجل - والترائب أى عظام صدره ، وذلك الشيء الممتد بينهما هو الأبهر «الأورطى» وهو أكبر شريان فى الجسم يخرج من القلب خلف الترائب ويمتد إلى آخر الصلب تقريبا . ومنه تخرج عدة شرايين عظيمة، ومنها شريانان طويلان يخرجان منه بعد شريانى الكليتين

وينزلان إلى أسفل البطن حتى يصلا إلى الخصيتين فيغذيانهما ، ومن دمهما يتكون المنى فى الخصيتين ويسميان بشرياني الخصيتين أو الشريانين المنويين ، فلذا قال تعالى عن المنى ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ لأنه يخرج من مكان بينهما وهو الأورطى أو الأبهر .

د - هذا بعض ما جاء فى كتب التفسير ، وهى محاولات لتقريب المعنى إلى المعهود الآن مما وصل إليه العلم ، ولا شك أن الكشوف العلمية تتقدم يوما بعد يوم ، ثم رأينا فى أبحاث للمتخصصين أن الغدد التناسلية فى الجنين تكون أصلا فى المنطقة الواقعة بين عظام الظهر «الصلب» وعظام الصدر «الترائب» وهذا ما يدل عليه قوله تعالى ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ سواء منه الذكر والأنثى ، فهى تخلق فى نفس المكان ، ولعل مما يؤكد ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ فكلمة : «بنى آدم» تشمل الذكر والأنثى ، وتفصيل ذلك يرجع فيه إلى المختصين ، وبخاصة فى علم الأجنة .

هذه صور من محاولات تفسير ما ورد فى القرآن من الأمور العلمية . ولعل فى الكشوف المستقبلة ما يوضح ذلك أكثر وأكثر ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ .



س . ما هى الظلمات الواردة فى قوله تعالى ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾ [الزمر : ٦] ؟

ج : الكلام فى تفسير هذه الظلمات كثير ، وأحسن ما قيل فيها أنها ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة . وهو المنقول عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك . وقيل : ظلمة صلب الرجل وظلمة بطن المرأة وظلمة الرحم ، وهذا مذهب أبي عبيدة ، يقول القرطبى : أى لا تمنعه الظلمة كما تمنع المخلوقين ، أي أن الله سبحانه يخلق الإنسان فى بطن أمه طورا بعد طور ، من نطفة إلى علقة إلى مضغة

إلى عظام إلى لحم ، وقيل فى معنى ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾[الزمر : ٦] خلقاً في بطون أمهاتكم من بعد خلقكم في ظهور آبائكم ، ثم خلقاً بعد الوضع ، كما ذكره الماوردي .



س : ما معنى قوله تعالى ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح : ٢٩] ؟

ج : السيما هى العلامة وقد جاء فى المراد منها أقوال عدة ، بعضها يجعلها فى الدنيا وبعضها يجعلها فى الآخرة ، ومن الأولى قول ابن عباس : هى السمت الحسن ، وقال بعض السلف : «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » روى هذا على أنه حديث مرفوع إلى النبى ﷺ والصحيح أنه موقوف على جابر . وقد رواه ابن ماجه ، وقال ابن الحربى : إنه غير مرفوع . وقال بعضهم عن السيما : إن للحسنة نوراً فى القلب وضياء فى الوجه وسعة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الناس . ومنه قول عثمان : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه . وقال عمر : من أصلح سريرته أصلح الله علانيته ، ونقل عن مالك أن السيما هى ما يعلق بجباههم من الأرض عند السجود .

وأما ما يقال إنها هى الأثر الظاهر فى الوجه على العين فقد سئل عنه مجاهد ، وهو من كبار التابعين المفسرين ، فقال منكرا لذلك : ربما يكون بين عينى الرجل مثل ركبة العنز ، وهو أقسى قلبا من الحجارة ، ولكنه نور فى وجوههم من الخشوع.

ومن الثانى : أى كون السيما فى الآخرة ، ما قاله الحسن : إنها بياض يكون فى الوجه يوم القيامة . ففى الصحيح «أن الله يأمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ، فمن أراد الله أن يرحمه ممن يقول : لا إله إلا الله ، فيعرفونهم فى النار بأثر السجود ،تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود ، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود » [1] .



---

١ – ذكر هذه الأقوال ابن كثيروالقرطبي فى التفسير .

س . من هم أصحاب الرس ، ومن هو النبى الذي أرسل إليهم ؟

ج : قال تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ [ق : ١٢] . جاء فى تفسير القرطبي لسورة الفرقان : أن الرس في كلام العرب هو البئر التى تكون غير مطوية أى غير مبنية ، والكلام كثير فى بيان أصحاب الرس ، ولا يوجد مستند صحيح لهذه الأقوال ، فقيل : هم أهل أنطاكية الذين قتلوا حبيبا النجار مؤمن آل يس وطرحوه فى البئر ، وقيل قوم من ولد يهوذا كانوا يعبدون شجرة صنوبر قتلوا نبيهم ورسُّوه فى البئر . وقال وهب بن منبه : أرسل الله شعيبا إلى قوم حول بئر فكذبوه ، وقال قتادة : أصحاب الرس وأصحاب الأيكة أمتان أرسل الله إليهما شعيبا ، وقيل أصحابها قوم باليمامة ، وقيل هم أصحاب الأخدود ، وقد يكون رسولهم ممن لم يقصهم الله على نبيه، وقيل هم قوم حنظلة بن صفوان .

وعلى كل حال لا يضر الجهل بهم فليس فيهم خبر صحيح .



س : في الآيات القرآنية أن كل شيء يسبِّح الله ، فبأي لغة يكون هذا التسبيح ؟

ج : التسبيح معناه تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ، وقد يكون ذلك بالقول وبالفعل، وبأية صورة تنبئ عن ذلك كالصلاة وذكر الله تعالى ، وهذا التسبيح يلزمه الإيمان بوجود الله وبألوهيته ، ومثله السجود بمعناه العام وهو الخضوع واللجوء إليه ، والكون كله ساجد لله ومسبح له بهذا المعنى ، والنصوص فى ذلك كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ قَدْ﴾ [النور : ٤١] وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ......﴾ [الحج : ١٨] وقوله تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء : ٤٤] والتسبيح الذى يعتمد على اللغة ليس كل إنسان قادرا على فهمه ، فلكل من المخلوقات لغته ، ولا يفهمها إلا من خصه الله من

عباده المقربين كداود وسليمان عليهما السلام ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل : ١٦] .

وبعض العلماء يقول : إن التسبيح باللغة يكون من الأحياء النامية كالحيوان والنبات ، وأما تسبيح غيرها كالجماد فهو بمعنى الدلالة على وجود الله ووجوب عبادته ، وقال بعض آخر : قد يكون تسبيح الجمادات بلغة خاصة كما جاء فى إكرام الله لداود بقوله تعالى : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص : ١٨، ١٩] .

والمهم أن كل الكائنات تسبح وتسجد وتخضع لقدرة الله ، ولكلٍّ لغتها وطريقتها في ذلك ، ومما جاء من النصوص والأخبار في هذا الموضوع إلى جانب ما ذكر :

١ - روي البخارى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال «لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل» وفي غير هذه الرواية عنه رضي الله عنه : كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحه . وهناك عدة روايات في تسبيح الطعام[١] .

٢ - روى مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : وقال رسول الله ﷺ «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن» قيل هو الحجر الأسود . وهناك عدة حوادث في تسبيح الحصا في يد الرسول وأبي بكر وعمر[٢] .

٣ - حنين الجذع الذي كان يخطب إليه ، رواه البخاري وغيره ، وقيل إنه متواتر ، وسمع لحنينه صوت كصوت الناقة العشراء ، والكلام طويل عنه[٣] .

٤ - أخرج النسائي في سننه عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ نهى عن قتل الضفدع وقال «نقيقها تسبيح »[٤] .

---

١ - مذكورة فى الزرقاني على المواهب «ج٥ ص ١٢١» .
٢ - المرجع السابق ص ١٢٠ .
٣ - الزرقاني على المواهب ج ٥ ص ١٣٣ .
٤ - أخرجه ابن سبيع في «شفاء الصدور» كما ذكره الدميري .

٥ - روى ابن ماجه في سننه ومالك في موطئه قول النبي ﷺ «لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة» .

٦- ذكر القرطبى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ بعض أقوال منقولة عن عبد الله بن مسعود وأنس بن مالك أن الجبال يكلم بعضها بعضا ، كما ذكر ما تقوله بعض الطيور[1] ، وليس لذلك سند صحيح يعتمد عليه ، ثم قال : الصحيح أن الكل يسبح ، للأخبار الدالة على ذلك ، ولو كان التسبيح تسبيح دلالة فأى تخصيص لداود؟ وإنما ذلك تسبيح المقال ، بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح ، وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء ، فالقول به أولى .

وأقول : لقد أثبت العلم أن للحيوانات والطيور لغات تتفاهم بها ، فلا استحالة في كون كل المخلوقات تسبح بحمد الله بلغة خاصة بها ، وإن كنا لانفهمها ، كما أنه لامانع من تفسير التسبيح بأنه بلسان الحال ليعتبر الإنسان ويؤمن ويسجد لله ويسبِّحه ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[يونس : ١٠١] .



س : ما معنى قوله ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأحزاب: ٧٢] وهل كان العرض تخييراً أو إلزاماً وكيف كان الإنسان ظلوماً جهولاً؟ .

ج : في تفسير الأمانة في هذه الآية أقوال كثيرة ، وأرجح منها أنها هي التكاليف الإلهية التي لا تؤدى إلا عن إيمان بالله الذي أمر بها ويجازي عليها ثوابا وعقاباً ، ويقرب من هذا أنها هي الإيمان الذي يدفع إلى أداء التكاليف الإلهية . ولعل مما يؤيد هذا القول حديث حذيفة بن اليمان قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين ، قد رأيت

١- ج ١٣ ص ١٦٥.

أحدهما وأنا أنتظر الآخر . . حدثنا أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة »[1] وكما يؤيده حديث «الصلاة أمانة والوضوء أمانة والوزن أمانة» [2] .

وعرض الله الأمانة على السماوات والأرض والجبال : إن أدوها أثابهم ، وإن ضيعوها عذبهم ، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيماً لدين الله عز وجل ألا يقوموا به . ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، قال النحاس : وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير .

ولعل إباء السموات والأرض والجبال للأمانة أساسه - كما قال ابن عباس - خشية التقصير فيها ، لأنها مفطورة على الطاعة ، راضية بما هيئت له من رسالة في الحياة ويوضحه قوله تعالى ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت : ١١] وهذا يلتقي مع الرأى القائل بأن العرض معناه مقايسة التكاليف بجهد السموات والأرض والجبال وطبيعتها ، فلم يكن هناك تناسب . أما الإنسان ففي طبيعته تناسب لحمل الأمانة مع ما يلزمها من ثواب على الطاعة وعقاب على المعصية وقد قبل الإنسان هذه الأمانة دون أن تعرض عليه ، فلم يصرح القرآن بذلك كما قاله بعض المفسرين ، ولعل مبادرته للقبول كانت تفاؤلاً بالتوفيق لأدائها وأملا في عدم التقيد فيها ، ولأن طبيعته التي خلقه الله عليها تناسب مع قبول هذه التكاليف .

ثم قال العلماء : إن عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال كان عرض تخيير أما عرضها على الإنسان فكان عرض إلزام ، وعبرت الآية عن الإنسان الذي حمل الأمانة بأنه ظلوم جهول ، لأنه كان ظلوماً لنفسه بالتقصير الذي آل إليه أمر الكثيرين ، وجهول حين خاطر بحمل الأمانة ولم يدر ما سيكون عليه مستقبل حاله من التقصير الذي يعرض له كل إنسان بدافع من الغرائز التي فطر عليها .



١ - رواه البخارى ومسلم .
٢ - رواه أحمد والبيهقي موقوفاً على ابن مسعود .

س : نرجو تفسير قوله تعالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ؟[الأحزاب : ٧٢]

ج : فى تفسير هذه الآية كلام كثير ، وبخاصة فى بيان المقصود من الأمانة ، لكن الجمهور على أن الأمانة تعم جميع التكاليف الشرعية ، عرضها الله على السموات والأرض والجبال : إن أدوها أثابهم ، وإن ضيعوها عذبهم ، فكرهوا ذلك وأشفقوا، ليس معصية لله ولكن تعظيما لدين الله ألا يقوموا به .

ويروى فى ذلك أثر عن الترمذى الحكيم عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : «قال الله تعالى لآدم : يا آدم إني عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم تطقها ، فهل أنت حاملها بما فيها؟ فقال : وما فيها يا رب العالمين ؟ قال : إن حملتها أجرت ، وإن ضيعتها عُذِّبت . فاحتملها بما فيها ، فلم يلبث فى الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطان منها » .

فالأمانة هى التكاليف ، وترتب الثواب على أدائها والعقاب على تضييعها لا بد له من حرية واختيار والمخلوقات غير الإنسان ليست لها هذه الحرية ، فهى مسيرة بقوانين ثابتة لا تملك الخروج عليها ، ولا تتحقق بها الطاعة والمعصية . ومن هنا كان الإنسان أصلح المخلوقات للعيش على الأرض ، ومتناسبا مع ما فيها من ماديات ومعنويات متقابلة بالتضاد أو التناقض . وهذا تكريم من الله للإنسان حيث اختاره لحمل هذه الأمانة .

وليس قوله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ نقضاً لهذا التكريم ، فإن مجرد استعداده لتلقي التكاليف دون غيره من المخلوقات هو مناط التكريم ، وكونه يفى بالعهد أو ينقض هو مظهر من مظاهر الاستعداد الذى ليس لغيره . فهو ظلوم إن تعدى حدود التكليف وهو يعلم بها ، وجهول إن كان لا يعلمها وعنده أمانة العقل الذى يهديه إلى علمها ، وليس هناك كائن غير الإنسان يوصف بالظلم والجهل ، لأنه لا يعرف

حدا يقف عنده . وما وصف الإنسان بالظلم والجهل إلا لأنه يصح أن يوصف بضدهما من العدل والعلم كما قال المحققون . هذا بعض ما قيل فى تفسير الآية . ولعل فيه الكفاية .



س : كيف يأمر الله نبيه بقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فهل وقع منه خطأ أو تقصير حتى يقول الله له ذلك ؟

ج : قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الأحزاب : ١] .

المراد بالأمر هنا هو المداومة على التقوى ، ولا يقصد بها أن الرسول كان غير متق لله فأمره الله بالتقوى . ومثل ذلك كثير فى القرآن الكريم .



س : قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾[الفرقان ٤٥ ، ٤٦] نريد توضيحا لذلك على ضوء العلم الحديث؟ .

ج : المراد بالظل هو الجزء من الليل من طلوع الفجر إلى شروق الشمس على أصح الأقوال عند المفسرين كما قال القرطبى ، وذلك نعمة من الله سبحانه ، لأنها ساعة طيبة كما قالوا .

ولو شاء الله لأبقى هذه المدة ومنع الشمس من الطلوع ، لكنه سبحانه أذن للشمس أن تنسخ هذا الظل ، ونستظل بها على أنها نعمة ، فبضدها تتميز الأشياء ، ثم قبض الله هذا الظل بسهولة ، لأن كل أمر سهل ويسير على الله .

يقول القرطبى : فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضا وخلفه فى هذا الجو شعاع الشمس فأشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها .

واتجاه المفسرين فى ذلك اتجاه امتنان من الله بالنعمة على عباده ، واتجه بعض المحدثين من العلماء فى ذلك اتجاها يبين قدرة الله سبحانه وسيطرته على الوجود كله يخلق الليل والنهار ، ويسيِّر الكواكب والشموس والأقمار بنظام بديع لا يقدر عليه غيره سبحانه وتعالى .

والآيتان تحملان كل ذلك ، فكل ما فى الكون دليل على قدرة الله ، وكل ما نتمتع به هو نعمة منه سبحانه ، يشدنا هذا كله إلى الإيمان به وإلى شكره وطاعته .

يقول الخبراء المشرفون على «منتخب التفسير» الذى نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية : هذه الآية تظهر عناية الخالق وقدرته . فمد الظل يدل على دوران الأرض وعلى ميل محور دورانها ، ولو أن الأرض سكنت بحيث إنها ظلت غير متحركة حول الشمس وكذلك انعدم دورانها حول محورها لسكن الظل ولظلت أشعة الشمس مسلطة على نصف الأرض ، بينما يظل النصف الآخر ليلاً ، مما يحدث اختلاف التوازن الحرارى ، ويؤدى إلى انعدام الحياة على الأرض ، وكذلك إذا كان هذا هو حال الأرض فإن الظل يظل ساكنا . وهذا أيضا يحدث إذا كانت فترة دوران الأرض حول محورها هى نفسها فترة دورانها من حول الشمس ، أى أن اليوم يصبح سنة كاملة ولكن لا يمكن أن يفعل ذلك غير الله . هذا فضلا عن أن الظل ذاته نعمة من نعم الله ، ولو أن الله خلق الأشياء كلها شفافة لما وجد الظل ولا نعدمت فرص الحياة أمام الكائنات التى تحتاج إليه . انتهى .



س . أرجو تفسير الآيتين ١٠ ، ١١ من سورة الدخان ؟

ج : الآيتان هما قوله تعالى ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ .

الدخان هنا فيه ثلاثة أقوال :

الأول : أنه من علامات الساعة ، ولم يجئ بعد ، وفي صحيح مسلم أن النبى ﷺ «ذكر من علامات الساعة الدخان . وهذا الدخان أربعين يوما ، أما المؤمن فيصيبه

منه شبه الزكام ، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران ، يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنيه ، ودبره » .

والقول الثانى : أنه ما أصاب قريشا من الجوع بسبب دعاء النبى ﷺ حتى كان الرجل يرى السماء والأرض دخانا [1] .

والقول الثالث : أنه يوم فتح مكة ، لما حجبت الغبرة السماء . وكتب التفسير فيها توضيح لذلك فيرجع إليها من أراد .



س . هل معنى قوله تعالى : ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[المائدة : ١٠١] أننا لانسأل عن أمور ديننا ما دمنا لا نعرفها؟

ج : روى البخارى ومسلم أن رجلا اسمه عبد الله بن حذافة هاجر إلى الحبشة وشهد بدرا وكانت فيه دعابة سأل النبى ﷺ عن أبيه ، فقال له : «أبوك فلان» ولما علمت أمه بسؤاله عن أبيه قالت : ما سمعت بابن أعق منك ، آمنت أن تكون أمك قارفت ما يقارف النساء فى الجاهلية فتفضحها على أعين الناس ؟ فقال : والله لو ألحقني بعبد أسود للحقت به ، فنزلت هذه الآية تنهى عن مثل هذه الأسئلة .

وروى الترمذى أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[آل عمران : ٩٧] قالوا : يا رسول الله أفي كل عام ؟ فسكت ولما كرروا السؤال قال «لا ، ولوقلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ما أطقتموها ، ولو لم تطيقوها لكفرتم » فأنزل الله هذه الآية للنهى عن تكلف الأسئلة ما دام القرآن لم يبين أكثر مما نزل ، وذلك كله فى أيام نزول الوحى ، حتى لا يكون المسلمون كبنى إسرائيل حينما أمرهم الله أن يذبحوا بقرة ، فأخذوا يسألون عن سنها وأوصافها حتى شدد الله عليهم فاشتروها بثمن كبير .

أما اليوم - وقد انتهى الوحى - فيجوز بل يجب أن نسأل عما نجهله لأنه من باب التفقه فى الدين ، وقد كان النهى رحمة بالمسلمين فقد صح فى مسلم أن

---

١ - ذكره البخارى وسلم .

النبى ﷺ قال «إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شىء لم يحرم على المسلمين ، فحرم عليهم من أجل مسألته » .

فعلى كل مسلم يجهل أمرا من أمور الدين -لم يستطع أن يعرفه من مصادره- أن يسأل عنه العلماء المختصين كما قال تعالى : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وأنصح كل طالب علم أيًّا كان نوعه أن يسأل عن حكم الدين في كل ما يعِنُّ له ، فذلك دليل على اليقظة حتى لا يزل ، ولا يعدُّ ذلك جبناً منه ، بل هو الحكمة عين الحكمة ، فليس التفلت من الدين شجاعة بل هو تهور يؤدى إلى التهلكة .



س : أرجو تفسير قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ وكيف يكون هذا النقص ؟

ج : هذه الآية من سورة الرعد : ٤١ وقيل فى تفسيرها : إن المراد بالنقص من أطرافها هو موت العلماء والصالحين ، فالأطراف هم الأشراف ، كما قال ابن عباس والقشيرى .

وقيل المراد ما يغلب عليه المسلمون مما فى أيدى المشركين كما فى رواية عن ابن عباس ، وعنه أيضا هو خراب الأرض حتى يكون العمران فى ناحية منها .

وقال عطاء بن أبى رباح : المراد ذهاب الفقهاء وخيار أهلها ، وهو موافق لرأى لابن عباس . وارتضاه كثير من المفسرين .

ومعنى الآية : أو لم تر قريش هلاك من قبلهم وخراب أرضهم بعدهم ، أفلا يخافون أن يحل بهم مثل ذلك . وقيل المراد نقص بركات الأرض وثمارها ، وذلك بجور أهلها ، والقرطبى صحح هذا القول ، لأن الظلم يخرب البلاد بقتل أهلها وانجلائهم عنها ورفع البركة من الأرض .

وما يقال الآن : إنه دليل على أن كروية الأرض ليست تامة ، بل هى مفلطحة من الجانبين فهو غير قطعى . وليس مناسبا للمقام حيث تتحدث الآيات عن وعيد

الله للكافرين ، وعما حدث للماكرين الكافرين من قبلهم فأولى أن يفسر النقص من أطراف الأرض بإهلاك الكفار والجبابرة في أية بقعة من بقاع الأرض .



س : ما هي الآيات التسع التي آتاها الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام ؟

ج : قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠١] اختلف المفسرون في المراد بهذه الآيات ، فقيل: هي بمعني آيات الكتاب كما روي الترمذي والنسائى أن يهوديين سألا رسول الله ﷺ عنها فقال «لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تزنوا ،ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تسرقوا ، ولا تسخروا ، ولا تمشوا ببريء إلى السلطان فيقتله ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقذفوا محصنة ، ولا تفروا من الزحف» .

وقيل : إن الآيات بمعنى المعجزات والدلالات ، هي :

١ - العصا : قال تعالى ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء : ٣٢] .

٢ - اليد : قال تعالى ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الشعراء : ٣٣] .

٣ - اللسان : قال تعالى ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ ﴾ [طه:٢٧ ، ٢٨] .

٤ - البحر : قال تعالى ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء : ٦٣] .

٥ - الطوفان . ٦ - الجراد .

٧ - القمل . ٨ - الضفادع .

٩ - الدم : قال تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ [الأعراف : ١٣٣] .

وقيل غير ذلك [١] .



١- انظر تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٣٣٥ .

س : ما تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك : ٥] وبأي شكل ثبت الله الكواكب فى السماء وهي جرم غير قابل للخرق والالتئام ، وكيف أمكن وصول الإنسان إلى القمر وهو في السماء ذات الجرم الصلب كما وصفها حكماء اليونان ؟

ج : ورد هذا السؤال من طالب من البلاد الإسلامية مقيم في مدينة البعوث بالأزهر سنة ١٩٧٢م وكانت الإجابة : إن الآية واضحة المعنى ، فالله سبحانه قد جعل في السماء الدنيا نجوماً مضيئة وكواكب سيارة تزينها ، وجعلها رجوماً للشياطين إذا حاولوا أن يسترقوا السمع ، على ما جاء في قوله تعالى ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن : ٨ ، ٩] .

والسماء الدنيا إحدى السموات السبع التي قال الله فيها ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة : ٢٩] وقال تعالى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق : ١٢] وإذا كانت السماء سقفاً للأرض كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء :٣٢] وإذا كانت الأرض كروية فالسموات أيضاً كروية والسماء الدنيا أي القريبة من الأرض أصغرها ، وما بعدها أكبر منها وهكذا.

وكل هذه المصابيح الإلهية فى السماء الدنيا أى الأولى ، ووجودها محفوظ بقدرة الله كما رفع السماء بغير عمد ، فلله تعالى قوانين ، بها وضع كلاً في موضعه ، وجعل له مداراً معيناً لا يتعداه : ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء :٣٣] وتثبيت هذه المصابيح فى أماكنها لا يلزم أن يكون بحبل أو سلاسل مادية ، فقدرة الله أكبر من ذلك ، فلا تتصور تثبيتها كما تتصور ثريات المنازل وهي معلقة في السقف ، ولاتنزل عمل الله وقدرته على ما تعهده في عالمك الناقص العاجز ، وحقيقة السموات ومادتها لايعلمها إلا الله سبحانه ، وكل ما قاله الباحثون ظنون لا تعتمد على دليل صحيح ، وقد آمن كثير من الباحثين المتعمقين بوجود الله عندما عجزوا عن متابعة الكشف عن هذا الكون الواسع ذي الأبعاد التي تعجز عن تحديدها أساليب العلم البشري الحديث .

ومهما يكن من شيء أيها الطالب العزيز فإن الله لم يكلفنا بمعرفة كيفية تثبيت الكواكب والنجوم ولا بمادة السماء ، وهي ليست من العقائد التي تسأل عنها . والبحث فيها متروك لكل إنسان حسب طاقته واستعداده وسيصل عند تعميق النظر إلى الإيمان الراسخ بوجود الله وقدرته ، وكل حقيقة ثابتة فالقرآن متفق معها ، ولا يجوز أن نقارن بين ما في القرآن وبين الظنون والافتراضات والنظريات التي لم يثبتها الدليل الصحيح .



س : ما معنى قوله تعالى ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ وما هي الصلاة السرية والصلاة الجهرية ، وما هي الحكمة في ذلك ؟

ج : قال تعالى ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[الإسراء: ١١٠] قال بعض المفسرين : إن المراد بالصلاة هنا الدعاء بدليل الفقرة السابقة عليها ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ والمراد أن يكون الدعاء وسطا بين الجهر الذي يوقظ النائم ويزعجه أو يجر إلى الرياء، وبين الإسرار الذي لا يسمعه الداعي ، ويكون أشبه بالهمس غير المفهوم . وهذا ما رواه مسلم . وأخرج البخاري ومسلم أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت ورسول الله ﷺ متوار بمكة ، وكان إذا صلى بأصحابه ورفع صوته بالقرآن فإذا سمع المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ، فقال الله تعالى ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيسمع المشركون قراءتك ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك . أي أسمعهم القرآن ولا تجهر ذلك الجهر وابتغ بين ذلك سبيلاً هو بين الجهر والمخافتة .

وهذان السببان أصح ما ورد في نزول الآية . وروى أحمد وأبو داود أن رسول الله ﷺ مر ليلة بأبي بكر وهو يصلي يخفض صوته ، ومر بعمر وهو يصلي رافعا صوته. فلما اجتمعا عند رسول الله ﷺ قال«يا أبا بكر مررت بك وأنت تصلي تخفض صوتك» فقال : يا رسول الله قد أسمعت من ناجيت . وقال لعمر

«مررت بك وأنت تصلي رافعا صوتك» فقال يا رسول الله أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان . فقال ﷺ «يا أبا بكر ارفع من صوتك شيئاً » وقال لعمر «اخفض من صوتك شيئًا » ولعل هذه المحادثة كانت بعد نزول الآية ، فأراد النبي ﷺ أن يرشدهما إلى تطبيقها .

أما الصلاة المفروضة التي يجهر فيها فهي الصبح والجمعة والركعتان الأوليان من المغرب والعشاء ، والتي يسر فيها ما عدا ذلك ، وهي الظهر والعصر والركعة الثالثة من المغرب والركعتان الأخيرتان من العشاء .

والجهر يكون في قراءة الفاتحة وفي السورة أو الآية التي تليها ، أما الأذكار والأدعية فيها فهي سرية إلا في قنوت الصبح ،والذي يجهر هو المنفرد وكذا الإمام ، أما المأموم فهو يسر أبدا في قراءته .

والحكمة في السر في الصلاة ما كان عليه الحال في مكة من إيذاء المشركين لمن كانوا يصلون ويجهرون بالقراءة فيها ، وكانت الصلاة ركعتين ركعتين ، فبقيت في السفر على ذلك وزيدت في الحضر .

والكفار كانوا مشغولين عن المصلين قبل طلوع الشمس لأنهم نائمون ، فبقي الجهر في صلاة الصبح كما كان . وكذلك كانوا مشغولين بعد غروب الشمس بالنوم أو السهر الخاص ، فبقي الجهر في المغرب والعشاء كما كان .

وصلاة الظهر وصلاة العصر في وضح النهار فشرع السر فيهما خشية إيذاء الكفار أما الجمعة فشرعت صلاتها في المدينة أو بعد الهجرة وكان شرعها بقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ [الجمعة :٩] والنداء لها وللصلوات الأخرى بالأذان شرع في المدينة .

على أن كثرة عدد المصلين للجمعة فيها قوة ترهب عدوهم أن ينالهم بسوء كما كان الحال في مكة وإذا كان الأمن قد استتب في المدينة ولم يعد هناك خوف من المشركين عند الجهر بالقراءة نهارا فإن التشريع بقى كما كان تسجيلاً لفترة من

التاريخ ، وشكرا لله على النعمة كلما تذكرنا ما كان عليه المسلمون في مكة وما آل إليه الإسلام بعد ذلك من نصرة وقوة .



س : ما معنى قوله تعالى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم :٩]؟

ج : معنى «قاب» قدر أو مقدار ، والقوس قيل : هو آلة الصيد والحرب المعروفة عند العرب ، وقيل : المراد به الذراع التي يقاس بها ، وهي لغة بعض الحجازيين وقيل: هى لغة أزد شنوءة أيضاً ، والمراد بالقوسين الاثنان ، وقيل المراد ، قوس واحد كما قال الكسائى ، يقال بين الشيئين قاب قوس أى قدره ، وفى الحديث الصحيح «ولقاب قوس أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها» .

والآية تتحدث إما عن قرب الله سبحانه من النبى ﷺ والمراد قرب المكانة لاالمكان ، فهو قرب عطف ولطف وإيناس ، وإما عن قرب جبريل من الله ، وهو قرب منزلة أيضاً كما روى في الحديث «إن أقرب الملائكة من الله جبريل عليه السلام» وإما عن قرب جبريل من النبي ﷺ عند نزوله بالوحي عليه .

والسورة فى أولها تؤكد صدق النبى ﷺ فى نزول الوحى عليه من الله . فهو ما ينطق عن الهوى ، نزل به جبريل شديد القوى ، من الأفق الأعلى ، ودنا وتدلى فكان قريبا جدا من الرسول عليه الصلاة والسلام ، حتى بلغه ما أوحى به ، فما يقوله من عند الله حق «ما كذب الفؤاد ما رأى» ثم تتحدث الآية عن رؤية النبى ﷺ لجبريل مرة أخرى ، غير التى جاءه فيها فى الغار ، وعلى أثرها كذب المشركون ما ادعاه من رؤيته. وهذه المرة عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى . ويقول المفسرون : إن ذلك كان ليلة المعراج وكلامهم هناك كثير يمكن الرجوع إليه ، وفيما ذكرته كفاية .



س: ما المراد بالصلاة والنحر في قوله تعالى ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَـرْ ﴾ [الكوثر:٢]؟

ج : اختلف العلماء فى نزول سورة الكوثر ، هل كان بمكة أو المدينة . فعلى القول الأول بنزولها فى مكة يكون المراد بالصلاة الصلاة المفروضة ، سواء منها ما كان قبل ليلة الإسراء حيث قيل : إن الصلاة كانت ركعتين أول النهار وركعتين آخره ، وما كان بعد ليلة الإسراء ، وهى الصلوات الخمس . والمراد بالنحر هو الذبح ، بذكر اسم الله أو التقرب إليه . والمعنى : اجعل صلاتك ونحرك يا محمد لله لا لغيره كما يفعل المشركون ولا يصح أن يراد بالصلاة هنا صلاة العيد ولا بالنحر تقديم الأضاحى أو الهدى ، فذلك لم يشرع إلا فى المدينة بالإجماع كما حكاه ابن عمر.

وعلى القول الثانى بنزولها فى المدينة ،يحتمل رأى غير الرأى الذى سبق ، وهو أن المراد بالصلاة صلاة العيد وبالنحر ذبح الأضحية ، كما رآه قتادة وعطاء وعكرمة .

قال أنس : كان النبى ﷺ ينحر ثم يصلى ، فأمره الله أن يصلى ثم ينحر ، وقال سعيد بن جبير : المراد بالصلاة صلاة الصبح المفروضة بالمزدلفة والنحر يكون بمنى ، وجاء عنه أنها نزلت فى الحديبية للتحلل من الإحصار .

والقول الأول هو الراجح ، لأن أقوى الروايات فى سبب النزول تدل على أنها نزلت بمكة ، حين عاب المشركون موت ولد النبي وقالوا : صار أبتر ، على ما كان من عادتهم فيمن يموت وليس له ولد - وما قيل من أن ذلك كان بالمدينة عند موت ولده إبراهيم ضعيف - فالله سبحانه يسلِّى نبيه ﷺ بأنه أعطاه الكوثر ، أى الخير الكثير ، وهذا الخير الكثير على أرجح الأقوال هو نهر فى الجنة كما جاء في رواية البخاري ، أو الحوض الذي يكون في الموقف قبل دخول الجنة كما جاء فى رواية مسلم، أو هو النبوة .

وفى مقابل هذا الخير الكثير يجب أن يشكر النبي ربه عليه بأن تكون صلاته كلها ونحره كله لله وحده وليس لغيره ، والمراد أن يستمر فى دعوته ويثبت على عقيدته وسلوكه غير عابئ بما يقوله المشركون ، فالأبتر في الحقيقة هم هؤلاء الذين قطع الله عنهم الخير بسبب كفرهم .

ومن البعيد أن يكون الشكر على الكوثر صلاة العيد ونحر الأضحية أو الهدْي . قال ابن العربي : والذي عندي أنه أراد : اعبد ربك وانحر له ، فلا يكن عملك إلا لمن خصك بالكوثر . والحري أن يكون جميع العمل يوازي هذه الخصوصية من الكوثر وهو الخير الكثير الذي أعطاكه الله ، أو النهر الذى طينه من مسك ، وعدد آنيته نجوم السماء ، أما أن يوازي هذا صلاة يوم النحر وذبح كبش أو بقرة أو بدنة فذلك يبعد في التقدير والتدبير وموازنة الثواب للعبادة (1).

س : يقول الله تعالى ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ [الشعراء : ٢٢٤ - ٢٢٦] نريد شرح الآية مع ملاحظة أن الرسول كان له شاعر يمدحه هو حسان ابن ثابت ؟

ج : هذه الآية نزلت كما يقول المفسرون فى عبد الله بن الزِّبعَري ونافع بن عبد مناف وأمية بن أبى الصلت ، وقيل نزلت فى أبى عزة الجمحى . والذين استثناهم الله بعد هاتين الآيتين فى قوله ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ و هم حسان بن ثابت وعبد الله ابن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن على شاكلتهم ممن يقولون الحق ، وجاء فى كتب التفسير أن حسان بن ثابت لما نزلت هذه الآية أذن له النبى ﷺ بالرد على المشركين فقال «انتصروا ولا تقولوا إلا حقا ، ولا تذكروا الآباء والأمهات» كما أذن لكعب فيه وقال «إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل» .

إن الشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، والحسن والقبح يتبعان الغرض من إنشاده ، والمعانى التى يحتويها ، والملابسات التى تحوطه والآثار التى تترتب عليه .

---

١ - تفسير القرطبي ج ٢٠ ص ٢٢٠ .

فالآيات ذمت عدم ثبات الشعراء على مبدأ واحد ، وتَكَسُّبُهم بالشعر دون اهتمام بصدق ما يقولون وكذبه ، ومدحت الآية الأخيرة من يتقون الله فى أقوالهم واستهدفوا الدفاع عن الحق والتبرئة مما ينسب إليهم من باطل .

وثبت فى صحيح مسلم أن النبى ﷺ سمع أبياتا كثيرة من شعر أمية بن أبى الصلت ، وقال «كاد أمية بن أبى الصلت أن يسلم » وروى البغوى فى معجم الصحابة وابن عبد البر فى الاستيعاب بإسناد ضعيف من حديث النابغة ، واسمه قيس بن عبد الله . أنه أنشد الرسول ﷺ شعرا فدعا له بقوله «لا يفضض الله فاك» وروى الحاكم أنه قال ذلك للعباس عندما استأذنه فى مدحه .

وكان الرسول إلى جانب سماع الشعر والثناء على قائله يثيب عليه ويجازى عند الاقتضاء . فقد روى مسلم أنه ﷺ لما قسم الغنائم يوم حنين ، ولم يعط العباس ابن مرداس مثل ما أعطى أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن - قال شعرا مدح به نفسه ويبين استحقاقه كغيره ، أتم له الرسول مائة من الإبل ، وقال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء : إن زيادة «اقطعوا عني لسانه» ليست في شيء من الكتب المشهورة . وذكر السفارينى فى كتابه «غذاء الألباب» [1] ، هدية الرسول إلى كعب بن زهير على قصيدته «بانت سعاد» عندما سمع قوله :

إن الرسول لنور يستضاء به

مهند من سيوف الله مسلول

وهى بردة لم يستطع معاوية أن يشتريها منه ، فاشتراها من ورثته ، ثم قال : وأما خبر «الشعر مزامير الشيطان » وخبر «إنه جعل له كالقرآن» فواهيان . وعلى فرض ثبوت ذلك فالمراد به الشعر المحرم . . . وأن عائشة رضى الله عنها كانت أعلم بالشعر والفريضة من غيرها ، وأن النبى ﷺ قال فى حسان «والله لشعرك عليهم أشد من وقع السهام فى غلس الظلام وتحفظ بيتى فيهم » فقال : والذى بعثك بالحق نبيًّا لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين ، ثم أخرج لسانه فضرب به

١- ج ١ ص ١٥١.

أرنبة أنفه وقال والله يا رسول الله إنه ليتخيل لى أنه لو وضعته على حجر لفلقته ، أو على شعر لحلقته فقال رسول الله ﷺ «أيد الله حساناً بروح القدس » سمع النبى ﷺ الشعر من وفد بني تميم ورد حسان عليهم .



س : أرجو تفسير قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٤٨]؟

ج : تبديل الأرض والسموات يكون يوم القيامة ، وقيل : إن المراد تبديل الصفات لا تبديل الذوات ، بمعنى أن تبديل الأرض يكون بمدها أو بسطها كالأديم. وتبديل السموات يكون بتكوير شمسها وقمرها وتناثرنجومها .

وقيل : يكون التبديل بتبديل ذواتها أى إزالتها ، وصححه القرطبي فى تفسيره ، حيث يخلق الله أرضا أخرى ليحشر عليها الناس . ففى صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النَقِيِّ ، ليس فيها علم لأحد» والنقى هو الدقيق الأبيض كما فى نهاية ابن الأثير .

وقال ابن مسعود : تبدل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يعمل عليها خطيئة ، وقال علي رضي الله عنه : تبدل الأرض فضة والسماء ذهبا .

هذه بعض أقوال المفسرين ، وفى الكتب متسع لمن أراد ، وما جاء فى الأحاديث الصحيحة أفضل فى التفسير .



س : أرجو تفسير الآية الكريمة ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق:٢١]؟

ج : هذا مشهد من مشاهد يوم القيامة حيث يقوم الناس من القبور ويساقون إلى المحشر ويحاسبون .

والقرطبى يقول فى التفسير : اختلف فى السائق والشهيد ء فقال ابن عباس : السائق من الملائكة والشهيد من أنفسهم هو الأيدى والأرجل .

وقال أبو هريرة : السائق الملك والشهيد العمل .

وقال الحسن وقتادة : المعنى سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها بعملها .

وقال ابن مسلم : السائق قرينها من الشياطين ، سمى سائقاً لأنه يتبعها وإن لم يحثها .

وقال مجاهد : السائق والشهيد ملكان .

وعن عثمان بن عفان : ملك يسوقها إلى أمر الله وشهيد يشهد عليها بعملها .

ورجح القرطبى هذا الرأى ، وساق عليه حديثا لا يعتمد عليه فى العقائد ، فهما ملكا الحسنات والسيئات ، واحد يسوقها وواحد يشهد ، والآراء الاجتهادية غير ملزمة .



س . ما المقصود بقوله تعالى ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم : ٢٨]؟ .

ج : السيدة مريم عليها السلام لما حملت بأمر ربها بعيسى عليه السلام وولدت اتهمها الناس بالفاحشة ، وتعجبوا كيف تقع فيها وهى من نسل طاهر من جهة الأب والأم ، وقولهم لها «يا أخت هارون» معناه يا شبيهة الرجل الصالح المعروف فى زمانهم بالطهر والعفاف ، واسمه هارون . وكانوا يسمون بأسماء الأنبياء والصالحين.

والأقوال في ذلك كثيرة ذكرها المفسرون ، ولكن أقربها إلى الصحة هو ما ذكرته. فقد روى مسلم عن المغيرة بن شعبة قال : لما قدمت نجران سألونى ، فقالوا : إنكم تقرأون ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ،فلما قدمت على النبىﷺ سألته عن ذلك فقال : «إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم» .



س : أرجو تفسير قولـه تعـالى﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ١] وماذا كان هذا الفتح ، والذنب الذي تـأخر وتقدم للرسول ﷺ ؟

ج : الفتح المذكور فى الآية هو صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة لأنه كان مقدمة لفتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة ، وهو قول كثير من المفسرين .

والذنب الذى غفره الله للرسول مختلف فيه كثيرا ، فالمتقدم منه ما كان قبل الرسالة، والمتأخر ما كان بعدها ، أو المتقدم ما كان قبل الفتح والمتأخر ما كان بعده.

والكلام كثير فى وقوع الذنب من الرسول .

فالإجماع على أن الكبائر لم تقع منه أو من الرسل الآخرين بعد تشريفهم بالرسالة، أما الصغائر فقيل تقع منهم بشرط ألا تكون فيها خسة لا تليق بمقامهم .

وقيل : إن ما يقع منهم هو صورة الذنب وليس ذنبا ، بل هو من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

والمهم هو بيان الربط بين الفتح والمغفرة للذنوب وأثرها فى نفس الرسول .

وقد ثبت أن الرسول فرح بنزول هذه الآية ،كما رواه الترمذى بسند صحيح عن أنس أنه قال : أنزلت على النبى ﷺ «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» . مرجعه من الحديبية فقال : «لقد نزلت علي آية أحب إليَّ مما على وجه الأرض » ثم قرأها .

وفى الربط بين الفتح والمغفرة قال الزمخشرى : لم يجعل الفتح علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدَّد من الأمور الأربعة وهي : المغفرة ، وإتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز ، كأنه قال : يَسَّرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك ليجمع لك عز الدارين وأعراض العاجل والآجل .

ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدو سبباً للغفران والثواب .

ويكفى هذا القدر ، ومن أراد الزيادة فعليه بكتب التفسير .



س : وردت آيات فى القرآن تدل على أن اليهود أفسدوا مرتين ، نريد تفسير هذه الآيات ، وهل إفسادهم انتهى بالمرتين أم يمكن أن يستمر ؟

ج : قال الله تعالى ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ لِيَسُـࣳـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَاۚ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء : ٤-٨] .

المهم في هذه الآيات هو معرفة المرتين اللتين أفسد فيهما بنو إسرائيل ، وهناك كلام طويل وخلاف كبير بين العلماء في ذلك ، ومن أقرب الأقوال أنهم أفسدوا أولاً بقتل النبى زكريا عليه السلام كما قال ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم ، أو بقتلهم النبى أشعياء كما يقول ابن إسحق ، أو بتكذيب النبي أرمياء كما نقل عن ابن عباس ، فأرسل الله عليهم غزاة من فارس «سنحاريب أو بختنصر» فعذبهم وأسروا منهم كثيراً وساقوهم إلى بابل . ولما تابوا خلصهم الله من الأسر ، وأمدهم بالنعيم والقوة ، محذراً لهم من العودة إلى الإفساد فأفسدوا مرة ثانية ، وذلك بقتل النبي يحيى بن زكريا ، فسلط الله عليهم من انتقم منهم ، واختلف فى الذى انتقم منهم ، فقيل : أحد ملوك بابل «خردوس» ! وقيل كما فى حديث نسب إلى الرسول - قيصر الروم ، حيث سبى منهم وقتل ، وأخذ النساء والأموال ، وأودع حُلِيّ بيت المقدس فى مكان ينتظر من يرده قرب قيام الساعة .

هذا ما فى تفسير القرطبى ، ويدل على أن المرتين اللتين أفسد فيهما بنو إسرائيل قد انتهتا قبل ظهور الإسلام المرة الأولى كانت قبل رسالة عيسى ، والثانية بعدها .

ويا ترى هل المكتوب عليهم من الإفساد هو مرتان فقط ، أو سيكون منهم إفساد آخر ، لأن العبارة لا تقتضى الحصر؟ قيل بالثانى أى سيحصل منهم إفساد آخر بدليل قوله تعالى ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ .

وقيل في تفسيرها : إنهم أفسدوا فسلط الله عليهم محمداً ﷺ وأجلاهم المسلمون عن جزيرة العرب ، وامتلكوا بيت المقدس ، وفر اليهود تائهين في أقطار الأرض .

وعلى فرض أنهم سيعودون كما عادوا من قبل إلى بيت المقدس فإن القرار الإلهي ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ باق ، فإن أفسدوا فسيسلط الله عليهم من ينتقم منهم من عباد الله أولى البأس الشديد .

لكن من هم أولو البأس الشديد؟ هل يكونون هم العرب والمسلمون أو غيرهم؟ الله أعلم .



س : يقول الله تعالى ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] فهل هناك خالقون غير الله وهو أحسنهم ؟

ج : كان المشركون يزعمون أن الأصنام شركاء لله فى الخلق وفى كل شىء ، فتحداهم الله بآيات كثيرة بينت أنهم عاجزون لا يضرون ولا ينفعون ، وعبر عنهم بصيغة العقلاء على زعمهم .

ومع اعترافهم بأنه لا يقدر على خلق السموات والأرض وعلى خلق الإنسان إلا الله كما قال سبحانه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر :٣٨] .

وكما قال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩] وكما قال ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٧] مع اعترافهم بهذا كانوا ينسبون إلى الأصنام بعض الأعمال ويتقربون إليها بالقرابين لتستجيب لما يطلبون .

وذكر الله الآية التى فى السؤال بعد ذكر خلق الإنسان فى الأطوار المعروفة ، وعبر بأحسن الخالقين ، وهذه الصيغة المفيدة للتفضيل تبدو منها مشاركة الأصنام لله فى الخلق وهو سبحانه يزيد عليهم ويفضلهم ، لكن صيغة التفضيل تأتي أحيانا من غير أن تفيد مشاركة بين المفضل والمفضل عليه ، وقد مثل علماء النحو لذلك بقولهم :

العسل أحلى من البصل ، فهما لا يشتركان أصلاً في الحلاوة حتى يكون العسل أحلى ، وإنما المعنى : العسل فى بابه ونوعه أحلى من البصل فى بابه ونوعه .

وتفيد صيغة أحسن الخالقين أيضاً أنه يوجد خالق غير الله ، أى فاعل أى شيء ومبتكر لأى شيء ليس له مثال سابق ، لكن خلق الله وإبداع صنعته وانفراده بأشياء لا يقدر عليها غيره تجعله أفضل الخالقين .

وبعد ، فإن فى مرونة اللغة العربية من حيث معانى الألفاظ ودلالة الأساليب ما يجعل هذا التعبير مستساغا ومقبولا بالمعنى اللائق لكل من يوصف به ، فكما يقال مثلا : الله رب العالمين ، يقال للمالك للعبد رب العبد ، وللمالك لأى شيء ، ربه كما يطلق الرب على المربى .



س : نريد توضيحا لقوله تعالى ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ وصلته بانتفاع الأموات بأعمال الأحياء؟

ج : ذهب المعتزلة إلى أن أية قربة يهديها الحى إلى الميت لا تنفعه ، بناء على قولهم بوجوب العدل ، واستدلوا على رأيهم هذا بقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النجم : ٣٦ -٤١] أما أهل السنة فقالوا : هناك قُرَبٌ يجوز للحى أن يفعلها ويستفيد منها الميت ، بل وسع بعضهم الدائرة حتى شملت كل القرب ، قال فى شرح الكنز : إن للإنسان أن يجعل ثواب عمله لغيره ، صلاة كان أو صوما أو حجا أو صدقة أو قراءة قرآن أو غير ذلك من جميع أنواع البر ، ويصل ذلك إلى الميت ، وينفعه عند أهل السنة [1] ودليلهم على ذلك عدم ورود نص مانع ، وكذلك الرجاء فى رحمة الله وفضله أن يفيد الميت بعمل الحى فى النوافل ، كما أفاده فى الفرائض المقضية عنه ، فضلا عن الأدلة الواردة فى

١- نيل الأوطار ج ٤ ص ١٤٢.

بعض القرب من حيث ندب عملها ليفيد منها الميت كما سيأتى بيانه . وردوا دليل المعتزلة بما يأتى :

١- أن الآية المذكورة منسوخة بقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِىٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور:١٢١] كما قاله ابن عباس ، فإن الكبار يلحقون بآبائهم فى الجنة وإن لم يكونوا فى منزلتهم إكراما للآباء باجتماع الأولاد إليهم ، وضعف ابن القيم هذا القول فى كتابه «الروح » .

٢- أن هذه الآية خاصة بشريعة موسى وإبراهيم ، وأما فى شريعتنا فالحكم بخلاف ذلك .

٣- أن عدم انتفاع الإنسان بعمل غيره مخصوص بالكافر ، أما المؤمن فيجوز أن ينتفع بسعى غيره من المؤمنين .

٤- أن اللام فى «للإنسان» بمعنى «على» مثل قوله تعالى ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي عليهم، والمعنى أن الإنسان ليس عليه إلا عمله ، أى أن ذلك فى العقاب ، أما الثواب فليس هناك ما يمنع انتفاع الإنسان بعمل غيره وهذه الردود يمكن أن تناقش .

٥- أن الآية تبين أنه ليس للإنسان إلا عمله استحقاقا بطريق العدل ، أما تفضلا من غيره فلا مانع من أن ينتفع به ، فالدعاء والشفاعة عمل الغير ويستفيد منه الميت. وهذا الجواب هو أصح الأجوبة ، وركز عليه ابن تيمية فى فتاويه [1] حيث قال ما ملخصه :

الاتفاق على وصول ثواب العبادات المالية ، كالصدقة والعتق ، كما يصل إليه الدعاء والاستغفار . أما الأعمال البدنية كالصلاة والصيام والقراءة فاختلفوا فيها. والصواب أن الجميع يصل إليه . . . إلى أن قال : وهذا مذهب أحمد وأبى حنيفة وطائفة من أصحاب مالك والشافعى . وأما احتجاج بعضهم بأن ليس للإنسان إلا ما سعى فيقال ثبت بالسنة المتواترة وإجماع الأئمة أنه يصلى ويستغفر له ويدعى له ،

١- ج ٢٤ ص ٣٦٦ .

وهذا من سعى غيره . والجواب الحق أن الله لم يقل إن الإنسان لا ينتفع إلا بسعى نفسه وأنه قال ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ فهو لا يملك إلا سعيه ، ولا يستحق غير ذلك . وأما سعى غيره فهو له ، كما أن الإنسان لا يملك إلا مال نفسه ونفع نفسه ، فمال غيره ونفع غيره هو كذلك للغير ، لكن إذا تبرع له الغير بذلك جاز. اهـ. وقد ارتضى هذا القول ابن عطية في تفسيره .

هذا ، وقد جاء فى معجم الفقه الحنبلى [1] أن أية قربة يفعلها الحى ويهب ثوابها للميت تنفعه إن شاء الله ، وقال ابن قدامة فى «المغنى» قال أحمد بن حنبل : الميت يصل إليه كل شيء من الخير ، للنصوص الواردة فيه . لأن المسلمين يجتمعون فى كل مصر يقرأون ويهدون لموتاهم من غير نكير فكان إجماعا . وإن كان هذا العمل لا يعتبر حجة والإجماع عليه ليس دليلا كما رأى بعض العلماء .

وقال ابن القيم : والعبادات قسمان : «مالية ، وبدنية» وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصدقة على وصول سائر العبادات المالية ، ونبه بوصول ثواب الصيام على وصول سائر العبادات البدنية ، وأخبر بوصول ثواب الحج المركب من المالية والبدنية، فالأنوع الثلاثة ثابتة بالنص والاعتبار .

هذا هو الحكم الإجمالى فى إهداء القرب ، وإليك شيئاً من التفصيل .

أخرج أبو داود وابن عباس عن أبى أسيد مالك بن ربيعة قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة ، فقال : يارسول الله ، هل بقى من بر أبوى شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال : «نعم الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما من بعدهما» .

١ - الصلاة عليهما .

قال بعض الشراح : إن المراد بالصلاة عليهما فى هذا الحديث صلاة الجنازة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ [التوبة : ٨٤] وقيل المراد

---

١ - ص ٩٤١ طبعة أوقاف الكويت .

بها الدعاء كما فى قوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ﴾ [التوبة : ١٠٣] أى ادع الله لهم بالنماء والبركة .

ويرجح أن يراد بها هنا الدعاء لأن رواية البخارى فى «الأدب المفرد» لم يرد فيها ذكر الصلاة بل ورد (الدعاء لهما) .

والدعاء مجمع على جوازه وعلى نفع الميت به إن قبل ، ومعنى نفع الميت به حصول المدعو به إذا استجيب ، واستجابته محض فضل من الله ، ولا يسمى فى العرف ثوابا، أما الدعاء نفسه وثوابه فهو للداعى ، لأنه شفاعة أجرها للشافع ومقصودها للمشفوع له .

وأدلة مشروعية الدعاء للميت كثيرة ، فصلاة الجنازة نفسها تشتمل على دعاء له، ودعاء الولد الصالح لأبيه مما يفيده بنص الحديث الذى رواه مسلم ، وقد تقدم، ومن آداب زيارة القبور الدعاء للأموات ، كما روى مسلم فى تعليم النبى ﷺ لمن يزورون القبور أن يدعوا للأموات ، ومما جاء فيه «ونسأل الله لنا ولكم العافية» وكذلك «ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين» . . وروى أبو داود عن عثمان ابن عفان رضى الله عنه أنه قال : كان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال «استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يسال» .

أما حكم الصلاة للوالدين فقد جاء فى رواية الدارقطنى «إن من البر بعد الموت أن تصلى لهما مع صلاتك ، وأن تصوم لهما مع صيامك » وتعدية فِعْلَىْ الصلاة والصيام باللام تشعر بأن ذلك فى النوافل المهداة لا فى الفروض من حيث قضاؤها، وقد مر ذلك ولو لم يرد هذا الحديث أو لم يصح فليس هناك نص يمنع إهداء الصلاة للميت وقد تقدم كلام ابن تيمية وغيره فى ذلك .

ب - الاستغفار لهما :

الاستغفار هو دعاء بطلب المغفرة من الله للميت ، وأدلة الدعاء عامة تشهد لمشروعيته ، وقد دعا الأنبياء وغيرهم بالمغفرة لغيرهم ، فقال نوح ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ

بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ [نوح : ٢٨] وقال إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم : ٤١] وروى مسلم أن النبى ﷺ دعا لأهل بقيع الغرقد بالمغفرة وسبق طلبه من المسلمين الاستغفار لأخيهم بعد دفنه ، وروى أحمد وابن ماجه والبيهقى عن أبى هريرة بسند صحيح مرفوع أو موقوف عليه «أن الرجل لترفع درجته فى الجنة فيقول : أنى هذا؟ فيقال : باستغفار ولدك لك» .

جـ - إنفاذ عهد الأبوين وصلة الرحم وإكرام الصديق :

كل ذلك قرب بدنية أو مالية يقوم بها الولد فيؤجر عليها ، ويصل أثرها للوالدين برا وإكراما وإحسانا ، وقد تقدم قول شارح الكنز في هذه القرب وغيرها ، وما جاء في معجم الفقه الحنبلي عن ذلك .

د - الصيام لهما :

يدل حديث الدارقطنى السابق على جواز التنفل بالصيام وإهدائه إلى الميت ، وقد شرط العلماء لذلك ولغيره من القرب أن يكون بنية سابقة أو مقارنة للفعل ، لا أن تكون النية بعد الانتهاء منها .

هـ - الصدقة عليهما :

روى أحمد والنسائى وغيرهما أن أم سعد بن عبادة لما ماتت قال : يا رسول الله، إن أمى ماتت ، أفأتصدق عنها ؛ قال (نعم) قلت : فأي الصدقة أفضل ؟ قال : (سَقْيُ الماء) .

قال الحسن : فتلك سقاية آل سعد بالمدينة ، والظاهر أن هذه الصدقة ليست واجبة ، وإلا لكانت متعينة ولم يسأل سعد عن أفضلها ، وهذا الحديث وإن كان لبعض المحدثين فيه مقال فإن كثيرا من النصوص تشهد بأن الصدقة تفيد الميت سواء أكانت واجبة أم مندوبة .

قال الشوكانى : أما صدقة الولد فلا كلام فيها لثبوتها بالنص ، ولأن الولد من كسبه فلم يصل إليه عمل غيره ، بل عمله هو ، مثل الصدقة الجارية والعلم الذى ينتفع به ودعاء الولد الصالح ، فلا حاجة لوصول صدقته إلى وصية ، أما الصدقة من الأجنبى فالظاهر من العموميات القرآنية أنه لا يصل ثوابها إلى الميت ، فيوقف عليها حتى يأتى دليل يقتضى تخصيصها . اهـ . لكن الرافعى والنووى من الشافعية قالا : يستوى فى الصدقة الوارث وغيره ، وحكى النووى الإجماع على أن الصدقة تقع عن الميت ويصل ثوابها من الولد وغيره [1] .

هذا ، ويجب أن يفهم أن ما جاء فى كلام الشوكانى وغيره من أن الذى وصل إلى الميت من ولده هو عمله وليس عمل الولد ، ليس المراد به أن كل ما يعمله الولد لأبيه محسوب لأبيه وليس محسوبا للولد ، وإلا لضاع الولد وحرم ثواب عمله البدنى بالذات ، بل المراد وصول مثل ثوابه لأبيه ، كما سيأتى فى كلام العلماء عن القراءة للميت .

و - الحج للوالدين :

مر جواز قضاء الحج عن الوالدين بعد الموت ، ولم يرد ما يمنع برهما بالحج أو بغيره من القرب كما تقدم .

ز - قراءة القرآن :

فى قراءة القرآن للميت خلاف للعلماء بين المنع من استفادته بها بناء على أنها عبادة بدنية لا تقبل النيابة ، وبين الجواز بناء على رجاء رحمة الله وما ورد من بعض النصوص ، ومن تتبع أقوال الكثيرين يمكن استنتاج ما يلى :

١ - إذا قرئ القرآن بحضرة الميت فانتفاعه بالقراءة مرجو ، سواء أكان معها إهداء أم لم يكن ، وذلك بحكم المجاورة ، فإن القرآن إذا تلى ، وبخاصة إذا كان فى اجتماع ، حفت القارئين الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة، روى مسلم قول النبى ﷺ «ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يقرءون كتاب

١- نيل الأوطار ج ٤ ص ١٤٢ .

الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة»! والقرآن ذكر بل أفضل الذكر ، وقد روى مسلم وغيره حديث : «لايقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده» . بل لا يشترط لنزول الملائكة وغيرهم أن تكون القراءة أو الذكر فى جماعة ، فيحصل ذلك للشخص الواحد ، روى البخارى ومسلم حديث أُسَيْد بن حُضَيْر الذى كان يقرأ القرآن فى مربده وبجواره ولده وفرسه ، وجاء فيه . فإذا مثل الظلة فوق رأسى ، فيها أمثال السُّرَج عرجت فى الجو حتى ما أراها ، فقال له رسول الله ﷺ (تلك الملائكة تستمع لك ، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستترمنهم) .

على أن النص قد جاء بقراءة «يس» عند الميت ، روى أحمد وأبو داود والنسائى واللفظ له ، وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححاه أن النبى ﷺ قال : «قلب القرآن يس ، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له ، اقرءوها على موتاكم» وقد أعل الدارقطنى وابن القطان هذا الحديث ، لكن صححه ابن حبان والحاكم ، وحمله المصححون له على القراءة على الميت حال الاحتضار ، بناء على حديث فى مسند الفردوس «ما من ميت يموت فتقرأ عنده يس إلا هون الله عليه» لكن بعض العلماء قال : إن لفظ الميت عام لا يختص بالمحتضر ، فلا مانع من استفادته بالقراءة عنده إذا انتهت حياته ، سواء دفن أم لم يدفن ، روى البيهقى بسند حسن أن ابن عمر استحب قراءة أول سورة البقرة وخاتمتها على القبر بعد الدفن . وابن حبان الذى قال فى صحيحه معلقا على حديث «اقرءوا على موتاكم يس» أراد به من حضرته المنية لا أن الميت يقرأ عليه رد عليه المحب الطبري ، بأن ذلك غيرمسلم له وإن سلم أن يكون التلقين حال الاحتضار .

قال الشوكانى : واللفظ نص فى الأموات ، وتناوله للحى المحتضر مجاز فلايصار إليه إلا لقرينه [1] والنووى ذكر فى رياض الصالحين تحت عنوان : الدعاء

١- نيل الأوطار ج ٤ص ٥٢ .

للميت بعد دفنه والقعود عند قبره ساعة للدعاء له والاستغفار والقراءة «الباب الحادى والستون بعد المائة» ذكر أن الشافعى قال : يستحب أن يقرأ عنده شيء من القرآن » وإن ختموا القرآن كان حسناً ، وجاء فى المغنى لابن قدامة :[1] تسن قراءة القرآن عند القبر وهبة ثوابها ، وروى أحمد أنه بدعة ، ثم رجع عنه . وكره مالك وأبو حنيفة القراءة عند القبر حيث لم ترد بها السنة . لكن القرافى المالكى قال : الذي يتجه أن يحصل للموتى بركة القراءة ، كما يحصل لهم بركة الرجل الصالح يدفن عندهم أو يدفنون عنده .

٢ - إذا قرئ القرآن بعيدا عن الميت أوعن القبر وامتنع انتفاعه به بحكم المجاورة وحضور الملائكة ، اختلف الفقهاء فى جواز انتفاع الميت به ، وهناك ثلاث حالات دار الخلاف حولها بين الجواز وعدمه :

الحالة الأولى :

إذا قرأ القارئ ثم دعا الله بما قرأ أن يرحم الميت أو يغفر له ، فقد توسل القارئ إلى الله بعمله الصالح وهو القراءة ، ودعا للميت بالرحمة ، والدعاء له متفق على جوازه وعلى رجاء انتفاعه به إن قبله الله ، كمن توسلوا إلى الله بصالح أعمالهم فانفرجت عنهم الصخرة التى سدت فم الغار ، وفى هذه الحالة لا ينبغى أن يكون هناك خلاف يذكر فى عدم نفع الميت بالدعاء بعد القراءة .

الحالة الثانية :

إذا قرأ القارئ ثم دعا الله أن يهدى مثل ثواب قراءته إلى الميت ، قال ابن الصلاح : وينبغى الجزم بنفع : اللهم أوصل ثواب ما قرأناه ، أى مثله ، فهو المراد ، وأن يصرح به لفلان ، لأنه إذا نفعه الدعاء بما ليس ليس للداعي فما له أولى ، ويجرى ذلك فى سائر الأعمال . ومعنى كلام ابن الصلاح أن الداعى يدعو الله أن يرحم الميت: والرحمة ليست ملكا له بل لله ، فإذا جاز الدعاء بالرحمة وهى ليست له فأولى أن يجوز الدعاء بما

١- ص ٧٥٨ .

له هو وهو ثواب القراءة أو مثلها . وكذلك يجوز فى كل قربة يفعلها الحى من صلاة وصيام وصدقة ، ثم يدعو بعدها أن يوصل الله مثل ثوابها إلى الميت . وقد تقدم كلام ابن قدامة فى المغنى عن ذلك . والدعاء بإهداء مثل ثواب القارئ إلى الميت هو المراد من قول المجيزين : اللهم أوصل ثواب ما قرأته لفلان .

الحالة الثالثة :

إذا نوى القارئ أن يكون الثواب ، أى مثله ، للميت ابتداء أى قبل قراءته أو فى أثنائها يصل ذلك إن شاء الله ، قال أبو عبد الله الأبى : إن قرأ ابتداء بنية الميت وصل إليه ثوابه ، وإن قرأ ثم وهبه لم يصل ، لأن ثواب القراءة للقارئ لا ينتقل عنه إلى غيره . وقال الإمام ابن رشد فى نوازله : إن قرأ ووهب ثواب قراءته لميت ، جاز وحصل للميت أجره ، ووصل إليه نفعه ، ولم يفصل بين كون الهبة قبل القراءة أو معها أو بعدها ، ولعله يريد ما قاله الأبى .

هذا ، وانتفاع الميت بالقراءة مع الإهداء أو النية هو ما رآه المحققون من متأخرى مذهب الشافعى ، وأولوا المنع على معنى وصول عين الثواب الذى للقارئ أو على قراءته لا بحضرة الميت ولا بنية ثواب قراءته له ، أو نيته ولم يدع له ، وقد رجح الانتفاع به أحمد وابن تيمية وابن القيم ، وقد مر كلامهم فى ذلك .

قال الشوكانى [1] المشهور من مذهب الشافعى وجماعة من أصحابه أنه لا يصل إلى الميت ثواب قراءة القرآن . وذهب أحمد بن حنبل وجماعة من العلماء وجماعة من أصحاب الشافعى إلى أنه يصل ، كذا ذكره النووى فى الأذكار، وفى شرح المنهاج : يصل إلى الميت عندنا ثواب القراءة على المشهور والمختار الوصول إذا سأل الله إيصال ثواب قراءته ، وينبغى الجزم به لأنه دعاء ، فإذا جاز الدعاء للميت بما ليس للداعى فلأن يجوز بما هو له أولى ، ويبقى الأمر فيه موقوفا على استجابة الدعاء . وهذا المعنى لا يختص بالقراءة ، بل يجرى فى سائر الأعمال. والظاهر أن الدعاء

١- نيل الأوطار ج ٤ ص ١٤١.

متفق عليه أن ينفع الميت والحى ، والقريب والبعيد ، بوصية وغيرها وعلى ذلك أحاديث كثيرة ، بل كان أفضل الدعاء أن يدعو لأخيه بظهر الغيب . ا هـ .

هذا ، وقد قال الأبى : والقراءة للميت ، وإن حصل الخلاف فيها فلا ينبغى إهمالها فلعل الحق الوصول ، فإن هذه الأمور مغيبة عنا ، وليس الخلاف فى حكم شرعي إنما هو فى أمر هل يقع كذلك أم لا .

وأنا مع الأبى فى هذا الكلام ، فإن القراءة للميت إن لم تنفع الميت فهي للقارئ، فالمستفيد منها واحد منهما ، ولا ضرر منها على أحد . مع تغليب الرجاء فى رحمة الله وفضله أن يفيد بها الميت كالشفاعة والدعاء وغيرهما .

وهذا الخلاف محله إذا قرئ القرآن بغير أجر ، أما إن قرئ بأجر فالجمهور على عدم انتفاع الميت به . لأن القارئ أخذ ثوابه الدنيوى عليها فلم يبق لديه ما يهديه أو يهدى مثل ثوابه إلى الميت ، ولم تكن قراءته لوجه الله حتى يدعوه بصالح عمله أن ينفع بها الميت ، بل كانت القراءة للدنيا ، ويتأكد ذلك إذا كانت هناك مساومة أو اتفاق سابق على الأجر أومعلوم متعارف عليه ، أما الهدية بعد القراءة إذا لم تكن نفس القارئ متعلقة بها فقد يرجى من القراءة النفع للميت . والأعمال بالنيات ، وأحذر قارئ القرآن من هذا الحديث الذى رواه أحمد والطبرانى والبيهقى عن عبدالرحمن ابن شبل «اقرءوا القرآن واعملوا به ، ولا تجفوا عنه ، ولا تغلوا فيه ، ولا تأكلوا به ، ولاتستكثروا به» (1).

وقد قال الشيخ حسنين محمد مخلوف فى أخذ الأجرة على قراءة القرآن : مذهب الحنفية لا يجوز أخذها على فعل القرب والطاعات كالصلاة والصوم وتعليم القرآن وقراءته ولكن المتأخرين من فقهاء الحنفية استثنوا من ذلك أمورا ، منها تعليم القرآن فقالوا : بجواز أخذ الأجر عليه استحساناً ، خشية ضياعه ، ولكن بقى حكم أخذ الأجرة على قراءة القرآن على ما تقرر فى أصل المذهب من عدم الجواز ،

١- قال الهيثمى : رجال أحمد ثقات ، وقال ابن حجر فى الفتح : سنده قوى . وفسر الأكل به بأخذ الأجرة عليه ، كما فسر بالاستجداء به والتسول .

ومذهب الحنابلة لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ولا على قرءاته ، استنادا إلى حديث «اقرءوا القرآن . . . » الذى تقدم . مذهب المالكية لا يجوز أخذ الأجرة على ما لا يقبل النيابة من المطلوب شرعاً كالصلاة والصيام ، ولكن يجوز أخذ الأجرة على ما يقبل النيابة ، ومنها تعليم القرآن وقراءته ، ومذهب الشافعية يجوز أخذ الأجرة على قراءة القر آن وتعليمه ، سواء أكانت القراءة عند القبر أو بعيدة عنه ، مع الدعاء بوصول الثواب إلى الميت . اهـ .



س : لماذا قدم الله السجود على الركوع فى قوله تعالى ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٣] ؟

ج : قال القرطبى : قدم السجود هنا على الركوع لأن الواو لا توجب الترتيب فإذا قلت : قام زيد وعمرو جاز أن يكون عمرو قام قبل زيد ، فعلى هذا يكون المعنى واركعى واسجدى . وقيل كان شرعهم السجود قبل الركوع . انتهى .

هذا بعض ما قيل و فيه كفاية .



س : أرجو تفسير قوله تعالى : ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾

[مريم : ١٨] ؟

ج : قالت مريم ذلك لجبريل عليه السلام ، وبيان المعنى مرتبط بالمراد من كلمة «إن» فإن كانت للشرط فالمعنى : إذا كنت تقيا تخشى الله وتجله فأنا ألتجئ إلى الله وأستعيذ به منك حتى لا تمسنى بسوء ، وبالتالى من لم يكن متقيا لله لا يأبه لاستعاذتها .

وإن كانت «إن » للنفى كان المعنى : أنت شخص غير تقى ، حيث جئتنى وأنا وحيدة ليس معى أحد ، وليس لى إلا الله سبحانه أستعيذ به وألتجئ إليه .

واختيارها لاسم الرحمن بدلاً من اسم آخر لأن المقام يقتضى الرحمة ، فهى ضعيفة بشخصها وبوحدتها أمام رجل قوى بشخصه ولا تعرفه .



س : يقال إن الشمس عند الغروب تسجد تحت العرش ، فهل هذا صحيح ؟

ج : قال تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾ [الكهف : ٨٦] المعروف أن الأرض كروية ، ولها دورتان ، دورة حول نفسها ينتج عنها الليل والنهار ودورة حول الشمس ينتج عنها الفصول الأربعة ، والشمس هى أيضا لها دوران حول نفسها ، على ما يفيده قوله تعالى ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ [يس :٣٨] فى أحد التفاسير ، وكانت هذه الحقيقة مجهولة إلى وقت قريب ، سبق بها القرآن المنزل من عند الله .

ومشرق الشمس ومغربها هو فى حقيقته ظهور جزء من الأرض فى مقابلها واختفاؤه عنها ، فحركة الشروق والغروب حركة ظاهرية فى رأى العين للشمس ، وهي فى الحقيقة لنا ، وعندما تغيب الشمس عنا أو نغيب عنها يراها الناظر إليها وهو على شاطئ البحر أو المحيط أنها تغوص فى الماء كأن عينا ابتلعتها أو سقطت هي فيها .

ووصف العين فى الآية أنها حمئة ، قال بعض المفسرين : إنها ذات حمأة وطين ، وفي قراءة . . حامية أى حارة ساخنة ، وذلك كله تخيل وتصور للناظر يعطيه لون الماء في زرقته التي تميل من بعد إلى السواد ، أو توهج الشمس عن طريق تفرق أشعتها عند الغروب كأن ناراً توقد في هذه الماء ، فالتصوير كله بحسب ما يراه الناظر بصرف النظر عن الحقيقة .

ذلك ما يعطيه لنا العلم الحديث ، الذي يقول إن نصف الكرة الأرضية يكون نهاراً حين يقابل الشمس ، والنصف المقابل يكون ليلاً حين تغيب عنه .

لكن ورد في البخاري حديث عن أبي ذر يقول فيه : كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس ، فقال «يا أبا ذر تدري أين تغرب الشمس » ؟ قلت :

الله ورسوله أعلم . قال «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش» ، فذلك قوله تعالى ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ . وأخرجه النسائى بلفظ فإنها تذهب حتى تنتهي تحت العرش عند ربها ثم تستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تستأذن فلا يؤذن لها، وتطلب ، فإذا كان ذلك قيل لها : اطلعي من مكانك ، فذلك قول الله ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ .

فكيف يستقيم الإخبار عن سجودها تحت العرش عند مغيبها ، ومع قول القرآن إنها تغرب في عين حمئة ؟ ولم يفت شراح الحديث القدامى هذا السؤال ، فقد قال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري «فتح الباري» لا تخالف بين الحديث والقرآن ، فإن المراد بالآية نهاية مدرك البصر إليها حال الغروب ، وسجودها تحت العرش إنما هو بعد الغروب .

وقال الخطابي : يحتمل أن يكون المراد باستقرارها تحت العرش أنها تستقر استقراراً لا نحيط به نحن ، وليس في سجودها كل ليلة تحت العرش ما يعوقها عن دورانها في سيرها ، وهناك أقوال أخرى لا يوجد لها سند صحيح .

وقال بعض العلماء : إن المراد بسجودها تحت العرش خضوعها لله وانقيادها للنظام الذي وضعه لها .

وهذا أمر يجري على كل كائن في الوجود مهما تصور الإنسان عظمته وفتن بقوته وأثره ، فهو تحت حكم الله يتصرف فيه كيف يشاء ، وكل حركة في الكون فهي بأمره سبحانه .

وعند نهاية العالم سيغير الله نظام الكون المشاهد لنا ، فتشرق الشمس من حيث غربت . والله على كل شيء قدير .

وبهذا لا يوجد تعارض بين مقررات العلم وبين القرآن والحديث ، فالكل من الله سبحانه والله حكيم خبير .



س : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ﴾ [يس : ٣٨] مما يدل على أن الشمس تتحرك وليست ثابتة ويقول بعض العلماء إن الشمس ثابتة والأرض هي التي تدور حول نفسها مرة فى اليوم ؛ وحول الشمس مرة كل سنة فما مدى صحة كلامهم ؟

ج : الظاهر من كلمة (تجرى) التحرك والانتقال من مكان إلى آخر . كما أن الظاهر من كلمة (تدور) اللف حول شيء معين ، وهذا الشيء المعين قد يكون هو المحور مع عدم الانتقال منه ، وقد يكون فيه انتقال من مكان إلى آخر مع الالتزام بمركز يحدث حوله هذا الانتقال .

وكلمة (الفلك) معناها المسار أو المدار الذى يتحرك فيه الشيء ، وقد يكون التحرك فى خط مستقيم أو خط دائرى يكون محيطا له مركز ، قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٣] .

والظاهر أن كلمة (كل) تعنى مجموع الليل والنهار والشمس والقمر بدليل الجمع فى قوله (يسبحون) فكيف نتصور الفلك الذى يسبح فيه الليل والنهار؟

إن معرفتنا لا تزال محدودة ، وكلما اكتشف علماء اليوم جديداً عرفوا أنهم كانوا يجهلون كثيرا ، وألفاظ اللغة العربية فيها من المرونة والصلاحية ما لا يستطيع الإنسان معه أن يجزم بمعنى ينطبق على شيء نجهل من حقيقته كثيرًا .

إن «المستقر» الذي تجري له الشمس في قوله تعالى : ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ﴾ [يس : ٣٨] .

هل المراد به المحور الذي تدور حوله الشمس كما تدور الأرض حول محورها ، أو المراد به المدار والمسار الذي تلتزمه وهي تتحرك من مكان إلى آخر ، وإلى أين هذا التحرك ، هل هو محيط أو في خط مستقيم .

كل ذلك قال به المفسرون والعلماء . دون جزم بأحد هذه المعاني .

وقد يقال : إن المستقر هو نهاية الحركة والجري ، فالشمس سيأتي عليها وقت تقف فيه عن الجري وهو يوم القيامة ، فاللام في (لمستقر) بمعنى «إلى» التي تفيد الغاية . . قال تعالى ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] .

وهذا يدل على أن لكل من الشمس والقمر سَبحاً وجرياناً في مدار وسار وانتقال من مكان إلى مكان : ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ﴾ [يس:٣٨]

فالظاهر أنها تلتزم مسارها وهو الفلك بحيث لا تتجاوزه إلى مسار آخر حتى لاتصطدم بالكوكب أو النجم الذى يجرى فى هذا المسار ، وحتى لا تدرك القمر إن جرت فى مداره ، فالكل يتحرك بنظام ثابت دقيق .

وقد يراد أن الشمس على الرغم من كبر حجمها والجد في جريانها بحيث لاتدرك القمر سيأتى عليها وقت تكف فيه عن إدراكة بأمر الله الذى يقع كل شيء تحت سلطانه وقهره .

هذا تفسير بالمعقول ، أما التفسير بالمنقول فقد جاء فى صحيح مسلم عن أبى ذر قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل : ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ﴾ [يس: ٣٨].

فقال : «مستقرها تحت العرش» وفى رواية لمسلم عن أبى ذر أيضاً أن النبى ﷺ قال : «أتدرون أين تذهب هذه الشمس» ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «إن هذه الشمس تجرى حتى تنتهى إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة ، فلا تزال كذلك حتى يقال لها : ارتفعى ، ارجعى من حيث جئت ، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجرى حتى تنتهى إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة ، ولاتزال كذلك حتى يقال لها :ارتفعى ، ارجعى من حيث جئت ، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش ، فيقال لها : ارتفعي أصبحي طالعة من مغربك فتصبح طالعة من مغربها » فقال رسول الله ﷺ «أتدرون متى ذلكم » ؟

«ذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً» .

وجاءت هذه الرواية في صحيح البخاري عن أبي ذر أيضاً بما يفيد أن مستقر الشمس كل يوم هو تحت العرش حيث تسجد وتستأذن ربها بالجري فيأذن لها حتى يكون آخر إذن لها بالشروق من المغرب .

إن الإنسان لا يستطيع بسهولة أن يفهم معنى الاستقرار تحت العرش ، فالشمس دائماً في حركة إن غابت عن بعض أجزاء الأرض فهي ظاهرة للبعض الآخر ، ولم يشاهد أحد من الدنيا أنها توقفت عن الحركة . أو لا يجوز أن نفسر استقرارها تحت العرش ، بأنها في كل أوقاتها خاضعة لأمر الله ، لا تتحرك إلا بإذنه ، وتستمر حركتها إلى أن تستقر نهائيًّا في آخر الدنيا ؟ .



س : ما تفسير قوله تعالى فى سورة الرحمن ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾؟

ج : يقول الله تعالى ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن :٢٩] هذه الآية فيها جملتان ، الأولى «يسأله من فى السموات والأرض» ومعناها أن كل المخلوقات محتاجة إليه ، تطلب منه بلسان حالها أو مقالها كل ما تريده من رزق ورحمة ومغفرة وما إلى ذلك ، والجملة الثانية هى ، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ والكلام فى تفسيرها كثير ، ولكن يجب أن نعلم أن الله سبحانه علم كل شيء قبل أن يخلقه ، وكتب فى اللوح المحفوظ ما يكون عليه كل مخلوق وما يجرى على العالم كله ، فعلمه سبحانه لا يتغير فى أى يوم من الأيام ، أى مطلقا ، سواء أردنا بالأيام أيام الدنيا ، أو أردنا أنها يومان ، يوم للدنيا ويوم للآخرة وهو بقدرته سبحانه ينفذ مضمون علمه، وذلك يقتضى إشرافه الدائم على شئون خلقه ، لا يشغله شأن عن شأن ، فهو ليس مثلنا إذا شغلنا بشيء شغلنا عن الآخر في اللحظة الواحدة ، على حد قوله تعالى ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب : ٤] وهو بوجوده الدائم وألوهيته المستمرة حاضر لا يغيب ، مسيطرعلى الكون كله ، ومتصرف فيه بقدرته

حسب علمه وإرادته ، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ،ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويشفي سقيماً ويسقم سليماً ، ويبتلي معافى ويعافي مبتلى ويعز ذليلاً ويذل عزيزاً ، ويفقر غنيًّا ويغني فقيراً إلى غير ذلك من سائر التصرفات ، وهي كلها - كما عبر بعض الكاتبين - أمور يبديها ولا يبتديها ، أي يظهرها للناس وهي معلومة له من قبل ، فلا يبدأ عملها عند وجودها .

والإله الذي بهذا الوصف لا يمكن حصر أفعاله ولا أوامره التي ينفذ بها مقاديره ، قال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : ٢٧] وقال ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف:١٠٩] وهو وحده القادر على السيطرة على العالم كله ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ [فاطر : ٤١] .

وبعد ، فإن قوله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ يقوي فينا الإيمان بالحاجة الدائمة إليه ، فلا نرجو أحداً سواه ، لأنه حاضر لا يغيب ، يجيب المضطر إذا دعاه ، ويستجيب لمن ناداه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر : ١٥] ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : ٨٣].



س . يقول الله تعالى لإبليس حين امتنع عن السجود لآدم ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ المعنى الظاهر من هذا التعبير أن إبليس سجد ، والله يسأله عن السبب فى عدم السجود . نريد أن نعرف المعنى؟ .

ج : قال المفسرون إن لفظ «لا» زائد ، والمعنى ما منعك أن تسجد ، كما جاء فى موضع آخر ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص : ٧٥] واستشهد القرطبى على زيادة «لا» بقول الشاعر :

أبَى جوده لا البخل فاستعجلت به

نَعم من فتـــى لا يمنع الجود نائله

والمعنى أبى جوده البخل . فزاد «لا» . وقيل : ليست زائدة ، فإن المنع فيه طرف من القول والدعاء ، فكأنه قال : من قال لك ألا تسجد؟ أو من دعاك إلى ألا تسجد؟ كما تقول : قد قلت لك ألا تفعل كذا . وقيل : فى الكلام حذف ، والتقدير: ما منعك من الطاعة وأحوجك إلى ألا تسجد . انتهى .

هكذا خرجوا اللفظ عن المعنى الصحيح ، ولو حذفت «لا» لكان المعنى واضحا كما حذفت فى سورة «ص» لكن تواتر القرآن بالتلقى عن رسول الله ﷺ وفيه «لا» فى هذه الآية . ولو كان القرآن عرضة لحذف شىء من نص ليلتئم ويتفق مع نص آخر لحذفوا هذا الحرف الزائد ، ولكن أبقوا عليه كما أُنزل وحاولوا- على قواعد اللغة العربية التى نزل بها - أن يوفقوا بينه وبين النصوص الأخرى ، وهو دليل على حرص الصحابة والتابعين ومن بعدهم على نقل القرآن الكريم كما تلقوه عن الرسول ﷺ .



س : يقول الله تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة :٤٤] وفي الآية التي بعدها ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ وفي الآية رقم ٤٧ ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ فهل تصدق هذه الآيات على الذين يحكمون بقوانين وضعية؟

ج : هذا الموضوع مستوفى فى الجزء الأول من كتاب «بيان للناس من الأزهر الشريف» والحكم بغير ما أنزل الله ليس قاصرا على الحكام والقضاة ، وإنما هو شامل لكل إنسان يعطي حكماً لأي شيء غير حكم الله ، سواء في فتوى أو قضاء أو غير ذلك، كالذي يشرب الخمر ويقول إنها حلال ، ويتعامل بالربا ويقول إنه حلال وهكذا .

وإذا كان الحكم على من لم يحكم بما أنزل الله بأنه كافر أو ظالم أو فاسق ، فهو حكم صادق ، لأن الفسق خروج عن المشروع ، وكذلك الظلم تجاوز للحد المشروع ، والكفر تجاوز الإيمان إلى غير الإيمان .

وإن رأى بعض المفسرين أن الحكم بالكفر يكون على من أنكر حكم الله أو استهزأ به ، وهو مناسب في الآية الأولى لرفض اليهود حكم الله فى التوراة ، وأن الحكم بالظلم يكون على من تجاوز القصاص فى الأمور التى ذكرتها الآية ﴿ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ ﴾ إلى آخره ، والظلم واضح في ذلك . وأن الحكم بالفسق على أهل الإنجيل يشمل الكفر عند إنكار حكم الله ويشمل الظلم عند تجاوز الحد .

ومهما يكن من شيء فإن كلام المفسرين في هذه الآيات كثير ، ويلتقى كله على أن إنكار حكم الله أو الاستهزاء به كفر ، وأن عدم الإنكار وعدم الاستهزاء مع تجاوز الحد فى التطبيق أو التقصير ليس كفرا وإنما يكون ظلما ويكون فسقا .

وعليه فإنه لا يصح أن يتعجل بالحكم بالكفر على من لم يحكم بشريعة الله فردا أو جماعة أو دولة إلا بعد التأكد من أن ترك حكم الله كان عن إنكار له أو استهزاء به ، وذلك أمر باطنى لا يمدح به غالبا ، فإن صرح به دون تأويل جاز الحكم بالكفر، وإن لم يعلم ذلك على وجه اليقين فالواجب هو عدم الحكم بالكفر ، والحديث يقول: « من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه» [1] .

وإليك نماذج من أقوال المفسرين القدامى والمحدثين ، وتتفق كلها مع ما تقدم ، ومع ما هو مسطر فى «بيان للناس» .

ذكر الفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ خمسة أجوبة ارتضى منها ما قاله عكرمة من أن الحكم بالكفر يكون عند الجحد والإنكار ، أما المؤمن بحكم الله لكنه خالفه فهو عاص ، وقال : إن الكفر يكون بالتقصير فى حق الله ، أما الظلم فهو تقصير فى حق النفس .

وذكر البيضاوى المتوفى سنة ٦٨٥هـ ما نصه : فكفرهم لإنكاره ، وظلمهم بالحكم على خلافه ، وفسقهم بالخروج عنه .

وقال الزمخشرى المتوفى سنة ٥٢٨ هـ : من جحد حكم الله كفر ، ومن لم يحكم به وهو مقر- يعنى به - فهو ظالم فاسق .

---

١ - رواه مسلم بعبارات متقاربة .

وقال الآلوسى المتوفى سنة ١٢١٠هـ : ولعل وصفهم بالأوصاف الثلاثة باعتبارات مختلفة ، فلإنكارهم ذلك وُصفوا بالكافرين ، ولوضعهم الحكم فى غير موضعه وُصفوا بالظالمين ، ولخروجهم عن الحق وُصفوا بالفاسقين .



س : أرجو تفسير قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ .

وهل من الحديث ما يقال : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ، وهل هناك تناقض بين الآية والحديث؟

ج : هذه الآية تنص على أن الإنسان لا يتحمل وزر غيره إذا كان هو مهتديا لكن الاهتداء لا يكون إلا بالقيام بالواجبات ومنها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فالسكوت على المنكر ممنوع ولابد من تغييره بإحدى الوسائل الممكنة ، ففى الحديث الشريف «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان» فمن لم ينكر المنكر لا يكون مهتدياً ، والإنكار يتفق مع الحديث «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» .

فلا يوجد تناقض بين الآية والحديث ، ويوضح هذا ما رواه أبو داود والترمذى وغيرهما عن قيس قال : خطبنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال : إنكم تقرءون هذه الآية وتتأولونها على غير تأويلها :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾[المائدة:١٠٥] .

وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده»وهو حديث حسن صحيح .

وروى أبو داود والترمذى وغيرهما عن أبى أمية الشعبانى قال : أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت له : كيف تصنع بهذه الآية ؟ فقال : أية آية ؟ قلت : قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت عنها رسول ﷺ فقال : «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا

عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة ، فإن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم» .

والكلام كثير فى هذا الموضوع .

وخلاصته : أنه لابد من الاهتمام بأمر المسلمين ، ومنه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فمن فعل ذلك فقد اهتدى ، وبالتالى لا يقع عليه وزر من ضلوا الطريق .



س : ما هى الباقيات الصالحات الواردة فى قوله تعالى ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف : ٤٦]؟

ج : الباقيات الصالحات هى الأعمال الصالحة التى يكون لها ثواب فى الآخرة ، فهى كالشجرة المثمرة التى تبقى ثمرتها بعد انتهاء هذه الدنيا .

جاء فى تفسير القرطبى أن العلماء اختلفوا فى المراد بهذه الأعمال الصالحة على أقوال كثيرة ، فقيل هى الصلوات الخمس ، وقيل : كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة ، وهو الصحيح . وقال الجمهور : هى سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، كما أخرجه مالك فى الموطأ ، ووردت فى هذا الذكر آثار كثيرة تؤكد أنها المراد من الباقيات الصالحات منها حديث «استكثروا من الباقيات الصالحات» قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال «التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوه إلا بالله» [1] . وحديث «خذوا جُنَّتكم» قالوا : يا رسول الله : عَدوٌّ حضر؟ قال : «لا ، ولكن جنتكم من النار ، قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، فإنهن يأتين يوم القيامة مجنبات

١ - رواه أحمد وأبو يعلى والنسائى واللفظ له ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وصححه .

ومعقبات ، وهن ، الباقيات الصالحات»[1] ، والجنة ما يستر ويقى ، ومعنى المجنبات : المتقدمات أمامكم ، وفى رواية منجيات ، وفى رواية للطبرانى بإسناد جيد الجمع بين اللفظين «مجنبات ومنجيات» ومعنى معقبات تأتى من ورائكم . والمراد أن هذه الكلمات تكون حارسة يوم القيامة للإنسان من خلفه ومن أمامه .

وجاءت أحاديث كثيرة فى فضل هذا الذكر أو بعضه يرجع إليه فى «الترغيب والترهيب» للحافظ المنذري[2] .



س : ما المراد بقوله تعالى ﴿ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النور : ٢٦]؟

ج : هذه الآية مختلف فى تفسيرها ، فقيل : المعنى أن الكلمات الخبيثة تكون للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال يستحقون الخبيثات من الكلام .

وكذلك يقال فى الطيبين والطيبات .

وقيل فى معناها أن النساء الخبيثات لائقات للخبيثين من الرجال ، أى يملن إلى الزواج منهم أو مصاحبتهم ، وكذلك الخبيثون من الرجال لائقون للخبيثات من النساء أى يميلون إلى الزواج منهن أو مصاحبتهن ، وكذلك يقال فى الطيبين والطيبات.

على حد المثل القائل : إن الطيور على أشكالها تقع .

وهذه الآية جاءت إثر الحديث عن اتهام بعض الناس للسيدة عائشة رضى الله عنها بالإفك ، فهى طيبة لا يليق وصفها إلا بالطيب من الأوصاف ، وكذلك لا يبحث عنها ويتزوجها إلا الطيبون من الرجال .

فالآية إما حديث عن طبائع الناس ، وإما تشريع فى صيانة الألسنة عن الاتهامات الكاذبة ، والبحث فى الزواج عن الدين والخلق .



١- رواه النسائى والحاكم والبيهقى .   ٢- ج ٢ ص ١٦٥ وما بعدها .

س: أرجو تفسير قوله تعالى ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر:١١] ؟

ج : قال المفسرون : الموتتان هما :

الأولى : ما قبل خلقهم وتكوينهم فى بطون أمهاتهم .

والثانية : خروج الروح بعد الحياة .

أما الحياتان :

فالأولى : بنفخ الروح فى الجنين .

والثانية : بالبعث يوم القيامة ، وقيل غير ذلك . وكله اجتهاد .

وفي كتب التفسير متسع لمن أراد أن يستزيد .



س : نرجو تفسير قوله تعالى ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء:٥٨]؟ وهل المقصود فى الآية قرية معينة؟

ج : ليس المراد فى هذه الآية قرية بعينها ، فإنها - كما يقول العلماء - نكرة فى سياق النفى فتعمّ - أى لا توجد قرية إلا والله سيهلكها قبل يوم القيامة ، جاء فى تفسير القرطبى عن مقاتل : أن هلاك القرية الصالحة يكون بالموت ، والقرية الطالحة يكون بالعذاب .

وقيل : المراد بالقرية هى الظالمة ، ويقوى ذلك قوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص : ٥٩] أى فليتق المشركون ربهم فإنه ما من قرية كافرة إلا سيحل بها العذاب ، والعذاب إما إبادة كاملة وإما مصائب ومتاعب شديدة ، كان ذلك مسطورا أى مكتوبا فى اللوح المحفوظ ، قال تعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩)﴾ [القصص : ٥٨ ، ٥٩] .



س . قال تعالى ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ ماهي هذه الليالي وما هو الفضل الذى امتازت به حتى يقسم الله بها؟

ج : قال الله تعالى فى سورة الفجر ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ الليالي العشر اختلف فى تعيينها ، فقيل هى العشر الأواخر من رمضان كما فى رواية عن ابن عباس ، وقيل العشر الأول من المحرم كما فى رواية أخرى عنه ، وقيل هى العشر الأول من شهر ذى الحجة ، وهو القول الراجح ، وقد ذكر القرطبى حديثا عن جابر أن النبى ﷺ قال ذلك .

وقد ورد فى فضلها حديث رواه البخارى يقول ﷺ «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام» يعنى العشر الأوائل من ذى الحجة قالوا : يا رسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال «ولا الجهاد فى سبيل الله ، إلا رجل خرج بماله ونفسه ثم لم يرجع من ذلك بشىء» وحديث رواه الترمذى ، وقال عنه : غريب ، وفيه كلام : «صيام يوم يعدل صيام سنة ، والعمل يضاعف بسبعمائة ضعف» وحديث قال أنس غير مرفوع إلى النبى ﷺ كان يقال فى أيام العشر بكل يوم ألف يوم ، ويوم عرفة بعشرة آلاف يوم . وكلام قاله الأوزاعى - كما رواه البيهقى - : بلغنى أن العمل فى اليوم كقدر غزوة فى سبيل الله ، يصام نهارها ويحرس ليلها ، إلا أن يختص امرؤ بشهادة .

وإذا كان العمل فيها بهذه المنزلة العالية ، فما هو نوع العمل ؟ ليس هناك نص يخصص عملا معينا لنيل هذه المنزلة ، فكل الطاعات تدخل فى هذا المعنى ، والصيام - وإن كان حديث السيدة عائشة فى صحيح مسلم يقول إنها لم تر النبى ﷺ صام هذه العشر - فعدم رؤيتها لا ينافى صيامه ، والإجماع على سنية الصيام فيها ، وورد فى فضل الذكر بصيغة «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» حديث رواه الطبرانى بإسناد جيد ، بل جاء فيمن يريد أن يضحى أنه يسن له عدم قص الشعر والظفر ، تشبها إلى حد ما بالمحرمين بالنسك ، وأن كل جزء من بدنه يعتق بالأضحية .

ثم يقال : لماذا كان لهذه الأيام هذا الفضل العظيم ؟ قال العلماء : لأنها متصلة بالحج ، وفى نهايتها يوم عرفة ، وفضل هذا اليوم عظيم ، وكذلك فضل يوم العيد فهو أعظم حرمة عند الله ، لأن فيه الحج الأكبر ، وكذلك من دواعى التفضيل العمل على إشاعة الأمن فى البلاد عامة ، لتهيئة الجو للمسافرين والحجاج ، وكذلك لمن خلفوهم وراءهم ، وذلك بالانشغال بالعبادة والذكر ، وكذلك هذه الأيام فرصة لأداء كل العبادات من صلاة وصيام وصدقة وحج .



س : نريد تفسير قوله تعالى ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة : ٩٧] .

ج : يقول القرطبي فى تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : أن العرب جيل من الناس، والنسبة إليهم عربى ، وهم أهل الأمصار ، والأعراب منهم سكان البادية خاصة ، وجاء فى الشعر الفصيح «أعاريب» والنسبة إلى الأعراب أعرابى ، لأنه لاواحد له ، وليس الأعراب جمعاً للعرب ، كما كان الأنباط جمعا لنبط ، وإنما العرب اسم جنس ، والعرب العاربة هم الخُلَّص منهم ، والمستعربة هم الذين ليسوا بخُلَّص ، وكذلك المستعربة . والأعرابى إذا قيل له : يا عربى فرح ، والعربى إذا قيل له يا أعرابى غضب . والمهاجرون والأنصار عرب لا أعراب . وسميت العرب عربا لأن ولد إسماعيل نشأ من عربة وهى من تهامة فنسبوا إليها ، وأقامت قريش بعربة ، وهى مكة، وانتشر سائر العرب فى جزيرتها .

وقد وصفت الآية الأعراب بأن كفرهم ونفاقهم أشد من كفر العرب ونفاقهم ، لأنهم أبعد عن معرفة السنن ، ولأنهم أقسى قلبا وأجفى قولاً وأغلظ طبعا .

ورتب القرطبى على ذلك أحكاما منها :أن شهادة أهل البادية على أهل الحضر تسقط ولا تقبل ، وأجازها أبو حنيفة ، كما أجازها الشافعى إذا كان الأعرابى عدلا مرضيا ، وهو الصحيح ، ومنها أن إمامة البدوى لأهل الحضر ممنوعة ، يعنى

لايصح أن يكون البدوى إماما فى الصلاة للمأمومين من أهل الحضر ، لجهله بالسنة ، وقال مالك : لا يؤم وإن كان أقرأهم ، وقال سفيان الثوري والشافعى وإسحاق وأصحاب الرأى - الحنفية - الصلاة خلف الأعرابى جائزة ، واختاره ابن المنذر إذا أقام حدود الصلاة.

يعرف من هذا أن البيئة لها أثر على الإنسان فى عقله وفى سلوكه ، وأن الجامدين على بيئة واحدة يتأخر تطورهم وتغير أحوالهم ، وأن الاختلاط بالبيئات الأخرى يؤثر على الفكر والسلوك ويساعد على التطور ، وكلما كان التطور نحو الأفضل وهو هدى الله لعباده كان ممدوحاً .



س : ما هو الطاغوت الذى تكرر ذكره فى آيات القرآن الكريم ؟

ج : و رد لفظ الطاغوت فى القرآن ثمانى مرات : فى سورة البقرة : الآيتان : ٢٥٦، ٢٥٧ ، وفى سورة النساء : الآيات : ٥١ ، ٦٠ ، ٧٦ ، وفى سورة المائدة : الآية : ٦٠، وفى سورة النحل : الآية : ٣٦ ، وفى سورة الزمر : الآية : ١٧ .

قال الراغب الأصفهانى فى مفردات القرآن : الطاغوت عبارة عن كل متعد وكل معبود من دون الله ، ويستعمل فى الواحد والجمع ، ولما تقدم سمى الساحر والكاهن والمارد والجن والصارف عن طريق الخير طاغوتا . انتهى .

ولو تتبعنا تفسير الآيات المشار إليها فى مواضعها ما رأيناها تخرج عن ذلك ، جاء فى تفسير الجلالين فى الآية الأولى ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ والثانية ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ أن الطاغوت هو الأصنام أو الشيطان ، وفى الآية الثالثة ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ أن الجبت والطاغوت صنمان لقريش . وفى الآية الرابعة ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ أنه كثير الطغيان وهو كعب ابن الأشرف . وفى الخامسة ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أنه الشيطان ، وفى السادسة ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أنه الشيطان ، وفى السابعة ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أنه الأوثان ، وفى الثامنة ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أنه الأوثان أيضاً .

ويظهر معنى الطاغوت فيما يعبد من دون الله من أصنام ومخلوقات أخرى إذا ذكر معه الإيمان وعبادة الله والكفر بالطاغوت . وهو يطلق على الباطل مطلقا ممن يعقل وما لا يعقل ، فإذا عبد من دون الله أو مع الله فذلك كفر أو شرك ، وإذا فتن به دون عبادة له كان عصيانا وفسوقا ، كالذى يفتنه الشيطان أو السلطان أو المال أو الذهب أو المرأة أو غير ذلك ، فتنة تلهيه عن الواجب وتغريه بالسوء ، وقد يطلق عليه أنه يعبده أى يحبه حبا شديدا ويطيعه طاعة العبد لسيده ، ومنه حديث «تعس عبد الدينار والدرهم» [1] .



س : يقول بعض الناس إن «طه ويس» ليسا من أسماء النبى ﷺ وورودهما فى القرآن جاء على أنهما من الحروف المقطعة فى أوائل السور ، مثل : حم ، طس ، فهل هذا صحيح؟

ج : **أولاً** : طه : جاء فى تفسير القرطبى [2] أن هناك خلافا فى معناها ، فقال أبو بكر : هو من الأسرار ، وقال ابن عباس : معناه يا رجل ، وهى لغة معروفة فى «عكل» وقال عبد الله بن عمر : معناها بلغة «عك» يا حبيبى ، وقيل : هو اسم من أسماء الله تعالى وقسم أقسم به وهو مروى أيضاً عن ابن عباس وقيل : هو اسم للنبى ﷺ سماه الله به كما سماه محمدا ، وروى عن النبى ﷺ أنه قال : «لي عند ربى عشرة أسماء» فذكر أن فيها طه ويس ، وقيل إنها حروف مقطعة كالتى فى أوائل بعض السور وقيل : إن معناها : طأ الأرض ، وذلك أن النبى ﷺ كان يتحمل من مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تتورمان ويحتاج إلى الترويح ، فقيل له : لا تتعب حتى تحتاج إلى الترويح ، ويناسب ذلك قوله تعالى بعد ذلك مباشرة ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ أى ما أنزلناه لترهق نفسك بالقيام به فى الصلاة .

---

١ - رواه البخارى ، يراجع كتاب بيان للناس من الأزهر الشريف، ج ١ ص ١٧٦ .
٢ - ج ١١ ص ١٦٥.

هذا مختصر مما جاء فى تفسير القرطبى من كلام طويل فيه من أراد الاستزادة فليرجع إليه .

ثانيا : يس . جاء أيضاً فى تفسير القرطبى [1] أن هناك خلافا فى معناها فقيل : معناها يا إنسان أو يا رجل ، وقيل : اسم من أسماء النبى ﷺ أو من أسماء الله تعالى ، وكما طال الكلام فى طه طال فى يس فيرجع إلى القرطبى ، وذكر الزرقانى فى شرح المواهب [2] أن الحديث ، الذى ذكره ابن مردويه فى أن طه من أسماء النبى ﷺ ضعيف واعتمد أنه من الحروف المقطعة [3].



س : ما معنى قوله تعالى ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩﴾ [التكوير : ١٧-١٩] .

ج : هذا قسم من الله سبحانه بالليل والصبح ، كما أقسم بأشياء كثيرة ، على أن القرآن الكريم موحى به من الله سبحانه بوساطة جبريل الأمين ، إلى النبى ﷺ .

ومعنى عسعس الليل أقبل من أوله وأظلم ، أو أدبر من آخره وولى ، فهو من الأضداد التى تستعمل فى الإقبال والإدبار ، ومعنى تنفس الصبح امتد حتى صار نهارا واضحا فالله يقسم بالليل فى ظلامه وبالصبح فى نوره على أن القرآن حق من عنده سبحانه ، فكأنه يقول : كما أن هناك فرقا واضحا بين الظلام والنور هناك فرق واضح بين كلام الله وكلام غيره ، فكلامه هو الحق ، وكلام غيره هو الباطل الذى زعموه ، وكلامه نور يهدى وكلام غيره ظلام يضل .

أو كأنه يقول : إن الذى قدر على أن يمحو النهار بالليل ، ويمحو الليل بالنهار ، قدر على أن يجعل من محمد الأمى العادى رسولا يتلقى الوحى ويبلغه ، ويصير به

١- ج ١٥ ص ٣ .
٢- ج٣ ص ١٣٧ .
٣- ج٣ ص١٧٥ .

معلما للإنسانية ما لم يكن تعلمّه من قبل ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] .



س : نريد توضيحاً لقوله تعالى ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء :٧٢] ؟

ج : من أحسن ما قيل فى تفسير هذه الآية ما جاء عن عكرمة أنه قال : جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس رضى الله عنهما فسألوه عن هذه الآية فقال : اقرءوا ما قبلها من قوله تعالى ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٦ - ٧٠] قال ابن عباس من كان أعمى عن هذه النعم والآيات التى رآها فهو عن الآخرة التى لم يعاينها أعمى وأضل سبيلا .

إن الذين لا يشكرون هذه النعم المحسوسة التى لا تحتاج إلى نظر دقيق أو عقل واسع قد عميت بصائرهم عن الحق ، وغفلت عنه قلوبهم كالذين فقدوا أبصارهم فلا يرون شيئا من المحسوسات ، بل هم أضل من الأنعام التى تسيرها الغرائز ، لأنها معذورة حيث لا يوجد لها عقل كعقل بنى آدم . أما من له عقل وعطله فهو متعمد للضلال فكان أضل من الأنعام .

ولقد عبر الله سبحانه عن الذين لم يتبينوا له عقيدة وسلوكا بأنهم عمى فقال : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ﴾ [طه : ١٢٤-١٢٧] فالذين عميت بصائرهم هم فى الحقيقة عمى عن الهدى ، ولا مانع أن يحشرهم الله يوم القيامة عمي الأبصار ، جزاء وفاقا بما كانوا عليه فى الدنيا من عمى البصائر .

أما من فتح الله بصائرهم فاتبعوا الحق فإنهم يحشرون يوم القيامة بيض الوجوه، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم حتى لو كانوا فى الدنيا ممن امتحنهم الله فى أبصارهم لكنهم رأوا قدرته وأحسوا نعمه بقلوبهم وبصائرهم ، وكم فى الحياة من مكفوفى الأبصار هداهم الله إلى الحق وأعلى منزلتهم ، وفى التاريخ قديمه وحديثه علماء وصالحون من هذا النوع .



س : هناك آية تنسب الحسنة إلى الله ، والسيئة إلى الإنسان وآية أخرى تقول إن السيئة من الله ، فكيف نوفق بينهما ؟

ج : قال الله تعالى ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾ [النساء : ٧٩] وقال ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [التغابن : ١١] الموضوع في الآيتين مختلف ، ففي الآية الأولى بيان الجزاء على ما يعمله الإنسان ، وفي الثانية بيان علم الله وإرادته ، فالله يجازينا على الحسنة فضلاً منه وكرماً وعلى السيئة رحمة منه وعدلاً ، إذا أعطى الله إنساناً ثواباً على حسنة فالثواب منه تفضل ، لأننا عباد مفروض أن نطيعه ولا نطلب على طاعتنا أجراً شأن العبد مع سيده ، يؤمر فيطيع ولا يطلب من سيده جزاء لأنه مملوك له ، فإذا أعطاه سيده أجراً كان تفضلاً منه ، وهو إن قل يعد كثيراً ، ومع ذلك ففضل الله واسع يعطي الحسنة ثواباً هو عشر أمثالها وإذا عصى العبد ربه وعاقبه على سيئته كان المفروض أن يأخذه ربه بالشدة كالعبد العاصي لسيده ، ولكن عدل الله تشوبه الرحمة أيضاً فيعطي سيئة على سيئة .

ولايجوز أن ينسب العبد إلى ربه ظلماً على عقابه ، فهو المتسبب فيه ، ولم يبدأ الله معاقبته بدون سبب ، فذلك في عرف الناس ظلم والله أولى بالعبد عنه «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » [(١)] ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦] ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] .

١- رواه مسلم .

أما قوله تعالى ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فيفسره قوله في آية أخرى ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ [الحديد : ٢٢] فكل ما يحدث في الكون معلوم له قبل أن يحدث وهذا معنى ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ أي نخلقها ، فالإيمان بأن كل شيء في علم الله يعطي النفس توجيهاً طيباً ، فما يحدث من خير يشكره عليه ، وما كان من سوء يصبر عليه ويرضى ، وفي الحديث «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» [1]. ويلتقى هذا مع قوله بعد الآية السابقة ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أي فلا تجزعوا على المصيبة ولا تطغينكم النعمة .



س : ما التهلكة الواردة فى قوله تعالى ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾؟

ج : هذا جزء من الآية ﴿ وَأَنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] جاءت هذه الآية بعد آيات تتحدث عن الجهاد فى سبيل الله ، وفيها أمور ثلاثة ، أولها الأمر بالإنفاق فى سبيل الله ، وثانيها النهى عن الإلقاء بالأيدى إلى التهلكة ، وثالثها الأمر بالإحسان ، أما الإنفاق فى سبيل الله فمعناه واضح وإن كان سبيل الله واسع الميدان فمن أهمه الجهاد وكذلك الإحسان واضح المعنى فهو يلتقى مع الإنفاق فى سبيل الله فى أكثر مظاهره وإن كان من معانيه الإجادة والإتقان والإخلاص فى أى عمل . على ما جاء فى الحديث «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

وأما الإلقاء بالأيدى إلى التهلكة ففى تفسيره عدة أقوال : لا تتركوا النفقة ولا تخرجوا إلى الجهاد بغير زاد ولا تتركوا الجهاد ، ولا تدخلوا على العدو الذى لا طاقة لكم به ولاتيأسوا من المغفرة وقد قال الطبرى : هو عام فى جميعها ، كما ذكره ابن العربى فى أحكام القرآن .

١- رواه مسلم .

ومن الوارد فى ذلك ما رواه البخارى عن حذيفة أن الآية نزلت فى النفقة وكذلك قال ابن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهد وجمهور الناس كما ذكره القرطبى ، وقال المعنى لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة ، فى سبيل الله وتخافوا العيلة فيقول الرجل: ليس عندى ما أنفقه وذكر القرطبى خمسة أقوال فى تفسير هذه الآية . وقال : روى الترمذى عن يزيد بن أبى حبيب عن أسلم أبى عمران أنهم فى غزو القسطنطينية حمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس : إنه يلقى بيديه إلى التهلكة ، فصحح لهم أبو أيوب الأنصارى معنى الآية بأنها نزلت فى الأنصار لما نصر الله نبيه وأظهر دينه قالوا : هلمَّ نقيم فى أموالنا ونصلحها لأنها ضاعت فالتهلكة هى الإقامة على الأموال وإصلاحها وترك الغزو .

ثم تحدث القرطبى عن حكم اقتحام الرجل فى العرب وحمله على العدو وحده . وقال : إن بعض العلماء المالكية أجازوا أن يحمل الرجل وحده على الجيش العظيم إذا كان فيه قوة وكان لله بنية خالصة ، فإن لم تكن فيه قوة فذلك من التهلكة ، وقيل: إذا طلب الشهادة وخلصت النية فليحمل ، لأن مقصوده واحد منهم كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ وقال ابن خويز منداد: فأما أن يحمل الرجل على مائة أو على جملة العسكر أو جماعة اللصوص والمحاربين والخوارج فلذلك حالتان : إن علم وغلب على ظنه أنه سيقتل من حمل عليه وينجو هو فحسن ، وكذلك لو علم وغلب على ظنه أن يقتل ولكن سينكى نكاية أو سيبلى أو يؤثر أثرا ينتفع به المسلمون فجائز أيضا ، وقد بلغنى أن عسكر المسلمين لما لقى الفُرسْ نفرت خيل المسلمين من الفيلة ، فعمد رجل منهم فصنع فيلا من طين وأنَّس به فرسه حتى ألفه ، فلما أصبح لم ينفر فرسه من الفيل ، فحمل على الفيل الذى كان يقدمها فقيل له : إنه قاتلك ، فقال لا ضير أن أقتل ويفتح للمسلمين ، وفعل البراء بن مالك حيلة فى حرب بنى حنيفة حتى دخل حصنهم وفتح الباب فدخل المسلمون.

وذكر القرطبى ما رواه مسلم فى دفاع رجل من الأنصار عن النبى ﷺ يوم أحد فقاتل العدو حتى قتل ، وفعل مثله العدد القليل الذين أحاطوا بالرسول ، وهذا

دليل على أن المخاطرة التى فيها منفعة للمسلمين لا بأس بها ولا تعد من الإلقاء باليد إلى التهلكة ، كما ذكر القرطبى عن محمد بن الحسن أن المخاطرة بالنفس إذا كان فيها طمع فى النجاة أو النكاية فى العدو لا بأس بها ، وإلا كانت مكروهة لأنه عرض نفسه للتلف في غير منفعة للمسلمين إلا إذا قصد تشجيع المسلمين حتى يصنعوا مثله فلا بأس بها لأن فيها منفعة لهم على بعض الوجوه .

ثم تطرق القرطبى من حكم المخاطرة فى الجهاد إلى المخاطرة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقال : إنه متى رجا نفعا فى الدين فبذل نفسه حتى قتل كان فى أعلى درجات الشهداء قال تعالى ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان : ١٧] وفى حديث النسائى وابن ماجه بسند صحيح «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» وجاء مثل ذلك فى أحكام القرآن لابن العربى.



س : نرجو تفسير قوله تعالى ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ [الانشقاق :١٦-١٩] .

ج : فى هذه الآيات مقسم به وهو الشفق والليل والقمر ، ومقسم عليه وهو تغير الأحوال للإنسان فى دنياه وفى أخراه ، وبيان ذلك أن الشفق هو الحمرة التى تكون فى الجو عند مغيب الشمس على المختار من الأقوال فى المراد به ، ومعنى وسق جمع وضم وحمل ، فإذا جاء الليل جمع الظلام تحت سلطانه كل كائن غابت عنه الشمس، وأوى إلى حيث يبيت ويستريح ومعنى اتسق كمل واستوى ، وذلك حين يكون القمر بدراً .

إن هذه الأمور تبدو فيها ظاهرة التغير والتحول ، فبعد ضوء النهار إما يبعث فيه من حركة ونشاط تحت سلطان الشمس بقوتها ، تغيب تلك الشمس وتتوارى ، ويجىء الليل بظلامه فيحد من الحركة ويقلل من النشاط ، وتصير الكائنات فى حالة أشبه بالموت بعد الحياة .

والقمر كان فى المحاق ثم صار هلالا ازداد نوره حتى تمَّ بدرا ، ثم يعود فى دورته إلى المحاق والظلمة مرة أخرى . وكما هو معهود من التناسب بين المقسم به والمقسم عليه نرى ظاهرة التغير والتحول واضحة فى قوله : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ . فى بعض القراءات «لتركبَن» بفتح الباء خطاب للمفرد ، والمخاطب بذلك قيل : هو سيدنا محمدﷺ والمعنى لتكونن لك حال بعد حال فى دعوتك ومكانتك فإن كذبتك قريش اليوم فيصدقونك غدا ، ولئن علا سلطانهم يوما فسيعلو سلطانك عليهم أياما ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ واستمر فى دعوتك حتى يأتيك اليقين ، وقيل : إن المخاطب بذلك أى إنسان ، والمراد بيان أنه ستتقلب به الأحوال من قوة إلى ضعف ومن غنى إلى فقر ومن صحة الى مرض ، وبالعكس ، وتنتهى الحياة بالموت ، فشأن الحياة هو التغير والتحول حسّاً ومعنى ، وصاحب السلطان فى كل ذلك هو رب العزة الذى يجب أن يؤمن به كل مخلوق .

وفى القراءات الأخرى «لتركبُن» بضم الباء خطاب للجميع ، والمعنى لتتغيرن أحوالكم فى مستقبل حياتكم كما تغيرت من قبل ، حين خلقكم الله فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق ، وطورا بعد طور ، وستنتهون من حياتكم بما فيها من تفاوت وتقلب إلى الموت ، ومن قدر على ذلك فهو قادر على أن يبعثكم من القبور ويحشركم إليه ويحاسبكم على ما قدمتم ، فمنكم من يعطى كتابه بيمينه ، ومن يعطى كتابه بشماله، بعد أن ظن أنه لن يحور ، أى يعود إلى الحياة مرة أخرى ، ثم بعد ذلك يسوقكم إلى الجنة أو النار زمرا ، لكل فيها طبقة ومنزلة تتناسب مع عمله ، فما لهؤلاء القوم لا يؤمنون بعد هذه الأدلة القوية وما لهم لا يسجدون للقرآن الذى يدل بإعجازه على صدق محمد الأمى فى أنه منزل من عند الله ، وفى أنه صادق فى دعوته ورسالته ؟ ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الانشقاق : ٢٢ ، ٢٣] .



س : أرجو تفسير قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ [الأنعام : ٩٥] ؟

ج : تكرر هذا القول فى القرآن أكثر من مرة ، واختلف المفسرون فى معناه ، فقال بعضهم : المراد ولادة المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، على تشبيه الإيمان بالحياة

وتشبيه الكفر بالموت ، ذلك أن المؤمن يفعل الخير ليسعد به ويسعد مجتمعه ، كالجسد إذا كان فيه الروح التى تبعثه على الحركة والنشاط ، والكافر لا يفعل خيرا يسعد به نفسه ويسعد مجتمعه ، كالجسد الذى سلبت منه الروح ، فلا تبقى معه حركة ولانشاط ، وما يفعله الكافر إن سعد به فى دنياه فلا يسد به فى أخراه ، وهي الدار الباقية ، كما قال سبحانه ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣].

ويشهد لهذا المعنى ما روى أن النبى ﷺ دخل على نسائه فوجد معهن إحدى خالاته ، وهي خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث ، وكانت مؤمنة وكان أبوها كافرا فقال «سبحان الله الذى يخرج الحى من الميت » .

وقال بعض المفسرين : إن المراد بالحياة والموت حقيقتهما ، فالله يخرج الإنسان وهو حى من النطفة وهى ميتة ، ويخرج النطفة وهي ميتة من الإنسان وهو حى ، كما أنه يخرج الدجاجة وهى حية من البيضة وهي ميتة ، ويخرج البيضة وهى ميتة من الدجاجة وهى حية .

وإذا قيل : إن النطفة فيها حياة مستكنة أى فى أطوارها الأولى بسبب تلقيح البويضة بالحيوان المنوى ، كما يقال ذلك فى بيضة الدجاجة الملقحة - فإن هذه الحياة كالموت بالنسبة للحياة بعد نفخ الروح فى الجنين ، حيث تكون الحركة والنشاط .

وعلى كل حال فالآية تدل على أمرين هامين ، أحدهما أن العالم ليس مخلوقا بطبيعته ، بل له خالق هو الله سبحانه ، لأن مطبوع الطبيعة لايختلف ، كالآلة الصماء التى تخرج أفرادا متفقة لا تغاير فيها ، والله سبحانه يغير ويبدل بقدرته ، كما قال ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) ﴾ [آل عمران : ٢٦ ، ٢٧] .

والأمر الثانى الذى تدل عليه الآية أن الذى خلق العالم إله واحد لا شريك له ، لأنه هو القادر على ذلك ، أما ما يعبده الكافرون فلا يستطيع أن يخلق كخلق الله ، قال تعالى ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٧] وقال ﴿ إِنَّ

ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ٧٣] .



س : ما معنى النسىء الذى قال الله عنه إنه زيادة فى الكفر ؟

ج : يقول الله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [التوبة : ٣٧] .

النسىء على وزن فَعِيل بمعنى مفعول ، مأخوذ من نسأت الشىء إذا أخرته ، فهو منسوء ونسىء كمقتول وقتيل ، أو مأخوذ من نسأ إذا زاد ، وكان العرب فى الجاهلية وهم أصحاب حروب يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية بدون إغارة وهى أشهر الحج : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، فكانوا يحلون المحرم ويؤخرون تحريم القتال إلى صفر ، ويجعلونه بدله من الأشهر الحرم وهكذا كانوا يفعلون كل عام بتأخير شهر عن موعده ، وكان يقوم بذلك واحد منهم لا يرد له قضاء اسمه «القَلَمَّس» .

ولما جاء الإسلام رجع شهر المحرم . إلى موضعه الذى وضعه الله ، وهذا معنى قوله ﷺ فى حجة الوداع «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم » وصادف حج رسول الله ﷺ موضعه الحقيقى من الشهور التى غيروها ، فكان تحريم الشهور وتحليلها بحسب حاجتهم ، وذلك كله ضلال ، ومظهر من مظاهر كفرهم ، يضم إلى ما سبق أن ارتكبوه من مخالفات لدين الله .

ولو كان للناس الحرية فى تنظيم أمورهم وتوقيتها فإنها حرية مقيدة بما حدده الله سبحانه ، فللصلوات وللصيام وللحج وغير ذلك أوقات محددة اختارها بعلمه وحكمته ، لتدور مع الظروف ، ولينسجم المسلمون مع سنن الله الكونية ، وليظهر إيمانهم المطلق بشريعة الله مهما كان فيها من امتحانات .



س : ما المراد بالصابرين فى قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ؟

ج : الصبر فى اللغة إمساك فى ضيق ، أى امتناع عن شىء مع معاناة ، والصبر المحمود شرعا هو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع ، أو عما يقتضيان حبسها عنه ، وهو لفظ عام يفسر معناه بحسب اختلاف مواقعه من الآيات والسور ، وقد ورد بمشتقاته فى القرآن أكثر من مائة مرة ، وتدور معانيه حول ثلاثة أمور :

أولها : الصبر على المصيبة ، وهو المشار إليه فى قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٥) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦)﴾ [البقرة : ١٥٥ ، ١٥٦] .

وثانيها : الصبر على الطاعة ، بمعنى تحمل ما يكون فيها من تعب يقصد به تهذيب النفس وترويضها على تخطى العقبات ، كالصبر على الجوع والعطش فى الصيام ، وقد جاء فيه «الصوم نصف الصبر» [1] ، وجاء أيضاً عن شهر رمضان «وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة » [2] ، ومنه الصبر على مشاق الحج وعلى أداء الصلوات فى أوقاتها ، وعلى الجهاد فى سبيل الله ، وعلى قضاء مصالح المسلمين وعلى طلب العلم وكسب العيش ، يقول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

وثالثها : الصبر عن المعصية أى عن المحرمات ، ذلك أن النفس لها مطالب ونزعات ، وقد حرَّم الله بعضها لأن فى التحريم خيرا لها ولغيرها ، كالتعدى على الحرمات وتناول المسكرات والاختلاس وغيرها ، فالذى يمنع نفسه عنها يسمى صابرا عن المعصية ، وفي هذا الصبر معاناة شديدة ، لأنها معركة مع أعدى الأعداء وأخطر الخصماء ، وهى النفس التى بين الجنبين ، مع الشيطان الذى قرر الله أنه عدو مبين .

والامتناع عن هوى النفس وإغواء الشيطان فى ظاهره عمل سلبى لكنه فى الحقيقة عمل إيجابى كبير ، وهو ليس استسلاما للواقع ولو كان مرًّا ، إنما هو نقطة انطلاق إلى الأمام من أجل العمل الطيب .

١- رواه ابن ماجه . ٢- رواه ابن خزيمة فى صحيحه .

وعلى الصبر بأنواعه الثلاثة يمكن حمل النصوص من القرآن والسنة عليها ، وهي كثيرة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الفرقان : ٧٥] .



س :ما معنى قوله سبحانه عن الذى يدخل النار ، ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴾؟

ج : يقول الله سبحانه ﴿ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۝١٣ ﴾ [الأعلى : ٩ - ١٣] .

المراد بالأشقى فى هذه الآية هو الكافر الذي لا يستفيد من الدعوة وسيدخله الله نارا كبرى يستمر عذابه فيها ولا ينقطع أبدا . وعلى الرغم من شدة النار التى وقودها الناس والحجارة لن يموت ، كما قال سبحانه : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ ﴾ [هود : ١٠٦ ، ١٠٧] .

وكما قال فى كيفية العذاب ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ ﴾ [النساء : ٥٦] .

ويتمنى الكافرون أن يخرجوا من النار ، ولكن لا يجابون لما يتمنون .

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧ ﴾ [الزخرف:٧٤-٧٧] ومالك هو خازن النار .

وإذا كان الكافر لا يموت فى النار فلابد أن يحيا ، لكن الآية تنفى عنه الحياة حيث تقول ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴾ فكيف يكون الكافر غير ميت وغير حى فى وقت واحد؟

قال العلماء : المراد بقوله تعالى ﴿ وَلَا يَحۡيَىٰ ﴾ يحيا حياة طيبة ، فالثابت له عدم الموت، والمنفى عنه هو الحياة الطيبة ، فهو حى معذب شقى وذلك على مثال قول الشاعر :

ألا ما لنفس لا تموت فينقضى   عناها ولا تحيا حياة لها طعم

وإذا كانت دقائق العذاب لا تعرف إلا بالنص الصحيح فإن العصاة المؤمنين أملا فى أن يكون عذاب النار هينا عليهم فى درجة خاصة بهم ، يأخذون قسطهم من العذاب فى شبه موت حتى يأذن الله بخروجهم من النار ، كما جاء فى صحيح مسلم أن الموحدين من المؤمنين إذا دخلوا جهنم احترقوا وماتوا إلى أن يشفع فيهم . وبعد إخراج عصاة المؤمنين من النار يكتب الخلود لأهل النار فلا يموتون ، كما يكتب الخلود لأهل الجنة فلا يموتون . جاء تصوير ذلك فى رواية للبخارى ومسلم تمثل قضاء الله على الموت بصورة كبش يذبح ثم ينادى «يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت» .

وإذا كنا ندعو الله أن يجيرنا من النار ويدخلنا الجنة فليكن مع الدعاء عمل صالح كما قال سبحانه فى المتخاصمين المتجادلين : أيهم تكون لهم الجنة ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ [النساء : ١٢٣ ، ١٢٤] .

وحتى ننشط لعمل الخير نذكر ما رواه مسلم عن ثواب أدنى أهل الجنة منزلة ، وهو آخر من يدخلها وآخر من يخرج من النار ، أن الله سبحانه يقول له «أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول : رضيت يا رب فيقول له : لك مثله وعشرة أمثاله » ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .



س : أرجو تفسير قوله تعالى ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الطور : ٣٦]؟

ج : هذه آية من سورة الطور جاء قبلها قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الطور : ٣٥ ، ٣٦] .

وهما من ضمن الأساليب التى ترد على المشركين الذين كذّبوا الرسول ﷺ فى دعوته أن هناك إلهاً واحدا خلقهم جميعا ، وأن الأصنام التى يعبدونها عاجزة عن خلق أى شىء .

فتتنكر الآية الأولى أنهم خلقوا من غير شيء أي من غير إله خلقهم وقدرهم كما قال ابن عباس ، ولم يعرفوا المادة التى خلقوا منها وهى ماء مهين سواه الله ونفخ فيه من روحه ، فهل خلقوا هم أنفسهم أو خلقتهم الأصنام التى يعبدونها .

والآية الثانية تستنكر أن الأصنام خلقت أى شيء ، بل هى نفسها مخلوقة وصنعها من يعبدونها بأيديهم ، وأين كان هولاء الأصنام حين خلق السموات والأرض ، وما داموا لم يخلقوا السموات والأرض ولم يخلقوا أنفسهم فبأى شيء يستحقون العبادة ؟

إن المشركين لا يؤمنون بالحق الذى جاءهم به محمد ﷺ ولا يوقنون بإجابة صحيحة عن هذه التساؤلات .



س : ولد لى ولد له إصبع فى يده زائدة وتركته حتى بلغ خمس سنوات فرأيت الصبيان يهزءون به من أجلها ، فهل لو قطعتها يكون ذلك حراما؟

ج : يقول الله تعالى عن إبليس ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء:١١٩] تحدث علماء التفسير عن معنى هذه الآية وتطرقوا إلى الكلام عن الإصبع الزائدة وعن اللحية إذا نبتت للمرأة ، وقال جماعة من الفقهاء : لا يجوز تغيير ذلك مطلقا لنص الآية ، وقال آخرون بالجواز مستندين إلى أمرين : الأمر الأول أن معنى تغيير خلق الله لم يتفق عليه ، فإن بعض المفسرين قالوا : المراد منه ما تدل عليه الآية ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة : ١٠٣] وعلى هذا فهى ليست نصا قاطعا فى الدلالة على التحريم ، والأمر الثانى أن إزالة الإصبع أو السن الزائدة ليس المراد به تغيير خلق الله ، بل المراد التحسين والتجميل لما خلق الله، وذلك غير حرام .

وإذا كان الحديث الشريف لعن الواصلة والمستوصلة والنامصة والمتنمصة . . . وجاء فيه «المغيرات خلق الله » فإن اللعن يجوز أن يكون منصبا على التغرير

والتدليس الذى يظهر به الشيء وقتا حسنا ثم يظهر قبيحا وقتا آخر ، فيحصل به الغش ، أو يراد به السوء والفتنة . وإذا انتفى ذلك فلا مانع .

والإصبع الزائدة لاشك أنها تؤذى صاحبها بدنيا أو نفسيا ، وليس فى إزالتها تدليس ولا تغرير لأنها لا تنبت بعد ذلك ، وهى ظاهره مكشوفة للناس .

ثم قالوا لو أن إنسانا خلق وقلبه خارج صدره فهل يحرم إجراء عملية تعيد القلب إلى وضعه الطبيعى؟ أو لو خلق توأمان متصلان وأمكن فصلهما بدون ضرر على أحدهما هل يحرم ذلك : إنها حالات استثنائية ليس هناك ضرر من معالجتها ، بل فى ذلك نفع وفائدة ومن هنا أختار الرأى القائل بإزالة الإصبع الزائدة ، وقد نص على ذلك ابن حجر فى فتح البارى [1] .



س: نريد تفسير قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾ وكيف يتناسب ذلك مع ما ورد فى الزواج من سكن ومودة ورحمة ؟

ج : الأسرة تقوم على الزوج والزوجة والأولاد ، وهى إذا أحسن توجيهها حققت السكن والمودة والرحمة ، لكن ليست كل الأسر تستطيع الالتزام بتوجيهات الدين ، ومن هنا يأتى القلق والبغض والقسوة ، وتكون المساءلة الشديدة أمام الله سبحانه ، ولذلك أوصى الإسلام ببناء الأسرة على أسس القيم الرفيعة الموجودة فى الرجل والمرأة ، فتُختار المرأة ذات الدين والخلق ، ويُختار الرجل ذو الدين والأمانة كما جاء فى السنة النبوية .

وإذا وجب على الأسرة أن تتعاون لتحقيق أهدافها فكيف تكون العداوة أو من أين تأتى ؟ إن الآية الكريمة تبين أن بعض الأزواج -الزوجات - وبعض الأولاد

١- ج ١٢ ص ٥٠٠ .

قد يكونون أعداء للزوج والوالد، وليس الكل أعداء، وإلا ما كانت هناك حاجة إلى الزواج، ولذلك عبرت الآية بلفظ «مِنْ» التى تفيد التبعيض.

والعداوة تأتى من مخالفة الوصية بحسن المعاشرة، وعدم التزام أفراد الأسرة بالواجبات المفروضة عليها، والاهتمام بالحقوق أكثر من الواجبات، قال تعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء : ١٩] وقال : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة : ٢٢٨] وقال ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء : ٣٤] وقال : ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء : ٣] إلى غير ذلك من النصوص التى تبين الحقوق والواجبات.

جاء فى سبب نزول الآية التى فى السؤال أن بعض الرجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا الهجرة إلى النبي ﷺ فى المدينة، فأبى أزواجهم وأولادهم، فلما أتوا النبى ﷺ ورأوا الناس قد تفقهوا فى الدين هَمُّوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم [1]، فنزلت الآية ولذلك جاء فى آخر الآية ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والعفو هو ترك المؤاخذة بالذنب، والصفح هو إزالة أثره من النفس، يقال: صفح عنه أعرض عن ذنبه، وضرب عنه صفحاً أى أعرض عنه وتركه، والغفر هو الستر.

وقيل : نزلت فى عوف بن مالك الأشجعى، كان إذا أراد الغزو بكت الزوجة والأولاد ورققوه قائلين : إلى من تتركنا؟ فيرق لهم. وفى حديث ضعيف «يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأولاده، يعيرونه بالفقر فيركب الصعب من أجلهم».

ومن جهاد الزوج لهم ما فى البخارى أن الشيطان قعد لابن آدم - وسْوس أو أغرى زوجته وأولاده ليقولوا له - فى طريق الإيمان فقال : أتؤمن بالله وتذر دينك ودين آبائك ؟ فخالفه فآمن، فقعد له فى طريق الهجرة فقال : أتهاجر وتذر مالك وأهلك ؟ فخالفه فهاجر، فقعد له فى طريق الجهاد فقال : أتجاهد فتقتل نفسك وتنكح زوجاتك

١- رواه الترمذى بسند حسن صحيح.

ويقسم مالك ؟ فخالفه وجاهد ، فحق على الله أن يدخله الجنة ، وفي الحديث «الأولاد مجبنة مبخلة » أو «مُجْبِنَةٌ مُبَخِّلة» [1] . وأخرج الترمذى عن خولة بنت حكيم قالت : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم وهو مُحْتَضِنٌ أحد ابني بنته وهو يقول «إنكم لتبخِّلون وتجبِّنون وتجهلون ، وإنكم لمن ريحان الله» . أى تحملون على البخل على غيركم إيثارا لكم ، وتحملون على الجبن والقعود عن الجهاد ، وتحملون على الاعتداء على غيركم دفاعا عنكم [2] .



س : أرجو تفسير قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر : ١] ومتى ينشق القمر ؟

ج : اقتراب الساعة حقيقة كما فى الحديث «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى ، ومن أجل ذلك كان الرسول خاتم الأنبياء ، لانبي بعده حتى تقوم الساعة وانشقاق القمر هو المعجزة القوية التالية لمعجزة القرآن (وإن كانت معجزة القرآن للتحدى) ومعنى انشق القمر : انشق بالفعل ، وعليه جمهور العلماء ، وثبت ذلك فى البخارى وغيره . يقول الترمذى فى حديث حسن صحيح عن أنس : : سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة مرتين ، فنزلت ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾[القمر:١] إلى قوله تعالى : ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[القمر : ٢] .

ولفظ البخاري عن أنس قال : انشق القمر فرقتين . يقول القرطبي في تفسيره [3] ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر انشق بمكة ، وهو ظاهر التنزيل ، ولا يلزم أن يستوي الناس فيه - أي في رؤية ذلك - لأنها كانت آية ليلية ، وأنها كانت باستدعاء النبي ﷺ من الله للتحدي ، وما يؤكد أنه وقع قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[القمر :٢] .

١- رواه البغوى .
٢- والموضوع مبسوط فى كتابنا «تربية الأولاد فى الإسلام » وفى هذا القدر كفاية .
٣- ج ١٧ ص ١٣٦ .

وقال قوم : لم يقع انشقاق القمر وسينشق عند قرب قيام الساعة . والتعبير بالفعل الماضى بدل المضارع يدل على التأكيد ، كما فى قوله تعالى فى النحل : ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [النحل : ١] .

وإذا قامت الساعة انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره ، وكذلك قال القشيرى، وذكر الماوردى أن هذا قول الجمهور ، وقال : لأنه إذا انشق ما بقى أحد إلا رآه لأنه آية والناس فى الآيات سواء .

وقيل : «انشق القمر» . أى وضح الأمر وظهر ، والعرب تضرب بالقمر مثلاً فيما وضح ، وقيل : انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه بطلوعه فى أثنائها ، كما يسمى الصبح فلقاً لانفلاق الظلمة عنه .

ولكن رأى الجمهور هو الصحيح فى حدوث انشقاق القمر بالفعل ، وكان ليلة البدر ، وكان نصفه ، على جبل أبى قبيس ، والنصف الآخر على جبل قعيقعان .



س : ما معنى قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور :٣٥] ؟

ج : الكلام في هذا النور كثير ، فقيل : المراد مدح الله ذاته بأنه خالق الكون ، ونور جميع الأشياء منه ، وأن وجوده ظاهر واضح كالنور ، من السهل جدًّا أن يؤمن به كل من ينظر ويتأمل بديع صنعه ، فلا عذر لأحد في عدم الإيمان به بعد هذه الأدلة الواضحة ، فهى تسمى نوراً يستدل بها عليه سبحانه كما قال عن القرآن ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء : ١٧٤] وكما قال عن نبيه ﴿قَدۡ جَآءَكُم

مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة :١٥] وضرب مثلاً لقوة هذا النور بما هو معهود عند العرب ، كالمصباح الموضوع في مشكاة - وهي الطاقة أو الكوة في الحائط غير النافذة - والمصباح فى زجاجة تزيد ضوءه قوة كأنها كوكب درى ، والزيت الذى يوقد هو أعلى صنف وهو زيت الزيتون المأخوذ من شجرة مزروعة فى جو معتدل لا حار ولا بارد . ولصفاء هذا الزيت يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار ، فهو مضىء ومع النار يزيد النور ، وهذه الأ دلة الواضحة على وجوده وألوهيته يهدى الله لها من وفقه وبارك له فى عقله وبصره وحواسه لتدرك ذلك بسهولة . هذا تقريب للمعنى والكلام كثير يرجع إليه فى كتب التفسير .



س: ماذا يعنى التضاد فى أسماء الله الحسنى ، مثل الأول والآخر والظاهر والباطن ؟

ج : ليس هنالك تضاد فى أسماء الله الحسنى ، فمعنى «الأول» الذى لم يسبقه شىء فى الوجود ، وهو ما يشير إليه الحديث «كان الله ولا شىء معه» ، ومعنى «الآخر» ، الذى يبقى بعد فناء الخلق ، كما قال سبحانه ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن : ٢٦ : ٢٧] ومعنى «الظاهر» ، الذي يدرك وجوده كل من نظر فى الكون وتدبَّر الخلق ، فهو ظاهر بوجوده وليس بذاته ، كما يشير إليه قوله ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور :٣٥] على بعض التفاسير . ومعنى «الباطن» الذي لا يرى ذاته أحد ، بل يرى آثاره فقط ، كما يشير إليه قوله ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام :١٠٣] .

هذا ، وقد جاء في تفسير القرطبي [1] : اختلف في معاني هذه الأسماء وقد بيناها فى الكتاب الأسبق ، وقد شرحها رسول الله ﷺ شرحا يغنِي عن قول كل قائل ، فقال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ،

١- ج١٧ ص ٢٣٦.

وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء . اقض عنا الدين وأغننا من الفقر» عني بالظاهر الغالب، وبالباطن العالم ، والله أعلم .



س: قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١٨٠] .

ج : يقول أبو جعفر النحاس فيها خمسة أقوال ملخصها :

١ – من قال بنسخ القرآن بالسنة نسخها قوله ﷺ «لا وصية لوارث» .

٢ – ومن قال بنسخ القرآن بالقرآن قال نسخها قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء :١١] .

٣ – نسخت الوصية للوالدين ، وثبتت للأقربين الذين لا يرثون .

٤ – نسخ وجوب الوصية وبقي ندبها .

٥ – الوصية واجبة للوالدين والأقربين إذا كانوا لا يرثون ، قال طاووس : من أوصى لأجنبي وله أقرباء انتزعت الوصية فردت إلى الأقرباء ، وقال الحسن : إذا أوصى رجل لقوم غرباء بثلثه وله أقرباء أعطى الغرباء ثلث الثلث ورد الباقي على الأقرباء . اهـ . وجاء في بعض المصادر أن الوالدين يكونان غير وارثين إذا كانا كافرين أو عبدين .

جاء في تفسير القرطبي [1] : أن العلماء أجمعوا على أن الوصية واجبة على من عنده ودائع وديون ، أما غيره فالأكثر على عدم وجوبها وهو قول مالك والشافعي ، موسرا كان أو فقيرا ، وقالت طائفة بوجوبها لظاهر القرآن، والحديث «ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته

١– ج ٢ ص ٢٥٩ وما بعدها .

مكتوبة عنده» وفي رواية «ثلاث ليال» وأجاب غير الموجبين بأن الحديث رد الأمر إلى إرادة الموصي ، فلا تلزم الوصية من لم يُرِدْها ، قال النخعي : مات رسول الله ﷺ ولم يوص ، وقد أوصى أبوبكر ، فإن أوصى فحسن وإن لم يوص فلا شيء عليه .

وذهب الجمهور إلى أنه لا تجوز الوصية بأكثر من الثلث إلا أبا حنيفة وأصحابه حيث قالوا : إن لم يترك ورثة جاز له أن يوصي بماله كله ، فالاقتصار على الثلث لمن له ورثة يتركهم أغنياء خير من أن يتركهم فقراء كما في حديث النبي لسعد . وروى هذا القول عن مالك في أحد قوليه .

وأجمعوا على أن من مات وله ورثة لايجوز أن يوصي بجميع ماله .

وأجمعوا على أن للإنسان أن يغير وصيته ويرجع فيما شاء منها ، ما عدا المدبَّر ففيه خلاف .

ثم قال القرطبي : اختلف العلماء في هذه الآية هل هي منسوخة أو محكمة ، وأورد قريباً مما سبق من الكلام . فقيل : إنها محكمة في الوالدين والأقربين غير الوارثين ، وقيل محكمة في الجميع لمدة ثم نسخت بآية المواريث مع حديث الترمذي وهو حسن صحيح «إن الله قد أعطى لكل ذي حق حقه فلا وصية لوارث » فالنسخ بالسنة لابالآية ، على أصح الأقوال . ومع ذلك انضم إلى هذا الحديث الإجماع على عدم الوصية لوارث . وقيل نسخت للوالدين وثبتت للأقربين غير الوارثين ، وقيل نسخ الوجوب وبقى الندب .

ثم قال عن المريض إنه لا يوصى بأكثر من الثلث وإن أجازها الورثة وذلك عند أهل الظاهر ، أما الكافة فأجازوها إن أجازها الورثة وهو الصحيح . لحديث الدارقطني «لا تجوز الوصية لوارث إلا أن يشاء الورثة» .



س: لماذا فزع الصحابة عند قوله تعالى ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة :٢٨٤] ؟

ج : فى صحيح مسلم عن ابن عباس لما نزلت هذه الآية دخل قلوب الصحابة منها شىء لم يدخل قلوبهم من شيء -يعنى شىء كبير- فقال ﷺ : «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا » فألقى الله فى قلوبهم الإيمان ، وأنزل ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] قال: قد فعلت ربنا ولا تحمل علينا إصْراً كما حملته على الذين من قبلنا. قال : قد فعلت «ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » قال : قد فعلت ، فلما فعلوا ذلك نسخها الله ثم أنزل «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» .

وقد اختلف المفسرون فى نسخ هذه الآية ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [البقرة:٢٨٤] أو عدم نسخها ورجح الطبرى أنها محكمة ، وقال ابن عطية : هو الصواب ، لأن المحاسبة تكون على ما فى وسع الإنسان وتحت كسبه . والخواطر ليست مرادة ، ودفعها ليس فى الواسع ، بل هو أمر غالب . وهو يتفق مع الحديث «إن الله تجاوز لأ متى عما حدثت به نفسها ما لم تعمل أو تتكلم » .



س : أرجو تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨] ؟

ج : هذه الجملة فقرة من آية سبقتها تتحدث عن عجيب صنع الله في السموات والأرض ، من إنزال المطر من السماء ، وإخراج النبات المختلف الألوان ، وطبقات الأرض بألوانها ومعادنها وأحجارها ، واختلاف الناس والحيوانات في الأحجام والألوان والاستعدادات وغيرها ، والذين ينظرون فى هذه العجائب نظرة تأمل هم العلماء بأسرارها من رجال الفلك والطبيعة والكيمياء والنبات والجيولوجيا

والأطباء والمؤرخين وعلماء الحياة بوجه عام ، ولذلك إذا كانوا منصفين انتهوا إلى الإيمان ، وإذا كانوا مؤمنين زاد إيمانهم عمقا ورسوخا ، ولذلك هم يخشون الله أن يخالفوه فيعاقبهم ، فإن الخشية لا تكون إلا ممن له هيبته وعظمته وقدرته ، والعلماء هم الذين أدركوا عظمة الله عن طريق تخصصاتهم المختلفة ، ولذلك يخشونه ، ومن هنا أمر الله بالنظر فى الكون والتدبر والتفكر ، وقد ساعد على ذلك قراءة كتاب «الله يتجلى فى عصر العلم » .

هذا ، والقراءة الصحيحة للآية هي بنصب لفظ الجلالة «اللهَ» ورفع لفظ «العلماءُ» فالعلماء هم الذين يخشون الله . أما ما يقرؤه البعض من رفع اسم الجلالة ونصب لفظ العلماء يجعلهم يستغربون كيف يخشى الله من العلماء ويخاف منهم ، والأمر ليس كذلك ، ولا داعي للتأويل لصحة هذا النطق .



س: أرجو تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾[المائدة : ١٠٣] ؟

ج : البحيرة هي الناقة التي يخصص لبنها للأصنام ، أو الناقة المشقوقة الأذن ، والسائبة هي الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهم ذكر ، لم يركب ظهرها ولم يُجَزَّ وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شَقَّت أذنها وخُلِّي سبيلها مع أمها ، فهي ا لبحيرة ابنة السائبة . وقال الشافعي : إذا نتجت الناقة خمسة أبطن إناثاً بُحِرَتْ أذنها فحرمت .

والوصيلة والحام ، كان أهل الجاهلية يعتقون الإبل والغنم يسيبونها ، فأما الحام من الإبل كان الفحل إذا انقضى ضرابه جعلوا عليه من ريش الطواويس وسيَّبوه . وأما الوصيلة فمن الغنم إذا ولدت أنثى بعد أنثى سيَّبوها . وقيل : إن الوصيلة هي الشاة إذا ولدت سبعة أبطن نظروا فإن كان السابع ذكراً ذبح وأكل منه الرجال والنساء ، وإن كان أنثى تركت في الغنم ، وإن كان ذكراً وأنثى قالوا : وصلت

أخاها فلم تذبح لمكانها ، وكان لحمها حراماً على النساء . ولبن الأنثى حراماً على النساء إلى أن يموت منهما شيء فيأكله الرجال والنساء ، والحامي هو الفحل إذا ركب ولد ولده ، وقيل : إذا نتج من صلبه عشرة أبطن يقال : حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلأ وماء . تفسيرات مختلفة لهذه الأشياء ملئت بها الكتب ، وخلاصتها أن أهل الجاهلية كانوا يحرّمون بعض الحيوانات المأكولة حسب هواهم ومواضعاتهم دون وحي من الله ، فأبطل الإسلام كل هذا . لأن ختام الآية ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[المائدة : ١٠٣] .



فهرس الجزء الأول

العقائد

الإيمان بالله

(٢١ - ١٣٩)

الملائكة

(١٤٠ - ١٥٩)

الكتب

(١٦٠ - ١٧٣)

القرآن الكريم
(١٧٤ - ٤٠١)

الموضوع	الصفحة
حديث «اقرءوا القرآن بلحون العرب ..»	٢٣٤
تحسين الصوت بالقرآن	٢٣٥
قراءة القرآن في المواصلات العامة ..	٢٣٦
قراءة القرآن بالأجر، وأجر تعليمه	٢٣٧
حكم الاستماع إلى القرآن	٢٥٠
اللهو بالتدخين والقهوة والقرآن يتلى	٢٥١
أيهما أفضل: سماع القرآن أو قراءته	٢٥٢
هل ثواب الحفظ مثل ثواب القراءة	٢٥٣
ختم القرآن هل له دعاء مخصوص	٢٥٣
قول: صدق الله العظيم بعد التلاوة	٢٥٤
التنكيس في قراءة القرآن	٢٥٥
البكاء عند قراءة القرآن	٢٥٦
الجنب لا يقرأ القرآن	٢٥٧
قراءة غير المسلم للقرآن وحمل المصحف	٢٥٩
رفع القرآن آخر الزمان	٢٦٠
نسيان القرآن وما يساعد على عدم نسيانه	٢٦١
دعاء وصلاة لحفظ القرآن	٢٦٢
نسخ القرآن، وهل يكون بالسنة	٢٦٣
قصة الغرانيق وعصمة الرسول ..	٢٦٤
جمع القرآن وترتيبه	٢٦٧

الموضوع	الصفحة
رسم المصحف والرسم العثماني ..	٢٧٠
كتابة القرآن بالرسم الإملائي	٢٧٣
كتابة المصحف بحروف غير عربية ..	٢٧٥
كتابة القرآن بالدم	٢٧٦
الأكل على صحف فيها قرآن	٢٧٦
كتابة القرآن على الجدران والملابس وغيرها	٢٧٧
كتابة القرآن للتداوي والشفاء ...	٢٧٨
ترجمة القرآن	٢٨٠
أحاديث في فضائل سور القرآن ودور أبي عصمة فيها	٢٨٣
عدية يس وقراءتها على الظالم	٢٨٤
قراءة سورة يس على الميت قبل الدفن وبعده	٢٨٦
فضل قراءة سورة يس	٢٨٦
فضل قراءة سورة الكهف يوم الجمعة	٢٨٧
قراءة القرآن بصوت مرتفع	٢٩٠
الاقتباس من القرآن	٢٩٠
قول «الفاتحة» بعد قراءة القرآن ..	٢٩٢
حكم الدين في قراءة الفاتحة للنبي...	٢٩٢
قول «الفاتحة» زيادة في شرف النبي..	٢٩٣
قراءة القرآن للموتى	٢٩٤
فضل قراءة سورة الواقعة في منع الفقر ..	٢٩٩
فضل سورة الأنعام، وهل نزلت مرة واحدة	٢٩٩
سبب نزول «عبس وتولى»	٣٠١
السبع المثاني، ما هي	٣٠١

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الطبعة الشرعية
بإذن من الورثة

لفضيلة الشيخ
عطية صقر

موسوعة

أحسن الكلام في الفتاوى والأحكام

حظيت هذه الطبعة بتصحيحات
وتنقيحات بالغة الأهمية

الجزء الثاني

العقائد

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية عابدين القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

موسوعة أحسن الكلام
في الفتاوي والأحكام
٧ أجزاء
فضيلة الشيخ / عطية صقر
الطبعة الأولى لمكتبة وهبة
١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م
((طبعة مزيدة ومنقحة عن الطبعات السابقة))
مراجعة وتصحيح وفهرسة
الشيخ / سعد حسن محمد
المدرس بالأزهر الشريف
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -
عابدين - القاهرة
الجزء الثاني : العقائد
٥٤٤ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠١١/١٥٦٣
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
977-225-283-X



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

صقر، عطية.
موسوعة أحسن الكلام في الفتاوي والأحكام/لعطية صقر.
- القاهرة : مكتبة وهبة، ٢٠١١
مج ١، ٢ ؛ ٢٤ سم
المحتويات : العقائد
تدمك ٩٧٧ ٢٢٥ ٢٨٣ X
١- الفتاوى الشرعية
٢- علم الكلام
أ- العنوان

ديوي ٢٥٩

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر ٦٨ شارع العباسية - القاهرة ت: ٢٤٨٢٧٨٥١

العقائد

- الرسل
- محمد صلى الله عليه وآله وسلم
- اليوم الآخر
- الردة
- الأديان والمذاهب
- الجن

الرسل

س : هل هناك فرق بين الأنبياء والرسل ، وكم عددهم وكيف نعرف تواريخهم؟

ج : النبي إنسان أوحى إليه بشرع يعمل به ولم يؤمر بتبليغه .

والرسول إنسان أوحى إليه بشرع يعمل به وأمر بتبليغه . فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا ، وسيدنا محمد ﷺ نبي ورسول ، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [الأحزاب : ٤٥] وقال تعالى ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] فجمعت الآيتان بين وصفه بالنبوة والرسالة .

وقد يحل لفظ محل الآخر كما قال تعالى ﴿ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٧ ﴾ [الزخرف : ٦ ، ٧] .

هذا أحسن ما قيل فى الفرق بين النبي والرسول ، أما عدد الأنبياء والمرسلين فكثير. قال تعالى ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ [فاطر : ٢٤] وقال تعالى ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ ﴾ [غافر:٧٨] .

وقد ورد حديث رواه ابن حبان في صحيحه عن أبى ذر الغفارى أنه قال : قلت لرسول ﷺ كم عدد الأنبياء؟ «فقال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا [١٢٤٠٠٠]» فقلت : وكم عدد الرسل ؟ فقال «ثلثمائة وثلاثة عشر جمًّا غفيرا [٣١٣]» ولكن الحديث ليس متواترا حتى على فرض صحته ، فلا يفيد إلا الظن والعقائد لا تؤخذ إلا باليقين .

وهناك أقوال كثيرة لا داعى لذكرها ونحن لا نكلف إلا بمعرفة الرسل الذين ذكروا فى القرآن الكريم ، وهم خمسة وعشرون ، وأكثرهم فى الآيات : من ٨٣-٨٦ من سورة الأنعام ، وأولها ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ﴾ وهم فيها ثمانية عشر ، يضاف إليهم سبعة ذكروا في مواضع أخرى ، نظمها بعضهم في قوله :

في تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهم
إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وجاء ذى كتاب «الحاوى للفتاوى»[1]، أخرج الطبرانى عن أبى أمامة أن رجلا قال : يا رسول الله ، أنبى كان آدم ؟ قال «نعم» قال : كم بينه وبين نوح؟ قال «عشرة قرون» قال : كم بين نوح وإبرهيم ؟ قال «عشرة قرون» قال : يا رسول الله كم كانت الرسل ؟ قال : «ثلثمائة وخمسة عشر» رجاله رجال الصحيح .

وجاء في الكتاب أن بين موسى وعيسى ألفا وتسعمائة ونيفا ، وبين عيسى ومحمدﷺ نحو ستمائة .

وترتيب الرسل هكذا : آدم ، إدريس ، نوح ، هود ، صالح ، إبراهيم ، لوط ، إسماعيل ، إسحاق ، يعقوب ، يوسف ، أيوب ، شعيب ، موسى ، هارون ، ذوالكفل ، داود ، سليمان ، إلياس ، اليسع ، يونس ، زكريا ، يحيى ، عيسى ، محمد عليهم الصلاة والسلام .

هذا وحديث أبى ذر الذي صححه ابن حبان ذكره ابن مردويه فى تفسيره وقال: إن ابن الجوزى خالف ابن حبان فى تصحيح الحديث

وذكره فى الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام ، قال الحافظ ابن كثير : ولاشك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث[2] .

أما تواريخ الرسل فقد ألفت فيهم عدة كتب ، والقرآن الكريم اقتصر على ما يهم من هذه التواريخ ، وهو صادق فيما قاله ، فقصصه أحسن القصص ، ما كان حديثا يفترى ، وما عدا ذلك من الأخبار فهو محل نظر ، وكتب التفسير محشوة بكثير منها ، ونحن لانكلف إلا بمعرفة الصادق الذى لا يتعارض مع ما أخبر به القرآن والحديث الصحيح والمرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار حاول فى كتابه عن الأنبياء أن يستخلص ما هو أقرب إلى الصحة إن لم يكن مقطوعا بها ، والحذر من قراءة الكتب القديمة المحشوة بالإسرائيليات وبما لا يتناسب مع مقام الأنبياء من التكريم والتشريف .



س : من هم أفضل الأنبياء والمرسلين ، وما هى درجاتهم فى الفضل ؟

ج : مبدئيا نقول : إن التفاضل بين مخلوقات الله موجود ، سواء فى الأشخاص وفى الأزمان والأمكنة وغيرها . وهذا التفاضل أو الاختلاف من أقوى الأدلة على

١- للسيوطى ص ٢٤٩.　　　٢- المواهب اللدنية للقسطلاني ، ج ٢ ص ٤٦ .

أن للعالم خالقا حكيما مريدا عالما قادرا على كل شيء ، وليس العالم - كما يقول الفلاسفة والملحدون ـ مخلوقا بالطبيعة أو بالعلة ، فمعلوم أن معلول العلة لا يتخلف ومطبوع الطبيعة لا يختلف . ومن مظاهر التفاضل في العالم في المكان فضل الكعبة والحرم ، وفضل المساجد ، وفى الزمان فضل رمضان ويوم الجمعة وليلة القدر ، وفى الأشخاص فضل الرسل ، وفضل العلماء . . . . . . والنصوص في ذلك مشهورة .

وبخصوص المرسلين قال الله تعالى : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

وإن كانوا جميعا متساوين وفى درجة واحدة من وجوب الإيمان بهم جميعا ، كما قال سبحانه ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة : ٢٨٥] وأفضلهم على الإطلاق سيدنا محمد ﷺ وذلك بالنص والإجماع ، وقد رفع الله درجته من عدة وجوه لخصها بعضهم بأنها فى ذاته وذلك بالمعراج حيث وصل إلى مقام لم يصل إليه ملك مقرب ولا نبى مرسل ، وفى شرفه بالسيادة على جميع البشر فهو القائل « أنا سيد الناس يوم القيامة» (١) ، وفى معجزاته حيث أوتى القرآن الذى لم يؤته نبى قبله ، وبعموم رسالته وغير ذلك .

أما التفاضل بين الأنبياء بعضهم مع بعض فهو موجود كما تنص عليه الآية ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء : ٥٥] . والمعتمد أن الرسل أفضل من الأنبياء.

والتفاضل فيما بينهم موجود لكن الأفضل ألا نبحث عن وجوه الفضل بين نبى وآخر أو رسول وآخر ، فقد يؤدى ذلك إلى اختلاف يمكن أن يكون نتيجته غير طيبة ، ولذلك ورد النهى من النبى ﷺ عن ذلك فعلى الرغم من فضله عليهم . فقال «لاتفضلوا بين الأنبياء» وذلك فى حادث نزاع يهودى مع مسلم وحلف اليهودى أن موسى أفضل العالمين (٢) . وقال «ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى» قال العلماء : إنه قال ذلك من باب التواضع ، وقال القاضى عياض: لا نفضل بعضا على بعض تفضيلا يؤدى إلى تنقيص بعضهم أوالغَضّ منه، قال

١- رواه البخارى ومسلم . ٢- رواه البخارى ومسلم .

ابن حجر : قال العلماء : إنما نهى ﷺ عن ذلك من يقوله برأيه ، لا من يقوله بدليل، أي من يقوله بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضول ، أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع ، وللمزيد يمكن الرجوع إلى شرح الزرقاني على المواهب اللدنية [1] .

جاء في فتاوى الإمام النووي المسماة بالمسائل المنثورة في المسألة رقم ٣٥٤ : رجلان قال أحدهما: إن نبينا محمدا ﷺ أفضل الأنبياء وأشرفهم ، وقال الآخر : هذا الكلام لا يجوز ، وهذا اعتقاد باطل ، وقال : لا يجوز تفضيل بعض الأنبياء على بعض ، فأيهما المصيب ؟ وهل يعزر واحد منهما على هذا القول ؟ .

الجواب : هذا الذي اعتقده الأول هو الصواب ، وهو اعتقاد المسلمين ، وقد تظاهرت الدلائل على تفضيل نبينا محمد ﷺ على سائر الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وأما الرجل الثاني فمخطئ في كل ما قاله ، وعليه التعزير في قوله .. ولا يجوز الكلام في هذا ولا التفضيل ، إلا أن يكون جاهلاً لا يعلم قول الله تعالى : ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، وقوله : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء : ٥٥] وفي الحديث الصحيح المشهور أن رسول الله ﷺ قال «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» [2] . وأما الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال «لا تفضلوا بين الأنبياء» [3] . فأجاب العلماء عنه بخمسة أجوبة مشهورة ، أحدها: أنه ﷺ نهى قبل أن يعلم أنه أفضلهم ، فلما علم قال «أنا سيد ولد آدم» والثاني : أنه نهى عن تفضيل يؤدي إلى الخصومة ، كما ثبت في الصحيح في سبب هذا الحديث عن لطم المسلم اليهودي ، والثالث : نهى عن تفضيل يؤدي إلى تنقيص بعضهم ، لا عن كل تفضيل . ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ والرابع : قاله تواضعاً ، والخامس : نهى عن التفضيل في نفس النبوة لا في ذوات الأنبياء وعموم رسالاتهم وزيادة خصائصهم .



١- ج ٦ ص، ١٣٠ ـ ١٤٠ .
٢- رواه مسلم .
٣- رواه مسلم .

س : هل تمكن معرفة الفترات التى فصلت بين الرسل ؟

ج : لم يرد تحديد الزمن الذى بين كل رسولين ، لا فى القرآن ولا في السنة ، مع العلم بأن عدد الرسل كبير ، والذين جاء ذكرهم في القرآن خمسة وعشرون فقط ، قال تعالى : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾[النساء : ١٦٤] وقال ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ ﴾[غافر :٧٨] .

وحاول بعض المؤرخين تحديد الفترات التى بين الرسل ، مثل محمد بن سعد فى كتابه «الطبقات» فذكر عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كان بين موسى بن عمران وعيسى ابن مريم عليهما السلام ألف سنة وسبعمائة سنة ، ولم يكن بينهما فترة ، وأنه أرسل بينهما ألف نبى من بنى إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم ، وكان بين ميلاد عيسى والنبى ﷺ خمسمائة سنة وتسع وستون سنة ، بعث فى أولها ثلاثة أنبياء ، وهم فى قوله تعالى ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ [يس : ١٤] والذى عزز به «شمعون» وكان من الحواريين ، وكانت الفترة التى لم يبعث الله فيها رسولا أربعمائة سنة وأربعا وثلاثين سنة . وذكر الكلبى أن بين عيسى ومحمد عليهما السلام خمسمائة سنة وتسعا وستين ، وبينهما أربعة أنبياء ، واحد من العرب من بنى عبس ، وهو خالد بن سنان . قال القشيرى : ومثل هذا لا يعلم إلا بخبر صادق . وقال قتادة : كان بين عيسى ومحمد عليهما السلام ستمائة سنة ، وقاله مقاتل والضحاك ووهب بن منبه ، إلا أن وهبا زاد عشرين سنة ، وعن الضحاك أيضا أربعمائة وبضع وثلاثون سنة .

وذكر ابن سعد عن عكرمة قال : بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الإسلام ، قال ابن سعد : أخبرنا محمد بن عمرو بن واقد الأسلمى عن غير واحد قالوا : كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، والقرن مائة سنة ، وبين نوح وإبراهيم عشرة قرون ، والقرن مائة سنة ، وبين إبراهيم وموسى بن عمران عشرة قرون ، والقرن مائة سنة ، فهذا ما بين آدم ومحمد عليهما السلام من القرون والسنين[1] وهى كلها أخبار لا يسندها دليل معتبر .



١- تفسير القرطبى ج ٦ ص ١٢١ .

س : ما الحكمة في بعثه الرسل كلهم في الشرق الأوسط من الأرض؟

ج : ليكن معلوما أن الله سبحانه أرسل رسلا كثيرين كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر : ٧٨] وقال تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر : ١٢٤] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾[النحل : ٣٦] نعلم من هذه النصوص أنه يجوز أن يكون الله سبحانه قد أرسل رسلا فى غير منطقة الشرق الأوسط ، على أن المختصين قالوا : إن العمران البشرى بدأ أول ما بدأ فى هذه المنطقة ، وذلك لاعتدال جوها وكثرة خيراتها المتاحة من المياه ، والنبات وغيرها ، ووجود عوامل ساعدت على تجمع الناس وتكوين وحدات مستقرة ، أو على الأقل متعاونة متحدة ، والغالب أن يكون لهذه العلاقات الاجتماعية أثر كبير على الفكر والسلوك ، الذى قد يشيع ويعم الوحدة الاجتماعية كلها ، ومن هنا كانت الحاجة أمسَّ لإرسال رسول يهدى الضالين فى العقيدة والسلوك ، فالرسول لا يأتى لأفراد متناثرة ولكن لوحدات مترابطة ، حتى لايكون للناس على الله حجة ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء : ١٦٥] .



س :ما هي الحكمة في أن يكون الرسل من البشر وليسوا من الملائكة مثلاً؟

ج : الرسل المبلغون عن الله إلى المكلفين إما ملائكة وإما إنس وإما جن ، أما الملائكة فلا يمكنهم أن يقوموا بالرسالة لعدم التوافق بينهم وبين من يرسلون إليهم ، وجاء النص على ذلك فى قوله تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء : ٩٥] . وذلك بعد قول الكافرين : ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء : ٩٤] وقوله : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾[الأنعام : ٨ ، ٩] .

وأما الجن فلا يكون منهم رسل إليهم مع أنهم مكلفون ، لأن جنسهم لايستطيع أن يحقق الخلافة فى الأرض التي خلق الله لها آدم أبا البشر ، فآدم وذريته هم المقصودون بهذه الخلافة بعد أن أفسد من كانوا قبلهم ، والجن تبع للإنس ، فلم يبق إلا الإنس يختار الله منهم رسلا إلى الإنس وإلى الجن أيضاً ، وقد جاء النص على أن الرسول محمد ﷺ أرسل إلى الإنس والجن ، وأن بعضهم استمع إلى القرآن وآمن به . ومراعاة التوافق والتناسب بين الرسل والذين أرسلوا إليهم مذكورة في قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم : ٤] . والمكذبون للرسل عجبوا أن جاءهم منذر منهم أي من جنسهم وقالوا عن نوح عليه السلام: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون :٣٣ ، ٣٤] كما قالوا عن محمد ﷺ : ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء :٩٤] .



س: هل الأنبياء معصومون قبل الرسالة ؟

ج : جاء فى تفسير القرطبى [1] لقوله تعالى : ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى : ٥٢] – أن القاضى عياض ذكر أن للناس خلافا فى عصمة الأنبياء قبل النبوة . والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك فى شيء من ذلك . وقد تعارضت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ونشأتهم على التوحيد والإيمان ، بل إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة ، كما عرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم . قال تعالى عن يحيى ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾[مريم : ١٢] وقال عن عيسى الذى تكلم فى المهد ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم : ٣٠ -٣٣] ، وذكر أشياء عن سليمان وإبراهيم ويوسف... إلى أن قال : ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحدا نُبِّئ واصطفى ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك ، ومستند هذا الباب هو النقل .

١- ج ١٦ ص ٥٥ وما بعدها .

ثم ذكر القرطبى أن نبينا محمدا ﷺ هل كان متعبدا بدين قبل الوحى أم لا؟ فمنهم من منع ذلك مطلقا وأحاله عقلا ، لأنه يبعد أن يكون متبوعا من عرف تابعا . وبنوا هذا على التحسين والتقبيح . وقالت فرقة أخرى بالوقف فى أمره عليه السلام وترك قطع الحكم عليه بشىء من ذلك ، إذ لم يحل الوجهين منهما العقل ولا استبان عندها فى أحدهما طريق النقل ، وهذا مذهب أبى المعالى . وقالت فرقة ثالثة : إنه كان متعبدا بشرع من قبله وعاملا به . ثم اختلف هؤلاء فى التعيين ، فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبله ، فلا يجوز أن يكون النبى على دين منسوخ ، وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم ، لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء ، وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى ، لأنه أقدم الأديان . وذهبت المعتزلة إلى أنه لابد أن يكون على دين ، ولكن عين الدين غير معلومة عندنا .

وقد أبطل هذه الأقوال كلها أئمتنا ، إذ هى أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة وإن كان العقل يجوز ذلك كله . والذى يقطع به أنه عليه السلام لم يكن منسوبا إلى واحد من الأنبياء نسبة تقتضى أن يكون واحدا من أمته ومخاطبا بكل شريعته ، بل شريعته مستقلة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم عز وجل ، وأنه كان مؤمنا بالله عز وجل ، ولا سجد لصنم ولا أشرك بالله ، ولا زنى ولا شرب الخمر ولا شهد الساحر - موضع السحر - بل نزهه الله وصانه عن ذلك . . . . ومعروف من سيرته أنه كان يخالف المشركين فى وقوفهم بمزدلفة فى الحج وكان يقف هو بعرفه لأنه موقف إبراهيم عليه السلام .

ثم بيَّن القرطبى معنى ﴿مَاكُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى : ٥٢] فقال جماعة : معنى الإيمان شرائع الإيمان ومعالمه ، ذكره الثعلبى ، وقيل : تفاصيل هذا الشرع ، أى كنت غافلا عن هذه التفاصيل ، ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع ، ذكره القشيرى ، وقيل : ما كنت تدرى قبل الوحى أن تقرأ القرآن ، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ، وقال ابن خزيمة : عنى بالإيمان الصلاة ، لقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾ [البقرة :١٤٣] أى صلاتكم إلى بيت المقدس، فيكون

اللفظ عاما والمراد الخصوص . وذكر أقوالا كثيرة غير هذه . ثم قال : الصحيح أنه ﷺ كان مؤمنا بالله عز وجل من حين نشأته إلى حين بلوغه ، وقيل: المعنى : كنت من قوم أميين لا يعرفون الكتاب ولا الإيمان حتى تكون قد أخذت ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[العنكبوت : ٤٨] انتهى [1].



س : من هم أولو العزم الذين أمر الله نبيه أن يصبر كما صبروا؟

ج : يقول الله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾[الأحقاف : ٣٥] أولو العزم مختلف فيهم على أقوال كثيرة ، فقيل : هم كل الرسل ، ولفظ «من» للبيان لا للتبعيض ، وقيل : هم بعض الرسل مع اختلاف فى تعيينهم وفى عددهم ، ومن أقوى الآراء أنهم المذكورون فى قول الله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾[الأحزاب : ١٧] وسموا بذلك لأنهم صبروا كثيرا فى تبليغ دعوتهم حتى نصرهم الله . ومن صور معاناتهم ما جاء فى قوله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .



س : هل يجوز تمثيل الأنبياء والرسل على المسارح وفى الأفلام ؟

ج : التمثيل لفظ مأخوذ من مادة فيها المشابهة ، فيقال : هل هذا الشيء مثل هذا الشيء أو مماثل له ، إما من كل الوجوه أو بعضها ، والشخص الذي يقوم بتمثيل شخص آخر يحاول أن يكون مشابها له فى فعله أو قوله أو أشياء أخرى .

١- يمكن الرجوع فى عصمة الأنبياء إلى الجزء الثانى من المواهب اللدنية ص ٨٢ للقسطلانى والشفا للقاضى عياض .

وقد قرر الخبراء أنه لا يمكن مطلقا أن يقوم أحد بتمثيل شخصية أحد آخر تمثيلا كاملا من كل الوجوه ، فالتفاوت حاصل لا محالة بين الأصل والصورة ، والكذب موجود دون شك ولو بقدر ، وهذا التفاوت الكاذب إن كانت الصورة فيه أحسن من الأمل فقد يقبلها الأصل لأنها لا تسبب له ضررا ، أما إن كانت أقل من الأصل فقل أن يكون هناك رضا عنها من الأصل ، وهنا يكون الممثل قد آذاه ، وإيذاء الغير بدون وجه حق ممنوع عقلا وشرعا ، لأنه ظلم والظلم حرام ، والنصوص فيه كثيرة ، منها قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] والإيذاء أعم من أن يكون ماديا أو أدبيا ، وفى الحديث الحسن « لا ضرر ولا ضرار » .

لقد منع العلماء تمثيل الشخصيات المحترمة ، وهى درجات أعلاها الأنبياء والرسل ، هؤلاء يحرم تمثيلهم على الإطلاق ، كما يحرم رسمهم وتصويرهم ، وذلك لأمور :

١- أن التمثيل أو الرسم أو التصوير لا يكون أبدا مطابقا تمام المطابقة للأصل كما قدمنا ، فهو كذب بالفعل إن لم يكن معه كذب بالقول ، والكذب عليهم حرام بالنص ، ففى حديث البخارى ومسلم «من كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» وهذا إن كان فى حق النبى ﷺ ، فكل الأنبياء والرسل فى ذلك سواء .

٢- أن فى عدم الدقة فى تمثيلهم أو تصويرهم - وهى غير ممكنة - إيذاء لهم ، وبخاصة إذا كانت الصورة أقل من الأصل ، وإيذاؤهم حرام ، بل أشد حرمة من إيذاء شخص عادى ، قال تعالى فيهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [الأحزاب :٥٧] وإيذاء أي رسول كإيذاء الرسول محمد عليه الصلاة والسلام .

٣- أنهم قدوة للغير ، فالكذب عليهم بالتمثيل ونحوه تضليل لمن يقتدون بهم ، قال تعالى لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام بعد ذكر عدد من الأنبياء يبلغون ثمانية عشر نبيا ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] وقال فى حق النبى ﷺ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١] .

٤ - أن التمثيل أو التصوير إذا لم يكن جيدا ربما يهز الصورة التي عند المشاهدين عن هذه القمم الشوامخ من احترامهم وتقديسهم ، وذلك مدعاة للانصراف عنهم وعدم حبهم أو الاقتداء بهم ، والناس مأمورون بحبهم وباتباعهم .

ولهذه الأمور ولغيرها كان تمثيل الأنبياء والرسل أو تصويرهم أو التعبير عنهم بأية وسيلة من الوسائل حراما ، ذلك فى فتوى للشيخ حسنين مخلوف في شهر مايو ١٩٥٠م [1] ولجنة الفتوى بالأزهر فى شهر يونيه ١٩٦٨ م ، ومجلس مجمع البحوث الإسلامية فى فبراير ١٩٧٢ ، والمؤتمر الثامن للمجمع فى أكتوبر ١٩٧٧ م ، ومجلس المجمع فى أبريل ١٩٧٨ م ، ودار الإفتاء فى أغسطس ١٩٨٠ م .

وكان منطلق التحريم هو أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، فإذا كانت الثقافة تحتاج إلى خروج على الآداب فإن الضرر من ذلك يفوق المصلحة - وذلك إلى جانب مبررات التحريم التى سبق ذكرها - كما جاء فى عبارة دار الإفتاء : أن عصمة الله لأنبيائه ورسله من أن يمثل بهم شيطان مانعة من أن يمثل شخصياتهم إنسان .

ويمتد ذلك إلى أصولهم وفروعهم وزوجاتهم وصحابة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن جهة العبرة من قصص الأنبياء قال : كيف تتأتى الاستفادة من تمثيل إنسان لشخص نبى ، ومن قبل مثل شخص عربيد مقامر سكير رفيق حانات وأخ للدعارة والداعرات ، ومن بعد يمثل كل أولئك أو كثيرا منهم ؟ .



س : هل كان الأنبياء ملتزمين للوحى الذى يأتيهم من عند الله ، أو كانت لهم اجتهادات فى بعض الأحيان لا يلتزمون فيها بالوحى؟

ج : ذكر القرطبى فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ ﴾ [الأنبياء : ٧٨] أن العلماء اختلفوا فى جواز الاجتهاد على الأنبياء ، فمنعه قوم ، وجوزه المحققون ، لأنه ليس فيه استحالة عقلية ، فالعقل دليل شرعى ، وهو

١ - الفتاوى الإسلامية - المجلد الرابع صفحة ١٢٩٧ .

يكون إذا لم يوجد نص ، وفى بعض الأحيان لا يكون هناك نص فى مسألة ، بل لهم الاجتهاد فى النص ، وهم معرضون للخطأ فيه ، إلا أن الله سبحانه لا يقرهم على خطئهم .

وذكر القرطبى أن النبى ﷺ سألته امرأة عن العدة ، فقال لها « اعتدى حيث شئت » ثم قال لها «امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» وقال له رجل : أرأيت لو قتلت صبرا محتسبا أيحجزنى عن الجنة شيء؟ فقال «لا» ثم دعاه فقال « إلا الدين ، كذا أخبرنى جبريل عليه السلام» وقد قرر القرآن الكريم أن داود أخطأ فى الحكم فى قضية الغنم التى أكلت زرع الفقير ، وفهم الله الحكم الصحيح لسليمان ، فذلك دليل على أن الأنبياء لا يقرون على خطئهم ، فحكمهما كان باجتهاد كما رآه الجمهور ، وليس حكم داود بوحى نسخه وحى نزل على سليمان .

وقد ثبت أن النبى ﷺ استشار أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فى شأن أسرى بدر ، ثم اختار رأى أبى بكر ، وأقره الله عليه وأباح له فداءهم وأحل له المال الذى أخذه فدية ، قال تعالى ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾[الأنفال : ٦٨ ، ٦٩] كما ثبت أنه قبل اعتذار بعض المنافقين عن تخلفهم عن الغزوة بناء على ما أبدوه من أعذار ، فنزل فى ذلك قوله تعالى ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[التوبة : ٤٣] .

فالخلاصة أن الأنبياء لهم الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص ، وفى فهم المراد من النص، ويجوز عليهم الخطأ على رأى الجمهور ، إلا أنهم لا يقرون على خطئهم ، وقد وقع الاجتهاد من بعضهم كداود وسليمان ومن سيدنا محمد ﷺ ، وصوره كثيرة ، وقد ثبت أنه ﷺ استعمل القياس فى اجتهاده ، فقد صح فى البخارى أن امرأة من جهينة قالت له : إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت ، أفأحج عنها؟ قال «حجّى عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا فإنه أحق بالقضاء» وروى مسلم أن رجلا قدم من جيشان - باليمن - فسأل الرسول ﷺ عن شراب

يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له «المزر» فقال له «أوَمُسكر هو» ؟ قال : نعم ، فقال «كل مسكر حرام» .

وإذا كان الرسول ﷺ اجتهد فللمسلمين فيه أُسوة حسنة ، أى يجوز لهم الاجتهاد، فى حياته وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، فقد أقر سعد بن معاذ فى بنى قريظة حيث حكم بقتل الرجال وسبى الذرارى والنساء وأخذ أموالهم وقال له «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات» [1] ، ولما توجه الصحابة إلى بنى قريظة قال لهم « لا يصلينَّ أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة ، فوقف بعضهم عند النص احتراما له ولم يصل العصر إلا فى بنى قريظة وقد فات الوقت . وفهم بعضهم من النص أن المراد هو الإسراع والمبادرة فصلى العصر قبل الوصول إلى بنى قريظة حفاظا على الوقت ، ولما ذكروا ذلك للنبى ﷺ لم يعنف واحدا منهم [2] ، وإقراره لمعاذ حين بعثه إلى اليمن حين قال فى القضاء : أقضى بالكتاب فإن لم أجد فبالسنة ، فإن لم أجد أجتهد رأيي ولا آلو ، حيث قال له : «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي الله ورسوله» [3] .



س : هل يرث ابن النبى أباه في النبوة ، أو أنها هبة من الله سبحانه لمن يصطفيه؟

ج : يقول الله تعالى عن دعاء زكريا ربه ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[مريم : ٥ ، ٦] ويقول : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل : ١٦] ويقول ﷺ « إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» [4] ويقول «إن العلماء ورثة الأنبياء» [5].

١- كما رواه البخارى ومسلم .
٢- رواه البخارى ومسلم .
٣- أبو داود والترمذي .
٤- رواه البخارى ومسلم ، الجامع الكبير للسيوطى ص ١٠٤٧ .
٥- رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان وغيرهم .

تحدث القرطبى فى تفسيره [1] عن التوارث بين الأنبياء ، وذكر أن هناك ثلاثة آراء للعلماء فى النصوص التى تثبت الوراثة ، هل هى وراثة نبوة ، أو وراثة حكمة ، أو وراثة مال ؟ وبيَّن أن وراثة النبوة مستحيلة ، ولو كانت تورث لقال قائل : الناس ينتسبون إلى نوح عليه السلام وهو نبى مرسل - يعنى يمكن لأى إنسان أن يقول أنا نبى ، أو معى قسط من النبوة حتى الكفار - ووراثة العلم والحكمة رأى حسن ولا مانع منه ، ومثلها وراثة العلماء لعلم الأنبياء ، ووراثة سليمان لداود هى من هذا القبيل ، أما وراثة المال فهى غير ممنوعة ، لكن كيف ذلك والحديث يمنع ؟ وأجاب عن ذلك بأن وراثة زكريا ووراثة داود ، لا مانع منها ، وما جاء في الحديث فهو خاص بالنبي محمد ﷺ ، وعبَّر بصيغة الجمع ويقصد نفسه هو ، فهذا التعبير سائغ ، ويمكن أن يراد به أن ما تركناه على سبيل الصدقة لا يورث كالتركة .

يؤخذ من هذا أن وراثة النبوة ممنوعة ، فهي هبة من الله يعطيها من يصطفيه من عباده ، يقول ابن عطية : داود من بني إسرائيل وكان ملكاً ، وورث سليمان ملكه ومنزلته من النبوة بمعنى صار إليه ذلك بعد موت أبيه ، فسمي ميراثاً تجوزاً ، يعني أن الله هو الذي أعطاه ذلك باصطفائه له ، وليس إرثاً حتميًّا من أبيه كما تورث الأموال .

ومهما يكن من شيء فإن ذلك أمر لايعنينا بعد أن ختمت النبوة بسيدنا محمد ﷺ ، وليس لأحد من بعده ـ وبخاصة ممن ينتسبون إليه ، أن يدعيها كميراث وكان من حكمة الله أنه لم يجعل لنبيه ولداً يعيش من بعده حتى لا يدعي وراثة النبوة ، وعلينا أن نهتم بميراثه الذي تركه لنا وهو العلم ، الذي نبه أحد الصحابة إليه ، حيث قال لهم : أنتم هنا وميراث الرسول ﷺ يقسم في المسجد ، فلما ذهبوا لم يجدوا إلا حلقة العلم فعرفوا أنها المقصودة بالميراث .

وهو شرف كبير أن يكون العلماء هم ورثة هذا الهدي النبوي الذي أوصى بالتمسك به كما جاء في الحديث «تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي أبدا ، كتاب الله وسنتي» [2] .



١- ج ١١ ص ٨١ .
٢- رواه الحاكم وصححه .

س : هل هناك رسل أرسلت إلى الجن وديانات كلفت بها؟

ج : الجن مكلفون كالإنس ، والنصوص فى ذلك كثيرة ، منها قوله ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] والتكليف لا يتم إلا برسالة لئلا يكون للناس على الله حجة ، قال تعالى : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ﴾[الأنعام : ١٧٠] .

ومما يؤكد إرسال رسل إلى الجن قوله تعالى ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ ﴾ [الجن: ١، ٢] ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ٢٩] .

فالرسل إلى الجن هم من الإنس ، ولم يثبت أن الله أوحى بشرع إلى جنى ليبلغه إلى الجن ، بل كانوا يسمعون من الرسول البشر ، وهم بدورهم يبلغون ما سمعوه إلى قومهم كما تدل عليه هذه الآية ، والمهم أنهم مكلفون ، سواء أكان الرسول بشرا أم جنيا .



س : يقول بعض الناس إن الرسل السابقين لم يبعثوا إلا إلى الإنس فقط ، وأما سيدنا محمد ﷺ فمن خصائصه أنه أرسل إلى الإنس والجن فهل هذا صحيح؟

ج : سبق أن ذكرنا أن الجن مكلَّفون كالإنس ، ولا بد للتكليف من رسالة رسول، ومن المؤكد أن النبى ﷺ أرسل إلى الجن كما أرسل إلى الإنس ، قال ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ ﴾ [الجن : ١ ، ٢] وقال ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف : ٢٩-٣١] . فهل قولهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ....﴾ يدل على أن موسى كان مرسلا إلى الجن ، أو لم يكن مرسلا إليهم ولكنهم عرفوا أن كتابا نزل عليه ، وهل معرفتهم بموسى تدل على إيمانهم به أو عدم إيمانهم؟ .

بعض العلماء يقول : كان الجن الذين لقوا النبى ﷺ يهودا يعني آمنوا بموسى. ومنهم عطاء الذى قال : كانوا يهودا فأسلموا وارتضى القرطبى فى تفسيره هذا الرأى [١] ويقول ابن عباس : إن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام ، وقوله تعالى ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يراد به التوراة لا الإنجيل ، فهل هؤلاء الجن كانوا مقيمين بالمنطقة التى أرسل فيها موسى فقط ، ولم يدخلوا المنطقة التى أرسل فيها عيسى ؟ وهل كان إيمانهم بموسى تكليفا ألزموا به أو كان اختيارا منهم دون تكليف ؟ وكل ذلك مع التسليم بأن كل الجن مكلفون بعبادة الله ومحاسبون يوم القيامة ، ومن الجائز أن يرسل إليهم رسل غير المذكورين فى القرآن وهم خمسة وعشرون ، فالله يقول ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء : ١٦٤] .

ولعدم التأكد من رسالة موسى وعيسى وغيرهما إلى الجن قال بعض العلماء ، ومنهم مقاتل بن سليمان من رجال التفسير : لم يبعث الله نبيا إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ [٢] .

وارتضى القرطبي هذا القول واستدل عليه بما رواه مسلم في صحيحه عن جابر ابن عبد الله الأنصاري أن النبي ﷺ قال «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ، كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض طيبة طهورا ومسجدا ، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونُصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر ، وأعطيت

١- ج ١٦ ص ٢١٧ .
٢- تفسير القرطبي ج ١٦ ص٢١٧ .

الشفاعة» قال مجاهد : الأحمر والأسود هما الجن والإنس ، وفى رواية من حديث أبى هريرة «وبعثت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون» .

ويفرع القرطبي على ذلك مسألة يقول فيها : إن الجن كالإنس فى الأمر والنهى والثواب والعقاب . وقال الحسن : ليس لمؤمنى الجن ثواب غير نجاتهم من النار ، يدل عليه قوله تعالى ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وبه قال أبوحنيفة قال: ليس ثواب الجن إلا أن يجاروا من النار ، ثم يقال لهم : كونوا ترابا مثل البهائم، وقال آخرون : إنهم كما يعاقبون فى الإساءة يجازون فى الإحسان مثل الإنس، وإليه ذهب مالك والشافعى وابن أبى ليلى ، وقد قال الضحاك وابن مزاحم : الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون . قال القشيرى : والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه بشىء والعلم عند الله . انتهى ما قاله القرطبي .

وجاء فى شرح الزرقانى على المواهب اللدنية للقسطلانى [1] أن من أدلة مالك على الثواب والعقاب قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ثم قال ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦ ، ٤٧] والخطاب للإنس والجن ، فإذا ثبت أن فيهم مؤمنين ومن شأن المؤمن أن يخاف مقام ربه ثبت المطلوب . وجاء فى الرد على أبى حنيفة فى أنهم لا يثابون بأن الثواب مسكوت عنه - أى فى الآية التي استدل بها - وأن ذلك من قول الجن فيجوز أنهم لم يطلعوا على ذلك وخفى عليهم ما أعده الله لهم من الثواب.

وبعد ، فإن الكلام فى ثواب الجن المؤمن من أمور الغيب وقول القشيرى فيه صحيح ، وليس ذلك مما يهمنا عمليا فى الدنيا ، وما ذكرته إلا للسؤال عنه من جملة الأسئلة الكثيرة التى توجه إلَيَّ . ومن أراد الاستزادة فعليه بكتاب «أكام المرجان»[2].



١- ج ٥ ص ٦٩ .
٢- للشبلى ص ٣٤- ٦٣.

س : هل هناك حساب للأنبياء والرسل يوم القيامة ؟

ج : ليكن معلوما أن أحوال الآخرة من الغيب لا تعرف إلا بخبر صادق من القرآن والسنة ، واعتقاد هذه الأحوال يكون عن نص قطعى الثبوت والدلالة وما وراء ذلك يدخل فى دائرة الاجتهاد الذى لا يلزم اعتقاد نتيجته ، ولا يكفر من لا يصدقه .

وقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٦] .

وهو سؤال عن التبليغ لا عن الأعمال التى يمارسها كل مؤمن ليجازى عليها ، فذلك ما يطلق عليه اسم الحساب الذى يتصل به عرض الكتاب وقراءته ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

غير أن هناك استثناءات من الحساب جاء بعضها فى الحديث المتفق عليه أن سبعين ألفا من أمة النبى ﷺ يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وعينهم بقوله «وهم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» .

ومن المعلوم أن الرسل قد عصمهم الله من الذنوب وغفر لهم ما عسى أن يكون قد صدر عنهم فى صورة ذنب وهو ليس بذنب ، وما دام الله قد غفر لهم فعلى أى شيء يحاسبهم حساب مناقشة ، وإذا كان المذكورون من السبعين ألفا لا يرقون إلى درجة الأنبياء والرسل قد أعفاهم الله من الحساب فهل يكون للأنبياء والرسل حساب ؟ نعم سيسألون عن تبليغ الرسالة كشهادة على أممهم أما سؤال الحساب وما يترتب عليه من جزاء فلا .

وإذا كان الأنبياء لا يسألون فى القبر فكيف يحاسبون يوم القيامة ؟

يقول الشيخ الصاوى فى كتابه [1] : اتفق جمهور أهل السنة على عدم سؤال شهيد الحرب ، والسر فى ذلك كونهم أحياء فلذلك لا يغسَّلون وكذلك الرسل والأنبياء لا يسألون أيضاً على التحقيق .



س : هل صحيح أن الأنبياء أحياء في قبورهم ، وكيف نوفق بين حياتهم فيها وقوله تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾؟

ج : معلوم أن كل كائن حى لابد أن يموت ، قال تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] وقال تعالى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن : ٢٦] وقال تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٤] وقال تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] .

وبعد موت الإنسان ستكون هناك حياة له من نوع آخر ، فإذا فنى الجسد وصار ترابا فالروح باقية ، ولها اتصال إلى حد ما بالجسد تختلف درجات هذا الاتصال من شخص لآخر ، وقد قال الله سبحانه فى الشهداء ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

وبخصوص الأنبياء روى أبو داود والبيهقى أن النبى ﷺ قال : «من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه ، وإن صلاتكم تعرض عليَّ» قالوا: يا رسول الله وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت - بفتح الراء - يعنى بليت؟ فقال : «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» وروى أبو داود أيضا حديث «ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحى حتى أرد عليه السلام» وروى أحمد والنسائى والحاكم وصححه وغيرهم حديث «إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغوني عن أمتى السلام» .

١- مشارق الأنوار ص ٢٩.

يقول السيوطى [1] : حياة النبي ﷺ في قبره وحياة سائر الأنبياء معلومة عندنا علما قطعيا ، لكثرة الأدلة وتواتر الأخبار ، وقد ألف البيهقى جزءا في حياتهم ، ومن الأخبار ما رواه مسلم أن النبي ﷺ ليلة أسرى به مر على موسى وهو قائم يصلى في قبره ، وصح أن النبي ﷺ اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفى السماء .

جاء فى وصف موسى عندما عرج به «فإذا هو رجل ضرب جعد كأنه رجل من شنوءة» ومعنى ضرب متوسط الحجم أو ضعيف اللحم ، ومعنى جعد شعره غير سبط ، وشنوءة قوم من الزط سمر اللون وهذا يؤكد رؤيته البصرية .

وجاء في هذا الحديث أيضا «وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلى أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفى ، وإذا إبراهيم قائم يصلى أشبه الناس به صاحبكم...» فهل رآهما في قبريهما كما رأى موسى في قبره ، أو رآهم يصلون فى المسجد الأقصى حيث جاء فى الحديث : فحانت الصلاة فأممتهم .

بعد الأخبار المذكورة وبعد كلام السيوطى في تواتر الأخبار وكثرة الأدلة على حياة الأنبياء في قبورهم يمكننا أن نطمئن إلى ذلك ولا نكذب ، بالإضافة إلى أن النبي ﷺ أفضل من الشهداء ، وقد قال الله فيهم : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] ولا يقال : قد يكون فى المفضول ما ليس فى الفاضل ، لأن محل ذلك ما لم يرد نص وقد ورد .

وحياتهم فى القبور مختلف في كيفيتها ، وجمهور المسلمين على أنها حياة حقيقية لامجازية ، وقد وضح الفخر الرازي ذلك فى تفسيره لهذه الآية .

وأما قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] فمعناه أن روحك ستفارق بدنك وتدخل فى عالم آخر كسائر الناس قال تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأنبياء: ٣٤ ، ٣٥] .

---

١ – فى كتابه «إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء» .

وحديث رد روح النبى ﷺ ليجيب من يسلم عليه إن كان ظاهره يفيد أن روحه الشريفة تفارق جسده الشريف فقد أجاب على ذلك العلماء بأجوبة أوصلها السيوطى إلى سبعة وعشرين وجها ، أحسنها أنه ﷺ يكون مستغرقا بمشاهدة حضرة القدس فيفنى عن إحساسه الشريف ، فإذا سلم المسلم عليه ترد روحه من هذا الاستغراق إلى الإحساس لأجل الرد ، كما نرى في الدنيا من يكون مشغول البال قد لا يحس بمن يتكلم بجواره[1] هذا ، وعدم أكل الأرض أجساد الأنبياء ثابت بالحديث السابق ، وهو حديث صحيح عند كثير من العلماء كابن خزيمة وابن حبان والحاكم وأقره الذهبى كما صححه النووى في كتابه «الأذكار» .

والعقائد وأخبار الغيب تؤخذ من الأدلة القطعية فى الثبوت والدلالة والخلاف موجود فى كفاية حديث الآحاد فى ذلك ، وما دام الأمر داخلا فى قدرة الله سبحانه ، مع اختلاف قوانين عالم الغيب والشهادة ، ومع عدم مصادمة ذلك لأمر متطوع به فالقلب يطمئن إلى قبوله .



س: ورد سؤال من عميد كلية التربية بالجامعة الإسلامية الحكومية في سومطرة الشمالية بإندونسيا سنة ١٩٧٢م يقول : ظهر كتاب في إندونسيا بعنوان «القرآن وتاريخ الإنسانية» ، قرر فيه مؤلفه بإسهاب أن أول الإنسان هو أنثى لا رجل وأن أهل الأديان جميعاً أخطأوا في قولهم . إن أول البشر آدم، واستدل بأدلة عقلية وعملية ، مستأنسا بقوله ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ﴾ ويسأل :

---

١ - المحنة الوهبية ص ٦.

١ - هل يجب الاعتقاد بأن أول البشر هو آدم عليه السلام ، وما حكم من قال: إن أول البشر على الإطلاق أنثى لا رجل؟

٢- هل يوجد من علماء المسلمين سلفا وخلفا من يقول بأن أول البشر على الإطلاق أنثى لا رجل ؟

ج : اعلم أن القرآن لم ينزل ليعلم الناس حقائق علمية في المجالات المختلفة ، ولكنه نزل للإعجاز والهداية ، يحدد ما يجب تحديده كالعقائد والعبادات ، ويضع أصولا كلية وأوامر عامة فيها يختلف باختلاف البيئات والعصور ، غير أنه إذا وردت فيه مسائل علمية بقصد الإعجاز والهداية فإنها حق لا شك فيه حتى لو لم يفهمها الناس ، فإن جهلها لا يضر ، أو أن الزمن كفيل ببيان المراد منها عندما تحتمل أدوات المعرفة.

وقد نصح العلماء بعدم الإسراع لربط المكتشفات الحديثة بالقرآن ، فقد تكون هذه المكتشفات ما تزال في طور النظرية القابلة للتغيير ، فلا ينبغي أن تحمل عليها آيات القرآن حملاً قد يكون فيه تعسف ، وقد يضر بتقدير الناس للقرآن عندما يتبين أن هذه النظريات خطأ .

وتاريخ الإنسانية الذي يشير إليه عنوان الكتاب ومحاولة معرفته عن طريق القرآن ليس من المسائل الجوهرية في الدين ، فلم يكلفنا الله بمعرفته ولم يوجب علينا اعتقاد ما ليس فيه نص عنه في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة .

وأولى بالمسلمين - خصوصا فى هذه الأيام - أن يبحثوا عن وسائل النهوض بهم ومجاراة ركب التقدم السريع على الأسس المتينة التى خططها الإسلام للوصول بالمجتمع الإسلامى إلى المستوى الرفيع ، وليحقق أنهم خير أمة أخرجت للناس .

ومهما يكن من شيء فإليك ما يأتي خاصا بهذا الموضوع .

١- سيدنا آدم هو الخليفة في الأرض قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ

﴿ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة :٣٠] فالملائكة لم تكن تعرفه من قبل ، وكانوا يظنون أنه سيفسد كما أفسد من قبله ، ولن يكون على مثالهم هم من الطهر ودوام الطاعة لله ، فهو خلق جديد عليهم .

٢- خلق آدم من تراب مبلل بالماء فصار طينا ، ولما أمر الله الملائكة بالسجود له امتنع إبليس ، قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾[ص : ٧١-٧٤] وقد برر إبليس امتناعه عن السجود بقوله ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص :٧٦] فآدم خلق غير معروف من قبل للملائكة ولإبليس ، فهو جديد عليهم ليس له مثال سابق.

٣- إن البشر جميعاً منسوبون لأصلهم الأول وهو آدم ، قال تعالى ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف : ٢٧] فآدم أول المخلوقات البشرية .

٤- إن الله خلق من نفس آدم - أي مادته وهي التراب ، أو من جسده بعد أن سواه ونفخ فيه الروح وهذا لم يدل عليه دليل قاطع ـ خلق من نفس آدم زوجها ليسكن إليها ويأنس بها وهي حواء ، قال ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ ﴾[الأعراف : ١٨٩] .

والنفس المذكورة هي آدم ، ولفظ النفس مؤنث وإن كان معناه قد يكون مذكرا، فهو يطلق على الذكر والأنثى ، مثل لفظ شخص يصلح لإطلاقه على كلا النوعين ، ولفظ الزوج يطلق على الرجل والمرأة فيقال : علي زوج فاطمة ، وفاطمة زوج علي، وهما زوجان ، والمراد بالزوح في هذه الآية حواء الأنثى قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل : ٧٢] فالخطاب لبني آدم الذكور ، والمنة عليهم بأن جعل الله لهم من أنفسهم زوجات نساء، ومن هؤلاء الزوجات يأتي البنون والحفدة ، فالرجال هم الأصل والنساء تبع لهم .

٥- خلق الله آدم أولا ثم خلق حواء ، قال تعالى ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الزمر : ٦] فالتعبير بلفظ «ثم» يفيد الترتب في الزمن أو الرتبة ، وهو على كل حال يفيد سبق آدم لحواء ، ووجه الله الخطاب في القرآن لآدم وجعل حواء زوجه تبعاً له ، وهو يشعر بتقدم آدم عليها . قال تعالى ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة : ٣٥] وكما تشير إليه آية سورة النحل السابقة «بند ٤».

٦- ضمير الخطاب والغيبة في الآيات المذكورة كلها مذكر وليس مؤنثاً فآدم ذكر وليس أنثى ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ .

نخلص من هذا إلى حقيقتين أولاهما ، أن آدم هو أول البشر على الإطلاق ، وثانيهما : أنه ذكر لا أنثى ، واللغة العربية التى نزل بها القرآن هي التي أوصلتنا إلى هذا الاستنتاج ولم نجد فيما اطلعنا عليه أن أحدا من العلماء المسلمين قال غير ذلك ، فصار إجماعا مستندا إلى ما ذكر من الأدلة .

وفي الختام أقول : إن محاولة التشكيك في أن أول البشر ذكر هو آدم ممهدة للقول بنظرية «داروين» في أصل الأنواع وفي النشوء والارتقاء التي تجوز أن آدم جاء نتيجة لتطورات خلقية سابقة ، قد يكون مبدؤها أصلاً أنثويًّا وجدت فيه الروح ، فكان الكائن الحي الذي تطور إلى آدم البشر السوي ، ومعروف أن نظرية «داروين» لم تسلم من النقد ، ورفضها أكثر العلماء المحققين ،لأنها تقوم على افتراضات غير ثابتة يقينا .

ومع ذلك فقد قلت فيما سبق : إن المسألة ليست اعتقادية ولا تتوقف صحة الإيمان عليها ، غير أن من خالف مواضعات اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم كان معارضاً للانزلاق إلى استنباطات واهية ونتائج غير صحيحة قد تمس حقائق الدين المتفق عليها فيضل ويشقى . وهذا إلحاد في التفكير يخشى أن يندرج تحت قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ [فصلت : ٤٠] .

وينبغي ألا نزج بالقرآن في كل شيء لم يثبت . قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران :٧].



س . هل من الحديث ما يقال . إن الله خلق آدم على صورته ؟

ج : روى البخاري في كتاب الاستئذان ومسلم في بيان صفة الجنة أن النبي ﷺ قال «إن الله خلق آدم على صورته» وفي رواية مسلم «خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعا ...» وفي آخرها «فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، وطوله ستون ذراعا، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن» (١) .

والضمير في قوله «صورته» يصح أن يكون راجعا إلى الله تعالى ، أي خلقه على صفة الله من الحياة والعلم والسمع والبصر وغيرها ، أو يكون راجعا إلى آدم ، أي أن الله أوجده على هذه الصورة والهيئة التي خلقه عليها ، لم تنتقل في النشأة أحوالا ، ولا تردد في الأرحام أطوارا كذريته ، بل خلقه رجلا كاملا سويا من أول ما نفخ فيه الروح .

وهذا التفسير يرد على الطبيعيين والماديين أصحاب مذهب النشوء والارتقاء ، الذين يزعمون أن آدم أصله قرد تطور حتى صار بهذا الشكل ، وإذا كانت هناك غرابة في طوله وهو ستون ذراعا كما رواه البخاري ومسلم ، فإن أثر البيئة على طول الأجسام وقصرها معروف في كثير من المناطق في العالم كله . والمسافة بين خلق آدم وبعثة الرسول فوق ما نقل عن الإخباريين من أهل الكتاب الذين قالوا : إن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة .

على أن للذراع معايير مختلفة ، فقدر بقبضة النصل أو السيف أو الرمح أو القناة ، وقدره البعض بخمسة سنتيمترات ، فيكون طول آدم ثلاثة أمتار ، وهو معقول .

---

١ - ج١٧ ص ١٧٨ .

يقول الإمام الغزالى [1] تعليقا على هذا الحديث : للعلماء فيه وجهان ، فمنهم من يرى للحديث سببا ، وهو أن رجلا ضرب غلامه ، فرآه النبى ﷺ فنهاه وقال «إن الله تعالى خلق آدم على صورته» وتأولوا عود الضمير على المضروب .

والوجه الآخر أن يكون الضمير الذى فى « صورته» عائدا إلى الله سبحانه . ويكون معنى الحديث أن الله خلق آدم على صورة هى إلى الله سبحانه . وهذا العبد المضروب على صورة آدم ، فإذًا هذا العبد المضروب على الصورة المضافة إلى الله تعالى . ثم استطرد الغزالى فى الكلام الذى لا مجال لنقله هنا فيرجع إليه من أراد الاستزادة .



س : ما معنى الخلافة التي وصف الله بها آدم عليه السلام ووصف بها الحكام؟

ج : يقول الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] جاء فى تفسير القرطبى أن آدم عليه السلام خليفة الله فى إمضاء أحكامه وأوامره ، لأنه أول رسول فى الأرض إلى أولاده ، ومن هذه الآية كانت مشروعية نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع ، لتجتمع به الكلمة وتنفذ به أحكام الخليفة . اهـ

وقد يطلق اسم الخليفة على من يخلف غيره من الحكام والولاة بعد موتهم أو زوال حكمهم وولايتهم ، أو يخلفه عند غيابه كنائب أو وكيل عنه ، ومن الأول الخلفاء الراشدون والأمة الإسلامية التى قال الله فيها ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[النور : ٥٥] .

ومن الثانى نيابة هارون عن موسى عند ذهابه للميقات ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[الأعراف : ١٤٢] .

وقول الله تعالى : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾[ص : ٢٦] يحتمل أن يكون معناه خليفة لتنفيذ أحكام الله كآدم عليه السلام ، أو خليفة جاء

---

١ - فى كتابه «الإملاء على إشكالات الإحياء» المطبوع على هامش الإحياء ج ١ ص ١٦٨ .

بعد خلفاء سابقين ، يقول الأصفهاني في المفردات : والخلافة النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف ، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام : ١٦٥] والخلائف جمع خليفة .

وبهذه المناسبة يقول النووي [1] : ينبغي ألا يقال للقائم بأمر المسلمين « خليفة الله» بل يقال : الخليفة : وخليفة رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين، ولا يسمى أحد خليفة الله تعالى بعد آدم وداود عليهما الصلاة والسلام ، ولم يرض أبوبكر قول رجل له : يا خليفة الله ، وقال : أنا خليفة محمد ﷺ وأنا راض بذلك يقول الماوردي[2] : إن الإمام سمى خليفة لأنه خلف رسول الله ﷺ في أمته فيجوز أن يقال : يا خليفة رسول الله ، وعلى الإطلاق فيقال : الخليفة ، واختلفوا هل يجوز أن يقال : يا خليفة الله ؟ فجوزه بعضهم لقيامه بحقوقه في خلقه ، وامتنع جمهور العلماء من جواز ذلك ، ونسبوا قائله إلى الفجور .



س : ما هي الأسماء التي علَّمها الله لآدم عليه السلام؟

ج : قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[البقرة : ٣١] .

الأسماء التي علمها الله لآدم ليس فيها نص صحيح ، وكل ما ورد فهو أقوال اجتهادية ومن أقرب الأقوال في كيفية التعليم أن الله أعطى آدم القدرة على تسمية أي شيء يعرض عليه ، عن طريق العقل والاستنباط والملائكة لا يمكنها أن تستقل بذلك ، فما علمته من الله علمته ، وما لا فلا ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[البقرة : ٣٢] .

١- الأذكار : ص ٣٥٨ .

٢- الأحكام السلطانية : ص١٥ .

جاء فى تفسير القرطبى [1] قوله : اختلف أهل التأويل فى معنى الأسماء التى علمها لآدم عليه السلام فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير : علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها . وروى عاصم بن كليب عن سعد مولى الحسن بن على قال : كنت جالسا عند ابن عباس فذكروا اسم الآنية واسم السوط ، قال ابن عباس «وعلَّم آدم الأسماء كلها» قلت - أى القرطبى-: وقد روى هذا المعنى مرفوعا على ما يأتى وهو الذى يقتضيه لفظ «كلها» وذكر حديث البخارى فى الشفاعة العظمى وأن المؤمنين قالوا لآدم : وعلمك أسماء كل شيء . قال ابن عباس: علمه أسماء كل شيء حتى الجفنة والمحلب ، وقال الطبرى : علمه أسماء الملائكة وذريته ، واختار هذا ورجحه بقوله : «ثم عرضهم على الملائكة» وذكر القرطبى أقوالا أخرى ، واختار أنه علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها.

من هذا نرى أن الأسماء ليس فى المراد منها نص صريح صحيح ، والأقوال كلها اجتهادات ، ولا داعى لإرهاق أنفسنا فى معرفتها ، ولولا أن الأسئلة بشأنها طرحت علينا لما اهتممنا بالإجابة عليها .



س : هل صحيح أن آدم عليه السلام هو أول من تكلم اللغة العربية ؟

ج : لا يوجد دليل يعتمد عليه فى معرفة اللغة التى كان يتكلم بها سيدنا آدم عليه السلام ، وما نسب إليه من الشعر عند قتل ولده قابيل لا أصل له .

وفى تفسيرالقرطبى [2] الروح نفخت فى آدم فلما وصلت إلى رأسه عطس ، فقالت له الملائكة : قل : الحمد لله ، فقال الحمد لله ، فقال الله له : رحمك ربك. وهذا رواه السدى عن أبى مالك ، وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود ، وليس عليه دليل من قرآن أو سنة .

١- ج ١ ص ٢٨٢ .   ٢- ج ١ ص ٢٨١ .

إن اختلاف اللغات أساسه أنها مواضعات بين جماعة من الناس اصطلحوا عليها للتعبير عن أفكارهم ولقضاء مصالحهم ، واعتمدوا فيها -إلى جانب ما اعتمدوا- على تقليد أصوات الحيوانات والطيور وحركات الريح وغيرها . ولكل جماعة بيئتها وظروفها التى أملت عليها اختراع اللغة التى يتفاهمون بها وآراء الباحثين فى هذا الموضوع كثيرة ، والمهم أن نعنى باللغة العربية لغة القرآن الكريم ، لتصحيح العقيدة والسلوك وتقويم اللسان وزيادة الأجر .



س : هل صحيح أن المرأة خلقت من ضلع آدم ؟

ج : قال الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[النساء : ١] وقال ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف : ١٨٩] وقال تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾[الروم : ٢١] وقال ﷺ «إن المرأة كالضلع ، فإذا ذهبت تقيمها كسرتها ، وإن تركتها استمتعت بها وفيها عوج»[١] ، وقال «واستوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه ، إن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، استوصوا بالنساء خيرا»[٢] وقال فى رواية لمسلم «وكسرها طلاقها» .

يقول الفخر الرازى فى تفسيره لأول سورة النساء : وفى كون حواء مخلوقة من آدم قولان : الأول - وهو الذى عليه الأكثرون - أنه لما خلق الله آدم ألقى عليه النوم، ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى . . . . . . واحتجوا بحديث مسلم «إن المرأة خلقت من ضلع أعوج» والثانى - وهو اختيار أبى مسلم الأصفهانى - أن المراد من قوله ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أى من جنسها وهو كقوله ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ وقوله تعالى ﴿بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ قال القاضى: والقول الأول أقوى وذكر وجه قوته .

١- رواه مسلم .　　٢- رواه مسلم .

والطبرى فى تفسيره وكذلك القرطبى ذكرا أن القول الأول هو لابن عباس وابن مسعود ، لكن ليس لهذا النقل سند صحيح ، بل هو منقول عن أهل الكتاب كما فى سفر التكوين [1] .

ومن هذا نرى أن خلق حواء من آدم ليس أمرا متفقا عليه ، فقد يكون خلقها من نفسه يعنى أنها خلقت من جنسه وهو الطين وليس من النور أو النار حتى يمكن أن يسكن إليها ، وما جاء فى الأحاديث أنها خلقت من ضلع قد يراد به التشبيه كما فى الرواية الأولى فليس هناك نص قاطع في الثبوت والدلالة على خلقها من ضلع آدم ، والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال . ولا يضر الأخذ بأى الرأيين .

وقد علق النووى على الأحاديث بقوله : وفيه دليل لما يقوله الفقهاء أو بعضهم أن حواء خلقت من ضلع آدم ، قال الله تعالى ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وبيَّن النبى : أنها خلقت من ضلع . وفى هذا الحديث ملاطفة النساء والإحسان إليهن والصبر على عوج أخلاقهن واحتمال ضعف عقولهن وكراهة طلاقهن بلا سبب ، وأنه لا يطمع باستقامتها والله أعلم [2] .



س : من الذى سمى حواء بهذا الاسم ؟

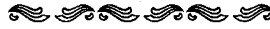
ج : جاء فى تفسير القرطبى [3] أن آدم عليه السلام هو أول من سمى حواء بهذا الاسم حين خلقت من ضلعه من غير أن يحس آدم عليه السلام بذلك ، ولو تألم بذلك لم يعطف رجل على امرأته ، فلما انتبه قيل له : من هذه ؟ قال امرأة ، قيل :

١- الإصحاح الثانى : ٢١ -٢٤ .
٢- شرح صحيح مسلم ج ١٠ ص ٥٧ ، والموضوع مستوفى فى الجزء الثانى من موسوعة « الأسرة تحت رعاية الإسلام» ، س ، ج للمرأة المسلمة .
٣- ج ١ ص ٣٠١ .

وما اسمها ؟ قال حواء ، قيل ولم سميت امرأة ؟ قال : لأنها من المرء أخذت ، قال : ولم سميت حواء؟ قال : لأنها خلقت من حى .

ثم يستطرد القرطبى ويقول : روى أن الملائكة سألته عن ذلك لتجرب علمه ، وأنهم قالوا له : أتحبها يا آدم؟ قال : نعم : قالوا لحواء : أتحبينه يا حواء؟ قالت : لا، وفى قلبها أضعاف ما فى قلبه من حبه ، قالوا : فلو صدقت امرأة فى حبها لزوجها لصدقت حواء .

وهذا كله لا دليل عليه ، يحتمل أن يكون وألا يكون ، ولا طائل تحت الجدال فيه.



س . هل صحيح أن سيدنا آدم دفع مهرا للسيدة حواء صلاة على النبى ﷺ ؟

ج : جاء فى «المواهب اللدنية» للقسطلانى وشرحها للزرقانى [1] أن الله سبحانه لما خلق آدم خلق له حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى وهو نائم فلما استيقظ ورآها سكن إليها ومد يده إليها فمنعته الملائكة حتى يؤدى مهرها ، فقال : وما مهرها؟ قالوا : تصلى على محمد ﷺ ثلاث مرات . وذكر ابن الجوزى المتوفى سنة ٧٩٥ هـ فى كتابه «سلوة الأحزان» أنها لما سمعت كلام الملائكة طلبت مهرها من آدم فسأل ربه كم يعطيها؟ فقال : صل على حبيبى محمد بن عبد الله عشرين مرة ، ففعل ، وجاء فى بعض الروايات أن الله زوجه إياها وخطب فى ذلك خطبة .

ولم يذكر الكتاب سند هذا الكلام ولا درجته من القبول وعدمه ، فنحن فى حل أن نصدقه أو لا نصدقه . ولا يضرنا الجهل به .



١- ج ١ ص ٢٥ .

س : ما هي الجنة التي كان بها سيدنا آدم ، هل هي جنة الخلد أو جنة أخرى؟

ج : هناك خلاف بين العلماء فى الجنة التى أسكن الله آدم فيها ، وأخرجه وأخرج إبليس منها ، هل هى الجنة التى أعدها الله ثوابا للمؤمنين بعد البعث والحساب ، أو هي جنة فى الدنيا أى بستان من البساتين؟

جاء فى المواهب اللدنية للقسطلانى وشرحها للزرقانى [1] وفى تفسير القرطبى [2] أن جمهور الأشاعرة قال : هى جنة الخلد ، بل حكى إجماع أهل السنة عليه ، لأن اللام فى قوله تعالى ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [الأعراف : ١٩] هي لام العهد ، ولامعهود ولا معروف إذ ذاك غيرها، ولقوله تعالى فى وصفها ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ [طه : ١١٨، ١١٩] وذلك صفة جنة الخلد ، ولقوله تعالى : ﴿ ٱهْبِطُوا۟ ﴾ والهبوط يكون من علو إلى أسفل ، ولا يستقيم ذلك فى بستان مخلوق على الأرض ، ولأن موسى لما لقى آدم عليهما السلام ، وقال له : «أنت أتعبت ذريتك وأخرجتهم من الجنة ، لم ينكر ذلك آدم ، وإنما قال : أتلومنى على أمر قدره الله عليَّ قبل أن أخلق» الحديث صحيح ، ولو كانت غيرها لرد على موسى .

وقيل : هي غير جنة الخلد ، حكاه منذر بن سعيد ، زاعما كثرة الأدلة عليه ، وحكاه الماوردى وابن عقيل والقرطبى والرمانى وغيرهم . واختلف القائلون به ، فقال بعضهم : هى بستان بأرض عدن ، كما فى القرطبى ، أو بأرض فلسطين ، أو بين فارس وكرمان كما فى البيضاوى . وقال الرازى وابن عقيل : ويحمل هؤلاء الهبوط على الانتقال من بقعة إلى بقعة ، كما فى قوله تعالى ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا ﴾ [البقرة:٦١] .

وقيل : هى جنة أخرى كانت فى السماء السابعة ، وهو قول أبى هاشم ورواية عن الجبائي . قال ابن عقيل : وهى دعوى بلا دليل ، فلم يثبت أن فى السماء غير بساتين جنة الخلد . وقال هؤلاء : إن جنة الدنيا جعلها الله دار ابتلاء لآدم وحواء ،

١- ج ١ ص٦١ .　　　٢- ج ١ ص ٣٠٢ .

لأن جنة الخلد إنما يدخل إليها يوم القيامة ، وهذه دخلت قبله ، ولأن جنة الخلد دار ثواب وجزاء وليست دار تكليف وأمر ونهى ، ودار سلامة من الآفات والخوف وليست دار ابتلاء ومحن ، ودار قرار لقوله تعالى ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر : ٤٨] وليست دار انتقال ، وآدم وحواء وإبليس انتقلوا منها .

وأجاب القائلون بأنها جنة الخلد بأن الدخول العارض غير الدائم قد يقع قبل يوم القيامة ، بدليل أن نبينا محمدا ﷺ دخلها ليلة الإسراء ، ثم خرج منها ، وأخبر بما فيها وأنها جنة الخلد حقا ، وبأن ما ذكره أهل الرأى الثانى من أن الجنة لا يوجد فيها ما وجده آدم من الحزن والنصب والتعب بانكشاف عورته ومحاولة تغطيتها بورق الجنة إنما هو إذا دخلها المؤمنون يوم القيامة كما يدل عليه سياق الآيات كلها ، فإن نفى ذلك مقرون بدخول المؤمنين إياها .

يقول الزرقانى : ليس الرأيان متساويين ، فقد قال القرطبى : هى جنة الخلد ولا التفات إلى ما ذهب إليه المعتزلة والقدرية من أنها جنة دنيوية فى عدن ، وذكر أدلتهم وردها بما يطول .

ورجح الرمانى فى تفسيره أنها جنة الخلد أيضاً ، وقال : هو قول الحسن وعمر وواصل . وعليه أهل التفسير .

هذه صورة من الخلاف حول الجنة التى سكنها آدم وخرج منها ، وهو أمر لايجب علينا اعتقاده ، والذى يهمنا هو العمل الصالح حتى نعود إلى الله ويمتعنا بجنة النعيم.



س : هل صحيح أن الله لم يتب على آدم إلا بعد أن استشفع بسيدنا محمد ﷺ؟

ج : جاء فى «المواهب اللدنية» للقسطلانى وشرحها للزرقانى [1] أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «لما اقترف آدم الخطيئة - قال:

١- ج١ ص٦٢ .

يا رب أسألك بحق محمد إلا ما غفرت لى ، فقال الله تعالى : يا آدم وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه ؟ قال : يا رب لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله تعالى : صدقت يا آدم إنه لأحب خلق الله إلى ، وإذ سألتنى بحقه قد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك» [1].

يؤخذ من هذا أن استشفاع سيدنا آدم بسيدنا محمد ﷺ ليس حديثه صحيحاً ولاحسنا ، بل هو ضعيف ، ولا تثبت به عقيدة ، ولا يكفر من يكذب ذلك .



س : بعد أن طرد الله إبليس من الجنة كيف استطاع أن يوسوس لآدم وهو في الجنة ؟

ج : قال تعالى ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف : ٢٠ ، ٢١] يستفاد من ذلك أن إبليس تحدث مع آدم وحواء بعد أن طرده الله من الجنة ، وسمى الله هذا الحديث وسوسة ، فكيف تمت وهو خارج الجنة وهما فى داخلها؟

يفيد ظاهر الآية أن الحديث معهما كان عاديا بالنطق والمشافهة ، وليس حديث نفس ألقى فى قلبهما منه ، والحديث الشفوي قد يسمى وسوسة ، وبخاصة إذا كانت فيه سرية ، إن الكلام كثير فى كيفية هذه الوسوسة ، وليس له سند صحيح يعتمد عليه، ولا يبعد أبدا أن يكون إبليس قد وقف على باب الجنة ولم يدخلها وتحدث مع آدم وحواء ، ويعلم من هذا أنه لم يدخل الجنة بعد أن طرده الله منها .

١- رواه البيهقى فى «دلائل النبوة» من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال البيهقى : تفرد به عبد الرحمن ، أى لم يتابعه عليه غيره فهو غريب مع ضعف راويه ، ورواه الحاكم وصححه ، وذكره الطبرانى وزاد فى آخره « وهو آخر الأنبياء من ذريتك»

وما يقال عن أن إبليس دخلها فى جوف حية ، وكان منظرها جميلا ، ولما أبت كل الحيوانات إدخاله قبلت هى ذلك ، فحولها الله إلى هيئتها المعروفة لنا وصارت من أعدى الحيوانات لبنى آدم ، ليس عليه دليل معتبر .



س : لماذا قبل الله توبة آدم ولم يقبل توبة إبليس ؟

ج : توبة الإنسان إلى الله معناها الرجوع إليه من الكفر إلى الإيمان ، ومن المعصية إلى الطاعة ، وتوبة الله على الإنسان معناها قبول رجوعه إليه ، والتجاوز عما تاب منه ، بمعنى عدم معاقبته عليه . والرجوع لا يكون إلا بترك ما تاب منه الإنسان ، ثم الندم على فعله ، والعزم الأكيد على عدم العود إليه ، ولا يتم الترك إلا بإرجاع الحقوق إلى أصحابها ، أو طلب تنازلهم عنها .

ولا تقبل التوبة إلا إذا وقعت قبل الغرغرة ساعة الاحتضار ، وقبل أن تطلع الشمس من مغرب يوم القيامة ، فإن لم يتب إلا عند ذلك لم يتب الله عليه أى يعاقبه إن كان كافرا ، وأما إن كان عاصيا بغير الكفر فأمره مفوض إلى ربه ، إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه . قال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء ١٨،١٧] وقال النبى ﷺ « إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » [1] وقال « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » [2] . وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [النساء : ٤٨] .

١- رواه الترمذى وقال : حديث حسن .
٢- رواه مسلم .

وقال تعالى ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٢١٧].

بعد هذا نقول: إن مخالفة إبليس لله كانت كفرا من وجهين أحدهما: أنه، رفض أمر الله وتكبر. وثانيهما: أنه نسب الجور والظلم لله بتفضيل آدم عليه والسجود له ثم إنه أصر على العناد ولم يتب، بل لم يفكر فى التوبة، وطلب من الله أن يطيل عمره إلى يوم القيامة حتى يثأر من آدم وذريته، ويحارب الله بعنف حتى يصرف الناس عن شكره والإيمان به، ولهذا طرده الله من رحمته طردا أبديا، قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] وقال تعالى ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] وقال تعالى ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: ٧٧، ٧٨].

ومن هذا نرى أن معصية إبليس كانت كفرا، وأصر عليها ولم يتب، بل لم يفكر فى التوبة، فكان الجزاء طرده من رحمة الله إلى الأبد.

أما ما وقع من سيدنا آدم فليس كفرا، لأنه لم يرفض التكليف بعدم قربان الشجرة، بل قبله ودخل الجنة وتمتع بنعيمها ولم يقرب الشجرة أولا، ولم يكن عنده عزم على مخالفة أمر الله، وشاءت إرادة الله أن يكون آدم أول ضحية لإبليس فى تنفيذ مخططه الذى أقسم عليه، فنسى آدم عهد الله له بعدم طاعة الشيطان، وصدق إبليس فى حلفه بالله أن من الخير له أن يأكل من الشجرة، وبحسن الظن أكل هو وحواء منها، وعندما شعرا بآثار المخالفة وبدت لهما سوآتهما تنبها إلى مخطط الشيطان.

وبعد عتاب من الله لهما وتذكيرهما بعهده ألهمهما كلمات قالاها مقرين فيها بارتكاب ما يضر، طالبين عفو الله ومغفرته، فقبل منهما التوبة. قال تعالى ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] أى لم يعلم الله لهما عزما على المعصية حين أخذ العهد عليهما، لأن العزم كان غير موجود، أو لم يعلم عزما أى قوة على المقاومة لإغراء الشيطان وتصديقه فى حلفه بالله أنه

ناصح لهما . وقال تعالى ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف : ٢٢] وقال تعالى ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ٣٧] وهذه الكلمات هى ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

من هذا نعرف أن مخالفة آدم كانت نسيانا ولم تكن كفرا ، والنسيان وإن كان الله لا يؤاخذ على آثاره رحمة بعباده ، إلا أن الله سمى ما وقع من آدم معصية لأنه على صورتها ، ولأن مقام آدم ليس كمقام بقية الناس ، وكما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين .



س . ما هى الأرض التى هبط عليها أبونا آدم ، ومتى وكيف تم ذلك ، وهل دفن فى الأرض وفى أى مكان يوجد قبره ؟

ج : القرآن الكريم لم يقص علينا من أخبار السابقين إلا ما فيه العبرة والموعظة فقط ، وذلك من أسرار بلاغته التى يراعى فيها مقتضى الحال ، ولا حاجة إلى سرد التفاصيل والجزئيات التى لا يضر الجهل بها ، ويترك للناس البحث عنها تنشيطا للفكر وازديادا فى الثقافة .

وقد ذكر القرآن بعض قصص الأنبياء ، وسلط الأضواء على جوانب منها حتى مع تكرار ذكر القصة الواحدة فى عدة مواقع ، اقتضاه نزول القرآن منجما على مدى ثلاثة وعشرين عاما ، قال تعالى ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٌ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [هود : ١٢٠] وقال ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِى قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَىۡءٍ وَهُدًى وَرَحۡمَةً لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ [يوسف :١١١] .

وبخصوص سيدنا آدم ذكر القرآن أن الله أهبطه إلى الأرض ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف : ٢٤] وقال من

قبل ذلك للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة : ٣٠] ولم يبين المكان الذى هبط عليه من الأرض ، وذلك لعدم الحاجة إليه ، وقد استغل بعض الناس هذا الأمر استغلالا سياحيا أو لمصالح أخرى فادعوا أنه هبط على أعلى قمة فى جبل بالهند بجزيرة سريلانكا «ميلان سابقا» وأن قدمه أثرت فى الصخر ومشى هناك خمسمائة سنة يبكى على هابيل وتكونت من دموعه ودموع حواء عين ماء ، والناس يتوافدون على المكان لزيارته ، كما استغلت مناطق أخرى لهذا الغرض .

ومما يشاع أنه هبط فى مكان وحواء فى مكان آخر هو جدة وبعد بحث وتعب التقيا على جبل عرفات فسمى بهذا الاسم لهذا السبب ، كما يقال : إنه دفن فى جزيرة العرب وله قبر طوله ستون ذراعا ، ولكن كل ذلك لا يدل عليه دليل صحيح ، وبخاصة أن آلاف السنين مرت عليه ، والآثار التى مر عليها أقل من ذلك ما زال كثير منها مجهولاً ، وبالطبع دفن آدم فى الأرض بعد موته ، لأن قابيل لما قتل أخاه هابيل واحتار فى أمره بعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه. فدفنه فى حفرة فى الأرض ، وكان ذلك سنة متبعة فى ذريته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة:١، ٢] وهم الموتى فى القبور.

هذا ، وقد ذكر الزرقانى فى شرحه للمواهب للقسطلاني [1] أن آدم مات بمكة يوم الجمعة ودفن فى قبر بغار أبى قبيس كما ذكره الثعلبى وغيره ، وعن ابن عباس أن آدم بعدما حج عاد إلى الهند ومات بها ، وعن ثابت البنانى أنهم دفنوه فى «سرنديب» فى الموضع الذى أهبط فيه ، وصححه الحافظ ابن كثير . وقيل : دفن بين بيت المقدس ومسجد إبراهيم ، وقيل غير ذلك ، وعاشت حواء بعده سنة وقيل ثلاثة أيام ودفنت بجنبه .

وكل ذلك كلام ليس عليه دليل صحيح .

وبعد ، فإذا كنت تسأل أيها السائل عن قبر أبينا آدم لتزوره وتترحم عليه فخير من ذلك ألف مرة أن تسير على النهج الذى رسمه له ربه عندما أهبطه إلى الأرض

١- ج ١١ ص٦٤ .

حيث قال ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣] .



س . يقول الله سبحانه ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [الأعراف : ١٨٩، ١٩٠]

كيف يشرك آدم وحواء بسبب الذرية ؟

ج : التفسير المناسب لنفى الشرك عن آدم وحواء هو أنه لما تغشاها شعرت بالحمل أول الأمر خفيفا ، فاستمرت فى حياتها العادية لا تعانى تعبا ، حتى إذا ثقل الحمل دعوا الله أن يشكراه إن ولد لهما نسل صالح ، فرزقهما الله ولدين صنفين ، ذكرا وأنثى ، وباستمرار عملية الإنجاب وتكاثر الذرية وتعاقب الأجيال وتباعد العهد بالرسالات نسى بعض الصنفين فضل ربهما فى الخلق والإنعام ، فجعلا له شركاء فيما آتاهما ، وعبداها من دون الله ، أو لتقربهما إليه زلفى كما فعل كفار مكة عند ظهور الإسلام ، وهم المقصودون بهذه الآيات كما قاله أكثر العلماء .

وبهذا التفسير الذى يتفق مع أسلوب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، من عود الضمائر أحيانا على اللفظ ، وأخرى على المعنى ، يستقيم معنى الآية ويتلائم مع ما يجب للأنبياء من عصمة .

ذكر السيوطى فى الإتقان [1] أن الآية فى آدم وحواء كما جاء مصرحا به فى حديث أخرجه أحمد والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه . وقال : كيف نسب الإشراك إليهما وآدم نبى والأنبياء معصومون منه قبل النبوة وبعدها إجماعا؟ وقد جر ذلك

١- ج١ ص ٩٠ .

إلى أن بعض العلماء حمل الآية على غير آدم وحواء ، وتعدى ذلك إلى تعليل الحديث والحكم بنكارته ، وذكر أن آخر الآية كان فى العرب وشركهم ، حيث عاد الضمير فى أولها على الاثنين ، وفى آخرها على الجمع ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولابد من حمل التعبيرات المتشابهة على ما لا يطعن فى عصمة الأنبياء .



س : فى قصة نوح عليه السلام قول الله له ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [هود : ٦٠] نريد توضيحا لذلك ؟

ج : معروف أن نوحا عليه السلام دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ومع ذلك لم يؤمن معه إلا قليل ، وكان ممن كفروا به زوجته وابن من أبنائه وبعد صنع السفينة وحمل من آمن فيها وحصول الطوفان وبعد أن نهى الله نوحا أن يتشفع للكافرين مهما كانت صلة القرابة به ﴿وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود : ٣٧] حدث أن رأى نوح ولده يغرق وظن أنه من المؤمنين حيث لم يصرح له بالكفر ، فدعاه إلى الركوب في السفينة ، ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [هود : ٤٢] فقد قال ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ولم يقل من الكافرين . لأنه لو علم بكفره ما ناداه للركوب . وكان رد ولده غير صريح فى إعلان الكفر ، بل فيه اعتماد على نفسه وقوته وحيلته التى يمكن أن ينجو بها من الغرق ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ فرد عليه أبوه ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ وكانت النتيجة أن حال بينهما الموج فكان من المغرقين .

ولعدم علم نوح يقينا بكفر ولده سأل ربه مستوضحا لماذا أُغرق فقال ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ [هود : ٤٥] فرد الله عليه بأنه ليس من أهله المؤمنين في الحقيقة وإن كان يبدو له أنه مؤمن ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ والمعنى أن القرابة المنجية من العذاب هى قرابة الإيمان لا قرابة النسب ، وكان عليك أن

تتحرى حال ولدك وهو يعيش معك أو قريبا منك لتتأكد من إيهانه ، فإن مقامك غير مقام عامة الناس ، وليس قوله له ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ وصفا له أنه جاهل ، بل تحذير له أن يكون فى المستقبل جاهلا ، كما قال الله لسيدنا محمد فلا ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام : ٣٥] وقوله ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [القصص :٨٧] فلم يكن النبى جاهلاً ولا مشركًا حين خاطبه الله بذلك ، وعلى هذه الصورة كان نوح عليه السلام بريئاً مما يخالف عصمة الأنبياء .



س : جاء قوله تعالى على لسان النبي نوح ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح :٢٦] فلماذا قال نوح «الأرض» ولم يخص قومه الذين عصوه، وهل نوح هو الأب الثاني للبشر؟ وكم كان عمره ، وكيف خانته زوجته ؟ .

ج : كان العمران محدوداً في أيام نوح عليه السلام ، ولعل الذين أرسل إليهم كانوا هم الذين يعيشون على الأرض في هذه المنطقة ، فلما دعا عليهم ظن أو اعتقد أنه لا يوجد غيرهم على الأرض . وهم أيضاً قومه كما قال ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء : ١٠٥]

وقال بعض العلماء : إن الأرض المذكورة في دعاء سيدنا نوح قد يراد بها المنطقة التي أرسل فيها دون غيرها ، فكلمة «ال» للعهد كما يقول علماء اللغة . وقالوا : إن الطوفان أهلك كل إنسان كافر ، وعمرت الأرض بعد ذلك من سلالة المؤمنين الذين ركبوا السفينة معه ونجوا من الغرق ، وبهذا يقال : إنه الأب الثاني للبشر بعد آدم عليه السلام وذلك ما نقل عن ابن عباس من أن نوحاً هو آدم الأصغر ، وأن جميع الخلائق الآن من نسله [1] .

أما عمر سيدنا نوح ، فقد اختلفت فيه الأقوال عند تفسير قوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت : ١٤] فمن المؤكد أنه عاش ألف سنة إلا خمسين عاما ، فهل هذه المدة هي كل عمره الذي عاشه من يوم ولادته إلى وفاته ، أو هي التي عاشها في الدعوة

---

١ - تفسير القرطبي ج٩ ص ٤٨ .

ويضاف إليها السنوات التي قبلها ، وهي حوالي أربعين سنة ، حيث كان الرسل يبعثون في هذه السن ، ثم يضاف إليها أيضا المدة التي عاشها بعد الطوفان ولا يعلم كم هي؟ ليس هناك دليل قاطع على عمره ، ولا داعي للانشغال به ، فقد مات كما يموت كل حي ، ولم يخلد في الدنيا على الرغم من عمره الطويل .

وفي تفسير القرطبي في سورة العنكبوت معرض لآراء كثيرة في عمر نوح ليس على أي واحد منها دليل صحيح ، وأورد حديثا بصيغة التمريض أي التضعيف أن عمره كان عند البعثة مائتين وخمسين سنة ، وعاش بعد الطوفان مثلها ، يضم إلى ذلك ما نص عليه القرآن وهو تسعمائة وخمسون سنة ، فيكون المجموع ألف سنة وأربعمائة وخمسين سنة وكل ذلك استنتاج لا دليل عليه .

أما زوجته فقد قال الله فيها ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [سور التحريم : ١٠] .

فما هي الخيانة التي صدرت من كل منهما مع أن كلا منهما زوجة نبي؟

أحسن ما قيل في خيانتهما أنها الكفر بالرسالة والتواطؤ مع الكفرة ، وحاشا أن تكون الخيانة في العرض والشرف كما قال ابن عباس رضي الله عنهما . والمستبعد أن تكون [عجوز] كما وصفها الله تخون لوطاً بالفاحشة .

هذا ، وكون زوجة نبي كافرة لا يقدح في عصمته هو ولا يمس شرفه ، فكل امرئ بما كسب رهين ، كما لا يضر المسلم أن تكون زوجته كتابية لا تؤمن بدينه .



س : أين مكان الأرض التى وقع بها الطوفان فى عهد سيدن نوح ، وما مدى صحة ما يقال عن أبنائه حام بأنه أب لكل الأفارقة ،وسام أب كل عبري وعربى ، ويافث أب كل الأتراك ؟

ج : الأرض التى وقع عليها الطوفان فى عهد نوح عليه السلام هى أرض العراق وهناك مكان يزعم الناس أنه المنطقة التى بلعت الماء حين قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾ [هود : ٤٤] .

وأما أبناؤه فليس فيهم خبر صحيح فى القرآن والسنة ، وقد ذكر القرطبى فى تفسيره [1] ما نصه : ذكر النقاش عن سليمان بن أرقم عن الزهرى أن العرب وفارس والروم وأهل الشام وأهل اليمن من ولد سام بن نوح ، والسند والهند والزنج والحبشة والزط والنوبة وكل جلد أسود من ولد حام بن نوح ، والترك وبربر ووراء الصين ، يأجوج ومأجوج والصقالبة ، كلهم من ولد يافث بن نوح ، والخلق كلهم ذرية نوح .

فهذا الكلام ليس حديثا مرفوعا إلى النبى ﷺ وما ذكر ليس عقيدة نحاسب عليها.



س : قال تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾ [مريم : ٥٦، ٥٧] فما هو الأمر الذي بسببه رفعه الله إليه ، وأين مكانه ، ولماذا لم يرفع غيره من الأنبياء؟

ج : قال المفسرون : إن الرفع فى الآية إما رفع مكان وإما رفع مكانة ، وقد رفع الله إدريس عليه السلام إلى السماء الرابعة كما قال كثير منهم ، وقيل إن الرفع هنا هو رفع منزلة وقدر وشرف . وكل الأنبياء مرفوعة منزلتهم .

وسبب الرفع لم يرد به خبر صحيح ، وهي أقوال منسوبة لابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه وغيرهم ، منها أنه لما أصابه وهج الشمس تعجَّب كيف يتحمله الملك الذي يحمل الشمس وسأل ربه أن يخفف عنه ، فلما علم الملك بذلك أراد أن يكافئ إدريس ، فجمع الله بينه وبينه ، وطلب إدريس منه أن يشفع له عند ملك الموت ليؤخر أجله .

وقيل طلب منه أن يريه الجنة فرفعه إلى السماء الرابعة فقبض ملك الموت فيها روحه ورفعها إلى الجنة ودفنت جثته في السماء الرابعة ، وقيل غير ذلك .

١- ج ٧ص ٢٣٣ .

وفى حديث الإسراء جاء فى رواية مسلم أن النبي ﷺ وجد إدريس فى السماء الرابعة .

تحدث القرطبى فى تفسيره [1] عن كلام ابن وهب فى مقابلة ملك الموت لإدريس وإدخاله الجنة وأمر الله له أن يخرج منها ، وقال : إنه حى هناك تارة يرتع فى الجنة ، وتارة يعبد الله مع الملائكة فى السماء . كما ذكر القرطبى أنه أول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وأول من نظر فى علم النجوم والحساب وسيرها ، قال بعض المحققين : إنه نشأ ودعا إلى التوحيد فى منطقة أسوان جنوبي مصر .

وذكر القسطلانى فى المواهب اللدنية والزرقانى فى شرحها [2] ما نقل عن كعب الأحبار أن إدريس توفى فى السماء الرابعة ولم تكن له تربة فى الأرض، وقال ابن المنير ، اختلف فى إدريس هل رفع إلى السماء بعد موته كغيره من الأنبياء ، أو إنما رفع حيا وهو إلى الآن حى كعيسى ، وكل ذلك من الإسرائيليات والله أعلم بصحتها ولم يثبت رفعه وهو حى من طريق مرفوعة قوية .

وجاء فى « مشارق الأنوار للعدوى» [3] أن العلماء اختلفوا على أنه حى فى السماء أم ميت فقال قوم هو ميت ، وقال قوم : هو حى ، وقالوا : أربعة من الأنبياء أحياء، منهم في الأرض اثنان وهما الخضر وإلياس عليهما السلام ، واثنان فى السماء وهما عيسى وإدريس ، كما ذكره الخازن فى تفسيره .

وكل هذه أخبار غير موثقة من قرآن أو حديث صحيح ، ولا يجب علينا أن نؤمن إلا بأن إدريس عليه السلام من الرسل وأن الله رفع منزلته ، وما وراء ذلك من كونه فى السماء الرابعة حيا أو ميتا لا نلزم باعتقاده .



١- ج ١١ ص ١١٩ .	٢- ج ٦ ص ٧١ .
٣- ص ١٤ .

س : هل آزر هو أبو إبراهيم عليه السلام أو عمه ، وكيف يكون كافرا ونسب النبى ﷺ كله طاهر لقوله تعالى ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٩]؟

ج : نص القرآن الكريم على أن أبا سيدنا إبراهيم عليه السلام اسمه آزر ، قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام :٧٤] ونص على أنه مات كافرا على الرغم من وعد إبراهيم أن يستغفر له ربه قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة : ١١٤] .

وقيل : إن آزر عم إبراهيم وليس والدا له ، والعم يطلق على اسم الأب ، كما فى قوله تعالى عن يعقوب ﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] مع أن إسماعيل ليس ولداً ليعقوب ولكنه عمه ، والذى حمل هؤلاء على القول بأن آزر عم إبراهيم وليس والده هو تشريف مقام النبوة أن يكون أحد آباء الأنبياء كافراً ، مستندين فى ذلك إلى قول الله للنبي ﷺ ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٩] وقول الرسول ﷺ «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» [1] .

فقال هؤلاء : إن الكفر نجس لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة:٢٨] فكيف ينقل الرسول من أصلاب الطاهرين وآزر أبو إبراهيم نجس ؟ وكيف يكون تقلبه فى الساجدين وآزر ليس منهم ؟

ورد على ذلك : بأن إرادة العم من الأب عدول عن الظاهر بلا مقتض ، والنصوص المذكورة فى الطهارة والسجود لا تقتضى هذا العدول ، لأن آية ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ ليست نصا فيما فسرها به ابن عباس ، فقد فسرت بغير ذلك ، فقد جاء عنه أيضاً أن المعنى : يراك قائما وراكعا وساجداً ، لأن قبل ذلك ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ وبأن حديث النقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطاهرة أولاً لم يصل إلى الدرجة

١- رواه أبونعيم عن ابن عباس ، وقال ابن عباس في المراد بالساجدين «من نبى إلى نبى» كما رواه أبو نعيم فى الدلائل بسند صحيح والطبرانى برجال ثقات .

التى يعتمد عليها فى العقائد ، وثانيا فسرت الطهارة فيه بعدم السفاح كما رواه أبونعيم عن ابن عباس مرفوعا « لم يلتق أبواى قط على سفاح ، لم يزل ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مُصَفًّى مهذبا» وكما رواه الطبرانى عن على مرفوعا « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى لم يصبنى من نكاح الجاهلية شيء » .

هذا ، ولا يضير أن يكون فى أنساب الأنبياء كافرون ، فكل امرئ بما كسب رهين ، وقصة آزر ونسب النبى ليست عقيدة نحاسب عليها ، وهى متصلة بقوم مضوا إلى ربهم وهو أعلم بهم ، فَلنَهتم بحاضرنا لنصلحه ، وبمستقبلنا لنستعد له .



س . جاء على لسان إبراهيم عليه السلام أنه قال لرب العزة ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة : ٢٦٠] فلماذا سأل إبراهيم هذا السؤال ، هل كان شاكا فى قدرة الله ، وما هى الصلة بين الإيمان والاطمئنان؟

ج : قال المفسرون : إن هذا القول لم يصدر عن إبراهيم عليه السلام عن شك فى قدرة الله على إحياء الموتى وإنما طلب المعاينة ، فليس الخبر كالعيان .

وقال الأخفش : لم يرد رؤية القلب ، وإنما أراد رؤية العين . وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير : سأل ليزداد يقينا إلى يقينه .

كل ذلك لاعتقادنا فى عصمة الأنبياء عن كل ما يؤثر على الطاعة لله والإيمان الصادق به .

لكن جاء فى حديث البخارى ومسلم أن النبى ﷺ قال «نحن أحق بالشك من إبراهيم . . . .» وأجيب عنه بأن معناه أنه لو كان شاكا لكنا نحن أحق به ، ونحن لانشك فإبراهيم أجدر ألا يشك ، لأنه مؤمن بإحياء الله للموتى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾[البقرة : ٢٥٨] .

فهو مؤمن بذلك ويطلب رؤية الكيفية ليزداد يقينا ، أى يريد الترقى من علم اليقين إلى حق اليقين كما يعبر بعض العلماء .



س : صح فى حديث الشفاعة يوم القيامة أن إبراهيم امتنع عنها لأنه كذب على ربه ثلاث مرات ، فما هي هذه الكذبات وكيف يتفق ذلك مع عصمة الأنبياء؟

ج : روى البخارى ومسلم حديث الشفاعة وطلب الناس من إبراهيم عليه السلام أن يشفع لهم فامتنع وقال «إنى كذبت ثلاث كذبات» وهى قوله عندما سأله عمن كسر الأصنام ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾ وقوله عندما نظر في النجوم ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ وقوله عن زوجته سارة إنها أخته . وأجاب العلماء عن الأولى بأن إبراهيم لم يكذب ، بل أثبت أنه صادق ولكن بطريقة غير مباشرة ، أو كان صدقه قضية تحمل معها دليلها، فلو كنت أنت مثلا خطاطا ماهرا ولا يجيد الكتابة أحد غيرك ، ثم سألك شخص أمى غير مجيد للكتابة وقال لك : أأنت كتبت هذا؟ فقلت له باستهزاء : بل أنت الذى كتبته ، فالغرض هو إثبات الكتابة لك مع استهزائك بالسائل الذى ما كان ينبغي أن يوجه هذا السؤال الظاهر البطلان . ولذلك لما أجابهم إبراهيم عليه السلام بأن الذى كسر الأصنام هو كبيرهم رجعوا إلى أنفسهم يتهمونها بالغباء ، لاعتقادهم ألوهية من لايتكلم ولا يسمع ولا يبصر ، ولا يرد عن نفسه كيدا ، ولكن العناد جعلهم يتمادون فى مجادلته وتكذيبه . ولجئوا أخيرا إلى التهديد باستعمال القوة والعنف ، وهو سلاح كل عاجز عن الاستمرار فى المحاجة المنطقية .

وأجابوا عن الثانية وهى قوله : ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ بأنه كان بالفعل سقيما ، وسقمه نفسى ، وذلك من تماديهم فى الباطل على الرغم من قوة الحجة ، كما قال الله تعالى فى حق سيدنا محمد ﷺ ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف : ٦] فقد أوهمهم إبراهيم أنه سقيم الجسم على ما كانوا يعتقدون

من تأثير الكواكب فى الأجسام وهو فى الوقت نفسه سقيم النفس . وهذا الأسلوب من المعاريض التى فيها مندوحة عن الكذب .

وأجابوا عن الثالثة وهى وصف زوجته بأنها أخته - بأنه صادق فى هذا الوصف لأنها أخته فى الدين كما جاء فى صحيح الروايات ، وذلك ليخلصها من ظلم الجبار روى مسلم [1] أن رسول الله ﷺ قال «لم يكذب إبراهيم النبى عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات ، ثنتين فى ذات الله : قوله إني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم ، وواحدة فى شأن سارة ، فإنه قدم أرض جبار [2] ومعه سارة وكانت أحسن الناس ، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختى ، فإنك أختى فى الإسلام ، فإنى لا أعلم فى الأرض مسلما غيرى وغيرك ، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار أتاه فقال له : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك . فأرسل إليها فأتى بها ، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها ، فقبضت يده قبضة شديدة فقال لها : ادعى الله أن يطلق يدى ولا أضرك ففلعت فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى ، فقال لها مثل ذلك ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين ، فقال ادعى الله أن يطلق يدى فلك ألا أضرك ففعلت وأطلقت يده ودعا الذى جاء بها فقال له : إنما أتيتنى بشيطان ولم تأتنى بإنسان ، فأخرجها من أرضى وأعطها «هاجر» قال : فأقبلت تمشى فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف، فقال لها «مَهيم» ؟ قالت : خيرا ، كف الله يد الفاجر وأخدم خادماً» قال أبو هريرة فتلك أمكم يا بنى ماء السماء .

ومعنى «مهيم» ما شأنك وما خبرك ؟ ومعنى «أخدم خادما» أعطانى جارية تخدمنى وهى هاجر ، والخادم يقع على الذكر والأنثى ، والمراد «بماء السماء» العرب

١- ج ١٥ ص ١٢٣ بشرح النووى .

٢- هذا الجبار مُختَلف فيه ، فقيل : هو عمرو بن امرئ القيس بن سبأ وكان على مصر كما ذكره السهيلي ، وهو قول ابن هشام في التيجان ، وقيل : اسمه صادق وكان على الأردن ، كما حكاه ابن قتيبة ، وقيل : سنان بن علوان ... بن سام بن نوح ، حكاه الطبري ، وقيل : إنه الضحاك الذي ملك الأقاليم .

كلهم لخلوص نسبهم وصفائه ، وقيل :إن أكثرهم أصحاب مواش وعيشهم من المرعى والخصب وما ينبت بماء السماء ، وقيل : !المراد بهم الأنصار نسبة إلى جدهم «الأدد» وكان يعرف بماء السماء .

جاء فى شرح النووى لهذا الحديث أن المازرى قال : إن الكذب الذى يعصم منه الانبياء هو الكذب فيما طريقه البلاغ عن الله تعالى ، أما فى غير ذلك ففى إمكان وقوعه منهم وعصمتهم منه القولان المشهوران للسلف والخلف ، وذكر أن ما قاله إبراهيم عن سارة تورية وهى جائزة ، وليست كذبا ، ولو كان كذبا لكان جائزا فى دفع الظالمين ، فقد اتفق الفقهاء على أنه لو جاء ظالم يطلب إنساناً مختفيا ليقتله أو يطلب وديعة لإنسان ليأخذها غصب وسأل عن ذلك وجب على من علم ذلك إخفاؤه وإنكار العلم به ، وهذا كذب جائز بل واجب لكونه فى دفع الظالم ، ثم نقل عن المازرى قوله : لا مانع من إطلاق الكذب على ما حدث من إبراهيم كما أطلقه النبى ﷺ ومع ذلك فالتأويل صحيح لا مانع منه .

ثم حمل قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ على أنه سيسقم لأن الإنسان عرضة للسقم ، وأراد به الاعتذار عن الخروج معهم إلى عيدهم وشهود باطلهم وكفرهم ، وقيل : سقيم بما قدِّر عليَّ من الموت ، وقيل : كانت تأخذه الحمى في ذلك الوقت .



س : من الذى أمر الله إبراهيم بذبحه من أولاده ، هل هو إسحاق أم إسماعيل؟

ج : قال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ

عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات:١٠١-١١٣] وقال عند الكلام عن الملائكة لما جاءت إبراهيم بالبشرى ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود : ٧١] وقال في موضع آخر ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات : ٢٨] .

روى الحاكم فى المستدرك عن معاوية بن أبى سفيان قال : كنا عند رسول ﷺ فأتاه أعرابى فقال : يا رسول الله ، خلَّفت البلاد يابسة والماء يابساً ، هلك المال وضاع العيال ، فَعُدْ عليَّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين . . قال : فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه[1].

وجاء فى كتب السيرة أن عبد المطلب نذر إن رزقه الله عشرة بنين ليذبحن أحدهم قربانا لله ، وذلك عندما منعته قريش من حفر زمزم ولم يكن معه إذ ذاك إلا ولده الحارث ، وعندما رزق بالبنين وأراد أن يوفى بنذره جاءت القرعة على عبد الله «والد النبى ﷺ بعد » حتى افتدى أخيراً بمائة من الإبل ، ولهذا روى أن النبى ﷺ قال«أنا ابن الذبيحين» أي إسماعيل الذي أمر الله أباه إبراهيم بذبحه ، وعبد الله والده ، الذي كان سيذبح .

إزاء هذه المرويات اختلف العلماء فى الذبيح الأول هل هو إسحاق أم إسماعيل؟

الجمهور على أن الذبيح إسماعيل ، ومما يؤيد رأيهم ما يأتى :

١- أن إبراهيم عليه السلام لما أنجاه الله من النار وهاجر من أرض العراق إلى الشام ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات : ٩٩] ولما تقدمت به السن ولم ينجب طلب من ربه أن يهب له ولدا فاستجاب الله له ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات : ١٠٠ ، ١٠١] وكان هذا الغلام من هاجر المصرية وهو بالشام ، وهو إسماعيل ، ولما لم تنجب زوجته الأولى دخلت الغيرة قلبها فأمره الله أن يبعد عنها هاجر وولدها ، فأسكنهما فى موضع مكة ، وامتحنه بذبحه لما بلغ معه السعى وكان ذلك الامتحان فى مكة .

١- وقد ذكره الزمخشري في الكشاف ، وقال الزيلعي في تخريج أحاديثه: غريب .

أما ابنه إسحاق فجاءت البشارة به بعد أن بشره الله بإسماعيل ، كما تدل عليه الآيات التى ذكرت الرؤيا والبدء فى الذبح ثم افتداء الله إسماعيل بذبح عظيم ، وانتهت بمدح إبراهيم ثم ذكرت البشارة بإسحاق .

والامتحان يكون بذبح الابن البكر الذى جاء بعد شوق طويل ، لا بالولد الثانى الذى لا يصل حبه إلى ما وصل إليه حب الأول .

٢- وأن إبراهيم عاش سلسلة من الامتحانات أكثرها يتصل بهاجر وولدها إسماعيل ، حيث أسكنهما بواد غير ذى زرع ، مسلماً أمرهما إلى الله ، يعيش بعيدا عنهما فى الشام ، ويزورهما على فترات ، ثم يتصاعد الامتحان بأن يرى فى المنام أنه يذبح فلذة كبده ، وما ذلك إلا إسماعيل ، ولنتصور حال إبراهيم لو تم الذبح كيف يترك هاجر وحيدة فى مكان ليس فيه من الأنس ما فى الشام حيث يستقر به المقام، إن سلسلة هذه الامتحانات المترابطة تؤكد أن الذبيح هو إسماعيل .

٣- وأن هناك اختلافا فى الظروف التى بُشِّر بها إبراهيم بكلا ولديه إسماعيل وإسحاق فالبشارة بإسماعيل كانت عند هجرته من أرض العراق وبطلب من الله أما البشارة بإسحاق فكانت عندما جاءته الملائكة فى طريق مرورها إلى قوم لوط ، وهى فترة كان فيها إسماعيل مع أمه هاجر بعيدين عن البيت ، الذى لم يكن فيه إلا سارة التى عجبت أن يولد لها وهى عجوز عقيم وبعلها شيخ كبير، ولم يكن هناك طلب منهما لهذا الولد والامتحان بذبح من طلبه وتشوق إليه امتحان أشد .

٤- أن الشروع في ذبح إسماعيل صاحبته أحداث تدل على أنه هو المقصود بالذبح وليس إسحاق ، ذلك أن الروايات تقول : إن إبراهيم أخذ ولده وخرج به من البيت ليذبحه بعيدا عن أمه فلقيهما الشيطان فى الطريق وسول لهما عدم الاستجابة، فرجمه إبراهيم فى أكثر من مكان ، ومنه كانت شعيرة رمى الجمار من شعائر الحج ، وذلك فى مكة وليس فى الشام .

٥- عندما بشر الله إبراهيم وسارة بإسحاق عن طريق الملائكة ، جاء فى البشارة ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾ [هود : ٧١] يعنى أن إسحاق سيولد ويكبر ويتزوج ويولد له يعقوب ، فهل يعقل بعد الاطمئنان على حياة إسحاق أن يذبحه أبوه؟ إنه لو ذبحه فمن أين يكون يعقوب ؟ هذا دليل قوى على أن الذبيح هو إسماعيل.

٦- أن البشارة بإسماعيل وصفته بأنه غلام حليم ، أما البشارة بإسحاق فوصفته بأنه غلام عليم ، وصفة الحلم تتناسب مع من أطاع أمر ربه وصدق رؤيا أبيه فلم يغضب ولم يعص ، وهو إسماعيل . وصفة العلم غالبة فى نسل إسحاق ويعقوب وبنى إسرائيل .

٧- أن النبى ﷺ سئل عن الأضاحى فقال «سنة أبيكم إبراهيم» [1] وأبو العرب هو إسماعيل بن إبراهيم ، وليس إسحاق بن إبراهيم ، كما هو معروف والقرابين كانت تذبح فى مكة وليس فى الشام استجابة لدعوة إبراهيم ربه ﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحج : ٢٧-٢٩] .

٨- أن أهل الكتاب يقولون : إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده ، وما كان له ابن وحيد إلا إسماعيل ، فإن إسحاق لا يقال له وحيد حيث كانت ولادته بعد ولادة إسماعيل ، فقد نصت كتبهم على أن إسماعيل ولد ولإبراهيم ست وثمانون سنة ، وأن إسحاق ولد ولإبراهيم تسع وتسعون سنة . فأول ولد بشر به هو إسماعيل، والوحيد الذى أمر بذبحه هو أيضاً إسماعيل . وهو البكر كما عبر عنه في بعض نسخهم ، فأقحموا ها هنا كذبا وبهتانا اسم إسحاق لأنه

١- رواه أحمد وابن ماجه .

أبوهم ، وإسماعيل أبو العرب فحسدوهم ، ذكر هذا ابن كثير فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ .

٩- أن كبار العلماء من السلف قالوا : إن الذبيح هو إسماعيل كما روى ذلك عطاء ابن أبي رباح عن ابن عباس ومجاهد عن ابن عمر ، والشعبى يقول : رأيت قرنى الكبش فى الكعبة (كذا) وعمر بن عبد العزيز استدعى يهوديًّا بالشام أسلم وحسن إسلامه فشهد بأن الذبيح إسماعيل . وأبو عمرو بن العلاء سأله الأصمعى عن الذبيح فقال له : أين ذهب عقلك ، متى كان إسحاق بمكة ؟ إنما كان إسماعيل بمكة وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة .

يقول الآلوسى بعد أن ساق أقوال العلماء فى ذلك : والذى أميل إليه أن الذبيح إسماعيل لأنه المروي عن كثير من أئمة أهل البيت ولم أتيقن صحة حديث مرفوع يقتضى خلاف ذلك ، وحال أهل الكتاب لا يخفى على ذوي الألباب .

ها هو ما أثير حول هذا الموضوع لخصته من كتب السيرة ، ومن زاد المعاد لابن القيم وغيره من المصادر ، ينتهي إلى أن الذبيح هو إسماعيل ، وما سبق في ذلك هو اجتهادات واستنباطات يؤيدها حديث الحاكم عن معاوية بعدم إنكار الرسول ﷺ على من ناداه بابن الذبيحين ، كما يؤيدها ما روى عنه ﷺ من قوله «أنا ابن الذبيحين».



س : من أين جاء الكبش الذي فدى الله به إسماعيل ، ومن الذى أكله بعد الذبح ولِمَ لَمْ يذبح إبراهيم لابنه جملا أو بقرة ؟

ج : قال تعالى فى قصة إبراهيم عليه السلام عندما شرع فى تنفيذ الرؤيا بذبح ولده إسماعيل ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠٧] .

أغلب أقوال المفسرين أن الذبح كبش من الضأن ، واختلفت آراؤهم فى مصدره ، فقيل : إنه من الجنة ، وذكروا أنه القربان الذى قدمه هابيل بن آدم عليه السلام ، فتقبله

الله منه ورفعه وأدخله الجنة يرتع فيها ، وقيل : إنه كبش من كباش الجبال ، هبط على إبراهيم فذبحه وقيل غير ذلك .

وكلها أقوال ليس لها دليل يعتمد عليه من كتاب أو سنة ، وكونه ذبحا عظيما لا يدل على سمنه وكثرة لحمه ، لأن العِظَم قد يطلق على الشرف والأهمية ، وبالطبع هذا الكبش له أهميته لأنه فداء لشخصية عظيمة هى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

وأما لحم الذبح فلا يدل دليل على أنه رفع وأكلته النار كالقرابين فى العصور السابقة أو أكله سيدنا إبراهيم وأهل بيته ، أو أعطاه غيرهم من الناس ، أو تركه للوحوش والطيور .

وإذا لم يدل دليل على أصل الكبش ولا على أكله فالظاهر -كالمعتاد- أن الكبش من غنم الأرض وأن إبراهيم أكل منه وتصدق على غيره شكراً لله على فداء إسماعيل ، شأن الأضحية فى الإسلام التى قال فيها النبى ﷺ «سنُّوا بها سنة أبيكم إبراهيم» .

وأنبه إلى أن القرآن لا يهتم بذكر التفاصيل الجزئية اهتمامه بموضع العبرة والموعظة وإبراهيم لم يذبح جملا ولا بقرة ، لأنه كان لا يعرف فداء ولده ، ولكن الله هو الذى نبهه إلى ذلك على ما يفهم من ظاهر التعبير ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ فهو توجيه من الله سبحانه ، والواجب هو الاتباع .



س : من هم أخوة يوسف الذين سجدوا له وماهى الكواكب التى رآها وكيف كان السجود ليوسف ؟

ج : يقول الله سبحانه ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾[يوسف : ٤] ويقول : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾[يوسف : ١٠٠] .

فى هاتين الآيتين ثلاث نقاط : الأولى : أسماء الكواكب وكيف سجدت ، والثانية : عدد إخوة يوسف وأسماؤهم ، والثالثة : كيف يسجدون لمخلوق والسجود لا يكون إلا لله ؟

١- أما أسماء الكواكب فلا يعنينا معرفتها ، لأن المقصود هو العبرة والموعظة ومع ذلك قال القرطبي في تفسيره ، إن أسماءها جاء ذكرها مسندا ، رواه الحارث ابن أبى أمامة قال : جاء بستانه - وهو رجل من أهل الكتاب - فسأل النبى عنها فقال «الحرثان والطارق والذيال وقابس والمصبح والصروح وذو الكنفات وذو القرع والغليق ووثاب والعمودان» والله أعلم بصحة هذا الحديث ، كما أن بعض الأسماء مختلف فى نطقها ، ولا يهمنا كل ذلك كما أن كيفية سجودها غير معلومة بطريق صحيح ، ويكفى أن يكون بأدنى قرب منه .

٢- أما إخوة يوسف فأحد عشر ، وهو : روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وزبالون ويشجر ودان ونفتالى وجاد وآشر وبنيامين ، والنطق مختلف عما فى التوراة وفى كتب أخرى وذلك أيضا غير مهم .

٣- أما سجود أخوته له فكان سجود تحية وليس سجود عبادة بالاتفاق عند جميع العلماء ، كما سجد الملائكة لآدم ، وكان ذلك من عرفهم والأعراف مختلفة ، وما زال الانحناء والانبطاح على الأرض إلى حد تقرب فيه الجبهة من الأرض تحية فى بعض الشعوب إلى اليوم ومنها شعوب إسلامية ، والإسلام لا يوافق على التحية بالسجود ، وقد نهى النبى ﷺ من أراد أن يسجد له كما يفعل مع الملوك ، وذكر القرطبي حديثا خرَّجه أبو عمر فى التمهيد عن أنس قال : قلنا: يا رسول الله أينحنى بعضنا إلى بعض إذا التقينا ؟ قال «لا» قلنا : أفيعتنق بعضنا بعضاً ؟ قال «لا» قلنا : أيصافح بعضنا بعضا ؟ قال «نعم» .



س : من هم إخوة يوسف ، وهل هم أنبياء ، وكيف يجوز منهم أن يدبروا المكيدة لأخيهم ويكذبوا على أبيهم ؟

ج : جاء فى تفسير القرطبي [1] أن إخوة يوسف هم :

١- ج ٩ ص ١٣٠ .

١- روبيل وهو أكبرهم ٢- شمعون ٣- لاوي ٤- يهوذا ٥- زيالون ٦- يشجر وأمهم ليَّا بنت ليان ، وهى بنت خال يعقوب ، وولد له من سريتين أربعة نفر هم :

١- دان ٢- نفتالى ٣- جاد ٤- آشر ثم توفيت ليَّا فتزوج يعقوب أختها راحيل ، فولدت له يوسف وبنيامين . فكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلا .

ثم ذكر القرطبي [1] : أن أخوة يوسف ما كانوا أنبياء ، لا أولا ولا آخرا، لأن الأنبياء لا يدبرون فى قتل مسلم ، بل كانوا مسلمين فارتكبوا معصية ثم تابوا . وقيل : ماكانوا فى ذلك الوقت أنبياء ثم نبأهم الله ، وهذا أشبه .

هذا ، وفى مقال للدكتور كارم السيد غنيم بمجلة الهداية -رمضان ١٤٠٩هـ- أن يعقوب تزوج من بنتى خاله «ليا ، راحيل» ومنهما ومن أمتيهما أنجب اثنى عشر ولدا ذكرا هم الأسباط ، وأسماؤهم : راوبين ، شمعون ، لاوى ، يهوذا ، بساكر ، زبولون «أمهم ليا» يوسف ، بنيامين «أمهما راحيل» جاد ، أشير «أمهما زلفة جارية ليا» وداود، نفتالى، «أمهما بلهة جارية راحيل» وولدوا جميعا بالعراق إلا بنيامين ولد فى كنعان ، نزل يعقوب وأولاده مصر بدعوة يوسف ، وأقاموا بمنطقة «جاسان ، أو جاشان» لوجود المراعى بها ، أو لإبعادهم عن قوم فرعون الوثنيين .

ولما هاجم الهكسوس مصر ومكثوا بها أربعة قرون «من الأسرة ١٤- ١٨» طردهم قائد مصرى من الأسرة الثامنة عشرة هو «أحمس» . ثم جاء ملك تنكر ليوسف وارتاع من تكاثر بنى إسرائيل في أرضه فأمر بقتل كل ذكر يولد منهم ، ثم كان موسى وتربيته بقصر فرعون ثم بعثه الله لابن هذا الفرعون ، وانتهى الأمر إلى خروجهم إلى «سينا» ثم دخول الشام .



١- ص ١٣٣.

س : يسأل الكثيرون عن موقف سيدنا يوسف عليه السلام من امرأة العزيز ، وكيف ينسب إليه أنه همَّ أن يأتي معها الفحشاء لولا أن رأى برهان ربه ، مع أن ذلك يخل بعصمة الأنبياء ؟

ج : ليكن معلوماً أن الأنبياء جميعاً في منزلة واحدة من حيث الإيمان بهم واعتقاد العصمة لهم ، فهم صفوة الله من عباده ، وإيمان المسلم لا يتحقق إلا بالإيمان بهم جميعا كما قال تعالى : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾[البقرة : ٢٨٥] لأنهم إخوة فى الدعوة إلى الله ، وقد قال النبى ﷺ «الأنبياء إخوة من عَلاَّت ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[1] والطعن فى أحد منهم طعن فيهم جميعاً . وإن كان الله قد فضل بعضهم على بعض . وسيدنا يوسف ـ كما هو معروف في قصته التي بسطتها سورة خاصة باسمه - تربى فى قصر عزيز مصر وفتنت به زوجته وجاء فى ذلك قوله تعالى : ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٣ ، ٢٤].

لهذا المشهد من القصة بداية ونهاية ، فبدايته إغراء وعرض بالكلام ، ونهايته تشابك بالأيدى وعراك .

عرضت امرأة العزيز نفسها على يوسف بعد تهيئة الجو الكامل له ، فكان جوابه الرفض التام مستعيذاً بالله الذى يؤمن به ليحميه من المعصية ، ومذكراً لها أن الواجب الإنسانى يأبى أن يقابل المعروف بالجحود ، فربُّه أى سيده الذى رباه وائتمنه على عرضه وأسرار بيته لا يكون جزاء معروفه طعنه فى شرفه ، وخيانة فى أمانته فذلك ظلم ولا يفلح الظالمون .

وهنا أحست امرأة العزيز بصدمة عنيفة ضد رغبتها الجامحة ، وبطعنة قوية جرحت كبرياءها كسيدة له ، فقررت أن تنال منه بالقوة ما لم تستطع نيله باللين والإغراء ، فهمت به جذباً إليها أو انتقاماً منه ، وهمَّ بها تخلصا ودفاعاً ، وكاد يقضى عليها أو يلحق بها

---

١ - رواه البخارى ومسلم .

أذى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ذلك البرهان الذى ليس فى تعيينه دليل صحيح ، أو رأي ترتاح إليه النفس ، ولعله خوفه من الله أن يعاقبه على فتكه بها ، أو خوفه من زوجها أن يقتله ، فرأى الفرار من وجهها متجهاً إلى الباب وهى تلاحقه ممسكة بقميصه من خلفه ، ولم ينقذ الموقف إلا وجود زوجها لدى الباب ، فبادرت بالاتهام بل إصدار الحكم على يوسف ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف : ٢٥] وبدفاعه عن نفسه وشهادة رجل من أهلها بقرينة قَدِّ قميص يوسف من الخلف برَّأ الزوج يوسف وأدانها كما هو مفصل فى السورة .

إنه موقف بطولى من يوسف حيث صمد أمام كل المغريات ، فهو عَزَبٌ ، غريب، فى عنفوان شبابه وكمال حسنه ، أمام سيدة فى القمة جمالاً وثراءً وسلطاناً ، تقدمت هى بالرغبة ، وأمَّنَتْ له كل ما يخشاه فقال ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ وتذكر واجب الشكر على المعروف.

فهل يُعقَلُ بعد أن رفض الفاحشة فى هذا الجو المُهَيَّأ أن تحدث منه مراودة وهمٌّ بما أباه ؟ إنهما موقفان فى بدء المشهد وفى نهايته ، كان فى كلٍّ منهما البطل المبرأ الساحة من الفحشاء ومن السوء معاً .

وكل ذلك حدث ولم يكن بعد قد جاءته الرسالة ، وهكذا يعصم الله رسله من المعاصى الكبيرة حتى قبل الرسالة حين كانوا فى فترة إعدادهم لهذا الشرف العظيم .

إن من خير ما يؤكد براءة سيدنا يوسف مما يتنافى مع عصمة الأنبياء ما قاله الفخر الرازى فى تفسيره حيث ذكر أن الذين لهم تعلُّق بهذه الحادثة سبعة ، وكلهم شهد ببراءة يوسف .

أولـهـم : رب العزة سبحانه وقد قال : ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف : ٢٤] .

ثانيهم : إبليس الذى قرر مع القسم ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص : ٨٢ ، ٨٣] .

وثالثهم : يوسف نفسه القائل ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ والقائل ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ .

رابعهم : المرأة نفسها وهى القائلة ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾[يوسف:٣٢].
﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[يوسف : ٥١] .

خامسهم : زوجها وقد قال لها : ﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾[يوسف : ٢٩] .

سادسهم : ما شهد به الشاهد من أهلها ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾
[يوسف: ٢٦ ، ٢٧] .

سابعهم : نسوة المدينة ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾[يوسف : ٥١] .

تلك هى الشهادات ببراءة يوسف عليه السلام ولم يَصِرْ بَعْدُ نبيًّا ، فالواجب أن نحمل آيات القرآن على الوجه اللائق بهذه الشخصيات التى اصطفاها الله ، فلا يليق أن يحمل أمانته إلا الأمناء ولا أن يتشرف برسالته إلا الشرفاء .



س : ما هى الرسالة التى جاء بها سيدنا يوسف عليه السلام ، وكيف نفهمها من القرآن الكريم ؟

ج : كل الرسل جاءت لتؤكد الدعوة إلى توحيد الله تعالى والإيمان بالبعث بعد الموت، والبعد عن المنكرات ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء : ٢٥] وقال : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[النحل : ٣٦] .

وسيدنا يوسف عليه السلام جاء بما جاءت به الرسل ، فقد أمر صاحبى السجن بعبادة الله وحده وتنزيهه عن الشركاء ، قال تعالى : ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[يوسف : ٣٩ ، ٤٠] . وذلك بعد أن

قال لهما ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف : ٣٧ ، ٣٨] .

ذلك إلى جانب ما قرره عن عزوفه عن ارتكاب الفاحشة ومن عدم خيانة من ربَّاه وكفله وأحسن إليه ، ومن الإرشاد إلى التخطيط وعمل الاحتياطات للمفاجآت بتأويل الرؤيا وتخزين المحصول للطوارئ ، وغير ذلك مما جاء فى الآيات فى هذه السورة ، وهى كلها فروع فى التشريع بعد الدعوة إلى توحيد الله سبحانه .



س : ما المقصود بالبرهان فى قوله تعالى عن سيدنا يوسف ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾[يوسف :٢٤] . ؟

ج : قبل الإجابة لابد أن نعلم أن يوسف لم يهم بها فاحشة ، لأنها عرضت نفسها عليه بالمراودة مع تهيئة لكل الأسباب لنيل غرضها وإغرائه وعمل كل ما يطمئنه على عدم مؤاخذته . فقال «معاذ الله» والهم السيئ بها لم يحصل لأنه رأى برهان ربه ، وفي هذا البرهان كلام كثير لا يستند إلى دليل صحيح ، والأقرب إلى الفهم أن الله ألهمه أنه لو هم بها ضربا لمنع نفسه منها حيث جذبته بقوة لتنال غرضها بعد أن فشلت المحاولة السلمية لأدى ذلك إلى ارتكاب جناية عاقبتها الدنيوية سيئة . فالبرهان إلهام من الله لإدراك العاقبة .

ويقرب من هذا المعنى ما روى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أن «زليخا» قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت فى زاوية البيت فسترته بثوب فقال : ماتصنعين؟ قالت : أستحى من إلهى هذا أن يرانى فى هذه الصورة ، فقال يوسف : أنا أولى أن أستحى من الله .

يقول القرطبى : وهذا أحسن ماقيل فيه ، لأن فيه إقامة الدليل ، ثم ذكر القرطبي آراء أخرى في البرهان ، فقيل : رأى فى سقف البيت مكتوبا ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾ وقيل: ظهرت كف مكتوب عليها ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ وقيل : تذكر عهد الله وميثاقه ،

وقيل: رأى صورة يعقوب على الجدران عاضًا على إصبعه يتوعده ، فسكن وخرجت شهوته من أنامله ، وقيل غير ذلك .



س : من هو فرعون موسى ؟

ج : ليكن معلوما أن لفظ «فرعون» يطلق على كل من ملك مصر من القدماء ، مثل كسرى للفرس ، وقيصر للروم ، والنجاشى للحبشة ، وفرعون موسى المذكور فى القرآن واحد منهم . قال المسعودى : لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية ، وقال الجوهرى : كل عات فرعون والعتاة الفراعنة ، وهو ذو فرعنة أى دهاء ومكر ، وفى الحديث «أخذنا فرعون هذه الأمة» [1] ، وبخصوص فرعون موسى جاء فى مقال للمرحوم الشيخ فكرى ياسين نشر بمجلة الأزهر [2] أن ما كتب قديما وحديثا يؤخذ منه أن موسى عليه السلام أدرك عهدى ملكين من ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، يقال للأول منهما «فرعون الاضطهاد» لأنه اضطهد بنى إسرائيل ، ويقال للثانى : «فرعون الخروج» لأنهم خرجوا من مصر في عهده .

وفرعون الاضطهاد هو رمسيس الثانى المعروف باسم «رمسيس الأكبر» وقد ولد موسى فى زمنه وتربى فى قصره ، وكانت آثاره عظيمة أعجب بها من جاءوا بعده حتى سمى عشرة منهم باسمه ، وكان قد بلغه ما هو مشهور يؤمئذ أن بني إسرائيل سيخرج منهم غلام يكون هلاك ملك مصر على يديد ، فأمر بذبح أبنائهم كما نص عليه القرآن الكريم . ومات بعد أن حكم ٦٧ سنة ، ودفن بمقبرة «بيبان الملوك» ثم نقل إلى الأقصر، ثم إلى متحف بولاق .

وأما فرعون الخروج فهو «منفتاح الأول ، الابن الثالث عشر لرمسيس الأكبر ، وقد أشركه أبوه معه في الحكم قبل وفاته ، وعاصر موسى وهو يتربى فى بيت أبيه ،

١- ذكره القرطبى، ج ١ ص ٣٥٣ .
٢- المجلد العاشر ص ٣٠٣ .

وكان مولعا بتشييد المبانى كأبيه ، وكان يمحو أسماء الملوك من الآثار لينقش اسمه مكانها . وظل على اضطهاد بني إسرائيل حتى أرسل الله إليه موسى وهارون لدعوة التوحيد والخروج ببنى إسرائيل من مصر . وكانت النتيجة غرقه فى البحر ، وإنقاذ الله لجثته ليصدق بنو إسرائيل أنه قد مات ، ووجدت جثته مع جثث أخرى فى قبر «أمنحتب الثانى» بالأقصر ، ثم وضعت أخيرا فى المتحف .

وجاء فى المجلد الرابع والثلاثين من مجلة الأزهر [1] ، ما يؤكد ذلك ، حيث يوجد فى المتحف لوح كبير من الحجر الأسود اللون عليه قصة خروج بني إسرائيل فى عهد منفتاح .



س : هل كان هارون عليه السلام رسولاً أم نبيا ؟

ج : الرسول إنسان أوحى إليه بشرع يعمل به وأمر بتبليغه للناس ، أما النبى فهو إنسان أوحى إليه بشرع يعمل به ولم يؤمر بتبليغه للناس ، وسيدنا هارون رسول من عند الله أرسله إلى فرعون ، قال تعالى لموسى : ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[طه : ٤٢ ، ٤٧] . وجاء مثل ذلك فى سورة الشعراء : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الشعراء : ١٦] . ومادام هارون رسولاً فهو نبى أيضا ، لأن الرأى الصحيح أن كل رسول نبى وليس كل نبى رسولا .



س : أين كان الحوار بين موسى والخضر ؟

ج : الحوار موجود بالتفصيل فى سورة الكهف ، والمفسرون وضحوه فلنرجع إلى كتبهم ، أما المكان الذى التقيا فيه أولا فهو مجمع البحرين ، وفى تحديده خلاف كبير ،

١- ص ٧٤٢ .

والحوار حصل فى عدة أماكن ، كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ عند خرق السفينة وعند قتل الغلام وعند إقامة الجدار ، والجداركان فى قرية قيل إنها «أُبُلَّة» وقيل «أنطاكية» وقيل «باجَرْوان» بناحية أذربيجان ، وقيل غير ذلك ، والقرية تطلق قديما على المجتمع الذى يعيش فى غير الصحراء ، أى فى أبنية ، والفرق الآن بين القرية والمدينة هو بحسب العرف . ثم أنبه إلى أن الخلاف فى هذه الأمور لا طائل تحته ، وكان من الممكن أن يبينها القرآن الكريم ، ولعل عدم بيانها إشعار لنا بأن المهم هو ما فى هذا العمل من العبرة والموعظة بصرف النظر عن المكان الذى وقع فيه ، وكم فى القرآن من أمور مبهمة فى القصص لا يضر الجهل بها ، كما لا يفيد بها فائدة تذكر .



س : قرأنا فى بعض المجلات بمناسبة كلام موسى مع النبي حين أخبره بأن الصلاة فرضت عليه خمسين (أن موسى لم يكن وصيا على الرسول حتى يقول له ارجع إلى ربك أكثر من مرة ، فهذا الحديث دخيل إسرائيلى يبين أن منزلة موسى رفيعة ، وأنه هو الذى وجَّه نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام للتخفيف عنكم) فما رأى الدين في ذلك ؟

ج : حديث الإسراء والمعراج رواه البخاري ومسلم وغيرهما ، وهو بهذا في أعلى درجات الصحة ، وجاء فيه أن الله عندما فرض على النبي ﷺ الصلاة خمسين أشار عليه سيدنا موسى أن يسأل ربه التخفيف ، فخففت حتى صارت خمسا فى العمل وخمسين فى الأجر .

ويجب أن يلاحظ أن هذا الحديث فى موضوع خارق للعادة وفوق مستوى العقل البشرى ، ويجب التصديق به وعدم تكذيبه ، كما عليه أكثر العلماء من أن الخبر يفيد العلم اليقينى إذا كان متواتراً ، أو كان حديث آحاد ثبتت صحته .

كما يلاحظ أن الواجب هو تصديق الخبر من هذا النوع بجملته ، وإن ترك -وهذا ما لا يجوز- يترك كله ، ولا يصدق بعضه ويرفض بعضه الآخر .

إن فرض الصلاة ليلة الإسراء والمعراج على هذا النحو لم يعارض فيه أحد من شراح الحديث ، وما جرؤ واحد منهم على أن يقول : إن تردد محمد ﷺ بين ربه وموسى لسؤاله التخفيف - أمر دخيل على السنة وأنه من صنع اليهود ليثبتوا به الوصاية لموسى على محمد - بل إنهم آمنوا به إيمانا عميقا جعلهم يبنون على هذه الفقرة من الحديث قاعدة أصولية ، وهى هل يجوز النسخ قبل الفعل أو لا يجوز ؟

ثم لماذا يقال : إن هذه الفقرة تسلل إسرائيلى لصالح اليهود ، ولا يقال إنها ترتيب إلهى يسجل صورة من تمرد اليهود على موسى من ضمن صور التمرد ، التى حدثت منهم ، وهذا ما يدل عليه قول موسى للرسول عليه الصلاة والسلام في الحديث «فإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم» يقول الشراح : أى علمت منهم عدم الوفاء بذلك مع قوة أجسادهم وطول أعمارهم فلم أجد لهم صبرا على ذلك فكيف حال أمتك .

وقال القرطبي : الحكمة فى تخصيص موسى بمراجعة النبى ﷺ في أمر الصلوات يحتمل أن تكون أمة موسى عليه السلام كلفت من الصلوات ما لم يكلف به غيرها من الأمم قبلها فثقلت عليهم ، فأشفق موسى على أمة محمد من مثل ذلك ، ويشير إليه قوله : إنى جربت الناس قبلك [1] . وهناك توضيحات كثيرة لهذه النقطة لم يجر فيها نقد لها أو مجرد شبهة أنها دخيل إسرائيلى .

إن الأنبياء جميعا إخوة من علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد كما ثبت عن النبىﷺ ، وليس بعيدا أن يشير أخ على أخيه بما يحقق له ولأمته المصلحة ، ثم ماذا يقول من يرفضون هذه القطعة من الحديث خوفا أن يظن أن هناك وصاية من موسى على محمد في تكريم محمد لموسى وعيسى ويونس وغيرهم من الأنبياء ، وقد ثبت فى الحديث الصحيح قوله «وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه ليس بينى وبينه نبى» وقوله عن موسى «لا تخيرونى على موسى فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق

١- الزرقانى على المواهب اللدنية ج ٦ ص ١٢٣ .

قبلى أم كان ممن استثنى الله» وقوله «ما ينبغى لعبد أن يقول : أنا خير من يونس» وماذا يقول فى قول الله لنبيه محمد ﷺ بعد ذكر الأنبياء فى [الأنعام : ٩٠] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ هل كانت لهم وصاية عليه ﷺ ؟

ليس هناك وجه صحيح أبدا لرفض هذه المحادثة التى جرت بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، إن وجدنا فهما ممكنا وقريبا على وجه يبعد هذه الشبهة عن علاقة موسى بمحمد ، وأخشى أن تتحكم بعض الأفهام فى النصوص الثابتة فترفضها لوجهة نظر قد غلبتها ظروف قائمة ، مع أن مخارج الفهم الصحيح لها كثيرة ، ولولا أن القرآن الكريم قطعى الثبوت لقال بعض الناس فى قوله تعالى : عن القرآن الكريم ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٧] كيف يحيل الله التصديق بالقرآن أو بمحمد على علماء بني إسرائيل ، أليس فى ذلك وصاية منهم على القرآن ومحمد ؟ وكيف يجعل لهؤلاء سلطانا وشهادة على ذلك في قوله تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل : ٤٣] ومهما قيل فى هؤلاء فإن المقصود بهم من آمنوا منهم بالرسول والقرآن ، فيكفى أن الله شهيد على صدق محمد فى رسالته ومعجزته ، ولا حاجة لهؤلاء .

إن حديث الإسراء والمعراج حديث الغرائب ، وهو صحيح فى جملته وتفصيله كما رواه البخاري ومسلم ، ولم يخرجه أحد من المحدثين لا فى متنه ولا فى سنده ، ولم يقل أحد من الشراح إن فيه تسللا إسرائيليا فى مشهد من مشاهده أو موقف من مواقفه بل إن إعجابهم بهذا الموقف جعلهم يكثرون من التعليق عليه بألوان شتى تؤكد صدقه وحكمته المقصودة من ورائه ليفهمها من يصعب عليهم الفهم بعد أربعة عشر قرنا وضع فيها هذا الحديث على بساط البحث أمام مئات وآلاف عباقرة الإسلام المتخصصين الغيورين ولم يدر بخلد واحد منهم ما يدور اليوم بخلد غيرهم ممن يعجزون عن إقامة الدليل الصحيح المقنع على ما يدعون ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [النجم : ٢٨] .

لئن كان هذا فهما لغير مسلم لهان الأمر وقلنا «شنشنة أعرفها من أخزم» وجزء من حملة التشكيك فى السنة ذريعة للتشكيك فى القرآن ، فكيف إذا كان هذا فهما لمسلم؟ لئن كان القصد سليما فإن رد الفعل على عقول وأفهام الكثيرين رد يخشى منه على نظرة البسطاء للسنة وللدين بوجه عام ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[النمل:٦٤].



س : لماذا طلب الله سبحانه من موسى عليه السلام أن يخلع نعليه في الوادي المقدس طوى ؟

ج : قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾[طه : ١١ ، ١٢] ذكر القرطبي في تفسيره اختلاف العلماء فى السبب الذى من أجله أمر موسى بخلع النعلين ، فقيل لأن النعلين غير طاهرين ، لأنهما من جلد غير مُذكَّي ، أي غير مذبوح ذبحا شرعيا . وقيل لينال بركة الوادي المقدس وتمس قدماه تربة الوادي ، وقيل للخشوع والتواضع لله عند مناجاته وكذلك فعل السلف حين طافوا بالبيت ، وذكر أقوالا أخرى كلها اجتهادية .



س : هل يمكن أن نعرف المكان الذى مات فيه سيدنا موسى عليه السلام ؟

ج : مبدئيا نقول : ما هى الفائدة التى تعود علينا من معرفة المكان الذى مات ودفن فيه سيدنا موسى عليه السلام ؟ لقد أشرت من قبل إلى عدم أهمية معرفة المكان الذى دفن فيه آدم عليه السلام ، ويستفاد مما ذكره القرطبي في تفسيره [1] أن هناك خلافا فى كون موسى وهارون كانا مع بني إسرائيل فى التيه الذى مكثوا فيه أربعين سنة ، فقال بعضهم : لم يكونا معهم ، لأن التيه عقوبة وهما لا يستحقانها ، ويؤيده قول موسى لما قعد بنو إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة كما قال تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[المائدة : ٢٥] وقيل : كانا معهم لكن سهَّل الله الأمر عليهما كما جعل النار بردا وسلاما على إبراهيم .

١- ج ٦ ص ١٢٩ .

ثم قال القرطبي : روى عن ابن عباس أن موسى وهارون ماتا فى التيه . وممن قال بذلك عمرو بن ميمون الأودى ، وكانا خرجا فى التيه إلى بعض الكهوف فمات هارون فدفنه موسى وانصرف إلى بني إسرائيل ولما سألوه عن هارون وأخبرهم بموته شكوا في قتله . فبرأ الله موسى بنطق هارون في قبره .

وقال الحسن : إن موسى لم يمت بالتيه ، وقال الثعلبي : أصح الأقاويل أن موسى فتح أريحا ومكث بها ثم قبضه الله ولا يعلم بقبره أحد من الخلائق ، وذكر القرطبي حديث مسلم عن مناقشة موسى لملك الموت ، وقول النبي ﷺ «فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر» فقد علم الرسول قبره ووصف موضعه ورآه فيه قائما يصلى كما في حديث الإسراء ، إلا أنه يحتمل أن يكون أخفاه الله عن الخلق سواه ولم يجعله مشهورا عندهم ، ولعل ذلك لئلا يعبد ، ويعنى بالطريق طريق بيت المقدس . ووقع فى بعض الروايات إلى جانب الطور مكان الطريق . ثم تحدث القرطبي عن لطم موسى عين ملك الموت وقد مر الحديث عن ذلك . ثم قال : إن عمر موسى كان مائة وعشرين سنة .



س : هل صحيح أن النبى ﷺ نهى عن تفضيله على سيدنا موسى عليه السلام ؟

ج : روى البخاري أن النبى ﷺ قال «لا تخيرونى على موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى بجانب العرش فلا أدرى أكان موسى فيمن صعق فأفاق قبلى ، أو كان ممن استثنى الله» .

هذا الحديث يدل على ميزة لسيدنا موسى عليه السلام ، وأود أن يعرف الناس أن المزية لا تقتضى الأفضلية ، فالميزات منح من الله يهبها لمن يشاء من عباده ، وسيدنا محمد ﷺ وهو خاتم الأنبياء والمرسلين وصاحب الشفاعة العظمى والمقام المحمود وصاحب الإنعامات الكبيرة فى الإسراء والمعراج وغيرها من أنواع التكريم - حمله كرم أخلاقه وحرصه على السلام على أن يحذر الناس من الخوض

فى الحديث عن تفاضل الأنبياء ، وجاءت في ذلك حوادث ونصوص كثيرة ، وإذا كان هناك انحراف من أتباع بعض الأديان يجعل المسلمين على حذر منهم وردِّ عدوانهم أو الوقوف أمام ظلمهم - فإن ذلك لا يعنى الانتقاص من أقدار الأنبياء الذين ينتسب إليهم هؤلاء المنحرفون زورا - فإن الأنبياء جميعا إخوة واحترامهم جميعا واجب «لا نفرق بين أحد منهم» فى الإيمان والاحترام .



س : ما رأى الدين فيما نراه فى بعض الكتب أن سيدنا داود عليه السلام أحب امرأة متزوجة فانتزعها من زوجها وتزوجها ؟

ج : إن القرآن تحدث عن سيدنا داود عليه السلام بما يتناسب مع مقام النبوة واصفا له بأنه أواب رجَّاع إلى الله ، آتاه الله الملك والحكمة وفصل الخطاب ، وألان له الحديد وعلمه منطق الطير ، وعصمه كما عصم جميع الأنبياء مما يخل بقدره وشرفه .

وليس من المعقول أن يغتصب امرأة لا تحل له ، أو يفكر فى حيلة يتخلص بها من زوجها ليتزوجها هو ، إن هذه الحادثة يتنزه أن يتورط فيها واحد من عامة الناس فكيف بالمصطفين الأخيار من رسل الله الذين بُعثوا للدعوة إلى القيم الأخلاقية العالية، وحاول المغرمون بالغرائب والناقلون عن أهل الكتاب دون تحوط لما ينقلون أن يحمِلُوا على تلك الحادثة قول الله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص: ٢١ - ٢٦] .

إن ظاهر الآيات يدل على خصومة حقيقية بين فريقين فى غنم مشتركة بينهما ، وأن داود عليه السلام وقع فى خطأ ، استغفر ربه منه وخر راكعا ورجع إلى الله ، كما أن أمر الله لداود بالحكم بالحق وعدم اتباع الهوى قد يفهم منه أنه ظلم فى حكمه ومال مع الهوى ، فكيف يكون ذلك ؟

إن الكلام فى تفسير هذه الآيات كثير ، وادعى بعض المفسريـن أن «النعجة» هى المرأة ، وأن القصة درس لداود الذى طمع في زوجه القائد «أوريا» ولم يقنع بما عنده من النساء . وهو كلام يتنافى مع مقام الأنبياء .

ومن أحسن ما قيل في ذلك أن الخصومة حقيقية في شركة أغنام ، وأن المتخاصمين أرادا التحاكم إلى داود على عَجل حتى يحسم النزاع غير أن داود كان إذ ذاك فى خلوته الخاصة ، يعبد ربه كنظام وضعه لنفسه في توزيع أعماله بين الله والناس ، ولم يجد الخصمان وسيلة للوصول إليه إلا تسوُّر المحراب الذى يتعبد فيه ، فظن داود أن مجيئهم في هذا الوقت وبهذه الصورة يراد به شر ، فطمأناه وطرحا أمامه الموضوع ، وبدأ أحد الخصمين بتوجيه الاتهام إلى الطرف الآخر ، فنطق داود بالحكم بإدانة صاحب الغنم الكثيرة قبل أن يدلى بحجته ، وهنا أحس داود أنه كان على غير صواب في ظنه أن هؤلاء يريدون به شرا ، وأن الله امتحنه بالخوف منهم ، فاستغفره مما حدَّث به نفسه ، ومَنَّ الله عليه بقبول استغفاره ، وأنزله عنده منزلا كريما .

ثم نبهه إلى أن مما يساعد على إصابة الحق والعدل في الحكم ، التأنى ، حتى تسمع حجة الطرفين معا ، وعدم التأثر بمظاهر الناس ، والبعد بالعواطف عن التدخل في الحكم ، فقد يكون المدعي مخطئا وظاهره يوحي بالصدق ، كإخوة يوسف الذين رموه في الجب وجاءوا أباهم عشاء يبكون مدعين أن الذئب أكله .

إن الذى وقع من داود عليه السلام هو ظنه أن الخصمين أرادا به سوءا ، فندم على هذا الظن واستغفر ربه ، وهو ظن له ما يبرره ، والأنبياء – وإن كان ما وقع منه لايؤاخذ عليه – مقامهم يضعهم دائما في موضع حساس ، لا يحبون أن يؤخذ عليهم ما هو في صورة ما يؤاخذ عليه . ونطقه بالحكم قبل سماع المدعى عليه ربما كان لأنه سكت ولم

يتكلم ، فكان سكوته إقرارا بما نسب إليه ، وتوجيه الله له باتباع الحق وعدم الميل مع الهوى على الرغم من صواب حكمه لا يدل على ظلمه أو ميله مع العواطف ، فقد يكون توجيها بالاستمرار على اتباع الحق كما قال سبحانه لنبيه محمد ﷺ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾[الأحزاب : ١] فلم يكن منه عصيان حتى يؤمر بالتقوى .

وبعد ، فإن مما نتأسى به في قصة داود عليه السلام الرجوع إلى الله في كل الأحوال ، والصبر على ما يقوله أهل الباطل ، وعدم الأنفة من مزاولة أي عمل لكسب عيش شريف ، وأن الصوت الحسن نعمة من نعم الله ، تلين به القلوب وترتاح إليه الأعصاب ، فليكن ترويحنا عن النفس بما شرع الله ، وبما يعطيها نقاء وصفاء واستقامة ، بعيدا عما يغضب الله .



س : ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾[ص : ٣٤] وما نوع الجسد المذكور وما سبب فتنة سليمان به ؟

ج : الكلام في هذا الموضوع كثير ، ومكانه كتب التفسير ، ومن أحسن ما قيل ما رواه البخاري عن النبي ﷺ قال «قال سليمان : لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتى بفارس يجاهد في سبيل الله ، فقال له صاحبه : قل إن شاء الله ، فطاف عليهن جميعا فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، وايم الذى نفسى بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون» .

والمعنى أن الله سبحانه امتحن سليمان عليه السلام وابتلاه ، لأنه لم يقل إن شاء الله، وكانت نيته طيبة في طلب أولاد مجاهدين ، وظن أن الله معطيه كل شيء بدون حدود ، فأراد سبحانه أن يظهر له أن كل شيء بقدر ، وأن الأمل له حدود ، فلم تنجب واحدة من نسائه بهذا اللقاء إلا واحدة أتت بجسد هو نصف إنسان ، فرجع سليمان إلى ربه وتاب ، هذا بعض ما قيل والتأويلات كثيرة ، ولا حاجة إلى التعليق على عمل سليمان في قدرته كإنسان عادى أن يلقح تسعين امرأة في ليلة واحدة ، يجتمع مع كل واحدة حوالي خمس دقائق ، وهل كان الجهاز مستعدا بكمية كافية لتلقيح

كل واحدة في هذه الدقائق القليلة ؟ إن سليمان عليه السلام من واقع ما أعطاه الله من مسخرات القوى اعتقد أن التسخير بدون حدود ، وفي غمرة هذا الاعتقاد وهذا التكريم الواسع أراد الله سبحانه أن ينبهه إلى سيطرة إرادة الله على كل شيء فليس سليمان أقوى ولا أكرم من الملائكة الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون .

هذه خاطرة خطرت لي مع اعتقادي بأن الله على كل شيء قدير ، وما المعجزات ولا الكرامات إلا مظهر من مظاهر هذه القدرة التى تغير ما يراد تغييره من النواميس التي وضعها هو سبحانه لتدبير ملكه حسب إرادته ، فهو مالك الأمر كله وهو الحكيم الخبير.



س : أرجو تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾[الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤] .

ج : امتحن الله أيوب بامتحانات في بدنه وأهله ، فمرض مرضا شديدا ليس بالصورة التي حكيت في كتب التفسير بدون دليل ، والتى لا تليق برسول يعمل لجمع الناس حوله وحبهم له لا لتنفيرهم منه . وضاع ماله وفقد أهله وأفسد الناس بينه وبين زوجته التى واسته بكل ما تملك .

وسبب الامتحان غير مذكور بسند صحيح ، ولشدة صبره وطول أمله في رحمة الله دعا ربه فكشف ما به من ضر ، وعوضه ما فقد من أهل ومال ، بل زاد على ما ضاع منه، وذلك رحمة من الله وعبرة للناس في وجوب الصبر وفي ثوابه العظيم .

وجاء في آيات أخرى كيف استجاب الله دعاءه . ففى [سورة ص : ٤٢ - ٤٤] قوله تعالى: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

وهناك تفاصيل كثيرة لا يتسع لها المقام ، فيرجع إلى كتب التفسير .



س : جاء في الآيات التى تتحدث عن سيدنا يونس عليه السلام ، أنه غضب وظن أن الله لا يقدر عليه ، فكيف يتناسب ذلك مع مقام الأنبياء ؟

ج : سيدنا يونس عليه السلام هو يونس بن مَتَّى من الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم باسمه وبوصفه بذى النون وبصاحب الحوت ، والنون هو الحوت ، وكان رسولا إلى أهل «نينوى» بالعراق ، وكرمه سيدنا محمد ﷺ بقوله كما في الصحيحين «ما ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى» .

ويستفاد من الآيات التى تحدثت عنه أنه دعا قومه وخوَّفهم من عقاب الله إن لم يؤمنوا ، ثم تركهم غاضبا من موقفهم منه ، وتوجه إلى مكان آخر ، فركب سفينة كانت مشحونة كادت تغرق بحملها ، وعند الاقتراع على من يتخلصون منه فداء للباقين وقع السهم على يونس ، وانتهى الأمر إلى إلقائه في البحر ، فالتقمه حوت ومكث في بطنه مدة لا يعرف قدرها بالضبط ، وسبح ربه داعيا ، فنجاه الله وطرحه الحوت على الشاطئ مُتعَبًا ، فأنبت له شجرة من يقطين ، وهو القرع ، أو كل زرع ليس له ساق ، وبعد ذلك أرسله إلى قوم عددهم مائة ألف أو يزيدون ، يقال : إنهم هم الأولون الذين غضب منهم ، ويقال إنهم غيرهم ومتعهم الله إلى حين آجالهم .

والذى يلفت النظر في قصة يونس ، مما يمس عصمة الأنبياء ، قوله تعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾[الأنبياء :٨٧] فمن الذى غاضبه يونس؟ وكيف يظن أن الله لن يقدر عليه ؟ كما أن قوله تعالى ﴿ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات: ١٤٢] يدل على ارتكابه ما يلام عليه ، وقول يونس في دعائه ﴿ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأنبياء : ٧٨] يدل على أنه ارتكب شيئا منهيًّا عنه ، وتحذير الله لنبيه محمد ﷺ بقوله : ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ ﴾[القلم : ٤٨] يدل على أن في يونس أمرا غير مرضى عنه ، فكيف ذلك ؟

والجواب : أن يونس لما رأى معارضة قومه تركهم مغاضِباً لهم لا مغاضبا لله ، وليست مغاضبة لهم لأمر شخصى ، بل خالصة لله . وليس في ذلك عيب يؤاخذ عليه .

وقد يقال : إذا لم يكن في المغاضبة بهذه الصورة ما يؤاخذ عليه فكيف يمتحنه الله هذا الامتحان الخطير بابتلاع الحوت له ؟ والجواب أن الامتحان كان لتعجله بمفارقتهم وعدم انتظار أمر من الله ، وكان الأولى أن ينتظر ، وإن كان له العذر فى أنه اجتهد وأداه اجتهاده إلى ذلك ، لكن عتاب الله لأوليائه المقربين قد يكون على ما يتسامح فيه مع الأشخاص العاديين . ومما يدل على أن العتاب كان للتعجل بالهجرة أمْرُ الله لنبيه محمد ﷺ بالصبر على ما يقوله قومه ونهيه أن يكون كيونس في عدم الصبر .

على أن بعض العلماء رأى أن هذه المغاضبة كانت قبل أن يرسله الله ، فتركهم إلى جهة أخرى ، وكان الأجدر به كمصلح أن يبقى معهم . ويشفع لرأيهم قول ابن عباس رضى الله عنهما : إن رسالة يونس كانت بعد نجاته من البحر .

أما ظن يونس أن الله لن يقدر عليه فليس فيه نسبة العجز إلى الله ، ولكن القَدْرَ – بسكون الدال- هنا يعنى التضييق ، كقوله تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾[الطلاق : ٧] وقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد: ٢٦] فيونس ظن ، والظن قد يراد به اليقين كما جاء في آيات كثيرة، ظن أن الله لن يضيق عليه واسعا ، وسيبدله قوما غير قومه ، وليس في ذلك ما يعاب عليه .

هذا ، وشهادة الله ليونس بقوله : ﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[القلم : ٥٠] تنبهنا إلى عدم اتهامه بما يتنافى مع هذه الشهادة العظيمة .

وفي قصة يونس عليه السلام عبر ، منها أن المتصدى للإصلاح يلزمه الصبر والتحمل وسعة الصدر بالأمل ، وأن المؤمن إذا صدق في عبادته ودعائه استجاب الله له ونجاه من أخطر المهالك . وأن لله مع أوليائه تصرفات لا تخضع لقانون الأسباب والمسببات كالمعجزات والكرامات ، وأن بعض التسبيح والدعاء خير وأقوى من البعض الآخر، ومنه دعاء يونس في بطن الحوت : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨] ولذلك قال بعض العلماء استنادا إلى مأثورات نبوية: إن اسم الله الأعظم الذى إذا سُئل به أعطى ، وإذا دُعى به أجاب

هو دعاء يونس عليه السلام . وهو ليس خاصا به ، بل هو عام لكل مسلم كما قال سبحانه عقبه ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .



س : من هو إلياس المذكور في القرآن الكريم ؟

ج : قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الصافات : ١٢٣] وجاء ذكره أيضا في الآية الخامسة والثمانين من سورة الأنعام ، وذكر اسم «اليسع» في الآية التى تليها.

فقال بعض العلماء : إنهما اسمان لنبى واحد ، لكن الحق أنهما نبيان ، لأن الله أفرد كل واحد بالذكر ، والخلاف في «إلياس» كبير ، فقيل : إنه إدريس وهو خطأ ، وقيل: إنه الخَضِر ، وقيل غير ذلك ، وكان قبل زكريا ويحيى وعيسى قَيِّماً على بني إسرائيل بعد موت «حزقيل» .



س : من هو زكريا ، وما معنى قوله تعالى ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ ؟

ج : ليس هناك نسب يعتمد عليه لزكريا في القرآن والسنة ، وفي سفر زكريا في العهد القديم [1] أنه زكريا بن برخيا بن عدو النبي . والله أعلم بصحة ذلك . وامرأة زكريا كانت عاقراً لم تلد ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾[مريم : ٥] فلما دعا زكريا ربه أن يهبه وليًّا يرثه بشره الله بيحيى ، فحملت زوجته وولدته ، وهذا هو المقصود بإصلاح زوجته ، أي يجعلها صالحة بعد العقم ، كما قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] كما عليه أكثر المفسرين ، وقال ابن عباس وعطاء : كانت سيئة الخلق طويلة اللسان ، فأصلحها الله وجعلها حسنة الخلق ، لكن الظاهر هو القول الأول .



١- ص ٨٠٨.

س : من هو ذو الكفل الذى ذكره الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ؟

ج : جاء ذكر «ذى الكفل» في عدة مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى : ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[الأنبياء : ٨٥] .

جاء في تفسير القرطبي [1] أن الجمهور على أن ذا الكفل ليس بنبى، وقال الحسن : هو نبى قبل إلياس ، وقيل هو زكريا ، وسمى بذلك لكفالته مريم.

وقيل : كان رجلا عفيفا يتكفل بشأن كل إنسان وقع في بلاء أو تهمة أو مطالبة فينجيه الله على يديه ، وقيل : سمى ذا الكفل لأن الله تعالى تكفل له في سعيه وعمله بضعف عمل غيره من الأنبياء الذين كانوا في زمانه .

وذكر أبو عيسى الترمذى حديثا عن النبى ﷺ بإسناد حسن ، وكذلك أخرجه الترمذى الحكيم في كتابه «نوادر الأصول» أنه كان رجلا عاصيا ثم تاب إلى الله وهو في عصيانه فتاب الله عليه فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه : إن الله قد غفر لذى الكفل .



س : هل كانت مريم نبية ، وما هى المدة التى حملت فيها عيسى ؟

ج : هناك فرق بين النبى والرسول ، وإن كان بين اللفظين تبادل في بعض الأحيان، ومع الأخذ في مفهوم الرسول أنه مكلف بتبليغ ما أوحى الله إليه إلى الناس ، فإن مريم ليست من الرسل ، لأنهم لا يكونون إلا من الرجال كما قال سبحانه :﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[النحل : ٤٣] ، ولأنهم هم الذين يستطيعون أن يقوموا بأعباء الرسالة ، نظرا لما عندهم من المؤهلات المناسبة .

أما أن تكون المرأة نبية يوحى إليها بشرع تعمل به دون أن تكلف بتبليغه للناس فذلك أمر ممكن ، ولذلك اختلفت أقوال العلماء في مريم هل هي نبية أم امرأة صالحة؟ أما كونها امرأة صالحة فذلك أمر مفروغ منه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ

---

١ - ج ١١ ص ٣٢٨ .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران : ٤٢] وقال ﷺ فيما رواه مسلم «كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

وهل ترتقى بهذا الاصطفاء والتطهير والكمال إلى مرتبة النبوة ؟ قال بذلك الكثيرون من العلماء ، حيث إن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيين .

أما المدة التى حملت فيها بعيسى فليس فيها نص صحيح ، يقول القرطبي : وهذه القصة تقتضى أنها حملت واستمرت حاملا على عرف النساء ، وتظاهرت الروايات بأنها ولدته لثمانية أشهر ، وقيل لتسعة وقيل لسنة ، والله أعلم [١] .



س : يقول الله تعالى عن نفخ الروح في مريم وحملها بعيسى وولادته ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم : ٢٢ ، ٢٣] فما هى مدة حمل مريم بعيسى ؟

ج : إضافة إلى ما تقدم أقول : ليس هناك نص صحيح يبين مدة حمل السيدة مريم عليها السلام بسيدنا عيسى عليه السلام ، يقول القرطبي في تفسيره : وهذه القصة تقتضى أنها حملت واستمرت حاملا على عرف النساء وتظاهرت الروايات بأنها ولدته لثمانية أشهر ، وقيل لتسعة وقيل لسنة، والله أعلم ، وجاء في تفسير ابن كثير لسورة مريم مثل هذه الأقوال وأن الجمهور على أنها حملت به تسعة أشهر ، ثم ذكر أن ابن عباس سئل عن حَبَل مريم فقال : لم يكن إلا أن حملت فوضعت ، ثم قال : وهذا غريب ، وكأنه أخذه من ظاهر قوله تعالى ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ فالفاء وإن كانت للتعقيب -أى عدم التراخى- ولكن تعقيب كل شيء بحسبه ، كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا

---

١ - تفسير القرطبي ج٤ ص ٨٣ .

﴿ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾[المؤمنون:١٢-١٤] فهذه الفاء للتعقيب بحسبها ، وقد ثبت في الصحيحين أن بين كل صفتين أربعين يوما ، وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾[الحج:٦٣] فالمشهور الظاهر -والله على كل شيء قدير- أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن ، ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل عليها ، وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس ، يقال له يوسف النجار ، فلما رأى ثقل بطنها وكبره وأنكر ذلك منها ، ثم صرفه ما يعلم عن براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها ، ثم تأمل ما هى فيه فجعل أمرها يجوس في فكره ، لا يستطيع صرفه عن نفسه فحمل نفسه على أن عرَّض لها في القول، فقال: يا مريم إني سائلك عن أمر فلا تعجلى عليَّ قالت : وما هو ؟ قال : هل يكون قط شجر من غير حب ؟ وهل يكون زرع من غير بذر ؟ وهل يكون ولد من غير أب ؟ فقالت نعم -فهمت ما أشار إليه- أما قولك «هل يكون شجر من غير حب ، وزرع من غير بذر فإن الله خلق الشجر والزرع وأول ما خلقهما من غير حب ولابذر «وهل خلق ولد من غير أب» فإن الله خلق آدم من غير أب ولا أم ، فصدقها وسلم لها حالها ، انتهى ما قاله ابن كثير والله أعلم بصحة هذه المحاورة بين مريم ويوسف النجار ، ولكن موضوعها صحيح فيما أجابت به مريم أسئلته .

ومهما يكن من شيء فإن هذا لا نكلف به كعقيدة ، وهو مدة حملها ، والمهم أنها ولدته من غير زواج ولا طريق آخر كما نصت عليه آيات القرآن الكريم .



س : ذكر في القرآن أن الله فضل مريم على نساء العالمين وفضل بني إسرائيل كذلك على العالمين ، فأين بنات النبى وزوجاته ، وأين الأمة الإسلامية ؟

ج : قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[آل عمران : ٤٢] وقال ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[البقرة : ٤٧] .

١- قال القرطبي في تفسيره [1] في اصطفاء مريم : إن الاصطفاء هو على عالمى زمانها ، كما قاله الحسن وابن جريج وقيل : إن الاصطفاء هو على نساء العالمين أجمع إلى يوم الصور ، وهو قول الزجاج ، وهو الصحيح ، وروى مسلم أن النبي ﷺ قال «كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»

ومعنى الكمال التناهي والتمام ، والكمال المطلق لله خاصة ، وأكمل نوع الإنسان الأنبياء ثم يليهم الأولياء من الصديقين والشهداء والصالحين ، وإذا تقرر هذا فقد قيل : إن الكمال المذكور في الحديث يعنى به النبوة ، فيلزم أن تكون مريم وآسية نبيتين، وقد قيل بذلك ، والصحيح أن مريم نبية ، لأن الله أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيين . ولم يرد ما يدل على نبوة آسية دلالة واضحة .

ثم ذكر القرطبي أحاديث صحيحه منها «خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد» ومنها «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون» ومنها «سيدة نساء أهل الجنة بعد مريم فاطمة وخديجة» وأقول الخيرية أو الأفضلية بالنسبة إلى نساء العالمين تلتقى مع ذلك بالنسبة إلى نساء أهل الجنة ، وعطف الأسماء بالواو لمطلق الجمع لايقتضي ترتيبا كما تفيده الفاء أو ثم ، لكن القرطبي رتبهن وجعل أفضلهن مريم للتعبير في الرواية الأخيرة بلفظ «بعد مريم» والباقي منهن ليس فيه ما ينص على الترتيب بينهن لكنه رتبهن فقال ما نصه : فظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع نساء العالم ، من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة ، فإن الملائكة قد بلغتها الوحى عن الله عز وجل بالتكليف والإخبار والبشارة كما بلغت سائر الأنبياء ، فهى إذاً نبية ، والنبى أفضل من الولى ، فهى أفضل كل النساء الأولين والآخرين مطلقا ، ثم بعدها في الفضيلة فاطمة ثم خديجة ثم آسية ،

١- ج٤ ص ٨٣ .

وكذلك رواه موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ، ثم آسية» وهذا حديث حسن يرفع الإشكال . وقد خص الله مريم بما لم يؤته أحدا من النساء ، وذلك أن روح القدس كلمها وظهر لها ونفخ في درعها ودنا منها للنفخة فليس هذا لأحد من النساء ، وصدَّقت بكلمات ربها ولم تسأل آية عندما بُشرت كما سأل زكريا عن الآية ، ولذلك سماها الله في تنزيله صديقة فقال ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة : ٧٥] وقال ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم : ١٢] إلى أن قال : ومن لامرأة في جميع نساء العالمين من بنات آدم ما لها من هذه المناقب ، ولذلك روى أنها سبقت السابقين مع الرسل إلى الجنة ، جاء في الخبر عنه ﷺ «لو أقسمت لبررت ، لايدخل الجنة سابقى أمتى إلا بضعة عشر رجلا ، منهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومريم ابنة عمران» .

ثم ذكر أن من قال من العلماء بأنها لم تكن نبية قال : إن رؤيتها للملك كما رؤى جبريل عليه السلام في صفة دحية الكلبى حين سؤاله عن الإسلام والإيمان ، ولم تكن الصحابة بذلك أنبياء والأول أظهر ، وعليه الأكثر .

هذا ما ذكره القرطبي وأقول : إن كان لبعض الرجال أو النساء فضل ، فذلك فضل من الله ، ولا ينالنا منه إلا الحث على السير على منهجهم ، ولا داعي للبحث فيمن هو أفضل من غيره ، فلا يفيدنا ذلك - كما يقول العلماء إلا في الأيمان والتعاليق ، كما يحلف أن فلانا أفضل من فلان ، أو إن كان فلان أفضل من فلان فعلت كذا .

٢ - وأما تفضيل بني إسرائيل على العالمين فقد قال فيه القرطبي [١] : يريد على عالمى زمانهم ، وأهل كل زمان عالم ، وقيل : على كل العالمين : بما جعل فيهم من الأنبياء وهذا خاصة لهم وليست لغيرهم . انتهى .

١- ج ٣ ص ٣٧٦ .

وفي تفسير ابن كثير للآية رقم ٤٧ من سورة البقرة أن الأمة الإسلامية أفضل من أمة بني إسرائيل لقوله تعالى خطابا لهذه الأمة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ ﴾ وفي المسانيد والسنن عن معاوية بن حيدة القشيري قال : قال رسول الله ﷺ «أنتم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله» والأحاديث في هذا كثيرة . وأوردها عند تفسير الآية ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ وقال : إن الحديث المذكور رواه أحمد والترمذى وابن ماجه، وهو حديث مشهور حسنه الترمذي .

وقوله : بما جعل فيهم من الأنبياء يشير إليه قوله تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾[المائدة : ٢٠] وقوله ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[الجاثية : ١٦] وقوله ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[الدخان : ٣٢] .

وإذا كان الله فضلهم على السابقين وأنعم عليهم بهذه النعم فإنهم لم يشكروها ، حيث تمردوا على موسى وعبدوا العجل والطاغوت وقتلوا الأنبياء بغير حق ، وعصوا الأنبياء الذين أرسلوا إليهم واعتدوا عليهم وعلى غيرهم ، فضرب الله عليهم الذلة والمسكنة أينما وجدوا ، وبعث عليهم يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ، ومسخ بعضهم قردة وخنازير ، وفي كل ذلك جاءت آيات القرآن الكريم ، وقال تعالى فيهم ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[الإسراء : ٧] وقال﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ [الإسراء: ٨] ذلك قانون الله الذى يرتب الجزاء على العمل ، يبطل زعم القائلين بأنهم أبناء الله وأحباؤه ، فهم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[فصلت : ٤٦] .

وذلك القانون سار على جميع خلقه من يوم أن خلق آدم إلى يوم الساعة يطبق على كل الأنبياء والرسل ، وعلى كل أمة من الأمم ، بما فيهم أفضلهم وهو سيدنا محمد ، وأفضل الأمم وهى أمته التى جعلها الله خير أمة أخرجت

للناس ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[الحجرات : ١٣] ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[طه : ١٢٣، ١٢٤] .



س : هل كانت السيدة مريم نبية ، ولماذا لم يذكر اسم امرأة غيرها في القرآن الكريم؟

ج : قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾[النحل : ٤٣] هذا الحصر في الرجال قد يكون لإخراج النساء ، فلا يكون منهن رسول ، وقد يكون لإخراج الملائكة ، بمعنى أن الرسل للبشر لا تكون من الملائكة وقرر الله أنه لو أرسل للبشر ملكا لجعله رجلا ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[الأنعام : ٩] وقال تعالى﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الكهف:١١٠] وقال تعالى ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾[الإسراء : ٩٥] .

والرسالة القائمة على التبليغ هي قيادة للخير ، بالإرشاد والاتباع ، وفيها جهود جبارة لنشر الدعوة ومقاومة الفساد والتغلب على العقبات ، وقد يكون فيها حرب وقتال وسفر وترحال ، واستعدادات الرجال تتناسب مع هذه المهمة ، إلى جانب أن الرجل هو الأصل في أن يكون خليفة في الأرض ، والمرأة خلقت منه لتساعده على تحقيق هذه الخلافة فيما تستطيعه ويتناسب مع استعدادها .

هذا في الرسالة التى تستلزم التبليغ ، أما النبوة التى تقتصر على مجرد تلقِّى الوحى من الله للعمل به دون الأمر بتبليغه فقد تكون للمرأة ، كما قال بعض العلماء عن أم موسى وعن مريم عليهما السلام ، والاستدلال والمناقشة لا يتسع لهما المقام .

وأما عدم ذكر اسم امرأة في القرآن إلا مريم ، فذلك لأن لها شأنا خطيرا في عقيدة هى أهم العقائد ، وهى عقيدة التوحيد وتنزيه الله سبحانه عن الزوجة

والولد ، وبيان الوجه الحق في طبيعة سيدنا عيسى عليه السلام ، فقد قبلها الله لخدمة بيته ، لأن أمها نذرت ما فى بطنها لذلك وكانت تود أن يكون ذكرا ، واشتهرت بالعفة والطهارة، وهي فى محرابها تؤدى واجبها ، وحملت بغير الطريق العادى حيث نفخ الله فيها الروح بواسطة جبريل عليه السلام ، وكان ولدها عيسى عليه السلام ، ممن ظهرت خوارق العادة على أيديهم منذ صغره ، حيث تكلم في المهد صبيًّا ، إلى غير ذلك من الأمور التى جعلت لعيسى ولأُمه شأنا غير عادى ، ولذلك قال بعض العلماء : إن مريم من الأنبياء : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[آل عمران : ٤٢] .

فلهذه الاعتبارات ذكر اسمها في القرآن الكريم ، وليس معنى هذا أن غيرها من النساء لا فضل له ولا شأن ، فالكلام كثير حول أفضل النساء على الإطلاق لا مجال لذكره الآن . ومن هذا الباب ذكر اسم زيد بن حارثة في القرآن لأهميته في تقرير الحكمة في مبدأ وزواج زينب بنت جحش ، ولا يعنى هذا أن زيدًا أفضل من أبى بكر وعمر وغيرهما ، حيث لم يذكروا بأسمائهم الصريحة في القرآن الكريم .



س : لماذا ألقى عيسى عليه السلام السلام على نفسه حين قال «والسلام عليَّ يوم ولدت» ؟

ج : قال الله تعالى في شأن يحيى عليه السلام حين بشر أباه زكريا عليه السلام ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾[مريم : ١٥] وقال على لسان عيسى عليه السلام حين خاطب عيسى قومه ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[مريم : ٣٣] .

إن كلا من النبيين العظيمين عليهما سلام وأمان من الله ، أو تحية ألقاها الله على كل منهما ، لكن السلام على يحيى كان في مقام بشارة الله لأبيه به ، مقدَّما قبل أن

يولد، فهو سبحانه يحكى لزكريا صفات يحيى التى يكون عليها ، والنعم التى أنعم بها عليه وقدَّرها قبل أن يولد ، أو في مقام إخبار الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بقصة زكريا ويحيى كما جاء في صدر سورة مريم ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ ومقام الإخبار يناسبه قول الله عن يحيى «وسلام عليه» ويحيى لم يتكلم بذلك حتى يقول : والسلام عليَّ .

أما سيدنا عيسى فكان يتحدث عن نفسه ، مبينا لقومه ما منَّ الله به عليه حيث قال ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾[مريم : ٣٠ - ٣٣] .

هذا أحسن ما قيل في هذا الموضوع ، وأما ما يروى أن عيسى عليه السلام قال ليحيى عليه السلام : أنت خير منى ، لأن الله سلم عليك . فليس له سند يعتمد عليه ، فكلاهما قد سلم الله عليه ، وكما قال بعض المفسرين : إن السلام المعروف بأل الذى قاله سيدنا عيسى عليه السلام هو السلام المنكر ، أى الخالى من «أل» الذى كان من الله على يحيى ، وذلك على حد قولهم : إن المنكر إذا كرر معرَّفا كان هو هو ، فَأَلْ للعهد .

إن الموضوع يتصل باللفظ أكثر مما يتصل بالمعنى ، فإن كلا من يحيى وعيسى قد حياه الله وأمنه وباركه ، ونرجو أن نحظى بذلك إذا اتبعنا ما جاء به الله ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[الأنعام : ٨٢] .



س : هل رفع عيسى عليه السلام حيا أو ميتا ، وأين مدفنه ؟

ج : جاء الحديث عن وفاة سيدنا عيسى ورفعه في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾[آل عمران : ٥٥] ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ ﴾[النساء: ١٥٧ ، ١٥٨] ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾[المائدة : ١١٧] .

والآية الأخيرة في معرض كلام الله تعالى لعيسى يوم القيامة ، ولا شك أن كل حى سيموت ويبعث بعد الموت ، والآيتان الأخريان تؤكدان رفع عيسى إلى الله وأن اليهود لم يقتلوه ولم يصلبوه ، وفي الآية الأولى منهما أن الله متوفيه ورافعه ، فالقدر المتفق عليه أن عيسى لم يقتل ولم يصلب وأن الله قد رفعه إليه وتوفاه ، والخلاف هنا في نقطتين في معنى الرفع ومعنى الوفاة ، وفي سبق أحدهما على الآخر.

أما النقطة الأولى : فقيل في معنى الرفع : رفع مكانة ومنزلة بالنصر على الأعداء، وذلك قدر مشترك بين الأنبياء جميعاً لا يختص به عيسى ، وقيل إنه رفع مكان ، والمكان هو السماء ، لأنه هو الذي يرفع إليه من الأرض التي كان يعيش عليها عيسى، لعل هذا المعنى يكون أرجح ، لأن رفعه من الأرض إبطال لكيد من دبروا قتله فلا يمكنهم أن ينالوه .

وقيل في معنى الوفاة الموت الحقيقى لأنه هو الذى يتبادر إليه الذهن إذا أطلق لفظ الموت ، وقيل معناها النوم لأنه يسمى وفاة كما قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾[الزمر : ٤٢] وقال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾[الأنعام : ٦٠] .

وقيل معناها توفية الأجل وإتمام المدة المقررة له في الدنيا .

وأما في النقطة الثانية : فالعطف بين الوفاة والرفع هو بالواو ، والعطف بها يفيد مطلق الجمع بينهما في الحصول دون ترتيب ولا تعقيب ، فيا ترى أيهما كان السابق ؟ قال بعض المفسرين : الرفع هو السابق والوفاة تكون بعد ذلك إما في السماء وإما في آخر الحياة الدنيا فكل نفس ذائقة الموت .

وقيل : الوفاة هي السابقة على الرفع ، بمعنى أن الله ألقى عليه النوم ثم رفعه حتى لا يحصل له رعب وهو يرى نفسه محلقا في الأجواء العالية ، أو بمعنى أن الله قبض روحه ثم رفعه ميتا ، وقد يكون هذا المعنى بعيداً لأمرين : أن الله نجاه من القتل فلماذا يميته ؟ وكلاهما ألم بإزهاق الروح وأنه سينزل آخر الزمان كما صح

ذلك في الحديث المتفق عليه بين البخاري ومسلم «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا مقسطا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد» والقريب إلى التصور أن يكون في السماء حيا ثم ينزل إلى الأرض ، لا أن يكون ميتا ثم يبعثه الله بعد موته لينزل إلى الأرض [هناك كلام كثير في عمر عيسى عندما بعث ، وعندما رفع ، وكم يمكث بعد نزوله من السماء ويراجع في شرح الزرقاني على المواهب اللدنية][1].

ومهما يكن من شيء فكلها احتمالات لا تتقرر بها عقيدة ، فمن اختار أى رأى فلا حرج عليه ، مع الاتفاق على أنه عليه السلام لم يقتل ولم يصلب وأن الله رفعه .

وكتب التفسير مملوءة بالمناقشات لترجيح بعض الآراء على بعض ، وأرى أن نكتفي بالقدر المتفق عليه ، ونوجه اهتمامنا إلى واقع حياتنا الذى يحتاج إلى بحث عميق وتفكير طويل .

هذا ، وقد جاء في كتاب خلاصة الوفا للسمهودى[2] حديث رواه الترمذي عن عبدالله بن سلام عن أبيه عن جده قال : مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى ابن مريم يدفن معه ، وقال الترمذى : حديث غريب . وفي بعض النسخ : حسن غريب. وروى الطبراني أن عيسى يدفن مع الرسول وأبى بكر وعمر ، وفي سنده عثمان ابن الضحاك بن عثمان ، وثقه ابن حبان وضعفه أبو داود .

وجاء في المشكاة عن كنز العمال عن عمرو بن العاص حديث إن عيسى ابن مريم ينزل إلى الأرض فيتزوج ويولد له ويمكث خمساً وأربعين سنة ثم يموت ويدفن معى في قبري أنا وعيسى ابن مريم بين أبى بكر وعمر . وكلها أخبار لا تثبت بها عقيدة، وأرى عدم الاهتمام بها [3] .



١- ج ١ ص ٣٤ ، ٣٥ ، وفي كتاب «التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال والمسيح» للشوكاني .
٢- ص ٢٠٦ .
٣- انظر بحث الشيخ جاد الحق في كتابه «قضايا عصرية ج ٥ ص ٣٢٩» .

محمد ﷺ

س : هل صحيح ما نسمعه من بعض المؤذنين والمنشدين من قولهم عن النبي ﷺ : يا أول خلق الله ؟

ج : ليكن معلوماً أن مقام النبي ﷺ كبير وشرفه عظيم ، والنصوص في ذلك أشهر من أن تذكر ، وأكثر من أن تحصر ، ويكفي منها قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧] وقوله تعالى ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠] وقول النبي ﷺ «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة!! قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» [١]، وقوله ﷺ « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع ، وأول مشفع » [٢].

والنبي ﷺ بهذا وبغيره ليس في حاجة إلى اختلاق أمور نزيده بها شرفاً وتكريماً، وقد تحملنا شدة حبه على وضعه فوق ما يستحقه ، وهو القائل « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، ولكن قولوا : عبد الله ورسوله » [٣] ، أو على نسبة أحاديث إليه لم يقلها وقد حذر من ذلك بقوله « من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » [٤] .

بعد هذا نقول : هل صحيح أنه أخبر عن نفسه بأنه أول خلق الله . وهل هذا الخبر تبنى عليه عقيدة لو أنكرها الإنسان يكفر ؟

١- رواه مسلم . ٢- رواه مسلم .
٣- رواه البخاري . ٤- رواه البخاري ومسلم .

مبدئيًا نقول : إنه قد رويت عنه بعض أحاديث تفيد أنه أول خلق الله ، لكنها أحاديث آحاد أوّلاً ، ولم يتفق على صحتها ثانيا ، وبذلك لا يكفر منكرها ، لكنها تقبل في مقام تأكيد تكريمه عليه الصلاة والسلام ، وقد حاول بعض العلماء أن يثبت هذه الأولية بشكل أو بآخر .

جاء في كتاب « الدر النظيم في مولد النبي الكريم » لابن طُغْرُبَكْ : يروى أنه لما خلق الله تعالى آدم ألهمه أن قال : يارب لِمَ كنَّيتني أبا محمد ؟ قال الله تعالى : « يا آدم ارفع رأسك ، فرفع رأسه فرأى نور محمد في سرادق العرش فقال يارب ما هذا النور؟ قال الله تعالى : يا آدم ارفع رأسك ، فرفع رأسه فرأى نور محمد في سرادق العرش فقال : يارب ما هذا النور ؟ قال : هذا نور نَبِيٍّ من ذريتك ، اسمه في السماء أحمد وفي الأرض محمود ، لولاه ما خلقتك ولا خلقت سماء ولا أرضاً » :

يقول القسطلاني في « المواهب اللدنية مع شرح الزرقاني » .

ويشهد لهذا ما رواه الحاكم في صحيحه عن عمر مرفوعا « إن آدم عليه السلام رأى اسم محمد مكتوباً على العرش ، وأن الله تعالى قال لآدم : لولاه ما خلقتك » وروى عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله ما يفيد أن النبي ﷺ أخبره أن نوره هو أول شيء خلق . ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ، ولا جنة ولا نار ، ولاملك ولا سماء ولا أرض ...

وهناك روايات في كيفية تجول هذا النور ودورانه في عوالم وحجب وأسرار .

وكما قلت : إن النبي ﷺ قد تقرر فضله العظيم ، وإذا كنا نريد أن نبرهن على حبنا له فذلك يكون باتباع سنته والتزام هديه فهو القائل « من أحبنى فلْيَسْتَنَّ بسنتي » [1] وحُبُّنا له وسيلة لحب الله تعالى الذى يقول ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[آل عمران : ٣١] .



١ - رواه أبو يعلى بسند حسن .

س : يعتقد بعض الناس أن الرسول ﷺ خُلق من نور لقوله تعالى : ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة : ١٥] نرجو التوضيح؟

ج : كلمة النور تطلق في القرآن أحيانا على القرآن الكريم وأحيانا على النبي ﷺ باعتبار أن كلا منهما ينير طريق الخير ، بل تطلق أيضا على الله سبحانه في قوله ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور : ٣٥] .

إن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يُخلق من نور ، فهو من ذرية آدم وآدم من طين ، وهو القائل « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » .

والله سبحانه أمره أن يُبيِّن للناس ذلك فقال : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف ١١٠] وقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء : ٩٣] وكون الله أخبر عنه بأنه نور ، وكون بعض الآثار جاءت تخبر بأن نوره كان موجودا قبل أن يولد ، كل ذلك لا ينفي أنه بشر ، وهو عليه الصلاة والسلام ليس في حاجة إلى اختلاق أمور تزيده شرفا وتكريما ، فكفى تشريف الله له ، بما ثبت من الأخبار ، وقد تحملنا شدة حبه على وضعه فوق ما يستحق وهو القائل كما رواه البخاري « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، ولكن قولوا : عبد الله ورسوله » وبرهان حبنا له جاء في قوله « من أحبنى فَليَسْتَنَّ بسنتي » [1] .



س : هل توجد بشارات بالنبى ﷺ في الكتب المقدسة عند الهنود ؟

ج : من المعلوم أن الكتب السماوية السابقة بشرت بالنبي ﷺ كما قال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] كما أن من المعلوم أن جميع الأنبياء السابقين أخذ الله عليهم العهد أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إذا أدركوه ، قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران : ٨١] .

١- رواه أبو يعلى بسند صحيح .

كما أن المعلوم أيضا أن الله أرسل رسلا كثيرة ، منهم من قص أسماءهم وأخبارهم على النبي ﷺ ومنهم من لم يقصص عليه ، ولم تخل أمة من الأمم إلا أرسل الله إليها رسولا ، حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل : ٣٦] .

وقد أنزل الله كتبا على هؤلاء الرسل ، لا نعرف منها إلا ما قصه علينا القرآن الكريم من صحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى وقرآن محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين .

لكن هل أرسل رسلا في الهند ، وهل أنزل عليهم كتبا ؟ ذلك ما لم يثبت بدليل قاطع ، لأن الرسول قد يطلق على النبى الموحى إليه برسالة يبلغها ، وقد يطلق على من يرسله النبي إلى جماعة لتبليغهم . كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ ﴾ [يس : ١٣ ، ١٤] حيث قال المفسرون إنهم موفدون من قِبَلِ سيدنا عيسى عليه السلام ، وقد يكون لجماعة من الرسل كتاب واحد يتابعون الدعوة إليه كأنبياء بني إسرائيل من بعد موسى والتوراة التى نزلت عليه .

ومن المعروف تاريخيا أن الهند من قديم الزمان فيها ديانات ، ومن أقدمها البرهمية أو البراهمانية التي نشأت قبل الميلاد بنحو اثنى عشر قرنا ، وكذلك البوذية التي نشأت في القرن السادس قبل الميلاد ومنها الهندوسية التى حاربها الآريون الوافدون على الهند قبل الميلاد ، بأكثر من قرن ونصف ، وهى أشبه بالمذهب الفلسفي ، حيث لا يعرف لها نبي معين ولا كتاب مقدس واحد بالذات .

والنصوص المقدسة في الهند مكتوبة باللغة السنسكريتية القديمة التي من أشهرها: الفيدا والأوبانيشاد . والديانة البرهمية متعددة الآلهة التي يقسمونها إلى ثلاث مجموعات، أقواها : فيشنو وشيفا .

وما دامت هذه الديانات وضعية وكتبها كذلك وضعية فكيف يتسنى لها أن تبشر بنبي يبعث آخر الزمان ؟ أنا لم أعثر على ما يفيد بشارة هذه الكتب بالرسول محمد ﷺ ، وإن

كانت هناك مشابهة إلى حد كبير بين نصوص في بعض هذه الكتب الهندية ونصوص في الكتب السماوية المقدسة عند اليهود والنصارى، لا أعلم أيها أسبق من الأخرى، ونحن نعلم أنها ليست جميعها وحيا صحيح النسبة إلى الله سبحانه كما قرر القرآن الكريم.



س : جاء في القرآن قول الله تعالى للنبي ﷺ ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾ [محمد : ١٩] فكيف يقع من الرسول ذنب مع أنه معصوم ؟

ج : تحدثت عن ذلك في كتاب « المصطفون الأخيار » وتحدث عنه القسطلاني في المواهب اللدنية وشرح الزرقاني [1] لحديث مسلم « إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » وفي رواية « سبعين مرة » . وفسَّر الغَيْن بالغطاء ويلفظ أيضاً «يغام» بالميم كما قال النووي، وفسر عياض سبب الغين بغفلات القلب وفترات النفس وسهوها عن مداومة الذكر ومشاهدة الحق بسبب ما عاناه الرسول في حياته وتبليغ رسالته، وهو أمر جائز في غير طريق البلاغ، وقيل : الغين هو السكينة التى تغشى قلبه، فيستغفر عندها لإظهار العبودية والشكر لله، وقيل غير ذلك، حتى قال السهروردى : لا تعتقد أن الغين حالة نقص بل هو كمال أو تتمة كمال.

ثم ذكر الزرقاني : وقد استشكل وقوع الاستغفار من النبي ﷺ وهو معصوم، والاستغفار يستدعي وقوع مصيبة، وأجيب بأجوبة، منها ما تقدم في تفسير الغين، ومنها قول ابن الجوزي هفوات الطباع البشرية لا يسلم منها أحد، والأنبياء وإن عصموا من الكبائر لم يعصموا من الصغائر، كذا قال، وهو مُفَرَّع على خلاف المختاروالراجح من عصمتهم من الصغائر أيضا، ومنها قول ابن بطال : الأنبياء أشد الناس اجتهادا في العبادة لما أعطاهم الله من المعرفة، فهم دائبون في شكره معترفون له بالتقصير. انتهى.

ومحصل جوابه أن الاستغفار من التقصير في أداء الحق الواجب له تعالى، ويحتمل أن يكون لاشتغاله بالأمور المباحة من أكل أو شرب أو جماع أو نوم أو راحة أو مخاطبة

١- ج٥ ص ٢١٦ .

الناس والنظر في مصالحهم ومحاربة عدوهم تارة ومداراته أخرى لتأليف المؤلفة وغير ذلك مما يحجبه عن الاشتغال بذكر الله والتضرع إليه ومشاهدته ومراقبته ، فيرى ذلك ذنبا بالنسبة إلى المقام العلى وهو الحضور في حضرة القدس ، ومنها أن استغفاره تشريع لأمته أو من ذنوبهم فهو كالشفاعة لهم ، وقال الغزالى ، كان ﷺ دائم الترقي ، فإذا ارتقى إلى حال رأى ما قبلها ذنبا فاستغفر الله من الحال السابق .



س : إذا كان الرسول ﷺ أرسل إلى جميع الناس كافة ، فهل يعتبر الذين كانوا يعيشون في أوربا ودول المشرق والمغرب من أمته ؟

ج : كل من كان يعيش وقت رسالة النبي ﷺ في أى مكان في الأرض ومن تناسل منهم إلى يوم القيامة يطلق عليهم (أمته) ، أى أمة الدعوة ، أما من آمن منهم ومن غيرهم إلى يوم القيامة فيطلق أغلبهم (أمته) أى أمة الإجابة ، فالرسول خاتم الرسل، ورسالته خالدة إلى يوم القيامة والكل مطالب بالإيمان بها وتبليغ الدعوة إلى الناس كافة واجب ، وقام الرسول في حياته بما استطاع ، وأمر المسلمين أن يبلغوا عنه ولو آية ، وأن يبلغ الشاهد الغائب ، وجعلنا الله خير أمة أخرجت للناس لأننا نبلغ دعوة الخير ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران : ١١٠] .



س : يقول بعض الناس : إن الاحتفال بمولد النبي ﷺ بدعة لم تكن في أيام النبي ﷺ ولا في أيام الصحابة والسلف الصالح ، ويقولون إنها بدعة منكرة وضلالة تؤدى إلى النار ، فما هو الرأى الصحيح في ذلك ، وكذلك في الاحتفال بموالد الأولياء ؟

ج : لا يعرف المؤرخون أن أحدا قبل الفاطميين احتفل بذكرى المولد النبوي -كما قال الأستاذ حسن السندوبي- فكانوا يحتفلون بالذكرى في مصر احتفالا

عظيما ويكثرون من عمل الحلوى وتوزيعها كما قال القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» وكان الفاطميون يحتفلون بعدة موالد لآل البيت ، كما احتفلوا بعيد الميلاد المسيحي كما قال المقريزي ، ثم توقف الاحتفال بالمولد النبوي سنة ٤٤٨ هـ وكذلك الموالد كلها ، لأن الخليفة المستعلي بالله استوزر الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي ، وكان رجلا قويا لا يعارض أهل السنة كما قال ابن الأثير [1] واستمر الأمر كذلك حتى ولى الوزارة المأمون البطائحي ، فأصدر مرسوما بإطلاق الصدقات في ١٣ من ربيع الأول سنة ٥١٧ هـ وتولى توزيعها « سناء الملك » .

ولما جاءت الدولة الأيوبية أبطلت كل ماكان من آثار الفاطميين ، ولكن الأسر كانت تقيم حفلات خاصة بمناسبة المولد النبوي ، ثم صارت رسمية في مفتتح القرن السابع في مدينة « إربل » على يد أميرها مظفر الدين بن أبي سعيد كوكبري ابن زين الدين علي بن تبكتكين ، وهو سنِّى اهتم بالمولد فعمل قبابا من أول شهر صفر ، وزينها أجمل زينة، في كل منها الأغاني والقرقوز والملاهي ، ويعطي الناس إجازة للتفرج على هذه المظاهر . وكانت القباب الخشبية منصوبة من باب القلعة إلى باب الخانقاه ، وكان مظفر الدين ينزل كل يوم بعد صلاة العصر ، ويقف على كل قبة ويسمع الغناء ويرى ما فيها ، وكان يعمل المولد سنة في ثامن الشهر ، وسنة في ثانى عشره ، وقبل المولد بيومين يخرج الإبل والبقر والغنم ، ويزفها بالطبول لتنحر في الميدان وتطبخ للناس.

ويقول ابن الحاج أبو عبد الله العبدري : إن الاحتفال كان منتشرا بمصر في عهده ، ويعيب ما فيه من البدع [2] .

وألفت كتب كثيرة في المولد النبوي في القرن السابع ، مثل قصة ابن دحية المتوفى بمصر سنة ٦٣٣ هـ ، ومحيى الدين بن العربي المتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ هـ ، وابن طغربك المتوفى بمصر سنة ٦٧٠ هـ ، وأحمد العزلى مع ابنه محمد المتوفى بسبتة سنة ٦٧٧ هـ .

---

١ – في كتابه « الكامل » ج ٨ ص ٣٠٢ .
٢ – المدخل ج ٢ ص ١١ ، ١٢ .

ولانتشار البدع في الموالد أنكرها العلماء ، حتى أنكروا أصل إقامة المولد ، ومنهم الفقيه المالكي تاج عمر بن علي اللخمي الإسكندري المعروف بالفاكهاني ، المتوفى سنة ٧٣١ هـ ، فكتب في ذلك رسالته « المورد في الكلام على المولد » أوردها السيوطي بنصها في كتابه « حسن المقصد » .

ثم قال الشيخ محمد فاضل بن عاشور : وقد أتى القرن التاسع والناس بين مجيز ومانع ، واستحسنه السيوطي وابن حجر العسقلاني ، وابن حجر الهيتمي ، مع إنكارهم لما لصق به من البدع ، ورأيهم مستمد من آية ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم : ٥] .

أخرج النسائي وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ أنه فسر الأيام بنعم الله وآلائه [1] وولادة النبي نعمة كبرى . اهـ .

وفي صحيح مسلم عن أبي قتادة الأنصاري قال : وسئل النبي ﷺ عن صوم يوم الإثنين فقال « ذاك يوم ولدت فيه ، ويوم بعثت أو أُنزل عليَّ فيه » روى عن جابر وابن عباس : ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الإثنين الثانى عشر من ربيع الأول ، وفيه بعث وفيه عرج به إلى السماء وفيه هاجر وفيه مات أى في شهر ربيع الأول ، فالرسول ﷺ نص على أن يوم ولادته له مزية على بقية الأيام ، وللمؤمن أن يطمع في تعظيم أجره بموافقته ليوم فيه بركة ، وتفضيل العمل بمصادفته لأوقات الامتنان الإلهي معلوم قطعا من الشريعة ، ولذا يكون الاحتفال بذلك اليوم ، وشكر الله على نعمته علينا بولادة النبي وهدايتنا لشريعته مما تقره الأصول ، لكن بشرط ألا يتخذ له رسم مخصوص ، بل ينشر المسلم البشر فيما حوله ، ويتقرب إلى الله بما شرعه ، ويعرِّف الناس بما فيه من فضل ، ولا يخرج بذلك إلى ما هو محرم شرعا . أما عادات الأكل فهي مما يدخل تحت قوله تعالى : ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾[البقرة : ١٧٢] انتهى .

ورأيى أنه لا بأس بذلك في هذا العصر الذى كاد الشباب ينسى فيه دينه وأمجاده، في غمرة الاحتفالات الأخرى التى كادت تطغى على المناسبات الدينية ،

١- روح المعاني للآلوسي .

على أن يكون ذلك بالتفقه في السيرة ، وعمل آثار تخلد ذكرى المولد ، كبناء مسجد أو معهد أو أى عمل خيرى يربط من يشاهده برسول الله وسيرته .

ومن هذا المنطلق يجوز الاحتفال بموالد الأولياء ، حبًّا لهم واقتداء بسيرهم ، مع البعد عن كل المحرمات من مثل الاختلاط المريب بين الرجال والنساء ، وانتهاز الفرص لمزاولة أعمال غير مشروعة من أكل أو شرب أو مسابقة أو لهو ، ومن عدم احترام بيوت الله ومن بدع زيارة القبور والتوسل بها ، ومن كل ما لا يتفق مع الدين ويتنافى مع الآداب .

فإذا غلبت هذه المخالفات كان من الخير منع الاحتفالات درءًا للمفسدة كما تدل عليه أصول التشريع .

وإذا زادت الإيجابيات والمنافع المشروعة فلا مانع من إقامة هذه الاحتفالات مع التوعية والمراقبة لمنع السلبيات أو الحد منها بقدر المستطاع ، ذلك أن كثيرا من أعمال الخير تشوبها مخالفات ولو إلى حدٍّ ما ، والكل مطالب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالوسائل المشروعة [1].

يقول الزرقاني في شرح المواهب للقسطلاني : إن ابن الجزري الإمام في القراءات والمتوفى سنة ٨٣٣ هـ علّق على خبر أبي لهب الذي رواه البخاري وغيره عندما فرح بمولد الرسول وأعتق «ثويبة» جاريته لتبشيرها له ، فخفف الله عقابه وهو في جهنم فقال : إذا كان هذا الكافر الذي نزل القرآن بذمه جوزي في النار بفرحه ليلة المولد فما حال المسلم الموحد من أمته حين يُسرُّ بمولوده ويبذل ما تصل إليه قدرته في محبته.

يقول الحافظ شمس الدين محمد بن ناصر :

إذا كان هـــذا كافـــر جاء ذمه ... وتبَّت يداه في الجحيم مخلـــدا
أتي أنه فـــي يـــوم الإثنين دائما ... يخفـــف عنه للسرور بأحمـــدا
فما الظن بالعبد الذي كان عمره ... بأحمد مسرورا ومات موحدا ؟

١- انظر الجزء الرابع من موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام .

رجح ابن إسحاق أن ميلاد النبي ﷺ كان في ثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من عام الفيل وروى ابن أبي شيبة ذلك عن جابر وابن عباس وغيرهما، وحكوا شهرته عند الجمهور.

وقد حقق صاحب كتاب «تقويم العرب قبل الإسلام» بالحساب الفلكي الدقيق أن الميلاد في يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول والموافق للعشرين من شهر إبريل سنة ٥٧١ م [١].



س : ما هو اليوم الذي نصومه بمناسبة المولد النبوي الشريف، وهل إذا صادف يوم جمعة يكون صومه حلالا ؟

ج : صيام التطوع مندوبٌ لا يختص بزمان ولا مكان، مادام بعيدا عن الأيام التي يحرمُ صيامها، وهي العيدان وأيام التشريق ويوم الشك على اختلاف للعلماء فيه، والتي يكره صيامها كيوم الجمعة وحده ويوم السبت وحده.

وهناك بعض الأيام يستحب الصيام فيها كأيام شهر المحرم، والأشهر الحرم، وعرفة وعاشوراء، وكيوم الإثنين ويوم الخميس من كل أسبوع، والثلاثة البيض من كل شهر وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، وستة من شهر شوال، وكثير من شهر شعبان، كما كان يفعل النبي ﷺ وليس من هذه الأيام يوم ذكرى مولد النبي ﷺ، والذي اعتاد الناس أن يحتفلوا بها في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، فلا يندب صومه بهذا العنوان وهذه الصفة، وذلك لأمرين، أولهما : أن هذا اليوم لم يتفق على أنه يوم ميلاده ﷺ، فقد قيل إنه ولد يوم التاسع من شهر ربيع الأول وقيل غير ذلك.

وثانيهما : أن هذا اليوم قد يصادف يوما يكره إفراده بالصيام كيوم الجمعة فقد صح في البخاري ومسلم النهي عنه بقوله ﷺ «لايصومن أحدكم يوم الجمعة، إلا أن يصوم يوما قبله أو يوما بعده».

---

١ - انظر الحاوي للفتاوي للسيوطي ومجلة الهداية الصادرة بتونس في ربيع الأول ١٣٩٤ هـ.

هذا بخصوص صوم يوم الميلاد النبوي في كل عام ، أما صيام يوم الإثنين من كل أسبوع فكان يحرص عليه النبي ﷺ ، لأمرين ، أولهما : أنه قال إن الأعمال تعرض على الله فيه وفي يوم الخميس ، وهو يحب أن يعرض عمله وهو صائم ، كما رواه الترمذي وحسَّنه ، وثانيهما : أنه هو اليوم الذي ولد فيه وبعث فيه كما صح في رواية مسلم . فكان يصومه أيضا شكرا لله على نعمة الولادة والرسالة .

فمن أراد أن يشكر الله على نعمة ولادة النبي ﷺ ورسالته فليشكره بأية طاعة تكون ، بصلاة أو صدقة أو صيام ونحوها ، وليس لذلك يوم معين في السنة ، وإن كان يوم الإثنين من كل أسبوع أفضل ، للاتباع على الأقل ، فالخلاصة أن يوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول ليس فيه عبادة خاصة بهذه المناسبة ، وليس للصوم فيه فضل على الصوم في أي يوم آخر ، والعبادة أساسها الاتباع ، وحبُّ الرسول ﷺ يكون باتباع ما جاء به كما قال فيما رواه البخاري ومسلم «من رغب عن سنتي فليس مني» وفيما رواه أبو يعلي بإسناد حسن «من أحبني فليستن بسنتي» .



س : هل صحيح أن النبي ﷺ ولد مختوناً ؟

ج : ختان الرسول صلى الله عليه وسلم فيه ثلاثة أقوال :

القول الأول : أنه ﷺ ولد مختونا مسرورا ، أى مقطوع السرة ، وروى في ذلك حديث لا يصح كما ذكره أبو الفرج بن الجوزي في الموضوعات ، وهو «كرامتي على ربى أني ولدت مختونا ولم ير سوأتي أحد» فليس لهذا القول سند من حديث ثابت ، كما أن ولادته مختونا ليست من خواصه ، فإن كثيرا من الناس يولدون كذلك كما ذكره ابن القيم في «زاد المعاد» (١) .

والقول الثاني : أنه ختن يوم شق قلبه الملائكة عند حليمة السعدية التي كانت ترضعه ، والحديث الوارد فيه أيضا غير صحيح .

١- ج ١ ص ١٨ .

والقول الثالث : أن جده عبد المطلب ختنه يوم سابعه ، وصنع له مأدبة وسماه محمدا ، قال أبو عمر بن عبد البر [1] . إن الوارد في ذلك حديث مسند غريب ، وقد تفرد به ابن أبي السرى كما قال أحد رواته .

والراجح أن جده ختنه على عادة العرب في ذلك .



س : ما هى الإرهاصات التي أنبأت بظهور الرسول ﷺ ؟

ج : هذه الإرهاصات كثيرة أفردت لها بعض المؤلفات ، ويعوز بعضها الدليل القوي ، وقد ذكر منها دعوة امرأة لعبد الله والد النبي ﷺ أن يتزوجها أو يجتمع بها لأنها رأت نورا في وجهه تنبأت أن يكون هو نور نبي يولد له فتمنَّت أن يكون هو ابنها ، فصرفه الله عنها وتزوج آمنة ، ومنها حفظ الله لبيته الحرام أن يهدمه الفيل في العام الذي ولد فيه الرسول وتنبأ بذلك جده عبد المطلب للنور الذي ظهر على وجهه وهو واقف على جبل ثبير ، ومنها عدم تحقيق الله لنذر عبد المطلب أن يذبح الولد العاشر فكان هو عبد الله والد النبي ، وقدّمَ بدل ذلك فداء ، وجاء فيه الخبر «يا ابن الذبيحين» ومنها رؤيا آمنة لما حملت أن ابنها سيكون نبيا وما رأته من النور حين ولد ، ومنها نداء اليهودي بأن المولود سيكون نبيا ، وكذلك ارتجاج إيوان كسرى وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته ، وغيض بحيرة طبرية ، وخمود نار فارس كما رواه البيهقي وأبو نعيم ، ومنها حراسة السماء بالشهب ومنع الشياطين من استراق السمع ، ومنها ظهور الخير عند مرضعته حليمة السعدية وشق صدره ، ومنها كلام بحيرا الراهب في سفره للشام وتظليل الغمام له ، ومنها غير ذلك كثير يطلب من كتب السيرة .



س : هل صحيح أن النبي ﷺ شق صدره ، وما هي حكمته ؟

ج : ثبت في البخاري ومسلم وغيرهما أن النبي ﷺ أخبر عن قصة إسرائه ومعراجه، وجاء فيها أن الملائكة شقت صدره وغسلت قلبه وملأته نورا وحكمة،

---

١ - في كتابه «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» .

وجاء في رواية لمسلم أنه ﷺ أخبر عن شق صدره وهو عند حليمة السعدية عندما كان رضيعا لها ، وفيها أن الملك أخرج علقة من قلبه فرماها وقال : هذا حظ الشيطان منك ، كما جاءت روايات في غير البخاري ومسلم عن شق صدره في مواضع أخرى مثل البعثة كما رواه أبو نعيم في الدلائل .

والذي يهمنا أن نبين أن الشق ثبت بطريق صحيح ، وبلغت رواياته في الإسراء حد التواتر كما قال ابن حجر ، ويهمنا أكثر أن ينتبه المسلمون إلى أمرين ، أولهما أن شق صدره عليه الصلاة والسلام ليس عقيدة يكفر جاحدها ، ولكن ما دام قد ثبت بطريق صحيح فالواجب تصديقه ويعصى من ينكر ذلك .

والذي يكذب شق صدره في حادث الإسراء لماذا لا يصدق بكل ما جاء في الحديث من أمور أخرى خارقة للعادة ؟ فإما أن يصدق الجميع وإما أن يرفضه ، ولا معنى للإيمان ببعض وعدم الإيمان بالبعض الآخر .

وثاني الأمرين أن هذا الشق ليس من صنع البشر حتى نحكِّم العقل فيه ، بل هو من صنع الله على أيدي ملائكته ، والله سبحانه على كل شيء قدير ، ولا يجوز أبدا أن نحكِّم عقولنا في المعجزات وخوارق العادات ما دامت قد ثبتت بطريق صحيح، فقوانين العادة لا تسري على قدرة الله فهو خالقها ، وهو يملك تغييرها ، وكلنا يؤمن بأن النار لم تحرق سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وكانت عقول الكافرين واثقة باحتراقه بها ، لكن كل ذلك لا يقف أمام قول الله تعالى : ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾[الأنبياء : ٦٩] .

وإذا كانت الملائكة قد نزعت من قلبه حظ الشيطان فإن مما يؤكده أن الله سبحانه عصمه من تسلط الشيطان عليه كما أخبر هو عن محاولته إفساد صلاته .

أقول لمن يبادرون بالإنكار أو الشك : اعتقدوا أن قدرة الله فوق الشك والتهم ، فماذا تقولون في خلق عيسى من غير أب ، وآدم من تراب دون أب ولا أم ؟ أرجو الابتعاد عن هذا الجدل العقيم ، وأن نهتم بقضايانا الحاضرة لنثبت جدارتنا بالبقاء وسط المدنيات والتيارات التي تحارب الأديان .



س : نشرت صورة لخاتم النبوة ومعها حديث : من نظر إليه حفظه الله من الآفات وغيرها ويختم له بالإيمان ، فهل هذا صحيح ؟

ج : خاتم النبوة وردت به الأحاديث الصحيحة في البخاري ومسلم وغيرهما ، وجاء في هذه الروايات أنه قطعة لحم نائتة عليها شعرات بين كتفي النبي ﷺ ، وأنه مثل بيضة الحمامة ، وأنه مثل زر الحجلة وعليه خيلان كأنها الثآليل السود .

والحجلة بيت كالقبة يستر بالثياب ويجعل له باب من جنسه فيه زر وعروة تشد إذا أغلقت . وقيل المراد بالحجلة الطائر المعروف ، وزرها أى بيضتها ، والتفسير الأول هو الصحيح . والخيلان جمع خال وهو الشامة على الخد ، والثآليل جمع ثؤلول، وهى حب يعلو ظاهر الجسد ، واحدتها كالحمصة فما دونها .

وقد جاءت روايات أخرى في صفة الخاتم ، منها ما هو باطل مكذوب ، ومنها ما هو ضعيف لا يعول عليه ، ومن ذلك ما وراه الترمذي الحكيم - وهو غير الترمذي صاحب السنن - أنه مكتوب في باطنه ، أي ما يلي جسده الشريف «الله وحده لا شريك له» وفي ظاهره ، أي ما يقابل الجهة التي خلفه «توجه حيث كنت فإنك منصور» وهو حديث باطل كما قال ابن حجر في فتح البارى .

ومن هذا يعلم أن ما نشر من صورة هذا الخاتم غير صحيح ، وأن ما يترتب على النظر إليه من آثار لا أصل له في الدين .



س : من الذي سمى الرسول ﷺ باسم محمد ؟

ج : ذكر كلام كثير وأخبار لا ترقى إلى درجة الصحة أن الذي سمى الرسول باسم محمد هو الله سبحانه قبل الخلق بآلاف السنين . وأن آدم وجد اسمه مكتوبا على ساق العرش وهو ما يزال بين الروح والطين ، ووجد اسمه مكتوبا على أشياء كثيرة في الجنة .

قال ابن قتيبة : من أعلام نبوته ﷺ أنه لم يسم قبله أحد باسم محمد ، صيانة من الله لهذا الاسم كما فعل مع يحيى حيث لم يجعل له من قبل سميًّا ، قال تعالى ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٧] ولما قرب زمنه وبشر أهل الكتاب بقربه سمى قوم أولادهم بذلك رجاء أن يكون هو ، وعدَّهم القاضي عياض ستة فقط ، وقال ابن حجر الذي جمع أسماء من تَسمَّى باسمه في جزء مفرد : إنهم حوالي العشرين مع تكرير في البعض ووَهْمٍ في البعض ، وانتهى منهم إلى خمسة عشر نفسا ، ذكر أسماء المشهورين منهم وقال : لم يدرك الإسلام منهم إلا محمد بن عدي التميمي السعدي ، ومحمد بن البراء البكري لأنه صحابي جزما ، وذكر ابن خلكان أنه لا يعرف أحد سمى بمحمد في الجاهلية إلا ثلاثة : محمد بن سفيان بن مجاشع جد الفرزدق ، ومحمج بن أُحَيْحَة بن الجُلاح أخو عبد المطلب لأمه ، ومحمد بن حمران بن ربيعة .

والذي سمى النبي ﷺ بهذا الاسم جده عبد المطلب لرؤيا رآها ، وهي سلسلة فضية ذات أطراف في السماء والأرض والشرق والغرب ، وتأويل الكاهنة بأن عَقِبًا يخرج من ظهره يتبعه أهل المشرق والمغرب ، أو لرؤيا رأتها أمه حين أخبرت بحمله وأمرها بتسميته محمدا ، ولكن ذلك لم يثبت بطريق صحيح .



س : هل سمى أحد باسم محمد قبل ولادته ﷺ ؟

ج : جاء في كتابي «تربية الأولاد في الإسلام» [1] أنه لم يتسمَّ أحد من العرب باسم محمد إلا قبل البعثة ، عندما شاع أن نبيا يبعث اسمه محمد، ومن هؤلاء : محمد بن البراء البكري ، وهو صحابي أدرك الإسلام ، وذكر صاحب «كشف الغمة» أسماء أربعة عشر ممن تسموا بمحمد ، وأوصل بعضهم عددهم إلى عشرين

١ - أحد كتب موسوعة الأسرة .

مع تكرار في بعضهم ووهم في بعضهم الآخر ، ولخَّص منهم خمسة عشر لم يدرك أحد منهم الإسلام إلا محمد بن البراء . أما محمد بن عدي التميمي السعدي ففي سياق الحديث عنه ما يدل على أنه أدرك الإسلام ، وذكر ابن خلكان أنه لا يعرف أحد سمى بمحمد في الجاهلية إلا ثلاثة ، كان آباؤهم قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده علم من الكتاب الأول فأخبرهم بمبعث النبي ﷺ وباسمه ، وكان كل منهم قد خلّف زوجته حاملا ، فنذر كل منهم إن ولد له ذكر أن يسميه محمدا ففعلوا ذلك ، وهم : محمد بن سفيان بن مجاشع جدّ الفرزدق ، والآخر محمد بن أحَيحَة ابن الحلاج أخو عبد المطلب لأمه ، والآخر محمد بن حمدان بن ربيعة ، وأما أحمد فلم يتسمَّ به أحد قبله ﷺ.

وفي أيام النبي ﷺ سُمِّى باسم محمد ، وأقره الرسول ، ومنع الكنية فقط . ففي صحيح مسلم عن جابر قال : ولد لرجل منا غلام فسماه محمدا ، فقال له قومه : لاندعك تسمى باسم رسول الله ﷺ ، فانطلق بابنه حامله على ظهره ، فأتى به النبي فقال : يا رسول الله ، ولد لي غلام فسميته محمداً ، فقال لي قومي : لا ندعك تسمى باسم رسول الله ﷺ ، فقال له الرسول «تسموا باسمي ، ولا تكنوا بكنيتي ، فإنما أنا قاسم أقسم بينكم» .



س : هل صحيح ما يذكره بعض الناس أنهم رأوا حيوانات أو نباتات أو أشياء مكتوبا عليها اسم الله أو اسم محمد ؟

ج : ذكرنا أن هناك أخبارا بأن اسم الرسول كان مكتوبا على أشياء في الجنة قبل أن يولد ، وهي أخبار لا تثبت بها حقائق ، أما بعد ولادته وبعثته فكثرت الأخبار بأن اسمه وجد مكتوبا على أشياء كثيرة ، والرسول في ليلة المعراج بالسموات وجد اسمه مكتوبا فيها ، وأبو بكر من خلفه ، وأن موسى بن عمران وقَّع باسمه بالخط العبراني على حجر كتب عليه لاإله إلا الله محمد رسول الله . وأن في بعض بلاد خراسان مولودا كتب على أحد جنبيه اسم محمد ، وفي بلاد الهند ورد أحمر مكتوب عليه بالأبيض

اسمه ، وأن بعض الناس شك في هذا ففتح ورقة ورد لم تفتح فوجد الاسم مكتوبا ، وكذلك وجد اسمه على شجرة في الهند يتبركون بها ، وأن صيادا صاد سمكة فوجد الاسم مكتوبا على أحد جنبيها [1] ، وأن بطيخة أو حبة عنب عليها هذا الاسم .

هذا كله مكتوب في مؤلفات عن السيرة ليس لها سند صحيح أو تحقيق ثابت ، وسمعنا في أيامنا هذه أن بيضة كتب عليها اسم الله أو اسم محمد ، وغير ذلك من الأخبار التى أوردها القسطلاني في «المواهب اللدنية» [2] .

وإذا كنا لا نستبعد عقلا أن يوجد ذلك بقدرة الله . أو يكون بفعل بشر فإن مقام النبي ﷺ مقام عظيم ، ورسالتهُ رسالة حق لا يجهلها أحد اليوم ، ونحن في حل أن نصدق هذه الأخبار أو لا نصدقها مع عقيدتنا القوية في شرف المصطفى وصدق رسالته.

وحُبُّنا له يكون بنشر دعوته الصحيحة ما أمكن ، وبالعمل بها نصا وروحا ، وإثبات جدارتها بأنها لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وجدارتنا بأن نحمل هذا الوسام العظيم ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران : ١١٠] .



س : ما هو الضلال الذي كان عليه الرسول ﷺ قبل أن يهديه الله ، وما صلة ذلك بعصمة الأنبياء ؟

ج : يقول الله سبحانه ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى : ٧] الضلال أنواع، منه ضلال الشرك ، وضلال الهوى ، وضلال الطريق ، الأول في العقيدة والثاني في السلوك القولي والعملي ، والثالث في أمور الدنيا ، وإن كان في بعضها تداخل ، والدليل العقلي مع إجماع أهل الملل على أن الشرك مستحيل على الأنبياء قبل البعثة وبعدها ، فلا يصح أن يكون مقصودا من الآية ، والدليل العقلي قام أيضا على استحالة صدور الكبائر من الأنبياء ، فلا تصح إرادة ذلك من الآية ، بقى النوع

١- حياة الحيوان للدميري ج١ ص ٥٠٩ نقلاً عن القزويني .
٢- ج ١ ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

الثالث من الضلال وهو ضلال الطريق ، سواء منه المادي والمعنوي ، وهو الذي يجب حمل الآية عليه ، فقد كان ﷺ في نشأته بين قومه مطبوعا على التمسك بالكمالات ، والبعد عن كل ما يشعر بالخسة والنقص في الفهم والسلوك ، وكانت نفسه تتوق إلى السعي دائما لرفع شأن قومه بما يخلصهم مما ارتكسوا فيه من شرك وسلوك غير مستقيم ، وما زال يفكر في وسيلة تحقق له أمنيته ، فلم يجد في الأديان السائدة ، ما يشفي غلته حتى طلعت عليه شمس النبوة ، ونزل عليه جبريل يبين له الطريق الذي يسلكه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وبهذا هداه الله من حيرته ، ويحمل عليه قوله تعالى ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ .

وبمثل هذا يفسر قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾ [الشرح : ٢، ٣] فالمراد بالوزر الحمل الثقيل الذي أتعب ظهره ، وهو حمل معنوي قائم على التفكير الطويل في تخليص قومه مما هم فيه من كفر وضلال ، لأنه ﷺ ، من صغره ، لم يكن أنانيا يحب ذاته فقط ، ولكنه كان اجتماعيا يشترك مع قومه في الأمور العظيمة ، وبالرسالة خفف الله عنه هذا الحمل ، فأنس بجبريل وألف اللقاء به ويسر له أمر الدعوة ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾ [الشرح : ٥، ٦] .



س : يقول بعض الناس : إن الرسول ﷺ كان إذا مشى في الشمس لايكون له ظل على الأرض فهل هذا صحيح ؟

ج : جاء في المواهب اللدنية للقسطلاني وشرحها للزرقاني [1] عند الكلام على مشي النبي ﷺ أنه لم يكن له ظل في شمس ولا قمر ، وعلله ابن سبع بأنه كان نوراً ، وعلله رزين بغلبة أنواره ، وقيل : إن الحكمة في ذلك صيانة ظله عن أن يطأه كافر . ونَفْيُ أن يكون له ظل رواه الترمذي الحكيم عن ذكوان مولى عائشة ورواه ابن المبارك وابن الجوزي عن ابن عباس بلفظ : لم يكن للنبي ﷺ ظل ، ولم يقم مع الشمس قط إلا غلب ضوؤُه ضوءَ الشمس ، ولم يقم مع سراج قط إلا غلب ضوء السراج .

١- ج٤ ص ٢٢٠.

وقال ابن سبع : كان ﷺ نوراً ، فكان إذا مشي في الشمس أو القمر لايظهر له ظل ، وقال غيره : ويشهد له قوله ﷺ في دعائه لما سأل الله أن يجعل في جميع أعضائه وجهاته نوراً ختم بقوله «واجعلني نوراً» أي والنور لا ظل له ، وبه يتم الاستشهاد.

هذا ما نقل وليس فيه نص قاطع أو صحيح ، ولا مانع أن يكون ذلك تكريماً للنبي ﷺ ، وكونه نوراً لايتحتم منه ألا يكون له ظل ، فهو نور للعالمين برسالته الخالدة .



س : هل لبس النبي ﷺ السراويل ؟

ج : جاء في شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني[1] أن العلماء اختلفوا: هل لبس النبي ﷺ السراويل أم لا ؟ فجزم بعضهم بأنه لم يلبسها؛ مستأنسين بما جزم به النووي في ترجمة عثمان بن عفان من كتابه «تهذيب الأسماء واللغات» أنه لم يلبسها في جاهلية ولا إسلام إلا يوم قتله ، مخافة أن تظهر عورته ، ثم ذكر القسطلاني حديثا بسند ضعيف جدا أن الرسول ﷺ اشتراها من السوق ، وأن أبا هريرة الذي كان يريد أن يحملها عنه قال أتلبس السراويل ؟ فأجابه أنه يلبسها في السفر والحضر وبالليل والنهار لأنه أمر بالستر ولم يجد أستر منها .

ثم ذكر أنه اشتراها من السوق ؛ بسند صحيح عن أحمد وأصحاب السنن وذلك قبل الهجرة ، وإذا صح أنه اشتراها فهل كان ليلبسها هو أو ليلبسها غيره؟ ذكر ابن القيم في زاد المعاد أن الظاهر من شرائه لها أنه كان ليلبسها ؛ ووافقه بعض العلماء على رأيه وخطأه آخرون . وإذا كان البخاري قد ترجم في كتاب اللباس من صحيحه باب السراويل ؛ فقد ذكر سؤال رجل مُحْرِم للنبي ﷺ عما يلبس عند الإحرام فنهاه عن القميص والسراويل والعمائم والبرانس والخفاف ، وهو لا يدل على أن النبي كان يلبسه ؛ بل إن بعض الصحابة كانوا يلبسونه ونهى عن لبسه في الإحرام .

---

١ - ج٥ص٤٣ .

ثم ذكر الزرقاني حديثا عن أبي هريرة مرفوعا رواه أبو نعيم أن إبراهيم الخليل أول من لبس السراويل ، ولذا كان أول من يكسى يوم القيامة في الصحيحين .

هذا ما قيل في موضوع السراويل إذ ثبت أن النبي ﷺ اشتراها قبل الهجرة فإنه لم ينه عنها لأن البعض كان يلبسها بالمدينة ؟ ومنع من لبسها في الإحرام لكن لبسه لها لم يثبت بطريق صحيح ، وإذا كان عثمان بن عفان أو غيره لم يلبسها فليس معنى ذلك أنه اقتدى فيها بالنبي ﷺ فقد كان يلبسها قبل إسلامه ، وما دام لم يرد فيها منع عن لبسها فلبسها جائز استصحاباً للأصل في حِل ما لم يرد في تحريمه نص، أما كون الرسول لبسها أو لم يلبسها فلم يثبت في ذلك شيء .

ولهذا لا يثار القول عن الاقتداء بالرسول فيه ؛ والمسلمون يلبسونها من زمن طويل ، ولم ينكر عليهم أحد ممن يعتد بإنكاره ورأى عدم الجدوى في الكلام في هذا الموضوع .

جاء في غذاء الألباب [1] روى الإمام أحمد بسند جيد عن أبي أمامة رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ على مشيخة من الأنصار ... وجاء فيه فقلنا يا رسول الله إن أهل الكتاب يتسرولون ولا يأتزرون فقال «تسرولوا وأتزروا وخالفوا أهل الكتاب» وهو حديث حسن . ولا عبرة بتضعيف ابن حزم وابن الجوزي له . في الصحيحين عن ابن عباس أن النبي ﷺ خطب بعرفات «من لم يجد إزارا فليلبس سراويل للمحرم» وبهذا استدل الإمام أحمد على أنها كانت معروفة عندهم .

وذكر أن إبراهيم كان أول من لبس السراويل حين اشتكى إلى الله حياءه من رؤية الأرض لمذاكيره فهبط جبريل بخرقة من الجنة ففصلها جبريل سراويل وخاطتها سارة . ثم ذكر اختلاف العلماء هل لبسها النبي أو لا . فروى أنه لبسها كما لبسها إبراهيم وموسى ، وروى عن غير واحد أنه أمر به . وذكر ابن الجوزي وأخرجه ابن حبان عن بريدة أن النجاشي كتب إلى الرسول ، إني قد زوجتك امرأة من قومك وهي على دينك أم حبيبة بنت أبي سفان وأهديت لك هدية جامعة

١- ج٢ص٢٠١ .

قميصا وسراويل وعطافا -طيلسان- وخفين ساذجين فتوضأ النبي ومسح عليهما . واخرج ابن حبان عن سويد بن قيس قال : جلبت أنا ومخرمة العبدي برا من هجر إلى مكة فأتانا رسول الله فاشترى سراويل ، وثم وازن يزن بالأجر ، فقال «إذا وزنت فأرجح» وأخرجه أحمد أيضا من حديث مالك بن عميرة الأسدي ... قال في الفتح : وما كان ليشتريه عبثا وإن كان غالب لبسه الإزار ، وأخرج أبو يعلى والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة : دخلت يوما السوق مع رسول الله فجلس إلى البزازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم ... وفيه فقلت يا رسول الله وإنك لتلبس السراويل ؟ فأجابه أنه يلبسها في السفر والحضر وبالليل والنهار لأنه أمر بالستر ولم يجد أستر منها ...

هذا ، ولولا أن السؤال وُجِّه إليَّ من بعض البلاد الإسلامية ما أطلت في الإجابة عليه ، ذلك أن الملابس تخضع لظروف كثيرة لا يمنع منها إلاَّ ما نُصَّ عليه في المادة والشكل . ومشكلاتنا الضاغطة في هذه الأيام أولى بالبحث في إيجاد حَلٍّ لها حتى لانتخلف عن الركب في سيره الحثيث .



س : كان النبي ﷺ يتعبد في غار حراء قبل البعثة ، فبماذا كان يتعبد ؟

ج : ذكر القرطبي في تفسيره [1] أن العلماء تكلموا في النبي ﷺ هل كان متعبدا بدين قبل الوحي أم لا ، فمنهم من منع ذلك مطلقا وأحاله عقلا ، قالوا لأنه يبعد أن يكون متبوعا من عُرف تابعا ، وبنوا هذا على التحسين والتقبيح ، وقالت فرقة أخرى بالتوقف وترك قطع الحكم عليه بشيء في ذلك ، حيث لا دليل على شيء بالعقل أو النقل ، وهذا مذهب أبي المعالي ، وقالت فرقة ثالثة : إنه كان متعبدا بشرع من قبله وعاملا به ، ثم اختلف هؤلاء في التعيين ، فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى ، فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبله فلا يجوز أن يكون النبي على دين منسوخ ، وذهبت طائفة إلى أنه كان

١- ج١٦ص٥٧ .

على دين إبراهيم ، لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء ، وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى ، لأنه أقدم الأديان (هكذا) وذهبت المعتزلة إلى أنه لا بد أن يكون على دين ، ولكن عين الدين غير معلومة عندنا .

وقد أبطل هذه الأقوال كلها أئمتنا ، إذ هي أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة وإن كان العقل يجوِّز ذلك كله ، والذي يقطع به أنه عليه السلام لم يكن منسوبا إلى واحد من الأنبياء نسبة تقتضي أن يكون واحدا من أمته ومخاطبا بكل شريعته ، بل شريعته مستقلة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم جل وعز وأنه ﷺ كان مؤمنا بالله عز وجل ، ولا سجد لصنم ولا أشرك بالله ، ولازنى ولا شرب الخمر ، ولا شهد السامر - الموضع الذي يجتمعون للسمر فيه - ، ولا حضر حلف المطر (هكذا) ولا حلف المطيبين - القائم على نصرة المظلوم وصلة الأرحام - بل نزهه الله وصانه عن ذلك .

ولا يعترض على ذلك بقوله تعالى : ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾[البقرة : ١٣٥] وبقوله : ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[النحل : ١٢٣] وبقوله ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى : ١٣] فهذا يقتضي أنه كان متعبداً بشرع ، فالجواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد وإقامة الدين ، أما تفاصيل الشرائع فلم يعرفها حتى جاء الإسلام.



س : قرأت في بعض الكتب الحديثة أن النبي ﷺ كان يقرأ ويكتب ، لأن الله قال له «اقرأ» ، والأمية المنسوبة إليه في القرآن هي أمية الدين والإيمان فهل هذا صحيح ؟

ج : قال تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٨] وقال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[الأعراف:١٥٧] .

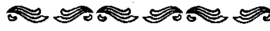
تدل الآية الأولى ، على أن النبي ﷺ كان قبل نزول القرآن عليه أميا لا يقرأ ولايكتب وتدل الآية الثانية على أن أهل الكتاب كانوا يعرفونه في كتبهم بذلك ، وهذا أمر لا يختلف فيه أحد ، والحكمة في أميته بينتها الآية ، وهي منع اتهام الكافرين له بأن القرآن أخذه عن غيره من الناس ، أو نقله من الكتب السابقة ، أما بعد نزول القرآن عليه فاختلف العلماء في كونه بقى على أميته ، أو أنه تعلم القراءة والكتابة ، فقال بعضهم : إن الأمية زالت عنه ، واستدلوا بأدلة ثلاثة ، أولها : ما جاء في البخاري أنه غيّر في صحيفة الحديبية عبارة «محمد رسول الله» إلى «محمد ابن عبدالله» ولا يحسن أن يكتب ، وثانيها : أنه قرأ صحيفة لعيينة ابن حصن وأخبر بمعناها ، وثالثها : أنه قال عن المسيح الدجال «مكتوب بين عينيه كافر» .

وقال الجمهور : إنه ﷺ بقى أميا حيث تظل حكمة أميته باقية ، ولا يوجد مطعن في رسالته وفي القرآن الذي تلقاه وحيا من الله سبحانه ما زال يتنزل منجما مفرقا إلى آخر حياته . وردوا على الدليل الأول لغيرهم بأن كون النبي ﷺ كتب بعض كلمات لا يمحو عنه وصف الأمية ، فكثير من الأميين اليوم يكتبون أسماءهم ويوقِّعون بها ومع ذلك لا يستطيعون أن يقرءوا ما وقَّعوا عليه ، فهم ما يزالون على الرغم من ذلك أميين .

وردوا على الدليل الثاني بأن الحديث غير صحيح ، فلا يعرض الصحيح القويَّ من النصوص ، كما ردوا على الدليل الثالث بأن معرفته لبعض الحروف لا تمحو عنه وصف الأمية .

هذا ، وإذا كانت أمية الرسول ﷺ وصف كمال له حكمته ، فإن الأمية فينا وصف ينبغي أن نتخلى عنه ، لأن النصوص كثيرة في الحث على التعلم والتعليم ، والقراءة من أقوى المفاتيح لذلك ، وقد كان من هدية ﷺ في فداء أسرى بدر تعليم بعض أولاد الأنصار القراءة والكتابة .

ونحن حين نحمد للكتّاب غيرتهم ودعوتهم إلى محو الأمية نرجو منهم أن يتحروا الصدق في الأخبار المنقولة عن النبي ﷺ وما يساعدهم من النصوص الصحيحة على دعوتهم كثير .



س: ما رأي الدين في الأخبار التي تقول إن بعض الحيوانات نطقت للنبي ﷺ؟.

ج : من الحيوانات التي جاءت الأخبار بأنها نطقت للنبي ﷺ ما يأتي :

١- **الجمل** : جاء في مسند الإمام أحمد بسند صحيح ، وفي مستدرك الحاكم عن عبدالله بن جعفر أن النبي ﷺ دخل حائطا -حديقة- لبعض الأنصار فإذا فيه جمل ، فلما رأى النبي ﷺ ذرفت عيناه ، فمسح النبي سنامه ، وفي رواية مسح ذفراه -والذفرى بالألف المقصورة ، هو الموضع الذي يعرق منه البعير عند أذنه- فسكن، قال النبي لصاحب الجمل «إنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدئبه» أي تتعبه في العمل[1].

وروى الطبراني عن جابر أن الجمل رغا على هامة النبي في غزوة ذات الرقاع وقال «إن هذا الجمل يستعديني على صاحبه» أي يشكو لي صاحبه ، وروى الطبراني في كتاب الدعوات عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ كان في غزاة ، فجاء أعرابي ومعه جمل ، وجاء رجل كأنه حرسي ، فقال للنبي ﷺ : إن هذا الأعرابي سرق بعيري هذا ، فرغا البعير وحنَّ ساعة . فأنصت النبي ، فلما فرغ قال للحرسي «انصرف فإن البعير يشهد عليك أنك كاذب» ورواها أيضاً عن عكرمة بسند ضعيف ، كما روى ابن ماجه أن بعيراً رغا ثلاث مرات على هامة النبيِّ ، وكان النبي يؤمن في كل منها ، ولما سئل عن ذلك قال «إن البعير كان يدعو له» .

١- رواه أحمد بإسناد جيد عن أنس ، ورواه أحمد والحكم والبيهقي بسند صحيح من طريق يعلى بن مرة الثقفي ، كما روى مثله عن طريق جابر بسند ضعيف.

من هذا يعلم أن الحديث لم يخرج في الصحيحين : البخاري ومسلم ، وحكم بعضهم بصحة رواية أحمد وغيره ، كما حكموا على الروايات للحادثة بالضعف في حوادث متشابهة ، ومهما يكن من شيء فليس في هذه الروايات أن الجمل كلم النبي ﷺ باللغة التي يفهمها الناس . وكل ما كان من الجمل هو الرغاء أي صوته العادي، وقد عرف النبي ﷺ منه بفراسته أو بالإلهام من الله أنه يشكو وصدق على ذلك صاحب الجمل وأخبر النبي ﷺ أن الجمل الآخر كان يدعو له .

وليس هناك ما يمنع عقلاً ولا شرعاً أن يلهم الله نبيه معرفة لغة الجمل ومقصده من رغائه ، فقد ثبت أن داود وسليمان عليهما السلام كانا يعرفان منطق الطير ، قال تعالى : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل : ١٦] وقال : ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل : ١٨ ، ١٩] وفي شأن الهدهد قال الله : ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ إلى أن قال ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل :٢٢ - ٢٧] .

ومع أن معرفة النبي للغة الجمل وقصده من رغائه غير ممنوعة عقلاً ولا شرعاً فإن الطرق التي رويت بها هذه الحوادث بعضها صحيح وبعضها ضعيف ومثل هذا لا تثبت به العقائد على ما قرره العلماء . وعدم تصديقها لا يخرج المؤمن من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر .

٢ - **الحمار** : ذكر ابن عساكر في تاريخه بسنده إلى أبي منصور : لما فتح النبي ﷺ خيبر أصاب حماراً أسود ، فقال له النبي ﷺ «ما اسمك» ؟ قال : يزيد ابن شهاب ، أخرج الله من نسل جدي ستين حماراً لا يركبها إلا نبي ، وأخيرا قال له النبي ﷺ «أنت يعفور» وكان يركبه في حاجته ، ويبعثه خلف من شاء من أصحابه فيأتي الباب فيقرعه برأسه فيعلم صاحب البيت أن النبي ﷺ يستدعيه فيذهب إليه .

هذا الحديث قال فيه الحافظ أبو موسى المديني : حديث منكر جدًّا ، إسنادًا ومتنا، لا يحل لأحد أن يرويه إلا مع كلامي عليه . ورواه أبو نعيم بمثله عن معاذ ابن جبل ، وهو مطعون فيه ، وأخرجه ابن حبان في الضعفاء وقال : لا أصل له ، وليس سنده بشيء وذكره ابن الجوزي في الموضوعات ، وقال ابن حجر : إنه شديد الضعف .

٣- **الجدي** : قال إنه شهد بأن الرسول مرسل لأجل أن يؤمن أبو لهب بالنبي .

٤- **الثعبان** : وهو الذي لدغ أبا بكر في الغار يقال إنه كلم النبي ، ولم أر لهذين الخبرين أثر يعتمد عليه في كتب السنة والسيرة .

٥- **الضب** : وحديثه مشهور على الألسنة ورواه البيهقي في أحاديث كثيرة ، لكنه حديث غريب ضعيف ، قال الحافظ المِزي : لا يصح إسنادا ولا متنا ، وذكره القاضي عياض في «الشفاء» مرويا عند الطبراني والبيهقي وشيخه ابن عدي كلهم عن ابن عمر ، أن أعرابيًّا دخل على النبي ﷺومعه ضب وقال لا أؤمن بك حتى يؤمن هذا الضب ، فناداه الرسول وسأله عن الله الذي يعبده وعن رسوله ... . وهو مطعون فيه بالضعف ، وقيل : إنه موضوع ، واختار القسطلاني أنه ضعيف لا موضوع .

٦ - **الغزالة** : روى حديثها البيهقي من طرق ، وضعفه جماعة من الأئمة ، لكن له طرق يقوي بعضها بعضا فيكون حسنا لغيره ، وذكره القاضي عياض في الشفاء بلا سند ، وأبو نعيم بإسناد فيه مجاهيل وملخص الحادثة أن الرسول كان في صحراء فسمع هتاف الظبية التي صادها أعرابي وقيدها ، وطلبت أن يفكها حتى ترضع أولادها وتعود فكان ذلك فأطلقها الأعرابي ونطقت بالشهادتين . ذكر السخاوي أن ابن كثير قال : لا أصل له ، ومن نسبه إلى النبي فقد كذب .

٧ - **الذئب** : وقد شهد للرسول بالرسالة ، وحكى قصته أبو هريرة وأنس بن مالك وابن عمر وأبو سعيد الخدري ، ورواها أحمد بإسناد جيد ، والترمذي والحاكم وصححا الحديث . جاء فيها أن ذئبا أخذ شاة فانتزعها الراعي منه فقال الذئب

له: ألا تتقي الله ، تنزع رزقاً ساقه الله لي ، فعجب الراعي من كلام الذئب ، فأخبره بأن الأعجب من ذلك أنك لا تؤمن بالرسول الذي ظهر في يثرب فذهب إليه الراعي وأسلم ، وأمره الرسول بإعلان ما حدث من الذئب ، ثم قال الرسول «صدق والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يخرج الرجل من أهله فيخبره نعله و سوطه أو عصاه بما أحدث أهله من بعده»[1] .

ذكر القسطلاني في المواهب وذكر الزرقاني في شرحها هذه الحوادث بتوضيح[2]، وليس في أدلتها ما يوجب علينا تصديقها كعقيدة ، وإن كان خرق العادات للأنبياء والأولياء جائزاً لكن لا يجوز أن ننسب إلى الرسول إلا ما وثقنا من صدقة حتى لانقع تحت طائلة حديثه «من كذب علي متعمداً فليبوأ مقعده من النار» [3] وما فضله به ربه من الأشياء الثابتة كثير ، وكفى بالقرآن معجزة خالدة باقية تتحدى العالم كله إلى أن تقوم الساعة ، وما حدث من الخوارق قد انتهى أثره .



س : يستبعد كثير من الناس أن يكون ما حدث للنبي ﷺ من إسراء ومعراج قد تم بالروح والجسد معا . فهل من ينكر ذلك يكون كافراً ؟

ج : الإسراء مأخوذ من السُّرَى وهو المشي ليلا ، وإسراء الله تعالى بالنبي محمدﷺ معناه نقله ليلا من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالشام ، وهو ثابت بالقرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الإسراء: ١] .

كما وردت به الأحاديث الصحيحة . وهي كثيرة مشهورة .

١- وروى قصة الذئب البخاري في تاريخه وأبو نعيم في الدلائل ، وإسناده ليس بالقوي ورواها البيهقي في الدلائل وسعيد بن منصور في سننه كما رواها البغوي وأحمد والبزار وغيرهما بسند صحيح عن أبي هريرة .

٢- في الجزء الخامس من صفحة ١٤٠ _ ١٥١ .

٣- رواه البخاري ومسلم .

والمعراج مأخوذ من العروج وهو الصعود إلى أعلى ، وقد ثبت أن النبي ﷺ عُرِج به من الأرض إلى السماء ، وذلك بالأحاديث الصحيحة أو بقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ أي جبريل ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم١٣ - ١٨] .

ومن أجل أن الإسراء ثبت بالقرآن قال العلماء : إن منكره كافر . ولأن المعراج ثبت بالحديث الذي لم يبلغ مبلغ التواتر ، ولعدم الدلالة القطعية عليه في آيات سورة النجم قالوا : إن منكره غير كافر بل هو فاسق .

لكنهم اختلفوا في الإسراء : هل كان بروح النبي ﷺ وجسده أو كان بروحه فقط؟

والصحيح أنه كان بالروح والجسد معا ، كما ذهب إليه جمهور العلماء من المحدِّثين والفقهاء والمتكلمين وذلك لما يأتي :

١ - أن الله تعالى قال ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ ولفظ العبد لا يطلق في اللغة على الروح فقط ، بل على الإنسان كله : روحه وجسده ، كما جاء ذلك في مواضع كثيرة من القرآن الكريم مثل قوله تعالى : ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ [العلق:٩، ١٠] وقوله ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن : ١٩] .

٢- أن الإسراء بالروح فقط ليس أمرا خارقاً للعادة بل هو أمر عادي يحصل للناس في فترة النوم حيث تكون للروح جولات بعيدة في الكرة الأرضية تقضيها بوسائل غير عادية في مدة لا تحسب بالزمن العادي لحركة الجسم ، ولو كان ذلك فلا داعي لأن يجعله الله تكريما للنبي ﷺ ، ويصدِّر الخبر بقوله ﴿سُبْحَـٰنَ﴾ وما فيه من معنى العظمة والجلال الذي يقرن دائما بكل أمر عظيم.

٣- أن الله تعالى قال ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء : ٦٠] أي امتحاناً واختباراً لهم كيف يصدقونها ، وذلك لا يكون إلا إذا تمت الرحلة بالجسد والروح معاً ، فليس في إسراء الروح فقط فتنة ولا غرابة ، ولذلك حين

سمع المشركون خبرها كذبوا أن تتم في ليلة مع أنهم يقطعون هذه المسافة على ظهور الإبل في عدة أيام .

٤- أن الإسراء بالروح والجسد معاً هو فعل الله سبحانه وليس فعل سيدنا محمدﷺ والعقل لا يحيل ذلك على قدرة الله ، فهو على كل شيء قدير ، وليس هناك ما يمنع قبول الخبر الموثوق به في حصوله بالروح والجسد معاً .

هذا ، ومن قال : إن هذه الرحلة كانت بالروح فقط استند إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء : ٦٠] حيث قال : إن الرؤيا مصدر رأى الحُلْمِيَّة لا البصرية ، فإن مصدر «رأى» البصرية هو رؤية . لكن أجيب على ذلك بأن الرؤيا والرؤية مصدران لرأى البصرية مثل : قُرْبَى وقُرْبة ، قال المتنبي وهو من كبار الشعراء :

ورؤياك أحلى في الجفون من الغمض

وإن كان ابن مالك وغيره خطأوه في ذلك . لكن ليس كلامهم حجة حتى لو كان المتنبي غيرحجة . وقال ابن عباس في تفسير الآية : إنها رؤية عين ، كما رواه البخاري.

كما استدل القائل بأن الإسراء كان بالروح فقط بقول عائشة رضى الله عنها : ما فُقِدَ جسده الشريف ، لكن رُدَّ هذا بما يأتي :

١- أن هذا الحديث ليس ثابتًا عنها لأن سنده فيه انقطاع وراوٍ مجهول ، وقال ابن دحية : إنه موضوع .

٢- أنها لم تُحدِّث به عن مشاهدة بل عن سماع لأنها لم تكن قد تزوجته إذ ذاك بل لم تكن ولدت على الخلاف في زمن الإسراء متى كان .

٣- أنها كانت تقول : إن النبي ﷺ لم يَرَ ربه رؤية عين ، وذلك لاعتقادها أن الإسراء والمعراج كان بالروح والجسد معاً ، ولو كان ذلك مَنَامًا أي بالروح فقط لم تنكره وما دام الحديث المنسوب إلى عائشة غير صحيح فلا داعي للتحايل في تفسيره بقول بعضهم : إن معنى : ما فقد جسده الشريف ، ما تركت

الروح جسده الشريف والمهم أن الإسراء قد تم . وقد أخبر الله عنه في القرآن الكريم ، وهذا هو القدر الواجب اعتقاده ، أما أن يكون على كيفية كذا أو كذا فذلك ما لا يتحتم اعتقاده ، ولكلٍّ أن يختار ما يشاء، مع اعتقاد أن الله على كل شيء قدير ، وأن رؤيا الأنبياء حق باتفاق العلماء . ولا داعي للخلاف في هذه النقطة . ومن أراد الاستزادة من المعرفة فليرجع إلى كتاب « المواهب اللدنية » للقسطلاني [1] .



س : كيف رأى رسول الله ﷺ ، وهو في رحلة الإسراء أناسا يعذبون ويحاسبون على أعمالهم رغم أن يوم القيامة لم يأت بعد ؟

ج : ما رآه النبي ﷺ ليلة الإسراء هو صور ونماذج لما يكون عليه الحال يوم القيامة ، أو هو تعبير عن الواقع لهؤلاء الناس في القبور ، ففي القبر نعيم وعذاب ، وذلك غير ما يكون يوم القيامة ، من نعيم في الجنة وعذاب في النار ، فالصور التي رآها الرسول في ليلة الإسراء ، ومثلا ما رآه مناما ... ورؤيا الأنبياء حق - من أن ملكين أخذاه ومرا به على صور وأشكال لمن ينامون عن الصلاة ومن يأكلون الربا ومن يزنون وخطباء الفتنة ، ومن ينفقون للجهاد في سبيل الله - هذه الصور إما رموز لما سيكون عليه الحال يوم القيامة ، وإما حقيقة لما يكون عليه هؤلاء في القبور.



س : لماذا أسرى الله برسوله ليلا وليس نهارا ؟

ج : أجاب القسطلاني في المواهب اللدنية مع شرح الزرقاني [2] عن هذا السؤال بقوله : إنما جعل الإسراء ليلا تمكينا للتخصيص بمقام المحبة ، لأنه تعالى اتخذه عليه

---

١ - المقصد الخامس الخاص بالإسراء والمعراج مع شرح الزرقاني (ج٦ ص٣ ومابعدها) .
٢ - ج٦ ص٨ .

السلام حبيبا وخليلا ، والليل أخص زمان للمحبين لجمعهما فيه ، والخلوة بالحبيب متحققة بالليل .

وقال ابن المنير : لعل تخصيص الإسراء بالليل ليزداد الذين آمنوا إيمانا بالغيب ، وليفتتن الذين كفروا زيادة على فتنتهم ، إذ الليل أخفى حالا من النهار ، فما وقع منه لا يطلع عليه غالبا ، فكان من الغيب ، فإذا أخبر الرسول عما وقع له ليلاً صدَّقة المؤمنون فزادوا إيماناً ، ولعله لو عرج به نهارا لفات المؤمن فضيلة الإيمان بالغيب .

وهناك حكمة على طريق أهل الإشارات ، وهم المحققون من الصوفية ، أن الله تعالى لـمَّـا محَا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة انكسر الليل فجبر بأن أسرى فيه محمدﷺ وقيل : افتخر النهار على الليل بالشمس فقيل له : لاتفتخر فإن كانت شمس الدنيا تشرق فيك فسيعرج شمس الوجود في الليل إلى السماء .

هذا بعض ما قيل : ولكلٍّ ذوقه وإحساسه .



س : لماذا كان المعراج من بيت المقدس ولم يكن من مكة ؟

ج : لقد حدث الإسراء من مكة وانتهى إلى المسجد الأقصى بالشام ، كما نص على ذلك القرآن الكريم ، وهو معجزة من أنكرها كفر لتكذيبه خبر القرآن ، وهو قاطع في ثبوته ودلالته ، والمعراج معجزة أثبتتها السنة ، وفي منكرها خلاف بالقول بالكفر أو بالفسق . وجاء في بعض الروايات أن المعراج كان من مكة وكان على البراق ، وإن كانت رواية المعراج من المسجد الأقصى هي الأقوى ، وكون المعراج على البراق غريب ، لأنه إلى السموات وليس إلى موضع آخر في الأرض حيث يكون التناسب بينها وبين الدابة التي هي البراق ، ولعل التعبير «بالمعراج» من مكة خطأ بدل «الإسراء» .

من الطبيعي أن يحدث الإسراء من مكة - كما أخبرنا القرآن - لأن الرسول ﷺ كان فيها منذ ولد ونشأ وبدأ الدعوة وحدثت له الظروف التي كانت مقدمة للإسراء، وكان هو والمعراج بعيدين عن مكة لحكم جليلة منها:

١- إثارة التعجب عند المشركين، كيف تم الانتقال والمسافة بعيدة، ولإمكان تصديقه طلبوا من الرسول ﷺ وصف بيت المقدس.

٢- أن المسجد الأقصى كان فيه اجتماع الأنبياء الذين احتفلوا به وكرموا الرسول بإمامته لهم في الصلاة، وكأن الله يقول له: إن لم يؤمن بك المشركون فقد آمن بك وكرَّمك من هم أفضل منهم، وهم أفضل البشر، أنبياء الله المصطفون الأخيار، وفي ذلك تسلية وعزاء للرسول ﷺ وتنشيط له ليستمر في دعوته.

٣- وفي حفاوة الأنبياء به إشارة إلى وحدة الأديان، وكما جاء في الحديث الصحيح «الأنبياء إخوة من عَلاَّت، أمهاتهم شتى ودينهم واحد».

٤- وفي ذلك إشارة إلى أن دين الإسلام سينتشر على الرغم من محاولات أهل مكة للقضاء عليه، وستغطي دعوته العالم كله، لأن فيه خلاصة الدعوات السابقة، مع المبادئ الصالحة لمسايرة البشرية في تطورها المستمر.

لقد كان المعراج من المسجد الأقصى ليكون بعد الاحتفال الأرضي العام بالرسول احتفال خاص في السماء لم يحظ به نبي من الأنبياء، وكانت صفوة منهم في طريق عروجه يستقبلونه ويكرمونه في السماء كما كرموه في الأرض، وكان كل منهم يمثل مرحلة من حياته ﷺ، أحس فيها بنصر الله لهم على الرغم مما حدث لهم من أقوامهم.

هذا بعض ما أحس به من كون المعراج كان في المسجد الأقصى ولم يكن من مكة كالإسراء، ولكلٍّ أن يقرأ ما بين السطور، ويستشف ما يفتح الله به عليه، والأسرار في التشريعات كثيرة لا يحيط بها إلا من وضعها سبحانه وتعالى.



س : يقال إن النبي ﷺ نزل أرضا وصلى ليلة الإسراء قبل أن يصل إلى المسجد الأقصى ، فما هذه الصلاة ، مع أن الصلاة فرضت ليلة الإسراء بعد العروج إلى السماء ؟

ج : من الآيات التي رآها النبي ﷺ في ليلة الإسراء ما رواه البزار والطبراني والبيهقي وصححه في كتابه «دلائل النبوة» من حديث شداد بن أوس أن النبي ﷺ لما أسرى به مرَّ بأرض ذات نخل ، فأمره جبريل أن ينزل من فوق البراق ليصلي ، فصلى ثم أخبره أن المكان الذي صلى فيه هو يثرب أو طيبة ، وإليها المهاجر ، ثم أمره أن يصلي عندما مر بمدين عند شجرة موسى ، وهي التي استظل بها بعد أن سقى الغنم للمرأتين قبل أن يلتقي بأبيهما - كما قال بعض الشراح - ولما مر الركب بطور سيناء أمره أن يصلي أيضا ، وذلك حيث كلم الله موسى ، وعند المرور ببيت لحم صلى أيضا ، وذلك حيث ولد عيسى ابن مريم .

هذا هو ما ورد بطريق صحيح كما ذكره البيهقي ، ولم أر حديثا صحيحا عن صلاته في غير هذه الأماكن . وما رآه الرسول بهذه المناسبة بعضه ورد بطريق صحيح وبعضه الآخر بطريق غير صحيح ، من ذلك ما رواه الطبراني والبزار والبيهقي وابن جرير وأبو يعلى أن النبي ﷺ أتى على واد فوجد فيه ريحا طيبة باردة كريح المسك ، وسمع صوتا وأخبره جبريل بأنه صوت الجنة تبشر أهلها، ثم أتى على واد فسمع صوتا منكرا ووجد ريحا منتنة ، فأخبره جبريل بأنه صوت النار ، ولكن لم يحكم على هذه الرواية بالصحة أو الحسن أو الضعف .

ومهما يكن من شيء فإن ذلك إذا كان ممكنا عقلا فإننا لا نكلف بالإيمان به ، حيث لم يرد نص صريح قاطع يثبته ، ورحلة الإسراء في حد ذاتها رحلة غريبة ، ولها فضلها وشرفها ، وليست في حاجة إلى إضافة شيء يزيدها شرفا بعد ما ورد من آثار صحيحة وأكرر التنبيه على عدم نسبة شيء إلى النبي ﷺ هو منه بريء فقد قال «من كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» [1] . أما الصلاة التي

١- رواه البخاري ومسلم .

صلاها فقد تكون ركعتين ، لأن الصلاة كانت قبل الإسراء ركعتين أول النهار وركعتين آخره ، وقد تكون تطوعا لله وقد مر ذلك عند صلاة النبي ﷺ بالأنبياء في المسجد الأقصى .



س : هل من الحديث ما يقال عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يرى في الظلام كما يرى في النور ؟

ج : جاء في المواهب اللدنية للقسطلاني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يرى بالليل في الظلمة كما يرى في النهار في الضوء [1] . وروى البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يرى في الظلماء كما يرى في الضوء .

وقد علق الزرقاني في شرحه على إسناد الحديث للبخاري فقال : لم أجده فيه ، وإنما عزاه السيوطي وغيره للبيهقي في الدلائل ، وقال : إنه حسن . قال شارحه : ولعله -أي الحكم بالحسن- لاعتقاده ، وإلا فقد قال السهيلي : ليس بقوي ، ونقل ابن دحية تضعيفه في كتاب « الآيات البينات» عن ابن بشكوال ،لأن في سنده ضعفاً فكيف يكون في البخاري .

وحديث البيهقي رواه أيضاً ابن عدي وبقيٌّ بن مخلد - كما في الشفاء - وضعفه ابن الجوزي والذهبي . لكنه يعتضد بشواهد فهو حسن كما قال السيوطي .

فالخلاصة أن رؤية النبي ﷺ في الظلام كالنهار سندها ضعيف أو حسن وذكر الزرقاني أنه ﷺ قام ليلة فوطئ على زينب بنت أم سلمة بقدمه وهي نائمة ، فبكت ، وقد يكون ذلك لبيان أن رؤيته في الليل كالنهار ليست في كل الأحوال ، وأجاب عنه الزرقاني بجواب آخر من وجهة نظره [2] .



١- رواه البخاري .
٢- الزرقاني على المواهب ، ج ٤ ص ٨٣ .

س : كثيراً ما نقرأ في الكتب عن حكم من الأحكام فيقال إنه من خصوصيات النبي ﷺ فلماذا كانت هذه الخصوصيات ، وهل يمكن أن تعرف ؟

ج : الخصوصيات لسيدنا محمد ﷺ وكذلك لسائر الأنبياء أمر تقضتيه طبيعة مهمتهم ، فالقادة والزعماء والحكام في كل مجتمع وفي كل عصر لهم مميزات ليست في غيرهم ، وهذه المميزات ليست كلها تيسيراً أو زيادة في التمتع بطيبات الحياة ، بل منها ما هو شديد يفرض سلوكاً معيناً فيه معاناة نفسية في مقابل التكريم والتشريف الذي رفع الله به منازلهم على غيرهم من عامة الناس ، فالشيء الغالي والثمين يبذل في الحصول عليه أكبر مما يبذل في غيره ، فمن طلب الحسناء لم يُغله المهر ، ولابد دون الشهد من إبر النحل ، ويكفي في الاستدلال على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة : ١١١] وقول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «أفلا أكون عبداً شكوراً» عندما وجدته يقوم الليل حتى تورمت قدماه مع أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه[١] .

ومعرفة خصوصيات النبي ﷺ قال بعض العلماء لا فائدة فيها [٢] لكن النووي قال : إن معرفتها جائزة بل مستحبة بل قد تكون واجبة ، لأنه ربما رأى جاهل بعض الخصائص ثابتاً في الحديث الصحيح فعمل به أخذاً بأصل التأسي والاقتداء ، فوجب بيانها لتعرف فلا يعمل بها وقد تكون هناك خصائص لا حاجة لمعرفتها في السلوك ولكن مجرد المعرفة لا يخلو من فائدة .

وقد وردت أحاديث كثيرة نص عليها على بعض الخصوصيات. وهي كثيرة حاول بعض المؤلفين حصرها كابن سبع والنووي وابن الملقن وغيرهم وقام القسطلاني في المواهب بجعلها في مجموعات أربعة : الأولى في الواجبات والثانية في المحرمات والثالثة في المباحات والرابعة في الفضائل والكرامات .

فمن الواجبات التي تتناسب مع قدرته ويعظم بها أجره والتي اختلف في وجوبها بعض العلماء ، صلاة الضحى والوتر وركعتي الفجر وصلاة الليل والسواك والأضحية والمشاورة ومصابرة العدو وتغيير المنكر في كل الأحوال ،

١- رواه البخاري ومسلم.

٢- الزرقاني على المواهب ج ٥ ص ٢٠٦ .

وقضاء الدين عمن مات مسلماً معسراً ، وتخيير نسائه في فراقه أو البقاء معه ، وإمساكهن بعد اختيارهن له وعدم التبدل بهن مكافأة لهن .

ومما اختص به من المحرمات : تحريم الزكاة والصدقة عليه ، وتحريم أكل ما له رائحة كريهة كالثوم والبصل لتوقع مجيء الملائكة والوحي له ، وتحريم الكتابة والشعر أي التوصل إليهما ، وتحريم نزع لأمته -عدة الحرب- إذا لبسها حتى يقاتل، والمن ليستكثر أي إعطاء شيء طالباً أكثر منه ، ومد الأعين لما متَّع الله به الناس ، ونكاح من لم تهاجر إلى المدينة ، وتحريم إمساك من كرهته ، ونكاح الكتابية لأن زوجاته أمهات المؤمنين وزوجات له في الآخرة ومعه في درجته في الجنة ، وكذلك نكاح الأمة المسلمة بخلاف التسري بها فهو حلال .

ومما اختص به من المباحات وإن لم يفعل أكثرها : عدم نقض وضوئه بالنوم ، وعدم نقضه بلمس المرأة الأجنبية على الأصح ، وإباحة الصلاة بعد العصر ، والصلاة على الميت الغائب عند بعض الأئمة ، وتقبيل زوجاته في الصيام ، وجواز الخلوة بالأجنبية والنظر إليها كما في قصة أم حرام بنت ملحان ، ونكاح أكثر من أربع نسوة ، والنكاح بلفظ الهبة من جهة المرأة ، والنكاح في حال الإحرام ، والنكاح بلا ولي ولا شهود كنكاحه لزينب بنت جحش - والقتال بمكة ودخولها من غير إحرام ، والقضاء بعلمه دون حاجة إلى شهود .

وأما ما اختص به ﷺ من الفضائل والكرامات فكثير جدًّا لايتسع لبعضه المقام ويمكن الاطلاع على المواهب اللدنية للقسطلاني مع شرح الزرقاني [1] ، لتعرف الأدلة على الخصوصيات كلها وما كان منها محل اتفاق وما كان محل اختلاف .



س : هل يمكن رؤية النبي ﷺ يقظة بعد وفاته ؟

ج : روى البخاري ومسلم وغيرهما أن النبي ﷺ قال :«من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ، ولايتمثل الشيطان بي».

١- ج ٥ ص ٢٤٢ .

لقد وضع الحافظ السيوطي رسالة في رؤية النبي ﷺ مناماً ويقظة سماها «تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي جهاراً أو الملك» كما تحدث عنها غيره مثل القسطلاني في المواهب اللدنية بشرح الزرقاني ، وقد استخصلت من ذلك ما يأتي :

١ - رؤية النبي ﷺ في المنام جائزة ، على خلاف في رؤية الشخص أو المثال ، وما يحتاج إلى تعبير وما لايحتاج إليه ، وذلك كرؤية الإنسان لأي شخص بعد وفاته .

٢ - من رآه في المنام فسيراه ، تحقيقاً للوعد الذي جاء في الحديث ، على خلاف في هذه الرؤية إن كانت في الدنيا أو في الآخرة ، أو كانت لمن رآه حال حياته ﷺ خاصة ، أو عامة لكل إنسان إلى يوم القيامة .

٣ -رؤيته يقظة بعد موته ليس هناك نص يمنعها ، فهي ممكنة على خلاف في هذه الرؤية :

فإن كانت مثالية أي صورة يستحضرها الإنسان حتى تبدو كأنها الحقيقة فذلك لامانع منه ، ويحمل عليه ما يراه بعض الصالحين ، وإن كانت رؤية شخصية وكان الرائي قد رآه في قبره فذلك لا مانع منه ، كما رأى النبي ﷺ موسى عليه السلام في قبره ، وهي لأصحاب الكرامات ، والكرامات معترف بها كالمعجزات ، مع التحفظ على أن هذه الرؤية الشخصية ربما لاتكون تماماً كالرؤية بالعين الباصرة المتعارفة عند الناس .

٤ - حوادث رؤية النبي ﷺ بعد موته كثيرة ، لكن أسانيد رواياتها ظنية ، وهناك مندوحة لعدم تصديقها ، والرائي لابد أن يكون عادلاً ، وفي الوقت نفسه يكون متثبتاً مما رآه ، كامل العقل والقدرة على الإخبار به كما حدث ، وبدون ذلك تقوى التهمة ، وكل راوٍ له استعداده في التحمل والنقل ، والأداء ربما لايعبر تماماً عن الرؤية .

٥ - ما يُدَّعى أنه أُمِرَ به أو نهى عنه في الرؤية الشخصية لايمكن أن يعارض الثابت في القرآن والسنة .

٦ - ينبغي لمن حصل له ذلك ألا يستغله استغلالاً سيئاً لمصلحة نفسه أو لغرض آخر لايتفق مع الدين ، وهو حرٌّ في تصديق ما يراه ، لكن لا يفرضه على غيره .

٧ - يجب الاهتمام بتنفيذ ما جاء في القرآن والسنة ، فالاعتصام بهما سبيل الهدى وحماية من الضلال ، والدين واضح وكامل وتام ليس في حاجة إلى زيادات بعد ما جاء عن الرسول ﷺ وأصحابه والأئمة المجتهدين . وكل ما يقال عن الجديد فلابد أن يأخذ شرعيته من أصول الدين .

٨ - الخلاف في مسألة الرؤية غير مفيد ، والوقت الذي يبذل فيه تأييداً أو إنكاراً ينبغي أن يبذل فيما هو أهم ، فالقضايا والمشكلات كثيرة ، ومن مصلحة العدو أن ننصرف عنها إلى هوامش ليست من صحيح العقيدة الإسلامية وأصول التشريع .

٩ - لا يجوز مطلقاً أن يرمي أحد بالكفر لتكذيبه دعوى جواز الرؤية الشخصية للرسول ﷺ أو وقوعها ، ولا أن يرمي أحد بالزيغ والضلال لمجرد القول بها، فإذا تجاوزت الحد بأي نوع من التجاوز كان التفاهم بالحسنى لتصحيح الخطأ أوالحد من التعصب .

١٠- مسألة الرؤية هذه ليست من العقائد المفروضة التي يترتب على إنكارها الكفر، فالعقائد لاتثبت إلا بما يفيد العلم اليقيني ولا يوجد عليها دليل في القرآن الكريم، ودليلها من السنة ليس قطعيًّا في دلالته ، فالاحتمال موجود حتى على فرض قطعية الثبوت بالحديث الصحيح الذي لم يبلغ مبلغ التواتر .



س : هل هناك صلاة يصليها الإنسان ليرى الرسول ﷺ في المنام ؟

ج : وجد في بعض الكتب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «من صلى ليلة الجمعة ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي مرة ، وقل هو الله أحد خمس عشرة مرة ، ويقول في آخر صلاته : اللهم صل على محمد النبي

الأمي ألف مرة ، فإنه يراني في المنام ، ولا تتم له الجمعة الأخرى إلا وقد رآني ، ومن رآني فله الجنة وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» .

معلوم أن الصلاة خير موضوع ، وأن قراءة القرآن ثوابها عظيم ، وأن رؤية النبي ﷺ يتشوف إليها كل مؤمن ، ولكن ورود هذه الكيفية لرؤيته لم يصح بها حديث منسوب إليه ﷺ . ولو كان ذلك صحيحاً لجربه كل الناس واستمتعوا برؤيته مناماً في كل ليلة أو في ليال كثيرة .

ولا أعرف أثراً آخر يرشد إلى وسيلة يرى بها النبي ﷺ ، وإن كان من الجائز أن من اشتد حبه للرسول عن طريق العمل الخالص بسنته ، وكان على ذاكرته كثيراً - من الجائز أن يكرمه الله ويحقق له ما يريد ، وهو أمر معروف مع كل من نام وهو مستغرق في الفكر نحو شيء معين .



س : ما الحكمة في أن يكون للنبي ﷺ قرين مع أن الله عصمه ؟

ج : روى مسلم و أحمد من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال : ما منكم من أحد إلا وقد وكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة» قالوا وإياك؟ قال «وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير» يقول الزرقاني في شرح المواهب[1] ، معلوم عصمة الملائكة وإيمانهم ، فإنما المراد الإخبار بمصاحبة الملك والجني لكل أحد ، فالجن يغوي بخلاف الملائكة ، فقول بعض : إسلام قرينه من الملائكة والشياطين لا معنى له بالنسبة للملائكة ، ولا دلالة في الحديث عليه ، اللهم إلا أن يريد بالإسلام ملكه انقياده التام له ، وفيه ما فيه .

وجاء في رواية البزار عن ابن عباس أن الشيطان كان كافراً فأسلم ، أي أسلم الشيطان الكافر ، وحديث ابن مسعود روى بفتح الميم وضمها ، أي فأسلم أنا من فتنته وكيده ، وصحح الخطابي رواية الرفع ، ورجح عياض والنووي الفتح . لقوله «فلا يأمرني إلا بخير» قال الدميري : وهو المختار .

١- ج٥ ص ٢٨٠ .

والإجماع على عصمة النبي ﷺ من الشيطان ، وإنما المراد تحذير غيره من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه ، فأعلمنا أنه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان . انتهى .
وقال غيره : اعترضت رواية الضم -فأسلم- بأنه تعوذ منه بقوله «أعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت» أي يصرعني ويلعب بي ويفسد ديني أو عقلي عند الموت بنزغاته التي تزل بها الأقدام وتصرع العقول ، وقد يستولى على الإنسان حينئذ، فيضله أو يمنعه التوبة أو يعوقه عن الخروج عن مظلمة أو يؤيسه من الرحمة ، أو يكره الموت فيختم له بسوء والعياذ بالله تعالى .

وأجيب بأنه إنما قاله تعليماً لأمته ﷺ فإن شيطانه أسلم ولا تسلط له ولا لغيره عليه بحال ، بل سائر الأنبياء لا تسلط لشياطينهم عليهم وإن لم يسلموا . انتهى ما جاء في الزرقاني على المواهب . وخلاصته :

١ - أن كل إنسان معه قرين من الجن وقرين من الملائكة ، وقرين الملائكة إما لحفظ الإنسان كما قال الله سبحانه ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ الرعد : ١١] وإما لمساعدته على الخير وإما لغير ذلك ، وقرين الجن مهمته الإغواء فقد أقسم إبليس بعزة الله أن يغوي الناس أجمعين ، إلا عباد الله المخلصين .

٢ - أن النبي ﷺ كسائر الناس له قرين من الجن وقرين من الملائكة ، وقرينه من الجن مختلف في أنه أسلم بدليل قوله «فلا يأمرني إلا بخير» أو لم يسلم ، بدليل الاستعاذة منه ، وأن الله قوّى رسوله عليه فأبطل محاولة إغوائه ، كما حدث من تفلُّته عليه في الصلاة ليفسدها فخنقه عليه الصلاة والسلام ثم أطلقه كما ثبت في الحديث .

وعلى كلا الأمرين فالرسول معصوم من تسلط الشيطان عليه وإيقاعه في المعصية وهو ﷺ ينبهنا إلى وجوب الحذر من الشيطان المقارن لنا ، وإلى أنه بشر مثلنا يجاهد مع توفيق من الله حتى لايعصى . ونحن أولى بالمجاهدة .



س : هل الكحل في العين جائز للرجال ؟

ج : جاء في الطب النبوي لابن القيم أن النبي ﷺ كانت له مكحلة يكتحل منها ثلاثاً في كل عين ، وفي الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما كان رسول الله ﷺ إذا اكتحل يجعل في اليمنى ثلاثاً يبدئ بها ويختم بها ، وفي اليسرى ثنتين ، وروى أبوداود عنه ﷺ «من اكتحل فليوتر» ثم قال ابن القيم : وفي الكحل حفظ لصحة العين وتقوية للنور الباصر وجلاء لها ، وتلطيف للمادة الرديئة واستخراج لها ، مع الزينة في بعض أنواعه ، وله عند النوم مزيد فضل لاشتمالها على الكحل وسكونها عقيبه عن الحركة المضرة بها ، وخدمة الطبيعة لها ، وللإثمد من ذلك خاصية ، وفي سنن ابن ماجه مرفوعاً «عليكم بالإثمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر» .

فالكحل كان من مادة مفيدة وهو دواء وعلاج ومن هنا كان اكتحال الرجال به ولم يكن أصلاً للجمال ، فذلك أليق بالنساء .



س : هل كان كل ما فعله الرسول ﷺ بوحي من الله سبحانه ، أم كان يجتهد في بعض الأحيان فيما لم ينزل عليه فيه وحي ، وإذا اجتهد هل كان اجتهاده كله صواباً أم كان بعضه خطأ ؟

ج : الكلام في هذا الموضوع قد عنيت به كتب الحديث والأصول ، ولايتسع له المقام هنا ، وخلاصته أن للعلماء في جواز الاجتهاد منه ﷺ ثلاثة آراء :

١ - رأي يقول بامتناع الاجتهاد عليه ، لإمكانه الوصول إلى ما يريد عن طريق الوحي، ولكن رد عليه بأن إنزال الوحي ليس في قدرته ، وقد يكون في حاجة ماسة إلى الإجابة على سؤال أو التصرف في أمر عاجل ، وعندما انتظر نزول جبريل عليه فتر الوحي مدة ، وعندما جاء سأله الرسول ، فقال ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم : ٦٤] .

٢ - ورأي يقول بجواز الاجتهاد وبوقوعه بالفعل منه ، كما حدث في التشاور في أسرى بدر ، وفي إذنه لبعض الناس في التخلف عن الغزوة ، وقد جاء في ذلك

قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنفال: ٦٧] وقوله ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٤٣] حيث عاتبه الله سبحانه ، والعتاب لا يكون فيما صدر عن وحي .

٣ - ورأي يقول بجواز اجتهاده في الأمور السريعة الضاغطة كالحروب ، وبعدم جوازه في غير ذلك ، وهذا الرأي فيه جمع بين الأدلة ، وهو رأي حسن . والذين قالوا بجواز اجتهاده قال بعضهم : لايجوز عليه الخطأ فكلُّ اجتهاده صحيح . كما ذكره ابن أبي هريرة والماوردي . وذلك لأنه لا نبي بعده يستدرك خطأه فلذا عصم من بينهم ، وقال ابن السبكي : الصواب أن اجتهاده لا يخطئ تنزيها لمنصب النبوة عن الخطأ في الاجتهاد ، وقال آخرون : يجوز عليه الخطأ ولكن لايُقَرُّ عليه ، بل ينزل الوحي بتصحيحه ، ومع جواز الخطأ هو مأجور ، وعتاب الله له في مثل الأسرى ليس عقاباً [1].



س : ما تفسير قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ① قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ② وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ③ ﴾ [التحريم : ١ -٣] . وكيف يخالف النبي ﷺ أمر الله فيحرم ما أحله الله له ؟

ج : أصح ما ورد في سبب نزول هذه الآيات أن النبي ﷺ كان يشرب عسلاً عند بعض زوجاته -زينب بنت جحش ، أو حفصة بنت عمر - وكان يمكث عندها طويلاً فدبت الغيرة في قلب بعض زوجاته ، وهن بشر يتمنين أن يمكث عندهن كما يمكث عندها ، لأن من عادته ﷺ أنه كان يطوف عليهن جميعاً كل يوم يسأل عنهن ويقضي حاجتهن ، ثم يبيت عند صاحبة النوبة . فقال بعض الزوجات: إذا دخل النبي علينا

١- راجع الزرقاني على المواهب ج ٨ ص ٢٨١ ، والسياسية الشرعية للشيخ عبدالرحمن تاج .

تقول : إن في فمك رائحة كريهة - والنبي كان يكره الرائحة الكريهة- فقلن له ذلك . وذكرن أن سببه من الطعام الذي أكله ، فقال : أكلت عسلاً ، فقلن : لعل نحله قد جنت العرفط ، يعني امتصت زهره ورائحته كريهة ، فحلف النبي ألا يأكله مرة أخرى ، وبالفعل عندما زار من عندها عسل رفض أن يأكل منه ، وقد أطلع الله نبيه على ما فعله زوجاته ، وبين له كيف يخرج من يمينه ، وذلك بكفارة من عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم على ما جاء في سورة المائدة .

وثبت في صحيح مسلم أن عائشة وحفصة هما اللتان اتفقتا على هذه الحيلة ، والذي أسره لهما هو عدم عودته إلى شرب العسل ، فأفشيا السر فأخبره الله .

وقيل : إن السر هو قوله لهما إن أبويهما سيكونان خليفتين من بعده .

وقيل : إن سبب نزول الآيات خلوة الرسول بمارية في بيت حفصة وكانت غائبة عنه فلما رأت أن ذلك هوان من شأنها قال لها : إني حرمتها على نفسي ولا تخبري أحداً، فأخبرت به عائشة ، فغضب وحلف ألا يدخل على نسائه شهراً ، ولكن سند هذه الرواية ضعيف أولا يقف أمام رواية مسلم .

وقد نزلت هذه الآية عتاباً رقيقاً من الله لنبيه في أنه كان في الذروة من حسن معاشرة أزواجه ، لدرجة أنه امتنع عما أحله الله له لإدخال السرور على قلوبهن وبيَّن له أن سمو الخلق لا يصل إلى الدرجة التي يتعب فيها نفسه ويحرمها من الحلال الطيب الذي يحبه ، فالامتناع عن أكل شيء إرضاء لمن يحبه ليس تحريماً شرعيًّا لشيء أحله الله وليس معصية ، بل هو تصرف شخصي في معاملة أزواجه ، كما امتنع عن أكل الثوم والبصل وهما مباحان ، لأن وضعه من لقاء الملائكة وغيره ليس كوضع سائر الناس ، وقد امتنع من قبله سيدنا يعقوب عن لحوم الإبل وألبانها لأمر يخصه ، ولم يعاتبه الله على ذلك كما قال سبحانه ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾ [آل عمران : ٩٣] .

ومعنى ﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾ عرف حفصة أنها أفشت السر لعائشة في تحريم العسل أو تحريم مارية ، وأعرض عن بعض وهو تولي أبي بكر وعمر بعده ، حتى لايفشو الخبر أكثر وأكثر ، وجازاها على ذلك بتطليقها ثم أمره الله بمراجعتها.



س : هل صحيح أن النبي ﷺ كان إذا مشى في الصخر غاصت قدماه فيه ؟

ج : جاء في شرح الزرقاني على المواهب اللدنية [1] ، أن ذلك مشهور قديماً وحديثاً على الألسن ونطق به الشعراء في منظومهم والبلغاء في منثورهم . وأنكره السيوطي وقال : لم أقف له على أصل ولا سند ولا رأيت مَنْ خرَّجه في شيء من كتب الحديث ، وكذلك أنكره غيره ، لكن القسطلاني صاحب المواهب قوَّاه بوجود أثر قدمي الخليل إبراهيم عليه السلام في حجر المقام المذكور في التنزيل في قوله تعالى : ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ [آل عمران : ٩٧] كما قوّاه بما رواه البخاري من معجزة ضرب موسى في الحجر ، ويؤيده وجود أثر حافر بغلته الشريفة على ما قيل في مسجد بطيبة حتى عرف المسجد بها فيقال مسجد البغلة .



س : هل صحيح أن الجذع حَنَّ إلى النبي ﷺ ؟

ج : جاء في شرح الزرقاني للمواهب اللدنية [2] ، أن حنين الجذع الذي كان النبي يخطب عنده قبل عمل المنبر ، ورد عن جماعة من الصحابة من طرق كثيرة تفيد القطع بوقوع ذلك . فهو متواتر رواه البخاري ، وأطال في الحديث عنه من جهة كلامه معه ومن جهة دفنه وغير ذلك .



١- ج ٥ ص ٢٤٦ .   ٢- ج ٥ ص ١٣٣ .

س : هل صحيح أن خاتم النبي ﷺ وقع في بئر أريس ؟

ج : جاء في شرح الزرقاني للمواهب اللدنية [1] ، أن البخاري ومسلماً رويا أن النبي ﷺ اتخذ خاتماً من ورق - أي فضة - وكان في يده ثم في يد أبي بكر ثم في يد عمر مدة خلافتهما ، ثم كان في يد عثمان حتى وقع منه في «بئر أريس» وهي حديقة بقرب مسجد قباء ، فأمر عثمان بنزح البئر فلم يوجد .



س : عرفنا أن النبي ﷺ هاجر ومعه أبو بكر فقط ، فكيف هاجر بيت الرسول وبيت أبي بكر ؟

ج : عندما استقر النبي ﷺ بالمدينة ، وتحول من دار أبي أيوب الأنصاري إلى مساكنه التي بناها حول المسجد -وصلت أسرته الكريمة التي كان قد أرسل زيد ابن حارثة وأبا رافع مولاه إلى مكة ليأتيا بها ، وكانت أسرته تتكون من زوجته سودة بنت زمعة ، وابنتيه فاطمة وأم كلثوم ، أما ابنته رقية فقد هاجرت مع زوجها عثمان بن عفان ، وأما ابنته زينب فبقيت في مكة مع زوجها أبي العاص بن الربيع حتى أسر زوجها . ولما مَنَّ عليه الرسول عاد إلى مكة وأرسل زينب إلى المدينة .

وذكر ابن إسحق أنه لما سمع زوجها بهجرتها تجهز وحملها في هودج على بعير ساقه أخوه كنانة بن الربيع ، ومعه فرسه وكنانته ، فخرج رجال من قريش فأدركوها بمكان يسمى «ذي طوى» فسبق إليها هبَّار بن الأسود (أسلم بعد ذلك) فراعها بالرمح وكانت حاملاً فوقعت وأسقطت ، فثار عليه كنانة وتدخل أبوسفيان وبعض وجهاء قريش وتفاوضوا في عودتها إلى مكة حتى تهدأ الأصوات ويخرج بعد ذلك بها سرًّا ، فأقامت ليالي في بيت أبي سفيان حتى تسلَّمها نساء بني هاشم ، ثم سلَّمها كنانة إلى زيد بن حارثة .

١- ج ٥ ص ٢٩ .

وسودة بنت زمعة زوجة الرسول ﷺ جاءت مع زيد ، ولما وصلت أدخلها الرسول في أحد البيوت التي بناها حول المسجد . وجاء مع زيد أيضاً ابنه أسامة وأم أيمن وولدها أيمن .

أما أسرة أبي بكر فقد خرج عبدالله بن أبي بكر بها ، ومنها عائشة التي كان قد عقد عليها ﷺ ، كما خرجت معه أسماء أختها ، وأم رومان أمها وأم أبي بكر .



س : نريد توضيحاً لمعنى قوله تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم : ٣ ، ٤] وهل منه الحديث النبوي ؟

ج : يقول المفسرون : إن النبي ﷺ لم ينطق عن الهوى والغرض في القرآن الذي يبلغه للناس ، فهو وحي من الله تعالى ، بمعنى أن النبي ﷺ إذا قال :قال الله كذا، فإن ذلك عن صدق ، وأن الكلام هو كلام الله ، وليس كلام محمد نسبه إلى ربه ليكسب قداسة ، فإنه ﷺ لا يكتم شيئاً مما أمر بتبليغه حتى لو كان على غير ما يحبه هو ، ولذلك لما نزل قوله تعالى في حقه ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ ﴾ بلغ ذلك ولم ينقص منه شيئاً مع أنه ضد هواه وميله ، لكن الحق لابد أن يتبع ويبلغ .

وهذا يلتقي مع قوله تعالى ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧ ﴾ [الحاقة:٤٣-٤٧] ومع قوله ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : ١٥] .

فالقرآن هو الوحي الذي يبلغه الرسول دون تغيير أو تبديل ، ودون تدخل هواه فيه ، أما ما يحكم به بين الناس فهو نطقه هو وكلامه هو ، إن كان حقًّا أيده الله فيه وسكت عنه ، وإن كان غير ذلك أرشده ، كما في قوله تعالى ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة : ٨٤] بعد أن صلى على قبر عبدالله بن أبيٍّ كبير المنافقين.

والحديث النبوي معناه من الله ولفظه من النبي ﷺ فهو لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، وإذا بلغه الرسول صحيحاً فبها ، وإلا صححه رب العزة ، وإذا لم يكن معنى الحديث من الله بل كان اجتهاداً ، التزم فيه الرسول المصلحة العامة ، وبخاصة فيما يمس الناس ، ويظهر ذلك في عرض مشروع الصلح في غزوة الخندق على السعدين ، وقالا : هل هو أمر من الله فنتبعه ، أو شيء تحبه فنوافقك عليه ، أو هو لمصحلتنا ؟ فقال «بل لمصلحتكم» فلم يوافقوا عليه [1] .



س : ما معنى قول النبي ﷺ لستُ فاحشاً ولا متفحشاً ؟

ج : النبي ﷺ على أعلى درجة من الكمال في فكره وسلوكه ، وكذلك الأنبياء والمرسلون قد اصطفاهم الله واختارهم من خلقه ليكونوا دعاة لهم إلى الخير ومبلِّغين عن الله رسالته ، وقد مدح الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وقد دعا ربه بقوله : اللهم كما حسَّنت خَلقي فحسن خُلقي .

ومن أخلاقه الحسنة عفة اللسان ونزاهة القول وطهارته ، وبخاصة في مخاطبته للناس وتعامله معهم وذلك نابع من صفاء قلبه وامتلائه بالرحمة ، وحسن ذوقه وأدبه ، وقد التزم ذلك السلوك حتى مع أعدائه ، وفي أحرج الأوقات ، فلما شج وجهه في غزوة أُحد وشق على أصحابه ذلك وقالوا : لو دعوت عليهم ، قال «لم أُبعث لعاناً ، ولكني بعثت داعياً ورحمة ، اللهم اغفر لقومي فإنهم لايعلمون».

وقد صح في البخاري أنه ﷺ لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ، وفي رواية : لم يكن سباباً ولا فاحشاً ولا لعاناً .

والفحش هو كل ما خرج عن حده حتى يستقبح ، وهو يدخل في القول والعمل والصفة ، لكن استعماله في القول أكثر والمتفحش هو الذي يتعمد ذلك ويكثر منه ويتكلفه . واللعن هو الطرد من رحمة الله . وقد حدث كما في رواية

١- انظر كتب السيرة .

البخاري أن رجلاً استأذن عليه ﷺ فلما رآه قال «بئس أخو العشيرة» أو بئس ابن العشيرة ، فلما جلس تطلق في وجهه وانبسط إليه ، فلما انطلق الرجل سألت عائشة رسول الله ﷺ عن سر ذمه ثم الانبساط إليه ، فقال «متى عهدتني فحاشاً ، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شرِّه».

وذلك الرجل هو عيينة بن حصن الفزاري الذي يطلق عليه الأحمق المطاع ، ولم يكن قد أسلم ، أو كان إسلامه ضعيفاً ، وتألفه بهذه المعاملة ليسلم قومه .

وهذا القول من النبي ﷺ ليس غيبة ، بل هو بيان لحقيقة الرجل حتى يعامل على أساسها ، فهو من باب النصح للناس وإرشادهم إلى الخير ، وفعله هذا يعد من باب المداراة في معاملة الناس ، وهي بذلك الدنيا لصلاح الدين أو الدنيا ، ولا شيء في ذلك ، بخلاف المداهنة وهي بذل الدين لصلاح الدنيا فهي مذمومة لأنها صفة المنافقين أو الكافرين .



س : هل صحيح أن النبي ﷺ طلب من الله أن يجعل دعاءه على المؤمن رحمة له؟

ج : روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر ، وإني قد اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه، فأيما مؤمن آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها له كفارة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة» وفي رواية لمسلم «فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس هو لها بأهل..» فإن قيل: كيف يدعو بدعوة على من ليس لها بأهل ؟ قيل -كما نقله ابن حجر عن المازري- المراد ليس بأهل لذلك عند الله في باطن الأمر لا على ما يظهر مما يقتضيه حاله وجنايته حين دعا عليه ، فكأنه يقول : من كان في باطن أمره عندك ممن ترضى عنه فاجعل دعوتي عليه -التي اقتضاها ما ظهر لي من مقتضى حاله حينئذ- طهوراً وزكاة .

وهذا صحيح لأن الرسول متعبد بالظواهر وحساب الناس في البواطن على الله. وما فعله كان اجتهاداً ، أو لم يكن مقصوداً ، بل هو مما جرت به عادة العرب في كلامها بلا نية ، كقوله لغير واحد «تربت يمينك» وهذا نادر من النبي فهو لم يكن فاحشاً ولامتفحشاً ولا لعاناً ولا منتقماً لنفسه [1] وفي تفسير القرطبي [2] : أن النبي ﷺ سَلَّمَ أسيراً إلى أم المؤمنين سودة ، فبات يَئِنُّ ، فسألته فقال : أنيني لشدة القِدِّ والأسر ، فأرخت من كتافه ، فلما نامت هرب ، فأخبرت النبي ﷺ فقال «قطع الله يديك» فلما أصبحت كانت تتوقع الآفة ، فقال ﷺ : «إني سألت الله أن يجعل دعائي على من لايستحق من أهلي رحمة، لأني أغضب كما يغضب البشر» ونزلت الآية ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء : ١١] ذكره القشيري أبو نصر رحمه الله . انتهى ولم يبين درجة هذه الرواية ، وهي خاصة بدعائه على أهله ، أما رواية مسلم فهي عامة في كل من يدعو عليه النبي ﷺ ، وهي أليق بما وصف به من الرحمة الشاملة لأهل بيته وغيرهم ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨] بل الشاملة لمن آمن به ومن لم يؤمن ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] بل الشاملة للحيوانات أيضاً ، والأخبار في ذلك كثيرة .



س : إن الله أعمى أبصار المشركين الواقفين حول بيت النبي ﷺ ليلة الهجرة حتى خرج من بينهم سالماً ، وإن العنكبوت نسجت على الغار فلم يستطيعوا رؤيته ؟ فهل هذا صحيح ؟

ج : من الثابت المقرر أن الله سبحانه وتعالى نجَّى رسوله ﷺ من كيد المشركين الذين صمموا على حبسه أو قتله أو نفيه من مكة كما قال تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

١- الزرقاني على المواهب ، ج٥ ص ٢٤١ .
٢- ج ١٠ ص ٢٢٦ .

﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال : ٣٠] والمراد بالمكر المنسوب إلى الله التدبير والإحكام ، وعبر به مشاكلة لما هو عند الكافرين .

ومن هذا التدبير المحكم أنه خرج سليماً من وسط الملتفين حول بيته ليلة الهجرة كما أجمعت على ذلك كتب السيرة ، وكذلك لم يمكنهم الله من رؤيته وهو في الغار كما نص على ذلك القرآن الكريم ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠].

لكن هل نجاته من المتربصين له حول بيته كانت بذكاء النبي ﷺ والتماسه مخرجاً من وراء البيت حتى لا يروه ، أو كان بِذَرِّ التراب على رءوسهم فأعمى الله عيونهم عنه ؟ الأمران محتملان ، والتماسه مخرجاً خلفيًّا من باب الأخذ بالأسباب ، وربما لم يجد هذا المخرج الآمن ، فتداركه الله بعنايته وأخرجه من بينهم سليماً ، والله قادر على كل شيء ، وهو القائل ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ورواية نثر الحصا على رءوسهم أقوى من رواية صعوده على الحائط من الجهة الخلفية ، فقد أثبتها ابن إسحاق ورواها ابن أبي حاتم وصححها الحاكم . والأمر كما قلنا ممكن ولم يرد ما ينفيه .

ونسج العنكبوت والشجرة والحمامتان عند الغار وردت في مسند البزار وفي مسند أحمد ، وبصرف النظر عن صحة الروايتين أو ضعفهما فإن ذلك ممكن وليس بمستحيل على قدرة الله ، والمهم أن الله صرف أبصار المشركين عنه سواء أكان بواسطة أو غير واسطة ، وكم لله من معجزات وخوارق عادات أكرم بها أنبياءه والمصطفين من عباده ، ولا داعي للإنكار على من يصدق ما نقلته كتب السنة والسيرة ، فليس فيه مساس بكرامة النبي ﷺ ، كما أن الذين ينفون ذلك لا خوف على إيمانهم ، والمهم أن نتبع ما تركه لنا الرسول من هداية .



س : سمعنا أن النبي ﷺ كان يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة ، هل هذا صحيح وما الفرق بينهما ؟

ج : الصدقة مال ونحوه يملَّك لمحتاج دون مقابل مشروط تدفع إليه الرحمة والشفقة ، ويقصد بها أول ما يقصد ثواب الله تعالى والهبة أو الهدية مال ونحوه

يملك دون مقابل مشروط في بعض الأحيان ، ولكن لغير محتاج ولا يقصد منه ثواب الله بقدر ما يقصد منه التكريم ، ولا تدفع إليه الرحمة والشفقة بقدر ما تدفع إليه المودة والمحبة .

وقد قال العلماء : إن كانت الهدية إلى صغير فلا ينتظر لها مقابل ، ولا يجب على المهدى إليه شيء ، وإن كانت إلى كبير فالغالب قصد المقابل ، والمكافاة عليها واجبة ، وإن كانت إلى نظير مماثل كان فيها احتمال للمقابل وللمكافأة عليها . وإن كانت هذه المكافأة مطلوبة في جميع الحالات ولو بالثناء والشكر ، ففي حديث أبي داود والنسائي وغيرهما «من أتى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه».

والهدية مشروعة بل مستحبة إن لم تكن لغرض غير مشروع ، وذلك لحديث البيهقي بإسناد حسن «تهادوا تحابوا» حتى لو كانت بين المسلم وغيره ، كما قبل النبي هدية المقوقس وأهدى بعض الكفار ويسن قبولها حتى لو كانت بسيطة ، ففي حديث البخاري «لو أهدي إليَّ كراع أو ذراع لقبلت» فكان يقبل الهدية ويثيب عليها كما رواه البخاري .

أما الصدقة فلم يكن يقبلها لأنها أوساخ الناس ويصحبها في الغالب ذلة ومهانة ومنة . فكان إذا أتى إليه بطعام من غير أهله سأل عنه ، فإن كان صدقة قال لأصحابه كلوا ولم يأكل ، وإن كان هدية أكل معهم ، وقد يكون الطعام في أوله صدقة فيحرم عليه أكله ثم يصير هدية فيحل له أن يأكله ، ثبت في البخاري ومسلم أنه ﷺ تصدق بشاة على نُسيبة أم عطية الأنصارية فأهدت إلى السيدة عائشة رضي الله عنها منها شيئاً، ولما سألها الغداء قالت ما عندنا إلا شيء مما تصدقت به أنت على نسيبة ، فقال «إنها بلغت محلَّها» أي زال عنها حكم الحرمة وصارت حلالاً بالهدية ، كما ثبت فيهما أيضاً مثل ذلك في طعام تصدق به على بريرة ثم أعطت منه عائشة فأكل منه النبي ﷺ وقال «هو عليها صدقة ولنا هدية».

قال العلماء : المعنى أن الصدقة إذا أخذها الإنسان صارت ملكاً له يتصرف فيها بالبيع والهبة وغيرها فيزول عنها وصف الصدقة ، والتحريم على الصفة لا على

العين، وقال الأبي في شرح مسلم، كون الصدقة أوساخ الناس ليس وصفاً ذاتيًّا بل هو وصف حكمي، جعل بالشرع وزال بالشرع.



س : ما المقصود بالصلاة على النبي، وما مدى مشروعيتها، وكيف تُؤدَّى، وما فضلها ؟

ج : يقول الله سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] يقول العلماء : الصلاة على النبي من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن المؤمنين دعاء، فالمطلوب منا أن ندعو الله أن يزيد من تعظيمه وإكرامه للنبي ﷺ.

وإذا كانت النصوص قد أكدت أن الله سبحانه أعطى لنبيه ﷺ من المكرمات ما لايمكن حصره إلا أن طلبنا هذا من الله لنبيه يعد تعبيراً عن مدى حبنا له، وحبنا للرسول علامة من علامات صدق الإيمان، فقد ورد في الحديث «لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده ومن الناس أجمعين» كما جاءت روايات أخرى في هذا المعنى. قال ابن عبدالسلام : ليست صلاتنا على النبي ﷺ شفاعة له، فإن مثلنا لايشفع لمثله، ولكن الله أمرنا بمكافأة من أحسن إلينا، فإن عجزنا عنها كافأناه بالدعاء، فأرشدنا الله لما علم عجزنا عن مكافأة نبينا - إلى الصلاة عليه.

وفي مدى مشروعية هذه الصلاة أقوال : أحدها أنها تجب في الجملة بغير حصر، لكن أقل ما يحصل به الإجزاء مرة، والثاني أنه يجب الإكثار منها من غير تقييد بعدد، والثالث تجب كلما ذُكر، والرابع تجب في كل مجلس، والخامس تجب في كل دعاء، والسادس تجب في العمر مرة، في الصلاة أو في غيرها، ككلمة التوحيد، والسابع تجب في الصلاة من غير تعيين المحل، والثامن تجب بعد التشهد، إلى غير ذلك من الأقوال.

وقال جماعة : إنها مستحبة وليست واجبة. والبحث في أدلة هذه الأقوال وترجيحها يمكن الرجوع إليه في كتب السيرة والحديث.

وهذه الصلاة تؤدى بأية صيغة كانت ، وأفضلها -كما قال كثير من العلماء هي الصلاة الإبراهمية التي تقال بعد التشهد الأخير في الصلاة ، لأن الأحاديث الصحيحة وردت في أنها هي التي علمها النبي ﷺ لأصحابه عندما سألوه عقب نزول الآية المذكورة ، وفي ألفاظ هذه الصلاة الإبراهمية خلاف يسير جاءت به الروايات.

والفوائد التي نجنيها من الصلاة على النبي ﷺ أكثرها فوائد دينية تتعلق بمضاعفة الأجر والثواب ، والأحاديث المرغبة فيها كثيرة ، منه قوله ﷺ «من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً» (١) ، وقوله «ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام» (٢) ، وقوله «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة» (٣). وقوله «البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي» (٤) .

هذا ، وقد قال النووي (٥) : إذا صلى أحد على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ، ولا يقتصر على أحدهما ، فلا يقل : صلى الله عليه فقط ولاعليه السلام فقط ، ويسن عند الدعاء أن يبدأ بالحمد لله أو بتمجيده والثناء عليه ثم يصلي على النبي ثم يدعو ثم يختم بالصلاة عليه ، والآثار في ذلك كثيرة .



س : معلوم أن الصلاة على النبي ﷺ مطلوبة ، فهل هناك صيغة خاصة لهذه الصلاة ؟

ج : صيغة الصلاة على النبي ﷺ وردت في أحاديث كثيرة ، وأفضلها اللهم صل على محمد ، قال النووي (٦) : الواجب هو : اللهم صل على محمد ، وإن شاء قال : صلَّى الله على محمد ، وإن شاء قال صلى الله على رسوله ، أو صلى الله على

١- رواه مسلم . ٢- رواه أبو داود .
٣- رواه الترمذي وقال : حديث حسن .
٤- رواه الترمذي وقال :حسن صحيح. .
٥- الأذكار ص ١٢٠ .
٦- الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار ، ص ٧٢.

النبي. وجاء مثل ذلك في حاشية الشرقاوي على «التحريم» للأنصاري [1] ونصه: أقلّ الصلاة على النبي وآله: اللهم صل على محمد وآله، ويكفي: صلى الله على محمد أو على رسوله أو على النبي وصيغة الماضي تفيد الإنشاء والدعاء، كما جاء في حديث رواه الترمذي وقال حسن صحيح «مَنْ صُنع إليه معروف فقال لفاعله جزاك الله خيراً فقد أبلغ الثناء».

وذكر النووي [2]، أنه يستحب الترضي والترحم على الصحابة والتابعين فمن بعدهم من العلماء والعباد وسائر الأخيار، فيقال: رضي الله عنه، أو رحمه الله، ونحو ذلك.



س: ما حكم الدين فيمن ينادون بعدم ترديد عبارة، «صل على النبي» أثناء الحديث بين اثنين، وهل إجابة الأمر بالصلاة على النبي هناك واجبة؟

ج: لا بأس أبداً بترديد عبارة «صل على النبي» أثناء الحديث أو في أية فرصة أخرى، فهي تذكير للناس بالصلاة على الرسول، لأن فضلها عظيم، والله أمرنا بها في قوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

والصلاة على النبي ﷺ واجبة بدليل الأمر بها. لكن قال العلماء، إن وجوبها مرة واحدة في العمر، وأما ما عدا ذلك فهي سُنة. وأوجبها الشافعية في التشهد الأخير من كل صلاة.

جاء في تفسير القرطبي للآية المذكورة: لا خلاف في أن الصلاة عليه فرض في العمر مرة، وفي كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التي لايسع المؤمن تركها، ولايغفلها إلا من لا خير فيه. قال الزمخشري: فإن قلت: الصلاة على

١- ج١ ص ١٩٢.
٢- الأذكار، ص ١٢٢.

رسول الله ﷺ واجبة أم مندوب إليها ؟ قلت : بل واجبة . وقد اختلفوا في حال وجوبها . فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره ، ومنهم من قال : تجب في كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره .



س : يقول الله سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] فهل يجوز أن نصلي ونسلم على غير النبي محمد ﷺ ؟

ج : جاء في كتاب «الأذكار» للنووي [١] ، أن إجماع من يعتدُّ به على جواز الصلاة واستحبابها على سائر الأنبياء والملائكة استقلالاً -أي يقال مثلاً : موسى عليه الصلاة والسلام ، جبريل عليه الصلاة والسلام - وأما غير الأنبياء فالجمهور أنه لايصلي عليهم ابتداء ، فلا يقال : أبو بكر ﷺ .

واختلف في هذا المنع ، فقال بعض أصحابنا -الشافعية- هو حرام ، وقال أكثرهم: مكروه كراهة تنزيه -أي لا عقوبة فيه- وذهب كثير منهم إلى أنه خلاف الأولى وليس مكروهاً ، والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه ، لأنه شعار أهل البدع ، وقد نهينا عن شعارهم ، والمكروه هو ما ورد فيه نهي مقصود . قال أصحابنا : والمعتمد في ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة في لسان السلف بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، كما أن قولنا «عَزَّ وجل» مخصوص بالله سبحانه وتعالى، فكما لا يقال : محمد عز وجل ، وإن كان عزيزاً جليلاً ، لايقال: أبو بكر أو علي صلى الله عليه ، وإن كان معناه صحيحاً .

واتفقوا على جعل غير الأنبياء تَبَعاً لهم في الصلاة ، فيقال : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصحابه وأزواجه وذريته وأتباعه ، للأحاديث الصحيحة في ذلك ، وقد أمرنا به في التشهد ولم يزل السلف عليه خارج الصلاة .

١- ص ١٢٠ .

وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجويني من أصحابنا : هو في معنى الصلاة فلايستعمل في الغائب ، فلا يفرد به غير الأنبياء ، فلا يقال : علي عليه السلام ، وسواء في هذا الأحياء والأموات ، وأما الحاضر فيخاطب به ، فيقال : سلام عليك أو سلام عليكم أو السلام عليك أو عليكم . وهذا مجمع عليه . انتهى كلام النووي.

وجاء في «غذاء الألباب للسفاريني» [1] اختلف العلماء في الصلاة على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، هل تجوز استقلالاً أو لا ، فقال ابن القيم في «جلاء الأفهام» هذه المسألة على نوعين ، أحدهما أن يقال : اللهم صل على آل محمد، هذا يجوز ، ويكون ﷺ داخلاً في آله ، فالإفراد عنه وقع في اللفظ لا في المعنى. والثاني : أن يفرد واحداً بالذكر ، كقوله : اللهم صل على عليٍّ أو حسن أو أبي بكر أو غيرهم من الصحابة ومن بعدهم ، فكره ذلك مالك ، قال : لم يكن ذلك من عمل من مضى، وهو مذهب أبي حنيفة وسفيان بن عيينة وسفيان الثوري ، وبه قال طاووس. وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لاتنبغي الصلاة إلا على النبي ﷺ ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار ، وهذا مذهب عمر بن عبدالعزيز : روى ابن أبي شيبة عن جعفر بن برقان قال : كتب عمر بن عبدالعزيز : أما بعد ، فإن ناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة ، وإن من القصَّاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل صلاتهم على النبي ﷺ ، فإذا جاء كتابي فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعاؤهم للمسلمين عامة .

وهذا مذهب أصحاب الشافعي ولهم ثلاثة أوجه ، أنه منع تحريم أو كراهة تنزيه أو من باب ترك الأولى وليس بمكروه ، حكاها النووي في الأذكار .

ثم قال : وقالت طائفة من العلماء : تجوز الصلاة على غير النبي استقلالاً ، قال القاضي أبو حسين الفرَّا من أئمة أصحابنا -في رؤوس مسائله- : وبذلك قال الحسن البصري ومجاهد ومقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان وكثير من أهل التفسير ، وهو

١-ج١ ص ٢١ .

قول الإمام أحمد رضي الله عنه ، مضى عليه في رواية أبي داود ، وقد سئل : أينبغي أن يصلى على أحد إلا النبي ﷺ ؟ قال : أليس قال علي لعمر : صلى الله عليك ؟ قال القاضي : وبه قال إسحاق بن راهويه وأبو ثور ومحمد بن جرير الطبري ، واحتج هؤلاء بصلاة النبي ﷺ على جماعة من أصحابه ممن كان يأتيه بالصدقة ، واختار ابن القيم الجواز ما لم يتخذه شعاراً أو يخص به واحداً إذا ذكر دون غيره ولو كان أفضل منه ، كفعل الرافضة مع علي دون غيره من الصحابة فيكره ، ولو قيل حينئذ بالتحريم لكان له وجه ، هذا ملخص كلامه .

ثم تحدث السفاريني عن السلام هل هو كالصلاة خلافاً ومذهباً أو ليس إلا الإباحة فيجوز أن يقول : السلام على فلان ، وفلان عليه السلام ؟ أما مذهبنا -الحنبلي- فقد علمت جوازه من جواز الصلاة على غير النبي ﷺ استقلالاً بالأولى، وأما الشافعية فكرهه منهم أبو محمد الجويني ، فمنع أن يقال : فلان عليه السلام ، وفرق آخرون بينه وبين الصلاة فقالوا : السلام يشرع في حق كل مؤمن حي وميت حاضر وغائب ، فإنك تقول : بلغ فلاناً مني السلام ، وهو تحية أهل الإسلام ، بخلاف الصلاة فإنها من حقوق الرسول ﷺ ، ولهذا يقول المصلي : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

ثم ذكر السفاريني أن الصلاة على غير النبي ﷺ وسائر الأنبياء والمرسلين والملائكة جائزة بطريق التبعية .



س : يزعم بعض الناس أنه لايجوز عند الصلاة على النبي ﷺ أن نقول «سيدنا محمد» وأنه قال «لاتسيِّدوني في الصلاة» ، فهل هذا الكلام صحيح؟

ج : الكلام هنا في ثلاث نقط ، في معنى السيد ومن يطلق عليه ، وفي حكم هذا الإطلاق وفي إطلاقه على النبي ﷺ .

أولاً : جاء في النهاية لابن الأثير «مادة سود» أن السيد يطلق على الرب والمالك والشريف والفاضل والكريم والحليم ومتحمل أذى قومه والزوج والرئيس

والمقدم. وأصله من ساد يسود فهو سَيْوِد ، فقلبت الواء ياءً لأجل الياء الساكنة قبلها ثم أدغمت . فهو يطلق على الإنسان بالمعنى الذي يناسبه من هذه المعاني ، بل إنه يطلق على غير الإنسان كما قال ابن الأثير «ثَنِيُّ الضأن خير من السيد من المعز» أي الـمُسِن وقيل الجليل وإن لم يكن مسنًّا .

أ - فقد أطلق على الأنبياء كما قال تعالى عن يحيى بن زكريا ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران : ٣٩] وجاء في النهاية لابن الأثير : قالوا : يا رسول الله مَنِ السيد ؟ قال : يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

ب- وأطلق على بعض الصحابة ، حيث قال النبي ﷺ في أبي بكر وعمر «هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين» (١). وقال عن الحسن والحسين «إنهما سيدا شباب أهل الجنة»(٢). بل قال في الحسن «إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين» (٣) .

وجاء في النهاية أنه قال في سعد بن عبادة «انظروا إلى سيدكم» وفي رواية للخطابي «انظروا إلى سيدنا هذا ما يقول» وقال للأنصار ، وقد أقبل عليهم سعد ابن معاذ «قوموا إلى سيدكم» (٤) ، وقد فهم بعضهم أنها سيادة على المهاجرين والأنصار معاً ، وعندها قال عمر : السيد هو الله كما في حديث عائشة عند أحمد (٥) وقال للأنصار «من سيدكم» ؟ قالوا الجَدّ بن قيس ، كما في النهاية وأطلق بعض الصحابة على بعضهم اسم السيد ، فقد أخرج الترمذي والحاكم عن عمر قال : أبو بكر سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله (٦). وكل ذلك في مقام التكريم والتشريف ،

١- رواه الترمذي وغيره (تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٢) .
٢- أخرجه الترمذي والحاكم .
٣- رواه البخاري (المرجع السابق ص ١٢٦).
٤- رواه البخاري .
٥- الزرقاني على المواهب ج٢ ص ١٣٤ .
٦- تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣١ .

وبمعنى الرئاسة والتقدم والمسئولية أيًّا كان حجمها ونوعها ، ففي النهاية أيضاً حديث «كل بني آدم سيد ، فالرجل سيد أهل بيته ، والمرأة سيدة أهل بيتها» [1] .

ج - وأطلق السيد على المالك للرقيق وغيره ، والنصوص في ذلك كثيرة ، ومنه حديث «والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته» كما أطلق على الزوج ، وفي القرآن عن امرأة العزيز ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف : ٢٥] وفي النهاية: قول عائشة عن الخضاب : كان سيدي رسول الله يكره ريحه . وحديث أم الدرداء : حدثني سيدي أبو الدرداء .

ثانياً : هذه الإطلاقات جائزة فقد أطلقها الله على يحيى ، وأطلقها النبي ﷺ ، كما أطلقها الصحابة والخلفاء الراشدون ، ولم ينكر عليهم أحد . وقول عمر بشأن سعد ابن معاذ ليس نقضاً لقول النبي ﷺ عنه ، بل هو لمنع استغلال هذا اللقب في إثارة العصبية بين المهاجرين والأنصار ، فهو نفسه قد أطلقه على أبي بكر كما تقدم .

ولما كان إطلاق اسم النسيد على الإنسان فيه معنى التكريم ، نهى النبي ﷺ عن إطلاقه على من لايستحقه . فقد روى أبو داود بإسناد صحيح [2] أنه قال «لاتقولوا للمنافق سيد فإنه إن يكن سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل» وهو توجيه لنا في الدقة عند إطلاق الأسماء والألقاب وفي كل شيء .

ثالثاً : وإطلاق السيد على النبي ﷺ جائز ، بل هو أدب وتكريم وليس عليه الصلاة والسلام بأقل قدراً وشرفاً ممن أطلق عليهم هذا اللقب من الأنبياء والصحابة وغيرهم . ومما يثبت ذلك :

أ - قوله «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة» [3]. قال ذلك امتثالاً لأمر ربه في قوله ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ آخر سورة الضحى ، ومن أجل التبليغ عن مكانته ، لا يريد

---

١ - قال الذهبي رواته ثقاة وهو يلتقي مع الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ...» .

٢ - رياض الصالحين ص ٦٢٤.

٣- رواه مسلم .

بذلك فخراً ، فهو المعروف بتواضعه . ولذلك جاء في بعض الروايات قوله «ولا فخر».

ب- لما أمر سهل بن حُنيف أن يتعوذ من الحمى قال للرسول : يا سيدي . ولم ينكر عليه [1].

وإذا كانت هناك مرويات ينهى فيها عن إطلاق اسم السيد عليه فهي إما غير صحيحة ، وإما أن يكون المراد منها عدم تفضيله بطريقة تعطيه فوق ما يستحقه من كونه بشراً رسولاً ولعدم استغلال ذلك في إثارة العصبية والفتنة ، والنصوص في ذلك كثيرة .

وقد جاء في نهاية ابن الأثير أن رجلاً قال له : أنت سيد قريش ، فقال «السيد الله» أي هو الذي تحق له السيادة الكاملة . كأنه كره أن يحمد في وجهه وأحب التواضع. ولما قالوا له : أنت سيدنا قال : قولوا بقولكم ، أي ادعوني نبيًّا ورسولاً كما سماني الله ، ولاتسموني سيداً كما تسمون رؤساءكم فإني لست كأحدهم ممن يسودكم في أسباب الدنيا .

هذا وقد شاع بين الناس ترديد هذا القول «لاتسيِّدوني في الصلاة» وهذا حديث مكذوب لا أصل له في السنة كما في كتاب : كشف الخفا والإلباس فيما يدور من الحديث على ألسنة الناس . وفيه غلط لغوي أيضاً ، لأن مادة السيادة واوية لا يائية، فالصواب «لاتسودوني» جاء في نهاية ابن الأثير من حديث قيس بن عاصم «اتقوا الله وسوِّدوا أكبركم» وفي حديث ابن عمر : ما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية ، قيل : ولا عمر ؟ قال : كان عمر خيراً منه ، وكان هو أسود من عمر ، أي أسخى وأعطى للمال أو أحلم منه . ويقول الشاعر :

وما سودتني عامر عن وراثة أَبى الله أن أسمو بأم ولا أب

فهذا الحديث مردود لفظاً ومعنى ، أو شكلاً وموضوعاً كما يقولون . وأما حكم قول «سيدنا محمد» فهو في غير العبادة لا مانع منه أبداً ، بل قيل بندبه لما فيه من

١- رواه أحمد في المسند والنسائي بسند قوي (الرد المحكم للمحدث الغماري).

التكريم الذي هو أهل له . وأما في الصلاة عند التشهد والصلاة على النبي ﷺ فعند الشافعية الأفضل الإتيان به -قال الرملي في شرح المنهاج : والأفضل الإتيان بلفظ السيادة كما قاله ابن ظهير ، وصرح به جمع وبه أفتى الشارح . لأن فيه الإتيان بما أمرنا به وزيادة الإخبار بالواقع الذي هو أدب ، فهو أفضل من تركه وإن تردد في أفضليته الإسنوي ، وأما حديث «لاتسيدوني في الصلاة» فباطل لا أصل له كما قاله بعض متأخري الحفاظ ، وقول الطوسي : إنها مبطلة غلط . ا هـ .

وعند الأحناف يندب الإتيان به في الصلاة على النبي فقط ، ويكتفى بالوارد في التشهد من غير زيادة ولا نقصان . قال في الدر المختار شرح تنوير الأبصار : وندب السيادة لأن زيادة الإخبار بالواقع عين سلوك الأدب فهو أفضل من تركه . اهـ.

هذا ، وقد جرى العرف بين الناس في أن يعظموا ذوي الأقدار بالألقاب والأوصاف التي ترفع شأنهم حتى لو كانوا غير مسلمين ، فلماذا نمنع في تعظيم رسول الله ﷺ وهو خير الناس جميعاً وأفضل الأنبياء والمرسلين ؟ على أن يكون ذلك بالقدر الذي لا يوقع في محظور .

جاء في الفتاوى الإسلامية [1] أنه لايجوز السيادة في الأذان عند الأئمة الثلاثة ، وتجوز عند الشافعي ، هذا ، والأفضل عند الشافعية الإتيان بالسيادة في التشهد وفي الصلاة على النبي ، وفي الأذان وغيره ، لأن فيها الإتيان بما أمرنا به وزيادة الإخبار بالواقع الذي هو أدب فهي أفضل من تركها وإن تردد الإسنوي في الأفضلية [2].



س: هل صحيح أن النبي ﷺ قال «اسألوا الله بجاهي ، فإن جاهي عند الله عظيم»؟

ج : حديث «اسألوا الله بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم» قال عنه ابن تيمية [3]، إنه كذب.

ومن يدعو ويقول :اللهم إني أسألك بجاه نبيك أو بجاه أحد من الصالحين قال العلماء : إن عبارته تحتمل القسم ، أي الحلف بجاه النبي ، والقسم بغير الله ممنوع ،

١- المجلد السابع ص ٢٥٧١ .
٢- ذكره الرملي في شرح المنهاج .
٣- الوسيلة ، ص ١٢٩.

وتحتمل أن تكون الباء للسببية، أي بسبب نبيك ، فإن كان المراد بسبب حبِّي لنبيك والإيمان به فلا غبار عليه ، لأن حب النبي والإيمان به عمل صالح تقرب به الداعي إلى الله ، فهو وسيلة لثوابه ورضاه ، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة : ٣٥] كما دعا المحبوسون في الغار ربهم بصالح أعمالهم فاستجاب دعاءهم ونجاهم ، وإن كان المراد بسبب ذاته أو منزلته من الله ووجاهته عنده فقد احتدم الخلاف بين العلماء في جوازه ومنعه .

ففريق ينكره لأن مجرد الجاه لا يعطى الشفاعة ، وعلى رأس هؤلاء ابن تيمية ، وفريق يجيزه بالنسبة للنبي دون غيره ، ومنهم العز بن عبدالسلام ، واستدلوا بحديث الأعمى الضرير الذي أمره النبي ﷺ أن يدعو الله بقوله «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة» فرد الله عليه بصره [1].

ومناقشة الأدلة تطول ، ويمكن الرجوع إليها في الجزء الثاني من كتاب «بيان من الأزهر الشريف» .



س : ما معنى قوله تعالى ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ ؟

ج : هذه الآية رقمها ٦٣ من سورة النور ، وهي تدل على إكرام الله تعالى لرسوله ﷺ الذي من مظاهره أنه خاطب جميع الأنبياء في القرآن بأسمائهم ، فقال ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [الأعراف: ١٩] ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ ﴾ [هود : ٤٨] ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ﴾ [هود : ٧٦] ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه : ١٧] ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [ص:٢٦] ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ [مريم : ٧] ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم:١٢] ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران:٥٥] ولم يخاطبه ﷺ إلا

---

١ - رواه الترمذي والنسائي والبيهقي والطبراني بأسانيد صحيحة .

بمثل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة : ٦٧] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ [الأحزاب : ٤٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل : ١ ، ٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر : ١ ، ٢] وأما ذكره بلا نداء فقد يكون باسمه ﷺ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح : ٢٩]، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب : ٤٠].

ومن أجل هذا حرم الله على الأمة نداءه باسمه مجرداً عن صيغة التكريم فقال ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي لا تجعلوا نداءكم له وتسميتكم إياه كما يكون لبعضكم مع بعض، ولكن قولوا : يا رسول الله أو يا نبي الله مع التوقير والتواضع وخفض الصوت لحرمة ذلك بقوله تعالى ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات : ٢] وهذا أدب معه حال حياته وبعد وفاته.

وهذا الأدب ينبغي التزامه، فهو ﷺ ليس أقل ممن يحترمون بكثرة الألقاب والأوصاف التي يعلم الله ما هو الباعث عليها.



س : ما هو السر في أن السنة الشريفة تدعو إلى استعمال اليد اليمني ؟

ج : إن الرسول ﷺ كان يحب التيامن في كل شيء وأمر به المسلمين وحرص على تنفيذه، روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يحب التيامن في تنعله وترجُّله وطهوره وفي شأنه كله.

وروى مسلم حديث «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه؛ فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله» قال الإمام النووي : وقاعدة التشريع المستمرة استحباب البداءة باليمين في كل ما كان من باب التكريم والتزين ؛ وما كان من ضدها استحب فيه التياسر وأوجب الشيعة التيامن في الوضوء.

وقد عرفت من الحديث أن النبي ﷺ نهى عن استعمال الشمال في الأكل والشرب، لأن ذلك من عادة الشيطان ، ويكره للإنسان أن يتشبه به ، هذا وجه من وجوه حكمة المشروعية في التيامن ؛ نص عليها الحديث الشريف فيجب قبول هذه الحكمة، ويسن الأخذ بهذا التشريع ، ولا يجوز الطعن فيه أو الاستنكاف منه ؛ حتى لا يلحق الطاعن مالحق الرجل الذي ورد فيه حديث مسلم ، فقد أكل رجل عند رسول الله ﷺ بشماله فقال له «كل بيمينك» قال لا أستطيع ؛ قال «لا استطعت ما منعه إلا الكبر» قال : فما رفعها إلى فيه ؛ وقد عرفنا أن الرجل تكبر على توجيه الرسول ولم يكن به عذر يحول دون الامتثال ؛ فدعا عليه الرسول عليه الصلاة والسلام.



س : هل صحيح أن النبي ﷺ كان يشد الحجر على بطنه من الجوع ؟

ج : روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أنه وجد الرسول ﷺ يوماً قد عصب بطنه بعصابة ، وذلك من الجوع .

وكان المسلمون الأولون يشدون الأحجار على بطونهم ليقيموا أصلابهم وذلك من الجوع .

ويروي أحمد بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لقد رأيتنا وما لنا ثياب إلا البُرُد المتفتقة ، وإنه ليأتي على أحدنا الأيام ما يجد طعاماً يقيم به صلبه ، حتى إن أحدنا ليأخذ الحجر فيشد به على أخمص بطنه ثم يشده بثوبه ليقيم صلبه .



س : يقول بعض الناس إن النبي ﷺ كان يطوي الأيام جوعاً ، فكيف ذلك مع ما ثبت من وفرة الخير عنده وادخاره لما يكفي سنة ؟

ج : النصوص كثيرة في رقة حال النبي ﷺ واكتفائه من العيش بالضروري منه ، فمما رواه البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها قولها : ما شبع آل محمد منذ

قدم المدينة من طعام بُر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض ، وما أكل محمد ﷺ أكلتين في يوم إلا إحداهما تمر ، وقولها : كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه ناراً ، إنما هو التمر والماء إلا أن نؤتى باللُّحيم . وقولها : إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار ، قيل لها : ما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كان لهم منائح -حيوانات ذات لبن- وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من أبياتهم فيسقيناه ، وقولها : كان فراش رسول الله ﷺ من أدم -جلد- وحشوه ليف.

ذلك في الوقت الذي ثبت فيه أنه ادخر لأهله قوت سنة ، وقسم بين أربعة أشخاص ألف بعير مما أفاء الله عليه ، وساق في عمرته مائة بدنة ، نحرها وأطعمها المساكين . وأمر لأعرابي بقطيع من الغنم ، وأن بعض أصحابه كانوا أغنياء بذلوا أنفسهم وأموالهم بين يديه فعندما أمر بالصدقة جاء أبو بكر بجميع ماله وجاء عمر بنصفه ، وجهز عثمان جيش العسرة بألف بعير .

فكيف نوفِّق بين رِقة حاله وبين ما أتيح له من نعيم ، وكذلك الحال مع أصحابه؟ والجواب : أن الرسول ﷺ اختار لنفسه العيش الكفاف مع إمكان أن يعيش أفضل وذلك ليضرب المثل لأمته حتى لايعتنوا بالدنيا وبخاصة ما وقع في قلبه أن الله سيفتح عليهم أبواب الغنى ، فهو يعدهم لعدم الفتنة ، وقد صح أنه قال «فو الله ما الفقر أخشى عليكم : ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم» وهو ﷺ كانت له بعض الأحوال يأخذ فيها حظه من متعة الحياة ، ولكن ليس بصفة دائمة ، للمعنى الذي ذكرته ، وكان أصحابه المهاجرون في أول أيامهم في أشد الحاجة إلى ما يقيم أودهم ، فقد تركوا أموالهم في مكة وقاسمهم إخوانهم الأنصار أموالهم ، ثم بعد ذلك أفاء الله عليهم من نعمه الكثيرة بالفيء والغنيمة .

لقد كان الرسول ﷺ يختار رقة الحال مع إمكان حصول التوسع والتبسط في الدنيا له : ففي حديث رواه الترمذي «عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً

فقلت : لا يا رب ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ، فإذا جعت تضرعت إليك ، وإذا شبعت شكرتك».

فالخلاصة أن الرسول وأصحابه كانوا في حاجة عند الهجرة فاضطروا إلى العيش المتواضع ، ولما فتح الله عليهم تمتعوا بنعمة الله وكان منهم الأغنياء ، والرسول ﷺ نفسه كان كذلك لكنه كان يؤثر رقة العيش عند توفر الإمكانات ليضرب المثل لأصحابه وبخاصة عندما يفتح الله عليهم كنوز الخيرات ، ذلك إلى أن القناعة بالقليل مع وجود الكثير فيها تمرين للنفس على مواجهة الاحتمالات ، فليست الحياة كلها رخاء وليست الأيام كلها راحة ، وفي تشريع الصيام ما يؤكد الحاجة إلى هذا التمرين العملي.



س : هل من الحديث ما يقال إن النبي ﷺ استأذن ربه في أن يستغفر لأمه فلم يأذن له ؟

ج : مع التنبيه على أن مثل هذا السؤال ليست له فائدة عملية ، لكن كثرة الإلحاح تحتم عليَّ أن أجيب ولو باختصار .

روى مسلم أن النبي ﷺ قال «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي» وقد تحدث العلماء عن والدي النبي ﷺ وقد ماتا قبل بعثته ، فقال جماعة : هما ناجيان كأهل الفترة ، لقوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء : ١٥] وقال آخرون إنهما ليسا مؤمنين ، واستدلوا بأدلة منها الحديث المذكور الذي يعززه قول الله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة : ١١٣] .

ورد عليهم الأولون بأن عدم الإذن في الاستغفار لا يدل على الكفر ، كما لم يصلِّ النبي ﷺ على الميت الذي عليه دَيْن مع أنه غير كافر ، وعدم الاستغفار للمشركين

مبني على تبين أنهم من أصحاب الجحيم ، وذلك بعد تبليغ الدعوة والكفر بها ، ووالدا الرسول ﷺ لم تبلغهما الدعوة الإسلامية لأنهما ماتا قبل البعثة .

والموضوع مبسوط في الكتب وقد لخصته في الجزء الخامس من موسوعة «الأسرة تحت رعاية الإسلام» ولا داعي للإفاضة فيه فقد ذهبا إلى ربهما وهو أعلم بحالهما ولا ينبغي أن يحملنا حسن الظن وحبنا للرسول على إيراد أخبار ينقصها الدليل القوي كإحيائهما بعد الموت للإيمان بالرسول .

والزرقاني حذَّر من ذكرهما بما فيه نقص ، لأن ذكر الأموات بما فيه نقص يؤذي الأحياء ، وفي الحديث «لاتؤذوا الأحياء بسبب الأموات» كما رواه الطبراني (1) ، ولاريب أن إيذاءه عليه الصلاة والسلام كفر يُقتل فاعله إن لم يتب، وهو رأي طيب.



س : هل صحيح أن الكوثر نهر في الجنة أعطاه الله للنبي ﷺ ؟

ج : يقول الله سبحانه ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ وللعلماء كلام كثير في المراد بالكوثر ، فقيل هو الخير الكثير ، وقيل هو النبوة ، وقيل غير ذلك ، وأقوى ما فسر به ما جاء في صحيح مسلم وغيره أن النبي ﷺ لما قرأ هذه السورة قال «أتدرون ما الكوثر» ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فقال «نهر وعدنيه ربي ، عليه خير كثير ، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم ، فيُختلجُ العبد منهم فأقول : ربِّ إنه من أمتي ، فيقول : ما تدري ما أحدث بعدك» ومعنى يختلج ينزع ويبعد ، وروى أحمد في مسنده أن رجلاً سأل النبي ﷺ ما الكوثر ؟ فقال «نهر في الجنة يسيل في حوضه ، لهو أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل» وجاء في صحيح البخاري أنه «نهر في الجنة يسيل في حوضه ، مجراه على الدر والياقوت» وفي سنن النسائي «ترابه المسك وحصاه اللؤلؤ والياقوت ، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من اللبن وأبرد من الثلج» .

١- ج ١ ص ١٨٥ .

وحوض النبي ﷺ أكبر الحياض وأكثرها واردة ، ففي حديث الترمذي «إن لكل نبي حوضاً ، وإنهم يتباهون بأكثرهم واردة ، وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة» وجاء في روايات البخاري ومسلم «أن حوض الرسول ﷺ مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء ، من شرب منه لا يظمأ أبداً» وفي رواية «حوضي مسيرة شهر وزواياه سواء ، وماؤه أبيض من الوَرِق» أي الفضة ، وفي رواية لهما أيضاً ما يفيد أن بعض من يردون الحوض من أمته يمنعون عنه ويذهب بهم إلى النار لأنهم ارتدوا على أدبارهم فلا يخلص منهم إلا مثل همل النعم ، أي ضوالها . ومعناه أن الناجي قليل كقلة الضالة من الغنم بالنسبة إلى جملتها [1].

تلك بعض الأحاديث التي فسرت الكوثر بأنه نهر في الجنة بهذه الأوصاف الطيبة، وهو يصب في حوض الرسول الذي يكون في المحشر قبل دخول الجنة ، وأن الذي سيشرب منه هم الثابتون على الإيمان والتقوى حتى الموت ، وأن مقدار ما يشربه المؤمن من الحوض يقدر بدرجة حبه للنبي ﷺ والحب له آثار في السلوك على هدى الأسوة الحسنة .



س : نعلم أن هناك شفاعة عظمى للنبي ﷺ يوم القيامة فهل له شفاعات أخرى وهل لغيره من الناس شفاعة وما حكم شفاعة أحد لغيره من الناس في الدنيا ؟

ج : الشفاعة هي التوسط لنيل مرغوب أو دفع مكروه ، وهي مأخوذة من الشفع وهو الزوج في العدد ، ومنه الشفيع ، لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعاً ، ويقال : ناقة شفيع إذا اجتمع بها حمل وولد يتبعها ، والشفيع من الناس من يتوسط لغيره ، والشفيع من العمل ما يوصل إلى المطلوب ، والمستشفع -بكسر الفاء- هو الطالب للشيء عن طريق الشفيع ، والمستشفع لديه هو من يملك تحقيق المطلوب ، والمشفع - بفتح الفاء - من قبلت شفاعته ووساطته .

---

١ - الزرقاني على المواهب ج٥ ص ٣٤ ، الترغيب ج٤ ص ١٤٤ ـ ١٤٧ .

والإنسان قد يتشفع بعمله الصالح إلى الشخص ليحقق له غرضه المشروع ، ولامانع من ذلك في الطلب والإجابة ، ففي الحديث «من أتى إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافتيموه» [١] وفي رواية للطبراني «من اصطنع إليكم معروفاً فجازوه ، فإن عجزتم عن مجازاته فادعوا له حتى تعلموا أن قد شكرتم فإن الله شاكر يحب الشاكرين» ومنه قوله تعالى في بر الوالدين ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء : ٢٤] .

وقد يتشفع بعمله الصالح إلى الله تعالى ، وهو في الفرائض واجب ، وفي المندوب سنة ، ومنه قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [المائدة : ٣٥] وفي الحديث الصحيح دعاء الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار أن يكشف الله عنهم بالأعمال الصالحة التي قبلها منهم وهي : بر الوالدين والعفة عن الفاحشة وعدم أكل حق الغير .

وقد يتشفع بإنسان له منزلة عند من يملك تحقيق غرضه ، ولا مانع من ذلك ما دام الغرض مشروعاً ، بل قيام الشفيع بذلك مندوب إليه ، فهو من باب التعاون على البر والتقوى ، والنصوص في ذلك كثيرة ، منها قوله تعالى ﴿ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ﴾ [النساء:٨٥] وقوله ﷺ : «ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته» [٢] وقوله : «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما أحب ، أو ما شاء» [٣] ، ومن النهي عن الشفاعة غير المشروعة عدم قبول الرسول ﷺ شفاعة أسامة بن زيد في عدم إقامة حد السرقة على المرأة المخزومية كما رواه البخاري ومسلم، يقول الحسن البصري في تفسير الآية السابقة : الحسنة ما يجوز في الدين ، والسيئة ما لا يجوز فيه ، ومما جاء في ثواب الشفاعة الحسنة قوله ﷺ «من دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثل» [٤] .

١- رواه أبو داود والنسائي واللفظ له .
٢- رواه البخاري ومسلم .   ٣- رواه البخاري ومسلم .
٤- رواه مسلم .

والكِفْل يستعمل في النصيب من الخير والشر ، قال تعالى ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد : ٢٨] والشافع يؤجر فيما يجوز وإن لم يشفَّع - يعني لم تقبل شفاعته - لأن الله قال ﴿ مَّن يَشْفَعْ ﴾ ولم يقل : يُشَفَّع .

هذه هي الشفاعة في الدنيا ، أما الشفاعة في الآخرة فهي ثابتة بالقرآن والسنة والإجماع وقبولها تكريم لمن قام بها ، ولا يقوم بها أحد إلا بإذنه سبحانه ، قال تعالى ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه : ١٠٩] وقال في شأن الملائكة ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء : ٢٨] والأحاديث في ذلك كثيرة سيأتي بعضها .

ومن يأذن الله لهم بالشفاعة كثيرون ، ورب العزة سبحانه له شفاعته ، ففي صحيح مسلم أن الشافعين يدخلون النار ليخرجوا منها أناساً استوجبوا العذاب ، وأن الله يقول : شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً ، أي فحماً ، الواحدة حممة - بفتح الحاء- وذكر القرطبي في تفسيره [1] ، أحاديث أخرى توضح كيف تكون الشفاعة .

ولا يقال في هذا الحديث : كيف يدخل الشافعون النار ليخرجوا منها أناساً ، فذلك دخول ليس للعذاب ، فيسلب الله منها خاصية الإحراق لهم كما قال للنار التي أعدها الكفار لإحراق إبراهيم عليه السلام ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء : ٦٩] مع العلم بأن قوانين الآخرة غير قوانين الدنيا ، والله على كل شيء قدير .

وممن يأذن الله لهم بالشفاعة من يأتي :

١- الملائكة ، بدليل الآية السابقة من سورة الأنبياء وحديث مسلم السابق ، وحديث ابن مسعود الآتي .

٢- الأنبياء ، بدليل حديث مسلم السابق ، وحديث ابن مسعود الآتي ، وعلى رأسهم سيدنا محمد ﷺ .

١- ج١٠ ص٣١٠ .

٣- الصديقون والشهداء ، لحديث البيهقي عن ابن مسعود مرفوعاً إلى النبي ﷺ «يشفع نبيكم رابع أربعة ، جبريل ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم نبيكم ، ولا يشفع أحد في أكثر مما يشفع فيه نبيكم ، ثم الملائكة ثم الشهداء» وأخرج الترمذي والحاكم وصححه البيهقي حديث «ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم» قالوا : سواك يا رسول الله قال «سواي» وأخرج البيهقي أيضاً هذا الحديث «يقال للرجل : يا فلان قم فاشفع ، فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة ولأهل البيت والرجل والرجلين على قدر عمله».

٤- الصالحون الذين يصنعون المعروف للناس ، فقد أخرج مسلم حديثاً طويلاً عن شفاعة المؤمنين لإخوانهم الذين استوجبوا النار ، وجاء في شرح ذلك أن شفاعة المؤمنين هي لمن دخل النار ، فيأمر الله الشفعاء بإخراجهم ، أو لمن استوجب النار ولم يدخلها بعد حيث يكون في الصف المستعد لدخولها ، كما جاء في حديث ابن ماجه من شفاعة رجل في الصف الطيب لآخر في الصف الثاني سقاه أو قضى له حاجة في الدنيا ، كما ذكره القرطبي في تفسير آية الكرسي.

٥- حفاظ القرآن العاملون به ، فقد أخرج الترمذي وابن ماجه عن علي رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ «من قرأ القرآن فاستظهره وأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله الجنة وشفعه في عشرة من أهل بيته كلهم وجبت له النار».

٦- الأطفال الذين ماتوا ولم يبلغوا الحنث يعني حد التكليف ، فقد روى النسائي بإسناد جيد «أن الأطفال يقفون يوم القيامة فيقال لهم ادخلوا الجنة ، فيقولون : حتى يدخل آباؤنا فيقال : ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم» وتؤيده أحاديث صحيحة رواها مسلم وغيره فيمن دفنت ثلاثة أنها احتظرت بحظار شديد من النار . في حياة الحيوان (دعموص) روى مسلم عن أبي حسان قال : قلت لأبي هريرة رضي الله عنه : إنه قد مات لي اثنان من الولد ، فهل أنت محدثي عن رسول الله ﷺ بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال : نعم «صغاركم دعاميص الجنة» أي لا يمنعون من بيت ، «فيلقى أحدهم أباه أو قال أبويه فيأخذ بيده أو بثوبه كما آخذ أنا ببعض ثوبك هذا ، فيقول : هذا فلان ، فلا يتناهي حتى يدخل هو وأبوه الجنة » .

هذا والشفاعة حق كما ذهب إليه أهل السنة ، وأنكرها المعتزلة الذين يقولون بخلود المؤمنين العاصين في النار ، وأما قوله تعالى ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر : ١٨] فالمراد بهم الكافرون ، وأجمع المفسرون على أن آية ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة : ٤٨ ، ١٢٣] هي في النفس الكافرة .

شفاعات النبي ﷺ :

لا شك أن النبي شفيع الخلائق يوم القيامة بشفاعة كبرى وهي المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، فهو أعظم الشفعاء قدراً وأعظمهم جاهاً عند الله سبحانه، وقد قال تعالى في موسى عليه السلام ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩] وعن المسيح عليه السلام ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ [آل عمران:٤٥].

وهذه الشفاعة ينتفع بها كل أهل الموقف من المسلمين ومن غيرهم ، كما ورد في الحديث المتفق عليه ، وذلك لتخفيف هول الموقف وبدء الحساب بعد أن يطلب أهل الموقف الشفاعة من آدم ونوح وإبراهيم وعيسى فلا يجابون ، ويقبلها الرسول ﷺ ويسجد تحت العرش ثم يناديه ربه : ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع ، فيقول: يا رب أمتي ، فيستجيب الله ويخف الهول ويبدأ الحساب ، وفي الحديث المتفق عليه «لكل نبي دعوة مستجابة ، وقد ادخرت دعوتي لأمتي يوم القيامة».

وهناك شفاعات أخرى له ﷺ لا يستفيد منها الكافرون والمنافقون إذا ماتوا على كفرهم ونفاقهم ، لأن الله لايغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن شاء ، ومغفرته لمن يشاء إما بدون شفاعة أحد تفضلاً منه ورحمة ، وإما بشفاعة غيره ممن أذن الله لهم بها.

ومن الأدلة على حرمان الكافرين والمنافقين من شفاعته ﷺ .

١ - قوله تعالى في الكفار ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ [المدثر : ٤٨] .

٢ - قوله تعالى في أبي طالب عم النبي ﷺ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة : ١١٣].

٣ - قوله ﷺ لما نزل قوله تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] حيث نادى قومه أن ينقذوا أنفسهم من النار ، فإنه لا يغني عنهم من الله شيئاً[١].

٤ - حديثه في أن الله لم يأذن له أن يستغفر لأمه ، وأذن له في زيارة قبرها فقط [٢].

٥ - حديثه في عتاب إبراهيم عليه السلام لأبيه يوم القيامة على عصيانه وأن الله لم يحقق له دعاءه [٣] ، وهو ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ [الشعراء :٨٧] .

والكفار درجات متفاوتة في الكفر ، وبالتالي متفاوتون في نوع العذاب في النار ، وإن كانوا مخلدين فيها ، وإذا كانت للأنبياء شفاعة فيهم فهي للتخفيف من العذاب لا من النجاة منه .

فإذا كان في الكفار من خف كفره بسبب من الأسباب كنصرته للرسول ومعونته فإن شفاعته تنفعه في تخفيف العذاب عنه كما جاء في البخاري ومسلم عن العباس ابن عبدالمطلب أنه قال قلت : يا رسول الله ، فهل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال : «نعم هو في ضحضاح من نار لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار» وفي لفظ «نعم وجدته في غمرات من نار فأخرجته إلى ضحضاح» وفي رواية «إن أهون أهل النار عذاباً أبو طالب ، وهو متنعل بنعلين من نار».

أما شفاعة النبي ﷺ للمؤمنين أو دعاؤه لهم فهو نافع باتفاق المسلمين ، سواء في ذلك شفاعته لأهل الذنوب حتى لا يعاقبهم الله عليها أو حتى يخفف العقوبة عنهم، وكذلك شفاعته لغير المذنبين بزيادة الحسنات ورفع الدرجات .

يقول القاضي عياض : شفاعات النبي ﷺ يوم القيامة خمس : الأولى : العامة ، وهي المقام المحمود ، والثانية : في إدخال الجنة بغير حساب ، والثالثة : في قوم استوجبوا النار بذنوبهم ، فيشفع لهم حتى لا يدخلوها ، وقد أنكرها الخوارج والمعتزلة . والرابعة : فيمن دخل النار من المذنبين ، فيخرجون بشفاعته وشفاعة غيره من الأنبياء والملائكة والمؤمنين كالشفاعة السابقة ، والخامسة : في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها ، وهذه لاتنكرها المعتزلة ، كما لا تنكر الشفاعة العظمى[٤].

١- رواه مسلم .
٢- رواه مسلم .
٣- رواه البخاري .
٤- تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٣١٠ .

هذا وهناك شفاعات كثيرة للنبي ﷺ أوصلها بعضهم إلى ثلاث عشرة بعضها مؤيد بأحاديث صحيحة ، وهذا القدر كله يؤيد ثبوت الشفاعة له عليه الصلاة والسلام ويمكن الرجوع في ذلك إلى شرح الزرقاني للمواهب اللدنية [1].



س : قال تعالى ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ وفي بعض الأحاديث «وابعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته» فهل التعبير في الحديث مخالف من جهة اللغة لتعبير القرآن بقوله «مقاماً» ؟

ج : قال تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء : ٧٩] وجاء في حديث البخاري وأصحاب السنن «من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة» فتعبير الحديث هنا متفق مع تعبير القرآن في أن كلمة «مقاماً» منكَّرة وليست معرَّفة.

لكن جاء في رواية النسائي بلفظ «المقام المحمود» فالحديث يروى بالوجهين : التنكير والتعريف .

قال العلماء في رواية «مقاماً» إنه نصب على الظرفية ، أي : وابعثه يوم القيامة فأقمه في مقام محمود ، أو على أنه مفعول به ضُمِّن معنى ابعثه أقمْه ، والأولى أنه مفعول مطلق ويجوز أن يكون حالاً بعد حال ، أي ابعثه ذا مقام عظيم ، قال الطيبي : وإنما نكره لأنه أفخم وأجزل كأنه قيل : مقاماً وأي مقام . أي مقاماً محموداً بكل لسان تكلُّ عن أوصافه ألسنة الحامدين ، وقال النووي : إن الرواية ثبتت بالتنكير ، كأنها حكاية للفظ القرآن [2] .

ومن هنا لايجوز لأحد أن يقول : إن رواية «مقاماً» خطأ .

١- ج ٨ ص ٣٦٥ وما بعدها .
٢- فتح الباري ج ٢ ص ١١٣ .

ومجيء المعرفة بعد النكرة جاء في قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ① ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ②﴾ والجمهور على أنها ليست وصفاً، بل هي خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو الذي جمع. وفي الحديث: هو الذي وعدته. ويجوز أن تكون بدلاً من النكرة، لأنه لايشترط فيه التطابق في التعريف والتنكير. مثل ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢،٥٣] وأن تكون النكرة بدلاً من المعرفة مثل ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ﴾ [العلق: ١٥،١٦] والبعض يجيز أن توصف النكرة الموصوفة نعتاً ثانياً بالمعرفة، والنكرة في الآية والحديث وصفت قبل كلمة «الذي» فإن «همزة» وصفت بـ «لمزة» ومقام وصف بمحمود. فيجوز أن تكون «الذي نعتاً ثانياً». من رد الدكتور علي أحمد طلب أستاذ اللغويات بجامعة الأزهر [1].



س: هل من الحديث ما يقال: حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة» ؟.

ج: هذا حديث رواه النسائي عن أنس والطبراني في معجمه الأوسط والحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط مسلم. وقال الحافظ: إسناده حسن عن أنس.

وحب الرسول ﷺ للنساء ليس حبًّا شهوانيًّا بمعنى الاهتمام الزائد بالمتعة الجنسية على شاكلة المترفين اللاهين، فنحن نعلم رقة حاله وشغله الدائم ليل نهار بالدعوة ومشكلاتها، واهتمامه بقيام الليل حتى تتورم قدماه، فهو حب طبيعي كحب أي رجل لامرأة، لأنه مكتمل الرجولة لا عيب فيه، ولكنه حب بقدر، لايطغى على الناحية الروحية عنده، ولذلك جاء في الحديث «وجعلت قرة عيني في الصلاة» فالصلاة أعظم محبوب عنده، ومن كان كذلك فهمه في النساء لم يكن بالدرجة التي تصرفه عن قرة عينه وهي الصلاة والعبادة.

وقد يكون الحديث ردًّا على بعض من يرون أن مقياس التدين هو الرهبانية والتبتل والامتناع عما أحل الله من الطيبات، فهو ﷺ أخشى الناس لله وأتقاهم له،

١- الأهرام ٢٠/ ٧/ ١٩٩٩م.

ولكنه يصوم ويفطر ويقوم ويرقد ويتزوج النساء كما صح في الحديث المتفق عليه الذي قال في نهايته «ومن رغب عن سنتي فليس مني» . وذلك إلى جانب عطفه ورحمته بالنساء عامة ، وقد أوصى بهن كثيراً ، والنصوص في ذلك كثيرة [1] .



س : ما هو عدد وأسماء زوجات النبي ﷺ ، ولماذا أحل الله له أكثر من أربع؟

ج : المتفق عليه من زوجاته ﷺ إحدى عشرة ، توفيت اثنتان منهما حال حياته ، وهما خديجة وزينب بنت خزيمة ، وتوفى عن تسع نسوة . والقرشيات من زوجاته ست ، والعربيات من غير قريش أربع ، وواحدة من غير العرب وهي صفية من بني إسرائيل .

فالقرشيات هن :

١- خديجة بنت خويلد ، تجتمع مع النبي ﷺ في جده قُصَي . وهي أول من تزوج وأنجبت له كل أولاده : عبدالله والقاسم ، زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، أما إبراهيم فهو من مارية القبطية . توفيت بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين على الأصح.

٢- سَوْدة بنت زَمْعة ، تجتمع مع النبي ﷺ في جده لؤي بن غالب تزوجها بعد وفاة خديجة بقليل ، عقد عليها بمكة ، وقيل : دخل عليها بمكة أو المدينة ، وتوفيت سنة ٥٤ هـ .

٣- عائشة بنت أبي بكر الصديق ، تجتمع مع النبي ﷺ في كعب بن لؤي ، عقد عليها بعد عقده على سودة ودخل بها في المدينة وتوفيت سنة ٥٦ هـ أو بعدها .

٤- حفصة بنت عمر بن الخطاب ، تجتمع مع النبي ﷺ في كعب بن لؤي . تزوجها في السنة الثانية أو الثالثة بعد الهجرة ، وتوفيت سنة ٤٥ هـ .

٥- أم سلمة ، واسمها هند ، وقيل : رملة . تجتمع مع النبي ﷺ في كعب بن لؤي، تزوجها بعد وفاة زوجها في السنة الرابعة من الهجرة وتوفيت سنة ٥٨ هـ أو بعدها.

٦- أم حبيبة ، واسمها رملة ، وقيل هند . وهي بنت أبي سفيان تجتمع مع النبي ﷺ في كعب بن لؤي . عقد عليها سنة سبع من الهجرة وهي في الحبشة ، وتوفيت سنة ٤٤ هـ وقيل غير ذلك .

١- انظر الجزء السادس من موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام ص ١٦٨ .

والعربيات هن :

١- زينت بنت جحش : أبوها من مضر ، وأمها قرشية وهي أميمة بنت عبدالمطلب ابن هاشم تزوجها بعد طلاقها من زيد بن حارثة ، سنة ٣ هـ أو ٤ هـ أو ٥ هـ وتوفيت سنة ٢٠ هـ أو بعدها .

٢- جويرية بنت الحارث المصطلقية ، وقعت في الأسر في غزوة بني المصطلق ، فخلصها النبي وتزوجها سنة خمس أو ست من الهجرة ، وتوفيت سنة ٥٠ هـ أو بعدها .

٣- زينب بنت خزيمة ، كانت تلقب في الجاهلية بأم المساكين ، تزوجها سنة ثلاث أو أربع من الهجرة ، وتوفيت في السنة الرابعة ، ومدة مكثها عند النبي شهران أو ثلاثة ، وقيل ثمانية .

٤- ميمونة بنت الحارث ، تزوجها في السنة السابعة من الهجرة في عمرة القضية ، وتوفيت في «سرف» سنة ٥١ هـ .

أما غير العربيات فهي صفية بنت حُيَي بن أخطب من يهود بني النضير ، وقعت في الأسر فاشتراها النبي ﷺ من دحية وتزوجها في غزوة خيبر سنة سبع من الهجرة ، وتوفيت سنة خمسين وقيل بعد ذلك وتزوج النبي ﷺ غير هؤلاء ولم يدخل بهن . وأما مارية القبطية فلم تكن زوجة حرة معقوداً عليها ، وإنما كان النبي ﷺ يتمتع بها بملك اليمين ، وولدت له إبراهيم وتوفيت سنة ١٢ أو ١٦ هـ .

وقد تزوج النبي ﷺ هذا العدد على عادة العرب وغيرهم من تعدد الزوجات ، ولم تنزل الآية التي حددت التعدد بأربع إلا بعد أن تزوجهن جميعاً ، وقد نهاه الله عن الزيادة عليهن وأمره بإمساكهن جزاء على اختيارهن له مع رقة عيشه وزهده ، قال تعالى ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ [الأحزاب : ٥٢] كما حرم على أحد أن يتزوج واحدة منهن بعد النبي ﷺ فقال : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ [الأحزاب : ٥٣] ولهذا لم يطلق واحدة منهن حتى تظل في كنفه ويكن أزواجه في الجنة .

وما كان زواجه بهن عن شهوة جنسية طاغية ، بل كان لمعان إنسانية كريمة يطول بيانها ، ولو كان لشهوة لاختارهن أبكاراً ، لكنهن كن جميعاً ثيبات ما عدا عائشة ، ولو كان لشهوة ما رفض كثيرات عرضن أنفسهن عليه هبة دون مقابل ، وكان زواج كل واحدة بإذن ربه فقد روي «ماتزوجت شيئاً من نسائي ، ولازوجت شيئاً من بناتي إلا بوحي جاء لي به جبريل عن ربي عز وجل» ولايقدح في ذلك قوله «حبب إليَّ من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة» فهو حب رحمة ، جعلته ﷺ يوصي بهن كثيراً حتى آخر أيامه [1] .



س : لماذا جعل الله زوجات النبي ﷺ أمهات المؤمنين في قوله ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ ولم يجعل النبي أباهم في قوله ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾؟.

ج : جعل الله سبحانه زوجات الرسول أمهات المؤمنين بقوله ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب : ٦] ولا يقال لهن : أمهات المؤمنات كما روى البيهقي في سننه عن عائشة رضي الله عنها ، وذلك في نطاق خاص وليس في كل الأحوال ، فيحرم التزوج منهن بقوله تعالى ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

فالعلة هنا هي الزوجية للرسول وليست الأمومة ، ولسن كالأمهات في النظر إليهن والخلوة معهن ونقض الوضوء باللمس والتوارث وفي زواج بناتهن ، فقد تزوج علي فاطمة وعثمان من رقية ثم من أم كلثوم ، وهن بنات السيدة خديجة أم المؤمنين.

والرسول ﷺ ليس أبا لأحد من رجال المؤمنين ، فقد مات أولاده الذكور منها قبل التكليف بأوامر الرسالة ، والآية نصت على أنه ليس أبا من النسب لأي رجل من المؤمنين وإن كان أبا روحيًّا بالرسالة والتعليم كما جاء في الحديث «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده» [2] .

١- توضيح كل ذلك في «الأسرة تحت رعاية الإسلام» ص٦ .

٢- رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن أبي هريرة ، ورواه أبو يعلى عن عائشة ، وفي سنده مصعب بن ثابت ، وثقه ابن حبان وضعفه جماعة

وسبب نزول هذه الآية أن الإسلام أبطل التبني ، وكان الرسول متبنياً زيد بن حارثة من قبل ، ولما بطل التبني وتزوج مطلقته زينب بنت جحش أرجف الكفار وقالوا : محمد تزوج امرأة ابنه ، فبيَّن الله أن محمداً ليس أباً من النسب لزيد ولا لأحد من رجال المؤمنين ، ومن هنا يصح له أن يتزوج مطلقة من تبناه ، فهو ليس ابناً له من النسب .



س : هل أسلمت مارية قبل زواجها بالرسول ﷺ أم بعد الزواج منه ، وهل أعتقها وهل عقد عليها أم كانت من بين ما ملكت يمينه ، ولماذا لم تخاطب بأم المؤمنين كبقية زوجات النبي ﷺ ؟

ج : مارية القبطية المولودة في «حَفْن» المسماة الآن بالشيخ عبادة بالمنيا مقابل الأشمونين ، أهداها المقوقس «جريج بن مينا» القبطي سنة سبع من الهجرة إلى النبي ﷺ هي وأختها «سيرين» عندما عرض عليه حاطب بن أبي بلتعة كتاب النبي ﷺ بدعوته إلى الإسلام ، وفي الطريق إلى المدينة المنورة عرض عليها حاطب الإسلام فأسلمت ، وكذلك أسلمت أختها التي وهبها النبي ﷺ إلى حسان بن ثابت.

وكان الرسول ﷺ يتسرى بها ، أي يتمتع بها بملك اليمين ، ولم يعتقها ولم يتزوجها بعقد ، وولدت له إبراهيم الذي مات صغيراً ، والولد من الأمَة المتمتع بها بملك اليمين يكون حرًّا ، ومع أنها ليست زوجة معقوداً عليها كان يحجبها كما يحجب زوجاته ، وقد ظلت أمة لكن تحررت بعد موت النبي ﷺ كما تُحرر كل أم ولد.

ولعدم العقد عليها لا يطلق عليها اسم زوجة ، ولا يطلق عليها لقب «أم المؤمنين» لأن الله تعالى قال ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب : ٦] .



س : هل هناك حكمة في أن الله سبحانه كتب على أبناء سيدنا محمد ﷺ الوفاة في حياته؟

ج : يقال إن إبراهيم عليه السلام رزقه الله بعد سِنِّ الشيخوخة بولدين ، هما إسماعيل وإسحاق ، وجعل النبوة في أبناء إسحاق ، الذي أنجب يعقوب وجعل

من ذريته أنبياء بني إسرائيل ، وكانت النبوة موضع الرجاء في توارث الأبناء لها ، ومن ذلك قول الله تعالى ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل : ١٦] وقوله عن زكريا الذي أعطاه الله يحيى بعد أن بلغ من الكبر عتيا ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم : ٥ ، ٦] فبشره الله ﴿بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران : ٣٩] وشاء الله ألا ينجب يحيى ، وكان عيسى عليه السلام آخر الأنبياء من ولد إسحاق ، وكانت ولادته خارقة للعادة حيث لم يكن له أب ، وقد رفعه الله إليه ولم يتزوج ولم ينجب ، وكان هذا التدبير من الله سبحانه تمهيداً لولادة خاتم الرسل محمد ﷺ ، وبعثه الله للعرب استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام حين أسكن إسماعيل وأمه مكة وعمرت بالعرب وبعث فيهم إسماعيل ولم يبعث فيهم أحداً من ولده حتى كان سيدنا محمد ﷺ .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٨ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٢٩﴾ [البقرة:١٢٧ - ١٢٩].

فبرفع سيدنا عيسى انتهت النبوة من فرع إسحاق ، وبرسالة سيدنا محمد انتقلت النبوة إلى فرع إسماعيل عليه السلام .

وشاء الله أن يموت أبناء سيدنا محمد في حياته وهم صغار حتى لا يفتن بهم بعض المحبين ، ويظنوا أن النبوة سيرثها أحد أبنائه كما كانت تورث في بني إسرائيل ولذلك أكدت النصوص أن الرسالة ختمت ولا نبي بعده ﷺ وبهذين الأمرين لم يكن هناك طمع في نبوة بعده ، وظهر خطأ من تنبئوا في حياته وبعد مماته .

والسيدة فاطمة رضي الله عنها هي التي أنجبت من سيدنا علي رضي الله عنه سيديِّ شباب أهل الجنة : الحسن والحسين ، ولم يزعم أحد أنهما ادعيا النبوة أو طمعا فيها وإذا كان ﷺ أوصى بأهل بيته خيراً في نصوص سجل بعضها في القرآن ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ

﴿أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى : ٢٣] فإن حب الناس لآل البيت وإن تغالى بعضهم فيه لكن لم يقبل أحد أن يكون منهم نبي ، إلى جانب أن ميراث النبوة كان عن طريق الأبناء لا البنات .

ولعل فيما ذكرته تظهر الحكمة في أن أبناء النبي ﷺ ماتوا صغاراً وفي حياته وأما حديث «لو عاش إبراهيم لكان نبيًّا» فهو باطل .



س : هل ورد حديث يقول «لو بقى إبراهيم - أي ابن النبي ﷺ - لكان نبيًّا»؟

ج : جاء في شرح الزرقاني للمواهب اللدنية [1] ، أنه روي من حديث أنس بن مالك موقوفاً عليه -أي غير مرفوع إلى النبي ﷺ- أنه قال : «لو بقى إبراهيم ابن النبي لكان نبيًّا ، ولكن لم يبق ، لأن نبيكم آخر الأنبياء» أخرجه ابن عبدالبر . وقال الطبري : إنما يقوله أنس عن توقيف ، أي نص من الشارع يخص إبراهيم . فلا يلزم أن يكون ابن النبي نبيًّا ، بدليل نوح وابنه ، وكذا آدم وأولاده ، لم ينبأ منهم إلى شيث . وفي بعض الروايات لابن ماجه والبيهقي «لو عاش لكان صدّيقاً نبيًّا ، ولو عاش لأعتقت أخواله من القبط ، وما استرق قبطي» وسنده ضعيف ، وصححه بعضهم .



س : لماذا سيمت غزوة ذات الرقاع بهذا الاسم ، وما اسم الرجل الذي حدثت معه واقعة السيف الذي أراد به قتل النبي ﷺ ؟

ج : جاء في «المواهب اللدنية» للقسطلاني وشرحها للزرقاني أن غزوة ذات الرقاع سميت بذلك لأنهم رقعوا فيها راياتهم ، أو باسم شجرة في ذلك الموضع كانت العرب تعبدها وتربط بها خرقاً لقضاء مصالحهم . وقيل : لأن الأرض التي نزلوا بها كان بها بقع سود وبقع بيض كأنها ثوب مرقع ، وقيل : لأن خيلهم كان بها سواد وبياض .

١- ج ٣ ص ٢١٤ .

وأصح الأقوال ما رواه البخاري ومسلم أن قلة الجِمال كانت تضطر بعضهم إلى المشي فيعصبون على أرجلهم رقاعاً تخفف عنهم ألم المشي على الأرض الصعبة .

والرجل الذي أراد قتل الرسول ﷺ وهو نائم تحت الشجرة وسقط السيف من يده كما في البخاري - اسمه غَوْرَث بن الحارث ، وقيل «غَوْرِث» وقيل «غُوَيْرِث» بالتصغير.

وحدث مثل ذلك في غزوة غطفان «ذي أمر» بناحية نجد ، والرجل اسمه «دُعْثُور» فهناك قصتان لرجلين . وقيل : هي قصة واحدة والأسماء تطلق على الرجل كألقاب.



س : هل من الحديث ما يقال «فُضلت على آدم بخصلتين ، كانت زوجته عوناً له على المعصية وأزواجي أعوان لي على الطاعة ، وكان شيطانه كافراً وشيطاني مسلم لا يأمر إلا بالخير» ؟

ج : هذا الحديث رواه الديلمي وابن الجوزي في الواهيات عن ابن عمر ، كما في الجامع الكبير للسيوطي ، فهو حديث ضعيف جدًّا . وليس هناك نص قاطع في الثبوت والدلالة على أن حواء هي التي أغرت آدم بالمعصية وصحيح أن شيطان آدم كفر وهو إبليس ، وشيطان الرسول وهو القرين أسلم كما ثبت في حديث رواه مسلم «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن» قالوا : وإياك يا رسول الله؟ قال «وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير» .



س : ما مدى صحة القول بأن النبي ﷺ حي يرزق ، وهل يتعارض مع قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠] .

ج : إذا كان الحديث قد ورد في أن الأنبياء أحياء في قبورهم ولا تأكل الأرض أجسادهم ، كما نصت الآية على حياة الشهداء -فلا نعلم نحن كيفية هذه الحياة التي للأنبياء ، حيث لم ينص عليها في خبر كما نص في الحديث على حياة الشهداء .

وحياتهم حياة برزخية - أي فاصلة بين الحياة في الدنيا والحياة يوم القيامة -لاتكليف فيها ، فقد انقطع التكليف بمفارقة الروح للجسد ، وكل من عليها فان ، وكل نفس ذائقة الموت ، أي تنتهي به حياتها الدنيوية إلى حياة برزخية نترك تفصيلها إلى الله . فهي من الغيب الذي لا يقبل فيه إلا خبر صادق لا يتطرق إليه الشك ثبوتاً ودلالة .



س : نعرف أن المسلمين هزموا في غزوة أحد ، لكن هل يجوز أن نقول : إن النبي ﷺ هزم معهم أيضاً ؟

ج : جاء في شرح الزرقاني للمواهب اللدنية [1] ، أن القاضي عياض في كتابه «الشفاء» نقل عن القاضي أبي عبدالله المعروف بابن المرابط ، من المالكية أنه قال : من قال : إن النبي ﷺ هزم أو فَرَّ وهرب وتوارى واختفى يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل لأنه تنقيص ، إذ لا يجوز ذلك عليه لأمر خصه الله به حيث ثبَّت قلبه وألقى الرعب في قلوب أعدائه . إذ هو على بصيرة من أمره ويقين من عصمته . انتهى . ويقول الزرقاني في التعليق عليه : إنه ضعيف ، وعقَّب عليه صاحب «الشفاء» بأن القروي قال : مذهب مالك وأصحابه أن من قال ما فيه نقص قتل دون استتابة ، ولهذا قال -القسطلاني- الشافعي . هذا موافق لمذهبنا أن سَبَّ الرسول ردة .

ثم جاء في شرح الزرقاني المذكور [2] ، بخصوص غزوة حنين وما في رواية مسلم عن سلمة بن الأكوع : ومررت على الرسول ﷺ منهزما أن (منهزماً) حال من فاعل مررت -وهو سلمة- لا من الرسول ، وقد قالت الصحابة كلهم إنه عليه الصلاة والسلام ما انهزم ، ولم ينقل أحد قط أنه انهزم في موطن من المواطن ، وقد نقلوا إجماع المسلمين على أنه لايجوز أن يعتقد انهزامه ﷺ ، ولايجوز ذلك عليه ، بل كان العباس وأبو سفيان بن الحارث آخذين ببغلته يَكُفّانها عن إسراع التقدم إلى العدو لما ركضها في نحورهم ، فنزل عنها واستنصر وتقدم ورمى العدو بالتراب .



١- ج٢ ص ٥٧ .　　٢- ج٣ ص ١٧ .

س : من هو الصحابي الذي عرف بأنه حواري رسول الله ﷺ ، ومن هو أسد الله الغالب ؟

ج : الحواري هو الزبير بن العوام ، أمه صفية بنت عبدالمطلب عمة النبي ﷺ . روى البخاري ومسلم أن الرسول ﷺ قال «لكل نبي حواري ، وحواريي الزبير». كان أول من سلَّ سيفاً في سبيل الله ، وقال له الرسول يوم الأحزاب «فداك أبي وأمي» [1] ، توفى في وقعة الجمل سنة ٣٦ هـ . والحواريون هم الأصحاب المناصرون المخلصون للنبي .

وأسد الله هو حمزة بن عبدالمطلب عم النبي ﷺ ، جاء في «معجم البغوي والطبراني» أن النبي ﷺ قال «والذي نفسي بيده إنه لمكتوب عند الله عز وجل في السماء السابعة : حمزة أسد الله ورسوله» استشهد في غزوة أحد سنة ٣ هـ .



س : هل صحيح أن النبي ﷺ مات متأثراً بالسم وكيف يحدث ذلك له ؟

ج : ثبت في الصحيحين أن يهودية سمَّت النبي ﷺ في شاة ، فأكل منها لقمة ثم لفظها وأكل معه ثلاثة منهم بشر بن البراء ، و التي قامت بذلك زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم ، وقد احتجم على كاهله ، وأمر من أكل منها فاحتجم فمات بعضهم .

وهناك خلاف في الاقتصاص منها ، كما أن هناك خلافاً في كيفية أكل النبي منها ، هل مضغها ثم لفظها ، أو ابتلعها ، وبقى الرسول ﷺ بعد هذه الحادثة ثلاث سنوات حتى قال في وجعه الذي مات فيه «مازلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر ، فهذا أوان انقطاع الأبهر مني».

قال الزهري : فتوفى رسول الله ﷺ شهيداً (زاد المعاد - خيبر) والأبهر عرق مستبطن بالصلب متصل بالقلب ، إذا انقطع مات صاحبه فكان ابن مسعود وغيره يرون أنه ﷺ مات شهيداً من السم الذي تناوله في خيبر .

١- رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

يقول الزرقاني في شرح المواهب اللدنية [1] : ومن المعجزة أنه لم يؤثر فيه في وقته ، لأنهم قالوا : إن كان نبيًّا لم يضره ، وإن كان ملكاً استرحنا منه فلما لم يؤثر فيه تيقنوا نبوته حتى قيل : إن اليهودية أسلمت ، ثم نقض عليه بعد ثلاث سنوات لإكرامه بالشهادة .

وحادث السم رواه البخاري بطوله في الجزية في باب «إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم» وذكره في الطب بطوله أيضاً في باب «ما يذكر في سم النبي ﷺ» واختصره في غزوة خيبر في باب «الشاة التي سُمَّت للنبي» وقيل إنها أخبرته بأنها مسمومة ، فقال لأصحابه : ارفعوا أيديكم ، وكان الذي حجمه هو أبو هند أو أبوطيبة .

هذا مجمل ما جاء في هذه الحادثة من الروايات عن وضع السم للرسول ، وأنه مات متأثراً به فمات شهيداً أو غير شهيد فمقام النبوة لا يعدله مقام ، ويكفي أن الله نجاه من السم القاتل لساعته ، فكان معجزة تصدق رسالته ، والموت مكتوب عليه كما هو مكتوب على غيره ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] .



س : أين غُسِّل جسد الرسول ﷺ ومن الذي قام بغسله وأين ذهب ماء الغسل؟

ج : الرسول ﷺ غسل في المكان الذي توفى فيه ، وهو حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها ، والذي غسله علي والعباس والفضل بن العباس ، وقُثَم بن العباس ، وأسامة بن زيد ، وشُقران مولاه ﷺ يصبون الماء وأعينهم معصوبة من وراء الستر ، وعليٌّ فقط هو الذي لم يعصب عينيه . لحديث رواه البزار والبيهقي عن علي رضي الله عنه : أوصاني النبي ﷺ ألا يغسلني إلا أنت ، فإنه لا يرى أحد عورتي إلا طمست عيناه ، يقول الزرقاني : هو تعليل لمقدر هو : فإني أخشى على غيرك أن تحين منه لفتة فتطمس عينه . وأما أنت يا علي فأعرف تحرزك من ذلك فلا أخشى عليك .

١- ج ٨ ص ٢٦٠ .

وروى ابن ماجه بسند جيد عن علي يرفعه إلى النبي ﷺ «إذا أنا مت فاغسلوني بسبع قرب من بئري «بئر غرس بقباء» وغسل ثلاث غسلات الأولى بالماء القراح والثانية بالماء والسدر والثالثة بالماء والكافور».

وذكر ابن الجوزي أنه روى عن جعفر الصادق أن الماء كان يجتمع في جفون النبي ﷺ فكان علي يشربه بفمه ، وأما ما روى أن عليًّا لما غسله امتص ماء من محاجر عينيه فشربه ، وأنه قد ورث بذلك علم الأولين والآخرين فقال النووي : ليس بصحيح وأقره البخاري وغيره .

هذا ما جاء في المواهب اللدنية وشرحها للزرقاني [1] ، ولم أر غيره.



س : هل كانت الصلاة على جنازة الرسول ﷺ كالصلاة على سائر الجنازات ، وما حكمتها وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟

ج : جاء في شرح الزرقاني على المواهب اللدنية [2] ، أن صلاة الجنازة على النبي ﷺ كانت بغير إمام ، لعدم اتفاقهم على خليفة وقيل بوصية منه ، بناء على حديث رواه الحاكم والبزار بسند فيه مجهول أنه لما جمع أهله في بيت عائشة قالوا : فمن يصلي عليك ؟ قال «إذا غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري ثم اخرجوا عني ، فإن أول من يصلي عليَّ جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنوده من الملائكة بأجمعهم ، ثم ادخلوا عليَّ فوجاً بعد فوج ، فصلُّوا عليَّ وسلِّموا تسليماً».

وجاء فيه أيضاً أن الصلاة عليه كانت بغير دعاء الجنازة المعروف كما رواه البيهقي وابن سعد وغيرهما عن عليٍّ أنهم كانوا يكبِّرون ويقولون : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله ، اللهم إنا نشهد أن محمداً قد بلّغ ما أنزل عليه ونصح لأمته وجاهد في سبيلك حتى أعز الله كلمته ، فاجعلنا نتبع ما أنزل عليه ، وثبّتنا بعده ،

١- ج ٨ ص ٢٨٩ .   ٢- ج ٥ ص ٣٢٩ .

واجمع بيننا وبينه ، فيقول الناس : آمين ، أي الناس الذين لم يكونوا مشغولين بالصلاة ، أو من سبق بالصلاة ولم ينصرف ، أو المصلون أنفسهم .

وجاء فيه أيضاً [1] ، أن ابن عباس روى عنه ابن ماجه أنه قال : لما فرغوا من جهازه ﷺ يوم الثلاثاء وضع على سريره في بيته ، ثم دخل الناس عليه أَرْسَالاً -جماعات متتابعين- يصلون عليه ، حتى إذا فرغوا دخل النساء ، حتى إذا فرغن دخل الصبيان ، ولم يؤم الناس على رسول الله أحد .

قال ابن كثير : هذا أمر مجمع عليه . واختلف في أنه تعبّدٌ لا يعقل معناه ، أو ليباشر كل واحد الصلاة عليه منه إليه ، وقال السهيلي : قد أخبر الله تعالى أنه وملائكته يصلون عليه ، وأمر كل واحد من المؤمنين أن يصلي عليه . فوجب على كل أحد أن يباشر الصلاة عليه منه إليه ، والصلاة عليه بعد موته من هذا القبيل قال : وأيضاً فإن الملائكة لنا في ذلك أئمة . انتهى .

وقال الشافعي في «الأم» : وذلك لعظم أمره ﷺ وتنافسهم فيمن يتولى الصلاة عليه . وفي رواية أن أول من صلى عليه الملائكة أفواجاً ، ثم أهل بيته ، ثم الناس فوجاً فوجاً ، ثم نساؤه آخراً ، على ما روى عند الطبراني وغيره بسند وَاهٍ أنه أخبر بذلك قبل موته .

هذا ما كان وجاء في صفحة ٢٩٢ : هل كانت الصلاة عليه صلاة معتادة للجنازة أو كانت بمعنى آخر ؟ ذهب جماعة إلى أن الصلاة عليه كانت دعاء ، وجاء في كتاب «تحقيق النصر في تاريخ دار الهجرة» للشيخ زين الدين بن الحسين المراغي أنه لما صلى أهل بيته لم يدر الناس ما يقولون : فسألوا ابن مسعود فأمرهم أن يسألوا عليًّا فقال لهم: قولوا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] ، لبيك اللهم ربنا وسعديك ، صلوات الله البر الرحيم والملائكة المقربين والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وما سبّح لك من شيء يارب العالمين ، على محمد بن عبدالله خاتم

١- ج ٨ ص ٢٩١ .

النبيين وسيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين ، الشاهد البشير ، الداعي إليك بإذنك السراج المنير ، وعليه السلام . يقول «الباجي» في عدم الصلاة ، المعتادة عليه : وجهه أنه ﷺ أفضل من كل شهيد ، والشهيد يغنيه فضله عن الصلاة عليه ، فهو ﷺ أولى ، قال : وإنما فارق الشهيد في الغسل لأن الشهيد حذر من غسله إزالة الدم عنه ، وهو مطلوب بقاؤة لطيبه ، ولأنه عنوان لشهادته في الآخرة ، وليس على النبي ﷺ ما تكره إزالته ، فافترقا.

لكن قال «عياض» -وتبعه النووي[1] : الصحيح الذي عليه الجمهور أن الصلاة على النبي ﷺ كانت صلاة حقيقية لا مجرد الدعاء فقط ، وأجيب عما اعتلّ به الأولون - أي أصحاب الرأي الأول من أن الصلاة عليه كانت دعاء فقط- بأن المقصود من الصلاة عليه عَوْدُ التشريف على المسلمين ، مع أن الكامل يقبل زيادة التكميل ، نعم لا خلاف أنه لم يؤمهم أحد عليه كما مر ، لقول علي : هو إمامكم حيًّا وميتاً ، فلا يقوم عليه أحد ، والحديث رواه ابن سعد .

وأخرج الترمذي أن الناس قالوا لأبي بكر : أنصلي على رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم، قالوا : وكيف نصلي ؟ قال : يدخل قوم فيكبرون ويصلون ويدعون ، ثم يدخل قوم فيصلون ويكبرون ويدعون فرادى .

هذا ما نقلته عن شرح الزرقاني على المواهب ، وخلاصته :

أن رأي الجمهور هو صلاة الجنازة على الرسول ﷺ هي الصلاة المعتادة على كل جنازة ، وأنها كانت بدون إمام ، أي ليست جماعة بل فرادى ، والرأي الآخر أنها كانت دعاء فقط وليست صلاة بالمعنى المعروف ، وحكمة الصلاة عليه مع أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأنه أفضل من الشهداء - هي إما تشريف للمصلين ، وإما زيادة كمال النبي ﷺ ، فالكامل يقبل زيادة التكميل .

من الصحابة عندما لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى ، والمطلوب منا أن نكثر الصلاة والسلام عليه ، وأن نلتزم سنته ومنهجه ، كدليل على حُبنا له كما جاء في

١- كما في صفحة ٣٣٠ من الجزء الخامس من الزرقاني على المواهب .

الحديث . روى أبو داود والبيهقي أنه ﷺ قال «من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه ، وإن صلاتكم لتعرض عليّ» قالوا : يا رسول الله وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرَمت -بفتح الراء- يعني بليت ؟ فقال : «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» وروى أبو داود أيضاً قوله «ما من أحد يسلّم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام» وروى أحمد والنسائي والحاكم وصححه وغيرهم قوله «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلّغونني عن أمتي السلام».



س : هل يحرم السفر لزيارة قبر النبي ﷺ ؟

ج : زيارة قبر النبي ﷺ ، أو على الأصح زيارته في قبره ، على رأس زيارة القبور استحباباً . وقد عقد القسطلاني في المواهب اللدنية فصلا خاصًّا بها ، كما عقد الشيخ السمهودي في كتابه «وفاء الوفا» فصلاً خاصا بها أيضاً ، أورد فيه أحاديث كثيرة قال الذهبي عنها : طرقها لينة يقوي بعضها بعضاً ، وليس في رواتها متهم بالكذب .

نقل القاضي عياض أن السفر بقصد الزيارة غايته مسجد المدينة لمجاورته القبر الشريف ، وقصد الزائر الحلول فيه لتعظيم من حل بتلك البقعة ، كما لو كان حيًّا ، وليس القصد تعظيم بقعة القبر لعينها بل من حل فيها .

إن زيارته ﷺ زيارة لمسجده الذي ورد في فضله قوله : «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام» وزيارة قبور الأنبياء والصالحين بما فيها من التبرك إلى جانب ما ذكر ، مستحبة كما قال الإمام الغزالي في كتابه «الإحياء» والتبرك في حد ذاته غير ممنوع ، لكن قد تكون له مظاهر لا يوافق عليها الدين ، منها:

١- الطواف حول القبر ، وهو مكروه لما فيه من التشبه بالطواف حول البيت الحرام.

٢- التمسح بالقبر وتقبيله للتبرك ، فقد قال فيه الإمام الغزالي : وليس من السنة أن يمس الجدار ولا أن يقبله ، بل الوقوف من بعد أقرب إلى الاحترام . وعن أحمد ابن حنبل في ذلك روايتان . ففي «خلاصة الوفا» ما نصه :

وفي كتاب العلل والسؤالات لعبد الله بن أحمد بن حنبل قال : سألت أبي عن الرجل يمس قبر النبي ﷺ يتبرك به ويقبله ويفعل بالمنبر مثل ذلك ، رجاء ثواب الله تعالى ، فقال : لا بأس به . قال أبو بكر الأثرم : قلت لأبي عبدالله -يعني أحمد ابن حنبل- : قبر النبي ﷺ يمس ويتمسح به ؟ فقال : ما أعرف هذا . ولعل رواية الجواز خاصة بالتبرك بالمنبر لا بالقبر ، فقد جاء في «الإحياء» للغزالي عن التبرك بالآثار النبوية ويستحب أن يضع يده على الرمانة السفلى التي كان رسول الله ﷺ يضع يده عليها عند الخطبة . وجاء عن أحمد بن حنبل منقولاً عن ابن عمر قال ابن تيمية في كتابه «الصراط المستقيم» : ورخص أحمد وغيره في التمسح بالمنبر والرمانة التي هي موضع مقعد النبي ﷺ ويده ولم يرخص في التمسح بقبره ، وقد حكى بعض أصحابنا رواية عنه في مسح قبره ، لأن أحمد شيع بعض الموتى فوضع يده على القبر يدعو له ، والفرق بين الموضعين ظاهر . وصح في البخاري أن عبدالله بن سلام كان يتبرك بالقدح الذي شرب منه النبي ﷺ وبالمكان الذي صلى فيه .

٣- الدعاء عند القبر ، وهذا الدعاء يجب أن يكون الاتجاه فيه إلى الله تعالى ، لأنه هو وحده الذي يملك النفع والضر ، ولا يجوز الاتجاه به إلى صاحب القبر مهما كانت منزلته ، أما التوسل والاستشفاع به عند الله فقد مر بيان حكمه .

ودعاء الله عند زيارة هذه الأضرحة قال جماعة : إنه أرجى للقبول ، لما يصاحبه من روحانية يحس بها الداعي وهو بجوار رجل صالح يحبه ويحترمه ، وقال آخرون: ليس للدعاء عنده ميزة على الدعاء في غير هذا المكان . ومن هؤلاء ابن تيمية حيث قال : إن قصد القبور للدعاء عندها ورجاء الإجابة بالدعاء هناك رجاء أكثر من رجائها في غير هذا الموطن أمر لم يشرعه الله ولارسوله ، ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين ، ولا من أئمة المسلمين ،

ولا ذكره أحد من العلماء الصالحين المتقدمين. ا هـ . لكن ليس هذا الكلام دليلاً على منعه ، وقد تكون هناك وجهة للمنع وهي الاحتياط وسد الذريعة لدعاء صاحب القبر بدل دعاء الله أو معه .

هذا ، وفي الدعاء عند زيارة النبي ﷺ في قبره أثيرت مسألة الجهة التي يتجه إليها الداعي ، هل هي قبلة الصلاة أو هي القبر الشريف ؟ روى القاضي عياض في كتابه[1] ما جاء عن الإمام مالك بن أنس لما ناظره أبو جعفر المنصور في المسجد النبوي ، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد ، فإن الله تعالى أدب قوماً فقال ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات : ٢] ومدح قوماً فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات : ٣]. وذم قوماً فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات:٤] . وإن حرمته ميتاً كحرمته حيًّا . فاستكان لها أبو جعفر ، وقال : يا أبا عبدالله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ﷺ ؟ فقال : ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله ، قال الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء : ٦٤] .

وابن تيمية يكذب هذه الرواية . ورد الزرقاني في شرحه للمواهب اللدنية للقسطلاني على ابن تيمية بأنها مروية عن ثقات ليس فيهم وضَّاع ولا كذاب ، ثم يرد عليه ما ادعاه من كراهية مالك لاستقبال قبر النبي ﷺ عند الدعاء بأن كتب المالكية طافحة باستحباب الدعاء عند القبر واستقباله ، مع مس القبر بيده . ويقول: وإلى هذا ذهب الشافعي والجمهور ، ونقل عن أبي حنيفة . قال ابن الهمام : وما نقل عنه أنه يستقبل القبلة مردود بما روى عن ابن عمر : من السنة أن يستقبل القبر المكرم ، ويجعل ظهره للقبلة ، وهو الصحيح من مذهب أبي حنيفة ، وقول

١ - الشفا في التعريف بحقوق المصطفى .

الكرماني : مذهبه خلافه ليس بشيء ، لأنه حي ، ومن يأتي الحي إنما يتوجه إليه . وصرح النووي في كتابه «الأذكار» بذلك . وقد أشير إلى شيء من ذلك في موضع التوسل من هذا البيان.

هذا ، ومع استحباب زيارة قبور الأنبياء والصالحين يجب التنبه إلى ما جاء من النهي عن اتخاذها مساجد وعيداً ، فقد وردت في ذلك نصوص كثيرة ، منها قولهﷺ «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» . وقوله «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وقوله «لاتجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولاتتخذوا قبري عيداً ، وصلوا عليَّ ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم».

واتخاذ القبور مساجد يعني التوجه بالعبادة إليها وإلى من فيها ، وذلك شرك ، فالعبادة لله وحده ، وهو معنى جعل القبر وثناً يعبد . والمراد بالمسجد هنا موضع العبادة بالصلاة وغيرها ، واتخاذها عيداً يقصد به التقرب إلى الله عندها في المواسم وفي مواعيد معينة شأن الأعياد في ذلك . وقال جماعة : إن هذا الحديث ينهي عن التقصير في قبره وهجره وعدم زيارته إلا في مواسم الأعياد ، فهو يحث على مداومة زيارتها . هذه وجهات نظر مختلفة في فهم الحديث .

جاء في «خلاصة الوفا للسمهودي» : أن هذا الحديث قيل عندما رأى راويه الحسن بن الحسن أو علي بن الحسين - رجلاً يحرص كل يوم على زيارة قبر النبيﷺ ويبالغ في الدنو منه ، وقد كره مالك ذلك ممن لم يقدم من سفر ، وجاء فيه أيضاً : قال الحافظ المنذري في حديث «لاتجعلوا قبري عيداً» يحتمل أن يكون حثًّا على كثرة الزيارة وألا يهمل حتى لا يزار إلا في بعض الأوقات كالعيد ، ويؤيده قوله «لاتجعلوا بيوتكم قبوراً» أي لاتتركوا الصلاة فيها . قال السبكي : ويحتمل أن يكون المراد : لاتتخذوا له وقتاً مخصوصاً لا تكون الزيارة إلا فيه ، أو لا يتخذ كالعيد في العكوف عليه وإظهار الزينة والاجتماع وغيره مما يعمل في الأعياد ، بل لايؤتى إلا للزيارة والسلام ، ثم ينصرف عنه .

ومهما يكن من شيء فإن اتخاذ قبور الأنبياء ومثلهم الصالحون للتقرب هو لصلتها بمن فيها والتبرك بهم -كما قدمنا- وإن كانت العبادة لله وحده ، وكان بعض الصحابة كعبد الله ابن أم مكتوم يحرص أن يصلي النبي ﷺ في بيته ليتخذه مسجداً ، وابن عمر كان يتتبع مواضعه عليه الصلاة والسلام وآثاره ، جاء في صحيح البخاري عن موسى بن عقبة قال : رأيت سالم بن عبدالله يتحرى أماكن من الطريق ويصلي فيها ، ويحدث أن أباه -عبدالله بن عمر- كان يصلي فيها ، وأنه رأى النبي ﷺ يصلي في تلك الأمكنة . قال موسى : وحدثني نافع أن ابن عمر كان يصلي في تلك الأمكنة . وقد رخص أحمد بن حنبل في ذلك -كما قال ابن تيمية- ولكن كره أن يتخذ ذلك عيداً للناس يعتادونه ، استناداً إلى ما روى أن عمر رأى جماعة ابتدروا مكاناً يصلون فيه لأن النبي ﷺ صلى فيه ، فقال : هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم ، اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً ، من عرضت له منكم الصلاة فيه فليصل ، ومن لم تعرض له الصلاة فليمض . فقد نهى عن التزام ذلك واتخاذه موسماً يعتادونه ، أما القليل العارض غير المقصود فلا بأس والتبرك في حدوده المعقولة -كما قلنا- لامانع منه ، فقد كان الصحابة يتبركون بآثار النبي ﷺ ، جاء في صحيح البخاري أن النبي ﷺ اتخذ خاتماً في يده من الورق - الفضة- ثم كان في يد أبي بكر بعده ، ثم كان في يد عمر ، ثم كان في يد عثمان حتى وقع في بئر «أريس» ، وكان نقشه «محمد رسول الله» وفي بعض الروايات أنه مكث في يد عثمان ست سنوات ، واجتهدوا في العثور عليه في البئر فلم يفلحوا . وبشر «أريس» بجوار مسجد قباء ويعرف باسم «بئر الخاتم».

وجاء في البخاري أيضاً أن الزبير بن العوام كانت له عنزة طعن بها عبيدة بن سعيد ابن العاص يوم بدر ، فسأله النبي ﷺ إياها ، فأعطاها له ، ولما قبض أخذها ، ثم سألها إياه أبو بكر ومن بعده عمر وعثمان وعلي . والعنزة كالحربة.

وكذلك جاء في البخاري أن عمر رضي الله عنه لم يقطع الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان إلا لاختلاف الناس بعدها فيها وفي مكانها .

تكملة : جاء في فتوى الشيخ عبدالمجيد سليم بتاريخ ٢٢ من يونيه سنة ١٩٤٠ ما ملخصه : أن ابن تيمية منع دفن الميت في المسجد وقال في إحدى فتاويه : إنه لايجوز دفن ميت في مسجد، فإن كان المسجد قبل الدفن غير ، إما بتسوية القبر وإما بنبشه إن كان جديداً ، و العلة في المنع هي عدم ا تخاذه ذريعة للصلاة إلى القبر. وجاء عن ابن القيم في «زاد المعاد» : أن الإمام أحمد وغيره نص على أنه إذا دفن الميت في المسجد نبش ، وقال ابن تيمية : لايجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر ، بل أيهما طرأ على الآخر منع منه وكان الحكم للسابق .

وقال النووي في شرح المهذب : اتفقت نصوص الشافعي والأصحاب على كراهة بناء مسجد على القبر ، سواء كان الميت مشهوراً بالصلاح أو غيره ، لعموم الأحاديث، قال الشافعي والأصحاب : وتكره الصلاة إلى القبور ، سواء كان الميت صالحاً أو غيره ، قال الحافظ أبو موسى : قال الإمام الزعفراني رحمه الله : ولا يصلي إلى قبر ولا عنده تبركاً به ولا إعظاماً له ، للأحاديث اهـ .

وأعدل الأقوال أن الصلاة إذا كانت تعظيماً للقبر فهي حرام وباطلة لأن ذلك شرك ، أما إذا خلت من التعظيم فهي صحيحة مع الكراهة إن كان القبر أمام المصلي، أما إن كان خلفه أو عن يمينه أو عن يساره فلا كراهة .



س : هل من الحديث ما يقال «من زار قبري وجبت له شفاعتي» وهل تتحقق هذه الشفاعة إن كان الزائر من غير أهل التقوى والإيمان ؟

ج : هذا الحديث رواه الدارقطني وابن أبي الدنيا وغيرهما ، ورواه عبدالحق في أحكامه وسكت عنه ، وسكوته دليل على قبوله .

قال الذهبي : طرقه كلها لينة ، لكن يقوي بعضها ببعض ، وهناك روايات أخرى بهذا المعنى .

يقول الزرقاني في شرح المواهب [1] : معنى «وجبت له شفاعتي» أخصه بشفاعة ليست لغيره تناسب عظيم عمله ، إما بزيادة نعيم أو تخفيف هول ذلك اليوم عنه ،

١- ج٨ ص ٢٩٨ .

أو دخول الجنة بلا حساب ، أو رفع درجاته بها ، أو بزيادة شهود الحق والنظر إليه ، أو بغير ذلك ، أو المرد البشرى بموته على الإسلام.



س : من هم الذين أمر الرسول بقتلهم في فتح مكة حتى لو تعلقوا بأستار الكعبة؟

ج : جاء في «الأحكام السلطانية» للماوردي [1] ، أنهم ستة ، هم :

١- عبدالله بن سعد بن أبي سرح ، كان من كتاب الوحي ، فكان يغير ما أمره الرسول بكتابته ثم ارتد ولحق بقريش .

٢- عبدالله بن خطل ، كانت له جاريتان تغنيان بسب الرسول ﷺ .

٣- الحويرث بن نفيل ، كان يؤذي الرسول .

٤- مقيس بن حبابة ، كان بعض الأنصار قتل أخاه خطأ فأخذ ديته ثم اغتال القاتل وعاد إلى مكة مرتداً .

٥- سارة مولاة لبعض بني عبدالمطلب كانت تسب وتؤذي .

٦- عكرمة بن أبي جهل ، كان يكثر التأليب على الرسول ، طلباً لثأر أبيه .

فأما ابن أبي سرح فاستأمن له عثمان الرسول فأعرض عنه ، وكان يتمنى أن يقتل وأما ابن خطل فقتله سعد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي . وأما مقيس فقتله رجل من قومه اسمه نميلة بن عبدالله ، وأما الحويرث فقتله علي بن أبي طالب وأما سارة فتغيبت حتى استؤمن لها من الرسول فأمنها ثم تغيبت فداسها فرس لمسلم وماتت أيام عمر .

وأما عكرمة بن أبي جهل فهرب إلى البحر ، ونصحه صاحب السفينة بالإخلاص فمال قلبه إلى الإيمان فرجع ، وكانت زوجته بنت الحارث قد أسلمت

١- ص ١٣٢ .

وهي أم حليم فأخذت له من الرسول أماناً ، فلما رآه الرسول قال «مرحباً بالراكب المهاجر» فأسلم، فقال له الرسول «لا تسألني اليوم شيئاً إلا أعطيتك» فقال : أسألك أن تسأل الله أن يغفر لي كل نفقة صددت بها عن سبيل الله ، وكل موقف وقفته لذلك فقال الرسولﷺ «اللهم اغفر له ما سأل» فقال : والله لا أدع درهماً أنفقته في الشرك إلا أنفقت مكانه في الإسلام درهمين . ولا موقفاً وقفته في الشرك إلا وقفت مكانه في الإسلام موقفين. فقتل يوم اليرموك .



س : ما معنى الحديث المتواتر ، وما حكم من ينكره ، وهل كل ما في البخاري ومسلم يجب تصديقه ويحرم عدم الأخذ به ؟

ج : الحديث المتواتر هو ما يرويه جمع يحيل العقل في العادة تواطؤهم على الكذب ، وذلك في كل طبقة من ابتداء الرواية إلى من تلقوه عن الرسول ﷺ أو عرفوه عنه فعلاً أو وصفاً أو تقريراً ، وقد يكون متواتراً لفظيًّا إذا اتحدت الرواة في الألفاظ التي يقولونها ، أو متواتراً معنويًّا إذا اتفقوا في رواية المعنى مع اختلاف الألفاظ ، والتواتر المعنوي كثير ، أما اللفظي فقليل ، ومنه أحاديث «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» «نزل القرآن على سبعة أحرف».

ومن المتواتر المعنوي حديث رفع اليدين في الدعاء ، فقد روى فيه أكثر من مائة حديث ، لكنها في وقائع مختلفة ، والذي ينكر الحديث المتواتر بالإجماع يكون كافراً، وكذلك يكفر من أنكر ما أجمع عليه المسلمون كعدد الصلوات الخمس وركعاتها ، ومناسك الحج .

والأحاديث غير المتواترة تسمى أحاديث آحاد منها المشهور والعزيز والغريب ، ويحكم عليها بالصحة أو الحسن أو الضعف . ومنكرها لا يكفر ، وإذا كان الإنكار عن هوى أو تعصب كان فسقاً يأثم صاحبه .

والأحاديث الموجودة في البخاري ومسلم قال ابن الصلاح : إنها صحيحة قطعاً ، لاتفاق الأمة على تلقيها بالقبول ، والأمة لا تتفق على خطأ ، وأما ما روى فيهما معلقاً ، وهو ما حذف من مبتدأ إسناده واحد أو أكثر فلا يبلغ مرتبة القطع عنده ، واستثنى ابن الصلاح من المقطوع بصحته مائتين وعشرين حديثاً ، والحافظ العراقي أفردها بكتاب تصدى فيه للجواب عنها ، وتعرض الحافظ ابن حجر في مقدمة فتح الباري لما طعن فيه من أحاديث البخاري ، ودفع ما وجه إليها من مآخذ بالتفصيل .

والإمام النووي خالف ابن الصلاح في دعوى القطع بصحة ما في الصحيحين -إلا ما استثنى- وقال : إن المحققين والأكثرين يذهبون إلى أن صحة ما روياه صحة مظنونة إلا أن يكون متواتراً ، وأما تلقى الأمة لهما بالقبول فلأن ما روياه يفيد الظن، والظن يكفي في تقرير الأحكام العملية ، وأما قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ [النجم : ٢٨] فمحمول على ما يرجع إلى أصول الدين كالعقائد لأنه يقصد منها العلم واليقين .

ومَزِيَّة ما في البخاري ومسلم على رأي النووي تظهر في أن ما روى فيهما صحيح لايحتاج إلى البحث والنظر ، بل يؤخذ بالتسليم ، أما ما يروى في غيرهما فيحتاج إلى نظر لمعرفة رتبته من القبول .

فالخلاصة أن ما رواه الشيخان -البخاري ومسلم- وكان متصل الإسناد من طريقين فأكثر وتلقاه رجال الحديث بالقبول يفيد العلم بصحة نسبته إلى النبي ﷺ، كخبر الآحاد الذي تحتف به قرائن الصدق فلا تبقى لمن يتلقاه شيئاً من التردد في صحته [1] .



١- مجلة الأزهر - المجلد الأول ص ٥٤٦ - ٥٤٩ .

س : نقرأ في بعض الكتب عند الاستدلال على بعض الأحكام بحديث نبوي، أن هذا حديث آحاد لايفيد القطع ، فما هي أحاديث الآحاد ، وما هي منزلتها في الاستدلال على أحكام الدين ؟

ج : أحاديث الآحاد هي التي لم يبلغ رواتها حد التواتر الذي يفيد القطع واليقين، والحديث المتواتر هو الذي رواه جمع عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب، وأحاديث الآحاد أنواع ، منها المشهور الذي رواه ثلاثة فأكثر ، والعزيز الذي رواه اثنان ، والغريب الذي رواه واحد فقط . وهي من أقسام الحديث الصحيح ، وهناك الحديث الحسن ، والحديث الضعيف والحديث الموضوع ، وهناك تقسيمات لهذه الأحاديث في علم مصطلح الحديث ، ويهمنا الآن الحديث الصحيح بقسميه الآحاد والمتواتر .

يقول علماء الأصول : إن أحاديث الآحاد يجب العمل بها في الأحكام الشرعية العملية ، باعتبارها فروعاً ، ولا يعمل بها في العقائد باعتبارها أصولاً للدين ، وهذا ما يفيده ما نقل عن جمهور الصحابة والتابعين ، وأقوال علماء الفقه والأصول ، ولم يخالف في ذلك سوى بعض فقهاء أهل الظاهر وأحمد في رواية عنه .

فأحاديث الآحاد مهما بلغت قوتها كالمشهور منها لا تفيد العلم اليقيني الذي يعتمد عليه في العقائد ، بل تفيد الظن الذي يكفي في وجوب العمل بها في الفروع ، جاء ذلك في كثير من المراجع ، وصرح به النووي في شرح صحيح مسلم [1] ، وجعل منها ما رواه البخاري ومسلم رادًّا به على ابن الصلاح الذي قال : إن ما روياه يفيد العلم النظري .

من هذا يعلم أن أحاديث الآحاد الصحيحة لاتفيد إلا الظن ويجب العمل بها في الفروع لا في العقائد ، وإفادة الظن أو اليقين في الأحاديث قد تكون من جهة الرواية ، فالمتواتر يفيد اليقين والآحاد لا تفيده ، وقد تكون من جهة الدلالة أي

---

١ - ج١ ص٢٠ .

دلالة اللفظ على معناه ، وذلك مشترك بين جميع الأحاديث وبين القرآن الكريم ، فاللفظ إذا لم يحتمل إلا معنى واحداً كان قطعي الدلالة ، وإذا احتمل أكثر من معنى كان ظني الدلالة ، كلفظ العين ، يطلق على العين الباصرة وعلى عين الماء ، وعلى الذهب وعلى الجاسوس . ولفظ الفتنة يطلق على الامتحان وعلى الكفر وعلى العذاب ، وعلى الوقيعة بين الناس ، والشواهد على ذلك كثيرة .

وتفريعاً على ذلك لو وقع خلاف في مسألة فرعية دليلها خبر آحاد وأنكر الإنسان حجية هذا الخبر لا يكون بذلك كافراً أو فاسقاً وإلا لحكم بذلك على أئمة الفقه المختلفين في بعض المسائل ، مع الأخذ في الاعتبار أن هذا الإنكار له مسوغ شرعي، فإذا تأيد هذا الخبر وما يدل عليه من حكم بالإجماع عليه صار قويًّا ، ومن جحده كان مخطئاً ، وإن كان لا يحكم عليه بالكفر [1].



س : نريد إلقاء الضوء على الجهود التي قام بها المسلمون للمحافظة على السنة النبوية من جهة السند والمتن ، وما يجب علينا نحوها في هذه الأيام ؟

ج : السنة النبوية لها عدة معان فالسنة في اللغة : هي الطريقة والمنهج ، منها قول النبي ﷺ «فعليكم بسنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين» [2] - والسنة في اصطلاح الفقهاء هي ما يثاب المرء على فعله ولا يعاقب على تركه كصلاة الضحى مثلاً ، والسنة في اصطلاح المحدِّثين هي ما أضيف إلى النبي ﷺ قولاً أو فعلاً أو وصفاً أو تقريراً . وهناك أهل السنة عند المتكلمين فيما يقابل الطوائف الأخرى ، وتحقيق هذه السنة أي المحافظة عليها وإخراج الدخيل منها ودفع الشبه عنها ، والاحتراس عند روايتها ، هذا التحقيق بدأه النبي ﷺ لأن القرآن كان إذا نزلت منه آيات أو سورة ، أمر النبي ﷺ أن يكتب ما نزل ونهى أولاً عن كتابة الحديث حتى لا يختلط كلامه

١- فتاوى معاصرة للشيخ جاد الحق على جاد الحق ص ٤ ٩ ـ ٦٠ .

٢- رواه الترمذي وغيره وقال : حسن صحيح ، أي طريقتي .

بكلام الله سبحانه . ثم بعد ذلك رخَّص لبعض الصحابة في كتابة الأحاديث كعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، والصحابة عندما لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى احتاجوا في بعض الأحيان إلى أحكام فقهية لم يجدوها في كتاب الله تعالى فكان يسأل بعضهم بعضاً هل سمع في هذه الحادثة شيئاً عن الرسول ﷺ؟ وقبل أن يلحق الرسول عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى قال هذا الحديث «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» [1] ، وهذا هو الأصل في تحقيق السنة ، فكان الصحابة يتحرَّجون كثيراً من رواية السنة ، وكان لبعض الخلفاء مواقف شديدة ضد الذين يكثرون من رواياتها وموقف عمر رضي الله عنه معروف من أبي هريرة وابن مسعود ، وأبي مسعود الأنصاري .

استأذن أبو موسى على عمر ثلاث مرات فلم يؤذَن له فولَّى ، فناداه عمر وقال : «لم ولَّيت» ؟ فذكر له أنه سمع حديثاً عن النبي ﷺ يفيد هذا المعنى «إذا استأذن أحدكم ثلاث مرات فلم يؤذن له فليرجع» [2] فقال : والله لا أتركك حتى تأتي لي بمن يشهد معك أنك سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، ولم يتركه حتى جاء بمن شهدوا معه أن هذا القول منسوب إلى النبي ﷺ . وسيدنا أبو بكر رضي الله عنه كما قرأت في كتاب تاريخ التشريع للشيخ محمد الخضري ، جمع الصحابة أو نادى في الصحابة وحذرهم من أن يحدثوا عن النبي ﷺ أحاديث يختلفون فيها فالناس بعدهم أشد اختلافاً .

وإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أرسل بعض الصحابة إلى الأمصار قال لهم : «إنكم ستأتون قوماً عكفوا على كتاب ولهم بقراءته دوي كدوي النحل ، لاتشغلوهم بالحديث عن رسول الله ﷺ» .

مرت الأيام والصحابة والتابعون يعرفون أنهم في حاجة إلى معرفة بعض الأحكام المأثورة عن النبي ﷺ ونحن نعلم أن السنة قد جاءت بأمور ليست مذكورة في القرآن

١- رواه البخاري ومسلم . ٢- رواه البخاري ومسلم .

الكريم ، كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ، وتحريم لحوم الحمر الأهلية وغير ذلك ، والله سبحانه وتعالى قد أعطى التفويض للرسول عليه الصلاة والسلام في أن يبين للناس ما نزل إليهم وهذا التفويض مذكور في عدة آيات منها قوله تعالى ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] وقوله ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [التغابن : ١٢] وقوله تعالى : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] ... اشتدت الحاجة إلى معرفة ما أُثر عن الرسول عليه الصلاة والسلام كلما تقدم الزمن ففكر بعض الولاة أو بعض الأمراء في جمع ما يمكن من هذه الأحاديث ، وكان ذلك في أيام عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه . وظهر في هذا المجال ابن شهاب الزهري وجمع ما استطاع أن يجمعه من كلام النبي ﷺ أو من المأثور عنه ، وظهر بعد ذلك الإمام مالك رضي الله عنه ودوَّن في موطئه ما استطاع من الأحاديث وأقوال الصحابة ، ثم جاء أحمد بن حنبل رضي الله عنه وعُنِيَ عناية كبيرة بجمع الأحاديث والبحث في فقهها ، ثم انتهى الأمر إلى البخاري ومسلم في تصيد الأحاديث الصحيحة وتدوينها، وقد دوَّنا في صحيحيهما ما كان في أعلى درجات الصحة بحسب المقاييس التي وضعت لقبول الحديث ، والذي عمل على ذلك أنهم رأوا أن أحاديث كثيرة وضعت على النبي ﷺ لأغراض سياسية ، أو لأغراض مذهبية وبعضها وضع كما يقول المؤرخون لأغراض شرعية بحسن نية كأحاديث الترغيب في فضائل الأعمال أو في سور القرآن الكريم ، فلما كثرت هذه الأحاديث، كان جهد البخاري ومسلم وأمثالهما لتنقية أو لاصطفاء ما تطمئن إليه قلوبهم من هذه الأحاديث الكثيرة ، ومن الظواهر الخطيرة في التلبيس على الناس ليعتقدوا أن ما يروونه هو منسوب إلى النبي ﷺ أنهم كانوا يأتون ببعض الأسانيد الموثوق بها ثم يضعون لها حديثاً من عند أنفسهم ، وفي هذا الجو وضع أو نُظم فن مصطلح الحديث ، الذي عُني بنقد أحوال الرواة ، وظهرت كتب الجرح والتعديل بهذه الموازين الدقيقة ذات المراتب التي يعجب الإنسان لها ، وما كانوا يحكمون على راو من الرواة بأنه صادق ، أو حجة ، أو لا بأس به ، أو يؤخذ منه ويترك إلا بعد ممارسة ومعايشة ودقة في معرفة أحوال هؤلاء الناس ، وقد سمعنا أن الإمام البخاري كان لايطمئن لحديث سمعه من أحد إلا

إذا عامله أو سأل عنه من يثق به وربما سافر مسافات طويلة حتى يعايش هذا الإنسان ، وكان لايكتب حديثاً كما سمعنا في سيرته إلا إذا استخار الله سبحانه وتعالى وصلى ركعتين حتى يطمئن قلبه إلى ما يكتبه واصطفى ذلك من أحاديث كثيرة صحيحة ولكنه اختار أصح ما يمكن في نظره .

عند هذا القرن الرابع الهجري وبعده أيضاً وجدت كتب أخرى تجمع الأحاديث، بعد هذه الكتب المشهورة المعروفة صحيح البخاري ، ومسلم والموطأ ومسند أحمد ، والسنن الأربعة ، وصحيح ابن حبان ، وابن خزيمة وغيره ، بعد هذه الكتب أصبح الناس عالة عليها في رواية حديث النبي ﷺ .

وهناك نقطة هامة جدًّا هي : ماذا نعمل في بعض الأحاديث التي يكون ظاهرها متناقضاً إما مع القرآن الكريم وإما مع بعض المرويات من السنن وإما مع مقررات العقل والدين ؟ هذه نقطة خطيرة هي التي نحتاج إليها في هذه الأيام ، أما السند فقد انتهينا منه والكتب موجودة ، هذه النقطة مهمة جدًّا وهي البحث في متن الحديث ، لأن المتن أحياناً كان يركب على سند موثوق به ، والله أعلم بصحة هذا المتن ونسبته إلى النبي ﷺ .

قام ابن قتيبة في كتابه تأويل مختلف الحديث وبحث في بعض هذه الأحاديث التي فيها خلاف أو تناقض مع أحاديث أخرى ، وقام بجهد مشكور في هذا المجال، لكننا محتاجون في هذه الأيام بالذات إلى مقابلة ما يأتي في بعض الأحاديث مناقضاً لبعض الأحاديث الأخرى ، وما يأتي من الأحاديث في ظاهره أنه مناقض لما وجد في الكتاب والسنة ، وفي ظاهر بعضها أنه مناقض للعلم ، لأن هناك حملات شرسة كبيرة جدًّا على السنة ، حملة أتت من جهة السند من الذين يشككون في الرجال بل يشككون في الصحابة أيضاً ، وكم أثاروا من خلافات وكتبوا كتباً قد تنزع الثقة من هؤلاء الأبطال الذين نقلوا إلينا الأحاديث والذين نقلوا إلينا القرآن الكريم ، وهي خطوة في الشك أيضاً في الطرق الذي حمل إلينا القرآن الكريم .

وهناك من يطعن في بعض الأحاديث العلمية التي جاءت عن النبي ﷺ .

وأرجو أن يتابع المهتمون هذه الدراسات ، حتى تخلص لنا أحاديث النبي ﷺ وحتى يطمئن المسلمون إليها [1].



س : يقول بعض الناس : لا نأخذ أحكام الدين إلا من القرآن ، وإذا كانت هناك أحاديث نبوية فلا نأخذ بها إلا إذا كانت موافقة للقرآن ، ولابد من عرضها عليه فما مدى صحة هذا القول؟

ج : الاعتماد في التشريع على السنة النبوية مأمور به كالاعتماد على القرآن ، والنصوص في ذلك كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء : ٥٩] وقوله : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾ [الحشر : ٧] وقوله ﷺ «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين» [2] . وغير ذلك من الأدلة كثير [3] .

ومن الشبه التي أخذ بها من يرفضون أخذ الأحكام من الأحاديث النبوية ما روى عن الرسول ﷺ «إذا جاءكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافق فخذوه وما خالف فاتركوه» وقد بين أئمة الحديث أن هذا الحديث موضوع ومختلق على النبي ﷺ والقرآن نفسه يكذب هذا الحديث ، فلو عرضناه على القرآن لوجدنا فيه ما يعارضه ويكذبه وهو قوله تعالى ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾ فالدعوى تحمل معها دليل بطلانها ، وقد وضح بطلان هذا الحديث البيهقي في كتابه «معرفة السنن والآثار» [4] ، وقد ألهم الله نبيه ﷺ أن قوماً سيأتون لايعتمدون إلا على القرآن ويرفضون الأخذ بما ثبت عن النبي ﷺ ولذلك قال

١- راجع مقدمة «المغني عن الحفظ والكتاب» للموصلي ، هدية مجلة الأزهر - ذي القعدة ١٤٠٣هـ.

٢- رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والترمذي وقال : حسن صحيح .

٣- يمكن الرجوع إليه في الجزء الأول من كتاب «بيان للناس من الأزهر الشريف» ص ٦٧ .

٤- ج١ ص٢٣ ، انظر مجلة الأزهر عدد شعبان ١٤١٥هـ.

عليه الصلاة والسلام «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يقول : عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلُّوه وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه ، ألا ، لا يحل لكم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السباع ، ولالقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فإن لم يقروه فعليه أن يعقبهم بمثل قراه»[1] فقد وضح الرسول في الحديث أن تحريم الأشياء المذكورة ليس في القرآن ، وهو تشريع واجب أن يعتمد عليه ، والقرى هو الضيافة .

هذا ، وفي «مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة»[2] . عن الحديث الوارد في السؤال ـ أن الشافعي ذكر أن هذه الرواية منقطعة عن رجل مجهول . قال البيهقي : أشار الشافعي إلى ما رواه خالد بن أبي كريمة عن أبي جعفر عن رسول الله ﷺ أنه دعا اليهود فسألهم فحدثوه حتى كذبوا على عيسى ، فصعد المنبر وخطب وقال «إن الحديث سيفشو عني ، وما أتاكم يخالف القرآن فليس مني»[3] .



س : هل تجب قراءة الأحاديث النبوية بالأحكام التي تتبع في قراءة القرآن الكريم ؟

ج : قراءة القرآن الكريم لها حالتان ، الحالة الأولى وهي الحد الأدنى في الصحة أن يحافظ على نطق الحروف بإخراجها من مخارجها حتى لا تشتبه الزاي بالذال ، أو الثاء بالسين مثلاً ، وأن يكون المد للمدود بالحد الأدنى الطبيعي الذي يتبين منه أن الحرف ممدود . وهذا الحد واجب .

والحالة الثانية هي التجويد والتحسين ، بالمحافظة مثلاً على الغُنَّة والمدود الجائزة واللازمة وما جاء في كتب التجويد ، وهو أمر مستحب ، وإن كان بعضهم أوجبه.

١- رواه أبو داود .　　٢- للسيوطي ص ٣٠ .

٣- قال البيهقي : خالد مجهول ، وأبو جعفر ليس بصحابي ، فالحديث منقطع . ثم ذكر البيهقي روايات أخرى لهذا الحديث ، وكلها مطعون فيها.

ولا تلزم هذه الأحكام الثانية في قراءة الأحاديث النبوية ، بل اللازم فيها هو المحافظة على مخارج الحروف حتى لايشتبه بعضها ببعض فيختلف المعنى ، وباختلاف المعنى يكون الكذب على الرسول ﷺ كما هو معروف . كالكذب على الله تعالى في عدم التزام ما نزل به القرآن الكريم .



س : هل هذا الحديث صحيح ، «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه الله في زمرة الفقهاء والعلماء» ؟

ج : الذي ورد هو «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السنة كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة» رواه ابن عدي عن ابن عباس مرفوعاً إلى النبي ﷺ ورواه ابن النجار عن ابن سعد مرفوعاً بلفظ «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من سنتي أدخلته يوم القيامة في شفاعتي».

أشار السيوطي في الجامع الصغير إلى الرواية الأولى بالضعف ، وأيده في ذلك المناوي في «فيض القدير» وقال : روى من طرق عدة عن بعض الصحابة ، ولكن الأسانيد كلها ضعيفة وإن كانت كثرة الطرق تعطيه قوة ، قال ابن عساكر : وأجود طرقه خبر معاذ مع ضعفه . وأشار السيوطي إلى الرواية الثانية بالصحة ، ولكن يبدو أن الإشارة خطأ مطبعي ، لأن المناوي لم يتعرض لها ولكن قال : إن الحديث ضعيف وعلى هذا فالروايتان ضعيفتان [1] .



س : تزوج رجل بفتاة وبعد ثلاثة أشهر اكتشف خيانتها فطلقها ، وبعد ثلاثة أشهر تزوجت برجل آخر وبعد ستة أشهر وضعت طفلاً وتوفيت على الأثر ، فلمن ينسب هذا الطفل ؟

ج : ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال « الولد للفراش وللعاهر الحجر» [2] ، وقد ولد هذا الطفل على فراش الزوجية الأخيرة . فهو ينسب إلى هذا الأب الثاني ، ومدة الحمل

١- فيض القدير ، ج ٦ ص ١١٩ . ٢- رواه البخاري ومسلم .

هي ستة أشهر من حين اجتماع الزوجين أو من حين العقد على خلاف في ذلك . فقد روى أن رجلاً تزوج امرأة فولدت لستة أشهر ، فهمَّ عثمان رضي الله عنه برجمها ، فقال ابن عباس : لو خاصمتكم بكتاب الله لخصمتكم. قال تعالى ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وقال ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ فلم يبق للحمل إلا ستة أشهر. وقد درأ عثمان الحد ، واشتهر ذلك بين الصحابة ولم ينكره أحد ، فلو ولدته قبل ستة أشهر من الدخول أو الخلوة فلا يثبت نسبه إلا إذا ادعاه الزوج .

أما العقاب فأمره متروك إلى الله ، لأنه هو الذي يعلم السر كله في هذا الموضوع ، وليس لنا إلا الحكم بالظاهر ، حفاظاً على الأعراض والأنساب ومنعاً للفتنة .

وهذا الحكم يثبت في الزواج الموثق والذي لم يوثق «العرفي» فتسمع الدعوى بالنسب حتى لو لم يوثق (1) .



س : هل ما يردده كثير من الناس بقولهم «المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين» حديث مروي عن النبي ﷺ ؟

ج : هذا حديث عن النبي ﷺ رواه البخاري وسببه أنه أسر أبا عزة الجمحي يوم بدر ، فمنَّ عليه وأطلقه ، وعاهده ألا يحرض عليه ولا يهجوه ، فلما لحق بقومه عاد إلى ما كان عليه من التحريض والهجاء ، ثم أسر يوم أحد ، فطلب من الرسول أن يمن عليه ، فلم يستجب له وقال هذا الحديث .

ومعناه أن المؤمن ينبغي أن يكون حذراً متيقظاً لاينخدع بظواهر الناس ، وبخاصة من يخالفه في العقيدة ، فالنفاق له أهله الذين يجيدونه ويغرون به الناس ، قال تعالى فيهم ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون : ١] .

ولو فرض أن المؤمن أحسن الظن بالمنافق وخدع به مرة فلا ينبغي أن يخدع به مرة أخرى، كالذي أدخل إصبعه في جحر فلدغه ثعبان ، لا ينبغي أن يدخل إصبعه فيه مرة أخرى .

---

١ - الأهرام ١٨/ ٧/ ١٩٩٧م .

وهذه دعوة للمؤمنين أن يكونوا على يقظة تامة في تعاملهم مع الناس بوجه عام، ومع الأعداء بوجه خاص وتشتد الدعوة إلى اليقظة عند وجود الفتن والقلاقل، والله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء: ٧١].

والشاعر الحكيم يقول:

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة

ونـــام عنها تولى رعيها الأسد



س: هل صحيح أن النبي ﷺ قال «أدبني ربي فأحسن تأديبي»؟

ج: مما لاشك فيه أن النبي ﷺ أكرمه ربه بمزايا كثيرة، كان بها قدوة حسنة، ومن هذه المزايا الأخلاق الكريمة التي شهد الله له بها في قوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] وكذلك فصاحة اللسان وبلاغة القول كما شهدت بذلك الآثار المروية عنه في جوامع الكلم.

والقول المسئول عنه وهو: «أدبني ربي فأحسن تأديبي» جاء بعدة روايات ذكرها العسكري في كتابه «الأمثال» والسرقسطي في كتابه «الدلائل» والسيوطي في كتابه «الجامع الصغير» وابن السمعاني في «أدب الإملاء» وأبو نعيم الأصفهاني في تاريخ أصبهان.

ويؤخذ من مجموعها أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله، مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟ فقال: «كانت لغة إسماعيل قد درست -خفيت آثارها- فحفظنيها جبريل، فلذا كنت أفصح العرب» وأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال له: يا نبي الله نحن بنو أب واحد، ونشأنا في بلد واحد، وإنك لتكلم العرب بلسان ما نعرف أكثره، فقال «إن الله عز وجل أدبني فأحسن تأديبي» ونشأت في بني سعد بن بكر وأن أبا بكر رضي الله عنه سأله مثل ذلك، فأجاب بما يقرب منه.

تدل هذه الروايات على أن تأديب الله لنبيه كان تأديباً شاملاً للسلوك واللغة، وذلك حق لا مرية فيه، وشرح ذلك يطول، وقد وضعت له كتب مخصوصة لكن

على الرغم من صحة معنى الحديث فإنه بهذه الصيغة لم يصدر عن النبي ﷺ بطريق صحيح عند أكثر علماء الحديث . فرواية أبي نعيم عن عمر إسنادها ضعيف ورواية العسكري عن علي سندها ضعيف جدًّا كما يقول السخاوي ، ورواية السرقسطي عن أبي بكر سندها واه شديد الضعف ، وقال المناوي في فيض القدير على الجامع الصغير للسيوطي : إن ابن حجر حكم عليه بالغرابة في بعض فتاويه . وقال ابن تيمية: لايعرف له سند ثابت . وقد وضح ذلك كله القسطلاني في «المواهب اللدنية» وشرحه للزرقاني عند الكلام على فصاحة النبي ﷺ .

فمعنى الحديث صحيح ، ولكن سنده ضعيف ، وإن صححه أبو الفضل بن ناصر ونرجو أن نتنبه إلى الفرق بين صحة الكلام في حد ذاته وبين نسبته إلى النبي ﷺ فنحن نؤمن بأن الله أدبه أحسن تأديب ، ولكن لا نثق في أن هذا الكلام صدر عنه ، وقد حذرنا ﷺ من نسبة شيء إليه قولاً أو فعلاً أو وصفاً فقال «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[1] . ويستوي في حرمة الكذب عليه ما كان القصد منه حسناً وغير حسن .



س : سمعت أن النبي ﷺ قال : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدًا وكثير من الناس يصلون ومع ذلك لاينتهون عن الفحشاء والمنكر فهل نقول لهؤلاء : لا تصلوا ما دامت صلاتكم لاتنفع؟

ج : يقول الله سبحانه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت : ٤٥] والمعنى أن الصلاة إذا أديت تامة بأركانها وشروطها وبخشوعها قوت الإيمان بالله والخوف من معصيته واستقام بها السلوك ، أما إذا أديت على غير هذا الوجه فإنها لاتفيد المصلى ، لا في عقيدته ولا في سلوكه .

وبقدر ما يكون في الصلاة من الإتقان وباطناً يكون الثواب من الله ويكون تأثيرها على المصلي ، وقد جاء في حديث أبي داود والنسائي وابن حبان قوله ﷺ

١- رواه البخاري ومسلم .

«إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته تسعها ثمنها سبعها سدسها خمسها ربعها ثلثها نصفها» وذلك كله حث على أدائها كاملة الأركان والشروط ، ومن أهمها الإخلاص والخشوع .

والقول المذكور في السؤال موقوف على ابن مسعود ، وليس من كلام النبي ﷺ كما أخرجه أحمد في مسنده ، وإن رفعه ابن جرير فهو مرسل من حديث الحسن سقط منه الصحابي ، رواه الطبراني وابن مردويه بإسناد لين كما في تخريج العراقي لأحاديث إحياء علوم الدين .

وليس معنى هذا الكلام أننا لانصلي ما دامت الصلاة لا تقوِّم سلوكنا ، أو أننا إذا صليناها كانت صلاة باطلة غير صحيحة ولابد من إعادتها على الوجه المطلوب ، كما لاينبغي أن نجزم بأن الله لم يقبلها فذلك موكول إلى الله سبحانه ، والواجب أن نستمر في أداء الصلاة مع محاولة إتقانها بكل ما يلزم لها ، والمجاهدة في سبيل ذلك قد يفتح الله بها القلوب ، والاتصال بالله على أي نحو من الأنحاء خير من الانقطاع عنه [1] .



س : قال رسول الله ﷺ «ثلاثة من الجفاء : أن يمسح الرجل جبهته قبل أن يفرغ من صلاته ، وأن يبول قائماً ، وأن يسمع الأذان ولا يقول مثل ما يقول المؤذن» فما معنى الجفاء ، وكيف يمسح الرجل جبهته قبل أن يفرغ من الصلاة ، وما الضرر من هذا ؟

ج : هذا الحديث له عدة روايات ، روى إحداها البزار من طريق بريدة بدون ذكر الأذان ، وجاء بدله بالنفخ في سجوده [2] ومعنى الجفاء ترك سنة النبي ﷺ وهديه ، وهو يدل على كراهة هذه الأمور ، وقد ورد في كل منها نصوص خاصة بها .

١- راجع قول ابن عطاء الله السكندري في عنوان شرود الذهن في الصلاة .
٢- نيل الأوطار للشوكاني ج١ ص ١٠٢ .

والنهي عن البول من قيام حكمته التحرز من تطايره وإصابة البدن أو الثوب بالنجاسة . وهو مكروه إلا لحاجة ، وإجابة السامع للمؤذن لها فضل كبير ، من تهاون فيها فاته ثواب عظيم ، وأما مسح المصلي جبهته مما يعلق بها من تراب في السجود فقد كرهه السلف ، وعللوه بأمور ، منها أن يبقى أثر السجود على وجهه دليلاً على العبادة والتواضع لله ومنعاً من الكبر ، وفي هذا رجاء قبول الصلاة ، ومنها أن مسحه أثناء الصلاة فيه شغل للإنسان عن ربه وعدم تمكن من الخشوع .

وقد صحت أحاديث [1] تدل على كراهة مسح الحصا ، على معنى أن يزيح المصلي الحصا من موضع سجوده ليسجد على التراب ، وكان مسجد النبي ﷺ مفروشاً به ، وليس مفروشاً بما نعهده اليوم . وعلل العلماء كراهته بأنه ينافي الخشوع ، خصوصاً إذا كثر ، ولهذا رخص في مسح حصاة واحدة تقليلاً للحركة وجاء في بعض الأحاديث «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الرحمة تواجهه فلا يمسح الحصا»[2] كما علل النهي عن مسح الحصا بأن كل حصاة تحب أن تحظى بالسجود عليها فلا تنبغي إزاحتها كما جاء مصرحاً به في بعض الروايات [3].

هذا وإذا كان مسح الحصا وتسوية الأرض قبل الدخول في الصلاة فلا بأس به.



س : ما معنى الحديث الذي يقول : «لاتتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا» ؟

ج : جاء في نهاية ابن الأثير «مادة ضيع أن الضيعة ما يؤخذ منها معاش الرجل كالصناعة والتجارة والزراعة وغير ذلك ومنه الحديث «أفشى الله عليه ضيعته» أي أكثر عليه معاشه ، ومنه حديث ابن مسعود «لاتتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا» وحديث حنظلة «عافسنا الأزواج والضيعات» أي المعايش.

١- النووي على مسلم ج٥ ص ٣٧ .
٢- ذكره الشوكاني في نيل الأوطار ، ج ٢ ص ٣٤٩ .
٣- المرجع السابق ص ٣٥٠ .

وروى ابن ماجه وابن حبان وغيرهما قوله ﷺ «من تكن الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وشتت عليه ضيعته ولا يأتيه منها إلا ما كتب له ومن تكن الآخرة نيته جعل الله غناه في قلبه وكفاه ضيعته وأتته الدنيا وهي راغمة» .

يقول الحافظ المنذري في معنى «شتت عليه ضيعته» فرق عليه حاله وصناعته ومعاشه وما هو مهتم به ، وشعَّبه عليه ليكثر كده ويعظم تعبه. اهـ.

وليس المراد من ذلك التنفير من الحرفة والعمل والدعوة إلى الزهد والانقطاع إلى العبادة ولكن المراد عدم الاهتمام الزائد بها والاتكال الكامل عليها بحيث ينسى الإنسان ربه ويأمن عقابه ، ومن باشر أي عمل مشروع بنية الآخرة كوسيلة للسعادة فيها - وبالتالي سيسعد في الدنيا - بارك الله له في عمله . أما من فتن بالعمل الدنيوي ونسى ربه وآخرته أتعبه الله وأكثر همومه وحرمه القناعة التي هي من أهم أسباب السعادة.



س : هل صحيح أن النبي ﷺ قال : «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» ؟

ج : ليس هذا حديثاً عن النبي ﷺ ونسب إلى بعض الصحابة [1] ، ومعناه صحيح في بعض وجوهه ، فهو يحث على التأني وعدم اللهفة والتسرع في أعمال الدنيا ، ويحث على السرعة وعدم التسويف في أعمال الدين التي يثاب عليها في الآخرة ، حتى لا يفاجئه الأجل قبل عملها .



س : هل صحيح أن النبي ﷺ قال «عجب ربك من شاب ليست له صبوة» ؟

ج : روى الإمام أحمد والطبراني عن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال «يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة» والصبوة هي الميل والانحراف ، أورد الإمام

١ - هو عبدالله بن عمرو بن العاص «عيون الأخبار ج١ ص ٢٤٤» .

الغزالي هذا الحديث في كتابه «إحياء علوم الدين» عند كلامه عن التوبة ، وقال : إن الناس قسمان، شاب لا صبوة له ، نشأ على الخير واجتناب الشر ، وقال : إن هذا القسم عزيز نادر . والعراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء قال : إن هذا الحديث في سنده «ابن لهيعة» ولم يقل : إنه صحيح أو حسن أو ضعيف أو موضوع ، ذلك لأن ابن لهيعة اختلف علماء الحديث في قبول روايته وعدم قبولها . ومن الذين قبلوا روايته مطلقاً أحمد بن حنبل والثوري وابن وهب وابن معين ، ومن الذين رفضوا روايته مطلقاً يحيى بن سعيد والنسائي والترمذي والحاكم ، وبعض منهم قبلوا روايته قبل احتراق كتبه ، منهم ابن حبان وابن خزيمة ، والراجح في أمره ما ذكره ابن حجر من أنه صدوق يحتج به قبل التخليط وقبل احتراق كتبه ، والتخليط مرض يؤثر على الضبط .

والحديث على الرغم من الاختلاف في سنده صحيح المعنى ، لأن الشاب المستقيم الذي نشأ في طاعة الله ولم ينحرف جاء الحديث الصحيح بأنه سيكون من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، ذلك أن الشاب في فترة شبابه تتجاذبه عدة عوامل تغريه بالخطأ فغرائزه قوية قد يضعف العقل أمام سلطانها ، وإذا خاف الشاب ربه من تلبية نداء غرائزه بدون حدود عاش في جهاد وعراك ومغالبة لينتصر على شهواته ، وهذا الجهد المبذول يقدره الله حق قدره ، ويكافئ عليه صاحبه بما يتناسب مع إيمانه وخوفه من ربه .

والتعبير في الحديث بأن الله يتعجب من الشاب الذي ليست له صبوة يراد به الرضا عنه رضاء كبيراً ، ففيه مشاكلة لما يحدث بين الناس من التعجب والدهشة للأمر الغريب الذي يخرج عن المألوف .

وقد ينتهي التعجب والاستغراب بعد معرفة الأسباب إلى الإعجاب والإكبار ، أو يكون هو المراد من الحديث ، ويشبهه ما جاء في حديث رواه أبو داود والنسائي عن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال «يعجب ربك من راعي غنم في رأس شظية للجبل ، يؤذن للصلاة ويصلي ، فيقول الله عز وجل : انظروا إلى عبدي هذا ، يؤذن ويقيم الصلاة يخاف مني ، قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة» .

ذلك أن الراعي في عمله الشاق وفي بعده عن أنظار الناس لاينسى واجبه نحو ربه الذي لاتخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، فيؤذِّن للصلاة ويؤديها مخلصاً لله وحده راجياً ثوابه خائفاً من عقابه ، وكثير من الناس في مثل هذه الحالة لايهتمون بأداء الواجب ، لأن أحداً لن يؤاخذهم ، فهم في خفاء عنه ، ناسين أن الله رقيب عليهم .

فالحديث صحيح في معناه لأن النصوص القوية تشهد له ، وهو دعوة إلى الإخلاص والمراقبة في كل عمل ، ومجاهدة السوء مهما كانت مغرياته .



س : هل صحيح أن الرسول ﷺ قال : إن الإبل خلقت من الشياطين وإن وراء كل بعير شيطاناً ومن أجل ذلك نهى الرسول ﷺ عن الصلاة في مبارك الإبل ؟

ج : جاء في كتاب «حياة الحيوان الكبرى» للدميري المتوفى سنة ٨٠٨هـ أن النبيﷺ سئل عن الصلاة في مبارك الإبل فقال «لاتصلوا في مبارك الإبل فإنها مأوى الشياطين» [١] .

وروى النسائي وابن حبان من حديث عبدالله بن مغفل أن النبي ﷺ قال «إن الإبل خلقت من الشياطين» ولم يعلق على هذا الحديث .

وجاء في نيل الأوطار للشوكاني [٢] ، حديث ابن مغفل عند أحمد بإسناد صحيح بلفظ «لاتصلوا في أعطان الإبل ، فإنها خلقت من الجن ، ألا ترون إلى عيونها وهيئتها إذا نفرت» .

ولم يبين معنى خلقها من الجن ، فقد يكون المراد أن فيها شرًّا إذا نفرت وهاجت ، فالأمر على التشبيه وليس على الحقيقة كما أراه .

١- رواه أبو داود .   ٢- ج ٢ ص ١٤٢ .

وفي المغني لابن قدامة [1] ، عن جابر بن سمرة أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ : أنصلي في مرابض الغنم ؟ قال «نعم» قال أنصلي في مرابض الإبل» ؟ قال «لا» [2]. ولم يذكر السبب في النهي .

وجاء قول القاضي [3] : إن المنع تعبد لا لعلة معقولة ، وقال غيره : إن معاطن الإبل والمقبرة والمجزرة والمزبلة وغيرها تكره فيها الصلاة لأنها مظنة النجاسات .



س : هل ورد حديث يحصر الخلافة أو الإمامة في قريش ، وهل له أثر بين المسلمين في العصر الحاضر ؟

ج :موضوع الخلافة أوالإمامة الكبرى أولاه المسلمون عناية بالغة منذ الساعات الأولى بعد وفاةالنبي ﷺ وتحدث عنه علماء التوحيد وفقهاء المذاهب ، وقرر جمهورهم أن نصب الإمام واجب ، بصرف النظر عن كون الوجوب عقليًّا أو سمعيًّا ، وأوردوا آيات وأحاديث ، وقرروا أن المسلمين مجمعون على ذلك ، غير آبهين بأقوال شاذة لبعض الفرق ، ووضعوا شروطاً لمن يصلح للإمامة أشرت إليها في كتاب «الإسلام هو الحل» [4] ويهمنا هنا من الشروط ما يتصل بالسؤال وهو حديث «الأئمة من قريش» وخلاصة ما قيل في ذلك ما يأتي :

روى البخاري ومسلم حديثاً عن النبي ﷺ ورد بألفاظ متقاربة جاء فيها أن الناس تبع لقريش ، وأن الأئمة يكونون منهم ، ويؤخذ من كلام الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ في كتابه «الأحكام السلطانية» ومن كلام النووي المتوفى سنة ٦٧٦هـ في شرح صحيح مسلم [5] ومن كلام الإيجى من علماء القرن الثامن الهجري في

١- ج ١ ص ٧٢١ .		٢- رواه مسلم .
٣- في ص ٧٢٢.
٤- الذي طبع مرة ثانية بعنوان «المنهج السليم إلى طريق الله المستقيم» .
٥- ج١٢ ص ١٩٩ وما بعدها .

كتابه «المواقف في علم الكلام» ومن كلام ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ في كتابه «المقدمة» ومن مصادر أخرى : أن الناس في اشتراط القرشية في الخليفة فريقان :

الفريق الأول : يشترط في الخليفة - إلى جانب الشروط الأخرى - أن يكون قرشيًّا ، وهو رأي الجمهور الذي قال به أهل السنة ، وأكثر الزيدية وأكثر المرجئة ، وسائر فرق الشيعة ومن أدلتهم على ذلك :

أ - حديث البخاري ومسلم «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقى من الناس اثنان».

ب- حديث مسلم «الناس تبع لقريش في الخير والشر» ومعناه في الإسلام والجاهلية كما هو مصرح به في رواية لمسلم «الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم» لأنهم كانوا في الجاهلية رؤساء العرب وأصحاب الحرم ، ولما أسلموا وفتحت مكة تبعهم الناس ودخلوا في دين الله أفواجاً ، وكذلك في الإسلام هم أصحاب الخلافة والناس تبع لهم .

ج - حديث «قدموا قريشاً ولا تَقَدَّموها» أي لاتتقدموا عليها [1] .

د - الإجماع من الصحابة والتابعين ومن بعدهم على عدم مزاحمة قريش في الخلافة إلى عصر النووي ومن كتبوا في هذا الموضوع ويستند الإجماع إلى الحديث القائل «ما بقى من الناس اثنان».

يقول القاضي عياض -كما نقله النووي- : اشتراط كونه قرشيًّا هو مذهب العلماء كافة ، قال : وقد احتج به أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على الأنصار يوم السقيفة -سقيفة بين ساعدة- فلم ينكره أحد ، وبيان ذلك أن المسلمين لما اجتمعوا في السقيفة عقب وفاة النبي ﷺ لاختيار خليفة له ، بايع الأنصار سعد بن عبادة ، وقالوا للمهاجرين : منا أمير ومنكم أمير ، فاحتجت قريش -المهاجرون- على

١- أخرجه الشافعي في المسند والبيهقي في المعرفة ، كلاهما عن ابن شهاب الزهري بلاغاً ، أي قال: بلغنا عن رسول الله ذلك . وابن عدي في الكامل عن أبي هريرة وصححه السيوطي. وورد في حديث ثالث أخرجه البزار في مسنده عن علي وصححه السيوطي «فيض القدير للمناوي على الجامع الصغير ج٤ ص ٥١١».

الأنصار بهذا الحديث وقالوا لهم : إن النبي ﷺ أوصانا بأن نحسن إلى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم، ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الوصية لكم ، فرجع الأنصار عن قولهم .

والذين حصروا الخلافة في قريش اختلفوا في تعميمها في كل قريش أو تخصيصها ببعض منهم ، كبني عبدالمطلب أو بني أمية أو غيرهما ، وذهب ببعضهم التعصب إلى حد التجاوز عن الشروط الأخرى التي يجب توافرها في الإمام ، فأجازوا عقدها للقرشي ولو كان عاجزاً عن القيام بأمور المسلمين.

الفريق الثاني : لايشترط القرشية في الإمام ، وهو قول المعتزلة وجماعة الزيدية ، وجميع الخوارج إلا النجدات . وقد حمل عليهم أصحاب الرأي الأول حملة عنيفة، جاء منها قول القاضي عياض -كما نقله النووي- : لااعتداد بقول النظّام -من المعتزلة- ومن وافقه من الخوراج وأهل البدع إنه يجوز كونه من غير قريش ، ولابسخافة ضرار بن عمرو «الغطفاني» في قوله : إن غير القرشي من النبط وغيرهم يقدم على القرشي . لهوان خلعه إن عرض منه أمر ، وهذا الذي قاله من باطل القول وزخرفته ، مع ما هو عليه من مخالفة إجماع المسلمين[1].

استند هذا الفريق إلى ما يأتي :

أ - أن الله لم ينص على رجل بعينه ، ولا رسول الله ﷺ نص على ذلك ، ولا اجتمع المسلمون عندهم على رجل بعينه ، فاختيار ذلك مفوض إلى الأمة ، ورد عليهم الجمهور بأنه لم ينص على رجل ، وإنما نص على النوعية أو الجماعة التي يكون منها ، وهي قريش .

ب - الحديث الصحيح «اسمعوا وأطيعوا وإن ولِّي عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة» وهذا يدل على أنه يجوز أن يكون الإمام عبداً حبشيًّا وليس قرشيًّا ، وردَّ عليه بأن الحديث خرج مخرج التمثيل والفرض ، وذلك للمبالغة في وجوب السمع والطاعة .

١- النووي على مسلم ج١٢ ص ٢٠٠.

ج - قول عمر بن الخطاب : لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًّا ما جعلتها شورى ، أولوليته ، أو لما دخلتني فيه الظنة ورُدَّ عليه بأن مذهب الصحابي ليس بحجة ، أو بأن مولى القوم منهم وعصبية الولاء حاصلة لسالم في قريش ، وعندما استعظم عمر أمر الخلافة ورأى شروطها كأنها مفقودة في ظنه عدل إلى سالم لتوفر هذه الشروط فيه حتى من النسب المفيد للعصبية .

د - الإجماع : فالاختيار جرى في أمصار ، ولم يَبدُ نكير عن عالم على أصل الاختيار ، وردَّ عليه بأن الاختيار في الأمصار لم يكن للخليفة العام بل لأمراء في الأقاليم أو لحكام في ولايات استقلت .

هذا ملخص ما قيل في اشتراط القرشية وعدم اشتراطها ، والذي رآه كبار المحققين، وهو موافق لروح الشريعة وحكمة الشروط التي اشترطت في الإمامة، ما يلي :

١ - أن الإمام لابد أن تكون فيه الكفاية للقيام بمهمته ، من سلامة الجسم وسلامة الفكر واستقامة السلوك ، ومن الهيبة التي يحترمه بها الصديق ويخشاه العدو ، وهذه الهيبة لها عدة عوامل ، قد يكون منها أصالة النسب وقوة العشيرة ووفرة الغنى وكثرة الانتصارات في ميادين الإصلاح وغير ذلك .

٢ - أن اشتراط القرشية التي نص عليها الحديث ، ليس المقصود منه التبرك بالانتساب إلى النبي ﷺ وعشيرته ، فليس ذلك من مقاصد الإمامة ، وإنما من مقاصدها قوة النفوذ وهيبة السلطان لتحقيق المصلحة للأمة ودفع الشر عنها ، وإذا كان الحديث متفقاً مع هذا المقصد في أيام النبي ﷺ وبعدها بقليل ، فربما لا يتفق في وقت آخر ، فيكون واقعة حال لا يتعداها ، ولا تُلتزم بعد ذلك .

٣ - وإذا كان النبي ﷺ جعل الخلافة في قريش مؤبدة «ما بقي في الناس اثنان» فليس ذلك على إطلاقه ، بل هو مشروط بتوافر العوامل الأخرى فيهم حتى تكون من حقهم ، ويدل على ذلك ما رواه أحمد برواة ثقات والبزار والدارقطني وهو : أن النبي ﷺ وقف على باب بيت فيه نفر من قريش وقال

«إن هذا الأمر في قريش ما إذا استُرحموا رحموا وإذا حكموا عدلوا ، وإذا قسموا أقسطوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لايقبل منه صرف ولاعدل» وجاء في رواية لأحمد عن أنس أن النبي ﷺ قال «الأئمة من قريش ، إن لي عليكم حقًّا ولهم عليكم حقًّا مثل ذلك ، ما إن استُرحموا رحموا ، وإن عاهدو وفُّوا ، وإن حكموا عدلوا ...».

وهذا ما أميل إليه من أن العبرة بوجود الشروط التي تليق بمقام الإمامة وتساعد على تحقيق المصلحة العامة ، ولا يغيب عنا قوله ﷺ «إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فقد ضيعت الأمانة» [1] ، وما جاء من الأحاديث التي تنهى عن تولية من ليس كفؤاً للولاية في أي قطاع من القطاعات ، وما فعله ﷺ من تفضيله تولية القيادة والإمارة من يصلح أكثر من غيره من السابقين في الإسلام ، ومن عدم الاستجابة لأبي ذر عندما طلب منه ولاية ، حيث قال له «إنك ضعيف وإنها أمانة» [2].

ولعل بعض القائلين بعدم اشتراط القرشية في الإمامة لاحظوا في أزمانهم ذهاب القوة التي كان يتمتع بها القرشيون . وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته فقال: ومن القائلين بنفي اشتراط القرشية أبو بكر الباقلاني لما أدرك ما عليه عصبية قريش من التلاشي والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء ، فأسقط القرشية وإن كان موافقاً لرأي الخوارج لما رأى عليه حال الخلفاء لعهده .



س : هل يجوز للمرء أن يتخذ قراره في مختلف شئون حياته دون الرجوع إلى أولي الأمر عملاً بالقول «استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك»؟

ج : هذا الحديث كان لوابصة بن معبد الذي جاء إلى الرسول يسأل عن البر ، فهناك أمور واضحة المعالم ثابتة كالصلاة والصيام والزكاة ، وهناك أمور لا نص فيها يمكن للإنسان أن يعرف حكمها بالقياس على حكم مسألة تشابهها ، مع سؤال

١- رواه البخاري . ٢- رواه مسلم .

أهل الذكر في ذلك ، والذي تميل إليه نفسه المؤمنة الطالبة للخير والمتحرية للصواب يأخذ به ، لأن قلبه العامر بالإيمان سيجعله بعيداً بقدر الإمكان عن الشبهات ، أما القلب الذي ليس بهذه القوة والمنزلة فهو قلب يميل مع الهوى والشهوات والغرائز ، ولايعتبر مقياساً للحلال والحرام ، بل يكون ممن قال الله فيهم ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية : ٢٣] وقال ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ [آل عمران : ٧] .

إن المستعمرين والمفسدين استفتوا قلوبهم فقاموا بهذه المنكرات التي لا يوافق عليها أي دين ، فلا يجوز مطلقاً أن نغتر باستفتاء القلب أيًا كان القلب وأيًا كان الموضوع المستفتى فيه ، فالمراد بالقلب القلب المؤمن المحب للطاعة. والموضوع المستفتى فيه هو ما لم يكن فيه نص يعرف به حكمه على وجه اليقين ، حيث يكون فيه خلاف .



س : ما حكم الدين فيمن يلعن اليوم أو الدهر أو غيرهما ؟

ج : اللعن معناه الطرد من رحمة الله ، وهو منهي عنه بوجه عام ، فالمؤمن لايكون لعاناً ولا يكون شفيعاً ولا شهيداً يوم القيامة كما جاء في الأحاديث التي رواها مسلم، وروى أبو داود والترمذي حديث «من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه» حتى الدابة لايجوز لعنها ، فقد روى مسلم أن امرأة من الأنصار كانت في سفر مع النبي فضجرت من ناقتها فلعنتها ، فقال الرسول «خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة» وقال كما رواه مسلم في رواية أخرى «لاتصاحبنا ناقة عليها لعنة».

جاء في الأذكار للنووي [1] ، أنه يجوز لعن أصحاب المعاصي بالعنوان العام كما لعن الرسول آكل الربا والواصلة والنامصة والسارق ومن يلعن والديه ، ومن اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد .. أما لعن إنسان بعينه ممن اتصف بشيء من المعاصي كزانٍ

١- ص ٣٥٠ .

وسارق وآكل ربا فظواهر الأحاديث أنه ليس بحرام ، وأشار الغزالي إلى تحريمه إلا في حق من علمنا أنه مات على الكفر كأبي لهب وأبي جهل وفرعون وهامان وأشباههم ، قال : لأن اللعن هو الإبعاد عن رحمة الله تعالى وما ندري ما يختم به لهذا الفاسق أو الكافر وأما الذين لعنهم رسول الله بأعيانهم فيجوز إنه علم موتهم على الكفر . انتهى .

والذي يلعن الزمان أو المكان خالف هدي الرسول ﷺ في النهي عن اللعن . وبخصوص الدهر جاء حديث البخاري ومسلم «قال الله تعالى : يسب بنو آدم الدهر وأنا الدهر ، بيدي الليل والنهار» وفي رواية «أقلب ليله ونهاره ، وإذا شئت قبضتهما» وفي رواية لمالك «لايقل أحدكم يا خَيْبَةَ الدهر ، فإن الله هو الدهر».

يقول الحافظ المنذري : معنى الحديث أن العرب كانت إذا نزلت بأحدهم نازلة أو أصابه مصيبة أو مكروه يسب الدهر ، اعتقاداً منهم أن الذي أصابه هو فِعْلُ الدهر ، فكان هذا اللعن للفاعل ، ولافاعل لكل شيء إلا الله تعالى خالق كل شيء ، فنهاهم النبي ﷺ عن سب الدهر ، لأنه مدرجة لسب فاعل الأمور وخالقها وهو الله تعالى.



س : هل من الحديث «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» وهل ينطبق على ما حدث بين علي ومعاوية ؟

ج : روى البخاري ومسلم عن أبي بكرة أن النبي ﷺ قال «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قلت : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» قال النووي في شرحه [1] كون القاتل والمقتول من أهل النار محمول على من لا تأويل له ، ويكون قتالهما عصبية ونحوها.. ثم قال : واعلم أن الدماء التي جرت بين الصحابة رضي الله عنهم

١- صحيح مسلم ج١٨ ص ١١ .

داخلة في هذا الوعيد ، ومذهب أهل السنة والحق إحسان الظن بهم والإمساك عما شجر بينهم وتأويل قتالهم ، وأنهم مجتهدون متأولون لم يقصدوا معصية ولا محض الدنيا ، بل اعتقد كل فريق أنه المحق ومخالفه باغ ، فوجب عليه قتاله ليرجع إلى أمر الله وكان بعضهم مصيباً وبعضهم مخطئاً معذوراً في الخطأ ، لأنه بالاجتهاد ، والمجتهد إذا أخطأ لا إثم عليه ، وكان عليٌّ رضي الله عنه هو المحق المصيب في تلك الحروب.

هذا مذهب أهل السنة وكانت القضايا مشتبهة ، حتى إن جماعة من الصحابة تحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين ولم يقاتلوا ، ولم يتيقنوا الصواب ثم تأخروا عن مساعدته منهم. انتهى .

ونقل الشوكاني [1] عن الحافظ ابن حجر ما يتفق مع ما ذكره النووي ، وذكر ما أخرجه البزار في رواية «إذا اقتتلتم على الدنيا فالقاتل والمقتول في النار» ويؤيده ما أخرجه مسلم بلفظ «لاتذهب الدنيا حتى يأتي على الناس زمان لايدري القاتل فيم قَتل ولا يدري المقتول فيم قُتل» فقيل كيف يكون ذلك ؟ قال «الهرج ، القاتل والمقتول في النار» قال القرطبي : فبيَّن هذا الحديث أن القاتل إذا كان على جهل من طلب دنيا أو اتباع هوى فهو الذي أريد بقوله «القاتل والمقتول في النار» قال الحافظ: ومن ثَم كان الذين توقفوا عن القتال في الجمل وصفِّين أقل عدداً من الذين قاتلوا ، وكلهم مأجور إن شاء الله ، بخلاف من جاء بعدهم ممن قاتل على طلب الدنيا.

هذا ، وقد حمل بعض العلماء الحديث على من استحل ذلك ، ويؤيد أن الوعيد هو لمن قاتل للدنيا وليس لله حديث رواه مسلم «من قاتل تحت راية عُمية فغضب لغضبه ، أو يدعو إلى عصبية ، أو ينصر عصبيته فقتل فقتله جاهلية» والعمية هي الجهل .



---

١ - نيل الأوطار ج ٧ ص ٥٠ .

س : ما رأي الدين في الحديث المشهور عن غمس الذبابة في الشراب إذا وقعت فيه ؟

ج : روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه ، فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء» وجاء في روايات لغير البخاري التعبير بإناء بدل شراب ، والتعبير بقوله «فامقلوه» بدل «فليغمسه» وأن الذباب يقدم الجناح الذي فيه الداء ويؤخر الجناح الذي فيه الدواء ، والحديث يأمر بنزع الذبابة بعد غمسها وعدم تركها في الإناء.

حول هذا الحديث قامت معركة كبيرة بين الأطباء أنفسهم ، وأدلى كل فريق بوجهة نظره ، وتبين من كلامهم -وهم أهل الذكر في الناحية الطبية- أن الطب ما زالت فيه أسرار لم يصل العلم إلى كشفها حتى الآن ، وقام بعض خبراء التحليل ببحوث أثبت فيها أن الذباب -وبخاصة النوع الذي يعرف بالزنبور- في جسمه سم وترياق ، أو مرض ودواء ، ومعروف لدى الجميع أن سم العقرب يعالج بسم العقرب بعد إجراءات خاصة، والتحصين من بعض الأمراض يكون بمسبب هذه الأمراض بعد ترويض الميكروبات أو الفيروسات -حسب مصطلحهم- بعمليات معينة.

وأكد علماؤنا الأجلاء أن الحديث ما دام قد ثبت بطريق صحيح فلا ينبغي أن نسارع بتكذيبه إذا خالف شيئاً مألوفاً لم يصل إلى درجة الحقيقة القاطعة، ولا أن نسارع بتأويله ليناسب ما عهدناه ، إلا إذا ثبت بالقطع الذي لا يعتريه شك ، فهنا يكون التأويل مسموحاً به ، ووجوه هذا التأويل كثيرة . والتعارض بين النص والحقيقة هو تعارض في ظاهر النص لافي حقيقته ، لأن الحقيقتين لا تتعارضان أبداً تعارضاً كاملاً من كل الوجوه ، لأنهما من صنع الله الحكيم .

ومن العلماء المرموقين في التوفيق بين الروايات التي يتعارض بعضها مع بعض : ابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦هـ ، وأشار إلى حديث الذباب في كتابه «تأويل مختلف الحديث» وأورد كلام الأطباء في منافع الحيات والعقارب والذباب.

والمرحوم الشيخ يوسف الدجوي أجاب عن هذا الحديث بما لا يخرج عما تقدم وأيده بمحاضرة ألقاها السيد -إبراهيم مصطفى عبده- معيد في الصيدلة وتركيب العقاقير الطبية- في جمعية الهداية الإسلامية بالقاهرة بتاريخ ١٩/ ٣ / ١٩٣١م ، ونشر ذلك بمجلة الإسلام في ٣٠/ ١٢/ ١٩٣٢م ، أيدها بتجارب ونُقُول عن كبار الأطباء العالميين ، كما نشر بمجلة الأزهر «عدد رجب ١٣٧٨هـ» وكان هذا الحديث ضمن الرسالة التي قدمها المرحوم الشيخ محمد محمد أبو شهبة لنيل درجة الأستاذية سنة ١٩٤٦م وفيه نُقُول طبية عن كبار الأطباء [1].

وجاء في محاضرة الأستاذ إبراهيم مصطفى أن الذباب يقع على العفونات وما فيها من جراثيم ، ويتحول ما يأكله في داخل جسمه إلى ما سماه علماء الطب «البكتريوفاج» الذي ينتصر على كثير من الجراثيم ، وأثبت ذلك بما نقله عن مجلة التجارب الطبية الإنجليزية «عدد ١٠٣٧ عام ١٩٢٧م».

وبرهن على ذلك أيضاً الدكتور «دريل» مندوب الصحة البحرية في الهند للبحث عن ظهور الكوليرا فيها ، وقدم تقريراً عن بحوثه في ديسمبر ١٩٢٧م ، وأكد فاعلية البكتريوفاج الذي ينقله الذباب من براز الناقهين إلى آبار الماء ، فيشربه الأهالي ، فسرعان ما تخف عنهم وطأة الكوليرا ثم تزول . وأجريت مثل تجارب الدكتور «دريل» في البرازيل عن الدوسنتاريا الحادة ، واستعمل البكتريوفاج في علاج الحمى التيفودية ، وضد جراثيم أخرى .

ويقول الأستاذ إبراهيم مصطفى ، اطلعت على تفصيل قوة البكتريوفاج في مقاومة وإبادة الجراثيم في كتاب باللغة الإنجليزية اسمه «تمهيد البكتريولوجي العملي» الذي يدرس في كلية الطب المصرية ، يكاد يذكر أنها غير محدودة.

ثم يقول الشيخ يوسف الدجوي بعد استشهاده بهذه المحاضرة : ومع ذلك نقول بالاحتياط من الذباب ، وغاية ما يريده الحديث أنك إذا فرطت في الوقاية فلا تفرط في العلاج بغمس الذبابة كلها .



١- يمكن الرجوع في هذا الموضوع إلى كتابه «دفاع عن السنة» صفحة ١٩٩ .

س : هل صحيح أن أية شبهة في جريمة تسقط الحد ؟

ج : روى ابن ماجه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : «ادفعوا الحدود ما وجدتم لها مدفعاً» وروى الترمذي عن عائشة أن النبي ﷺ قال : «ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله ، فإن الإمام إن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة» [1].

يقول الشوكاني [2] : حديث ابن ماجه ضعيف، وحديث الترمذي عن عائشة في إسناده راو ضعيف ، قال البخاري عنه :إنه منكر الحديث ، وقال النسائي متروك . والحديث المرفوع عن علي «ادرءوا الحدود بالشبهات» فيه راو منكر الحديث كما قال البخاري .

وأصح ما فيه حديث سفيان الثوري عن عاصم عن أبي وائل عن عبدالله بن مسعود قال «ادرءوا الحدود بالشبهات ، ادفعوا القتل عن المسلمين ما استطعتم» ورواه ابن حزم عن عمر موقوفاً عليه ، قال الحافظ : وإسناده صحيح.

وانتهى الشوكاني إلى القول بأن حديث الباب وإن كان فيه مقال فقد شد من عضده ما ذكرناه فيصلح بعد ذلك للاحتجاج على مشروعية درء الحدود بالشبهات المحتملة لامطلق الشبهة ، وقد أخرج البيهقي وعبدالرزاق عن عمر أنه عذر رجلاً زنى في الشام وادعى الجهل بتحريم الزنى ، وكذا روي عنه وعن عثمان أنهما عذرا جارية زنت وهي أعجمية وادعت أنها لم تعلم التحريم .



س : هل من الحديث ما يقال «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» ؟

ج : جاء في الجامع الكبير للسيوطي أن هذا الحديث رواه البخاري عن عائشة مرفوعاً إلى النبي ﷺ ، ورواه أيضاً مسلم وأحمد .

---

١ - ذكر الترمذي أنه روي موقوفاً وأن الوقف أصح ، قال :وقد روي عن غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم أنهم قالوا مثل ذلك .
٢ - نيل الأوطار ج ٧ ص ١١٠ .

وجاء في تخريج العراقي لأحاديث «إحياء علوم الدين» أن البخاري ذكره تعليقاً عن عائشة، أي لم يذكر له سنداً ، وأن مسلماً رواه عن أبي هريرة ، وأورد الغزالي مناسبته في حديث أخرجه الحسن بن سفيان في مسنده فقال : روى أن امرأة بمكة كان تُضْحِك النساء وكانت بالمدينة أخرى ، فنزلت المكية على المدنية ، فدخلت على عائشة فأضحكتها فقالت : أين نزلت ؟ فذكرت لها صاحبتها . فقالت عائشة : صدق الله ورسوله ، سمعت رسول الله يقول : «الأرواح جنود مجندة ..» [1].



س : هل من الحديث ما يقال : شكا رجل إلى النبي ﷺ أن امرأته لاترد يد لامس ، فقال «طلقها» قال : إني أخاف أن تتبعها نفسي ، فقال «استمتع بها» ؟ وقد قرأت أن ابن القيم يقول :أي أنها لاتجذب نفسها ممن لاعبها ووضع يده عليها أو جذب ثوبها ونحو ذلك ، فإن من النساء من تلين عند الحديث واللعب ونحوه[2] ؟

ج : هذا الحديث رواه أبو داود عن ابن عباس ، ورواه الترمذي والبزار ، ورجاله ثقات . وأخرجه النسائي من وجه آخر ، وقال عنه : إنه مرسل وليس بثابت ، وقال أحمد : حديث منكر ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات [3] وذكره صاحب المطالب العالية [4] .

وعلى فرض ثبوته اختلف في معناه ، فاختار أحمد أن عيبها اقتصادي وليس خلقيًّا يتصل بالشرف ، أي أنها تعطي من يطلب منها إحساناً ولاترد أحداً يلتمس منها ذلك . وهذا يؤثر على الحالة الاقتصادية للزوج ، ولما علم الرسول أنه يحبها أمره بإمساكها ، فربما تميل إليها نفسه بالمعصية .

١- يراجع توضيح ذلك في الإحياء ، ج ٢ ص ١٤٢ ، طبعة عثمان خليفة .
٢- روضة المحبين ص ١٣٠ .
٣- الإحياء ج٢ ص ٣٤ .
٤- ج٢ ص ٥٣ ، وقال : رواه أحمد بن منيع بسند ضعيف كما قاله البوصيري .

وقيل : إن عيبها خلقي لا تتورع عن الفاحشة ، ولكن كيف يأمره النبي بإمساكها وهو الذي ذم الديوث الذي يقر السوء على أهله ؟ قيل : إن النبي ﷺ أمره أولاً بطلاقها، ولما وجد تعلقه بها أمره بإمساكها من أجل تربية الأولاد أو عدم الصبر على الاتصال بها إن طلقها، لكن ذلك كله يتنافى مع الشرف الذي أمر الرسول ﷺ بحمايته .

وقيل : إن طبعها هو ذلك لكنه لم يقع منها شيء ، فالرسول ﷺ لا يقر الفاحشة، ولعل هذا التفسير أقرب ، يقول فيه علي وابن مسعود : إذا جاءكم الحديث عن رسول الله ﷺ فظنوا به الذي هو أهدى وأتقى [١] .



س : هل هناك حديث يقول : «من نام بعد العصر فاختل عقله فلا يلومن إلا نفسه» ؟

ج : ليس حديثاً ، بل هو من قول بعض السلف ، كما في زاد المعاد [٢].



س : هل صحيح أن النبي ﷺ لما نزل قوله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى : ٥] قال : «لا أرضى وواحد من أمتي في النار»؟

ج : جاء في تفسير القرطبي لهذه الآية قوله : في صحيح مسلم عن عبدالله ابن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم : ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم : ٣٦] وقول عيسى : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة : ١١٨] فرفع يديه وقال «اللهم أمتي أمتي» وبكى ، فقال الله تعالى لجبريل : «اذهب إلى محمد ، وربك أعلم ، فسله ما يبكيك» فأتى جبريل النبي ﷺ فسأله فأخبره ، فقال الله تعالى لجبريل : اذهب إلى محمد فقل له : إن الله يقول لك:

١- تفسير ابن كثير لسورة النور ، ونهاية ابن الأثير .
٢- ج٣ ص ١٤٣ .

«إنا سنرضيك في أمتك ولانسوءك» ثم قال القرطبي : وفي الحديث لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ «إذاً والله لا أرضى وواحد من أمتي في النار» وهذا الحديث رواه الديلمي في الفردوس عن علي ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية موقوفاً عَلَى عَليّ ، وهو مرفوع حكماً إذْ لا مدخل للرأي فيه ، وذكر القسطلاني أنه من غرور الشيطان ولعبه بهم أي الشيعة . لأن الرسول يرضى بما يرضى به ربه ومنه إدخال النار من يستحقها من الكفار والعصاة المسلمين . ثم يحدد الله لرسوله من يشفع فيهم ولايزيد على ذلك، وقيل في توضيح ما نسب إلى عليّ : لا يرضى بالدخول على وجه الخلود [1] .



س : هناك كلام عن حديث «إني تركت فيكم الثقلين...» نرجو توضح ذلك؟

ج : جاء في مستدرك الحاكم : حدثنا أبو بكر محمد بن الحسين بن مصلح الفقيه عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ «إني تركت فيكم الثقلين ، كتاب الله وأهل بيتي وإنهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض» ثم قال الحاكم : وهذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه [2] . ورواه الترمذي في سننه هكذا : عن جابر بن عبدالله قال : رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول « يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا ، كتاب الله وعترتي أهلي» [3] .

وهناك حديث ثان أخرجه الحاكم في المستدرك هكذا - حدثنا أبو بكر أحمد ابن إسحاق الفقيه عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خطب الناس في

١- أول لا يرضى دخولهم النار دخولاً يشدد عليهم العذاب بل يكون خفيفاً ، بل نسب إلى الرسول قوله : «إنما حرُّ جنهم على أمتي كحر الحمام» أخرجه الطبراني برجال ثقات عن الصديق ، وللدارقطني عن ابن عباس رفعه «إن حظ أمتي من النار طول بلائها تحت التراب» الزرقاني على المواهب اللدنية «ج٦ ص ٢١٢».

٢- «المستدرك للحاكم» رقم ٣٠٩ ج٣ ص ١٦٠ طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان

٣- أخرجه الترمذي في سننه «كتاب المناقب ، باب مناقب أهل البيت» وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب ج ٥ ص ٦٦٢ .

حجة الوداع فقال «قد يئس الشيطان أن يعبد بأرضكم ، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروا يا أيها الناس ، إني تركت ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، إن كل مسلم أخ للمسلم ، المسلمون إخوة ، ولا يحل لامرئ من مال أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس ، ولاتظلموا ولا ترجعوا من بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» ثم قال الحاكم : وهذا الحديث لخطبة النبي ﷺ متفق على إخراجه في الصحيح (١) .

ثم روى حديثاً آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ : «إني تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما ، كتاب الله وسنتي ، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض» (٢) .



س : هل من الحديث ما يقال « رجب شهر الله وشعبان شهري ورمضان شهر أمتي» ؟

ج : ألف ابن حجر العسقلاني رسالة بعنوان «تبيين العجب بما ورد في فضل رجب» أورد فيها أحاديث ما بين ضعيف وموضوع ، وذكر أنه لايوجد حديث صحيح خاص بفضل الصيام أو الصلاة في شهر رجب بالذات ، ونص عبارته : لم يرد في فضل رجب ولا في صيامه ولا في صيام شيء منه معين ، ولا في قيام ليلة مخصوصة فيه ... حديث صحيح يصلح للحجة ، وقد سبقني إلى الجزم بذلك الإمام أبوإسماعيل الهروي الحافظ.

وذكر حديث «رجب شهر الله وشعبان شهري ، ورمضان شهر أمتي» كما ذكر حديث «خيرة الله من الشهور شهر رجب وهو شهر الله من عظم شهر رجب فقد عظم أمر الله ، ومن عظم أمر الله أدخله الله جنات النعيم ، وأوجب له رضوانه

١- حديث رقم ٣١٨/ ٣١ ص ١٧١ ج١.

٢- ص ٩١٩ / ٣٢ ج١ ص ١٧٢ ، وأخرجه الإمام مالك في الموطأ ٢ / ٨٩٩ كتاب القدر .

الأكبر ، وشعبان شهري ، فمن عظم شهر شعبان فقد عظم أمري ، ومن عظم أمري كنت له فرطاً وذخراً يوم القيامة ، وشهر رمضان شهر أمتي ، فمن عظم شهر رمضان وعظم حرمته ولم ينتهكه وصام نهاره وقام ليله وحفظ جوارحه – خرج من رمضان وليس عليه دين يطلبه الله تعالى به» .

قال البيهقي : هذا حديث منكر . «قلت» أي قال ابن حجر : بل هو موضوع ظاهر الوضع ، بل هو من وضع «نوح الجامع» وهو أبو عصمة الذي قال عنه ابن المبارك لما ذكره لوكيع : عندنا شيخ يقال له أبو عصمة كان يضع الحديث ، وهو الذي كانوا يقولون فيه «نوح الجامع» جمع كل شيء إلا الصدق ، وقال الحنبلي : أجمعوا على ضعفه [1].



س : ما هي حكمة مشروعية الجهاد في الإسلام ؟

ج : الجهاد من الكلمات التي أُسيء استعمالها لعدم فهم معناها فهما صحيحاً ، فالجهاد مأخوذ من الجَهْد وهو التعب ، أو الجُهد وهو القوة ، فالمجاهد يبذل جُهْداً يحس فيه بِجَهْد ، أي يبذل قوة يحس فيها بتعب ، ومعنى الجهاد بذل الجهد لنيل مرغوب فيه أو دفع مرغوب عنه ، يعني لجلب نفع أو منع ضر ، وهو يكون بأية وسيلة وفي أي ميدان حسي أو معنوي ، ومنه جهاد النفس والشيطان وجهاد الفقر والجهل والمرض وجهاد البشر . والنصوص في ذلك كثيرة ، وجهاد البشر يكون بدفع الصائل المعتدي على النفس أو المال أو العرض ، والميت في هذا الجهاد شهيد كما صح في الحديث ، كما يكون الجهاد عند الاعتداء على الأوطان والحرمات ، أو الوقوف ضد الدعوة إلى الخير .

والجهاد في سبيل الله عرف في الشرع بما يرادف الحرب لإعلاء كلمة الله ، ووسيلته حمل السلاح وما يساعد عليه ويتصل به من إعداد وتمويل وتخطيط ،

---

١ – الإسلام – العدد ٣٠ ، ٣١ من السنة الثالثة .

ويشترك فيه عدد كبير من الناس ، من زراع وصناع وتجار وأطباء ومهندسين وعمال ورجال أمن ودعاة وكُتّاب ، وكل من يسهم في المعركة من قريب أو بعيد .

وكان هذا الجهاد هو الشغل الشاغل للمسلمين في بدء تكوين المجتمع الإسلامي وأكثر آيات القرآن وأكثر الأحاديث كانت للأمر به والتشجيع عليه : ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٤١] وهو فرض عين على كل قادر عليه إن أغار علينا العدو ، وفرض كفاية إن لم تكن إغارة علينا ، وإذا استنفر الإمام القوة وجب الخروج ، لقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ....﴾ [التوبة:٣٨] وحديث البخاري ومسلم «وإذا استنفرتم فانفروا» لقد كان هناك انتقال بالدعوة لنشرها في ربوع العالم حيث يقوم بذلك جماعة من القادرين نيابة عن غيرهم ما دامت فيهم كفاية ، وكل مسلم يجب أن يكون مستعدًّا لإجابة الداعي إلى الجهاد ، وعليهم جميعاً أن يكونوا على أقصى درجات الاستعداد ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ....﴾ [الأنفال : ٦٠] .

لكن : هل حمل السلاح هو الوسيلة الوحيدة لنشر الدعوة ؟ إن مهمة حمل السلاح كانت لغرضين أساسيين ، أولهما : رد العدوان الواقع أو المنتظر ،

والثاني : تأمين طريق الدعوة . ورَدُّ العدوان ظهر في غزوات بدر وأحد والخندق وغيرها، وكان عدواناً حقيقيًّا واقعاً ، ومنه إغاثة المظلومين : ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ....﴾ [الأنفال : ٧٢] أما رد العدوان المنتظر فكان في فتح مكة حيث نقضت قريش عهدها الذي أبرمته مع النبي ﷺ في الحديبية ، وفي غزوة تبوك وغيرها . وتأمين الطريق كان في تحرك المسلمين خارج حدود المدينة لنشر الدعوة في أنحاء العالم ، لأنها دعوة عالمية للناس جميعاً .

إن الإسلام إذا كان قد فرض القتال ، والرسول عليه الصلاة والسلام إذا أخبر أنه بعث بالسيف ، وجُعل رزقه تحت ظل رمحه ، كما رواه أحمد عن ابن عمر ، فإن الواجب أن نفهم أن الإسلام أمر بالقوة ، بل دعا إلى أن يكونوا في أعلى درجاتها ، والسبب في ذلك أن الإسلام قوة جديدة فالمنتظر أن تحاربها القوات القائمة إذا ذاك

حتى لا تزاحمها في سلطانها ، وذلك شأن الناس في كل العصور ، فلابد من الدفاع عن الكيان الجديد ليثبت وجوده ويؤدي رسالته ، ولو أن الإسلام كان دعوة محلية أو مؤقتة لكانت مهمة التسلح هي من أجل الدفاع ، لكنه دعوة عالمية لابد أن تبلغ للعالم كله ، والوسيلة إذ ذاك هي السفر والضرب في الأرض ، والسفر كان وما يزال تحفُّه المخاطر ، فكان لابد من التسلح حتى لايقف الأعداء في طريق الدعوة .

وإذا كان السيف لابد منه لتأمين طريق الدعوة في الماضي ، فإنه في هذه الأيام لامهمة له إلا الدفاع ضد من يريدون شرًّا بالإسلام وأهله ، أما نشره فله عدة وسائل لاتحتاج إلى سفر ولا تخشى معه مخاطر الطريق ، فالصحف والمكاتبات وما إليها أصبحت تتخطى الحدود ، ولئن أمكن التحكم فيها إلى حد ما ، فإن الإذاعات اليوم أصبحت من القوة والانتشار ، بحيث لاحقت الناس وهم في بيوتهم وعلى أَسِرَّةِ نومهم لا تمنعها سلطة ولاتقف دونها حدود ولا أبواب .

هذا ، وما يروى أن النبي ﷺ قال لأهل مكة قبل الهجرة «أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح» كما رواه الطبراني - فهو حديث ضعيف يرده العقل والنقل، أما الأول فلأن الرسول ﷺ كيف يصرح بذلك في بدء الدعوة وهو منفر لها لا مرغب فيها؟ وكيف يقوله وهو ضعيف لايستطيع حماية نفسه فضلاً عن حمايته لأتباعه القلة؟ ولماذا تركته قريش وهم يعلمون ما جاء به من الذبح ليحقق ما يريد ، ولم يتغدوا به قبل أن يتعشى بهم ؟

وأما الثاني فلمنافاته لآية ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء :١٠٧] وحديث «إنما أنا رحمة مهداة» [١] ، وما يماثله من نصوص وأحداث تدل على رقة قلبه وعظيم رحمته . ولو كان النبي ﷺ متعطشاً للدماء ، وبخاصة من قريش ما عفا عنهم عند فتح مكة وهو القادر على الانتقام منهم ، كما أن الحديث لايراد به قهرهم على الإسلام فهو يتنافى مع طبيعة الدعوة . ومعنى قوله ﷺ الذي رواه أحمد بسند صحيح «جُعل رزقي تحت ظل رمحي» أن رزقه من الغنائم التي يحصل عليها

١- رواه الحاكم والطبراني .

المسلمون من الحروب التي كان يباشر أكثرها بنفسه، وكفاية رئيس الدولة توفر من الخزينة العامة بمواردها المتعددة، ومنها الغنائم، وهو مبدأ إسلامي أقره الصحابة لأبي بكر وعمر والخلفاء.

إن الفهم السطحي لمشروعية القتال بالآيات والأحاديث ربما يوحي بأن الإسلام قد انتشر بقوة السلاح، ولولا ذلك ما كان له وجود أو ما كان بهذه المساحة الكبيرة من الأرض، أو من نفوس الناس، وكيف يقال ذلك والإسلام دين الرحمة كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وهو الذي قال ﴿ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة:٢٠٨] ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١] «لاتتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[١].

إن الدعوة الإسلامية للعرض لا للفرض، فما كانت العقائد تغرس بالإكراه أبداً، لا في القديم ولا في الحديث، والله يقول عن نوح ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨] ويقول لمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] إلى غير ذلك من النصوص. وعندما أرسل النبي ﷺ عليًّا لقتال يهود خيبر قال: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ يعني أرغمهم على الإسلام، فقال له «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حُمْرُ النِّعَم»[٢].

وإذا جاءت نصوص تدل بظاهرها على الأمر المطلق بالقتال فهناك نصوص أخرى تقيدها بما إذا كان ذلك ردًّا لعدوان وقع، أو جزاء على نكث العهد، أو منعاً لعدوان سيحدث، قال تعالى ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ [البقرة: ١٩٠] وقال تعالى ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ

١- رواه البخاري ومسلم.
٢- رواه مسلم.

﴿ٱلْكُفْرِ﴾[التوبة : ١٢] فيُقَيَّدُ بذلك قوله تعالى ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة : ٣٦] وقوله ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة : ١٩١] ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة : ١٩٣].

ولو جاءت نصوص تفيد في ظاهرها أن القتال لأجل الإسلام فالمراد أن القتال ينتهي لو أعلن الناس الإسلام ، وليس خوض المعركة أساساً من أجل أن يسلموا، وذلك مثل حديث «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» (١)، وكذلك قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة : ٢٩] فلم يكن أخذ الجزية باعثاً على القتال ولكن كان غاية ينتهي عندها إذا دفعوها ، ويؤكد أن الغرض من القتال ليس مادة أن أبا عبيدة ردَّ على أهل المدن ما أخذه منهم جزية حين استدعوا إلى مقابلة الروم في اليرموك ، لأنها كانت في مقابل حمايتهم ، وحيث إنهم تخلوا عنها فلا معنى لبقائها في حوزتهم كما ذكره أبو يوسف في كتابه «الخراج».

هذا ، ولعل الذين ينادون بالجهاد عن طريق حمل السلاح يقصدون الجهاد لتغيير الوضع الحالي للمجتمعات الإسلامية ، وقد قلنا : إن وسيلة الإصلاح لن تؤمن عاقبتها إذا كانت قائمة على العنف ، فإن للقوة إعدادها وتخطيطها الكبير الجبار ، وكذلك لدراسة كل الظروف القائمة أهميتها في القيام بمثل هذه الحركة ، ولا يجوز أن يفهم من هذا أننا نهوِّن من شأن الجهاد بمعناه العام ، فإنه ماض إلى يوم القيامة في ميادينه الواسعة وبأساليبه المتعددة ، لحديث «والجهاد ماض مذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال ، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل» (٢) ، فإنه يدل بعمومه على بقاء الجهاد في الميادين السلمية ، ويدخل فيه الجهاد المسلح دخولاً أوليًّا ، وقد يرشح دلالته عليه بخاصة ذكر قتال الدجال بعد .

١- رواه البخاري ومسلم .　　٢- رواه أبو داود .

وإذا كان الجهاد مفروضاً بالسلاح لتأمين طريق الدعوة والدفاع عن الحرمات، فذلك واضح في الجهاد ضد الكفار، أما الجهاد بين الدول الإسلامية فلا يجوز مطلقاً أن يكون للعدوان على الحقوق، بل لرد العدوان، ولا يلجأ إليه إلا إذا فشلت كل الطرق السلمية، على حد قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ... ﴾ [الحجرات: ٩] وفي الدفاع يقول الحديث «من قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون ماله فهو شهيد ...» [١]، ويُحذِّر من العدوان على الأفراد أو الجماعات أو الدول بين المسلمين فيقول «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال «كان حريصاً على قتل صاحبه» [٢].



س: جاء في الحديث «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله» فكيف يتفق هذا مع قوله تعالى ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ ؟

ج: ليس المراد من الحديث أن القتال وسيلة من وسائل دخول الناس في الإسلام، بل المراد أن الإسلام الذي يستدل عليه بالنطق بالشهادتين مانع من القتال، لا أنه غاية أو هدف له، ومثل ذلك قوله تعالى ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩] فليس المراد أن إعطاء الجزية هو الهدف من القتال ولكنه مانع منه.

وإذا كان بعض الناس يفهم من الحديث أن الإسلام قد انتشر بالسيف فإن هذا الفهم غير صحيح. لأن العقائد لاتغرس أبداً بالإكراه، وذلك أمر معروف في تاريخ الرسالات، قال الله تعالى على لسان نوح عليه السلام ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا

١- رواه أبو داود.   ٢- رواه البخاري ومسلم.

كَٰرِهُونَ ﴾ [هود : ٢٨] وقال تعالى لسيدنا محمد ﷺ ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾ [الكهف : ٢٩] وقال تعالى : ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] وقال تعالى ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة :٢٥٦] والنصوص والحوادث في ذلك كثيرة .

وأين كان السيف في مكة عندما أسلم السابقون الأولون ؟ لقد كان موجوداً ولكن كان عليهم لا لهم . وقد أثر عن عمر رضي الله عنه أن عجوزاً جاءته في حاجة فعرض عليها الإسلام فأبت ، وتركها عمر وخشي أن يكون في قوله -وهو أمير المؤمنين- إكراه لها ، فاتجه إلى ربه ضارعاً معتذراً : اللهم أرشدت ولم أكره ، ثم تلا قوله تعالى ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[1] .



س : هل من الحديث ما يقال «من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد» ؟

ج : تقدم الحديث عن الحب بين الجنسين وهو غالب ما يسأل عنه الناس ، وهو أمر طبيعي في حياة البشر ، وإذا انتهى إلى غاية شريفة ولم يصاحبه محرم فلا بأس به ، وقد كان الرسول ﷺ يحب زوجاته ويخص عائشة منه بنصيب أوفر ، لأنه لا يمكن العدل فيه ، وروى أصحاب السنن أنه قال في ذلك «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك».

وحديث «من عشق فعف فمات فهو شهيد» وفي رواية «من عشق وكتم وعف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة» هو حديث موضوع مكذوب على النبي ﷺ . ولايجوز أن يكون من كلامه ، فإن الشهادة درجة عالية عند الله مقرونة بدرجة الصديقية ، ولها أعمال وأحوال هي شروط في حصولها ، والشهادة الخاصة هي ما كانت في سبيل الله ، والشهادة العامة خمس مذكورة في الصحيح وليس العشق واحداً منها .

١- يراجع في رد اتهام الإسلام بأنه انتشر بالسيف كتابي «الدعوة الإسلامية دعوة عالمية» .

ونعى ابن القيم على من نسب هذا الحديث إلى الرسول ﷺ ، وذكر أن لفظ العشق لم يحفظ عنه في حديث صحيح ألبتة ، ثم إن العشق منه حلال ومنه حرام ، فكيف يظن بالنبي ﷺ أنه يحكم على كل عاشق يكتم ويعف بأنه شهيد ؟ [1]



س : هل من الحديث ما يقال «الشفاء في ثلاث ، شربة عسل ، أو شرطة محجم أو كية نار ، وأكره أن يكتوى» وهل الأخذ بغير هذه الوسائل في علاج الأمراض يُعد خروجاً على ما جاء بالسنة ؟

ج : هذا الحديث رواه البخاري بعدة روايات كما جاء في كتاب «زاد المعاد» لابن القيم، ووضح معناه بما نقله عن المازري من أن الأمراض الامتلائية إما أن تكون دموية أو صفراوية أو بلغمية أو سوداوية ، فإن كانت دموية فشفاؤها إخرج الدم ، وإن كانت من الأقسام الثلاثة الباقية فشفاؤها بالإسهال الذي يليق بكل خلط منها، وكأنه ﷺ نبه بالعسل على المسهلات ، وبالحجامة على الفصد .

وقد قال بعض الناس : إن الفصد يدخل في قوله «شرطة محجم» فإذا أعيا الدواء فآخر الطب الكي ، فذكره ﷺ في الأدوية لأنه يستعمل عند غلبة الطباع لقوى الأدوية وحيث لاينفع الدواء المشروب ، إلى آخر ما قاله ابن القيم عن المازري .

ومنه نرى أن العلاج ليس مقصوراً على هذه الأشياء المذكورة في الحديث ، فهي وسائل لعلاج أنواع من المرض وليس لكل الأمراض ، وفي الوقت نفسه هي أمثلة ونماذج لغيرها من الأدوية، وليس المقصود حصرها ومنع غيرها ، وهذا واضح من تعبير المازري : وكأنه نبه بالعسل على المسهلات ، وبالحجامة على الفصد . فأي دواء يفيد في هذا المجال ويؤدي إلى النتيجة المطلوبة فهو جائز الاستعمال ، وليست الأمراض محصورة فيما جاء في الحديث ، وكذلك ليست الأدوية محصورة أيضاً ، فالعالم يتغير والكون فيه أسرار يكتشفها العلم الذي يتطور .

---

١ - «راجع زاد المعاد لابن القيم ج ٣ ص ١٥٤» ففيه كلام كثير عن العشق وعن هذا الحديث .

ولا يجوز أبداً تحريم العلاج بغير ما ذكر في الحديث فذلك حكم على الدين بالعقم والتخلف ، وكيف لا وهو صالح لكل زمان ومكان ، وجاء في الحديث الأمر بالتداوي ، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء كما رواه الترمذي ، وكما في الصحيحين «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء».



س : هل من الحديث ما يقال «عليكم بدِين العجائز» وإذا صح فما المراد به ؟

ج : أورد الإمام الغزالي هذا الحديث في كتابه «الإحياء» [1] وعلق عليه العراقي بما نصه : قال ابن طاهر في كتاب التذكرة : هذا اللفظ تداوله العامة ولم أقف له على أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة ، حتى رأيت حديثاً لمحمد ابن عبدالرحمن بن السلماني عن ابن عمر عن النبي ﷺ «إذا كان في آخر الزمان واختلفت الأهواء فعليكم بدِين أهل البادية والنساء» وابن السلماني له عن أبيه عن ابن عمر نسخة كان يُتهم بوضعها ، انتهى ، وهذا اللفظ من هذا الوجه رواه ابن حبان في الضعفاء في ترجمة ابن السلماني .

هذا وقد جاء في تفسير القرطبي [2] ، النص على بعض المتكلمين الذين يرفضون إيمان من لم يعرف الله بالطرق والأبحاث التي عينوها ، وقال : هذا تضييق لرحمة الله. وأورد حادثة الأعرابي الذي بال في المسجد فانتهره أصحاب رسول الله ﷺ فقال : اللهم ارحمني ومحمداً ، ولا ترحم معنا أحداً ، فقال عليه الصلاة والسلام «لقد حَجَّرت واسعاً» [3]، فلم يعرف الأعرابي ربه بالدليل والبرهان ، وأن رحمته وسعت كل شيء واكتفى منه الرسول بالنطق بالشهادتين . كما ذكر أن الرسول ﷺ سأل الجارية السوداء «أين الله» ؟ فقالت : في السماء ثم سألها «من أنا» ؟ فقالت أنت رسول الله ، فقال لسيدها «أعتقها فإنها مؤمنة» ولم يكن هناك نظر ولااستدلال ، بل حكم بإيمانهم من أول وهلة ، وإن كان هناك عن النظر والمعرفة غفلة.



١- ج ٣ ص ٦٧ ٢- ج ٧ ص ٣٣٢ .

٣- خرّجه البخاري والترمذي وغيرهما .

س : هل صحيح أن النبي ﷺ رأى رجلاً يتعبد في المسجد ولما سأله عمن يعوله قال أخوه ، فقال : «هو أعبد منك» ؟

ج : جاء في إحياء علوم الدين للإمام الغزالي في فضل الكسب والحث عليه ما نصه :

وروى أن عيسى عليه السلام رأى رجلاً فقال : ما تصنع ؟ قال: أتعبد ، قال : من يعولك ؟ قال : أخي ، قال : أخوك أعبد منك .

قال الغزالي هذا الكلام ولم يجعله حديثاً عن النبي ﷺ ، ومثل ذلك ما روى أن قوماً من الأشعريين كانوا في سفر ، فلما قدموا على النبي ﷺ «قالوا : ما رأينا بعدك أفضل من فلان» كان يصوم النهار ، فإذا نزلنا قام الليل حتى نرتحل ، فقال : «ومن كان يكفله ويخدمه»؟ قالوا : كلنا ، فقال «كلكم أفضل منه» وهو موجود في كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه ، وليس فيه سند له .

ويتحدث الغزالي في باب التوكل ، وفصل أحوال المتوكلين ، ثم ذكر أن الرجل المتوكل على الله إذا تعلق قلبه بالدنيا والكسب كان العمل له أفضل من الانقطاع عنه إلى التعبد والانزواء والكسل ، أما إذا قوي إيمانه بالله وتوكل عليه ، ولم يتعلق قلبه بالدنيا فالانقطاع إلى العبادة أفضل ، على ألا يكون لأحد منَّة عليه في شيء من رزقه.

ومع ذلك فالغزالي يتحدث عن عصره وله ظروفه ، أما الآن فالواجب هو التنسيق بين عمل الدنيا وعمل الآخرة ، فهما أمران لابد منهما ، وذلك على نسق ما قال الله تعالى ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص : ٧٧] وقوله تعالى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : ١٠] وقول النبي ﷺ «إن لربك عليك حقًّا ولبدنك عليك حقًّا ولأهلك عليك حقًّا فأعط كل ذي حق حقه» (١).

---

١ - رواه البخاري .

وذلك ما يوحي إليه قوله تعالى في قيام الليل والاقتصاد فيه ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ [المزمل : ٢٠] [١] .



س : هل من الحديث ما يقال : بارك الله في الرجل المشعر ، والمرأة الملساء ؟

ج : لم أعثر على حديث صحيح بهذا اللفظ ، وإن كان من السنة إبقاء شعر اللحية ونتف الإبط وحلق العانة للرجل ، وفي الحديث نهي المرأة عن النمص وهو إزالة شعر الخدين ، وقد حمله ابن الجوزي على التدليس والإغراء ، وأباحه للزوج .

وذكر أن امرأة سألت عائشة رضي الله عنها عن قشر الوجه ، أي وضع دواء عليه ليصفو لونها ، فقالت : إن كان شيء وُلدت به فلا يحل لها ، لا آمرها ولا أنهاها ، وإن كان شيء حدث فلا بأس ، تعمد إلى ديباجة كساها فتنحيها عن وجهها ، ولا آمرها ولا أنهاها .

وجاء في معجم المغني لابن قدامة «طبعة الكويت ٨٧٧» أن المرأة يكره لها حلق شعرها ، ويجوز لها حَفُّ وجهها ونتف شعره [٢].



س : هل من الحديث ما يقال : أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ؟

ج : هذا حديث ضعيف وقيل موضوع .



س : جاء في الحديث أن من علامات الساعة أن تلد الأمة ربتها ، فما معنى ذلك ؟

ج : صح في الحديث أن جبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ عن أمارات الساعة، فقال «أن تلد الأمة ربتها» يعني أن المرأة الرقيقة غير الحرة تلد بنتاً تكون هذه البنت حرة وسيدة مالكة لأمها .

١- وتوضيح ذلك في كتابي «الإسلام دين العمل».
٢- موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام ، ج٣ ص ٣٠٥ .

جاء في شرح صحيح مسلم [1] ، قال الأكثرون من العلماء : هو إخبار عن كثرة السراري -الإماء - وأولادهن . فإن ولدها من سيدها بمنزلة سيدها، لأن مال الإنسان صائر إلى ولده ، وقد يتصرف فيه في الحال تصرف المالكين إما بتصريح أبيه له بالإذن ، وإما بما يعلمه بقرينة الحال أوعرف الاستعمال .

وقيل : معناه أن الإماء يلدن الملوك ، فتكون أمه من جملة رعيته ، وهو سيدها وسيد غيرها من رعيته ، وهذا قول إبراهيم الحربي .

وقيل : معناه أنه تفسد أحوال الناس فيكثر بيع أمهات الأولاد في آخر الزمان -وبيعهن حرام- فيكثر ترددها في أيدي المشترين حتى يشتريها ابنها ولا يدري.

يقول النووي بعد سرد هذه الأقوال : إن هناك أقوالاً أخرى غير ما ذكرناه ، ولكنها أقوال ضعيفة جدًّا أو فاسدة فتركتها . أهـ .

وهذا القدر كاف في فهم معنى أن تلد الأمة ربتها ، وخلاصته فساد الزمان .



س : هل من الحديث «داعب ولدك سبعاً ، وأدبه سبعاً ، وآخه سبعاً ، ثم اترك له الحبل على الغارب» ؟

ج : لم أر هذا حديثاً عن النبي ﷺ ، ومثله موجود في كلام العلماء والمربين ، جاء في «إحياء علوم الدين للإمام الغزالي» في حقوق الوالدين والأولاد : وقد قيل : ولدك ريحانتك فشمها سبعاً ، وخادمك سبعاً ، ثم هو عدوك أو شريكك .

والمراد بهذا الكلام أن يعامل الوالد ولده في تربيته بحكمة ، فالأسلوب يختلف في مراحل العمر ، من الطفولة إلى الصبا إلى المراهقة إلى البلوغ ، وشرح ذلك يطول[2] .



١- ج١ ص ١٥٨ .
٢- انظر الجزء الرابع من موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام .

س : هل هذه العبارة «سيد القوم خادمهم» حديث عن النبي ﷺ ؟

ج : هذا القول منسوب إلى النبي ﷺ بسند ضعيف جاء في المواهب اللدنية للقسطلاني وشرح الزرقاني [1] ، أن السُّلمي رواه عن عقبة بن عامر عن الرسول ، وفي سنده ضعف أو انقطاع ، ورواه غيره أيضاً كابن عساكر وأبي نعيم بسند ضعيف جدًّا مع انقطاعه ، ورواه الحاكم والبيهقي والديلمي بألفاظ أخرى مثل «سيد القوم في السفر خادمهم ، فمن سبقهم لخدمة لم يسبقوه بعمل إلا الشهادة» يقول الزرقاني في شرح المعنى: السيد من يفزع إليه في النوائب . فيحمل الأثقال ، فلما تحمل الخادم الأمور وكفى المؤنة وما لايطيقونه كان سيدهم ، وأصل العبارة : خادم القوم كسيدهم فبولغ فيه بالقلب المكاني حتى جعل السيد خادماً .

ومهما يكن من شرح للمعنى فإنه ليس حديثاً صحيحاً ولا حسناً عن النبي ﷺ .



س : هل صحيح أن النبي ﷺ قال «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم»؟

ج : ذكر بعض العلماء أن هذا الحديث مرفوع إلى النبي ﷺ ، ومنهم البيضاوي ، وجاء في «الآداب الكبرى» لابن مفلح أن الإمام أحمد بن حنبل رواه مرفوعاً إلى الرسول ﷺ من طريق أنس بن مالك . وقال أبو نعيم عقب ذلك : ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى ابن مريم عليه السلام ، فوهم بعض أنه من كلام النبي ﷺ [2] .



١- ج ٤ ص ١١٧ ، ١١٨ .
٢- «غذاء الألباب» ج ١ ص ٣٨ .

س : هل هناك فضل لابتداء أي عمل بالبسملة وحمد لله؟

ج : روى عن النبي ﷺ أنه قال «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر» وفي رواية «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع» رواه أبو داود وابن ماجه والنسائي وابن حبان في صحيحه مرفوعاً ، قال المناوي : بإسناد حسن وفي رواية عند البغوي «بحمد الله» والكل بلفظ «أقطع» وفي رواية «أجذم» وفي رواية «كل أمر ذي بال لايبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع» وفي رواية «بذكر الله» فتكون الروايات ببسم الله الرحمن الرحيم ، وبالحمد لله ، وبحمد الله ، وبذكر الله . ولفظ «أقطع» هو أكثر الروايات . وكذلك لفظا «أبتر وأجذم» ومعنى هذه الألفاظ أنه ناقص البركة [1].

هذا ، والبسملة بهذه الألفاظ العربية المرتبة من خصائص الرسول ﷺ وأمته ، وما جاء في سورة النمل هو ترجمة لما في كتاب سليمان لبلقيس لأنه لم يكن عربيًّا ، وفي حديث مرفوع ، رواه الطبراني عن بريدة «أنزل عليَّ آية لم تنزل على نبي بعد سليمان غيري «بسم الله الرحمن الرحيم» [2].



س : هل صحيح أن النبي ﷺ قال : «لاتعلموا أولاد السفلة العلم فإن علمتموهم فلا تولوهم القضاء والولاية» ؟

ج : من المعلوم أن الإسلام أمر بالعلم وكرَّم أهله ، بنصوص كثيرة في القرآن والسنة ، وقد وضح ذلك ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة» وتحدث العلماء عن فضل نشر العلم وتعليمه والأسلوب الذي يناسب ذلك ، ومنها مخاطبة الناس على قدر عقولهم ، واختيار الذين يتلقون العلم حتى يصونوه بحسن التلقي وبالعمل به وبنشره .

١- غذاء الألباب ، ج١ ص٩ .
٢- الزرقاني على المواهب ج١ ص ٣ .

ومما جاء في ذلك حديث «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» [1]. وقال البخاري قال علي رضي الله عنه : حدِّثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟

ونقل السفاريني في كتابه «عذاء الألباب» [2] عن كتاب الآداب الكبرى أن شعبة قال : أتاني الأعمش وأنا أحدث قوماً ، فقال : ويحك ، تعلق اللؤلؤ في أعناق الخنازير ؟ قال مهنَّا للإمام أحمد رضي الله عنه : ما معنى قوله ؟ قال: لاينبغي أن يحدث من لايستأهل ، وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : للحكمة أهل ، فإن وضعتها في غير أهلها ضيعت ، وإن منعتها من أهلها ضيعت وقال عليه السلام : لاتطرح اللؤلؤ إلى الخنزير ، فإن الخنزير لايصنع باللؤلؤ شيئاً ، ولا تعط الحكمة من لايريدها ، فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ، ومن لايريدها شر من الخنزير . وقال مالك: ذُلٌّ وإهانة للعلم أن تتكلم به عند من يضيعه ، ومن كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه :

أأنثـــــر درًّا بين سارحة النَّعم
أأنظــم منثوراً لراعيـة الغنـم ؟

إلى أن قال :

فمن منح الجهال علماً أضاعــه
ومن منع المستوجبين فقد ظلم

فالعلم كالسيف إن أعطيته لتقيٍّ قاتل به في سبيل الله ، وإن ألقيته لشقى قطع به الطريق وأضل عباد الله ، وهذا مستثنى من عموم قوله ﷺ «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار» [3].

١- رواه أبو الحسن التميمي في كتاب العقل له بإسناده عن ابن عباس عن النبي ﷺ ، وخرَّجه الحافظ الضياء عن ابن عمر عن النبي ﷺ .
٢- ج١ ص ٤٤ .
٣- رواه أصحاب السنن إلا النسائي ، ورواه ابن حبان في صحيحه والبيهقي .

وفي الصحيحين أن ابن عباس رضي الله عنهما قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن الموسم يجمع الرعاع والغوغاء ، فأمهل حتى تقدم المدينة فتخلص بأهل الفقه ، فقدمنا المدينة ، فقبل عمر مشورة ابن عباس فلم يتكلم بذلك حتى قدم المدينة . قال الإمام ابن الجوزي : وفي هذا تنبيه على ألا يودع العلم عند غير أهله ، ولايحدث لقليل الفهم ما لايحتمله فهمه ، والرعاع السفلة ، والغوغاء نحو ذلك ، وأصل الغوغاء صغار الجراد .

وسأل ابن المبارك سفيان الثوري بمكة عن الغوغاء فقال : الذين يكتبون الأحاديث يريدون أن يتأكلوا أموال الناس ، وسأله عن السفلة فقال : الظلمة.

وجاء في إحياء علوم الدين للإمام الغزالي [1] مثل هذا الكلام ، وذكر قوله تعالى ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ [النساء : ٥] وقال إن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى من حفظ المال ، وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق ، وذكر الشعر السابق المنسوب إلى الإمام الشافعي . وذكر[2] قوله عكرمة : إن لهذا العلم ثمناً ، قيل : وما هو ؟ قال : أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه .

وجاء في كتاب أدب الدنيا والدين للماوردي [3] أنه روى عن النبي ﷺ أنه قال «لاتسمنعوا العلم أهله فتظلموا ، ولاتضعوه في غير أهله فتأثموا» ولم يخرج هذا الحديث كما جاء فيه حديث عن النبي ﷺ «واضع العلم في غير أهله كمقلد الخنازير اللؤلؤ والجوهر والذهب» ولم يخرِّجه أيضاً .

ثم جاءت أخبار تحذر من تعلم العلم لغير وجه الله منها «لاتتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم ، فمن فعل ذلك فهو في النار» [4] ، ولاشك أن السفلة هم الذين يتعلمون من أجل ذلك .

١- ج١ ص ٤٩ .
٢- ص ١١ ٣- ص ٧٣ .
٤- وهو حديث رواه ابن ماجه بسند صحيح .

من هذا نرى أن الحديث المسئول عنه لم يرد بنصه بطريق صحيح ، لكن معناه ورد في أحاديث وأقوال أخرى ، وهو معنى صحيح .

هذا ، وقد جاء في تفسير القرطبي [1] ، أن السفلة في تعيينهم أقوال، فقيل هم الذين يتفلَّسون ويأتون أبواب القضاء والسلاطين يطلبون الشهادات ، مأخوذ من التفليس وهو استقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو . وقيل : هم الذين يأكلون الدنيا بدينهم ، وقيل : هم الذين يزاولون أعمالاً حقيرة كالحياكة والحجامة والدباغة والكنس ، وبخاصة إذا كانوا من غير العرب .

لكن العرف رأى في إطلاق هذا الاسم على بعض الناس .



س : إذا شرع الإنسان في عبادة نافلة أي غير مفروضة كصلاة الضحى وصيام يوم عرفة وحج التطوع ، هل له أن يخرج من هذه العبادة ، أو لابد من إتمامها ، وإذا خرج منها هل يجب عليه أن يقضيها أو لا يجب ؟

ج : يقول الله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد :٣٣] .

روى البخاري وغيره أن سلمان أمر أبا الدرداء بأن يفطر من صوم كان متطوعا فيه ـ وذلك عندما زاره فصنع له طعاما ولم يأكل معه لأنه صائم ـ ولما ذكرا ذلك للنبي ﷺ قال : «صدق سلمان» .

وروى مسلم وأبو داود والنسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل عليَّ رسول الله ﷺ يوماً فقال «هل عندكم شيء» ؟ فقلت : لا ، قال «فإني صائم» ثم مر بعد ذلك اليوم وقد أهدى إليَّ حَيْسٌ ، فخبأت له منه ، وكان يحب الحيس ، قلت : يا رسول الله إنه أهدى لنا حيس فخبأت لك منه ، قال «أدنية ، أما إني قد أصبحت وأنا صائم» فأكل منه ثم قال لنا «إنما مثل صوم التطوع مثل

١- ج ٩ ص ٢٣ .

الرجل يخرج من ماله الصدقة، فإن شاء أمضاها وإن شاء حبسها» [1]، وروت أم هانئ قالت : دخلت على رسول الله ﷺ فأتى بشراب فناولنيه فشربت منه ، ثم قلت : يا رسول الله لقد أفطرت وكنت صائمة ، فقال لها « أكنت تقضين شيئا» ؟ قالت : لا ، قال «فلايضرك إن كان تطوعا» [2]. وفي رواية لأحمد والدارقطني والبيهقي أنه ﷺ قال لها «إن المتطوع أمير نفسه ، فإن شئت فصومي وإن شئت فأفطري» [3].

وروى عن عائشة أنها قالت : أصبحت أنا وحفصة صائمتين متطوعتين فأهدى لنا حيس فأفطرنا . ثم سألنا رسول الله ﷺ فقال «اقضيا يوما مكانه» .

من شرع في عبادة مفروضة حرم عليه أن يفسدها أو يبطلها ، بناء على ما ورد في مبطلات الصلاة والصيام والحج من النصوص ، وعليه أن يعيد هذه العبادة على وجهها الصحيح أو يقضيها إن فات وقتها ، وإلى جانب النصوص الخاصة بكل عبادة تنهي الآية المذكورة عن إبطال الأعمال ، وهو يشمل الإبطال المادي والمعنوي، ومن المعنوي الرياء الذي يبطل الثواب وإن لم يبطل مادة العمل ، وعدم الخشوع في الصلاة ، والكذب والزور والغيبة في الصيام ، والرفث والفسوق والجدال في الحج في بعض معاني هذه الأمور ، فهى تبطل الثواب ولا تبطل الصحة فلا تلزم الإعادة أو القضاء .

أما من شرع في عبادة غير مفروضة كالأمثلة المذكورة في السؤال فإن الخروج منها وإبطالها ماديا اختلف العلماء في جوازه ومنعه ، ففريق قال بجواز الخروج وعدم وجوب الإتمام ، بناء على الحديث الأول عن عائشة والحديث الثاني عن أم هانئ إلى جانب حديث سلمان وأبي الدرداء وأجابوا على الآية باحتمال أن يكون النهي عن إبطال الثواب ، فهو ليس نصا في الإبطال المادي .

١- هذا لفظ رواية النسائي وهو أتم من غيره .
٢- رواه سعيد وأبو داود .
٣- وروى الحاكم مثله وصححه .

كما أجابوا على الحديث الثالث الوارد في عائشة وحفصة بالضعف ، قال عنه أبو داود : لا يثبت ، وقال الترمذي: فيه مقال ، وضعفه الجوزجاني وغيره ، وإن قبل هذا الحديث فأمر الرسول لهما بالقضاء للاستحباب لا للوجوب . وقالوا : يستحب إتمام النفل ويستحب قضاؤه إن أبطله وذلك للخروج من الخلاف .

وهذا الرأى مروى عن ابن عمر وابن عباس وابن مسعود . وبه أخذ أحمد والشافعي .

وفريق قال بحرمة الخروج من التطوع وبوجوب إتمامه ، ودليلهم في ذلك الآية الناهية عن إبطال الأعمال ، والحديث الثالث الوارد في عائشة وحفصة ، ورد عليهم الأولون بما سبق ذكره .

وعلى هذا الرأي أبو حنيفة ومالك ، فالنفل يلزم بالشروع فيه ولا يخرج منه إلا لعذر ، فإن خرج وجب القضاء عند أبي حنيفة ، ولا يجب عند مالك هكذا قال ابن قدامة ، لكن جاء في فقه المذاهب الأربعة أن المالكية قالوا : يجب قضاء النفل إذا أفسده ، فيبدو أن ما قاله ابن قدامة رواية أخرى عن مالك .

هذا ، وإذا كانت الأحاديث واردة في الصوم فإن سائر النوافل من الأعمال حكمها حكم الصوم ، في أنها تلزم بالشروع فيها أو لا تلزم وفي أنها تقضي أو لا تقضي .

لكن الحج والعمرة لهما حكم آخر إذا كانا غير واجبين ، فإنهما يخالفان سائر العبادات في هذا ، فيجب إتمامهما بالشروع فيهما ، ولا يخرج منهما بإفسادهما ، وذلك لتأكد إحرامها كما يقول ابن قدامة في كتابة «المغني» [1] هذا ما قاله العلماء في إتمام النفل ، وللقارئ اختيار ما يراه فدين الله يسر .



١- انظر صفحة ٨٩ ، ٩٠ ، ١١٢ من الجزء الثالث وانظر ص٢٥٥ من الجزء السادس عشر من تفسير القرطبي ونيل الأوطار ج٤ص٢٠٩ .

س : هل صحيح أن النبي ﷺ قال : «اختلاف أمتي رحمة» وكيف يكون الاختلاف رحمة ، والدين بقرآنه وحديثه يدعو إلى الوحدة ؟

ج : هذا الحديث ذكره البيهقي تعليقا في رسالته ، وأسنده في المدخل من حديث ابن عباس بلفظ « اختلاف أصحابي لكم رحمة» وإسناده ضعيف كما قال العراقي في تخريجه لأحاديث إحياء علوم الدين [1].

وسبب هذا القول كما ذكره بعض الكتاب أن أعرابيا حلف ألا يقرب زوجته حينا من الدهر ، ولم يعرف هذا الأعرابي مدة ذلك الحين الذي أقسم عليه ، فذهب إلى الرسول ﷺ ليسأله فلم يجده ، فسأل أبا بكر رضي الله عنه فقال : اذهب فطلق امرأتك ، فالحين هو العمر كله وسأل عمر رضي الله عنه فقال : إن عشت أربعين سنة يمكنك أن ترجع إلى امرأتك ، فالحين أربعون سنة ، وسأل عثمان رضي الله عنه فقال امكث عاما ثم ارجع إلى امرأتك ، فالحين عام فقط ، وسأل عليا رضي الله عنه فقال له: متى حلفت ؟ قال : بالأمس ، فقال : ارجع إلى امرأتك فالحين هو نصف يوم .

ثم قص الأعرابي على رسول الله ﷺ فسأل كلا من الصحابة الأربعة على مستندهم في آرائهم ، فقال أبو بكر : قال الله تعالى في قوم يونس : ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[يونس : ٩٨] وقد سبق أن فسر الرسول ﷺ ذلك بأن الله تركهم بلا عذاب طول عمرهم . وقال عمر : قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾[الإنسان : ١] وقد سبق أن فسر الرسول ذلك بأن آدم أتى عليه أربعون سنة مخلوقا مصورا لا يدري ما هو وما اسمه وما يراد به . وقال عثمان . قال الله تعالى في شجرة النخل الطيبة ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم: ٢٥] وثمار النخلة تأتي كل عام . وقال على : قال تعالى ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾[الروم : ١٧] فالحين نصف يوم .

١- ج١ص٢٥ .

وقيل : إن هذه القصة هي في قول النبي ﷺ «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» وهو أيضا ضعيف وقيل موضوع [١] ، وعلى فرض ورود هذا الحديث بأية درجة فهو ليس مدحا من النبي ﷺ لأي اختلاف ، بل للاختلاف في الرأي الاجتهادي الذي ليس فيه نص قاطع ، وكل واحد من هؤلاء استند في رأيه إلى نص في القرآن . فهو معذور إن أخطأ ، ومن المعلوم أن الاختلاف في الآراء الاجتهادية يعطي فرصة للإنسان أن يختار منها ما يتناسب مع ظروفه ، ومن هنا جاءت المذاهب الفقهية المعروفة وتقليد أي منها جائز لا حرج فيه .

في شرح النووي لصحيح مسلم [٢] أن الخطابي قال : وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال «اختلاف أمتي رحمة» وقد اعترض عليه رجلان ، أحدهما مغموض عليه في دينه وهو عمرو بن بحرالجاحظ ، والآخر معروف بالسخف والخلاعة وهو إسحق بن إبراهيم الموصلي ، فإنه لما وضع كتابه في الأغاني وأمكن في تلك الأباطيل لم يرض بما تزود من إثمها حتى صدر كتابه يذم أصحاب الحديث ويزعم أنهم يروون ما لايدرون ، وقال هو والجاحظ : لو كان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق عذاباً . ثم زعم أنه إنما كان اختلاف الأمة رحمة في زمن النبي ﷺ خاصة ، فإذا اختلفوا سألوه فبيّن لهم .

والجواب عن هذا الاعتراض الفاسد أنه لا يلزم من كون الشيء رحمة أن يكون ضده عذاباً ، ولا يلتزم هذا ولا يذكره إلا جاهل أو متجاهل ، وقد قال الله تعالى ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ [القصص : ٧٣] فسمى الليل رحمة ، ولا يلزم من ذلك أن يكون النهار عذاباً ، وهو ظاهر لا شك فيه .

قال الخطابي : والاختلاف في الدين ثلاثة أقسام ، أحدها : في إثبات الصانع ووحدانيته ، وإنكار ذلك كفر . والثاني : في صفاته ومشيئته ، وإنكارها بدعة ، والثالث : في أحكام الفروع المحتملة وجوهاً ، فهذا جعله الله تعالى رحمة وكرامة للعلماء ، وهو المراد بحديث «اختلاف أمتي رحمة» .



---

١ - رواه الدارمي وغيره ، وأسانيده ضعيفة .
٢ - ج١١ ص ٩١ .

س : هل من الحديث : ربيع أمتي البطيخ ، وخير بقاع الأرض القرى وشرها المدن ؟

ج : ليس هناك حديث صحيح في مدح البطيخ ، وليس هناك حديث يفضل أهل القرى على أهل المدن . وأسماء الأمكنة لا قيمة لها ، وقيمتها في سلوك أهلها .



س : هل من الحديث ما يقال «ما المعطي عن سعة بأعظم أجرا من الذي يُصَدَّق عليه» ؟

ج : هذا الحديث ضعيف رواه ابن حبان في الضعفاء والطبراني في المعجم الأوسط، كما رواه في المعجم الكبير بسند ضعيف ، فهو ليس بحديث صحيح ولاحسن . ذكره العراقي في تخريج أحاديث «إحياءعلوم الدين» للغزالي الذي وضحه بأن الذي يتفرغ للعبادة ويقبل الصدقة لحاجته إليها لا يقل فضلا عن الغني الذي أعطاه الصدقة . وهو على إطلاقه دعوة للتفرغ للعبادة ، ولكني لا أرى تشجيع التفرغ لها للقادرين على الكسب ، وقد يفيد الحديث في مساعدة من يحتاجون لطلب العلم والجهاد في سبيل الله ولا يمكنهم التفرغ للسعي وطلب الرزق ، وكذلك للعجزة عن الكسب .



س : هل صحيح أنه لا يجوز لغير المسلم أن يدخل أرض الحجاز ؟

أرض الحجاز هي الفاصلة بين نجد وتهامة ، وأشهر مدنها مكة والمدينة ، وفيها الحرم والمسجد الحرام .

ودخول المسجد الحرام تقدم حكمه ، أما الحرم المكي بحدوده التي ذكرها الماوردي[1] بأنها ثلاثة أميال من طريق المدينة دون التنعيم ، وسبعة أميال من طريق العراق ، وتسعة أميال من طريق الجعرانة وسبعة أميال من طريق الطائف على عرفة ، وعشرة أميال من طريق جدة ـ هذا الحرم المكي بحدوده ، قال جمهور الفقهاء : لا يجوز دخوله لجميع من خالف دين الإسلام ، من ذمي أو معاهد ، لامقيما فيه ولا مارا به ، وجوز أبو حنيفة دخولهم إذا لم يستوطنوه . ولو دخله المشرك بدون إذن عزر وأخرج ،

---

١ - في كتابة «الأحكام السلطانية ص١٦٤» .

وإن كان بإذن لم يعزر وأنكر على الآذن وأخرج ، ولو أراد دخول الحرم ليسلم فيه منع منه حتى يسلم قبل دخوله ، وإذا مات فيه مشرك حرم دفنه ، فإن دفن فيه نقل إلى الحل ، إلا أن يكون قد بلى ، كما تركت أموات الجاهلية .

وأما دخول غير الحرم بحدوده المعروفة ، فالجمهور على عدم استيطان الذمي والمعاهد ، وجوزه أبو حنيفة ، ودليل الجمهور حديث عائشة : كان آخر ما عهد به رسول الله ﷺ أن قال «لا يجتمع في جزيرة العرب دينان» [1].

وتطبيقا لذلك أجلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهل الذمة عن الحجاز .

وضرب لمن قدم منهم تاجرا أو صانعا مقام ثلاثة أيام يخرجون بعد انقضائها ، واستقر الحكم على منعهم من الاستيطان ، وجواز دخولهم بصفة مؤقتة لمدة ثلاثة أيام في موضع ويمكن أن ينتقل منه إلى غيره لمدة ثلاثة أيام أيضا فإن زاد عليها عزر إن لم يكن معذورا [2].

في مرض النبي ﷺ أراد أن يكتب كتاباً في ضمنه «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم» .

بصرف النظر عن تحديد جزيرة العرب والخلاف فيه حكي عن مالك أن المراد بها المدينة . والصحيح المعروف عن مالك أنها مكة والمدينة واليمامة واليمن ، وأخذ بهذا الحديث مالك والشافعي وغيرهما من العلماء ، فأوجبوا إخراج الكفار من جزيرة العرب ، وقالوا : لايجوز تمكينهم من سكناها . ولكن الشافعي خص هذا الحكم ببعض جزيرة العرب وهو الحجاز ، وهو عنده مكة والمدينة واليمامة وأعمالها دون اليمن وغيره مما هو من جزيرة العرب ، بدليل آخر مشهور في كتبه وكتب أصحابه .

قال العلماء : ولا يمنع الكفار من التردد مسافرين في الحجاز ، ولا يمكنون من الإقامة فيه أكثر من ثلاثة أيام . قال الشافعي وموافقوه : إلا مكة وحرمها فلا يجوز تمكين كافر من دخوله بحال ، فإن دخله في خفية وجب إخراجه ، فإن مات ودفن فيه نبش وأخرج ما لم يتغير ، هذا مذهب الشافعي وجماهير الفقهاء . وجوز أبو حنيفة دخولهم

---

١ - رواه البيهقي .

٢ - الأحكام السلطانية ص ١٦٧ .

الحرم . وحجة الجماهير قول الله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة : ٢٨] [١] .



س : هل من الحديث ما يقال «من قص أظافره في يوم الجمعة أخرج الله منه مرضا وزاده شفاء» .

ج : لم أجد حديثا صحيحا بهذا المعنى ، والذي وجدته هو ما ذكره الشعراني في كتابه «كشف الغمة» [٢] «من قلم أظفاره يوم الجمعة وقى من السوء إلى مثلها» وقال عنه الزرقاني في شرح المواهب [٣] : إنه حديث ضعيف رواه الطبراني في الأوسط والبزار عن أبي هريرة .

وروى البغوي أن النبي ﷺ كان يأخذ أظفاره وشاربه كل جمعة ، ونقل السفاريني في كتابه «غذاء الألباب» [٤] عن «الآداب الكبرى» حديثا رواه ابن بطة بإسناده «من قص أظفاره يوم الجمعة دخل فيه شفاء وخرج منه داء» وذكر الغزالي في كتابه «الإحياء» [٥] أنه من قول ابن مسعود بلفظ «من قلم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله عز وجل منه داء وأدخل فيه شفاء» .

فالحديث ليس صحيحا بهذا اللفظ ، وإن كانت النظافة مطلوبة لصلاة الجمعة ، في الجسم والثياب ، ومن ذلك قص الأظافر الطويلة .



س : هل هذا حديث صحيح «العلماء ورثة الأنبياء» ؟

ج : روى أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه وغيرهم أن النبي ﷺ قال في ضمن حديث طويل «إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» .

١- النووي على مسلم ج١١ ص ٩٣ ، ٩٤ .
٢- ج١ ص١٨٠ . ٣- ج٤ص٢١٥ .
٤- ج١ص٣٨١. ٥- ج١ص١٦٢ .

هذا الحديث يبين فضل العلماء ، توضيحا لقوله تعالى : ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة : ١١] فهم الوارثون لما تركه الرسول، لأنه القائل «بلغوا عني ولو آية» [١] والقائل في طلاب العلم ، «من سلك طريقا يبتغي فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة» [٢] ، والقائل «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع» [٣] ، والقائل «يا أبا ذر لأن تغدو فتتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة ولأن تغدو فتعلم بابا من العلم ، عمل به أو لم يعمل خير لك من أن تصلي ألف ركعة» [٤].

وأشرف العلم ما كان متصلا بالقرآن ففي حديث البخاري ومسلم «خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه» لأنه يرشد كل العلوم النافعة في الدين والدنيا ، ففي آياته قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[فاطر: ٢٧، ٢٨] .

فالذين يخشون الله هم علماء الفلك والطبيعة والكيمياء والنبات وطبقات الأرض ، وعلماء الإنسان تاريخا ونفسا وطبًّا وكل ما يتصل به ، وعلماء الحيوان كذلك بكل ما يتصل به ، وذلك إذا درسوا بتعمق ، وإنصاف وقصد حسن ، إنهم بوصولهم إلى سر الخلق سيؤمنون أو يزدادون إيمانا ، وسيفيدون أنفسهم والناس جميعا بجهودهم .

ومن أراد أن ينشرح صدره بمعرفة موقف الإسلام من العلم بفروعه المختلفة فليرجع إلى «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي ، وسيهتف من أعماق قلبه أن هذا الدين هو دين الحضارة الصحيحة ، الصالح لكل زمان ومكان ، وذلك بالفهم الواعي والتطبيق الصحيح .



١- رواه البخاري . ٢- رواه مسلم .
٣- رواه أحمد وابن حبان والحاكم . ٤- رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

س : هل صحيح أن النبي ﷺ أوصى على سابع جار كما يقول بعض الناس ؟

ج : معلوم أن الإسلام أوصى على رعاية حق الجوار ، والنصوص في ذلك كثيرة يكفي منها قوله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾[النساء : ٣٦] والجار ذو القربى من له صلة قرابة ، والجنب من لايربطه به قرابة ، والصاحب بالجنب قيل هو الزوجة، وقوله ﷺ «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» [١]، وقوله : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره» [٢]، وقوله : «والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره ـ أو قال لأخيه ـ ما يحب لنفسه» [٣].

والجار هو من جاور في المسكن أو المتجر أو المصنع أو الحقل أو حلقة الدرس أو الفصل ، وفي أي مكان يطول به زمن الجوار ، لكن هل الوصية بالإحسان إلى الجار خاصة بمن يجاور مباشرة لا يتعداه إلى البعيد ؟ إن الناظر إلى روح الإسلام يرى أن الأخوة يمتد ظلها حتى يشمل أكثر من شخص ، وإن كان هناك تفاوت في الأولوية بحسب القرب والبعد ، ويشهد لهذا الامتداد حديث روى عن النبي ﷺ أن رجلا جاء يشكو إليه جاره فأمره أن ينادي على باب المسجد «ألا إن أربعين دارا جار» يقول الزهري راوي هذا الحديث مفسرا له : أربعون هكذا ، وأومأ إلى أربع جهات .

هذا هو الحديث الذي روى في اتساع مجال الجوار وإن كان في سنده مقال ، لكن روح الشريعة لا تعارضه . أما قول بعض الناس : إن النبي ﷺ أوصى على سابع جار فلم أره حديثا منسوبا إلى النبي ﷺ ، وهو من مبالغة الناس واستعمالهم عدد السبع وعدد السبعين كثيرا في المبالغة ، ولا ننسى في هذا المقام قول النبي ﷺ في الأخوة الجامعة كما رواه البخاري ومسلم «مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» .



١- رواه البخاري ومسلم . ٢- رواه البخاري ومسلم .
٣- رواه مسلم .

س : هل هذا من الحديث الشريف «اتقوا الهرة فإنها من المارة» ؟

ج : لم أعثر على حديث بهذا اللفظ ، والذي رواه أصحاب السنن أن النبي ﷺ قال عن الهرة في طهارتها وعدم نجاستها «إنها ليست بنجس إنها من الطوافين عليكم والطوافات» يقول الدميري [1] والطوافون الخدم ، والطوافات الخادمات، جعلها بمنزلة المماليك في قوله تعالى ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة : ١٧] قد يستدل على ذلك بقوله تعالى في آية الاستئذان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ [النور : ٥٨] .

وفي سنن ابن ماجه «الهرة لاتقطع الصلاة ، إنما هي من متاع البيت» ولعل كلمة «الطوافين» يقصد بها ما جاء في السؤال «المارة» أي التي تمر أمام الناس .

هناك مثل يقول : فلان أبر من هرة . أرادوا بذلك أنها تأكل أولادها من شدة الحب لهم ، فهي بهذا بارة وليست مارة .



س : نريد توضيح معنى القول المأثور ، ليس الإيمان بالتمني وهل هو حديث صحيح ؟

ج : أثر عن الحسن البصري أنه قال : ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ، وإن قوما خرجوا من الدنيا ولا عمل لهم وقالوا : نحن نحسن الظن بالله وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

إن هذا الأثر ليس حديثا مرفوعا إلى النبي ﷺ كما قال المحققون وإنما هو من كلام الحسن البصري ، ومعناه صحيح ، وهو أن الإيمان الذي يكرم الله به المؤمن وينجيه من النار ليس مجرد كلمة يقولها بلسانه دون عمل ، وليس أمنية يتمناها ترفع بها درجته عند ربه ، فما أهون الكلام المجرد عن عمل يصدقه ، وما أكثر الأماني عند المفلسين من كنز

---

١ - في كتابه «حياة الحيوان الكبرى» .

العمل الصالح وهذا يلتقي مع الحديث «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»[1].

لو أحسن هؤلاء الظن بالله لاستعدوا للقائه بالعمل الصالح الذي أمرهم به ، فهو القائل : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[التوبة : ١٠٥] وقد حدث أن بعض أهل الكتاب تناقشوا مع بعض المؤمنين ، كل يدعي أن الفضل له دون الآخر ، فنزل قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾[النساء:١٢٣،١٢٤] .

فالمدار كله على العمل المبني على الإيمان وحسن الظن بالله ، ولا يغتر أحد بما يقول بعض الشعراء :

قدمت على الكريم بغير زاد ... سوى الإخلاص والقلب السليم

فحمل الزاد أقبح ما يكون ... إذا كان القدوم على كريم

فالإفراط في الرجاء الذي ينفي الخوف يسلم إلى الكسل وركود الحياة ، وعلماء التوحيد يقولون :

وغلِّب الخوف على الرجاء ... وسر لمولاك بلا تناء[2]



س : سمعنا حديثا يقول «في التأني السلامة» وسمعنا حديثا آخر يقول «أفضل الصلاة في أول وقتها» فكيف نوفق بين التأني والمبادرة ؟

ج : «في التأني السلامة» ليس حديثا مرفوعا إلى النبي ﷺ وإنما هو قول جار على الألسنة ، قد قصد به إتقان العمل وأداؤه على الوجه الأكمل ، كما قد يقصد به عدم

---

١ - رواه الطبراني وأحمد والترمذي وقال : حسن « الجامع الصغير للسيوطي» .
٢ - «انظر : فيض القدير على الجامع الصغير للمناوي رقم ٧٥٧٠ وتفسير القرطبي ج١٠ ص٦٠» .

المبادرة بالتنفيذ ، وإعطاء مهلة لأدائه . ولا شك أن إتقان العمل مطلوب كما في الحديث «إن الله يحب إذا عمل العبد عملا أن يحكمه» [1].

والتأخير قد يكون مستحبا إذا لم يدرس المشروع دراسة كافية ، فمن الخير أن يؤجل حتى تستكمل دراسته فإن كملت الدراسة كانت المبادرة بالتنفيذ أفضل ، فظروف المستقبل غيب ربما لا يساعد على التنفيذ ، وجاء في ذلك حديث مرسل ، «إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته ، فإن كان خيرا فأمضه ، وإن كان شرا فانته» [2].

وهذا كله في أمور الدنيا التي تحتاج إلى دراسة كاملة ، أما أمور الآخرة التي وضح الصواب فيها فمن الخير المبادرة بأدائها كالصلاة إذا حضر وقتها ، والحج إذا توفرت أسبابه ، وجاء في ذلك حديث «التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة»[3] وحديث « اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك» [4]. وبهذا يظهر عدم التعارض بين القول المأثور «في التأني السلامة» وحديث الترغيب في أداء الصلاة في أول وقتها.



س : سمعنا حديثا يقول لعن الله من غيَّر منار الأرض ، فهل هذا صحيح وما معناه؟

ج : روى مسلم وأحمد والنسائي عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «لعن الله من لعن والديه ولعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من آوى محدثا ، ولعن الله من غيَّر منار الأرض» وفي رواية «من سرق منارالأرض» وفي رواية «من غير تخوم الأرض» وفي رواية «ينتقص منار الأرض» .

منار الأرض هو العلامة التي تهدي الناس حتى لا يضلوا ، والتخوم هي الحدود، والتعدي على الحدود حرام .. قيل : ذلك خاص بحدود الحرم ، وقيل : عام في كل الحدود للتعدي على أراضي الغير .

١- رواه ابن أبي داود في المصاحف ، وابن النجار عن عائشة ، وفيه مصعب بن ثابت ضعيف «الجامع الصغير للسيوطي» .
٢- رواه ابن المبارك في الزهد عن أبي جعفر عبد الله بن مسعود الهاشمي مرسلا «الجامع الصغير للسيوطي» .
٣- رواه أبو داود والحاكم في المستدرك والبيهقي في الشعب .
٤- رواه ابن أبي الدنيا بإسناد حسن .

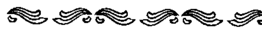
والمحدث هو من أحدث أمرا منكرا والنهي هو عن الدفاع عنه أو إيوائه أو منع المظلوم أن يقتص منه .



س: هل هذا من الحديث «إياكم وسجع الكهان» ؟

ج : ورد النهي عن السجع في الدعاء ، وحمل عليه بعض العلماء قوله تعالى : ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعراف : ٥٥] يقول الإمام الغزالي في الإحياء [١] قيل : معناه التكلف للأسجاع ، وقد قالﷺ «إياكم والسجع في الدعاء ، حسب أحدكم أن يقول : اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل».

يقول العراقي عن هذا الحديث : إنه غريب بهذا السياق . وللبخاري عن ابن عباس : وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه ، فإني عهدت أصحاب رسول الله ﷺ لا يفعلون ذلك . يقول الغزالي : واعلم أن المراد بالسجع هو المتكلف من الكلام ، فإن ذلك لا يلائم الضراعة والذلة ، وإلا ففي الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ كلمات متوازنة ، لكنها غير متكلفة ، كقوله : «أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود، مع المقربين الشهود والركع السجود ، الموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود ، وإنك تفعل ما تريد»[٢] وهو ضمن دعاء سمعه ابن عباس من النبيﷺ ليلة ، حين فرغ من صلاته .



س : هل هناك حديث يقول «لا يمر زمان إلا والذي بعده شر منه» ؟

ج : نعم رواه البخاري [٣] .



---

١ - ج١ ص٢٧٥ .
٢ - رواه الترمذي وقال : حديث غريب .
٣ - انظر رياض الصالحين٦٣ .

س : هل هناك حديث يقول «من أحيا سنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد»؟

ج : لم أجد هذا في حديث صحيح وإن كانت هناك أحاديث صحيحة تدل على أن التمسك بالدين في أيام الفتن له ثوابه العظيم ، فقد روى مسلم أن النبي ﷺ قال «العبادة في الهرج كهجرة إليّ» يقول النووي في شرح ذلك : المراد بالهرج هنا الفتنة واختلاط أمور الناس . وسبب كثرة فضل العبادة فيه أن الناس يغفلون عنها ولا يتفرغ لها إلا أفراد [1] ويؤيد ذلك حديث آخر رواه مسلم «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء» كما يؤيده ما رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن غريب ـ أي رواه راوٍ واحد فقط ـ أن النبي ﷺ قال في ضمن حديث «فإن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله» . فهناك ثواب عظيم لمن تمسك بسنة النبي ﷺ ، والمراد بها شريعته التي جاء بها بما فيها من فروض وسنن ، عند فساد الزمن ، لكن تحديد هذا الثواب بأنه مثل ثواب مائة شهيد لم أعثر عليه في حديث صحيح .



س : هل من الحديث ما يقال «لن تذهب الدنيا حتى تصير للكع بن اللكع ، وهل يعني ذلك أن الكافرون سيملكون زمام البشرية ؟

ج : جاء في «مشارق الأنوار» للعدوى [2] عن علامات الساعة الصغرى أن منها رفع الأسافل ، قال رسول الله ﷺ «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع» يعني بذلك السفلة من الناس . وهو حديث قال عنه السيوطي في الجامع الكبير : رواه أحمد والترمذي حسن .

والمعنى قلب الأوضاع ، فالعادة أن الملوك يكونون من الطبقات العليا ، فإذا صاروا من الطبقة السفلى كان ذلك دليلا على الفساد الذي تقوم عليه القيامة .

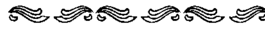


---

١ - شرح صحيح مسلم ج١٨ ص٨٨ .
٢ - ص١١٧ .

س : هل هناك حديث يقول «الإيمان يمان» ؟

ج : نعم ، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله يقول : «أتاكم أهل اليمن ، هم أرَقُّ أفئدة وألين قلوبا ، الإيمان يمان ، والحكمة يمانية، والسكينة في أهل الغنم ، والفخر والخيلاء في الفدادين» والفدادون هم من يعلو صوتهم في الإبل والخيل والحرث [1] .



س : هل هناك حديث يقول «الحكمة ضالة المؤمن» ؟

ج : روى الترمذي أن النبي ﷺ قال «الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أجدر بها» وقال عنه : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وفي معناه «خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت» وهو حث على طلب العلم النافع من أي مصدر كان ، فالعلم بحر واسع لا يدرك مداه ولا غوره ، والله سبحانه يقول : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٨٥] ويقول لنبيه ﷺ : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وفي الحكمة : منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال . والمهم هو العلم الصحيح وتطبيقه في الحياة العملية .



س : في الحديث أن الجنة تحت أقدام الأمهات ، فكيف يكون ذلك وفيهن كافرات وعاصيات ؟

ج : روى ابن ماجه والنسائي والحاكم وصححه أن رجلا قال : يا رسول الله أردت أن أغزو ، فقال «هل لك من أم» قال نعم : قال «فالزمها فإن الجنة تحت رجلها» وعبر في بعض الروايات عن هذا بقوله «الجنة تحت أقدام الأمهات» .

وردت النصوص في القرآن والسنة بالأمر ببر الوالدين ، وتخصيص الأم ، بزيادة في ذلك ، فإن برهما من أسباب دخول الجنة ، والمراد بعبارة «الجنة تحت أقدام الأمهات» أن خدمة الأم خدمة خالصة ، وعدم الأنفة أو التكبر عن أداء هذه الخدمة ـ حتى لو كانت

١- والشرح موجود في « الجزء الرابع ص٢٩ من شرح الزرقاني على المواهب اللدنية» .

الأم كافرة على ما جاء في قوله تعالى﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾[لقمان : ١٥] .

من أقوى الأسباب في دخول الجنة وبالأولى لو كانت الأم المؤمنة عاصية لربها بمثل التقصير في الصلاة .

وليس المراد أن كل الأمهات يدخلن الجنة حتما ، ويكن متمكنات منها كما يتمكن الإنسان من الشيء الذي تحت قدمه ، فإن شرط دخول الجنة الإيمان ، فلا تدخلها الكافرة ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] والمؤمنة وإن عصت ربها فقد يغفر الله لها ولا تعذب ، وقد تعذب ولكن مصيرها الجنة ما دام في قلبها ذرة من إيمان تمنع الخلود في النار .

وهنا يكون المطلوب أمرين : الأول أن تجتهد الأم لتدخل الجنة ، وذلك بالإيمان والعمل الصالح ، والثاني أن يجتهد الولد المؤمن ليدخل الجنة بالعمل الصالح ، ومنه بر الوالدين وبخاصة الأم ، وليجتمع شمل الأسرة في الجنة كما كان في الدنيا، قال تعالى ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] وقال ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الطور : ٢١].



س : هل من الحديث ما يقال «سيأتي زمن على أمتي القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر» وهل ينطبق هذا الحديث على الزمن الذي نعيشه الآن ؟

ج : روى ابن ماجه والترمذي حديثا قال عنه : حسن غريب ، أي رواه راو واحد فقط ، أن النبي ﷺ قال في ضمن حديث «فإن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله» .

وجاء في الجامع الكبير للسيوطي حديث «يأتي على الناس زمان التمسك فيه بسنتي عند اختلاف أمتي كالقابض على الجمر» [1].

---

١ - رواه الترمذي الحكيم عن ابن مسعود في كتابه «نوادر الأصول» وهو ضعيف .

ومعلوم أنه لا يمر زمان إلا والذي بعده شر منه ، وقد كثرت في أيامنا الفتن المغريات والانحرافات ، لكن لم تصل إلى الذروة ، وما يخبئه المستقبل لا علم لنا به ، ونرجو أن يقينا الله شر الفتن .



س : هل صحيح أن النبي ﷺ قال «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» ؟ .

ج : لم أر نصا لهذا الحديث منسوبا إلى النبي ﷺ بسند صحيح ، ومما قرأته في فضل العلماء وعلو منزلتهم بعد قول الله تعالى ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة : ١١] قرأت في إحياء علوم الدين للإمام الغزالي[١] حديثا يقول «أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد ، أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل ، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل» وفي تخريج العراقي جاء أن الذي رواه أبو نعيم في فضل العالم العفيف من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ، كما قرأت حديثا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه جاء فيه « والعلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكنهم ورثوا العلم ...» .

وكل ذلك إشادة بقدر العلماء وقربهم من درجة النبوة لأنهم ورثة الأنبياء ، لكن التصريح بأنهم كأنبياء بني إسرائيل لم أعثر له على حديث صحيح ، بل حكم بعض الباحثين بأنه واه ، والواهي في درجة الموضوع [٢]. جاء في الزرقاني على المواهب اللدنية[٣] أن هذا الخبر قال عنه الحافظ ابن حجر ، ومن قبله الدميري والزركشي ، إنه لا أصل له : زاد بعضهم: ولا يعرف في كتاب معتبر ، وسئل عنه الحافظ العراقي فقال: لا أصل له ولا إسناد بهذا اللفظ ، ويغني عنه « العلماء ورثة الأنبياء» وهو حديث صحيح.



---

١ - ج١ص٦ .
٢ - مجلة الإسلام ـ المجلد الرابع ـ العدد٢٩ .
٣ - ج٦ص١٥٨.

س : هل من الحديث ما يقال : « إنكم في زمان من ترك منكم عشر ما أمر به هلك، ثم يأتي زمان من عمل منهم بعشر ما أمرتم به نجا» ؟

ج : روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «إنكم في زمان من ترك منكم عشر ما أمر به هلك، ثم يأتي زمان من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا» قال : هذا حديث غريب ، والحديث الغريب في اصطلاح رجال الحديث هو الذي رواه راو واحد فقط ، ولكن لم يحكم عليه بصحة أو حسن[1].

وقريب من هذا الحديث موجود في مسند أحمد «إنكم في زمان علماؤه كثيرون وخطباؤه قليلون ، من ترك فيه عشير ما تعلم هلك ، وسيأتي زمان علماؤه قليلون وخطباؤه كثيرون ، من أخذ فيه عشير ما تعلم نجا» .

وهذا يدل على سهولة التمسك بالدين في الزمن الأول ، وصعوبته في الزمن الآخر ، تبعا لتغير الظروف ، ولذلك جاء في الحديث أن العمل في الزمن الأخير له ثواب فوق ثواب العمل في الزمن الأول ، فقد روى أبو داود والترمذي وغيرهما أن أبا ثعلبة الخشني سأل النبي ﷺ عن قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة : ١٠٥] فقال «ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك ودع عنك العامة ، فإن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم» وفي رواية قيل : يا رسول الله أجر خمسين منا أو منهم ؟ قال «بل خمسين منكم»[2].



س : هل من الحديث ما يقال « الإناء يستغفر للاعقه» وكيف يصح ذلك مع أنه من مستهجنات العصر ؟ .

ج : ١ ـ لعق الإناء جاء فيه حديث مسلم عن جابر أنه ﷺ أمر بلعق الأصابع والصحفة ، وقال : « إنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة» وجاء في رواية له عن

١- تفسير القرطبي ج٦ ص٣٤٣ .

٢- قال أبو عيسى الترمذي : هذا حديث حسن غريب قال ابن عبد البر : قوله «بل منكم» هذه اللفظة قد سكت عنها بعض الرواة فلم يذكرها «المرجع السابق».

أنس : وأمرنا أن نسلت القصعة ، والسلت ـ كما فسره النووي ـ هو المسح وتتبع ما بقى في القصعة من الطعام [1].

وفي هذا الإرشاد تنظيف للقصعة وعدم ضياع شيء من الطعام ، فلعق الصحفة التي يأكل منها جمع لا يكون باللسان منهم جميعاً ، أو من أكثر من واحد ، وهو متصور في الإناء الخاص الذي يأكل منه شخص واحد ، ويكون اللعق بمعنى السلت بوساطة الأصابع ، فيتتبع كل آكل بإصبعه ما توارى أو بقى من جوانب الصحفة ، فيأخذه ويأكله وهذا الأمر تعودوا عليه ولا يرون فيه بأساً ، وقد تعافه بعض النفوس .

والمهم هو تنفيذ المطلوب بالوسيلة التي يتواضع عليها الناس ، فلا يبقى في الإناء طعام يلقى ويضيع ، بل نحافظ عليه ونلتقطه من الإناء بالملعقة أو بالشوكة أو السكين ونحو ذلك ، ولهذا يندب أن يلتقط ما وقع من الطعام وينظف ويؤكل ولا يدعه للشيطان كما جاء في صحيح مسلم .

جاء في «الأوائل» للسيوطي أن أول من اتخذ الملعقة سيدنا إبراهيم الخليل [2].

٢ ـ وأما استغفار الإناء للاعقه فالمراد منه أخيراً الحث على نظافته وعدم ترك شيء فيه يعرض للضياع أو يسبب القذارة . وقد جاء في ذلك حديث رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد والبغوي وغيرهم ، وقال عنه الترمذي : حديث غريب ، أي رواه واحد فقط في سلسلة الرواة ، قالوا : هو المعلى بن راشد الذي رواه عن أم عاصم نبيشة ، ورواه عنه كثيرون [3] والحديث بلفظ «من أكل طعاماً في آنية ثم لحسها استغفرت له القصعة» قال الزرقاني : حقيقة وشكرا لفعله .

ولا مانع شرعا ولا عقلا أن يخلق الله في الجماد تمييزاً ونطقا ، ويؤيده رواية الديلمي « استغفرت له القصعة فتقول : اللهم أجره من النار كما أجارني من لعق

---

١ - ج١٣ص٢٠٣ .
٢ - غذاء الألباب للسفاريني ج٢ص٨٣ .
٣- كما ذكر في تحفة الأحوذي شرح الترمذي «أسد الغابة رقم٥٠٩١الزرقاني على المواهب ج٤ص٣٤٢» .

الشيطان» وقال هو كناية عن حصول المغفرة له ابتداء ، لأنه لما كان حصول المغفرة بواسطة لحسها غفر له ، ولما كانت المغفرة بسبب لحسها كأنها تطلب له الغفران .

هذا ما ورد ولا يجوز أن يعلق عليه بالاستنكار ، فالعرف إذ ذاك كان يقبله والمهم هو المحافظة على المقصود منه ، وهو النظافة والاقتصاد .

هذا وقد سئل بعض العلماء عن هذا الحديث وعن حديث «إذا أكلتم فأفضلوا فقال ما نصه : هذان حديثان لا أصل لهما [1] وقد رأينا أن حديث لعق الإناء والاستغفار للاعقه ورد بطريق صحيح . أما حديث «إذا أكلتم فأفضلوا» فلم أعثر له على تخريج مقبول حتى الآن .



س : هل صحيح أن النبي ﷺ دعا ربه أن يعيش مسكينا ، وهل يتناسب هذا مع قوة الإسلام وعموم رسالته وخلودها الذي لا يتم على يد المساكين ؟

ج : روى ابن ماجه والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «اللهم أحيني مسكينا ، وتوفني مسكينا ، واحشرني في زمرة المساكين» ورواه الترمذي عن أنس وقال : حديث غريب ، أي رواه راو واحد فقط.

وجاء في حديث للترمذي وحسَّنه قول النبي ﷺ «اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين» : وروى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال «قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين ، وأصحاب الجد محبوسون» والجد هو الغنى .

هذه الأحاديث تدل على حب النبي ﷺ للمساكين ، ويعلل ذلك بأمور :

أولها : مشاركتهم وجدانيا وتيسير وقع الفقر عليهم ، حتى لا يدخل قلوبهم شك أو تطلع إلى الدنيا وافتتان بها عن الآخرة ، وبخاصة أن أكثر من آمنوا به من المساكين . وأكثر من قاوموا الدعوة كانوا من الأغنياء الجبارين . وفي ذلك دعوة الأغنياء للعطف عليهم .

---

١ - مجلة الإسلام ـ المجلد الرابع ، العدد ٣٦ .

ثانيها : لفت أنظار الأغنياء إلى عدم الفتنة بالمال . وليس ذلك نهيا عن جمع المال وإنفاقه في حله . ففي الحديث الذي رواه أحمد بسند جيد عن عمرو بن العاص «نعم المال الصالح للعبد الصالح» .

ثالثها : أن المساكين أقل الناس حسابا إذا اتقوا ربهم في أعمالهم ، لأنهم لا يكونون كالأغنياء الذين يحاسبهم الله على نعمه كيف جحدوها وكيف أنفقوها . والمساكين من أجل هذا سيسبقون إلى دخول الجنة ، لعدم طول حسابهم على ما في أيديهم .

هذا ، وليس المراد من هذه الأحاديث دعوة النبي ﷺ إلى المسكنة والفقر الماديين، فهناك فرق بين شعور العطف والرحمة على المساكين ، والدعوة إلى الفقر، كيف وهوﷺ لا يحب الفقر الذي تذل به النفس ويمرض الجسم ويعوق عن أداء الواجبات ويغري بالسوء ؟ كما كان يستعيذ من الغنى الذي يبطر ويصرف عن الخير ويدعو إلى الفساد . لقد استعاذ من الكفر والفقر كما رواه أبو داود وقال «اللهم اقض عنا الدين وأغننا من الفقر» كما رواه مسلم ، وقال أيضا «اللهم اكفني بحلالك عن حرامك ، وأغنني بفضلك عمن سواك» كما رواه الترمذي وحسَّنه . وكثيرا ما سأل ربه العفاف والغنى . والغنى وإن كان يقصد به غنى النفس فهو أيضا يقصد به غنى المال الذي يعرف فيه حق الله ، ويكون وسيلة للعفة عن الحرام .

وعزة المسلمين لا تتوقف على الغنى المادي فقط ، فكم من أمم بلغت في الغنى الذروة فأهلكها الله لمعصيتها وبخلها وشرها . ومقومات العزة الإسلامية في العصور الأولى كانت تعتمد على القوة في العقيدة والخلق ، كما تعتمد على قوة المال ، وكان تفوقهم على الدول المجاورة لهم ليس بالمال ولكن بالدين . والدين لا يمنع من المال ما دام يوجه للخير .

لا يقصد بهذه الأحاديث دعوة إلى المسكنة الذليلة ، فإن العزة قد تكون مع رقة الحال كعزة المسلمين الأول ، والذلة قد تكون مع كثرة المال كذلة اليهود بدناءة نفوسهم ورضاهم بالهوان في سبيل الحصول على المال .

ومع كل هذا لا ننسى أبدا قول الله سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المائدة: ٨٧ ، ٨٨] وقوله ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ ﴿٣٢﴾ ﴾[الأعراف:٣١ ، ٣٢] .

وأما حديث «إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافا ، فإن الفقر إلى من يحبني أسرع من السيل إلى منتهاه» وذلك عندما قال له رجل : إني أحبك ، فقال له : « انظر ما تقول» فقال والله إني أحبك ، «ثلاث مرات» [1] ـ فالمراد به التنبيه إلى عدم الأمن من غدر الزمان ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[آل عمران : ١٤٠] .

وأساليب الامتحان كثيرة ، قال تعالى ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء:٣٥] والمؤمن الصادق يتقلب في حياته بين الشكر والصبر ، فهو في خير دائم كما قال النبي ﷺ «عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له» [2].

أو لعل النبي ﷺ أراد بقوله هذا لمن يحبه أن يكون مثله في الزهد في الدنيا وعدم تعلق الآمال العريضة بها ، أو يلفت نظره ألا يكون مثل بعض الفقراء الذين رغبوا في الإسلام طمعا في خير يعطيه لهم النبي ﷺ كمن نزل فيهم قوله تعالى ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات:١٤] .

هذا ، والتجفاف شيء يلبسه الفرس ليتقي به الأذي ، وقد يلبسه الإنسان .



١- رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

٢- رواه مسلم .

س : ما معنى الحديث الشريف «الإثم ما حاك في الصدر وتخشى أن يطلع عليه الناس» ؟ .

ج : روى أحمد عن وابصة بن معبد أنه سأل النبي ﷺ عن البر والإثم فقال له «يا وابصة ، استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدور وإن أفتاك الناس وأفتوك» ورواه مسلم بلفظ «البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس» وروى البغوي في مصابيح السنة «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» . تدل هذه الأحاديث على أن هناك قوة باطنة تستطيع أن تميز بين الخير والشر ، بالاطمئنان إلى الأول وعدم الارتياح إلى الثاني ، وجاء التعبير عن هذه القوة مرة بالنفس وأخرى بالقلب ، وثالثه بالصدر ، وقد تحدث عنها الإمام الغزالي في شرح عجائب القلب ، وفي المراقبة والمحاسبة ، ويعبر عن هذه القوة حديثا باسم الضمير .

إن هذه الأحاديث تبين قيمة الضمير الذي تربى تربية دينية . فهو يحس بالخير والشر على ضوء هذه التربية . وذلك ما كان عليه الصحابة والسلف الصالح ، الذين لم تلوث ضمائرهم فلسفات ولا نزعات أخرى . والضمير الديني الحي لا يستسيغ الشر ، ويكره أن يطلع الناس عليه لو فعله ، فهو يستحي منه ، والحياء شعبة من شعب الإيمان .

وهذا مقياس لمن تربى ضميره على الخير . أما من تربى ضميره على الشر والمبادئ البعيدة عن الدين فمقياس الخير والشر عنده غير سليم ، وأصحاب الضمائر الحية هم أصحاب النفوس الراضية المرضية المطمئنة التي وصلت إلى هذه الدرجة عندما كانت تحس بالسوء وتفعله ، فيكون اللوم والعتاب ، ويكون الحياء من العود إليه، قال تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس : ٧ـ ١٠] .

وقد تصل قوة هذا الضمير عند ذوي المروءات والهمم العالية والإحساس المرهف والمراكز الكبيرة إلى درجة أن بعض المباحات التي تستساغ من غيرهم يرونها محرمة عليهم غير لائقة بهم ، ويكرهون أن يطلع الناس عليهم وهم

يزاولونها . لأنها ستكون موضع نقد لاذع بالنسبة لمقاماتهم ، وذلك على حد قولهم : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

وأحذر ثم أحذر من أن يتخذ كل إنسان هذا الإحساس مقياسا لكل ما يصدر منه ، فذلك خاص بمن تربوا تربية دينية سليمة ، ولم يجدوا نصا في أمر ، فيرجعون إلى ضمائرهم الطيبة لاستفتائها في هذا الأمر ، أما أن يتخذه آخرون ممن يجهلون أحكام الدين ولا يبالون بها مقياسا لما يصدر منهم ، فذلك اتباع للهوى ، وقد يفضلون هذا الإحساس على المنصوص عليه ، وفي ذلك يقول الله سبحانه : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية : ٢٣] .



س : سافرت إلى بعض البلاد وكنت أرسل لأبي ما أدخره من أجل أن يبني لي بيتا أو يشتري أرضا أكسب منها عيشي عندما أعود إلى بلدي ، فوجدت أبي سجل ما اشتراه باسمه هو وقال إنه شركة بينك وبين إخوتك ، ولما قلت له : وأين كسبي ؟ قال لي ، أما أتعرف أن الرسول قال للولد : أنت ومالك لأبيك ؟ فهل هذا صحيح؟

ج : إن الجهل بالدين سبب لكثير من ألون الانحراف ، والطمع كذلك مدرجة للانزلاق ، وضعف الروح الأخوية أو تحكم الأثرة والأنانية التي لا يقوم بها مجتمع سليم .

قال العلماء في مظاهر بر الولد بوالديه : لا بد من الإنفاق عليهما النفقة المناسبة من طعام وكساء ومسكن وما إلى ذلك من الضروريات ، بشرط أن يكون ذلك في وسع الولد ، ولا يضر به ضررا واضحا ، فإذا استولى الوالدان على مال ولدهما لحاجتهما إليه فلا شيء فيه بشرط عدم الضرر بالولد ، كأن يأخذا ما يزيد على كفايتهما ، ولا يمكنانه من أداء التزاماته الخاصة ، وإلا كان على الولد أن يعطيهما فقط مقدار الكفاية ، وهو النفقة الواجبة ، ويبقى لنفسه ما يعيش به مع أسرته .

أخرج البيهقي عن قيس بن أبي حازم قال : جاء رجل إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال : إن أبي يريد أن يأخذ مالي كله يجتاحه ، أي لا يُبقى منه شيئا ، فقال لأبيه: إنما لك من ماله ما يكفيك . فقال : يا خليفة رسول الله ، أليس قد قال رسول الله ﷺ «أنت ومالك لأبيك» ؟ فقال : نعم ، وإنما يعني بذلك النفقة [1].

والحديث المذكور رواه ابن ماجه عن جابر ، ورواه الطبراني عن سمرة وابن مسعود بسند صحيح ، جاء في معجم المغني لابن قدامة الحنبلي [2] ، أن للأب دون غيره أن يأخذ من مال ولده ما يشاء ، ويتملكه مع حاجة الأب إلى ما يأخذه ومع عدمها ، صغيرا كان الولد أو كبيرا ، بشرطين : ألا يجحف بالابن ولا يضرّ به ، ولا يأخذ شيئا تعلقت به حاجته . وألا يأخذ من مال ولده فيعطيه لآخر .

وروى البيهقي في الدلائل والطبراني في الصغير والأوسط بسند فيه من لايعرف عن جابر : أن رجلا أتى النبي ﷺ يشكو إليه والده بأنه أخذ ماله ، فأرسل خلفه ـ استدعاه ـ فجاء إلى النبي وسأله عما يقوله ولده فقال : سَلْه ، هل أنفقه إلا على إخوته وعماته ؟ وبعد أن سمع منه أبياتا [3] قال النبي لابنه «أنت ومالك لأبيك» وجاء في تفسير الزمخشري «الكشاف» أن الولد غَني وأن أباه صار عاجزا يتوكأ على عصا وأن النبي ﷺ بكى لمنظره وأنه قال «ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى» ولكن مخرِّج أحاديث الكشاف قال : لم أجده فالحديث ضعيف .

ولما كان بعض الآباء يتحرج من أخذ شيء من مال أولاده ، لأنه مال للغير ، جاء النص الذي يطيِّب النفس بأخذ ما يحتاج إليه منه ، ففي الحديث «إن أولادكم من أطيب كسبكم ، فكلوا كسب أولادكم» [4].



---

١ - تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٦٦ .
٢ - ص٢ .
٣ - انظر الجزء الخامس من موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام .
٤ - رواه أبو داود وأحمد وابن ماجه . وهو صحيح ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» والبغوي في «مصابيح السنة» وابن القيم في «إعلام الموقعين» وفي زاد المعاد «ج٤ ص١٦٤» .

س : ما معنى قول النبي ﷺ «من صلى الصبح فهو في ذمة الله فلا يطلبنه الله من ذمته بشيء ، فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه ، ثم يكبه على وجهه في نار جنهم» ؟

ج : روى هذا الحديث مسلم في صحيحه ، وجاء في رواية لابن ماجه والطبراني بسند صحيح قوله ﷺ «من صلى الصبح في جماعة فهو ذمة الله فمن أخفر ذمة الله كبه الله في النار لوجهه» .

والذمة هي الأمان والعهد والضمان ، والذي يصلي الصبح في جماعة هو في ضمان الله ووقايته ، وكلمة خفر الثلاثية تفيد الحراسة والأمن والضمان ، يقال : خفر الرجل الرجل إذا حرسه وأمنه وأخفر ، بزيادة الهمزة تفيد عكس ما تفيده خفر الثلاثية ، يقال : أخفر الرجل الرجل إذا أزال ضمانه ونقض عهده .

والحديث يبين فضل صلاة الصبح وبخاصة إذا كانت في جماعة ، والذي يحرص عليها يستيقظ مبكرا ليدركها قبل فوات وقتها بطلوع الشمس . والبكور فيه الخير والبركة وهو فترة النشاط التي يجب أن تستغل استغلالا طيبا ، وقد دعا النبي ﷺ لأمته أن يبارك الله لها في بكورها .

فالذي يبكِّر ويصلي الصبح يكون في حماية الله وحراسته من السوء جزاء محافظته على الصلاة التي يعارضها هوى النفس في الكسل والتباطؤ ، وعدم مغادرة الفراش، ومن جاهد نفسه أول النهار استطاع أن يجاهد ما يعترضه طول النهار من فتن ومغريات، والله سبحانه يقول ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] فالله سبحانه يحذر أي إنسان أن ينال هذا الشخص بسوء لأنه في حماية الله ، ومن تعدى عليه طعن في حراسة الله له ولم يحترم حماه ، والله يغضب لذلك غضبا شديدا ومن غضب عليه أنزل به عقابه ولن يفلت منه ، فهو يتعقبه كما يتعقب صاحب الدم من قتل قريبه ، ليثأر له أو من أهان شرفه ليغسل العار عنه وعقاب الله لمن يخفر ذمته بالتعدي على من صلَّى الصبح سيكون بإذلاله وإهانته وكبه على وجهه في النار .

واحتراما لهذا الحديث وخوفا من التهاون فيما جاء به ذكر التاريخ أن الحجاج ابن يوسف الثقفي ، وهو المعروف بشدة بطشه وجبروته أمر سالم بن عبد الله بن عمر أن يقتل رجلا ، فسأل سالم هذا الرجل وقال له : هل صليت الصبح ؟ قال نعم ؟ فقال له : انطلق فلن أمسك بسوء ، فلما سأله الحجاج : لِمَ لم تقتله ؟ قال لأنه صلَّى الصبح فكان في جوار الله فكرهت أن أقتل رجلا أجاره الله .

والحديث إذا كان يحثنا على المحافظة على الاستيقاظ المبكر لأداء صلاة الصبح في وقتها فهو يحثنا أيضا على أداء كل الصلوات في أوقاتها ، ويحثنا على احترام من يحافظون على الصلوات فأولئك هم المؤمنون ، والله سبحانه يقول : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[الحج : ٣٨] .



س : لماذا فرض الله سبحانه وتعالى على الناس صلاة الصبح في وقت قد لايستطيع كل الناس أداءها فيه نظرا لاختلافهم في حالات توقيت العمل في الصباح ، وعدد ساعات النوم التي لا يستطيع كل إنسان التحكم فيها ؟

ج : الله سبحانه له حكمة في توزيع الصلوات على الأوقات المعروفة فلا بد من المحافظة على ذلك حتى لو لم نفهم الحكمة ، فالأمر قائم على الاتباع ، ففي الحديث «صلوا كما رأيتمونى أصلي» وقد عين جبريل للرسول عليه الصلاة والسلام مواقيت الصلاة ، بعد أن فرضت عليه ليلة الإسراء ، وحدد له أول الوقت وآخره ، وقال له: «الوقت ما بين هذين الوقتين» .

ولعل الحكمة في تضييق وقت صلاة الصبح هي الحرص على البكور واستئناف النشاط اليومي من أول النهار ، فقد أجمع ذوو الاختصاص على أن الساعات الأولى من النهار فيها خير كبير للإنتاج الذهني والبدني ، والرسول دعا أن يبارك الله لأمته في البكور .

وقال بعض المفكرين إن صلاة الصبح تؤدى بعد راحة طويلة بالنوم بالليل ، ومع ذلك جعلها الله ركعتين ولم يجعلها أربعا أو أكثر ، وذلك للسرعة في استئناف العمل من أجل الرزق والمهمات الأخرى .

وقد كره العلماء السهر الطويل بعد العشاء لغير حاجة وذلك من أجل راحة الجسم بالنوم وعدم فوات صلاة الصبح التي قال الله فيها : ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[الإسراء : ٨٧] .

وإذا كانت هناك قلة من الناس يعملون بالليل فيتعرضون لضياع صلاة الصبح ، فإن قلة لا تحكم على الكثرة ومع ذلك فمن الممكن أن تنظم أوقات العمل حتى لا يضيع أي فرض من فروض الصلاة ليلا أو نهارا .

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب على كل عقدة مكانها : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقده كلها ، فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان» .

وفي الصحيحين أيضا أن رجلا ذُكِر عند النبي ﷺ فقيل : ما زال نائما حتى أصبح ما قام إلى الصلاة ، فقال «ذاك رجل بال الشيطان في أذنه» .



س : نسمع كثيرا هذا القول : اتق شر من أحسنت إليه ، فهل هو حديث وهل معناه صحيح ؟

ج : قال العجلوني في كتابه «كشف الخفا ومزيل الإلباس» قال السخاوي : لاأعرفه ، ويشبه أن يكون من كلام بعض السلف ، قال : وليس على إطلاقه ، بل هو محمول على اللئام دون الكرام ، ويشهد له ما في «المجالسة للدينوري» عن على كرم الله وجهه : الكريم يلين إذا استعطف ، واللئيم يقسو إذا ألطف -يعني إذا أعطى تحفة- وعن عمر رضي الله عنه : ما وجدت لئيما قط إلا قليل المروءة وفي التنزيل ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾[التوبة : ٧٤] .

وسبب نزولها كما ذكره الطبري : أن كبير المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول كانت له دية فأعطاها له الرسول ، فلما اغتنى بطر النعمة ولم يؤمن إيمانا خالصا بالرسول، وقال عقب ذلك في حادثة الرجلين اللذين اقتتلا وأحدهما من حلفاء الأنصار : انصروا أخاكم فو الله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سَمِّن كلبك يأكلك، وقال أيضا ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾[المنافقون : ٨] يريد بالأعز قومه ، وبالأذل المسلمين . وفي الإسرائيليات يقول الله عز وجل «من أساء إلى من أحسن إليه فقد بدَّل نعمتي كفرا ، ومن أحسن إلى من أساء إليه فقد أخلص لي شكرا» وعند البيهقي في شعب الإيمان عن محمد بن حاتم المظفري قال : اتق شر من يصحبك لنائة [1] .



س : هل من الحديث «لا تجتمع أمتي على ضلالة» ؟ وهل يعني أن الإجماع حجة؟

ج : ذكر القسطلاني في «المواهب اللدنية» وشارحه الزرقاني [2] أن من خصائص الأمة المحمدية أنهم لا يجتمعون على ضلالة أي إذا اجتمعوا على حكم كان عند الله كذلك ، رواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير وابن أبي خيثمة في تاريخه عن أبي بصرة مرفوعا إلى النبي ﷺ بلفظ « سألت ربي ألا تجتمع أمتي على ضلالة فأعطيناها» والمراد بالأمة أمة الإجابة التي آمنت به ، وليست أمة الدعوة التي أُرسل إليها فقد كفر منها الكثيرون ، ورواه ابن أبي عاصم ، والطبراني أيضا من حديث أبي مالك الأشعري «إن الله تعالى أجاركم من ثلاث خلال ، ألا يدعو عليكم نبيكم فتهلكوا جميعا ، وألا يظهر أهل الباطل على أهل الحق ، وألا تجتمعوا على ضلالة» .

---

١ - مجلة الإسلام - المجلد الرابع - العدد ١٣ .
٢ - ج٥ص٣٨٨ .

قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» إنه حديث مشهور المتن وأسانيده كثيرة ، أي متعددة الطرق والمخارج ، وذلك علامة القوة ، فلا ينزل عن الحسن فقد أخرجه أبو نعيم والحاكم وابن منده عن ابن عمر مرفوعا بلفظ «إن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة أبدا ، وإن يد الله مع الجماعة ، فاتبعوا السواد الأعظم ، فإنه من شذ شذ في النار» وكذا أخرجه الترمذي ، وأخرجه أيضا ابن ماجه والدارقطني عن أنس مرفوعا والحاكم عن ابن عباس ورفعه ، وابن أبي عاصم وغيره مرفوعا عن عقبة بن عمرو الأنصاري ، وله شواهد متعددة في المرفوع إلى النبي ﷺ كقوله «أنتم شهداء الله في الأرض» وفي غير المرفوع إليه وهو الموقوف ، كقول ابن مسعود: إذا سئل أحدكم فلينظر كتاب الله ، فإن لم يجد ففي سنة رسول الله ، فإن لم يجد فلينظر ما اجتمع عليه المسلمون ، وإلا فليجتهد .

يقول الزرقاني : هذا ، والاختلاف شامل لما كان في أمر الدين كالعقائد أو الدنيا. كالإمامة العظمى ، ومعنى «فعليكم بالسواد الأعظم» الزموا متابعة جماهير المسلمين الذين يجتمعون على طاعة السلطان وسلوك المنهج القويم ، فهو الحق الواجب والفرض الثابت الذي يحرم خلافه ، فمن خالفه مات ميتة جاهلية.

ثم ذكر القسطلاني عقب ذلك في فضائل الأمة المحمدية أن إجماعهم حجة قاطعة، وأن اختلافهم ـ أي اختلاف المجتهدين ـ رحمة أي توسعة على الناس ، وذلك في الفروع ، أما الاختلاف في الأصول فهو ضلال . انتهى .

وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[الأنعام : ١١٦] لأن المراد هنا أمة الدعوة ، وكثير منهم لم يؤمنوا بالرسول ﷺ كما قال تعالى ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[يوسف : ١٠٣] .

وحجِّية الإجماع أشار إليها القسطلاني بأنها من دعائم الاجتهاد لمعرفة الأحكام الشرعية ، وسيأتي الكلام عنها فيما بعد .



س : هل هناك حديث يقول «لا غيبة في فاسق» ؟

ج : جاء في إحياء علوم الدين للإمام الغزالي [1] أن رسول الله ﷺ قال «أترغبون عن ذكر الفاجر ؟ اهتكوه حتى يعرفه الناس ، اذكروه بما فيه حتى يحذره الناس»[2].

وبعد أن ذكر الغزالي هذا الحديث قال : وكانوا يقولون : ثلاثة لا غيبة لهم ، الإمام الجائز والمبتدع والمجاهر بفسقه ، ثم قال فيمن يرخص غيبتهم : أن يكون مجاهرا بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس ، وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستنكف من أن يذكر له ، ولا يكره أن يذكر به ، فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك ، قال رسول الله ﷺ « من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له» [3] ثم قال الغزالي : وقال عمر رضي الله عنه : ليس لفاجر حرمة ، وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر ، إذ المستتر لا بد من مراعاة حرمته . وقال الحسن : ثلاثة لا غيبة لهم ، صاحب الهوى والفاسق المعلن بفسقه والإمام الجائر ، فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به ، وربما يتفاخرون به ، فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره ؟ نعم ، لو ذكره بغير ما يتظاهر به أثم .

من هذا يعرف أن الفاسق المعلن بفسقه ولا يستحي أو يتألم من ذكر الناس له بما فيه جائز وليس بحرام ، وإن كانت الأحاديث الواردة في ذلك فيها مقال . والصيغة المذكورة في السؤال قيل إنها منكرة ، ولكن المعنى الذي تحمله حسن بورود حديث بمعناه وإن كان ضعيفا ، وما قاله الغزالي وما نقله من الأقوال يرجح الحكم بعدم الحرمة على الوجه المذكور .



---

١ - ج٣ص١٣٢ .

٢ - قال العراقي في تخريجه : رواه الطبراني وابن حبان في الضعفاء ورواه ابن عدي من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ، دون قوله «حتى يعرفه الناس» ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا في الصمت .

٣- هذا الحديث ضعيف كما قال العراقي .

س : هل هناك حديث يقول «طلب العلم أفضل من صلاة النافلة» ؟

ج : هذا القول حديثا مرفوعا إلى النبي ﷺ وإنما هو من قول الإمام الشافعي رضي الله عنه ، فقد أثر عنه أنه قال : ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم ، قيل: ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله [1] وهذا في الجهاد المندوب ، أما المفروض فهو داخل في الفرائض لا يقدم عليها النفل كطلب العلم .



س : هل من الحديث «اتقوا فراسة المؤمن» ؟

ج : جاء في تفسير القرطبي [2] روى أبو عيسى الترمذي عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٥] قال : هذا حديث غريب. وروى الترمذي الحكيم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ «إن لله عز وجل عبادا يعرفون الناس بالتوسم» وزعمت الصوفية أنها كرامة ، وقيل : بل هي استدلال بالعلامات ، ومن العلامات ما يبدو ظاهرا لكل أحد وبأول نظرة ، ومنها ما يخفى فلا يبدو لكل واحد ولايدرك ببادئ النظر ، ومنه قول ابن عباس : ما سألني أحد عن شيء إلا عرفت : أفقيه هو أو غير فقيه .

وروى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن أنس بن مالك رضي الله عنه دخل عليه وكان قد مر بالسوق فنظر إلى امرأة فلما نظر إليه قال عثمان : يدخل أحدكم عليَّ وفي عينيه أثر الزني ؟ فقال له أنس : أوحيا بعد رسول ﷺ ؟ فقال : لا ، ولكن برهان وفراسة ، وصدق ، ومثله كثير عن الصحابة والتابعين .

يقول ابن الأثير في النهاية «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» يقال بمعنيين أحدهما ما دل ظاهر هذا الحديث عليه ، وهو ما يوقعه الله تعالى في قلوب أوليائه

١- الهداية جمادي الآخرة سنة ١٤١٠هـ.

٢- ج١٠ص٤٢ .

فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس ، والثاني نوع يتعلم بالدلائل والتجارب والخلق والأخلاق ، فتعرف به أحوال الناس ، ومنه حديث أفرس الناس ثلاثة ، أي أصدقهم فراسة ، وأنا أفرس بالرجال منك أي أبصر وأعرف .

إن الوصول إلى الحكم على الشيء بعد النظر أو السماع قد يكون لذكاء حاد يسرع به الربط بين المقدمة والنتيجة أو بين السبب والمسبب ، غير أن هذا الذكاء لايصدق أحيانا ، ولا يقلل من شأنه أن يخطئ قليلا ، فالإنسان بشر ، ولكن قد يؤيد هذا الذكاء إلهام من الله للصالحين من عباده فيوفقون في الحكم والاستنتاج ، وهذا ما يفيده تعبير «فإنه ينظر بنور الله» وبالطبع لا يكون هذا الصدق في الفراسة إلا للمؤمن .

ومن غير المؤمنين من تكون عندهم الفراسة وتصدق إلى حد كبير ، كأولاد نزار الذين عرفوا أوصاف بْعير من رؤيتهم له يرعى جانبا ويترك جانبا وأثر قدميه مختلف وروثه غير مفرق فقالوا : إنه أعور وأزور وأبتر وشرود [1].

وفي كتاب «مفتاح دار السعادة لابن القيم [2]» أمثلة كثيرة من فراسة الإمام الشافعي ، وفي إحياء علوم الدين للإمام الغزالي [3] حديث عنها، وذكر قول النبيﷺ «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات» [4] وذكر السيوطي [5] قول ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين استخلف عمر ، وصاحبة موسى حين قالت : يا أبت استأجره ، والعزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته ، أكرمي مثواه.

وذكر ابن القيم في زاد المعاد «التسمية» قول سيدنا عمر لمن سأله عن اسمه واسم أبيه وداره فقال : جمرة بن شهاب ، والمنزل حرة النار في مسكن ذات لظى ،

١- الوسيط في الأدب العربي ص٤٠ .
٢- ج٢ ص٢٣٤ .
٣- ج٢ص٥٩ .
٤- رواه أحمد .
٥- تاريخ الخلفاء ص٥٦ .

قال له : اذهب فقد احترق بيتك ، وذكر في كتاب الروح الفرق بين الفراسة والظن ، والموضوع طويل يرجع إليه في هذه المظان وفي تذكرة داود ، وتفسير القرطبي لسورة الحجر ، ومجلة الضياء التي تصدر في دبي عدد ذي الحجة ١٤٠٣ هـ وغيرها.

والمهم أن حديث الفراسة مقبول ، والوقائع المذكورة تؤيده .



س : ما مدى صحة هذا القول : عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا ؟

ج : هذا حديث رواه البخاري ومسلم ، فعبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان يذكر في كل خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم قال : أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملَّكم ، وإني أتخولكم بالموعظة . كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا .



س : في الحديث الشريف «الإيمان بضع وسبعون شعبة والحياء شعبة من الإيمان» فإذا كان الحياء غريزة من الغرائز فكيف يكون شعبة من شعب الإيمان ؟

ج : الغرائز ليست شعبة من الإيمان ، وإنما هي قوى تدعو للإيمان والكفر والطاعة والعصيان ، والدين جاء ليهذبها ويوجهها إلى الدعوة إلى الإيمان والطاعة . ثم من قال : إن الحياء كله غريزة ؟ فمن الحياء خلق مكتسب أساسه البعد عما يضر النفس والغير ، وهذا البعد فيه جهاد للنفس بغرائزها التي تريد لها كل ما تريد ، بصرف النظر عن كونه حلالا أو حراما .

فالقناعة بالحلال وعدم التطلع إلى الحرام من صفات الأخيار الأبرار ، التي جاءت بها الأديان ، وساعد عليها الإيمان بالحساب أمام الله على ما قدمت يد الإنسان .

جاء في شرح النووي لصحيح مسلم [1] بعد ذكر روايات الحديث التي منها : الحياء من الإيمان ، الحياء لا يأتي إلا بخير ، الحياء خير كله ـ أن القشيري نقل عن الجنيد أنه قال: الحياء رؤيا الآلاء ـ النعم ـ ورؤية التقصير ، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء .

وقال القاضي عياض وغيره : إنما جعل الحياء من الإيمان ـ وإن كان غريزة ـ لأنه قد يكون تخلقا واكتسابا كسائر أعمال البر ، وقد يكون غريزة ولكن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى اكتساب ونية وعلم ، فهو من الإيمان بهذا وبكونه باعثا على أفعال البر ومانعا من المعاصي .

وأما كون الحياء خيرا كله ولا يأتي إلا بخير فقد يشكل على بعض الناس ، من حيث إن صاحب الحياء قد يستحي أن يواجه بالحق من يُجِلُّه فيترك أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وقد يحمله الحياء على الإخلال ببعض الحقوق وغير ذلك مما هو معروف في العادة ـ وجواب هذا ـ أن هذا المانع ليس بحياء حقيقة ، بل هو عجز وخور ومهانة ، وتسميته حياء من إطلاق أهل العرف ، أطلقوه مجازا لمشابهته الحياء الحقيقي ، وإنما حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح ، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق ونحو هذا .

هذا وقد روى البخاري أن النبي ﷺ قال «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت» والمعنى إذا لم يخف الإنسان من الله ولا من الناس صار كالبهائم يصنع ما يشاء ، وليس هذا إغراء ، ولكنه بيان للواقع المذموم.



س : هل صحيح أن النبي ﷺ قال «النظافة من الإيمان» وهل الذين لا يعنون بالنظافة على خطأ أم على صواب ؟

ج : جاء في إحياء علوم الدين للإمام الغزالي [2] قوله : قال النبي ﷺ «بني الدين على النظافة» وقال «الطهور نصف الإيمان» وعلق العراقي على الأول فقال : لم

---

١ - ج٢ ص٥ .
٢ - ج١ ص١١١ في أول كتاب أسرار الطهارة .

أجده هكذا ، وفي الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة «تنظفوا فإن الإسلام نظيف» والطبراني في الأوسط بسند ضعيف جدا من حديث ابن مسعود «النظافة تدعو إلى الإيمان» وعلق على الثاني بقوله بالرمز : رواه الترمذي من حديث رجل من بني سليم وقال : حسن . ورواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري بلفظ «شطر» .

فاللفظ المذكور في السؤال والجاري على الألسنة ليس واردا عن النبي ﷺ ، وإنما الوارد عنه تقدير النظافة بعبارات أخرى . ولا شك أن النظافة لها تقديرها الكبير في التشريع الإسلامي ، لأنها من العوامل الأساسية في المحافظة على الصحة التي هي من أكبر نعم الله على الإنسان كما صح في الحديث «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ» (١). وللنظافة مجالات كثيرة .

ففي نظافة البدن شرع الوضوء للصلوات الخمس في اليوم والليلة ، بما فيه من تعهد للأعضاء التي يكثر تعرضها للتلوث ، وبما فيه من حث على العناية بالاستنشاق والمضمضة مع استعمال السواك وتأكيد استحبابه وشرع الغسل لأسبابه المعينة ، وندبه في مناسبات عدة ، وبخاصة عند الاجتماع والازدحام ، كما في صلاة الجمعة والعيدين ، وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم «حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يوماً ، يغسل فيه رأسه وجسده» وروى مسلم حديث : «إن الله جميل يحب الجمال» وندب إلى التزين والتعطر وحسن الهندام وتسوية الشعر وقص الأظافر وإزالة شعر الإبطين والعانة وما إلى ذلك من ضروب النظافة .

وشرع غسل اليدين قبل الطعام بعده ، وعدم غمسهما في الماء قبل غسلهما إذا استيقظ من نومه فإنه لا يدري أين باتت يده ـ وبخاصة من ينامون في العراء ويفترشون الرمال بجوار الإبل والحيوانات الأخرى ـ وحذر من النوم قبل غسل اليدين من أثر الطعام وبخاصة إذا كان فيه دسم تجذب رائحته الهوام والحشرات فتضره ، وكل ذلك وردت به الأحاديث .

---

١ - رواه البخاري .

وفي نظافة الملبس والمسكن والشارع والأمكنة العامة يقول سبحانه ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر : ٤] وباب النجاسات وإزالتها واشتراط طهارة الثوب والمكان في الصلاة واضح ومفصَّل في كتب الفقه . وفي الحديث «أصلحوا رِحالكم ولباسكم حتى تكونوا في الناس كأنكم شامة» [١]. وفي مسند البزار أن النبي ﷺ قال «إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود . فنظفوا أفناءكم وساحاتكم ، ولا تشبهوا باليهود يجمعون الأكب في دورهم» الأكب الزبالة ، وإصلاح الرحال أي المساكن عام يشمل كنسها وتهويتها وتعريضها للشمس وتطهيرها من الحشرات المؤذية وما إلى ذلك .

وحث الإسلام على إماطة الأذى عن الطريق وعدها صدقة كما رواه البخاري ومسلم ، وفي الحديث «اتقوا الملاعن الثلاث ، البراز على قارعة الطريق وموارد المياه ومواقع الظل» [٢]، وندب إلى تغطية أواني الطعام والشراب ، حفظا لها من التلوث أو الفساد بما ينقله الريح أو الذباب مثلا كما رواه مسلم .

هذه بعض التشريعات التي تدل على عناية الإسلام بالنظافة في كل شيء وليست النظافة في الماديات فقط بل في المعنويات أيضاً من العقائد والأفكار والأقوال والأفعال والضمائر والنيات وما إليها .

والذين يهملون فيها مخطئون لانحب أن يكونوا كالذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، ولاننسى في هذا المجال حرمة تلويث البيئة بأي ملوث حتى بالرائحة الكريهة ، كالدخان والثوم والبصل والعرق ، وحتى الأصوات المزعجة المقلقة للراحة ولو كانت بذكر الله ، وكل ذلك وردت به الآثار والمقصِّرون مخطئون.



---

١ - رواه أحمد .

٢ - رواه ابن ماجه وأبو داود .

س : يقول بعض الناس : إن عيسى أفضل من محمد عليهما السلام ، لأن الشيطان لم يغمزه حين ولد ، فهل هذا صحيح ؟

ج : سبق القول بأن الله سبحانه فضَّل بعض الأنبياء على بعض وأن محمدا ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين ، وقلنا : إذا كان واحد منهم له مزية فإن المزية لا تقتضي الأفضلية ، وأوردنا النصوص الدالة على ذلك . ويتصل بهذا الموضوع ما جاء في السؤال، فقد روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال « ما من بني آدم من مولود إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسته إياه ، إلا مريم وابنها» وفي رواية قال أبوهريرة ـ رواي الحديث ـ اقرءوا إن شئتم قول تعالى ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران : ٣٦] وفي لفظ عند البخاري «كل بني آدم يطعن الشيطان في عينيه بإصبعه حين يولد ، إلا عيسى ابن مريم ، ذهب يطعن فطعن في الحجاب ...».

يقول السهيلي : ولأن عيسى عليه السلام لم يخلق من مِني الرجال فأعيذ من مغمزه، وإنما خلق من نفخة روح القدس ، قال : ولا يدل هذا على فضل عيسى عليه السلام على محمد ﷺ ، لأن محمداً ﷺ قد نزع منه ذلك المغمز وملئ قلبه حكمة وإيمانا بعد أن غسله روح القدس بالثلج والبرد ، وإنما كان ذلك المغمز فيه لموضع الشهوة المحركة للمني ، والشهوات يحضرها الشيطان ، لا سيما شهوة من ليس بمؤمن ، فكان ذلك المغمز فيه راجعا إلى الأب ، لا إلى الابن المطهر ﷺ ولهذا قال : شق صدره فأخرج منه مغمز الشيطان وعلق الدم ، فتبين أن الذي التمس فيه هو الذي يغمزه الشيطان من كل مولود [1].

وأرجو التنبيه إلى أساليب المغرضين المثيرين للفتنة ، وإلى قول الله تعالى ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[آل عمران:٨٥] .



---

١ - آكام المرجان للشبلي ص ١٧٨ .

س : هل هذا حديث عن النبي ﷺ «البينة على من ادَّعى واليمين على من أنكر»؟

ج : روى مسلم أن النبي ﷺ قال «لو يعطي الناس بدعواهم لادَّعى ناس دماء رجال وأموالهم ، ولكن اليمين على المدَّعى عليه» وروى البيهقي والطبراني بإسناد صحيح أن النبي ﷺ قال : «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر» وتفصيل إجراءات التقاضي يرجع إليها في كتب الفقه .



س : جاء في بعض الأحاديث وصف شهر المحرم بأنه شهر الله ، فلماذا مع أن الشهور كلها شهور الله ؟

ج : روى مسلم أن النبي ﷺ قال «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل» قال الحافظ السيوطي : سئلت لِمَ خص المحرم بقولهم شهر الله دون سائر الشهور ، مع أن فيها ما يساويه في الفضل أو يزيد عليه كرمضان ، ووجدت ما يجاب به ، بأن هذا الاسم إسلامي دون سائر الشهور ، فإن اسمها كلها على ما كانت عليه في الجاهلية ، وكان اسم المحرم في الجاهلية صفر الأول ، والذي بعده صفر الثاني ، فلما جاء الإسلام سماه الله المحرم ، فأضيف إلى الله تعالى بهذا الاعتبار ، وهذه فائدة لطيفة رأيتها في الجمهرة . انتهى .

وبعد أن ذكر ابن علان شارح «الأذكار النووي» ذلك في السيوطي قال : ونقل ابن الجوزي أن الشهور كلها لها أسماء في الجاهلية غير هذه الأسماء الإسلامية ، قال: فاسم المحرم بائق ، وصفر نفيل ، وربيع الأول طليق ، وربيع الآخر ناجز ، وجمادي الأولى أسلح ، وجمادى الآخرة أفتح ، ورجب أحلك ، وشعبان كسع ، ورمضان زاهر ، وشوال بط ، وذو القعدة حق ، وذو الحجة نعيش . انتهى .

وجاء في خطط المقريزي [1] أن العرب كانت تسمى الشهور بالأسماء الآتية عند ثمود وهي :

١- ج٢ ص ٥٣ .

١ ـ موجب = المحرم	٢ ـ موجر = صفر
٣ ـ مورد = ربيع الأول	٤ ـ ملزم = ربيع الآخر
٥ ـ مصدر = جمادى الأول	٦ ـ هوبر = جمادى الآخرة
٧ ـ هوبل = رجب	٨ ـ موها = شعبان
٩ ـ ديمن = رمضان	١٠ ـ دابر = شوال
١١ ـ حَيْقَل = ذو القعدة	١٢ ـ مسيل = ذو الحجة

ويقول المقريزي أيضا : كانوا يسمونها بأسماء أخرى وهي : مؤتمر ، ناجر ، خوان، صوان ، حنتم ، زيا ، الأصم ، عادل ، بايق ، دعل ، هواع ، برك .

وقال سموها بعد ذلك بالأسماء المعروفة الآن .

هذا ، وشهر الله المحرم فيه عاشوراء وهو يوم مبارك في فضله .



س : نرجو شرح الحديث الذي يقول «ثلاثة يضحك الله إليهم ، الرجل إذا قام من الليل يصلي ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال» ؟

ج : هذا الحديث رواه أحمد ، وفيه ثلاث فضائل يرضى الله عنها رضاء عظيما . وقد جاء التفسير عن هذا الرضا بقول الرسول عليه الصلاة والسلام «ثلاثة يضحك الله إليهم» والضحك إذا عدى بمن كان في مقام الذم غالبا كقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين : ٢٩] وإذا عدى بإلى كان في مقام المدح ، كما في هذا الحديث .

والضحك بالمعنى المتعارف عند الناس لا ينسب إلى الله ، فالمراد لازمه وهو الرضا، فالله يرضى عن هذه الفضائل رضاء عظيما ، والتعبير بالضحك عن ذلك يدل على أهميتها وزيادة فضلها .

الفضيلة الأولى : قيام الليل بالصلاة ، ومن الأمور التي تعطي قيام الليل أهميته أن الصلاة في الليل أقرب إلى الخشوع ، وذلك لسكون الأصوات وعدم الصوارف

التي تشتت ذهن الإنسان وتشوش فكره ، وهنا يكون الاتصال بالله أتم والمناجاة معه أمتع وأحسن ، كما أن الليل يقل فيه أو ينعدم الرقيب الذي قد يرائي الإنسان بعمله من أجله ، وهنا تكون العبادة أخلص لله وأبعد عن تهمة الشرك والنفاق ، وكذلك مما يجعل لقيام الليل أهميته أن فيه إيثارا لرضاء الله على رضاء النفس ، فإن النفس تميل إلى الراحة وبخاصة في الليل ، فإذا جاهدها الإنسان ونزعها عن هواها وقام يصلي كان معنى حب الله واضحا ، وابتغاء مرضاته ظاهرا .

ويوضح ذلك حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ «ثلاثة يحبهم الله ، ويضحك إليهم ، ويستبشر بهم» وعدَّ منهم «والذي له امرأة حسنة وفراش لين حسن فيقوم من الليل ، فيقول الله : يَذَرُ شهوته ويذكرني ، ولو شاء رقد» [1]. وقد جاءت الأحاديث الكثيرة في فضل قيام الليل نكتفي منها بقوله ﷺ «إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وأفشى السلام ، وصلى الليل والناس نيام» [2] .

والفضيلة الثانية : صلاة الجماعة وتسوية صفوفها ، والذي يعطيها هذه المنزلة أنها تدل على شعور الإنسان بالروح الاجتماعية ، وحاجته إلى الصلة بإخوانه ، والتعاون معهم على الخير ، وكان بإمكانه أن يؤدي الصلاة في بيته منفردا فالأرض كلها مسجد، لكنه لم يخلد إلى الراحة وآثر الانتقال إلى مكان الاجتماع مع إخوانه وممارسة نشاطه الديني معهم ، وكذلك يعطيها هذه الأهمية أن فيها خضوعاً لنظام القيادة وتناسياً للفردية في سبيل مصلحة الجماعة ، وإذا كانوا خاضعين لقائدهم وهو إمام الصلاة في توجههم إلى الله بالعبادة ، فإنهم يحرصون على احترام هذه القيادة والحرص عليها في أمور دنياهم ، وفي ذلك كله قوة للمجتمع ، تتماسك بها أركانه ، ويرهب بها جانبه، كما أن نظام الصفوف وتسويتها يدرب على احترام النظام في كل شئون الحياة، ويدرب على مقابلة العدو صفا واحد متماسكا كالبنيان المرصوص .

١- رواه الطبراني بإسناد حسن .
٢- رواه ابن حبان في صحيحه .

وقد جاءت الأحاديث الكثيرة مرغبة في صلاة الجماعة من أجل هذه المعاني الكريمة وغيرها ، وجعلتها تفوق صلاة الانفراد بسبع وعشرين درجة . وكان النبي ﷺ يهتم اهتماما كبيرا بنظام الصفوف وتسويتها ، روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما : كان النبي يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول «استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم» وبلغ من شدة اهتمامه بتسوية الصفوف أنه كان يترك مكانه من الإمامة ويخترق الصفوف إذا رأى رجلا خارجا عن الصف ، فيقيمه ويرشده ويقول «لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم» [1].

الفضيلة الثالثة : صفوف القتال ، أي الاستعداد لمواجهة العدو ، في وحدة كاملة ونظام قوي ، وهذا المعنى له أهميته ، وذلك لأمور ، منها استعداد المسلمين لحماية عقيدتهم وشرفهم والدفاع عن وطنهم ، وتعاونهم في ذلك تعاونا قويا لعلمهم أن هذه المهمة جماعية لا فردية ، والضرر الناتج عن التقصير لا يقتصر على المقصر ، يقول الله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾[الأنفال : ٢٥] ومنها التضحية بأعز ما يملك الناس وهو الروح ، فداء لدينهم وشرفهم ، والنفس من طبيعتها حب السلامة ، ولكن النفوس المؤمنة الأبية لا ترضى السلامة مع الذلة والهوان ، وترخص أرواحها في سبيل العزة والكرامة . وهكذا يكون المؤمنون الذين جعلهم الله خير أمة أخرجت للناس ، وانتدبهم لنشر رسالة الحق والسلام . إن الله يعجب بهذه الصفوف ويضحك إليها لأنها صفوف لم تخرج لتحصيل مغنم أو كسب مادي ، ولكنها خرجت للموت ضاحكة مستبشرة .

ولما كان هذا الاستهداف يحتاج إلى إيمان قوي يتغلب على هوى النفس جاء الترغيب في الجهاد قويا بأساليب مؤثرة ، وكثرت الأحاديث التي تبين فضل المجاهدين على القاعدين ، وتعد المقاتلين بإحدى الحسنيين ، إما الفوز والنصر ، وإما الشهادة والأجر ﴿ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء : ٧٤] وأخبر النبي ﷺ أن ذروة سنام الإسلام هي الجهاد كما رواه الطبراني .

١- رواه البخاري ومسلم .

وبعد ، فهذه فضائل ثلاثة ، ينبغي أن نحرص عليها : الأولى : فضيلة فردية لخاصة النفس وهي قيام الليل ، يجاهد فيها نفسه ويتعرض لنفحات ربه ، ورد في حديث مسلم «إن في الليل ساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله فيها خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ، وذلك في كل ليلة» .

والثانية : فضيلة اجتماعية يظهر أثرها المباشر في وقت السلم ويدرب بها لوقت الحرب ، وهي صلاة الجماعة التي توحي بالتعاون والوحدة وحب النظام واحترام القيادة وعدم الشذوذ عن الجماعة .

والثالثة : فضيلة اجتماعية أيضا يظهر أثرها وقت الحرب ، وهي التعبئة العامة المنظمة لرد العدوان وحماية الأوطان ، جاء فيها قول النبي ﷺ «مقام الرجل في الصف في سبيل الله تعالى أفضل من صلاته في بيته سبعين عاما» [1].



س : نرجو شرح الحديث الشريف الذي يقول : «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه بالمال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه» ؟

ج : هذا الحديث رواه البخاري ومسلم ، ويجب أن نعلم أن حظوظ الناس في الحياة متفاوتة ، والله وحده مالك الأمر كله ، يعطي من يشاء ، ويمنع ما يشاء عمن يشاء، قال تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[آل عمران:٢٦] .

وقال ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ [الزخرف : ٣٢] وهذا التفاوت في الحظوظ لحكمة جاء بيانها في مثل قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] ولا يشترط أن يكون هذا التفضيل تكريما من الله لهم ، فكم من كفار وعصاة يتقلبون في الثراء ليزدادوا به كفرا وطغيانا ، قال تعالى : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾[آل عمران : ١٩٦ ، ١٩٧].

---

١ - رواه الترمذي بسند صحيح .

ومنح الله لعباده قد تكون بمحض قدرته واختياره دون أن يكون لأحد فيها تدخل بوجه من الوجوه كالجمال الذي يولد به الإنسان ولا يد له فيه ، وكالثراء الوارد عن طريق الميراث أو طريق لم يبذل فيه صاحبه أي جهد ، وقد تكون هذه المنح نتيجة جهد وعمل كالتي تأتي عن طريق الكسب التجاري والصناعي وما شاكله .

والطبيعة البشرية نزَّاعة إلى حب المال والجمال ومتع الحياة ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، وكثير من الناس ينظرون إلى ما فضل الله به الآخرين عليهم نظرة الحسرة والألم ، ويتمنى بعضهم أن تزول هذه النعمة عن أصحابها ليتساووا جميعا في الفقر والضعف والحاجة ، وهذا هو الحسد المذموم الذي يورث صاحبه همًّا لايفارقه ، وقلقا لا يترك له فرصة يستريح فيها باله وتهدأ أعصابه ، وقد يتورط في أعمال غير كريمة لينال بها من هذا الذي فضله الله عليه ، وقد ذم الدين هذا الخلق ، وجاء في الحديث أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب[1].

وقد يكون هناك بعض الناس الذين لم ينالوا حظا من متع الحياة يتمنون أن يكون لهم مثل ما لغيرهم ، ويسعى بعضهم جاهدا لإدراك ما يتمنى . وقد يرتكب بعضهم في سبيل ذلك ما لا يوافق عليه شرع ولا خلق .

والحديث الذي نحن بصدده يرسم لنا الدواء الذي به تستريح النفس إزاء هذه الفوارق التي فضَّل بها الله بعض الناس على بعض ، فيرشد كل عاقل إلى أنه لو تطلعت نفسه إلى ما منح غيره من مال وخلق ، أي غنى وجمال وقوة أو غير ذلك من متع الدنيا ، فجدير به أن ينظر إلى من هو أقل منه في هذه الأمور ، حتى يحس بأن الله أنعم عليه بما لم ينعم به على غيره ، وهنا تهدأ نفسه ، ويقنع بما عنده ، ويكون هنا مجال لشكر الله عليها ، وهذا ما يشير إليه قول النبي ﷺ فيما رواه مسلم «انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم» والإحساس بنعمة الله مهما صغرت وشكره عليها وسيلة من وسائل رضوان الله وحفظ النعمة وزيادتها ، وعلى

---

١ – رواه أبو داود وابن ماجه والبيهقي .

النقيض من ذلك يكون ازدراؤها والاستهانة بها موجبا لغضب الله وانتقامه في العاجل أو الآجل ، قال تعالى ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

وقد جاء في الهدى الإسلامي أن الإنسان إذا أراد أن يتنافس مع غيره فليكن التنافس في مجال الخير والفضائل والكمالات ، مستخدما في ذلك ما منحه الله من مال وصحة ولو كان بقدر ضئيل ، وهو ما يشير إليه قول النبي ﷺ «لا حسد إلا في اثنتين» والمراد لا ينبغي أن تكون هناك غبطة وتنافس واهتمام إلا في هاتين الخصلتين «رجل آتاه الله مالا فسلَّطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها للناس» [١].

أما التنافس الدنيوي المحض فهو مذموم ، ذلك أن متاع الحياة الدنيا لا تشبع منه النفس الإنسانية ، وهي حقيقة مقررة أشار إليها قول النبي ﷺ « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثا لهما ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب» [٢]. وقد وجه الله نبيه ، وهو توجيه لأمته أيضا أن يكون الاهتمام بالكمال الأدبي والديني أشد من الاهتمام بالكمال المادي الدنيوي الذي يلهي ويضر ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ١٣١] وقال تعالى ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف : ٤٦] وقال ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [النساء : ٧٧] . والإيمان بقدر الله والرضا بعطائه يهون على النفس متاعبها وآلامها ، جاء في الحديث الشريف «إن روح القُدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته» [٣].

١- رواه البخاري ومسلم .
٢- رواه البخاري ومسلم .
٣- رواه ابن حبان وابن ماجه والحاكم وغيرهم بألفاظ متقاربة .

والنبي ﷺ قد حذرنا من الاهتمام بالدنيا الذي يصرف عن الآخرة فقال «من كانت الآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه ، وشتت عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له» [1].

وقد كان السلف الصالح يتنافسون في البر ، كما حدث من عثمان وأبي بكر وعمر في تمويل جيش العسرة ، وكما حدث من عبد الرحمن بن عوف وغيره من الأعمال الخيرية الكثيرة ، التي لم يلههم عنها ما جمعوه من مال .

لكن ليس معنى هذا أن الله يصرف الناس عن الكسب ويحرمهم متع الدنيا ، فهو القائل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ ﴾ [المائدة: ٨٧]. وقال النبي ﷺ «نعم المال الصالح للعبد الصالح» [2] وقال «الدنيا حلوة خضرة ، فمن أخذها بحقها بارك الله له فيها» [3].

فلنملأ قلوبنا بالإيمان ، ولنجعل المعاني الأدبية أكبر همنا ، ولنعمل جاهدين لرفع مستوانا ، ولنوجه طاقاتنا إلى خير الدين والدنيا .



س : نريد شرح الحديث الشريف الذي يقول « خيركم من تعلم القرآن وعلمه» ؟

ج : هذا الحديث رواه البخاري ومسلم ، وتوضيح معناه يقتضينا أن نتحدث عن معنى الخيرية ، وعن السبب الذي من أجله كان تعلم القرآن وتعليمه بهذه المنزلة العالية ، وعن الآثار الواردة في فضل التعلم والتعليم ، وعن واجبنا نحو القرآن الكريم .

فمعنى «خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه» أفضلكم من انتسب إلى القرآن عن هذه الصلة ، وهل هو أفضل الناس على الإطلاق ، أو أفضل جماعة معينة منهم ؟ لقد ورد مثلاً قوله ﷺ «خيركم خيركم لأهله» [4] . فهل الرجل الذي هو خير لأهله أفضل الناس جميعاً ، توفيقاً من التعبيرات الواردة في بيان

١- رواه الترمذي وابن حبان وابن ماجه وغيرهم .
٢- رواه أحمد بسند جيد .
٣- رواه الطبرني بإسناد حسن .
٤- رواه الترمذي والنسائي والحاكم .

الأفضلية قال العلماء : إن الأفضلية هنا نسبية ، أو بالإضافة إلى جماعة معينة من الناس . فأفضل المشتغلين بالعلم هم المشتغلون بالقرآن ، وأفضل المتعاملين مع الناس بالخير هم المتعاملون بالخير مع أهلهم ، فكلٌّ في بابه أفضل وبالنسبة لجماعته ونوعه أشرف .

ولماذا كانت أشرف مهمة علمية هي ما كانت متصلة بالقرآن الكريم ؟ الجواب أن القرآن كلام الله ، وكل ما كان متصلاً بالله كان أشرف شيء في الوجود ، وأن القرآن دستور الحياة المثالية دنيا وأخرى وكل ما كان كذلك كانت الصلة به أشرف ، والانتساب إليه أكرم ، وكلام الله عند تلاوتنا له وتفقهنا فيه يزيدنا إيمانًا بالله وإدراكاً لعظمته .

ودستور الحياة السعيدة كلما تعمقنا في حفظه ودراسته قويت الرغبة في احترامه والعمل على الإفادة من هدايته . والمعرفة عن طريق القرآن معرفة صادقة ، والتطبيق على أساسها مضمون النتيجة ، قال تعالى : ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه : ١٢٣] . وقال : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم : ١] ، وتعليمنا للقرآن نشر لهدايته ، وتوعية للناس بدستورهم ، وأساس لمعرفة حقوقهم وواجباتهم ، والمعرفة هي طريق العمل ، والثقافة داعية النهوض بالمجتمع ، والقرآن بالذات جماع الثقافات الصحيحة والمعرفة الصادقة ، ودعوته دعوة للحضارة الأصلية الشاملة ، فهو ليس كتاباً روحانيًّا محضاً يرتل للعبادة فحسب ، بل هو نظام حياة كاملة في جميع قطاعاتنا المادية والروحية ، إنه يدعو إلى العلم والعمل والتطور والنهوض ، ويربي جيلاً قوي العقيدة ، مستقيم الفكر ، صافي النفس ، متين الخلق ، جدير بحياة كلها قوة ورخاء وازدهار . ولأهمية القرآن وضرورته للحياة السعيدة جاءت النصوص الكثيرة مرغبة في الإقبال عليه ، محذرة من التجافي عنه . ففي مجال تعلمه وقراءته وتدبره ودراسته والتفقه فيه جاء قول النبي ﷺ «إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله المتين ، والنور المبين ، والشفاء الناجع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولايعوج فيقوَّم ، ولا تنقضي عجائبه ،

ولايخلق من كثرة الرد . اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته ، كل حرف عشر حسنات . أما إني لا أقول : الٓمٓ حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» [١] .

وقال عقبة بن عامر : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في الصفة ، فقال «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق ، فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطع رحم» ؟ فقلنا : يا رسول الله كلنا يحب ذلك ، قال «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو فيقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل ، خير له من ناقتين ، وثلاث خير من ثلاث ، وأربع خير من أربع وأعدادهن من الإبل» [٢] . وفي الحديث الشريف «يا أبا ذر لأن تغدو فتتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلِّي مائة ركعة» [٣] . وفيه أيضاً «ومن سلك طريقاً يبتغي به علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة»[٤] . «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع» [٥] . وفي جانب تعليم القرآن ونشر هدايته جاءت نصوص كثيرة مرغبة فيه ، منها قوله ﷺ «بلغوا عني ولو آية» [٦]. وهو نفسه كان معلماً ومرشداً كبقية الأنبياء والمرسلين . وكفى بذلك شرفاً . قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ ﴾[الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦] . وجاء في حديث أبي ذر «ولأن تغدو فتعلِّم باباً من العلم ، عمل به أو لم يعمل ، خير من أن تصلي ألف ركعة» [٧] . وجاء في الاجتماع على طلب العلم وتعليمه «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده» [٨]. وجاء في معلم الناس بوجه عام قوله ﷺ «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لاينقص من أجورهم شيئا» [٩].

---

١ - رواه الحاكم بسند صحيح عن عبدالله بن مسعود .
٢- رواه مسلم .
٣- رواه ابن ماجه بإسناد حسن .
٤- رواه مسلم .
٥- رواه الترمذي وصححه .
٦- رواه البخاري .
٧- رواه ابن ماجه وحسنه .
٨- رواه مسلم .
٩- رواه مسلم .

وبعد فإننا نهيب بالمسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها أن يعنوا بالقرآن تلاوة وحفظاً وتدبراً ودراسة وتطبيقاً وتنفيذاً ، فبالقرآن تستقيم الألسنة باللغة ، وتقوى العقيدة بالإيمان ، وتتسع المدارك بالثقافة ، وتزكو النفوس بالأخلاق ، ويقوى المجتمع بالعمل ، وتنهض الأمة بالنظام .

عليهم أن يعنوا بالقرآن الكريم ليسدوا منافذ العدو إلى العقائد والأخلاق ، ولتبطل محاولات الاستعمار في الاعتداء على الأوطان ، وينهض المجتمع بما يدعو إليه من عمل على أساس العلم والإيمان . لقد عنى السلف الصالح فعزوا ، ولايصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . اقرءوا القرآن فإنه يأتي شفيعاً لأصحابه يوم القيامة ، ويقال لقارئ القرآن : اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها ، علموه أولادكم حتى يلبسكم الله تاجاً من نور يوم القيامة ، كما وردت بذلك الأحاديث ولا تتخذوه مهجورا ، بل طبقوا مبادئه تسعدوا في دنياكم وأخراكم ، قال تعالى : ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[المائدة : ١٥ ، ١٦] .



س : نريد توضيح معنى غربة الإسلام في مبدأ الدعوة ودعوته غريبا في آخر الزمان ؟

ج : روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء» وفي روساية أخرى «إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، وهو يأزر بين المسجدين كما تأزر الحية إلى جحرها» ومعنى يأزر ينضم ويجتمع، والمسجدان هما مسجد مكة ، ومسجد المدينة ، وفي جامع الترمذي في الإيمان «إن الدين ليأزر إلى المدينة كما تأزر الحية إلى جحرها ، وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأروية من رأس الجبل . إن الدين بدأ غريبا ويرجع غريبا ، فطوبى

للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي» ومعنى ليعقلن يمتنعن كما تمتنع الأروية من روءس الجبال والأروية ـ بضم الهمزة وسكون الراء وكسر الواو وتشديد الياء ـ هي الأنثى من الوعول ... وهي خراف الجبال ، وجمعها أراوي ـ على وزن أفاعيل ـ فإذا كثرت فهي الأروى ـ على وزن أفعل ـ على غير قياس كما ذكره الدميري في كتابه «حياة الحيوان الكبرى ـ أروية» .

تخبر هذه الأحاديث عن غربة الإسلام في أول تاريخه وآخره ، وهو نهاية العالم ، لأنه دين عام خالد يصلح لكل زمان ومكان ، ولا ينسخه دين آخر إلى أن تقوم الساعة .

والغربة إما غربة في الأشخاص وإما غربة في المبادئ والمعنيان صحيحان ، فقد بدأت الدعوة الإسلامية بمكة ، وكان عدد المسلمين فيها قليلا وظل كذلك حوالي ثلاثة عشر عاما ، وكان المسلمون بين مشركي مكة كالجالية الإسلامية في دولة غير إسلامية ، وبعد الهجرة بدأ عدد المسلمين يتكاثر وتتابع دخول الناس أفواجا في الدين بعد فتح مكة ، وما زال عددهم يزيد حتى تعدى اليوم ألف مليون من المسلمين لا تخلو منهم قارة من القارات أو دولة من الدول في العالم كله . وفي آخر الزمان سيقل عددهم بسبب غزو الأفكار وكثرة الآراء والمذاهب المنحرفة وتحكم المادية في النفوس وغلبة أهل البغي والفساد على البلاد الإسلامية .. ومحاولة تقليل عددهم بالقتل أو التجويع أو بوسائل أخرى حتى يكون عددهم قليلا جدا بالنسبة إلى غيرهم من أصحاب الأديان والمذاهب الأخرى وبسبب تراخي المسلمين عن التمسك بدينهم لعدم فهمهم له فهما صحيحا يسايرون به ركب التطور ، ولعدم غيرتهم عليه والقناعة به أمام المغريات أو الضواغط المحيطة بهم .

والغرباء في أول الزمان وآخره لهم منزلة عالية عند الله لأنهم تمسكوا بدينهم ولم ينزلقوا كما انزلق غيرهم رغبا أو رهبا ، وهو معنى «فطوبى للغرباء» أي العاقبة الطيبة لهم عند الله لأنهم في شجاعتهم وقوتهم كالقابضين على الجمر ، وفي

إصلاحهم ما أفسده الناس من الدين أبطال مغاوير في ميدان الجهاد ، يعانون ويقاسون محتسبين أجرهم عند الله سبحانه .

وقد أخبر النبي ﷺ عن هؤلاء الغرباء في آخر الزمان بقوله «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» .

هذا في غربة الأشخاص ، أما غربة المبادئ التي جاء بها الإسلام فواضحة ، لأن أهل مكة بالذات واجهوا الدعوة بعنف ، لغرابة ما جاءت به في عقيدة التوحيد والبعث بوجه خاص ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : ٥] ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الواقعة : ٤٧] وكذلك كانت سائر المبادئ الأخلاقية والتنظيمية التي شملت كل قطاعات النشاط البشري ، موضع دهشة لمن يسمع عنها .

ثم موضع إعجاب وتقدير لمن تدبرها وآمن بها ، لأنها حققت كرامة الإنسان وسعادته بما لم تحققه النظم والمبادئ الأخرى .

ونظرا لكثرة الحملات المسعورة ضد الإسلام الذي أنشأ أمة توحِّد الله وتسبِّح بحمده في رقعة واسعة من الأرض فإن المبادئ الأخرى التي تمس جانبا واحدا من جوانب السعادة . وهو الجانب المادي في العاجل قد جذبت بعوامل الإغراء ووسائل الدعاية أنظار الكثيرين من الناس وصرفتهم عن الجانب الروحي من السعادة ، وصارت الدعوة إلى القيم الدينة والروحية غريبة وسط الدعوات الأخرى كما كانت غريبة حين جاء بها الإسلام منذ عدة قرون . والجهاد في هذه الظروف جهاد يعتمد إلى حد كبير على شرح المبادئ الإسلامية بأسلوب يناسب العصر ، ونشرها بكل وسيلة ممكنة لغزو الأفكار المضادة في عقر دارها . لا يكتفي فيه بالدفاع المتراخي الذي لا يصمد أمام الأسلحة المدمرة بحدَّيها المادي والأدبي...

ومهما يكن من شيء فإن النصر سيكون للحق في النهاية ، لأن الله هو الحق ، ولأن الإسلام دين الحق ، والنصر إن لم يكن عاجلا في الدنيا ـ كما ندعو إليه ـ فسيكون آجلا في الآخرة كما نثق به ، لأن ذلك مقتضى عدل الله سبحانه والإيمان بصدق وعده حيث قال ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الروم : ٤٧] وقال

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] وقد تحقق النصر في العصور الأولى لأن المسلمين نصروا دين الله بالتمسك به تمسكا صحيحا شاملا خالصا ، وقرار الله باق وصادق إن حقق المسلمون اليوم نصر الدين تحقق نصر الله لهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ .

إن العدو متربص يخشى عودة الإسلام مرة أخرى دولة قوية ، فهو يحاربه في كل مكان وبكل سلاح ، فلنتسلح بكل سلاح تنفس عنه الابتكار والتطور ، دون جمود على الأساليب القديمة التي كانت تناسب عصرها ، فلكل مقام مقال ، ولكل ميدان سلاح وذلك كله في ظل الإيمان بالله القوي الذي لا يغلب ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٢٦] ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .



س : هل من الحديث ما يقال «كما تكونوا يولَّ عليكم» وما معناه ؟

ج : هذا الحديث رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أبي بكرة ، ورواه البيهقي عن أبي إسحاق السبيعي مرسلا ـ أي سقط منه الصحابي ـ وهو حديث ضعيف ، والمعنى الذي يفهم منه أن الناس إذا كانوا صالحين جعل الله عليهم أميرا صالحا ، وإذا كانوا فاسدين جعل أميرهم فاسدا ، وإذا كان الأمير أو الوالي منتخباً منهم ليس متسلطاً ولا غريباً عنهم فإن كانوا صالحين اختاروه من الصالحين، وإن كانوا فاسدين اختاروه من الفاسدين .

فالمعنى الأول تكون التولية من الله إما نعمة للصالحين وإما نقمة للعاصين المفسدين ، والمعنى الثاني تكون التولية بالاختيار منهم ، والصالح يختار الصالح ، والفاسد يختار الفاسد ، والطيور على أشكالها تقع ، ومن هنا تكون التبعة جسيمة على الشعب أو الجماعة التي تنتخب من يرشح للولاية عليها ، فإن قدروا فيه القيم الدينية والسلوك السوي واختاروه لذلك كان خيرا وبركة عليهم ، وإن قدروا فيه

القرابة أو الوجاهة أو غير ذلك من الاعتبارات دون اهتمام بعامل الدين والخلق كان نكبة عليهم ، ولا يجوز لهم الشكوى منه فهم سبب الشكوى والله يقول ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾[الشورى:٣٠] .

هذا ، والحديث روى بهذا اللفظ وفيه حذف النون من «تكونوا» .

وحذف الألف من «يول» علامة الجزم ، لتمضين «كما» معنى «حيثما أو معنى إن» وهما من الأدوات التي تجزم فعلين ، وقيل غير ذلك ، ولا داعي للتطويل في الإعراب فالحديث ضعيف السند .



س : هل صحيح أن النبي ﷺ قال «الدنيا سبعة آلاف سنة ، وأنا بعثت في نصف السادس منها» ؟

ج : روى البخاري وغيره أن النبي ﷺ قال «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بإصبعية السبابة والوسطى . والمراد بذلك قرب الساعة وأنه لا نبي بعده ولا منافاة بينه وبين الحديث الآخر «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» لأن الحديث الأول يعني أنه ليس بينه وبين الساعة نبي ، كما أنه ليس بين السبابة والوسطى إصبع أخرى، ولا يلزم من ذلك علم وقتها بعينه ، ولكن سياقه يفيد قربها وأن أشراطها متتابعة ، وبعثة النبي ﷺ نفسها أول أشراطها .

قال عِياض : حاول بعضهم في تأويله أن نسبة ما بين الإصبعين كنسبة ما بقى من الدنيا بالنسبة إلى ما مضى وأن جملتها سبعة آلاف سنة ، واستند إلى أخبار لاتصح ، وذكر ما أخرجه أبو داود في تأخير هذه الأمة نصف يوم وفسره بخمسمائة سنة ، فيؤخذ من ذلك أن الذي بقى نصف سبع ، وهو قريب مما بين السبابة والوسطى في الطول قال : وقد ظهر عدم صحة ذلك لوقوع خلافه ومجاوزة هذا المقدار ، ولو كان ذلك ثابتا لم يقع خلافه . يقول ابن حجر : وقد انضاف إلى ذلك منذ عهد عياض إلى هذا الحين ثلثمائة سنة . وقال إن ابن جرير الطبري أورد في مقدمة تاريخه عن ابن عباس أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة ،

وقد مضى ستة آلاف ومائة سنة وأورده من طريق يحيى بن يعقوب الذي قال عنه البخاري : منكر الحديث .

وفي الصحيحين عن ابن عمر مرفوعا «ما أجلكم في أجل من كان قبلكم إلا من صلاة العصر إلى مغرب الشمس» وفسر بأن مدة هذه الأمة قدر خمس النهار تقريبا. والطبري ارتضى أن الدنيا سبعة آلاف سنة ، وأيده السهيلي بحديث عن ابن زمل «الدنيا سبعة آلاف سنة بُعثت في آخرها» لكن هذا الحديث ضعيف جدا، وإسناده مجهول . وأورده ابن الجوزي في الموضوعات وقال ابن الأثير : ألفاظه مصنوعة .

إن قول النبي ﷺ «بُعثت أنا والساعة كهاتين» ليس فيه ما يقطع بصحة هذا التحديد بل غايته بيان قرب الساعة ، وليس بينها وبين النبي نبي آخر ، وحاول جماعة أن يحددوا موعد القيامة أو عمر الدنيا عن طريق الحروف المقطَّعة أوائل السور فتضاربت أقوالهم . وكلها ظنون والظن لا يغني من الحق شيئا ، فلنكل علم ذلك إلى الله سبحانه ، ولنستعد للقائه بالعمل الصالح ، ولنوفر جهدنا لنبحث عما يحل مشكلاتنا الضاغطة . وما أكثرها في هذه الأيام التي كثرت فيها النذر بقرب قيام الساعة [1] .



س : قرأنا في بعض الأحاديث قوله ﷺ «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله ، فمن هي هذه الطائفة ؟

ج : هذا الحديث رواه البخاري وعنون له بما يفيد أن هذه الطائفة هي أهل العلم ، وذكر بعد هذا الحديث حديثا يقول «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم ويعطي الله ، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى تقوم الساعة أو حتى يأتي أمر الله» . فالعلماء هم الطائفة الظاهرة على الحق ، وفي بعض

١- انظر «فتح الباري لابن حجر ج١١ ص٣٥٥ ـ ٣٥٩» لترى صورة الجدال الذي شغل به الأولون . وانظر «الروض الأنف للسهيلي ج٢ص٣٦» .

الأقوال أنهم أهل الحديث خاصة ، والحق أنهم العلماء بالدين عامة . ومعنى ظهورهم أنهم غالبون ، ويؤيده حديث رواه مسلم «لن يبرح هذا الدين قائما تقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة» وفي رواية له «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة» .

وإذا صح الحديث بأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الناس ، فإن الله يبعث ريحا كريح المسك ، لا تترك نفسا في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة ، وقيل : إن شرار الناس الذين تقوم عليهم الساعة يكونون بموضع مخصوص . وأن موضعا آخر يكون به طائفة يقاتلون على الحق لايضرهم من خالفهم .

وقال النووي : يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ، ما بين شجاع وبصير بالحرب وفقيه ومحدِّث ومفسر وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزاهد وعابد ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد ، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد وافتراقهم في أقطار الأرض ، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم أولا فأولا ، إلى ألا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد ، فإذا انقرضوا جاء أمر الله [1].



س : هل هناك حديث يقول «خير أمتي في المدن وشرها في القرى والعزب» ؟

ج : ليس هناك حديث صحيح بهذا المعنى .



س : هل هناك حديث يقول «حُبَّك الشيء يعمي ويصم» ؟

ج : في كتاب «المواهب اللدنية» للقسطلاني [2] أن هذا حديث رواه أبو داود والعسكري ، وقيل ضعيف أو موضوع وقيل حسن . أراد النبي ﷺ أن من الحب

١- فتح الباري ج١٣ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨ .
٢- ج١ ص ٢٦٠ .

مايعميك عن طريق الرشد ، ويصمك عن سماع الحق ، وأن الرجل إذا غلب الحب على قلبه ولم يكن له رادع من عقل أو دين أَصَمَّهُ حبه عن العدل ، وأعماه عن الرشد ، ولذا قال بعض الشعراء :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة　　　كما أن عين السخط تبدي المساويا



س : هل صحيح أن النبي ﷺ قال «إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة»؟

ج : نعم ، هذا حديث صحيح ورد في صحيح مسلم ، وفي رواية له أن النبي ﷺ مر برجل يصلِّي وقد أقيمت صلاة الصبح فقال «يوشك أن يصلي أحدكم الصبح أربعاً» يقول النووي : فيها النهي الصريح عن افتتاح نافلة بعد إقامة الصلاة سواء كانت راتبة كسنة الصبح والظهر والعصر أو غيرها ، وهذا مذهب الشافعي والجمهور ، وقال أبو حنيفة وأصحابه : إذا لم يكن صلى ركعتي سنة الصبح صلاهما بعد الإقامة في المسجد ما لم يخش فوت الركعة الثانية . وقال الثوري ما لم يخش فوت الركعة الأولى . وقالت طائفة يصليهما خارج المسجد ولا يصليهما بعد الإقامة في المسجد .

والحكمة في هذا النهي أن يتفرغ الإنسان للفريضة من أولها فيشرع فيها عقب شروع الإمام ، وإذا اشتغل بنافلة فاته الإحرام وفاته بعض مكملات الفريضة ، فالفريضة أولى بالمحافظة على إكمالها ، وقيل إن الحكمة ألا يتطاول الزمان على النافلة فيظن وجوبها ، وهو رأي ضعيف . ثم قال النووي بعد ذكر رواية للحديث: فيه دليل على أنه لا يصلِّي بعد الإقامة نافلة وإن كان يدرك الصلاة مع الإمام ، ورد على من قال : إن علم أنه يدرك الركعة الأولى أو الثانية يصلي النافلة .

أما إذا شرع في صلاة النافلة ثم أقيم للصلاة فهل يجوز له أن يخرج من الصلاة أولا ؟ ذلك أمر يرجع فيه إلى حديث «المتطوع أمير نفسه».

وجاء في نيل الأوطار للشوكاني [1] أن ابن عباس كان يصلي وأخذ المؤذن في الإقامة فجذبه الرسول وقال «أتصلي الصبح أربعا» [2]، وجاء في رواية للطبراني أن النبي ﷺ قال لرجل يصلي ركعتي الغداة ـ الصبح ـ حين أخذ المؤذن يقيم «ألا كان هذا قبل هذا» [3].

وفي هذا دليل على أن المصلي للنافلة يقطعها ليدرك الجماعة حين يسمع الإقامة، ويحتمل أن معنى «فلا صلاة إلا المكتوبة» لا يشغل بها وإن كان قد شرع فيها . وبعد أن ذكر الشوكاني تسعة أقوال في معنى الحديث قال : قال الشيخ أبو حامد من الشافعية : إن الأفضل خروجه من النافلة إذا أداه تمامها إلى فوات فضيلة التحريم، وهذا واضح .



س : هل من الحديث ما يقال «ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها» ؟

ج : ذكر الإمام الغزالي هذا الحديث في كتابه «الإحياء» عندما تحدث عن اشتراط الخشوع في الصلاة وحضور القلب فيها، وعقب عليه العراقي في تخريجه للأحاديث بقوله : لم أجده مرفوعاً، أي إلى النبي ﷺ، وروى محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسلا ـ يعني سقط منه الصحابي ـ «لا يقبل الله من عبد عملاً حتى يشهد قلبه مع بدنه» ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبيٍّ بن كعب، ولابن المبارك في الزهد موقوفاً على عمار «لا يكتب للرجل من صلاته ما سها عنه» .

فالمعنى صحيح، ولكن نسبته إلى النبي ﷺ ليست صحيحة، وترجع صحة المعنى إلى أن الله سبحانه وتعالى قد تحدث عن الصلاة التي تؤدي إلى الفلاح فقال : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون :١، ٢] وقال ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة :٤٥] والخشوع يكون بفهم ما يقوله المصلي ويفعله، أما الساهي والغافل فلا خشوع له .



١- ج٣ص٩١، ٩٢ .　　٢- رواه البيهقي والطبراني وأبوداود وغيرهم .

٣- وإسناده جيد كما قال العراقي .

اليوم الآخر

س : ما سبب النهي عن تمني الموت ، عند المرض الشديد أو الفشل في النجاح مثلاً ؟

ج : تمني الموت علامة من علامات اليأس من رحمة الله ومن انفراج الكرب ، والله سبحانه يقول : ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر : ٥٣] ويقول : ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾ [الشرح : ٥ ، ٦] . وقد أمر الله بالصبر والرضا بالقضاء، وعدم التعجل باستجابة الدعاء ، فذلك كله امتحان واختبار ، وله ثوابه العظيم ، إن اليأس والضيق من الحياة قد يدفع إلى التخلص منها بالانتحار ، وهو من الذنوب الكبيرة التي أوعد الله عليها بالعذاب الأليم ، والنصوص في ذلك كثيرة ، وقد أرشدنا الحديث الشريف إلى ما ينبغي أن نقول عند تأزم الأمور ، فقال عليه الصلاة والسلام «لايتمنين أحدكم الموت لضر أصابه ، فإن كان لابد فاعلاً فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي» [1].



س : هل يمكن معرفة ما يعانيه الميت عند الاحتضار ؟

ج : إن أمر الروح وأحوال الآخرة من الأمور المغيبة التي لا تُعلَمُ إلا بالأخبار الصادقة من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، وقد كثرت الأقوال عنها وتعددت الاجتهادات ، والتمس البعض لآرائهم واجتهاداتهم سنداً من تأويل

١- رواه البخاري ومسلم .

القرآن في نصوصه التي تحتمل أكثر من معنى ولا تفيد القطع في الدلالة ، ومن روايات ضعيفة أو مكذوبة على النبي ﷺ .

وخروج الروح من الإنسان انتقال من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، ومن الدنيا إلى الآخرة ، وقد يكون خروجها سهلاً هيناً ، أو فجأة لا تسبقها معاناة ، وقد يكون خروجها مصحوباً بالكرب والشدة ، ولكن لا يصح أن يكون هناك ربط بين سهولة خروجها وكرامة صاحبها فقد يكون العكس ، ولا بين المعاناة عند خروجها وهوان صاحبها عند الله فقد يكون العكس ، فكثيراً ما نرى أشراراً ماتوا فجأة أو انسلت أرواحهم في لحظات ، وكثيراً ما نرى صالحين ظلوا أياماً أو ساعات طوالا وهم يجودون بأنفاسهم الأخيرة حال الاحتضار ، ففي الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : رأيت رسول الله ﷺ وهو بالموت وعنده قدح فيه ماء يدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول «اللهم أعنِّي على سكرات الموت» وحكمة هذه الشدة على الأخيار الابتلاء والاختبار ورفع الدرجات .

أما ملك الموت فتقول الروايات إنه كان يأتي للمحتضر عِياناً ويعرفه ، فرحم الله الأمة المحمدية ومنع ظهوره للموتى بصورة تدخل الرعب في قلوب المؤمنين ، ومن الثابت أن الملائكة الموكلة بقبض الروح تنزل إلى المحتضر ، ويراها وتبشره بالخير إن كان مؤمناً على ما فسر به قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت : ٣٠] .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي بكر رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على أبي سلمة رضي الله عنه وهو في الموت فلما شق بصره ، أي شخص مدَّ رسول الله ﷺ يده فأغمضه ، فلما أغمضه صاح أهل البيت فسكَّتهم وقال «إن النَّفْس إذا خرجت يتبعها البصر ، و إن الملائكة تحضر الموت ، فيؤمنون على ما يقول أهل الميت» ثم قال « اللهم ارفع درجة أبي سلمة في المهديين ، واخلفه في عقبة في الآخرين ، واغفر لنا وله يوم الدين» .

ذلك شيء مما جاء في الكتب المعنية بأمور الموت ، ومع ذلك نكرر ما قلناه من أن كل الأحوال الأخروية ومقدماتها لا تعلمُ إلا بخبر صادق ، فينبغي عدم الإكثار من الجدال فيها ، ولنهتم بالعمل الصالح الذي يختم الله به حياتنا بالحسنى ، ولنحسن الظن بالله كلما اقترب الأجل ، فهو سبحانه عند حسن ظن عبده به ، وبخاصة عند القدوم عليه ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه.



س : هل من الحديث ما يقال : «ارقبوا الميت عند موته ثلاثاً ، إن رشح جبينه وذرفت عيناه وانتشر منخراه فهي رحمة من الله قد نزلت به ، وإن غط غطيط البكر المختنق واحمر لونه وأزبد شدقاه فهو عذاب من الله قد حل به ؟

ج : هذا الحديث ذكره الترمذي الحكيم في كتابه «نوادر الأصول» عن سلمان الفارسي ، وقد نقله السيوطي في كتابه «شفاء الصدور».

وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ «المؤمن يموت برشح الجبين» ولم أعثر على حكم عليه [1] .



س : سمعنا أن من مات يوم الجمعة لا يعذب في القبر ، فهل هذا صحيح ؟

ج : روى أبو نعيم في «الحلية» أن النبي ﷺ قال «من مات ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أجير من عذاب القبر ، وجاء يوم القيامة وعليه طابع الشهداء» .

قد تكون هناك ظروف يكون الموت فيها بشيراً بالخير ، كظروف الجهاد في سبيل الله و ما أعده الله للشهداء ، وما جاء في حديث مسلم «ومن مات في الطاعون فهو

---

١ - انظر «مشارق الأنوار» للعدوي ص٢٠ وقد علق العراقي عليه بقوله : ولا يصح ، الإحياء ج٤ ص ٣٩٥ .

شهيد ، ومن مات في البطن - أي بسبب مرض البطن أو الولادة فهو شهيد ، والغريق شهيد» وجاءت روايات أخرى تدل على فضل الموت في الغربة والهدم ودوار البحر، والدفاع عن النفس والمال والدين .

وقد صح أن الميت في الحج له منزلة عند الله ، فقد روى البخاري ومسلم أن رجلاً كان مع النبي ﷺ في عرفة فوقع عن راحلته ومات ، فأمر الرسول بغسله وتكفينه مع عدم تغطية رأسه وعدم تعطيره ، وقال «إنه يبعث يوم القيامة ملبياً» أي على هيئة المحرم بالحج ، وجاءت روايات ضعيفة أن الذي يخرج للحج أو للعمرة ومات فإنه لايحاسب ومنها حديث أبي نعيم فيمن مات يوم الجمعة أو ليلتها .

والروايات الضعيفة لا تبنى عليها عقائد ، ولا نعرف أمور الغيب منها بيقين ، والذي ينفع الإنسان في قبره هو عمله ، وكثير من أفاضل الصحابة لم يموتوا يوم الجمعة ولا في ظروف كالتي مرت ، كما أن كثيراً من الكفار ومن ظاهر سلوكهم غير مستقيم ماتوا يوم الجمعة فلنترك الأمر لله ، و لنهتم بالعمل الصالح فهو مناط الثواب والتكريم .



س : ما حكم تمني الموت في الأرض المقدسة ؟

ج : روى الطبراني بإسناد حسن عن امرأة يتيمة كانت عند رسول الله ﷺ من ثقيف ، أن رسول الله ﷺ قال «من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت ، فإنه من مات بها كنت له شهيداً ، أو شفيعاً يوم القيامة» ولهذا سأل عمر رضي الله عنه ربه أن يموت في المدينة ، فقد روى البخاري عن ز بير بن أسلم عن أبيه أن عمر قال : اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في حرم رسولك ﷺ .



س : من هو الصحابي الذي اهتز له عرش الرحمن ، وما معنى الاهتزاز ؟

ذلك الصحابي هو سعد بن معاذ رضي الله عنه زعيم الأوس إحدى قبائل الأنصار في المدينة ، روى مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

قال -وجنازة سعد بن معاذ بين أيديهم- «اهتز لها عرش الرحمن» وجاء مثله من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه.

قال النووي في شرح هذا الحديث [1] : اختلف العلماء في تأويله، فقالت طائفة هو على ظاهره، واهتزاز العرش تحركه فرحاً بقدوم روح سعد، وجعل الله في العرش تمييزاً حصل به هذا، ولا مانع منه، كما قال تعالى -عن الحجارة- ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٧٤] وهذا القول هو ظاهر الحديث وهو المختار.

وقال المازري: قال بعضهم هو على حقيقته وأن العرش تحرك لموته، قال: وهذا لاينكر من جهة العقل، لأن العرش جسم من الأجسام يقبل الحركة والسكون. قال: لكن لا تحصل فضيلة سعد بذلك، إلا أن يقال: إن الله تعالى جعل حركته علامة للملائكة على موته.

وقال آخرون: المراد اهتزاز أهل العرش وهم حملته وغيرهم من الملائكة، فحذف المضاف -وهو أهل- والمراد بالاهتزاز الاستبشار والقبول. ومنه قول العرب: فلان يهتز للمكارم، لايريدون اضطراب جسمه وحركته، وإنما يريدون ارتياحه إليها وإقباله عليها.

وقال الحربي: هو كناية عن تعظيم شأن وفاته، والعرب تنسب الشيء العظيم إلى أعظم الأشياء فيقولون: أظلمت لموت فلان الأرض، وقامت له القيامة.

وقال جماعة: المراد اهتزاز سرير الجنازة وهو النعش، وهذا القول باطل يرده صريح هذه الروايات التي ذكرها مسلم: اهتز لموته عرش الرحمن، وإنما قال هؤلاء هذا التأويل لكونهم لم تبلغهم هذه الروايات التي في مسلم، والله أعلم.



س: نرى بعض المشيعين للجنازة يقبلون الميت عند نزوله إلى القبر ويقولون: سامحك الله، فما حكم الدين في ذلك؟

ج: روى البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه دخل فبصر برسول ﷺ وهو مسجًّى -مغطى- ببرده، فكشف عن وجهه وأكب عليه فقبَّله.

١- ج ١٦ ص٢٢.

وجاء في رواية أخرى أنه قبله بعد موته . وفي حديث صحيح رواه الترمذي وأحمد وابن ماجه أن النبي ﷺ قبل عثمان بن مظعون وهو ميت ، وبكى حتى سالت الدموع على وجهه .

في هذا دليل على جواز تقبيل الميت ، وقول الناس للميت : سامحك الله ، أمر مشروع بل مندوب ، فهو من صفات المتقين الذين أعد الله لهم المغفرة والجنة التي عرضها السموات والأرض ، حيث قال الله فيهم ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .



س : ما حكم الدين في العادات والتقاليد لدى البعض بأن من مات طفلها صغيراً لاتشرب ولا تخيط الملابس في الفترة بين العصر والمغرب ، معللين ذلك بأحداث يمر بها الطفل المتوفى في الجنة ؟

ج : ليس هناك نص من قرآن أو سنة يعتمد عليه في معرفة أحوال الآخرة بخصوص هذه الأمور ، والغالب أنها مواريث فكرية قائمة على عقائد فاسدة .



س : ما حكم الدين في نعي الموتى بمكبرات الصوت أو بالنشر في الصحف أو الإعلانات ونحوها ؟

ج : ١- أخرج ابن ماجه والبيهقي بسند حسن أن حذيفة بن اليمان قال : نهى رسول الله ﷺ عن النعي .

٢ - روى الترمذي عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال «إياكم والنعي ، فإن النعي من عمل الجاهلية» [1].

٣ - روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ نعى الناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه ، وفي لفظ «إن أخاكم النجاشي قد مات فقوموا فصلوا عليه».

---

١ - قال الترمذي حديث غريب : أي رواه راو فقط .

٤ - روى البيهقي عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ نعى جعفراً وزيد بن ثابت وعبدالله بن رواحة ، وذلك في غزوة مؤتة .

٥ - وروي أيضاً أن النبي ﷺ قال فيمن دفن ليلاً وكان يَقُمُّ المسجد «أفلا كنتم آذنتموني» وفي رواية « ما منعكم أن تعلموني» .

٦ - وروي أيضاً أن رافع بن خديج مات بعد العصر ، فأتى ابن عمر فأخبر بموته فقيل له : ما ترى ؟ أيخرج بجنازته الساعة ؟ فقال : إن مثل رافع لايخرج به حتى يؤذن به من حولنا من القرى ، فأصبحوا واخرجوا بجنازته .

النَّعي والنَّعِيّ الإخبار بموت الميت ، قال الأصمعي : كانت العرب إذا مات فيها ميت ركب راكب فرساً وجعل يسير في الناس ويقول : نَعَاءِ فلاناً ، أي أنعيه وأظهر خبر وفاته . قال الجوهري : وهي مبنية على الكسر مثل درَاكِ ونزال .

إذا كان النعي على نحو ما يفعله أهل الجاهلية من ذكر المآثر والمفاخر فهو ممنوع، كما يدل عليه الحديثان الأولان ، واستحب جماعة من أهل العلم ألا يعلم الناس بجنائزهم منهم ابن مسعود وأصحابه علقمة والربيع بن خثيم وعمرو بن شرحبيل.

أما إذا كان النعي لأجل إخطار الأقارب والأصدقاء ليشهدوا جنازته ويكثر المصلون عليه ، لأن في كثرتهم أجراً لهم ونفعاً للميت ، فإنه يحصل لكل مصلٍّ منهم قيراط من الأجر كما صح في الحديث ولأنه ورد «ما من مسلم يموت فيصلِّي عليه ثلاثة صفوف من المسلمين إلا أوجب» [1] يعني وجبت له الجنة ، إذا كان النعي لذلك فلا بأس به ، بل هو مستحب ، وممن رخص في هذا أبو هريرة وابن عمر وابن سيرين وإبراهيم النخعي وعلقمة ، يقول البيهقي : بلغني عن مالك أنه قال : لاأحب الصياح لموت الرجل على أبواب المساجد ، ولو وقف على حلق المساجد فأعلم الناس بموته لم يكن به بأس . ومن جوزوا النعي بهذا القصد اعتمدوا على المرويات الثلاثة الأخيرة المذكورة .

١- رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي وقال : حديث حسن .

من هذا نرى أن النعي إن كان يحمل معنى التفاخر والتباهي فهو مذموم ، وإن كان من أجل إعلام الناس بالوفاة للاشتراك في الصلاة على الميت وتشييع الجنازة فلا بأس به ، والأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ، وبهذا يمكن التوفيق بين ما ورد من الأحاديث والآثار في ذم النعي وعدم ذمه [1]. فالمدار على القصد من النعي.



س : هل ورد عن النبي ﷺ أن من مات فقد قامت قيامته ؟

ج : هذا حديث ضعيف كما ذكره العراقي في تخريجه لأحاديث «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي [2] ، والمعنى أن من مات فقد انتهت حياته الشخصية ، كما ستنتهي الحياة العامة للمخلوقات جميعاً يوم ينفخ في الصور ، وانتهى التكليف وبدأ الحساب .



س : يحدث أن بعض الناس عندما تقرب نهايتهم يتركون وصية بأن يصلي عليه الجنازة فلان ، وأن يدفن في مكان معين ، أو يكون كفنه من قماش معين ، وغير ذلك من الوصايا ، فهل يجب تنفيذ تلك الوصية ، حتى لو صادف التنفيذ بعض الصعاب؟

ج : جاء في كتاب «الأذكار» للنووي [3] ، حديث رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت على أبي بكر رضي الله عنه ، يعني وهو مريض فقال : في كم كفنتم النبي ﷺ فقلت : في ثلاثة أثواب ، قال : في أي يوم توفى رسول الله ﷺ ؟ قالت : يوم الإثنين ، قال فأي يوم هذا ؟ قالت :يوم الإثنين ، قال : أرجو فيما بيني وبين الليل . فنظر إلى ثوب عليه كان يمرَّض فيه ، به رَدْعٌ –أثر– من زعفران فقال :

---

١ - انظر ، الفتح الرباني وشرحه ج٧ ص ١٨٤ ، المغني لابن قدامة ج٢ ص ٤٣٢ .
٢- ج ٤ ص ٤٢١ .
٣- ص ١٦٥ .

اغسلوا ثوبي هذا ، وزيدوا عليه ثوبين ، فكفنوني فيها ، قلت : إن هذا خلق -قديم- قال : إن الحي أحق بالجديد من الميت ، إما هو للمهلة -بضم الميم وفتحها وكسرها وسكون الهاء ، وهو الصديد الذي يتحلل من بدن الميت -فلم يتوف حتى أمسى ليلة الثلاثاء ودفن قبل أن يصبح.

وروى البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لـمَّـا جرح : إذا أنا قبضت فاحملوني ، ثم سلِّم وقل -لعائشة- يستأذن عمر ، فإن أذنت لي فأدخلوني ، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين .

وروى مسلم عن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال : قال سعد : ألحدوا لي لحداً ، وانصبوا عليَّ اللَّبِن نصباً كما صنع برسول الله ﷺ وروى مسلم أيضاً عن عمرو ابن العاص رضي الله عنه أنه قال ، وهو في سياقة الموت : إذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار ، فإذا دفنتموني فشنوا [1] عليَّ التراب شنًّا ، ثم أقيموا حول قبري قدر ما ينحر جزور ويقسم لحمها ، حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي .

ثم قال النووي بعد هذه الروايات : وينبغي ألا يقلَّد الميت ويتابع في كل ما وصَّى به ، بل يعرض ذلك على أهل العلم ، فما أباحوه فعل وما لا فلا ، وأنا أذكر من ذلك أمثلة ، فإذا أوصى بأن يدفن في موضع من مقابر بلدته ، وذلك الموضع معدن الأخيار يعني بجوار الصالحين -فينبغي أن يحافظ على وصيته ، وإذا أوصى بأن يصلى عليه أجنبي فهل يقدَّم في الصلاة على أقارب الميت ؟ فيه خلاف للعلماء ، والصحيح في مذهبنا أن القريب أولى ، لكن إن كان الموصى له ممن ينسب إلى الصلاح أو البراعة في العلم مع الصيانة والذكر الحسن استحب للقريب الذي ليس هو في مثل حاله إيثاره ، ورعاية لحق الميت ، وإذا أوصى بأن يدفن في تابوت لم تنفذ وصيته ، إلا أن تكون الأرض رخوة أو ندية يحتاج فيها إليه ، فتنفذ وصيته ، وكذلك إذا كان في الأرض سباع يخشى أن تأكل الجثة ولايحميها إلا التابوت ،

١- قوله شنوا، روى بالسين المهملة ، وبالمعجمة يعني بالشين ، ومعناه صبوه قليلاً قليلاً .

ويكون من رأس المال كالكفن ، وإذا أوصى بأن ينقل إلى بلد آخر لاتنفذ وصيته ، فإن النقل حرام على المذهب الصحيح المختار الذي قاله الأكثرون وصرح به المحققون ، وقيل مكروه ، قال الشافعي رحمه الله : إلا أن يكون بقرب مكة أو المدينة أو بيت المقدس ، فينقل إليها لبركتها ، وإذا أوصى بأن يدفن تحته مضربة أو مخدة تحت رأسه أو نحو ذلك لم تنفذ وصيته ، وكذا إذا أوصى بأن يكفن في حرير فإن تكفين الرجال في الحرير حرام، وتكفين الناس فيه مكروه وليس بحرام .

ولو أوصى بأن يكفن فيما زاد على عدد الكفن المشروع أو في ثوب لايستر البدن لاتنفذ وصيته ، ولو أوصى بأن يقرأ عند قبره أو يتصدق عنه وغير ذلك من أنواع القرب نفذت ، إلا أن يقترن بها ما يمنع الشرع منها بسببه ، ولو أوصى بأن تؤخر جنازته زائداً عن المشروع لم تنفذ ، ولو أوصى بأن يبنى عليه في مقبرة مسبَّلة للمسلمين لم تنفذ ولو أوصى بأن يبنى عليه في مقبرة للمسلمين لم تنفذ وصيته ، بل ذلك حرام.



س : ما حكم البكاء على الميت ، وهل صحيح أنه يعذَّب بالبكاء عليه ؟

ج : هناك أمور مخالفة للدين أثناء الجنازة وبخاصة ما يقع منها من النساء ، كاللطم والندب وشق الجيوب التي ورد فيها الحديث الصحيح . وقد تحدث العلماء في تأثر الميت بهذه الأفعال .

ولقد أمرنا الله بالصبر والرضا بقضائه عند وقوع أي مكروه ، كما قال تعالى ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

وحرم كل قول أو فعل يتنافى مع الإيمان بالله فيما قضاه وقدره ، فقد صح فيما رواه البخاري ومسلم «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى

الجاهلية» والمعنى أنه ليس بمؤمن من فعل ذلك معتقداً أنه حلال . أما من فعله على أنه حرام فهو مؤمن عاص ناقص الإيمان.

وجاء في تأثر الميت بمظاهر الحزن عليه التي لا يقرها الدين قوله ﷺ «ما من ميت يموت فيقوم باكيهم فيقول : واجبلاه واسيداه أو نحو ذلك إلا وكل به ملكان يلهزانه : هكذا أنت ؟» (١) واللهز هو الدفع في الصدر بجميع اليد . وقوله «إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه» وفي رواية «يعذب بما نيح عليه».

يقول النووي في شرح صحيح مسلم (٢) : اختلف العلماء في تأويل الأحاديث التي وردت بتعذيب الميت بما نيح عليه ، فحملها الجمهور على من وصَّى بأن يُبكي عليه ويناح بعد موته فنفذت وصيته ، فهذا يعذَّب ببكاء أهله عليه ونوحهم ، لأنه بسببه ومنسوب إليه . فأما من بكى عليه أهله وناحوا من غير وصية منه فلا يعذب، لقول الله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر : ١٨] وكان من عادة العرب الوصية بذلك ، ومنه قول طرفة بن العبد :

إذا مت فانعيني بما أنا أهله وشُقِّي عليَّ الجيب يا ابنة معبد

وقيل : إن الميت يعذب ، أي يتألم بسبب بكائهم عليه وكان يحب لهم ألا يبكوا، وإليه ذهب محمد بن جرير الطبري . وقال عياض : هو أولى الأقوال ، واحتجوا بحديث «إن أحدكم إذا بكى استعبر له صويحبه ، فيا عباد الله لاتعذبوا إخوانكم» والمراد بذلك كله ليس مجرد البكاء ولكن النياحة .

وقال النووي (٣) روينا في صحيحيهما - أي البخاري ومسلم - عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ برئ من الصالقة والحالقة والشاقة . قلت: الصالقة التي ترفع صوتها بالنياحة ، والحالقة التي تحلق شعرها عند المصيبة ، والشاقة التي تشق ثيابها عند المصيبة ، وكل هذا حرام باتفاق العلماء .

١- رواه ابن ماجه والترمذي وقال : حديث حسن .
٢- ج ٦ ص ٢٢٨ .
٣- الأذكار المستحبة من كلام سيد الأبرار ، ص ١٤٨ .

وكذلك يحرم نشر الشعر ولطم الخدود وخمش الوجه والدعاء بالويل ، وروينا في صحيحيهما عن أم عطية رضي الله عنها قالت : أخذ علينا رسول الله ﷺ في البيعة ألا ننوح ، وروينا في صحيح مسلم قوله ﷺ «اثنتان في الناس هما بهم كفر ، الطعن في النسب والنياحة على الميت» وفي سنن أبي داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : لعن رسول الله ﷺ النائحة والمستمعة . والنياحة هي رفع الصوت بالندب، والندب تعديد النادبة بصوتها محاسن الميت ، وقيل : هو البكاء عليه مع تعديد محاسنه.

ثم قال النووي : قال أصحابنا : ويحرم رفع الصوت بإفراط في البكاء ، وأما البكاء على الميت من غير ندب ولا نياحة فليس بحرام . فقد روينا في صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ عاد سعد بن عبادة ومعه عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن مسعود ، فبكى رسول الله ﷺ ، فلما رأى القوم بكاءه بكوا ، فقال « ألا تسمعون أن الله لايعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا أو يرحم» وأشار إلى لسانه .

وروينا في صحيحيهما عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ رفع إليه ابن ابنته وهو في الموت ففاضت عينا رسول الله ﷺ ، فقال له سعد : ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده وإنما يرحم الله تعالى من عباده الرحماء» وفي صحيح البخاري أن الرسول ﷺ دخل على ابنه إبراهيم - في دار ظئره- المرضع -أبي سيف القين أي الحداد- وهو يجود بنفسه ، أي يحتضر ، فجعلت عينا الرسول ﷺ تذرفان ، فقال له عبدالرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله ؟ فقال «يا ابن عوف إنها رحمة» ثم أتبعها بأخرى فقال «إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» .

وأما الأحاديث الصحيحة أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه فليست على ظاهرها وإطلاقها ، بل هي مؤولة ، واختلف العلماء في تأويلها على أقوال ، أظهرها -والله أعلم- أنها محمولة على أن يكون له سبب في البكاء ، إما بأن يكون أوصاهم به أو غير ذلك [1].

١- وقد جمعت كل ذلك أو معظمه في كتاب الجنائز من شرح المهذب.

قال أصحابنا : ويجوز البكاء قبل الموت وبعده ، ولكن قبله أولى ، للحديث الصحيح «فإذا وجبت فلا تبكين باكية» وقد نص الشافعي رحمه الله والأصحاب على أنه يكره البكاء بعد الموت كراهية تنزيه ولا يحرم ، وتأولوا حديث «فلا تبكين باكية» على الكراهة . انتهى ملخصاً من الأذكار.

من هذا نعلم :

١ - أن الصبر على المكاره ومنها الموت مطلوب .

٢ - مظاهر الجزع والسخط على القضاء ممنوعة ، من استحلها كفر ، ومن لم يستحلها كان عاصياً .

٣ - الميت إذا أوصى بالحزن الخارج عن الحدود يناله نصيب من المسئولية ، وإن لم يوص لا يعذب بذلك ، ولكن كان يود ألا تقع منهم هذه المظاهر .

٤ - أن مجرد البكاء على الميت مسموح به طبعاً وشرعاً ، فهو رحمة في قلوب الرحماء، والرسول عليه الصلاة والسلام جرت عليه هذه السنة الطبيعية ، فبكى محتفظاً بإيمانه ورضائه بالقضاء .

٥ - إذا صحب البكاء قول أو فعل يتنافى مع الإيمان بقضاء الله كان معصية.

وبناء على جواز البكاء بدون مظاهر الجزع ماذا نقول فيما رواه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ أمر رجلاً أن يَحْثُوَ التراب في أفواه النساء وهن يبكين جعفر بن أبي طالب؟

والجواب أن ابن الأثير أورد هذا الخبر في كتابه «أسد الغابة» وذكر معه أن النبيﷺ دخل على امرأة جعفر ، وهي أسماء بنت عميس ، فعزاها ، ودخلت فاطمة وهي تبكي فقال «على مثل جعفر فلتبك البواكي» ثم وفق ابن الأثير بين الخبر المانع للبكاء والخبر المبيح له ، بأن المنع كان لنسوة يبكين مع ندب ونياحة ولطم خدود ، والإباحة كانت للبكاء المجرد عن ذلك . وجاء التوضيح في رواية أحمد عندما ماتت زينب بنت رسول الله ﷺ ، فبكت النساء فجعل عمر يضربهن بسوطه ، فقال له «مهلاً يا عمر» ثم قال «إياكن ونعيق الشيطان» ثم قال «إنه مهما كان من العين والقلب فمن الله عز وجل ومن الرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان».



س: سمعت أن غسل ملابس الميت في اليوم الثالث من الوفاة يطري على روحه لأن روحه تكون معلقة بملابسه، فهل هذا صحيح؟

ج: روح الميت إذا خرجت ذهبت إلى ربها، وأنزلها المنزلة التي تستحقها، ولم يأت خبر صحيح من قرآن أو سنة بأنها تكون معلَّقة بملابس الشخص بعد موته، فذلك من أنباء الغيب التي لاتثبت بكلام لا أصل له، وعليه، فلا بأس بغسل ملابس الميت في أي وقت بعد وفاته، وينبغي أن نتحرر من الأفكار والعادات التي لم يدل عليها دليل صحيح.



س: ما حكم تشريح جثث الموتى لتحقيق الجناية أو التعليم؟

ج: ورد عن جابر رضي الله عنه أنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس النبي على شفير القبر وجلسنا معه، فأخرج الحفار عظماً -ساقاً أو عضواً- فذهب ليكسره، فقال النبي ﷺ «لاتكسرها، فإن كسرك إياه ميتاً ككسرك إياه حيًّا، ولكن دسه في جانب القبر»[1].

لم يرد في نصوص الدين ما يتصل بتشريح جثة الميت مباشرة، والمسألة اجتهادية بين الفقهاء الذين اعتمدوا على هذا الحديث، حين تحدثت كتبهم عن حكم شق بطن الميت إن كان فيه مال، وشق بطن الميتة الحامل لإخراج الجنين منه.

وقد جاء في فتوى صادرة من دار الإفتاء المصرية في ٣١ من أكتوبر سنة ١٩٣٧م[2] بالنسبة لشق البطن إن كان فيه مال: أن علماء الحنفية أجازوا شقه إذا كان المال لغيره ولم يترك الميت مالاً يعطى لصاحبه، لأن حق الآدمي مقدم على حق

١- هذا الحديث رواه مالك وابن ماجه وأبو داود بإسناد صحيح ما عدا رجلاً واحداً هو سعد الأنصاري، فقد ضعفه أحمد، ولكن وثقه الأكثرون وروى له مسلم، وهو كاف في الاحتجاج بالحديث.

٢- المفتي الشيخ عبدالمجيد سليم، الفتاوى الإسلامية، المجلد الرابع ص ١٣٣١.

الله تعالى، ومقدم على حق الظالم المعتدي، وقد زالت حرمة هذا الظالم بتعديه على مال غيره. أما مذهب الشافعي فالمشهور للأصحاب إطلاق الشق حينئذ -يعني جوازه- من غير تفصيل إن كان المال لغيره وطلبه، وقال بعضهم: يشق بطنه إذا لم يضمن الورثة مثله أو قيمته، وهناك وجه بجواز الشق إن بلغ جوهرة لنفسه، والخلاصة أن عند الشافعية رأياً بالشق مطلقاً، وعن سحنون المالكي يجوز الشق مطلقاً من أجل المال، ومنعه أحمد.

وبالنسبة لشق بطن الميتة لإخراج الجنين، أجازه الحنفية إن علم أن الولد حي، لأن الشق وإن كان فيه إبطال لحرمة الميت ففيه صيانة لحرمة الحي وهو الولد، وأجازه الشافعية إن كان يرجى حياة الجنين بعد إخراجه، ومنعه المالكية والحنابلة. ثم قال المفتي:

والذي يقتضيه النظر الدقيق في قواعد الشريعة وروحها أنه إذا كانت هناك مصلحة راجحة في شق البطن وتشريح الجثة، من إثبات حق القتيل لدى المتهم، أو تبرئة المتهم من تهمة القتل بالسم مثلاً أنه يجوز الشق والتشريح. والحديث المذكور في عدم كسر عظم الميت يحمل على ما إذا لم تكن هناك مصلحة راجحة أو حاجة ماسة، فقواعد الدين الإسلامي مبنية على رعاية المصالح الراجحة وتحمل الضرر الأخف لجلب مصلحة يكون تفويتها أشد من هذا الضرر.

ومثل هذه الفتوى جاء في الفتوى الصادرة في ٢٣ من أكتوبر سنة ١٩٦٦م [1] وكذلك في الفتوى الصادرة في ٥ من ديسمبر سنة ١٩٧٩م [2] التي جاء فيها ما نصه: أن فقه مذهبي الإمامين أبي حنيفة والشافعي يجيزان شق بطن الميت، سواء لاستخراج جنين حي أو لاستخراج مال، وأن فقه مذهبي مالك وأحمد بن حنبل الشق في المال دون الجنين، والذي أختاره في هذا الموضوع هو ما ذهب إليه فقهاء الحنفية والشافعية، من جواز شق بطن الميت لمصلحة راجحة سواء كانت لاستخراج جنين حي أو مال للميت أو لغيره إذا كان ذا قيمة معتد بها عرفاً ينتفع بها الورثة أو تقضى ديونه. اهـ.

١- المفتي الشيخ أحمد هريدي، الفتاوى الإسلامية، المجلد السادس، ص ٢٢٧٨.

٢- المفتي الشيخ جاد الحق على جاد الحق، الفتاوى الإسلامية، المجلد العاشر ص ٣٧٠٥ - ٣٧٠٧.

هذا في التشريح لتحقيق جناية أو استخراج مال أو جنين ، بناء على المصلحة الراجحة ، فهل التشريح الذي يمارس في كليات الطب للتعليم فيه مصلحة راجحة على صيانة حرمة الميت؟

جاء في فتوى للشيخ يوسف الدجوي منشورة في مجلة الأزهر ، المجلد السادس ص ٤٧٢ ، ما يشير إلى جوازه بالقياس الأولوي على جواز التشريح للمال ولو كان قليلاً كما رآه بعض الفقهاء ، وقال ما نصه : فضلاً عما في التشريح من تقدم العلم الذي تنتفع به الإنسانية كلها ، وينقذ كثيراً ممن أشفى على الهلكة أو أحاطت به الآلام من كل نواحيه ، فهو يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت . ثم قال مستدركاً : غير إنا نرى أنه لابد من الاحتياط في ذلك حتى لا يتوسع فيه الناس بلا مبالاة ، فليقتصر فيه على قدر الضرورة . وقال في ص ٥٧٨ :

إنا نرى من الإخلاص للدين والعلم أن نقول : إن مثل هذه المسألة محل اجتهاد يصح أن تختلف فيه الأنظار ، وإذا رجحنا شيئاً فإننا نكتب عن رأينا أو رأي فريق من علمائنا ، والخير كله في التوسط والاعتدال ، والشر كله في الإفراط والتفريط .

ولم يوافقه الشيخ محمد بخيت المطيعي على ذلك ، فبعد أن ذكر المسائل التي يجوز فيها شق بطن الميت نقلاً عن كتب المذاهب التي تحدثت عن إخراج الجنين والمال - قال : وبناء على ذلك فلا يجوز شق بطن أي ميت كان إلا في المواد المتقدمة ، وأن التشريح الذي من لوازمه شق البطن بلا سبب سوى بحث الأعضاء ومعرفة وظائفها وما بها من الأمراض فهذا لايسوغ ولا يجيز فتح بطن الإنسان بعد موته .

ويمكن الوقوف على وظائف الأعضاء بواسطة فتح بطن حيوان آخر غير الإنسان ، لأن كل الحيوانات متساوية في وظائف الأعضاء الحيوانية . ثم قال : ومن هذا يعلم أن التشريح الذي من لوازمه فتح البطن كما قلنا لا يجوز . نعم فتح البطن لأجل العلاج الطبي يجوز ، لأنه للمحافظة على الحياة فلا إهانة فيه [1].

---

١ - مجلة الأزهر ، المجلد السادس ، ص ٦٣١ ، ٦٣٢ .

وجاء في فتوى للشيخ جاد الحق على جاد الحق ، عن نقل الأعضاء : أن الميت إذا جهلت شخصيته أو عرفت وجهل أهله يجوز أخذ جزء من جسده نقلاً لإنسان حي آخر يستفيد به في علاجه ، أو تركه لتعليم طلاب كليات الطب ، لأن في كل ذلك مصلحة راجحة تعلو على الحفاظ على حرمة الميت [1] .

من هذا يمكن أن نقول : إن التشريح من أجل التعلم والتعليم محل خلاف بين العلماء ومن أجازه قال : لا يصار إليه إلا عند الضرورة وفي أضيق الحدود ، ولو أمكنت الدراسة على حيوانات مماثلة لكان أولى ، وكذلك لو أمكن الاستغناء عن التشريح بالنماذج المصنوعة -وهي دقيقة إلى حد كبير- فلا يجوز اللجوء إلى جثة الآدمي.



س : هل يجوز إخراج الجنين من بطن أمه ، إذا توفيت وأثبت الأطباء أن الجنين ما زال حيًّا ؟ وهل شق البطن في هذه الحالة يعتبر تعدياً على حرمة جسد الميت؟

ج : قال ابن قدامة في المغني : والمذهب -أي الحنبلي- أنه لايشق بطن الميتة لإخراج ولدها ، مسلمة كانت أو ذمية ، وتخرجه القوابل إن علمت حياته بحركة ، وإن لم يوجد نساء لم يسط الرجل عليه وتترك أمه حتى يتيقن موته ثم تدفن ، ومذهب مالك وإسحاق قريب من هذا ، ويحتمل أن يشق بطن الأم إن غلب على الظن أن الجنين يحيا ، وهو مذهب الشافعي ، لأنه -أي الشق- إتلاف جزء من الميت لإبقاء حي فجاز ، كما لو خرج بعضه حيًّا ولم يمكن خروج بقيته إلا بشق ، ولأنه يشق لإخراج المال منه ، فلإبقاء الحي أولى .

ويرد ابن قدامة رأي الشافعي فيقول : ولنا أن هذا الولد لايعيش عادة ولايتحقق أنه يحيا ، فلا يجوز هتك حرمة متيقنة لأمر موهوم . وقال النبي ﷺ «كسر عظم الميت ككسره حيا» وفيه مثلة وقد نهي النبي عن المثلة اهـ.

---

١ - الفتاوى الإسلامية ، المجلد العاشر ، ص ٣٧١٤.

وأظن أن هذا النقل كاف للإجابة عن هذا السؤال ، وقد يقبل كلام الحنابلة في منع شق البطن إذا كانت حياة الجنين متوهمة غير راجحة أو متيقنة ، أما لو أثبت الأطباء أن الجنين مازال حيًّا فإن رأي الشافعي يكون قويًّا جدًّا .



س: مات رجل فجأة ثم علمنا أنه كان جنباً ولم يغتسل من جنابته ، فهل نغسله مرتين ، مرة لرفع الجنابة ، ومرة للموت ، أو يكتفى بغسل واحد ؟

ج : يستحب للجنب أن يبادر بالغسل ، ولا يحرم عليه تأخيره بل يكره له فقط، وقد دلت الأحاديث على ابتعاد ملائكة الرحمة عنه حتى يغتسل ، وهذا الغسل واجب من أجل الصلاة لقوله تعالى عند الأمر بالقيام إلى الصلاة ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة : ٦] .

ولو مات الجنب قبل أن يغتسل فقد حدث أمران موجبان للغسل ، الجنابة والموت ، وإذا تعددت الأسباب فلا يلزم لكل سبب غسل ، بل يكفي غسل واحد، وقد قال الشافعية والمالكية : إن الشهيد لايغسل لو مات جنباً ، ورأى الحنفية وجوب غسله، والخلاف مبني على استشهاد حنظلة وهو جنب حيث لم يغسله النبي ﷺ وأخبر أن الملائكة تغسله .

وعليه فإن الجنب إذا مات ولم يغتسل يكفي لصحة الصلاة عليه غسله بعد موته مرة واحدة على ما رآه الشافعية والمالكية ، ولو فاتته صلاة بخروج وقتها ولم يغتسل سيحاسب على تركها ، لأنها وجبت عليه ولم يصلها ، فالحساب على ترك الصلاة وليس على ترك الغسل .



س : إذا شرحت جثة الميت لمعرفة أسباب الوفاة هل يكون غسله قبل التشريح أو بعده ، ولو غسل قبل التشريح فهل يتنجس إذا خرج منه دم أو أي سائل آخر ؟

ج : الأفضل غسل الميت بعد تشريحه ، لكن إذا غسل قبل التشريح فإن جسمه قد يتنجس بالدم الخارج منه ، وعند الشافعية والمالكية لا يعاد الغسل مرة ثانية بل يكتفى بغسل الجزء الذي أصابته النجاسة ، وقال الأحناف : تغسل النجاسة قبل التكفين نظافة لا شرط في صحة الصلاة عليه ، وقال الحنابلة : تجب إزالة النجاسة وإعادة غسله إلى سبع مرات ، فإن خرج شيء من الميت بعد السبع وجب غسل الخارج فقط ولا يعاد الغسل ، وهذا إذا كان خروج النجاسة قبل وضعه في الكفن ، أما بعده فلا ينتقض الغسل ولا يعاد [1].



س : هل يجوز لأحد الزوجين أن يغسل الآخر عند الموت ؟

ج : غسل الوفاة بين الجنسين إما أن يكون بين الزوجين وإما أن يكون بين غيرهما ، ولكل حكمه .

١- غسل الزوج لزوجته :

وردت في ذلك عدة أحاديث منها :

أ- عن عائشة رضي الله عنها قالت : رجع إليَّ رسول الله ﷺ من جنازة بالبقيع وأنا أجد صداعا في رأسي وأقول : وارأساه : فقال «بل أنا وارأساه، ما ضرك لو مت قبلي فغسلتك وكفنتك ثم صليت عليك ودفنتك» [2] .

ب- روى الدارقطني والبيهقي بإسناد حسن أن عليًّا رضي الله عنه غسل فاطمة رضي الله عنها ، وأخرجه الشافعي [3] .

١- انظر كتاب الفقه على المذاهب الأربعة .

٢- رواه أحمد وابن ماجه ، وأصل الحديث عند البخاري وليس فيه «غسلتك» نيل الأوطار ج٤ ص٢٩ .

٣- كشف الغمة للشعراني ، ج١ ص ٢٠٦ .

ج- أوصت فاطمة بنت عُمَيْس أن يغسلها علي بن أبي طالب وأسماء ، فغسلاها ولم ينكر أحد من الصحابة عليهما ذلك فكان إجماعاً ، كما ذكره الشوكاني في «نيل الأوطار»[1] ، أخرجه الشافعي وابن عبدالله كما في «شرح الزرقاني على المواهب »[2] .

د- وجاء في «كشف الغمة» للشعراني أن عبدالله بن مسعود غسل زوجته حين ماتت .

٢- غسل الزوجة لزوجها :

ورد في ذلك آثار منها :

أ- قالت عائشة رضي الله عنها : لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسل النبي ﷺ إلا نساؤه [3] .

ب- أوصى أبو بكر رضي الله عنه أن تغسله زوجته أسماء بنت عميس فغسلته ولم يخالف ذلك أحد من الصحابة [4] .

وروى مالك في «الموطأ» أنها غسلته وكان اليوم شديد البرودة وهي صائمة فلم تغتسل من غسله [5].

بعد هذه المرويات قال الشوكاني [6] قال أحمد : لاتغسله ، لبطلان النكاح ، ويجوز العكس عنده كالجمهور ، وقال أبوحنيفة وأصحابه والشعبي والثوري : لايجوز أن يغسلها ، لمثل ما ذكر أحمد ، ويجوز العكس عندهم كالجمهور ، قالوا : لأنه لا عدة عليه بخلافها .

وجاء في كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة» أن الزوج لو مات فإن للزوجة أن تغسله ، وذلك بالاتفاق حتى لو كانت مطلقة ، لكن أبا حنيفة وأحمد قالا : إذا

١- ج٤ ص ٢٩ .   ٢- ج٣ ص ٢٠٦.
٣- رواه أحمد وأبوداود وابن ماجه والحاكم وصححه .
٤- أخرجه البيهقي ، نيل الأوطار ، ج١ ، ص٢٦٠ .
٥- المرجع السابق .
٦- ج٤ ، ص٢٩ .

كانت بائناً فليس لها أن تغسله ولو كانت في العدة . وإذا ماتت الزوجة غسلها زوجها ، إلا أن أبا حنيفة منع ذلك لأنها صارت أجنبية عنه .

٣- الغسل بين غير الزوجين:

جاء في كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة» **قال المالكية** : إذا ماتت المرأة وليس معها زوجها ولا أحد من النساء ، فإن كان معها محرم لها غسلها وجوباً ، ولف على يديه خرقة غليظة مع ستارة بينه وبينها ، فإن لم يوجد محرم يمَّمها واحد لكوعيها فقط . وإذا مات رجل ولم توجد زوجته غسلته محرمة بخرقة مع ستر عورته ، فإن لم توجد محرم يممته الأجنبية إلى المرفقين .

وقال الحنفية : إذا ماتت المرأة ولم تكن هناك نساء يممها المحرم إلى المرفق ، ويممها الأجنبي مع وضع خرقة على يده وغض بصره ، والزوج كالأجنبي إلا أنه لايكلف غض البصر ، وإذا مات الرجل بين نساء ليس فيهن زوجته غسلته القاصرة ، فإن لم توجد يممته إلى المرفقين مع غض البصر .

وقال الشافعية : إذا ماتت بين رجال ليس فيهم زوج ولا محرم يممها الأجنبي إلى المرفقين ، مع غض البصر وعدم اللمس ، أما الزوج فيغسلها ، وكذلك المحرم إن لم يوجد الزوج ، وإذا مات الرجل بين نساء ليس فيهن زوجته ولا محرم يممته الأجنبية بحائل يمنع اللمس مع غض البصر ، أما الزوجة فتغسله وجوباً ، وكذلك المحرم عند عدم الزوجة .

وقال الحنابلة : إذا ماتت المرأة ولم يوجد زوج يممها المحرم ، وإلا يممها الأجنبي بحائل ، وإذا مات الرجل ولم توجد زوجته يممته الأجنبية بحائل ، أما المحرم فلا يشترط الحائل في تيمم الرجل أو المرأة .



س : يحدث أن الميت بعد الانتهاء من غسله وتكفينه يخرج منه شيء مما ينقض الوضوء قبل الصلاة عليه ، فهل نعيد غسله أو نغسل موضع النجاسة فقط ؟

ج : جاء في فقه المذاهب الأربعة -نشر وزارة الأوقاف المصرية- ما نصه : إذا خرج من الميت بعد غسله نجاسة علقت ببدنه أو بكفنه فإنها تجب إزالتها ، ولا يعاد الغسل مرة أخرى .

وجاء فيه أن الحنفية قالوا : النجاسة الخارجة من الميت لا تضر ، سواء أصابت بدنه أو كفنه ، إلا أنها تغسل قبل التكفين تنظيفاً لا شرطاً في صحة الصلاة عليه ، أما بعد التكفين فإنها لا تغسل ، لأن في غسلها مشقة وحرجاً ، بخلاف النجاسة الطارئة عليه كأن كفن بنجس فإنها تمنع من صحة الصلاة عليه .

والحنابلة قالوا : إذا خرج من الميت نجاسة بعد غسله وجبت إزالتها وإعادة غسله إلى سبع مرات ، فإن خرج شيء بعد السبع وجب غسل الخارج فقط ولا يعاد الغسل ، هذا إذا كان خروج النجاسة قبل وضعه في الكفن ، أما بعده فلا ينتقض الغسل ولا يعاد .

هذه هي الآراء وللإنسان أن يختار ما يشاء .



س : قمت بغسل ولدي المتوفى ، ثم توضأت وصليت عليه ، فقال البعض : إن صلاتي عليه باطلة لأنني لم أغتسل بسبب قيامي بغسله ، فهل هذا صحيح؟

ج : الغسل لمن غسل ميتاً مستحب وليس بواجب ، كما قاله جمهور العلماء ، وذلك لحديث رواه أحمد وأصحاب السنن وغيرهم «من غسل ميتاً فليغتسل ، ومن حمله فليتوضأ» وقد طعن جماعة في صحة هذا الحديث ، لكن الحافظ ابن حجر قال: حسَّنه الترمذي وصححه ابن حبان ، وهو بكثرة طرقه أقل أحواله أنه حسن يحتج به ،

والأمر في الحديث للندب لما روى عن عمر رضي الله عنه قال : كنا نغسل الميت ، فمنا من يغتسل ومنا من لايغتسل [1]. ولما غسلت أسماء بنت عميس زوجها أبا بكر الصديق رضي الله عنه حين توفى خرجت فسألت من حضرها من المهاجرين فقالت: إن هذا يوم شديد البرد ، وأنا صائمة ، فهل عليَّ من غسل ؟ فقالوا : لا [2].



س : ما حكم الدين فيمن يجهزون أكفانهم قبل وفاتهم ، وهل عليها زكاة ؟

ج : لا حرج في تجهيز الكفن قبل الموت ، فهو أمر لا واجب ولا ممنوع ، وإذا كانت نيته أن يتغظ به كلما رآه ليجتهد في العمل للقاء الله فهو خير ، والأعمال بالنيات، وكذلك إذا علم أو غلب على ظنه أنه لو مات ربما يحتار أهله في إحضار كفن له فهو يجهزه مقدماً ، أما الزكاة على الكفن فهي غير مشروعة .



س : هل من الحديث «إذا وَلِيَ أحدكم أخاه فليحسن كفنه فإنهم يتزاورون في قبورهم ؟

ج : الحديث رواه مسلم «إذا ولي أحدكم أخاه فليحسن كفنه» وفي رواية ابن ماجه والترمذي وقال : حديث حسن ، وفي بعض الروايات زيادة «فإنهم يتزاورون في قبورهم» وفي بعضها زيادة «يتباهون» [3].

ومن الإحسان في الكفن أن يكون أبيض ، لحديث رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه «البسوا من ثيابكم البيض ، فإنها من خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم».

١- رواه الخطيب بإسناد صحيح .
٢- رواه الإمام مالك .
٣- ذكره العدوي في «مشارق الأنوار» ص٣٥ .

ومن الإحسان أيضاً أن يكون الكفن ثلاث لفائف للرجل وخمس لفائف للمرأة وكل ذلك سُنة وليس بواجب فيكفي ثوب واحد يغطى جميع الجسم ، ومن أي لون يكون من الأقمشة الحلال ، أي غير الحرير للرجل .

ومع الإحسان فيه تكره المغالاة في ثمنه ، ففي الحديث «لاتغالوا في الكفن فإنه يسلب سلباً سريعاً» (١) ، وأوصى بعض الصحابة أن يكفن في ملابسه التي يلبسها ولا داعي لشراء كفن جديد ، فالحي أولى بالجديد من الميت .



س : يقول بعض الناس : إن صلاة الجنازة تجوز بدون طهارة فهل هذا صحيح؟

ج : صلاة الجنازة كأية صلاة لابد لها من شروط لصحتها ومنها الطهارة من الحدث والنجس ، في البدن والثوب والمكان ، وذلك باتفاق العلماء ، روى مالك عن نافع أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما كان يقول : لا يصلي الرجل على الجنازة إلا وهو طاهر .

لكن جاء في كتاب الزواجر لابن حجر الهيتمي (٢) ، أنه حكى عن الشعبي وغيره من السلف جواز صلاتها بغير وضوء ، ونسب إلى الشافعي ، وهو غلط وفي حاشية الشرقاوي على التحرير (٣) ، في فقه الشافعية ، أن هذا القول حكي أيضاً عن ابن جرير ، كما حكي عن أبي حنيفة الاكتفاء بالطهارة لها بالتيمم حتى لو كان بجوار نهر .

ومن هذا يعلم أن من يصلي على الجنازة وهو لابس للحذاء ، إن كان الحذاء طاهراً صحت صلاته ، وإن كان متنجساً فلا تصح عند جمهور العلماء ، أما الدعاء للميت بدون طهارة فلا مانع منه .



١- رواه أبو داود وفي إسناده أبو مالك وفيه مقال .
٢- ج ٢ ص ٣٦١ .
٣- ج ١ ص ٣١٢ .

س : ما حكم الدين في اجتماع جنازات في وقت واحد للصلاة عليها ، مع العلم بأن بعضها لرجال وبعضها لنساء ؟

ج : إذا اجتمع أكثر من ميت وكانوا ذكوراً أو إناثاً يصفُّون واحداً بعد واحد ، بين الإمام والقبلة ، ليكونوا جميعاً بين يدي الإمام . ووضع الأفضل مما يلي الإمام ، وصلى عليهم جميعاً صلاة واحدة .

وإن كانوا رجالاً ونساء جاز أن يصلي على الرجال وحدهم والنساء وحدهن ، وجاز أن يصلي على الجميع صلاة واحدة . يجعل الرجال أمام الإمام ، ويجعل النساء مما يلي القبلة .

فعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما : أنه صلى على تسع جنائز رجال ونساء ، فجعل الرجال مما يلي الإمام ، وجعل النساء مما يلي القبلة ، وصفَّهم صفًّا واحداً ، ووضعت جنازة أم كلثوم بنت علي زوجة عمر وابن لها يقال له زيد –والإمام يومئذ هو سعيد بن العاص وفي الناس يومئذ ابن عباس وأبو هريرة وأبو سعيد وأبو قتادة – فوضع الغلام مما يلي الإمام .

قال رجل : فأنكرت ذلك ، فنظرت إلى ابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد وأبي قتادة، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هي السنة [1] .

وفي الحديث أن الصبي إذا صُلِّي عليه مع امرأة كان الصبي مما يلي الإمام ، والمرأة مما يلي القبلة [2] ، وإن كان فيه رجال ونساء وصبيان ، تقدم الرجال ويليهم الصبيان ثم النساء.



س : هي يجوز للمرأة أن تصلي على الجنازة ؟

ج : نعم يجوز ، حيث لايوجد دليل بمنعها بل أقرها الصحابة حيث صلت النساء على الرسول ﷺ بعد أن صلى الرجال عليه ، والروايات ضعيفة ، ولكن لم

١- رواه النسائي والبيهقي . وقال الحافظ : وإسناده صحيح .
٢- نيل الأوطار للشوكاني ، ج ٤ ص ٧٢ .

يثبت أن النساء مُنعن من الصلاة عليه وقد أمرت عائشة -رضي الله عنها- أن يؤتى بسعد بن أبي وقاص لتصلى عليه ، وذكر ابن الأثير في أُسد الغابة في ترجمته أن أزواج النبي ﷺ صلين عليه .

وقال النووي : ينبغي أن تسن لهن الجماعة كما تسن في غيرها ، وبه قال الحسن ابن صالح وسفيان الثوري وأحمد والأحناف ، وقال مالك : يصلين فرادى .

فالمهم أنه لا مانع من صلاة المرأة على الجنازة وذلك باتفاق الأئمة .



س : كيف تصلى الجنازة على الطفل وهو غير مكلف ؟

ج : صلاة الجنازة على الميت تكريم له كإنسان ودعاء له بالرحمة ورفع الدرجات ولابد من أدائها على كل ميت مسلم صغيراً كان أو كبيراً ، إلا ما استثناه الشرع كالشهداء ، وهي فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الطلب عن الباقين ، وقد رغب فيها النبي ﷺ فقال فيما رواه مسلم « من صلى على جنازة فله قيراط ، وإن شهد دفنها فله قيراطان ، والقيراط مثل أُحد» ويرجى من كثرة عدد المصلين انتفاع الميت، ففي حديث رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه «ما من مسلم يموت فيصلي عليه ثلاثة صفوف من المسلمين إلا أوجب» أي وجبت له الجنة .

وإذا كان الميت طفلاً يصلَّى عليه ، والدعاء بعد التكبيرة الثالثة لايكون بالرحمة والمغفرة لأنه غير مكلف وليست عليه ذنوب ، بل يكون الدعاء بمثل : اللهم اجعله فرطاً وسلفاً وذخراً لأبويه ، واجعله شافعاً لهما يوم القيامة .

وهذه الصلاة واجبة ليست بالنسبة للطفل الميت فقط ، بل للسقط الذي لم يتم الأشهر التسعة ونزل بعد نفخ الروح فيه وظهرت فيه حياة بالاستهلال وهو الصراخ أو العطاس ونحوهما وذلك باتفاق العلماء ، أما إذا لم يستهل صارخاً كما يعبرون ، فإن الأحناف والمالكية لا يقولون بوجوب الصلاة عليه ، وذلك لحديث رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه والبيهقي «إذا استهل السقط صلِّي عليه وورث»

ففي الحديث اشتراط الاستهلال في الصلاة عليه ، وذهب أحمد إلى أنه يصلى عليه بناء على حديث رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه .

«والسقط يصلى عليه ويدعى لوالديه بالمغفرة والرحمة» ولأنه نسمة نفخ فيها الروح فيصلى عليه كالمستهل ، وأجاب أحمد بأن الحديث الذي اشترط الاستهلال مضطرب ومعارض بما هو أقوى منه فلا يصلح للاحتجاج به .

أما إذا نزل سقط لم تنفخ فيه الروح فلا يغسل ولا يصلى عليه ويلف في خرقة ويدفن من غير خلاف بين جمهور الفقهاء [1] .



س : ما فائدة الصلاة على الميت إذا كان طفلاً وهو لم يرتكب معصية وكذلك الشهيد المغفور له ؟

ج : من المتفق عليه بين الفقهاء أن صلاة الجنازة على الميت المسلم واجبة أو فرض والفرض كفائي ، بمعنى أن البعض لو صلى عليها سقط الطلب عن الباقين وذلك لأمر النبي ﷺ بها ، ولترغيبه فيها بأن من صلى عليه وتبعها حتى تدفن كان له قيرطان من الأجر ، ومن صلى عليها ثم رجع كان له قيراط واحد مثل جبل أحد كما وراه مسلم وغيره ، ولم يستثن من وجوبها إلا الشهيد والسقط الذي نزل من بطن أمه قبل تمام حمله في بعض الصور.

والحكمة فيها هي تكريم الميت ومجاملة أهله ، وتوديع له حين فارق أهله ودنياه، والدعاء أن يغفر الله له ويرحمه ، حتى لو لم يكن قد اقترف إثماً ومن أجل هذا صلَّى الصحابة على النبي ﷺ وإن كان الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، والصلاة على الشهيد جائزة وإن كانت غير واجبة ، ففيها تكريم ومجاملة وإن كان مغفوراً له بالنظر لما رأيناه منه ، أما الحقيقة فهي عند الله وحده ، والطفل الذي لم يكلَّف يصلى عليه للتكريم لابن آدم وللمجاملة ، وفي الدعاء المفروض في الصلاة يدعى لأهله بالصبر ، فقد روى البخاري والبيهقي أن الحسن البصري كان يقول في الصلاة على الطفل : اللهم اجعله لنا سلفاً وفرطاً وذخراً .

١- نيل الأوطار ج٢ ص ٤٩ .

قال النووي : إن كان الميت صبيًّا أو صبية يقتصر على ما جاء في الحديث الذي رواه أحمد وأصحاب السنن : «اللهم اغفر لحينا وميتنا ، وصغيرنا وكبيرنا ، وذكرنا وأنثانا ، وشاهدنا وغائبنا ، اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان ، اللهم لا تحرمنا أجره ، ولا تضلنا بعده» ويضم إلى ذلك : اللهم اجعله فرطاً لأبوية وسلفاً وذخراً وعظة واعتباراً وشفيعاً ، وثقِّل به موازينهما ، وأفرغ الصبر على قلوبهما ولاتفتنهما بعده ولاتحرمهما أجره .

هذا في الطفل الذي مات بعد أن ولد وعاش ، أما الطفل الذي ولد ميتاً فإن نزل قبل مرور أربعة أشهر على بدء الحمل به فلا يغسّل ، ولا يصلَّى عليه ويلفُّ في خرقة ويدفن ، وهذا ما اتفق عليه جمهور الفقهاء .

فإن نزل بعد أن تم له أربعة أشهر فأكثر واستهل أي صاح أو عطس أو ظهرت منه علامة تدل على أنه كانت فيه حياة فهذا لو مات يغسل ويصلَّى عليه باتفاق ، فإذا لم يستهل فلا يصلى عليه عند الحنفية والمالكية لحديث رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه والبيهقي أن النبي ﷺ قال «إذا استهل السقط صُلِّي عليه وورث» فاشترط الحديث الاستهلال لأجل الصلاة عليه ، أما الحنابلة فيرون الصلاة عليه ، لحديث رواه أحمد وأبو داود جاء فيه «والسقط يصلَّى عليه ويدعى لوالديه بالمغفرة والرحمة» فلم يقيد الحديث السقط بالاستهلال ، فيصلى عليه لأنه نسمة نفخت فيها الروح فيعطى حكم الاستهلال في الصلاة عليه ، وقال الحنابلة : إن الحديث الذي اشترط الاستهلال مضطرب ومعارض بما هو أقوى منه فلا يصلح لأن يكون حجة.

وجاء في فقه المذاهب الأربعة عند الكلام على غسل الميت الذي يتصل بالصلاة عليه أن الحنفية قالوا : إن السقط إذا نزل حيًّا بأن سمع له صوت أو رؤيت له حركة وإن لم يتم نزوله وجب غسله ، سواء كان قبل تمام مدة الحمل -وهي ستة أشهر ولحظتان- أو بعدها . أما إذا نزل ميتاً فإن كان تام الخلق فإنه يغسل كذلك ، وإن لم يكن تام الخلق بل ظهر بعض خلقه فإنه لايغسل الغسل المعروف وإنما يصب عليه

الماء ويلف في خرقة وعلى كل حال فإنه يسمى لأنه يحشر يوم القيامة . والمالكية قالوا: إذا كان السقط محقق الحياة بعد نزوله بعلامة تدل على ذلك كالصراخ والرضاع الكثير الذي يقول أهل المعرفة إنه لا يقع مثله إلا ممن فيه حياة مستقرة وجب تغسيله ، وإلا كره .

والحنابلة قالوا : السقط إذا تم في بطن أمه أربعة أشهر كاملة ونزل وجب غسله ، وأما إن نزل قبل ذلك فلا يجب غسله .

والشافعية قالوا : إن السقط النازل قبل عدة تمام الحمل - وهي ستة أشهر ولحظتان إما أن تعلم حياته فيكون كالكبير في افتراض غسله ، وإما ألا تعلم حياته، وفي هذه الحالة :

إما ألا يكون قد ظهر خلقه فيجب غسله أيضاً دون الصلاة عليه ، وإما أن يظهر خلقه فلا يفترض غسله ، وأما السقط النازل بعد المدة المذكورة فإنه يفترض غسله وإن نزل ميتاً ، وعلى كل حال فإنه يسن تسميته بشرط أن يكون قد نفخت فيه الروح.

ولتوضيح صلاة الجنازة على الشهيد ، وهو الذي قتل في معركة بين المسلمين والكافرين ، نقول : قد وردت أحاديث صحيحة تصرح بعدم الصلاة عليه ، منها ما رواه البخاري أن النبي ﷺ أمر بدفن شهداء أُحد في دمائهم ولم يغسِّلهم ولم يصل عليهم كما قال جابر . كما وردت أحاديث أخرى صحيحة تصرح بأنه يصلى عليه ، منها ما رواه البخاري أن النبي ﷺ خرج يوماً فصلى على أهل أحد صلاته على الميت بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء والأموات .

لكن يرد على هذا الحديث بأن الكلام في الصلاة على الشهيد قبل الدفن ، وروى البيهقي حديثاً مرسلاً ـ سقط منه الصحابى - عن أبي مالك الغفاري قال :كان قتلى أُحد يؤتى منهم بتسعة وعاشرهم حمزة فيصلى عليهم رسول الله ﷺ ثم يحملون ثم يؤتى بتسعة فيصلى عليهم وحمزة مكانه حتى صلى عليهم رسول الله ﷺ .

وحديث جابر أصح من حديث أبي مالك الغفاري .

ومن هنا قال ابن حزم يجوز أن يُصلَّى على الشهيد وألا يصلى عليه ، فإن صلى عليه فحسن ، وإن لم يصل عليه فحسن ، وهو إحدى الروايات عن أحمد ، واستصوب ابن القيم هذا الرأي وقال : والأظهر من أمر شهداء أحد أنه لم يصل عليهم عند الدفن ، وقد قتل معه بأحد سبعون نفساً فلا يجوز أن تخفى الصلاة عليهم .

وحديث جابر في ترك الصلاة عليهم صحيح ، لأن أباه عبدالله كان أحد القتلى يومئذ فعنده من الخبرة ما ليس عند غيره .

ويرجح أبو حنيفة وجوب الصلاة على الشهيد ، ويرجح مالك والشافعي وأحمد في رواية عدم وجوب الصلاة عليه.

ومع كون الصلاة على الشهيد غير واجبة فإنها تجوز ولاتحرم ، لعدم الدليل على المنع ، وللحديث الذي رواه البيهقي .

هذا في الشهيد الذي قتل في المعركة بين المسلمين والكافرين ، أما الشهيد في غير ذلك كالمبطون وبقية شهداء الآخرة المذكورين في الأحاديث فيغسلون ويصلى عليهم.

«راجع ما سبق بخصوص صلاة الجنازة على الطفل»؟



س : يسأل كثيرون عن صلاة الجنازة على الغائب ، هل هي مشروعة أم لا ؟

ج : صلاة الغائب هي صلاة الجنازة على ميت غائب عن المصلى وقد اختلف الفقهاء في مشروعيتها .

فقال الشافعي وأحمد وابن حزم : إنها مشروعة ، ولهم في ذلك أدلة:

أ – ما رواه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ صلى على النجاشي حين نعي إليه ، وصلى معه أصحابه .

ب – أن صلاة الجنازة قوامها الدعاء ، والدعاء لا يشترط فيه حضور المدعو له .

ج - ما قاله ابن حزم من أنه لم يرد عن الصحابة منع منها .

وقال أبو حنيفة ومالك وآخرون بعدم مشروعيتها ، والحجة عندهم أنه لايدل عليها دليل ، لكن كيف يعملون برواية الصحيحين في حادث النجاشي ؟ أولوها بأنه يجوز أن النجاشي لم يصلَّ عليه أحد فصلى عليه النبي ، أو بأن هذه الصلاة على الغائب من خصوصيات النبي ﷺ . أو بأنه لم يصل على غائب ، بل رفعت له الجنازة فشاهدها وصلى عليها صلاة الحاضر .

لكن الأولين ردوا على ذلك بأن الدليل ثابت ، وبعدم التسليم بهذه التأويلات، فإن عدم صلاة أحد عليه لايمنع صلاتها لمن صلى عليه ، وادعاء خصوصية النبي بالصلاة على الغائب لا دليل عليه ، وكونها رفعت له وشاهدها لا دليل عليه أيضاً .

ويتبين من هذا رجحان القول بمشروعيتها ، وما دام لم يثبت نهي عنها فتبقى على جوازها لأن المقصود منها الدعاء .



س : كيف يكون وضع الميت أثناء صلاة الجنازة ، وهل يختلف بالنسبة للذكر عن الأنثى ؟

ج : عند المالكية يقف الإمام في صلاة الجنازة عند وسط الرجل وعند منكبي المرأة ، ويكون رأس الميت عن يمينه ، رجلاً كان أو امرأة ، إلا في الروضة الشريفة فإن الرأس تكون عن اليسار لتكون جهة القبر الشريف .

وعند الحنابلة يقف المصلي عند صدر الرجل ووسط الأنثى ، وعند الشافعية يقف المصلي عند رأس الرجل وعجز الأنثى ، وعند الحنفية يقف بحذاء صدر الرجل ذكراً كان أو أنثى كبيراً كان أو صغيراً .

وكلها هيئات لاتؤثر في صحة الصلاة على الميت ، ولا يجوز التعصب لأي رأي منها .



س : ما هي كيفية الوقوف عند الصلاة على الجنازة ، هل يقف الإمام عند رأسه إذا كان الميت رجلاً ، وعند الوسط إذا كان أنثى ؟

ج : مبدئيًّا نقول : إن صلاة الجنازة صحيحة في أي وضع يكون فيه المصلي بالنسبة للجثة ، رجلاً كان أو امرأة ، ولكن من السنة أن يقوم الإمام حذاء رأس الرجل ، وعند وسط المرأة ، لحديث أنس أنه صلى على جنازة رجل فقام عند رأسه ، فلما رفعت أتى بجنازة امرأة فصلى عليها فقام وسطها . أي عند عجيزتها ، فسئل عن ذلك : هل كان الرسول يقوم من الرجل والمرأة كما قمت ؟ فقال : نعم [1].



س : توفى ولد صغير لي في مكان منعزل فغسلته وكفنته في ملابسه ودفنته حيث مات دون صلاة عليه ، لأني لم أجد أحداً يصلي عليه فماذا أعمل ؟

ج : المفروض في صلاة الجنازة أن تكون قبل دفن الميت ، فلو دفنت بدون صلاة عليها وجب إخراجها من القبر إن لم تتحلل ولم تنتهك حرمتها ، فإن تعذر إخراجها لذلك وجبت الصلاة عليها وهي في القبر ، وتكون أمام المصلي كما لو كانت قبل الدفن .

أما الصلاة عليها بعيدة عن القبر فقيل بعدم جوازها ، وما حصل من صلاة النبيﷺ على النجاشي فهو خصوصية له . وقيل بالجواز ونفي الخصوصية إن كانت بعد الموت بشهر فأقل كما رآه الحنابلة ، وقيل بالجواز مطلقاً كما رآه الشافعية[2].

هذا ، وصلاة الجنازة في المقبرة بين القبور كرهها جماعة لحديث «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام» وقال آخرون لا بأس بها ، لأن الرسول صلى على قبر وهو في المقبرة وصلى أبو هريرة على عائشة وسط قبور البقيع ، ولم ينكره ابن عمر.



١- رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذي وقال : حديث حسن .
٢- انظر الفقه على المذاهب الأربعة .

س : ما حكم الصلاة على المنتحر ؟

ج : صلاة الجنازة فرض كفاية على كل من مات مسلماً حتى لو كان عاصياً ، ولاتجوز على الكافر ولا على المرتد ، ومن الردة استحلال ما حرمه الله تحريماً قاطعاً، والانتحار محرم قطعاً ، بالقرآن والسنة ، قال تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] وبيّن النبيﷺ في الحديث الصحيح أن من قتل نفسه بحديدة أو سمٍّ أو إلقاء من مكان عالٍ فهو يعذب في النار خالداً فيها أبداً على الطريقة التي قتل بها نفسه .

وإذا علمنا من المنتحر بكلامه أو بورقة مكتوبة بخطه مثلاً أنه يستحل الانتحار كان مرتداً ، ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين . وإن لم نعلم فنحمل أمره على الظاهر وهو الإسلام ، ونصلي عليه وندفنه في مقابر المسلمين .

والحديث المذكور محمول على من استحل الانتحار ، فهو مخلد في النار ، أو محمول على التغليظ والتنفير كما جاء فيمن قتل مؤمناً متعمداً ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] .

ومما يدل على أن المنتحر الذي لم يستحل الانتحار مؤمن وإن كان عاصياً ما رواه مسلم أن رجلاً هاجر إلى المدينة فمرض لعدم ملاءمة جوها له فجزع فقطع مفاصل أصابعه فسال دمه بقوة ومات ، فرآه الطفيل الدوسي في المنام في هيئة حسنة مغطياً يديه ، فقال له : ما صنع بك ربك ؟ قال : غفر لي بهجرتي إلى نبيه ، فقال : ما لي أراك مغطياً يديك ؟ قال : قيل لي لن نصلح منك ما أفسدت ، فقصَّ الرؤيا على الرسول ﷺ فدعا له وقال «اللهم وَلِيَدَيْه فاغفر» .

يقول النووي في التعليق على هذا الحديث : فيه حجة لقاعدة عظيمة لأهل السنة أن من قتل نفسه أو ارتكب معصية غيرها ومات من غير توبة فليس بكافر ولايقطع له بالنار ، بل هو في حكم المشيئة ، أي في حكم قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] .

يؤخذ من هذا أن المنتحر الذي لم يعلم استحلاله للانتحار مؤمن ، فيصلى عليه صلاة الجنازة .

لكن ورد نص يمنع الصلاة عليه ، ففي مسلم عن جابر بن سمرة قال : أُتِيَ النبيﷺ برجل قتل نفسه بمشاقص -سهام عريضة- فلم يصل عليه ، قال العلماء: هذا الحديث محمول على التنفير من الانتحار ، كعدم صلاته الجنازة على من عليه دين، وقد صلت الصحابة على المدين بأمر النبي ﷺ ، وذلك للتنفير من الدين وليس لأنه كافر ، وتكره عند مالك الصلاة على المرجوم بحد ، والفساق ، وذلك زجراً لهم [1].



س : امرأة توفيت في شقتها ولم يكتشف موتها إلا بعد ست سنوات ، كيف تغسل وتكفن ويصلى عليها ؟

ج : مثل هذه الميتة تغسل عظامها وما بقى من جسمها وتكفن ويصلى عليها ثم تدفن .



س : من الأولى بالصلاة على الميت ؟ وهل يصلى على الميت أكثر من مرة ؟

ج : معروف أن صلاة الجنازة تصح على الميت بصرف النظر عن كون الإمام قريباً له أو غريباً ، وقد اختلف الفقهاء فيمن هو أولى بالإمامة في صلاة الجنازة ، فالمالكية والحنابلة ، قالوا : الأولى هو الوصي عليه ثم الأمير ، ثم الأب وإن علا ، ثم الابن وإن سفل ، ثم أقرب العصبة الأخ وابنه والعم وابنه .

وذهب الشافعي ومعه أبو يوسف صاحب أبي حنيفة إلى أن الأولى هو الأب ثم الجد ، ثم الابن ثم ابن الابن ، ثم الأخ ثم ابن الأخ ، ثم العم ثم ابن العم ، أما

١- صحيح مسلم ، شرح النووي ج ٧ ص ٤٧ .

أبوحنيفة وصاحبه محمد بن الحسن فقال : الأولى الوالي إن حضر ، ثم القاضي ، ثم إمام الجهة ثم الأقرب فالأقرب على ترتيب العصبة ، إلا الأب فإنه يقدم على الابن إذا اجتمعا .

ذلك ما قاله الفقهاء ، وكله في الأولوية ، أما الصلاة فتصح بأي إنسان يصلي على الجنازة كما قلت . أما تكرار الصلاة عليه فقال العلماء ليس بحرام ، وإنما هو مكروه فقط ، بمعنى أن من صلى على جنازة يكره له أن يصليها مرة أخرى ، أما من لم يصل عليها فيجوز له أن يصلي بعد أن صلى عليها غيره .

وقد جاء في فقه المذاهب الأربعة ما نصه : يكره تكرار الصلاة على الجنازة ، فلا يصلَّى عليها إلا مرة واحدة ، حيث كانت الصلاة الأولى جماعة ، فإن صَّلَّى أولاً بدون جماعة أعيدت ندباً في جماعة ما لم تدفن ، والشافعية قالوا : تسن الصلاة على الجنازة مرة أخرى لمن لم يصل أولا ولو بعد الدفن . وقال الحنابلة : يجوز تكرار الصلاة على الجنازة لمن لم يصل أولا ولو بعد الدفن ، ويكره التكرار لمن صلى أولاً .



س : لو قطعت يد إنسان أو رجله أو أحد أعضائه ، هل يجب دفنها ، وهل يجب غسلها والصلاة عليها ؟

ج : جاء في كتاب «المغني» لابن قدامة [1] : أن ما يقطع من الإنسان حال حياته لايجب غسله ولا الصلاة عليه ولا دفنه ، والدفن فقط مندوب وليس بواجب . وذلك بخلاف ما قطع من ميت فإنه يغسل ويدفن وقيل يصلى عليه أيضاً ، وقال أبوحنيفة ومالك : إن و جد الأكثر صلى عليه ، وإلا فلا لأنه بعض لا يزيد على النصف فلم يصل عليه كالذي بان في حياة صاحبه والشعر والظفر ، وذكر ابن قدامة أن ما بان في الحياة لا يصلى عليه ، لأنه من جملة لا يصلى عليها ، والشعر والظفر لاحياة فيه .



---

١ - ج٢ ص ٤٠٧ .

س : هل هناك أناس لم يصل عليهم النبي ﷺ صلاة الجنازة ؟

ج : جاء في شرح النووي لصحيح مسلم [1] ، أنه لم يصل على من قتل نفسه بمشاقص -أي مقصات- وقال : في هذا الحديث دليل لمن يقول لا يصلى على قاتل نفسه لعصيانه ، وهذا مذهب عمر بن عبدالعزيز والأوزاعي . وقال الحسن والنخعي وقتادة ومالك وأبو حنيفة والشافعي وجماهير العلماء . يصلَّى عليه. وأجابوا عن هذا الحديث بأن النبي ﷺ لم يصل عليه بنفسه زجراً للناس عن مثل فعله ، وصلّتَ عليه الصحابة ، وهذا كما ترك النبي ﷺ الصلاة في أول الأمر على من عليه دين ، زجراً لهم عن التساهل في الاستدانة ، وعن إهمال وفائه ، وأمر أصحابه بالصلاة عليه فقال «صلُّوا على صاحبكم» قال القاضي : مذهب العلماء كافة الصلاة على كل مسلم ومحدود ومرجوم وقاتل نفسه وولد الزنا ، وعن مالك وغيره أن الإمام يجتنب الصلاة على مقتول في حد ، وأن أهل الفضل لايصلون على الفُسّاق زجراً لهم ، وعن الزهري لا يصلَّى على مرجوم ، ويصلى على المقتول في قصاص ، وقال أبو حنيفة : لا يصلى على محارب ولا على قتيل الفئة الباغية . وقال قتادة : لا يصلى على ولد الزنا ، وعن الحسن لا يصلَّى على النفساء تموت من زنا ولا على ولدها. ومنع بعض السلف الصلاة على الطفل الصغير . واختلفوا في الصلاة على السقط ، فقال بها فقهاء المحدثين وبعض السلف إذا مضى عليه أربعة أشهر ومنعها جمهور الفقهاء حتى يستهل وتعرف حياته بغير ذلك ، وأما الشهيد المقتول في حرب الكفار فقال مالك والشافعي والجمهور : لايغسل ولا يصلى عليه ، وقال أبو حنيفة :يغسل ولا يصلى عليه ، وعن الحسن يغسل ويصلى عليه ، والله أعلم.



١- المجلد ٧ ص ٤٧ .

س : كيف صلى الرسول ﷺ على قبر المرأة السوداء التي كانت تنظف المسجد ، مع أنه نهى عن اتخاذ القبور مساجد ؟

ج : الرسول ﷺ لم يصل الصلاة المفروضة -وهي الخمسة المعروفة- على قبر هذه المرأة بل صلى الجنازة وهي دعاء لها بالرحمة ، فالصلاة هي لله وليست للقبر ولا للساكن فيه ، ومدار التحريم هو ذلك بأن يقف على القبر نفسه ويصلى أو يقصد بالصلاة تعظيم من في القبر ، وهذا ممنوع .



س : هل الأفضل أن يصلى على الجنازة في المسجد أو خارج المسجد ، وهل تجوز الصلاة عليها في المقبرة ؟

ج : الصلاة على الجنازة جائزة غير محرمة في أي مكان من الأرض لعموم قوله ﷺ «جعلت لي الأرض مسجداً فأينما أدركتك الصلاة فصل» .

لكن الخلاف هو في المكان الأفضل لها ، فقال الشافعية : تندب الصلاة على الجنازة في المسجد ، لأنه خير بقاع الأرض ، وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما صلى رسول الله ﷺ على سهيل ابن بيضاء إلا في المسجد ، وصلى الصحابة على أبي بكر وعمر في المسجد بدون إنكار من أحد ، لأنها صلاة كسائر الصلوات . والحنفية والمالكية قالوا بكراهتها في المسجد ، واستدلوا بقول النبي ﷺ -كما رواه أبو داود- «من صلى على جنازة في المسجد فلا شيء له» أي ليس له ثواب ، لكن هذا الحديث ضعيف ومعارض لفعل رسول الله ﷺ وأصحابه وصحح بعضهم هذا الحديث لأنه جاء في بعض النسخ «فلا شيء عليه» يعني من الوزر ، وكما كرهوا الصلاة عليه في المسجد كرهوا إدخاله ولو من غير صلاة .

والحنابلة أباحوها في المسجد إن لم يخش تلويثه ، وإلا حرمت وحرم إدخاله ولو لغير الصلاة عليه ، يقول ابن القيم : ولم يكن من هدي رسول الله ﷺ الراتب

الصلاة على الميت في المسجد ، وإنما كان يصلي على الجنازة خارج المسجد إلا لعذر ، وربما صلى أحياناً على الميت كما صلى على سهيل ابن بيضاء وأخيه وكلا الأمرين جائز ، والأفضل الصلاة عليها خارج المسجد ، وقد أطال في الكلام على حديث أبي داود ومقابلته بحديث عائشة فيرجع إليه [1].

أما الصلاة على الميت في المقبرة فكرهها الجمهور ، وفي رواية لأحمد أنه لا بأس بها ، لأن النبي ﷺ صلَّى على المرأة التي كانت تنظف المسجد بعد أن دفنت ، وصلى أبوهريرة على عائشة وسط قبور البقيع وحضر ذلك ابن عمر وغيره ، لأن صلاة الجنازة أساسها الدعاء للميت ، وليست كالصلوات الأخرى ذات الركوع والسجود التي يتعبد بها إلى الله سبحانه .

وسهيل ابن بيضاء قديم في الإسلام ، هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة وشهد بدراً وغيرها ومات بها سنة تسع ، وأخوه سهل كان ممن أظهر الإسلام بمكة ، ومشى إلى النفر الذين قاموا بنقض الصحيفة التي كتبها مشركو مكة ، ضد بني هاشم حتى نقضوها وأنكروها [2].



س : هناك آراء مختلفة في رفع الأيدي عند التكبير في صلاة الجنازة ، وكذلك اختلاف في التسليم منها من جهة العدد والجهر أو الإسرار ؟ نريد توضيح ذلك ؟

ج : رفع اليدين عند التكبيرات في صلاة الجنازة أو غيرها سنة عند جمهور الفقهاء، لو ترك لاتبطل الصلاة ، وأرجو عدم النزاع في مثل هذه الأمور.

وقد اتفق العلماء على أن رفع اليدين عند التكبير لصلاة الجنازة سنة في التكبيرة الأولى وهي تكبيرة الإحرام ، وناقش الشوكاني في «نيل الأوطار» الأقوال في الرفع في غير هذه التكبيرة وذكر أنه لم يثبت شيء يصلح للاحتجاج به عن النبي ﷺ .

أما السلام من صلاة الجنازة فهو ركن عند جمهور الفقهاء وواجب عند أبي حنيفة ، وذلك في التسليمة الأولى ، وذكر أبو حنيفة أنه يسن تسليمتان ، إحداهما عن اليمين

١- ج ١ ص ١٤٠ .	٢- أسد الغابة .

والثانية عن اليسار ، وقال مالك : المطلوب تسليمة واحدة على اليمين ، ولا يسلم غيرها ، وقال الشافعي : تسن تسليمة ثانية على اليسار ، وقال أحمد ، لا بأس بتسليمة ثانية ، والصلاة كلها سرية إلا في التكبير ، وفي السلام للإمام .



س : كثير من المشيعين للجنازة لايصلون عليها ، فهل هم مقصرون ، وهل يؤثر ذلك على الجنازة نفسها ؟

ج : صلاة الجنازة فرض كفاية ، بمعنى أنه لو صلاها بعض الناس سقط الطلب عن الباقين ، أي لايعذبون ، ولكن فاتهم ثواب كبير ، والمؤمن الصادق لاينبغي أن تفوت منه فرصة يكسب فيها ثواباً مهما كان حجمه . فقد جاء أن كل مؤمن سيندم يوم القيامة ، إن كان مسيئاً ندم ألا يكون قد أحسن ، وإن كان محسناً ندم ألا يكون قد ازداد إحساناً .

ومع مراعاة أن كل المشيعين ربما لايكونون متطهرين للصلاة ، وفي التطهر بعض المشقة أو تأخير لدفن الجثة ، فإن المتطهر ينبغي أن يشارك في الصلاة ، فقد روى الجماعة عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : «من تبع جنازة وصلى عليها فله قيراط ، ومن تبعها حتى يفرغ منها فله قيراطان ، أصغرهما -أو أحدهما- مثل أحد» وروى مسلم عن خبَّاب رضي الله عنه قال : يا عبد الله بن عمر ، ألا تسمع ما يقول أبوهريرة -وذكر الحديث - فأرسل ابن عمر رضي الله عنهما خباباً إلى عائشة رضي الله عنها يسألها عن قول أبي هريرة ، ثم يرجع فيخبره ما قالت : فقال: قالت عائشة: صدق أبو هريرة ، فقال ابن عمر رضي الله عنهما : لقد فرطنا في قراريط كثيرة .

هذا فيما يعود من الثواب على المصلي ، أما المصلَّى عليه وهو الميت فإنه يستفيد من كثرة المصلين عليه ، لأن المهم فيها هو الدعاء له بعد التكبيرة الثالثة ، وذلك إذا استجاب الله الدعاء ، وكلما كان عدد الداعين في الصلاة كبيراً كانت فرص الاستجابة

أكثر ، وفي هذا جاءت الأحاديث التي منها ما رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذي وحسنه والحاكم وصححه عن مالك بن هبيرة «ما من مؤمن يموت فيصلِّي عليه أمة من المسلمين يبلغون أن يكونوا ثلاثة صفوف إلا غفر له» فكان مالك بن هُبيرة يتحرى إذا قلَّ أهل الجنازة أن يجعلهم ثلاثة صفوف . وأخذ بظاهر الحديث أحمد ابن حنبل وقال : أحب إذا كان فيهم قلة أن يجعلهم ثلاثة صفوف ، قالوا : فإن كان وراءه أربعة كيف يجعلهم ؟ قال : يجعلهم صفين ، في كل صف رجلين ، وكره أن يكونوا ثلاثة فيكون في كل صف رجل واحد.

وما رواه مسلم وأحمد والترمذي عن عائشة رضي الله عنها «ما من ميت يصلِّي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شُفِّعوا» وما رواه مسلم وأحمد وأبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفَّعهم الله فيه» أي قبل الله دعاءهم وشفاعتهم.

هذا ، وكثرة المصلين على الجنازة يدفع إليها حب الميت أو تكريمه ومحاولة عمل شيء ينفعه ، والغالب أن ذلك لايكون إلا من استقامته وحسن معاملته للناس . فهم يترحمون عليه ويذكرونه بالخير ، وذلك أمارة على حب الله له ، والحديث يشهد لذلك ، فقد مرت جنازة أمام النبي ﷺ فأثنى الصحابة عليها خيراً ، فقال «وجبت» ثم مرت جنازة أخرى فتحدثوا عنها شرًّا ، فقال «وجبت» ولما سألوه عن الإجابتين المتحدثين مع اختلاف حديثهم عن الجنازتين قال «من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، ومن أثنيتم عليه شرًّا وجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض» [1]، وحدث مثل ذلك لعمر رضي الله عنه . حين مرت عليه ثلاث جنازات واختلف الناس في الكلام عليها فقال كما قال النبي ﷺ «أيما مسلم شهد له أربعة نفر بخير أدخله الله الجنة»

١- رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه .

قال: فقلنا وثلاثة ، فقال «وثلاثة» فقلنا : واثنان قال و «اثنان» ثم لم نسأله عن الواحد [1]. وروى أبو يعلى وابن حبان في صحيحه عن أنس أن النبي ﷺ قال «ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة أهل أبيات من جيرانه الأدنين أنهم لايعلمون إلا خيراً ، إلا قال الله : قد قبلت علمكم فيه وغفرت له ما لاتعلمون».

كل هذا يؤكد قيمة ثناء الصالحين على الميت ، ويدعو إلى كثرة المصلين على الجنازة.



س : هل تجوز صلاة الجنازة على ميت سبق أن أقيمت عليه الصلاة ؟

ج : تكرار الفرد لصلاة الجنازة على الميت غير حرام ، لعدم وجود دليل يحرمه ، وإنما هو مكروه فقط ، بمعنى أن من صلى على جنازة يكره له أن يصلي عليها مرة أخرى ، أما من لم يصل على جنازة فيجوز له أن يصلي عليها بعد أن يصلي عليها غيره.

جاء في فقه المذاهب الأربعة «نشر أوقاف مصر» ما نصه ، يكره تكرار الصلاة على الجنازة ، فلا يصلى عليها إلا مرة واحدة ، حيث كانت الصلاة الأولى جماعة ، فإن صلى عليها أولاً بدون جماعة أعيدت ندبًا في جماعة ما لم تدفن ، والشافعية قالوا: تسن الصلاة على الجنازة مرة أخرى لمن لم يصل عليها أولاً ولو بعد الدفن ، وقال الحنابلة: يجوز تكرار الصلاة على الجنازة لمن لم يصل أولاً ولو بعد الدفن ، ويكره التكرار لمن صلى أولاً .

هذا ، وفي وفاة النبي ﷺ يقول ابن عباس -كما رواه ابن ماجه- لما فرغوا من جهازه يوم الثلاثاء (توفى يوم الإثنين ودفن يوم الثلاثاء ليلاً ، أي ليلة الأربعاء) وضع على سريره في بيته ، ثم دخل الناس عليه ﷺ أرْسالاً - جماعات متتابعين- يصلون عليه ، حتى إذا فرغوا دخل النساء ، حتى إذا فرغن دخل الصبيان ، ولم

١- رواه البخاري .

يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد ، يقول ابن كثير : هذا أمر مجمع عليه ، وهو عدم الصلاة عليه جماعة ، وعلل الشافعي ذلك - كما في كتابه الأم - بأنه لعظم أمره ﷺ وتنافسهم فيمن يتولى الصلاة عليه [1] .



س : والدي أوصى قبل وفاته أننا لانغطي جثته وهي على النعش حتى لايكون بينه وبين الله ستار ، فما حكم الدين في ذلك ؟

ج : ستر النعش لم يرد فيه نص يأمر به أو ينهى عنه ، لكن الفقهاء قالوا : يسن ستر نعش المرأة حتى لايظهر جسمها ، وذلك بغطاء من خشب أو نحوه كما قال الجمهور، وعليه فلو كشف الميت وهو على النعش فلم يوضع عليه غطاء فلا مانع منه ولا حرمة ولا كراهة.

أما تعليل كشفه بألا يكون بينه وبين الله ستار فلا وجه له ، فالله سبحانه عليم بكل شيء ، ولا ينفع الميت إلا عمله ، ولا يجب تنفيذ هذه الوصية .



س : رأينا في بعض البلاد أن أهل الميت يذبحون ساعة خروج نعشه من البيت، فهل لهذا الذبح من أصل في الشريعة الإسلامية ؟

ج : جاء في حديث رواه أبو داود «لاعقر في الإسلام» قال عبدالرزاق : كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة . وقال الخطابي : كان أهل الجاهلية يعقرون الإبل على قبر الرجل الجواد ، يقولون : نجاز به على فعله ، لأنه كان يعقرها في حياته فيطعمها الأضياف فنحن نعقرها عند قبره لتأكلها السباع والطير ، فيكون مطعماً بعد مماته كما كان مطعماً في حياته ، ومنهم من كان يذهب في ذلك إلى أنه إذا عقرت

١- الزرقاني على المواهب ، ج٨ ، ص٢٩١ .

راحلته عند قبره حشر في يوم القيامة راكباً ، ومن لم يعقر عنه حشر راجلاً ماشياً وهذا على رأي من كانوا يؤمنون بالبعث .

إن ذبح الأغنام أو غيرها عند خروج الميت من البيت صورة شبيهة بالصورة التي تقدم ذكرها ، لكن لو ذبحت الماشية بقصد توزيع لحمها على الفقراء صدقة على روح الميت فلا مانع منه ، لأنه جاء في الحديث عن بر الأبوين بعد موتهما قول الرسول ﷺ للسائل «الصدقة عليهما والدعاء لهما».

وإذا كان الذبح لإطعام من يحضرون للعزاء فهو مناف لهدي النبي ﷺ في إعداد الناس طعاماً لأهل الميت لا العكس ، فقد أمر بإعداد الطعام لآل جعفر لأنه نزل بهم ما شغلهم .



س : هل يجوز تشييع الجنازة محمولة على سيارة ؟

ج : لايجب أن يكون تشييع الجنازة سيراً على الأقدام ، فالظروف ستتحكم في ذلك ، وعليه فلا بأس من نقل الجنازة والمشيعين بالسيارات إذا كان مكان الدفن بعيداً .

وثبت أن بعض الصحابة أيام الرسول ﷺ كانوا يشيعون الجنازة وهم راكبون ، سواء تقدموها أو ساروا خلفها . روى أنس بن مالك أن الرسول ﷺ قال : «الراكب يسير خلف الجنازة والماشي يمشي خلفها وأمامها وعن يمينها وعن يسارها قريباً منها» وجاء في فقه المذاهب الأربعة أن الحنفية قالوا بكراهة حمل جنازة الكبير على الدابة ونحوها إلا لضرورة ، والحنابلة قالوا كذلك بكراهة حملها على دابة إلا لحاجة كبعد المقبرة ، والمكروه لا معصية فيه ، وإذا كان لحاجة فلا معصية ولا عقوبة .



س :هل الميت يسمع الكلام أثناء تشييع الجنازة ؟

ج : جاء في كتاب «مشارق الأنوار» للعدوي [1]: أن الميت يعرف من يغسله ويحمله ومن يكفنه ومن يدليه في حفرته ، وأن روح الميت في يد ملك ينظر إلى جسده كيف يغسل وكيف يكفن ، ويقال له وهو على سريره : اسمع ثناء الناس عليك ، وأن الميت يرى ما يصنع أهله ، ولو قدر على الكلام لنهاهم عن العويل والصراخ . وكل ذلك وردت به أحاديث أخرجها أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني وابن منده وأبو نعيم وأبو داود . وقد حكم على بعض الأحاديث بالضعف .

ومعلوم أن العقائد والغيبيات لاتثبت إلا بالدليل القطعي من الكتاب والسنة، وأحوال الموتى من الغيب الذي يعلمه الله وحده ، ولايطلع عليه أحداً إلا من ارتضاه، ولايجب علينا الإيمان إلا بما ورد من طريق صحيح ، والأخبار المروية في سماع الموتى كلام المشيعين لم ترق إلى هذه الدرجة ، فلا نجزم بالنفي ولابالثبوت ، حيث إن ذلك ممكن لم يرد ما يمنعه ، وحيث إن ما أثبته لم يكن بطريق الجزم ، فمن صدَّق بذلك فهو حر ومن كذَّب لا يكفر .



س : هل يشفع كثرة عدد المشيعين للجنازة للميت ، وهل تسير الملائكة في جنازة الصالحين ، وهل يمنع منها من كان جنباً؟

ج : النقطة الأولى : كثرة المشيعين للجنازة قد تشفع للميت لأنها دليل على حب الكثيرين له وحب الناس دليل على حب الله كما ثبت في الحديث ، ولأن المشيعين ربما يدعون له بالرحمة وذلك قياس على كثرة المصلين على الجنازة ، فقد ثبت في حديث رواه مسلم «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم الله فيه» وفي رواية «أمة من المسلمين يبلغون مائة».

١- ص ٢١ .

والنقطة الثانية : أن الملائكة تشيع بعض الجنازات ، كجنازة سعد بن معاذ ، فقد ثبت في حديث رواه الترمذي عن أنس قال : لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون : ما أخف جنازته ؟ وذلك لحكمه في بني قريظة ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال «إن الملائكة كانت تحمله».

وروى ابن ماجه والترمذي عن ثوبان قال :خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة فرأى ناساً ركباناً فقال «ألا تستحيون ، إن ملائكة الله على أقدمهم وأنتم على ظهور الدواب» وفي رواية لأبي داود أنه أتى بدابة وهو مع جنازة فأبى أن يركبها ، فلما انصرف أتى بدابة فركب . فقيل له ، فقال «إن الملائكة كانت تمشي فلم أكن لأركب وهم يمشون ، فلما ذهبوا ركبت».

أما الجنب فيكره له أن يشترك في تشييع الجنازة ، فلعل صاحبها يكون صالحاً وتشهد الملائكة جنازته ، وقد روى أبو داود وغيره أن النبي ﷺ قال «إن الملائكة لاتحضر جنازة الكافر بخير ، ولا المتضمخ بزعفران ولا الجنب» فوجود الجنب قد يحرم الجنازة من حضور الملائكة.



س : هل صحيح أن الجنازة إذا كان سيرها سريعاً كانت صالحة وإذا كان بطيئاً كانت غير صالحة ؟

ج : روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال «إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم فإن كانت صالحة قالت : قدموني ، وإن كانت غير صالحة قالت : يا ويلها أين تذهبون بي ؟ يسمع صوتها كل شيء ولو يسمع الإنسان لصعق» وروى البخاري ومسلم أيضاً أن النبي ﷺ قال عند موت سعد بن معاذ «اهتز عرش الرحمن لموت معاذ» وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون : ما أخف جنازته - وذلك لحكمة في بني قريظة - فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : «إن الملائكة كانت تحمله».

وذكر ابن الأثير في كتابه (أسد الغابة) عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال «لقد نزل من الملائكة في جنازة سعد بن معاذ سبعون ألفاً ما وطئوا الأرض من قبل ، وبحق أعطاه الله ذلك».

تدل هذه الأحاديث على أن الجنازة إذا كانت صالحة تطلب من حملتها من الناس أن يسرعوا بها لتتنعم بما أعده الله لها ، وإن لم يسمعوا صوتها ، وعلى أن هناك من يسمعها ، كما تدل على أن الملائكة تشارك في حمل جنازة بعض الخواص من المسلمين أو على الأقل أن حملها للجنازة ممكن لا يوجد نص يمنعه ، والعقل لا يحيل ذلك ، فإن في العالم قوى خفية وللأرواح أحوالاً غريبة ، مع الإيمان بأن الله على كل شيء قدير .

بعد هذا نقول : إسراع النعش وإبطاؤه أو وقوفه أو طيرانه فوق الرءوس أمور تناقل الناس أخبارها كثيراً ، بعضهم سمع وبعضهم رأى ، وأكثر المعلقين عليها يقولون : إن ذلك من فعل الحاملين للجنازة ، وقد يكون ذلك التعليق صحيحاً، لكن تحدث أناس موثوق بحديثهم أن الإسراع أو الإبطاء ، قد يكون اضطراباً لادخل فيه لأحد من الحاملين لها . ونحن بدورنا نقول :

إن الأمر في حد ذاته ممكن ، وليس هناك نص يمنعه ، وإن كان حديث الترمذي في شأن سعد بن معاذ يرجحه ، وهو على كل حال ليس عقيدة نحاسب عليها ، وإنما الذي نحاسب عليه من العقائد هو ما يكون دليله قطعي الثبوت والدلالة ، وموضوع السؤال ليس من هذا القبيل .

وعلينا أن نعتقد أن عمل الإنسان هو ميزان تقديره عند الله ، كما نحذر من يحملون الجنازة من اصطناع أمور يظهرون بها كرامة ميتهم ، فكرامته في عمله ، والله وحده هو الذي يتولى ذلك.



س : هل يجوز ضرب النساء إذا مشين يصرخن في الجنائز ويفعلن أفعال الجاهلية؟

ج : تشييع النساء للجنازة ورد فيه حديث البخاري ومسلم عن أم عطية قالت : نهينا أن نتبع الجنائز ولم يعزم علينا ، أي لم يؤكد المنع ، فكأنها قالت : كره لنا اتباع الجنائز من غير تحريم ، كما ذكره ابن حجر في «فتح الباري».

فالنهي للتنزيه وبه قال جمهور العلماء ، ومال مالك إلى الجواز وهو قول أهل المدينة كما ذكره القرطبي .

ويدل على الجواز ما رواه ابن أبي شيبة أن الرسول ﷺ كان في جنازة ورأى عمر امرأة فصاح بها فقال «دعها يا عمر فإن العين دامعة، والنفس مصابة والعهد قريب» [1].

والأحاديث التي نهت عن اتباعهن الجنازة ضعيفة والمنهي عنه هو ارتكاب ما يخالف الدين مما جاء في الحديث الصحيح «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية».

وإذا حدث من النساء منكر من هذا وغيره وجب تغييره بالصورة التي جاءت في الحديث الصحيح : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

وجاء في فتاوي الشيخ شلتوت [2] أن عمر بن الخطاب سمع ندباً ونياحة فدخل مكان الصوت وأخذ الحاضرين بدرته حتى بلغ النائحة فضربها حتى سقط خمارها ، وقال لمن معه : اضرب فإنها نائحة ولا حرمة لها ، إنها لاتبكي لشجوكم ، إنها تريق دموعها على أخذ دراهمكم ، وإنها تؤذي موتاكم في قبورهم وأحياءكم في دورهم إنها تنهى عن الصبر وقد أمر الله به ، وتأمر بالجزع وقد نهى الله عنه.

١- وإسناد هذا الحديث صحيح .
٢- ص١٩٨ .

ويلاحظ أن عمر قام بهذا بحكم ولايته العامة وتمكنه من تغيير المنكر بيده ، وعلى غيره من الناس أن يراعي الأسلوب المناسب الذي لايكون له رد فعل غير كريم.



س : هل يجوز ترديد بعض العبارات مثل «لا إله إلا الله» أثناء تشييع الجنازة؟

ج : يقول النووي في كتابة «الأذكار» : واعلم أن الصواب والمختار وما كان عليه السلف رضي الله عنهم -السكوت في حال السير مع الجنازة ، فلا يرفع صوت بقراءة ولا ذكر ولا غير ذلك ، والحكمة فيه ظاهرة ، وهي أنه أسكن لخاطره وأجمع لفكره فيما تعلق بالجنازة ، وهو مطلوب في هذا الحال ، فهذا هو الحق .

قال ابن المنذر : كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون رفع الصوت عند ثلاث: عند الجنازة وعند الذكر وعند القتال ، وكره سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن والنخعي وأحمد وإسحاق قول القائل خلف الجنازة : استغفروا له .

قال فضيل بن عمر : بينما ابن عمر في جنازة إذ سمع قائلاً :يقول : استغفروا له غفر الله له ، فقال ابن عمر : لا غفر الله لك.

هذا الحكم في رفع الصوت بالذكر ، أما الإسرار به بحيث لايسمع إلا نفسه فلا مانع منه .



س : كيف يكون السير بالجنازة ، وهل المشي أمامها أفضل أم خلفها ؟

ج : اختار جمهور العلماء السير أمام الجنازة لأن الرسول ﷺ وأبا بكر وعمر كانوا يمشون أمامها ، كما رواه أحمد وأصحاب السنن .

ويرى الحنفية أن السير خلفها أفضل ، لأنه هو الذي يدل على معنى «اتباع الجنازة» الذي أمر به الرسول ﷺ والمتبع هو الذي يمشي خلف من يتبعه .

ويرى أنس بن مالك أن كل ذلك سواء ، لأن الرسول ﷺ قال «الراكب يسير خلف الجنازة والماشي يمشي خلفها وأمامها وعن يمينها وعن يسارها قريباً منها» وروى البيهقي وابن أبي شيبة بإسناد حسن أن أبا بكر وعمر كانا يمشيان أمام الجنازة ، وكان علي يمشي خلفها فقيل لعليٍّ : إنهما -أي أبا بكر وعمر- يمشيان أمامها، فقال : إنهما يعلمان أن المشي خلفها أفضل من المشي أمامها ، كفضل صلاة الرجل في جماعة على صلاته فذًّا ولكنهما يسهلان للناس.



س : ما حكم الدين في مشاركة المسلم في جنازة رجل من أهل الكتاب ؟

ج : الصلاة على غير المسلم لا تجوز ، وقد قال الله تعالى في المنافقين ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة : ٨٤] ذلك أنهم لايستحقون الرحمة بالصلاة عليهم والدعاء لهم ولايستحقون التكريم بشهود دفنهم ، ومن هنا قال العلماء : لايجوز الاشتراك في تشييع جنازة غير المسلم ، لأن التشييع فيه تكريم ، قال بعضهم: إنه حرام ، وقال آخرون : إنه مكروه.

أما القيام لها فجائز ، لأنه للعبرة فقط وللإحساس بجلال الموت ورهبته لا لتكريم الميت ، وقد صح في البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قام لجنازة يهودي ولما سئل قال «أليست نفساً»؟ واختلف العلماء في حكم القيام للجنازة هل هو مشروع أو نسخ ؟ والصحيح أنه مشروع ، والتعزية جائزة ، بل قيل إنها مستحبة وصيغتها : أخلف الله عليك.



س : مرت علينا جنازة ونحن جالسون ، فقام بعضنا ولم يقم البعض الآخر ، وكل يقول : إن ما فعله هو السنة ، فهل هذا صحيح ؟

ج : روى مسلم عن علي رضي الله عنه أنه قال : رأينا النبي ﷺ قام فقمنا فقعد فقعدنا ، يعني في الجنازة قال الترمذي : حديث عليٍّ حسن صحيح ، وفيه أربعة من

التابعين بعضهم عن بعض ، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم ، وقال الشافعي: هذا أصح شيء في هذا الباب .

يؤخذ من هذا أن القيام للجنازة عندما تمر بالإنسان مشروع ، بل هو مندوب لفعل النبي ﷺ بل لأمره بذلك أيضاً كما في رواية أحمد عن علي : كان النبي ﷺ أمرنا بالقيام في الجنازة ثم جلس بعد ذلك وأمرنا بالجلوس ، وقال الإمام أحمد : إن شاء قام وإن شاء لم يقم ، ووافقه ابن الماجشون من المالكية قال النووي : والمختار أنه مستحب.

قال ابن حزم : ويستحب القيام للجنازة إذا رآها المرء وإن كانت جنازة كافر حتى توضع أو تخلّفه ، فإن لم يقم فلا حرج . وذلك لحديث رواه الجماعة ، وروى البخاري ومسلم عن سهل بن حنيف وقيس بن سعد أنهما كانا قاعدين بالقادسية ، فمروا عليهما بجنازة فقاما فقيل لهما : إنها من أهل الأرض -أي من أهل الذمة- فقالا : إن رسول الله ﷺ مرت به جنازة فقام ، فقيل له :إنها جنازة يهودي ، فقال «أوليست نفساً» ؟

والحكمة في القيام لها ما جاء في رواية أحمد وابن حبان والحاكم مرفوعاً ، «إنما تقومون إعظاماً للذي يقبض النفوس» ولفظ ابن حبان «إعظاماً لله تعالى الذي يقبض الأرواح».

فالخلاصة أن القيام للجنازة فيه أقوال ، قيل بالكراهة ، وقيل بالاستحباب ، وقيل بالتخيير بين الفعل والترك ، ولكل واحد أن يختار القول الذي يطمئن إليه .



س : اضطر شخص أن يخرج لتشييع جنازة ثم تذكر أنه لم يغتسل من الجنابة ، فهل في هذا إثم ؟

ج : لا يحرم على الجنب إلا أمور معروفة وهي الصلاة والطواف وقراءة القرآن ومس المصحف وحمله والمكث في المسجد . وما عدا ذلك فهو حلال غير حرام ،

سواء أكان في أمور الدنيا كالأكل والشرب أم في أمور الآخرة كالذكر والصلاة على النبيﷺ والدعاء ، وإن كان الأفضل ألا يمارس هذه الأشياء وهو جنب . ففي حديث رواه البزار بإسناد صحيح «ثلاثة لاتقربهم الملائكة : الجنب والسكران والمتضمخ بالخلوق» وهو طيب خاص بالنساء ، وكذلك كراهة النوم مع الجنابة إلا أن يتطهر ولو بالوضوء .

ومعلوم أن الملائكة قد تشيع بعض جنازات الصالحين . واشتراكهم في التشييع دليل رحمة الله ورضائه عنه . ومن هنا يكره للجنب أن يسير في الجنازة حتى تشترك فيها الملائكة ، وحتى لا يحرم الميت من الرحمة ، وبخاصة إذا كان من الصالحين ، ففي حديث رواه أبو داود وغيره «إن الملائكة لاتحضر جنازة الكافر ولا المتضمخ بزعفران ولا الجنب».



س : ما حكم الدين في تشييع جنازة الموتى أثناء الليل ، والإشارة بالإصبع أثناء سير الجنازة : وهل هناك حديث يمنع دفن الميت في أوقات معينة؟

ج : يرى جمهور العلماء أن دفن الميت ليلاً كدفنه نهاراً ، سواء بسواء ، فقد دفن الرسول ﷺ الرجل الذي كان يرفع صوته بالذكر ليلاً ، ودفن عليٌّ فاطمة رضي الله عنها ليلاً ، وكذلك دفن أبو بكر وعثمان وعائشة وابن مسعود .

عن ابن عباس أن النبي ﷺ دخل قبراً ليلاً ، فأسرج له بسراج فأخذه من قِبَل القبلة وقال «رحمك الله ، إن كنت لأوَّاهاً تلَّاءً للقرآن» وكبر عليه أربعاً[1].

وقالوا : إنما يجوز ذلك إذا كان لايفوت بالدفن ليلاً شيء من حقوق الميت والصلاة عليه ، وإلا كان الدفن مكروهاً ، روى مسلم أن النبي ﷺ خطب يوماً فذكر رجلاً من أصحابه قبض فكفِّن في كفن غير طائل ودفن ليلاً ، فزجر النبي ﷺ أن يُقبر الرجل بالليل إلا أن يضطر إنسان إلى ذلك ، وروى ابن ماجه عن جابر

١- رواه الترمذي وقال : حديث حسن . قال : ورخص أكثر أهل العلم في الدفن بالليل .

قال: قال رسول الله ﷺ «لاتدفنوا موتاكم بالليل إلا أن تضطروا» ومع ذلك فالأفضل الدفن نهاراً ، انتظاراً لكثرة المصلين والمشيعين للجنازة .

هذا ، ولاتكره الإشارة إلى الجنازة أثناء تشييعها فلعلها للموعظة ، وكثيراً ما ترفع الإصبع السبابة مع قول : أشهد أن لا إله إلا الله ، إشارة للتوحيد ، وأن البقاء والدوام لله وحده ، هذا ما أراه والعبرة بالنية .

أما الحديث المسئول عنه فقد روى مسلم وأصحاب السنن عن عقبة قال: ثلاث ساعات كان النبي ﷺ ينهانا أن نصلي فيها أو نقبر فيها موتانا : حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع ، وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تميل الشمس ، وحين تضيَّف - تميل الشمس للغروب - حتى تغرب .

قال العلماء : إذا خيف تغير الميت فإنه يدفن في هذه الأوقات الثلاثة بدون كراهة، أما إذا لم يخش عليه من التغير فإنه يجوز دفنه في هذه الأوقات عند الجمهور ، ما لم يتعمد دفنه فيها ، فإنه حينئذ يكون مكروهاً .

وقال الحنابلة : يكره الدفن في هذه الأوقات مطلقاً ، بدليل الحديث المذكور.



س : هل الأفضل التعجيل بدفن الميت ولو كان المشيعون للجنازة عدداً قليلاً، أو تحنيطه انتظاراً لتجمع عدد كبير من المشيعين ، وبخاصة إذا كان له مكان مرموق؟

ج : روى أبو داود أن طلحة بن البراء مرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقال «إني لا أرى طلحة إلا قد حدث فيه الموت ، فآذنوني به وعجلوا فإنه لاينبغي لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهري أهله» وفي الحديث مقال ، لكن أخرج أحمد أن رسول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه «ثلاث يا علي لايؤخرون الصلاة إذا آنتْ - أي دخل وقتها - والجنازة إذا حضرت ، والأيم - من لازوج لها - إذا وجدت كفئاً» وفيه كلام ، لكن تشهد للحديثين أحاديث الإسراع بالجنازة ومنها حديث رواه الجماعة «أسرعوا بالجنازة فإن كانت صالحة قربتموها إلى الخير ، وإن كانت غير ذلك فَشَرٌّ تضعونه عن رقابكم».

ويجوز تأخير دفن الميت انتظاراً لكثرة المصلين عليه ، فقد روى أن رافع بن خدِيج مات بعد العصر ، فأتى ابن عمر فأخبر بموته ، فقيل له : ما ترى ؟ أيخرج بجنازته الساعة : قال : إن مثل رافع لا يخرج به حتى يؤذن به من حولنا من القرى ، فأصْبِحُوا واخرجوا بجنازته [1]. كما تأخر دفن النبي ﷺ حتى صلى عليه كثيرون واتفقوا على المكان الذي يدفن فيه.

يؤخذ من هذا استحباب التعجيل بدفن الميت لعدم تغير رائحته ، ولهذا كانوا يُطَيِّبون بدنه وكفنه كما روى أحمد قوله ﷺ «إذا أجمرتم الميت فأجمروه ثلاثاً» وأوصى بعض الصحابة أن تجمَّر أكفانهم بالعود.

ومحل ذلك إذا لم تكن مصلحة في تأخير دفنه ككثرة المشيعين له والمصلين عليه ، وكتحقيق جناية بالكشف عليه ، وحضور أهله إذا كان غائباً ، والتعرف عليه إذا لم تكن معه هوية ، ومن هنا يلجأ أهله أحياناً إلى تبريد الجثة ، أو التحنيط المبدئي بالمواد الكيماوية ، وذلك لا مانع منه شرعاً .

أما التحنيط الذي فيه إخراج ما في بطن الميت أو غير ذلك من أعضائه فلا يجوز ، لأنه تمثيل بالجثة ليس له غرض مشروع ، والحديث المروي في عدم كسر عظم الميت يدل على تكريمه حيًّا وميتاً.



س : ما حكم دفن الميت في صندوق ؟

ج : جاء في تفسير القرطبي [2]، أن الدفن في التابوت جائز ، لاسيما في الأرض الرخوة، وروى أن دانيال صلوات الله عليه كان في تابوت من حجر ، وأن يوسف عليه السلام أوصى بأن يتخذ له تابوت من زجاج ويلقى في رَكِيَّة -بئر- مخافة أن يعبد ، وبقى كذلك إلى زمان موسى صلوات الله عليهم أجمعين ، فدلته عليه عجوز فرفعه ووضعه في حظيرة إسحاق عليه السلام [3]. ثم قال القرطبي :

١- الفتح الرباني وشرحه ج ٧ ص١٤٤ .
٢- ج١٠ ص ٣٨١ .
٣- كلام ليس عليه دليل معتمد .

وفي الصحيح عن سعد بن أبي وقاص أنه قال في مرضه الذي هلك فيه : اتخذوا لي لحداً وانصبوا عليه اللبن نصباً كما صنع برسول الله ﷺ .

وحكى عن الشيخ الإمام أبي بكر محمد بن الفضل الحنفي أنه جوز اتخاذ التابوت في بلادهم لرخاوة الأرض وقال : لو اتخذ تابوت من حديد فلا بأس به ، لكن ينبغي أن يفرش فيه التراب وتُطَيَّن الطبقة العليا مما يلي الميت ، ويجعل اللَّبن الخفيف على يمين الميت ويساره ليصير بمنزلة اللحد -ثم قال القرطبي : ومن هذا المعنى جَعْل القطيفة في قبر النبي ﷺ فإن المدينة سبخة ، قال شُقران : أنا والله طرحت القطيفة تحت رسول الله ﷺ في القبر [1] .

وجاء في الفتاوى الإسلامية [2] ، باسم الشيخ عبدالمجيد سليم ، كراهة اتخاذ التابوت إلا إذا كانت الأرض رخوة أو نَدِيَّة يسرع فيها بلى الميت فلا بأس باتخاذه واستحسانه للمرأة مطلقاً سواء أكانت الأرض رخوة أم لا ، لأنه أقرب إلى الستر والتحرز عن مسها عند الدفن.

وجاء في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة الذي نشرته وزارة الأوقاف المصرية: أن دفن الميت في صندوق ونحوه مكروه مطلقاً عند الحنابلة ، وخلاف الأولى عند المالكية ، أما الشافعية والأحناف فقالوا : مكروه إلا لحاجة - كرخاوة الأرض -

وقال الفقهاء : يكره وضع وسادة أو فراش أو نحو ذلك معه في قبره ، ولو كان في ذلك تكريم لكان أولى به النبي ﷺ فقد بنى في قبره تسع لبنات ، ووضع القطيفة تحته ورد بها الحديث المذكور وكانت القطيفة نجرانية كان يتغطى بها ، فأريد ألا يلبسها أحد بعده لكن البعض قال إن الصحابة نزعوها وفي شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني [3] ، توضيح لذلك فيراجع ، هذا وعمل التابوت لايغني عن وضعه في الأرض لتحقق معنى الدفن ، وإذا كان القصد منه مجرد

١- قال أبو عيسى الترمذي : حديث شقران حديث حسن صحيح غريب ، أي رواه راو واحد فقط.
٢- المجلد الرابع ص ١٢٦٤ .
٣- ج٨ ص٢٩٢ .

التكريم دون حاجة أخرى هو مكروه ، وهو لايفيد الميت في نعيم ولا عقاب ، والبساطة في مثل هذه الحالة مطلوبة .



س : أوصى رجل أن يعمل له قبر خاص بجوار بيته ، فهل يجب تنفيذ الوصية أم الأفضل أن يدفن في المقبرة العامة ؟

ج : جاء في ، المغني لابن قدامة [1] ، أن الدفن في مقابر المسلمين أولى عند الإمام أحمد من الدفن في البيوت ، لأنه أقل ضرراً على الأحياء من ورثته ، وأشبه بمساكن الآخرة ، وأكثر للدعاء له والترحم عليه ، ولم يزل الصحابة والتابعون ومن بعدهم يقبرون في الصحارى .

فإن قيل : فالنبي ﷺ قُبر في بيته ، وقبر صاحباه معه ، قلنا : قالت عائشة رضي الله عنها : إنما فعل ذلك لئلا يتخذ قبره مسجداً ، رواه البخاري ، ولأن النبي ﷺ كان يدفن أصحابه بالبقيع ، وفعله أولى من فعل غيره ، وإنما أصحابه رأوا تخصيصه بذلك ولأنه روى: يدفن الأنبياء حيث يموتون ، وصيانة لهم عن كثرة الطُراق ، وتمييزاً للنبي عن غيره . اهـ .

وفي مشارق الأنوار للعدوي [2] ، أن الدفن في مقابر المسلمين أولى من الدفن في البيت ، وأرى أن الوصية بالدفن في قبر خاص في بيته لايلزم تنفيذها ، فالدفن في المقابر أفضل.



س : أوصاني والدي إذا مات أن يدفن في مكان معين ، فهل يجب تنفيذ هذه الوصية ؟

ج : الوصية هي التصرف المضاف لما بعد الموت . كالوصية ببناء مسجد من ماله بعد موته ، أو الوصية بحفظ القرآن ونحو ذلك .

١- جـ٢ ص ٣٨٨ . ٢- ص ٥٢ .

وتنفيذ الوصية يكون فيما ليس فيه ظلم أو خروج على المصلحة المشروعة، وهذا التنفيذ مطلوب قال تعالى ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ [البقرة : ١٨١] وذلك بعد الأمر بالوصية للوالدين والأقربين بالمعروف، وقال ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ١٨٢] والجنف هو الميل عن الحق.

ومن البر بالوالدين تنفيذ وصيتهما بعد موتهما، لحديث أبي داود وابن ماجه وابن حبان أن رجلاً سأل النبي ﷺ : هل بقي من بر أبوي شيء بعد موتهما ؟ فقال «نعم، الصلاة عليهما -أي الدعاء والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لاتوصل إلا بهما، وإكرام صديقهما».

وإنفاذ عهدهما من بعدهما قد يراد به أن ينفذ الولد العهود التي تعهد بها والداه لغيرهما من الناس ولم يستطيعا تنفيذها قبل الموت، كالديون مثلاً، وقد يراد تنفيذ العهود والوعود التي عهد الوالدان للولد أن ينفذها بعد الموت، لكن ذلك كله في الشيء الواجب فيكون التنفيذ واجباً، وفي المندوب يكون التنفيذ مندوباً وفي غير ذلك فلا تنفيذ لأي عهد، مثل أن يوصى بأن يدفن في بلد كذا، أو في مقبرة فلان مثلاً، فقد قرر العلماء أن الأولى دفن الميت في البلد الذي مات فيه، وقال المالكية بجواز نقله للمصلحة، كمكان ترجى بركته أو تتيسر فيه زيارة أهله له. وحرَّم الشافعية نقله إلا لجوار قوم صالحين. أو لجهة مشرفة كمكة والمدينة والقدس إن كانت قريبة.

وعلى هذا فإن تنفيذ الوصية بالدفن في مكان معين يكون من البر إن كان لهذا المكان ميزة كفضل البقعة أو القرب من الأهل لسهولة الزيارة، وفي غير ذلك لايجب تنفيذ الوصية، بل يحرم نقله عند الشافعية.



س : هل دفن الإنسان بجوار الصالحين وأولياء الله يخفف من عذابه في القبر ؟ وهل بناء القبور بالصورة الحالية صحيح ؟

ج : جاء في كتاب، مشارق الأنوار، للعدوي [1] ما نصه :

---

١ - ص ٢٥.

ومما ينبغي أن يدفن بجوار قوم صالحين ، ففي شفاء الصدور : أخرج أبو نعيم وابن منده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «ادفنوا موتاكم وسط قوم صالحين ، فإن الميت يتأذى بجار السوء كما يتأذى الحي بجار السوء» وأخرج ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال «إذا مات لأحدكم الميت فأحسنوا كفنه وعجلوا إنجاز وصيته وأعمقوا له قبره وباعدوه عن جار السوء» قيل يا رسول الله وهل ينفع الجار الصالح في الآخرة . قال «هل ينفع في الدنيا» ؟ قالوا «نعم» قال «كذلك ينفع في الآخرة» انتهى.

هذا ما ورد في الموضع وهي أخبار لايعتمد عليها في معرفة الغيب ، فيحتمل أن يكون الأمر كما ورد ولا مانع منه عقلاً ولا شرعاً ، وإذا كان هناك انتفاع بمجاورة الصالحين ، أو تأذ بمجاورة غيرهم فلا يتعارض ذلك مع قوله تعالى ﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ وقوله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فلا يتحتم أن يكون الانتفاع ثواباً والتأذي عقاباً ، بل يكون على مثال ما يحصل في الدنيا من الارتياح وعدمه .

هذا ، وأما القبر فهو حفرة في الأرض تعمق وتحكم بحيث تمنع الرائحة وتحمي من الوحوش ، ويندب أن يكون العمق قدر قامة وبسطة .

ويسن أن يرفع عن سطح الأرض قدر شبر ونحوه ليعرف حتى لايمشى الناس عليه ، والخلاف جاء في بناء القباب وعدمه .

جاء في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة : يكره أن يبنى على القبر بيت أو قبة أو مدرسة أو مسجد أو حيطان تحدق به كالحيشان .. أما الشافعية فقالوا : يجوز أن تبنى قبور الأنبياء والشهداء والصالحين وأن ترفع عليها القباب ولو في الأرض الموقوفه لإحياء ذكرهم اهـ

ورأي الجمهور أقوى وهو الكراهة لاالتحريم الذي تحمس له الشوكاني .

وقال : صرح به أصحاب أحمد وجماعة من أصحاب الشافعي ومالك .



س : هل يجوز دفن شخصين في قبر واحد ؟

ج : الأصل في الدفن أن يكون لكل ميت قبر خاص به ، أما دفن أكثر من واحد في قبر واحد فهو حرام عند جمهور الفقهاء ، ومكروه فقط عند أبي حنيفة ، ومحل ذلك إذا لم تكن هناك ضرورة أو حاجة ، فإن وجدت ضرورة ككثرة الموتى وتَعَسُّر إفراد كل بقبر ، أو وجدت حاجة كالمشقة في حفر قبر لكل ميت جاز جمع أكثر من واحد في قبر ، سواء أكانوا من جنس واحد أم من جنسين ، على أن يقدم الذكر على الأنثى في دفنه جهة القبلة .

والدليل على ذلك ما رواه أحمد والترمذي وصححه : أن الأنصار جاءوا إلى النبيﷺ يوم أحد وقالوا : يا رسول الله أصابنا جرح وجهد فكيف تأمرنا ؟ قال «احفروا وأوسعوا وأعمقوا ، واجعلوا الرجلين والثلاثة في قبر» قالوا : فأيهم نقدم؟ قال: «أكثرهم قرآناً».

وروى عبدالرزاق بسند حسن عن واثلة بن الأسقع أنه كان يدفن الرجل والمرأة في القبر الواحد ، فيقدم الرجل ويجعل المرأة وراءه [1] .

وجاء في كتاب (الإقناع) للخطيب في فقه الشافعية ما يأتي :ولايجمع رجل وامرأة في قبر إلا لضرورة ، فيحرم عند عدمها -يعني عدم الضرورة- كما في الحياة - يعني كما لو كانوا أحياء - قال ابن الصلاح : محله إذا لم يكن بينهما محرمية أو زوجية ، وإلا فيجوز الجمع ، قال الأسنوى : وهو متجه -يعني كلام وجيه- والذي في المجموع -كتاب للنووي- لافرق ، فقال إنه حرام حتى في الأم مع ولدها ، وهذا هو الظاهر ، إذ العلة في منع الجمع هي الإيذاء ، لأن الشهوة قد انقطعت فلا فرق بين المحرم وغيره ، ولا بين أن يكونا من جنس واحد أم لا ، ويحجز بينهما بتراب حيث جمع بينهما ، وذلك على سبيل الندب -حتى لو اتحد الجنس- انتهى .

١- ذكره ابن حجر في الفتح ، ج٣ ص ٢٥١.

وجاء في (الفتاوى الإسلامية) [1] : يجوز دفن الرجل مع المرأة في قبر واحد عند الضرورة بشرط الحيلولة بينهما بحائل من التراب . وخلاصة الكلام أن دفن الرجل مع المرأة حتى لو كانت أمه أو زوجته لايجوز إلا عند الضرورة.



س : هل هناك شروط خاصة بجواز قيام الرجل بدفن النساء ؟

ج : روى البخاري وأحمد عن أنس رضي الله عنه قال : شهدت بنت رسول الله ﷺ تدفن وهو جالس على القبر ، فرأيت عينيه تدمعان ، فقال «هل منكم من أحد لم يقارف الليلة» ؟ أي يجامع زوجته . فقال أبو طلحة : أنا ، قال : «فانزل في قبرها» فنزل في قبرها . وفي رواية لأحمد عن أنس أن رقية -وهي بنت النبي ﷺ وكانت زوجة لعثمان بن عفان- لما ماتت قال النبي ﷺ : «لايدخل القبر رجل قارف الليلة أهله» فلم يدخل عثمان بن عفان القبر.

يؤخذ من هذا أن بنت النبي ﷺ -وهي إما رقية وإما أم كلثوم- لما ماتت اختار أن يتولى دفنها في القبر شخص لم يعاشر زوجته الليلة الماضية ، لأن الذي قربت معاشرته لزوجته ربما تتحرك شهوته وهو يتولى دفن امرأة ، وهذا أمر لا يليق ، لأن المقام مقام عبرة واحترام وخوف من المصير بعد الموت ، وإذا كان هذا لايليق مع المرأة العادية فهو أولى ألا يليق بالنسبة لبنات النبي ﷺ .

والموضوع في الحقيقة موضوع أدب مسنون غير مفروض ، فلا مانع أن يتولى الرجل دفن المرأة ، سواء فكّر في الجنس أو لم يفكر ، ولم يرتكب ذنباً بذلك ، وإن كان المفروض فيه أن يكون من أحسن الناس خشية لله ، واتعاظاً بالمصير المحتوم لكل كائن حي ، يقول الشوكاني في شرح الحديث :فيه دلالة على أنه يجوز أن يدخل المرأة في قبرها الرجال دون النساء ، لكونهم أقوى على ذلك . ويقدّم في مواراة المرأة الرجال الأجانب الذين بَعُدَ عهدهم بالملاذ -على الأقارب الذين قرب عهدهم

---

١ - مجلد ٧ ص١٤٢٦ بتاريخ ٢٦ من أكتوبر ١٩٦٣م .

بذلك كالأب والزوج . وعلّل بعضهم تقدُّمَ من لم يقارف بأنه حينئذ يأمن مِنْ أن يذكّره الشيطان بما كان منه تلك الليلة [1] .

وجاء في (كشف الغمة عن جميع الأمة) للشعراني [2] : كان ﷺ إذا حضر دفْن امرأة يقول للحاضرين «أيكم لم يقارف الليلة»؟ يعني بالمقارفة الذنب «فلينزل في قبرها يقبرها» ولما ماتت زينب بنت جحش رضي الله عنها أراد عمر رضي الله عنه أن يدخل قبرها ، فأرسل إليه أزواج النبي ﷺ يقلن له : لايحل لك أن تدخل القبر ، وإنما يدخل القبر من كان لا يحل له النظر إليها وهي حية ، فرجع عن ذلك . انتهى

فالمراد بالذنب في كلام الشعراني المعاشرة الجنسية ، ومنع عمر من دفن زوجة الرسول مبالغة في احترامهن وعدم رؤيتهن حتى مع الحجاب وهو الكفن ، قال تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب : ٥٣] وهذا من خصوصيات زوجات الرسول.



س : ما حكم الزوجة المسيحية إذا ماتت وفي بطنها جنين مسلم ، أين يكون الدفن؟

ج : روى البيهقي عن واثلة بن الأسقع : أنه دفن امرأة نصرانية في بطنهاولد مسلم في مقبرة ليست بمقبرة النصارى ولا المسلمين ، واختار هذا الإمام أحمد ، لأنها كافرة لاتدفن في مقبرة المسلمين ، فيتأذوا بعذابها ، ولا في مقبرة الكفار ، لأن ولدها مسلم فيتأذى بعذابهم . وقال بعض العلماء :

لماذا لايجوز شق بطنها وإخراج الجنين منه ، ليدفن كلٌّ في مقبرته ؟ وذلك عند تعذر وجود مقبرة تصلح لكل الأديان .



١- نيل الأوطارج ٤ ص ٩٢ .
٢- ج١ ص ٢١٨ .

س : هل يجب أن يوجه الميت في قبره إلى جهة القبلة ، أم يجوز توجهه إلى غيرها؟

ج : جاء في فقه المذاهب الأربعة أنه يجب أن يوضع الميت في قبره مستقبل القبلة، وذلك رأي الجمهور ، أما المالكية فقالوا : إن توجيهه إلى القبلة بوضعه على جنبه الأيمن مندوب وليس بواجب .

وجاء فيه أنه لو وضع الميت غير موجَّه للقبلة ولم يُهَلْ عليه التراب وجب تدارك ذلك ، فإن أهيل عليه التراب لم ينبش ، ورأى الشافعية والحنابلة وجوب نبش القبر ولو بعد إهالة التراب عليه ، لتوجيهه إلى القبلة ، وذلك قبل أن تتغير الجثة ، وإلا فلا.



س : بعد دفن الميت يجلس أحد الفقهاء ويلقنه كلاماً ليجيب به الملكين فهل هذه سنة أم عادة عن الأجداد ، وما حكم الشرع فيه ؟

ج : رأى بعض العلماء أن يلقن الميت المكلف بعد دفنه ، فقد روي عن بعض التابعين ، منهم راشد بن سعد وضمرة بن حبيب وحكيم بن عميرة أنهم قالوا : إذا سوى على الميت قبره وانصرف الناس عنه كانوا يستحبون أن يقال للميت عند قبره: يا فلان قل لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله «ثلاث مرات» يا فلان قل : ربي الله، وديني الإسلام ، ونبيي محمد ، ثم ينصرف.

وعندهم في هذا حديث أبي أمامة أن النبي ﷺ قال «إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فيقف أحدكم عند رأس قبره ثم ليقل : يا فلان ابن فلانة ، فإنه يسمعه ولايجيب ، ثم ليقل : يا فلان ابن فلانة الثانية ، فيستوي قاعداً ، ثم ليقل : يا فلان ابن فلانة ، فإنه يقول : أرشدنا يرحمك الله ، ولكن لاتسمعون فيقول : اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنك رضيت بالله ربًّا وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبيًّا وبالقرآن إماماً -فإن منكراً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما فيقول : انطلق فما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجته

ويكون الله تعالى حجته دونها . فقال رجل يا رسول الله فإن لم يعرف اسم أمه ؟ قال «فلينسبه إلى حواء» [1] . وقد اتفق علماء المحدثين وغيرهم على المسامحة في أحاديث الفضائل والترغيب والترهيب ، وقد اعتضد بشواهد ، كحديث (واسألوا له التثبيت) ورواية عمرو بن العاص ، وهما صحيحان. ولم يزل أهل الشام على العمل بهذا في زمن يقتدى به وإلى الآن ، وذهبت المالكية في المشهور عنهم وبعض الحنابلة إلى أن التلقين مكروه ، جاء في المغني لابن قدامة [2] : ليس فيه لأحمد ولا للأئمة شيء ، سوى ما رواه الأثرم ، قال : قلت لأبي عبدالله : فهذا الذي يصنعون إذا دفن الميت ، يقف الرجل ويقول .... فقال : ما رأيت أحداً فعل هذا إلا أهل الشام حين مات أبو المغيرة ، جاء إنسان فقال ذاك، قال: وكان أبو المغيرة يروي فيه عن أبي بكر ابن أبي مريم عن أشياخهم أنهم كانوا يفعلونه ، وكان ابن عباس يرويه ، ثم قال فيه: إنما لأثبت عذاب القبر .

قال القاضي وأبو الخطاب : يستحب ذلك ، ورويا فيه حديث أبي أمامة المذكور.

جاء في (مشارق الأنوار) للعدوي [3] أن التلقين مروع عند الشافعية ، وارتضاه صاحب المدخل وجزم به القرطبي وكذلك عند أبي حنيفة وغير واحد من المالكية كما قال صاحب المدخل ، وذلك لحديث سعيد بن عبدالله الأسدي الذي قال: شهدت أبا أمامة الباهلي في النزع فقال : إذا مت فاصنعوا بي كما أمر النبيﷺ (وذكر الحديث المتقدم) قال العدوي : ومشهور مذهب مالك يرى ضعف الحديث وأن شرط العمل به ألا يشتد ضعفه وأن يندرج تحت أصل كلي ، قال الشيخ عبدالباقي : ولم يوجد في هذا الحديث اندراج تحت أصل كلي ، فلا يعمل به وإن كان في المقاصد تقويته اهـ. قال العلامة الأمير في حاشيته عليه : وأورد أن هذا مندرج في نفع المؤمن أخاه ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ اهـ . فيكون هذا مقوياً لما درج عليه صاحب المدخل وجزم به القرطبي

١- رواه ابن شاهين في كتاب الموت بإسناده . وهذا الإسناد صالح وقواه بعضهم . وقال النووي : هذا الحديث وإن كان ضعيفاً فليستأنس به .

٢- جـ٢ ص ٣٧٧ . ٣- ص ١٠ .

فيكون الاعتماد عليه . لاسيما والحديث قواه الحافظ السخاوي في «المقاصد» ولكل وجهة رضي الله عن الجميع . انتهى كلام العدوي.

ويقول السيد / عبدالله بن محمد الصديق الحسني : إن التلقين جرى عليه العمل قديماً في الشام زمن أحمد بن حنبل وقبله بكثير ، وفي قرطبة ونواحيها حوالي المائة الخامسة فما بعدها إلى نكبة الأندلس ، وذكر بعض العلماء من المالكية والشافعية والحنابلة الذين أجازوه ، وذكر أن حديث أبي إمامة ضعيف ، لكن الحافظ ابن حجر قال في التلخيص ، إسناده صحيح ، ورأى الحسنى صلاح إسناده لأن له طرقاً وشواهد [1] .

وفي المجلد الرابع من الفتاوى الإسلامية [2] أن الشيخ قراعة أفتى سنة ١٩٢٢م بأن التلقين فيه خلاف واختار عدم المنع ، أخذاً مما روى عن القاضي الكرماني حينما سئل عنه فقال : ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وإنما لاينهى عن التلقين بعد الدفن لأنه لاضرر فيه ، بل فيه نفع ، فإن الميت يستأنس بالذكر على ما ورد في الآثار ، انتهى ملخصاً من حاشية مراقي الفلاح ورد المحتار .

وفي المجلد نفسه [3] أن الشيخ عبدالمجيد سليم أفتى سنة ١٩٣٦م بأنه مستحب عند الشافعية والحنابلة ومكروه عند الإمام مالك رضي الله عنه ووافق على ما جنح إليه الشيخ قراعة . ونقل كلام النووي في الجزء الخامس من كتابه المجموع [4] ، من استحبابه والكلام الذي يقال فيه وأن التلقين يكون للمكلف وليس للصبي ونقل رأي الإمام مالك بالكراهة ، من شرح الرسالة لأبي الحسن . وأنه لم يجد في كتب الحنفية ولا في غيرها اشتراط شيء فيمن يلقن الميت بعد الدفن ، ورأى أنه ينبغي أن يكون ممن يحسن التلقين . انتهى.

١- مجلة الإسلام ، مجلد ٣ عدد١٠ .
٢- ص ١٣٩١ .
٣- الفتاوى الإسلامية ، المجلد الرابع ص ١٢٦٥ .
٤- ص ٣٠٣ .

وبعد هذا العرض أرى أن هذا العمل لايضر الأحياء ولا الأموات ، بل ينتفع به الأحياء تذكرة وعبرة ، فلا مانع منه .

هذا ، وتلقين الشهادة للمحتضر مشروع ندباً أو وجوباً ، لحديث الجماعة إلا البخاري «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله» ويزاد عليه «وأن محمداً رسول الله» ومع مشروعيته أجمع العلماء على كراهة الإكثار منه لئلا يتألم المحتضر وربما يرفض [1] .



س : مات رجل عظيم بين أهله فأكرموه عند دفنه فوضعوا له مخدة وفرشوا قبره ووضعوا فيها الحناء ، فهل هذا جائز ؟

ج : أما وضع الحناء في القبر فهو كوضعها في الكفن لا غبار عليه كما قال جمهور الأئمة ، أما وضع فراش في القبر أو وسادة فقد جاء في المواهب اللدنية للقسطلاني [2] ، في الكلام على وفاة النبي ﷺ أنه روي أنه بنى في قبره تسع لبنات وفرش تحته قطيفة نجرانية كان يتغطى بها ، فرشها مولاه «شُقران» في القبر وقال : والله لا يلبسها أحد بعدك . قال النووي : وقد نص الشافعي وجميع أصحابه وغيرهم من العلماء على كراهة وضع قطيفة أو مضربة أو مخدة ونحو ذلك تحت الميت في القبر ، وشذَّ البغوي من أصحابنا فقال في كتابه (التهذيب) لا بأس بذلك ، لهذا الحديث ، والصواب كراهة ذلك كما قاله الجمهور ، وأجابوا عن هذا الحديث بأن «شقران» انفرد بفعل ذلك ولم يوافقه أحد من الصحابة ولا علموا بذلك ، وإنما فعله «شقران» لما ذكرناه عنه من كراهية أن يلبسه أحد بعد النبي ﷺ انتهى . ثم يقول القسطلاني : وفي كتاب (تحقيق النصرة) للزين المراغي قال ابن عبدالبر : ثم أخرجت -يعني القطيفة- من القبر لما فرغوا من وضع اللبنات التسع ، حكاه ابن زَبَالَة ، يقول الزرقاني عنه : كذبوه ومات قبل المائتين ، روى له أبو داود [3] .

١- نيل الأوطار ، ج٤ ص ٢٢ .
٢- ج٢ ص ٣٨٠
٣- ج٨ ، ص ٢٩٣ .

ويؤخذ من هذا أن مجرد وضع الحناء في القبر لتخفيف رائحة الجثة لا مانع منه، أما وضع فراش في القبر فمكروه، لأنه إضاعة مال دون حاجة، والفراش الذي ينفع الميت ويريحه هو عمله الصالح. وفي الحديث «يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله -عبيده- وعمله. فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى معه عمله»[1].



س: يشاهد في كثير من البلاد -حتى غير المسلمة- أن بعض من يحضر دفن الميت يرش بعض التراب على القبر فهل لهذا أصل في الدين؟

ج: روى ابن ماجه أن النبي ﷺ صلى على جنازة ثم أتى القبر فحثى عليه من قبل رأسه ثلاثاً، واستحب الأئمة الثلاثة أن يقول في الحثية الأولى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ وفي الثانية ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ وفي الثالثة ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ لما روى أن النبي ﷺ قال ذلك لما وضعت أم كلثوم بنته في القبر. وقال أحمد: لا يطلب قراءة شيء عند حثو التراب لضعف الحديث»[2]، [حثا من باب عدا ورمى - يعني يقال يحثو، يحثي، والمصدر حثْواً، حثْياً].

وجاء في نيل الأوطار للشوكاني[3]، بعد أن ذكر حديث ابن ماجه قوله: قال الحافظ: إسناده ظاهر الصحة، وضعفه أبو حاتم في «العلل» كما رواه أبو داود وصححه. وروى الدارقطني والبزار أن النبي ﷺ حين دفن عثمان بن مظعون حثى على قبره بيديه ثلاث حثيات من التراب وهو قائم على رأسه، وزاد البزار: فأمر فرشَّ عليه الماء. وروى الشافعي في حديث مرسل -أي سقط منه الصحابي- أن رسول الله ﷺ رشَّ على قبر ابنه إبراهيم ووضع عليه حصباء. وروى البيهقي بإسناد فيه مقال أن بلال بن رباح رشَّ على قبر النبي ﷺ بالماء.

١- رواه البخاري ومسلم.
٢- فقه السنة، ج١ ص ٥٤٦.
٣- ج ٤ ص ٨٦، ص٨٧.

يقول الشوكاني [1] : روى سعيد بن منصور أن الرش على القبر كان على عهد رسول الله ﷺ ، وإلى مشروعية الرش على القبر ذهب الشافعي وأبو حنيفة، وجاء مثل ذلك في الشرح الكبير لابن قدامة المتوفى سنة ٦٨٢هـ [2] ، والمغني هو ابن قدامة المتوفى سنة ٦٢٠هـ [3].

يؤخذ من هذا استحباب رش القبر بالتراب ، وكذلك بالماء . وجاء في كتاب (فقه المذاهب الأربعة) الذي نشرته وزارة الأوقاف المصرية أنه يستحب بعد دفن الميت في اللحد أو الشق ، وسدِّ قبره باللَّبِن - أي الطوب النيئ- ونحوه أن يحثو كل واحد ممن شهد دفنه ثلاث حثيات من التراب بيديه جميعاً ، ويكون مِنْ قِبَلِ رأس الميت ، ويقول في الأولى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ وفي الثانية ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ وفي الثالثة ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ثم يهال عليه التراب حتى يسد قبره ، ولم يطلب المالكية والحنابلة ذكر الآية الكريمة عند حثو التراب . وكل ما ذكر ندب وليس فرضاً ، لو ترك لاشيء فيه على الحي ولا على الميت.



س : يقول بعض الناس : إن بناء القبر بالطوب الأحمر تشاؤم بدخول من دفن فيه النار ، فهل هذا صحيح ؟

ج : دخول الجنة أو النار رهن بالإيمان والعمل ومشيئة الله تعالى ، وليس للقبر من حيث إنه مادة دخل في هذا الموضوع ، ومع ذلك استحسن العلماء ألا يكون فيه شيء دخل النار ، كالآجر وهو الطوب المحروق .

جاء في تفسير القرطبي [4]، قوله : ويكره الآجر في اللحد ، وقال الشافعي : لابأس به لأنه نوع من الحجر ، وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ، لأن الآجر لإحكام البناء ، والقبر وما فيه للبلى ، فلا يليق به الإحكام ، وعلى هذا يسوى بين الحجر والآجر ، وقيل: إن الآجر أثر النار فيكره تفاؤلاً ، فعلى هذا يفرق بين الحجر والآجر .

١- صفحة ٩١ .
٢- المجلد٢ ص٣٨٢ .
٣- ص ٣٧٩ .
٤- ج١٠ ص ٣٨١ .

هذا ، وقد روى مسلم وغيره عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهى أن تجصص القبور . وفي لفظ النسائي : أن يبنى على القبر أو يزاد عليه أو يجصص . والتجصيص معناه الطلاء بالجص وهو الجير المعروف . والجمهور حملوا النهي على الكراهة ، وحمله ابن حزم على التحريم ، والحكمة ما تقدم ذكره من أن القبر للبلى لا للبقاء ، أو التفاؤل ، فلا يدخله عند التجصيص شيء أحرق بالنار ، ويؤيده ماجاء عن زيد بن أرقم أنه قال لمن أراد أن يبني قبر ابنه ويجصصه : جفوت ولغوت ، لايقربه شيء مسته النار .

وكما كرهوا تجصيصه بالجير كرهوا بناءه بالطوب الأحمر المحرق بالنار ، وذلك إذا لم تكن الأرض رخوة أو ندية فإن كانت كذلك فلا كراهة.



س : ما حكم الدين في إقامة المقابر من عدة طوابق ودفن الموتى فيها ؟ وهل يفضل إزالتها مع الإبقاء على المقبرة الملاصقة للأرض ؟

ج : الأصل في دفن الميت أن تحفر له حفرة في الأرض ، ويوضع تحت مستوى سطحها ، ولا يتحقق الدفن بغير ذلك ، قال تعالى : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه : ٥٥] وينبغي تعميق القبر بحيث يمنع رائحة الجثة وسطو السباع والوحوش عليها ، لحديث النسائي والترمذي في شهداء أحد «احفروا وأعمقوا» ولايجوز رفع القبر زيادة على قدر شبر من الأرض ، كما لايجوز البناء عليه ، لحديث مسلم عن جابر رضي الله عنه أن النبيﷺ نهى عن ذلك .

وعلى هذا لايجوز الدفن في مقابر ذات طوابق بعضها فوق بعض ، لأن شرط القبر أن يكون تحت مستوى الأرض . فهل يتحقق ذلك في قبر متعدد الطبقات ؟ ومع ذلك لاتوجد ضرورة الآن إلى هذه الطبقات ، ويجب تدبير مكان آخر إذا لم يوجد متسع في المقبرة الحالية ، وإذا بليت عظامها جاز الدفن فيها مرة أخرى .



س : ما حكم الدين في الصلاة في مسجد بني فوق المقابر بعد ردمها على رفات الموتى؟

ج : صدرت فتوى رسمية على مذهب الأحناف سنة ١٩٢٠م بحرمة استغلال المقبرة القديمة حتى لو لم يبق فيها أثر للموتى ، ذلك إذا كانت موقوفة . أما المملوكة فلا حرمة ، والشيخ يوسف الدجوي من علماء المالكية نقل عن (الخطاب في شرح متن خليل) حرمة الانتفاع بالمقبرة الدارسة إلا لمصلحة المسلمين . وجاء في «الرهوني» أن بناء المساجد للصلاة فيها على المقبرة العافية -أي الدارسة- لا كراهة فيها ، لأن المقبرة والمسجد حبسان – أي وقفان – على المسلمين لصلاتهم ودفن موتاهم ، فما كان لله لا بأس أن يستعان بعضه في بعض على ما كان النفع فيه أكثر والناس إليه أحوج .

وبعد أن نقل ذلك قال : إن بناء المسجد على المقبرة التي درست جائز من غير كراهة متى اقتضت المصلحة [1] .



س : ما حكم الدين في المقابر والأضرحة المرتفعة عن الأرض ؟

ج : روى مسلم وغيره أن ثمامة بن شُفَى قال: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم «رودس» فتوفى صاحب لنا ، فأمر فضالة بقبره فسوي ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها ، وروى عن أبي الهياج الأسدي قال : قال لي علي بن أبي طالب : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؟ لاتدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته قال الترمذي : بعض أهل العلم يكرهون أن يرفع القبر فوق الأرض إلا بمقدار ما يعرف أنه قبر ، لكيلا يطأه الناس ولا يجلسوا عليه .

قال الشافعي : وأحب ألا يزاد في القبر تراب من غيره ، وإنما أحب أن يشخص على وجه الأرض شبراً أو نحوه ، وأحب ألا يبنى ولا يجصص ولم أر قبور

---

١ – مجلة الإسلام ، المجلد الثالث ، العدد السادس، ص٢٠ .

المهاجرين والأنصار مجصصة ، وقد رأيت من الولاة من يهدم ما يبنى في المقابر ،ولم أر الفقهاء يعيبون عليه ذلك ، وقد صرح بتحريم الزيادة على ذلك أصحاب أحمد ومالك وبعض الشافعية . جاء في فقه المذاهب الأربعة ، نشر أوقاف مصر ، يكره أن يبني على القبر بيت أو قبة أو مدرسة أو حيطان تحدق ، «كالحيشان» إذا لم يقصد بها الزينة والتفاخر وإلا كان ذلك حراماً ، ويحرم ذلك إذا كانت الأرض مسبلة أو موقوفة للدفن ، لأن في البناء تضييقاً وتحجيراً على الناس ، والشافعية قالوا : يجوز أن تُبنى قبور الأنبياء والشهداء والصالحين ، وأن ترفع عليها القباب ولو في الأرض الموقوفة ، وذلك إحياء لذكرهم .

يؤخذ مما سبق أن البناء على القبور ورفعها فوق ما تتميز به مكروه وليس بحرام إلا إذا كان للتفاخر أو في الأرض المسبلة والموقوفة للدفن فيكون حراماً ، واستثنى الشافعية من الكراهة والحرمة قبور الأنبياء والشهداء والصالحين فأجازوا البناء عليها لإحياء ذكرهم ورأي الجمهور أقوى .



س : نرى بعض المقابر مكتوباً عليه آيات قرآنية وأسماء من بنوها ، فما رأي الدين في ذلك ؟

ج : روى الترمذي وصححه عن جابر رضي الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ أن تجصص القبور وأن يكتب عليها وأن يبنى عليها وأن توطأ ، أي تداس . وفي لفظ النسائي : أن يبنى على القبر أو يزاد عليه أو يجصص أو يكتب عليه .

الظاهر من هذا الحديث النهي عن الكتابة على القبور . دون تفرقة بين كتابة اسم الميت وكتابة غيره .

قال الحاكم : مع صحة الحديث فالعمل ليس عليه ، فإن أئمة المسلمين من الشرق والغرب يكتبون على قبورهم ، وهو شيء أخذه الخلف عن السلف . لكن الذهبي قال : إن هذا شيء محدث ولم يبلغهم النهي.

ورأي المذاهب الفقهية في ذلك على ما يأتي :

١ - **قال الحنفية:** يكره تحريماً كتابه أي شيء على القبر ، إلا إذا خيف ذهاب أثره فلا يكره .

٢ - **وقال المالكية :** إن كانت الكتابة قرآناً حرمت ، وإن كانت لبيان اسم المتوفى أو تاريخ موته فهي مكروهة .

٣ - **وقال الشافعية :** إن النهي عن الكتابة للكراهة ، سواء أكانت قرآناً أم كانت اسم الميت ، لكن إذا كان القبر لعالم أو صالح ندب كتابة اسمه عليه وما يميزه ليعرف.

٤ - **والحنابلة قالت :** إن النهي عن الكتابة للكراهة ، سواء كانت قرآناً أم غير ذلك ، دون تفرقة بين قبر عالم أو صالح وقبر غيره .

وابن حزم ، يرى أن نقش اسم الميت على القبر لا كراهة فيه ، وكل ذلك يعتمد فيه إلى حد كبير على النية الباعثة للكتابة ، فإن كانت لمجرد التعرف على صاحب القبر فلا بأس بذلك مطلقاً .

فقد روى ابن ماجه عن أنس أن النبي ﷺ وضع صخرة على قبر عثمان بن مظعون وجاء في رواية أبي داود أنه قال : أتعلَّم بها قبر أخي ، وأدفن إليه من مات من أهلي» وإن كانت الكتابة للفخر والمباهاة فهي مذمومة قطعاً .



س : في أثناء تشييع الجنازة أصر أحد أبناء الميت على أن يضعوا في قبر أبيهم بعضاً من الخبز والبيض والماء ، وقال إن هذه سنة ، فهل هناك حديث يدل على ذلك؟

ج : إن أحوال القبر والحياة الآخرة من أمور الغيب التي لاتعرف إلا بتوقيف صحيح من الله ورسوله ، والميت إذا وضع في قبره صار في عالم آخر لايحتاج فيه إلى أكل وشرب ، وإنما يحتاج إلى عمل صالح كان قد عمله في الدنيا ولم يزل أثره باقياً

وهو ما يُعرف بالصدقة الجارية أو عمله غيره ، ووهب له ثوابه كصدقة وصيام ونحوهما ، وقد صح في الحديث الذي رواه مسلم «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له» كما جاء أيضاً «يتبع الميت إلى قبره ثلاثة ، أهله وماله -يعني الأرقاء المملوكين- وعمله فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى معه عمله» [1] .

وفي حديث رواه ابن ماجه «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علماً علمه ونشره ، أو ولداً صالحاً تركه ، أو مصحفاً ورَّثه ، أو مسجداً بناه ، أو بيتاً بناه لابن السبيل ، أو نهراً أكراه ، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته».

فالذي يفيد الميت في قبره عمله هو أو عمل غيره الذي يهديه إليه وبخاصة الصدقة والصيام والحج وقراءة القرآن ، والصلاة له لا عنه . أما وضع الطعام معه في قبره فممنوع ، لأنه أولاً لا ينتفع به . فوضعه عبث لأنه ميت لا يأكل ، وثانياً ضياع مال أولى به الأحياء ، وضياع المال منهي عنه .

ولم يرد أي حديث مقبول أو غير مقبول يزعم به أحد أن ذلك سنة ، ولايقال : إنه بدعة جديدة لم تكن عند السلف من الأمة ، بل هو تقليد فرعوني قديم منذ آلاف السنين ، إلى جانب تقاليد أخرى ذكرها المؤرخون . جاء في كتاب تاريخ الحضارة المصرية الذي ألفه نخبة من العلماء المتخصصين أن المصريين القدامى حتى نهاية العهد الإغريقي الروماني كانوا يحرصون على تزويد المتوفى بالطعام والشراب ، لأنهم كانوا يعتقدون في حياة أخرى فإذا مات الميت ووضعت جثته في القبر لاتعود إليه روحه إلا إذا مُدَّ بالطعام والشراب ، ويتولى ذلك ابنه الأكبر ، وانطلاقاً من عقيدة خلود الروح والحياة الأخرى كان فن تحنيط الموتى وتحنيط ما يوضع معه من طعام حتى لايفسد ، بل كانت نساء كبارهم تدفن معه محنطة ، ليكمل له التمتع في

١- رواه البخاري ومسلم .

حياته الآخرة ، وظهرت عادة تقديم الطعام إلى الموتى بصورة مختلفة ، فكانوا يقدمون القرابين للكاهن الذي يوصلها بطريقته إلى الميت ، ويعلم الله مصير هذه القرابين . وظهرت عند البعض عادة الذبح عند القبر ، وتوزيع الطعام عند زيارة القبور [1] ، وألفت نظر أولاد الميت -الذين يريدون البر بأبيهم بوضع الطعام في قبره - ألفت نظرهم إلى ما رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان أن رجلاً قال : يا رسول الله ، هل بقى من بر أبوي شيء بعد موتهما ؟ قال «نعم ، الصلاة عليهما - أي الدعاء لهما - والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لاتوصل إلا بهما وإكرام صديقهما».



س : ما رأي الدين في ستر الأضرحة بالأقمشة الفاخرة ؟

ج : ستر الأضرحة لم يرد في حديث خاص ، وإنما جاء حديث عام ينهي عن كسوة الحجارة ، فقد روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج في غزاة، فأخذت نمطاً -النمط ضرب من البسط له خمل رقيق - فسترته على الباب ، فلما قدم رأى النمط فجذبه حتى هتكه ثم قال : «إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين».

والسر في ذلك أن فيه ضياعاً للمال بدون فائدة وفي الحديث أن الله كره إضاعة المال كما رواه البخاري ومسلم .

ويستثنى من عموم عدم كسوة الحجارة كسوة الكعبة فإنها كانت معهودة قبل الإسلام ، على الخلاف في أول من كساها [2] ، ولم ينه الإسلام عن كسوتها ، بل جاء في الروايات أن النبي ﷺ كساها بالقباطي والحبرات ، كما كساها أبو بكر وعمر وعثمان ومازالت تكسى إلى الآن دون معارض . وتفصيل ذلك في الكتاب المذكور.

١- ج١ ص ٢٣٢ وما بعدها .
٢- تاريخ الكعبة المعظمة لحسين عبدالله باسلامه ، ص ٢٤٤ .

وعلى هذا فمن نذر إن قضى الله حاجته أن يكسو ضريح الشيخ الفلاني لاينعقد نذره ، لأن النذر لا يكون إلا في طاعة.



س : هل يجوز استخدام ماء بئر موجود بين المقابر في التطهر ؟

ج : بئر الماء الموجود بين المقابر يستمد ماءه من أماكن عميقة لا تصل إليها مخلفات الموتى البالية ، وعليه فماء البئر هذا طاهر ومطهر ، ولايحرم استعماله لغرض من الأغراض المشروعة.



س : ما حكم الدين في أكل الثمار من الأشجار التي وسط المقابر ، وجذورها تمتص فضلات الموتى ؟

ج : لا مانع من أكل ثمر الشجر الذي ينمو وسط المقابر ، ولا عبرة بما يقال : إن جذور الشجر تمتص دماء الموتى وفضلاتهم فالثمرة تكون نجسة ، ذلك على فرض هذا الامتصاص ، أن تحول النجس يجعله طاهراً ، وقد تحول في الشجرة غذاء لها وأنتج الثمرة ، تماماً كالطيور التي تتناول النجاسة في بعض الأحيان ، وكأي زرع يسمد بالسماد البلدي النجس ، فذلك لايصيب الثمر بالنجاسة.



س : أمتلك قبراً لأدفن فيه موتانا فهل يجوز أن أبيعه لشخص آخر ليدفن فيه موتاه ؟

ج : عندما تحدث العلماء عن القبر وقالوا : إنه حبس على صاحبه ، وتحدثوا عن نبش القبر وتحويله إلى منفعة أخرى كالزراعة أو البناء أو شق نهر أو طريق ، ما بين مجيز لذلك ومانع ، آخذين في الاعتبار بقاء جزء من أجزاء الميت كعظم أو صيرورته كله تراباً -لم يتطرقوا إلى نقل ملكية القبر من شخص إلى آخر ليستعمله في الدفن لا في شيء آخر من الاستعمالات المشار إليها من قبل .

وبناء على جواز دفن عدد من الموتى في قبر واحد ، كل في لحد ومكان خاص لايختلط مع غيره يمكن القول بجواز نقل الملكية لهذا القبر من شخص إلى آخر لاستعماله للدفن ، حيث لايوجد نص يمنع ذلك . أما المقبرة الموقوفة والمسبَّلة للدفن فلا ملكية فيها لأحد ، وبالتالي لايجوز بيع شيء منها .



س : ما حكم الدين في الصلاة في مسجد بني فوق قبور قديمة لم يدفن فيها أموات منذ سنوات ، وقد سويت بالأرض وأقيمت عمارات فوق جزء منها؟

ج : صدرت فتوى رسمية على مذهب الأحناف من مفتي مصر الشيخ البرديسي بتاريخ ١٤ من يوليه سنة ١٩٢٠م بحرمة استغلال المقبرة القديمة لبناء أو زراعة أوغيرهما ، حتى لو لم يبق فيها أثر للموتى من عظم أو غيره ، ووضحها هو بتاريخ ٨ من ديسمبر سنة ١٩٢٠م بأن الحكم بالحرمة إذا كانت موقوفة ، أما إذا كانت مملوكة للحكومة فلا حرمة [1].

وجاء في (مشارق الأنوار) للعدوي [2]، أن علماء المالكية منعوا الانتفاع بالمقبرة التي درست ومر عليها سنوات طويلة ، لأن القبر حَبْسٌ على من دفن فيه.

والشيخ يوسف الدجوي المالكي نقل عن الحطاب في شرح متن خليل حرمة الانتفاع بالمقبرة الدارسة إلا لمصلحة المسلمين . وجاء في الرهوني أن بناء المساجد للصلاة فيها على المقبرة العافية -الدارسة- لا كراهة فيه ، لأن المقبرة والمسجد حَبْسَانِ ، أي وقفان على المسلمين لصلاتهم ودفن موتاهم ، فما كان لله لا بأس أن يستعان بعضه في بعض ، على ما كان النفع فيه أكثر والناس إليه أحوج.

وبعد أن نقل الشيخ الدجوي ذلك قال : يتضح من ذلك أن نبش القبور ونقل ما فيها من العظام لايجوز إلا لمصلحة ضرورية كإجراء نهر فيها ، ومثل ذلك ما إذا

١- الفتاوى الإسلامية مجلد ٤ صفحة ١١٦٩، ١١٧٣، ١٥٥٩ .
٢- ص ٢٦ .

احتيج لها لتوسيع الطريق ، وأن بناء المسجد على المقبرة التي درست جائز من غير كراهة متى اقتضت المصلحة [1] .

وفي فتوى للشيخ يوسف المرصفي الشافعي والشيخ الحسيني سلطان الشافعي[2] بشأن المقابر المهجورة لايجوز نبش القبر وجعل مكانه مزرعة أو غيرها ، وجاز لمالك الأنقاض الانتفاع بها والتصرف فيها بسائر أنواع التصرفات الشرعية ، والشافعية قالوا ذلك في المقبرة المملوكة غير المحبوسة والموقوفة .

بعد هذه النقول من المذاهب يمكن أن يقال:

إذا كانت المقبرة مملوكة لأصحابها جاز نقل العظام منها والانتفاع بها في بناء أو زراعة أو بيع التراب للتسميد وغير ذلك ، لأن المالك للأرض يجوز له الانتفاع بباطنها وظاهرها .

أما إذا كانت المقبرة موقوفة أو مسبَّلة ، أي اعتاد الناس الدفن فيها وليس لها مالك خاص ، فلا يجوز التعدي عليها ، ويحرم نقل رفات الموتى من تربتهم ، حيث لايوجد عذر ولا ضرورة ، فإن وجدت الضرورة فالضرورات تبيح المحظورات.

وإذا لم تكن المقبرة مملوكة لأحد ولا موقوفة ولا مسبلة كان لأهل البلد أن يشتروها أو يتملكوها من الحكومة ، ويتصرفوا فيها بكل أنواع التصرفات بعد نقل ما فيها من العظام ووضعها في مكان آخر على الطريقة الشرعية ، بتمييز كل من أصحابها بمكان معين إن أمكن وعدم انتهاك حرمتها عند النقل [3].



س : ما حكم الدين في اتخاذ المقابر مساكن ، حيث يسكن بعض الناس في غرف مجاورة للقبر في مبنى يجمع بينهما ؟

ج : المشي والقعود والنوم على غرف فوق القبر قال جمهور الفقهاء إنه مكروه ، ويشهد له حديث مسلم وغيره «لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص

١- مجلة الإسلام ، المجلد الثالث ، العدد السادس ص٢٠ .
٢- مجلة الأزهر ، المجلد الخامس ، ص٣٣٦ .
٣- مجلة الإسلام مجلد ٣ عدد ٨ صفحة ٢٠ .

إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر» وحديث أحمد بإسناد صحيح فيمن رآه الرسول ﷺ متكئاً على قبر «لاتؤذوا صاحب القبر» أما البول والغائط فهو مكروه كراهة تحريم عند الحنفية وحرام عند المالكية .

أما السكن في غرف مجاورة للقبر وليست مقامة عليه فجائز لا مانع منه ، حيث لايوجد دليل على المنع .

ونوصي هؤلاء الساكنين أن يتعظوا ويعتبروا بمن يجاورونهم من الموتى ، فإنهم سيصيرون في النهاية مثلهم.



س : ما حكم إقامة السرادقات للعزاء ، وما حكم أخذ الأجر على قراءة القرآن فيها ؟

ج : ستتناول الإجابة ثلاثة نقط ، مشروعية التعزية ، أسلوبها ، مدتها ، وإليك موجزها .

١ - تعزية الإنسان لغيره فيما يصيبه مستحبة ، لأنها تخفف عنه وقع الألم ، وهو خير ، وكل خير يقدَّم للغير له أجره إن خلصت النية ، يقول النبي ﷺ «ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة إلا كساه الله عز وجل من حلل الكرامة يوم القيامة» (١) وهي لاتستحب إلا مرة واحدة ، ويستوي في ذلك أن تكون قبل الدفن أم بعده.

٢ - ليس هناك تحديد لأسلوبها وإن كان الأفضل أن تكون بالمأثور ، فقد روى البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه أن ابناً لها قبض وطلبت أن يأتي إليها ، فأرسل يقرئ السلام ويقول «إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده لأجل مسمى ، فلتصبر ولتحتسب» وقد يكون في هذا الكلام عزاء من الرسول لنفسه ، وأمرها أن تصبر وتحتسب ، وأفضل ما يعزى

---

١ - رواه ابن ماجه .

به الإنسان نفسه ما جاء في قوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٥) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦] وجاء في صحيح مسلم أن من قالها وقال: اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها استجاب الله له.

وكما كان يفعل السلف الصالح لا حاجة إلى الجلوس والإعداد لتقبل العزاء.

يقول النووي: قال الشافعي وأصحابه رحمهم الله: يكره الجلوس للتعزية، قالوا: ويعني بالجلوس أن يجتمع أهل الميت في بيت ليقصدهم من أراد التعزية، بل ينبغي أن ينصرفوا في حوائجهم، ولافرق بين الرجال والنساء في كراهة الجلوس لها، صرح به المحاملي ونقله عن نص الشافعي رضي الله عنه، وهي كراهة تنزيه -لاتحريم- إذا لم يكن معها محدث آخر، فإن ضم إليها أمر آخر من البدع المحرمة كما هو الغالب منها في العادة كان ذلك حراماً من قبائح المحرمات، فإنه محدث، وثبت في الحديث الصحيح أن كل محدثة بدعة. وكل بدعة ضلالة [1].

وذهب أحمد وكثير من علماء الأحناف إلى هذا الرأي، وذهب المتقدمون من الأحناف إلى أنه لا بأس بالجلوس في غير المسجد ثلاثة أيام للتعزية من غير ارتكاب محظور.

هذا، وجاء في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، نشر وزارة الأوقاف المصرية مانصه: ويباح لأهل المصيبة أن يجلسوا في المنزل لقبول العزاء ثلاثة أيام. أما الجلوس على قارعة الطريق وفرش البسط نحوها -السرادقات- مما اعتاد الناس فعله فهو بدعة منهي عنها، أما الحنابلة فقالوا: الجلوس للعزاء مكروه، سواء كان في المنزل أو غيره، والحنفية قالوا: الجلوس للتعزية خلاف الأولى، والأولى أن يتفرق الناس بعد الدفن ويكره الجلوس في المسجد، انتهى.

فهناك اتفاق بين الأئمة على أن إقامة السرادقات -ومثلها دور المناسبات- لتقبل العزاء غير محمودة، وأقل درجاتها الكراهة أو خلاف الأولى، مع العلم بأنها إذا كانت للمباهاة كانت حراماً، وإذا أنفق عليها من أموال القصَّر كانت حراماً أيضاً.

١- الأذكار للنووي ص ١٥١.

أما القرآن الذي يتلى في السرادقات فإن كان بأجر ، فلا ينتفع به الميت ، وإن كان بغير أجر ووهب الثواب إلى الميت يرجى انتفاعه ، وما يأخذه القارئ إن كان مشروطاً فهو أجر حرمه أكثر العلماء ، وإن لم يكن مشروطاً فإن كان القارئ ممن يستحق الصدقة فهو صدقة ينتفع بها الميت إن وهب المعطي ثوابها إليه ، وإن لم يكن ممن يستحق الصدقة فهي هبة أو هدية لا حرمة في أخذها ولا منفعة للميت بها .

٣ - والعزاء إن كان مع جلوس أو بدونه مدتة ثلاثة أيام ، ويكره بعدها لما فيه من تجديد الحزن ، اللهم إلا لمن لم يعلم بالوفاة إلا بعد مدة فلا كراهة في التعزية، والتحديد بثلاثة أيام أخذه الشافعية من حديث الإحداد على الميت يقول صاحب (كفاية الأخيار) في فقه الشافعية [1] ، وتكون في ثلاثة أيام لأن قوة الحزن لاتزيد عليها في الغالب ، وبعد الثلاثة مكروه ، لأنها تجدد الحزن، وقد جعل رسول الله ﷺ نهاية الحزن ثلاثاً ففي الصحيحين «لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا» ثم يقول المؤلف أبو بكر بن محمد الحصني الحسيني الدمشقي المتوفى سنة ٨٢٩ هـ :

وابتداء الثلاثة من الدفن جزم به النووي في شرح المهذب ونقله عن الأصحاب ، نعم جزم الماوردي أنها من الموت وبه جزم ابن الرفعة وصححه الخوارزمي . ويستثنى ما إذا كان المعزِّي أو المعزَّى غائباً ، فإنها تمتد إلى قدوم الغائب ، فإذا قدم فهل تمتد ثلاثة أيام أم يختص بحالة الحضور ؟ قال :كلام الرافعي والنووي يوهم مشروعية الثلاث عند قدوم الغائب وهو كذلك ، أم تختص بحالة الحضور قال المحب الطبري شيخ مكة: لم أر فيه نقلاً ، والظاهر مشروعية الثلاثة بعد الحضور انتهى .

أما ما يعمل للميت من تجديد الحزن وتقبل العزاء في يوم الخميس أو الخامس عشر أو الأربعين ، أو الموعد السنوي فأمر لايتفق مع الدين ، ويمكن الرجوع إلى موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام [2] لمعرفة أصل هذه العادات وما فيها من طقوس أوصت بها فِكَر دينية وضعية.



١- ج١ ص ١٥٣ .   ٢- ج ٣ ص ٤٣٤.

س : هل يجوز تقديم العزاء في المنتحر ؟

ج : المنتحر إن لم يعلم أنه استحل الانتحار فهو مؤمن غير كافر ، ومن هنا يجوز تقديم العزاء فيه ، ولو علم أنه كفر فلا مانع أيضاً من عزاء أهله فيه ، فالمراد من التعزية تسليتهم ، وذلك من حق المسلم على المسلم ، وفيه حديث رواه ابن ماجه والبيهقي بسند حسن «ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة إلا كساه الله عز وجل من حلل الكرامة يوم القيامة» وقال العلماء في هذا الصدد : إن عزى مسلماً بكافر قال : أعظم الله أجرك وأحسن عزاءك . ولايقول : غفر لميتك أو رحمه الله .



س : هل يجوز أن يعزى الإنسان شخصاً غير مسلم في وفاة قريب له ، وهل يقول المرحوم ، أو الله يرحمه ؟

ج : أما مبدأ التعزية فمشروع ، وهو من ضمن البر الذي جاء في قوله تعالى ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨] وقرر الفقهاء أن يقال لغير المسلم : أخلف الله عليك، ومن صور المجاملات أن النبي ﷺ عاد غلاماً يهوديًا كان يخدمه وعرض عليه الإسلام فأسلم، كما رواه البخاري في (الأدب المفرد) وذكره ابن حجر في (المطالب العالية)[1] فالمجاملات جائزة ولكن في حدود الشرع.

وقد يجري على بعض الألسنة عند العزاء أو الحديث عن ميت غير مسلم عبارة : المرحوم فلان ، أو الله يرحمه ، فإن كانت العبارة إخباراً عن الميت بأنه مرحوم فذلك لايصح ، لأنه ذهب إلى ربه بما عمل وهو أعلم به ، حتى الإخبار عن المسلم بأنه مرحوم هو أمر ظني لاينبغي أن يؤخذ مأخذ الحقيقة .

روى الترمذي أن غلاماً استشهد يوم أحد ، فوجد المسلمون على بطنه حجراً مربوطاً ، بسبب الجوع ، فمسحت أمه التراب عنه وقالت : هنيئاً لك الجنة يا بني ، فقال ﷺ «وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لايعنيه ، ويمنع ما لايضره».

١- ج ١ ص٢١٢ .

فإذا كان هذا في المسلم فغير المسلم من باب أولى لانخبر عنه بأنه مرحوم أو ذهب إلى رحمة الله . وإذا كانت رحمة الله وسعت كل شيء لكنه كتبها للمؤمنين الصالحين ، الذين يتبعون النبي الموصوف في التوراة والإنجيل .

أما الدعاء له بالرحمة ، أو قراءة الفاتحة ليرحمه الله ، فذلك للمسلم جائز إذا مات على الإيمان بأن لم يصدر عنه شيء يكفر به ، أما غير المسلم فقد تحدث العلماء عن الاستغفار أو طلب الرحمة له ، في حال حياته أو بعد مماته ، فقالوا : إن كان حيًّا جاز الاستغفار وطلب الرحمة والهداية بالتوفيق إلى الإيمان ، وعليه يحمل ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال عن قومه المشركين «اللهم اغفر لقومي فإنهم لايعلمون» [1] وذلك على بعض الأقوال التي قالت : إن هذا إنشاء من الرسول ، وليس حكاية عن نبي سابق دعا لقومه .

ويحمل أيضاً ما رواه مسلم أن النبي ﷺ لما زار عمه أبا طالب في مرضه الذي مات فيه وعرض عليه الإسلام فأبى ، قال «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك» فأنزل الله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة : ١١٣ ، ١١٤] .

فالاستغفار للأحياء جائز لأن إيمانهم مرجو ، أما من مات فقد انقطع عنه الرجاء فلا يُدْعى له . قال ابن عباس : كانوا يستغفرون لموتاهم فنزلت ، فأمسكوا عن الاستغفار ، ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا .

فالدعاء لمن مات غير مؤمن بأن الله يرحمه أو يغفر له ، أو قراءة الفاتحة له لذلك لايجوز ، وقد روى مسلم أن النبي ﷺ استأذن ربه أن يستغفر لأمه فلم يأذن له .

لا يقال إن الآية خاصة بالموتى المشركين ، أما اليهود والنصارى فليسوا كذلك، لا يقال هذا لأن الله قال في كل من كان على غير الإسلام ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] وقال في عبّاد

---

١ - رواه البخاري ومسلم .

الأصنام وغيرهم من اليهود والنصارى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة : ٦] ووصف بعض أهل الكتاب بأنهم كفار فقال جل شأنه ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة:٧٢ ، ٧٣] .

وقال تعالى في الكفار جميعاً ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٦١ ، ١٦٢]

ومن هنا لايجوز وصف الميت غير المسلم بأنه مرحوم ، ولا الدعاء له بالرحمة.

قال النووي في «الأذكار» [١] : يحرم أن يدعى بالمغفرة ونحوها لمن مات كافراً ، قال تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة : ١١٣] وقد جاء الحديث بمعناه ، والمسلمون مجتمعون عليه .



س : سمعنا أن النبي ﷺ قال «اذكروا محاسن موتاكم» فلماذا يُدرس التاريخ وفيه كشف لمساوئ السابقين ؟

ج : روى البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : «لاتسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا» . وروى أحمد والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال «لاتسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا» وروى البخاري ومسلم أن جنازة مرت على النبي ﷺ وأصحابه فأثنوا عليها خيرًا فقال «وجبت» ثم مرت جنازة أخرى فقالوا عنها شرًّا فقال «وجبت» ولما سألوه عن معنى ما قال قال : «ما أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، ومن قلتم عنه شرًّا وجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض».

ومن المشاهد أنه عندما يموت إنسان له شأن في الدنيا يتحدث الناس عنه إما بالخير وإما بالشر ، والحديث بالخير إشادة بذكره وتكريم له ، وتعزية لأهله أن الناس راضون

١ - ص ٣٦٣ .

عنه ، والحديث بالشر تشويه لسمعته وإهانة له ، وزيادة ألم على أهله ، وقد يقصد به التشفي الذي يورث الأحقاد التي ربما تؤدي إلى نزاع يحتدم ويشتد وتكون له آثاره السيئة .

والحديث عن الميت لا أثر له عند الله سبحانه فهو العليم بما يستحقه من تكريم أو إهانة ، وقد يكون حديث الناس عنه دليلاً ولو ظنياً على منزلته عند ربه ، لكن ذلك لا يكون إلا من أناس على طراز معين من الصلاح والإنصاف والتقوى وقول الحق لوجه الحق كالصحابة الذين قال النبي فيهم «أنتم شهداء الله في الأرض».

ومع ذلك نهى النبي ﷺ أن يذكر الأموات بالسوء إذا كان ذلك للتشفي من أهله، فذلك يغيظهم ويؤذيهم ، والإسلام ينهى عن الإيذاء لغير ذنب جناه الإنسان، ولايؤثر على منزلته عند الله الذي يحاسبه على عمله . وقد قال ﷺ في قتلى بدر من المشركين «لاتسبوا هؤلاء فإنه لايخلص إليهم شيء مما تقولون ، وتؤذون الأحياء» وعندما سب رجل أبا للعباس كان في الجاهلية كادت تقوم فتنة ، قال فيها الرسول عليه الصلاة والسلام «لاتسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا» (1) .

ودراسة التاريخ إن كانت لغرض الاعتبار والاقتداء بالصالحين وللتحذير من تقليد غير الصالحين ، دون قصد للتشهير والتعبير الذي يظهر أثره على ذويهم من الأحياء فلا مانع منها أبداً ، بدليل أن الله سبحانه قص علينا في القرآن الكريم أخبار المكذبين كما قص أخبار الرسل والصالحين . وقال في حكمة ذلك ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : ١٢٠] وقال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١] .

قال العلماء : يحرم سب الميت المسلم الذي ليس معلناً بفسقه ، أما الكافر والمعلن بفسقه من المسلمين ففيه خلاف للسلف ، وجاءت فيه نصوص متقابلة . يقول النووي في كتابه (2) : وحاصله أنه ثبت في النهي عن سب الأموات ما ذكرناه من الأحاديث ، وجاء في الترخيص في سب الأشرار أشياء كثيرة ، منها ما قصه الله

١- رواه أحمد والترمذي والطبراني . ٢- الأذكار ص ١٦٨ .

علينا في كتابه العزيز ، وأمرنا بتلاوته وإشاعة قراءته ، ومنها أحاديث كثيرة في الصحيح ، كالحديث الذي ذكر فيه ﷺ «عمرو بن لُحَيٍّ» وقصة أبي رغال الذي كان يسرق الحاج - الحجاج - بمحجنه - عصا معقوفة الرأس - وقصة عبدالله بن جدعان وغيرهم ، ثم قال :

وأصح الأقوال وأظهرها في الجمع بين النصوص أن أموات الكفار يجوز ذكر مساويهم ، وأما أموات المسلمين المعلنين بفسق أو بدعة أو نحوهما فيجوز ذكرهم بذلك إذا كان فيه مصلحة كحاجة إليه للتحذير من حالهم ، والتنفير من قبول ما قالوه ، والاقتداء بهم فيما فعلوه ، وإن لم تكن حاجة لم يجز ، وعلى هذا التفصيل تنزل هذه النصوص .

ومن الجائز تجريح الرواة للحديث أحياء وأمواتاً ، وذلك لإجماع العلماء على جوازه ، وذكر مساوئ الكفار والفساق للتحذير منهم والتنفير عنهم . قال ابن بطال: سب الأموات يجري مجرى الغيبة ، فإن كان أغلب أحوال المرء الخير ، وقد تكون منه الفلتة فالاغتياب له ممنوع ، وإن كان فاسقاً معلناً فلا غيبة له ، وكذلك الميت، ومع ذلك فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه .

والأولى أن ينشغل المرء بعيوب نفسه ، ولا يتورط في سب إنسان قد يكون بريئاً عند الله ، إلا إذا دعت إلى ذلك حاجة أو ضرورة ، وهي تقدر بقدرها ، والأعمال بالنيات ، ولنقبل على عمل الخير حتى يكون لنا ذكر حسن على ألسن الناس بعد أن نفارقهم فيدعوا لنا بخير.



س : نرى كثيراً من زوار القبور يضعون عليها الزهور والجريد ، فهل هذا مشروع ؟

ج : روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر على قبرين فقال: «إنهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير ، أما هذا فكان لا يستنزه من البول ، وأما

هذا فكان يمشي بين الناس بالنميمة» ثم دعا بعسيب [1] رطب فشقه باثنين ، ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً وقال : «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا» .

وفي حديث مسلم عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمره أن يقطع غصنين من شجرتين كان النبي ﷺ يستتر بهما عند قضاء حاجته ، ثم أمره أن يلقي الغصنين عن يمينه وعن يساره حيث كان النبي ﷺ جالساً ولما سأله عن ذلك قال : «إني مررت بقبرين يعذبان فأحببت بشفاعتي أن يرفعه عنهما ما دام الغصنان رطبين»[2].

وهناك قصة ثالثة رواها ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ مر بقبر فوقف عليه فقال : (ايتوني بجريدتين) فجعل إحداهما عند رأسه ، والأخرى عند رجليه.

وأكثر من قصة وردت في وضع الجريد على القبر ، والعلماء في مشروعيته فريقان، فريق يقول : إنه خاص بالنبي ﷺ وليس مشروعاً لغيره ، وفريق يقول : إنه عام لكل المسلمين .

فالخطابي في شرح سنن أبي داود [3] ، يستنكر وضع الجريد على القبر لغير النبي ﷺ ، والطرطوشي يعلل ذلك بأنه خاص ببركة يده عليه الصلاة والسلام ، ويد غيره لايجزم ببركتها ، وابن رشيد يستنتج أن البخاري مع هذا الفريق ، وذلك حيث عقب الحديث بقول ابن عمر : إنما يظله عمله . وذلك في فسطاط [4] وضع على قبر عبدالرحمن بن أبي بكر ، حيث قال : انزعه يا غلام فإنما يظله عمله ، والقاضي عياض ينضم إلى هذا الفريق ويقول : إن غرزهما على القبر سببه أمر مغيب . وهو قوله «ليعذبان» ، وليس هنالك من الناس من يعلم الغيب ، كما أن بعض العلماء من هذا الفريق قال : لم يثبت أن أحداً من الصحابة فعل ذلك إلا بريدة بن الخصيب الأسلمي ، ولو كان جائزاً ماتركوه وتفرد به واحد منهم .

١- العسيب : الجريدة التي لم ينبت فيها خوص ، فإن نبت فهي السعفة .
٢- شرح النووي ، ج١٨ ، ص ١٤٤ .
٣- ج١ ص٤٢ .
٤- بيت من الشعر أو غيره .

والفريق المجيز لوضع الجريد على القبر لعامة المسلمين قال : لم يرد ما يدل على خصوصية النبي ﷺ بذلك ، فيبقى فعله عامًّا له ولأمته على التأسي به فيما لا يخص به ، كما أنه لم يرد ما يدل على أن الصحابة اعترضوا على ابن الخصيب الذي أوصى أن يوضع على قبره جريدتان ، بل روى الأكثرون أنه أوصى أن يوضع في قبره لا على قبره ، وقد فعل هو ذلك تأسياً بالنبي ﷺ . وعدم نقل أن الصحابة وضعوا الجريد على القبور ، لعله لعدم علمهم بأن صاحب القبر يعذب ، أو رجاء صلاحه واستغنائه عن ذلك.

وابن حجر رد على تعليل القاضي عياض غرز الجريد بأن العذاب مغيب لايعلمه إلا النبي ﷺ ، فقال لا يلزم من كوننا لا نعلم : أيعذب أم لا ، إلا نتسبب له في أمر يخفف عنه العذاب أن لو عذب ، كما لايمنع كوننا لاندري : أَرُحِمَ أم لا ، ألا ندعو له بالرحمة ، وليس في السياق ما يقطع على أنه -النبي- باشر الوضع بيده الكريمة ، بل يحتمل أن يكون أمر به ، وقد تأسى بريدة بذلك وهو أولى أن يتبع من غيره [1].

والحكمة في تخفيف العذاب ما دامت الرطوبة في الغصن قيل : إنها غير معلومة كالحكمة في كون عدد الزبانية تسعة عشر ، وقيل : إن الغصن يسبح ما دام رطباً فيحصل التخفيف ببركة التسبيح ، وعلى هذا فهو مطرد في كل ما فيه رطوبة من الأشجار وغيرها ، وقال الخطابي : انتفاع الميت بالجريدة محمول على أن النبي ﷺ دعا لصاحبي القبرين بالتخفيف مدة بقاء النداوة ، لا أن في الجريدة معنى يخصه ، ولا أن في الرطب معنى ليس في اليابس.

هذه هي المسألة بين المجيزين والمانعين ، وأرى أنه ليس فيها ما يدل على المنع ، وما دام هناك إيمان بأن النافع والضار هو الله وحده ، وأن ما نقدمه للميت من دعاء وصدقة وغيرهما هو من باب الأسباب التي تستمطر رحمة الله سبحانه ، فلا داعي للإنكار ، والله أعلم.



١- فتح الباري لابن حجر ، ج١ ص ٣٣ ، ج٢ ص٤٦٦ .

س : ما حكم الدين في زيارة النساء للقبور ، وبخاصة عند التزام جميع الآداب وعند إرادة الاتعاظ والخشوع ؟

ج : إن النبي ﷺ نهى أولاً عن زيارة القبور ، قطعاً لما كان عليه أهل الجاهلية من التفاخر بزيارتها لتعداد مآثر من فيها من الآباء والأجداد ، الذي يشير إليه قوله تعالى ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر : ١ ، ٢] ثم رخص لهم بعد في زيارتها لتذكر الموت والاستعداد للحياة الآخرة ، كما بينه الحديث الذي رواه ابن ماجه بسند صحيح «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروا القبور فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة» وغير ذلك من الأحاديث التي رواها مسلم وغيره في هذا المقام.

وأجمع المسلمون على استحباب زيارة القبور ، وأوجبها الظاهرية ، غير أنهم قالوا : إن ذلك خاص للرجال دون النساء ، لكن لما رأى النبي ﷺ ما في خروجهن من مفاسد نهاهن عنها ، واستمر الإذن للرجال ، وقال آخرون : إن النهي عن زيارتهن كان سابقاً للنهي العام عن زيارة القبور . ثم جاء الإذن للرجال ، وبقى المنع مستمراً بالنسبة لهن.

ومهما يكن من شيء فإن في زيارتهن أقوالاً تتلخص فيما يأتي :

١ - **التحريم مطلقاً** : سواء كانت هناك فتنة أو مفسدة عند زيارتهن أم لا ، ودليله حديث «لعن الله زوارات القبور» [١] ، ولكن القرطبي قال يحتمل أن الحرمة منصبة على الكثرة ، أخذاً من التعبير بلفظ «زوارات» وهو صيغة مبالغة.

٢ - **التحريم عند خوف الفتنة أو المفسدة** : وبهذا يحرم على الشابات زيارة القبور وكذلك على غيرهن إذا كن بزينة أو شيء يلفت إليهن الأنظار ، وتجوز للعجائز اللاتي لايفتتن بهن ، إلا إذا صاحبها شيء محرم كالنياحة وغيره مما نهى عنه النبي ﷺ بقوله «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية» [٢] .

---

١ - رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٢ - رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

والنساء لايستطعن التخلص بسهولة من هذه العادات الشنيعة ، ففي حديث أم عطية : أخذ علينا النبي ﷺ عند البيعة ألا ننوح ، فما وفت امرأة منا غير خمس نسوة [1] .. ولما بكى نساء جعفر بن أبي طالب عليه لما استشهد أمر النبيﷺ رجلاً أن ينهاهن فلم يطعن الرجل مرتين . فأمره النبي ﷺ أن يحثو في أفواههن التراب [2].

٣ - **الكراهة** : ودليلها القياس على اتباع الجنائز ، الذي ورد فيه حديث أم عطية أيضاً : نهينا عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا [3].

٤ - **الإباحة** : ودليلها عدم إنكار النبي ﷺ على عائشة عندما ذهبت إلى البقيع -وهو مقبرة المسلمين- وعلمها ما تقوله عند زيارة القبور وهو «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» [4] ، كما أن النبي ﷺ مر على امرأة تبكي عند القبر فأمرها بالتقوى والصبر ، ونهاها عن البكاء لأنه سمع منها ما يكره من نوح وغيره ، ولم ينهها عن أصل الزيارة.

٥ - **الاستحباب** : كما هي مستحبة للرجال ودليلها عموم الإذن بالزيارة في قوله ﷺ «فزوروها».

والآراء الثلاثة الأخيرة محلها عند أمن الفتنة والمفسدة ، وإلا حرمت الزيارة ، وبهذا يعلم جواب السؤال ، وإن كنت أميل إلى كراهة زيارتهن على الرغم من عدم وجود محرم محظور ، كالسفور والنياحة واللطم والجلوس على القبر والمبيت عنده وما إلى ذلك ، فإن الأولى للمرأة أن تستقر في بيتها لاتغادره إلا لضرورة أو حاجة ملحة ، صيانة لها من الفساد .



١- رواه البخاري . ٢- رواه البخاري .
٣- رواه البخاري ومسلم وغيرهما .
٤- رواه مسلم .

س : كثير من المسلمين يحرصون على زيارة المقابر عقب صلاة العيد ، فما مدى مشروعية هذه الزيارة ؟

ج : زيارة المقابر في الأصل سنة لأنها تُذكر الإنسان بالآخرة ، وقد جاء في ذلك حديث النبي ﷺ كما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت» وروى ابن ماجه بإسناد صحيح قوله ﷺ «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروا القبور فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة».

وليس لهذه الزيارة وقت معين وإن كان بعض العلماء يجعل ثوابها أكبر في أيام معينة كيوم الخميس والجمعة لشدة اتصال الأرواح بالموتى ، وإن كان الدليل على ذلك غير قوي ، ومن هنا نعلم أن زيارة الناس للمقابر عقب صلاة العيد إن كانت للموعظة وتذكر من ماتوا وكانوا معهم في الأعياد ينعمون بحياتهم ، وطلب الرحمة لهم بالدعاء فلا بأس بذلك أبداً للرجال ، أما النساء فقد مر حكم زيارتهن للمقابر.

أما إذا كانت الزيارة بعد صلاة العيد لتجديد الأحزان ولتقبل العزاء على القبر أو إقامة سرادق أو تهيئة مكان لذلك فهو مكروه ، لأن التعزية بعد دفن الميت بثلاثة أيام ممنوعة على جهة الحرمة أو الكراهة . ولأنه يوم عيد وفرح وسرور فينبغي عدم إثارة الأحزان فيه .



س : هل يجوز نقل الميت من البلد الذي مات فيه ليدفن في بلد آخر ، وإذا دفن في قبر هل يجوز نقله إلى قبر آخر ؟

ج : أما نقل الميت قبل دفنه ليدفن في بلد آخر فحكمه ما يأتي :

قال الحنفية : يستحب أن يدفن الميت في الجهة التي مات فيها ، ولا بأس بنقله من بلدة إلى أخرى قبل الدفن عند أمن تغير رائحته .

وقال الشافعية : يحرم نقله إلى محل آخر ليدفن فيه ، حتى لو أمن تغيره إلا إذا جرت عادتهم بدفن موتاهم في غير بلدتهم ، ويستثنى من ذلك من مات في جهة قريبة من مكة أو المدينة المنورة أو بيت المقدس ، أو قريباً من مقبرة قوم صالحين فإنه يُسَنُّ نقله إليها إذا لم يخش تغير رائحته ، وإلا حرم ، وهذا كله إذا كان قد تم غسله وتكفينه والصلاة عليه في محل موته ، وأما قبل ذلك فيحرم مطلقاً .

وقال الحنابلة : لا بأس بنقل الميت من الجهة التي مات فيها إلى جهة بعيدة عنها، بشرط أن يكون النقل لغرض صحيح ، كأن ينقل إلى بقعة شريفة ليدفن فيها ، أو ليدفن بجوار رجل صالح ، وبشرط أن يؤمن تغير رائحته.

وقال المالكية : يجوز نقله بشروط ثلاثة : أولها : ألا ينفجر حال نقله ، ثانيها : ألا تنتهك حرمته ، بأن ينقل على وجه يكون فيه تحقير له ، ثالثها : أن يكون نقله لمصلحة ، كأن يخشى من طغيان البحر على قبره ، أو يراد نقله إلى مكان ترجى بركته ، أو إلى مكان قريب من أهله ، أو لأجل زيارة أهله إياه ، فإن فقد شرط من هذه الشروط الثلاثة حرم النقل .

٢ – هذا هو الحكم عند الأئمة الأربعة في نقله قبل دفنه ، أما نقله بعد دفنه فحكمه ما يأتي :

قال الحنفية : يحرم إخراجه ونقله ، إلا إذا كانت الأرض التي دفن فيها مغصوبة ، أو أخذت بعد دفنه بالشفعة ، يعني استحقها شخص آخر مجاور لها .

وقال الشافعية : يحرم نقله إلا لضرورة ، كمن دفن في أرض مغصوبة ، فيجوز نقله إن طالب بها مالكها .

وقال الحنابلة : يجوز النقل بالشروط المذكورة في النقل قبل الدفن ، فإن فقد شرط كان النقل حراماً قبل الدفن وبعده .

وقال المالكية : يجوز نقله بالشروط الثلاثة المذكورة في النقل قبل الدفن ، فإن فقد شرط منها حرم النقل [1] .



---

١ – انظر كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ، نشر وزارة الأوقاف المصرية .

س : ما هي الحياة البرزخية ، ومتى وأين تكون ؟

ج : الحياة البرزخية هي الفترة ما بين موت الميت أو ما بين وضعه في قبره وقيامه منه للبعث يوم القيامة ، نسبة إلى البرزخ وهو الحاجز بين الشيئين ، وقد عقد ابن القيم فصلاً في كتابه (حادي الأرواح) ذكر فيه أقوال العلماء في مستقر الأرواح ، وقال : منها أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى ، وهي أرواح الأنبياء مع تفاوت منازلهم ، ومنها أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، وهي أرواح الشهداء ، ومنها ما يكون محبوساً على باب الجنة ، وما يكون محبوساً في القبر، ومنها غير ذلك .

وذكر أن النفس لها أربع دور ، كل دار أعظم من التي قبلها ، الأولى في بطن الأم ، والثانية دار الدنيا ، والثالثة دار البرزخ ، والرابعة دار القرار وهي الجنة والنار.

ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى كتاب (مشارق الأنوار) [1] فهناك كلام كثير واجتهادات في نصوص بعضها قطعي وبعضها غير قطعي ، والأفضل عدم الخوض في هذه المسائل لتقرير رأي معين يثير نزاعاً لا فائدة فيه .



س : هل صحيح أن الرسول ﷺ كلم بعض الموتى في قبورهم ، وهل يتناقض ذلك مع قوله تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر : ٢٢] .

ج : ثبت أن الرسول ﷺ نادى قتلى المشركين في بدر بعد إلقائهم في القليب -البئر- فقال «هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا ...» قال عمر : يا رسول الله ما تخاطب من أقوام جيّفوا -صاروا جيفا- فقال «والذي بعثني بالحق ما أنتم بأسمع منهم لما أقول ، ولكنهم لايستطيعون جواباً» [2] .

١- العدوي ، ص ٣٩.

٢- رواه البخاري ومسلم .

وجاء أن النبي ﷺ شرع لأمته السلام على أهل القبور «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، والسلف مجمعون على ذلك [1] .

فسماع الموتى لكلام الأحياء ثابت ، وأما قوله تعالى ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الروم : ٥٢] وقوله ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر : ٢٢] فالمنفي هنا هو سماع القبول والإيمان ، حيث شبه الله الكفار الأحياء بالأموات ، لا من حيث انعدام الإدراك والحواس ، بل من حيث عدم قبولهم الهدى والإيمان [2] .



س : أين تذهب أرواح الموتى ، وهل تبقى على قبر صاحبها أربعين يوماً أو عاماً؟

ج : تحدث العدوي في كتابه (مشارق الأنوار) في مساحة أربع صفحات أو خمس من القطع الكبير عن أرواح المؤمنين السعداء من غير الأنبياء والشهداء فقال: هناك اختلاف كبير في مقرها ، فقيل : إنها على أفنية القبور في بعض الأحيان ، وفي غير ذلك تسرح حيث شاءت ، وأورد أحاديث ليست قطعية الثبوت ، وبناء عليها قال ابن القيم : التحقيق أن الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت ، وعلى كل تقدير فللروح بالبدن اتصال ، بحيث يصح أن تخاطب ويسلم عليها ، ويعرض عليها مقعدها ... إلى أن قال : لامنافاة بين كون الروح في عليين أو الجنة أو السماء وأن لها اتصالاً بالبدن بحيث تدرك وتسمع وتصلي وتقرأ ، وإنما يستغرب هذا لقياس الغائب على الشاهد ، والأمر مختلف فأمور البرزخ على نمط غير المألوف في الدنيا.

وانتهى ابن القيم إلى قوله : والحاصل أنه ليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد ، وكلها على اختلاف محالها وتباين مقارها لها اتصال بأجسادها في قبورها .

١- رواه النسائي وابن ماجه .
٢- انظر الجزء الثاني ص ١٠٧ ، ١٠٨ من بيان للناس من الأزهر الشريف .

وقال ابن حجر : أرواح المؤمنين في عليين ، وأرواح الكفار في سجين ، ولكل روح بجسدها اتصال معنوي لا يشبه الاتصال في الحياة الدنيا ، بل أشبه شيء به حال النائم وإن كان هو أشد اتصالاً من حال النائم .

واقرأ في هذا الكتاب [1] وصف الصور الذي سينفخ فيه إسرافيل ، أن فيه أربع شعب ، للمشرق والمغرب والأرض والسماء ، وفي كل منها ثقوب ، بعضها لأرواح الأنبياء ، وبعضها لأرواح الملائكة، وبعضها لأرواح الجن ، وبعضها لأرواح الإنس وبعضها لأرواح البهائم ، وهكذا إلى سبعين صنفاً ، وكل ذلك ليس عليه دليل صحيح تبنى عليه العقائد ، فالأولى عدم الخوض فيه . وقد ذكرته لعرض بعض التصورات القديمة عن عالم الغيب ، الذي يجب الاحتياط والدقة في الحديث عنه .



س : هل يأتي عمل الرجل الصالح في قبره على هيئة رجل أبيض جميل الثياب ، أما غيره فيأتيه على هيئة رجل أسود رديء الثياب ؟

ج : جاء في (الترغيب والترهيب) للحافظ المنذري [2] ما يلي : روى أحمد بإسناد رواته محتج بهم في الصحيح حديث قبض الروح وسؤال الملكين ، وجاء فيه أن العبد المؤمن يأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول له : أبشر بالذي يسرك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول : من أنت فوجهك الوجه الحسن يجيء بالخير ؟ فيقول أنا عملك الصالح .

وجاء فيه عن الكافر : «ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول : من أنت فوجهك الوجه القبيح يجيء بالشر ؟ قال أنا عملك الخبيث».

---

١ - ص٤٦ .
٢ - ج٤ ص ١٢٤ .

ومما يدل على أن العمل هو الذي يصاحب الميت في قبره ، بصرف النظر عن كون الله يجعله في صورة رجل أو لا ، قول النبي ﷺ في الميت حين يشيع إلى قبره ، إن المشيعين يتركونه في القبر ، ويعودون إلى بيوتهم ، ولايصاحبه في قبره إلا عمله -فقد روى البخاري ومسلم أنه قال « يتبع الميت ثلاث : أهله وماله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ، ويبقى عمله» وفسر المال في الحديث بالعبيد المملوكين له .



س : هل من الحديث ما يقال : إذا مات ابن آدم قامت قيامته ، وما الفرق بين حساب القبر وحساب يوم القيامة ؟

ج : هذا كلام مأثور ، ونسبته إلى النبي ﷺ ضعيفة [1] . والمعنى أن الحياة الشخصية للإنسان قد انتهت بموته كما تنتهي الحياة كلها بقيام الساعة ، حين ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله . وعودة الروح إليه وهو في القبر تشبه عودتها إليه حين يبعث من القبر إلى الحشر يوم القيامة ، وإن كانت العودة في كلتا الحالتين على نحو يعلمه الله سبحانه .

وما في القبر من نعيم وعذاب هو صورة لما يكون يوم القيامة من نعيم في الجنة وعذاب في النار ، وقد رود في البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال «إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده .. ويقال : هذا مقعدك حتى تبعث إليه يوم القيامة» وفي الترمذي «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار».

وحساب القبر يكون عن العقائد ، وذلك باتفاق ، وإن اختلفوا هل هو في كل العقائد أو بعضها ، أما حساب يوم القيامة فهو لكل شيء قال تعالى ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .



١- العراقي على الإحياء ج٤ ص٤٢١ .

س : هل صحيح أن سؤال القبر سيكون باللغة السريانية ؟

ج : سؤال الإنسان على ما قدم من عمل أمر مقطوع به في القرآن والسنة ، ويكفي قول الله تعالى ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف:٦] أما اللغة التي يسأل بها الإنسان فعلمها عند الله .

ومن المؤكد الذي تقره العقول أن المسئول سيفهم ما يوجه إليه من أسئلة حتى يستطيع الرد عليها ، أما كيف يفهم فلا يوجد نص يحدده ، والله سبحانه يقول في المحاورة بين الإنسان وأعضائه التي تشهد عليه ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت : ٢١] ويقول ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور : ٢٤] .

فمن الجائز -وهو الأقرب للمعقول مع أن قوانين الآخرة غير قوانين الدنيا - أن يكون السؤال لكل إنسان بلغته ، ومن الجائز أن يكون بلغة موحدة يستطيع أن يفهمها كل إنسان . وذلك بقدرة الله الذي أنطق كل شيء كما أنطق الأعضاء الصماء. وهل هي العربية أو السريانية أو غيرهما ؟ ذلك ما لا دليل عليه ، ولا أدري على أي شيء اعتمد البلقيني في فتواه أن سؤال القبر بالسرياني ، فنترك ذلك إلى الله ، ولنستعد للجواب بالعمل الصالح.



س : كيف يحاسب الإنسان في القبر إذا مات غريقاً أو محروقاً ، أو أكلته الحيوانات أو الأسماك المتوحشة ، أو استخدم جسده في منفعة علمية مثل التشريح ؟

ج : اتفق أهل السنة على أن الميت يسأل بعد موته ، سواء دفن أم لم يدفن ، فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً ونسف في الهواء ، أو غرق في البحر فلابد من سؤاله ومجازاته .

قال الحافظ ابن حجر [1] : ذهب ابن حزم وابن هبيرة إلى أن السؤال يقع على الروح فقط من غير عودة إلى الجسد ، وخالفهم الجمهور فقالوا: تعاد الروح إلى الجسد أو بعضه كما ثبت في الحديث ، ولو كان على الروح فقط لم يكن للبدن بذلك اختصاص ، ولايمنع من ذلك كون الميت قد تتفرق أجزاؤه، لأن الله قادر أن يعيد الحياة إلى جزء من الجسد ويقع عليه السؤال ، كما هو قادر على أن يجمع أجزاؤه.

ومعنى كلام ابن حجر أن من أكلته الحيوانات أو الأسماك سيحاسب ويسأل وهو في جوف الحيوانات أو الأسماك ، ومن استخدم جسمه في منفعة علمية فيسأل أيضاً، ولكن متى ؟ قال بعض العلماء : إن كانت هناك نية لدفنه سيؤخر الحساب إلى أن يدفن : وقال بعضهم : يسأل قبل الدفن وبعد الدفن .

لكن أحسن ما قيل في هذا الموضوع ما نقل عن العلامة الأمير: أن هذه مغيبات لا مجال للعقل فيها ، فيترك أمرها إلى الله [2] .

وبعد ، فإني أعرض أحياناً بعض الأقوال الاجتهادية في أمور غيبية لأبين ما شغل به العلماء من تفكير لا أدري هل خلا لهم الجو من كل العقد فصرفوا وقتهم في هذا الترف الذهني ، ومع كل هذا فنشكرهم لإثرائهم الحياة الفكرية بكل ما يمكن من معلومات أو معارف أو تصورات.



س : من هو الذي عاش ومات ويبعث وحده ؟

ج : هو أبو ذر الغفاري . قال الرسول ﷺ في شأنه لما لحقه في غزوة تبوك «يرحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويحشر وحده» [3].



١- فتح الباري ج٣ ص ٢٧٧ .
٢- ذكره العدوي في كتابه (مشارق الأنوار) ص ٢٧ .
٣- ذكره ابن الأثير في كتابه «أسد الغابة» نقلاً عن سيرة ابن هشام .

س : ما الحكمة من ضمة القبر ، وهل ينجو منها أحد ، وهل هناك عمل ينجي منها؟

ج : جاء في (مشارق الأنوار) للعدوي [1] ، أن النبي ﷺ قال -كما رواه النسائي- في سعد بن معاذ بن جبل «لقد تحرك له العرش ، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة ، ولقد ضم ثم فرِّج عنه» وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها أنه قال «للقبر ضغطة لو نجا أحد منها لنجا منها سعد بن معاذ» وقوله «لو نجا منها أحد» لايتناقض مع قوله «ما عفى لأحد عن ضغطة القبر إلا فاطمة بنت أسد» وهي زوجة عمه أبي طالب : قيل يا رسول الله ولا ابنك القاسم؟ قال «ولا إبراهيم الذي هو أصغرهما» لأن نجاة فاطمة بنت أسد بسبب أن الرسول ﷺ نزل في قبرها ونزع قميصه وتمعَّك في لحدها ، ولما سئل عن ذلك قال «أردت ألا تمسها النار أبداً إن شاء الله وأن يوسع عليها قبرها» قال الحكيم الترمذي: سبب هذه الضمة أنه ما من أحد إلا وقد ألمَّ بخطيئة ما وإن كان صالحاً ، فجعلت هذه الضغطة جزاء له ، ثم تدركه الرحمة ، ولهذا كانت ضغطة سعد للتقصير في البول فأما الأنبياء فلا ضم ولا سؤال لعصمتهم.

هذا ما قاله الزرقاني في شرح المواهب ، وناقشه العدوي بأن ضغطة القبر لا تكون بسبب الخطيئة ، فما هي خطيئة إبراهيم ابن الرسول وقد مات صغيراً ولم يكلف ؟ ولا يظن بسعد أنه قصر في البول تقصيراً يؤدي إلى فساد عبادته أو مكروه ، ويؤيد هذا أن ضمها للمؤمن الكامل ضمة شفقة ورأفة فالذين لاتشملهم ضغطة القبر مستثنون لخصوصية فيهم .

قال الشعراني في مختصر التذكرة : لا ينجو من ضمة القبر أحد إلا أربعة ، فاطمة بنت محمد ، وفاطمة بنت أسد ، والأنبياء ، ومن قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في مرضه ولو مرة واحدة.

وروي مرفوعاً ، «إن العبد إذا وضع في قبره فقال أهله : واسيداه واأميراه ، واشريفاه ، قال له الملك : اسمع ما يقولون . أكنت سيداً ؟ أكنت أميراً ؟ أكنت

١- ص ٣٠ .

شريفاً ؟ فيقول الميت : ليتهم سكتوا عني ، قال : فيضغطه القبر ضغطة تختلف فيها أضلاعه ... »

فالخلاصة : أن ضغطة القبر عامة ، ولاينجو منها إلا من لهم خصوصيات ، وهي لاتستدعي ذنباً وقع ، وهي تكون شفقة ورأفة على المؤمن الكامل ، والذي يجعلها خفيفة هو العمل الصالح بوجه عام ، ومنه قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ كما تقدم ، وهذه كلها من الغيب الذي يحتاج في اعتقاده إلى دليل قوي [1].



س : هل هناك أشياء تنجي من عذاب القبر ؟

ج : ليس هناك صفات معينة للنجاة من عذاب القبر ، فهي كلها تلتقي عند التقوى القائمة على امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، وقد وعد الله المتقين بالثواب والعاصين بالعقاب ، والنصوص في ذلك كثيرة ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء : ١٤٧] .

والذي ينفعه كثرة الصالحات ، وما يفعله الأحياء للموتى ، من مثل الجريدتين اللتين أمر الرسول ﷺ بوضعها على قبر من يعذبان ، لأن أحدهما كان يمشي بالنميمة والآخر لايستبرئ من بوله ، وكذلك ما يوهب للميت من دعاء وصدقة وصلاة وقراءة قرآن وغير ذلك .



س : هل صحيح ما يقال : إن من خصائص الأمة المحمدية أن عذابها في القبر يغني عن عذاب النار يوم القيامة ؟

ج : من المعلوم أن عذاب الله للكافرين والعاصين يمكن أن يكون في حياتهم قبل موتهم ، بمثل المرض والفقر والهلاك ، كما حدث للكافرين من الأمم السابقة وأخبر

---

١ - الزرقاني ج ٢ ص١٤٢ .

عنهم القرآن في مثل قوله تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٠] وقوله : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] .

كما يمكن أن يؤخر العذاب في الدنيا إلى الآخرة ، وأول مراحلها القبر والبرزخ الذي يقوم الموتى منه إلى الحشر والحساب ، والأدلة على البعث والحساب يوم القيامة صريحة واضحة في الكتاب والسنة ، بل في الكتب السماوية الأخرى ، من أنكر ذلك كان كافراً ، أما الجزاء في القبر فقد وردت به الأدلة في القرآن والسنة ، وتناوله العلماء بالحديث منذ مئات السنين . وأهل السنة مجمعون عليه ، والإجماع حجة عند أكثر الأصوليين ، وأنكره جماعة من المعتزلة . وقد ذكرت الخلاف في الحكم على من أنكر نعيم القبر وعذابه، هل هو كافر أو غير كافر . بعد هذه المقدمة ومن منطلق قول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] قال بعض العلماء: إن مما اختص الله به هذه الأمة أن عذاب من لم تشأ مغفرة الله له ذنوبه -يكون في القبر ، ويحشرون يوم القيامة مغفوراً لهم . جاء في شرح الزرقاني للمواهب اللدنية للقسطلاني[1] أن من خصائص هذه الأمة أنهم يدخلون قبورهم بذنوبهم التي لم يتوبوا منها ، ويخرجون منها بلا ذنوب ، لأنها تمحص عليهم باستغفار المؤمنين لهم . قال الحكيم الترمذي : إنما حوسب المؤمن في قبره ليكون أهون عليه في الموقف ، فتحمَّص ذنوبه في البرزخ فيخرج منه وقد اقتص منه ، وأيضاً لسترهم في المحشر ، حيث لم يكن عليهم ما يفتضحون به على رءوس الأشهاد ، رواه الطبراني في (الأوسط) من حديث أنس ، ولفظه : قال رسول الله ﷺ «أمتي أمة مرحومة ، تدخل قبورها بذنوبها وتخرج من قبورها لا ذنوب عليها ، تمحَّص عنها باستغفار المؤمنين لها» يقول الزرقاني : فتزول جميعها حقيقة أو حكماً بزوال معظمها ، للأدلة القطعية أنه لابد من دخول طائفة من

١- ج٥ ص٤١١ .

عصاة هذه الأمة النار ، لكنه لمَّا قلَّ بالنسبة لما ذهب نزل منزلة العدم ، حتى كأنها غفرت جميعها وروى أبوداود وغيره «أمتي هذه أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة» إنما عذابها في الدنيا في الفتن والزلازل والقتل والبلايا ، ونَفْيُ عذابها في الآخرة بمعنى أن من عذب منهم لايحس بألم النار إلا قليلاً كما ورد مرفوعاً «إذا أدخل الله الموحدين النار أماتهم فيها إماتة ، فإذا أراد أن يخرجهم منها أمسَّهم ألم العذاب تلك الساعة» (١)، ولخفة ألمها قال ﷺ «إنما حرَّ جنهم على أمتي كحر الحَمَّام» (٢) ، ولاتناقض بين الخبرين ، لأنها تكون عليهم عند إحيائهم والأمر بإخراجهم كحر الحَمَّام اللطيف الذي لايؤذي الجسم ولا يوهنه، وروى الدارقطني عن ابن عباس رَفَعه «إن حظ أمتي من النار طول بلائها تحت التراب» وزَعْمُ أن المراد لاعذاب عليها في عموم الأعضاء ، لأن أعضاء الوجود لاتمسها النار - تكلُّف مستغنى عنه . انتهى ما ذكره الزرقاني.

وأرى أن الأحاديث الواردة في ذلك ليست قطعية ، ولاتؤخذ منها عقائد ، كما هو الشأن في أمور الآخرة ، وغاية ما فيها أن هناك أملاً أن يخفف الله عذاب العاصين من هذه الأمة ، ولا ينبغي أن نركن إلى ذلك ونتمادى في العصيان ، فإن مغفرة الله لغير المشرك هي لمن شاء المغفرة له ، ولايدري أحد هل يكون من أولئك أو ممن لاتشملهم المغفرة . فعلينا العمل مع الأمل ، بعيداً عن التواكل والإهمال ، يقول الله تعالى : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ [النساء : ١٢٣ ، ١٢٤] . وفي هذا المقام يقول الحسن البصري : ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل ، وإن قوماً خرجوا من الدنيا ولاعمل لهم وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، ولو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل.

هذا في عقوبة القبر ، لكن هل تغني العقوبة في الدنيا عن العقوبة في الآخرة ؟ جاء في (إحياء علوم الدين للإمام الغزالي) (٣) «أن العبد إذا أذنب ذنباً فأصابه شدة

١- رواه الديلمي . ٢- رواه الطبراني برجال ثقات .
٣- ج٤ ص ١١٢ .

وبلاء في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً» رواه الترمذي وابن ماجه «من أصاب في الدنيا ذنباً عوقب به فالله أعدل من أن يثنِّى عقوبته على عبده» الحديث لفظ ابن ماجه وقال الترمذي «من أصاب حدًّا فعجَّل عقوبته في الدنيا ...» وقال : حسن . وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت «من أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له ...» [1] .



س : ينكر بعض الناس أن هناك نعيماً وعذاباً في القبر ، فما هو رأي الدين في ذلك ؟

ج : الكلام هنا في ثلاث نقط ، الأولى في ثبوته ، الثانية في دوامه ، الثالثة في كونه للروح والجسد أو للروح فقط .

النقطة الأولى :

نعيم القبر وعذابه ثابتان بأدلة كثيرة منها :

١- روى البخاري ومسلم وأصحاب السنن أن النبي ﷺ قال «المسلم إذا سئل في قبره فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» فذلك قول الله ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾[إبراهيم : ٢٧] .
وفي لفظ : نزلت في عذاب القبر ، يقال له : مَنْ ربك ؟ فيقول : الله ربي ومحمد نبيي، فذلك قول الله ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ .

٢ - روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ -لمحمد- فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبدالله ورسوله، فيقولان : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً ، وأما الكافر والمنافق فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟

---

١ - الزرقاني على المواهب ، ج٥ ص ٤٠١ .

فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس ، فيقولان : لا دريت ولا تليت ، ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة فيسمعها من يليه غير الثقلين»

وقوله : لا دريت ولا تليت ـ دعاء عليه بألا يكون دارياً ولا تالياً ، أو إخبارا بحاله فإنه لم يكن قد علم بنفسه ولا سأل غيره من العلماء.

٣ - روى مسلم أن النبي ﷺ مر بقبور ثم قال «إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ، فلولا ألا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه» ثم قال «تعوذوا بالله من عذاب القبر» .

٤ - روى البخاري أن النبي ﷺ رأى في المنام أن ملكين أخذا بيده ، ومرا به على أناس يعذبون في قبورهم بصور مختلفة لارتكابهم الكبائر ، وجاء فيه أن العذاب الذي ينزل بهم يستمر إلى يوم القيامة ، يقول ابن القيم : وهذا نص في عذاب البرزخ، فإن رؤيا الأنبياء وحي مطابق لما في نفس الأمر .

٥ - وروى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال في سعد بن معاذ «هذا الذي تحرك له العرش وفتحت له أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة ، لقد ضُمَّ -هي ضمة القبر - ثم فرج عنه».

٦ - روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ مَرَّ بقبرين فقال «إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير ، بلى إنه كبير ، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله».

٧ - يقول الله تعالى ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٦] فالعرض يكون في القبر قبل يوم القيامة.

هذه بعض الأدلة القوية على ثبوت النعيم والعذاب في القبر ، فذلك ثابت بالسنة وظاهر الآية ، وأهل السنة مجمعون عليه ، والإجماع حجة عند أكثر الأصوليين ، وأنكره جماعة من المعتزلة ، ومهما يكن من شيء فإن العقائد لاتثبت إلا بالنص القطعي في ثبوته ودلالته ، والحديث الصحيح الذي دل على نعيم القبر وعذابه اعتبره بعض العلماء من قطعي الثبوت الذي يفيد العلم اليقيني ، واعتبره

آخرون ظني الثبوت الذي لايفيد العلم اليقيني ، ومن هنا كان الخلاف في الحكم على من أنكر نعيم القبر وعذابه ، هل هو كافر أو غير كافر.

النقطة الثانية :

جاء في كتاب (مشارق الأنوار) للعدوي [1] :

بعد أن ساق عدة نصوص لا ترقى إلى درجة تؤخذ منها عقيدة قوله فتحصَّل مما سبق أن النعيم لايكون إلا دائماً ، وأما التعذيب فإما أن يكون دائماً أيضاً وهو عذاب الكفار وبعض العصاة ، ومنقطعاً وهو لبعض العصاة ، ولذلك قال العلامة الدردير في «خريدته»: العذاب قسمان إما دائم وهو للكفار وبعض العصاة ، أو منقطع وهو لبعض العصاة ممن خفت جرائمه ، وانقطاعه إما بسبب كصدقة أو دعاء ، أو بلا سبب أي بمجرد العفو .

ثم قال [2] : ويرتفع العذاب عن سائر الخلق ليلة الجمعة ولو كفاراً ثم يعود على الصحيح ، قال العلامة النفراوي : وقيل إنه بعد ارتفاعه عن المؤمن ليلة الجمعة لايعود أبداً ، قال : وحينئذ من مات قبل يوم الجمعة بيوم لا يكون عذابه إلا يوماً ، وبه قال بعضهم ، انتهى ما قال العدوي . وهو مردود بما أفاده الإمام السيوطي حيث قال في «شفاء الصدور» إن عدم العود لا دليل عليه ، فلم يرد في هذا حديث صحيح ولا حسن.

ثم قال : وما قاله الإمام السيوطي فهو في غاية الظهور ، لما تقدم لك من حديث البخاري ومسلم السابق في الجريدتين بقوله «لعل الله يخفف عنهما ما لم ييبسا» وفي رواية لأبي داود «يهون عليهما ما دام من بلواتهما شيء» فهذا القيد منه ﷺ ظاهر فيما قاله السيوطي ولايلتفت لغيره ، لاسيما في مجالس الفجرة المتجاهرين بالفسق .

النقطة الثالثة :

قال ابن القيم : مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب ، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه ، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة ، وأنها

١- ص ٣٦ .　　٢- ص ٣٧ .

تتصل بالبدن أحياناً ، ويحصل لها معه النعيم أو العذاب ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد ، وقاموا من قبورهم لرب العالمين. ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى.

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : وذهب أحمد بن حزم وابن هبيرة إلى أن السؤال يقع على الروح فقط من غير عود إلى الجسد ، وخالفهم الجمهور فقالوا : تعاد الروح إلى الجسد أو بعضه كما ثبت في الحديث ، ولو كان على الروح فقط لم يكن للبدن بذلك اختصاص ، ولايمنع من ذلك كون الميت قد تتفرق أجزاؤه ، لأن الله قادر أن يعيد الحياة إلى جزء من الجسد ويقع عليه السؤال ، كما هو قادر على أن يجمع أجزاءه.

والحامل للقائلين بأن السؤال يقع على الروح فقط أن الميت قد يشاهد في قبره حال المسألة لا أثر فيه ، من إقعاد ولا غيره ولاضيق في قبره ولا سعة ، وكذلك غير المقبور كالمصلوب . وجوابهم أن ذلك غير ممتنع في القدرة ، بل له نظير في العادة وهو النائم ، فإنه يجد لذة وألماً لايدركه جليسه ، بل اليقظان قد يدرك ألماً ولذة لما يسمعه أو يفكر فيه ولايدرك ذلك جليسه . وإنما أتى الغلط من قياس الغائب على الشاهد ، وأحوال ما بعد الموت على ما قبله ، والظاهر أن الله تعالى صرف أبصار العباد وأسماعهم عن مشاهدة ذلك وستره عليهم ، إبقاء عليهم لئلا يتدافنوا ، وليست للجوارح الدنيوية قدرة على إدراك أمور الملكوت إلا من شاء الله ، وقد ثبتت الأحاديث بما ذهب إليه الجمهور ، كقوله «إنه ليسمع خفق نعالهم» وقوله «تختلف أضلاعه» لضمة القبر ، وقوله «يسمع صوته إذا ضربه بالمطراق» وقوله «يضرب بين أذنيه» وقوله «فيقعدانه» وكل ذلك من صفات الأجساد .

وقال الدردير في كتابه «الخريدة» : والتعذيب للروح مع البدن ولو لم يقبر ، فالتعبير بالقبر جرى على الغالب ، إذ لا مانع من أن يخلق الله تعالى في جميع الأجزاء أو بعضها نوعاً من الحياة قدر ما يدرك ألم العذاب ولذة النعيم ، وهذا لايستلزم أن يتحرك ويضطرب أو يرى أثر العذاب عليه ، حتى إن من أكلته السباع أو صلب في الهواء يعذب وإن لم نطلع على ذلك.

ثم قال : ومن عذاب القبر ضغطته ، وهي التقاء حافتيه حتى تختلف أضلاع الميت، وتختلف باختلاف العمل ، حتى إن الصالح تضمه ضمة الأم الشفوقة على ولدها . انتهى.



س : هناك كلام كثير حول العلاقة بين الأحياء والأموات ، من حيث الإحساس بهم واطلاعهم على أحوالهم ووصول الثواب لهم نريد توضيحاً لهذه العلاقة على ضوء القرآن والسنة ؟

ج : هناك مسائل كثر الكلام فيها بما يتصل بالعلاقة بين الأحياء والأموات نذكر أهمها فيما يلي :

١ - عرض الأعمال على الرسول والأموات :

روى البزار بسند رجاله رجال الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ : «حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، فإذا أنا مت كانت وفاتي خيراً لكم ، تعرض عليَّ أعمالكم ، فإن رأيت خيراً حمدت الله ، وإن رأيت شرًّا استغفرت لكم».

وأخرج أحمد والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» وابن منده حديث «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشايركم من الأموات ، فإن رأوا خيراً استبشروا به ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم لاتمتهم حتى تهديهم كما هديتنا» . وأخرج مثله الطيالسي في مسنده . وجاء عن الحكيم الترمذي في نوادره «إن الأعمال تعرض على الله يومي الإثنين والخميس ، وعلى الأنبياء والأولياء يوم الجمعة ، فيفرحون بحسناتهم» وروى البيهقي في «شعب الإيمان» حديث «اتقوا الله في إخوانكم من أهل القبور ، فإن أعمالكم تعرض عليهم» وأورد ابن القيم في كتابه «الروح» أثراً يدل على علم الميت بما يحصل من الحي.

وكل ذلك لايثبت عقيدة ، فمن لم يصدق فلا يكفر ، كما أنه لايوجد دليل قوي يمنع تصديق هذه الأخبار.

٢ – سماع الموتى للأحياء :

إن سماع الأنبياء والشهداء لمن يسلِّم عليهم في قبورهم أمر يسهل التصديق به ما دامت الحياة قد ثبتت لهم ، وبخاصة أن هذا السماع ممكن لغيرهم ، بل دل الدليل عليه ، ويستوي في ذلك المؤمنون وغير المؤمنين ، لما يأتي :

١- جاء في الصحيح أن الميت إذا دفن وتولى عنه أصحابه وهو يسمع قرع نعالهم يجيئه الملكان ليسألاه ..

٢- وجاء في الصحيح أيضاً نداء النبي ﷺ لقتلى المشركين في بدر بعد إلقائهم في القليب ، وقوله لهم : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا .. فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله ما تخاطب من أقوام قد جيفوا ؟ فقال «والذي بعثني بالحق ما أنتم بأسمع منهم لما أقول ، ولكنهم لايستطيعون جواباً».

٣- وفي الصحيح أيضاً «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه» قال النووي في شرح صحيح مسلم : معناه أنه يعذب بسماعه بكاء أهله ويرق لهم . وإلى هذا ذهب الطبري ، قال القاضي عياض : وهو أولى الأقوال ، واحتجوا بأن النبي ﷺ زجر امرأة عن البكاء على ابنها وقال : «إن أحدكم إذا بكى استعبر له صويحبه ، فيا عباد الله لاتعذبوا إخوانكم».

٤- شرع النبي ﷺ لأمته السلام على أهل القبور بمثل «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد ، والسلف مجمعون على ذلك.

٥- حديث «إذا مر الرجل بقبر يعرفه فسلَّم عليه رد عليه السلام وعرفه ، وإذا مر بقبر لايعرفه فسلم عليه رد عليه السلام» . ويأتي حكمه في المسألة التالية :

بهذا وبغيره من الآثار الكثيرة التي ذكرها ابن القيم في كتاب الروح يكون سماع الأموات للأحياء ممكناً ، وقد أنكرت السيدة عائشة رضي الله عنها سماع أهل القليب لنداء النبي ﷺ ، وظن جماعة أن ذلك ينسحب على كل الموتى من الكفار

وغيرهم ، ورد هذا بأن إنكارها لسماع الكفار هو الإنكار الوارد في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الروم : ٥٢] وقوله : ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر : ٢٢] . فالمراد به سماع القبول والإيمان ، حيث شبه الله الكفار الأحياء بالأموات ، لا من حيث انعدام الإدراك والحواس ، بل من حيث عدم قبولهم الهدى والإيمان . لأن الميت حين يبلغ حد الغرغرة لاينفعه الإيمان لو آمن ، فالسماع الثابت في الأحاديث الصحيحة سماع الحاسة ، والسماع المنفي في الآيتين سماع القبول ، ولذلك جاء بعد قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ قوله تعالى ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ فأثبت للمؤمنين سماع القبول.

ومما يؤكد أن عائشة رضي الله عنها نفت سماع القبول عن الكفار لاسماع الحس أنها هي التي روت حديث النبي ﷺ «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد السلام عليه حتى يقوم» وقيل إنها نفت سماع الكفار لنداء النبي ﷺ وأثبتت علمهم به فقالت : إن رسول الله ﷺ قال : إنهم الآن ليعلمون أن ما قلت حق، والعلم يستلزم السماع ولا ينافيه . لكن قد يرد بأن علمهم بما قال الرسول لايستلزم سماعهم له ، لأنهم علموا ذلك بمعاينة العقاب المعد لهم.

ولا يرد على سماع الميت ما قاله الأحناف من أن الميت لايسمع : لو حلف الإنسان لايكلم شخصاً فمات هذا الشخص وكلمه ميتاً لايحنث ، لايرد هذا لأن الأيمان مبنية على العرف ، فلا يلزم منه نفي حقيقة السماع ، كما قالوا فيمن حلف لايأكل اللحم فأكل السمك لايحنث ، مع أن الله سماه لحماً طريًّا في قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ [النحل : ١٤] . وذلك جرياً على العرف.

وقد يقال : إن سماع الموتى للأحياء من خصوصيات النبي ﷺ ، لكن يرد هذا بعدم وجود الدليل على الاختصاص .

وقال ابن تيمية في كتاب «الانتصار للإمام أحمد» : إنكار عائشة سماع أهل القليب معذورة فيه لعدم بلوغها النص ، وغيرها لايكون معذوراً مثلها ، لأن هذه المسألة صارت معلومة من الدين بالضرورة.

٣ - إحساس الميت بالزائر وعلمه بمن يموت :

قال ابن تيمية في الفتاوى : مسألة في الأحياء إذا زاروا الأموات هل يعلم الأموات بزيارتهم ، وهل يعلمون بالميت إذا مات من أقاربهم أو غيره أم لا ؟ الجواب ، نعم ، قد جاءت الآثار بتلاقيهم وتساؤلهم وعرض أعمال الأحياء على الأموات ، كما روى ابن المبارك عن أبي أيوب الأنصاري قال : إذا قبضت نفس المؤمن تلقاها أهل الرحمة من عباد الله كما يتلقون البشير في الدنيا ، فيقبلون عليه ويسألونه فيقول بعضهم لبعض: انظروا أخاكم يستريح فإنه كان في كرب شديد ، قال فيقبلون عليه ويسألونه ما فعل فلان ، ما فعلت فلانة ، هل تزوجت .. الحديث.

وأما علم الميت بالحي إذا زاره ففي حديث ابن عباس رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ «ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام» [١] .

وقال ابن تيمية أيضاً في موضع آخر من فتاويه : إن الميت يسمع خفق نعال المشيعين حين يولون عنه كما ثبت في الصحيحين ، وبعد سياق عدة أحاديث قال: تبين من هذه النصوص أن الميت يسمع في الجملة كلام الحي ، ولايجب أن يكون السمع له دائماً ، وذكر أن روحه تعاد إلى بدنه في ذلك الوقت ، وتعاد في غير ذلك أيضاً، وجاء في عدة آثار أن الأرواح تكون في أفنية القبور ا هـ .

ورويت أخبار تدل على أن روح الميت تكون في يد الملك ينظر إلى جسده كيف يغسل ، وكيف يكفن ، و كيف يشيَّع ، ويقال له على سريره : اسمع ثناء الناس عليك.

وأخرج أحمد والحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أدخل البيت فأضع ثوبي وأقول : إنما هو أبي وزوجي ، فلما دفن عمر ما دخلته إلا وأنا مشدودة عليَّ ثيابي حياء من عمر . وجاء في صحيح مسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال في مرض موته : إذا دفنتموني فشنوا على التراب شنًّا ، وأقيموا عند قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها ، آنس بكم وأنظر ماذا أراجع رسل ربي .

---

١ - قال ابن عبد البر : ثبت ذلك عن النبي ﷺ ، وصححه عبدالحق صاحب الأحكام .

٤ - تزاور الموتى :

في صحيح مسلم «إذا وَلِي أحدكم أخاه فليحسن كفنه» قيل : إن العلة فيه تزاور الموتى وتباهيهم بالأكفان ، كما نص عليه في أحاديث أخرى منها ما أخرجه الترمذي وابن ماجه والبيهقي «إذا ولى أحدكم أخاه فليحسن كفنه فإنهم يتزاورون في قبورهم» وقال ابن تيمية في فتاويه : إنهم يتزاورون ، سواء أكانت المدائن متقاربة في الدنيا أم متباعدة . وقال الفقهاء بتحسين الأكفان لهذه العلة ، وللسيوطي كتاب في ذلك عنوانه «شرح الصدور» وقال ابن القيم في كتاب الروح : إن الحي يرى الميت في منامه فيستخبره ، ويخبره الميت بما لايعلمه الحي فيصادف خبره كما أخبر في الماضي والمستقبل . والأمر مغيب واعتقاده يحتاج إلى دليل قاطع ، ومع ذلك فهو ممكن يجوز تصديقه ولا يؤدي تكذيبه إلى الكفر .

٥ - تصرف الموتى بأمر الله :

قال السيوطي في شرح الصدور : قال الحافظ ابن حجر في فتاواه إن أرواح المؤمنين في عليين ، وأرواح الكفار في سجين ، ولكل روح بجسدها اتصال معنوي لايشبه الاتصال في الحياة الدنيا ، بل أشبه شيء به حال النائم وإن كان هو أشد حالاً من حال النائم اتصالاً فالأرواح مأذون لها في التصرف وتأوى إلى محلها من عليين أو سجين وإن قيل إنها عند أفنية القبور . وأورد السيوطي ما أخرجه ابن عساكر عن رؤية النبي ﷺ لجعفر بن أبي طالب بعد استشهاده، وما أخرجه الحاكم عن رده السلام على جعفر حيث رآه في مجلسه مع أسماء بنت عميس ومعه جبريل وميكائيل يسلِّمون على النبي ﷺ ، وحكى له جعفر ما حدث في يوم استشهاده ، وأن النبي ﷺ أعلن ما رآه للناس على المنبر .

٦ - اطلاع الأحياء على حال أهل القبور :

أورد صاحب المنحة الوهبية حكايات عن رؤية بعض الناس أمواتاً يصلون في قبورهم ، وأن بعضهم سمع قراءة القرآن من قبر ثابت البناني ، وسمع بعضهم من

أحد القبور قراءة سورة «الملك» ولما أخبر النبي ﷺ بذلك قال «هي المانعة ، هي المنجيبة تنجي من عذاب القبر» [1] .

وثبت في الصحيحين قول النبي ﷺ : «لولا أن تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع» كما صح أن النبي ﷺ مر بقبرين يعذَّب من فيهما بسبب النميمة وعدم الاستبراء من البول ، وأنه وضع جريداً على القبرين عسى أن يخفف الله عنهما العذاب.

وجاء في «الروح» لابن القيم وفي «شرح الصدور» للسيوطي ، وفي «أهوال القبور» لابن رجب ما يفيد أن رجلاً رأى رجلاً عند «بدر» يخرج من الأرض فيضربه رجل بمقعمة حتى يغيب في الأرض ، وأن النبي ﷺ قال «ذاك أبو جهل يعذب إلى يوم القيامة».

وبعد ...

فكل ما ذكر عن أحوال القبور جر إليه الكلام عن الوسيلة والتوسل ، وهو عرض لما قيل عنها ، ونحن لانلزم بتصديق شيء منها إلا ما يثبت بطريق قوي. ولا داعي للجدال فيها ، فإن ما لدينا من الثابت القوي كثير ، وأحوال الدنيا التي يجب أن نستعد بها إلى الآخرة كثيرة ، فلنهتم بمعرفتها وتطبيقها فذلك خير وأجدى .

وهل يسمع أو يشعر الميت بما يدور حوله أثناء الجنازة؟

جاء في كتاب (مشارق الأنوار) للعدوي [2] : أن الميت يعرف من يغسله ويحمله ومن يكفنه ومن يدليه في حفرته ، وأن روح الميت في يد ملك ينظر إلى جسده كيف يغسل وكيف يكفن ، ويقال له -وهو على سريره- اسمع ثناء الناس عليك. وجاء فيه أن الميت يرى ما يصنع أهله ، ولو قدر على الكلام لنهاهم عن العويل والصراخ.

١- هذا الحديث رواه الترمذي عن ابن عباس وقال إنه حديث غريب ، أي رواه راو واحد فقط .
٢- ص ٢١ .

وكل ذلك وردت به أحاديث أخرجها أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني وابن منده وأبو نعيم وأبو داود ، وقد حكم على بعض منها بالضعف.

ومعلوم أن العقائد لاتثبت إلا بالدليل القطعي من الكتاب والسنة . وأحوال الموتى من الغيب الذي يعلمه الله وحده ، ولايُطلعُ عليه أحداً إلا من ارتضاه ، ولايجب علينا الإيمان إلا بما ورد من طريق صحيح . والأخبار المروية في سماع الميت كلام المشيعين لم ترق إلى هذه الدرجة . فلا نجزم بالنفي ولا بالإثبات ، حيث إن ذلك ممكن ولم يرد ما يمنعه ، وحيث إن ما أثبتته لم يكن بطريق الجزم. فمن صدق ذلك فهو حر ، ولايجوز أن يفرض رأيه على غيره ، ومن كذب فلا يكفر.



س : نسمع كثيراً أن الصدقة الجارية ينتفع بها الإنسان بعد موته . فهل يشترط أن يكون الميت هو الذي فعل هذه الصدقة ، أو يجوز أن يفعلها له غيره بعد موته ، وما هو نوع هذه الصدقة ؟

ج : روى مسلم وغيره أن النبي ﷺ قال «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له».

قد يتصدق الإنسان على فقير بطعام يأكله أو ثوب يلبسه ، وثواب هذه الصدقة إن كانت خالصة مقبولة يستحقه الإنسان ويكتب له في صحيفة عمله ، ولايتجدد هذا الثواب إلا إذا أعاد الصدقة مرة ثانية ، وعند انتهاء حياته تختم الصحيفة ولايكتب فيها شيء من عمل له ، لكن هناك أعمال صالحة يستمر ثوابها بعد موت الإنسان ، كأنه حي يقوم بها ، ومنها ما يطلق عليه اسم الصدقة الجارية ، كمسجد بناه ليصلي فيه الناس ، أو بئر ماء يستقون منه ، ومنها العلم الذي علمه لغيره وعمل به مَنْ تَعلَّمه، ومنها الولد الذي يدعو لوالده بعد موته .

والثلاثة المذكورة في الحديث هي أمثلة فقط وليست للحصر ، ويمكن أن يقاس عليها كل ما تبقى منفعته بعد موت صاحبه . وقد جاءت أحاديث مصرحة بذلك ، منها «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علماً نشره ، أو ولداً صالحاً تركه ،

أو مصحفاً ورّثه أو مسجداً بناه ، أو بيتاً لابن السبيل بناه ، أو نهراً أجراه أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه بعد موته» [1] ، وفي رواية للبزار عن أنس «أو غرس نخلاً» وفي رواية لأحمد والطبراني «من مات مرابطاً في سبيل الله» وقد نظم السيوطي هذه الأشياء في قوله [2] :

إذا مـات ابـن آدم ليس يجري ... علـيـه من فعـال غير عشـر
وراثـة مصحـف وربـاط ثغر ... وحفـر بئـر أو إجـراء نـهـر
وتعلـيـم لـقـرآن كريـم ... فخذها من أحاديـث بحصـر
علوم بثّهـا ودعـاء نجـل ... وغرس النخل والصدقات تجري
وبيـت للغريـب بنـاه يـأوى ... إليـه أو بنـاء محـل ذكـر



س : ما المقصود بالعتاقة ، وهل تنفع الميت وتعتق رقبته من النار ؟

ج : العتاقة تعبير متعارف عليه يقوم على قراءة سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾ عدداً من المرات ، رجاء أن يعتق الله بها من النار من قرئت له من الأموات. وهي بهذه الصورة لم يرد بها حديث صحيح خاص ، وإن كان مجرد القراءة للقرآن وهبة ثوابها للميت يرجى انتفاعه بها ، وأما أن تعتق رقبته من النار وتكفر كل السيئات فلا يدل عليه دليل ، وإن كان الله سبحانه قد قال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء : ٤٨] وهذه المغفرة إما تفضُّل ومنحة من الله دون مقابل ، وإما بمقابل من عمل صالح ، فالأمر لله وحده.

وقد يراد بالعتاقة ما يعرف بإسقاط الصلاة عن الميت لكن قال العلماء إن الميت إذا كان عليه صوم أو زكاة أو حج أو دين للعباد وجب أداء ذلك عنه من تركته ، سواء أذن في ذلك أم لم يأذن ، على ما هو المختار من أقوالهم ، أما الصلاة فلم يقل أحد بقضائها عنه . أو إسقاطها بأي وجه من الوجوه الثابتة الصحيحة .

١- رواه ابن ماجه عن أبي هريرة بإسناد حسن .
٢- فقه السنة ج٣ ص ٥١٧ .

هذا ، وقد روى البزار بسند ضعيف أن النبي ﷺ قال : «من قرأ قل هو الله أحد مائة ألف مرة فقد ا شترى نفسه من الله ، ونادى مناد من قبل الله تعالى في سماواته وأرضه : ألا إن فلاناً عتيق الله» قال الصاوي في حاشيته على الجلالين : هي عتاقة من النار بشرط ألا يكون عليه حقوق العباد أصلاً ، أو عليه وهو عاجز عن أدائها ، أما من قدر عليها فهو كالمستهزئ بربه .

ونقل الشيخ الحفني عن الشيخ العياشي أن من قرأها مائة ألف مرة كفرت صغائره وكبائره [1] وهو كلام لايصمد أمام القول بأن الكبائر لاتكفرها إلا التوبة النصوح ومنها دفع حقوق العباد.

وبناء على هذا الحديث الذي يعمل به في فضائل الأعمال نص جماعة من متأخري المالكية على استحباب عتاقة الصمدية . ذكر ذلك المحدث عبدالله الصديق الغماري في كتابه (فضائل القرآن).

وإذا كان هذا للشخص نفسه يقرؤها ، فهل تكون للميت الذي تقرأ له ؟ ذلك راجع إلى انتفاع الميت بقراءة القرآن عليه ، بأجر أو بغير أجر ، وأثر ذلك في الكبائر والتبعات .



س : كثر السؤال عن حكم قضاء ما فات الأموات من واجبات ، وهل ينتفعون بما يهدى إليهم من قربات ؟

ج : الواجبات التي لم يؤدها الميت ديون عليه ، وهي نوعان : ديون للعباد ، وديون لله ، فأما ديون العباد فالإجماع على مشروعية قضاء الحي لها عن الميت ، والأخبار الصحيحة كثيرة في خطورة الديْن وأثره على الميت ، وقد كان النبي ﷺ إذا جاءت جنازة ليصلى عليها سأل : هل عليه دين أم لا ، فإن كان عليه دين لم يصل عليه . وجاء الخبر بأن رحمة الله معلقة عن الميت حتى يُقضى عنه دينه وسيجيء قول النبي ﷺ لمن سألته عن قضاء الحج عن أمها : «أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته» ؟ [2].

1- مصباح الظلام ج٢ ص١٦١ . 2- رواه البخاري .

وأما حقوق الله كالعبادات فإليك بعض ما ورد فيها من نصوص وما فهمه العلماء منها :

أ - الصلاة :

الصلاة عبادة بدنية محضة ، لم يرد نص خاص عن النبي ﷺ بجواز قضائها عن الميت ، والوارد هو عن بعض الصحابة ، فقد روى البخاري أن ابن عمر رضي الله عنهما أمر امرأة جعلت أمها على نفسها صلاة بقباء -يعني ثم ماتت- فقال : صلي عنها. وروى ابن أبي شيبة بسند صحيح أن امرأة قالت لابن عباس رضي الله عنهما: أن أمها نذرت مشياً إلى مسجد قباء ، أي للصلاة ، فأفتى ابنتها أن تمشي لها[1].

والصلاة المرادة هنا صلاة نفل نذر أدؤاها في قباء فوجبت ولزمت ، ومن هنا رأى بعض العلماء جواز قضاء الصلاة عن الميت ، سواء أكانت مفروضة أصلاً أم منذورة ، لكن الجمهور قال بعدم جواز قضاء المفروضة . ونقل ابن بطال الإجماع على ذلك ، ومع عدم التسليم بهذا الإجماع ، فإن الجمهور رد استدلال القول المجيز للقضاء بأن النقل عن ابن عمر وابن عباس مختلف ، فقد جاء في موطأ مالك أنه بلغه أن عبدالله ابن عمر كان يقول : لايصلى أحد عن أحد ، ولايصوم أحد عن أحد، وأخرج النسائي عن ابن عباس مثل ذلك القول . ولكن لعل المنع في حق غير المنذور.

وقال الحافظ : يمكن الجمع بين النقلين بجعل جواز القضاء في حق من مات وجعل النفي في حق الحي [2] وبهذا يعلم أن ما يعمله بعض الناس مما يسمى بإسقاط الصلاة عن الميت غير مشروع ، والواقع أن الله سبحانه وتعالى جعل أداء الصلاة من اليسر بحيث تصح بأية كيفية من الكيفيات عند العجز ، حتى إنه لم يسقطها عن المجاهد وهو في ساحة القتال أثناء المعركة ، وعن المقيد بالأغلال واكتفى بها يستطاع ولو بالإيماء ، فقول الجمهور بعدم جواز قضائها عن الميت هو المختار للفتوى ، ولايصح غيره ، حتى لايكون هناك تهاون بعمود الدين .

١- وأخرجه مالك في الموطأ أيضاً .

٢- نيل الأوطار ج٩ ص١٥٥ .

ب - الصيام :

الصيام عبادة بدنية أيضاً إذا تركه الميت وكان قادراً على أدائه ، جاء فيه قول النبيﷺ : «من مات وعليه صيام صام عنه وليه» [1]. وروى أحمد وأصحاب السنن أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أمي ماتت وعليها صوم شهر أفأقضيه عنها ؟ قال : «نعم فدين الله أحق أن يقضى» وبناء على هذا قال الشافعية والحنابلة بجواز قضاء الصوم من الولي ، بل قالوا باستحبابه ، وبجوازه من الأجنبي إن أذن الولي ، لكن الأحناف والمالكية قالوا : إن وليه لايصوم عنه ، بل يطعم مدا عن كل يوم . وحجتهم أن الصيام عبادة بدنية كالصلاة لاتقبل النيابة ، لكن النووي قال في جواز القضاء : إنه هو الصحيح المختار والنصوص تشهد له .

ج - الزكاة :

الزكاة ، ويطلق عليها اسم الصدقة أحياناً ، عبادة مالية محضة ، فيها حق لله وحق للعباد ، وقضاؤها عن الميت قضاء لدين الله ودين العباد ، والقول بجواز ذلك لاينبغي الخلاف فيه ، وتقدم أن دين العباد مفروغ من جواز قضائه ، وحق الله أولى أن يقضى . وروى مسلم وغيره أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إن أبي مات وترك مالاً ولم يوص ، فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه ؟ قال : (نعم) والتعبير بقوله : «فهل يكفر عنه» يفيد أن ما فات الميت كان واجباً عليه ، إما زكاة وإما صدقة منذورة . وروى البخاري ومسلم أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إن أمي افتلتت نفسها - ماتت فجأة- وأراها لو تكلمت تصدقت ، فهل لها من أجر إن تصدقت عنها ؟ قال : (نعم) وقد ذهب الجمهور إلى أن من مات وعليه نذر مالي يجب قضاؤه من رأس ماله وإن لم يوص . إلا إذا وقع النذر في مرض الموت فيكون من الثلث . وشرط المالكية والحنفية أن يوصي بذلك [2] .

١- رواه البخاري ومسلم .
٢- نيل الأوطار ج٨ ص ١٥٦ .

د - الحج :

الحج عبادة بدنية ومالية معاً ، ورد في قضائه حديث البخاري أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت : إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت ، أفأحج عنها ؟ قال : (حجي عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا فالله أحق بالقضاء) . وإذا كان الحج المنذور يجب قضاؤه عن الميت فالحج الواجب أصلاً على المستطيع الذي لم يقم به يكون قضاؤه واجباً . ووجوب القضاء عنه لايحتاج إلى وصيته بذلك ويجب إخراج الأجرة من رأس المال ، وهذا هو قول الجمهور ، تغليباً للجانب المالي فيه كالزكاة والكفارة ونحوهما ، وقال مالك : يشترط أن يوصي الميت بذلك ، وإذا أوصى حج عنه من الثلث.



س : توفي والدي وعرفنا أنه أفطر شهر رمضان في بعض السنوات ولم يقض ما فاته ، فماذا نفعل ، هل نصوم عنه أو نخرج فدية ؟

ج : روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال «من مات وعليه صيام صام عنه وليه» وصح عنهما أيضاً أن امرأة قالت : يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صيام نذر، أفأصوم عنها ؟ فقال «أرأيت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدي ذلك عنها» ؟ قالت : نعم قال «فصومي عن أمك».

هذان الحديثان حجة قوية للذين يرون من الفقهاء أن من مات وعليه صيام ، سواء أكان صيام رمضان أم صيام نذر ، يصوم عنه وليه ، والولي هو كل قريب ، سواء أكان وارثاً أم غير وارث ، وقيل : يجوز أن يصوم عنه غير وليه من الأصدقاء مثلاً ، كالدّين لايختص بسداده القريب.

وذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي في القول الجديد إلى أن الميت لايصام عنه مطلقاً ، متمسكين بقول ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه النسائي بإسناد صحيح : لايصل أحد عن أحد ، ولايصم أحد عن أحد . وبقول عائشة رضي الله

عنها : لاتصوموا عن موتاكم وأطعموا عنهم : وقد أخرجه عبدالرزاق في مصنفه . لكن هذين الأثرين لايعارضان ما هو أقوى منهما ، وهو رواية البخاري ومسلم عن النبي ﷺ أن ولي الميت يصوم عنه . وقال عبدالحق في أحكامه : لايصح في الإطعام شيء ، يعني مرفوعاً ، وكذا قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ، ومن أراد توضيحاً أكثر فليرجع إلى نيل الأوطار للشوكاني [1] .



س : هل يجوز للابن أن يصلي الفوائت عن والده المتوفى ؟

ج : الصلاة فرض عين لاتقبل النيابة ولا الوكالة ، لأنها حق الله سبحانه على كل عبد ، وليس هناك عذر لتركها أبداً ، فهي تؤدى من قيام أو قعود أو اضطجاع، في السلم وفي الحرب ، بحركات الجسم والعقل وبأية وسيلة ممكنة ، لأنها صلة بين العبد وربه ، لايمكن للعاقل أن يستغني عنها ، ولايقبل الله من يقوم بها بدل العبد ، فالشحنة الروحية لايمكن أن تنتقل ممن حصل عليها إلى غيره أبداً ، فالصلة مقطوعة.

ولأهمية الصلاة جعلها الحديث الشريف الذي رواه مسلم الفرق بين المسلم والكافر فمن تركها عمداً جحداً أو استهزاء كفر ، وإذا فاتت وجب قضاؤها ، ومن لم يقضها يحاسب عليها حساباً عسيراً إن لم يغفر الله له . ولهذا لايجوز للابن ولا لغيره أن يصلي الفوائت عن المتوفى لقول الله تعالى ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩] وقول النبي ﷺ «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له» [2] ، ولأن الأصل في الفروض العينية أن يؤديها الشخص بنفسه إلا ما استثنى كالصوم والزكاة والحج ، فإنه يمكن أن يؤديها عنه غيره لورود النص الصريح في ذلك .

١- ج٤ ص ٢٤٨-٢٥١.
٢- رواه مسلم .

أما الصلاة للوالد المتوفى -لا الصلاة عنه- فجائزة ، حيث يمكن للولد أن يصلي نافلة ويهب ثوابها لوالده فينتفع بها إن شاء الله .

إن جمهور العلماء على أن قضاء الصلاة المفروضة عن الميت ممنوع ، ونقل ابن بطال الإجماع عليه ولكن الإجماع غير صحيح ، لأن هناك من يقول بجواز ذلك ، ودليله.

١ - ما رواه البخاري أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أمر امرأة جعلت أمها على نفسها صلاة بقباء -يعني ثم ماتت- فقال : صلي عنها .

٢ - ما رواه ابن أبي شيبة بسند صحيح أن امرأة قالت لابن عباس رضي الله عنهما: إن أمها نذرت مشياً إلى مسجد قباء ، أي للصلاة ، فأفتى ابنتها أن تمشي لها [١].

٣ - أن بعض التابعين وعلماء السلف أجاز الصلاة عن الميت . قياساً على الدعاء والصدقة والحج . ورد الجمهور على ذلك بأن النقل عن ابن عمر وابن عباس مختلف ، فقد جاء في الموطأ للإمام مالك أنه بلغه أن عبدالله بن عمر كان يقول: لايصلي أحد عن أحد ، ولايصوم أحد عن أحد ، وأخرج النسائي عن ابن عباس مثل ذلك القول . فالنقل متضارب عنهما ، وإن كان يمكن الجمع بأن المنع عن القضاء هو في الفرض أو النذر ، وأن الجواز هو في النفل وقال الحافظ: يمكن الجمع بين النقلين بجعل جواز القضاء في حق من مات ، وجعل النفي في حق الحي [٢] .

يقول النووي في مقدمة شرحه لصحيح مسلم : جاء في البخاري في باب من مات وعليه نذر أن ابن عمر أمر من ماتت أمها وعليها صلاة أن تصلي عنها ، وحكى صاحب «الحاوي» وهو الماوردي عن عطاء بن أبي رباح وإسحاق بن راهويه أنهما قالا بجواز الصلاة عن الميت ، ومال الشيخ أبو سعيد عبدالله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصرون من أصحابنا المتأخرين في كتابه (الانتصار) إلى اختيار هذا . وقال الإمام أبو محمد البغوي

١- أخرجه مالك أيضاً في الموطأ .
٢- نيل الأوطار ج٩ ص ١٥٥ .

من أصحابنا في كتابه (التهذيب) : لايبعد أن يطعم عن كل صلاة مُدٌّ من طعام . [وهو أساس القول بإسقاط الصلاة بالصدقة وغيرها].

قال النووي : وكل هذه المذاهب ضعيفة ، ودليلهم القياس على الدعاء والصدقة والحج ، ثم ساق دليل من يمنعون الصلاة عن الميت . وقد سبق ذكره.

فقول الجمهور بعدم جواز قضاء الصلاة عن الميت هو المختار للفتوى ، ولايصح غيره حتى لايتهاون الناس بهذه الفريضة التي هي من الإسلام بمنزلة الرأس من الجسد ، أما الصلاة للميت أي الصلاة النافلة التي يهب ثوابها له فلا مانع منها وقد جاء النص عليها كالعبادات الأخرى .

ونقل الآلوسي في تفسيره عن ابن حزم جواز صلاة النذر والفرض إن نسيه أو نام عنه ولم يصل حتى مات ، لدخول ذلك تحت قول النبي ﷺ «فدَين الله أحق أن يُقضى» ووجهة نظره أن الصلاة مقيسة على الصوم والحج والدَّين الذي منه الزكاة ، حيث ورد النص بقضائها عن الميت .

ومهما يكن من شيء فرأي الجمهور على عدم قضاء الصلاة المفروضة عن الميت، أساسه أنها لاتقبل النيابة استقلالاً ولا تبعاً ، وما قيل من أن الذي يحج عن الميت سيصلي ركعتين عنه للطواف عند مقام إبراهيم ، فلماذا لايصلي عنه الصلوات الأخرى - فهو مردود ، لأن صلاة ركعتي الطواف سنة لافريضة ، وتابعة للفريضة لامستقلة ، ولا تجوز النيابة فيها في الحياة ولا بعد الممات [1].



س : ما حكم من مات وعليه دين لم يقم أهله بسداده ، هل تحجب الرحمة عن الميت ؟

ج : إذا مات الإنسان وعليه دين لغيره وجب أن يقوم ورثته بسداد الدين قبل تقسيم التركة كما قال تعالى في آية المواريث ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ [النساء : ١١]

---

١ - الفتاوى الإسلامية ، المجلد الرابع ، صفحة ١٤٩١ وما بعدها .

وذلك إذا كان عنده ما يسدُّ به الدين ، فإن لم توجد له تركة تفي بسداد الدين فلا يجب على الورثة شيء، وإن كان من السنة أن يقوموا هم بذلك حتى تنزل عليه رحمة الله . فهي لاتزال محبوسة عنه . ويمكن لغير أهله أن يتصدقوا بسداد دينه حتى يرحمه الله .

ومحل حجب الرحمة عنه حتى يسد دينه إذا كان ناوياً قبل الموت ألا يسد الدين ، أما إذا كان ناوياً السداد فنرجو ألا يحجب الله عنه رحمته ، لقول النبي ﷺ «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها **أتلفه الله**» (١).

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل الميت عليه فيسأل «هل ترك لدينه قضاء» ؟ فإن حدث أنه ترك وفاء صلى عليه ، وإلا قال «صلوا على صاحبكم» فلما فتح الله عليه الفتوح قال «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفى وعليه ديه فعليَّ قضاؤه ، ومن ترك مالاً فهو لورثته» وفي حديث الطبراني «من دان بدين في نفسه وفاؤه ومات تجاوز الله عنه وأرضى غريمه بما شاء» وروى أحمد وأبو نعيم والبزار والطبراني عن النبي ﷺ «يدعى صاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يدي الله عز وجل فيقول : يا ابن آدم ، فيمَ أخذت هذا الدين ، وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول : يا رب إنك تعلم أني أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم أضيع، ولكن أتى عليَّ إما حرق وإما سرق وإما وضيعة ، فيقول الله : صدق عبدي ، وأنا أحق من قضى عنك ، فيدعو الله بشيء فيضعه في كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته ، فيدخل الجنة بفضل رحمته».

والميت الذي عليه دين لم ينو الوفاء به تحجب عنه الرحمة كما قال النبي ﷺ «نفس الميت معلَّقة بدينه حتى يقضى عنه» (٢) ، وإذا كان الشهيد نفسه ، وهو من هو منزلة عند الله ، لاينال هذه الدرجة إذا كان عليه دين للعباد ، كما صح في الحديث «يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين» (٣) ، فكيف بغير الشهيد؟

١- رواه البخاري .
٢- رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وقال : حديث حسن .
٣- رواه مسلم .

وقد أخبر النبي ﷺ عن المفلس يوم القيامة فقال «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[1] وروى البخاري مثله بلفظ «من كانت عنده مظلمة لأخيه ، من عِرضه أو من شيء، فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه».

إن الدين خطير تجب المبادرة بسداده قبل الموت وقبل أن تكون المواجهة بين المدين وأصحاب الحقوق يوم القيامة فربما لايسامحون ، وقد ثبت أن النبي ﷺ تذكر في الصلاة أن في بيته بعض الأموال لم تسلم إلى أصحابها ، فتوجه بعد الانتهاء منها بسرعة لافتة للنظر وأمر بدفعها إلى أصحابها وعاد إلى المسجد ولما سألوه قال «تذكرت مالاً فخشيت أن يحبسني» أي يحبسه الله يوم القيامة ويسأله: لمَ لم تؤده[2] .

ومن أراد التوسعة في معرفة خطر الدين على الميت فليراجع نيل الأوطار[3]، وتفسير القرطبي[4].



س : هل الدين على الميت يحجب الرحمة عنه ، وما حكم من مات وعليه دين ولم يترك ما يدفع لأصحاب الديون؟

ج : ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه» كان إذا دعي للصلاة على ميت سأل : هل عليه دين ؟ فإن قالوا :نعم ، قال : صلوا عليه أنتم ، وكان ذلك قبل الفيء والغنائم التي ربحت من الغزوات وغيرها ، أما بعد ذلك فإن النبي ﷺ كان يدفع الديون عن الموتى ولا يأخذ شيئاً من عياله ، قال العلماء : إذا لم يترك

١- رواه مسلم . ٢- رواه البخاري .

٣- ج٤ ص٢٥. ٤- ج٤ ص ٢٧٢.

الميت شيئاً يأخذه الورثة وعليه دين فإن هذا الدين لايلزم ورثته. فإن تبرعوا بسداده عنه كان خيراً لهم وله ، وإلا فلا يلزمهم شيء ، و الميت قد رجع إلى ربه يحاسبه كما يشاء ، جاء في حديث البخاري «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله» وفي حديث رواه الطبراني «من دان بدين في نفسه وفاؤه ومات تجاوز الله عنه وأرضى غريمة بما شاء».

جاء في الزرقاني على المواهب [1] عن اختصاصات النبي ﷺ : أن منها قضاء دين من مات مسلماً معسراً ، روى البخاري ومسلم وغيرهما أنه كان يؤتى بالرجل المتوفى الذي عليه دين فيسأل : هل ترك لدينه قضاء ؟ فإن حدث أنه ترك قضاء صلى عليه ، وإلا قال : «صلوا على صاحبكم» فلما فتح الله عليه الفتوح قال «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفي وعليه دَيْنٌ فعليَّ قضاؤه ، ومن ترك مالاً فلورثته» يقول النووي : كان هذا القضاء واجباً على النبي ، وقيل تبرع منه ، وجهان لأصحابنا وغيرهم والأرجح الوجوب ، ومعنى الحديث أن النبي ﷺ قائم بمصالحكم ، في حياة أحدكم أو موته ، أنا وليه في الحالين ، فإن كان عليه دين قضيته من عندي إن لم يخلف وفاء ، وإن كان له مال فلورثته لا آخذ منه شيئاً ، وإن خلَّف عيالاً محتاجين ضائعين فليأتوا إليَّ ، فعليَّ نفقتهم ومؤونتهم .

وجاء في نيل الأوطار للشوكاني [2] حديث أحمد وابن ماجه والترمذي وقال حديث حسن «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه» وذكر ما يشبه ما تقدم عن الزرقاني.



س : قال تعالى في سورة التكوير : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ هل معنى هذا أن الحيوانات ستحشر يوم القيامة ، وما هي الحكمة من ذلك مع أنها غير مكلفة؟

ج : اختلف العلماء في حشر الحيوانات يوم القيامة وحسابها ، فقال الأشعري : تحشر الحيوانات ولايجري القصاص بينها لأنها غير مكلفة .

١- ج٥ ص٢١١ .   ٢- ج٤ ص ٢٥ .

وما ورد من قوله ﷺ «يقتص من القرناء للجماء ، ويسأل العود : لم خدش العود».

فهو على سبيل المثال والإخبار عن شدة التقصي في الحساب والانتصاف من الظالم للمظلوم ، وقال الإسفراييني : يجري القصاص بينها ، وليس القصاص انتقاماً ، لأنها غير مكلفة ، ولكن لإظهار عدل الله ، وجاء في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام : ٣٨] وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال «لتؤدين الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» والجلحاء هي التي ليس لها قرون تدافع بها عن نفسها من الشاة القرناء ذات القرون التي تنطحها ، ومثلها الجماء.

وجاء في تفسير القرطبي في سورة الأنعام من قول أبي هريرة أنه يعد اقتصاص الله للشاة الجماء من القرناء يقول للبهائهم «كوني تراباً» يعني لاتدخل جنة ولا ناراً ، حيث لاتكليف عليها في الدنيا تستحق به جزاء في الآخرة ، وتوضيح ذلك في كتابه (التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة).

فالحكمة من حشرها إظهار العدل ، وقد تكون شاهدة للعبد كالأضحية التي ورد أنها تأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها ، كما رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم عن عائشة مرفوعاً إلى النبي ﷺ . فحشر الدواب صحيح كما رآه المحققون وصححه النووي واختاره . وعدم حشرها قول مرجوح [1] .

ومهما يكن من شيء فالواجب أن نهتم بمصيرنا نحن ، وأن نستعد ليوم الحشر بعمل الطاعات والبعد عن المعاصي ، وأن نؤمن بعدل الله في مجازاتنا ، وبرحمته لمن يشاء من عباده.



١ - مشارق الأنوار للعدوي ص ١٤٦ .

س : يدعي بعض الناس أنهم يعرفون موعد قيام الساعة ، بل يحددونه بشكل يوهم الناس أنهم صادقون في ذلك ، فهل هذا الادعاء صحيح ، وما هي العلامات التي تدل عليها ؟

ج : الساعة -وهي انتهاء الحياة الدنيا وبعث الموتى من القبور لحياة أخرى- حق كما أجمعت عليها الكتب والأديان السماوية. وجاءت بذلك النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة . وهي قريبة مهما طال الأمد بيننا وبينها ، لأن كل آت قريب قال تعالى ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب : ٦٣] ويكفي لبيان قربها انتهاء الرسالات السماوية برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ . ففي الحديث الذي رواه مسلم «بعثت أنا والساعة كهاتين» وضم السبابة والوسطى . وكل ما يقال عن تحديد وقتها ليس له سند صحيح . قال تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٧] والحديث المتفق عليه في سؤال جبريل للنبي ﷺ عن الساعة معروف حيث قال له «ما المسئول عنها بأعلم من السائل».

وعلامات الساعة ألفت فيها كتب خاصة ، وفيها أحاديث صحيحة وأخرى غير صحيحة ، والعلماء قسموا هذه العلامات إلى علامات صغرى وعلامات كبرى ، والصغرى هي التي تحدث قبل يوم القيامة بزمن طويل . وقد حصل بعضها في زماننا هذا بل قبل هذا الزمان. ومنها ما ورد في حديث جبريل مع النبي ﷺ «أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان» ومنها كثرة الجهل وقلة العلم وإمارة الصبيان وكثرة النساء وقلة الرجال حتى يكون للخمسين امرأة قَيِّم واحد ، وكثرة الزنا والربا والفتن . وكل ذلك وردت به الأحاديث الصحيحة ، وقد أوصلها بعض العلماء إلى خمسمائة علامة .

أما العلامات الكبرى التي تحدث قرب قيام الساعة فقد قال عنها الشيخ النفراوي: إنها عشر ، خمس متفق عليها وهي : خروج الدجال ، ونزول سيدنا عيسى

ابن مريم ، وخروج الدابة ، ويأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ، وأما الخمس المختلف فيها فهي « خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ودخان باليمن ، ونار تخرج من قعر عدن تروح مع الناس حيث راحوا وتَقِيلُ معهم حيث قالوا ، حتى تسوقهم إلى المحشر . وقد وردت في صحيح مسلم عن حذيفة بن أَسِيد الغفاري .

وهذه بعض الإيضاحات للخمس المتفق عليها :

١ - المسيخ الدجال أو المسيح الدجال :

كان النبي ﷺ يستعيذ بالله كثيراً من فتنته ، وجاء في صحيح مسلم أن خروجه هو أول العلامات ، وأنه يخرج من ناحية المشرق ، وسيمكث أربعين يوماً يفتن الناس عن الإيمان بالله ، يوم منها كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر الأيام كالأيام العادية ، وفي اليوم الذي هو كسنة لاتكفي خمس سنوات ، بل يجب أن يقدر كل أربع وعشرين ساعة لخمس صلوات كما في الحديث المذكور «اقدروا قدره» وسيقتله سيدنا عيسى عند باب «لُدٍّ» كما في صحيح مسلم [١] .

٢ - نزول سيدنا عيسى عليه السلام :

يكون نزوله عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، ويقتل الدجال ويحكم بشريعة سيدنا محمد ﷺ ويكثر في أيامه الخصب والبركة [٢] .

٣ - يأجوج ومأجوج :

وهو خلق من بني آدم ، قال تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٩٦] حيث عاد عليهم ضمير الجمع للعاقل، ولحديث الصحيحين الذي يأمر الله فيه آدم يوم القيامة أن يُخرج بعث النار ، من كل

١- ج ١٨ ص ٦٥ ، ٧٦ .
٢- رواه مسلم .

ألف تسعمائة وتسعة وتسعين . وما يقال عن أصلهم وراء ذلك فلا أصل له ، وقد تحدث عنهم القرآن الكريم في سورة الكهف ، حيث بنى ذو القرنين سدًّا لم يستطيعوا أن يَظْهَرُوه ولا أن ينقبوه حتى يجيء الوعد الحق بالقيامة فيخرجوا . وتحدث عنهم النبي ﷺ كما ورد في الصحيحين بقوله «ويل للعرب من شر قد اقترب ، فُتِح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلّق بإصبعيه ، الإبهام والتي تليها . وفي صحيح مسلم أن الله يخبر سيدنا عيسى بخروجهم ، وأنهم سيحاصرونه هو ومن آمن معه ، ثم يهلكهم الله ، وبعد ذلك يفيض الخير ويرسل الله ريحاً تقبض أرواح المؤمنين وتترك الكافرين لتقوم عليهم الساعة .

٤ - الدابة :

هي من دواب الأرض ، قال الله عنها ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل : ٨٢] وجاء في صحيح مسلم عن عبدالله ابن عمرو بن العاص مرفوعاً «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ضحى ، وأيها كانت صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً» وفي حديثه أيضاً «بادروا بالأعمال سِتًّا : الدجال ، والدخان ، ودابة في الأرض ، وطلوع الشمس من مغربها ، وأمْر العامة ، وخُويِّصة أحدكم» وأمر العامة هو القيامة، والخويصة تصغير خاصة والمراد بها الموت.

٥ - طلوع الشمس من مغربها :

وذلك يكون بعد موت سيدنا عيسى ، وقد جاء فيها حديث الصحيحين أن الله يقول لها : ارجعي من حيث جئت ، فتطلع من مغربها ، فعند ذلك يغلق باب التوبة، كما تحدث عنها حديث مسلم السابق . وكون طلوع الشمس أو خروج الدابة أول الآيات يحتمل أنه أول الآيات التي تقوم على أثرها الساعة ، حيث يغلق باب التوبة وينفخ في الصور للصعقة الأولى ، ولايتنافى مع حديث أن أول الآيات خروج الدجال ، فأولية خروجه هي بالنسبة لكل الآيات التي تأتي بعد.

تنبيه :

العلامات التي لم ترد في القرآن بل وردت في السنة ، أحاديثها أحاديث آحاد في اصطلاح المحدثين ، أي لم تبلغ مبلغ التواتر ، وقد اختلف العلماء في إفادتها العلم اليقيني ، فقال بعضهم تفيد ، وقال بعضهم : لاتفيد إلا الظن ، ولذلك اختلفوا في حكم من أنكرها ، أي لم يعتقد ما جاء فيها ، وما دام هناك خلاف فلايجوز أن يحكم بالكفر على من أنكرها .

وعلى كل مسلم أن يكون مستعداً للقاء الله بعمل الخير ونية الدوام عليه ، وبالبعد عن الآثام والعزم على عدم العود إليها ، وذلك قبل أن تفجأه الساعة فلا يقبل منه عمل ، بل قبل أن يفجأه الموت ، فإن من مات فقد قامت قيامته، أي انتهت حياته التكليفية ، وذهبت فرصة العمل ، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء : ١٧ ، ١٨] .



س : قرأت أن يأجوج ومأجوج خلقا من نطفة آدم التي امتزجت بالتراب ، كما قرأت عنهم أموراً غريبة . والمرجو توضيح الحقيقة حتى لاتختلط بالخيال؟

ج : معرفة الحقيقة في هذه الأمور لاتكون إلا عن طريق صحيح من القرآن والسنة ، وكونهما من نطفة آدم المخلوطة بالتراب قول حكاه النووي في شرح مسلم عن بعض الناس ، وهو قول غريب لادليل عليه من نقل أو عقل ، ولا يجوز الاعتماد على ما يحكيه بعض أهل الكتاب من هذه الغرائب .

ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم كما ورد في الصحيحين ، وجاء فيهما أن الله يطلب من آدم أن يبعث بعث النار ، ويقول : إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج .

وجاء في الصحيحين حديث : «ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» . وذكر مسلم حديث خروجهم في آخر الزمان وأن عيسى يدعو عليهم فيرسل الله عليهم النغف -وهو دود يكون في أنود الإبل والغنم- ثم يرسل الطير لتأكل جثثهم .

وجاءت أحاديث موقوفة عن أشكالهم وإفسادهم عند الخروج لايعتمد على كثير منها والخلاصة أنهم من خلق آدم ، وكانوا موجودين أيام ذي القرنين ، وسيخرجون آخر الزمان ، وهذا القدر كاف في معرفتهم ، وما وراء ذلك لاداعي إليه ، ولايضر الجهل به ، والاهتمام بغير ذلك مما يفيد واقع المسلمين الآن أولى ، والله أعلم .

وأما السد الذي أقامه ذو القرنين فسيذكر مع السؤال الخاص بذي القرنين.



س : يوجد تضارب كبير في ظهور المهدي المنتظر ، فما رأي الدين في ذلك ؟

ج : سنذكر كلمة موجزة عن المهدي المنتظر ملخصة من عدة كتب ومقالات قديمة وحديثة . فنقول :

ظهور المهدي فيه أربعة أقوال :

القول الأول :

أن المهدي هو المسيح ابن مريم عليهما السلام ، ودليله حديث ابن ماجه ، «لامهدي إلا عيسى ابن مريم» وهو حديث ضعيف ، لتفرد محمد بن خالد به ، ولورود أحاديث بوجود المهدي وصلاته مع عيسى ابن مريم تمنع الحصر الوارد في هذا الحديث في عدم وجود مهدي إلا عيسى . على أن هذا الحديث لو صح لم تكن فيه حجة ، لأن سيدنا عيسى عليه السلام أعظم مهدى بين يدي رسول الله ﷺ والساعة ، فيكون الحصر إضافيًّا ، والمراد لا مهدي كاملاً إلا عيسى عليه السلام.

القول الثاني :

أن المهدي رجل من آل البيت من ولد الحسين بن علي ، يخرج آخر الزمان ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ، وأكثر الأحاديث تدل على هذا ، وهي وإن كانت ضعيفة يقوي بعضها بعضاً ، وقد صحح بعضهم بعضها ، منها حديث أحمد وأبي داود والترمذي وابن ماجه «لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله فيه رجلاً من أهل البيت يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً» ورواية أبي داود هذه وثقها الهيتمي في مجمع الزوائد .

القول الثالث :

أنه المهدي الذي تولى الخلافة في الدولة العباسية في القرن الثاني الهجري ، والأحاديث التي رويت في هذا ضعيفة ، وعلى فرض صحتها فالمهدي هذا أحد المهديين ، وهناك غيره ، ويصح أن يقال إن عمر بن عبدالعزيز كان مهديًّا ، بل هو أولى بهذه التسمية من مهدي بني العباس.

القول الرابع :

الأقوال السابقة هي لأهل السنة ، وهذا القول هو للشيعة الإمامية ، حيث يقولون : إنه محمد بن الحسن العسكري المنتظر ، من ولد الحسين بن علي ، ويقولون في صفته : الحاضر في الأمصار ، الغائب عن الأبصار ، وأنه دخل سرداباً في «سامرا» وقيل في مدينة تدعى «جابلقا» وهي مدينة وهمية ليس لها وجود . وزعم أحمد الأحسائي الممهد للبهائية أنه في السماء وليس في الأرض .

دخلها وكان طفلاً صغيراً منذ أكثر من خمسمائة عام ، فلم تره بعد ذلك عين ولن يحس فيه بخبر ، وهم ينتظرونه كل يوم ، يقفون بالخيل على باب السرداب ، ويصيحون به أن يخرج إليهم ثم يرجعون ، وقال في ذلك بعض الشعراء :

ما آن للسرداب أن يلد الذي
كلمتمـــوه بجهلكم ما آنـــا

فعلى عقولكم العفاء فإنكـم
ثلثتـم العنقـاء والغيـلانـا

هذا ، وهناك مهديون كثيرون ظهروا في التاريخ ، في الشرق وفي الغرب ، واليهود ينتظرون الذي يخرج آخر الزمان ، لتعلو كلمتهم وينصروا به على سائر الأمم ، ويعتقد هذا سبعون ألفاً من يهود أصفهان ، وكذلك النصارى ينتظرون المسيح يوم القيامة ، وبهذا تكون الملل الثلاثة منتظرة للمهدي .

إن المهدي وردت فيه أحاديث كثيرة صحح بعضها وضعف الكثير منها ، ويؤخذ من مجموعها أنه من آل البيت ، وسيخرج آخر الزمان ، ويلتقي مع سيدنا عيسى عليه السلام .

فقد أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه أن النبي ﷺ قال : «لو لم يبق من الدهر إلا يوم واحد لبعث الله فيه رجلاً من عترتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً».

ويؤخذ من الأحاديث أن اسمه «محمد» وأن اسم والده «عبدالله» كاسم والد النبي ﷺ وتقول الشيعة إنه اختفى بعد موت والده ، وذكر محيي الدين بن العربي في «فتوحاته» أن والده هو الإمام حسن العسكري ، وساق نسبه إلى النبي ﷺ وذكر ابن حجر في «الصواعق» أن ظهوره يكون بعد أنه يخسف القمر في أول ليلة من رمضان، وتكسف الشمس في النصف منه ، وذلك لم يوجد منذ أن خلق الله السموات والأرض كما قرره علماء الفلك ، فهل سيكون ذلك من باب الإعجاز ؟

بل ذكر الشعراني في «اليواقيت والجواهر» أنه يولد في ليلة النصف من شعبان سنة ١٢٥٥ هـ قائلاً : إنه تلقى ذلك من الشيخ حسن العراقي ووافق عليه الخواص.

هذه صور من أفكار المسلمين عن المهدي ، وفي بعضها بُعد يصعب تعقله ، ولايجوز أن نبني العقائد على مثل هذه القواعد غير الثابتة .

لقد استغل كثير من الناس قضية المهدي فتكونت دول وظهرت شخصيات على مسرح التاريخ ، وقامت دعوات تتمسح بها ، وكل يدعي أن آخر الزمان المقصود في الكلام عنه هو زمانه الذي كثر فيه الظلم ، وكل زمان لايخلو من ذلك كما يتصوره بعض الناس.

لقد استغلها الفاطميون وأقاموا دولتهم أولاً بالمغرب ، ثم انتقلت إلى مصر واتسع نطاقها ، استغلها «ابن تومرت» فأسس دولة الموحدين بني عبدالمؤمن ، وفي أيام الدولة المرينية بفاس قام رجل اسمه «التوبرزي» مدعياً أنه المهدي أيضاً ، كما ادعاها مغربي من طرابلس قابل نابليون بين دمنهور ورشيد ، وقيل إن المهدي صاحب ثورة السودان كان أتباعه يطلقون عليه المهدي المنتظر ..

يقول القلقشندي في ادعاء الشيعة الإمامية لوجود المهدي : إنهم يقفون عند باب السرداب بغلة ملجمة من الغروب إلى مغيب الشفق ، وينادونه ليخرج حتى يقضي على الظلم الذي عم البلاد .

ويروي ياقوت أنهم كانوا في «كاشان» من بلاد الفرس يركبون كل صباح للقائه وذلك في أواخر القرن الخامس الهجري ، ويروى مثل ذلك ابن بطوطة ، والكيسانية يدعون أنه «محمد ابن الحنفية» وكان من العادات في زمن ملوك الصفوية في فارس إعداد فرسين مسرجين دائماً في القصر لاستقبال المهدي وعيسى .

وهذا يشبه عمل المتهوسين من الإفرنج في القدس الذي ينتظرون مجيء المسيح يوم الدينونة . يقول «هوارت» الفرنسي في (تاريخ العرب) : إن إنكليزيًّا ذهب إلى بيت المقدس وأقام بالوادي الذي ستكون فيه الدينونة ، وفي كل صباح يقرع الطبل منتظراً للحشر .

وجاءت امرأة إنكليزية إلى القدس ، وكانت تعد الشاي كل يوم لتحيي به المسيح عند ظهوره . ويقول «لامرتين» عند زيارته لجبل لبنان : إنه رأى في قرية «جوُّن» السيدة «استير ستاتهوب» بنت أخي «بيت» الوزير الإنكليزي الشهير ، رأى عندها فرساً مسرجاً ، زعمت أنها تعده ليركبه المسيح .

إن ظهور المهدي ليس له دليل صريح في القرآن الكريم ، وقد رأى ابن خلدون عدم ظهوره كما جاء في الفصل الذي عقده في مقدمته خاصًّا بذلك والشوكاني ألف كتاباً سماه «التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال المسيح» جاء فيه أن الأحاديث الواردة في المهدي التي أمكن الوقوف عليها ، منها خمسون حديثاً فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر وهي متواترة بلا شك ولا شبهة.

ومهما يكن من شيء فإن ظهوره ليس ممنوعاً عقلاً ، ولم تثبت استحالته بدليل قاطع كما أن أدلة ظهوره لم تسلم من المناقشة ، والعقائد لاتثبت بمثل هذه الأدلة على ما رآه المحققون . فمن أثبت فهو حر فيما يرى ، لكن لايجوز أن يفرض رأيه على غيره، ومن نفى لم يخرج من الإيمان إلى الكفر .

وأولى لنا أن نتناقش في أمر عملي يعيد لنا قوتنا الأولى ، أو على الأقل يخلص المسلمين من الوضع الذي هم فيه الآن والعقائد الأساسية واضحة ، وأدلتها موفورة.

يمكن الرجوع للاستزادة إلى :

١ - المنار لابن القيم .

٢- صبح الأعشى للقلقشندي .

٣- التوضيح للشوكاني .

٤- مقالات الصديق الغماري في مجلة الإسلام في السنوات الأولى.

٥- سيد البشر يتحدث عن المهدي المنتظر ، جمع حامد ليمود .

٦- القطرة من بحار ومناقب النبي والعترة ، تأليف رضى الدين الموسيوي التبريزي.

٧- القول المختصر في علامات المهدي المنتظر . لابن حجر الهيتمي.

٨ - المشرب الوردي في أخبار المهدي لملا على القاري.



س : من هو المسيخ الدجال ومتى يظهر ؟

ج : من أصح ما ورد بشأن المسيخ الدجال أن النبي ﷺ كان يستعيذ بالله كثيراً من فتنته ، وفي صحيح مسلم أن خروجه هو أول علامات الساعة الكبرى وأنه يخرج من ناحية الشرق ، وسيمكث أربعين يوماً يفتن الناس عن الإيمان بالله ، يوم منها كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة ، وسائر الأيام كالأيام العادية.

وفي اليوم الذي هو كسنة لاتكفي فيه خمس صلوات ، بل يجب أن يقدر كل أربع وعشرين ساعة لخمس صلوات كما في الحديث المذكور «اقدروا قدره» وسيقتله سيدنا عيسى عليه السلام عند باب «لُدّ» كما في صحيح مسلم[1] .

وجاء في كتاب «مشارق الأنوار» للشيخ العدوي كلام كثير عنه بروايات صحيحة وغير صحيحة وتحدث عن أتباعه ، وهل ولد أيام الرسول أم سيولد قرب قيام الساعة .

وتحدث عن علامات خروجه وتشويه شكله ، والخوارق التي يقوم بها ، ومكتوب بين عينيه «كافر» وأنه لايستطيع دخول مكة والمدينة لحراسة الملائكة لهما ، وأن معه مغريات كثيرة يمتحن بها الناس ليؤمنوا به ، وأن النبي ﷺ قابله وعرض عليه الإسلام.

فارجع إلى هذا الكتاب لتعرف كثيراً عنه ، ويكفينا ما ثبت في الصحيح.



س : ما هي الدابة التي جاء فيها ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل : ٨٢] ؟

ج : أولاً : اختلف المفسرون في معنى ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ فقيل معناه وجب غضب الله ، أو حق القول عليهم بأنهم لايؤمنون ، أو سخط الله عليهم بموت

١- ج١٨ ص ٦٥ ، ٧٦ .

العلماء وذهاب العلم ورفع القرآن . وقيل غير ذلك ، ويجمعها البعد عن الدين بدليل آخر الآية.

جاء في صحيح مسلم قول النبي ﷺ «ثلاث إذا خرجن لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً -طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض».

وثانياً : في تعيين الدابة خلاف أيضاً ، فقيل : إنها فصيل ناقة صالح -ويقول القرطبي : هو أصح الأقوال ، وساق حديثاً طويلاً في ذلك ، وقيل : إنها الجساسة وهي دابة طولها ستون ذراعاً ، وعلى خلقة الآدميين ، وقيل : جمعت من خلق كل حيوان ، وقيل غير ذلك .

وخروجها مختلف في مكانه أيضاً ، فقيل : تخرج من جبل الصفا بمكة ، وقيل : تخرج ثلاث مرات : في بعض البوادي ثم في القرى ثم من أعظم المساجد ، وقيل : من مسجد الكوفة حيث فار تنُّور نوح ، وقيل من الطائف ، وقيل غير ذلك .

أما كونها إنساناً متكلماً يناظر أهل البدع والكفر فقول مردود كما قال القرطبي، والدابة تسم الناس على خراطيمهم أي أنوفهم ، وتكلمهم ببطلان الأديان غير الإسلام وبالرد على من كان يزعم عدم خروجها لأنها من آيات الله .

وكل ذلك قرب قيام الساعة ، وفي كتب التفسير كلام كثير يكفي منه هذا القدر.



س : هل صحيح أن الحشر يوم القيامة سيكون إلى أرض المعاد وهي فلسطين؟

ج : روى مسلم أن النبي ﷺ قال «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء ، كقرصة النَّقِيِّ ليس فيها علمٌ لأحد» والعفراء غير ناصعة البياض ، وقرصة النقى خبز مصنوع من دقيق أبيض ، وقال تعالى ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] .

بناء على ما ورد من نصوص حول هذا الموضوع قيل : إن أرض المحشر هي بيت المقدس بالشام ، وذلك لحديث رواه البزار والطبراني بسند حسن عن سمرة ابن جندب أن النبي ﷺ كان يقول لنا «إنكم تحشرون إلى بيت المقدس ثم تجتمعون يوم القيامة» وهذه الأرض تبدل بمقتضى الآية ، إما ذاتاً وإما صفة ، حيث تقضي حكمة الله أن يكون المحل الذي يقضى فيه بالحق والعدل طاهراً من المعصية والظلم ، وقد قال المفسرون إنها تبدل مرتين ، إحداهما في الدنيا قبل نفخة الصعق التي تفنى بها الدنيا فتموج الأرض وتنشق ، ثم تعاد كما كانت فيها القبور ، والثانية في الآخرة بعد النفخة الثانية عند القيام من القبور ، حيث يكون الحشر إلى الأرض التي تقال لها «الساهرة» فيحاسب الناس عليها ، وهي طاهرة نقية ، قال تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر : ٦٨] وقال ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ [النازعات : ٦-١٤] .

هذا ما يمكن أن يقال من الربط بين فلسطين وأرض المحشر يوم القيامة ، أما الربط بينها وبين ما يدعيه الأعداء في الدنيا فلا يستند إلى دليل مقبول ، والله سبحانه رقيب حسيب . ولايورث الله أي أرض في الدنيا والآخرة إلا الصالحين من عباده ، وأرجو أن نهتم بما نحاسب عليه يوم القيامة من أعمال ، ولتكن ما تكون الأرض التي سنحاسب عليها ، فملك الله واسع وهو على كل شيء قدير .



س : قرأت في كتاب (التذكرة) للقرطبي حديثاً يقول :إن الخلق يكونون يوم القيامة مائة وعشرين صفًّا ، طول كل صف أربعون ألف سنة ، وعرضه عشرون ألفاً ، والمؤمنون ثلاثة صفوف ، والمشركون مائة وسبعة عشر صفًّا فهل هذا حديث صحيح ؟

ج : ليكن معلوماً أن العقائد لاتثبت إلا بأدلة قطعية الثبوت والدلالة ، وأحوال الآخرة من المغيبات التي لايتحكم فيها العقل ولاتقبل إلا بالنقل الصحيح من

القرآن أو السنة ، وقد رأيت عن الصفوف حديثاً أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه البيهقي «أهل الجنة عشرون ومائة صف ، ثمانون منها من هذه الأمة ، وأربعون من سائر الأمم» ولم أعثر على حديث صحيح في عدد صفوف أهل الحشر وحجمها ، ونكل علم ذلك له سبحانه وتعالى .



س : هل من الحديث ما يقال : من أحب قوماً حشر معهم ؟

ج : وردت عدة أحاديث تدل على ذلك ، منها ما جاء في البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ :متى الساعة ؟ قال «وما أعددت لها»؟ قال : لاشيء إلا أنني أحب الله ورسوله ، قال «أنت مع من أحببت» قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ «أنت مع من أحببت» قال أنس : فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر ، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم .

وروى البخاري ومسلم أيضاً عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، كيف ترى في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم ؟ فقال رسول الله ﷺ «المرء مع من أحب».

وروى الطبراني بإسناد جيد حديثاً جاء فيه «ولايحب رجل قوماً إلا حُشر معهم» وروى أحمد مثله . ويجب أن يراعى أن هذا الحب يكون لله لا لأغراض أخرى ، فالحب لله من صفات الذين يجدون حلاوة الإيمان كما صح في الحديث .



س : هل صحيح أن الإنسان ينادي يوم القيامة باسم أمه ستراً على من ولد بطريق غير شرعي ؟

ج : الذي ورد في الحديث قوله ﷺ «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فحسنوا أسماءكم» [1].

---

١ - رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه عن أبي الدرداء .

ولكن جاء في حديث تلقين الميت أن الملقن يناديه بقوله : يا فلان ابن فلانة ، وأن رجلاً قال للنبي ﷺ : كيف ينسبه إذا لم يعرف أمه ؟ قال «ينسبه إلى حواء» . فكيف نوفق بين الحديثين ؟ المعروف أن أقوى الحديثين هو الذي يقدم إذا لم يمكن التوفيق بينهما ، وقال النووي عن هذا الحديث إنه ضعيف فيقدم عليه الحديث الأول . وعليه فيكون النداء يوم القيامة باسم الأب .

وقد يقال : إن حديث التلقين وإن كان ضعيفاً يراد بذكر أم الميت أنها هي المعروفة بيقين أنها أمه ، أما أبوه فقد يكون غير ما اشتهر به الميت فيعتمد على المتيقن وهو نسبه إلى الأم . أما في يوم القيامة فالله والملائكة هم الذين ينادون الميت بالقيام من القبر وبالحشر وبالحساب وغير ذلك والأب الحقيقي معروف فيعتمد عليه في الانتساب ، لأن الانتساب شرعاً هو للأب أصلاً ، والله أعلم بحقيقة الحال.



س : هل هذه الأجيال ستحاسب بمقدار ما تحاسب به الأجيال الماضية مثل أجيال الرسول عليه الصلاة والسلام ؟

ج : روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» وروى مسلم أن النبي ﷺ قال «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء» وروى مسلم أيضاً حديث «عبادة في الهرج كهجرة إليَّ» وصح أن النبي ﷺ قال «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة» وروى مسلم أنه عليه الصلاة والسلام خرج إلى المقبرة فقال «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت أن رأيت إخواننا» قالوا : يا رسول الله ألسنا بإخوانك؟ فقال «بل أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد وأنا فرطهم على الحوض» [1] وروى ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب - أي رواه واحد فقط أن النبي ﷺ قال في ضمن حديث «فإن من ورائكم أياماً، الصبر فيهن مثل

---

١ - تفسير القرطبي ج ١٨ ص ٣٢ .

القبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله» وزاد أبو داود : قيل يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم ؟ قال «بل أجر خمسين منكم» وروى أحمد والدارمي والطبراني عن أبي عبيدة بن الجراح أنه قال يا رسول الله أحد أفضل إيماناً منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك، قال «قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني» وإسناده حسن ، وصححه الحاكم وأخرج أحمد والبخاري في التاريخ وابن حبان والحاكم وصححه «طوبى لمن رآني وآمن بي مرة ، وطوبى لمن لم يرني وآمن بي سبع مرات» وذلك لأن الله مدح المؤمنين بإيمانهم بالغيب ، وكان إيمان الصحابة بالله واليوم الآخر غيباً ، وبالنبي ﷺ شهوداً للآيات والمعجزات ، ومن بعدهم آمنوا غيباً بما آمنوا به شهوداً وروى أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة كتب إلى سالم بن عبدالله بن عمر أن يكتب إليه بسيرة عمر بن الخطاب ليعمل بها ، فكتب إليه سالم : إن عملت بسيرة عمر فأنت أفضل من عمر ، لأن زمنك ليس كزمان عمر ، ولا رجالك كرجال عمر وكتب إلى فقهاء زمانه فكلهم كتب بمثل قول سالم.

يقول عمر بن عبدالبر ، بعد ذلك وبعد أحاديث أخرى : فهذه الأحاديث تقتضي مع تواتر طرقها وحسنها -التسوية بين أول هذه الأمة وآخرها في فضل العمل إلا أهل بدر والحديبية . وذلك لنص النبي ﷺ على أفضلية أهلها على من سواهما .

بعد هذه النقول من كتب الأحاديث والسيرة أرى أن السلف في مجموعهم أفضل ممن بعدهم ، فخير القرون قرن الرسول ثم من بعدهم ، وذلك لكثرة المؤمنين الطائعين الذين بذلوا كثيراً ولكن لايعدم أن يكون فيهم أفراد لايدخلون في الخيرية كالمنافقين وبعض العاصين .

والأجيال اللاحقة في مجموعها أقل فضلاً من السابقة ، لكن لايعدم أن يكون فيهم أفراد على درجة عالية من الفضل ، وذلك لعدة عوامل منها : أنهم آمنوا بالرسول ولم يروه ، وأن الجو العام السابق كان أقل فتنة ، وبالتالي لايحتاج إلى مجاهدة نفسية ، بخلاف الأجيال اللاحقة حيث كثرت الفتن وإغراء المغريات وصاروا فيها غرباء . وذلك كله فيما عدا الصحبة ، وإنما في الأعمال الأخرى .

ومن هنا أرى على المستوى الفردي أن العبرة بالعمل كـمّـا وكيفاً ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : ٢١] وعليه فقد يكون في الخلف من هو أفضل من السلف وإن كان العدد قليلاً ، وعلى المستوى الجماعي العبرة بالعدد ، وعليه فالأجيال السابقة يكثر فيها ذوو الفضل ويقل المفسدون ، وما دمنا جميعاً سنرجع إلى الله ويحاسب كل واحد على ما عمل فلابد أن نؤمن بقوله تعالى ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام : ١٦٤] وقوله ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [فاطر : ١٨][1] .



س : هل هناك حساب للأنبياء والرسل يوم القيامة ؟

ج : ليكن معلوماً أن أحوال الآخرة من الغيب لاتعرف إلا بخبر صادق من القرآن والسنة ، واعتقاد هذه الأحوال يكون عن نص قطعي الثبوت والدلالة وما وراء ذلك يدخل في دائرة الاجتهاد الذي لا يلزم اعتقاد نتيجته ، ولا يكفر من لا يصدقه.

وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٦] وهو سؤال عن التبليغ لا عن الأعمال التي يمارسها كل مؤمن ليجازى عليها ، فذلك ما يطلق عليه اسم الحساب الذي يتصل به عرض الكتاب وقراءته ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] غير أن هناك استثناءات من الحساب جاء بعضها في الحديث المتفق عليه أن سبعين ألفاً من أمة النبي ﷺ يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وعينهم بقوله : «وهم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» .

---

١ - ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني ج٥ ص ٣٥٤ وما بعدها .

ومن المعلوم أن الرسل قد عصمهم الله من الذنوب وغفر لهم ما عسى أن يكون قد صدر عنهم في صورة ذنب وهو ليس بذنب ، وما دام الله قد غفر لهم فعلى أي شيء يحاسبهم حساب مناقشة ، وإذا كان المذكورون من السبعين ألفاً لايرقون إلى درجة الأنبياء والرسل قد أعفاهم الله من الحساب فهل يكون للأنبياء والرسل حساب ؟ نعم سيسألون عن تبليغ الرسالة كشهادة على أممهم ، أما سؤال الحساب وما يترتب عليه من جزاء فلا . وإذا كان الأنبياء لا يسألون في القبر فكيف يحاسبون يوم القيامة ؟

يقول الشيخ العدوي في كتابه [1] : اتفق جمهور أهل السنة على عدم سؤال شهيد الحرب ، والسر في ذلك كونهم أحياء ، فلذلك لا يُغسَّلون ، وكذلك الرسل والأنبياء لا يسألون أيضاً على التحقيق .



س : قرأنا في بعض الكتب أن الله لايحاسب العلماء يوم القيامة ، فهل هذا صحيح ؟

ج : هناك تحذير شديد في القرآن والسنة من عدم عمل الإنسان بعلمه ، وبخاصة إذا كان يعلِّم الناس الخير والبر ، وينسى نفسه فلا يعمل الخير والبر ، وكذلك من يعلِّم الناس غير مخلص لله في ذلك ، بل للرياء والسمعة ، وهو من أول من تسعَّر بهم النار يوم القيامة كالذي يقاتل ليقال : إنه شجاع ، ويتصدق ليقال : إنه جواد . والآيات والأحاديث في ذلك معروفة .

لكن ذكر السفاريني في كتابه غذاء الألباب [2] أنه روى عن النبيﷺ أنه قال «يجمع الله تعالى العلماء يوم القيامة ثم يقول : يا معشر العلماء ، إني لم أضع علمي فيكم إلا لعلمي بكم ، ولم أضع علمي فيكم لأعذبكم ، اذهبوا فقد غفرت لكم» قال ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة» [3] : وهذا وإن كان غريباً فله شواهد

١- مشارق الأنوار ص ٢٩.
٢- ج١ ص ٢٩ .
٣- ص ١٢٨ .

حسان ، فقد ذكر ابن عبدالبر عن عبدالله بن داود قال : إذا كان يوم القيامة عزل الله سبحانه العلماء عن الحساب ، فيقول : ادخلوا الجنة على ما فيكم ، إني لم أجعل علمي فيكم إلا لخير أردته بكم قال ابن عبدالبر : وزاد غيره في هذا الخبر: إن الله يحبس العلماء يوم القيامة في زمرة واحدة ، حتى يقضى بين الناس ، ويدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، ثم يدعو العلماء فيقول : يا معشر العلماء إني لم أضع حكمتي فيكم وأنا أريد أن أعذبكم ، قد علمت أنكم تخلطون من المعاصي ما يخلط غيركم ، فسترتها عليكم وغفرتها لكم ، وإنما كنت أُعْبَدُ بفتياكم وتعليمكم عبادي، ادخلوا الجنة بغير حساب ، ثم قال : لامعطي لما منع الله ولا مانع لما أعطى الله . قال ابن عبدالبر : وروى نحو هذا المعنى بإسناد متصل مرفوع . وقال ابن القيم عن بعض السلف قال : بلغني أنه إذا كان يوم القيامة توضع حسنات الرجل في كفة وسيئاته في كفة ، فتميل سيئاته ، فإذا أيس وظن أنها النار جاء شيء مثل السحاب حتى يقع مع حسناته فتميل حسناته ، قال : فيقال له : أتعرف هذا من عملك ؟ فيقول: لا ، فيقال : هذا ما علّمت الناس من الخير فعمل به من بعدك . انتهى ما نقله السفاريني.

إن حساب العلماء على التقصير ثابت بالقرآن والسنة الصحيحة ، والأخبار المذكورة لاتصل في القوة إلى درجة القرآن والسنة الصحيحة ، فهي لاتفيد في الأمور الغيبية من جهة الاعتقاد ، وقد يقصد به الترغيب في نشر العلم ، وتجاوز الله عن بعض الهفوات في مقابل ذلك كما قال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود :١١٤] مع العلم بقول الله سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] وهذه المغفرة المقيدة بالمشيئة تفيد في الكبائر والصغائر ، ومن الذي يدري بأنه سيكون ممن تشملهم المشيئة بالمغفرة ؟ فالواجب هو الالتزام بمنهج الله تعالى وتغليب الخوف على الرجاء ، حتى لاتتغلب الشهوات والمغريات ، وعند ضعف هذه المؤثرات وبخاصة في أواخر العمر -الذي لايعلم تماماً- ينبغي تقوية الرجاء ، كما قال علماء التوحيد ، فيقوى الأمل في الله ورحمته ليختم له بالحسنى.



س : كيف يحاسب المختل عقلاً في الآخرة ؟

ج : المختل في عقله يسقط عنه التكليف ، وبالتالي لايسأل يوم القيامة عن عمله ، ففي الحديث الذي رواه أبو داود «رفع القلم عن ثلاث ، عن الصبي حتى يبلغ ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يفيق».



س: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨].

ج : مما يجب أن يعتقده كل مسلم أن الحساب بعد الموت حق ، وذلك لترتب الجزاء عليه ، قال تعالى ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦] وقال ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر : ٩٢ ، ٩٣] وهذا الحساب على مرحلتين الأولى في القبر بعد الموت ، والثانية بعد البعث والعرض على الله ، وسؤال القبر بمعرفة الملكين كما هو ثابت بالقرآن والسنة ويكون عن الاعتقادات ، أما السؤال الثاني فيكون على كل شيء من واقع الكتاب المسطر فيه أعمال الإنسان ، ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء : ١٣ ، ١٤] .

قال العلماء : يستثنى من سؤال القبر الشهداء والصديقون والمرابطون في سبيل الله والأطفال ، والحساب بعد البعث عام ، يسأل فيه الرسل عن التبليغ كما يسأل الناس عن موقفهم من الرسالة ، قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة : ١١٦] وقد ورد ما يفيد ظاهره عدم سؤال النبي ﷺ كقوله تعالى ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة : ١١٩] لكن المراد أنك غير مسئول عن كفرهم فما عليك إلا البلاغ ، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص : ٥٦] كما ورد ما يفيد ظاهره أن الكافرين المجرمين لايسألون، كما في قوله تعالى ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ لكن المراد أن المجرمين الكافرين لايسألون عن

المعاصي التي اقترفوها لأنها كثيرة ، ويكفي عنها الذنب الأكبر وهو الكفر ، فليس بعد الكفر ذنب يستحق أن يسأل عنه . لأن مصيرهم النار خالدين فيها أبداً . أو المعنى لايكلفون يوم القيامة أن يرضوا ربهم بالإيمان لأن الآخرة ليست دار تكليف ، كما يفيد قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل : ٨٤] وقوله ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٦] .

فالسؤال يوم القيامة لتقدير الجزاء ، وهو يسير على الطائعين من المؤمنين ، عسير على الكافرين والعاصين ، ويكفي أن يسأل الكافر عن كفره دون حاجة إلى التفاصيل، فالمصير معروف قال تعالى ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنثُورًا ﴾[الفرقان : ٢٣] .



س : ما حساب الذين ماتوا قبل الإسلام ، هل يدخلون الجنة أم يدخلون النار؟

ج : أهل الفترة هم الذين لم يروا نبيًّا سابقاً ولا نبيًّا لاحقاً ، عاشوا وماتوا في فترة ليس فيها نبي ، ومنهم العرب الذين ماتوا قبل بعثة النبي ﷺ حيث لم يأتهم نبي بعد إسماعيل ، فمن آمن من هؤلاء بالرسل الذين أرسلوا إليهم فهم في الجنة ، ومن لم يؤمن فهو في النار ، وهناك جماعة لم تبلغهم دعوة أي نبي من الأنبياء ، وقد اختلف فيهم العلماء ، فقال بعضهم ، كان الواجب عليهم أن يعرفوا ربهم بعقولهم عن طريق النظر في مخلوقاته ليؤمنوا به ، فمن توصل منهم إلى معرفته وآمن به نجا ، ومن لم يفعل ذلك فهو في النار .

وقال آخرون : لايكلف هؤلاء بالإيمان إلّا بحسب شرع يأتي إليهم ، فإذا لم يجئ فلا مسئولية عليهم ، قال تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء :١٥] .

وحجة كل فريق مبسوطة في الكتب المتخصصة [1] . وسترى الحديث عن أبوي النبي ﷺ له نصيب كبير من البحث .

١- الملل والنحل للشهرستاني ، المواهب للقسطلاني مع شرح الزرقاني .

ومهما يكن من شيء فإن معرفة ذلك ليست فرضاً علينا ، وليست عقيدة نُسأل عنها ، والبحث شهوة عقلية لاتغير من واقع هؤلاء الناس شيئاً ، فربهم أعلم بهم وقد أفضوا إليه بما قدموا .



س : هل المفكرون والمخترعون والمكتشفون والمصلحون ممن لم يعتنقوا الإسلام ، يأخذون من الله أجراً على أعمالهم التي أفاد منها الكثيرون ؟

ج : ليكن معلوماً أن الثواب في الآخرة بدخول الجنة شرطه الإيمان بالله والإخلاص له ، فالكافر بالله لايستحق ثواباً لأنه لم يؤمن والمؤمن غير المخلص لايستحق كذلك ثواباً ، لأنه عمل لغير الله ، وكل ما فعله غير المؤمن من صالحات مردود عليه يوم القيامة ، والنصوص في ذلك كثيرة ، منها قوله تعالى في الذين لايؤمنون بلقاء الله ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] وقوله ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٦] ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٧] وقوله عن المنافقين ﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة : ٥٣ ، ٥٤] وقوله ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

فالكافر محروم من الثواب على أعماله الصالحة ولن يدخل الجنة أبداً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] والمؤمن الذي يرائي بعمله هو مشرك شركاً خفيًا ، والنصوص في حرمانه من الثواب كثيرة .

هذا بالنظر إلى الآخرة ، أما بالنظر إلى الدنيا فإن كل إنسان يستحق أن ينال جزاء عمله فيها بمشيئة الله ، إن خيراً فخير وإن شرًّا فشر ، فالكافر لا يحرم من ثواب على أعماله الصالحة بمثل احترام الناس له ومكافأته على خدماته وتكريمه بأية وسيلة من وسائل التكريم ولايحرمه الله من الرزق على الرغم من كفره قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة:١٢٦] وقال ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل عمران : ١٩٦ ، ١٩٧] وقال ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [هود : ١٥ ، ١٦] وقال ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢٠] العاجلة -الدنيا-.

فهذه الآيات تدل على أن الكافر الذي يريد الدنيا بأعماله قد ينال ثواباً دنيويًّا إذا أراد الله ذلك لقوله ﴿ مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ وليس له في الآخرة نصيب من التكريم ، والمؤمن والكافر يتمتعان في الدنيا بنعم الله ، وفي الآخرة يفترقان ، فالمؤمن مصيره الجنة ، والكافر مصيره النار.

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله ،ابن جُدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال «لاينفعه ، إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» وابن جدعان اسمه عبدالله كان من بني تيم بن مرة من أقرباء عائشة لأنه ابن عم أبي قحافة والد أبي بكر ، اتخذ جفنة للضيفان يرقى إليها بسلم ، وكان من رؤساء قريش في الجاهلية ، وروى ذلك عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ «إن الله لايظلم مؤمناً حسنة يعطى بها في الدنيا

ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لله بها في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها».

هذا هو حكم الكافر إذا مات على كفره ، لايجازى بخير في الآخرة ، وقد يعترض على هذا بأن الله أثاب أبا طالب على حمايته للنبي على الرغم من موته على الكفر ، فقد روى مسلم أن العباس عم النبي ﷺ قال له : يا رسول الله إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك ؟ قال «نعم وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح» وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة ، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه».

لا يعترض بهذا لأن أبا طالب لاتشفع له حمايته للنبي ألا يدخل النار ، فهو داخل فيها لامحالة ، محروم من الجنة ، وإن كان عذاب النار خفيفاً عليه ، فإن الفائز هو من ينتهي إلى الجنة ، قال تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

بقي أن نعرف حكم الكافر إذا أسلم ومات على الإسلام ، هل تنفعه أعمال الخير وهو كافر فيثاب عليها في الآخرة ، أو يحبطها الله بسبب أنها عملت بدون إيمان بالله واليوم الآخر ؟ روى مسلم حديث حكيم بن حزام الذي قال للنبي ﷺ أرأيت أموراً كنت أتحنث بها في الجاهلية ، من صدقة أو عتاقة أو صلة رحم ، أفيها أجر ؟ فقال ﷺ «أسلمت على ما أسلفت من خير» وحكيم عاش مائة وعشرين سنة ، منها ستون سنة في الجاهلية . وستون سنة في الإسلام ، أعتق في الجاهلية مائة رقبة ، وحمل على مائة بعير ، فما معنى قول النبي له «أسلمت على ما أسلفت من خير» ؟

يقول بعض العلماء : إن المعنى أنك كنت ذا طبع جميل في الجاهلية ، وصحبك طبعك في الإسلام ، فالاستعداد الطيب هو الذي ساقه إلى الإسلام ، وبهذا يكون ثوابه على أعماله الطيبة مسكوتاً عنه . أو يعطى حكم أعمال الكافرين . لاثواب لها في الآخرة ، وثوابها في الدنيا أن الله وفقه إلى الإسلام .

ويقول البعض الآخر : إن المعنى أن من أسلم يحفظ الله له ما قدمه حال كفره ولايحرمه من ثوابها ، أما من لم يسلم فلا ينفعه ذلك عند الله .

من هذا نرى أن من أدرك الإسلام ولم يسلم ومات على كفره يحبط عمله في الآخرة ولايثاب عليه ، أما في الدنيا فينال أجر عمله ، من رزق الله له وتمتعه بمكاسب الدنيا المادية والأدبية ، وكفى ذلك ثواباً .



س : هل يدخل الجنة من أهل الديانات الأخرى من لم يفعل الفاحشة وكان مستقيماً في حياته ومعاملاته مع الناس ؟

ج : معلوم أنه لايعتد بدين بعد مجيء الإسلام كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

والجنة لا يدخلها بعد مجيء الإسلام إلا من آمن بالإسلام ما دام قد بلغته دعوة الإسلام ولم يؤمن به والأعمال الصالحة لغير المسلم لاثواب عليها في الآخرة قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

وقال في حق المنافقين ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٥٣] .

أما في الدنيا فيثاب عليها ، روى مسلم أن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ: إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه : قال: «لاينفعه إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» يقول القرطبي في تفسيره[1] روى عن أنس أن النبي ﷺ قال : «إن الله لايظلم مؤمناً حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لله بها في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها» فالإيمان شرط للثواب في الآخرة .

---

١ - ج٨ ص١٦١ .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء : ١٩] .

وقد يعترض على إحباط عمل الكافر بحديث رواه مسلم أن العباس قال للنبي ﷺ إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك ؟ قال «نعم وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح» وأجيب عنه بأن تخفيف عذاب أبي طالب كان بشفاعة أما غيره فقد أخبر عنه القرآن بقوله : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر : ٤٨] . وقوله مخبراً عن الكافرين : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الشعراء: ١١٠ ، ١٠١] .

وقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبوطالب فقال «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه» ومن حديث العباس «ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار».

هذا ، ولو أسلم الكافر ومات على الإسلام قال بعض العلماء : يرجى أن يثيبه الله في الآخرة على الحسنات التي فعلها وهو كافر ، فقد روى مسلم عن حكيم بن حزام أنه سأل الرسول ﷺ عن الصدقة والعتق وصلة الرحم التي كانت يتعبد بها في الجاهلية فقال له «أسلمت على ما أسلفت من خير».

ورأى بعض العلماء أنه لايثاب ، وقول النبي ﷺ هذا معناه أن الأعمال الخيرة التي عملتها في الجاهلية تدل على أن معدنك طيب وأن فيك خيراً ، وهذا الخير هو الذي قادك إلى الإسلام فالعبارة محتملة وليس فيها تصريح بأن حسنات الكافر قبل إسلامه يثاب عليها عند الله والذي يقصد بعمله دنيا يصيبها ماديًا أو أدبيًا ولايريد وجه الله يحرم من ثواب الآخرة سواء أكان مسلماً أم غير مسلم، لعموم قوله تعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [هود : ١٥ ، ١٦] .

وقوله ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : ٢٠] .

وقوله ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء : ١٨].

وحديث .. الثلاثة الذين تسعَّر بهم النار معروف رواه مسلم ، وهم المجاهد الذي قصد أن يقال إنه شجاع ، والكريم الذي قصد أن يقال إنه كريم والعالم الذي قصد أن يقال إنه عالم ، وقد قيل : ثم يسحبون على وجوههم ويلقون في النار.



س : هل يجوز أن يقال عن الميت غير المسلم : المرحوم ، أو رحمه الله ؟

ج : قال النووي [1] يحرم أن يدعى بالمغفرة ونحوها لمن مات كافراً ، قال الله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣] وقد جاء الحديث بمعناه والمسلمون مجمعون عليه.



س : كيف يمر الناس على الصراط يوم القيامة ؟

ج : الصراط في اللغة هو الطريق الواسع ، وفي الشرع - كما قال الدردير في شرح خريدته - جسر ممدود على متن جهنم بين الموقف والجنة أرق من الشعرة وأحدُّ من السيف ، وأنكر الإمام الغزالي والعز بن عبدالسلام كونه أرق من الشعرة وأحد من السيف ، بل هو متسع لورود ما يدل على ذلك ، وعلى فرض صحة هذا الوصف يؤول على أنه كناية عن شدة المشقة ، فهو مختلف في الضيق والاتساع بحسب الأعمال كما قال الدردير ، فالمارون عليه منهم سالم بعمله ناج من نار جهنم -لأنه منصوب على متنها كما في الحديث- وهم على أقسام : منهم من يجوزه كلمح البصر ، ومنهم من يجوزه كالبرق الخاطف ، ومنهم كالريح العاصف أو كالطير أو كالجواد السابق ، ومنهم من يسعى سعياً ومنهم من يمشي

١- الأذكار ص ٣٦٣ .

ومنهم من يمر عليه حبواً ومنهم من تخدشه كلاليب فيسقط ولكن يتعلق بها فيعتدل ويمر ويجاوزه بعد أعوام ، ومنهم غير السالم من الوقوع في النار ، وهم متفاوتون بقدر تفاوتهم في الجرائم ، فمنهم من يخلد في النار وهم الكفار ، ومنهم من يخرج منها بعد مدة على حسب ما شاء الله وهم عصاة المؤمنين ، والصراط ثابت بالقرآن والسنة والإجماع -كما ذكره العدوى في كتابه [1] قال تعالى ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ [يس : ٦٦] وقال ﷺ «ينصب الصراط على متن جنهم فأكون أول من يجوزه وأمتى».

والحق تفويض معرفة حقيقته إلى الله تعالى ، ويمر عليه الأولون والآخرون حتى من لاحساب عليهم قال العلاَّمة الأمير -وكلهم سكوت إلا الأنبياء- وقولهم إذ ذاك: اللهم سلِّم سلِّم ، كذا في الصحيح الذي رواه مسلم [2] ثم ذكر العدوي أخباراً لاتبنى عليها عقيدة ، وقال الفاكهاني : إنه موجود الآن والأخبار عنه صحيحة ، وأهل السنة أبقوها على ظاهرها من تفويض علم حقيقته إلى الله تعالى ، وقال بعضهم : إنه يوجد عند الحاجة إليه . وذكر حديثاً أخرجه ابن مردويه في تفسيره بسند لابأس به عن ابن عمر عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدميه إلى عنان السماء يضيء له إلى يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين» وهذا النور يكون على الصراط كما في حديث رواه الطبراني ، وفي حديث للديلمي «الصلاة نور على الصراط» وكلها أحاديث للترغيب في العمل الصالح . والحقيقة هناك يعلمها الله سبحانه وتعالى .



س : هل سيتعرف الإنسان على أقاربه يوم القيامة ؟

ج : التعرف على الأقارب بمعنى رؤيتهم ومعرفتهم أمر ممكن إن تيسر اللقاء بهم، أما التعرف بمعنى النفع والإفادة فقد ورد فيه قول الله تعالى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس : ٣٤ - ٣٧].

١- مشارق الأنوار ص ١٧١ .

٢- الترغيب والترهيب للمنذري ج٤ ص ١٤٩ .

وستكون هناك شفاعة الولد الصغير الذي صبر أبوه على موته ، ويأخذ بيده ويدخل معه الجنة كما ثبت في الحديث .



س : هل يعرف النبي ﷺ أمته يوم القيامة ؟

ج : يقول الله تعالى عن يوم القيامة ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾ [الإسراء: ٧١] .

يقول المفسرون : الإمام هو الكتاب ، وقيل : الرسول . فيقال يا أمة القرآن ، ويا أمة الإنجيل ، أو يقال : يا أمة محمد ، ويا أمة عيسى ، وكذلك كل من يتبعون فكراً معيناً يسيرون خلف صاحب هذا الفكر ، فهو إمامهم في ذلك . ويصنف القوم إلى مؤمنين وكافرين ، كما يصنف المؤمنون إلى من يدخلون الجنة رأساً ، ومن يدخلون بعد عقابهم في النار إلى أجل.

ومن هذا نعلم أن الرسول ﷺ يعرف أمته إجمالاً عند هذا النداء ، كما أنه يعرفهم أيضاً بعلامة أخرى جاءت فيما رواه مسلم في حديث طويل أنه ﷺ أتى المقبرة -بضم الباء وفتحها- فقال «السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم عن قريب لاحقون وددت أنا قد رأينا إخواننا» قالوا : أو لسنا بإخوانك يا رسول الله ؟ قال «أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد» قالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله ؟ قال «أرأيت لو أن رجلاً له خيل غير محجلة بين ظهري خيل دهم بُهم ، ألا يعرف خيله» قالوا : بلى يا رسول الله قال : «فإنهم يأتون غرًّا محجلين من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض» يعني لهم بياض في وجوههم وفي أرجلهم من أثر الوضوء .

وإذا كان الحديث يثبت أنه سيكون على الحوض يوم القيامة ليسقى منه أمته التي عرفها بهذه السيما ، فإن بعضهم لايستحق التكريم بشربه من الحوض ، حيث لم يعرف الرسول تفاصيل أعمالهم ، ولذلك جاء في رواية لمسلم قريبة من رواية البخاري «ترد عليَّ أمتي الحوض وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل

عن إبله» قالوا : يا نبي الله تعرفنا ؟ قال «نعم ، لكم سيما ليست لأحد غيركم ، تردون عليَّ غرًّا محجلين من آثار الوضوء ، وليصدن عني طائفة منكم فلا يقبلون ، فأقول : يا رب هؤلاء من أصحابي فيجيبني ملك فيقول : وهل تدري ما أحدثوا بعدك».



س : هل يؤاخذ الله سبحانه وتعالى الأبناء بذنوب فعلها الآباء؟

ج : يقول الله سبحانه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء : ١٥] وقال ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر : ٣٨] وقال ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور : ٢١] .

هذه الآيات وأمثالها التي تدل على أن الله لايظلم أحداً فيعاقبه بما جناه غيره ، متفق على أنها في يوم القيامة عند الحساب والجزاء ، لكن في عقاب الدنيا قد يؤخذ البريء بسبب معصية غيره عندما يجيء عقاب عام كالخسف والزلزال بسبب شيوع المعاصي ، كما في حديث البخاري ومسلم «يغزو جيش الكعبة ، فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على قدر نياتهم» ومنه ما جاء في بعض الأدعية ، (لاتؤاخذنا بما فعل السفهاء منا).

فالأبناء وغيرهم يؤخذون بذنوب آبائهم ومجرميهم إذا كثر الفساد ، وذلك في عقاب الدنيا ، وسيعوض الله الأبرياء خيراً في الآخرة ، والآباء إذا كانوا مجرمين سرت العدوى إلى أولادهم بالتقليد والمحاكاة ، وكرههم الناس لكراهتهم لآبائهم ، فشؤم معصية آبائهم يلحقهم في معاملات الدنيا طوعاً أو كرهاً ، أما الأعمال ، فكل واحد مسئول عن عمله يوم القيامة أمام الله ، وعلى ضوء هذا يفهم الحديث القدسي الذي رواه أحمد عن وهب (أني إذا أُطعت رضيت ، وإذا رضيت باركت ، وليس لبركتي نهاية ، وإذا عُصيت غضبت ، وإذا غضبت لعنت ، ولعنتي تبلغ السابع من الولد) ، وعلى شاكلة هذا لو اختار الرجل زوجة صالحة كان هناك أمل في صلاح الأولاد ، وبالعكس لو اختار الرجل زوجة غير صالحة نشأ الأولاد ،

وقد نزعهم عرق من الأم ، ومن هنا كانت الوصية (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس) ، وقال أبو الأسود الدؤلي لأولاده : قد أحسنت إليكم صغاراً وكباراً وقبل أن تولدوا ، حيث اخترت لكم أما لاتسبون بها ، فجناية الآباء تصيب الأبناء في مثل هذه الأمور الدنيوية .



س : ما هي الموازين التي تُوزن بها الأعمال يوم القيامة ، وكيف يكون الوزن؟

ج : قال الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

الموازين هي الوسائل التي تقدر الشيء ، وهي مختلفة في أشكالها وتصميماتها كما نرى في الدنيا ، وموازين الأعمال يوم القيامة لايعرف حقيقتها إلا الله سبحانه ، وإن كانت وردت آثار تذكر ما فيها من كفة توضع فيها الحسنات وأخرى توضع فيها السيئات على ما كان معهوداً للناس عند نزول القرآن .

وموازين الدنيا تطورت وتدخلت الإليكترونيات في تقدير الأثقال والأزمنة وتحركات الأجسام والأحاسيس التي تنفعل بها النفوس وكل شيء. وموازين الله أدق من كل الموازين ، فهي قسط أي عدل ، والله لايظلم أحداً ما يزن أقل مقدار كان يعرف قبل بحبة الخردل ، والميزان وسيلة لاطمئنان الإنسان ليعرف ما له وما عليه ، وإن كان عدل الله لايحتاج إلى ميزان يطلع عليه الإنسان ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ .

وجاء في تفسير القرطبي [1] أن الذي يوزن هو صحائف الأعمال كما قال ابن عمر وهو الصحيح . وقد أنكر المعتزلة الميزان ، بناء منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها ، لأنها لاتقوم بنفسها . ومن المتكلمين -علماء الكلام والتوحيد- من يقول : إن الله تعالى يقْلب الأعراض أجساماً فيزنها يوم القيامة .

١- ج٧ ص ١٦٥ .

والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب التي فيها الأعمال مكتوبة ، وبها تخف ، وقد روى أن ميزان بعض بني آدم كاد يخف بالحسنات فيوضع فيه رَقٌّ مكتوب فيه «لا إله إلا الله» فيثقل . وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال ما معناه : «إن الله يعطي صحيفة الحسنات للعبد الذي غفر له وستر ذنوبه» وهو دليل على أن الأعمال تكتب في الصحف وتوزن . كما روى ابن ماجه أن رجلاً ينشر عليه يوم القيامة تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل مدُّ البصر.

وبعد ، فهذه أمور سمعية نؤمن بها ونترك معرفة حقيقتها لله تعالى ، وسنعرفها حتماً عند لقاء الله ، ونرجو أن نعمل صالحاً لتثقل موازيننا بالحسنات.



س : من هم أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ ؟

ج : أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ هم الواقفون في الموقف جميعاً من لدن آدم إلى آخر الدنيا ، وهي الشفاعة العظمى والمقام المحمود ، على ما هو مذكور في حديث طويل ، وهناك شفاعة خاصة جاءت في الحديث نفسه ، وهي لسبعين ألفاً من أمته يدخلون الجنة بغير حساب «الذين لايرقون ولايسترقون ولايتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» وأكثر الناس حبًّا للرسول ﷺ هم أسعد الناس بشفاعته ، وهذا الحب يقتضي العمل بما جاء به مع الإخلاص فيه ، والإكثار من الصلاة عليه فهو يعرفهم بذلك عند الحوض المورود ، وفي حديث الترمذي وابن حبان «إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة» وفي صحيح مسلم «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليَّ ، فإن من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها درجة في الجنة لاتنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة».



س : أرجو تفسير قوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) ﴾ [الأعراف : ٤٦ - ٤٨] .

ج : المعنى باختصار أن بين الجنة والنار سوراً ، وعلى أعراف السور أي أعاليه أناس يعرفون أهل الجنة بعلامات ، وهي بياض الوجوه وحسنها ، وأهل النار بعلامات ، هي سواد الوجوه وقبحها ، وينادون أهل الجنة بالتحية ويهنئونهم بالسلام من النار أي السلامة من عذابها .

إن أهل الأعراف لم يدخلوا الجنة ويطمعون في دخولها ، منتظرين رحمة الله لهم ، وهؤلاء هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وهو أحسن الأقوال العشرة فيهم ، وذلك لحديث رواه خيثمة عن جابر عن النبي ﷺ بهذا المعنى .

عندما ينظر أهل الأعراف إلى أهل النار يدعون ربهم ألا يكونوا معهم فيها ، ويتفرسون في جماعة من أهل النار كانوا مستكبرين على الله بما يملكون من متاع الحياة الدنيا فكفروا به ، ويقولون لهم مبكِّتين : لم يُغْنِ عنكم ما جمعتم من الدنيا وما استكبرتم به على الله .

والخلاصة أن أهل الجنة هم المؤمنون الصالحون حتى لو كانوا فقراء ، وما دامت حسناتهم أكثر من سيئاتهم ، فلن يدخلوا النار لأن الحسنات يذهبن السيئات وأن أهل النار هم الكفار حتى لو كانوا أغنياء ما دامت سيئاتهم أكثر من حسناتهم ، مع العلم بأن حسنات الكفار صارت في الآخرة هباء منثورا كما قال رب العزة ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] أما من استوت حسناتهم وسيئاتهم من المؤمنين فينتظرون على الأعراف رحمة الله بهم ليلحقهم بأهل الجنة .



س : هل الجنة والنار من خلق الدنيا أم الآخرة ، فإن كانت الأولى فأين فراغهما والجنة وحدها عرض السموات والأرض ، وما عملهما في الدنيا وهما حصادها في الآخرة ، وإن كانت الثانية فكيف إذا جاء شهر رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار كما يقول الحديث الشريف ؟

ج : موضوع خلق الجنة والنار ثار فيه الجدل قديماً ، فذهب جمهور المسلمين إلى أنهما مخلوقتان الآن ، وذهبت طائفة من المعتزلة والخوارج إلى أنهما لايخلقان قبل يوم القيامة ، فهما ليستا موجودتين الآن . وقد ساق كل من الفريقين أدلته ، ونوقشت الأدلة ورجح القول بأنهما مخلوقتان بالفعل ، وذلك لكثرة النصوص في القرآن والسنة بأن الجنة أُعدت للمتقين . وأن النار أعدت للكافرين ، وهذا الإعداد المعبَّر عنه بصيغة الماضي يدل وضعاً على وجودهما بالفعل ، وأما القول بأن التعبير بالماضي هو لمجرد التأكيد بأنهما سيوجدان في المستقبل فهو عدول عن الظاهر بدون مبرر ، وإن كان يمكن أن يقال : إن التعبير بالماضي في الإعداد بمعنى أنه تقرر في علم الله على وجه التأكيد فالإخبار بوجودهما وإعدادهما إخبار عن علم الله لاعن وجودهما بالفعل ، وبهذا لايكون الدليل قطعي الدلالة على وجودهما الفعلي الواقعي .

وقول من قال إن وجودهما الآن عبث لأنهما للجزاء ، والجزاء لايكون إلا يوم القيامة قول مردود ، فإن الفائدة من وجودهما الفعلي ليست محصورة في الجزاء ، فكم من أفعال تخفى حكمتها على العقول ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ .

وقد يؤكد هذا أن الشهداء ينتقلون من الدنيا لحياة أفضل عند ربهم يرزقون ، ومن ضمن الرزق والنعيم أن أرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة تأوى إلى قناديل تحت العرش كما رواه مسلم وغيره فالجنة الآن موجودة يتنعم فيها الشهداء لأنهم أحياء وليسوا بأموات كما قال الله تعالى ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] ويؤكده أيضاً ما ثبت

في النصوص من نعيم القبر وعذابه ، وهو أثر من آثار وجود الجنة والنار قال تعالى ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٦] فهذا نص على أن النار موجودة ويعرض عليها الكافرون قبل أن يدخلوها يوم القيامة .

ومهما يكن من شيء فإنه لابد من الإيمان بأن هناك جنة وناراً كما نص القرآن الكريم ، أما اعتقاد أنهما موجودتان الآن ، أو ستوجدان يوم القيامة فليس مما كلف به المسلمون ، والنتيجة هي أنهما دارا ثواب وعقاب ، وعلى المؤمن أن يستعد بعمله الصالح حتى يدخل الجنة وينجو من النار . وكذلك مكان وجودهما لسنا مكلَّفين بمعرفته ، واستبعاد أن تكونا موجودتين في الدنيا لأن الجنة وحدها عرض السموات والأرض أجاب عنه النبي ﷺ في تفسير الآية ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ بقوله : «فأين الليل إذا جاء النهار» ؟ فالكون واسع لايعلم سعته إلا الله سبحانه ، والجنة عرضها ليس هو عرض السموات والأرض الموجودة أمامنا بل هو مثله كما يفيد التعبير عن ذلك في آية ﴿عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد : ٣١] وهو كناية عن السعة .

ومعنى فتح أبواب الجنة وإغلاق أبواب جنهم في رمضان فسره العلماء بأنه كناية عن سعة رحمة الله في هذا الشهر ، أو عن كثرة الطاعة والقربات التي توصل إلى الجنة، كأن أصحابها يدخلون الآن بما يقدمون من عمل ، وعن قلة المعاصي التي توصل إلى النار ، كأنه لايوجد في رمضان من يعصي الله ويستحق دخولها ، وذلك بالنسبة للمؤمنين الطائعين ، أما الكافرون -وما أكثرهم- فإن أبواب جهنم مفتوحة لهم ، استعداداً لدخولهم في كل وقت من الأوقات ، بسبب ما هم فيه من كفر وعصيان ، ذلك بعض ما قيل في الموضوع ، ولعله يكفي في الإجابة على السؤال .



س : نعلم أن الجنة دار النعيم يدخلها بعد القيامة المؤمنون ، فهل دخلها أحد قبل يوم القيامة وهو على قيد الحياة ؟

ج : سبق بيان أن الجنة والنار مخلوقتان الآن وهو رأي جمهور العلماء ، وأن أرواح الشهداء في حواصل طير تسرح في الجنة تأوي إلى قناديل تحت العرش كما رواه مسلم وغيره ، وذلك بعد مفارقة الحياة لهم بالموت في سبيل الله ، حيث يحييهم الله وينعم عليهم كما قال سبحانه ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

أما أن يدخل الجنة أحد في الدنيا قبل موته فذلك ممكن إذا رأى ذلك في المنام ، كما يرى أشياء من الصعب تحققها في عالم اليقظة كالطيران والطواف حول الأرض وما إلى ذلك وقد رأى النبي ﷺ في منامه الجنة ، وأنه ارتقى إلى مدينة مبنية بلبنِ ذهب ولَبِن فضة فدخلها وقال له الملكان : هذه جنة عدن وهذا منزلك . فطلب منهما دخوله فقالا له : إنه بقي لك عمر لم تستكمله ، فلو استكملته أتيت منزلك[١]. فظاهر الحديث أنه دخل الجنة ولم يدخل منزله . وثبت في البخاري وغيره أنه ﷺ دخل الجنة ليلة المعراج [٢] حيث قال كما رواه أبو ذر وأخرجه البخاري في كتاب الصلاة «ثم أدخلت الجنة» ومعلوم أن الصحيح في الإسراء والمعراج أنهما كانا بالروح والجسد ولم يكونا مناماً ، ليظهر امتياز الرسول على غيره ممن يُسرى بأرواحهم مناماً ويرون العجائب . وقال ﷺ عن ليلة المعراج كما ذكره أنس ورواه البخاري ومسلم «بينما أنا أسير في الجنة» [٣].

فالخلاصة : أن النبي ﷺ دخل الجنة ليلة المعراج بروحه وبجسده على الصحيح، كما دخلها في الرؤيا المنامية ورؤيا الأنبياء حق . وذلك فضل كرّم الله به رسوله ،

١- رواه البخاري : رياض الصالحين ص ٥٦٣ ، ٥٦٥ .
٢- الزرقاني على المواهب اللدنية ج٦ ص ٩٠ .
٣- المرجع السابق ص ٩١ .

ونرجو أن ننعم بدخلوها معه بعد الحساب ، وذلك عن طريق الإيمان والعمل الصالح والأمل في رحمة الله وفضله .



س : ما أسماء الجنات التي وعد الله بها المؤمنين ؟

ج : هناك أحاديث تدل على أن للجنة ثمانية أبواب .

ويقول القرطبي بعد ذكر أحاديث فيها أبواب كثيرة باسم الطاعات من الصلاة والصيام والجهاد وغيرها : هذا يدل على أن أبواب الجنة أكثر من ثمانية وانتهى عددها إلى ثلاثة عشر باباً . كذا قال .

لكن هل هي جنة واحدة أم جنات متعددة ؟ وإذا كانت جنات متعددة . هل هي على مستوى واحد تختلف مواقعها حسب منزلتها ، أم هي طبقات بعضها فوق بعض ، وإذا جاء في الحديث «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس الأعلى» هل يدل على علو المكان أم على علو المكانة؟

نترك علم ذلك لله ، وعندما نعاين بأنفسنا إن شاء الله .

وقد جاء في القرآن ما يدل على أن هناك عدداً من الجنات ، والآيات في ذكر لفظ «جنات» كثيرة ، وجاء أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦] وقوله : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٦٢] .

كما ورد في القرآن والأحاديث أوصاف للجنة ، فإن كانت جنة واحدة كانت هذه أوصافاً لها ، وإن كانت جنات متعددة كانت أسماء للجنات ، وفي الوقت نفسه تتحقق فيها صفاتها .

فمن الأوصاف أو الأسماء سبعة : جنات عدن ، ودار السلام ، ودار الخلد ، والفردوس ، وجنة المأوى ، وجنة النعيم ، ودار الإجلال.

واختار هذا ابن عباس وجماعة .

وذهب الجمهور إلى أن عدد الجنات أربعة فقط ، بدليل الآيتين السابقتين المذكورتين في سورة الرحمن ، فهناك جنتان : لمن خاف مقام ربه هما جنة النعيم وجنة المأوى ، والجنتان اللتان دونهما هما جنة عدن وجنة الفردوس .

هذا ، والحق الذي يجب أن نؤمن به أن هناك دار ثواب أعدها الله تعالى للمؤمنين من عباده سماها بالجنة ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

والأولى الإمساك عن كونها جنة واحدة أو أكثر ، وتفويض ذلك إلى علم الله تعالى ، وإلى ما سنراه بإذن الله فيها إن ختم لنا بالإيمان .



س : ما أسماء أبواب الجنة وأبواب النار السبعة ؟

ج : جاء في كتاب (مشارق الأنوار للعدوي) [1] أن للجنة ثمانية أبواب كما رواه البخاري ومسلم ، منها باب الريان الذي يدخل منه الصائمون ، وفي رواية أخرى «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة ، وللجنة أبواب. فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد» وأخرج الطبراني حديث «وإن في الجنة باباً يقال له الضحى» وذلك لمن يديمون صلاة الضحى.

هذا ما ذكره عن أسماء الأبواب ولم يذكرها كلها مع أن عددها ثمانية . فلنقتصر على الوارد بطريق صحيح ، والقرطبي في التذكرة نقل عن الترمذي الحكيم أن في الجنة باباً خاصًّا لأمة محمد ﷺ لايدخل منه غيرهم والرسول يدخل من باب محمد وهو باب الرحمة والتوبة .

هذا ما ذكره وفيه روايات ضعيفة والعقائد والغيبيات بالذات لاتقبل فيها أمثال هذه الروايات ، وعند وصولنا إلى الجنة سنرى ونعلم الحقيقة إن شاء الله .

١- ص ١٧٨ .

وجاء في المشارق [1] أن للنار سبعة أبواب من واقع قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحجر:٤٣،٤٤].

وذكر أن الباب الأول اسمه : جهنم ، والثاني : لظى ، والثالث : سقر ، والرابع : الحطمة ، والخامس : الجحيم ، والسادس : السعير ، والسابع : الهاوية ، وهي أسماء مأخوذة من طبقات جنهم ، والله أعلم بالحقيقة .



س : نريد توضيحاً لأوصاف أنهار الجنة ؟

ج : جاء في القرآن الكريم وصف نعيم الجنة بأوصاف فيها بعض الغرابة ، بالنسبة لما نراه في عالم الدنيا ، حيث تختلف طبيعة الأشياء ويختلف الحكم المنوط باستعمالها إباحة ومنعاً ، فهناك زواج بلا تناسل ، وأكل وشرب بلا مخلفات وخمر بلا سُكْر ولاغول ، ولا لغو ولا تأثيم ، وهناك ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، والحق -كما قيل- أن كل ما خطر ببالك فالجنة على خلاف ذلك ، فقوانين الآخرة غير قوانين الدنيا ، وقد يكون هناك تشابه في الأسماء مع اختلاف المسميات شكلاً وموضوعاً كما يقولون ، قال تعالى ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ [البقرة : ٢٥] .

وقد جاء في القرآن الكريم أن في الجنة أنهاراً لم تعهد صورتها في الدنيا كما قال تعالى ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد : ١٥] . وهي كلها مشروبات تهفو إليها النفس ، كثيرة لاينضب معينها ، طيبة لايخشى فسادها ، هنيئة لاتخاف عاقبتها ، فالماء غير آسن لم تتغير ريحه ، واللبن طازج لم يفسد طعمه ، والخمر لذيذة مستساغة، والعسل نقي مصفًّى من الشوائب.

ويجيء في القرآن وصف هذه الأنهار بأنها تجري تحت الجنة ، قال تعالى ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد:٣٥] .

١- ص ١٧٥ .

فكيف يتصور أن تجري الأنهار تحت الجنة ؟ إن الصورة الحقيقية لايعلمها إلا الله سبحانه ، ومن أخبره بها ، وسيعلمها علم اليقين من يتفضل الله عليه بدخول الجنة ، ولكن المفسرين حاولوا تقريب هذه الصورة بما يعهدونه في الدنيا، فقالوا: إن الجنات بساتين على ربوات عالية بقصورها الشاهقة وأشجارها السامقة ، والأنهار تجري حولها منخفضة عند قاعدة الربوات ، والمعهود أن الأرض إذا كانت فوق مستوى الماء كانت أصلح وأطيب ، وفي الوقت نفسه توجد الفرصة لمن ينعمون بالجنات وغرفها العالية أن يتمتعوا بالنظر إلى هذه الأنهار بألوانها المختلفة .

ذلك تصوير بالقدر المستطاع للعقل البشري ، وليس فيه ما يخالف نصًّا قاطعاً ولا حكماً مقرراً ، ويكفينا من أوصاف الجنة ما جاء في القرآن وثبت في السنة ، وهو كاف لإغرائنا بالجد والعمل حتى نفوز بهذا النعيم ، وحتى نرى بأنفسنا كيف تجري الأنهار من تحتها ، وقد صح في البخاري أن النبي ﷺ قال: «بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوَّف ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ، قال : فضرب الملك بيده فإذا طينه مسك أذفر - أي في أعلى الدرجات من طيب الرائحة».



س : وصف الله الحور العين في الجنة بأوصاف لاتوجد في كثير من نساء بني آدم ، فهل تكون فيهن غيرة من جمال الحور ، وهل الغيرة تتناسب مع نعيم الجنة ؟

ج : جاء في تفسير القرطبي [1] أن هناك رأيين في التفاضل بين النساء الآدميات والحور العين ، فذكر ابن المبارك أن نساء الدنيا إذا دخلن الجنة فُضِّلن على الحور العين ، لما عملنه من الصالحات في الدنيا ، وروى مرفوعاً أنهن أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف ، وقيل : إن الحور العين أفضل لقول النبي ﷺ في دعائه «وأبدله زوجاً خيراً من زوجه».

١- ج١٦ ص ١٥٤.

نترك ذلك لنرى بأنفسنا عندما يَمُنُّ الله علينا بدخول الجنة ، مع الأخذ في الاعتبار أن قوانين الآخرة غير قوانين الدنيا ، وأن الغيرة بين الزوجات ممنوعة ، قال تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الحجر : ٤٧ - و الأعراف : ٤٣] وقال عن أهل الجنة ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر : ٣٤] .



س : من هم المبشرون بالجنة ، ولماذا ؟

ج : المؤمنون الذين سبقوا بالإيمان وتحملوا المشاق في سبيل الحفاظ على العقيدة وطاعة الله في كل المجالات مبشرون جميعاً بالجنة ، كما قال تعالى ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة:٢٥] وكما قال سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت : ٣٠] .

وأدنى تكريم بالبشارة بالجنة أن المؤمن سيموت على الإيمان وتلك هي الخاتمة الحسنة ، حتى لو كانت عليه ذنوب لم يغفرها الله سيعذب عليها في النار بقدرها إن لم تكن شفاعة تحول دون دخولها أو تخفف من المدة التي سيمكثها فيها ، وسيخرج منها ويدخل الجنة ، أما التكريم الذي فوق ذلك لمن بشر بالجنة فهو أنه سيموت على الإيمان وسيغفر الله له ذنوبه ولن يدخل النار إلا تحلة القسم كما قال سبحانه ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم : ٧١ ، ٧٢] . على الرأي المختار في معنى ورود النار .

وأكثر المبشرين بالجنة هم من خير القرون ، وهو قرن النبي ﷺ كما ثبت في الحديث ومع ذلك فقد بشر الرسول جماعة من أصحابه بوجه خاص بأنهم من أهل الجنة ، وهم عشرة ، وردت في بعضهم أحاديث خاصة بهم ، كما وردت فيهم جميعاً بعض الأحاديث ، منها حديث سعيد بن زيد -وهو أحدهم- الذي يقول: قال رسول الله ﷺ : «عشرة في الجنة : أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان وعلي

والزبير وطلحة وعبدالرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص» وسكت عن العاشر ولما سألوه أخبره عن نفسه [1].

والخلفاء الأربعة معروفون ، وما كتب عنهم كثير . أما الزبير فهو ابن العوام ، قال فيه الرسول ﷺ «لكل نبي حواري وحواريي الزبير» كان أول من سّلَّ سيفاً في سبيل الله ، وقال له الرسول يوم الأحزاب «فداك أبي وأمي» توفى سنة ٣٦ هـ.

وطلحة هو ابن عبيد الله ، لما صعد النبي ﷺ على ظهره إلى صخرة في أحد دعا له وقال «أوجب طلحه» أي وجبت له الجنة - توفى سنة ٣٦ هـ.

وعبدالرحمن بن عوف كثر ماله بعد الهجرة وأنفق منه على الكثيرين وتوفى سنة ٣٠ أو ٣٢ هـ .

وأبو عبيدة هو عامر بن الجراح ، لقَّبه الرسول ﷺ بأمين الأمة ، عندما أرسله مع وفد نصارى نجران ، وتوفى سنة ١٨ هـ في طاعون عمواس .

وسعد بن أبي وقاص كان أول من رمى بسهم في سبيل الله . وكان مستجاب الدعوة ، قال له النبي ﷺ في يوم أحد «ارم فداك أبي وأمي» وهو بطل معركة القادسية، توفى سنة ٥٥هـ.

وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، كان مستجاب الدعوة ، توفى سنة ٥١ هـ.



س : ما حكم الدين فى موت غير المسلم الذى كان يقاتل مع المسلمين ضد أعداء الدولة ، وهل يعتبر شهيدا؟

ج : الشهادة التى وعد الله عليها الثواب العظيم بالجنة لا تكون إلا للمؤمن ، وعلى أن تكون الحرب من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا ، وهذه هى الشهادة العظمى ، فهناك شرطان لاستحقاق الإنسان ثوابها العظيم ، الإيمان والإخلاص فى الجهاد .

---

١ - رواه الترمذي . وقال البخاري : هو أصح من حديث عبدالرحمن بن عوف .

وقبل الإسلام كان هناك شهداء أبلوا بلاء حسنا فى الدفاع عن عقيدتهم وأطلق عليهم لقب «الشهيد» ففى هؤلاء تحقق الإيمان بالنبى المرسل إليهم ، أما الإخلاص فمرجعه إلى النية ، والله وحده هو العليم بها ، ونحن لنا الظاهر فى إطلاق الاسم ومعاملة صاحبه فى الدنيا على ضوئه ، مع ترك الحكم عليه فى الآخرة لله سبحانه .

وبعد الإسلام لا يقبل من أحد غير هذا الدين ليكون مؤمنا ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] وقال لنبيه محمد ﷺ ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠] .

فالذى يحارب الآن دفاعا عن العقيدة والحقوق ويموت إن لم يكن مسلما فلم يتحقق فيه الشرط الأول ، وبذلك لا يعتبر من وجهة النظر الإسلامية شهيدا ، وإن كان مسلما فقد تحقق الشرط الأول ويبقى الشرط الثانى لا لإطلاق اسم الشهيد عليه ، ولكن لاستحقاقه المنزلة العالية فى الجنة ، وهو الإخلاص الذى نص عليه فى الحديث «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله » [1] .

أما ما قام به غير المؤمنين من جهاد وبطولات فليس لهم ثواب فى الآخرة عليها كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

ولهم ثوابهم فى الدنيا من مثل تقدير الناس لهم والتعامل معهم وأخذ استحقاقاتهم على أعمالهم ، فحينما دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يرزق أهل البلد «مكة» المؤمنين من الثمرات بين له ربه أن الرزق الدنيوى ينال منه المؤمنون وغير المؤمنين قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ١٢٦] وقال سبحانه فى موضع آخر ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

---

١ - رواه البخارى ومسلم .

ذلك ما قاله رب العزة وأكده رسوله ، وهو الحق الذى لا معدى عنه ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .



س : جرح مقاتل في حرب العاشر من رمضان السادس من أكتوبر ، وبعد عام من الحرب مات متأثراً بجراحه ، فهل يتساوى مع من استشهد في الميدان؟

ج : قال العلماء : من جرح في المعركة وعاش حياة مستقرة ثم مات يغسَّل ويصلى عليه وإن كان يعتبر شهيداً ، فإن النبي ﷺ غسل سعد بن معاذ وصلى عليه بعد أن مات بسبب إصابته بسهم قطع أكحله -أحد عروقه- فحمل إلى المسجد فلبث فيه أياماً ثم انفتح جرحه فمات شهيداً . يؤخذ من هذا أن المقاتل الذي اشترك في الحرب، ومات بعد عام من الحرب متأثراً بجراحه يغسل ويصلى عليه وإن كان له ثواب الشهادة ، لأنه مات بسبب الحرب.



س : هل هناك نص يقول : إن المؤمن العاصي سيكون مصيره الجنة ؟

ج : روى البخاري ومسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ وعليه ثوب أبيض وهو نائم ، ثم أتيته وقد استيقظ فقال «ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة» قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال «وإن زنى وإن سرق» قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قال : «وإن زنى وإن سرق» قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال «وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر» فخرج أبو ذر وهو يقول : وإن رغم أنف أبي ذر.

وفي رواية للبخاري أن الرسول ﷺ قال «أتاني جبريل فقال من مات من أمتك لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، قلت وإن زنى وإن سرق» .

يؤخذ من هذا أن الإنسان ما دام مؤمناً ومات على إيمانه سيدخل الجنة ، فإن كانت عليه ذنوب ومات ولم يتب منها فقد يغفر الله له إن شاء ، وقد يغفر له بشفاعة من تقبل شفاعته وقد يعذبه في النار بمقدار عصيانه وفي النهاية يخرج منها ولا يخلد فيها ، أي ينتهي مصيره إلى الجنة ، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] .

وروى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال : «إن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله» أي حرم خلوده فيها .

أما الأحاديث التي تنفي الإيمان عن الزاني والسارق ومرتكبي المعاصي فيراد بها نفي الإيمان الكامل ، وليس نفي الإيمان أصلاً ، مثل «لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فالمعصية لاتنفي الإيمان ، ولا تخرج العاصي إلى الكفر كما يقول الخوارج ، اللهم إلا إذا اعتقد أن المعصية حلال ، أي ارتكب الزنى مثلاً على أنه حلال غير حرام فهنا يكون كافراً ، وينطبق عليه ظاهر الحديث وإطلاقه دون تقييد.



س : من هم أول من يدخلون النار ، ومن يدخلون الجنة ؟

ج : في حديث صحيح رواه مسلم وغيره أن أول ثلاثة يلقون في النار : العالم الذي علَّم العلم ليقال إنه عالم ، والجوَّاد الذي أنفق ليقال إنه جوَّاد ، والمجاهد الذي جاهد ليقال إنه شجاع [1].

أما أول من يدخل الجنة فهو سيدنا محمد ﷺ كما رواه مسلم ، وأما من يدخل بعده ففيه أقوال كثيرة بروايات بعضها لايعتمد عليه في العقيدة ، ولا داعي للخوض في هذا الموضوع.



١ - الترغيب والترهيب للمنذري ج ١ ص ٢٣-٢٥.

س : هل هناك أمة من الأمم تكون في مقدمة من يدخلون الجنة ؟

ج : جاء في (المواهب اللدنية) [1]، أن من خصائص الأمة المحمدية أنهم يدخلون الجنة قبل سائر الأمم ، كما رواه ابن ماجه عن عمر . وروى الطبراني في (الأوسط) من حديث عمر مرفوعاً : «حرمت الجنة على الأنبياء كلهم حتى أدخلها ، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي» أي أن المطيع منهم الذي لم يعذب في النار يدخلها قبل المطيع الذي لم يعذب من أمة غيره ، والداخل للنار من أمته يدخل الجنة قبل الداخل للنار من أمة غيره .

يقول ابن القيم : فهذه الأمة أسبق الأمم خروجاً من الأرض ، وأسبقهم إلى أعلى مكان في الموقف ، وإلى ظل العرش وإلى فصل القضاء وإلى الجواز على الصراط وإلى دخول الجنة .



س : ما حكم أطفال المشركين الذين يموتون قبل البلوغ ، هل سيكونون في النار؟

ج : إن أحوال الآخرة من الغيب الذي لايعمله إلا الله ، ومن أطلعه عليه عن طريق إرسال الرسل ليخبروا الناس به ، والأطفال الذين يموتون قبل البلوغ ، وهو حد التكليف يتبعون أشرف دين يدين به آباؤهم وأمهاتهم ، وبهذا يكون مصير أولاد المسلمين هو الجنة ، وقد جاءت بذلك أحاديث صحيحة ، منها ما رواه مسلم أن الأطفال يشفعون لآبائهم يوم القيامة . فيقول الله لهم ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم وأنهم يسرحون في الجنة لايمنعون من بيت أطلقت عليهم بعض الأحاديث «الدعاميص» وعليه حمل بعض المفسرين قول الله تعالى ﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآبِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ ﴾ [الرعد : ٢٣] وقوله ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور : ٢١] . أما أطفال المشركين فلا يلحقون بآبائهم في النار،

١- للقسطلاني ج ٥ ص ٤١٠ .

لأنهم لم يكلفوا حتى يعاقبوا ، فهم ماتوا على الفطرة لهم الجنة إن شاء الله ، ويدل عليه حديث البخاري عن سمرة بن جندب في رؤيا رآها النبي ﷺ حيث جاء فيها أنه رأى روضة فيها رجل حوله ولدان كثيرون ، وهو إبراهيم عليه السلام، يرعى كل مولود يولد على الفطرة ، فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ فقال «وأولاد المشركين» فهم سيدخلون الجنة ، لايعلم حالهم فيها إلا الله .

وأما ما رواه الطبراني من أنهم سيكونون خدماً لأهل الجنة فهو حديث ضعيف النسبة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وموقوف على سلمان بسند حسن أو صحيح ، وقد قال المفسرون بذلك عند قوله تعالى ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة : ١٧] وقوله ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور:٢٤] والقلب يطمئن إلى دخولهم الجنة كما في حديث البخاري .

يقول النووي في شرح صحيح مسلم [1] : إن أولاد الكفار حكمهم في الدنيا حكم آبائهم ، وأما في الآخرة ففيهم إذا ماتوا قبل البلوغ ثلاثة مذاهب ، الصحيح أنهم في الجنة ، والثاني في النار ، والثالث لايجزم فيهم بشيء [2] .



س : هل في الجنة حيوانات وطيور كالتي نراها في الدنيا ؟

ج : الإجابة على السؤال ذات شقين الشق الأول دخول الحيوانات والطيور في الجنة ، والشق الثاني وجودها في الجنة .

أما الأول فإن بعض المفسرين قال : هناك عشرة من دواب الدنيا تدخل الجنة وهي : البراق الذي ركبه النبي ﷺ ليلة الإسراء ، وناقة صالح التي عقرها المكذبون ، وحمار العزير الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه فوجد حماره بجواره كما هو ، والعجل الذي ذبحه إبراهيم لضيفه من الملائكة ، والكبش الذي فدى الله به إسماعيل من

١- ج١٢ ص ٥٠ .
٢- انظر : الخطيب على متن أبي شجاع ج٢ ص ٢٥٦ .

الذبح لرؤيا أبيه ، والهدهد الذي أتى بالأخبار لسليمان عن ملكة سبأ ، والنملة التي قالت ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وكلب أهل الكهف والحوت الذي التقم يونس ، وبقرة بني إسرائيل التي دلت على القاتل لما ضُرب ببعض أجزائها .

ونقل الآلوسي عند تفسير ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ أن سائر الحيوانات المستحسنة في الدنيا كالظباء والطواويس وما ينتفع به المؤمن كالغنم تدخل الجنة على كيفية لائقة ولكن ليس في ذلك خبر يعول عليه .

وأما الشق الثاني : فمن الجائز أن يخلق الله حيوانات وطيوراً لمتعة أهل الجنة تشبه ما في الدنيا في الصورة وتخالفها في المادة ، فقد صح في مسلم أن أرواح الشهداء في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل ، وروى الترمذي بإسناد ضعيف أن النبي ﷺ قال لأعرابي «إن دخلت الجنة أتيت بفرس من ياقوته لها جناحان فتحمل عليها فتطير بك في الجنة حيث شئت» وذكر ابن عدي بإسناد ضعيف حديثاً جاء فيه «إن أهل الجنة يتزاورون على نجائب بيض كأنهن الياقوت» كما نقل الدميري (٨٠٨هـ) في «حياة الحيوان الكبرى» مادة خيل حديثاً فيه «إن في الجنة شجرة يخرج من أعلاها حلل ومن أسفلها خيل بلق من ذهب مسرجة ملجمة من در وياقوت لاتروث ولا تبول ، لها أجنحة خطواتها مد بصرها يركبها أهل الجنة فتطير بهم حيث شاءوا ، وأنها للصائمين القائمين المنفقين المجاهدين». وأحاديث الآحاد وإن كانت لاتثبت بها عقيدة لكن لامانع من أن يخلق الله في الجنة خلقاً على صفة خاصة لمتعة أهلها كالحور العين ، أما دخول حيوانات في الجنة فلا دليل عليه ، حيث إنها غير مكلَّفة لا ثواب لها ، ومن لم يصدق ذلك فلا يخدش إيمانه .



س : هل صحيح أن هناك دواب ستدخل الجنة ؟

ج : معلوم أن أمور الغيب ومنها أحوال الآخرة لاتعرف إلا عن طريق الخبر الصحيح الثابت في القرآن والسنة ، ولم يرد دليل يعتمد عليه في دخول الحيوانات الجنة ، وإن كان هناك حشر لها . وقد جاء في حاشية الدردير على قصة الإسراء والمعراج للقيطي أن عشرة من الحيوانات قد تدخلها وهي : البراق وناقة صالح وحمار العزير وعجل إبراهيم وكبش إسماعيل وهدهد سليمان ونملته وكلب أهل الكهف وحوت يونس وبقرة بني إسرائيل ، وسئل المرحوم الشيخ محمد بخيت المطيعي المفتي الأسبق عن ذلك فقال : راجعنا معظم كتب التفسير والحديث والتوحيد فلم نجد ما يثبت ذلك من حديث صحيح يعتمد عليه ، بل رأينا ما ينفي دخول تلك الحيوانات العشرة الجنة ، ونقل عن بعض كتب التفسير أقوالاً في دخولها ، بل ودخول سائر الحيوانات المستحسنة في الدنيا كالظباء والطواويس وما ينتفع به المؤمن كالغنم ، ولكن على كيفية تليق بذلك المكان وتلك النشأة ، وليس فيما ذكر خبر يعول عليه فيما أعلم «الآلوسي» نعم في الجنة حيوانات مخلوقة فيها ، وفي خبر يفهم من الترمذي صحة التصريح بالخيل منها والله أعلم وقال : وقد اشتهر القول بدخول كلب أهل الكهف الجنة حتى إن بعض الشيعة يسمون أولادهم بكلب علي ، ويؤمل من سمي بذلك النجاة بالقياس الأولوي على ما ذكر ، وينشد :

فتية الكهف نجا كلبهم   كيف لاينجو غداً كلب علي؟

ولعمري إن قبله علي كرم الله وجهه كلباً له نجا ، ولكن لا أظن يقبله لأنه عقور، انتهى . ونقل عن تفسير ابن كثير أنهم اختلفوا في لون هذا الكلب على أقوال لاحاصل لها ، ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ، ولا حاجة إليها ، بل هي مما ينهى عنه ، فإن مستندها رجم بالغيب [1] .



---

١ - مجلة الإسلام ، المجلد الثالث ، العدد ٢٥ .

س : إذا كان في الجنة زوجات يدخلنها مع أزواجهن ، وزوجات من الحور العين ، هل يكون هناك توالد وتناسل ؟ ومن أين يجيء الولدان المذكورون في القرآن ؟

ج : يقول الله سبحانه ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾ [يس : ٥٥ ، ٥٦] قال المفسرون : إن الشغل هو المتعة التي تكون بين الأزواج والزوجات ، ونُسِبَ هذا التفسير إلى ابن عباس رضي الله عنهما ، بل نُسب إلى النبي ﷺ في حديث رواه أبو يعلى والطبراني والبيهقي، وجاء في ذلك حديث أخرجه البزار والطبراني وغيرهما «أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عُدْنَ أبكاراً».

وفي مجال الحديث عن هذه المتعة تحدث العلماء عن أثرها في الإنجاب والتوالد ، فذكر العدوي [1] أن العلماء اختلفوا في ذلك ، فقال بعضهم هناك توالد ونسل ، مستدلين بحديث رواه الترمذي بسند حسن «المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسِنُّه في ساعة كما يشتهي» قال الترمذي : اختلف أهل العلم في هذا ، فقال بعضهم : في الجنة جماع ولا يكون ولد ، وهو مروي عن طاوس وعن مجاهد والنخعي ، وقال إسحاق بن إبراهيم في هذا الحديث : إذا اشتهى ولكن لايشتهي . وقال جماعة : فيها الولد إذا اشتهاه الإنسان .

فالخلاصة أن هناك رأيين في التوالد ، قال بعضهم : لاتوالد ، وقال بعضهم الآخر: فيه توالد ولكن إذا اشتهى الرجل ذلك ، ويكون الحمل والوضع والسِّنُّ - الذي يريده الإنسان طفلاً أو شابًّا مثلاً - في ساعة أي زمن وجيز ، وهذا الكلام قيل : إنه موقوف لم يرفع إلى النبي ﷺ ، وقيل : مرفوع إليه بإسناد حسن ، أو كالمرفوع إليه لأنه لا مجال فيه للرأي .

ومثل هذه الأمور الغيبية لايقبل في اعتقادها إلا الدليل القوي بدرجة خاصة من القرآن والسنة في قطعية الثبوت والدلالة ، فالأولى ترك الجدال فيها ، وسنعرف

---

١ - مشارق الأنوار ص ١٨٦.

ذلك عند دخول الجنة إن شاء الله . وطريق ذلك الإيمان والعمل الصالح . هذا ، وعلى رأي من يقولون : ليس في الجنة توالد ونسل فمن أين يجيء الولدان المذكورون في القرآن بأنهم من متعة الجنة ؟ يقول الله سبحانه في أهل الجنة ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [الواقعة : ١٥ - ١٨] وجاء ذكر الولدان في مواضع أخرى من القرآن .

ففي بعض الأقوال أن الله أنشأهم لأهل الجنة كما شاء من غير ولادة ، وقال علي ابن أبي طالب والحسن البصري : الولدان ههنا ولدان المسلمين الذي يموتون صغاراً ولا حسنة لهم ولا سيئة ، وقال سلمان الفارسي : أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة. قال الحسن : لم تكن لهم حسنات يجزون بها ، ولاسيئات يعاقبون عليها ، فوضعوا هذا الموضع . ثم قال القرطبي بعد ذكر هذه الأقوال : والمقصود أن أهل الجنة على أتم السرور والنعمة ، والنعمة إنما تتم باحتفاف الخدم والولدان بالإنسان.

وفَسَّر كلمة ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ لأنهم لايموتون ، أولا يهرمون ولايتغيرون ، أو مُقرَّطون أي لابسون للقُرْطِ كما قال سعيد بن جبير ، حيث يقال للقُرْط الخَلَدَة ، ولجماعة الحلي الخِلْدة ، وقيل هم مسوَّرون ، وقيل ممنطقون أي لابسون للمناطق وهي الأحزمة [١] ، يقول ابن كثير [٢] : إن أنواع الحلية التي تكون على الولدان دليل على أنهم صغار ، لأن الكبار لايليق بهم ذلك ، وقد جاء في وصفهم قوله تعالى ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان : ١٩] يقول ابن كثير : أي إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم ، حسبتهم لؤلؤا منثوراً ، ولايكون في التشبيه أحسن من هذا ، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن . هذا والتمتع بالولدان هو كالتمتع بالخدم من حيث وجودهم مع الإنسان على غرار ما كان في الدنيا ، وليس تمتعاً كما ظن بعض المتحدثين في الدين بلا علم أو ببواعث ليست لائقة .



١- تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .
٢- ج٨ ص ٣١٧ .

س : هل يتزاور أهل الجنة كما يتزاور أهل الأرض ؟

ج : ذكر الحافظ المنذري في كتابه (الترغيب والترهيب) أن أهل الجنة يتزاورون على المطايا والنُّجب ، وأنَّ بعضهم يشتاق إلى بعض فتسير بهم السرر حتى يتلاقوا ويتذكروا كيف غفر الله لهم .

وذكر المنذري أن بعض هذه الأحاديث موقوف غير مرفوع إلى النبي ﷺ وأن رواة بعضها مختلف في صحبته ، وبهذا لا يثبت تزاورهم بطريق صحيح يكون سبيلاً للاعتقاد.

غير أن الأمر في حد ذاته ممكن ، ولو طلبه أحد من أهل الجنة لأجيب طلبه بناء على عموم قوله تعالى ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:٧١] وقوله تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧] ويؤكد أن لهم لقاءات يتذاكرون فيها ماضيهم في الدنيا ويسألون عمن كانوا معهم فيها وعصوا ربهم ، قوله تعالى ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات:٤٠-٦١] .



س : هل يعيش الإنسان بمفرده إذا دخل الجنة أم يعيش مع أسرته وأصدقائه وأحبابه ؟

ج : يقول الله تعالى ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء : ٦٩ ، ٧٠] .

ويقول تعالى : ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد :٢٣،٢٤] .

ويقول تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾ [الطور : ٢١] .

ويقول : ﴿ إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [يس : ٥٥ ، ٥٦] .

وفي حديث متفق عليه أن رجلاً قال : يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم ، فقال له «المرء مع من أحب».

تدل هذه النصوص وغيرها على أن المؤمن إذا أكرمه الله بدخول الجنة لايمنعه شيئاً تشتهيه نفسه من طعام وشراب وملذات أخرى مادية ومعنوية ، ومنها لقاء الأصحاب وتعارف الإخوان ، واجتماع شمل الأسرة من الأزواج والذرية ، حتى لو تفاوتت درجات هؤلاء وتباعدت منازلهم ، فسبل الاتصال ميسورة لاتعجز عنها قدرة الله ، وقد أخرج الطبراني وغيره بسند لابأس به أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إنك لأحب إليَّ من نفسي وولدي ، وإني لأكون في البيت فأذكرك ، فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك ، وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وأني إذا دخلت الجنة خشيت ألا أراك ، فأنزل الله ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ ﴾ إلى آخر الآية : وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في الجنة ، وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه ، وتلا قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾ يقول أبو جعفر النحاس ، هذا الحديث يصير مرفوعاً إلى النبي ﷺ لأنه لايقوله إلا عنه .

هذا ، والناس في المحشر مرهونون بأعمالهم لايجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، لكن بعد أن ينتهي الحساب وبعد أن يستقر المؤمنون

في الجنة سيكون من تمام نعيمها لقاء الأحبة إخواناً على سرر متقابلين فنعمل على أن نكون من أهل الجنة ، ولنحسن اختيار أصدقائنا فالمرء يحشر مع من أحب ، والمتحابون في الله يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إن هذا لهو الفوز العظيم ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .



س : إذا كانت الحور العين جزاء للمؤمنين في الجنة فماذا يكون جزاء المؤمنات؟

ج : للإجابة على السؤال لابد من ذكر هذه المقدمة حيث تثار الآن قضية المساواة بين الجنسين :

١ - المساواة في مفهومها الصحيح هي إتاحة الفرصة لكل من الرجل والمرأة أن يكمل نفسه ماديًّا وأدبيًّا ، وبهذه الإتاحة تكون المساواة ، بصرف النظر عن حجمها ونوعها ، قال تعالى ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [النساء : ٣٢] وقال ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران : ١٩٥] وذكر حديث وافدة النساء أن حسن قيام المرأة بواجبها نحو زوجها وأولادها يعدل ما يقوم به الرجل من مهام .

٢ - وقد جعل الله لكل من الرجل والمرأة خصائص واستعدادات تتناسب مع الدور الحيوي الذي يؤديه في الدنيا ، في جو من التعاون على تحقيق الخلافة في الأرض، فالخصائص البيولوجية مختلفة فيهما ، وليست متساوية تماماً ، ولها تأثير على الفكر والعاطفة ، وبالتالي على السلوك . وعلى أساسها كان توزيع الاختصاص في هذه الشركة التعاونية . قال تعالى ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء : ٣٤] ومن هنا لايصح أن يقول واحد منهما : لماذا لايعطيني الله مثل ما أعطى الآخر ، وإلا لما كان هناك داع إلى خلق نوعين . وقد جاءت الأديان كلها مقررة لهذه الحقيقة ، وعلى أساسها وضعت التشريعات السماوية ، بل الوضعية أيضاً .

٣ - من المعلوم أن الرجل صالح في كل وقت -إذا لم يكن هناك موانع- لإتمام عملية الإخصاب من أجل التناسل الذي هو المهمة الأولى لخلق الذكر والأنثى من كل صنف من المخلوقات ، قال تعالى ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات:٤٩] أما الأنثى فهي غير مستعدة لذلك إلا بنسبة ضئيلة، وهو يوم أو يومان في كل شهر عند نضج البويضة ، ولايكون هناك في الأعم الأغلب إلا حمل واحد في كل عام ، فإذا شغلت بحمل فلا يمكن لحمل آخر أن يزاحمه أو يفسح له المجال .

ولأجل أن الغرض من هذا التكوين هو تنظيم التناسل والشهوة أباحت الأديان كلها تعدد الزوجات لرجل واحد ، وحرمت تعدد الأزواج لامرأة واحدة ، لأنه سيكون لمجرد إرضاء الشهوة لا غير . وما يقال عن عدم التعدد في ديانات غير الإسلام فهو تعاليم كنسية ليست من الشريعة الموحى بها .

٤ - ليكن معلوم أن قوانين الآخرة لاتوافق قوانين الدنيا ، فالأكل هنا هو للشبع وتتبعه فضلات قذرة ، وليس الأمر كذلك في الجنة ، والزواج هنا للحاجة إلى النسل ولاحاجة إليه في الجنة ، وإن كانت للبعض رغبة في الولد فلا يتحتم أن يكون عن طريق الولادة ، كما قال بعض العلماء (١) .

وما يجيء من التشابه في النصوص المتصلة بالأكل والشرب والمتع في الجنة فهو أسلوب يقرب المعنى إلى الأذهان بالمعهود عند الناس ، ذلك لأن الجنة فيها ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وهناك عبارة مشهورة تقول : كل ما خطر ببالك فالجنة على خلاف ذلك .

ويظهر ذلك الاختلاف في القوانين في الخمر التي جاء فيها ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ وفي الحور العين اللاتي وصفهن الله بقاصرات الطرف ، أي لايحببن غير أزواجهن ، ولايشتهين غيرهم ، ولاتوجد غيرة بينهن إذا تعددن لرجل واحد ، وهذا أمر يتناقض مع الطبيعة البشرية في الدنيا .

---

١ - مشارق الأنوار للعدوي ص١٨٦.

٥ - تحدث القرآن عن نعيم الجنة في الناحية الجنسية ، وركز على الرجل بالذات ، وأغراه بالعمل لدخول الجنة لينعم بزوجات فيهن كل الأوصاف المغرية، وجاء في الحديث المتفق عليه بين البخاري ومسلم أن الرجل الواحد سيكون له أكثر من زوجة ، فقد أخرجا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الصحابة تذاكروا : الرجال أكثر من الجنة أم النساء ؟ فقال : ألم يقل رسول الله ﷺ «ما في الجنة رجل إلا وله زوجتان ، إنه يرى مخ ساقها من وراء سبعين حلة ، ما فيها عزب» وجاء في أحاديث أخرجها الترمذي وصححها أن العبد يزوج في الجنة سبعين زوجة، وفي حديث لأحمد والترمذي وابن حبان أن أدنى أهل الجنة منزلة له ثنتان وسبعون زوجة .

فأين الحديث عن المتعة الجنسية للمرأة ، وهل لها أن تتمتع بأكثر من رجل كما يتمتع الرجل بأكثر من امرأة ؟ وإذا كانت مع زوجها في الجنة كما قال تعالى ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ [الرعد : ٢٣] فكيف تحس بالنعيم مع أن الغيرة تملأ قلبها من ضرائرها الحسناوات؟

أ- لتركيز على نعيم الرجل لأن شهوته طاغية ، فهو طالب لامطلوب ، فوعده الله بما يحقق رغبته في هذه اللذة إن جاهد نفسه وعف عن الحرام . أما المرأة فشهوتها ليست طاغية كما يقول المختصون ، وإن اشتدت في فترة نضج البويضة يوماً أو يومين في الشهر فهي في غالب أيامها مطلوبة لا طالبة . وما قيل من أن شهوتها أقوى من شهوة الرجل بنسبة كبيرة فليس عليه دليل صحيح ، والواقع خير دليل . ومع ذلك فلا تحرم المرأة من هذه اللذة في الجنة ، وستكون مع زوجها لذلك ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾ [يس : ٥٥ ، ٥٦] ومن لم تتزوج إما أن يزوجها الله - حيث لايوجد عزب في الجنة كما في الحديث السابق الذي رواه الشيخان ، وإما أن يمتعها بلذة أخرى تقنع بها .

ب - قد يكون هناك تعويض عن هذه اللذة بالقناعة بمنزلتها عند زوجها وبمتع أخرى يعلمها الله وحده ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف : ٧١].

وقد قيل : إن الله يكسوها جمالاً لاتحس معه نقصاً بالنسبة للحور العين ، وأن لها السيادة عليهن ، وهي لن تحب رجلاً غير زوجها كالحور العين قاصرات الطرف.

ج - ليس في الجنة غيرة بين الزوجات -كما في الدنيا- لأنها تنغص النعيم ، وليس فيها حسد ولا حقد ولا حزن ولا أي ألم أبداً ، حتى تتم اللذة لأهل الجنة ، قال تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحجر : ٤٧، ٤٨] وقال على لسان أهل الجنة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾ [فاطر : ٣٤ ، ٣٥].



س : ما المقصود بكلمة «عرضها» في قوله تعالى ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ، وإذا كان هذا عرضها فكيف يكون طولها ، وإذا استغرق طولها وعرضها السموات والأرض فأين توجد النار ؟

ج : للعلماء في تفسير عرض الجنة رأيان ، فقال ابن عباس : تقرن السموات والأرض بعضها إلى بعض ، كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض ، فذلك عرض الجنة ، ولايعلم طولها إلا الله . وهو قول جمهور العلماء . ونبه الله بالعرض على الطول، لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض .

وقال قوم ، المراد بعرض الجنة سعتها ، لا ما يقابل طولها ، فلما كانت الجنة من الاتساع والانفساح في غاية قصوى حسنت العبارة عنها بعرض السموات

والأرض ، كما تقول للرجل ، هذا بحر . ولم تقصد الآية بذلك تحديد العرض، ولكن أراد التعبير بذلك أنها أوسع شيء رأيتموه . وهو ما يفيده قوله تعالى في آية أخرى ﴿ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد : ٢١] .

أما مكان النار إذا كان عرض الجنة هو السموات والأرض فقد أجاب عنه النبي ﷺ عندما سئل عنه ، فقال «سبحان الله ، فأين الليل إذا جاء النهار»؟[١]

وكذلك أجاب بمثله سيدنا عمر على اليهود حين سألوا . والمراد أن مكان النار لا يعلمه إلا الله ، كما لايعلم الليل إذا جاء النهار إلا هو سبحانه .

قال ابن كثير : وهذه الإجابة تحتمل معنيين ، أحدهما أن يكون المعنى في ذلك: أنه لايلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار ألا يكون في مكان وإن كنا لانعلمه ، وكذلك النار تكون حيث يشاء الله عز وجل . والثاني أن يكون المعنى : أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب فإن الليل يكون من الجانب الآخر ، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السماوات تحت العرش ، والنار في أسفل سافلين ، فلا تنافي بين كونها كعرض السموات والأرض وبين وجود النار . والمعنى الأول يفيد عدم علمنا بمكان النار ، والثاني يفيد علمنا به.



س : إذا لم تسمح الظروف الاجتماعية بالزواج لشخصين ، فهل يجوز للرجل أن يدعو الله أن يجمعه ومن كان يتمنى الزواج بها ، أو يرزقه بحور العين شبيهة لها في الجنة ؟

ج : لا مانع أبداً أن يدعو الإنسان ربه أن يجعل له زوجة في الجنة من بنات آدم لم يكن لها زوج يكون أولى بها ، حيث سيجتمع شمل الأسرة المؤمنة ، كما قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ [الرعد : ٢٣] وقد جاء في الحديث أن المرأة تكون زوجة في الآخرة لمن ماتت وهي على ذمته ، يعنى لآخر

١- رواه أحمد في مسنده .

أزواجها إن تعددت الأزواج ، وأحسن من ذلك أن يدعو ربه بالحور العين فإن جمالهن يفوق الوصف ، وأن يجتهد في الأعمال الصالحة التي هي مهورهن.

وإذا كان قلب الإنسان المتعلق بمحبوبته في الدنيا ما يزال متعلقاً بها ، فإن الله سيعطيه من القناعة والرضا ما يجعله يحس بأنه في نعيم لايجد معه غضاضة إذا رأى محبوبته من نصيب شخص آخر في الجنة لأن الله يقول : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الحجر : ٤٧] .



س : ما معنى قوله تعالى ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ ؟

ج : قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم : ٧١ ، ٧٢] .

ورود النار لابد منه بنص هذه الآية وبحديث «لايموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتسمه النار إلا تحلة القسم » قال الزهري : كأنه يريد هذه الآية ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[1].

واختلف في الورود فقيل هو الدخول ، وروى فيه حديث «الورود الدخول ، لايبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم » ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ أسنده أبو عمرو في كتاب «التمهيد» وقيل الورود هو المرور على الصراط ، كقولهم : وردت البصرة ولم أدخلها ، وقد يشهد له قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠١] . ولكن رد عليه بأن البعد بعدم العذاب والإحراق أو الخلود ، حيث يخرج منها المؤمنون إلى الجنة أخيرًا لو عذبوا في النار وقيل هو الإشراف والاطلاع عليها والقرب منه حتى يرى الناس النار وهم في الموقف يحاسبون ، كقوله تعالى ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ [القصص : ٢٣] أي أشرف عليه لا أنه دخله ،

١- رواه البخاري ومسلم .

ويؤكده حديث حفصة الذي رواه مسلم قال الرسول ﷺ «لايدخل النار أحد من أهل بدر والحديبية» فقالت : يا رسول الله وأين قول الله ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ؟ فقال «فَمَهْ -يعني اسكتي- ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ » وقيل ورود المؤمنين النار هو الحُمَّى التي تصيبهم في الدنيا ، روى في حديث «الحمى حظُّ المؤمن من النار» وقيل الورود هو النظر إليها في القبر ، وقيل غير ذلك.

والظاهر هو القول الأول وهو الدخول لقول الرسول «فتمسه النار» وإن كانت برداً وسلاماً على المؤمنين ، وقد أثار القرطبي سؤالاً هو : هل يدخل الأنبياء النار ؟ ثم قال : الخلق جميعاً يردونها ، العصاة بجرائمهم ، والأولياء والسعداء لشفاعتهم ، فبين الدخولين بَوْنٌ ، أي فرق كبير .



س : كيف يعذب إبليس بالنار وهو مخلوق منها ؟

ج : من المعلوم أن الله سبحانه خلق إبليس والجن من النار كما قال تعالى حكاية عن إبليس ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] وقال تعالى ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ [الحجر : ٢٧] ومن المعلوم أيضاً أن الله سيعذب إبليس ومن اتبعه بالنار ، قال تعالى ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٨٥] .

ومعلوم أن العذاب : ألمٌ يؤثر في الجسم ، وذلك يظهر في المخالفة بين طبيعة الجسم والأداة التي يكون بها العذاب ، فكيف يحس الشيطان بعذاب النار ، وطبيعته لاتختلف عن طبيعتها لأنه مخلوق منها ؟

ويجاب عن ذلك بما يأتي :

١ - أن الله سبحانه قادر على أن يحول طبيعة الشيطان حتى يحس بعذاب النار ، ذلك أن الشيطان قد يتشكل بأشكال تحكم عليه طبيعتها لا طبيعته ، فهو يسكن في أماكن وينام ويجلس ويلبس الملابس التي لم يذكر اسم الله عليها ،

ويدخل البيوت إذا لم يسم صاحبها وهو داخل ، كما جاءت بذلك الأحاديث ، ومع ذلك لم تحرق هذه الأشياء التي يتصل بها . وقد ثبت أن الشيطان تفلّت على النبي ﷺ في صلاته يريد أن يفسدها ، فخنقه النبي وأحسَّ ببرد لسانه على يده كما جاء في بعض الروايات ، فلو بقى الشيطان على طبيعته النارية لأحرقت ما مسته يده .

وسيدنا آدم عليه السلام ، مع أنه خلق من طين ، جعلت لطبيعته خصائص ليست كخصائص الطين ما دامت روحه فيه ، فلا يمكن غرس شجرة في جسم الإنسان كما تغرس في الطين وهكذا .

٢ - يجوز أن يجعل الله من النار نفسها نوعاً أقوى من النار التي خلق منها إبليس فيحس بعذابها إذا دخلها ، والنار نفسها درجات بعضها أشد من بعض .

٣ - ليس كل العذاب في النار إحراقاً للجسم وإيلاماً له بسببها ، ففيها حيات وعقارب ومقامع من حديد يضرب بها المعذبون ، وفيها سلاسل وقيود ، وفيها شجرة الزقوم التي قال الله تعالى فيها ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان:٤٣-٤٦] وقال تعالى ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الصافات :٦٤ -٦٦] وقال تعالى ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ [الغاشية:٦ ، ٧] .

فألوان العذاب متعددة ، يجوز أن يجعل الله منها للشيطان ما يحقق الغرض من تعذيبه . ومهما يكن من شيء فإن قوانين الآخرة غير قوانين الدنيا ، وما دام الله سبحانه قد حكم بالعذاب على الشيطان فسيتحقق العذاب بالصورة التي يراها هو ، والمهم أن نعمل جاهدين حتى لانكون من أعوانه .



الرِّدة

س : تحدث بعض مخالفات دينية فيسارع بعض الناس برمي المخالف بوصف المرتد ، ويستحلون دمه ، نريد بيان معنى الردة ، وبم تكون ، وواجبنا نحو المرتد ، وما هي العقوبة المقررة للمرتد ، ومن الذي يطبقها عليه ؟

ج : الإجابة على هذا السؤال في عدة نقاط :

١- معنى الردة : الردة هي : الرجوع عن الشيء إلى غيره ، وشرعاً : كما قال الخطيب [١] : قطع من يصح طلاقه استمرار الإسلام ، والذي يصح طلاقه هو المكلف البالغ العاقل المختار غير المكره .

٢ - ما تكون به الردة -تكون الردة بأمور لخّصها الخطيب في قوله : نية كفر ، أو فعل مكفّر ، أو قول مكفر ، سواء قاله استهزاء أم اعتقاداً أم عناداً . قال تعالى ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة : ٦٥ ، ٦٦] ثم ذكر بعض ما تحصل به الردة مثل : التكذيب بوجود الله ، أو بالرسل أو سب نبي أو الاستخفاف به أو باسمه أو باسم الله أو أمره أو وعده ، أو جحد آية من القرآن مجمع على ثبوتها أو زيادة آية معتقداً أنها منه ، أو استخفافاً بسنة، أو إشارة بالكفر على مسلم ، أو تكفير مسلم بلا تأويل ، أو عدم تلقين الإسلام لمن طلبه ، أو تحليل محرم بالإجماع كالزنا وشرب الخمر، أو تحريم حلال بالإجماع كالزواج ، أو نفي وجوب مجمع عليه كالصلوات الخمس.

ومن الفعل المكفر ما تعمده صاحبه استهزاء صريحاً في الدين أو جحوداً له ، كإلقاء المصحف في القاذورات أو سجود لصنم .. وقال العز بن عبدالسلام : إن ضابط ما يكفر به ثلاثة ، أحدها : ما يكون نفس اعتقاده كفراً كإنكار الله ،

١- الإقناع ، ج٢ ص ٢٤٦ .

والثاني: صدور ما لا يقع إلا من كافر كرمي المصحف في القاذورة، وثالثها: إنكار ما علم من الدين بالضرورة كحرمة القتل ووجوب الصلاة.

٣ - واجبنا نحو المرتد: من حصل منه شيء من ذلك استحق العقوبة، ولكن بعد التأكد من حصولها والله يقول ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] ويقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤] وقد نزلت بمناسبة قتل أسامة بن زيد لرجل أعلن إسلامه، ولما سأله الرسول قال: إنه لم يقلها إيماناً بل ليدفع عن نفسه، فقال له «هلا شققت عن قلبه ...».

والحكم على الإنسان بالكفر دون تثبت أمر خطير، جاء في الحديث الذي رواه مسلم «أيما امرئ قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال وإلا رجعت إليه» لابد من التأكد من وجود مقومات الجريمة، وذلك بمعرفة مختصين في العلوم الدينية، ليميزوا بين ما صدر عن المتهم إن كان من الأصول المجمع عليها فيكفر، أو ليس منها كفروع الشريعة فلا يكفر، وليتأكد من فكره إن كان عن اقتناع تام أو عن شبهة تأويل، أو كان عن علم أو جهل، أو غير ذلك من العوامل والظروف.

٤ - فإذا حدث هذا التأكد استحق العقوبة، وإذا ثبت أنه مرتد وجب على المسلم أن يعامله معاملة غير المسلم في أمور، كعدم تزويجه وعدم مصادقته أو توكيله في أمور يشترط فيها الإسلام .. كما يجب على الحاكم بعد الحكم بردته تنفيذ العقوبة المقررة في قوله ﷺ «من بدّل دينه فاقتلوه»[1]، لأن عقوبة قتله حدٌّ من حدود الله التي لايجوز إسقاطها ولا الشفاعة فيها.

ولخطورة هذه العقوبة لابد من زيادة التأكد من ثبوت الردة، فإذا وجدت شبهة ولو كانت بسيطة فلايجوز قتله، وإن جاز تعزيره بعقوبة يقدرها ولي الأمر، مراعياً

١- رواه البخاري.

فيها ظروفه وظروف المجتمع والظروف الأخرى ، وذلك لحديث «ادرءوا الحدود بالشبهات» الذي روى بعبارات مختلفة ، مع الاختلاف في رفعه للرسول أو وقفه على الصحابي ، في ضعفه وقوته ، ولكن أخذ به الفقهاء لأن الخطأ في العفو أهون من الخطأ في العقوبة كما جاء في بعض الروايات . لأن القتل بالذات عقوبة هي أقصى العقوبات في الحدود ، والنصوص في حرمة القتل بغير حق كثيرة .

٥ - ومن أجل التأكد من عدم وجود شبهة تدرأ بها الحدود قال جمهور العلماء : يعطى المرتد مهلة ليراجع نفسه فيها فلعله يتوب من نفسه ، أو ليناقشه العلماء ويفتحوا له باب الأمل في التوبة والرجوع إلى الحق ، وهذا الإجراء معروف عند الفقهاء بالاستتابة ، جعلها بعضهم واجبة ، وبه قال الإمام مالك ، وهو الراجح من مذهبي الشافعي وأحمد ، وجعلها بعضهم مستحبة وليست واجبة ، وهو أبو حنيفة ، فيعرض عليه الإسلام استحباباً ، وهو رأي للشافعي وأحمد .

ومدة الإمهال التي يستتاب فيها هي ثلاثة أيام من الثبوت النهائي للكفر ، لا من يوم كفره ، ولا من يوم التبليغ عنه كما قال الإمام مالك . وقال أبو حنيفة: يترك تقدير المدة للإمام ، فإن طمع في توبته ، أو سأله المرتد أجّله ثلاثة أيام ، فإن لم يطمع في توبته ولم يطلب المرتد الإمهال نفذ القتل حالاً . والشافعي له رأيان : الأول : إمهاله ثلاثة أيام ، والثاني : لايمهل بل يقتل في الحال إذا لم يتب. وقال أحمد : يمهل ثلاثة أيام مع حبسه ، سند الإمهال أن عليًّا رضي الله عنه أنظر المستورد العجلي بالتوبة ثلاثة أيام ثم قتله بعدها.

جاء في (الإقناع) [1] ، قوله في شرح متن أبي شجاع : ومن ارتد عن دين الإسلام استتيب وجوباً قبل قتله ، لأنه كان محترماً بالإسلام فربما عرضت له شبهة فيسعى في إزالتها ، لأن الغالب أن الردة تكون عن شبهة عرضت ، وثبت وجوب الاستتابة عن عمر رضي الله عنه ، وروى الدارقطني عن جابر أن امرأة يقال لها «أم رومان» ارتدت ، فأمر النبي ﷺ أن يعرض عليها الإسلام ، فإن تابت وإلا قتلت[2]. والاستتابة تكون حالاً ، لأن قتله المرتب عليها حد ، فلا يؤخر كسائر

---

١ - للخطيب الشافعي ج٢ ص ٢٤٧ .

٢ - وأخرج البيهقي والدارقطني أن أبا بكر رضي الله عنه استتاب امرأة يقال لها «أم قرفة» كفرت بعد إسلامها فلم تتب فقتلها .

الحدود ، والاستتابة ثلاثة أيام لأثر عن عمر في ذلك[1] وأخذ به الإمام مالك . وقال الزهري : يدعى إلى الإسلام ثلاث مرات ، فإن أبى قتل . وعن علي أنه يستتاب شهرين ، فإن تاب وإلا قتل وجوباً ولم يغسل ولم يصل عليه ولم يدفن في مقابر المسلمين (في فقه السنة يستتاب شهراً ، وعن النخعي يستتاب أبداً).

جاء في تفسير القرطبي [2] ، عن استتابة المرتد : قالت طائفة : يستتاب فإن تاب وإلا قتل ، وقال بعضهم : ساعة واحدة ، وقال آخرون : يستتاب شهراً ، وقال آخرون : يستتاب ثلاثاً على ما روى عن عمر وعثمان ، وهو قول مالك ، رواه عنه ابنه القاسم ، وقال الحسن : يستتاب مائة مرة ، وقد روى عنه أنه يقتل دون استتابة ، وبه قال الشافعي في أحد قوليه . وهو أحد قولي طاووس وعبيد بن عمير ، وذكر سحنون أن عبدالعزيز بن أبي سلمة الماجشون كان يقول : يقتل المرتد ولا يستتاب . واحتج بحديث معاذ وأبي موسى ، وفيه أن النبي ﷺ لما بعث أبا موسى إلى اليمن أتبعه معاذ بن جبل ، فلما قدم عليه قال: انزل : وألقى إليه وسادة : وإذا رجل عنده موثوق ، قال : ما هذا ؟ قال : هذا كان يهوديًّا فأسلم ثم راجع دينه دين السّوء فتهوّد ، قال : لا أجلس حتى يقتل، قضاء الله ورسوله فقال : اجلس ، قال : نعم لا أجلس حتى يقتل ، قضاء الله ورسوله -ثلاث مرات- فأمر به فقتل[3] .

وذكر أبو يوسف عن أبي حنيفة أن المرتد يعرض عليه الإسلام ، فإن أسلم وإلا قتل مكانه ، إلا أن يطلب أن يؤجل ، فإن طلب ذلك أجل ثلاثة أيام . والمشهور عنه وعن أصحابه أن المرتد لايقتل حتى يستتاب . والزنديق عندهم والمرتد سواء . وقال مالك : وتقتل الزنادقة ولايستتابون [4] .

واختلفوا فيمن خرج من كفر إلى كفر ، فقال مالك وجمهور الفقهاء : لايتعرض له ، لأنه انتقل إلى ما لو كان عليه في الابتداء لأقرَّ عليه وحكى ابن عبدالحكم عن الشافعي

١- روى الشافعي أن عمر جاءه خبر رجل كفر بعد الإسلام ونفذ الناس الحكم بقتله ، فقال : هلا حبستموه في بيت ثلاثاً وأطعمتوه كل يوم رغيفاً ، واستتبتموه لعله يتوب ويراجع أمر الله اللهم إني لم أحضر ولم آمر ولم أرض إذ بلغني اللهم إني أبرأ إليك من دمه.

٢- ج ٣ ص ٤٧ .

٣- أخرجه مسلم وغيره .

٤- راجع ج١ ص ١٩٨ من التفسير .

أنه يقتل ، لقوله ﷺ «من بدل دينه فاقتلوه» ولم يخص مسلماً من كافر . وقال مالك : معنى الحديث من خرج من الإسلام إلى الكفر، وأما من خرج من كفر إلى كفر فلم يُعْنَ بهذا الحديث . وهو قول جماعة من الفقهاء ، والمشهور من الشافعي ما ذكره المزني والربيع أن المبدِّل لدينه من أهل الذمة يلحقه الإمام بأرض الحرب ويخرجه من بلده ، ويستحل ماله مع أموال الحربيين إن غلب على الدار ، لأنه إنما جعل له الذمة على الدين الذي كان عليه في حين عقد العهد .

واختلفوا في المرتدة ، فقال مالك والأوزاعي والشافعي والليث بن سعد : تقتل كما يقتل المرتد سواء ، وحجتهم ظاهر الحديث «من بدل دينه فاقتلوه» و «ومن» يصلح للذكروالأنثى ، وقال الثوري وأبو حنيفة : لا تقتل المرتدة ، وهو قول ابن شبرّمة ، وإليه ذهب ابن عُليَّة ، وهو قول عطاء والحسن واحتجوا بأن ابن عباس روى عن النبي ﷺ أنه قال «من بدل دينه فاقتلوه» ثم إن ابن عباس لم يقتل المرتدة ، ومن روى حديثاً كان أعلم بتأويله ، وروى عن علي مثله ، ونهى ﷺ عن قتل النساء والصبيان . واحتج الأولون بقوله ﷺ «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث ، كفر بعد إيمان ....» فَعَمَّ كل من كفر بعد إيمانه، وهو أصح.

والمصير النهائي للمرتد بعد إقامة الحد عليه ، أو قبل إقامته بأن لم يصل أمره إلى الحاكم جاء في قوله تعالى : ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ولو عاد إلى الإسلام بعد أن ارتد يقول فيه القرطبي في تفسيره [1] : لم يحبط عمله ولاحجه الذي فرغ منه ، بل إن مات على الردة فحينئذ تحبط أعماله ، وقال مالك : تحبط بنفس الردة . ويظهر الخلاف في المسلم إذا حج ثم ارتد ثم أسلم ، فقال مالك: يلزمه الحج لأن الأول قد حبط بالردة ، وقال الشافعي : لا إعادة عليه ، لأن عمله باق ، واستظهر علماؤنا بقوله تعالى : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥] قالوا : وهو خطاب للنبي والمراد أمته ، لأنه عليه السلام يستحيل عليه الردة شرعاً.

---

١ - ج٣ ص ٤٨ .

وقال أصحاب الشافعي : بل هو خطاب للنبي ﷺ على طريق التغليظ على الأمة ، ووضح ذلك بمثال عن تغليظ عقاب نساء النبي إن أتين بفاحشة ، فيرجع إليه .

٦ - من الذي يقتل المرتد ؟ قتل المرتد كسائر الحدود ، وإقامة الحدود هي من اختصاص الحاكم على الرأي الصحيح ، لأنه هو الذي يملك الإجراءات في التحقيق لإثبات الجريمة ، ونفى كل الشبه ، ولايجوز أن يتولى ذلك غيره مهما كانت صلته بالمرتد كالوالد أو الزوج أو السيد مع عبده وأمته ، ولئن كان قد حدث كلام للفقهاء في جواز إقامة السيد الحدَّ على عبده أو أمته فلا يجوز ذلك لغيره من الأولياء .

وقد ذكر الشوكاني [1] ، حوادث في ذلك ، ونقل عن الثوري والأوزاعي أن ذلك خاص بحد الزنا دون غيره ، وأن الحنفية منعوا السيد من ذلك ، وجعلوه من اختصاص الحاكم كسائر الحدود . وجاء مثل ذلك في (فتح الباري) لابن حجر ، فالعلماء يكادون يتفقون على أن الحدود -فيما عدا ذلك- هي من اختصاص الحاكم ، بناء على أقوال لبعض الصحابة وليس على نصوص من القرآن والسنة ، كقول أبي عبدالله من الصحابة : الزكاة والحدود والفيء والجمعة إلى السلطان . قال الطحاوي : لانعلم مخالفاً له من الصحابة ، ولكن ابن حزم قال : بل خالفه اثنا عشر صحابيًّا . وهذا ما ينبغي أن يكون منعاً للفوضى ، وفي ميدان التعزير متسع لاختلاف وجهات النظر ومراعاة الظروف [2] .

٧ - لو قام أحد من الناس لا ولاية له على المرتد فقتله فما حكمه ، هل يكون آثماً أو غير آثم ؟

المتفق عليه بين الفقهاء أن الحدود العامة لايجوز لغير ولي الأمر أن ينفذها ، فإذا نفذها غيره بدون إذنه كان عاصياً بأنه افتأت على ولي الأمر حقه الشرعي ، وإذا وضع ولي الأمر قانوناً أو أصدر قراراً بأنه لايجوز لأحد أن يتولى عقاب أحد بنفسه دون الرجوع إلى السلطات المختصة وجب الالتزام بهذا القانون أو القرار ، لأن فيه مصلحة للأمة ، وضبطاً لتوقيع الجزاء المناسب ، وطاعة ولي الأمر فيما فيه مصلحة

---

١ - نيل الأوطار ج٧ ص ١٢٩ .
٢ - انظر مراجع هذا الحكم في كتب المذاهب المنشورة بعدد صفر ١٤١٤هـ من مجلة الأزهر .

ولايتعارض مع الشرع واجبة ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] ، وكما جاء في بيعة الصحابة للرسول في السمع والطاعة إلا في الكفر الصريح كما رواه البخاري ومسلم.

وإذا قصر ولي الأمر في توقيع العقوبة أو إقامة الحد فلا يملك الأفراد إلا النصح والتوجيه بالأسلوب الحكيم ، فإن استجاب وإلا برئت الذمة وكانت المسئولية عليه ، ولايقولن أحد ما دام أولو الأمر قد قصروا فيجب علينا أن نتولى ذلك . كما يستبيح بعض الناس تغيير المنكر باليد فيمن لايسألون عنهم على الرغم من العلم بأن ذلك ستترتب عليه أضرار جسيمة حتى لو كانت غير مشروعة ، وذلك جهل بقواعد التشريع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قررها العلماء من قرون طويلة .

وهذ الحكم عام في جميع الحدود ، من قام بتطبيقها بنفسه فقد أخطأ ، ويجوز للحاكم أن يعاقبه على خطئه عقوبة تعزيرية تتناسب مع الذنب وظروفه . قال بذلك المالكية ، وجاء في كتب الشافعية مثله [1] ، ولم أجد في كلام العلماء استثناء لأي حد من الحدود في ارتكاب من ينفذها بعيداً عن السلطات المسئولة مخالفة يستحق العقاب عليها ، ورأى مالك مع التعزير وجوب دية لبيت المال.

لكن بعض المعاصرين أجازوا لأي فرد مسلم أن يقتل المرتد دون حاجة إلى إذن من السلطات ، بل قال : إن هذا ليس حقًّا بل واجباً عليه أن يقوم به لأن الأمة كلها مكلفة بإقامة الحدود تكليفاً لفرض الكفائي ، لو تركته كلها أثمت ، ولو قام به أحد منهم سقط الطلب عن الباقين .

وحاول أن يبرر هذا الحق الواجب قائلاً : إن الافتئات على ولي الأمر لايكون إلا بعد قيام ولي الأمر بواجبه من تقرير عقوبة للمرتد وتنفيذها ، وحيث إنه لم يقرر ولم ينفذ قام بها غيره ، وقال : إن ذلك ليس ارتكاباً لمعصية بل قياماً بالواجب ، لايجوز أن يعاقب عليه ، بل يجب تبرئته ، ولم يأت بأي دليل على استثناء قتل المرتد من الحدود الأخرى .

---

١ - فتوى مكتب شيخ الأزهر - مجلة الأزهر صفر ١٤١٤هـ ص ١٧٥ .

وهذا كله إذا ثبت أن المرتد مصمم على ردته ولم يتب ، فإنه صار مهدر الدم ، وقتله قتل بحق ، بنص الحديث السابق الذي رواه البخاري «من بدل دينه فاقتلوه» وبنص الحديث «لايحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث ، الثيب الزاني والقاتل والتارك لدينه المفارق للجماعة» [1] .

لكن لو لم تثبت الردة بالإجراءات المذكورة من قبل فقتله حرام ، وتطبق على القاتل الأحكام الشرعية في قتل العمد وشبه العمد والخطأ [2] .

٨ - جاء في هذا الكتاب (التشريع الجنائي الإسلامي) [3] ، أن مالكاً وأبا حنيفة يريان أن قتل امرأة مرتدة أو صبيًّا مرتداً قبل التوبة فإن القاتل لايعتبر مسئولاً عن جريمة القتل ، لأنه قتل شخصاً مهدر الدم ، وإنما يسأل باعتباره مفتاتاً على السلطات العامة ، وذكر مصادر هذا القول .

ومسألة المفتات على السلطات العامة في قتل المرتد فيها عقوبة ، والعقوبة تعزيرية والتعزير تأديب على ذنوب لم تشرع فيها الحدود ، وللتأديب أساليب متعددة يترك لولي الأمر تقديرها مراعاة للظروف المختلفة ، فقد يكون بلفت النظر والزجر بالكلام ، وقد يكون بالحبس وقد يكون بالنفي وقد يكون بالضرب وقد يكون بغير ذلك .

وقد تحدث العلماء في الضرب فقال الشافعية : لايبلغ به الحدود بل ينقص عنها ، فأكثره تسعة وثلاثون سوطاً ، وأبو يوسف جعله خمسة وسبعين ، ومالك قال : لاحد أكثره ، كما تحدثوا في مدة النفي [4] .

هذا في الضرب ، أما التعزير بشكل آخر فأجاز أبو حنيفة أن يصل إلى القتل ، وهو حكم سياسي قال به أيضاً بعض الحنابلة ، وعلى الأخص ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وقليل من المالكية .

١- رواه البخاري ومسلم .
٢- انظر التشريع الجنائي الإسلامي ، ج١ صفحات : ٢٤٤ ، ٢٥٨ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧»
٣- ج٢ ص ٧٢٧ .
٤- وينظر في ، الأحكام السلطانية للماوردي ص ٢٣٦ .

وقد ثبت أن الرسول ﷺ عزَّر على معاصٍ ليست لها عقوبة دنيوية محددة ، ككفارة الجماع في نهار رمضان ، وكفارة الحنث في اليمين ، ومحظورات الإحرام . وحبس رجلاً اتهم بسرقة بعير [1] ، وحكم بالقتل على من يريد تفريق الجماعة فقال «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه» [2] ، كما عزر عمر بنفي نصر بن حجاج الذي فتن به النساء [3] .

٩- مما يتصل بتغيير المنكر وحق الأفراد فيه تحدث الماوردي في كتابه [4] ، وقال : هنا ما يسمى بالمحتسب ، وهو موظف أو مأذون له من السلطات أن يغير بعض المنكرات ويعاقب عقوبة تعزيرية ، أو المتطوع الذي لم يؤذن له فهناك سبعة فروق بينه وبين المحتسب ، منها أن المحتسب له أن يعزر في المنكرات الظاهرة لايتجاوز إلى الحدود ، وليس للمتطوع أن يعزر على المنكر .

ومن هذا نرى أن من يقتل مرتداً ولم يؤذن له من السلطات بذلك فعمله غير مشروع ، وكذلك تجاوزه بالتعزير إلى الحدود حتى لو كان محتسباً موظفاً لذلك.

قال تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [النحل : ١٠٦] جاء في تفسير القرطبي لهذه الآية قوله : أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولاتبين منه زوجته ولايحكم عليه بالكفر ، هذا قول مالك والكوفيين -وهو أبو حنيفة وأصحابه- والشافعي . غير محمد بن الحسن فإنه قال : إذا أظهر الشرك كان مرتداً في الظاهر ، وفيما بينه وبين الله تعالى الإسلام ، وتبين منه امرأته ، ولايصلَّى عليه إن مات ، ولا يرث أباه إن مات مسلماً . وهذا قول يرده الكتاب والسنة ، قال الله تعالى ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ الآية ، وقال ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ ﴾ [آل عمران : ٢٨] وقال : ﴿ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ﴾ [النساء : ٩٩] فعذر الله المستضعفين الذين يمتنعون من ترك ما أمر الله به ، والمكره لايكون إلا مستضعفاً غير ممتنع من فعل ما أُمِرَ به ، قاله البخاري.



١- التشريع الجنائي الإسلامي ، ج١ ص ١٥٠ .　٢- رواه مسلم .
٣- التشريع الإسلامي الجنائي ، ج١ ص ١٥١ .　٤- الأحكام السلطانية ص ٢٤٠ .

س : ما حكم من سبَّ دين إنسان غير مسلم إذا بدر منه ما يسيء لشخص المسلم؟

ج : مبدئيًّا نقول : السب بوجه عام أمر مرذول ، إذا سب أحد شخصاً فالأفضل عدم الرد عليه ، قال تعالى ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [الشورى : ٤٠] لأن مقابلة الإساءة بالإساءة ربما لاتقف عند حد المثالية ، بل قد يكون هناك تجاوز من أحد الطرفين ، كما في حديث «يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه وأمه فيسب أمه» وسب الدين الباطل أشد خطورة لأنه سيتطور إلى سب الدين لمن سبه ، فيشتد الغضب ويكون ما لاتحمد عقباه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] .

وإذا سبَّ مسلم غير مسلم في عقيدته فقد يؤدّي ذلك إلى سب نبيه ورسوله ، وذلك يخرج المسلم عن إسلامه إلى الكفر ، لأننا مأمورون بالإيمان بكل الرسل واحترامهم «لانفرق بين أحد منهم» وقد نهى الرسول ﷺ عن ذلك عندما لطم مسلم يهوديًّا لأنه فضّل موسى على محمد فقال «لاتفضلوا بين الأنبياء» وذكر فضائل لموسى حتى يهدئ ثائرة اليهودي ، وحتى لايتطور الأمر إلى التفريق والإخلال بالأمن وإلى أمور أخرى ليست في مصلحة الدين ولا من مصلحة المسلمين ، وبخاصة في الظروف التي نعيشها في هذه الأيام .



س : ما حكم من يقول : عليَّ الحرام من ديني ؟

ج : هذه العبارة خبيثة منكرة ، يكفر قائلها إذا قصد بها أنه يخرج من دينه حالاً ، أو يخرج منه عند حصول ما حلف عليه ، وعلى قائل ذلك أن يعود إلى الإسلام بسرعة بالنطق بالشهادتين والاستغفار والندم على ما قاله والعزم الأكيد على أنه لايعود إليه مرة أخرى ، فإن لم يفعل ذلك كان مرتداً تطبق عليه أحكام الردة .



س : ما معنى ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران : ١٩] ؟

ج : هذه الآية تدل على أن الدين المقبول عند الله تعالى بعد مجيء سيدنا محمد ﷺ هو الإسلام ، ونسخت الأديان السابقة ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] وقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يعرض الإسلام على العرب «الأميين» وعلى أهل الكتاب «اليهود والنصارى» فإن آمنوا فبها ، وإلا فحسابهم على الله ، قال تعالى : ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠] وإذا التزم المخالفون الاستقامة مع المسلمين بعدم الإضرار بهم تركناهم وما يعتقدون ، ﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٧] فإن اعتدوا على المسلمين أو منعوهم من الدعوة قوتلوا ، قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

وكل ذلك مع إيماننا بجميع الأنبياء وترك المخالفين أحراراً في ممارسة عقيدتهم وعبادتهم بما لا يضر المسلمين .

هذا ، وقد جاء في شرح الزرقاني على المواهب اللدنية [1] ، أن من خصائص الأمة الإسلامية أن الإسلام وصفهم وصف خاص بهم لايشركهم فيه غيرهم إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لقوله تعالى : ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج:٧٨] يعني القرآن ، ولقوله : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

وقيل إن و صف الإسلام ليس خاصًّا بأمة محمد عليه الصلاة والسلام بل يطلق على غيرهم أيضاً ، وهو اسم لكل دين حق لغة وشرعاً كما أجاب به ابن الصلاح لقوله تعالى حكاية عن وصية يعقوب : ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢] وأطال في هذا الموضوع فيرجع إليه.



١- ج٥ ص ٣٨٤ .

الأديان والمذاهب

س : يتحدث الناس كثيراً عن العلمانية ، فما هو أصلها وما هو موقف الإسلام منها ؟

ج : مما هو مقرر أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، فلابد من تحديد المفاهيم حتى يمكن الحكم عليها حكماً صحيحاً ، والعلمانية لفظ وجد في كتبنا العربية حديثاً عند ترجمة ما يقابلها في اللغات الأجنبية عن طريق الإدارة العامة للتشريع والفتوى بمجلس الأمة المصري -آنذاك- كما هو ثابت في الموسوعة العربية للدساتير العالمية التي أصدرها المجلس المذكور سنة ١٩٦٦م.

وبعيداً عن صحة النطق بهذه الكلمة ، الذي ذهب فيه الكاتبون مذاهب شتى ، وكان فرصة استغلت للدعوة إلى وجهة نظر معينة كما هو شأن المتشابه من النصوص الذي جاء فيه قول الله تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ .... ﴾ [آل عمران : ٧] .

بعيداً عن ذلك ، فإن نسبة العلمانية إلى العلم أو العالم ليست على قياس لغوي ، وهي ترجمة للكلمة الإفرنجية «لاييك» أو «سيكولا ريسم» وتعني «لادينية» على أي وجه تكون ، وفي أي ميدان تطبق ، وعلى أي شيء تطلق . وهي نزعة أو اتجاه أو مذهب اعتنقه جماعة في أوروبا في مقابل ما كان سائداً فيها في العصور المظلمة ، التي تسلط فيها رجال الدين على كل نشاط في أي ميدان ، مما تسبب عنه ركود وتخلف حضاري بالنسبة إلى ما كان موجوداً بالذات عند المسلمين من تقدم في كل المجالات.

وكان معتنقو هذا المذهب في أول الأمر في القرنين السابع عشر والثامن عشر قد وقفوا من الدين موقف عدم المبالاة به ، وتركوا سلطانه يعيش في دائرة خاصة ، واكتفوا بفصله عن الدولة . ومن أشهر هؤلاء «توماس هوبز» الإنجليزي المتوفى سنة ١٦٧٩م ، «جون لوك» الإنجليزي المتوفى سنة ١٧٠٤م ، «ليبنيتز» الألماني المتوفى سنة ١٧١٦م ، «جان جاك روسو» المتوفى سنة ١٧٧٨م.

وفي القرن التاسع عشر كانت المواجهة العنيفة بين العلمانية والدين ، وذلك لتغلغل المادية في نفوس كثير ممن فتنوا بالعلم التجريبي ، إلى حد أنكروا فيه الأديان وما جاءت به من أفكار ، واتهموها بتهم كثيرة كرد فعل للمعاناة التي عانوها من رجال الدين وسلطانهم في زمن التخلف الذي نسبوه إلى الدين ، ذلك الدين الذي كان من وضع من تولوا أمره . والدين الحق المنزل من عند الله بريء منه .

ومن أشهر هؤلاء المهاجمين «كارل ماركس» الألماني المتوفى سنة ١٨٨٣م، «فريدريك أنجلز» الألماني المتوفى ١٨٩٥م، «فلاديمير أوليانوف لينين» الروسي المتوفى سنة ١٩٢٤م. هؤلاء لم يقبلوا أن تكون هناك سلطة ثانية أبداً ، حتى لو لم تتدخل في شؤون الدولة ، وإن كانت هذه العداوة للدين بدأت تخف ، وتعاونت السلطات السياسية والاستعمارية على تحقيق أغراضها .

لقد تأثر بهذا المذهب كثيرون من الدول الغربية ، وقلدها في ذلك بعض الدول الشرقية ، ووضعت دساتيرها على أساس الفصل بين السياسة والدين، مبهورة بالتقدم والحضارة المادية الغربية ، اعتقاداً أنها وليدة إقصاء الدين عن النشاط السياسي والاجتماعي .

إن العلمانية بهذا المفهوم وهو عدم المبالاة بالدين ، يأباها الإسلام ، الذي هو من صنع الله وليس من صنع البشر ، فهو منزه عن كل العيوب والمآخذ التي وجدت في الأديان الأخرى التي لعبت فيها الأصابع وحرفتها عن حقيقتها. ذلك لأنه دين الإصلاح الشامل ، الذي ينظم علاقة الإنسان بربه وعلاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه ، ويوفر له السعادة في الدنيا والآخرة على السواء ، فهو كما يقال ، دين ودنيا ، أو دين ودولة ، أو عبادة وقيادة ..

ومن مظاهر ذلك ما يأتي :

١ - عقائد الإسلام ليست فيها خرافات ولا أباطيل ، فهو يقدس العقل ويأمر بتحكيمه إلى حد كبير .

٢ - الإسلام ليس منغلقاً على معلومات معينة يتلقاها بنصها من الوحي ، بل هو كما يقال ، دين منفتح على كل المعارف والعلوم ما دامت تقوم على حقائق وتستهدف الخير .

٣ - الإسلام يمقت الرهبنة التي تعطل مصالح الدنيا ، ويجعل النشاط الذي يبذل لتحقيق هذه المصالح في منزلة عالية ، لأنه جهاد في سبيل الله ، والتاجر الصدوق الأمين يحشر مع النبيين والصديقين ، فهو دين يعمل للدنيا والآخرة معاً .

٤ - الإسلام يقرر أن السلوك الاجتماعي مقياس لقبول العبادة ، فمن لم تثمر عبادته ، بمفهومها الخاص من العلاقة بين العبد وربه ، استقامة في السلوك فهي عبادة مرفوضة لايقبلها الله ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون : ٤-٧] .

٥ - الإسلام ليس فيه كهنوت يتحكم فيه بعض من الناس في مصائر الناس بإدخالهم الجنة أو حرمانهم منها ، بناء على اعتبارات خاصة، فمدار ذلك على العقيدة الخالصة والعمل الصالح ، وليس المشتغلون بعلوم الدين إلا معلمين ومرشدين، والأمر متروك بعد ذلك لمن شاء أن يستفيد أو لايستفيد بالتطبيق ، وقد يكون المتعلم أقرب إلى الله من معلمه ، بالتزام الطريق المستقيم الذي رسمه الله لهم جميعاً ، فما دامت العبادة لله فهو وحده الذي يقبل منها ما يشاء .

٦ - الإسلام ليس فيه سلطة مقدسة مستمدة من سلطة الله ، وليس في البشر من هو معصوم من الخطأ ، إلا من اصطفاه الله لرسالاته ، والحكم من ذوي السلطان ليس لذواتهم ، بل الحكم للدين أولاً وآخراً ، فكل شيء فيه اختلاف رأي يرد إلى الله وإلى الرسول ، أي الكتاب والسنة .

٧ - مبادئ الشريعة تستهدف تحقيق المصلحة ، فإذا لم يوجد نص واضح في أمر تعددت فيه وجهات النظر من أهل النظر وكان يحقق المصلحة العامة كان مشروعاً ، وبخاصة في أمور الدنيا ، فالناس أعلم بشئونها .

٨ - الإسلام دين تقدم وتطور وحضارة ، ليس جامداً ولا متمسكاً بالقديم على علاته فهو ينهى عن التبعية المطلقة في الفكر أو السلوك الذي يظهر بطلانه ، بل يقرر أن الله يبعث مجددين على رأس كل قرن ، يوضحون للناس ما أبهم ، ويصححون لهم ما أخطأوا فيه ويوائمون بين الدين والحياة فيما تسمح به المواءمة ، لأنه دين صالح لكل زمان ومكان ، ومن مبادئ التربية المأثورة عن

السلف : لا تحملوا أولادكم على أخلاقكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم .
والمراد بالأخلاق العادات التي تقبل التغيير ، أما أصول الأخلاق فثابتة .

بهذا وبغيره نرى الإسلام يرفض العلمانية ، وأن المسلمين ليسوا في حاجة إليها ، وإنما هم في حاجة إلى فهم دينهم فهماً صحيحاً ، وتطبيقه تطبيقاً سليماً كاملاً كما فهمه الأولون وطبقوه ، فكانوا أساتذة العالم في كل فنون الحضارة والمدنية الصحيحة ، وضعف المسلمين وتأخرهم ناتجان عن الجهل بحقائق الدين وبالتالي عدم العمل بما جاء به من هدى ، وبالجهل قلدوا غيرهم في مظاهر حضارتهم ، وآمنوا بالمبادئ التي انطلقوا منها دون عرضها على مبادئ الإسلام ، لأنهم لايعرفون عنها إلا القليل .

ولئن رأينا بعض دول المسلمين الآن قد نقلوا معارف غيرهم ممن يدينون بالعلمانية ، فليس ذلك دليلاً على أنهم آمنوا بما آمنوا به ، وإنما هو للاطلاع على ما عندهم حتى يعاملوهم على أساسه ، وإذا كانوا قد قبسوا من مظاهر حضارتهم فذلك للاستفادة من نتائج علمهم وخبرتهم فيما يقوي شوكة المسلمين ويدفع السوء عنهم ، والتعاون في المصالح أمر تفرضه طبيعة الوجود ، وهو مشاهد في كل العصور على الرغم من اختلاف العقائد والأديان . والمهم ألا يكون في ذلك مساس بالعقيدة أو الأصول المقررة وأن يستهدف الخير والمصلحة . هذا، والأدلة على ما قلناه مما جاء به الإسلام كثيرة تركناها للاختصار ، والمقصود هو إلقاء بعض الضوء على هذا المصطلح وموقف الدين منه .



س : ما هي الوجودية وما موقف الإسلام منها ؟

ج : الوجودية مذهب أو اتجاه فكري يعني بالبحث في الوجود الإنساني ، ويصورها «ريجيس جوليفييه» في كتابه (مذاهب الوجودية) بأنها اعتقاد أن أساس وجو الإنسان هو ما يفعله بمعنى أن أفعاله هي التي تحدد وجوده ، كما قال سارتر : أنا موجود فأنا أفكر ، على عكس ما قال ديكارت : أنا أفكر فأنا موجود.

إن هذا المذهب ليس جديداً ، فقد اهتم به كثيرون من الفلاسفة والأدباء والمتصوفين وغيرهم من قديم الزمان ، وإن كان أبرزهم حديثاً هو «كير كجارد» الدانمركي المتوفى سنة ١٨٥٥م وآخرهم «جان بول سارتر» الفرنسي المولود في ٢١ من يونيه سنة ١٩٠٥م والمتوفى في يوم الثلاثاء ١٥ من أبريل ١٩٨٠م.

وبعض المعتنقين لهذا المذهب يؤمنون بوجود الله الذي خلق الإنسان ، لكن يرون أنه رمى به في تيه يعيش فيه بين الألم والخوف والقلق ، ومن هؤلاء : كير كجارد ، جبرييل مارسيل ، وبعضهم لايؤمنون بأن الله خلق الإنسان ، بل هو الذي خلق نفسه بنفسه ، وذلك لعدم اليقين بمصدروجوده الحقيقي ، ومنهم : هيدجر ، سارتر.

والذين درسوا تاريخ هؤلاء تبين له أن ظروف حياتهم هي التي أملت عليهم هذا الاتجاه في التفكير ، فقد كان «كير كجارد» منطوياً على نفسه منعزلاً ، ولذلك حلل الوجود البشري تحليلاً يعيش في جو الحصر النفسي والتمزق الداخلي والشعور بالخطيئة ، وكذلك «سارتر» حيث اهتم اهتماماً كبيراً بفكرة العدم باعتباره داخلاً في نسيج الوجود ، فالفرد عنده يعيش في مواقف تتصف بالتميع ، ويحاول أن يتخطى حدود نفسه ويخدعها ، ومن أجل أن وجوده مرتبط بوجود الآخرين يرى تصارع إرادتهم مع إرادته في جو كله غثيان ، والفرد يسعى جاهداً إلى تحقيق رغباته لكن ذلك غير ممكن ، لأن إمكاناته لاتسعفه .

ويمكن أن نحدد أهم الصفات المميزة للوجوديين فيما يلي :

١ - الإيمان بأن التجربة الفردية هي أساس المعرفة ، وليس العقل أو غيره موصلاً إلى معرفة الحقيقة .

٢ - الإغراق في تقديس الحرية الشخصية فكراً وسلوكاً ، وعدم الاهتمام بالآخرين بقدر الاهتمام بالنفس ، ولذلك كثر فيهم الشذوذ والتطرف والآراء الغريبة والإنسان هو صانع وجوده بنفسه ، لأنه رب أفعاله .

٣ - التشاؤم والقلق والتمزق ، فالوجودي يحاول أن يخلع نفسه من نفسه ليعيش نفساً أخرى ، لأنه إما أن يكون قد قذف به في الكون وترك مع الطوفان بلا مدد أو وقاية ، كما يقول الملحدون ، وإما أن يكون الله قد ترك له حرية

الاختيار، وإن كان الاختيار نفسه محدوداً بحواجز خارجة عن إرادته وهو يشعر بها عند الفشل والمقاومة، فالوجود عندهم يتأرجح دائماً بين الوجود والعدم أو بين الاختيار والجبر.

وهي تجرد الإنسان من كل ثقة في الحياة ، وتهدم كل أساس ينطلق منه العمل . يقول «هيدجر» إننا قد ألقي بنا إلى هذا العالم ولست أعرف لماذا ولا كيف ، والشيء الوحيد الذي أعرفه حق المعرفة هو أنني سأموت يوماً من الأيام ، فالإنسان مستقبله محدود ومتناه ، وأنا أعرف ذلك .

إن لهم تعبيرات غريبة عن التجربة الفردية التي يعيشونها ، يقول عنها «كارل ياسبرز» إنها الإحساس بمدى هشاشة الوجود الإنساني ، ويقول عنها «هيدجر» هي المضي نحو الموت ، ويقول عنها «سارتر» :» الإحساس بالغثيان والتقزز بل إن كثيراً منهم لايرضى أن يقال عنه : إنه فيلسوف ، وإنما يقال : كاتب أو أديب ، لأن الفيلسوف الوجودي يقصر بحثه على الوجود الخاص به ، وهو يرى أن فلسفة البحث عن الوجود هي العدم ، وذلك ما قاله هيدجر . ومن هنا اعتبر كبار النقاد أن سارتر أديب أولاً ، ثم فيلسوف ثانياً .

٤ – تقوم الوجودية على إنكار وجود الله ، وبالتالي إنكار حياة بعد الموت ، أو على عدم الرضا بقضاء الله وحكمته في هذا الوجود ، وأنه بقدرته يمكن أن يغير أي حال إلى حال آخر ، الأمر الذي جعلهم يعيشون حياة القلق والتشاؤم والاهتمام بالذات وانتهاز الفرص التي ربما لاتتاح بعد.

إن الناظر إلى هذا الفكر يراه مخالفاً للإسلام ، وذلك لما يأتي :

أ – أن الإسلام يقوم على الإيمان بوجود الله وبالحياة الآخرة ، فالوجود الزمني في الدنيا معه وجود آخر دائم بعد الموت ، فالعدم ليس نهاية الوجود كله ، بل إن الحياة الآخرة خير لمن اتقى واستقام أمره .

ب– ليست وسائل المعرفة الصحيحة قاصرة على إحساس الفرد نفسه بما يعانيه من تجربة ، فهناك العقل وميدان التفكير واسع غير محدود ، وهناك الوحي المنزل من عند الله على رسله .

ج - ليست الحرية الشخصية في الإسلام أو في أي دين آخر ، بل في أي تشريع أو عرف ، حرية مطلقة بغير حدود ، فهناك ضوابط موضوعة لاستقامة السلوك وللمحافظة على حقوق الآخرين . ضرورة أن الإنسان مدني بطبعه ، لابد أن يعيش في مجتمع له حقوقه ، ومعلوم أن الأهواء الشخصية مختلفة ، وفي بعضها تضارب كبير، والإنسان ليس كالحيوانات التي تسيرها غرائزها في أكثر أحوالها.

د - الإسلام لا يرضى عن التشاؤم المطلق ، أو اليأس المقنط ، بل فتح باب الأمل ودعا إلى النشاط والعمل ، ووعد بالعفو عن المسيئ إذا أناب إليه ، وباليسر والفرج لمن توكل عليه ، وآمن برحمته وحكمته وهو يباشر نشاطه المأمور به .

وكل ذلك له أدلته من الكتاب والسنة وآثار السلف وواقع التاريخ الذي أثبت أن المسلمين انطلقوا بإيمانهم العميق بالله وبالحياة الآخرة ، وبالأمل الواسع في نصره وتأييده وبالتزامهم الصادق للحدود التي وضعها الله للسلوك - انطلقوا إلى الآفاق الواسعة، ينشرون كلمة الحق ويعمرون الدنيا بالخير .

ولا حاجة بالمسلمين اليوم إلى استيراد أفكار وفلسفات وأنماط سلوك وضيعة هي نتاج عقول تخطئ وتصيب ، وهي نضج لمعاناة شخصية في ظروف خاصة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة : ٥٠] يقول «بول فولكييه» في كتابه «هذه هي الوجودية» إن غموض شخصيات من اعتنقوا هذا المذهب جعل تعبيراتهم غامضة وليس من السهل فهمها أو تحديد المعاني المرادة منها ، ولذلك لما اعترض على سارتر بهذا الغموض قال «لاعجب في عدم فهم ما أكتب ، لأن الواقع محال ولايدركه الفهم» أمثل هؤلاء يتخذون زعماء؟

يمكن الرجوع إلى ما يأتي :

١ - دائرة معارف الشعب ، المجلد ٣ ص ٥٦٩ .
٢ - دراسات في الوجودية ، للدكتور عبدالرحمن بدوي.
٣ - الفلسفة الوجودية ، للدكتور زكريا إبراهيم .

٤ - المذاهب الهدامة ، لعباس العقاد .
٥ - الوجودية ، للدكتور محمد الفيومي .
٦ - قضايا العصر ، من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية.
٧ - الأهرام ١ / ١٠ / ١٩٨٣م ، ٢٦ / ٤ / ١٩٨٥م.
٨ - اللواء الإسلامي ١١ / ٤ / ١٩٨٥م.
٩ - الوجودية في الميزان ، للدكتور مصطفى غلوش.
١٠ - الوجودية في الميزان ، للشيخ محمد أبو المكارم.



س : ما هي الماسونية وما موقف الدين منها ؟

ج : الماسونية جمعية سرية يهودية يرجع تاريخها إلى العصر الروماني ، تأسست في مدينة «أورشليم» زمن الوالي «هيرودوس أغريبا» ملك اليهودية من سنة ٣٧-٤٤ بعد الميلاد ، وهو حفيد «هيرودوس الكبير» الذي قتل أطفال بيت لحم ، خشية أن يكون فيهم المسيح الذي سيقضي على ملكه .

وكان الغرض من تأسيسها مناهضة الدين المسيحي ، ثم تطور غرضها إلى مناهضة الأديان العامة وإعادة مجد إسرائيل والعودة إلى أرض فلسطين ، ثم عدل اسمها وظهرت بنشاطها في المحاربة وسميت «الجمعية الماسونية» أو البنائين الأحرار، وكان ذلك سنة ١٧١٧م وشعارهم : المثلث والفرجار، وأسسوا في بريطانيا أول محفل ماسوني ، جعلوا شعاره : الحرية والإخاء والمساواة ، وأصدر في لندن القرار التالي الذي يبين حقيقة أغراضهم :

١ - المحافظة على اليهودية .
٢ - محاربة الأديان عامة والكاثوليكية خاصة .
٣ - بث روح الإلحاد والإباحة بين الشعوب.

ثم تأسست لها محافل في أمريكا وغيرها ، وقد اغتر بشعارها بعض المسلمين فانضم إليها ، حتى إذا ما ظهر له هدفها تبرأ منها ، وخاف أكثرهم أن يذيع

أسرارها حتى لايقتل ، وتوجد شهادات لكبار الكتاب الغربيين ونشرات رسمية يهودية وأبحاث من مختصين ، تبين تخطيط اليهود الواسع لإفساد العالم تحت شعارات براقة يجب أن يتنبه إليها المسلمون ، فمن أكبر شعاراتهم : الأديان تفرقنا والماسونية تجمعنا .

جاء في دائرة المعارف الماسونية الصادرة في «فيلادلفيا» سنة ١٩٠٦م : يجب أن يكون كل محفل رمزاً لهيكل اليهود ، وهو بالفعل كذلك ، وأن يكون كل أستاذ على كرسيه ممثلاً لملك اليهود ، وكل ماسوني تجسيداً للعامل اليهودي .

وجاء في نشرة ماسونية صادرة في لندن سنة ١٩٣٥ : إن أمنيتنا هي تنظيم جماعة من الناس يكونون أحراراً جنسيًّا ، نريد أن نخلق الناس الذين لايخجلون من أعضائهم التناسلية ، ولذلك أسسوا نوادي للعراة في دول كثيرة ، وسعوا بكل وسيلة لتدمير مقومات الشعوب غير اليهودية والقضاء على القيم الأخلاقية .

وحتى لايفتضح أمرها أكثر ، وللحرص على انتشارها بشكل واسع ظهرت الماسونية تحت عناوين مختلفة ، وأنشأت فروعاً متعددة ، منها : البناى برث ، والكيوانى ، والليونز ، والاكستشانج ، وشهود يهوه ، ومنها الاتحاد والترقي ، ونادي القلم ، ونادي الصلبان الزاهرة ، وكذلك الروتاري .

وقد ذكر بعضها «تشارلس ماردن» ، في كتابه (الروتاري وأخوته) الذي نشره سنة ١٩٣٦م ، وهذه نبذة بسيطة عنها :

١ - بناي برث ، أو أبناء العهد ، أنشئت في نيويورك سنة ١٨٤٣م على نظام الماسونية، واقتصرت في قبول الأعضاء بمحافلها على اليهود ، ثم انتشرت فروعها في العالم كله ، يقول «فوستر دالاس» في حفل أقامته هذه المؤسسة في ٨ من مايو سنة ١٩٥٦م : إن مدنية الغرب قامت في أساسها على العقيدة اليهودية، ولذلك يجب على الدول الغربية أن تعمل بعزم أكيد من أجل الدفاع عن المدنية في معقلها الحالي «إسرائيل».

٢ - الكيواني ، أصل التسمية من الكلمة الهندية «كي -واني» أي اعرف بنفسك كيف تجعل صوتك مسموعاً ، ومع عدم وضوح العلاقة بين العنوان والهدف ،

فقد أسسه بعض الماسونيين في «ديترويت» بأمريكا ، ورخص لهم به في ٢١ من يناير سنة ١٩١٥م. وفي مايو سنة ١٩١٧م ظهرت المنظمة العالمية لنوادي الليونز إلى الوجود وعقدت اجتماعاتها الأولى في شيكاغو ، الوطن الأم لنوادي الروتاري وجاء في جريدة الأهرام الصادرة في ٢/ ١٢/ ١٩٨٥م أن وزيرة التأمينات والدولة للشئون الاجتماعية تدشن اليوم في فندق شيراتون القاهرة أحدث ناد لسيدات الليونز ويحمل رقم ١٩ في قائمة نوادي الليونز سيدات ورجال ، ويتم في حفل التدشين تسليم الإشارات والشهادات للمؤسسات البالغ عددها ٢٧ مؤسسة، وذكر الخبر أسماء هيئة النادي ، الذي أطلق عليه اسم «نادي سيدات ليونز شمال القاهرة».

٤ - الاكستنشانج ، تأسس في ديترويت في ٢٧/ ٣/ ١٩١٦م بمساعي تاجر المجوهرات «تشارلس بركي» . وفي أغسطس سنة ١٩١٧م عقد المؤتمر الوطني الأول.

٥ - شهود يهوه مؤسسة يهودية ترتدي ثوباً مسيحيًّا ، أخذت اسم «يهوه» كما جاء في التوراة ، تأسست في ولاية بنسلفانيا بأمريكا سنة ١٨٨٤م ثم انتقلت إلى نيويورك سنة ١٩٠٩م. ومن طرق دعوتها اقتحام البيوت لإلقاء دروس دينية من التوراة ، وهي من أخطر الجمعيات اليهودية ، لأنها تخدع الجماهير المسيحية الساذجة وتدخل نبوءات التوراة المحرفة في النفوس بعودة اليهود إلى أرض الميعاد .

لقد كشف أمر الماسونية سنة ١٩٥١ م في مجلة القوات المسلحة حين تظاهر صحفي باعتناقها وعرف أسرارها . وفي صحف سرية كانت مرسلة إلى جهة ما بمعرفة ضابط أمريكي ، عبث ولده برباطها فتبعثرت ، فقرأ ما فيه ونشرها ، فقتلوه، والضابط اسمه «سبير سفيتش» ألف كتاباً بالعنوان «الدنيا لعبة إسرائيل» ترجم إلى العربية وقدم له وزير التعليم بالسعودية .

وكان للماسونية محافل وجمعيات في مصر صدر قرار وزارة الشئون الاجتماعية بحلها في ١٨/ ٤/ ١٩٦٤م.



س : نسمع عن تشكيل يطلق عليه اسم «الروتاري» فهل فيه تعاليم تخالف تعاليم الإسلام ؟

ج : جاء في المصادر التي كتبها المنتسبون إلى الروتاري ، والمعلقون عليه أن المحامي اليهودي «بول هاريس» الذي كان يعيش في شيكاغو أحس بالوحدة وبحاجته الملحة إلى الزمالة والصداقة ففكر في جمع بعض الأصدقاء في مكتبه في روح أخوية ، ليتدارسوا كيفية رفع مستوى كل منهم .

وأول اجتماع كان في ٢٣ من فبراير سنة ١٩٠٥م حضره أربعة من الأصدقاء ، واتفقوا على أن يكون الاجتماع أسبوعيًّا في مكان عمل واحد منهم ، ومن هنا جاء اسم : «الروتاري» . ولما كثر عددهم وضاقت بهم أماكن العمل أصبحت اجتماعاتهم حول موائد للطعام ، مع مناقشة ما يرون من مسائل .

ثم أنشأوا نادياً ثانياً في «فرنسيسكو» سنة ١٩٠٨م ، وتكونت نواد خارج أمريكا، كان أولها نادي «وينينج» في كندا سنة ١٩١٢، ثم انتشرت في كثير من البلاد ، حتى صار عددها ١٧٨٠٠ في ١٥٤ دولة ومنطقة جغرافية حسب إحصاء نوفمبر سنة ١٩٧٨م.

وهذه النوادي تعقد مؤتمرات كان أولها في شيكاغو سنة ١٩١٠م وكان أول مؤتمر خارج أمريكا سنة ١٩٢١م في «أدنبرة» باسكوتلاندا حيث أطلق عليه اسم: الروتاري الدولي . وفي سنة ١٩٢٢م عقد المؤتمر في «لوس أنجلوس» بأمريكا ، واستمرت المؤتمرات تنعقد سنويًّا منذ ذلك التاريخ ، وكان آخرها رقم ٦٩ في طوكيو سنة ١٩٧٨م.

ونوادي الروتاري تعتبر أعضاء في مؤسسة الروتاري الدولية ، ومقرها مدينة «أفنسنون» بولاية «ألينوي» بالولايات المتحدة الأمريكية .

تبين أن فكرة النادي نبعت من الحاجة إلى طرد شبح الوحدة والعزلة وإلى الاندماج مع الناس ، والتفكير في تحسين حال الزملاء الذين يجمعهم النادي ، ثم وضح نادي الروتاري في مصر الغرض من إنشائه وركزه في أمور أربعة :

١ - توسيع مدى التعارف لإتاحة الفرصة للخدمة .
٢ - بلوغ مستوى خلقي سام في الأعمال والمهن .
٣ - تمسك كل روتاري بمبدأ الخدمة في حياته الشخصية العملية والاجتماعية .
٤- تعزيز روح التفاهم الدولي والنية الصادقة وحب السلام ، وذلك بتوثيق أواصر الزمالة في العالم بين الروتاريين أصحاب الأعمال والمهن.

وهذه الأغراض في شكلها وفي جملتها قد تغري بالانضمام إلى هذه النوادي ، أو على الأقل عدم التعرض لنشاطها ما دام يستهدف تحقيق هذه الأغراض . ومن المعلوم أن هناك صلة بينها وبين الماسونية ، ومن شواهد ذلك :

١ - أن شعار جميع الأعضاء هو «الأديان تفرقنا والروتاري يجمعنا» وهو شعار الماسونية. وقد قرر مجلس إدارة الروتاري الدولي في اجتماع عام ١٩٤١/٤٠م أن نوادي الروتاري تضم أعضاء من مختلف الأديان والمبادئ . ولكل أن يتمسك بعقيدته الدينية ، مع الاحترام الكامل لعقيدة الآخرين . وقد وضع الأديان في مستوى واحد من الاحترام ، بصرف النظر عما هو سماوي أو أرضي ، وفي ذلك - كمايقال- غسل القلوب والعقول تمهيداً لغرس ما يراد فيها مما تخطط له الماسونية من سيطرة الدين اليهودي وأفكار التلمود التي استغنوا بها عن التوراة .

٢ - أن المجموعة الأولى التي اشتركت مع «بول هاريس» في تأسيس الروتاري كانت أعضاء في المحافل الماسونية ، بل إنه في بعض الحالات قصرت عضوية النادي على الماسون فقط مثل نادي «أدنبرة» في بريطانيا سنة ١٩٢١م.

٣ - يقول الصحفي التركي «شهاب طان» -كما جاء في كتاب (في زنزانات إسرائيل).. ولكن المحافل المساونية غيرت اسم بعضها إلى جمعيات الروتاري بعد أن عرفت أسرارها وأهدافها .

٤ - حذر الفاتيكان من خطر هذه الأندية ، فصدر مرسوم من المجلس الأعلى في ٢٠ من كانون أول سنة ١٩٥٠م قرر فيه الكرادلة ما يأتي : «دفاعاً عن العقيدة

والفضيلة تقرر عدم السماح لرجال الدين بالانتساب إلى الهيئة المسماة بنوادي الروتاري ، وعدم الاشتراك في اجتماعاتها».

٥ - أن بعض الجمعيات والتنظيمات الحديثة التي دخلت المحيط الإسلامي ظهر أن لها صلة قوية بتنظيمات غربية تستهدف مصالح الغرب وبخاصة اليهود ، كجمعية : «أصدقاء الشرق الأوسط الأمريكية» التي يعمل «هوبكنز» نائباً لرئيسها ، وقد كان قسيساً ومنتسباً لطائفة خطيرة . وله نشاط واسع في السياسة لصالح أمريكا وبريطانيا ، وقد قاطعت شخصيات إسلامية هامة مؤتمره الذي عقد سنة ١٩٤٥م . في «بحمدون» بلبنان ، معلنة أن الإسلام ليس في حاجة إلى توجيهات أجنبية .

إن أقل ما يقال في الروتاري وأمثاله أنها تشكيلات تحوم حولها الشبهة لما يأتي:

١ - أن المؤسسين الأول يهود ، ونحن نعرف ماضيهم وما ارتكبوه من جرائم في حق الإنسانية كلها ، وسجل القرآن كثيراً منها ، وما يزال العرب والمسلمون يعانون منهم إلى اليوم .

٢ - هل عقمت تعاليم الإسلام وأفكار المسلمين أن تضع أهدافاً إنسانية كالتي يدعيها المؤسسون للروتاري ؟ وهل نحن في حاجة إلى ما يضعه لنا الأجنبي المعروف بعدائه ، والذي يصبغه بألوان ينخدع بها المصابون بعقدة الخواجة ؟

٣ - إن اللمسة الروحية تنقص هذه النوادي فالاهتمام كله في الخدمة بالمفهوم الذي يعرفه من تورط فيها وقتاً أو راقب نشاطها ، دون اهتمام بالثواب الأخروي فهو أمر ثانوي ، وقد فطن لخطرها آباء الكنيسة المسيحية ، فقد خطب «تشيسترون» في حفل أقيم سنة ١٩٣١م في نيويورك ، ووصف منظمة الروتاري بأنها تنقصها اللمسة الروحية وأن شيئاً غير أخلاقي يهيمن عليها وعلى علاقات أفرادها . اهـ

٤ - جاء في جريدة «الشهاب» بتاريخ ١٣/ ٥/ ١٩٦٤م أن أول مؤتمر ماسوني روتاري عقد في «رامات غان» بفلسطين المحتلة ، وامتدحوا فيه إسرائيل .

هذه هي نوادي الروتاري من كلام أعضائها والمتصلين بها ، والمسلمون بالذات ليسوا في حاجة إليها ، وإذا كان لبعض أعضائها نشاط ديني فهو ليس نتيجة الانتساب إليها ، وإذا كان لبعض الشخصيات اتصال بها في مناسبة ما فليس ذلك شهادة بأنها بعيدة عن الشبهة ، ومن أراد أن يباشر نشاطاً اجتماعيًّا لاشبهة فيه فما أكثر ميادينه البريئة ، ولتكن لنا شخصية مستقلة في فكرها وسلوكها ، تتخذ مقوماتها من الدين الذي أكمله الله وأتم به النعمة ، ووعد على التمسك به حياة طيبة في الدنيا والأخرى.

الروتاري في مصر :

في مطلع سنة ١٩٢٨م زار مصر المستر «جلاكستين» وهو من أعضاء نادي «هامر سميت» بإنجلترا ، وتقابل مع مجموعة من الرجال كانوا يجتمعون على الغداء مرة في كل أسبوع ، فدعاهم إلى إنشاء أول ناد للروتاري في المنطقة ، فوافقوا وأصبح عددهم ١٦ وفي يناير ١٩٢٩م بعث الروتاري الدولي مندوباً عنه هو المستر دافيد سن من كالجري بكندا لحضور أول اجتماع للنادي في ٢ من يناير سنة ١٩٢٩م في فندق شبرد وكان عدد الأعضاء ٢٢ عضواً ، وبعث الروتاري الدولي مندوباً عنه هو المستر «كوك بونينج» من هولندا ليسلم رئيس النادي وقتذاك المستر «مارتن» شهادة تأسيس النادي المؤرخة في ١١ من مارس ١٩٢٩م . وتمت تلك المراسم على متن السفينة «مصر» في ٨/ ١٢/ ١٩٢٩م.

وفي الفترة من سنة ٢٩ -١٩٣٩م كان أغلب الأعضاء من الأجانب ولم يكن من بين الأعضاء المؤسسين ، وعددهم ٢٢ ، إلا خمسة من المصريين ، منهم اثنان فقط من المسلمين ، وكانت اللغة المستعملة هي الإنجليزية ، ولم يشترك أحد من المصريين في مجلس الإدارة حتى عام ١٩٣١م ، وكانت رئاسة النادي لغيرهم حتى سنة ١٩٣٤م ، ومنذ سنة ١٩٣٩م أنشئت نواد في الإسكندرية وبورسعيد والمنصورة والزقازيق وأسيوط ، والمشتركون فيها خليط من المسلمين والمسيحيين واليهود .

والمقر الدائم لنادي الروتاري المصري رقم ٣ شارع بهلر ، افتتح في ٢١ من مارس ١٩٥٥م . ومن ١٤ من أبريل سنة ١٩٥٩م انتقلت اجتماعاته من فندق سميراميس إلى فندق النيل هيلتون . وهو تابع لوزارة الشئون الاجتماعية .

ومن أراد أن يعرف أسماء الأعضاء والرؤساء فليرجع إلى كتاب «العيد الذهبي للروتاري في مصر» ١٩٢٩ - ١٩٧٩م في ١٣ مارس ١٩٧٩ - ١٥ من مارس ١٩٧٩م.

هذا مختصر من بحث طويل عن الروتاري ربما أنشره في فرصة أخرى.



س : ما هي المبادئ والأصول التي قامت عليها الشيوعية ، وما هو موقف الإسلام منها ؟

ج : الشيوعية لون من ألوان الاشتراكية ، التي هي نظام تعاوني قائم على جعل الوسائل الرئيسية للإنتاج والتوزيع ملكاً للمجتمع ، وموجهة بطريقة ديموقراطية نحو الصالح العام ، بإيجاد فرص عمل لجميع الأفراد ، ورفع مستوى الإنتاج ومستوى المعيشة مع الضمان الاجتماعي وعدالة التوزيع.

وهذا المعنى يفكر فيه الناس من قديم الزمان وإن كانت وسائلهم إلى تحقيقه مختلفة ، فكان قدماء اليونان يدعون إلى المساواة ، والراهب «ميزليه» نادى بنزع الملكية الخاصة ، وأتباع «توما الأكويني» المتوفى سنة ١٢٧٢م. كانوا يدعون إلى ذلك، لكن هذا المعنى ظهر بوضوح في القرون الأخيرة بعد النهضة الصناعية في أوربا في نهاية القرن الثامن عشر ، ويعزى إلى «لوى بلان» هذا المبدأ : من كل حسب مقدرته، ولكل حسب حاجته.

كان من أعظم الاشتراكيين المحدثين «كارل ماركس» المتوفى سنة ١٨٨٣م . وجاء عنه في موسوعة المعرفة [1] أنه من أسرة يهودية متوسطة ، تحول أبوه المحامي إلى المسيحية سنة ١٨٢٤م ، وعمدت أسرته كلها طبقاً للبروتستانتية .

١- ص ٦٠٨ .

درس القانون والتاريخ والفلسفة في جامعات بون وبرلين ، ونال الدكتوراه سنة ١٨٤١م في الفلسفة . ولما ذهب إلى فرنسا طرد منها لآرائه السياسية ، فذهب إلى بروكسل ، ولحق به «أنجلز» وكتبا البيان الشيوعي ، فقامت الثورات في أوربا فهربا إلى ألمانيا ، ثم انتهى ماركس إلى لندن وتوفى بها ، ودفن في مقبرة «هاي جيت».

أصدر ماركس وفريدريك أنجلز المتوفى سنة ١٨٩٥م هذا البيان سنة ١٨٤٨م ، الذي يحث جميع العمال على الاتحاد والاستيلاء بالقوة على جميع الأجهزة السياسية والاقتصادية .

وكان ماركس قد أصدر الجزء الأول من كتابه «رأس المال» سنة ١٨٦٧م وهو أعظم وثيقة في تاريخ الاشتراكية قامت على أثره ثورات كثيرة في أنحاء أوربا ، ويعتبر إنجيل الثورة الشيوعية في روسيا ، التي كانت تعرف أولاً باسم «البلشفية» وكان «لينين» و «تروتسكي» زعيما ثورة ١٩١٧م من تلاميذه ، والجزآن الآخران أتمهما «أنجلز» ونشرا بعد موت ماركس ١٨٨٣م.

تقوم الشيوعية على مبادئ تتصل بالدين والسياسة والاقتصاد والاجتماع ، من أهمها :

١ - الكفر بالأديان ومكافحة سلطات الكنيسة بالذات ، حيث كان هو السائد عند قيام الثورة ، لقد قال ماركس ، وهو في سن الخامسة والعشرين كما يقول روجيه جارودي [١] إن الدين أفيون الشعب ، فهو يزهد في الدنيا ويزرع في النفوس الخضوع للقضاء والقدر والرضا بالواقع وعدم الكفاح لتغييره مهما كانت قسوته ، لقد كفر بالله على الرغم من أن أصله يهودي انتقلت أسرته إلى المسيحية.

وقال «لينين» في مؤتمر الشباب الشيوعي المنعقد في ٢ من أكتوبر سنة ١٩٣٠م : إننا معشر الشيوعيين لانستمد قوانين الأخلاق والسلوك الاجتماعي من أوامر

---

١ - مجلة الطليعة عدد أذار ١٩٧٠م.

الدين ، لأننا نخرج على جميع الأخلاق والآداب التي تنفصل عن المجتمع البشري ونرى أنها خداع وتضليل.

وجاء في الموسوعة السوفياتية [1] أن القرآن من عند محمد ومن بعده ، ويقول «أ. سمير نواف» عضو المجمع العلمي وزعيم الدراسات الإسلامية في الاتحاد السوفياتي في كتابه (تاريخ الإسلام في روسيا) : إن وجود محمد خرافة وكذلك هجرته» [2].

وطالب الزعيم السوفياتي «ميخائيل جورباتشوف» بشن حملة لا هوادة فيها ضد الدين في الجمهوريات الإسلامية السوفيتية بوسط آسيا ، وقالت جريدة «برافدا فوستوكا» الناطقة باسم الحزب السوفيتي في جمهورية «أوزباكستان» : إن تعليمات جورباتشوف صدرت خلال اجتماع مع قادة الحزب في طشقند وهو في طريقه إلى الهند - موسكو - روتر [3] .

٢- ديكتاتورية عامة الشعب «البروليتاريا» من أجل إيجاد مجتمع شيوعي ، وعند عدم تهيؤ الشعب للسلطة ينوب عنه الحزب الشيوعي.

٣- ملكية وسائل الإنتاج : الأرض ورأس المال والعمل ، لتكون للشعب عامة ، والقضاء على الملكية الخاصة . ومناهضة الإقطاعيين من النبلاء ورجال الكنيسة الذين يملكون الأرض بعبيدها ، وكذلك مناهضة البورجوازيين الحائزين للأموال في الثورات الصناعية والمتحكمين في العمال . ويلزم ذلك إهدار كرامة الفرد والقضاء على حرية الفرد .

٤- تفسير التاريخ تفسيراً ماديًّا ، بمعنى حتمية الصراع بين الطبقات ليقوم المجتمع الشيوعي ، وإنكار أن تكون هناك سنن موضوعة من الدين للوجود ، فلابد من أخذ الفقراء حقوقهم من الأغنياء بالصراع إنها حرب على الغنى ودعوة إلى الفقر باسم المساواة.

١- الطبعة الثانية سنة ١٩٦٤م مجلد ٢٢ .
٢- الإسلام أقوى ، تأليف جهاد قلعجي.
٣- الأهرام في ٢٩/ ١١/ ١٩٨٦م .

هذه هي أهم الأسس التي تقوم عليها الشيوعية . والأديان بوجه عام والإسلام بوجه خاص لايقرها ، وليس هو في حاجة إليها ، لما يوجد فيه من مبادئ تحقق الرخاء والتقدم للمجتمع في ظل استقرار روحي ومودة وتكافل ، ينبع من إحساس داخلي يغرسه الإيمان في النفوس .

ولايصح أن يقال عن الإسلام : إنه دين اشتراكي بالمعنى الموجود عند الغرب، فهو نظام متميز عن كل هذه الألوان المتعددة للاشتراكية ، والحكم على دين أو مذهب يكون بالحكم على جميع أصوله ككل ، فالمسلم الذي ينكر مبدأ واحداً من المبادئ الأساسية في الدين لا يعد مسلماً ، وكذلك الشيوعي بالذات لايعد شيوعيًّا إذا أنكر مبدأ من مبائها . ومن هنا لايمكن أن يقال عن المسلم إنه شيوعي ، لأنه إن أنكر دينه لايكون شيوعيًّا حتى يأخذ بها جميعاً .

ولسنا في حاجة إلى مناقشة مبادئ الشيوعية ، فالإسلام يرفضها جملة وتفصيلاً ، ذلك لأنه قائم على الإيمان بالله ، وبكل ما جاء به الدين من الحياة الآخرة والأمور المغيبة ، ومن قضاء الله وقدره وتدبير خلقه على سنن حكيمة ، ومن احترام الحقوق لجميع الناس من أغنياء وفقراء ، ومن حل المنازعات عن طريق الصلح والقضاء ، ومن الإسهام بقوة في النهوض بالمجتمع من كل نواحيه الاقتصادية والسياسية والثقافية لتحقيق خيرية هذه الأمة وإسعادها في الدنيا والآخرة على السواء . مع ضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم على أساس الشورى والتناصح والتعاون ، والاحتفاظ بكرامة الإنسان وصيانة حريته في حدود المصلحة العامة ، والأدلة على ذلك كثيرة في القرآن والسنة وغيرهما من مصادر التشريع .

هذا ، وقد جاء في جريدة «الفاينا نشيال تايمز» [1] أن القضاء على الملكية الخاصة لما كان مثبطاً للهمم مساعداً على عدم المبالاة ، قاضياً على روح التنافس لجأ الروس إلى العودة إلى احترام هذه الملكية بعد أن رأت العواقب الوخيمة من جراء القضاء عليها ، فقد أفردت جريدة «إزفستيا» مساحة كبيرة لتجربة فسح المجال لقدر أكبر

١- الأهرام ٣١/ ٨/ ١٩٨٥م.

من الحافز الفردي في مجال مشاريع الخدمات ، وأشارت إلى تجربة تمت في «استونيا» حيث سمح لرجال الصيانة بالاحتفاظ بمكاسب من عملهم في أحد محلات إصلاح أجهزة التليفزيون ، ليمولوا المشروع بأنفسهم ، وظهر أن الجهاز الذي كان يستغرق إصلاحه قبل ذلك حوالي أسبوعين أصبح الآن يتم إصلاحه في ثلاثة أيام على الأكثر ، كما قام العمال بإصلاح إداري لجذب الزبائن إلى المحل ، وقد ارتفعت أرباح المشروع بنسبة من ١٠-١٥٪ عن ذي قبل وجاء في أهرام ٤/ ١/ ١٩٨٧م نقلاً عن «النيويورك تايمز» وفي أهرام ١٧/ ٣/ ١٩٨٧م نقلاً عن «الهيرالد تريبيون» بعنوان كارل ماركس.

يقول ماركس : إن الدين هو آفة الإنسان المقهور ، وأن الدين أيضاً هو أفيون الشعوب ، وكان الأفيون معروفاً في ألمانيا حينذاك بأنه قاتل الألم.

وفيه : ومن أجل الإعداد للثورة يجب إزاحة التأثير المخدر للدين وترك الطبقة العاملة تعاني حتى يصل الألم إلى درجة لايمكن احتمالها ، وحينئذ سيأتي الشفاء على يد الشيوعية . فالقضاء على الدين هو الشرط الأول لسعادة الشعب وعلى نهجه سار لينين . لكن بدأ تغيير في تعليم الملحدين في عهد جورباتشوف ، فظهر في الصحف رسائل تقول : إن لم تكف السلطات السوفيتية عن محاربة الدين فإن إدمان الخمور لن يتوقف ، أصبحت الفودكا هي المهرب من المعاناة ، وذلك يهدد الإنتاج ويهدد الأسر بالانهيار ، لقد أصبحت الشيوعية هي الإله الذي فشل في توفير الخبز لعباده.

راجع :

١ - الشيوعية والإنسانية في الإسلام ، لعباس العقاد.

٢ - نظرات إسلامية في الاشتراكية الثورية ، للدكتور معروف الدواليبي.

٣ - طبقية المجتمع الأوربي وانعكاس آثارها على المجتمع الإسلامي المعاصر ، للدكتور محمد البهي.

٤ - الاشتراكية العربية ، للعميد سيد عبدالحميد مرسي ، وعبدالرحمن عبدالمتعال.

٥ - الإسلام أقوى ، لجهاد قلعجي .

٦ – المحاضرات الثقافية بقاعة محمد عبده بجامعة الأزهر سنة ١٩٥٩م.
٧ – موسوعة المعرفة .
٨– الفتاوى الإسلامية ، المجلد ٤ ص ١٣٦٧ ، المجلد ٧ ص ٢٦٠٥.
٩ – آخر ساعة في ٢٠/ ٨/ ١٩٧٥م.
١٠ – الماركسية بين النظرية والتطبيق ، للدكتور عبدالمنعم النمر.



س : من هم الشيعة وما هي فرقهم الموجودة الآن ؟

ج : الشيعة هم أتباع علي رضي الله عنه والموالون لآل البيت ، والمسلمون جميعاً مأمورون بحب آل البيت وتكريمهم وقد وردت في ذلك عدة نصوص ، منها قول الله تعالى ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى : ٢٣] وقوله : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] وذلك على خلاف للمفسرين في تحديد القربى وأهل البيت . وقوله ﷺ «أذكركم الله في أهل بيتي» ثلاث مرات [١] وقوله « «يا أيها الناس ارقبوا محمداً في أهل بيته» [٢] .

غير أن بعضاً من المسلمين اشتد حبهم لسيدنا علي وذريته ، وتغالوا في تكريمهم لدرجة أن بعضهم اعتقد ألوهية سيدنا علي ، وبعضهم اعتقد أنه النبي المرسل وغلط جبريل فنزل بالوحي على سيدنا محمد ﷺ ومنهم من قال : إنهما شريكان في النبوة ، وقالوا إنه الإمام بعد الرسول ﷺ بالنص الجلي أو الخفي ، دون أبي بكر وعمر وعثمان وأن الإمامة لاتخرج عنه ولا عن أولاده ، وإن خرجت فبظلم أو بتقية .

وأشهر فرقهم الموجودة الآن خمسة :

١ – الزيدية :

وهم أتباع زيد بن علي بن الحسين ، لما دعى الشيعة لحرب الأمويين سألوه رأيه في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فأثنى عليهما فرفضوه وسموا بالرافضة وهم

١– رواه مسلم .   ٢– رواه البخاري .

يوجدون الآن في اليمن ، ومذهبهم قريب من مذهب أهل السنة ، وهم وإن اعتقدوا أفضلية علي على أبي بكر وعمر أجازوا إمامة المفضول مع قيام الفاضل.

٢ - الإمامية :

وهم الذين قالوا بإمامة اثنى عشر من آل البيت ، ويسمون بالاثنى عشرية وبالموسوية ، لأن الأئمة عندهم هم : علي ، الحسن ، الحسين ، علي زين العابدين ابن الحسين ، وكانت الإمامة لابنه الأكبر «زيد» فلما رفضوه كما تقدم ولوا بدله أخاه محمداً الباقر ، ثم جعفر الصادق ، وكان له ستة أولاد ، أكبرهم إسماعيل ثم موسى ، ولما مات إسماعيل في حياة أبيه أوصى والده بالإمامة إلى ابنه موسى الكاظم ، وبعد وفاة جعفر انقسم الأتباع فمنهم من استمر على إمامة إسماعيل وهم : الإسماعيلية أو السبعية ، والباقون اعترفوا بموسى الكاظم ، وهو الموسوية ، ومن بعده على الرضا، ثم ابنه محمد الجواد ، ثم ابنه على الهادي ، ثم ابنه الحسن العسكري نسبة إلى مدينة العسكر «سامرا» وهو الإمام الحادي عشر ، ثم ابنه محمد الإمام الثاني عشر ، وقد مات ولم يعقب فوقف تسلسل الأئمة وكانت وفاته سنة ٢٦٥هـ.

ويقول الإمامية : إنه دخل سرداباً في «سامرا» فلم يمت ، وسيرجع بعد ذلك باسم المهدي المنتظر.

وهذه الطائفة منتشرة في إيران والعراق وسوريا ولبنان ، ومنهم جماعات متفرقة في أنحاء العالم ، ولهم كتب ومؤلفات كثيرة من أهمها كتاب «الوافي» في ثلاثة مجلدات كبيرة جمعت كثيراً مما في كتبهم الأخرى ، كتب عليه أحد أهل السنة نقداً سماه «الوشيعة في نقد عقائد الشيعة» وكان ذلك في فبراير سنة ١٩٣٥م كما كتب رئيس أهل السنة بباكستان «محمد عبد الستار التونسوي» رسالة في ذلك .

ومن أهم أصولهم :

١ - تكفير الصحابة ولعنهم ، وبخاصة أبوبكر وعمر رضي الله عنهما إلا عدداً قليلاً جدًّا كانوا موالين لعلي رضي الله عنه . وقد رووا عن الباقر والصادق ، ثلاثة لايكلِّمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . من ادعى إمامة ليست له ومن جحد إماماً من عند الله ، ومن زعم أن أبا بكر وعمر لهما نصيب في الإسلام.

ويقولون : إن عائشة وحفصة رضي الله عنهما كافرتان مخلدتان ، مؤولين عليهما قول الله تعالى ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم : ١٠] .

٢- ادعاء أن القرآن الموجود في المصاحف الآن ناقص ، لأن منافقي الصحابة (هكذا) حذفوا منه ما يخص عليًّا وذريته ، وأن القرآن الذي نزل به جبريل على محمد سبعة آلاف آية ، والموجود الآن ٦٢٦٣ والباقي مخزون عند آل البيت فيما جمعه علي ، والقائم على أمر آل البيت يخرج المصحف الذي كتبه علي ، وهو غائب بغيبة الإمام.

٣- رفض كل رواية تأتي عن غير أئمتهم ، فهم عندهم معصومون بل قال بعضهم: إن عصمتهم أثبت من عصمة الأنبياء .

٤- التقية : وهي إظهار خلاف العقيدة الباطنة ، لدفع السوء عنهم .

٥- الجهاد غير مشروع الآن ، وذلك لغيبة الإمام ، والجهاد مع غيره حرام ولايطاع، ولاشهيد في حرب إلا من كان من الشيعة ، حتى لو مات على فراشه.

وهناك تفريعات كثيرة على هذه الأصول منها :

عدم اهتمامهم بحفظ القرآن انتظاراً لمصحف الإمام ، وقولوهم بالبداء بمعنى أن الله يبدو له شيء لم يكن يعلمه من قبل ويتأسف على ما فعل ، والجمعة معطَّلة في كثير من مساجدهم وذلك لغيبة الإمام ، ويبيحون تصوير سيدنا محمد وسيدنا علي وصورهما تباع أمام المشاهد والأضرحة ، ويدينون بلعن أبي بكر وعمر ...

٣ - الإسماعيلية :

وهي تدين لإسماعيل بن جعفر الصادق ، وهم أجداد الفاطميين والقرامطة، يعتقدون التناسخ والحلول ، وبعضهم يدعي ألوهية الإمام بنوع من الحلول ، وبعضهم يدعي رجعة من مات من الأئمة بصورة التناسخ .

وهذه الفرقة طائفتان ، إحداهما في الهند وتسمى «البهرة» ويتركزون في بومباي، يعترفون بالأركان الخمسة الواردة في الحديث وهو : «بني الإسلام على خمس :

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً» [1] .

ويزيدون عليه ركناً اسمه «الطهارات» ويتضمن تحريم الدخان والموسيقى والأفلام ، وهم في صلواتهم يجمعون بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء ، ولايصلون الجمعة ويحتفلون بغدير «خم» في ١٨ من ذي الحجة كل عام ، حيث تمت فيه الوصية لعلي [2].

والطائفة الأخرى في «سلمية» بسوريا وفي زنجبار وشرقي أفريقيا وتسمى «الأغاخانية» نسبة إلى زعيمهم «أغاخان».

٤ - النصيرية :

وهم أتباع أحد و كلاء الحسن العسكري واسمه محمد بن نُصير ، والذين تسموا في عهد الاحتلال الفرنسي بسوريا باسم «العلويين».

ومن كتاب «تاريخ العلويين» لمحمد أمين غالب الطويل ، وهو نصيري ومن غيره من الكتب والمراجع نوجز أهم مبادئهم فيما يلي :

أ - الولاية لعلي ، زاعمين أن النبي ﷺ بايعه ثلاث مرات سرًا ، ومرة رابعة جهراً .

ب - عصمة الأئمة ، لأن الخطايا رجس وقد قال الله في أهل البيت : ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ .

وبناء على ذلك يعتقدون أن الإمام أعلى من بعض الوجوه من الأنبياء ، لأنهم معرضون للخطأ ولم يرد في القرآن ما ينزههم عنه ، أما الأئمة فمعصومون بنص القرآن .

ج - التقية : أو التكتم في الدين فإخفاء عقيدتهم من كمال الإيمان .

د - علم الباطن : فهو في زعمهم مختص بهم ، وهم على صواب دائم في تفسير القرآن وعلم أسراره لأنهم معصومون .

---

١ - رواه البخاري .
٢ - مجلة العربي سبتمبر ١٩٧٥م ، المصور ٢٠/ ١/ ١٩٨٧م.

وبناء على هذه الأصول قالوا بألوهية متحدة الحقيقة مثلثة الأجزاء فالألوهية معنى وحقيقة ، وهو علي ، ولها اسم وحجاب ، وهو محمد ، ولها باب يوصل إليها ، وهو سلمان ، فعلي رب العالمين ، والقرآن منه ، وكل نبي بعث فهو الذي بعثه ليتكلم بلسانه ، وكان هو مع كل رسول متجسداً في صورة وصي له ، ويرمزون إلى هذا الثالوث برمز «ع.م.س».

ولهم تفريعات على ذلك : فالعبادات الواردة في القرآن بما فيها من أوامر ونواه ، هي أسماء أماكن ، والأشهر الحُرم عندهم هي : فاطمة والحسن والحسين وعلى ابنه ، والقيامة عندهم في قيامة المحتجب صاحب الزمان .

والمنتسبون إلى هذا المذهب طبقات ، منهم متعلمون لايدينون به ، لكن لايجدون عوضاً عنه ، ومنهم الشيوخ والرؤساء المتمسكون ، ومنهم العامة الذين يعيشون على غير هدى ، والحكم عليهم مذكور مع الدروز.



س: نسمع عن فرقة دينية تسمى بالخوارج ، فكيف ظهرت وما هي مبادئها ، وحكم الدين فيها ؟

ج : الخوارج فرقة دينية ظهرت على أثر الخلاف بين علي ومعاوية ، حيث انفصلت عن شيعة علي رضي الله عنه جماعة خرجوا عليه بعد أن رضى بالتحكيم، حين اختار أبا موسى حكماً ، واختار معاوية عمرو بن العاص حكماً ، وأطلق عليهم اسم الخوارج أو الحرورية باسم المكان الذي انحازوا إليه ، فكانوا أول فرقة منظمة شذت بفكرها القائم على تكفير مرتكب الكبيرة ومن يرفض حكم الله من أجل حكم البشر، رافعين شعار «لا حكم إلا لله» ونبه علي رضي الله عنه على زيف هذا الشعار الذي اتخذوه ستاراً لأغراض ليست في مصلحة الدين فقال «كلمة حق أريد بها باطل» وحدث أن أرسل إليهم عبدالله بن عباس رضي الله عنهما لمناظرتهم فرجع كثير معه ، ثم تمردوا وراسلهم ، وفي النهاية قاتلهم بعد قتلهم عامله عليهم عبدالله بن خباب بن الأرت ، وأوقع بهم في «النهروان» سنة ٣٨هـ ، ولم ينج منهم

إلا قليل، ثم ظهروا بعد ذلك بمعتقداتهم وتوسعوا فيها وكثرت فرقهم ، ومازالت منهم بقية إلى الآن في بلاد المغرب ، يقول عنهم ابن حزم : إنهم أعدل هذه الفرق ، وهي الإباضية [1] .

امتد شذوذ الخوارج في فكرهم إلى شذوذهم في السلوك ، فدبروا المؤامرات التي راح ضحيتها علي رضي الله عنه حيث طعنه عبدالرحمن بن مُلجم وهو يصلي الصبح ، يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (تاريخ المذاهب الفلسفية) لعل موقفهم المتشدد نحو الحكم والمجتمع يرجع إلى أن أكثرهم كانوا من قبائل ربيعة التي تنافس قبائل مُضر منذ زمن بعيد ، فهم ينفسون على قريش المضرية التي تريد أن تحصر الخلافة فيهم ، ونادوا بأن تكون حقًّا لكل من عنده أهلية لها من أية قبيلة، ليسهل عزل الخليفة حيث لاتكون له عصبية تحميه .. ثم يقول :

كما أن من أسباب سخطهم على المجتمع أن أكثرهم كان يعيش في البادية بخشونتها وصلابة رأيها ، ولما جاء الإسلام لم يغير من حالهم كثيراً ، لأنهم لزموا عيشة البدو ولم يتأثروا بعيشة الحضر ، فاعتنقوا المذهب بقوة امتزجت بها ورثوه من سذاجة فكر وضيق صدر ، فكان لذلك أثره في الحكم على المجتمع الذي انصرفوا عنه إلى العبادة التي تؤهلهم إلى الحياة الطيبة في الآخرة . انتهى ما قاله وإن حدث تغير في الفكر والسلوك عند بعضهم .

يقول صاحب كتاب المواقف في علم التوحيد «الإيجي» إن الخوارج سبع فرق لكن اندثر أكثرها ، وما يعرف منها الآن فرقة الإباضية التي تنسب إلى زعيمهم «عبدالله بن إباض».

وهم في عقيدتهم على رأي الخوارج الأصليين الذين يكفِّرون مرتكب الكبيرة، لكنهم ينفون عن أنفسهم هذه التهمة ويقولون : إن المراد بالكفر كفر النعمة ، ويعترفون بالقرآن والحديث مصدرين للعلم ، ويصرون على أن القدوة الحسنة بعد النبي ﷺ في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ويكفِّرون عليًّا وأكثر الصحابة ، ويوجبون

١- نيل الأوطار للشوكاني ج٧ ص ١٦٨ .

على المسلمين إقامة الإمامة عند القدرة والعلم ، ويرون أن العزلة أفضل من الاختلاط بالمجتمع ، وهم أعدل فرق الخوارج كالزيدية في الشيعة ، وقد ألف أحد الكتاب من ليبيا كتاباً في ثلاثة أجزاء بعنوان «الإباضية في موكب التاريخ» حاول أن يقطع صلتهم بالخوارج ، ويجعل لهم مذهباً مستقلًّا أساسه حرية الرأي .

وقال «الإيجي» صاحب كتاب المواقف : إن الإباضية من الخوارج افترقوا أربع فرق ، وعدَّ منها «اليزيدية» أصحاب «يزيد بن أنيسة» الذين قالوا : سيبعث نبي من العجم بكتاب يكتب في السماء ، ويترك شريعة محمد إلى ملة الصابئة ، وكل ذنب عندهم شرك.

هذا ، وقد سبق في بعض الإجابات شرح قوله الله تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ والنهي عن تكفير من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا بارتكاب ما يوجب الحكم عليه بذلك . والواجب هو محاورتهم لتصحيح أفكارهم ، فإن لم يستجيبوا وجب اتخاذ موقف منهم .

وقد وضح الماوردي في كتابه (الأحكام السلطانية) [1] ، ما يتخذ من الإجراءات نحوهم ، ويمكن الرجوع فيها إلى المصدر المذكور أو إلى الجزء الأول من كتاب «بيان للناس من الأزهر الشريف» ويمكن تلخيصه فيما يلي:

إذا كان هناك أهل فكر معين ينشقون به عن فكر الجماعة ، إن تستروا بفكرهم ولم يدعوا إليه ولم ينحرفوا في سلوكهم فليس للسلطة يد عليهم ، فإن دعوا إلى فكرهم وجب على المسئولين أن يصححوا أفكارهم بالحوار أو بالتوعية أو أية وسيلة أخرى ، وفي الوقت نفسه يجوز للسلطة أن تعاقب من يروجون لأفكارهم بما تراه من عقوبة لاتصل إلى القتل أو إلى حد من حدود الجرائم المعروفة.

ولو انفصلت هذه الجماعة وتميزت بدار أو محلة وكانت ملتزمة بالقوانين الجارية دون عدوان ولا فساد فلا شأن للسلطة بهم إلا ما يكون من توعية لتصحيح الفكر ، فإن تمردت على القوانين وكونت لنفسها دولة داخل الدولة كان للسلطة أن تحاربهم لينزعوا عن المباينة ويفيئوا إلى الطاعة.



١- ص ٥٨ .

س : من هم الدروز وهل هم مسلمون ؟

ج : هم أتباع أبي محمد الدرزي -بفتح الدال المشددة- وكانوا أولاً من الإسماعيلية ثم خرجوا عليهم ، ويسكنون سوريا ولبنان.

تقوم عقيدتهم على تأليه الحاكم بأمر الله الفاطمي وبرجعته ، ويتخذون سنة ٤٠٨هـ مبدأ لتاريخهم الذي أعلن فيه الدعاة ألوهية الحاكم ، وهم يعتبرون في الرسميات مسلمين ، وإن كانت مبادئهم الدينية سرية لايصرحون بها ، فنشأت شائعات عن عقائدهم وعباداتهم ، حتى كانت حملة الجيش السوري على جبل الدروز في أواخر عهد «الشيشكلي» فعثر على بعض مخطوطاتهم التي شرحت مذهبهم ، وألف بعض مؤرخي العصر الحديث كتباً عليهم .

يقولون بالتقية أي التظاهر بموافقة الآخرين ، ويقولون أيضاً بالتناسخ وهم ثلاث درجات : الأولى : العقل أو العقال -بتشديد القاف المفتوحة- وهم رجال الدين ذوو النفوذ الكبير ، والثانية : الأجاويد المطلعون على تعاليم الدين والملتزمون بها ، والثالثة : العامة أو الجهال .

وليس لهم مساجد بل خلوات خاصة لايدري ما يجري فيها ، ولا يصومون إلا ما يقال عن الشيوخ العقَّل من صيام أيام غير رمضان ، ولايحجون إلى الكعبة ، بل إلى خلوة البياضية في بلدة «حاصبية» التابعة لبيروت ، ويقال إنهم لايقرون تعدد الزوجات ولا الرجعة في الطلاق ، ولا يورثون البنات.

هذا بعض ما تسرب من المعلومات عنهم في الكتب والأخبار ، ونظراً للسرية التامة ولتشددهم في مبدأ التقية فإن حقيقة مذهبهم لايعرف منها إلا القليل ، لكن كتب عنهم ، عصام الجيتاوي كلاماً تفصيليًّا نشرته مجلة «المجتمع» التي صدرت بالكويت بتاريخ ٢٥/ ٤/ ١٩٧٨م ، فيرجع إليه.

وقد صدرت عن دار الإفتاء المصرية فتوى في ١٥ من ديسمبر سنة ١٩٣٤م مأخوذة عن ابن عابدين [1] نصها : تنبيه ، يعلم مما هنا حكم الدروز والنيامنة فإنهم

١- رد المحتار ، الجزء الثالث ، باب المرتد.

في البلاد الشامية يظهرون الإسلام والصوم والصلاة مع أنهم يعتقدون تناسخ الأرواح ، وحل الخمر والزنا ، وأن الألوهية تظهر في شخص بعد شخص ، ويجحدون الحشر والصوم والصلاة والحج ، ويقولون : المسمى بها غير المعنى المراد، ويتكلمون في جناب نبينا ﷺ كلمات فظيعة ، وللعلامة المحقق عبدالرحمن العمادي فيهم فتوى مطولة ، وذكر فيهم أنهم ينتحلون عقائد النصيرية والإسماعيلية الذين يلقَّبون بالقرامطة والباطنية الذين ذكرهم صاحب المواقف ، ونقل عن علماء المذاهب الأربعة أنه لايحل إقرارهم في ديار الإسلام بجزية ولاغيرها ، ولاتحل مناكحتهم ولا ذبائحهم . اهـ

وقال ابن عابدين أيضاً في رد المحتار في فصل المحرمات عند قول المصنف : وحرم نكاح الوثنية بالإجماع ما نصه : قلت : وشمل ذلك الدروز والنصيرية والنيامنة فلا تحل مناكحتهم ولا تؤكل ذبيحتهم ، لأنهم ليس لهم كتاب سماوي [1]. اهـ



س : نسمع عن طائفة مسلمة تعيش في الهند تسمى بالبهرة ، فما أصل هذه الطائفة وما صلتها بالأمة الإسلامية؟

ج : ١ - البُهْرَة - طائفة من الشيعة مركزها الآن «بومباي» بالهند يقرب عددهم من مليون ونصف المليون ، والبهرة هي الوسط من كل شيء ، أو الوسط من الطريق، وهو في الأصل اسم لقبيلة من اليمن ، يقول الأمير الدكتور يوسف نجم الدين «أمير الجامعة السيفية» : الدعاة الفاطميون حين نزلوا على الساحل الغربي للهند «ساحل بحر العرب» سألهم أهل الهند : من أنتم ؟ قالوا: جئنا للتجارة . والتجار في اللغة الهندية المحلية كانوا يسمون «وهرة» وبلغة الهند حيث الواو والباء مترادفتان سموا «البهرة» فاسمهم مشتق من اللغة الكجراتية «الجو جاراتيه» السائدة في غربي الهند .

١- الفتاوى الإسلامية ، المجلد الأول ، صفحة ٢٠٢.

٢ - البهرة أصلهم فاطمي ، خرجوا من مصر والدولة الفاطمية قائمة ، وعند زوالها من مصر واغتيال الخليفة العشرين «العامر بالله» سنة ١١٣٠م ادعى قبل موته التنبؤ ببداية مرحلة من الفوضى ، وأن استمرار دعوته لابد أن يكون في الستر والخفاء ، وقد ورث عنه ابنه الأوسط «الطيب» الإمامة وهاجر مع أتباعه إلى اليمن ، وقد تسلسل الدعاة في اليمن أربعة قرون تقريباً ، ثم نقلوا مركز الدعوة إلى الهند .

ويحاول البهرة أن يكون طراز حياتهم فاطميًّا ، فقد كانوا أولاً في المدينة إلى أيام جعفر الصادق ثم انتقلوا إلى عدة مراكز في «سَلَمْيَة» بسوريا ، وأرادوا أن يقيموا دولة ، فأقاموها أولاً في «أبكجان» بالجزائر ، ثم بنوا عاصمتهم «المهدية» في تونس، واختاروا «المنصورية» عاصمة لهم ، ثم القاهرة ، وقد تم ذلك في عهد أربعة أئمة : المهدي بالله ، القائم بأمر الله ، المنصور بالله ، ثم المعز لدين الله الذي نقل العاصمة إلى القاهرة.

بعد المعز لدين الله ، جاء العزيز بالله ، والحاكم ، والظاهر ، والمستنصر ، والمستعلي، والآمر بأحكام الله ، والأخير هو الإمام العشرون في عداد الأئمة الفاطميين بعد علي بن أبي طالب . وابنه «الطيب» هو الحادي والعشرون ، والإمام الآمر هو الذي أمر بحمل ابنه الإمام وإبعاده عن القاهرة إلى بقعة أخفوها عن الناس ، ثم أقاموا لهم في اليمن نائباً ، فالفاطميون يعتقدون أن الأئمة من نسل الإمام الطيب ، وأن النواب والدعاة تسلسلوا من نسله إلى وقتنا هذا ، فوجود الداعي يدل على وجود الإمام . وسوف يأتي يوم يظهر فيه الإمام . يقول الأمير الدكتور يوسف نجم الدين : نحن نختلف مع الاثنى عشرية ، فالذي اختفى عندهم هو الإمام الثاني عشر والذي سيظهر بشخصه يوماً ما ، أما نحن فنقول : إن الذي اختفى هو «الطيب» وحين انتهى عمره الطبيعي خلفه ابنه إماماً ، وهكذا فنحن لانعتقد أن الإمام يعيش فوق عمره الطبيعي .

وسلاطين البهرة هم النواب ، ورتبهم الدينية هي رتبة الداعي المطلق ، واشتهروا بالسلاطين في اليمن والهند ، وهم دون الأئمة رتبة . ويدعون لهم ولايدعون لأنفسهم. والعصمة للإمام ومن ينوب عنه من الدعاة حتى لايخرج عن المذهب.

٣ - جاء في الحديث عنهم : أن العامر بالله المتوفى سنة ١١٣٠م عين قبل وفاته مجلساً للوصاية من بعض الدعاة على ورثته وهو ابنه «الطيب» كما عين أخاه «عبدالماجد» لرعاية شئون الجماعة الدنيوية نيابة عن الطيب ، ولكن بعد موت «العامر» اغتصب عبدالماجد الإمامة من ابن أخيه بمساعدة قائد الجيش ، فلما شعر أعضاء المجلس بتعرض «الطيب» للخطر أخفوه عن الأنظار ، ولم يعرف عنه شيء بعد ذلك ، واعتبروا هذا بداية عهد الستر ، وقد نشطت الدعوة في اليمن منذ أواخر القرن الحادي عشر حيث كانت مقرًّا لداعيهم ، وانتشرت عن طريق التجارة في شرقي أفريقيا وغربي الهند ، وهم مشهورون بمزاولة التجارة والثراء العظيم . ولابد أن يدفع كل بالغ مبلغاً من المال للجماعتين على دفعتين في العام ، يتناسب مع ثروته وأهمية المناسبة ، وغالباً ما يكون من ٥ -١، شلناً. يذهب جزء من المبالغ إلى خزينة السلطان ، ويحتفظ مندوبوه المعروفون بالعمال في الأقاليم بالباقي ، ويحصل كل منهم على مرتب ثابت ومقر لإقامته بالمجان، فضلاً عن مكافأة من خزينة المجلس للطائفة، ولهذا يطمع الكثيرون في هذه المناصب .

٤ - أركان الإسلام عندهم سبعة : الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والولاية، والطهارة ، وتتضمن تحريم الدخان والموسيقى والأفلام ، ويقول الأمير الدكتور يوسف نجم الدين : قولنا بالطهارة احتياط ، لأننا في وسط بيئة غير مسلمة -بالهند- وهم في صلواتهم يجمعون بين الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء ، ولايصلون الجمعة ، بل يصلونها ظهراً ، ويصلون العيد بدون خطبة أربع ركعات ، ويقدسون مأساة كربلاء لمدة عشرة أيام ، ويحتلفون بيوم «غَدِيرخُم» في يوم ١٨ من ذي الحجة حيث تمت الوصية للإمام علي ، يصومون فيه ويجددون العهد للداعي المطلق في بومباي أو الدعاة المبايعين وهم نوابه في الأقاليم ، وأتباع الداعي يطيعونه طاعة عمياء ، وهناك عهد قديم بالولاء للإمام الطيب والإمام المنتظر . والداعي المطلق عندهم معصوم في كل تصرفاته.

٥ - زعيمهم الراحل هو الدكتور : ملا صاحب أبو محمد طاهر سيف الدين، كان شاعراً، ورأس جامعة «عليكره» واهتم بالعلوم الدينية وإحياء التراث الفاطمي، وهو الداعية رقم ٥١ في سلسلة الدعاة الفاطميين ، وتولى هذه الدعوة من ١٩١٥ - ١٩٦٥م وطوَّر الدراسة في الجامعة «السيفية» في مدينة «سورت» وهي حصن الثقافة الإسلامية والعربية ، وكان يلقي محاضرات باللغة العربية في رمضان وتطبع بعنوان «الرسالة الرمضانية» . والزعيم الحالي هو الدكتور محمد برهان الدين الداعية رقم٥٢. وقد أقاموا للداعية الراحل مسجداً وضريحاً في قلب الحي التجاري في بومباي في منطقة : «بهاندي بازار» واحتفلوا بافتتاحه يوم السبت ٨ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٥هـ (٩/ ٤/ ١٩٧٥م) في شارع إبراهيم رحمه الله . ودعى إليه علماء كثيرون ، منهم الدكتور عبدالحليم محمود شيخ الأزهر ، والشيخ محمد خاطر مفتي مصر ، ومعهما الشيخان محمود خليل الحصري وعبدالباسط محمد عبدالصمد لقراءة القرآن ، والشيخ محمد الطوخي للأناشيد.

ويوجد في مكتبة السلطان ومكتبة الجامعة السيفية مخطوطات فاطمية نقلت بعد ضعف الدولة الفاطمية من مصر إلى اليمن ثم الهند ، وحافظوا عليها حتى منعوا تداولها ، ثم أباح السلطان أو الزعيم الراحل نشر بعضها .

والضريح مبني على الطراز الفاطمي حيث حضر إلى مصر مهندس منهم اسمه «يحيى مرتد» وصوَّر عدة مساجد من ذلك العهد ، والمسجد يسمى «روضة طاهرة» مساحته ثلاثة آلاف متر مربع ، عرض كل جدار إحدى وخمسون قدماً ، رمزاً لرقم الداعية المتوفى ، والارتفاع ثمانون قدماً ، رمزاً لعمره ، وغطيت جدرانه بالمرمر المضاهي لمرمر «تاج محل» من منطقة «راجستان» بالهند ، ومن مميزاته أنه يظل بارداً على الرغم من حرارة الجو ، ونقش القرآن كله على ألواح مرمرية عددها ٧٧٢ كل لوح ٣ × ٢ من الأقدام ، ورصعت البسملات بخمسة أنواع من الجواهر : الياقوت ، المرجان ، الدر ، الزمرد ، الماس . وسورة الإخلاص كلها مرصعة بالياقوت الأحمر ، واستغرق البناء ثماني سنوات منها أربع لحفر القرآن وطلائه [سنتان للحفر وسنتان للنقش والطلاء والترصيع].

المراجع :

١ - استطلاع مجلة العربي عدد سبتمبر ١٩٧٥م بقلم محمد حسني زكي.
٢ - الأهرام ٢/ ٥/ ١٩٧٥م بقلم الدكتور ياسين مراد.
٣ - مجلة المصور ٢٠/ ١/ ١٩٧٨م تحقيق أحمد أبو كف.



س : هناك جماعة يطلق عليهم اسم القاديانية ، فمن هم وما رأي الدين فيهم؟

ج : تنسب هذه النحلة إلى غلام أحمد القادياني المولود في بلدة «قاديان» سنة ١٨٣٦م وتعلّم بعض القرآن واللغة العربية . وفي سنة ١٨٧٦م مرض أبوه فزعم أحمد أن الوحي نزل عليه بأن أباه سيموت ، وكانت هذه بداية زعمه أنه نبي يوحى إليه .

عارضه العلماء كثيراً ولكنه كان تحت حماية الإنجليز فلم يمسه أحد بسوء ، توفى في ٢٦ من مايو ١٩٠٨م ودفن في قاديان . وبعد موته انقسم الأتباع إلى شعبتين : شعبة قاديان ، وشعبة لاهور التي من أكبر زعمائها «محمد علي» الكاتب الإسلامي الذي ترجم القرآن إلى الإنجليزية . ونصْف الأتباع في باكستان والباقون موزعون في سائر أنحاء العالم .

وكان من أبرز المقاومين لهذه الحركة الشاعر «محمد إقبال».

ومن أهم مبادئ هذه النحلة :

١ - ادعاء زعيمهم أن الوحي ينزل عليه كما ينزل على الأنبياء ، بل ينزل على أتباعه أيضاً .

٢ - وما دام الوحي ينزل عليه فهو نبي ، وقد صرح بذلك في خطبته الإلهامية.

٣ - ادعاء أن له معجزات تدل على صدقه.

٤ - غروره وتفضيله لنفسه على بعض رسل الله ، و جاء في كتاب «أحمد رسول العالم الموعود» : أن مسيح السلالة الإسلامية ــ غلام أحمد ــ أعظم من مسيح السلالة الموسوية ــ يعني عيسى .

٥- تكفيره لمن لم يؤمن برسالته .

٦- موالاته للإنجليز في إبطال الجهاد ضدهم .

هذا ، وشعبة لاهور تقول : إن غلام أحمد ليس نبيًّا ولكنه مجدد فقط لكن يقولون : إن عيسى ابن مريم هو ابن يوسف النجار ، وأنه لم يصلب ، بل مات في الظاهر ودفن في قبر خرج منه بعد ذلك ، وهاجر إلى الهند ، ويقال إنه توفى بها كما في دائرة المعارف الإسلامية .

وبيان بطلان مذهبهم يرجع إليه في كتابنا «دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة» والجزء الثاني من كتاب «بيان للناس من الأزهر الشريف» وقد صدرت فتوى من دار الإفتاء المصرية سنة ١٩٥٩م بأن من قال بظهور نبي بعد محمد خاتم الأنبياء والمرسلين فقد نَصَّ الفقهاء على أنه يكون مرتدًّا [١] وأكد الفتوى الإمام الأكبر الشيخ جاء الحق على جاد الحق شيخ الأزهر وقرر في إجابته على أسئلة وردت إليه من رئيس المجلس الإسلامي لجنوبي أفريقيا أن طائفة الأحمدية –وهي فرقة من القاديانية– تعتبر مرتدة عن الإسلام. وليس لها أن تدخل مساجد المسلمين ولا أن تدفن موتاها في مقابر المسلمين [٢] .

هذه نبذة بسيطة عن القاديانة ، ومن أراد الاستزادة فعليه الرجوع إلى الكتب التي أشرنا إليها وإلى كتب أخرى لأبي الحسن الندوي والشيخ محمد الخضر حسين وغيرهما .



س : ظهرت في هذه الأيام جماعة تطلق على نفسها اسم «البابية أو البهائية» فما هي المبادئ التي تقوم عليها ، وما هو موقف الإسلام منها ؟

ج : البابية نحلة ظهرت في القرن التاسع عشر الميلادي ببلاد فارس ، منسوبة إلى «الباب» ولفظ الباب متداول قديماً عند الصوفية وبعض الفرق الباطنية وله صلة

١- الفتاوى الإسلامية مجلد ٦ ص ٢١٣٣ .

٢- مجلة الأزهر عدد ذي الحجة ١٤٠٥هـ .

بحديث «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها» [1] . وقد انتحل هذا اللقب أحد الدعاة لهذه النحلة وهو «علي محمد الشيرازي» فسميت بالبابية نسبة إليه .

والبهائية هي البابية نسبت إلى «بهاء الله» وهو اللقب الذي أطلقه على نفسه أحد الزعماء الذين خلفوا الباب بعد موته وهو «حسين نوري» فسميت النحلة بالبهائية نسبة إليه .

وقبل الحديث عن مبادئها نذكر طرفاً يسيراً من تاريخها فنقول :

إن القائمين بها من غلاة الشيعة ، بدأت تتبلور على يد «أحمد الأحسائي أو البحريني» الذي كانت له مكانة في محافل العلم بكربلاء والنجف وإيران . وله مؤلفات اتهم فيها بأنه يعبد عليًّا ، وينكر البعث بالأجساد ويقول إنه روحي خالص. وكان أتباعه يسمون «الشيخية» وتوفى في العشرينيات من القرن الماضي ، فقام بدعوته «كاظم الرشتي» وبعد وفاته سنة ١٨٤٣م كان من الدعاة «ميرزا علي محمد الشيرازي» وقاومت الحكومة الإيرانية هذه الدعوة ، وبعد مناظرات مع أتباعها أعدم «الباب» سنة ١٨٥٠م في تبريز ، ثم نقل أتباعه جثته إلى عكا ودفن فيها .

وحسين نوري «البهاء» الذي خلف «الباب» نشط في الدعوة وألف عدة كتب من أشهرها : الكتاب الأقدس ، ثم توفى في عكا سنة ١٨٩٢م ودفن على سفح جبل الكرمل. وقام بالدعوة بعده ابنه «عباس أفندي» الذي توفى في العشرينيات من هذا القرن . وانقسمت الجماعة بعد ذلك ، وليس لهم من نسل هؤلاء زعيم ، إنما يدير شؤونهم أحد بيوت الدعوة التي أقاموها .

ومن أهم مبادئ هذه النحلة :

١ – الحلول ، فقد ادعى «الباب» أن الله ظهر فيه ، وكذلك ادعى «بهاء الله» الألوهية بعد ادعائه النبوة وادعاها أيضاً عباس أفندي.

٢– قدم العالم ، بمعنى أن العالم صدر عن الله صدور المعلول عن العلة كما يقول بعض الفلاسفة القدامى .

١– رواه الترمذي وحسَّنه والحاكم وصححه .

٣- عدم الاعتراف بيوم القيامة بالمعنى المعروف في الإسلام فالمقصود به ظهور المظهر الإلهي ، ويعنون بالجنة الحياة الروحية وبالنار الموت الروحاني.

٤- إنكار معجزات الأنبياء ويؤولونها بالأمور المعنوية ، وهذا مع قولهم بإمكان النبوة ، وذلك دليل على خلطهم في أفكارهم .

٥- ادعاء الوحي : ووضع كتب لمعارضة القرآن زاعمين أنها أفضل منه .

٦- عدم ختام النبوة بمحمد ﷺ ومعنى «خاتم النبيين» خيرهم كما يقول القاديانية.

٧- الإسراف في تأويل القرآن ليس عن اعتراف به ولكن لاستخدامه في الترويج لبدعتهم . ويوجد كثير من هذه التأويلات في كتاب «الدرر البهية» لأحد دعاتهم وهو «أبو الفضل الجرفادقاني».

٨ - وهناك تفريعات على عقيدتهم ، كتقديس عدد «١٩» لأنه حاصل من جُمَّل كلمة «واحد» أو كلمة «وجود» وهو حساب يهودي والسنة عندهم ١٩ شهراً ، وكل شهر ١٩ يوماً ، وحاولوا أخيراً تفسير القرآن على ضوء هذا العدد . والصلاة تسع ركعات . والقبلة حيث يكون بهاء الله ، وإبطال الحج إلى بيت الله ، بل التوصية بهدمه عند ظهور المقتدر من أتباعهم .

ويظهر من عرض هذه المبادئ أنها مزيج من أديان ونحل وآراء فلسفية مختلفة . وفيها غموض يزيد من تعقيدها ، وليست لها رسالة إصلاحية ، بل هي حركة هدامة للأديان ، استغلها الاستعمار لصالحه ، وتلتقي مع الماسونية في هدفها من سلخ الناس عن أديانهم عن طريق شعارات خداعة كخدمة الإنسانية وتحقيق الإخاء والعدالة ، وقد صرح بذلك «عباس» فقال : إنه يريد أن يوحد بين المسلمين والنصارى واليهود ، ويجمعهم على أصول ونواميس موسى عليه السلام الذي يؤمنون به جميعاً [1]. والنقد التفصيلي لهذه المبادئ لايتسع له المقام ، وقد أفتت لجنة

١- كتاب عبدالبهاء والبهائية ص ٨٧ ، ٩٣ .

الفتوى بالأزهر بأن الذي يعتنق البهائية يصير مرتدًّا عن الإسلام ، وزواجه باطل حتى لو كان ببهائية مثله ، وصدر حكم قضائي في ٣٠ من يونيه سنة ١٩٤٦م من محكمة المحلة الكبرى الشرعية بطلاق امرأة اعتنق زوجها البهائية وحكمت بأنه مرتد .

وللبهائية أتباع في كثير من الدول ، ولهم فيها محافل متعددة ، وصدر في مصر قرار جمهوري رقم ٢٦٣ لسنة ١٩٦٠م بحل محفلهم وتحريم نشاطهم [1].



س : نسمع عن قوم يعبدون الشيطان في العصر الحاضر الذي لاتخفى فيه عداوة الشيطان للإنسان ، فأين هم ، وما موقف الإسلام منهم ؟

ج : من المعلوم أن الله سبحانه وتعالى نهى عن اتباع الشيطان الذي استكبر عن أمر الله له بالسجود لآدم ، فلعنه وطرده من الجنة وأقسم هو على أن يغوي الناس أجمعين إلا عباد الله المخلصين ، ومن ضمن النصوص التي وردت في النهي عن اتباعه وعبادته قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] وقوله على لسان إبراهيم لأبيه ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴾ [مريم : ٤٤] . وقد ظهرت جماعة في العراق لهم أسماء عربية يزعمون أنهم مسلمون ولكنهم يعبدون الشيطان ، ومنهم من يسمّون «اليزيدية» - وعقيدتهم خليط من مواد وثنية قديمة ، مواد إيرانية زرادشتية ويهودية ونصرانية وإسلامية ، ويطلق عليهم أيضاً عبدة الطاووس الذي يرمزون به إلى الشيطان ، فهو في زعمهم طاووس الملائكة . وبالتالي يستنكرون لعن إبليس في القرآن .

١- راجع كتابنا (دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة) ورسالتنا (البابية والبهائية) تاريخاً ومذهباً.

تقول الدكتورة آمنة نصير في كتابها عن هؤلاء : إنهم يقدسون حسين بن منصور المعروف بالحلاج الصوفي ، وأقاموا له ضريحاً وصنعوا له تمثالاً سّموه «سنجق الحلاج» . كما جاء فيه أن عبادة الشيطان ظهرت أولاً في الغرب وتأسست في فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا سنة ١٩٦٦م كنيسة الشيطان ، ولها فروع في بلاد كثيرة ومبشرون بها في العالم . ونشر مؤسسها كتاباً لعبدة الشيطان سماه «الإنجيل الأسود» سنة ١٩٦٩م بعدة لغات ، وشاع في أتباع هذه العقيدة الفسق والفجور.

وتقول مؤلفة الكتاب : إن لعبادة الشيطان مصدراً آخر وهو إسرائيل التي كثرت في كنائسها منكرات أخلاقية تأثر بها المجاورون من الدول العربية [1].

وهناك بحث لمصطفى محمود عن عبادة الشيطان في أهرام ٢٢ مارس ١٩٩٧م يؤكد أن لها أصولاً يهودية من التوراة المحرفة.



س : نسمع عن إخوان الصفا وأن لهم رسائل فمن هم هؤلاء وهل هم مسلمون؟

ج : إخوان الصفا جماعة دينية سرية عنيت بالسياسة والفلسفة ، ويرجح بعض الكاتبين أنهم من الشيعة الباطنية وكانوا حريصين على إخفاء نسبتهم إليها وقد ظهرت بالبصرة في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي «الرابع الهجري» وسموا أنفسهم «إخوان الصفا وخلّان الوفا وأهل العدل وأبناء الحمد».

وزعموا أن جماعتهم تجمعت بالعشرة وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنه يقربهم إلى فوز برضوان الله ، وقالوا : لاسبيل إلى إصلاح الشريعة إلا بالفلسفة ، كتبوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة العلمية والعملية ونشروها بين الناس دون أن

١- انظر مجلة منبر الإسلام عدد شعبان سنة ١٨١٤هـ.

يصرحوا بأسمائهم ، وفيها ضروب من المعارف محشوة بخرافات وكنايات وتلفيقات بين الفلسفة والأحاديث التي تحشى في طياتها حشواً بلا اتساق وتعاليمهم فيها لاتتقيد بواجبات الشريعة ، وإن كانت آراؤهم الطبيعية والعلمية دقيقة إلى حد كبير وتنقسم رسائلهم إلى أربعة أقسام : الرياضيات ، الجسمانيات أو الطبيعيات ، النفسيات أو العقليات ، الناموس أو الإلهيات . إلى جانب الرسالة الجامعة التي توضح وتجمع كل مسألة تعرضت لها الرسائل الأصلية ، كما ذكر الكاتبون أسماء مؤلفيها الخمسة ، لكن لاتهمنا معرفتهم.



الجن

س : نريد توضيحاً لعالم الجن ، وهل يمس الإنسان بِشَرٍّ ؟

ج : ١- الجن -كما يقول الدميري في كتابه «حياة الحيوان الكبرى»- أجسام هوائية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة . لها عقول وأفهام وقدرة على الأعمال الشاقة.

٢- وهم خلق موجودون بالنصوص الثابتة في القرآن والسنة ، وبالإجماع ، والعقل لايحيل ذلك .

٣ - وهم أصناف ، فقد روى الطبراني بإسناد حسن عن أبي ثعلبة الخشنى أن النبيﷺ قال «الجن ثلاثة أصناف ، فصنف لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء ، وصنف حيَّات ، وصنف يَحُلُّون ويظعنون» أي يمشون ويتحركون [1]. وجاء في حديث رواه ابن أبي الدنيا عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «خلق الله الجن ثلاثة أصناف ، صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض ، وصنف كالريح في الهواء ، وصنف كبني آدم ، عليهم الحساب والعقاب».

وإذا كان اسم الجن يطلق على الهوام المؤذية فيمكن فهم هذا الحديث بسهولة ، وهو ما رواه مسلم أن النبي ﷺ نهى عن إرسال الأطفال بعد غروب الشمس إلى العشاء ، لأن الشياطين تنبعث في هذه الفترة . وكذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أبي لبابة رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهى عن قتل الجِنَان التي في البيوت إلا الأبتر وذا الطُّفيتين ، فإنهما اللذان يخطفان البصر ويطرحان أولاد النساء . والطفيتان -بضم الطاء- الخطان الأبيضان على ظهر الحية . والأبتر قصير الذَّنب . وقال النضر بن شميل : هو صنف من الحيات أزرق مقطوع الذنب ، ولاتنظر إليه حامل إلا ألقت ما في بطنها [2] .

١- وكذلك رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

٢- حياة الحيوان ــ للدميري .

٤ – والجن مستترون ، وقد يتشكلون بأشكال مختلفة ، وتحكم عليهم الصورة كما قال العلماء ، قال تعالى ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف:٢٧]. وقد تشكل شيطان في صورة لص أراد أن يسرق من الصدقة التي كان يحرسها الصحابي ، ولما أخبر النبيَّ به عرَّفه أنه شيطان [1] .

وهم من ذرية إبليس على المشهور ، قال تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ ﴾ [الكهف : ٥٠] .

٥ – الجن مكلفون كالبشر ومحاسبون على أعمالهم كما يحاسب بنو آدم ، وجاء ذلك في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنعام:١٣٠] وقوله ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ [الرحمن : ٣١] وقد ثبت أنهم سمعوا القرآن من النبي ﷺ ، وأن منهم من آمن ومنهم من كفر ، قال تعالى ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ ﴾ [الجن : ٢،١] وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٢٩] وقال على لسانهم ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ [الجن : ١١] وثبت في الحديث أن النبي ﷺ ذهب إليهم وتحدث معهم . ففي صحيح مسلم أنه قال « أتاني داعي الجن فذهبت معه ، فقرأت عليهم القرآن» وفيه أنهم سألوه الزاد فقال «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه ، تأخذونه فيقع في أيديكم أوفر ما كان لحماً، وكل بَعْرٍ علَفٌ لدوابكم» ثم قال النبي ﷺ لأصحابه «فلاتستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم».

٦ – إن عدم رؤيتنا للجن إنما هو في رؤيتهم على حقيقتهم ، وقد يخص الله نبيه بأن يراهم كذلك أحياناً ، وقد قيل : إنه لم يرهم في أول الأمر ولم يحس بأنهم

١– رواه البخاري .

يستمعون القرآن منه ، والله هو الذي أخبره بأنهم يستمعون ، ثم بعد ذلك رآهم وكلمهم حين ذهب إليهم ، إمَّا على حقيقتهم وإما بأشكال أخرى ، وذلك ممكن لغير النبي ﷺ كما سبق ذكره في رؤية أبي هريرة له وهو يريد أن يسرق من زكاة رمضان ، وروى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال : «إن عفريتاً من الجن تفلَّت عليَّ البارحة يريد أن يقطع عليَّ صلاتي ، فَذُعْتُه -أي خنقته- وأردت أن أربطه في سارية من سواري المسجد ، فذكرت قول أخي سليمان ، فأطلقته» وجاء في رواية مسلم قوله «والله لولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة» كما جاء في رواية النسائي بإسناد جيد أنه خنقه حتى وجد برد لسانه على يده.

٧ - إن إبليس أقسم حين طرد من الجنة أن يُغْوي الناس أجمعين إلا عباد الله المخلصين ، وقد حذرنا الله منه بمثل قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] وقوله تعالى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٠] .

وثبت أن كل إنسان يُوَكَّل به شيطان يطلق عليه اسم القرين . ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال «ما منكم من أحد إلا وقد وكِّل به قرينه من الجن» قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال «وإياي ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير».

٨ - والشيطان كما يضر الإنسان بالإغواء والفتنة ، يمكنه أن يؤذيه بأي نوع من الأذى الحسي أو المعنوي ، شأن الإنسان مع الإنسان ، وإذا ثبت أن منهم الكافرين والمؤمنين ، وأن منهم الطائعين والعاصين ، كما جاء في قوله تعالى ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ فإن العقل لايحيل أن يؤذي الجن الإنس بأي أذى ، وليس هناك دليل صحيح يحيل هذا الأذى ، فالجن قد سرق من الزكاة كما سبق وهو يشارك الإنسان في الطعام وغيره ، ولذلك حثنا النبي ﷺ أن نسَمِّي الله عند الأكل وعند دخول البيت ، بل عند إرادة اللقاء مع الزوجة.

٩- واتقاء شره في الوسوسة يكون بمثل ما جاء في قوله تعالى ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] كما يستعان عليه بقوة الإيمان بالله والمواظبة على العبادة والسلوك الحسن ، حتى يكون الإنسان من عباد الله المخلصين ، الذي نجاهم الله من سلطان إبليس .

١٠ - والمسألة التي يسأل عنها كثيراً هي : هل يستطيع الجن أن يلبس جسم الإنسان ويصيبه بما يسمى الصرع ؟

الجواب : أنه لايوجد دليل صحيح يمنع ذلك ، وقال بعض الناس : إن ذلك ممنوع ، لأن طبيعة الجن النارية لايمكن أن تتصل بطبيعة الإنس الترابية أو تلبسها وتعيش معها ، وإلا أحرقتها ، لكن هذا الاحتجاج مردود ، لأن الطبيعة الأولى للجن والإنس ذهبت عنها بعض خصائصها ، بدليل الحديث السابق في إمساك الرسول للعفريت وخنقه وإحساسه ببرد لعابه على يده ، فلو كانت طبيعة النار باقية لأصابت يده الشريفة ﷺ ، ولاشتعل البيت والمكان والملابس ناراً إذا أوى إليها الشيطان عندما لم يسم الإنسان عند دخول البيت والأكل من الطعام .

وفي هذا يقول ابن القيم في كتابه زاد المعاد في «الطب» : الصرع صرعان ، صرع في الأرواح الأرضية الخبيثة ، وصرع من الأخلاط الرديئة ، والثاني هو الذي يتكلم فيه الأطباء ، في سببه وعلاجه ، وأما صرع الأرواح فأئمتهم وعقلاؤهم يعترفون به ولايدفعونه ، ويعترفون بأن علاجه بمقابلة الأرواح الشريفة الخيرة العلوية ، لتلك الأرواح الشريرة الخبيثة ، فتدع آثارها وتعارض أفعالها وتبطلها ، ثم يقول ابن القيم: لاينكر هذا النوع من الصرع إلا من ليس له حظ وافر من معرفة الأسرار الروحية . وأورد بعض الحوادث التي حدثت أيام النبي ﷺ وأثر قوة الروح وصدق العزيمة في علاجها ، وأفاض في النَّعي على من ينكرون ذلك .



س : إذا كان الجن منهم مؤمنون ومنهم كافرون ، فما هي العبادة التي يقوم بها المؤمنون منهم ؟

ج : تحدث العلماء عن ممارستهم للعبادة كالصلاة ، بناء على أخبار شخصية من لقاء بعض الجن وهم يصلون ، وهذه لايثبت بها حكم شرعي ، فلم يرد ببيان عبادتهم نص صحيح لأن الجن من عالم الغيب الذي لايعرف إلا بالخبر الموثوق به ، والكلام في ذلك كثير أورده الشبلي في كتابه (آكام المرجان) ويمكن الرجوع إليه .

لكن في شرح الزرقاني على المواهب اللدنية [1] ، أن الجن مكلفون بالتوحيد وأركان الإسلام.



س : ما الفرق بين الجن والشيطان وإبليس ، ولماذا خلقهم الله سبحانه ؟

ج : جاء في تفسير القرطبي لسورة الجن أن أهل العلم اختلفوا في أصل الجن ، فقال الحسن البصري : إن الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، و من هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون ، وهم شركاء في الثواب والعقاب ، فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولي الله ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان .

وقال ابن عباس : الجن هو ولد الجان ، وليسوا بشياطين وهم يموتون ومنهم المؤمن ومنهم الكافر ، والشياطين هم ولد إبليس لايموتون إلا مع إبليس . انتهى.

وجاء في تفسير سورة الناس أن قتادة قال : إن من الجن شياطين وإن من الإنس شياطين ، وهو يعزز رأي الحسن البصري المذكور -قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

وجاء في «حياة الحيوان الكبرى» للدميري عن الجن أن المشهور أن جميع الجن من ذرية إبليس وقيل : الجن جنس وإبليس واحد منهم ولاشك أن الجن ذريته

١- ج٥ ص ٢٦٩ .

بنص القرآن الكريم . يريد قوله تعالى ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ [الكهف : ٥٠] ومن كفر من الجن يقال له شيطان .

وجاء في «آكام المرجان في أحكام الجان» (١) أن الجن تشمل الملائكة وغيرهم من اجتنَّ -أي استتر- عن الأبصار، قال تعالى ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗا﴾ [الصافات : ١٥٨] لأن المشركين ادعوا أن الملائكة بنات الله وقال : الشياطين هم العصاة من الجن وهم ولد إبليس ، والمردة هم أعتاهم وأغواهم يقول الجوهري : كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان ، والعرب تسمي الحية شيطاناً.

هذا ما قيل عن الجن والشيطان وإبليس ، أما الحكمة من خلقهم فهي امتحان بني آدم هل يستجيبون لأمر الله أو لأمر الشيطان ، وإيمان المؤمن لاتكون له قيمته إذا كان نابعاً منه ذاتيًّا بحكم أنه خلق مؤمناً كالملائكة ، فإن استقر الإيمان بعد الانتصار في معركة الشيطان الذي أقسم أن يغوي الناس أجمعين -كان جزاء هذا المؤمن عظيماً، لأنه حصل بتعب وكد ومجاهدة دفع بها أجر الحصول على تكريم الله له. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

والحياة الدنيا لابد فيها من معركة بين الخير والشر ، لتتناسب مع خلق الله لآدم على وضع يتقلب فيه بين الطاعة والمعصية ، وقد تزعَّم الشيطان هذه المعركة انتقاماً من آدم الذي طرد الشيطان من الجنة بسبب عدم السجود له . فقال كما جاء في القرآن الكريم.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف : ١٦ ، ١٧] وحذر الله الإنسان من طاعة الشيطان فقال ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يس : ٦٠] وقال ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر : ٦] .

---

١ - للمحدث الشبلي «ص٦» .

فمجاهدة الشيطان بعصيانه لها ثواب ، ووجوده يساعد على الحركة القائمة على المتقابلات والحركة سر الحياة ، وقد سئل أحد العلماء : لماذا خلق الله إبليس ؟ فقال: لنتقرب إلى الله بالاستعاذة منه وعصيانه ، فكل خير فيه شر ولو بقدر.



س : في القرآن إن الله أجاب إبليس بعدم الموت قبل يوم القيامة ، فهل ذريته كذلك لايموتون ؟

ج : يقول الله تعالى لما طرد إبليس من الجنة ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾ [ص : ٧٩ - ٨١] وقال مثل ذلك في آيات أخرى تدل على أن إبليس لايموت إلا يوم القيامة الذي يموت فيه كل كائن حي ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن:٢٦ ، ٢٧] .

أما ذرية إبليس فيموتون كما يموت بنو آدم ، ولكل أجل طال أو قصر ، وذلك لما يأتي :

١ - أنه لايوجد دليل على أنهم منظرون كإبليس ، فيصدق عليهم ما يصدق على كل كائن حي.

٢ - قوله تعالى عن الكفار ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ [الأحقاف : ١٨] فهناك أمم سبقت من الجن والإنس ، أي ماتت.

٣ - وردت أخبار عن جن ماتوا ودفنوا وكان بعضهم ممن لقى النبي ﷺ [١] .

٤ - وردت آثار تدل على أن ابن عباس رضي الله عنه سئل عن موت الجن فقال : يموتون إلا إبليس [٢] .



١- آكام المرجان للمحدِّث الشبلي ص ٣٨ ـ ٤٤ .
٢- المرجع السابق ص ١٥٢ .

س : هل يثاب الجن المؤمنون بدخول الجنة كالإنس ؟

ج : تحدث الشبلي المتوفى سنة ٧٦٩هـ في كتابه «آكام المرجان في غرائب الأخبار وأحكام الجان» (١) عن ثواب الجن على أعمالهم ، وذكر أن العلماء ، اختلفوا في ذلك على قولين ، الأول : أنه لاثواب لهم إلا النجاة من النار ، ثم يقول الله لهم : كونوا تراباً مثل البهائم ، وهو قول أبي حنيفة كما حكاه عنه ابن حزم وغيره. والقول الثاني: أنهم يثابون على الطاعة ويعاقبون على المعصية ، وهو قول مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ، بناء على نصوص عامة مثل ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأحقاف:١٩] ومثل ما ورد في سورة الجن.

ثم ذكر الشبلي أن العلماء اختلفوا في ثواب المؤمنين من الجن هل يكون بدخولهم الجنة ؟ وأورد في ذلك أربعة أقوال : أحدها : أنهم يدخلونها ، وعليه جمهور العلماء(٢) لكنهم اختلفوا : هل يأكلون فيها ويشربون ؟ فقال بعضهم : لايأكلون ولايشربون ، بل قال بعضهم : إنهم مع ذلك نحن نراهم وهم لايروننا فيها ، على عكس ما كانوا عليه في الدنيا . والقول الثاني : أنهم لايدخلون الجنة ، بل يكونون في ربضها ، وهذا القول مأثور عن مالك والشافعي وأحمد وبعض أصحاب أبي حنيفة ، والقول الثالث: أنهم على الأعراف -أي بين الجنة والنار- والقول الرابع : الوقف - أي عدم الحكم على ذلك .

ثم ذكر الشبلي أدلة القول الأول وما استند إليه أصحاب الأقوال الأخرى وناقشها ، وتطرق الحديث : إذا أدخلوا الجنة هل يرون الله ؟ ويمكن لمن أراد الاستزادة أن يرجع إلى هذا الكتاب ، مع التنبيه على أن هذا الموضوع ليس من العقائد التي نكلف بها ، وليس من الأهمية بمكان في الظروف التي يعيشها المسلمون الآن.



١- ص ٥٥ ـ ٦٠ .

٢- لعموم قوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن : ٤٦] بعد قوله : ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الرحمن : ٣٣] ولحديث «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».

س : هل بلقيس ملكة سبأن من نسل الجن ؟

ج : جاء في تفسير القرطبي كلام كثير في هذه المسألة [1] ، وخلاف في كون سليمان تزوجها أو لم يتزوجها ، وأن أباها هو «السرح» لم يتزوج من أهله في اليمن لعدم الكفاءة فزوجوه امرأة من الجن يقال لها «ريحانة بنت السكن» فولدت له «بلقمة» وهي بلقيس ، ولم يكن له ولد غيرها . وقال أبو هريرة قال النبي ﷺ «كان أحد أبوي بلقيس جنيًّا» وقال أبو بكرة : ذكرت بلقيس عند النبي ﷺ فقال «لايفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» [2] ثم قال: قال الماردي : والقول بأن أم بلقيس جنية مستنكر من العقول لتباين الجنسين واختلاف الطبيعتين وتفارق الحسّين .. و يستحيل التناسل مع هذا الاختلاف . قال محقق تفسير القرطبي : هذا هو الحق ، وما يحيله العلم يحيله العقل . قال القرطبي : قد مضى القول في هذا ، والعقل لايحيله مع ما جاء من الخبر في ذلك . وإذا نظرت في أصل الخلق فأصله الماء ، ولابُعْدَ في ذلك والله أعلم.



س : هناك بعض الأفكار الخبيثة من الشيطان ، مثل القول بأن لكل شيء خالقاً ، فمن خلق الله ؟ وكيف يكون خلقه ؟ فلماذا تأتي مثل هذه الأفكار الشيطانية لعقل الإنسان ؟ وهل يؤاخذ عليها ؟

ج : عقل الإنسان معرض لتوارد أفكار كثيرة عليه ، أطلق عليها علماء التصوف والأخلاق بعض أسماء ، مثل : الهاجس والخاطر وحديث النفس وما إلى ذلك ، والله لايعاقب ولايؤاخذ إلا إذا وصلت الأفكار إلى مرحلتي الهم والعزم ، وقد صح في الحديث «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تعمل أو تتكلم».

وبخصوص ما جاء في السؤال روى مسلم أن النبي ﷺ قال «يأتي الشيطان أحدكم فيقول له : من خلق كذا وكذا ؟ حتى يقول له : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ

١- ج١٣ ص ٢٠٨ وما بعدها .
٢- رواه البخاري والنسائي والترمذي .

ذلك فليستعذ بالله ولِيَنْتَه» وفي مسلم أيضاً حديث : سئل النبي ﷺ عن ذلك فقال «ذاك صريح الإيمان» أي جزعكم وخوفكم عن هذه الوسوسة دليل على صحة إيمانكم، والنهي عن الانتهاء عن الخواطر المذكورة معناه الانتهاء عن الركون إليها والتأثر بها.



س : هل هناك أدعية عن الرسول ﷺ للتخلص من وسوسة الشيطان ؟

ج : قال الله تعالى ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] وروى البخاري ومسلم أن الرسول ﷺ قال لرجل غضب وأخذ يسب أخاه «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وروى مسلم أن عثمان بن أبي العاص الثقفي قال لرسول الله ﷺ: إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها عليّ ، فقال له «ذاك شيطان يقال له «خنزب» فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه ، واتْفُلْ عن يسارك ثلاثاً» قال : ففعلت فأذهبه الله عني . وهناك وسائل غير الاستعاذة ذكرها الشبلي في «آكام المرجان» منها:

١- قراءة المعوذتين ، روى الترمذي أن الرسول ﷺ كان يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فأخذ بهما وترك ما سواهما [١] .

٢ - قراءة آية الكرسي ، بدليل الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : وكّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته ، فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ فقال : أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ قلت : ما هي ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ هذه الآية «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» حتى ختم الآية ، فإنه لن يزال عليك حافظ من الله تعالى ولايقربك شيطان حتى تصبح . فقال النبي ﷺ «ما فعل أسيرك الليلة»؟

١- والحديث حسن غريب ، أي رواه راوٍ واحد فقط .

قلت: يا رسول الله علّمني شيئاً زعم أنه لايقربني حتى أصبح ، ولايزال عليّ من الله تعالى حافظ . قال «أما إنه قد صدقك وهو كذوب ...» وجاءت روايات أخرى في مثل هذا الموضوع.

٣ - التسمية عند الأكل والجماع ودخول البيت وغير ذلك ، فإنها تبعد الشيطان.



س : ما حكم الدين فيمن يقومون بتسخير الجان ؟

ج : يلجأ السحرة إلى تسخير الجان عن طريق المندل وغيره ، وتسخيرهم أو تحضير أرواحهم ممكن ، فقد سخرهم الله لسيدنا سليمان ، وقد سبق الكلام كثيراً عن حكم السحر وأنه معدود من الكبائر ، في حديث «اجتنبوا السبع الموبقات» وهناك خلاف في تعلمه خشية استعماله في الضرر ، ورأي يجيزه من باب العلم بالشيء ، ليفرق به بين السحر والمعجزة ، ويمكن العلاج به واستخدامه في الخير ، أما ممارسته فهي حرام في الشر ، قال تعالى : ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾[البقرة : ١٠٢] .



س : هل ذرية إبليس نتجت عن زواج ، و هل في الجن ذكر وأنثى ؟

ج : يقول الله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ﴾ [الكهف : ٥٠] تفيد هذه الآية الكريمة أن إبليس له ذرية ، ولكن كيف أتت هذه الذرية ؟ ومع أن معرفة الجواب ليست مهمة لكن العلماء شغلوا أنفسهم به ، فنقلوا من الأقوال ما نقلوا واستنبطوا ما شاء لهم الاستنباط وذكر القرطبي حديثاً في ذلك قال إنه صحيح وهو «لاتكن أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها ، فبها باض

الشيطان وفرّخ»[1] وإذا كان هذا الحديث يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه كما قال القرطبي وهو موافق لما جاء في الآية الكريمة فإن عبارة «باض الشيطان وفرخ» ليست نصًّا قاطعاً في أن الذرية نتجت عن وضع الشيطان للبيض ثم التفريخ كما يحدث للطيور ، فقد يكون المارد ذرية إبليس يكثر وجودها في الأسواق من أجل الإفساد.

يقول القشيري أبو نصر : والجملة أن الله تعالى أخبر أن لإبليس أتباعاً وذرية وأنهم يوسوسون إلى بني آدم وهم أعداؤهم ، ولايثبت عندنا كيفية في كيفية التوالد منهم وحدوث الذرية عن إبليس ، فيتوقف الأمر فيه على نقل صحيح . انتهى ، وهذا هو الكلام الصحيح . يقول الشعبي : سألني رجل فقال : هل لإبليس زوجة؟ فقلت : إن ذلك عرس لم أشهده . ثم ذكرت قوله تعالى ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ﴾ فعلمت أنه لاتكون ذرية إلا من زوجة ، فقلت نعم.

وينقل القرطبي [2] ، عن مجاهد أن إبليس أدخل فرجه في فرج نفسه فباض خمس بيضات ، فهذا أصل ذريته ، وقيل : إن الله تعالى خلق له في فخذه اليمنى ذكراً ، وفي اليسرى فرجاً ، فهو ينكح هذا بهذا ، فيخرج له كل يوم عشر بيضات ، يخرج من كل بيضة سبعون شيطاناً وشيطانة ، فهو يخرج وهو يطير .. ذلك بعض ما في الكتب وغيره كثير مما أربأ بالمسلمين اليوم أن يعنوا به.



١- ذكره الحميدي في الجمع بين الصحيحين عن الإمام أبي بكر الباقلاني أنه خرجه في كتابه عن سلمان عن النبي ﷺ .

٢-ج١٠ ص ٤٢٠ .

فهرس الجزء الثاني

الرسل
(٤١٣ - ٦٩٩)

محمد ﷺ

(٤٩٨ - ٦٩٩)

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة الموضوع الصفحة

اليوم الآخر
(٧٠٠ - ٨٨١)

الموضوع	الصفحة